

# زهر الآداب وثمار الألباب

## الْخُصْرِي

من مشاهير كتب الأدب، ويضم البضاعة الأدبية الشرقية الثانية، بعد البضاعة الشرقية الأولى التي اشتمل عليها كتاب العقد الفريد وهو كتاب يتصرف الناظر فيه من نثره إلى شعره

## نسخ وترتيب مكتبة مشكاة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم  
الحمد لله الذي اختصَّ الإنسانَ بفضيلةِ البيانِ، وصلىَّ الله على محمدٍ خاتمِ النبيين، المرسل بالنور المبين، والكتابِ المستبين، الذي تحدَّى الخلقَ أنْ يأتوا بمثله فعجزوا عنه، وأقروا بقضله، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً.  
وبعد؛ فهذا كتابٌ اخترتُ فيه قطعةً كاملةً من البلاغات؛ في الشعر والخبر، والفصول والفقر، ممَّا حسنَ لفظه ومعناه، واستدللَّ بقواه على معرَّاه، ولم يكن شارداً خوَّشياً، ولا ساقطاً سوقياً، بل كان جميع ما فيه، من ألفاظه ومعانيه، كما قال البحرى الخفيف:

في نظام من البلاغة ما شَرَّ  
حُزْنَ مُسْتَعْمَلِ الكلامِ  
اختياراً  
وَرَكِبْنَ اللَّفْظَ القريب فأدرِكْ  
نَ به غاية المُرَادِ التَّعْيِيدِ  
ك أَمْرُو أَنَّهُ نِظَامُ قَرِيدِ  
وَتَجَبَّنَ ظُلْمَةَ التَّعْقِيدِ

ولم أذهب في هذا الاختيار إلى مطولات الأخبار، كأحاديث صَعْصَعَةَ بن صُوْحَانَ، وخالد بن صَفْوَانَ، ونظائرهما؛ إذ كانت هذه أجملَ لفظاً، وأسهلَ حفظاً.  
وهو كتابٌ يتصرف الناظر فيه من نثره إلى شعره، ومطبوعه إلى مصنوعه، ومحاورته إلى مفاخرته، ومثاقلته إلى مساجلته، وخطابه المبهت إلى جوابه المُسَكِّت، وتشبيهاته المُصَيِّبة إلى اختراعاته الغريبة، وأوصافه الباهرة إلى أمثاله السائرة، وجِدِّه المعجب إلى هزلِهِ المُطْرِب، وجَزْلِهِ الرائع إلى رقيقه البارِع.  
وقد نزعتُ فيما جمعت عن ترتيب البيوت، وعن إبعاد الشكل عن شكله، وإفراد الشيء من مثله؛ فجعلتُ بعضه مُسَلِّسلاً، وتركْتُ بعضه مُرْسَلًا؛ ليحصل مُخَرَّر النَّقْدِ، مُقَدَّر السُّرْدِ؛ وقد أخذ يطرُقُ التَّأليفَ، واشتمل على حاشيَّتي التَّصنيفِ؛ وقد يَعُرُّ المعنى، فالحقُّ الشَّكْلَ بنظائره، وأعلق الأول بأخره، وتبقى منه بقية أفزقها في سائره؛ ليسلمَ من التطويل الممل، والتقصير المخلِّ، وتظهر في التجميع إفادته الاجتماع؛ وفي التفريق لَدَاةَ الإمتاع، فيكمل منه ما يُوقِنُ القلوبَ والأسماع؛ إذ كان الخروجُ من جدِّ إلى هزلٍ، ومن حَزْنٍ إلى سَهْلٍ أنقى للكَلِّ، وأبعَدَ من المَلِّ؛ وقد قال إسماعيل بن القاسم هو أبو العنابية: البسيط:

لا يُصْلِحُ النَّفْسَ إِذْ كَانَتْ  
مُدَابِرَةً  
إِلَّا التَّنَقُّلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ

وكان السبب الذي دعاني إلى تأليفه، وتبديني إلى تصنيفه، ما رأيته من رغبة أبي الفضل العباس بن سليمان - أطال الله مُدَّتَه، وأدام نعمته! - في الأدب، وإنفاق عمره في الطلب وماله في الكتب؛ وأنَّ اجتهاده في ذلك حمله على أن ارتحلَ إلى المشرق بسببها، وأغمَصَ في طلبها، باذلاً في ذلك ماله، مستعذباً فيه تعبهُ، إلى أن أورد من كلام بلغاء عصره، وفصحاء دهره، طرائف طريفة، وغرائب غريبة، وسألني أن أجمعَ له من مُختارها كتاباً يكتفي به عن جملتها، وأضيف إلى ذلك من كلام المتقدمين ما قاربه وقارنه، وشابهه ومثله؛ فسارعتُ إلى مراده، وأعنته على اجتهاده، وألَفْتُ له هذا الكتاب، ليستغني به عن جميع كتب الآداب، إذ كان موشحاً من بدائع البديع، ولآئى الميكالي، وشهية الخوارزمي، وغرائب الصاحب، ونفيس قايوس، وشذور أبي منصور بكلامٍ يمتزجُ بأجزاء النفس لطافةً، وبالهواء رقةً، وبالماء عذوبةً.

وليس لي في تأليفه من الافتخار، أكثر من حُسن الاختيار؛ واختيار المرء

قطعة من عقله، تدلُّ على تخلفه أو فضله؛ ولا شك - إن شاء الله - في استجادة ما استجدت، واستحسان ما أُورِدت؛ إذ كان معلوماً أنه ما انجذبت نفسٌ، ولا اجتمع حسنٌ، ولا مال بيِّرٌ، ولا جال فكِّرٌ، في أفضلٍ من معنَى لطيفٍ، ظهر في لفظٍ شريفٍ؛ فكسَّاه من حسن الموقع، قبولاً لا يُدفع، وأبرزه يَحْتالُ من صفاء السبك ونقاء السلك، وصحة الدِّباجة، وكثرة المائبة، في أجمل حُلة، وأجلى حلية الكامل:

يستنبط الروح اللطيف      أَرَجَا، ويؤكل بالضمير  
نسيمه      ويُشربُ

وقد رغبتُ في التجافي عن المشهور، في جميع المذكور، من الأسلوب الذي ذهبُ إليه، والنحو الذي عوَّلتُ عليه؛ لأنَّ أوَّل ما يقرع الآذان، أدعى إلى الاستحسان، ممَّا مَجَّته النفوسُ لطول تكراره، ولقَطَّته العقولُ لكثرة استمراره؛ فوجدت ذلك يتعدَّر ولا يتيسر، ويمتنع ولا يتسع؛ ويوجب ترك ما يَدر إذا اشتهر؛ وهذا يوجب في التصنيف دَحْلاً، ويكسب التأليف حَللاً؛ فلم أُعْرَضَ إلاَّ عمَّا أهانه الاستعمال، وأداله الابتذال، والمعنى إذا استدعى القلوبَ إلى حِفْظِهِ، ما ظهر من مُسْتَحْسِن لفظه؛ من بارع عبارة، وناصع استعارة، وعُدُوْبَةٍ مورِد، وسهولة مَفْصِد، وحسن تفصيل، وإصابة تمثيل؛ وتطابق أُنحاء، وتجانس أجزاء، وتمكَّن ترتيب، ولطافة تهذيب، مع صحة طبع وجوده إيضاح، يثقفه تثقيف القِداح، ويصوره أفضلَ تصوير، ويقدره أكملَ تقدير؛ فهو مشرق في جوانب السمع، لا يُخلِّقه عَوْدُهُ على المستعيد: الكامل:

وَهُوَ الْمُشْتَبِعُ بِالمسامع إن      وَهُوَ المضاغفُ حُسْنُهُ إن  
مَصَى      كَرَّرَا

وإن كنتُ قد استدركتُ على كثير ممن سبقني إلى مثل ما جَرِيْتُ إليه، واقتصرت في هذا الكتاب عليه، لِمُلْح أُورِدتها كتَوَافِتِ السَّخَر؛ وِفَقَر نظمتها كالغنى بعد القفر، من أَلْفاظِ أَهْلِ العَصْرِ، في محلول النثر، ومعقود الشعر؛ وفيهم من أدركته بَعْمَرِي، أو لحقه أَهْلُ دَهْرِي؛ ولهم من لطائف الابتداع، وتوليدات الاختراع، أبكار لم تَفْتَرَعُهَا الأسماع، يصبو إليها القلبُ والطرفُ، ويُقَطِر منها ماءُ المَلاحةِ والطرفِ، وتمتَزجُ بأجزاء النفس، وتسترجع نَافِرَ الأنس، تخللتُ تضاعفه، ووشحتُ تأليفه، وطرَّزت ديباجه، ورصَّعت تاجه، وتظلمت عقوده، ورقمت بُرودَه؛ فنوَّرها يَرف، ونوَّرها يثيف، في روضٍ من الكلم مُونِقٍ، ورَوَّتق من الحكم مشرق الطويل:

صفا ونفى عنه القَدَى فكأنه      إذا ما استشفَّته العيون  
مُصَعَّدُ

فهو كما قلت السريع:

بديع نثر رِقٍّ حَتَّى عَدَا  
مِنْ مُذْهَبِ الْوَشْيِ عَلَى  
وَجْهِهِ  
يَجْرِي مَعَ الرُّوحِ كَمَا تَجْرِي  
دِيبَاجُهُ لَيْسَتْ مِنَ الشُّعْرِ

كزهرة الدنيا وقد أقبليت  
أو كالنسيم العَصَّ غَبَّ الْحَيَا  
تَرُودُ فِي رَوْتَقِهَا النَّصْرُ  
يَحْتَالُ فِي أَرْدِيَةِ الْقَجْرِ  
ولعل في كثير مما تركت، ما هو أجود من قليل مما أدركت؛ إذ كان اقتصاراً من كل  
على بعض، ومن قيض على بَرَضٍ، ولكنني اجتهدت في اختيار ما وجدته؛ وقد تدخل  
اللفظة في شفاة اللفظات، ويمر البيت في خلال الأبيات، وتعرض الحكاية في عرض  
الحكايات، يتم بها المعنى المراد، وليست ممَّا يُسْتَجَاد، ويبعث عليها قَرطُ الضرورة  
إليها في إصلاح خَلَل؛ فمهما تره من ذلك في هذا الاختيار، فلا تعرض عنه بطرف  
الإنكار؛ وما أقل ذلك في جميع المسالك الجارية في هذا الكتاب، الموسوم بزهر  
الآداب، وثمر الألباب، لكنني أردت أن أشارك من يخرج من ضيق الاعتزاز، إلى فسحة  
الاعتذار الكامل:

ويسئ بالإحسان ظناً، لا  
كمن  
يَأْتِيكَ وَهُوَ بِشِعْرِهِ مَفْتُون

والله المؤيد والمسدد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.  
"إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِيَسْحَرًا".

روى عن عبد الله بن عباس - رضوان الله عليهما - قال: وَقَدَ إِلَى رَسُولِ  
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزُّبَيْرِقَانُ بْنُ بَدْرٍ وَعَمْرُو بْنُ الْأَهْتَمِ؛ فَقَالَ  
الزُّبَيْرِقَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا سَيِّدُ تَمِيمٍ، وَالْمَطَاعُ فِيهِمْ، وَالْمَجَابُّ مِنْهُمْ، آخِذٌ  
لَهُمْ بِحَقِّهِمْ، وَأَمْنَعُهُمْ مِنَ الظُّلْمِ، وَهَذَا يَعْلَمُ ذَلِكَ - يَعْنِي عَمْرًا.  
فَقَالَ عَمْرُو: أَجَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّهُ مَانِعٌ لِحَوْزَتِهِ، مُطَاعٌ فِي عَشِيرَتِهِ، شَدِيدُ  
الْعَارِضَةِ فِيهِمْ.

فقال الزبيرقان: أَمَا إِنَّهُ وَاللَّهِ قَدْ عِلْمٌ أَكْثَرَ مِمَّا قَالَ، وَلَكِنَّهُ حَسَدَنِي شَرَفِي!  
فقال عمرو: أَمَا لئن قال ما قال؛ فوالله ما علمته إلا صَيِّقَ الْعَطْنِ زَمْرِ  
المروعة، أَحْمَقَ الْأَبِ، لثِيمَ الْخَالِ، حَدِيثَ الْغَتَّى.  
فراى الكراهة في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اختلف قوله،  
فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَضِيْتُ فَقَلْتُ أَحْسَنَ مَا عَلِمْتُ، وَغَضِبْتُ فَقَلْتُ أَفْبَحَ مَا  
عَلِمْتُ، وَمَا كَذِبْتُ فِي الْأُولَى، وَلَقَدْ صَدَقْتُ فِي الثَّانِيَةِ!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرًا، وَإِنْ مِنْ  
الشَّعْرِ لِحِكْمَةٌ. وَيُرْوَى لِحُكْمًا، وَالْأُولَى أَصَحُّ.  
والذي روى أهل الثبت، من هذا الحديث أنه قَدِمَ رَجُلَانِ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ  
فَخَطَبَا؛ فَعَجِبَ النَّاسُ لِبَيَانِهِمَا؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ  
مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرًا، أَوْ إِنَّ مِنْ بَعْضِ الْبَيَانِ لِسِحْرًا.

وعَمْرُو بْنُ الْأَهْتَمِ هُوَ: عَمْرُو بْنُ سَيَّانَ بْنِ سُمَيِّ بْنِ سَيَّانَ بْنِ خَالِدِ بْنِ  
مِنْقَرِ بْنِ عُيَيْدِ بْنِ الْحَارِثِ، وَالْحَارِثُ هُوَ: مُقَاعَسُ بْنُ عَمْرُو بْنِ كَعْبِ بْنِ  
سَعْدِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ بْنِ تَمِيمٍ. وَسُمَيُّ بْنُ سَيَّانَ الْأَهْتَمِ، لِأَنَّ قَيْسَ بْنَ عَاصِمِ  
الْمِنْقَرِيَّ سَيِّدَ أَهْلِ الْوَبْرِ ضَرَبَهُ بِقَوْسِهِ فَهَتَمَ فَاهُ. هَذَا قَوْلُ أَبِي مُحَمَّدِ عَبْدِ  
اللَّهِ بْنِ مُسْلِمِ بْنِ قَتَيْبَةَ. وَقَالَ غَيْرُهُ: بَلْ هَتَمَ فُوهَ يَوْمَ الْكَلَابِ الثَّانِي، وَهُوَ  
يَوْمٌ كَانَ لِبَنِي تَمِيمٍ عَلَى أَهْلِ الْيَمَنِ. وَكَانَ عَمْرُو يُلقبُ الْمُكَّحَلَ لِجَمَالِهِ،  
وَبَنُو الْأَهْتَمِ أَهْلُ بَيْتِ بِلَاغَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ. وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرُو بْنِ  
الْأَهْتَمِ هُوَ جَدُّ خَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ وَسَبِيبِ بْنِ شَيْبَةَ. وَكَانَ يُقَالُ: الْخَطَابَةُ فِي

آل عَمْرُو، وكان شعره حُللاً منشرة عند الملوك تأخذ منه ما شاءت. وهو القائل الطويل:

ذريني فإن البخلَ يا أمَّ مالكٍ      لصالح أخلاقِ الرجالِ سَرُوقٌ  
لعمرك ما ضاقتُ بلادَ بأهلها      ولكنَّ أخلاقَ الرجالِ تضيقُ

والزبرقان: اسمه حُصَيْن بن بَدْر بن امرئ القيس بن الحارث بن بهدلة بن عوف بن كعب بن سعيد. وسمي الزبرقان لجماله؛ والزبرقان: القمر قبل تمامه وقيل: لأنه كان يُزبرقُ عمامته، أي يصفرها في الحرب. وكانوا يسمون الكلام الغريب السحر الحلال، ويقولون: اللفظ الجميل من إحدى التَّقَاتِ فِي العُقَد.

وذكر بعضُ الرواة أنه لما استُخْلِيفَ عمرُ بن عبد العزيز، رضي الله عنه، قَدِمَ عليه وُفُودُ أهلِ كلِّ بلد؛ فتقدَّم إليه وُفْدُ أهلِ الحجاز، فأشْرَبَ منهم غلامٌ للكلام، فقال عمر: يا غلام، ليتكلم من هو أسنُّ منك! فقال الغلام: يا أمير المؤمنين، إنا المرءُ بأصغريه، قلبه ولسانيه، فإذا مَتَحَ اللهُ عبده لساناً لافظاً، وقلباً حافظاً، فقد أجاد له الاختيار؛ ولو أن الأمور بالسِّنِّ لكان هاهنا من هو أحق بمجلسك منك.

فقال عمر: صدقت، تكلم؛ فهذا السحر الحلال! فقال: يا أمير المؤمنين، نحن وفد التهينة لا وُفْدُ المَرزئة، ولم تُقدِّمنا إليك رغبة ولا رهبة؛ لأننا قد أئنا في أيامك ما خفنا، وأدركنا ما طلبنا! فسأل عمر عن سِنَّ الغلام، فقيل: عشر سنين. وقد روي أن محمد بن كعب القرظي كان حاضراً، فنظر وجه عمر قد تهلَّل عند تناء الغلام عليه؛ فقال: يا أمير المؤمنين؛ لا يغلبن جهلُ القوم بك معرفتك بنفسك؛ فإن قوماً خدعهم التناء، وغرهم الشكر، فزلت أقدامهم، فهووا في النار. أعاذك الله أن تكون منهم، وألحقك بسالف هذه الأمة؛ فبكي عمر حتى خيفَ عليه، وقال: اللهم لا تُخَلِّتْنا من واعظ! وقد روي أن عمر قال للغلام: عطني، فقال هذا الكلام، وفيه زيادة سيرة ونقص. وأخذ قولَ عمر: هذا السحر الحلال أبو تمام فقال يعاتب أبا سعيد محمد بن يوسف الطائي الوافر:

إذا ما الحاجةُ انبَعَثَتْ يَدَاها      جَعَلْتَ المَنعَ منك لها عِقَالاً  
فأين قصائدُ لي فيك تَأبى      وتأنفُ أن أهان وأن أدالا  
هي السحرُ الحلالُ لمُجْتَلِيه      ولم أرَ قبلها سِحراً حلالاً  
وكتب أبو الفضل بن العميد إلى بعض إخوانه جواباً عن كتاب ورد إليه فأحمده:

وَصَلَّ ما وصلَّني به، جعلني الله فداك، من كتابك، بل نعمتك التامة، ومُنتك العامة؛ فقَرَّت عيني بوروده، وشَفِيَتْ نفسي بوفوده، وتَبَيَّرْتُه فحكى نسيمَ الرياضِ غِبَ المطر، وتنفسَ الأنوارِ في السحر، وتَأَمَّلْتُ مَفْتَحَه، وما اشتمل عليه من لطائف كَلِمك، وبدائع حِكَمك؛ فوجدته قد تحمَّل من فنون البرِّ عَنك، وضروب القَصْلِ منك، جِدّاً وهزلاً، ملا عيني، وعَمَرَ قلبي، وغلب فكري، وبهر لبي؛ فبقيت لا أدري: أَسْمُوطُ ذر خصصتني بها، أم عقود جوهر منخنيها؟ كما لا أدري أَيْكراً رَفَقَتْها فيه، أم روضةً جهزتها منه؛ ولا أدري أجدك أبلغ والطف، أم هزلك أرفع وأظرف؛ وأنا أوكلُ بتبع ما انطوى عليه نفوساً لا ترى الحَظَّ إلا ما أفتنته منه، ولا تعد الفضل إلا فيما أخذته عنه، وأمتع بتأمله عينا لا تقرأ إلا بمثله، مما يصدر عن يدك، ويرد من عندك، وأعطيه نظراً لا يمله، وطرفاً لا يظرف دونه، وأجعله مثلاً أرسمه وأحتديه، وأمتع خلقي برويقه، وأغذي نفسي ببهجته، وأمجز قريحتي برقته، وأشرح صدري بقراءته، ولئن كنت عن تحصيل ما قلته عاجزاً، وفي تعديد ما ذكرته متخلفاً؛ لقد عرفت أنه ما سمعتُ به من

السحر الحلال.

وقال بعض المحدثين يمدح كاتباً الكامل:

وَإِذَا جَرَى قَلَمُ لَه فِي مُهَرَّقِ  
تَظَمَّتْ مَرَاشِفُهُ قَلَائِدَ  
عَجَلَانَ فِي رَقْلَانِهِ وَوَجِيْفِهِ  
بَتَفِيْسِ جَوْهَرٍ لَفْظِهِ  
وَشَرِيْفِهِ  
نُظِمَّتْ

يَذْعَاً مِنَ السُّحْرِ الْحَلَالِ  
تَوَلَّدَتْ

مَتَلًّا لَصَارِبِهِ وَزَادَ مُسَافِرِ  
جُعِلَتْ وَتَحَفَّةً قَادِمٍ لِأَلِيْفِهِ

وعلى ذكر قوله وتَحَفَّةً قَادِمٍ قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وصفَ رجلَ رجلاً فقال: كان والله سَمَحاً سَهْلاً، كَأَمَّا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقُلُوبِ تَسَبُّبٌ، أَوْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَيَاةِ سَبَبٌ، إِنَّمَا هُوَ عِيَادَةُ مَرِيضٍ، وَتَحَفَّةً قَادِمٍ، وَوَأَسِطَةً عِفْدٍ.

وأخذ بعضُ بني العباسِ رجلاً طالبياً، فَهَمَّ بِعَقُوبَتِهِ، فَقَالَ الطَّالِبِيُّ: وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ أَفْسَدَ دِينِي بِفُسَادِ دِينِكَ لَمَلَكْتَ مِنْ لِسَانِي أَكْثَرَ مِمَّا مَلَكْتَ مِنْ سَوْطِكَ، وَاللَّهِ إِنْ كَلَامِي لَقُوقُ الشَّعْرِ، وَدُونَ السُّحْرِ؛ وَإِنَّ أَيْسَرَهُ لِيَنْقُبَ الْخَرْدَلُ، وَيَحِطَ الْجَنْدَلُ.  
وقال علي بن العباس، يَصِفُ حَدِيثَ امْرَأَةٍ الْكَامِلِ:

وَحَدِيثُهَا السُّحْرُ الْحَلَالُ لَوْ  
أَنَّهُ

إِنْ طَالَ لَمْ يُمَلِّ، وَإِنْ هِيَ  
أَوْجَزَتْ

شَرِكَ الْعُقُولِ، وَنَزَهَتْ مَا  
مِثْلُهَا

أَلَمْ فِي بَيْتِهِ الْآخِرِ يَقُولُ الطَّائِي الطَّوِيلُ:

كَوَاعِبُ أَثْرَابٍ لَغِيْدَاءَ  
أَصْبَحَتْ

لَهَا مَنْظَرُ قَيْدِ النُّوَاطِرِ لَمْ  
يَزَلْ

وأول من استثار هذا المعنى امرؤ القيس بن حجر الكندي في قوله الطويل:

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي  
وُكَّاتِهَا

وكالت عُليَّة بنت المهدي مجزوء الكامل:

إِشْرَبُ عَلَى ذِكْرِ الْعَزَا  
إِشْرَبُ عَلَيْهِ وَقُلُّ لَه

وكانت عُليَّةً لطيفة المعنى، رقيقة الشعر، حسنة مجاري الكلام، ولها ألحان حسان، وعَلِقَتْ بغلام اسمه رشأ وفيه تقول مجزوء الكامل:

أَضْحَى الْفَوَاذُ بَرِينَا  
فَجَعَلْتُ رَيْنَبَ سُنْرَةَ

وقولها: بَرِينَبَ تَرِيدُ بَرِشَأ.

فَنُمِيَ الْأَمْرُ إِلَى أَخِيهَا الرَّشِيدِ، فَأُبْعِدَهُ، وَقِيلَ: قَتَلَهُ، وَعَلِقَتْ بَعْدَهُ بِغَلَامٍ اسْمُهُ طَلٌّ، فَقَالَ لَهَا الرَّشِيدُ: وَاللَّهِ لئن ذَكَرْتَهُ لَأَقْتُلَنَّكَ! فَدَخَلَ عَلَيْهَا يَوْمًا عَلَى حِينِ عَفْلَةٍ وَهِيَ تَقْرَأُ؛ فَإِنْ لَمْ يَصْبِهَا وَابِلٌ فَمَا نَهَى عَنْهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، فَضَحِكَ، وَقَالَ: وَلَا كَلِّ هَذَا، وَهِيَ الْقَائِلَةُ الْكَامِلُ:

يَا عَاذِلِي، قَدْ كُنْتُ قَبْلَكَ  
حَتَّى ابْتُلِيْتُ فَصُرْتُ صَبًّا

عَاذِلَا

فإذا تحكّم صار سُغْلًا شَاغِلًا  
يَرْضَى القَتِيلُ ولا يَرْضِي  
القاتلا

أنصف المعشوق فيه لَسَمُجُ  
لك خير من كثيرٍ قد مزج  
عاشق يُحْسِنُ تَأْلِيفَ الحَجَجِ

الأحناف الطويل:

ثُرُوعٌ بالهجران فيه  
وبالعَنَبِ  
فأين حلّواثُ الرسائل  
والكُنْبِ؟

وشفائي في قيلهم بَعَدَ قالٍ  
حب لصب، إلا يَخْمَسِ  
خصال

وعِتَابِ، وهَجْرَةٍ، وتقال

فتطاردي لي في الوصال  
قليلا

من لذةٍ حتى يُصِيبَ غليلا

فإنّ الأذى مِمَّنْ تُحِبُّ سُروُرُ

إذا ما تلا آثارهِنَّ دَرُورُ

وأشده الأصمعي لجميل بن معمر العذري: البسيط:

عواضُ أليأس أو يَرْتَاحه  
الطَمَعُ  
لكنثُ أمْلِكُ ما آتي وما  
أدعُ  
كادت له شعبةٌ من مُهَجَّتِي  
تقعُ

وهذا البيت كقول علي بن العباس الرومي: الكامل:

فكفاهمُ بالوَجْدِ والأشواقِ  
فإذا تضاعفَ كان غير مُطَاقِ  
كالريح تُغري النارَ بالإحراقِ

ويشبهه بيتُ عليّ بن الأخر بيتُ أنثيد في شعرِ رُوي لأبي نواس، ورواه قوم لعنان جارية الناطفي، وهو: الكامل:

الحب أول ما يكون مَجَانة  
أَرْضَى قَيْعُصَبُ قاتلي  
فتعجبوا

وهي القائلة الرمل:

وُضع الحبُّ على الجُورِ، فلو  
وقليلُ الحبِّ صِرْفًا خالصًا  
ليس يُسْتَحْسَنُ في تَعَتِّ  
الهوى

وكانها ذهبت في الأول إلى قول العباس بن

وأحسَنُ أيام الهوى يومك  
الذي

إذا لم يكن في الحبِّ سَخَطُ  
ولا رضا

وقد زاد النمبري في هذا فقال الخفيف:

راحتي في مقالة العُدّال

لا يَطِيبُ الهوى ولا يحسُنُ ال

بسماع الأذى، وعَدْلُ نصيحٍ،

وقال بعض المحدثين الكامل:

لولا اطرأُ الصيدُ لم تَكُ  
لذّةُ

هذا الشرابُ أحو الحياة  
وماله

وقال آخر الطويل:

دع الصبَّ يَصَلِي بالأذى من

حبيبه

عُبارُ قَطِيعِ الشاءِ في عَيْنِ

ذئبها

وأشده الأصمعي لجميل بن معمر العذري: البسيط:

لا حَيْرَ في الحبِّ وقفًا لا

تحركه

لو كان لي صَبْرُها أو عندها

جَرَعي

إذا دعا باسمِها داعٍ

ليحزنني

وهذا البيت كقول علي بن العباس الرومي: الكامل:

لا تَكثِرَنَّ ملامةَ العشاقِ

إن البلاءَ يطاقُ غيرَ مُضاعَفِ

لا تُطْفَنَنَّ جوى بِلومٍ؛ إنّه

حلو العتاب يهيجُهُ الإدلال  
 لم يَهْوُ قط ولم يُسَمَّ  
 بعاشق  
 وجميعُ أسبابِ الغرام  
 يسيرة  
 تصفِ القضيبَ على الكتيب  
 قَنَائِهَا  
 ولزُب لابسَةٍ قِنَاعٍ مَلاحةٍ  
 كَسَتِ الحَدَاثَةَ طَرَفَهَا  
 وجمالها  
 وكأنها والكأسُ فوقَ بَنَائِهَا  
 حتى إذا ما استأنست  
 بحدِيثِهَا  
 قلنا لها: إن صدقت أقوالها  
 قولي فليس تَرَكَ عَيْنُ  
 نَمِيمَةٍ  
 وضميرٌ ما اشتملتُ عليه  
 ضلوعُنَا  
 وقد أخذ أبو الطيب المتنبّي معنى قيد الأوابد، فقال يصف كلباً: الرجز:  
 تَبِلُ المُنَى وحكمِ نفسِ  
 المُرْسِلِ  
 كأنه من علمه بالمَقْتَلِ  
 وقال في بني حمدان: الكامل:  
 متصعلكينَ عَلَى كَنَافَةِ مُلْكِهِمْ  
 ينقلبون ظلالَ كلِّ مُطَهَّمِ  
 وقال أعرابي يصف فرساً: إنه لَدَرَكُ الطالبِ، وَمَنْجَى الهاربِ، وَقَيْدُ  
 الرهانِ، وزين الفناء.  
 وقال بعضُ أهلِ العصرِ في وصفِ غلامٍ: وَجْهُهُ قَيْدُ الأَبْصَارِ، وَأَمَدُ الأَفْكَارِ،  
 ونهاية الاعتبار.  
 وقال أبو القاسمِ إسماعيل بن عَبَّادٍ: الطويل:  
 وقد أَغْتَدِي لِلصَّيْدِ عُذْوَةً  
 أَصَيِّدُ  
 فَعَنَّتْ طَبَاءُ خِفْنَ تَحْتِي  
 مطلق الي  
 فأدركتها والسيفُ لَمْعَةٌ  
 بَارِقُ  
 وقد رُغِنْتُهَا إذ كان شعري  
 رائِعاً  
 لم يَحُلْ إِلَّا بالعتابِ وصالُ  
 مَنْ كان يصرف وجهه  
 التَعْدَالُ  
 ما لم يكنِ غَدْرٌ ولا  
 استبدالُ  
 ولها من البدر المنيرِ مِثَالُ  
 حسناء سار بحسنها  
 الأمثالُ  
 نُوراً فمَاءُ شَبَابِهَا يَحْتَالُ  
 شمس يُمُدُّ بها إليك هِلَالَ  
 وتكلمت بلسانها الجُرَيَالُ  
 أفعالها وجرى بهنَّ أَلْقَالُ  
 حَصَرَ النصيحُ وغابتِ العذالُ  
 سيرٌ لدى أبوابه أفعال  
 وعقله الطيبي وحنفُ التَّنْفُلِ  
 عَلَّمَ بقراطاً فِصَادَ الأَكْحَلِ  
 متواضعينَ على عظيم  
 الشانِ

وما بَلَغَتْ حَدَّ الثَّلَاثِينَ      وهذا طِرَارُ الشَّيْبِ فِيهِ  
مُدَّتِي      يُمَدُّ

وأبيات ابن الرومي من أجود ما قيل في حسن الحديث، وقد توسع الشعراء في هذا الباب، وكثر إحسانهم، كما كثر افتنانهم، وسأجري شأواً في مختار ما قيل في ذلك، وأعود إلى ما بدأت به.

قال القُطَامِي - واسمه عُمَيْرُ بنِ شَيْبِمْ التَّغْلِبِي، وسمي القُطَامِي لقوله: الرجز:  
يَخْطُهَا جَانِباً فَجَانِباً      حَطَّ القُطَامِي القِطَا القَوَارِبَا  
وقال أبو عبيدة: ويقال للصقر قُطَامِي وقُطَامِي: البسيط:

وَفِي الخُدُورِ غَمَامَاتٌ بَرَقْنَ      حَتَّى تَصِيدُنَّآ مِنْ كُلِّ  
لَنَا      مُصْطَادٍ

يَقْتُلُنَّآ بِحَدِيثٍ لَيْسَ      مَنْ يَتَّقِينَ وَلَا مَكْنُونُهُ بَادِي  
يَعْلَمُهُ

فَهَنَّ يَبِيدُنْ مِنْ قَوْلِ يُصِبْنَ      مَوَاقِعِ المَاءِ مِنْ ذِي العُلَّةِ  
بِهِ      الصَّادِي

وقال أبو حية التُّمَيْرِي، واسمه الهيثم بن الربيع: الطويل:

وَخَبْرُكَ الوَاشُونَ أَنْ لَنْ      بَلَى وَسُئُورِ اللّهِ ذَاتِ  
أَحْبِكُمْ      المَحَارِمِ

وَإِنْ دَمًا، لَوْ تَعَلَّمِينَ، جَنِيتهِ      عَلَى الحَيِّ جَانِي مِثْلِهِ غَيْرُ  
سَالِمِ

أَصْدُ وَمَا الصَّدُ الَّذِي تَعَلَّمِينَهُ      عِزَاءً بِكُمْ إِلَّا ابْتِلَاعِ العِلاقِمِ  
حَيَاءً وَتُقْيَا أَنْ تَشِيْعَ نَمِيمَةَ      بِنَا وَبِكُمْ، أَفْ لِأَهْلِ النَّمَائِمِ

أَمَا إِنَّهُ لَوْ كَانَ غَيْرُكَ أَرْقَلْتُ      إِلَيْهِ القَنَا بِالرَاعِفَاتِ  
اللّهَاذِمِ

وَلَكِنَّهُ وَاللّهِ مَا طَلَّ مُسْلِمًا      كَعُزُّ الثَّنَايَا وَاحَاتِ المِلاغِمِ  
إِذَا هَنَّ سَاقِطَنَّ الأَحَادِيثَ      سُقُوطِ حَصَى المَرْجَانِ مِنْ

لِلْفَتَى      كَفِّ نَاطِمِ  
رَمَيْنَ فَأَنْقَدَنَّ القُلُوبَ، وَلَا      دَمًا مَائِرًا إِلَّا جَوَى فِي

تَرَى      الحِيَازِمِ  
وقال أيضاً: الطويل:

حَدِيثٌ إِذَا لَمْ تَخِشَ عَيْنًا كَأَنَّهَا إِذَا      سَاقِطَتُهُ الشَّهْدُ أَوْ هُوَ أَطْيَبُ

لَوْ أَنَّكَ تَسْتَشْفِي بِهِ بَعْدَ سَكْرَةٍ      مِنْ المَوْتِ كَادَتْ سَكْرَةُ  
المَوْتِ تَذْهَبُ

إلى هذا ينظر قول الآخر وإن لم يكن منه: الطويل:

أَقُولُ لِأَصْحَابِي وَهُمْ      وَدَمْعُ جُفُونِي دَائِمُ العِبَرَاتِ  
يَعْذِلُونَنِي

بِذِكْرِ مَتَى نَفْسِي فَبَلُؤَا، إِذَا      خُرُوجِي مِنَ الدُّنْيَا، جُفُوفَ  
دَنَا      لَهَاتِي

وقال سديف مولى بني هاشم يصف نساء: الكامل:

وَإِذَا تَطَفَّنَ تَخَالِهِنَّ      دَرَا يَفْصَلُ لُؤْلُؤًا مَكْنُونًا  
تَوَاطَمًا

وَإِذَا ابْتَسَمْنَ فَإِنَّهِنَّ غَمَامَةٌ      أَوْ أَقْحَوَانَ الرَّمْلِ بَاتِ مَعِينَا

وَإِذَا طَرَفَنَ طَرَفَنَ عَنْ حَدَقِ  
الْمَهَا

وَكَأَنَّ أَجْيَادَ الطَّبَاءِ تَمُدُّهَا  
وَأَصْحُ مَا رَأَتْ الْعَيُونَ  
مَحَاجِرًا

وَكَأَنَّهَا إِذَا تَهَضَّنَ لِحَاجَةٍ  
وقال الطائي: الكامل:

تُعْطِيكَ مَنُطِقَهَا فَتَعْلَمُ أَنَّهُ  
وَأُظُنُّ حَبْلَ وَصَالِهَا لِمُحِبِّهَا

أخذه أبو القاسم بن هاني، فقال يمدح جعفر بن علي، إلا أنه قلبه فقال:  
الكامل:

قَدْ طَيَّبَ الْأَفْوَاهَ طَيْبُ  
ثِيَابِهِ

وَكَأَنَّمَا صَرَبَ السَّمَاءَ  
سُرَادِقًا

أَرْضًا وَطَيْتُ الدَّرَّ رَضْرَاضًا  
بِهَا

وقال الطائي: الكامل:

بَسَطْتُ إِلَيْكَ بِنَانَةً أُسْرُوعًا  
كَادَتْ لِعِرْفَانِ النَّوَى أَلْفَاطُهَا

ومن جيد هذا المعنى وقديمه قول النابغة الذبياني: الكامل:

لَوْ أَنَّهَا عَرَصَتْ لِأَشْمَطِ  
رَاهِبٍ،

لَرْنَا لَلِهْجَتِهَا وَطَيْبِ حَدِيثِهَا  
نَظَرْتُ إِلَيْكَ بِحَاجَةٍ لَمْ  
تَقْضِهَا

ومن مشهور الكلام قول الآخر: الطويل:

وَكَنْتُ إِذَا مَا زُرْتُ سَعْدِي  
بَارِضِهَا

مِنَ الْخَفَرَاتِ الْبَيْضِ وَدِ  
جَلِيسِهَا

تَحَلَّلْتُ أَحْقَادِي، إِذَا مَا لَقَيْتُهَا  
وقال بشار: مجزوء الكامل:

وَكَأَنَّ رَجَعَ حَدِيثِهَا  
خَوْرَاءُ إِنْ نَظَرْتُ إِلَيَّ

تَنْسِي الْعَيَّوِيَّ مَعَادَهُ  
وَكَأَنَّهَا بَرْدُ الشَّرَا

وَكَأَنَّ تَحْتَ لِسَانِهَا  
وَتَخَالَ مَا جَمَعْتُ عَلَيَّ

وَقَصَلْتُهُنَّ مَحَاجِرًا وَجُفُونَا

وَخُصُورَهُنَّ لَطَافَةً وَلُدُونَا

وَلَهُنَّ أَمْرَضُ مَا رَأَيْتُ عَيُونَا

يَنْهَضْنَ بِالْعَقَدَاتِ مِنْ يَبْرِينَا

لِجَنِّي عُدُوتِيهِ يَمُرُّ بِتَعْرِهَا  
أَوْهَى وَأَضْعَفَ قُوَّةً مِنْ  
حَضْرِهَا

من أجل ذا نجد الثغور عذابا

بالزاب، أو رفع النجوم قبابا

والمسك ترباً والرياح جنابا

تصف الفراق ومقلة ينبوعا  
من رقة الشكوى تكون  
دُمُوعًا

عَبَدَ الْإِلَهَ، صَرُورَةٌ مُتَعَبِدِ

وَلِخَالِهِ رُشْدًا وَإِنْ لَمْ يَزْشُدِ  
نَظَرَ السَّلِيمِ إِلَى وَجْهِهِ  
الْعُودِ

أَرَى الْأَرْضَ تُطْوِي لِي وَبَدُو  
بَعِيدِهَا

إِذَا مَا انْقَضَتْ أَحْدُوْتُهُ لَوْ  
تُعِيدُهَا

وُثِرْمِي بِلَا جُزْمِ عَلِيٍّ حُقُودِهَا

قِطْعُ الرِّيَاضِ كُسَيْنَ رَهْرًا  
لَكَ سَقَنُكَ بِالْعَيْنَيْنِ خَمْرًا

وَتَكُونُ لِلْحِكْمَاءِ ذِكْرًا  
بِصَفَا وَوَأَفَقَ مِنْكَ فَطْرًا

هَارُوثٌ يَنْفُتُ فِيهِ سَحْرًا  
هَثِيَابَهَا ذَهَبًا وَعَطْرًا

وسمع بشائر قول كُثِير بن عبد الرحمن: الطويل:  
 أَلَا إِنَّمَا لَيْلَى عَصَا خَيْرَ رَاتِيَةٍ إِذَا عَمَّرُوها بِالْأَكْفِ تَلِينُ  
 فقال: قاتل الله أبا صخر! يزعم أنها عصاً ويعتذر بأنها خير راتية، ولو قال: عصا مخ، أو  
 عصا زبد؛ لكان قد هجتها مع ذكر العصا، هلاً قال كما قلت: الوافر:  
 وَدَعَجَاءَ الْمَحَاجِرِ مِنْ مَعَدَّ إِذَا قَامَتْ لِحَاجَتِهَا تَتَنَّتْ  
 كَأَنَّ عِظَامَهَا مِنْ خَيْرِ رَانٍ كَأَنَّ عِظَامَهَا مِنْ خَيْرِ رَانٍ  
 وبعد قول كُثِير: ألا إنما ليلي عصا خيزرانة: الطويل:  
 تَمَتَّعْ بِهَا مَا سَاعَفْتُكَ، وَلَا يَكُنْ  
 وَإِنْ هِيَ أَعْطَتْكَ اللَّيَانَ فَإِنَّهَا  
 وَإِنْ حَلَقَتْ لَا يَنْقُضُ النَّأْيُ عَهْدَهَا  
 فليس لمخضوب البنان يمين

وقال البحرني: الطويل:  
 وَلَمَّا التَّقِينَا وَاللَّوَى مَوْعِدَ لَنَا  
 فَمَنْ لَوْلُو تَجْنِيهِ عِنْدَ ابْتِسَامِهَا  
 تعجب رأي الدر حسناً ولاقطه  
 ومن لؤلؤ عند الحديث تُسَاقِطُهُ

وقال المتنبي: الطويل:  
 أُمْنِعِمَّةٌ بِالْعَوْدَةِ الطَّبِيئَةِ الَّتِي  
 تَرْتَبِفْتُ قَاهَا سُحْرَةَ فَكَأَنِّي  
 بغير ولي كان نائلها الوَسْمِي  
 تَرْتَبِفْتُ حَرَ الْوَجْدِ مِنْ بَارِدِ الظلم

فتاة تساوى عقدها وكلامها  
 ومبسمها الدر في النثر والنظم

عاد الحديث الأول - قال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي: حدثنا يوسف بن يعقوب قال: أخبرني جدي قراءة عليه، عن أبي داود، عن محمد بن عبيد الله، عن أبي إسحاق، عن البراء يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "إن من الشعر لحكماً، وإن من البيان لسحراً" قال أبو القاسم: هكذا روينا الخبر، وراجعت فيه الشيخ، فقال: نعم، هو: "إن من الشعر لحكماً" - بضم الحاء وتسكين الكاف، قال: ووجهه عندي إذا روي هكذا: إن من الشعر ما يلزم المقول فيه كلزوم الحكم للمحكوم عليه؛ إصابة للمعنى، وقصدًا للصواب، وفي هذا يقول أبو تمام: الطويل:  
 وَلَوْلَا سَبِيلَ سَنِّهَا الشَّعْرُ مَا بُغَاهُ الْعُلَى مِنْ أَيْنَ تُوتَى  
 دَرَى الْمَكَارِمِ

يُرى حكمة ما فيه وهو  
 ويُرصى بما يقضي به وهو  
 فكاها ظالم

انتهى كلام أبي القاسم.  
 وقد وجدنا في الشعر أبياتاً يُجْرَى على رسمها، ومُصَّى على حكمها؛ فقد كان بنو أنف الناقة إذا ذكر أحد عند أحد منهم أنف الناقة - فضلاً عن أن ينسبهم إليه - اشتد غضبهم عليه؛ فما هو إلا أن قال الحطيئة يمدحهم:  
 البسيط:

سيري أَمَامَ فَإِنَّ الْأَكْثَرِينَ  
 وَالْأَطْيَبِينَ إِذَا مَا يُنْسَبُونَ أَبَا

حَصَى  
قَوْمٌ إِذَا عَقَدُوا عَقْدًا  
لجَارِهِمْ  
قَوْمٌ هُمُ الْأَنْفُ وَالْأَذْنَابُ  
غَيْرُهُمْ  
شَدُّوا الْعِجَاجَ وَشَدُّوا قَوْقَهُ  
الْكَرْبَا  
وَمَنْ يُسَوِّي بِأَنْفِ النَّاقَةِ  
الذَّنْبَا

فصار أحدهم إذا سئل عن انتسابه لم يبدأ إلا به. وأنف الناقة: هو جعفر بن قريع بن عوف بن كعب بن زيد مناة بن تميم. وكان بنو العجلان يَفخرون بهذا الاسم، ويتشرفون بهذا الوسم، إذ كان عبد الله بن كعب جدّهم إنما سمّي العجلان لتعجيله القري للضيّقان؛ وذلك أن حيا من طيء نزلوا به، فبعث إليهم بقرّاهم عبداً له، وقال له: أعجل عليهم، ففعل العبد، فأعتقه لعجلته، فقال القوم: ما ينبغي أن يسمّى إلا العجلان؛ فسمّي بذلك، فكان شرفاً لهم، حتى قال النجاشي، واسمه قيس بن عمرو بن حرن بن الحارث بن كعب يهجوهم: الطويل:

أولئك أحوال اللعين  
وأسرهُ ال  
وما سُمي العجلان إلا  
لقوله  
هجين ورهط الواهن  
المتذل  
خذ القعب واحلب أيها العبد  
واعجل

فصار الرجل منهم إذا سئل عن نسبه قال: كعبي، ويكنى عن العجلان. وزعمت الرواة أنّ بني العجلان استعدّوا على النجاشي - لما قال هذا الشعر - عُمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقالوا: هجانا، قال: وما قال فيكم؟ فأشده قوله: الطويل:

إذا الله عادى أهل لؤم  
ورقة  
فعدى بني العجلان رهط ابن  
مقبل

فقال: إنّ الله لا يُعادي مسلماً، قالوا: فقد قال: الطويل:

قُبيلة لا يُعَدرون بِذِمَّةٍ  
ولا يَطْلُمون الناس حَبَّة  
خَرَدَلٍ

فقال: وددت أن آل الخطاب كانوا كذلك! قالوا: فقد قال: الطويل:

تَعَاثُ الْكِلَابُ الضَّارِبَاتِ  
لِحَوْمَهُمْ  
وتأكل من عوف بن كعب بن  
نهشل

فقال: كفى صيباً من تأكل الكلاب لحمه! قالوا: فقد قال: الطويل:

ولا يَرِدُونَ الْمَاءَ إِلَّا عَشِيَّةً  
فقال: ذلك أصفى للماء، وأقل للرحام! قالوا: فقد قال: الطويل:

وما سُمي العجلان إلا  
لقوله  
خذ القعب واحلب أيها العبد  
واعجل

فقال: سيّد القوم خادّمهم! وكان عمر، رضي الله عنه، أعلم بما في هذا الشعر، ولكنه درأ الحدود بالشبهات.

وهؤلاء بنو نمير بن عامر بن صعصعة من القوم، أخذ جمرات العرب وأشرف بيوت قيس بن عيلان بن مضر. وجمرات العرب ثلاثة؛ وإنما سُموا بذلك؛ لأنهم مُتوافرون في أنفسهم، لم يُدخلوا معهم غيرهم؛ والتجمير في كلام العرب: التجميع، وهم: بنو نمير بن عامر، وبنو الحارث بن كعب، وبنو ضبة بن أد. فطفئت جمرتان، وهما بنو ضبة؛ لأنها جالفت الرباب، وبنو الحارث؛ لأنها جالفت مذجج، وبقيت نمير لم تحالف؛ فهي على كثرتها ومنعتها. وكان الرجل منهم إذا قيل له: ممن أنت؟ قال: نميري كما ترى! إدلالاً بنسبه، وافتخاراً بمنصبه، حتى قال جرير بن عطية بن الحطفي لعبيد بن حصين الراعي أحد بني نمير بن عامر: الوافر:

فغض الطرف إنك من نمير  
فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

كعب وكلاب: ابنا ربيعة بن عامر بن صعصعة؛ فصار الرجل منهم إذا قيل له: ممن أنت؟ يقول: عامري، ويكنى عن نمير.

ومرّت امرأة بقوم من بني نمير، فأحدّوا النظر إليها، فقال منهم قائل: والله إنها  
لرشيخاء، فقالت: يا بني نمير، والله ما امتثلتم في واحدة من اثنتين، لا قول الله عز  
وجل: "قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ" ولا قول الشاعر:

فَعُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ

وساير شريك بن عبد الله النميري يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري،  
فبَرَزَتْ بغلة شريك، فقال له يزيد: عُضَّ من لجامها، فقال: إنها مكتوبة،  
أصلح الله الأمير! فضحك، وقال: ما ذهبت حيث أردت، وإنما عرض بقوله:  
عُضَّ من لجامها يقول جرير:

فَعُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ

فَعَرَّضَ له شريك بقول ابن دارة: البسيط:

لَا تَأْمَنَنَّ فَرَارِيًّا حَلَوْتُ بِهِ

وبنو فزارة يُرْمَوْنَ بِإِثْيَانِ الإبل، ولذلك قال الفرزدق ليزيد بن عبد الملك لما ولي عمر  
بن هبيرة العراق: الوافر:

أُمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَأَنْتَ مَرءٌ

أَوْلَيْتَ الْعِرَاقَ وَرَافِدِيَهُ

وَلَمْ يَكُ قَبْلَهَا رَاعِي مَخَاضٍ

تَفِيهَقَ بِالْعِرَاقِ أَبُو الْمُثَنَّى

أَمِينٌ لَسْتُ بِالطَّبِيعِ الْحَرِيصِ

فَرَارِيًّا أَحَدَ يَدِ الْقَمِيصِ

لِيَأْمَنَهُ عَلَى وَرَكِي قَلُوصٍ

وَعَلَّمَ قَوْمَهُ أَكْلَ الْخَبِيصِ

الرافدان: دجلة والفرات.

وقال بعض النميريين يجيب جريراً عن شعره: الوافر:

تزل في الحرب تلتهب التهابا

فتحت عليهم للخصف بابا

ولم يسمع لشاعرهم جوابا

وكيف ينشأتم الناس الكلابا

فما نفع نميراً، ولا ضرر جريراً، بل كان كما قال الفرزدق: الكامل:

أم بُلَّتْ حيث تتأطح البحران

وقال أبو جعفر محمد بن منذر مولى بني صبير بن يربوع في هجائه لثقيف: الوافر:

كما وضع الهجاء بني نمير

نميرُ جمرهُ العرب التي لم

وإني إذ أسبُّ بها كليباً

ولولا أن يقال هجاً نميراً

رغبنا عن هجاء بني كليب

ما ضرَّ تغليبٍ وأئل أهجوتها

وسوف يزيدكم صعة هجائي

وسمع الراعي منشداً ينشد: الطويل:

وعاوى عوى من غير شيء

رَمِيتهُ

بقافية أنفاذها تقطر الدما

قَرَى هِنْدُونِي إِذَا هَرَّ صَمَمَا

فارتاع له، وقال: لمن هذا؟ قيل: لجرير، قال: لعن الله من يلومني أن يغلبني مثل هذا!

وقد بنى الشعر لقوم بيوتاً شريفة، وهدم لآخرين أبنية منيفة:

وما هو إلا القول يسري

له عُرَّرَ في أوجهٍ ومواسم

فتغتدي

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي: سمعت أبا عمرو بن العلاء ورجل يقول: إنما

الشعر كالميسم. فقال: وكيف يكون ذلك كذلك؟ والميسم يذهب بذهاب الجلد ويدرس

مع طول العهد، والشعر يبقى على الأبناء بعد الآباء، ما بقيت الأرض والسماء! وإلى

هذا نحا الطائي في قوله: الطويل:

هو الوَسْمُ لا ما كان في

الشَّعْرِ وَالْجِلْدِ

وَأَنِّي رَأَيْتُ الْوَسْمَ فِي

خُلُقِ الْفَتَى

وقال عمر، رحمة الله عليه: تعلموا

الشعر؛ فإن فيه محاسن تُبتغى،

ومساوئ تُتقى.

وقال أبو تمام: الكامل:

إِنَّ القَوَافِيَّ والمَسَاعِيَّ لم  
تَزَلْ

مثلَ النظامِ إذا أصابَ قَرِيدَا

في الشعرِ كانَ قلائدًا  
وعقودًا

هِيَ جَوهَرُ نثرِ فَإِنَّ أَلْفَتَهُ

مِنَ أَجْلِ ذلِكَ كَانَتِ العَرَبُ  
الألَى

يَدعُونَ هَذَا سُؤدَدًا مَجْدُودَا

جُعِلَتْ لَهَا مِرْرُ القَصِيدِ قِيودَا

وَتِينُ عِنْدَهُمُ العُلَا إِلاَّ إِذَا

وقال علي بن الرومي: الطويل:

أرى الشعرَ يحيي الناسَ  
والمجدَ بالذي

تُبَقِّيهِ أرواحُ له عَطِرَاتُ

وما الناسُ إِلاَّ أَعْظُمُ  
تَخِرَاتُ

وما المجدُ لولا الشَعْرُ إِلاَّ  
معاهدُ

بعض ما قاله الرسول الكريم

رجعت إلى ما قطعت، مما هو أحق وأولى، وأجل وأعلى، وهو كلام رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الكريم النجْر، العظيم القدر، الذي هو النهاية في البيان، والغاية في البرهان،

المشتمل على جوامع الكلم، وبدائع الحكيم، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنا أفصح العرب، بيّد أُنبي من قريش، واسترضعت في سعد بن بكر!" وليس بعضُ كلامه بأولى من بعض بالاختيار، ولا أحق بالتقديم والإيثار؛ ولكني أورد ما تيسر منه في أول هذا الكتاب استفتاحاً، وتيمناً بذلك واستنجاحاً.

وهذه شذوْرٌ من قوله صلى الله عليه وسلم، الصريح الفصيح، العزيز الوجيه، المتضمن بقليلٍ من المباني كثير المعاني: قوله للأنصار: "إنكم لتقلون عند الطمع، وتكثرون عند الفزع".  
وقوله عليه الصلاة والسلام: "المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم". الناس كابل مائة لا تجدُ فيها راحلة".  
"إياكم وخصراء الدّمن". "كل الصيّد في جوف الفراء" - قاله لأبي سفيان صخر بن حرب-. "الناسُ معادن، خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فقهوا". "المؤمن للمؤمن كالبيان يشدُّ بعضه بعضاً".  
"أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم". "المتشبع بما لم يُعطَ كلابس ثوبَي زور". "المرأة كالضلع إن رُميت قوامها كسرتُها، وإن دأرتُها استمتعت بها". "اليدُ العليا خير من اليد السفلى". "مطل الغني ظلم".  
"يد الله مع الجماعة". "الحياة شيعته من الإيمان، مثلُ أبي بكر كالقَطَر، أينما وقع نفع". "لا تجعلوني في أعجاز كتبكم كقدح الراكب". "أربعة من كنوز الجنة: كتمان الصدقة والمرض والمصيبة والفاقة". "جنة الرجل داره". "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا". "كفى بالسلامة داءً". "إنكم لن تَسْعُوا الناسَ بأموالكم، فَسَعَوْهم بأخلاقكم". "ما قلَّ وكفى خيرٌ ممَّا كثر وألهى". "كلُّ مُيسرٍ لما خُلِقَ له". "اليمين جنتٌ أو مندمة". "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك". "أنصر أخاك ظالماً كان أو مظلوماً". "احترسوا من الناس بسوء الظن". "الندم توبة". "انتظار الفرج عبادة". "نعم

صَوْمَعَةَ الرَّجُلِ بَيْتُهُ". "المستشير مُعَانُ والمستشار مُؤْتَمَنٌ". "المرءُ كثيرُ بَأَخِيهِ". "إِنَّ لِلْقُلُوبِ صَدَأً كَصَدَأِ الْحَدِيدِ وَجِلَاؤُهَا الْإِسْتِغْفَارُ". "اليومُ الرِّهَانُ وَعَدَا السِّبَاقِ، وَالجَنَّةُ الْغَايَةُ". "كُلُّ مَنْ فِي الدُّنْيَا ضَيْفٌ، وَمَا فِي يَدَيْهِ عَارِيَةٌ، وَالضَيْفُ مُرْتَجِلٌ، وَالْعَارِيَّةُ مُؤَدَاةٌ".  
ومن جوامع كَلِمِهِ، عليه الصلاة والسلام، ما رواه أَهْلُ الصَّحِيحِ عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَقَّاصِ اللَّيْثِيِّ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: "إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا تَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجَرْتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهَجَرْتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ".

قال أبو القاسم حمزة بن محمد الكناني: سمعتُ أَهْلَ الْعِلْمِ يَقُولُونَ: هَذَا الْحَدِيثُ ثَلَاثُ الْإِسْلَامِ، وَالثَّلَاثُ الثَّانِي مَا رَوَاهُ النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "الْحَلَالُ بَيْنَ، وَالْحَرَامُ بَيْنَ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، فَمَنْ تَرَكَهَا كَانَ أَوْقَى لِدِينِهِ وَعِزِّضِهِ، وَمَنْ وَاقَعَهَا كَانَ كَالرَّاتِعِ حَوْلَ الْحِمَى، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمَهُ".  
قال: وَالثَّلَاثُ الثَّلَاثُ مَا رَوَاهُ مَالِكٌ عَنْ ابْنِ شَهَابٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَغْنِيهِ".

وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم، الشَّعْرَ وَأَثَابَ عَلَيْهِ، وَتَدَبَّرَ حَسَانَ بْنَ ثَابِتٍ إِلَيْهِ، وَقَالَ: "إِنَّ اللَّهَ لِيُؤَيِّدَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ مَا نَاقَحَ عَنْ نَبِيِّهِ".

ولما انتهى شعْرُ أَبِي سَفِيَانَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ إِلَى النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، شَقَّ

عليه فدعا عبد الله بن رَوَاحَةَ فَاسْتَنَشِدَهُ فَأَنشَدَهُ فَقَالَ: أَنْتَ شَاعِرٌ كَرِيمٌ، ثُمَّ دَعَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ فَاسْتَنَشِدَهُ فَأَنشَدَهُ، فَقَالَ: أَنْتَ تُحْسِنُ صِفَةَ الْحَرْبِ، ثُمَّ دَعَا حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ فَقَالَ: أَحِبُّ عَنِي، فَأَخْرَجَ لِسَانَهُ فَضَرَبَ بِهِ أُرْبَتَهُ؛ ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَحِبُّ أَنْ لِي بِهِ مَقُولًا فِي مَعَدٍ؛ وَلَوْ أَنَّ لِسَانًا قَرَى الشَّعْرَ لَفَرَّاهُ. ثُمَّ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يَمَسَّ مِنْ أَبِي سَفِيَانَ، فَقَالَ: وَكَيْفَ، وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ الرَّجِيمُ الَّتِي قَدْ عَلِمْتَ؟ فَقَالَ: أَسْأَلُكَ مِنْهُ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةَ مِنَ الْعَجِينِ! فَقَالَ: إِذْهَبْ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، وَكَانَ أَعْلَمَ النَّاسِ بِأَنْسَابِ قُرَيْشٍ، وَسَائِرِ الْعَرَبِ، وَعَنْهُ أَخَذَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعَمٍ عِلْمَ النِّسْبِ، فَمَضَى حَسَانُ إِلَيْهِ فَذَكَرَ لَهُ مَعَايِبَهُ، فَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ:  
الطويل،

وَأَنَّ سَنَامَ الْمَجْدِ مِنْ آلِ	بنو بنت مخزوم ووالدك
هاشم	العبد
وَمَنْ وَلَدَتْ أَبْنَاءَ زُهْرَةَ	كرام، ولم يقرب عَجَائِزِكَ
منهم	المجد
وَلَسْتُ كَعَبَّاسٍ وَلَا كَابِنِ	وَلَكِنْ لَنَيْمٌ لَا يَقُومُ لَهُ زَنْدٌ
أمه	
وَإِنْ امْرَأً كَانَتْ سُمَيَّةُ	وسمراء مغمور إذا بلغ
أمه	الجهد

وأنت زينم نيط في آل  
هاشم  
كما نيطاً خلفَ الراكب القَدْحُ  
الْقَرْدُ

فلما بلغ هذا الشعر أبا سفيان قال: هذا كلامٌ لم يَعْبُ عنه ابنُ أبي قُحافة يعني بني بنت مخزوم عبدَ الله وأبا طالب والزيبرَ بني عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أمُّهُمُ فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، وأخواتهم برة وأميمة والبيضاء، وهي أم حكيم، والبيضاء جدّة عثمان بن عفان أم أمه. وقوله: ومن ولدت أبناء زهرة منهم كرام يعني أميمة وصفية أم الزيبر بن العوام، أمها هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة.

وقوله: ولست كعباس ولا كإبن أمه أم العباس: نتيلة امرأة من التميم بن قاسط، وأخوه لأمه ضرار بن عبد المطلب. وقوله: وإن امرأ كانت سمية أمه سمية أم أبي سفيان، وسمراء. أم أبيه، وليس هذا موضع إطناب في رفع الأنساب. وكان عبدُ الأعلى بن عبد الرحمن الأموي عتَبَ على بعض ولد الحارث فقال له مُعَرَّضاً بما قال حسان: السريع،

إخال بالعم وبالجَدِّ  
الهج بحسان وأشعاره  
لولا سيوفُ الأزدِ لم تؤمنوا  
فتوعدوه، فخافهم، فقال: الطويل  
بني هاشم، عفواً عفا الله  
عنكم  
لكم حرمُ الرحمن والبيتُ  
والصفا  
مفتخراً بالقَدْحِ القَرْدِ  
فإنها أدعى إلى المجدِ  
ولم تقيموا سورة الحمدِ  
وإن كان ثوبي حشؤ ثيبه  
مجرم  
وجمّع وما ضمّ الحطيمُ  
وزمزمُ

فإن قلتم بادّهتنا بعظيمة  
وأسلم أبو سفيان - رحمه الله! - وشهد مع النبي، صلى الله عليه وسلم، يوم حنين، وكان ممسكاً بعلته حين فرّ الناس، وهو أحد الذين ثبتوا، وهم - على ما ذكره أبو محمد عبد الملك بن هشام - أبو بكر، وعمر، وعلي، والعباس، وأبو سفيان ابن الحارث، وابنه الفضل، وربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد، وإيمن بن أم أيمن بن عبدة قتل يومئذ، وبعضُ الناس يعدّ فيهم قثم بن العباس، ولا يعدّ أبا سفيان، وكان أبو سفيان من أشعر قريش، وهو القائل: الوافر،

لقد علمت قريش غيرَ فخرٍ  
وأكثرهم دُروعاً سابعاتٍ  
وآدفعهم عن الضراء عنهم

ويروى أن ابن سيرين قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم، في سفره قد شقق ناقته بزمامها حتى وضعت رأسها عند مقدمة الرحل إذ قال: يا كعبُ ابن مالك! أحد بنا! فقال كعب: الوافر،

قضينا من تهامة كلَّ حقٍ  
نخيرها ولو تطقت لقات

فقال عليه السلام: "والذي نفسي بيده لهي أشدُّ عليهم من رشق النبل!" ويقال: إن دوساً أسلمت قرقاً من كلمة كعب هذه، وقالوا: اذهبوا فخذوا لأنفسكم الأمان من قبل أن ينزل بكم ما نزل بغيركم!

وقتل النبي صلى الله عليه وسلم، النصر بن الحارث، وكان ممن أسير يوم بدر، وكان شديد العداوة لله ولرسوله، وقتله علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، صبراً، فعرضت للنبي صلى الله عليه وسلم، أخته قتيلة بنت الحارث - وفي بعض الروايات أن قتيلة أخته فأنشدته: الكامل

يا راكِباً إن الأثيلَ مَظنُّهُ  
أبلغُ نجها مَيِّتاً بِأَن تَحْيِيَهُ  
مَنِّي إليه وَعَبْرَةٌ مَسفوحَةٌ  
هل يسمَعُنِي التَّضْرُّ إنْ  
ناديته

لِلَّهِ أَرْحَامُ هُنَاكَ تَسْفُقُ

رَسَفَ المَقِيدِ وَهُوَ عَانَ موثِقُ  
فِي قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فَحْلُ  
مُعْرِقُ

من الفتى وهو المَغِيظُ  
المُحْتَقُ

وأحقهم إن كان عِنَقُ يُعْتَقُ

بأعزَّ ما يُغلى به مَنْ يُنْفِقُ

فذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رق لها ودمعت عيناه، وقال لأبي بكر: "لو كنت سمعتُ شعرها ما قتلته".

والنضر هذا هو النضر بن الحارث بن علقمة بن كَلْدَةَ بن عبد مناف بن عبد

الدار. قال الزبير بن بكار: وسمعت بعض أهل العلم يغمز في أبيات قتيلة بنت الحارث ويقول: إنها مصنوعة.

بعض ما قاله أبو بكر الصديق

ودخل أبو بكر الصديق رضوان الله عليه، على النبي عليه الصلاة والسلام وهو مُسَجَّى بَنُوبٍ، فكشَفَ عنه الثوبَ وقال: بأبي أنت وأمي! طِبْتَ حَيًّا

وميتًا، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوة،

فعظمت عن الصفة، وجللت عن البكاء، وخصصت حتى صرت مسلاة،

وعممت حتى صرنا فيك سواء. ولولا أن موتك كان اختياراً منك لجذنا

لموتك بالنفوس، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأتقدنا عليك ماء الشؤون. فأما

ما لا نستطيع نفيه عنا فكمد وإذناف يتحالفان ولا يبرحان. اللهم فأبلغه عنا

السلام، اذكرنا يا محمد عند ربك، ولنكن من بالك، فلولا ما خلقت من

السكينة لم نُقم لما خلقت من الوحشة، اللهم أبلغ نبيك عنا وأحفظه فينا،

ثم خرج.

قوله رضي الله عنه: لولا أن موتك كان اختياراً منك إثمًا يريد قول النبي

صلى الله عليه وسلم: "لم يُقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يُخير"

قالت عائشة رضي الله عنها: فسمعته وقد شخص بصره وهو يقول: "في

الرفيق الأعلى" فعلمت أنه خير، فقلت: لا يختارنا إذن، وقلت: هو الذي

كان يحدثنا. وهو صحيح.

وكان أبو بكر، لما تُوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، في أرضه

بالسج، فتواترت إليه الرسل، فأتى وقد ذهل الناس، فكانوا كالخرس،

وتفرقت أحوالهم، واضطربت أمورهم، فكذب بعضهم بموته، وصمت

آخرون فما تكلموا إلا بعد التغير، وخلط آخرون فلائوا، الكلام بغير بيان،

وحق لهم ذلك للرزية العظمى، والمصيبة الكبرى، التي هي بيضة العُقر، وبتيمة الدهر، ومدى المصائب، ومنتهى النوائب، فكل مصيبة بعدها جَلل عندها، ولذلك قال، صلى الله عليه وسلم: "لِيُعَزَّرَ المسلمون في مصائبهم المصيبة بي".

وكان عمر بين الخطاب، رضي الله عنه، ممن كذَّب بموته، وقال: ما مات، وليرجعه الله، فليقطعنَّ أيدي المنافقين وأرجلهم، يتمنون لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، الموت؛ وإنما واعدته ربه كما واعد موسى، وهو يأتيكم.

وأما عثمان، رضي الله عنه، فكان ممن أُخْرِس، فجعل لا يكلم أحداً، فيؤخذ بيده ويُجاء به فينقاد.

وأما علي، رضي الله عنه، فليط بالأرض، فقعد ولم يبرح البيت حتى دخل أبو بكر، وهو في ذلك جلد العقل والمقالة، فأكبَّ عليه، وكشف عن وجهه ومسحه، وقبَّل جبينه، وبكى بكاءً شديداً، وقال الكلام الذي قدَّمته. ولما خرج إلي الناس وهم في شديد عَمَرَاتِهِمْ، وعظيم سَكَرَاتِهِمْ، قام فخطب خطبة جُلَّها الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، قال فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وخَدَهُ لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وأشهد أن الكتاب كما نزل وأن الدين كما شرع، وأن الحديث كما حدث، وأن القول كما قال، وأن الله هو الحق المبين. في كلام طويل، ثم قال: أيها الناس؛ مَنْ كان يعبد محمداً فإنَّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حقٌّ لا يموت، وإن الله قد تقدَّم إليكما في أمره، فلا تدعوه جَرَعاً، وإن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم، وقبضه إلى ثوابه، وخلف فيكم كتابه، وسنة نبيه، فمن أخذ بهما عَرَفَ، ومن فرَّق بينهما أنكر؛ "يا أيها الذين آمنوا كونوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ"، ولا يَشْعَلَنَّكُمُ الشيطانُ بِمَوْتِ نَبِيِّكُمْ، وَيَفْتِنَنَّكُمْ عن دينكم؛ فعاجلوه بالذي تعجزونه، ولا تستنظروه فيلحق بكم.

فلما فرغ من خطبته قال: يا عمر، بلغني أنك تقول ما مات نبيُّ الله، أما علمت أنه قال في يوم كذا وكذا، وفي يوم كذا وكذا؛ قال الله تبارك وتعالى: "إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ"؟. فقال عمر: والله لكأنني لم أسمع بها في كتاب الله قَبْلُ؛ لما نزل بنا، أشهد أن الكتاب كما نزل، وأن الحديث كما حدث، وأن الله حيٌّ لا يموت، وإنا لله وإنا إليه راجعون! ثم جلس إلى جنب أبي بكر رحمه الله.

قالت عائشة، رضوان الله عليها: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، نجم النفاق، وارتدت العرب، وكان المسلمون كالغنم الشاردة، في الليلة الماطرة، فحمل أبي ما لو حملته الجبال لهاضها، فوالله إن اختلفوا في معظم إلا ذهب بحظه ورشده، وغناؤه، وكنيت إذا نظرت إلى عمر علمت أنه إنما خلق للإسلام، فكان والله أحوذياً نسيحاً وخَدِهِ، قد أعدَّ للأمر أقرانها.

وحدث أبو بكر بن دريد عن عبد الأول بن يزيد قال: حدثني رجل في مجلس يزيد بن هارون بالبصرة قال: لما تُوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، دُفِنَ ورجع المهاجرون والأنصار إلى رحالهم، ورجعت فاطمة إلى بيتها؛ فاجتمع إليها نساؤها، فقالت: الكامل؛

اغْبِرْ أَفَاقَ السَّمَاءِ، وَكُوِّرَتْ شَمْسُ النَّهَارِ، وَأَظْلَمَ

العصران  
فالأرض من بعد النبي كئيبة  
أسفاً عليه كثيرة الرجفان  
قلبيكه شَرِقُ البلاد وعزبها  
وليبكه الطور المعظم جوه  
يا خاتم الرسل المبارك  
صلى عليك منزل الفرقان  
ضوءه

وكان أبو بكر - رضي الله عنه - إذا أُثبي عليه يقول: اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، فاجعني خيراً مما يحسبون، واغفر لي برحمتك ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون.  
وقال رحمه الله في بعض خطبه: إنكم في مهل، من ورائه أجل، فبادروا في مهل آجالكم، قبل أن تنقطع آمالكم، فتردكم إلى سوء أعمالكم.  
وذكر أبو بكر الملوك فقال: إن الملك إذا ملك رَهْدَهُ اللهُ في ماله ورغبه في مال غيره، وأشرب قلبه الإشفاق؛ فهو يسخط على الكثير، ويحسد على القليل، جَذِلَ الظاهر، خزين الباطن، حتى إذا وَجِبَتْ نفسه، وتَصَبَّ عمره، وصَحَا ظله حاسبته فأشدد حسابه وأقلَّ عفوه.

وذكر أنه وصل إلى أبي بكر ماٍ من البحرين، فساوى فيه بين الناس، فغضبت الأنصار، وقالوا له: قَصَلْنَا! فقال أبو بكر: صدقتم، إن أردتم أن أفضلكم صار ما عملتموه للدينا، وإن صبرتم كان ذلك لله عز وجل! فقالوا: والله ما عملنا إلا لله تعالى، وانصرفوا؛ فَرَقِيَ أبو بكر المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي، صلى الله عليه وسلم؛ ثم قال: يا معشر الأنصار، إن شئتم أن تقولوا: إنا أَوْبناكم في ظلالنا، وشاطرناكم في أموالنا، ونصرناكم بأنفسنا لقلتم، وإن لكم من الفضل ما لا يُحصيه العدد، وإن طال به الأمد، فنحن وأنتم كما قال طَقِيل العتوي: الطويل:

جزي الله عنا جعفرأ حين  
أزلقت

أبوا أن يملونا ولو أن أمنا  
لملت

هُمُ أسكنونا في ظلال  
بيوتهم  
ظلال بيوت أدفأت وأظلت

فَقَر من كلامه رضي الله عنه: صنائع المعروف تقي مصارع السوء. الموت أهون مما بعده، وأشد مما قبله. ليست مع العزاء مصيبة، ولا مع الجزع فائدة. ثلاث مَنْ كُن فِيهِ كَنُّ عَلَيْهِ: البَغْي، والِنِكَث، والمِكر. إن الله قَرَن وَعَدَه بوعيد؛ ليكون العبد راعياً وراهباً. ولما توفي، رضي الله عنه، وقفت عائشة على قبره، فقالت: تَصَّرَ اللهُ وَجْهَكَ يا أبت، وشكر لك صالح سَعْيِكَ، فلقد كنت للدينا مذلاً بإدبارك عنها، وللآخرة مُعزراً بإقبالك عليها، ولئن كان أجل الحوادث بعد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، رزؤك، وأعظم المصائب بعده فقْدك، إن كتاب الله ليعدُّ بحسن الصبر عنك حسن العوض منك، وأنا أستنجز موعودَ الله تعالى بالصبر فيك، وأستفضيه بالاستغفار لك، أما لئن كانوا قاموا بأمر الدنيا فلقد قمت بأمر الدين لَمَا وَهَى شَعْبُهُ وتفاقم صدعُه، ورجفت جوانبه؛ فعليك سلام الله توديع غير قالية لحياتك، ولا زارية على القضاء فيك.  
وقال أبو بكر لبلال لما قُتل أمية بن خلف وقد كان يسوؤه سوء العذاب بمكة فيخرجه إلى الرَّمضاء، فيلقي عليه الصخرة العظيمة ليفارق دين الإسلام فيعصمه الله من ذلك: الوافر:

هَنِيئاً زادك الرحمن خيراً  
فقد أدركت، ثارك يا بلال

غداة تنوشك الأسل الطوال  
تخلط أنت ما هاب الرجال  
جلاً أطراف مئتيه الصقال  
فلا نكسا ووجدت ولا جباناً  
إذا هاب الرجال ثبت حتى  
على مفض الكلوم  
بمشرفي

بعض ما قاله عمر بن الخطاب  
وكتب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه! - إلى ابنه عبد الله: أمّا بعد، فإنه  
من اتقى الله وقاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن شكر له زاده، ومن أقرضه  
جرّاه؛ فاجعل التقوى عماد قلبك، وجلاء بصرك، فإنه لا عمل لمن لا نية له،  
ولا أجر لمن لا خشية له، ولا جديد لمن لا خلق له.  
ودخل عدي بن حاتم على عمر، فسلم وعمر مشغول، فقال: يا أمير  
المؤمنين، أنا عدي بن حاتم؛ فقال: ما أعرفني بك! أمنت إذ كفروا، ووفيت  
إذ عدّروا، وعرفت إذ أنكروا، وأقبلت إذ أدبروا! وقال رجل لعمر: من السيد؟  
قال: الجواد حين يُسبّأ، الحليم حين يُستجهل، الكريم المجالسة لمن  
جالسه، الحسن الخلق لمن جاوره.  
وقال رضي الله عنه: ما كانت الدنيا همّ رجل قط إلا لزم قلبه أربع خصال:  
فقر لا يدرك غناه، وهم لا ينقضي مداه، وشغل لا ينفد أولاه، وأمل لا يبلغ  
مُنتهاه.

فصول قصار من كلامه رضي الله عنه  
من كتم سرّه كان الخيّر في يده، أشقى الولاة من شقيت به رعيتّه.  
أعقل الناس أعدّهم للناس. ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من  
الطمع.

لا يكن حُبك كلفاً، ولا بُغضك تلفاً، مُر ذوي القربات أن يتراوؤوا، ولا  
يتجاوؤوا. قلما أدبر شيء فأقبل، أشكو إلى الله صغف الأيمن، وخيانة  
القوي، تكثر من العيال فإنكم لا تدرون بمن تُرزقون. لو أن الشكر  
والصبر بعيران ما باليت أيهما أركب. من لا يعرف الشرّ كان أجدراً أن يقع  
فيه.

وقال معاوية بن أبي سفيان لصعصعة بن ضوحان: صِف لي عُمر بن  
الخطاب، فقال: كان عالماً برعيتّه، عادلاً في قضيتّه، عارياً من الكبر، قبولاً  
للعذر، سهل الحجاب، مَضُون الباب، متحرّياً للصواب، رفيقاً بالضعيف، غير  
مُحابٍ للقريب، ولا جافٍ للغريب.  
وروي أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حجّ فلما كان بضجنان قال: لا  
إله إلا الله العليّ العظيم، المُعطيّ من شاء ما يشاء، كنت في هذا الوادي  
في مدرّعة صوف أزعى إبل الخطاب، وكان فظاً يُتبعيني إذا عملت،  
ويضربني إذا قصرت، وقد أمسيت الليلة ليس بيني وبين الله أحد، ثم  
تمثل: البسيط:

لا شيء مما ترى تبقى  
بشاشته  
لم تغن عن هُرْمز يوماً  
خزائنه  
ولا سليمان إذ تجري الرياح  
له  
أين الملوك التي كانت  
يبقى الإله ويؤدي المال  
والولد  
والخلد قد حاولت عاد فما  
خلدوا  
والجن والإنس فيما بينها ترد  
من كل صوب إليها وافد يقد

نوافلها

لا بد من وِزْدِهِ يوماً كما  
وَرَدُوا

حوضٌ هنالك مورودٌ بلا كدر

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتح مكة: الطويل:  
ألم تر أن الله أظهر دينه  
على كل دين قبل ذلك حائد  
تداعوا إلى أمرٍ من الغي  
وأمكنه من أهل مكة بعدما  
فاسدٍ

مسومةً بين الزبير وخالد

غداةً أجال الخيل في  
عَرَصاتِها

وأُمسى عداه من قتل  
وشاردٍ

فأُمسى رسول الله قد عَرَّ  
نَصْرُهُ

يريد الزبير بن العوام حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخالد ابن الوليد سيف  
الله تعالى في الأرض.  
ولما قتله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، قالت عائكة بنت زيد بن عمرو ابن نقي  
زوجته ترثيه: الخفيف:

لا تملني على الأمين النجيب  
لم يوم الهياج والتثويب

عَيْنُ جُودِي بَعْبَرَةٍ وَتَحِيْبِ  
فَجَعَنْتِي الْمَنُونُ بِالْفَارِسِ  
الْمُعِ

ر وغيث المحروم والمحروب

عَضْمَةُ النَّاسِ وَالْمَعِينُ عَلَى  
الدَّه

قد سقته المئونة كأس  
شعوب

قل لأهل الضراء والبؤس  
موتوا

بأبيض تال للكتاب منيب  
أخي ثقة في النائبات  
نجيب

وقالت أيضاً ترثيه: الطويل:

وَجَعَنِي فَيُرُوزُ لَا دَرَّ دَرُّهُ  
رُؤُوفٌ عَلَى الْأَدْنَى غَلِيظُ  
عَلَى الْعَدَا

سريع إلى الخيرات غير  
قَطُوبِ

مَتِي مَا يَقْلُ لَا يَكْذِبُ الْقَوْلَ  
فِعْلُهُ

وعاتكة هذه، هي أخت سعيد بن زيد، أحد العشرة الذين شهد لهم النبي،  
صلى الله عليه وسلم، بالجنة، وكانت تحت عبد الله بن أبي بكر، فأصابه  
سهم في عروة الطائف فمات منه، فتزوجها عمر، رضي الله عنه، فقتل  
عنها، فتزوجها الزبير ابن العوام فقتل عنها، فكان علي، رضي الله عنه  
يقول: من أحب الشهادة الحاضرة فليتزوج بعاتكة!

ومن كلام عثمان بن عفان

رضي الله عنه:

مَا يَرَعُ اللَّهُ بِالسُّلْطَانِ، أَكْثَرُ مِمَّا يَرَعُ بِالْقُرْآنِ. سيجعل الله بعد عشر يسراً، وبعد عي  
بيانا، وأتيم إلى إمام فعال، أحوج منكم إلى إمام قوال، قاله في أول خلافته وقد صعد  
المنبر وأرتج عليه.

وكتب إلى علي، رضي الله عنه، وهو محصور: أما بعد، فقد بلغ السيل الزبي، وجاوز  
الجزام الطيبين، وطمع في من كان لا يدفع عنه نفسه، ولم يعجزك كلثيم، ولم يغلبك  
كمغلب؛ فأقيل إلي، معي كنت أو علي، على أي أمرتك أحببت الطويل:

وإلا فأدركني ولما أمرق

فإن كنت مأكولاً فكن أنت  
أكلي

وهذا البيت للممزق العبدى، وبه سمي الممزق، واسمه شأس، وإنما تمثّل به عثمان، رضي الله عنه؛ وحدّاق أحل النظر يدفعون هذا، ويستشهدون على فساده بأحاديث تُناقضه ليس هذا موضعها.

قالوا: وكان عثمان، رضي الله عنه، أتقى لله أن يسعى في أمره عليّ، وعليّ أتقى لله أن يسعى في أمر عثمان، وهذا من قوله عليه السلام: أشقى الناس من قتل نبي أو قتل نبياً.

ومن كلام عثمان، رضي الله عنه وأكرم نزله، وقد تنكر له الناس: أمر هؤلاء القوم رعا عير، تطاطأت لهم تطاطأ الدلاء، وتلدت لهم تلدد المضطر، رأيتهم ألحف إخواناً، وأوهمني الباطل لهم شيطاناً. أحررت المرسون رستته، وأبلغت الرايع مسعته، فتفرقوا عليّ فرقا ثلاثاً، فصامت صمته أنفذ من صول غيره، وشاهد أعطاني شاهده ومنعني غائبه، ومتهافت في فتنة زينت شي قلبه، فأنا منهم بين السن لداد، وقلوب شداد، عذيري الله منهم، ألا ينهى عالم جاهلاً، ولا ينذر حليم سفيهاً؟ والله حسبي وحسبهما يوم لا ينطقون، ولا يؤذن لهم فيعتذرون.

سئل الحكم بن هشام فقال: كان والله خيار الخيرة، أمير البررة، قتيل الفجرة، منصور النصر، مخذول الخذلة، مقتول القتلة.

ونظير البيت الذي أنشده قول صخر الجعد: الطويل:

فإن كنت مأكولاً فكن أنت      فإن منايا القوم أكرم من  
أكلي      بعض

قال المتوكّل: أتيت بأسارى، فسمعت امرأة منهم تقول: الوافر:

أمير المؤمنين سمّا إلينا      سمّو الليث أخرج العريف  
فإن تسلم فعون الله نرجو      وإن نقتل فقاتلنا شريف

وقد ذكر بعض أهل العلم أنه لا يُعرف لعثمان شعر، وأنشد له بعضهم: الطويل:

عني النفس يُعني النفس حتى      وإن عضها حتى يضر بها  
يكفها      القفر

وما عُسرة فاصير لها إن تتابعت  
بباقية إلا سيتبعها يسر

وقول عثمان، رضي الله عنه فيما روى: ولم يغلبك كمغلب من قول امرئ القيس: الطويل:

فإنك لم يفخر عليك كفاخر      ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب  
وقال أبو تمام وذكر الخمر: الكامل:  
وضعيفة فإذا أصابت فرصة

من كلام عليّ بن أبي طالب

رضي الله عنه

لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل، وبؤجر التوبة لطول الأمل، ويقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين، إن أعطيت منها لم يشبع، وإن منح لم يفتح، يعجز عن شكر ما أوتي، ويتعجب الزيادة فيما بقي، ينهي ولا ينتهي، وأمر بما لا يأتي، يحب الصالحين ولا يعمل أعمالهم، ويبغض المسيئين وهو منهم؛ يكره الموت لكثرة ذنوبه، ويقبض على ما يكره الموت له، إن سقم ظل نادماً، وإن صح أمن لاهياً، يعجب بنفسه إذا غوفي، وتفتط إذا ابتلي، تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يغلبها على ما يستيقن، ولا يثق من الرزق بما ضمن له، ولا يعمل من العمل بما فرض عليه، إن استغنى بطر وفتن، وإن افتقر قنط وحزن، فهو من الذنب والنعمة موقر، يتعجب الزيادة ولا يشكر، ويتكلف من الناس ما لم يؤمر، ويضيع من نفسه ما هو أكثر، ويبالغ إذا سأل، ويقصر إذا عمل، يخشى الموت، ولا يبادر القوت، يستكثر من معصية غيره ما يستقل أكثره

من نفسه؛ ويستكثر من طاعته ما يستقله من غيره، فهو على الناس طاعين، ولنفسه مداهن، اللغو مع الأغنياء أحب إليه من الذكر مع الفقراء، يحكم على غيره لنفسه، ولا يحكم عليها لغيره، وهو يطاع ويخصى، ويستوفي ولا يوفي.  
وسئل، رضي الله عنه، عن مسألة فدخل مبادراً، ثم خرج في حذاء ورداء، وهو يتبسّم، ف قيل له: يا أمير المؤمنين، إنك كنت إذا سئلت عن مسألة كنت فيها كالسكة المّخّمة! فقال: إني كنت حاقناً ولا رأي لحاقن، ثم أنشأ يقول: المتقارب:

إذا المشكلات تصدّيت لي      كشفتُ حقائقها بالنظر  
وإن برقيت في مخيل الصوا      ب عمياء لا تجتليها الذكر  
مقنعةً بأمور الغيوب      وضعت عليها صحیح الفكر  
لساناً كشيقة الأرحبي      أو كالحسام اليماني الذكر  
وقلباً إذا استنطقته العيون      أمر عليها بواهي الدرر

ولستُ بأمّعة في الرجال      أسائل عن دَا ودَا ما الخبر  
ولكنني دَرِبُ الأصغرِين      أبين مع ما مضى ما غير  
وقال معاوية، رضي الله عنه، لضرار الصّدائي: يا ضرار، صِف لي علياً، فقال: أعفني يا أمير المؤمنين، قال: لتصفنه، فقال: أما إذ أذنت فلا بدّ من صفته: كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول قَصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستانس بالليل وظلمته، كان والله غزير الدمعة، طويل الفكرة، يقلب كفه، ويخاطب نفسه، يُعجبه من اللباس ما قصّر، ومن الطعام ما خشن، وكان فينا كأحدنا، يُجيبنا إذا سالناه، ويبتئنا إذا استبتأناه، ونحن - مع تقريبه إيانا، وفزبه منا - لا نكاد نكلمه لهيبته، ولا تبتدئه لعظمته، يعظم أهل الدين، ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا يتأس الضعيف من عدله، وأشهد لقد رأيتُه في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، وقد مثّل في محرابه، قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: يا دنيا، إليك عني! عرّي عيري، ألي تعرّصت، أم إلي تشوّفت؟ هيهات! قد باينتك ثلاثاً، لا رجعة لي عليك! فعمرك قصير، وخطرك حقير، وخطبك يسير! أه من قلة الزاد، وبُعد السفر، ووَحشة الطريق! فبكي معاوية حتى أحصلت دموعه لحيته؛ وقال: رجم الله أبا الحسن! فلقد كان كذلك، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال: حزن من دُبَح وأجدها في جبرها! وقال علي، رضوان الله عليه: رجم الله عبداً سمع فوعى، ودعيت إلي الرشاد فدنا، وأخذ بحجرة هادٍ فنجأ، وراقب ربه، وخاف دنّبه، وقدم خالصاً، وعمل صالحاً، واكتسب مدخوراً، واجتنب محذوراً، ورمى عرساً، وكابر هواه، وكذب مئاه، وحذر أجلاً، ودأب عملاً، وجعل الصبر رغبة حياته، والثقى عُدّة وفاته، يُظهر دون ما يكتُم، ويكتفي بأقل مما يعلم، لزم الطريقة الغراء، والمحجة البيضاء، واغتنم المهل، وبادر الأجل، وتزوّد من العمل.

ولما رجع، رضي الله عنه، من صفين، فدخل أوائل الكوفة إذا قبر، فقال: قبر من هذا؟ ف قيل: خباب بن الأرت، فوقف عليه، وقال: رحم الله خباباً! أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً، وابتلّي في جسمه أحوالاً، ولن يضع الله أجر من أحسن عملاً.

ومضى فإذا هو بقبور، فوقف عليها، وقال: السلام عليكم أهل الديار الموحّشة، والمحال المقيرة، أنتم لنا سلف، ونحن لكم تبع، وبكم - عمّا

قليل - لاجفون؛ اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز عنا وعنهم بعفوك؛ طوبى لمن ذكر المعاد، وعمل للحساب، وقنع بالكفاف. ثم التفت، رضي الله عنه، إلى أصحابه، فقال: أما إنهم لو تكلموا لقالوا: وجدنا خير الزاد التقوى.

وَدَمَّ رَجُلٌ الدُّنْيَا بِحَصْرَةِ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: دَارٌ صِدْقٌ لِمَنْ صَدَّقَهَا، وَدَارٌ نَجَاةٌ لِمَنْ فَهَمَ عَنْهَا، وَدَارٌ غِنَىٌ لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا، مَهِيْطٌ وَحَيٍّ اللَّهُ، وَمُصَلَّى مَلَائِكَتِهِ، وَمَسْجِدَ أَنْبِيَائِهِ، وَمَنْجَرٍ أَوْلِيَائِهِ، رَبِحُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ، وَاكْتَسَبُوا فِيهَا الْجَنَّةَ، فَمَنْ ذَا يَذُقُهَا، وَقَدْ آدَنْتَ بَيْنَهَا، وَنَادَتْ بِفِرَاقِهَا، وَذَكَرَتْ بِسُرُورِهَا السُّرُورَ، وَبِبِلَائِهَا الْبَلَاءَ، تَرْغِيْبًا وَتَرْهِيْبًا، فَبِأَيِّهَا الذَّامُ لَهَا، الْمَعْقَلُ نَفْسَهُ بَغْرُورِهَا، مَتَى خَدَعْتِكَ الدُّنْيَا؟ أَمْ بِمَاذَا اسْتَدَمَّتْ إِلَيْكَ، أَيْمَضَّرَعُ آبَائِكَ فِي الْبَلَى؟ أَمْ بِمَضْجَعِ أُمَّهَاتِكَ فِي التَّرَى، كَمْ مَرَضَتْ بِكَفَيْكَ، وَكَمْ عَلَلَّتْ بِبَيْدِكَ، تَطَلَّبُ لَه الشِّفَاءَ، وَتَسْتَوْصِفُ الْأَطْبَاءَ، عَدَاةٌ لَا يَنْفَعُهُ بَكَوْءُكَ، وَلَا يُغْنِي دَوَاؤُكَ.

فقر من كلامه رضي الله عنه: البشاشة فح المودة. والصبر قبر المغبون. والغالب بالظلم مغلوب. والحجر المغصوب بالدار رهن بخرابها. وما ظفر من ظفرت به الأيام. فسالم تسلم. رأي الشيخ خير من مشهد الغلام. الناس أعداء ما جهلوا. بقيه عمر المؤمن لا تمن لها، يدرك بها ما أفات ويحیی ما أمات. نقل هذا الكلام بعض أهل العصر، وهو أبو الفتح علي بن محمد البستي البسيط:

بقية العمر عندي ما لها وإن عدا وهو محبوب من

التمن

يستدرك المرء فيها ما أفات بي ما أمات ويمحو السوء

بالحسن

ويح

الدنيا بالأموال، والآخرة بالأعمال. لا تخافن إلا ذنبا، ولا ترجون إلا ربك. وجهوا آمالكم إلى من تحبه فلوئكم. الناس من خوف الذل في الذل. من أيقن بالخلف جاد بالعطية. بقيه السيف أتمى عددا، وأنجب ولدا - وقد تبينت صحة ما قال في بنيه وبني المهلب - إن من السكوت ما هو أبلغ من الجواب. الصبر مطية لا تكبو، وسيف لا يتبو. خير المال ما أعتاك، وخير منه ما كفاك، وخير إخوانك من واساك، وخير منه من كفاك شره. وقال بعض أهل العصر ما يشاكل هذا وهو أبو الحسن محمد بن لنك البصري: مجزوء الخفيف:

عن حديث المكارم

فهو في جود حاتم

عدبا في زماننا

من كفى الناس شره

أبو الطيب: البسيط:

من أكثر الناس إحسان

وإجمال

إنما لفي زمن القبيح به

إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه. قيمة كل امرئ ما يحسن. ذكر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ هذه الكلمة في كتاب البيان فقال: فلو لم تقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها شافية، كافية، ومجزية مغيية، بل لوجدناها فاضلة عن الكفاية، غير مقصرة عن الغاية، وأفضل الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه ظاهرا في لفظه، وكان الله قد أتته من ثياب الجلالة، وغشاه من نور الحكمة، على حسب نية صاحبه، وتقوى قائله، فإذا كان المعنى غريبا، واللفظ بليغا، وكان صحيح الطبع، بعيدا من الاستكراه، منزها عن الاختلال، مضمونا عن التكلف؛ صنع في القلوب صنيع العيث في التربة الكريمة، ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة، وتعدت من قائلها على هذه الصفة، أصحابها الله، عز وجل، من التوفيق،

ومَنَحَهَا من التَّأْيِيدِ، ما لا يمتنعُ من تعظيمها به صدورُ الجابرة، ولا يذهل عن قَهْمِهَا معه عقولُ الجهلة.

ومن دُعائه، رضي الله عنه في جروبه: اللهم أَنْتَ أَرْضِي للرضا، وَأَسْحَطْ للسُّخْطِ، وأقدر على أن تَغَيِّرَ ما كرهت، وأعلم بما تقدر، لا تُغَلِّبْ على باطل، ولا تعجز عن حق، وما أنت بغافل عما يعمل الظالمون.

وقال علي رضي الله عنه: الطويل:

لِمَنْ رايَةٌ سَوْدَاءُ يَحْفَقُ  
ظِلِّهَا  
إذا قيل قَدِّمَهَا حُضَيْنُ  
تَقَدِّمًا

فيوردها في الصَّفِّ حتى  
تردّها  
حياضُ المنايا تقطُرُ الموت  
والدَّما

جزى الله قوماً قاتلوا في  
لقائهم  
لدي الروعِ قوماً ما أعزَّ  
وأكرما

وأطيب أخباراً وأفضَلَ  
شِيمَةً  
إذا كان أصواتُ الرجال  
تَعَمُّعُما

حُضَيْنُ الَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ: أَبُو سَاسَانَ الْحُضَيْنِيُّ بَنُ الْمُنْذِرِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ وَعَلَةَ الرَّقَاشِيِّ، وَكَانَ صَاحِبَ رَأْيَةٍ يَوْمَ صِفِّينَ.

ويروى عنه أنه قال بعد وفاة فاطمة رضي الله عنها: الطويل:

أرى عِلَلَ الدُّنْيَا عَلَيَّ كَثِيرَةً  
لكل اجتماع من خليلين فُرْقَةً  
وصاحِبُهَا حتى المماتِ عليلُ  
وإن الذي دُونَ المماتِ قليلُ

وإن افتقادي فاطمًا بعد  
أحمدٍ  
دليل على ألا يدومَ خَلِيلُ

ولما قَتَلَ عمرو بن عبد وُدٍّ سقط فانكشفتْ عَوْرَتَهُ، فتنحى عنه وقال: الكامل "

ألى ابنُ عبد حين سَدَّ أليَّةً وحلَفْتُ  
فاستمعوا من الكذاب

ألا يفر ولا يملل فالتقى  
أَسَدَانِ يَضْطَرِبَانِ كُلِّ  
ضَرَابِ

اليوم يمنعني الفرارُ  
حفيظتي  
ومصمَّمُ في الرَّأْسِ ليس  
بِتَّابِ

أعرضتُ حين رأيتُه متقطراً  
وعففتُ عن أثوابه ولو أنني  
كالجِدْعِ بين دَكَادِكِ وَرَوَابِي  
كنت المقطر بَرْنِي أَثوابِي

تَصِرُ الحِجَارَةُ من سفاهة  
رأيه  
وتَصَرَّتْ دِينَ مُحَمَّدٍ بصواب

لا تحسبنَّ اللّهَ خاذلَ دينِهِ  
ونبيه يا مَعْشَرَ الأحزابِ

في أبيات غير هذه، وبعضُ الرواة يَنْفِيها عن علي رضي الله عنه.

وعمرُو هذا هو: ابن عبد وُد بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي، وكان قد جَزَعَ المذاد، وهو موضع حُفِر فيه الخندقُ يومَ الأحزاب، وفي ذلك يقول الشاعر: الكامل:

عمرُو بن وُدٍّ كان أولَ فارسِ  
يَلِيلِ  
جَزَعَ المذادَ وكان فارسَ

ولما صار مع المسلمين في الخَنْدَقِ دعا إلى البراز، وقال: مجزوء الكامل:  
ولقد بَحِثْتُ مِنَ النِّدَا  
ءِ بجمعمهم هلْ مِنْ مُبَارِزُ

ووقفتُ إذ نكلَ الشجَا  
ع بموقفِ البطلِ المتأجِرِ  
إني كذلك لم أزلُ  
متسرِّعاً نحو الهزاهزِ  
إنَّ السماحة والشجَا  
عة في الفتى خيرُ الغرائرِ  
فبرز علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقال: يا عمرو، إنك عاهدت الله لقريش ألا يدعوك أحدٌ إلى خلتين إلا أخذت إحداهما، فقال: أجل! قال: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام. قال: لا حاجة لي بذلك، قال: فإني أدعوك إلى المبارزة، فقال: يا ابن أخي، ما أحبُّ أن أقتلك! قال علي: لكني والله أحبُّ أن أقتلك، فحمي عمرو، فاقتحم عن فرسه وعزَّقه ثم أقبل إلى علي: الكامل:

فتجاوَلَا كغماتين تكنفتُ  
في موقف كادت نفوسُ  
كُماتِه  
مَنِّيهِما ربحاً صبأً وشَمَالِ  
تُبترُّ قَبْلَ تَوُرْدِ الآجَالِ

وعلت بينهما غبرة سترتُهما فلم يرع المسلمون إلا التكبيرة فعلموا أن علياً قتله. ولما قُتل عمرو جاءت أخته فقالت: من قتله؟ فقيل: علي بن أبي طالب، فقالت: كُفء كريم! ثم انصرفت وهي تقول: البسيط:

لو كان قاتلُ عمرو غيرِ  
قاتلِه  
لكنت أبكي عليه آخرَ الأبدِ

لكنَّ قاتلَه من لا يُعابُ بهِ  
وكان يُدعى قديماً بيضةَ  
البلدِ

من هاشمٍ في ذراها وهِي  
صاعِدةٌ  
إلى السماء تُميثُ الناسَ  
بالحسدِ

قومُ أبى الله إلا أن يكونَ  
لهم  
مكارمُ الدِّينِ والدُّنيا بلا أمدِ

يا أم كلثوم بَكِيهٍ ولا تَدَعِي  
بكاءَ مُعولَةٍ حَرَى على وَليدِ  
أم كلثوم: بنت عمرو بن عبد ود. وبيضة البلد تَمْدُحُ به العربُ وتَدُمُ؛ فمن مَدَحَ به جعله أصلاً، كما أن البيضة أصلُ الطائر. ومن ذم به أراد أن لا أصل له. قال الراعي يهجو عدي بن الرقاع العاملي: البسيط:

يا من تَوَعَدني جَهلاً بكثرتِه  
متى تهَدِّدني بالعزِّ والعدَدِ  
أنت امرؤ نال من عِرْصِي  
كعزة العَيْرِ يَرعى تَلَعَةَ

وعزُّته  
لو كنتَ من أحدٍ يهَجِي  
الأسدِ

هجوَتكُمُ  
يا ابن الرِّقاع ولكن لَسْتَ من  
أحدِ

تأبى قُضاةُ أن تَرَضَى لَكُمُ  
نَسباً  
وابنا نزارٍ؛ فَأَنتمُ بيضةُ البلدِ

وقال أبو عبيدة: عاملة بن عدي بن الحارث بن مرة بن أد بن زياد ابن يشجب، يُطَعَنُ في نسبه من قحطان، ويقال: هو عاملة بن معاوية بن قاسط ابن أهيب؛ فلذلك قال الراعي هذا. ويقال: إن جندل بن الراعي قالها، وقد قال يحيى بن أبي حفصة الأموي في عاملة الطويل:

ولسنا نُبالِي تَأِي عاملةً  
أجَدَ بها من نحو بُصْرَى  
التي  
انحدارُها

تدافَعُها الأحياءُ حتى كأنها  
ثياب بدا للمشتريين عَوَارُها  
قذفنا بها لَمَّا نأثُ قَدْفُ  
بسودِ حصَى حَفَّتُ عليه  
صِعَارُها

حاذفُ

ويشبه قول علي رضي الله عنه وعففت عن أثوابه قولَ عنتره بن شداد العبسي الكامل:

هَلَّا سَأَلْتِ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ      إِنْ كُنْتِ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي

يُخِيرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ      أَعْنَى الْوَعَى وَأَعِيفٌ عِنْدَ  
أَنْبِي      الْمُعْتَمِ

وقال حبيب بن أوس الطائي البسيط:

إِنَّ الْأَسْوَدَ أَسْوَدَ الْغَابِ      يَوْمَ الْكَرْبِ فِي الْمَسْلُوبِ لَا  
هَمُّهَا      السَّلْبِ

قد علفت بذيل ما أوردته، وألحقت بطرف ما جردته، من كلام سيد الأولين والآخرين، ورسول رب العالمين، صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأخيار الطيبين الطاهرين، قطعةً من كلام الخلفاء الراشدين، قدمتها أمام كلِّ كلام، لتقدمهم على الخلق، وأخذهم بقصب السبق، وهم كما قال بعض المتكلمين يصف قوماً من الزهاد الواعظين، جَلُّوا بكلامهم الأبصار العلية، وشحذوا بمواعظهم الأذهان الكليّة، ونبهوا القلوب من رقدتها، وتقلوها عن سوء عاداتها، فشَقُّوا من داء القسوة، وعَبَّأوا العفلة، وداوَّوا من العيِّ الفاضح، ونهَجُّوا لنا الطريقَ الواضح. وأثَّرت أن الحق بعد ذلك جملةً من سليم كلام سائر الصحابة والتابعين، رضي الله عنهم أجمعين، وأدرج في دِرح كلامهم وأثناء نثرهم ونظمهم، ما التفَّ عليه والتفَّت إليه، وتعلق بأغصانه، وتشبَّت بأفئانه، كما تقدّم، وأخرج إلى صفات البلاغات، وأخذ بعد ذلك في نظم عقود الآداب، ورَفَمَ برود الألباب: البسيط،

من كل معنَى يكاد الميثُ      حُسْنًا وَيَعْبُدُهُ الْقِرْطَاسُ  
يَفْهَمُهُ      وَالْقَلَمُ

من كلام الصحابة والتابعين

قال معاوية بن أبي سفيان رحمه الله: أَفْضَلُ مَا أُعْطِيَ الرَّجُلُ الْعَقْلُ وَالْحِلْمُ، فَإِذَا ذُكِرَ ذَكَرَ، وَإِذَا أَسَاءَ اسْتَغْفَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَنْجَزَ. وصف معاوية الوليد بن عُثْبَةَ فقال: إنه لبعيد العُور، ساكن الفور، وإن العودَ من لِحائه، والولد من أبائه، والله إنه لنبات أصل لا يخلف، ونجل فحل لا يقرف. ومرض معاوية مرضاً شديداً فأَرْجَفَ به مَصْقَلَةُ بن هُبَيْرَةَ وساعده قَوْمٌ على ذلك، ثم تماثل وهم في إرجافهم، فحمل زياد مَصْقَلَةَ إلى معاوية وكتب إليه: إنه يَجْمَعُ مَرَاقًا مِنَ الْعَرَّاقِ فَيُرْجِفُونَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وقد حملته إليه ليرى رأيه فيه". فقدم مَصْقَلَةَ وجلس معاوية للناس؛ فلَمَّا دخل عليه قال: ادْنُ مِنِّي فَدَنَا مِنْهُ، فَأَخَذَهُ بِيَدِهِ فَجَذَبَهُ فَسَقَطَ مَصْقَلَةَ، فقال معاوية: مجزوء الكامل

أَبْقَى الْحَوَادِثَ مِنْ خَلِي      لَكَ مِثْلُ جَنْدَلَةِ الْمَرَاجِمِ  
صُلْبًا إِذَا حَارَ الرَّجَا      لُ أَبْلٍ مَمْتَنَعِ الشُّكَاكِمِ  
قَدْ رَامَنِي الْأَعْدَاءُ قَب      لَكَ فَا مَتَّعْتُ عَنِ الْمِظَالِمِ

قال مَصْقَلَةُ: يا أمير المؤمنين، قد أبقى الله منك ما هو أعظم من ذلك بطشاً وجليماً راجحاً وكلاً ومرعياً لأوليائك، وسُمّاً ناقعاً لأعدائك، كانت الجاهلية فكان أبوك سيّد المشركين، وأصبح الناس مسلمين؛ وأنت أمير المؤمنين، وقام.

فوصله معاوية، وأذن له في الانصراف إلى الكوفة. ف قيل له: كيف تَرَكْتَ معاوية؟ فقال: زعمتم أنه لما به، والله لقد غمزني غمزة كاد يَحْطِمُنِي، وَجَدْتَنِي جَذْبَةً كَادَ يَكْسِرُ عُضْوًا مِنِّي! ودخل الأحنف بن قيس على معاوية وافداً لأهل البصرة، ودخل معه التمر بن قُطَيْبَةَ، وعلى النمر عبادة قَطَوَانِيَةَ، وعلى الأحنف مِدْرَعَةَ صُوفٍ وَسَمْلَةَ، فَلَمَّا مَثَلَا بَيْنَ يَدَيِ مَعَاوِيَةَ اقْتَحَمْتُهُمَا عَيْنُهُ؛ فقال النمر: يا أمير المؤمنين، إِنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَكَلِّمُكَ، وَإِنَّمَا

يكلّمك مَنْ فيها! فأوماً إليه فجلس، ثم أقبل على الأحنف فقال: ثم مه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أهل البصرة عدد يسير، وعَظْمُ كسير، مع تتابع من المَحُول، واتصال من الدُّحُول فالمكثُر فيها قد أطرق، والمُقلُّ قد أمْلَق، وبلغ منه المُخَنَق؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن ينعشَ الفقيرَ، ويَجْبُرَ الكسير، ويسهل العسير، ويصْفَحَ عن الدُّحُول، ويُدَاوِي المَحُول، ويأمر بالعطاء؛ ليكشف البلاء، ويُزيل اللأواء. وإن السيد من يعم ولا يخص ومَنْ يدعو الجفلى، ولا يدعُو التقرى، إن أحسنَ إليه شكر، وإن أسبى إليه عَفَرَ، ثم يكون وراء ذلك لرعيته عماداً يدفَعُ عنها الملمات، ويكشفُ عنهم المعضلات.

فقال له معاوية: ها هنا يا أبا بحر ثم تلا: "وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ". ومن جميل المجاورات ما رواه المدائني، قال: وَقَدَ أَهْلُ الْعِرَاقِ عَلَى مَعَاوِيَةَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَمَعَهُمْ زِيَادٌ، وَفِيهِمُ الْأَحْنَفُ، فَقَالَ زِيَادٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَشَخَّصْتُ إِلَيْكَ أَقْوَامًا الرِّغْبَةُ، وَأَقْعَدَ عِنْدَكَ آخِرِينَ الْعُدْرِ، فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سَعَةِ فَضْلِكَ مَا يُجَبِّرُ بِهِ الْمُتَخَلِّفَ، وَيَكْفَأُ بِهِ الشَّائِخَ. فقال معاوية: مرحباً بكم يا معشر العرب، أما والله لئن قرّقت بينكم الدعوة، لقد جمعتمكم الرجم؛ إن الله اختاركم من الناس ليختارنا منكم، ثم حفظ عليكم تَسَبُّكُمُ بآن تخير لكم بلاداً تجتاز عليها المنازل، حتى صفاكم من الأمم كما تُصَفِّي الفضة البيضاء من حَبِيثِهَا؛ فصونوا أخلاقكم، ولا تُدنسُوا أنسابكم وأعراضكم، فإن الحسن منكم أحسنٌ لِقُرْبِكُمْ منه، والقيح منكم أقيح لبعدكم عنه.

فقال الأحنف: والله يا أمير المؤمنين، ما نَعَدَمُ منكم قائلاً جزيلاً، ورأياً أصيلاً، ووعداً جميلاً؛ وإن أخاك زياداً لمتبعٌ آثارك فينا، فنستمع الله بالأمير والمأمور، فإنكم كما قال زهير، فإنه ألقى على المداحين فصول القول: الطويل

وما يكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا  
وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِيئَةَ إِلَّا  
وَشِيحُهُ

وهذان البيتان لزهير بن أبي سلمى المزني في قصيدة يقول فيها:

وفيهم مقامات حسانٌ  
وَجُوهٌهَا  
عَلَى مُكْتَرِبِهِمْ رِزْقٌ مَنْ  
يَعْتَرِبُهُمْ  
سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيِّ  
يُدْرِكُوهُمْ

قال بعض أهل العلم بالمعاني: أعجب بقوله: ولم يألوا؛ لأنه لما ذكر السعي بعدهم، والتخلف عن بلوغ مساعيهم، جاز أن يتوهم السامع أن ذلك لتقصير الطالبين في طلبهم؛ فأخبر أنهم لم يألوا، وأنهم كانوا غير مقصرين وأنهم - مع الاجتهاد - في المتأخرين؛ ثم لم يرَضَ بأن يجعل مجدهم طارفاً فيهم، ولا جديداً لديهم، حتى جعله إزناً عن الآباء، يتوارثه سائر الأبناء، ثم لم يرَضَ أن يكون في الآباء حتى جعله موروثاً عن آباءهم، وهذا لو تكلفه متكلف فتي المنشور دون الموزون لما كان له هذا الاقتدار مع هذا الاختصار.

وكانت قريشٌ معجبةً بشعر زهير، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنا قد سمعنا كلامَ الخطباء والبلغاء، وكلامَ ابن أبي سلمى، فما سمعنا مثلَ كلامه من أحد؛ فجعلوا ابنَ

أبي سُلَمَى نهايةً في التجويد، كما ترى.  
وَدُكِّرَ أن عمرَ بن الخطاب، رضي الله عنه قال: إن من أشعر شعرائكم زُهَيْرًا، كان لا يُعَاطِلُ بين الكلام، ولا يتبع حُوشِيَهُ، ولا يمدح الرجلَ إلا بما يكون في الرجال.  
وأخذ معنى قولِ زُهَيْرٍ:

سعى بعدهم قوم لكي يدركوهم

طُرَيْحُ بن إسماعيل التَّقْفِي، فقال لأبي العباس عبد الله بن محمد بن علي السفاح:  
المسرح

قَدْ طَلَبَ النَّاسُ مَا بَلَغَتْ وَلَمْ      يَأْلُوا فَمَا قَارَبُوا وَقَدْ جَهَدُوا  
فَهُمْ مُلُوكٌ مَا لَمْ يَرَوْكَ، فَإِنْ      لَاحَ لَهُمْ مِنْكَ بَارِقٌ حَمَدُوا  
تَعْرَهُمْ رِعْدَةٌ لَدَيْكَ كَمَا      فُرِّقَتْ تَحْتَ الدُّجْنَةِ الصَّرْدُ  
لَا خَوْفَ ظَلَمٍ وَلَا قِلَى خُلُقٍ      لَكِنْ جَلَالًا كَسَاكُهُ الصَّمَدُ  
مَا يُبْقِكُ اللَّهُ لِلْأَنَامِ قَمَا      يَفْقَدُ مِنَ الْعَالَمِينَ مَفْتَقَدُ

وقال معاوية رحمه الله: المروءة: احتمال الجريرة، وإصلاح أمر العشيرة؛  
والنبيل: الحلم عند الغضب، والعفو عند المقدرة.

فَقَرَّ مِنْ كَلَامِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا رَأَيْتُ تَبْذِيرًا قَطُّ إِلَّا وَإِلَى جَنْبِهِ حَقٌّ مُضَيِّعٌ.  
أَنْقَضَ النَّاسُ عَقْلًا مَنْ ظَلَمَ مَنْ هُوَ دُوْبَةٌ. أَوْلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى  
العقوبة. التسلط على المماليك من لؤم المقدرة وسوء المملكة.

وقال يحيى بن خالد: ما حسن أدب رجل إلا ساء أدب علمانه.

وقال معاوية: صلاح ما في يدك أسلم من طلب ما في أيدي الناس. عَصِيي  
عَلَى مَنْ أَمْلِكُ، وَمَا غَضِيي عَلَى مَنْ لَا أَمْلِكُ؟

ولما تُوقِي معاوية رحمه الله واستخلف يزيد ابنه اجتمع الناس على بابه،  
ولم يقدرُوا على الجمع بين تهنئة وتعزية، حتى أتى عبد الله بن همام

السُّلُولِي، فدخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين، أجزك الله علي الرزية،

وبارك لك في العطية، وأعانني على الرعية، فقد رزئت عظيمًا، وأعطيت

جسيمًا، فاشكر الله على ما أعطيت، واصبر له على ما رزيت؛ فقد فقدت

خليفة الله، وميخت خلافة الله؛ ففارقت جليلاً، ووهبت جزيلاً؛ إذ قضى

معاوية تحبه، فغفر الله ذنبه؛ ووليت الرياسة، فأعطيت السياسة؛ فأوردك

الله موارد السرور، ووفقك لصالح الأمور، وأنشده: البسيط

أَصْبِرْ، يَزِيدُ، فَقَدْ فَارَقْتَ ذَا      وَأَشْكُرُ جَبَاءَ الَّذِي بِالْمُلْكِ

ثِقَةَ      أَصْفَاكَ

لَا رُزَاءَ أَصْبَحَ فِي الْأَقْوَامِ      كَمَا رُزِئْتَ وَلَا عُقْبَى كَعُقْبَاكَ

تَعَلَّمَهُ

أَصْبَحْتَ وَالْيَ أَمْرِ النَّاسِ      فَأَنْتَ تَرْعَاهُمْ وَاللَّهُ يَرْعَاكَ

كَلَهُمْ

وَفِي مَعَاوِيَةَ الْبَاقِي لَنَا      إِذَا تُعِيَتْ وَلَا نَسْمَعُ بِمَنْعَاكَ

خَلْفُ

يريد أبا ليلي معاوية بن يزيد، وولي بعد أبيه شهوراً، ثم انخلع عن الأمر، فقال لقائل:  
البسيط:

وَالْمُلْكُ بَعْدَ أَبِي لَيْلَى لِمَنْ غَلِبَا

وأول من فتح الباب في الجمع بين تهنئة وتعزية عبد الله بن همام، فوجه الناس، ومن  
جيد ما قيل في ذلك قصيدة أبي تمام الطائي يمدح الواصل ويرثي المعتصم، يقول فيها:

الكامل:

إِنْ أَصْبَحَتْ هَضْبَاتُ قُدْسٍ      قَدَّرْ فَمَا زَالَتْ هِضَابُ شَمَامِ

أزالتها  
أو يُفْتَقَدُ ذُو النون في الهَيْجَا  
فقد  
دَقَعَ الإلهُ لنا عن الصَّمَامِ  
أو كنت منا غاربا غدوا فقد  
رُحْنَا بِأَسْمَى غَارِبٍ وَسَنَامِ  
تلك الرزِيَّةُ لا رزية مثلها  
والقَسْمُ ليس كسائرِ  
الأقسامِ

وهذا المعنى كثير.

وكان معاوية، رحمه الله، قد تركَ قولَ الشعرِ في آخر عمره، فنظر يوماً إلى جارية في داره ذاتَ خَلْقٍ رائعٍ، فدعاها فوجدها يكرأ فافترعها، وأنشأ يقول: الوافر:

سئمت غوايتي فأرَحْتُ  
وفيَّ عَلى تحملي اعتراضُ  
جلمي  
على أني أجيب إذا دَعَنِي  
ذواثُ الدَلِّ والحدق المِراضُ  
فقرُّ لجماعة الصحابة والتابعين

رضي الله عنهم

ابن عباس: الرخصة من الله صدقة، فلا تردوا صدقته. لكل داخل هيبة فابدأوه بالتحية، ولكل طاعم حشمة فابدأوه باليمين.

ابن مسعود رحمه الله: الدنيا كلها همومٌ، فما كان منها في سرور فهو ربح. عمرو بن العاص: من كثر إخوانه كثر عرماؤه. وقال: أكرِّمُوا سفهاءكم، فإنهم يكفونكم العار والنار.

المغيرة بن شعبة: العيشُ في بقاء الجِسْمَةِ. في كل شيء سَرَفٌ إلا في المعروف. هذا كقول الحسن بن سهل - وقد أنفقَ في دخول ابنته بُورَانَ على المأمون أموالاً عظيمة - فقيل له: لا خير في السرف. قال: لا سَرَفٌ في الخير. قَرَدَ اللَّفْظُ واستوفى المعنى.

مُعَاذُ بن جبل: الدين هَدَمٌ إلهي.

زياد: إرضَ من أخيك إذا وُلِّيَ وِلايَةً بَعْشُرٍ وَدَهَ قِبَلِهَا.

مصعب بن الزبير: التواضع من مصابيد الشرف.

الأحنف بن قيس: من لم يصيرَ على كلمة سَمِعَ كلماتٍ! وقيل له: من السيد؟ قال: الذي إذا أُقْبِلَ هابوه، وإذا أدْبِرَ غابوه. وله: سِرُّكَ مِنْ دَمِكَ. وله: مَنْ تَسَرَّعَ إِلَى الناسِ بما يَكْرَهُونَ قالوا فيه ما لا يَعْلَمُونَ. وله: الكامل مَنْ عُدَّتْ هَفواته.

وقال يزيد بن محمد المهلب: الطويل:

مِنَ ذَا الَّذِي تُرَضَى سَجَايَاهُ  
كَلِّهَا  
كَفَى المراءُ ثَبَلًا أَنْ تُعَدَّ  
مَعَايِيَهُ

الحسن البصري: أَلَا تَسْتَحْيُونَ مَنْ طُولُ ما لا تستحيون؟ ابنُ آدمَ راجِلٌ إلى الآخرة كل يوم مرحلة. ما أَتَصَقَّكَ مَنْ كَلَّفَكَ إِجْلَالَهُ، ومنعك مَالَهُ. بدن لا يشتكي مثل مال لا يزكى. إن امرأ ليس بينه وبين آدم أبٌ حي لمُعْرِقٍ في الموتى. قال الطائي: الطويل:

تَأْمَلُ رويداً هل تُعَدَّنُ سالماً  
إلى آدم أو هل تُعَدُّ ابنَ  
سالمٍ؟

وقال أبو نواس: الطويل:

وما الناسُ إلا هالكٌ وتبُّ  
هالكٍ  
وذو نسيبٍ في الهالكين  
عريقٍ

إذا امْتَحَنَ الدنيا لبيب  
تَكشَفَتْ

له عن عدوِّ في ثيابِ صديقٍ

وكان المأمون يقول: لو قيل للدنيا: صفي نفسك ما عدت هذا البيت؛ وهو مأخوذ من قول مُرَّاحِمِ العَقِيلِي: الطويل:

قَصَّيْنَ الهوى ثم ارتَمَيْنَ  
قلوبنا  
بَأْسُهُمْ أَعْدَاءَ وَهَنَّ صَدِيقُ

عمر بن عبد العزيز رحمه الله: ما الجزع مما لا بد منه؟ وما الطمع فيما لا يرجى؟ لا تكن ممن يلعن إبليس في العلانية ويواليه في السر. الشعبي: إني لأستحيي من الحق إذا عرفته ألا أرجع إليه. بعض ما قاله أهل البيت

قطعة من كلام ليني علي بن أبي طالب أهل البيت رضي الله عنهم: أهل الفضل والإحسان، وتلاوة القرآن، ونبعة الإيمان، وصوام شهر رمضان ولهم كلام يعرض في حلي البيت، ويُنقش في فص الزمان، ويُحفظ على وجه الدهر، ويُفصح قلائد الدر، ويُخجل نور الشمسي والبدر، ولم لا يطاون ديول البلاغة، ويحزون فضول البراعة، وأبوهم الرسول، وأمهم البتول، وكلهم قد غذي بدر الحكم، ورني في حجر العلم: الكامل:

ما منهم إلا مربي بالحجى  
أو مبشر بالأخوذية مؤدم

آخر: المتقارب:

تمته العرائن من هاشم  
إلى تبعة فرعها في السماء  
إلى النسب الأصرح الأوصح  
ومعرسها في ذرى الأبطح

وهم كما قال مسلم بن بلال العبدى - وقد قيل له: خطب جعفر بن سليمان خطبة لم ير أحسن منها، فلا يدري أوجهه أحسن أم خطبته؛ فقال: أولئك قوم بنور الخلافة يُشرفون، ولسان النبوة ينطقون، وفيهم يقول القائل: الكامل:

لو كان يوجد عرف مجد  
قبلهم  
لوجدته منهم على أميال

إن جنتهم أنصرت بين بيوتهم  
نور النبوة والمكارم فيهم  
كرماً يقبك مواقف السائل  
متوقد في الشيب والأطفال

وسئل سعيد بن المسيب: من أبلغ الناس؟ فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال السائل: إنما أعني من دونه. فقال: معاوية وابنه، وسعيد وابنه، وإن ابن الزبير لحسن الكلام، ولكن ليس على كلامه ملح. فقال له رجل: فإين أنت من علي وابنه، وعباس وابنه؟ فقال: إنما عتبت من تقاربت أشكالهم، وتدانت أحوالهم، وكانوا كسهم الجعبة، وبنو هاشم أعلام الأنام، وحكام الإسلام.

فصل لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

في ذكر قريش، وبنو هاشم

قد علم الناس كيف كرم قريش وسخاؤها، وكيف عقولها ودهاؤها، وكيف رأيها وذاؤها، وكيف سياستها وتديبها، وكيف إجازها وتحبيرها، وكيف رجاحة أحلامها إذا خفت الحليم، وحده أذهانها إذا كل الحديد، وكيف صبرها عند اللقاء، وثباتها في الأواء، وكيف وفاؤها إذا استخس العذر، وكيف جودها إذا حب المال، وكيف ذكرها لأحاديث غد وقله صدودها عن جهة القصد، وكيف إقرارها بالحق، وصفها عليه، وكيف وصفها له، ودعاؤها إليه، وكيف سماحة أخلاقها، وصوتها لأعراقها، وكيف وصلوا قديمهم بحدِيثهم، وطريقهم بتليدهم، وكيف أشبه علانيتهم سرهم، وقولهم فعلهم. وهل سلامة صدر أحدهم إلا على قدر بُعد غوره؟ وهل غفلته إلا في وزن صدق طئه، وهل طئه إلا كيقين غيره؟ وقال عمر: إنك لا تنتفع بعقله حتى تنتفع بطئه.

قال أوس بن حجر: المنسرح:

اللمعي الذي يظن لك الظن  
ن كأن قد رأى وقد سمعاً

وقال آخر: المتقارب:

مليح نجح أحو مازن  
فصيح يُحدث بالغائب

وقال بلعاء بن قيس: الطويل:

وَأَبْغَى صَوَابَ الرَّأْيِ أَعْلَمُ      إِذَا طَاشَ ظَنُّ الْمَرْءِ طَاشَتْ  
أَنَّهُ      مَقَادِرُهُ

بل قد علم الناس كيف جمالها وقوامها، وكيف نماؤها وبهاؤها، وكيف سَرَّوها ووجابئها، وكيف بيائها وجهارتها، وكيف تفكيرها وبداهتها، فالعرب كالبدن وقريش روحها، وقريش روح وبنو هاشم سرها ولبها، وموضع غاية الدين والدنيا منها، وبنو هاشم ملح الأرض، وزينة الدنيا، وحلى العالم، والسنام الأضخم، والكاهل الأعظم، ولباب كل جوهر كريم، وسر كل عنصُر شريف، والطينة البيضاء، والمغرس المبارك، والتصاب الوثيق، ومعدن الفهم، ونبوع العلم، ونهلان ذو الهضاب في الجلم، والسيف الحسام في العزم، مع الأناة والحزم، والصفح عن الجرم، والقصد عند المعرفة، والعفو بعد المقدره، وهم الأئف المقدم، والسنام الأكرم، وكالماء الذي لا ينجسه شيء، وكالشمس التي لا تحفى بكل مكان، وكالذهب لا يعرف بالنقصان، وكالنجم للخيران، والبارد للظمان، ومنهم الثقلان، والشهيدان، والأطيان، والسيطان، وأسد الله، وذو الجناحين، وذو قرنيها، وسيد الوادي، وساقى الحجاج، وخليم البطحاء، والبحر، والحبر، والأنصار أنصارهم، والمهاجرون من هاجر إليهم أو معهم، والصديق من صدقهم، والفاروق من فرق بين الحق والباطل فيهم، والحواري حواريهم، وذو الشهادتين لأن شهد لهم، ولا خير إلا لهم أو فيهم أو معهم، أو يضاف إليهم، وكيف لا يكونون كذلك ومنهم رسول رب العالمين، إمام الأولين والآخرين، ونجيب المرسلين، وخاتم النبيين، الذي لم يتم لنبى نبوة إلا بعد التصديق به، والبشارة بمجيئه، الذي عم برسالته ما بين الخافقين، وأظهره الله على الدين كله ولو كره المشركون؟.

قال الحسن بن علي، عليهما السلام، لحبيب بن مسلمة الفهري: رُبَّ مَسِيرٍ لَكَ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ! قَالَ: أَمَّا مَسِيرِي إِلَى أَبِيكَ فَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ! قَالَ: بَلَى! أَطَعْتَ فَلَانًا عَلَى دُنْيَا يَسِيرَةٍ، وَلِعَمْرِي لَئِنْ كَانَ قَامَ بُكَ فِي دُنْيَاكَ لَقَدْ قَعَدَ بُكَ فِي دُنْيَاكَ، فَلَوْ أَنَّكَ إِذْ فَعَلْتَ شَرًّا قَلْتَ خَيْرًا كُنْتَ كَمَنْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ" ولكنك كما قال: "كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ". وكان الحسن عليه السلام جواداً، كريماً، لا يردُّ سائلاً؛ ولا يقطع نائلاً، وأعطى شاعراً ما لا كثيراً فليل له: أَنْعَطِي شَاعِرًا يَعْصِي الرَّحْمَنَ، وَيَطِيعُ الشَّيْطَانَ، وَيَقُولُ الْبُهْتَانَ؟ فقال: إِنَّ حَيْرَ مَا بَدَلَتْ مِنْ مَالِكَ مَا وَقَيْتَ بِهِ عِرْصَتِكَ، وَإِنَّ مِنْ ابْتِغَاءِ الْخَيْرِ اتِّقَاءَ الشَّرِّ.

وقد روى مثل ذلك عن الحسين، رضي الله عنه، وقيل: إِنَّ شَاعِرًا مَدَحَهُ فَأَجْرَلَ ثَوَابَهُ، فَلِيَمَّ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ: أَتَرَانِي خِفْتُ أَنْ يَقُولَ: لَسْتُ ابْنَ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا ابْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ! ولكنني خفتُ أن يقول: لَسْتُ كَرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا كَعَلِيِّ، رضي الله عنه؛ فَيُصَدِّقَ، وَيُحْمَلَ عَنْهُ، وَيَبْقَى مُخَلِّدًا فِي الْكُتُبِ، مَحْفُوظًا عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّوَاةِ. فقال الشاعر: أَنْتَ وَاللَّهُ يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَعْرَفُ بِالْمَدْحِ وَالذَّمِّ مِنِّي.

ولما تُوفِّي الحسن أدخله قبره الحسين ومحمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم، ثم وقف محمد على قبره وقد اعزورقت عيانه بالدموع، وقال: رَجِمَكَ اللَّهُ أبا محمد! فلئن عَرَّتْ حياتك، لقد هَدَّتْ وفائك،

وَلَنَعْمَ الرُّوحُ، رُوحٌ تَضَمَّنَهُ بَدْنُكَ؛ ولنعم الجسدُ، جسدٌ تَضَمَّنَهُ كَفَنُكَ، ولنعم الكفنُ، كفنٌ تَضَمَّنَهُ لَحْدُكَ، وكيف لا تكون كذلك وأنت سليلُ الهدى، وخامسُ أصحابِ الكِسَاءِ، وحَلْفُ أَهْلِ التَّقَى؟ جَدُّكَ النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى، وأبوكَ عَلِيُّ الْمُرْتَضَى، وأُمُّكَ فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءِ، وَعَمُّكَ جَعْفَرُ الطَّيَّارِ فِي جَنَّةِ الْمَأْوَى، وَعَدَّتْكَ أَكْفُ الْحَقِّ، وَرَبَّيْتَ فِي حَجْرِ الْإِسْلَامِ، وَرَضَعْتَ تَدْيَ الْإِيمَانِ، فَطَبَّتَ حَيًّا وَمَيِّتًا؛ فإِنَّ كَانَتِ الْأَنْفُسُ غَيْرَ طَيِّبَةٍ لِفِرَاقِكَ؛ إِنَّهَا غَيْرُ شَاكِيَةٍ أَنْ قَدْ خَيْرَ لَكَ، وَإِنَّكَ وَأَخَاكَ لَسَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَعَلَيْكَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ مِنَ السَّلَامِ.

وقام رجلٌ من ولد أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب على قبره، فقال: إن أقدامكم قد ثقلت، وإن أعناقكم قد حملت إلى هذا القبر ولياً من أولياء الله يُبَشِّرُ نبيَّ الله بمقدمه، وتُفْتَحُ أبوابُ السماءِ لروحه، وتبتهج الحورُ العين بِلِقَائِهِ، وَيَأْتِسُرُ بِهِ سَادَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنْ أُمَّتِهِ، وَيُوحِشُ أَهْلَ الْحَجَا وَالْدِينِ قَفْدَهُ، رَحْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَعِنْدَهُ تَحْتَسِبُ الْمَصِيبَةُ بِهِ.

الفاظ لأهل العصر في

ذكر المصيبة بأبناء النبوة

قد نُعِيَ سَلِيلٌ مِنْ سُلَالَةِ النَّبِوَةِ، وَقَرَعُ مِنْ شَجَرَةِ الرَّسَالَةِ، وَعُضُوٌّ مِنْ أَعْضَاءِ الرَّسُولِ، وَجَزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ الْوَصِيِّ وَالتَّوَلِّ. كتبت وليتني ما كتبت وأنا ناعي الفضل من أقطاره، وداعي المجد إلى شق ثوبه وصداره، ومخبر أن شمس الكرم واجبة، والمآثر مودعة، وبقايا النبوة مرتفعة، وأمال الإمامة منقطعة، والدين منخزل واجم، وللتقوى دمعان هام وساجم. كتابي وقد شلت يمين الدهر، وقفت عين المجد، وقصرت باع الفضل، وكسفت شمس المساعي، وحسفت قمر المعالي، وتجددت في بيت الرسالة رُزءٌ جدد المصائب، واستعاد النوائب؛ كل هذا لفقد من حظ الكرم بربعه، ثم أدرج في بُرْده، وامتزج المجد به، فدفر بدفيه، إنها لمصيبة عمّت بيت الرسالة، وغضت طرف الإمامة، وتحيفت جانب الوحي المنزل، وذكرت بموت النبي المرسل. كتبت والدهر ينعي مهجته والمجد يندب بهجته، ومهابط الوحي والرسالة تُخني ظهورها أسفاً، ومآقي الإمامة والوصية والرسالة تُذري دموعها لهفاً؛ وذلك أن حادث قضاء الله استأثر بقرع النبوة، وعنصر الدين والمروءة.

عود إلى بعض ما قاله أهل البيت

ووقع بين الحسن ومحمد بن الحنفية لِحَاءٍ، وَمَشَى النَّاسُ بَيْنَهُمَا بِالتَّمَائِمِ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ بْنُ الْحَنْفِيَةِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؛ لَا تَفْضُلْنِي فِيهِ وَلَا أَفْضُلَكَ، وَأُمِّي امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ، وَأُمُّكَ فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءِ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَوْ مُلِئَتْ الْأَرْضُ بِمِثْلِ أُمِّي لَكَانَتْ أُمَّكَ خَيْرًا مِنْهَا؛ فَإِذَا قَرَأْتَ كِتَابِي هَذَا فَاقْدَمْ حَتَّى تَرْضَانِي، فَإِنَّكَ أَحَقُّ بِالْفَضْلِ مِنِّي. وخطب الحسين بن علي، رضوان الله عليهما، غداة اليوم الذي استشهد فيه، فحمد الله تعالى وأثنى عليه؛ ثم قال: يَا عِبَادَ اللَّهِ، اتَّقُوا اللَّهَ، وَكُونُوا مِنَ الدُّنْيَا عَلَى حَذَرٍ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا لَوْ تَقَيَّبَتْ عَلَى أَحَدٍ أَوْ بَقِيَ عَلَيْهَا أَحَدٌ لَكَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ أَحَقَّ بِالْبِقَاءِ، وَأَوْلَى بِالرِّضَاءِ، وَأَرْضَى بِالْقَضَاءِ؛ غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الدُّنْيَا لِلْفَنَاءِ، فَجَدِيدُهَا بَالٌ، وَنَعِيمُهَا مُضْمَجَلٌ، وَسُرُورُهَا مُكْفَهَرٌ، مَنْزِلٌ تَلْعَةُ، وَدَائِرٌ قُلْعَةُ؛ فَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

وكان لمعاوية بن أبي سفيان عينٌ بالمدينة يكتب إليه بما يكون من أمور الناس وقريش، فكتب إليه: إِنَّ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ أَعْتَقَ جَارِبَةَ لَهُ وَتَزَوَّجَهَا؛ فَكُتِبَ مَعَاوِيَةَ

إلى الحسين: مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ معاوية إلى الحسين بن عليٍّ. أَمَا بَعْدَ، فَإِنَّهُ بَلَّغَنِي أَنَّكَ تَزَوَّجْتَ جَارِيَتَكَ، وَتَرَكْتَ أَكْفَاءَكَ مِنْ فَرِيشٍ، مَمَّنْ تَسْتَجِبُهُ لِلْوَلَدِ، وَتَمَجِّدُ بِهِ فِي الصُّهْرِ، فَلَا لِنَفْسِكَ نَظَرْتَ، وَلَا لِوَلَدِكَ انْتَقَيْتَ.  
فَكُتِبَ إِلَيْهِ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ: أَمَا بَعْدَ، فَقَدْ بَلَّغَنِي كِتَابَكَ، وَتَغَيَّرَكَ إِيَّايَ بِأَنِّي تَزَوَّجْتَ مَوْلَاتِي، وَتَرَكْتَ أَكْفَائِي مِنْ فُرَيْشٍ، فَلَيْسَ قَوْقَ رَسُولِ اللَّهِ مِنْتَهُ فِي شَرَفٍ، وَلَا غَايَةَ فِي نَسَبٍ؛ وَإِنَّمَا كَانَتْ مِلْكٌ يَمِينِي، خَرَجْتَ عَنْ يَدِي بِأَمْرِ التَّمَسُّتِ فِيهِ ثَوَابَ اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ ارْتَجَعْتُهَا عَلَى سَنَةِ نَبِيِّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ رَفَعَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ الْخَسِيسَةَ، وَوَضَعَ عَنَّا بِهِ النَّقِيسَةَ؛ فَلَا لَوْمَ عَلَى أَمْرِي مُسْلِمٍ إِلَّا فِي أَمْرٍ مَأْتَمٍ، وَإِنَّمَا اللَّوْمُ لَوَمٌ الْجَاهِلِيَّةِ.

فَلَمَّا قَرَأَ مُعَاوِيَةَ كِتَابَهُ تَبَدُّهُ إِلَى يَزِيدَ فَقَرَأَهُ، وَقَالَ: لَسْتَدَّ مَا فَخَّرَ عَلَيْكَ الْحُسَيْنُ! قَالَ: لَا، وَلَكِنَّهَا أَلْسِنَةُ بَنِي هَاشِمِ الْجِدَادِ الَّتِي تَفْلِقُ الصَّخْرَ، وَتَعْرِفُ مِنَ الْبَحْرِ! وَالْحُسَيْنُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ! - هُوَ الْقَائِلُ: الْوَأَفْرَنِي

لِعَمْرُكَ إِنِّي لِأَجِبُ دَارًا      تَحُلُّ بِهَا سُكَيْنَةُ وَالرَّبَابُ  
أَجِبَهُمَا وَأَبْدُلُ كُلَّ مَالِي      وَلَيْسَ لِأَتَمِّ عِنْدِي عِتَابُ

سكينة: ابنته، والرباب: أمها، وهي بنت امرئ القيس بن الجرول الكلبية. وفي سكينه يقول عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي كذباً عليها:

قَالَتْ سُكَيْنَةُ وَالْدَمُوعُ  
دَوَارِفُ      تَجْرِي عَلَى الْخَدَيْنِ وَالْجِلْبَابِ

لَيْتَ الْمُغِيرِي الَّذِي لَمْ أَجْزِهِ  
كَانَتْ تَرْدُ لَنَا أَلْمَى أَيَّامَنَا  
حُبْرْتُ مَا قَالَتْ قَبْتُ كَأَنَّمَا  
أَسْكَيْنُ، مَا مَاءُ الْفُرَاتِ  
وَطَيْبُهُ

بِالَّذِ مِنْكَ، وَإِنْ نَأَيْتُ، وَقَلَمًا  
إِنْ تَبَدَّلِي لِي تَائِلًا أَشْفِي بِهِ  
وَعَصَيْتُ فِيكَ أَقَارِبِي  
وَتَقَطَعْتُ

فَتَرَكْتَنِي لَا بِالْوَصَالِ مُمْتَعًا  
فَقَعَدْتُ كَالْمُهْرِيْقِ فَصَلَّةً  
مَائِهِ

وكانت سكينة من أجمل نساء زمانها وأعقلهن، وكان مصعب بن الزبير قد جمَعَ بينها وبين عائشة بنت طلحة بن عبيد الله؛ فلما قُتِلَ مصعب قالت سكينة: الطويل:

فَإِنْ تَقْتُلُوهُ تَقْتُلُوا الْمَاجِدَ  
الَّذِي

وَقَبْلَكَ مَا حَاضَ الْحُسَيْنُ  
حَمَامًا      إِلَى الْقَوْمِ حَتَّى أُوْرِدُوهُ

وقال علي بن الحسين رحمه الله: لو كان الناس يعرفون جملة الحال في فضل الاستبانة، وجملة الحال في فضل التبيين، لأعربوا عن كل ما يتجلجج في صدورهم، ولوجدوا من برِّ اليقين ما يغنيهم عن المنازعة إلى كل حال سوى حالهم، على أن إدراك ذلك كان لا يعدمهم في الأيام القليلة العدة، والفكرة القصيرة المدّة، ولكنهم من بين مغمورٍ بالجهل، ومفتونٍ بالعجب، ومعذولٍ بالهوى عن باب التثبت، ومصروفٍ بسوء

العادة عن قَصَلِ التعلّم. وقال رضي الله عنه: المِرَاءُ يُفْسِدُ الصداقةَ القديمة، وبَخْلُ العقدة الوثيقة، وأقلّ ما فيه أن تكونَ به المغالبة، والمغالبة من أمتن أسباب القطيعة. ومن دعائه: اللهم اِرْزُقْنِي خوفَ الوعيد، وسرورَ رجاء الموعود، حتى لا أَرْجُو إلا ما رَجَيْتَ، ولا أخاف إلا ما خَوَّفْتِ.

وحجّ هشام بن عبد الملك، أو الوليد أخوه، فطافَ بالبيتِ وأرادَ استلامَ الحَجَرِ فلم يقدر، فُنْصِبَ له مِنبَرٌ فجلس عليه؛ فبينما هو كذلك إذ أُقْبِلَ عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في إزارٍ ورداء، وكان أحسنَ الناسِ وَجْهًا، وأعطرهم رائحة، وأكثرهم خشوعًا، وبين عينيه سَجادة، كأنها زُكبة عنز، وطاف بالبيت، وأتَى لَيْسْتَلَمَ الحَجَرِ، فتَنَحَّى له الناسُ هيبَةً وإجلالاً، فعاظ ذلك هشاماً؛ فقال رجلٌ من أهل الشام: مَنْ الَّذِي أكرمه الناسُ هذا الإكرام، وأعظموه هذا الإعظام؟ فقال هشام: لا أعرفه، لئلا يَعْظَمَ في صدور أهل الشام؛ فقال الفرزدق وكان حاضراً: البسيط:

هذا ابنٌ خيرِ عبادِ الله كلِّهمُ  
هذا الذي تَعْرِفُ البَطْحَاءُ  
والعَلَمُ  
والبَيْتُ يَعْرِفُهُ والحل  
والحَرَمُ

إذا رَأَتْهُ قريشٌ قال  
قائلها:  
إلى مكارم هذا ينتهي الكَرَمُ

يكاذُ يُمَسِكُهُ عِرْفَانٌ راحته  
في كَفِّهِ خيزرانٌ رِيحُهُ عَيْقُ  
رُكْنُ الحطيمِ إذا ما جاء  
يستلم  
في كَفِّ أَرْوَاعٍ في عِرْنِينِهِ  
سَمَمُ

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي من  
مهايِبِهِ  
مُشْتَقَّةٌ من رسولِ الله  
تَبَعْنُهُ  
فما يُكَلِّمُ إِلَّا حينَ يَبْتَسِمُ  
طابَتْ عِناصِرُهُ والخِيمُ  
والسُّيَمُ  
عَنْ تَيْلِها عَرَبُ الإسلامِ  
والعَجَمُ  
قُصِرَتْ

يَنْجَابُ نورِ الهدى عن نُورِ عُرَّتِهِ

ك  
ا  
ل  
ش  
م  
س

ي

ن

ج

ا

ب

ء

ن

إ

ش

ر

ا

ق

هـ

ا

ا

ل

ق

ت

-

م

حَمَالٌ أَثْقَالُ أَقْوَامٍ إِذَا اقترحوا	حُلُو الشَّمَائِلِ تَحُلُو عِنْدَهُ تَعَمُّ
هَذَا ابْنُ فَاطِمَةٍ إِنْ كُنْتُ جَاهِلُهُ	بَجْدِهِ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ قَدْ حُتِمُوا
اللَّهُ فَضَّلَهُ قِدَمًا وَشَرَّفَهُ	جَرَى بِذَلِكَ لَهُ فِي لَوْحِهِ الْقَلَمُ
مَنْ جَدُّهُ دَانَ فَضَّلُ الْأَنْبِيَاءِ لَهُ	وَقَضَلُ أُمَّتِهِ دَانَتْ لَهُ الْأُمَّمُ
عَمَّ الْبَرِيَّةَ بِالْإِحْسَانِ فَانْقَشَعَتْ	عَنْهَا الْغِيَابَةُ وَالْإِمْلَاقُ وَالظُّلْمُ
كَلْنَا يَدِيهِ غِيَاثَ عَمَّ نَفَعُهُمَا	تَسْتَوَكِفَانِ وَلَا يَعْرُوهُمَا الْعَدَمُ
سَهْلُ الْخَلِيقَةِ لَا تُحْسَى بِوَادِرُهُ	تَزِينُهُ الْإِثْنَانُ الْجِلْمُ وَالْكَرَمُ
لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ مَيْمُونٌ بَعْرَتِهِ	رَحْبُ الْفَنَاءِ أَرِيبٌ حِينَ يَعْتَزِمُ
مَا قَالَ لَا قَطُّ إِلَّا فِي تَشَهُدِهِ	لَوْلَا التَّشَهُدُ كَانَتْ لَاءُهُ تَعَمُّ
مِنْ مَعَشَرٍ حَبِيهِمْ دِينَ، وَبَغْضُهُمْ	كُفْرٌ، وَقُرْبُهُمْ مِنْجَى وَمُعْتَصَمٌ

يَسْتَدْفَعُ السُّوءَ وَالتَّبْلَى  
بِحُبِّهِمْ  
مَقْدَمٌ بَعْدَ ذِكْرِ اللَّهِ ذَكَرَهُمْ  
إِنْ عُدَّ أَهْلَ التَّقَى كَانُوا  
أَيْمَتَهُمْ  
لَا يَسْتَطِيعُ جَوَادٌ بَعْدَ غَايَتِهِمْ  
هَمُّ الْعُيُوثِ إِذَا مَا أَرَمَتْ  
أَرَمَتْ  
يَأْبَى لَهُمْ أَنْ يَحِلَّ الدَّمُ  
سَاحَتَهُمْ  
لَا يَنْقُصُ الْعَسْرُ بَسَطًا مِنْ  
أَكْفِهِمْ  
أَيُّ الْخَلَائِقِ لَيْسَتْ فِي  
رِقَابِهِمْ

مَنْ يَعْرِفِ اللَّهَ يَعْرِفُ أَوْلِيَّتَهُ  
وَلَيْسَ قَوْلُكَ مِنْ هَذَا  
بِضَائِرِهِ  
وَقَدْ رَوَى أَنَّ الْحَزِينَ الْكِنَانِيَّ وَقَدْ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ  
مِرْوَانَ وَهُوَ أَمِيرٌ عَلَى مِصْرَ فَنَشَدَهُ قَصِيدَةً مِنْهَا: الْبَسِيطُ:

لَمَّا وَقَفْتُ عَلَيْهِ فِي الْجُمُوعِ  
ضَحَى  
وَقَدْ تَعَرَّضْتُ الْحُجَابُ  
وَالْحَدَمُ  
حَيِّئُهُ بِسَلَامٍ وَهُوَ مُرْتَفِقٌ  
وَصَجَّةُ الْقَوْمِ عِنْدَ الْبَابِ  
تَرْدِحُمُ

في كفه خيزران... - والبيت الذي يليه.  
ويقال: إنها لداود بن سلم في قُتَيْمِ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ  
المطلب، وهو الذي يقول فيه الأخطل: الكامل:

وَلَقَدْ غَدَوْتُ عَلَى التِّجَارِ  
بِمَسْمِحِ

لَذِ، يُقْبَلُهُ النِّعِيمِ، كَأَنَّمَا  
مُسِيحَتْ تَرَائِبُهُ بِمَاءٍ  
مُذْهَبِ

لِبَاسِي أُرْدِيَةِ الْمَلُوكِ،  
تَرُوفِهِ  
مِنْ كُلِّ مُرْتَقَبِ عِيُونِ  
الرِّبْرِ

يَنْظُرَنَّ مِنْ حَلَلِ السُّنُورِ إِذَا  
بَدَا  
تَنْظُرُ الْهَجَانَ إِلَى الْقَنِيقِ  
المُصْعَبِ

ويقال: بل قالها في علي بن الحسين اللعين المنقري، وسمي اللعين، لأنَّ عمر  
سَمِعَهُ يُنْشِدُ شِعْرًا وَالنَّاسَ يُصَلُّونَ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا اللَّعِينُ؟ فَعَلِقَ بِهِ هَذَا الْاسْمَ  
وَلَيْفُلُهُ مَنْ شَاءَ، فَقَدْ أَحْسَنَ مَا شَاءَ وَأَجَادَ وَزَادَ.

وقال ذو الرمة في بلال بن أبي بريدة بن أبي موسى الأشعري: الطويل:

مِنْ آلِ أَبِي مُوسَى تَرَى  
النَّاسَ حَوْلَهُ  
كَأَنَّهُمُ الْكِرْوَانُ عَائِنٌ بَازِيَا

فما يعرفون الصُّحُكَ إِلَّا  
تَبَسُّمًا  
وما الفُحْشَ منه يرهبون، ولا  
الْحَنَا  
فتى السِّنِّ، كَهَلِّ الْجِلْمِ،  
يُسْمَعُ قَوْلُ  
ولا ينبسون القولَ إِلَّا  
تَنَاجِيًا  
عليه، ولكنَّ هَيْبَةً هي مَا هِيَا  
يُوزَنُ أَدْنَاهُ الْجِبَالُ  
الرُّوَاسِيَا

ومن أجود ما للمحدثين في ذلك قول أبي عبادة البحرى في الفتح ابن خاقان: الطويل:

ولمَّا حَضَرْنَا سَدَّةَ الإِدْنِ  
أَخَّرْتُ  
فأفصيتُ مِنْ قُرْبِ إِي لى ذى  
مَهَابَةٍ  
بَدَا لى مَحْمُودَ السَّجِيَّةِ  
شُمَرْتُ  
كما انتصب الرُّمْحُ الرَّدِينِيُّ  
تُقِفْتُ  
وكالبدرِ وَاقْتَهُ لَيْتَمٌ سُعُودُهُ  
فَسَلَّمْتُ فَاعْتَاقَتْ جَنَانِي  
هَيْبَةً  
إلى مُسْرِفٍ فى الجود لو أن  
حَاتِمًا  
فلما تَأَمَّلْتُ الطَّلَاقَةَ  
وَأَنْتَنَى  
دَتَوْتُ فقبلتُ التَّدَى من يَدِ  
امرئِ  
صَفِيْتُ مِثْلَ مَا تَصْفُو المدام  
خِلَالَهُ

ووقعت حرب بالجزيرة بين بني تغلب، فتولى الإصلاح بينهم الفتح بن خاقان فقال البحرى فيما تعلق بعضه بذكر الهيبة: الطويل:

بني تَغْلِبِ أَعَزُّ عَليَّ بَأْنُ أرى  
خَلَّتْ رِمْنَةٌ من ساكنيها  
وَأَوْحَشَتْ  
دياركمُ أَمَسَتْ وليس لها  
أَهْلُ  
مرايعُ من سِنْجَارِ يَهْمِي بها  
الْوَيْلُ

إذا ما التَّقُوا يومَ الهَيَاجِ  
 تحَاجَرُوا  
 كَفِي منَ الأحيَاءِ لَأَقَى كَفِيَّةً  
 إذا مَا أَخ جَر الرَّمَاخِ أنتهَى لَهُ  
 تحوطُهُم البيضُ الرِّقَاقُ،  
 وَصُمِر  
 بطَعْنِ يَكُوبِ الدَّارِعِينَ دِرَاكُهُ  
 تَجَافَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ  
 التي  
 وَكَانَتْ يَدُ الفَتْحِ بِنِ خَاقَانَ  
 عِنْدَكُمُ  
 وَلَوْلَاهُ طَلَّتْ بِالْعُقُوقِ  
 دِمَاؤُكُمْ  
 تَلَاقَيْتَ يَا فَنُحُ الأَرَاقِمَ بَعْدَمَا  
 وَهَبْتَ لَهُمُ بِالسَّلْمِ بَاقِي  
 نَفُوسَهُمْ  
 أَنَاكَ وَفُودُ الشُّكْرِ يُتُونُ  
 بِالذِّي  
 فَلَمْ أَرِ يَوْمًا كَانَ أَكْثَرَ سُؤْدَدًا  
 تَرَاءَوْكَ مِنْ أَقْصَى السَّمَاطِ  
 فَقَصَرُوا  
 وَلَمَّا قَصَّوْا صَدَرَ السَّلَامِ  
 تَهَافَتُوا  
 إِذَا شَرَعُوا فِي حُطْبَةٍ  
 قَطَعَتْهُمْ  
 إِذَا نَكَّسُوا أَبْصَارَهُمْ مِنْ مَهَابَةٍ  
 نَصَبَتْ لَهُمْ طَرْفًا حَدِيدًا،  
 وَمُنْطِقًا  
 وَسَلَّتْ سَخِيمَاتِ الصُّدُورِ  
 فَعَالِكَ الِ  
 بَكَ التَّامِ الشَّعْبِ الَّذِي كَانَ  
 بَيْنَهُمْ  
 فَمَا بَرِحُوا حَتَّى تَعَاطَتْ  
 أَكْفُهُمْ  
 وَجَرُّوا ذِيولَ العَصَبِ تَصْفُو  
 وللموتِ فيما بينهم قِسْمَةٌ  
 عَذَلُ  
 وَمِثْلُ منَ الأَقْوَامِ رَاحِفُهُ  
 مِثْلُ  
 أَخٌ لَا بَلِيدُ فِي الطَّعَانِ وَلَا  
 وَغَلُ  
 عِتَاقُ، وَأَنْسَابُ بِهَا يُدْرَكُ  
 التَّبَلُ  
 وَصَرَبٌ كَمَا تَرُغُو المُخْرَمَةَ  
 البُرُلُ  
 عَلِمْتُمْ، وَلِلجَانِينِ فِي مِثْلِهَا  
 التَّكَلُ  
 يَدَ الغَيْثِ عِنْدَ الأَرْضِ أَجَدَبَهَا  
 المَحَلُ  
 فَلَا قَوْدُ يُعْطَى الأَدَلُّ وَلَا  
 عَقْلُ  
 سَقَاهُمْ بِأَوْحَى سُمِّهِ الأَرْقَمُ  
 الصَّلُ  
 وَقَدْ أَشْرَفُوا أَنْ يَسْتَمْتَهُمْ  
 القَتْلُ  
 تَقَدَّمَ مِنْ نُعْمَاكَ عِنْدَهُمْ  
 قَبْلُ  
 مِنْ اليَوْمِ صَمَّتَهُمْ إِلَى بَابِكَ  
 السُّبُلُ  
 حُطَّاهُمْ، وَقَدْ جَاؤُوا السُّتُورَ  
 وَهَمُ عَجَلُ  
 عَلَى يَدِ بَسَامِ سَجِيئَتِهِ البَدَلُ  
 جَلَالُهُ طَلَّقِ الوَجْهَ جَانِبُهُ  
 سَهْلُ  
 وَمَالُوا بِلَحْظِ خَلَّتْ أَنَّهُمْ قُبْلُ  
 سَدِيدًا، وَرَأْيًا مِثْلَ مَا انتَضَى  
 التَّصْلُ  
 كَرِيمٌ، وَأَبْرًا غَلَّهَا قَوْلُكَ  
 القِصْلُ  
 عَلَى حِينِ بُعْدٍ مِنْهُ، وَاجْتَمَعَ  
 الشُّمْلُ  
 قِرَاكَ، فَلَا ضَعْفَ لَدِيهِمْ وَلَا  
 ذَخْلُ  
 عَطَاءَ كَرِيمٍ مَا تَكَاءَدَهُ

ذِيوَلْهَا                      بُخْلُ  
وما عَمَّهُمْ عمرو بنُ غنم      كما عمَّهُم بالأمسِ نائِلُكَ  
بِنِسْبَةٍ                      الْجَزْلُ  
فمهما رَأُوا مِنْ غِبْطَةٍ في      فمِنكَ بها التَّعْمَى جَرَتْ وَلَكَ  
اصطلاحهم                      الْقَصْلُ

عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل بن قاسط.  
وللطائيين أبي تمام والبحتري في ذلك أشعارٌ كثيرةٌ مختارة، منها قول  
البحثري يحذر عاقبة الحرب: الوافر:

أما لربيعة القَرسِ انتهاء      عن الزلزالِ فيها والحُروبِ؟  
وكانوا رَفَعُوا أَيَّامَ سلم      على تلك الضغائنِ والندوبِ  
إِذَا ما الْجُرْحُ رَمَّ على فسادَ      تَبَيَّنَ فيه تَفْرِيطُ الطَّبيبِ  
رَزِيَّةً هَالِكٍ جَلَبَتْ رَزَايا      وَحَطَبٌ باتَ يَكشِفُ عن  
حُطوبِ

يُصَغِّرُ فيه تَشْقِيقُ الجيوبِ      إِذا هي نَاحَرَتْ أَفُقَ الجَنوبِ  
عِهاداً من مُراقِ دم صبيب      يَرُدُّ شريدَ جِلْمَها العزيبِ؟  
فهل لِابْنِي عَدِيٍّ مِنْ رَشِيدِ      من الكلالِ الذي عُقْباهُ تُوبِي  
أخافُ عليهما إِمرارَ مَرَعِي      على الدَّاعي إليها والمُجيبِ  
وَأَعْلَمُ أَنَّ حَرْبَهُما حَبال      بُبُعِدِ الهَمُّ والصِّدرِ الرَّحيبِ  
لعل أبا المُعَمَّرِ يَتَّلِيها      فكم من سُودٍ قد بات  
بُعطي                      أَهَيْتُمْ يا ابنَ عبدِ الله،  
دَعَوَى

تَناسَ ذنوبَ قومِكَ إِنْ حَفِظَ      ال  
فَلِلسَهْمِ السَّديدُ أَحَب      قَلْباً  
مَتى أَحَرَزْتَ تَصَرَ بني عُبَيْدِ      غِبًّا  
فقد أَصَبَحْتَ أَغْلَبَ تغلبي      غِبًّا  
فقد أَصَبَحْتَ أَغْلَبَ تغلبي

يناسب قوله: الوافر:

إِذا ما الجُرْحُ رَمَّ على فسادِ      قولُ أبي الطيبِ المثنويِّ لعلِّي بنِ إبراهيمِ  
فلا تَغْرُزْكَ الأَسِنَّةُ مَوالِ      تُقَلِّبُهُنَّ أَفئِدَةُ أَعادي  
وَكُنْ كالموتِ لا يَرِثِي لِبائِكَ      بَكَى منه، وَبَرَوَى وهو صادِ  
فإِنَّ الجُرْحَ يَنغِرُ بعدَ حينِ      إِذا كانَ البناءُ عَلَيَّ قَسادِ

وفى هذه القصيدة:

كَانَ الهامِ في الهيجَا عُيون      وَقَدِ طَبِعَتْ سَيُوفُكَ مِنْ رُقادِ  
وَقَدِ صُعَتِ الأَسِنَّةُ مِنْ هُمومِ      فَمَا يَحْطُرُنَّ إِلا في فَوادِ

كَانَ الْبَيْتَ الْأَوَّلَ مِنْ هَذَيْنِ يَنْظُرُ إِلَى قَوْلِ مُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ مِنْ طَرْفِ حَفِي: الْكَامِلُ:  
 وَلَوْ أَنَّ قَوْمًا يَخْلُقُونَ مَنِيَّةً مِنْ بَاسِهِمْ كَانُوا بَنِي جَبْرِيلَا  
 قَوْمٌ إِذَا أَحْمَرَ الْهَجِيرُ مِنَ الْوَعَى  
 جَعَلُوا الْجَمَاحِمَ لِلْسَيُوفِ مَقِيلَا  
 وَإِنَّمَا أَخَذَهُ أَبُو الطَّيِّبِ مِنْ قَوْلِ مَنْصُورِ النَّمِيرِيِّ، وَذَكَرَ سَيْفًا: الْكَامِلُ:  
 دَكَّرُ، بَرَوْتِقِهِ الدِّمَاءُ، كَأَنَّمَا يَغْلُو الرِّجَالَ بِأَرْجُوانِ نَاقِعِ  
 وَتَرَى مَسَاقِطَ شَفَرَتَيْهِ كَأَنَّهَا مِلْحٌ تَبَدَّدَ مِنْ وَرَاءِ الدَّارِعِ  
 وَتَرَاهُ مُعْتَمًّا إِذَا جَرَدَتْهُ بَدَمِ الرِّجَالِ عَلَى الْأَيْمِ  
 وَكَانَ وَقَعْتُهُ بِجَمْعَةِ الْفَتَى النَّاقِعِ  
 أَرَدْتُ هَذَا الْبَيْتَ، وَقَوْلِ النَّمِيرِيِّ: الْكَامِلُ:  
 وَتَرَاهُ مُعْتَمًّا إِذَا جَرَدَتْهُ  
 يَشِيرُ إِلَى قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ، وَذَكَرَ سَيْفًا: الْكَامِلُ:  
 يَيْسَ النَّجِيعِ عَلَيْهِ فَهُوَ مُجْرَدٌ مِنْ غِمْدِهِ وَكَأَنَّمَا هُوَ مُعَمَّدُ

رِيَانُ لَوْ قَذَفَ الَّذِي أَسْقَيْتُهُ لَجَرَى مِنَ الْمُهَجَاتِ بَحْرٍ مُزْبِدُ

وَبَنُو عَيْبِدٍ، وَبَنُو حَيْبٍ - اللَّذَانِ ذَكَرَهُمَا الْبِحْتَرِيُّ - هُمُ: بَنُو عَيْبِدِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ بَكْرِ بْنِ حَيْبِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ غَنَمِ بْنِ تَغْلِبِ، وَحَيْبِ بْنِ الْهَجْرَسِ بْنِ تَيْمِ بْنِ سَعْدِ بْنِ جُسَّامِ بْنِ بَكْرِ بْنِ حَيْبِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ غَنَمِ بْنِ تَغْلِبِ، وَفِيهِمْ حَيْبِ بْنِ حَرْقَةَ بْنِ تَغْلِبِ بْنِ بَكْرِ بْنِ حَيْبِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ غَنَمِ بْنِ تَغْلِبِ، فَلَا أُدْرِي أَيُّهُمَا أَرَادَ! وَقَالَ الْبِحْتَرِيُّ: الطَّوِيلُ:

أَسْبِيْتُ لِأَحْوَالِي رُبْعَةً أَنْ مَصَائِفُهَا مِنْهَا، وَأَقْوَتْ رُبُوعَهَا عَقَتْ

يَكْزُهَيَّ أَنْ بَاتَتْ خَلَاءَ دِيَارِهَا وَوَحْشًا مَعَانِيهَا، وَسَنَى جَمِيعُهَا

إِذَا افْتَرَقُوا مِنْ وَقَعَةٍ جَمَعْتَهُمْ

تَدُمُّ الْفَتَاهُ الرُّودِ شَيْمَةً بَعْلِهَا

حَمِيَّةُ شَعْبِ جَاهِلِيٍّ وَعِزَّةُ وَفَرَسَانِ هَيْجَاءَ تَجِيشِ صَدُورِهِمْ

لُقْتُلُ مِنْ وَتْرِ أَعْرَ نَفُوسِهَا إِذَا اخْتَرَبْتَ يَوْمًا فِافَصْتَ دِمَاؤُهَا

عَلَيْهَا بِأَيْدٍ مَا تَكَادُ تُطْبِعُهَا تَذَكَّرْتُ الْقُرْبَى فِافَصْتُ دِمُوعُهَا

شَوَاجِرُ أَرْمَاحٍ تَقْطَعُ بَيْنَهَا وَمَوْلَاكَ قَنُحُ يَوْمِ ذَاكَ شَفِيعُهَا

فَكَنْتَ أَمِينَ اللَّهِ مَوْلَى حَيَاتِهَا

وَقَالَ أَبُو تَمَّامِ الطَّائِي: الْبَسِيطُ:  
 مَهْلًا بَنِي مَالِكٍ لَا تَجْلُبَنَّ حَيَّ الْأَرَاقِمِ دُولُ ابْنَةِ

الرقم  
لو كان ينفخ قَيْنَ الحَيِّ فِي  
فَحَمِ  
والنارِ قد تُنَّصَى من ناصِرِ  
السلمِ  
لم يُخْرَجِ اللِيثُ لم يخرِجِ من  
الأجمِ  
حصائدِ المرهقينِ السيفِ  
والقلمِ  
من القطيعة يزعى وادي  
النقمِ

إلى  
لم يَأْكُمِ مَالِكُ صَفْحاً  
ومغفرةً  
أخرَجْتُموه بِكُرِهِ من  
سجيتِهِ  
أوطأتموه على جَمْرِ العقوقِ،  
ولو  
لولا مناشدُهُ القُرْبَى  
لغادرَكم  
لا تجعلوا البغي طَهراً إِنَّهُ  
جَمَلٌ

وقال أيضاً: الكامل:

هَدَفُ الأسيَّةِ والقنا تتخطمُ  
أو مُبَشِّرٌ بالأحوذيةِ مؤدَمُ  
اب بن سعدٍ سَهمكم لا  
يُسهم  
جُشَمُ بن بكرٍ كفها  
والمِعْصَمِ

مهلاً بني عمرو بن عُنَمٍ؛  
إنكم  
ما منكم إلا مردى بالحجى  
عمرو بن كلثوم بن مالك بن  
عت  
خُلقت ربيعةً من لدن خُلقت  
يداً

وتسيح غنم في البلاد فتغنم  
إن جَلَّ حَطْبٌ أو تُدوِّعِ  
مَغْرَمِ  
ما لي أَرَى أطوادكم  
تتهدَّمُ؟  
ما هذه الرَّجْمُ التي لا  
ترحمُ؟

تغزو فتغلب تغلب مثل  
اسمها  
وستذكرون غداً صنائعِ  
مالكِ  
ما لي رأيت تراكماً ببسالةِ  
ما هذه القُرْبَى التي لا  
تصطفى

أعيت عوايدها وجرح أقدام  
تهفؤ ولا أحلامها تتقسم  
فيهم عدت شحناؤهم  
تتضرمُ

حَسَدُ القرابة للقرابة  
قرحة  
تلکم قريشٌ لم تكن  
أباؤها  
حتى إذا بعث النبيُّ محمدُ

إلا وهم منه ألب وأحزم  
ورأوا رسولَ الله أحمَدَ  
منهم  
ألا تؤخَّرَ مَنْ به تتقدَّمُ

عزيت عقولهم، وما من  
مُعشِرِ  
لما أقام الوحي بين  
ظهورهم  
ومن الحزامة لو تكون  
حزامة

ومالك هو: ابن طوق بن مالك بن عتاب بن زقر بن مرة بن شريح ابن عبد

اللّه بن عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير بن جشم بن بكر بن وائل بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب، وفيه يقول دُعيل يهجوهُ:  
البيسط:

الناس كلهم يَعدو  
لحاجته  
ومالكٌ ظلٌّ مشغولاً  
بنسبته  
بيني بيوتاً خراباً لا أنيس  
بها  
من بين ذي قَرَحٍ منها  
ومهموم  
يَرُمُّ منها بناءً غيرَ  
مَرْمُومٍ  
ما بين طوقٍ إلى عمرو ابن  
كلثوم  
والتكثير من المعنى المعترض، يزيح عن ثغرة العَرَضِ، لكنني أجري منه  
إلى حلبة الإجابة، وأقصدُ قصدَ الإفادة، ثم أعود حيثُ أريد.  
وقال ابن الخياط المكي - واسمه عبد الله بن سالم - في باب الهيبة، في  
مالك بن أنس الفقيه، رحمة الله عليه؛ وقيل: إن هذا من قول ابن  
المبارك: الكامل:

يَأبَى الْجَوَابَ فَمَا يَرَا جُعْ هَيِّبَةً  
أَدْبُ الْوَقَارِ، وَعِزُّ سُلْطَانِ  
التقى  
والسائلون تَوَاكِسُ الْأَذْقَانِ  
فهو المَهِيْبُ وليس دَا  
سلطانِ  
وقول الفرزدق البسيط:

يَكَادُ يَمْسِكُهُ عِرْفَانِ رَاحَتِهِ  
قد تَجَادَبَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ؛ قَالَ أَشْجَعُ بْنُ عَمْرِو السَّلْمِيِّ لَجَعْفَرِ الْبَرْمَكِيِّ:  
حَبَذَا أَنْتَ قَادِمًا تَرُدُّ الشَّا  
مَ فَتَخْتَالُ بَيْنَ أَرْحُلِ عَيْرِكَ  
إِنْ أَرْضًا تَسْرِي إِلَيْهَا لَوْ  
عَت لَسَارَتِ إِلَيْكَ مِنْ قَبْلِ  
سَيْرِكَ  
وإليه أشار أبو تمام الطائي في قوله: الخفيف:

دِيْمَةٌ سَمَحَةٌ الْقِيَادِ سَكُوبُ  
لَوْ سَعَتْ بِقَعَّةٍ لِإِعْظَامِ نُعْمَى  
وفي هذه القصيدة في وصف الدَّيْمَةِ، ومدح  
لِذِ شُبُوبِهَا وَطَابَ فُلُو تَسِ  
مُسْتَعِيْتُ بِهَا الثَّرَى الْمَكْرُوبُ  
لَسَعَى نَحْوَهَا الْمَكَانَ الْجَدِيدُ  
مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَاتِ:  
طَبِيعٌ قَامَتْ فَعَاتَقَتْهَا الْقُلُوبُ  
وَعَزَّالٍ تَنْشَأُ وَأُخْرَى تَصُوبُ  
كُ وَعِنْدَ السَّرَى وَحِينَ تُوُوبُ  
هَنَّ قَدْ يَشْبَهُ النَّجِيبَ النَّجِيبُ  
أَبِي جَعْفَرٍ خَلَاتِقُ تَحْكِي

وأشدها أبا جعفر بن الزيات، فقال: يا أبا تمام؛ والله إنك لتحلّي شعرك من جواهر لفظك وبدائع معانيك، ما يزيد حُسناً على بهيّ الجواهر في أجياد الكواعب؛ وما يدخّر لك شيء من جزيل المكافأة إلا يقصّر عن شعرك في الموازنة. وكان بحضرته رجل من الفلاسفة، فقال: هذا الفتى يموت شاباً فقيل له: من أين حكمت عليه بهذا؟ فقال: رأيت فيه من الجِدَّة والذكاء والفطنة مع لطافة الحسن ما علمتُ به أن النفس الروحانية كل عمره كما يأكل السيفُ المهندُ غمده؛ قال الصولي: مات وقد نيف على الثلاثين.

وقال في أبي ذُلف العجلي القاسم بن محمد بن عيسى: الطويل:

تكاذُ عطاياهُ يَجَنُّ جُنُونُهَا      إذا لَمْ يُعَوِّذْهَا بنعمةِ طَالِبِ  
تكاذُ مغانِيهِ تَهَشُّ عِراصِهَا      فتركب من شَوْقٍ إلى كلِّ رَاكِبِ

وقال البُخترى: الكامل:

لو أنَّ مُشتاقاً تَكَلَّفَ فوقَ ما      في وَسْعِهِ لَمَشَى إِلَيْكَ المنبَرُ

وقال أبو الطيب المتنبي ليدر بن عمار: الكامل:

طَرِبْتُ مَرَاكِبَنَا فَخَلْنَا أَنهَا      لولا حَيَاءُ عاقِهَا رَقَصَتْ بِنَا  
لو تعقلُ الشَّجَرُ التي قابلتْهَا      مَدَّتْ مُحْيِيَةَ إِلَيْكَ الأعْصَا

رجع إلى ما انقطع

قال أعرابي لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين، رضي الله عنه: هل رأيت الله حين عبَدْتَهُ؟ فقال: لَمْ أَكُنْ لِأَعْبُدْ مَنْ لَمْ أَرَهُ، قال: فكيف رأيتَه؟ قال: لم تره الأَبْصَارُ بمشاهدة العيان، ورأته القلوبُ بحقائق الإيمان، لا يدرك بالحواسِّ، ولا يُشَبَّه بالناسِ، معروف بالآيات، مِنعوثٌ بالعلاماتِ، لا يجوزُ في الفِصِيَّاتِ، ذلك اللهُ الذي لا إله إلا هو. فقال الأعرابي: الله أعلم حيثُ يجعلُ رسالته.

قال الجاحظ: قال محمد بن علي: صلاح شأن الدنيا بجزايفها في كلمتين؛ لأنَّ صلاح شأن جميع الناس في التعايش والتعاشر وهو ملء مكيال؛ ثلثاه فطنة، وثلثه تعاقُل. قال الحافظ: لم يجعلُ لغير الفطنة نصيباً من الخير، ولا حظاً من الصلاح؛ لأنَّ الإنسان لا يتغافلُ عن شيءٍ إلا وقد عرفه وفطن له، قال الطائي: الكامل:

ليس الغبِّيُّ بسَيِّدٍ في قَوْمِهِ      لكنَّ سيِّدَ قَوْمِهِ المُتَعابِي

وقال ابن الرومي لأبي محمد بن وهب بن عبيد الله بن سليمان: الطويل:

تظَلُّ إذا نامت عيونُ ذوي      وإن حدِّدوا زُرْقاً إِلَيْكَ  
العمى      جَوَاحِطاً

تَعَاصَى لهم وَسَنانَ، بل      وتوقِطُهُمْ يقظان بل  
متواسينا،      متياقظا

وأبو جعفر هذا هو الباقر، وكان أخوه زيد بن علي، رضي الله عنه، دِيناً، شجاعاً، ناسكاً، من أحسن بني هاشم عبارةً، وأجملهم شارةً. وكانت ملوك بني أمية تكتب إلي صاحب العراق أن امنع أهل الكوفة من حضور زيد بن علي؛ فإنَّ له لساناً أقطع من طبة السيف وأحد من شبا الأسيئة، وأبلغ من السحر والكهاتة، ومن كل تفتٍ في عُقْدَةٍ.

وقيل لزيد بن علي: الصمُّ خيرٌ أم الكلام؟ فقال: قبَّح اللهُ المساكنة، ما أفسدها للبيان، وأجلبها للعبيّ والحَصِرَ والله للمُماراةِ أسرعُ في هدمِ العبيّ من النار في يتس العَرَجِجِ، ومن السيل إلى الحدور.

وقال له هشام بن عبد الملك: بلغني أنك ترومُ الخلافةَ وأنت لا تصلحُ لها؛ لأنك ابنُ أمة؟ قال زيد: فقد كان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ابنَ أمة، وإسحاق ابنَ حُرة؛ فأخرج اللهُ من صلبِ إسماعيل خيرَ ولد آدم! فقال له: فمُ! فقال: إذا والله لا تراني إلا حيثُ تَكْرهُ! فلما خرج من الدار قال: ما أحبُّ أحدَ الحياةِ قط إلا ذلَّ، فقال له سالم مولى هشام: لا يسمعَنَّ هذا الكلام منك أحدٌ، وكان زيد كثيراً ما ينشد: السريع:

شَرِّدَهُ الخوفُ وأزرى بهِ      كذاكَ من يَكْرَهُ حرَّ الجِلادِ

منخرق الخفّين يشكو الوجى      تنكبه أطراف مَرَوٍ جَدَا  
قد كان في الموت له راحة      والموث حنم في رقاب  
العباد

وقد رُويت هذه الأبيات لمحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين، وقد رُويت لأخيه موسى.

قال عبد الرحمن بن يحيى بن سعيد: حدّثني رجل من بني هاشم قال: كُنا عند محمد بن علي بن الحسين، وأخوه زيد جالس، فدخل رجل من أهل الكوفة فقال له محمد بن علي: إنك لتروي طرائف من نوادر الشعر، فكيف قال الأنصاري لأخيه؟ فأنشده:

المتقارب:

لعمرك ما إن أبو مالك      يوانٍ ولا بصعيفٍ قَواهُ  
ولا بالد له تازغ      يُعادي أخاه إذا ما تهاهُ  
ولكنه غير مِخلافٍ      كريم الطباع حلو تَناهُ  
وإن سُدتّه سُدتّ مطوَاعةً      ومهما وكلت إليه كفاهُ

فوضع محمد يده على كتف زيد، فقال: هذه صِقتك يا أخي، وأعيذك الله أن تكون قتيل أهل العراق! وكانت بين جعفر بن الحسن بن الحسين بن علي وبين زيد، رضوان الله عليهم، منازعة في وصية، فكانا إذا تنازعا اثنال الناس عليهما ليسمعا محاورتهما؛ فكان الرجل يحفظ على صاحبه اللفظة من كلام جعفر، ويحفظ الآخر اللفظة من كلام زيد. فإذا انفصلا وتفرق الناس عنهما قال هذا لصاحبه: قال في موضع كذا وكذا، وقال الآخر: قال في موضع كذا وكذا؛ فيكتبون ما قالا، ثم يتعلمونه كما يتعلم الواجب من القرض، والنادر من الشعر، والسائر من المثل؛ وكانا أعجوبة دهرهما وأحدوتة عصرهما.

ولما قتل زيدا يوسف بن عمر وصلب جنته بالكُناسة وبعث برأسه مع شبة بن عقال، وكلف آل أبي طالب البراءة من زيد، وقام خطباؤهم بذلك؛ فكان أول من قام عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي، رحمة الله عليه، فأوجز في كلامه ثم جلس، وقام عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فأطنب - وكان شاعرا خطيبا لسنا ناسبا - فانصرف الناس وهم يقولون: ابن الطيار من أخطب الناس، ف قيل لعبد الله بن الحسن في ذلك، فقال: لو شئت أن أقول لقلت، ولكن لم يكن مقام سرور، وإنما كان مقام مُصيبة.

وعبد الله هذا هو: أبو محمد وإبراهيم الخارجي على أبي جعفر المنصور، وهو القائل لابنه محمد أو إبراهيم: أي بني! إني مؤد حق الله في تأديبك، فاد إلي حق الله في الاستماع مني؛ أي بني! كف الأذى، وارفض البدى واستعن على الكلام بطول الفكر في المواطن التي تدعوك فيها نفسك إلى الكلام، فإن للقول ساعات يضُرُّ فيها الخطأ، ولا ينفع فيها الصواب، واحذر مشورة الجاهل، وإن كان تاصحا، كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشيا؛ لأنه يُرديك بمشورته؛ واعلم يا بني أن رأيك إذا احتجت إليه وجدته نائما، ووجدت هواك يقظان، فأياك أن تستبد برأيك؛ فإنه حينئذ هواك؛ ولا تفعل فعلا إلا وأنت على يقين أن عاقبته لا تُرديك، وأن نتيجته لا تجني عليك.

وهو القائل: إياك ومُعادة الرجال فإنك لن تعدم مكر جليم، أو مُعادة لئيم. وكتب إلى صديق له: أوصيك بتقوى الله تعالى، فإن الله تعالى جعل لمن

اتَّقاه المُّخْرَج من حيث يَكْرَهُ، والرُّزْق من حيث لا يحتسب.  
وعبُدُ الله هو القائل: الكامل:

أُسُّ حرائِرٍ ما هَمَّ مَن بَرِيَّةٍ  
يُحْسِنُ من لِينِ الحديثِ  
كظباء مكة صَيِّدُهُنَّ حرامٌ  
ويصدِّهن عن الحنا الإسلامِ  
دوانيا

قال: وهذا كما روي أن عبد الملك بن مروان استقبل عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، فقال له: قد عَلِمْتُ قريشُ أنَّكَ أطولُها صَبْوَةً، وأبعَدُها تَوْبَةً، وَيَحْكُ! أَمَا لَكَ في نساء قريش ما يَكْفِيكَ من نساء بني عبد مناف؟ أَلست القائل: الطويل:

نظرتُ إليها بالمَحْصَبِ من  
مِئى  
ولي نظراً، لولا التحرُّجُ،  
عارمُ

فقلتُ: أَصْبِحُ أم مصابيحُ  
راهبِ

بعيدةٌ مَهْوَى القُرْطِ، إِمَا  
لَتَوْفَلِ

فقال: يا أمير المؤمنين، فَإِنَّ بَعْدَ هذا:

طلبتُ الهوى حتى إذا ما  
وجدتهُ

فاستحيا منه عبدُ الملك، وقضى حوائجه ووصله.

وقال آخر في هذا المعنى: الطويل:

تَعَطَّلَنَّ إِلَّا مِنْ محاسنِ  
أَوْجِهٍ

كوَاسِ عَوَارٍ صامتاتِ  
نواطِقُ

بَرَزْنَ عِفَافاً واحتجبتنِ  
تسئراً

فذو الحلم مرتاد وذو الجهل  
طامعُ

وقال العُدَيْل بن القَرِّح فيما يتطرف طرفاً من هذا المعنى: الكامل:

حتى لبسِنَ زمانَ عَيْشِ غافلِ  
فإذا عَطِلَنَّ فَهِنَّ غَيْرُ عَوَاطِلِ

حَدَقَ المَها وأخذن تبَلِ القاتلِ  
إلا الصبا وعلمن أين مقاتلي

ويجر باطلهن ذيل الباطلِ  
وتعرض لعبد الله بن الحسن رجل بما يَكْرَهُ، فقال فيما أنشده ثعلب: الطويل:

أَطَلَّتْ سَفَهاها من سَفَهاةِ  
رأيها

فلا وأبيها إنني بعشيرتي  
لراغبِ

وأنشد هذين البيتين أبو العباس المبرد لرجل لم يسمَّه في رجل يُعَرِّفُ بابن البعير، وقبلهما:

يقولون أبناء البعير وما  
لَهُم  
سَنامٌ ولا في ذرّوة المجدِ  
عَارِبِ

وساير عبد الله بن الحسن أبا العباس السفاح بظهر مدينة الأنبار وهو ينظر إلى بناء قد بناه أبو العباس ويدور به، فأنشد عبد الله: الوافر:

ألم تر جَوْشِنًا لما تبنَّى  
بناء تَفْعُهُ لبني بَقِيلَه  
يؤمِّلُ أن يُعَمَّرَ عُمَّرَ نُوحٍ  
وَأُمِرُ الله يَحْدُثُ كُلَّ لَيْلَه

وكان أبو العباس له مُكْرَمًا، وَلَحِقَهُ معظماً؛ فتبسم مغضباً، وقال: لو عَلِمْنَا لاشترطنا حقَّ المُسَايِرَةِ! فقال عبدُ الله: بوايِرِ الخواطرِ، وأغفالِ المسانِحِ؛ والله ما قلُّتها عن رَوِيَّة، ولا عارِضَنِي فيها فكرة وأنتَ أَجَلُ مَنْ أَقَالَ، وأولى مَنْ صَفَحَ، قال: صدقت؛ حُذِّ في غير هذا.

ولما قتل المنصورُ ابته محمدًا - وكان عبدُ الله في السجن - بعث برأسه إليه مع الربيع حاجيه؛ فوضع بين يديه، فقال: رحمك الله أبا القاسم، فقد كنت من "الذين يُوقُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ!" ثم تمثل:

فتي كان يَحْمِيهِ من الذلِّ  
سَيِّفُهُ  
وبكفيه سوءاتِ الأمورِ  
اجتنابها

ثم التفت إلى الربيع فقال له: قل لصاحبك قد مضى من بُؤْسِنَا مدة، ومن نعيمك مثلها؛ والموعِدُ لله تعالى! قال الربيع: فما رأيت المنصور قط أكثر انكساراً منه حين أبلغته الرسالة.

أخذ العباس بن الأحنف هذا المعنى، وقيل: عُمارَةُ بن عقيل بن بلال بن جبر، فقال:

فإن تَلَحَّطِي حالي وحالكِ  
مَرَّةً  
بنظرة عين عن هوى النفس  
تُحَجِّبُ  
تجد كلَّ يومٍ مَرَّ مِنْ بؤسٍ  
عِيشَتِي  
يمرُّ بيومٍ من نعيمك  
يُحَسِّبُ

ولما قتل المنصورُ محمدَ بن عبد الله اعترضته امرأة معها صبيان، فقالت: يا أمير المؤمنين، أنا امرأة محمد بن عبد الله، وهذان ابناه، أبتَمَهُما سيفك، وأضَرَ عَهْمَا خَوْفُكَ، فناشدتك الله، يا أمير المؤمنين، أن تصغِرَ لهما خَدَّكَ، أو يَنأى عنهما رِفْدُكَ؛ ولتُعْطِفَكَ عليهما شَوَايِكُ النَسَبِ، وَأَوَاصِرُ الرَّجْمِ، فالتفت إلى الربيع، فقال: أَرَدُّدُ عليهما ضياع أبيهما، ثم قال: كذا والله أحب أن تكون نساء بني هاشم.

وكان أهل المدينة لما ظهر محمد أجمعوا على حرب المنصور، ونصر محمد؛ فلما ظفر المنصور أحضر جعفر بن محمد بن علي بن الحسين الصادق، فقال له: قد رأيت إطباق أهل المدينة على حربي، وقد رأيت أن أبعث إليهم من يُعَوِّرَ عيونهم، ويَجَمِّرَ تَخْلُهم. فقال له جعفر: يا أمير المؤمنين، إن سليمان أعطى فيشكر، وإن أيوب ابتلي فصبر، وإن يوسف قدر فقعر؛ فافتد بأبهم بثت، وقد جعلك الله من نسل الذين يعفون ويصفحون، فقال أبو جعفر: إن أحداً لا يُعلِّمنا الجلم، ولا يعرفنا العلم، وإنما قلت هممت، ولم ترني فعلت، وإنك لتعلم أن قدرتي عليهم تمنعني من الإساءة إليهم. وعزى جعفر بن محمد رجلاً، فقال: أعطيتُ بنعمة في مصيبة جَلَبْتُ أجراً وأفطع بمصيبة في نعمة أكسبت كُفْراً.

هذا كقول الطائي: البسيط:

قد يُنعمُ الله بالبلوى وإن  
عظمتُ  
ويبتلي الله بعض القومِ  
بالنعم

وكان جعفر بن محمد يقول: إني لأملقُ أحياناً فأتاجر الله بالصدقة فيُريحني. وقال جعفر، رضي الله عنه: من تخلق بالخلق الجميل وله خُلُقٌ سوء أصيل فتخلقه لا محالة زائل، وهو إلى خُلُقهِ الأوَّلِ آيل، كطلي الذهب على النحاس ينسجق وتظهر صفرته للناس.

هذا كقول العرجي: البسيط:

يا أيُّها المتحلِّي غير شيمته  
ومن خلائقه الإقصارُ  
والملق  
إِنَّ التَّخْلُقَ يَأْتِي دُونَهُ  
الخلق  
وأرضَ به

وكان يقول: ما توسَّل إليَّ أحدٌ بوسيلةٍ هي أقرب إليَّ من يدٍ سبقَتْ مني إليه أتبعها أختها لتحسين ربِّها وحفظها؛ لأنَّ مَنَعَ الأواخر يقطعُ لسانَ الأوائل. وقيل لجعفر رحمه الله: إنَّ أبا جعفر المنصور لا يلبسُ مذ صارت إليه الخلافة إلا الخشن، ولا يأكل إلا الجشيب. فقال: يا وبيحَه! مع ما مُكِّن له من السلطان، وجيبي إليه من الخراج! قالوا: إنما يفعل ذلك بُخلاً وجمعاً للمال. فقال: الحمد لله الذي حرَّمه من دُنياه ما ترك له من دينه. انتهى.

قال: ومن دعاء جعفر رضي الله عنه: اللهم إنك بما أنت أهلُّ له من العفو أولى بما أنا أهلُّ له من العقوبة.

وكان عبد الله بن معاوية بن عبد الله، بن جعفر عالماً، ناسباً، وكان خطيباً مُقَوِّهاً، وشاعراً مُجيداً، وكتب إلي بعض إخوانه:

أما بعدُ، فقد عاقني الشكُّ في أمرِك عن عزيمة الرأْي فيك، وذلك أنك ابتدأتني بلطفٍ عن غير خبيرة؛ ثم أعقبتني جفاءً عن غير جريرة؛ فأطمعني أوَّلك في إخائك، وأياسني أخرك عن وقائك؛ فلا أنا في غير الرجاء مجمعٌ لك اطراحاً، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة؛ فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الشكِّ في أمرِك عن عزيمة الرأْي فيك؛ فاجتمعتا على اتتلاف، أو افترقنا على اختلاف، والسلام.

وهو القائل: الطويل:

رأيتُ فُصيلاً كأن شيئاً  
مُلُفَّعاً  
فأنت أخي ما لم تكن لي  
حاجةً  
كلانا غنيُّ عن أخيه حياته  
فلا زادَ ما بيني وبينك  
بعديما  
فعين الرضا عن كل عيبٍ  
كليلاً

والقائل أيضاً: الكامل:

لسنا وإن أحسائنا كَرَمَتْ  
نبيي كما كاتت أوائلنا  
وهذا كقول عامر بن الطفيل، قال أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش: أنشدني محمد الحسن بن الحرون لعامر بن الطفيل: الطويل:

أراك صَحيحاً كالسليم  
المعيبِ  
من الثَّارِ في حَيِّ رُبَيْدٍ  
وأرْحَبِ  
مرْكَبُهُمْ في الحيِّ خير  
مركبِ  
شيفاءٌ وخيرُ الثَّارِ للمتأوِّبِ

تقول ابنة العَمري: ما لك  
بَعْدَ ما  
فقلتُ لها: همِّي الذي  
تَعْرِفينهُ  
إن أعزُّ رُبَيْداً أعزُّ قوماً  
أعزَّةً  
وإن أعزُّ حَيِّ حَنَعَمِ

فدماؤهم  
فما أَدْرَكَ الأَوْتَارَ مِنْهُ  
مَحَقِّقٌ

بَأَجْرَدَ طَاوٍ كَالْعَسِيبِ  
المُشَدَّبِ

وَأَسْمَرَ حَطِيٍّ وَأَبْيَضَ بَاتِرٍ

وَرَعْفٍ دِلَاصٍ كَالغَدِيرِ  
المُتَوِّبِ

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ابْنَ سَيِّدٍ  
عَامِرٍ

وَفِي السِّرِّ مِنْهَا وَالصَّرِيحِ  
المَهْدَبِ

فَمَا سَوَّدَتْنِي عَامِرٌ عَنِ  
وَرَاثَةِ

أَبِي اللَّهِ أَنْ أَسْمُو بِأَمٍ وَلَا  
أَبٍ

وَلَكِنِّي أَحْمِي حَمَاهَا،  
وَأَتَّقِي

أَدَاهَا، وَأَرْمِي مَنْ رَمَاهَا  
بِمَنْكَبِ

وَقَالَ أَيْضًا يَهْتِي بَعْضَ الْهَاشِمِيِّينَ بِإِمْلَاكٍ: زَادَ اللَّهُ فِي نِعْمَتِهِ، وَبَارَكَ فِي قَوَاضِيهِ، وَجَمِيلَ نَوَافِلِهِ؛ وَنَسَأَ اللَّهُ - الَّذِي قَسَمَ لَكُمْ مَا تَحْتَبُونَ مِنَ السِّرِّ - أَنْ يَجْتَبِكُمْ مَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْمَحْذُورِ، وَيَجْعَلَ مَا أَحَدَثَهُ لَكُمْ زِينًا، وَمَتَاعًا حَسَنًا، وَرِشْدًا ثَابِتًا، وَيَجْعَلَ سَبِيلَ مَا أَصْبَحْتَ عَلَيْهِ، تَمَامًا لِصَالِحِ مَا سَمَّوْتُ إِلَيْهِ؛ مِنْ اجْتِمَاعِ الشَّمْلِ، وَحُسْنِ مَوَافَقَةِ الأَهْلِ، أَلَفَ اللَّهُ ذَلِكَ بِالصَّلَاحِ، وَتَمَمَهُ بِالنَّجَاحِ، وَمَدَّ لَكَ فِي ثَرْوَةِ الْعَدَدِ، وَطَيْبِ الْوَلَدِ، مَعَ الزِّيَادَةِ فِي الْمَالِ، وَحُسْنِ السَّلَامَةِ فِي الْحَالِ، وَفُرَةِ الْعَيْنِ، وَصَلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ.

وهجا أبو عاصم محمد بن حمزة الأسلمي المدني الحسن بن زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب رحمة الله عليه، فقال: الوافر:

له حق وليس عليه حَقٌّ  
وقد كان الرسولُ يَرَى  
حقوقاً

ومهما قال فالحسن الجميلُ  
عليه لغيره وهو الرسولُ

فلما ولي الحسن المدينة أتاه متنكراً في زي الأعراب، فقال: الوافر:

ستأتي مدحتي الحسن بن  
زيدٍ

وتشهد لي بصقن القبورُ

قبورٌ لم تزل مُدُّ غَابَ عَنْهَا

أبو حسن تُعَادِيهَا الدهورُ

قبورٌ لو بأحمدٍ أو عليٍّ

يلوُدُ مُجِيرُهَا حُمَيِّ المُجِيرِ

هما أبواك مَنْ وَصَعَا فَصَعُهُ

وأنت برقع مَنْ رَفَعَا جَدِيرُ

فقال: من أنت؟ قال: أنا الأسلمي. قال: أَدُنُّ حَيَّاكَ اللَّهُ! وبسط له رداءه، وأجلسه عليه، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

وكان الحسن بن زيد قد عَوَدَ داود بن سلم مولى بني تيم أن يصله، فلما مدح داودُ جعفرَ بن سليمان بن علي - وكان بينه وبين الحسن بن زيد تباعدٌ - أغضبه ذلك، وقدم الحسن من حج أو عمرة، فدخل عليه داود بن سلم مهتلاً، فقال: أنت القائل في جعفر بن سليمان بن علي: الطويل:

وكتا حديثاً قبل تأمير جعفرٍ  
وكان المنى في جعفرٍ أن  
يؤمراً

حوى المنبرين الطاهرين  
كليهما

إذا ما خطا عن منبر أم منبرا

كأن بني حَوَاءَ صُفُّوا أَمَامَهُ

فحُيِّرَ فِي أَنْسَابِهِمْ فَتَخَيَّرَا

فقال داود: نعم، جعلني الله فداك، فكنتم خيرة اختياره! وأنا القائل: الطويل:

لعمري لئن عاقبت أوجدت  
بعفوٍ عن الجاني وإن كان

مُعْذِرًا وأكرم فخراً إن فخرت وَعُنْصِراً ويدعو علياً ذا المعالي وجعفرًا وَعَمَكَ بِالطَّفِّ الزكي المُطَهَّرًا	مُنْعِمًا لأنت بما قَدَّمْتَ أولى بمُدْحَةٍ هو العُرَّةُ الزهراء من فرع هاشم وزيد الندى والسيط سبط محمد وما نال منها جعفر غير مجلس بحقكم نالوا دُرَاهَا وأصبحوا
---	---

فعادله الحسن بن زيد إلى ما كان عليه، ولم يزل يصله وبحسنٍ إليه إلى أن مات. وقوله: وإن كان مُعْذِرًا؛ لأن جعفرًا أعطاه على أبياته الثلاثة ألف دينار. ولما ولي الحسن بن زيد المدينة دخل عليه إبراهيم بن علي بن هُرْمَةَ، فقال له الحسن: يا إبراهيم، لستُ كمن باع لك دينه رجاء مدحك، أو خوف ذمك، فقد رزقني الله تعالى بولادة نبيه، صلى الله عليه وسلم، الممدوح، وجيَّني المقابح، وإنَّ من حقِّه عليّ ألا أعصي على تقصير في حقِّ وجب؛ وأنا أقسم لئن أتيت بك سكرانٍ لأضربك حدًّا للخمر، وحدًّا للسكر؛ ولأزيدن لموضع حُرمتك بي، فليكن تركك لها لله، عزَّ وجلَّ، تُعَنُّ عليه، ولا تَدَعُهَا للناس فتوكل إليهم. فنهض ابن هرمة، وهو يقول: الوافر:

نهاني ابن الرسولِ عن المُدَامِ	وَأَدْبَنِي بِآدَابِ الكرامِ
وقال لي اصطبر عنها ودَعْهَا وكيف تصبري عنها وحبِّي	لخوفِ الله لا خوفِ الأنامِ لها حُبُّ تمكَّنَ في عظامي وطيب العيش في خبث الحرامِ
أرى طيفَ الخيالِ عَلَيَّ حُبْنًا	

وكان إبراهيم منهومًا في الخمر، وجلده خَيْمٌ بن عِرَاكٍ صاحبُ سُرطةِ المدينة لرباح بن عبد الله الحارثي في ولاية أبي العباس. ولما وفد على أبي جعفر المنصور ومدحه استحسن شعره ووصله، وقال له: سئل حاجتك، قال: تكتب لي إلى عامل المدينة ألا يخذني إذا أتيت بي سكران، فقال أبو جعفر: هذا حد من حدود الله تعالى لا يجوز أن أعطله، قال: فاحتك لي يا أمير المؤمنين! فكتب إلى عامل المدينة: مَنْ أتاك ببن هرمة سكران فاجلده مائة، واجلد ابن هرمة ثمانين.

فكان الشُّرَطُ يَمْرُون به مطروحاً في سبكِ المدينة، فيقولون: مَنْ يشتري مائة بثمانين؟! وقال موسى بن عبد الله بن علي بن أبي طالب: الطويل:

إذا أنا لم أقبلُ من الدهر كل ما	تَكَرَّهْتُ منه طال عُنْبِي على
إلى الله كل الأمر في الخلق كلهم	الدَّهْرِ
تعودتُ مَسَّ الضر حتى أَلْفُتُّهُ	وليس إلى المخلوق شيءٌ من الأمرِ
ووسَّعَ صدري للأذى الأنسُ بالأذى	وأسلمني طولُ البلاءِ إلى الصبرِ
وصيرني يأسِي من الناس	وإن كنت أحياناً يضيِّقُ به صدري
	لِسُرْعَةِ لطفِ الله من حيث

لا أدري

راجياً

وموسى بن عبد الله هو القائل: مجزوء الوافر:

تولت بهجة الدنيا  
وخان الناس كلهم  
رأيت معالم الخيرا  
فلا حسب ولا نسب  
فلمست مصدق الأقوا

وكان المنصور حبسه لخروجه عليه مع أخويه، ثم ضربه ألف سوط، فما نطق بحرف واحد؛ فقال الربيع: عذرت هؤلاء الفساق في صبرهم؛ فما بال هذا الفتى الذي نشأ في النعمة والدعة؟ فقال: الكامل:

إني من القوم الذين يزيدهم جلدًا وصبراً قسوة السلطان

وولدت هند بنت أبي عبيدة بن عبد الله بن زمة موسى، ولها ستون سنة، ولا يعلم امرأة ولدت بنت ستين سنة إلا فرشيبة.

اجتاز علي بن محمد العلوي بالجسر بجدثان قتل عمر بن يحيى بن عبد الله ابن الحسين، وقاتله الحسين بن إسماعيل هناك، قد جرد رجلاً للقتل، فلما رأت أم الرجل علياً سأله أن يشق فيه، فقال علي إلى الحسين فأنشده: الوافر:

قتلت أبر من ركب المطايا  
وعز علي أن القياك إلا  
ولكن الجناح إذا أصيبت  
قوادمه يرف على الإكام

فقال له: وما حاجتك؟ قال: العفو عن ابن هذه المرأة! فتركه.

وسئل العباس بن الحسين عن رجل، فقال لجليسه: أطرب من الإبل على الحداء، ومن الثمل على الغتاء.

وذكر العباس رجلاً فقال: ما الحمام على الأحرار، وطول السقم في الأسفار، وعظم الدين على الإقتار، بأشد من لقائه.

وقال العباس بن الحسين للمأمون: يا أمير المؤمنين، إن لساني يتطلق بمدحك غائباً، وقد أحببت أن يتربد عندك حاضراً، أفأذن لي يا أمير المؤمنين في الكلام؟ فقال له: قل؛ فوالله إنك لتقول فتحسين، وتحصن فتزبن، وتغيب فتؤتمن، فقال: ما بعد هذا كلام يا أمير المؤمنين! أفأذن بالسكوت؟ قال: إذا شئت.

وذكر رجلاً بليغاً فقال: ما سببت كلامه إلا بثعبان ينهال بين رمال، وماء يتغلغل بين الجبال.

وسمع المنتجع بن نهان كلام العباس بن الحسين، فقال: هذا كلام يدل سائرته على غايته، وأوله على آخره.

وسأل المأمون العباس بن الحسين عن رجل؟ فقال: رأيت له جلماً وأناة، ولم أسمع لحناً ولا إحالة؛ يحدثك الحديث على مطاويه، وينشدك الشعر على مدارجه. وكان المأمون يقول: من أراد أن يسمع لهواً بلا حرج فليسمع كلام العباس، والعباس بن الحسين من أشعر الهاشميين؛ وهو يعد في طبقة إبراهيم ابن المهدي، وهو القائل: الوافر:

أتاح لك الهوى بيض حسان  
نظرت إلى النحور فكدت  
تقضي

وهو القائل أيضاً: مجزوء الكامل:

صادتك من بعض القصور  
حور تحور إلى صبا  
وكانما بثغورهن  
بيض نواعم في الخدور  
ك باعين منهن حور  
جنى الرضاب من الخمور

يَصْبُغَنَّ تُفَّاحَ الْخَدْوِ      دِمْءِ رِمَانِ الصُّدُورِ  
وهو: العباسُ بن الحسين بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب،  
رضي الله عنه، وأم عبيد الله جدُّه بنت عبيد الله بن العباس بن عبد  
المطلب عمَّ محمد بن علي أبي الخلفاء.  
وكان الرشيدُ والمأمون يقربان العباسَ غايةَ التقريب؛ لِتَسْبِيهِ وأدبه. قال  
أبو دلف: دخلتُ على الرشيد وهو في طارمة على طَيْفِيسَة ومعه عليها  
شيخٌ جميلُ المنظر؛ فقال لي الرشيد: يا قاسم، ما حَبَّرَ أَرْضَكَ؟ فقلت: يا  
أمير المؤمنين، حَرَابَ يَتَاب، أَحْرَبَهَا الأكراد والأعراب. فقال قائل: هذا أفةُ  
الجبيل، وهو أفسده، فقلت: أنا أصلحه، قال الرشيد: وكيف ذلك؟ قلت:  
أفسدته وأنت علي وأصلحته وأنت معي! قال الشيخ: إن همته لترمي به  
من وراء سنِّه مَرْمَى بعيداً؛ فسألت عن الشيخ ف قيل: العباس بن الحسين،  
وكان أبو دُلفَ ذلك الوقت صغير السن.  
ولقي موسى بن جعفر، رضي الله عنه، محمد بن الرشيد الأمين بالمدينة  
وموسى علي بَعْلَة، فقال للفضل بن الربيع: عَاتِبْ هذا، فقال له الفضل:  
كيف لقيت أمير المؤمنين على هذه الدابة التي إن طلبت عليها لم تَسْبِقْ،  
وإن طلبت عليها تلحق، فقال: لست أحتاج أن أطلب، ولا إلى أن أطلب؛  
ولكنها دابةٌ تنحط عن خيلاء الخيل، وترتفع عن ذلة العَيْر، وخير الأمور  
أوسطها.  
أصيب علي بن موسى بمصيبة، فصار إليه الحسن بن سهل، فقال: إنا لم  
ناتِكَ مُعْرَبِينَ؛ بل جئتكَ مُفْتَدِينَ؛ فالحمدُ لله الذي جعل حياتكم للناس  
رَحْمَةً، ومصائبكم لهم قَدْوَةً.  
وكان علي بن موسى الرضا، رحمه الله، قد ولَّاه المأمون عَهْدَهُ، وعقد له  
الخلافة بعده، ونزع السَّواد عن بني العباس، وأمرهم بلباس الخضرة،  
ومات علي بن موسى في حياة المأمون بطوس، فشق المأمون قبر  
الرشيد ودْفِنَ فيه تبرُّكاً به، وكان الرشيد قد مات بطوس فدفن هناك؛  
ولذلك قال دِعْبَل بن علي الخزاعي: البسيط:  
إِرْبَعُ بِطُوسٍ عَلَى قَبْرِ الزُّكِيِّ      إِنْ كُنْتَ تَرِبُوعٌ مِنْ دِينِ عَلِيٍّ  
بِهَا      وَطَرِ  
مَا يَنْفَعُ الرَّجْسَ مِنْ قُرْبِ      عَلَى الزُّكِيِّ بِقَرَبِ الرَّجْسِ مِنْ  
الزُّكِيِّ، وَلَا      صَرَّرِ  
هِيَهَاتَ كُلِّ امْرَأٍ رَهْنٌ بِمَا      لَهُ يَدَاهُ فَخُذْ مِنْ ذَاكَ أَوْ  
كَسَبْتَ      قَدَّرِ  
قَبْرَانِ فِي طُوسٍ: حَيْرُ النَّاسِ      وَقَبْرُ شَرِّهِمْ، هَذَا مِنَ الْعَبْرِ  
كُلِّهِمْ  
وكان دعبل مداحاً لأهل البيت، كثير التعصُّب لهم، والغلوِّ فيهم. وله المرثية المشهورة،  
وهي من جيد شعره، وأولها: الطويل:  
مَدَارِسَ آيَاتِ عَقَتْ مِنْ      وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مُفْفَرُ  
تِلَاوَةٍ      الْعَرَصَاتِ  
لَا رَسُولَ لِلَّهِ بِالْحَيْفِ مِنْ      وَبِالْبَيْتِ وَالتَّعْرِيفِ  
مِنْى      وَالجَمَرَاتِ  
دِيَارُ عَلِيٍّ وَالحُسَيْنِ وَجَعْفَرِ      وَحِمْرَةَ وَالسَّجَادِ ذِي  
الثَّقَنَاتِ

قَفَا تَسْأَلُ الدَّارَ التِّي حَصَّ  
أَهْلَهَا  
وَأَيْنَ الأُلَى سَطَّتْ بِهِمْ عُرْبُهُ  
التَّوَى  
أَجِبْ قَصِي الدَّارِ مِنْ أَجْلِ  
حُبِّهِمْ  
متى عَهْدُهَا بالصُّومِ  
والصَّلَوَاتِ  
أفانينَ فِي الآفاقِ  
مُفْتَرِقَاتِ  
وأهْجُرُ فِيهِمْ أُسْرَتِي  
وِثْقَاتِي

وهي طويلة.

ولما دخل المأمونُ بغدادَ أَحْضَرَ دُعْبَلًا بعد أن أُعْطَاه الأمانَ، وكان قد هجَاه وهجَا أباهُ، فقال: يا دعبِل، من الحضيض الأوهْد! فقال: يا أمير المؤمنين، قد عفوت عمن هو أشدُّ جُرْمًا مِنِّي! أراد المأمون قول دعبِل يهجوهُ: الكامل:

إِنِّي مِنَ القَوْمِ الذِّينِ  
سَيُوفُهُمْ  
شَادُوا بِذِكْرِكَ بعد طَوْلِ  
حُمُولِهِ  
قَتَلْتُ أَحَاكَ وَشَرَفْتُكَ  
بِمَفْعَدِ  
وَاسْتَنْقَذُوكَ مِنَ الحَضِيضِ  
الأُوْهْدِ

يفتخرُ عليه بِقَتْلِ طاهر بن الحسين بن مصعب ذي اليمينين أخيه محمدًا، وطاهر مولى لِحُزَاعَةَ، فاستنشدَه هذه القصيدة التائبة، فاستغفاه، فقال: لا بأسَ عَلَيْكَ، وقد رويْتُها، وإنما أحببت أن أسمعها منك، فأنشدَها دعبِل؛ فلما انتهى إلى قوله: الطويل:

أَلَمْ تَرَ أَنِي مَدَّ ثَلَاثِينَ حِجَّةً  
أَرَى قِيَّتَهُمْ فِي غيرِهِمْ  
مُتَقَسِّمًا  
أروح وَأَعْدُو دَائِمَ الحَسَرَاتِ  
وَأَيْدِيَهُمْ مِنْ فِيئِهِمْ صَفَرَاتِ

إِذَا وَتَرُوا مَدُّوا إِلَى أَهْلِ  
وِئْرِهِمْ  
وَأَلَّ رَسولَ اللّهِ نُحْفُ  
جَسومِهِمْ  
بَنَاتُ زِيَادٍ فِي القصورِ  
مَصُونَةٌ  
أَكْفًا عَنِ الأوتارِ مُنْقَبِضَاتِ  
وَأَلَّ زِيَادُ غَلْظُ القَصَرَاتِ  
وَبِنْتُ رَسولِ اللّهِ فِي  
القَلَوَاتِ

بكى المأمون، وجدد له الأمان، وأحسن له الصلة.

والشيء يستدعي ما قرع بابه، وجذب أهْدَابَهُ، قال سليمان بن قتيبة: الطويل:

مَرَرْتُ عَلَى آيَاتِ آلِ مُحَمَّدٍ  
فَلِمَ أَرَاهَا عَهْدِي بِهَا يَوْمِ  
حُلَّتِ

فلا يبعد الله الديارَ وأهلَهَا  
وكانوا رجاءً ثم عادوا رَزِيَّةً  
وإن قَتيلَ الطَّفِّ مِنْ آلِ  
هاشمِ  
وإن أصبحت من أهلها قد  
تخلت  
ألا عظمت تلك الرزايا  
وجلّت  
أذلَّ رِقَابَ المُسلمينِ  
قَدَلتِ

ويشبه قوله: وكانوا رجاءً ثم عادوا رزية قولَ امرأةٍ من العرب مرّت بالجسرِ بجَنَّةِ جعفر بن يحيى البرمكي مَصلوبًا؛ فقالت: لئن أصبحت نهاية في البلاء، لقد كنت غايةً في الرجاء.

ألفاظ لأهل العصر في أوصاف الأشراف

لها في هذا الموضع مَوْقع

فلان من شرفِ العنصرِ الكريمِ، ومعدن الشرفِ الصميمِ. أصلُ راسخ، وفرع شامخ، ومَجْدٌ باذخ، وحَسَبٌ شَادخ.

فلان كريم الطَّرْفَيْنِ، شريف الجانِبَيْنِ، قد رَكَّبَ اللهُ دَوَحَتَهُ في قرارة المَجْدِ، وَعَرَسَ تَبَعْتَهُ في محلِّ الفضلِ. أصلُ شريف، وعِرْقُ كريم، ومَعْرِسُ عظيم، ومَعْرِزُ صميم. المجد لسانٌ أوصافه، والشرفُ نَسَبُ أسلافه. نَسَبُ فخم، وشرفٌ ضخَم. يستوفي شرفَ الأرومة بكرم الأبوَّة والأمومة، وشرف الخُوْولة والعمومة. ما أتته المحاسِنُ عن كلاله، ولا ظفر بالهدى عن ضلاله، بل تناول المجدَ كابرًا عن كابر، وأخذ الفخرَ عن أسيرَةٍ ومنابر: الكامل:

شرفٌ تنفل كابرًا عن كابر      كالرمح أنبوا على أنوبِ  
استقى عِرْقَهُ من مَنبَعِ النبوة، ورضعتُ شجرَتُهُ من تَدْيِ الرسالة، وتهدَّلت أغصانُهُ عن تَبَعَةِ الإمامة، وتبحَّخت أطرافُهُ في عَرَصَةِ الشَّرَفِ والسيادة، وتفجَّأت بيضته عن سلالَةِ الطهارة، قد جذَّبَ القرآن بصَبْعِهِ، وشقَّ الوَحْيُ عن بصره وبسَمْعِهِ، مختار من أكرم المناسب، منتخَب من أشرف العناصر، مرتَضَى من أعلى المحاتد، مُؤْتَر من أعظم العشائر، قد وَرِثَ الشرفَ جامعاً عن جامع، وشهد له نداءُ الصوامع، هو من مُضر في سُويداء قلبها، ومن هاشم في سَوَاد طَرْفها، ومن الرسالة في مهبطِ وحيها، ومن الإمامة في موقف عَزها، ينزع إلى المحامدِ بنفس وعِرْق، ويحن إلى المكارمِ بوراة وخلق؛ يتناسب أصله وقَرْعُهُ، ويتناصف تخزُّه وطَبْعُهُ، وهو الطيب أصله وقَرْعُهُ، الزَّاكِي بذره وِرْزَعُهُ، يجمع إلى عز النصاب، مَزِيَّة الآداب، لا عَزْو أن يجري الجوادُ على عِرْقِهِ، وتلوح مخايل الليثِ في ثبَلِهِ، ويكون النجيبُ قَرْعاً مشيداً لأصله. له مع نباهة شَرَفِهِ، نزاهة سَلْفِهِ، ومع كرم أرومته وحَزْمِهِ، مزِيَّة أديه وعلمِهِ، لن تخلف ثمرة عَرَسِ اِرْتِيَدِ لها من المنايا أركاها، ومن المغارس أطيبها وأغذاها وأنماها، قد جمع شرفَ الأخلاق، إلى شرفِ الأعراق، وكرم الآداب، إلى كرم الأنساب؛ له في المجد أول وأخر، وفي الكرم تليدٌ وطَّارِف، وفي الفضل حديثٌ وقديمٌ؛ لا عَزْو أن يغمر فضله، وهو تجلُّ الصِّيد الأكارم، أو يغزر علمه وهو قَيْضُ البحور الخضارم، دَوْحَهُ رَسِبَ عِرْقُهَا، وسَمَقَ قَرْعُهَا، وطاب عُودُهَا، واعتدلَ عموذُهَا، وتفجَّأت ظلالُهَا، وتهدَّلت ثمارُهَا، وتفرَّعتْ أغصانُهَا، وبرد مَقِيلُهَا. مَجْدٌ يلحظ الجوراء من عَال، ويطولُ النجم كل مَطَّال. شَرَفٌ تضع له الأفلاكُ خدودها وجباها، وتلنمُ النجومُ أرضه بأفواها وشفاها. نَسَبُ المجدِ به عَرِيق، وَرَوْضُ الشرفِ به أنيق. ولسانُ الثناء بفضله تطوق. فَلِكُ المجدِ عليه يَدُور، وبدُّ العُلا إليه تُشير. محله شاهق، ومَجْدُهُ باسِق.

بدء الكتاب

قد تتم ما استفتحت به التأليف، وجعلته مقدمة التصنيف، مع ما اقترن به، وأنصاف إليه، والتف به، وانعطف عليه، ورأيْتُ أن أبتدئ مقدمات البلاغات بعُرر التحاميد وأوصافها، وما يتعلَّق بأثائها وأطرافها. وقد قال سهل بن هارون في أول كتاب عمله: يجب على كل مبتدئ مقالة أن يبتدئ بحمد الله قبل استفتاحها، كما بُدئ بالنعمة قبل استحقاقها. ولأهل العصر: أولى ما قَرَّ به الناطقُ فمه، وافتتح به كَلِمَهُ، حمدُ الله جل ثناؤه، وتقدَّست أسماؤه. حَمْدُ الله خيرٌ ما ابْتُدئ به القول وختم، وافتتح به الخطابُ وتُتم.

وقال أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله: إن الله، جل ثناؤه، لا يُمثل بنظير، ولا يُغلبُ بظهير، جل عن موقع تحصيل أدوات البشر، ولطف عن الحاظ خطرات الفكر، لا يُجمدُ إلا بتوفيق منه يفتضي حمداً، فمتى تُحصى نعمائه وتكافأ ألؤه؟ عَجَزَ أقصى الشكرِ عن أداء نعمته، وتضاءل ما خلق

في سِعةِ قُدْرته؛ قَدْرٍ قَدَّر، وحَكَمَ فأحْكَم؛ وجعل الدِّينَ جامعاً لشَمْلِ عبادِه، والشرائعَ مَنَاراً على سبيل طاعته؛ يَتَّبِعُهَا أهلُ اليقينِ به، وبِحَيْدٍ عنها أهلُ الشكِّ فيه.

أخذ أبو العباس قوله: ولا يحمد إلا بتوفيق منه يقتضي حمداً من قول محمود بن الحسن الوراق: الطويل:

إذا كان شكري نعمة الله	عليَّ له في مثلها يجبُ
نعمةً	الشُّكْرُ
فكيف بلوغُ الشُّكْرِ إلا	وإن طالت الأيام واتَّصلَ
بفضله	العمرُ
إذا عمَّ بالسَّراءِ عمَّ	وإن مَسَّ بالصَّراءِ أعقبها
سرورها	الأجرُ
فما منهما إلا له فيه نعمة	تَضيقُ بها الأوهامُ والبرُّ
	والبحرُ

وإنما أخذه محمود من قول أبي العتاهية: الخفيف:

أحمد الله فهو ألهمني الحم	دَ على الحمد والمزيدُ لَدَيْهِ
كم زمان بكيث فيه فلماً	صِرْتُ في غيره بكيث عليه

وقد اضطربت الرواية في هذين البيتين وقائلهما، وهذا البيت الثاني كثير، قال إبراهيم بن العباس: البسيط:

كذاك أيامنا لا شك تَدُبها	إذا تَقَصَّصت ونحْنُ اليومَ
	تَشْكُوها

وآخر: الطويل:

وما مرَّ يومٍ أرتجي فيه راحة	فأفقدُهُ إلا بكيث على أمسٍ
ومحمود هو القائل أيضاً: الكامل:	
تَعْصِي الإلهَ وَأَنْتَ تُظْهَرُ حبهُ	هذا محالٌ في القياسِ بدِعُ
لو كان حُبُّكَ صادقاً لأطعتهُ	إنَّ المحبَّ لمن أَحَبَّ مُطِيعُ

وكان كثيراً ما ينقل أخبار الماضين، وحكم المتقدمين، فيحلي بها نظامه، ويبرين بها كلامه، وهو القائل: الكامل:

إني وَهَبْتُ لظالمي ظلمي	وشكرتُ ذاكَ له على عِلْمِي
ورأيتُه أسدى إلي يداً	لَمَّا أبان بجهلهِ جِلْمِي
رَجَعْتُ إساءتُه عليه، ولي	فَصَلَّ فعادَ مُضاعَفَ الجُرمِ
فكأنما الإحسانُ كان له	وأنا المسيءُ إليه في الزعمِ
ما زال يظلمني وأرحمه	حتى رَتَيْتُ له من الظلمِ

وهو القائل: الطويل:

أراني إذا ما ازددتُ مالاً	وخييراً إلى خَيْرٍ تزيدتُ في
وثروةً	السَّرِّ
فكيف بشُّكْرِ الله إن كنت	أقومُ مقامَ الشُّكْرِ لله
إنما	بالكُفْرِ
بأي اعتِدَارٍ أو بأية حُجَّة	يقولُ الذي يدري من الأمرِ ما
إذا كان وَجْهُ العُدْرِ ليس	أدري
ببين	فإنَّ اطِّراحَ العُدْرِ خَيْرٌ من
	العُدْرِ

في البلاغة

ولا ين المعترز: البيان تَرْجُمانُ القلوب، وَصَيَّقَلُ العقول، وَمُجَلِّي الشُّبُهَة، وموجب الحجة، والحاكم عند اختصام الظنون، والمفرِّق بين الشك واليقين، وهو من سلطان الرُّسُل الذي انقاد به المصعب، واستقام الأُصِيد، وبهت الكافر، وسَلَم الممتنع، حتى أئيب الحقُّ بأنصاره، وَخَلَا رِيْعُ الباطل من عُمَّاره، وخيرُ البيان ما كان مصرحاً عن المعنى؛ لِيُسْرَعَ إلى الفهم تلقَّيه، وموجزاً ليخفف على اللفظ تعاطيه.

وقَضِل القرآن على سائر الكلام معروف غير مجهول، وظاهر غير خفي، يشهدُ بذلك عَجَز المتعاطين، وَوَهْن المتكلمين، وتحيُّر الكذابين، وهو المبلغ الذي لا يمل، والجديد الذي لا يخلق، والحقُّ الصادع، والنور الساطع، والماحي لظلم الضلال، ولسانُ الصِّدقِ النافي للكذب، ونذيرٌ قدَّمته الرحمة قبل الهلاك، وتآعي الدنيا المنقولة، وبشِيرُ الآخرة المخلدة، ومِفْتَاحُ الخير، ودليل الجنة، إن أُوجِرَ كان كافياً، وإنْ أَكْثَرَ كان مُدَكِّراً، وإنْ أَوْماً كان مُقْنِعاً، وإنْ أَطَالَ كان مُفهِماً، وإنْ أَمَرَ قَنَاصِحاً، وإنْ حَكَمَ قَعَادِلًا، وإنْ أَخْبَرَ فَصَادِقًا، وإنْ بَيَّنَّ فَشَافِيًا، سَهَّلَ على الفهم، صَعَّبَ على المتعاطي، قَرِيبَ المآخِذِ، بعيدُ المرام، سِرَّاجٌ تستضيءُ به القلوب، حُلُوٌّ إذا تَذَوَّقْتَهُ العقول، بَحْرُ العلوم، وديوانُ الحِكم، وجَوْهَرُ الكلم، وتُرْهَة المتوسِّمين، وَرَوْحُ قلوب المؤمنين، نزل به الرُّوحُ الأَمِينُ على محمد خاتم النبيين، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين، فخصمَ الباطل، وصدع بالحق، وتآلف من النفرة، وَأَنقَدَ من الهلكة، فوصل الله له النصر، وأضرع به حَدَّ الكفر.

قال علي بن عيسى الرماني: البلاغة ما حُطَّ التكلُّفُ عنه، وبُني على التبيين، وكانت الفائدةُ أَعْلَبُ عليه من القافية، بَأَنَّ جَمَعَ مع ذلك سهولة المخرج، مع قُرْبِ المتناول؛ وعذوبة اللفظ، مع رشاقة المعنى؛ وأن يكون حُسْنُ الابتداء كحُسْنِ الانتهاء، وحسن الوصل، كحُسْنِ الإقطع، في المعنى والسمع، وكانت كلُّ كلمة قد وَقَعَتْ في حَقِّها، وإلى جَنبِ أختها، حتى لا يقال: لو كان كذا في موضع كذا لكان أولى! وحتى لا يكونَ فيه لفظٌ مختلف، ولا معنى مُسْتَكْرَه، ثم ألبسَ بهَاءَ الحكمة، ونورَ المعرفة، وشرفَ المعنى، وجزالة اللفظ، وكانت حلاوته في الصدر وجلالته في النفس تفتِّقُ الفهم، وتشر دقائق الحكم، وكان ظاهرُ النفع، شريفَ القصد، معتدلَ الوزن، جميل المذهب، كريم المطلب، فصيحاً في معناه، بيناً في قَحواه؛ وكل هذه الشروط قد حواها القرآن، ولذلك عَجَزَ عن معارضة جميع الأنام.

ألفاظ لأهل العصر في ذكر القرآن  
القرآن جبل الله الممدود، وعهده المعهود، وظلُّه العميم، وصراطه المستقيم، وحجته الكبرى، ومحجته الوسطى، وهو الواضح سبيله، الراشد دليله، الذي سن استضاء بمصابيحه أبصر وتجا، وهنْ أَعْرَضَ عنه صلَّ وهوى؛ فضائل القرآن لا تُسْتَقْصَى في ألف قرن، حجة الله وعهده، ووَعِيدُهُ ووَعْدُهُ، به يعلمُ الجاهلُ، ويعملُ العاَمِلُ، ويتنبه الساهي، ويتذكر اللاهي، بشِيرُ الثواب، وتذِيرُ العقاب، وشفاء الصدور، وغلَاءُ الأمور؛ من فضائله أنه يُقْرَأُ دائماً، ويُكْتَبُ، ويُمْلَى، ولا يَمَلُّ. ما أهون الدنيا على مَنْ جعل القرآن إمامه، وتصوّر الموت إمامه، طوبى لمن جعل القرآن مصباح قلبه، ومفتاح لبه. من حق القرآن حفظ ترتيبه، وحسن ترتيبه.

قال بعض الحكماء: الحكمة مَوْقِظَةٌ للقلوب من سِنَةِ العفلة، وَمُنْقِذَةٌ للبصائر من سَكْرَةِ الحيرة، ومُخَيِّبَةٌ لها من مَوْتِ الجهالة، ومُسْتَخْرِجَةٌ لها من

ضيق الصَّلَاة؛ والعلمُ دواء للقلوب العليلة، ومِسْحَدُ للأذهان الكليلة، ونورٌ في الظلمة، وأنسٌ في الوحْشَةِ، وصاحبٌ في الوحْدَةِ، وسَمِيرٌ في الحَلْوَةِ، ووضلةٌ في المجلس، ومادَّةٌ للعقلِ وتَلْقِيحٌ للفهم، وتَأْفِي للعبيِّ المُرْري بأهل الأَحْسَابِ، المقصِّرُ بذوي الألباب؛ أنطق الله سبحانه أهله بالبيان الذي جعله صفةً لكلامه في تنزيله، وأيدَ به رُسُلَهُ إيضاحاً للمشكلات، وفضلاً بين الشبهات: شَرَّفَ به الوضيعَ، وأعزَّ به الدليلَ، وسوَّدَ به المَسُودَ، من تحلَّى بغيره فهو معطلٌ، ومن تعطل منه فهو مغفلٌ، لا تُثْلِيه الأيام، ولا تُخْتَرِمُهُ الدهور، يتجددُ على الابتدال، ويَرْكُو على الإنفاق؛ لله على ما منَّ به على عباده الحمدُ والشُّكْرُ.

رجع إلى البلاغة قيل لعمر بن عبيد: ما البلاغة؟ قال: ما بلغك الجنة، وَعَدَلْ بك عن النار، وبصرك مَوَاقِعَ رُشْدِكَ، وعواقبَ عَيْكَ. قال السائل: ليس هذا أريد، قال: من لم يُحْسِنْ أن يسكتَ لم يُحْسِنْ أن يَسْتَمِعَ، ومن لم يُحْسِنِ الاستماعَ لم يُحْسِنِ القولَ، قال: ليس هذا أريد، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: "إِنَّا مَعْشَرَ الأنبياءِ فِينَا بَكٌّ" أي قِلَّةُ كلام؛ وكانوا يكرهون أن يزيد منطلقُ الرجل على عَقْلِهِ، قال السائل: ليس هذا أريد، قال: كانوا يخافون من فِتْنَةِ القولِ ومن سَقَطَاتِ الكلام ما لا يخافون من فِتْنَةِ السكوتِ، وسَقَطَاتِ الصَّمْتِ، قال: ليس هذا أريد، قال عمرو: يا هذا، فكانك تريدُ تَحْطِيرَ اللفظِ في حسن الإفهامِ، قال: نعم، قال: إن أردتَ تقريرَ حُجَّةِ الله عزَّ وجلَّ في عقولِ المكلفين، وتخفيفِ المؤونة عن المستمعين، وتزيينِ تلك المعاني في قلوب المرئيين، بالألفاظ المستحسنة في الأذان، المقبولة في الأذهان، رغبةً في شرعة إجابتهم، وتَفْيِ الشواغل عن قلوبهم، بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة - كنت قد أوتيت الحكمة وفضلَ الخطابِ، واستوجبت من الله جزيلَ الثوابِ، فقيل لعبد الكريم بن روح الغفاري: مَنْ هذا الذي صَبَرَ له عَمَرُو هذا الصبر؟ قال: سألتُ عن ذلك أبا حفص الشمري، فقال: ومن يَجْتَرِي عليه هذه الجرأة إلا حفص بن سالم.

وعمر بن عبيد بن باب هو رئيسُ المعتزلة في وقته، وهو أولُ من تكلم على المخلوق، واعتزل مجلسَ الحسن البصري، وهو أولُ المعتزلة. ودخل عمرو بن عبيد على أبي جعفر المنصور، فقال: عطني، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك منه ببعضها؛ يا أمير المؤمنين، إن هذا الأمر لو كان باقياً لأحدٍ قبلك ما وصل إليك، ألم تر كيف فعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرَمَ ذاتِ العِمَادِ؟ قال: فبكى المنصور حتى بل ثوبه. ثم قال: حاجتك يا أبا عثمان! وكان المنصور لَمَّا دخل عليه طرَحَ عليه طَيْلَسَانًا، فقال: يُرْقِعُ هذا الطيلسان عني! فَرُفِعَ، فقال أبو جعفر: لا تَدْعُ إتياننا؛ قال: نعم، لا يضمني وإياك بلد إلا دخلتُ إليك، ولا بدتُ لي حاجة إلا سألتُك، ولكن لا تُعْطِنِي حتى أسألك، ولا تَدْعُنِي حتى أتيتك، قال: إذا لا تأتينا أبداً.

وقد روي مثل هذا لابن السماك مع الرشيد. وقوله: لو كان هذا الأمر باقياً لأحدٍ قبلك ما وصل إليك كقول ابن الرومي: الطويل:

لعمرك ما الدُّنيا بدارٍ  
إقامةٍ  
إذا زال عن عَيْنِ البصيرِ  
غطاؤها

وكيف بقاء الناس فيها  
وإنما  
يُنال بأسباب الفناء  
بقاؤها؟

ووعظ شبيب بن شبة المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله لم يجعل فوقك أحداً، فلا تجعل فوق شكره شكراً.

ودخل عمرو بن عبيد على المنصور وعنده المهدي فقال له: هذا ابن أخيك المهدي، ولي عهد المسلمين، فقال: سميتُه اسماً لم يستحقَّ حمله، ويفضي إليك الأمر وأنت عنه مشغول.

وكان عمرو بن عبيد يقول: اللهم أعني بالافتقار إليك، ولا تُفقرني بالاستغناء عنك.

وقال له المنصور: يا أبا عثمان، أعني بأصحابك: قال: يا أمير المؤمنين، أظهر الحق يبتغك أهله.

وقال عمر الشمري: كان عمرو بن عبيد لا يكاد يتكلم، وإن تكلم لم يكذب، وكان يقول: لا خير في المتكلم إذا كان كلامه لمن يشهده دونه قائله، وإذا طال الكلام عرّضت للمتكلم أسباب التكلف، ولا خير في شيء يأتيك به التكلف

قال معمر بن الأشعث: قلت لبهلة الهندي أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند: ما البلاغة عند أهل الهند؟ قال بهلة: عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة، ولكنني لا أحسن ترجمتها، ولم أعالج هذه الصناعة، فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها، ولطيف معانيها. قال ابن الأشعث: فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فإذا فيها: أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللخط، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة، ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ولا يصفىها كل التصفية، ولا يهدبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكماً، أو فيلسوفاً عليماً، ومن قد تعوّد حذف فضول الكلام، وإسقاط مشتركات الألفاظ، وقد نظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة، لا على جهة التصفح والاعتراض، ووجه التطرف والاستطراف.

قال إسحاق بن حسان بن قوهي: لم يفسر أحد البلاغة تفسير عبد الله ابن المقفع إذ قال: البلاغة اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون سجعاً، ومنها ما يكون خطباً، ومنها ما يكون رسائل، فغاية هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى؛ والإيجاز هو البلاغة، فأما الخطب فيما بين السماطين، وفي إصلاح ذات البين، فالإكثار في غير حطل، والإطالة في غير إملال، ولكن ليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته كأنه يقول فرّق بين صدر خطبة النكاح وخطبة العيد وخطبة الصلح وخطبة التواهب، حتى يكون لكل قن من ذلك صدر يدل على عجزه فإنه لا خير في كلام لا يدل على معناه، ولا يشير إلى معزرك، وإلى العمود الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه نرعت. فقل له: فإن مل المستمع الإطالة التي ذكرت أنها أحق بذلك الموضوع؟ قال: إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة الكلام،

وأرضيت مَنْ يعرف حقوقَ ذلك، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو؛  
فإنهما لا يَرْضَيَانِ بشيء؛ فأما الجاهلُ فلستَ منه وليس منك، ورضا جميع  
الناس شيءٌ لا يُتَال.

الإطالة والإيجاز  
وقد مدحوا الإطالة في مكانها، كما مدحوا الإيجازَ في مكانه. قال أبو داود ابن جرير  
في خطباء إباد: الكامل:

يَرْمُونَ بِالخُطْبِ الطَّوَالِ، وَخِيَ المَلَاخِ خِيَقَةَ الرِّقْبَاءِ  
وَتَارَةً

قال أبو وَجْزة السعدي يصف كلام رجل: الكامل:

يَكْفِي قَلِيلُ كَلَامِهِ، وَكَثِيرُهُ  
تَبَتْ، إِذَا طَالَ التَّصَالُ، مُصِيبٌ

وأشدد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ولم يسمِّ قائله، وهو مولد ولم ينقصه توليده  
من حظ القديم شيئاً: المتقارب:

طَبِيبٌ بَدَاءُ فُتُونِ الكِلَا  
فَإِنْ هُوَ أَطَنَّ فِي خُطْبَةٍ  
وَأَنْ هُوَ أَوْجَرَ فِي خُطْبَةٍ

وقال آخر يصف خطيباً: الكامل:

فَإِذَا تَكَلَّمَ خَلَّتْهُ مِتْكَلْمًا  
فَكَأَنَّ أَدَمَ كَانَ عِلْمُهُ الَّذِي  
بِجَمِيعِ عِدَّةِ أَلْسِنِ الخُطْبَاءِ  
قَدْ كَانَ عُلْمَهُ مِنَ الأَسْمَاءِ

وكان أبو داود يقول: تلخيص المعاني رفق، والاستعانة بالغريب عجز، والتشديق في  
الإعراب نقص، والنظر في عيون الناس عي، ومسُّ اللحية هلك، والخروج عما بُني  
عليه الكلام إسهاب.

وقال بعضهم بهجو رجلاً بالعي: الطويل:

مَلِيءٌ بِبُهْرٍ وَالتَّفَاتِ وَسَعْلَةٍ وَمَسْحَةٍ عُنُونٍ وَقَلِّ الأَصَابِعِ

ووصف العتابي رجلاً بليغاً فقال: كان يُظْهِرُ ما عَمَضَ مِنَ الحِجَّةِ، وَبِصُورِ  
الباطلِ فِي صُورَةِ الحَقِّ، وَيُفْهَمُكَ الحَاجَةُ مِنْ غَيْرِ إِعَادَةٍ وَلَا اسْتِعَانَةٍ. قِيلَ  
لَهُ: وَمَا الاسْتِعَانَةُ؟ قَالَ: يَقُولُ عِنْدَ مَقَاطِعِ كَلَامِهِ يَا هِنَا، وَاسْمَعْ، وَقَهْمَتِ!  
وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وَهَذَا مِنْ أَمَارَاتِ العَجْزِ، وَدَلَائِلِ الحَصْرِ! وَإِنَّمَا يَنْقَطِعُ عَلَيْهِ  
كَلَامُهُ فَيَحَاوُلُ وَضَلَّهُ بِهَذَا، فَيَكُونُ أَشَدَّ لِانْقِطَاعِهِ.

وكان أبو داود يقول: رَأْسُ الخُطْبَةِ الطَّبِيعُ، وَعَمُودُهَا الدَّرْبَةُ، وَجَنَاحُهَا  
رَوَايَةُ الكَلَامِ، وَخَلِيئُهَا الإِعْرَابُ، وَبَهَاؤُهَا تَخِيْرُ اللَّفْظِ؛ وَالمَحَبَّةُ مَقْرُونَةٌ بِقَلَّةِ  
الْأَسْتِكْرَاهِ.

وقال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: قال بعض جهابذة الألفاظ، ونفاد  
المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس، المختلجة في نفوسهم،  
والمتصورة في أذهانهم، المتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم،  
مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى  
معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى  
شريكه والمعاون له على أمره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا  
بغيره، وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم  
إياها.

وهذه الخصال هي التي تقرّبها من الفهم، وتجليها للعقل، وتجعل الخفيّ  
منها ظاهراً، والغائب شاهداً، والبعيد قريباً. وهي التي تلخص الملتبس،  
وتحل المنعقد، وتجعل المهمل مقيداً، والمقيد مطلقاً، والمجهول معروفاً،

والوَحْشِي مألوفاً، والغفل موسوماً، والموسوم معلوماً؛ وعلى قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحُسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون ظهور المعنى. وكلما كانت الدلالة أَوْصَحَ وَأَفْصَحَ، وكانت الإشارة أَيْنَ وَأَنورَ، كانت أنفع وأنجع في البيان. والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله يمدحه، ويدعو إليه، ويحث عليه؛ بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم. والبيان: اسمٌ لكل شيء كَشَفَ لك عن قناع المعنى، وهَتَكَ لك الحُجَبَ دون الضمير، حتى يُفْضِي السامعَ إلى حقيقته، ويهجم على محصله، كأنما ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائلُ والسامع إنما هو الفهم والإفهام؛ فبأي شيء بَلَغَت الإفهامَ وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضوع. ثم اعْلَمَ - حَفِظَكَ اللهُ! - أن حُكْمَ المعاني خلافُ حكم الألفاظ؛ لأنَّ المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وأسماء المعاني محصورة معدودة، ومحصلة محدودة.

وجميعُ أصنافِ الدلالات على المعاني من لفظ أو غيره خميسةُ أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العُقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نُصبة. والنُصبة هي الحالُ الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تُفْضِرُ عن تلك الدلالات.

ولكل واحدة من هذه الدلائل الخمسة صورةٌ بئنه من صورة صاحبتها، وجليَّة مخالفة لجليَّة أختها؛ وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، وعن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقدارها، وعن خاصَّتها وعامَّتها، وعن طبقاتها في السار والصار، وعما يكون منها لغواً بهرجاً، وساقطاً مُطرحاً.

وفي نحو قول أبي عثمان: إنَّ المعاني غير مقصورة ولا محصورة يقول أبو تمام الطائي لأبي دَلَفَ القاسم بن عيسى العجلي الطويل:

ولو كان يَفْتَى الشعرُ أفنته ما جِيَاضَكَ منه في العصورِ  
قَرَّتْ الدَّوَاهِبِ  
ولكنه قَيْضُ العقولِ إذا سحائبُ منه أُعْقِبَتْ  
انجَلَتْ بَسَحَائِبِ

كما أشار إلى قول أوس بن حجر الأسيدي: الطويل:

أقول بما صَبْتُ عليَّ وجهدي في جبل العشيرة  
غمامتي أَحطِبُ

وقال بعضُ البلغاء: في اللسان عشرُ خصالٍ محمودة، أداؤه يظهر بها البيان، وشاهد يخبر عن الضمير؛ وحاكمٌ يفصل الخطاب، وواعظٌ يتنهى عن القبيح، وناطقٌ يرُدُّ الجواب، وشافعٌ تُدْرِكُ به الحاجة، وواصفٌ تعرف به الأشياء، ومُعَرِّبٌ يُشْكِرُ به الإحسان، ومُعَزِّزٌ تذهب به الأحزان، وحاوٍ يذهب الضغينة، ومونقٌ يلهي الأسماع.

وقال أبو العباس بن المعتز: لحظة القلب أسرع خطرةً من لحظة العين، وأبعدُ مجالاً، وهي الغائصة في أعماق أودية الفكر، والمتأمل لوجوه العواقب، والجامعة بين ما غاب وحصر، والميزانُ الشاهدُ على ما تقع وصرت، والقلبُ كالمُمْلِي للكلام على اللسان إذا نطق، واليد إذا كتبت، والعقل يكسو المعاني وشي الكلام في قلبه، ثم يُبديها بالفاظ كَوَاسٍ في

أحسن زينة، والجاهل يستعجل بإظهار المعاني قبل العناية بتزيين معارضها، واستكمال محاسنها.  
وقيل لجعفر بن يحيى اليرمكي: ما البيان؟ قال: أن يكون الاسم يحيط بمعناك، ويكشف عن مغزائك، ويخرجه من الشركة، ولا يستعان عليه بالفكر، ويكون سليماً من التكلف، بعيداً من الصنعة، بريئاً من التعقيد، غنياً عن التأويل.

وذكر سهل بن هارون - وقيل ثمامة بن أشرس - جعفر بن يحيى فقال: قد جمع في كلامه وبلاغته الهدى والتمهل، والجزالة والحلاوة، وكان يفهم إفهاماً يُغنيه عن الإعادة للكلام. ولو كان يستغني مستغن عن الإشارة بمنطقه لاستغني عنها جعفر. كما استغني عن الإعادة فإنه لا يتحسس ولا يتوقف في منطقه ولا يتلجلج، ولا يتسعل، ولا يترقب لفظاً قد استدعاه من بُعد، ولا يتلمس معنى قد عصاه بعد طلبه له.  
وقيل لبشار بن بُرد: يم فقت أهل عمرك، وسبقت أهل عصرك، في حسن معاني الشعر، وتهذيب ألفاظه؟ فقال: لأنني لم أقبل كل ما ثورده علي قريحتي، ويتاجيني به طبعي، وبيعته فكري، ونظرت إلى مغارس الفطن، ومعدن الحقائق، ولطائف التشبيهات، فسيرت إليها بفهم جيد، وغريزة قوية، فأحكمت سبورها، وانتقيت خرها، وكشفت عن حقائقها، واحترزت من متكلفها، ولا والله ما ملك قيادي قط الإعجاب بشيء مما أتى به.  
وكان بشار بن برد خطيباً، شاعراً، راجزاً، سجاعاً، صاحب منشور ومزدوج، ويلقب بالمرعث لقوله: مجزوء الخفيف:

مَنْ لَطَبِي مُرَعَثٍ      ساحر الطَّرْفِ والنَّظَرِ  
قال لي لن تنالني      قلت أو يغلب القَدْرُ

وليس هذا موضع استقصاء ذكره، واختيار شعره، وسأستقبل ذلك إن شاء الله.

وقال الوليد بن عبيد البحر: كنت في حدائتي أروم الشَّعْر، وكنت أرجع فيه إلى طبع، ولم أكن أقف على تسهيل مآخذه، ووجوه اقتضابه، حتى قصدت أبا تمام، وانقطعت فيه إليه، واتكلت في تعريفه عليه؛ فكان أول ما قال لي: يا أبا عبادة؛ تخير الأوقات وأنت قليل الهموم، صفر من الغموم، واعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السَّخَر؛ وذلك أن النَّفْس قد أخذت حظها من الراحة، وقسطها من النوم، وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رشيقاً، والمعنى رقيقاً، وأكثر فيه من بيان الصَّباية، وتوجع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق، فإذا أخذت في مديح سيد ذي أباد فأشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وأين معالمه، وشرف مقامه؛ ونصِّد المعاني، واحذر المجهول منها، وإياك أن تشين بشعرِكَ بالألفاظ الرديئة، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد. وإذا عارضك الضجر فأرخ نفسك، ولا تعمل شعرك إلا وأنت فارغ القلب، واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه؛ فإن الشهوة نغم المعين، وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين، فما استحسّن العلماء فاقصده، وما تركوه فاجتنبه، ترشد إن شاء الله.

قال: فأعملت نفسي فيما قال فوقفت على السياسة.  
وقالوا: البليغ من يحوك الكلام على حسب الأمانى، ويخيط الألفاظ على قدود المعاني.

ولذكر الطائي الليل ذكر بعض أهل العصر - وهو أبو علي محمد بن الحسن ابن المظفر الحاتمي - الليل فقال: فيه تَجُمُّ الأذهانُ، وتنقطع الأشغال، ويصحُّ النظر، وتؤلف الحكمة، وتدرُّ الخواطرَ، ويتسع مجال القلب، والليل أضوأ في مذاهب الفكر، وأخفى لعمل البر، وأعون على صدقة السرِّ، وأصح لتلاوة الذكر، ومُدبِّرُ الأمور يختارون الليل على النهار، فيما لم تصف فيه الأناة لرياضة التدبير وسياسة التقدير، في دَفَع الملم، وإمضاء المهمِّ، وإنشاء الكتب، وتصحيح المعاني، وتقويم المباني، وإظهار الحُجج، وإيضاح المنهج، وإصابة تَظْم الكلام، وتقريبه من الأفهام.

وقال بعض رؤساء الكتاب: ليس الكتابُ في كل وقتٍ على غير نسخة لم تُحرَّر بصواب؛ لأنه ليس أحدٌ أولى بالأناة وبالروية من كاتبٍ يعرض عقله، وينشر بلاغته؛ فينبغي له أن يعمل النسخ ويرويه، ويقبل عَفْو القريحة ولا يستكرهها، ويعمل على أن جميع الناس أعداء له، عارفون بكتابه، منتقدون عليه، متفرغون إليه.

وقال آخر: إنَّ لابتداء الكلام فتنَةً تروق، وجِدَّة تعجب، فإذا سكنت القريحة، وعدل التأمل، وصفت النفس، فليعد النظر، وليكن قَرَحُه بإحسانه، مساوياً لغمه بإساءته؛ فقد قالت الخوارج لعبد الله بن وهب الراسي: نبايعك الساعة فقد رأينا ذلك، فقال: دَعُوا الرأي حتى يبلغ أُناته، فإنه لا خير في الرأي القَطير، والكلام القضيبي.

وقال معاوية بن أبي سفيان، رحمه الله، لعبد الله بن جعفر: ما عندك في كذا وكذا. فقال: أريد أن أضلَّ عقلي بتؤمَّة القائلة، ثم أروح فأقول بعد ما عندي.

قال الشاعر: البسيط:

إن الحديث تُغرِّ القومَ جَلوئُهُ حتى يغيِّره بالوَرِنِ مضمارُ

ف عند ذلك تستكفي بلاغته أو يستمرُّ به عِيٌّ وإكثارُ

وقالوا: كلُّ مُجرٍ بالخلاءِ يُسَرُّ، وقال أبو الطيب المتنبي: الخفيف:

وإذا ما حَلَا الجَبَانُ بأَرْضِ طَلَبِ الطَعْنِ وَوَحْدِهِ والنزَالِ

وكان قلم بن المقفع يَقِفُ كثيراً، فقيل له في ذلك، فقال: إن الكلام يَرْدِجُ في صدري، فيقف قلبي ليتخير.

وقالوا: الكتابُ يُتصفح أكثر ممَّا يتصفح الخطاب؛ لأنَّ الكاتب متخير، والمخاطب مضطرٌّ، ومن يَرُدُّ عليه كتابك فليس يعلم أسرَعَتَّ فيه أم أبطأت؛ وإنما ينظر أخطأت أم أصبت؛ فإبطأؤك غير قاذح في إصابتك، كما إن إسراعك غير مُعَط على عَطْلِكَ. ووصف بعضُ الكتاب النسخ فقال: ينبغي أن يصحَّحها الفكر إلى استقرارها، ثم تُستبرأ بإعادة النظر فيها بعد اختيارها، ويوسِّع بين سُطورِها، ثم تحرر على ثقة بصحتها، وتُتأمل بعد التحرير حَرْفاً حَرْفاً إلى آخرها.

فقد كتب المأمون مُصحفاً اجتمع عليه؛ فكان أوله: بسم الله الرحيم، فأغفلوا الرحمن؛ لأن العين لا تُعتبر ذلك؛ ثقة أنه لا يُعْلَط فيه، حتى قَطِنَ المأمون له.

وقال محمد بن عبد الملك الزيات للحسن بن وهب: حرر هذه النسخة وبكر بها، فتصبح الحسن فقال له: لم تصبحت؟ قال: حتى تصفحت! وقال أحمد بن إسماعيل بطاخة: كان بعض العلماء الأعياء ينظر في نسخته بعد نفوذ كُتبه، فقال بعض الكتاب: السريع:

مُسْتَلَبُ اللبِّ عَوِيَّ الشَّبَابِ عَدْبِهِ

الهَجْرُ أَشَدَّ العَذَابِ

يؤمل الصبر وأنى له به وقد مُكِّن منه النَّصَابِ

كناظر في نسخته يبتغي إصلاحها بعد نفوذ الكتابِ

أوصاف بليغة في البلاغات

على ألسنة أقوام من أهل الصناعات  
قال بعض من وكّد عقائل هذا المنشور، وألف فواصل هذه الشذور: تجمّع قوم  
من أهل الصناعات، فوصفوا بلاغاتهم، من طريق صناعاتهم: فقال  
الجوهرى: أحسنُ الكلام نظاماً ما ثقبته يدُ الفكرة، ونظمتها الفطنة، ووُصِلَ  
جَوْهَرُ معانيه في سُموط ألفاظه، فاحتملتُه نحوُ الرواة.  
وقال العطار: أطيّبُ الكلام ما عُجِنَ عَبَّرَ ألفاظه بمسكٍ معانيه، ففاح نسيماً  
تَشَقَّه، وسطعت رائحة عَبَقِه، فتعلقت به الرُواة، وتعطّرت به السَّراة.  
وقيل الصائغ: خيرُ الكلام ما أحميّه بكبير الفكر، وسبكتَه بمشاعِلِ النَّظر،  
وخلصته من حَبَثِ الإطناب، فبرز بروزَ الإبريز، في معنى وَجيز.  
وقال الصيرفي: خيرُ الكلام ما تَقَدَّتْهُ يدُ البصيرة، وجلّته عين الروية، ووزنته  
بمِغيار الفصاحة، فلا نظر يُزَيِّفه، ولا سماعٌ يُبَهِّرُجُه.  
وقال الحداد: أحسن الكلام ما نصبت عليه مِئْفَخة القريحه، وأشعلت عليه  
نارَ البصيرة، ثم أخرجته من فحم الإفحام، ورَقَّقته بفطيس الإفهام.  
وقال النجار: خيرُ الكلام ما أحكمت نَجَرَ معناه بقُدوم التقدير، وتَشَرَّتْه  
بمنشار التدبير، فصار باباً لبيت البيان، وعارضه لسقفِ اللسان.  
وقال النجاد: أحسنُ الكلام ما لطف رَقَارِفُ ألفاظه، وحسنت مطارح  
معانيه، فتزهرت في رَآبِيٍّ محاسنه عيونُ الناظرين، وأصاحت لِنَمَارِقِ بَهْجَتِهِ  
آذان السامعين.

وقال الماتح: أبين الكلام ما علق ودَمُ ألفاظه بكرة معانيه، ثم أرسلته في  
قَلِيبِ الفطن فمتحت به سقاء يكشِفُ الشبهات، واستنبتت به معنى يروي  
من ظمأ المشكلات.

وقال الخياط: البلاغة قميص؛ فُجْرَبَانِه البيان، وحيّيه المعرفة، وكُفَاهِ  
الوجازة، ودَحَارِيصِه الإفهام، ودُزُورُه الحلاوة، ولابس جَسَدَه اللفظ، وروحه  
المعنى.

وقال الصباغ: أحسن الكلام ما لم تُنْصَ بهجة إيجازه، ولم تكشف صبغة  
إعجازه، قَدِ صَقَلْتَهُ يدُ الروية من كُمُودِ الإشكال، قَرَاعَ كَوَاعِبِ الآداب، وألّف  
عَدَارَى الألباب.

وقال الحائك: أحسنُ الكلام ما اتَّصَلت لُحمة ألفاظه بسَدَى معانيه، فخرج  
مُفَوِّفاً مُنِيرًا، وموشى محبراً.

وقال البزار: أحسن الكلام ما صدق رقم ألفاظه، وحسن تَشْرُ معانيه فلم  
يستعجم عنك تشر، ولم يستبهم عليك طي.

وقال الرائيض: خيرُ الكلام ما لم يخرج عن حَدِّ التَّخْلِيحِ، إلى منزلة التَّقْرِيْبِ  
إلا بعد الرياضه، وكان كالمُهْرِ الذي أطمع أول رياضته في تمام ثقافته.

وقال الجمال: البليغ من أخذ بخطام كلامه، فأناحه في مَبْرَكِ المعنى، ثم  
جعل الاختصار له عَقَالًا، والإيجاز له مَجَالًا، فلم يند عن الأذان، ولم يشد عن  
الأذهان.

وقال المخنث: خيرُ الكلام ما تكسرت أطرافه، وتشت أعطافه، وكان لفظه  
حُلة، ومعناه جلية.

وقال الخمار: أبلغُ الكلام ما طبَّخْتَه مَرَاجِلُ العلم، وصَفَاه رَاوُوقِ الفهم،  
وضمَّته دَبَانِ الحكمة، فتمسَّت في المفاصل عُذُوبَتُه، وفي الأفكار رِقَّتَه،  
وفي العقول جدته.

وقال الفقاعي: خيرُ الكلام ما رَوَّحَتْ ألفاظه عَبَاوَةَ الشكِّ، ورفع رِقَّتَه

فطائفة الجهل، فطاب حساء فطنته، وعدب مص جرعته.  
 وقال الطيب: خير الكلام ما إذا باشر دواءً بيانه سقم الشبهة استطلقت  
 طبيعة الغباوة؛ فشفي من سوء التفهم، وأورث صحة التوهم.  
 وقال الكحال: كما أن الرمذ قذى الأبصار، فكذا الشبهة قذى البصائر،  
 فأكحل عين اللكنة بميل البلاغة، وأجل رمص العقلة بمزود اليقظة.  
 ثم قال: أجمعوا كلهم على أن أبلغ الكلام ما إذا أشرقت شمسُه، انكشف  
 لبسه، وإذا صدقت أنواؤه اخضرت أحماؤه.  
 فقرر في وصف البلاغة لغير واحد  
 قال أعرابي: البلاغة التقرب من البعيد، والتباعد من الكلفة، والدلالة بقليل  
 على كثير.  
 قال عبد الحميد بن يحيى: البلاغة تقرير المعنى في الأفهام، من أقرب وجوه  
 الكلام.  
 ابن المعتز: البلاغة البلوغ إلى المعنى ولم يطل سقر الكلام.  
 سهل بن هارون: البيان ترجمان العقول، ورؤض القلوب، وقال: العقل رائد  
 الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم.  
 إبراهيم بن الإمام: يكفي من البلاغة ألا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق،  
 ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع.  
 العتّابي: البلاغة مد الكلام بمعانيه إذا قصر، وحسن التأليف إذا طال.  
 أعرابي: البلاغة إيجاز في غير عجز، وإطناب في غير حطل.  
 وكتب إبراهيم بن المهدي إلى كاتب له ورأه يتبع وحشي الكلام: إياك وتتبع  
 الوحشي طمعاً في تيل البلاغة؛ فإن ذلك العي الأكبر، وعليك بما سهل مع  
 تجنبك ألفاظ السفل.  
 وقال الصولي: وصف يحيى بن خالد رجلاً فقال: أخذ بزمام الكلام، فقاده  
 أسهل مقاد، وساقه أجمل مساق؛ فاسترجع به القلوب النافرة، واستصرف  
 به الأبصار الطامحة.  
 وسمع أعرابي كلام الحسن البصري رحمه الله، فقال: والله إنه لفصيح إذا  
 نطق، نصيح إذا وعظ.  
 قال الجاحظ: ينبغي للكاتب أن يكون رقيق حواشي الكلام، عدب ينابيع  
 اللسان؛ إذا حاور سدّد سهم الصواب إلى غرض المعنى، لا يكلم الخاصة  
 بكلام العامة، ولا العامة بكلام الخاصة.  
 وقال أبو العباس المبرد: قال الحسن بن سهل لسالم الحراري: ما المنزلة  
 التي إذا نزل بها الكاتب كان كاتباً في قوله وفعله واستحقاقه؟ قال: أن  
 يكون مطبوعاً على المعرفة، مُحْتَنَكاً بالتجربة، عارفاً بحلال الكتاب وحرامه،  
 وبالدهور في تصرفها وأحكامها، وبالملوك في سيرها وأيامها، وأجناس  
 الخط، وبادية الأقلام، مع تشاكل اللفظ وقرب المآخذ. قال الحسن: فليس  
 في الدنيا إذاً كاتب.  
 وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام.  
 وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم  
 الإطالة.  
 وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن  
 الإشارة.  
 وقيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل.

وقال علي بن عيسى الرُّماني: البلاغةُ إيصال المعنى إلى القلبِ في أحسن صورة من اللفظ.

ومن كلام أهل العصر

في صفة البلاغة والبلاء

قال علي بن عيسى الرماني: أبلغ الكلام ما حَسُنَ إيجازه، وقلَّ مَجازُه، وكثر إعجازه، وتناسبَتْ صدورُه وأعجازه.

أبلغ الكلام ما يُؤنِس مُسْمِعُه، ويؤنِس مضيِّعُه.

البليغ من يجتني من الألفاظ أنوارها، ومن المعاني ثمارها.

ليست البلاغة أن يُطال عنانُ القلم أو يبتأنه، أو يُبسِّط رهان القول وميِّدانه، بل هي أن يبلغ أمد المراد بألفاظ أعيان، ومعان أفراد، من حيث لا تُرَبِّدُ على الحاجة، ولا إخلاك يُفضي إلى الفاقة.

البلاغة ميدان لا يُقَطَع إلا بسوابق الأذهان، ولا يُسَلِّك إلا ببصائر البيان.

فلان يعبث بالكلام، ويقوده بألين زمام، حتى كأنَّ الألفاظ تتحاسدُ في التسابق إلى

خواطره، والمعاني تتغايَّر في الأثيَّال على أنامله.

هذا كقول أبي تمام الطائي: البسيط:

تَغَايَرَ الشَّعْرُ فِيهِ إِذْ سَهَرْتُ  
حَتَّى ظَنَنْتُ قَوَافِيهِ سَتَفْتِيلُ  
لَهُ

فلان مشرفي المشرق، وصيِّرفي المنطق. البيان أصغر صفاته، والبلاغة عفو خطراته. كأنما أوحى بالتوفيق إلى صدره، وحسن الصواب بين طبعه وفكره.

فلان يحزُّ مفاصل الكلام، ويسبق فيها إلى دَرَك المرام، كأنما جمع الكلام حوله حتى انتقى منه وانتخب، وتناول منه ما طلب، وترك بعد ذلك أدناباً لا رؤوساً، وأجساداً لا نفوساً.

فلان يَرَضَى بعفو الطبع، ويقنع بما خفَّ على السمع، ويُوَجِّز فلا يخلُّ، ويطنب فلا يميل، لله فلان أخذ يَأْرَمَةَ القول يقودها كيف أراد، وبجذبها أتى شاء؟ فلا تعصيه بين الصَّعب والدُّلُول، ولا تسلمه عند الحُزونة والسَّهول، كلامه يشتدُّ مرَّة حتى تقول الصَّخْرَ الأملس، وتلين تارةً حتى تقول الماء أو أسلس، يقول فيصُول، وبُجيب فيصيب، ويكُتَّب فيطبِّقُ المَقْصِل، أو يَنْسِقُ الدَّرَّ المَقْصَل، ويردُّ مشارع الكلام وهي صافية لم تُطْرِق، وجامَّة لم تُرْتَق، خاطِرُهُ التَّبْرُق أو أَسْرَع لمعاً، والسيفُ أو أَحَدُ قَطْعاً، والماء أو أسلس جرياً، والفلك أو أقوم هدياً؛ هو ممن يسهلُّ الكلام على لفظه، ويتزاحم المعاني على طبعه، فيتناول المَرَمَى البعيدَ بقريب سَعْيِهِ، ويبسِّط المَشْرَع العميق بيسير جَرِيهِ، لسائه يَفْلِق الصَّخُور، ويغيض البحور، ويُسْمِع الصم، ويستنزل العُصَم، حَطيَب لا تناله حُبْسَة، ولا ترتنه لكتة، ولا تتمشى في خطابه رنة، ولا تتحيِّف بيانه عُجْمَة، ولا تعترض لسانه عُقْدَة.

فلان رقيق الأسئلة، عذب العدبة لو وُضِع لسائه على الشَّعْر خَلَقه، أو على الصَّخْر قَلَقه، أو على الجمر أحرقه، أو على الصَّفا خرقه، قد أحسن

السَّفارة، واستوفى العبارة، وأدى الألفاظ، واستغرق الأغراض، وأصاب

شواكِل المراد، وطبَّق مفاصل الشَّداد، وبسط لسان الخطاب، ومدَّ أطناب الإطناب، وطلب الأمد في الإسهاب، قال حتى قال الكلام؛ لو أعفيت! وكتب

حتى قالت الأقلام؛ قد أحفيت، قد اتسع له مَشْرَعُ الإطناب، وانفرج له

مَسَلِّك الإسهاب، أرسل لسائه في ميِّدانه، وأرخی له من عنانه، قال وأطال،

وَجَالَ في بسطِ الكلام كلَّ مَجَال، إذا اسْحَنَفَر في الكلام طَفَح آذيه، وسأل

أبيهِ، وانثال عليه الكلام كاثيَّال الغمام، واستجاب له الخِطاب كصوب

الرباب. أَلْفَاظٌ كَعَمَزَاتِ الْأَلْحَاظِ، وَمَعَانٍ كَأَنَّهَا فُكُّ عَانَ! أَلْفَاظٌ كَمَا نَوَّرَتْ  
 الْأَشْجَارَ، وَمَعَانٍ كَمَا تَنَفَّسَتْ الْأَشْحَارَ، أَلْفَاظٌ قَدْ اسْتَعَارَتْ حَلَاوَةَ الْعِتَابِ بَيْنَ  
 الْأَحْيَاءِ، وَاسْتَلَاتَتْ كَتَشَكَّى الْعُشَاقِ يَوْمَ الْفِرَاقِ. كَلَامٌ قَرِيبٌ شَابِعٌ وَمُطْمَعٌ  
 مَانِعٌ، كَالشَّمْسِ تَقْرَبُ ضِيَاءً، وَتَبْعِدُ عِلَاءً، أَوْ كَالْمَاءِ يَرْخُصُ مَوْجُودًا، وَيَغْلُو  
 مَفْقُودًا. كَلَامٌ لَا تَمَجُّهُ الْأَذَانُ، وَلَا تُبْلِيهِ الْأَرْمَانُ، كَالْبُشْرَى مَسْمُوعَةً، أَوْ أَزَاهِيرِ  
 الرِّيَاضِ مَجْمُوعَةً، وَمَعَانٍ كَأَنْقَاسِ الرِّيحِ، تَعَبَّقُ بِالرَّيْحَانِ وَالرَّاحِ.  
 كَلَامٌ سَهْلٌ مُتَسَلِّسٌ، كَالْمَدَامِ بِمَاءِ الْغَمَامِ، يَقْرَبُ إِذْنَهُ عَلَى الْأَفْهَامِ.  
 كَلَامٌ كَثِيرٌ الشَّرَابِ عَلَى الْأَكْبَادِ الْجَرَّارِ، وَبُرْدِ الشَّبَابِ فِي خَلْعِ الْعِذَارِ.  
 كَلَامٌ كَثِيرٌ الْعَيُونِ، سَلِيسٌ الْمَتُونِ، رَقِيقٌ الْحَوَاشِي، سَهْلٌ النُّوَاحِي.  
 كَلَامٌ هُوَ السُّخْرُ الْحَلَالُ، وَالْمَاءُ الرُّلَالُ، وَالْبُرُودُ وَالْجَبْرُ، وَالْأَمْثَالُ وَالْعَبْرُ،  
 وَالنَّعِيمُ الْحَاضِرُ، وَالشَّبَابُ النَّاصِرُ.  
 نَظَرْتُ مِنْهُ إِلَى صُورَةِ الطَّرْفِ بَحْتًا، وَصُورَةِ الْبَلَاغَةِ سَبْكًَا وَنَحْتًا، أَلْفَاظٌ هِيَ  
 حُدُوعُ الدَّهْرِ، وَعُقُودُ السَّحْرِ.  
 كَلَامٌ يَسِّرُ الْمَحْزُونَ، وَيُسَهِّلُ الْخُزُونَ، وَيَعْطِلُ الدَّرَّ الْمَخْزُونَ. كَلَامٌ بَعِيدٌ مِنْ  
 الْكَلْفِ، نَقِيٌّ مِنَ الْكَلْفِ.

كَلَامٌ كَمَا تَنَفَّسَ السُّخْرُ عَنْ نَسِيمِهِ، وَتَبَسَّمَ الدُّرُّ عَنْ نَظِيمِهِ، أَلْفَاظٌ تَأْتِقُ  
 الْخَاطِرَ فِي تَذْهِيبِهَا، وَمَعَانٍ عُنِي الْفَهْمُ بِتَهْذِيبِهَا. أَلْفَاظٌ حَسِبْتَهَا مِنْ رِقَّتِهَا  
 مَنْسُوخَةٌ فِي صَحِيفَةِ الصُّبَا، وَظَنَّتَهَا مِنْ سَلَاسَتِهَا مَكْتُوبَةً فِي نَحْرِ الْهَوَى.  
 كَلَامٌ كَالْبُشْرَى بِالْوَلَدِ الْكَرِيمِ، قُرِعَ بِهِ سَمْعُ الشَّيْخِ الْعَقِيمِ.  
 كَلَامٌ قُرْبٌ حَتَّى أَطْمَعُ، وَبَعْدٌ حَتَّى أَمْتَنِعُ، وَقُرْبٌ حَتَّى صَارَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ  
 أَدْنَى، ثُمَّ سَمَا وَعَلَا حَتَّى صَارَ بِالْمَنْزِلِ الْأَعْلَى. رَقِيقُ الْمَزَاجِ، حُلُوُّ السَّمَاعِ،  
 نَقِيُّ الشَّبْكِ، مَقْبُولُ اللَّفْظِ. قَرَأْتُ لَفْظًا جَلِيًّا، حَوَى مَعْنَى خَفِيًّا، وَكَلَامًا  
 قَرِيبًا، رَمَى غَرَضًا بَعِيدًا. لَوْ أَنَّ كَلَامًا أَذِيبَ بِهِ صَخْرًا، أَوْ أَطْفَأَ بِهِ جَمْرًا، أَوْ  
 غُوفِي بِهِ مَرِيضًا، أَوْ جُبِرَ بِهِ مَهِيضٌ لَكَانَ كَلَامَهُ الَّذِي يَقُودُ سَامِعِيهِ إِلَى  
 السَّجُودِ، وَيَجْرِي فِي الْقُلُوبِ كَجَزْيِ الْمَاءِ فِي الْعُودِ. أَلْفَاظُهُ أَنْوَارٌ، وَمَعَانِيهِ  
 ثَمَارٌ. كَلَامُهُ أَنْسُ الْمَقِيمِ الْحَاضِرِ، وَزَادُ الرَّاحِلِ الْمَسَافِرِ. كَلَامُهُ يُصْغِي إِلَيْهِ  
 الْمَقْبُورُ، وَيَنْتَفِضُ لَهُ الْعُصْفُورُ، كَلَامٌ يَقْضِي حَقَّ الْبَيَانِ، وَيَمْلِكُ رِقَّ الْحُسْنِ  
 وَالْإِحْسَانِ، كَلَامٌ مِنْهُ يَجْتَنِي الدَّرَّ، وَبِهِ يُعْقَدُ السُّخْرُ، وَعِنْدَهُ يُعْتَبُ الدَّهْرُ، وَلَهُ  
 يَنْشَرُخُ الصَّدْرُ.

ومن أَلْفَاظِهِمْ

فِي وَصْفِ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ وَالشَّعْرِ وَالشَّعْرَاءِ  
 نَثْرُ كَنْثْرِ الْوَرْدِ، تَنْظُمٌ كَنْظَمِ الْعِقْدِ. نَثْرٌ كَالسَّحْرِ أَوْ أَدَقُّ، وَنَظْمٌ كَالْمَاءِ أَوْ أَرَقُّ.  
 رِسَالَةٌ كَالرَّوْضَةِ الْأَنْبِيَّةِ، وَقَصِيدَةٌ كَالْمَخْدَرَةِ الرَّشِيقَةِ. رِسَالَةٌ تَقْطُرُ ظَرْفًا،  
 وَقَصِيدَةٌ تَمزُجُ بِمَاءِ الرَّاحِ لَطْفًا. نَثْرُهُ سِخْرُ الْبَيَانِ، وَنَظْمُهُ قَطْعُ الْجَمَانِ. نَثْرٌ  
 كَمَا تَفْتِخُ الزَّهْرُ، وَنَظْمٌ كَمَا تَنَفَّسَ السُّخْرُ. نَثْرٌ تَرَقُّ نَوَاحِيهِ وَخَوَاشِيهِ، وَنَظْمٌ  
 تَرُوقُ أَلْفَاظُهُ وَمَعَانِيهِ. نَثْرٌ كَالْحَدِيقَةِ تَفْتَحُ أَحْدَاقَ وَرْدِهَا، وَنَظْمٌ كَالْحَرِيدَةِ  
 تَوَرَدَتْ أَسْرَارُ حَدِّهَا. رِسَالَةٌ تَصْحَكُ عَنْ عُرَّرِ وَرَّهْرِ، وَقَصِيدَةٌ تَنْطَوِي عَلَى  
 حَبْرٍ وَدَرَرٍ. لَمْ تَرُضَ فِي بَرَكٍ، بِأَخَوَاتِ الثُّرَّةِ مِنْ نَثْرِكَ، حَتَّى وَصَلَتْهَا بِنَاتِ  
 الشُّعْرَى مِنْ شِعْرِكَ. كَلَامٌ كَمَا هَبَّ نَسِيمُ السَّحْرِ، عَلَى صَفْحَاتِ الزَّهْرِ، وَلَدَّ  
 طَعْمُ الْكَرَى بَعْدَ بَرْحِ السَّهْرِ. وَشِعْرٌ فِي نَفْسِهِ شَاعِرٌ، تُوسَمُ بِهِ الْمَوَاسِمُ  
 وَالْمَشَاعِرُ. كَلَامٌ أَنْسَى حَلَاوَةَ الْأَوْلَادِ بِحَلَاوَتِهِ، وَطِلَاوَةَ الرَّبِيعِ بِطِلَاوَتِهِ، وَشِعْرٌ  
 مِنْ حِلَّةِ الشَّبَابِ مَسْرُوقٌ، وَمِنْ طِينَةِ الْوِصَالِ مَخْلُوقٌ. قَصِيدَةٌ، فِي فَنِّهَا

فريدة، هي عروس كُسُوْثُهَا القوافي، وِجْلِيْهَا المعاني. شِعْرٌ يترْفَرُقُ فيه ماء الطبع، ويرتفع له حجابُ القَلْبِ والسمع. شعر لا مزية الإعجاز أخطأته؛ ولا فضيلة الإيجاز تخطته شعْرٌ رَوَيْتُهُ لما رأيتُهُ، وحَفَظْتُهُ لما لحظته. أبياتٌ لو جُعِلت خلعا على الزمان لتخلى بها مُكَاثِرًا، وتجلى فيها مُفَاخِرًا. شِعْرٌ رَاقِنِي، حتى شاقني، فإنه مع فُزْبٍ لفظه بعيدُ المرام، مُمَرِّ النظام، قويُّ الأُسْر، صافي البَحْرِ. نظمٌ قد أليس من البداوة فَصَاحَتِهَا، وَعُشِّي من الحضارة سَجَاحَتِهَا فإن شئت قلت عبيد وليد، وإن شئت حبيب والوليد قصيدته رَوْضَةٌ تجتنى بالأفكار، وتَقْلُ يَتَنَاوَلُ بالأسماع والأبصار، وتَقْلُ العلم والأدب، أَلَدٌ من تَقْلُ المأكَل والمشرب، وفاكهةُ الكلام، أطيبُ من فاكهة الطعام. نظم كنظم الجَمَان، ورَوْض كالجَنَان، وأمن الفؤاد، وطيب الرُّقَاد. قصيدةٌ لم أرَ غيرها بكَرًا، استوقفت أقسامَ الحُنْكَ، واستكملت أحكامَ الدُّرْبَةِ؛ فعليها رُوْتُقُ الشباب، ولها قُوَّةُ المُدْكِيَاتِ الصلاب، روح الشعر، وتاجُ الدهر، ومقدمة عساكر السحر. كل بيت شعر خيرٌ من بيت تير. شعر يُحْكَمُ له بالإعجاز والتَّبريز، ويشبهه في صفاء سَبْكِهِ بالذَّهَبِ الإبريز. شعر تَأْتَلِفُ القلوب على دُرِّهِ اثتلافًا، وتصير الأذان له أصدافًا. لله دره ما أحلى شعره! وأنقى دُرِّهِ، وأعلى قدره، وأعجب أمره! قد أخذ بِرِقَابِ القوافي، ومَلَكَ رِقِّ المعاني، فَضَلَهُ بُرْهَانُ حق، وشعره لِسَانُ صدق. فلان يُغْرِبُ بما يَجْلِبُ، ويُبْدِعُ فيما يصنع، حَسَنُ السبكِ، مُحْكَمُ الرِّصْفِ، بديع الوَصْفِ، مرغوب في شِعْرِهِ، مُتَنَافِسٌ في سِحْرِهِ. هو ضاربٌ في قِدَاحِ الشعر بأعلى السهام، أخذ في عيون الفضل بأوفى الأقسام، شِعْرُهُ أشعْرُهُ، ودأبه آدابه، هو ممن يَبْتَدِعُ فيبتدع، طبعه يُمْلِي عليه، ما لا يُمَلُّ الاستماع إليه. قَرِيحةٌ غير قَرِيحة، وطَبْعٌ غير طبع، وخيم غيرٌ وخيم، لبيد عنده بليد، وعبيد لديه من العبيد، والفرزدق عنده أقل من فرزدقة حَمِير، وجريرٌ يُقَادُ إليه بحرير، قد نسيحٌ حُلًّا لا يُبْلِي جَدَّتْهَا الجديدان، ولا تزداد إلا حُسْنًا على تَرْدُدِ الأَرْمَانِ. تَظْمُهُ قد نظم حاشيتي البرِّ والبَحْرِ، وأدرك ناحيتي الشرق والغرب. أشعار قد وردت المياه، وركبت الأفواه، وسارت في البلاد، ولم تَسِرْ بِرَادٍ، وطارَتْ في الآفاق، ولم تَمَشِ على ساق. شعره أسير من الأمثال، وأسرى من الخيال، سار مسيرَ الرياح، وطار بغير جناح. أشعْرُهُ سارت مسيرَ الشمس، وهبت هبوبَ الريح، وطبقت تحومَ الأرض، وانتظمت الشرق إلى الغرب. قد كادت الأيامُ تنشدها، والليالي تحفظها، والجن تدرسها، والطير تتغنى بها. أبيات أسْفَر عنها طبع المَجْدِ، فعلمت كيف يتكسر الزَّهْرُ على صفحات الحدائق، وكيف يغرس الدرُّ في رياض المَهَارِقِ. شِعْرٌ قد أَحْسَنَ خِدْمَتَهُ بكمالِ فكره، ووقف كيف شاء عند عَالِي أمره. شعرٌ يُعَلِّقُ في كَعْبَةِ المجد، وبتوجُّ به مَفْرُقُ الدهر. جاءت القصيدة ومعها عِرَّةُ المُلْكِ، وعليها رِوَاءُ الصدق، وفيها سيماء العلم، وعندها لِسَانُ المجد، ولها صِيَالُ الحقِّ، لا غرَوَ إذا فاضَ بَحْرُ العلم على لسانِ الشَّعْرِ أن ينتج ما لا عين وقعت على مثله ولا أذن سمعت بشبهه. شعر يكتب في عِرَّةِ الدهر، ويشرح في جَبْهَةِ الشمس والبدر. عت على مثله ولا أذن سمعت بشبهه. شعر يكتب في عِرَّةِ الدهر، ويشرح في جَبْهَةِ الشمس والبدر.

وهذه جملة من فصول أهل العصر

تليق بهذا الموضوع

كتب أبو الفضل بن العميد إلى أبي محمد خلاد الرامهرمزي القاضي. وصل كتابك الذي وصلت جناحه بفنون صلاتك وتفقدك، وضروب برك وتعهدك؛ فارتح

لكلِّ ما أوْلَيْتِ، وابتَهَجْتُ بجميع ما أهدَيْتِ، وأصْفَيْتِ إحسانَكَ في كل فصل إلى نظائره التي وكلت بها ذكري، ووقفت عليها سُكْرِي، وتأمَلْتُ النظم فملكني العُجْب به، وبهَرَنِي التعجُّب منه، وقد رُمْتُ أن أجري على العادة في تشبيهه بمستحسنٍ من زهر جنِي، وحُلِّل وحُلِّي، وشذور الفرائد، في نُحُور الخرائد: الخفيف:

والعداري عَدَوْنَ في الحلل ض وقد رُحِنَ في الخطوط

البي

السُّود

فلم أره لشيء عَدَلًا، ولا أرضى ما عددته له مثلاً؛ والله يزيدك من فضله، ولا يُخْلِك من إحسانه، ويلهمك من بر إخوانك ما تتمم به صنيعك لديهم، ويُرب معه إحسانك إليهم.

وكتب أبو القاسم إسماعيل بن عباد الصاحب إلى أبي سعيد الشيباني: قد رأى شيخ الدولتين كيف الكلفُ بسادتي من أهل ميكال - أيدهم الله! - بين ود أضمره على البُعْد، وإيثار أظهره على تراخي المزار، وتقريظ يمليه عليّ المَلَوَان، ومدح أنطق فيه بلسان الرِّمَان، حتى إن ذكرهم إذا جرى على لساني اهتزت له نفسي، وقصّلهم إذا جرى على سمعي انفرج له صدري، فتلك عصبه خير فضلها باهر، وشرفها على شرف النماء زاهر، وشجره طيبة أصلها ثابت وقزغها في السماء ناظر، والله يتمم أعدادها، ولا يعدمني ودادها، وإذا كان إكباري لهم هذا الإكبار فكلّ منتسب إلى جنبيهم أثير لديّ، كثير في يدّي. وطراً عليّ فلان منتسباً إلى جملتهم، وحيداً الجملة، ومُعْتزباً إلى خدمتهم، ونعمت الخدمة، ففررناها عن طبع سمح، ولقظ عذب، وصلية نثر بنظم؛ فإن شاء قال: أنا الوليد، وإن شاء قال: أنا عبد الحميد؛ ولم أعظم بمن خرّجته تلك النعمة ونتجته تلك السدة أن يأخذ من كل حسنة يعزّوه، ويقدح في كل نار يجذّوه؛ وأنسنا بالمقام مدة، أكدتها شوافع عدّة، إلى أن تذكر معاهد رأى فيها الدهر طلقاً، والزمان غلاماً، والفضل رهناً، والإفضال إزاماً؛ فحنّ حين الركاب، وركب عزيم الإياب.

فصل من كتاب كتبه الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميکالي إلى أبي القاسم الداودي جواباً عن كتاب له ورد عليه، وأبو الفضل رئيس نيسابور وأعمالها في وقتنا هذا، وسيمر من كلامه ونثره ونظامه ما يغني عن التنويه، ويكفي عن التنبيه، ويجل عن التشبيه، ويكون كما قال أبو الحسن الأفش علي بن سليمان: استهدى إبراهيم بن المدير أبا العباس محمد بن يزيد جليساً يجمع إلى تاديب ولده الإمتاع بإيناسه؛ فندبني لذلك، وكتب إليه معي: قد أنفذت إليك - أعزك الله - فلاناً، وجملة أمره أنه كما قال الشاعر: الوافر:

إذا زُرت الملوك فإن حسبي شفيعاً عندهم أن يخبروني

وفصل أبي الفضل: وقفت على ما أتحنفي به الشيخ: من تطميه الرائق البديع، وخاله المُرزي بزهر الربيع، مؤشّحاً بغرر ألفاظه، التي لو أعيرت جليتها لعطلت قلائد النحور، وأبكار معانيه التي لو قُسمت خلأوتها لأعدبت موارِد البحور، فسرخت طرفي منها في رياض جادتها سحائب العلوم والحكم، وهب عليها نسيم الفضل والكرم، وابتسمت عنها ثغور المعالي والهمم، ولم أدر - وقد حيرتني أصنافها، وبهرتني ثغورها وأوصافها، حتى كسنتني اهتزازاً وإعجاباً، وأنشأت بيني وبين التماسك سيراً وحجاباً، ولم أدر أدهنتني لها نسوة راح، أم أزدهنتني نغمة ارتياح، وانتظم عندي منها عقد نساء وقريض، أم قرع سمعي منها غناء معبّد وعريض، وكيفما كان فقد حوى رتبة الإعجاز والإبداع، وأصبح نزهة القلوب والأسماع، فما من جارية إلا وهي تؤدّ لو كانت أذنًا فتلتقط درره وجواهره، أو عيناً تجتلي مطالعه ومناظره، أو لساناً يدّرس محاسنه ومفاخره.

وله فصل من كتاب إلى أبي منصور عبد الملك بن إسماعيل الثعالبي: وصل كتاب مولاي وسيدي، أبدع الكتب هَوادي وأعجازاً، وأبرعها بلاغة وإعجازاً، فحسبت ألفاظه در السحاب، أو أصفى قطراً وديمة، ومعانيه دُرّ السحاب، بل أوفى قدرًا وقيمة. وتأمّلت الأبيات فوجدتها فائقة النظم

وَالرَّضْفِ، عَيْقَةَ النِّسِيمِ وَالْعَرَفِ، فَائِزَةً بِقَدَاحِ الْحُسْنِ وَالطَّرْفِ، مَالِكَةً لِيَزَامَ الْقَلْبِ وَالطَّرْفِ؛ وَلَا عَزَّوَأَنْ يَصْدُرَ مِثْلَهَا عَنِ ذَلِكَ الْخَاطِرِ، وَهُوَ هَدَفُ الْفَقْرِ وَالنَّوَادِرِ، وَصَدَفُ الدَّرْرِ وَالْجَوَاهِرِ، وَاللَّهُ يُمَتِّعُهُ بِمَا مَنَحَهُ مِنْ هَذِهِ الْعُرَرِ وَالْأَوْصَاحِ، كَمَا أُطْلِقَ فِيهِ أَلْسِنَةُ الثَّنَاءِ وَالِامْتِدَاحِ.

وَأَبُو مَنْصُورٍ هَذَا يَعِيشُ إِلَى وَقْتِنَا هَذَا عَلَى طَرِيقِ التَّخْمِينِ لَا عَلَى حَقِيقَةِ الْبِقِينِ وَهُوَ فَرِيدٌ دَهْرِهِ، وَقَرِيعٌ عَصْرِهِ، وَنَسِيحٌ وَحْدِهِ، وَلَهُ مَصْنَعَاتٌ فِي الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ، تَشْهَدُ لَهُ بِأَعْلَى الرَّتَبِ، وَقَدْ فَرَّقَتْ مَا اخْتَرَتْ مِنْهَا فِي هَذَا الْكِتَابِ، مَعَ مَا تَعْلُقُ بِشَاكِلَتِهِ مِنَ الْخَطَابِ؛ مِنْهَا كِتَابُ سَمَاءِ سِحْرِ الْبِلَاغَةِ قَالَ فِي صَدْرِ هَذَا الْكِتَابِ: "أَخْرَجْتُ بَعْضَهُ مِنْ عُرَرِ نَجُومِ الْأَرْضِ، وَنَكَّتْ أَعْيَانَ الْفَضْلِ، مِنْ بُلْغَاءِ الْعَصْرِ، فِي النُّثْرِ، وَحَلَلْتُ بَعْضَهُ مِنْ نَظْمِ أَمْرَاءِ الشُّعْرَى، الَّذِينَ أوردت مُلِحَ أشعارهم في كتابي المترجم بيتيمة الدهر، فلفقت جميع ذلك وحررتة، وسقته ونسقته، وأنفقت عليه ما رزقته، وعملته بكد الناظر، وجهد خاطر، وتعب اليمين، وعرق الجبين، وتعمدث فيه لذة الجدة، ورؤنق الحداثة، وحلاوة الطراوة، ولم أشبه بشيء من كلام غير أهل العصر، إلا في قلائد وقلائد من ألفاظ الجاحظ وابن المعتز، تخللت أثناءه، وتوشحت تضاعيفه، ولم أحل كلماته - التي هي وسائط الآداب، وصياقل الألباب، وما تستميتعه أنفس الأدباء، وتلد أعين الكتاب - من لفظ صحيح، أو معنى صريح، أو تجنيس أنيس، أو تشبيه بلا شبيهة، أو تمثيل بلا مثيل ولا عدل، أو استعارة مختارة، أو طباق، في رؤنق باق؛ فمن راق هذا الكتاب قرب تناوله من الكتاب، إذا وشوا ديباجة كلامهم بما يقتبسونه من ثوره، وسماحة قياده لأفراد الشعراء إذا رصعوا عقود نظامهم بما يلتقطونه من شذوره، فأما المخاطبات والمحاورات، فإنها تبتج بعرة من عرره، وتتوج بدره من درره.

وقد ذكر جملة من أخرج معظم كتابه من نثرهم ونظمهم، وهم: الصابيان، والخالديان، وبيدع الزمان، وأبو نصر بن المرزبان وعلي بن عبد العزيز القاضي، وأبو محمد القاضي، وأبو القاسم الزعفراني، وأبو فراس الحمداني، وابن أبي العلاء الأصبهاني، وأبو الطيب المتنبلي، وأبو الفتح البستي، وأبو الفضل الميكالي، وشمس المعالي، والصاحب بن عباد، وجماعة يكثر بهم التعداد، قد ذكرهم في كتابه، فكل ما مر أو يمر من ذكر ألفاظ أهل العصر فمن كتابه نقلت، وعليه عولت.

وفي أبي منصور يقول أبو الفتح علي بن محمد البستي: البسيط:

قلبي رهين بنيسابور عند أخ  
ما مثله حين تستقرى البلاد

له صحائف أخلاق مهديّة  
من الحجّ والعلا والطرف  
تنتسح

وأما الذين ذكر أسماءهم في كتابه فسأظهر من سرائر شعرهم الرصين، وأجلو من جواهر نثرهم الثمين، ما أخذ من البلاغة باليمين.

فصل لأبي الفضل: وصل كتاب الشيخ المبشر من خبر سلامته التي هي عزة الزمان البهيم، وعذر الدهر المليم، بما أشرفت له آفاق القصل والكرم، وتمت به نفائس الآلاء والنعم، فسرحت طرفي من محاسن أفاضه، في أنوار تروق أزهرها، وقلائد تروغ دررها وجواهرها، ومبار يسترق الرقاب باطنها وظاهرها.

وله إلى أبي سعيد بن خلف الهمداني: وصل كتابك متحملاً من أخبار سلامتك، وأثار نعم الله بسياحتك، ما أدى روح البرّ ونسيمه، وجمع فنون الفضل وتقاسيمه، ومجدداً عندي من عمر مواصلته، ومعسول كلامه ومحاورته، ما ترك عصن المقة غصاً تروق أوراقه، ووجه الثقة طلقاً يتهلل إشراقه، فكم جنيت عنه من ثمر مسرة كانت عوائق الأيام تُحاذيه، وحويت به من علق مصة قلما يجود الدهر بمثله لبيه.

وله فصل إلى بعض الحكام بجوين:

وصل كتاب الحاكم وقد وشحه بمحاسن فقره، ونتائج فكره، من لفظ شهّي أعطته القلوب فضل المقادة، ومعنى سنيّ جاده صوب الإصابة والإجادة، وبرّ هنيّ اتفقت على الاعتراف بفضله السنة الثناء والشهادة، فسرحط طرّفي فيما حواه من بدائع وطرف، قد جمعت في الحسن والإحسان بين واسطة وطرف، حتى لم تبق في البلاغة يتيمة إلا جبرتها وتممتها.

وله إلى الأمير السيد أبيه يهنئه بالقدوم.

كتبت وأنا بمنزلة من ارتدّ إليه شبابه بعد المشيب، وارتدي برداء من العمر قشيب، والحمد لله رب العالمين، وصل كتاب مولاي مبشراً من خير عوده إلى مقرّ عزه وشرفه، محروساً في حفظ الله وكفّته، بما لم تزل الآمال تنتسّم روائحه، وتترقب غادي صُنع الله فيه ورائحه، واثقة بأنّ عادة الله الكريمة عنده تُسايره وتُرافقه، وتلزم جنبه فلا تُفارقه، حتى تُخرجه من عمرة العماء خروج السيف من الغمد، والبدر بعد السّرار إلى الانجلاء، فعددت يوم وروده عيداً، أعاد عهد السرور جديداً، وردّ طرّف الحسود كليلاً وقد كان حديداً، ولم أشبهه في إهداء الروح والشفاء، وتلافي الروح بعد أن أشقى على المكروه كل الإشفاء إلا بقميص يوسف حين تلقاه يعقوب عليه السلام من البشير، وألقاه على وجهه فنظر بعين البصير، فكم أوسعته ليثاً واستلاماً، والتقطت منه برّداً وسلاماً، حتى لم تبق غلة في الصدر إلا بردتها، ولا غمة في النفس إلا طردتها، ولا شريعة من الأنس إلا وردتها.

وله فصل من رسالة: وكان فرط التعجب مرّة وعظم الإعجاب تارة يقف بي عند أول فصل من فصوله، ويثبطني عن استيفاء عرّره وحجّوله، ويؤهمني أنّ المحاسن ما حوته قلائده، وتظمته فرائده؛ فليس في قوس إحسان وراءها منزع، ولا لاقتراح جتان فوقها مُتطلع، حتى إذا جاوزه إلى لفه وتزيينه، وأجلت فكري في نكته وعيونه، رأيت ما يُحير الطرّف، ويُعجز الوصف، ويعلو على الأول محلاً ومكاناً، ويفوقه حسناً وإحساناً، فرتعت كيف شئت في رباضه وحدائقه، واقتبست نور الحكم من مطالعه ومشاركه، وسلمت لمعانيه وألفاظه فضيلة السبق والبراعة، وتلقيتها بواجبها من النشر والإذاعة؛ فإنها جمعت إلى حسن الإيجاز درجة الإعجاز، وإلى فضيلة الإبداع جلاله الموقع في القلوب والأسماع.

وله من فصل: وصل كتاب الشيخ فتشّر عندي من حُلل إفضاله وإكرامه، ومحاسن خطابه وكلامه، ما لم أشبهه إلا بأنوار النجود، وجبر البرود، وقلائد العفود.

وذكر أبو منصور الثعالبي الأمير أبا الفضل في كتاب ألفه، فقال في بعض فصوله: من أراد أن يسمع سبب النظم، ويسخر الشعر، ورؤية الدهر، ويرى

صَوَّبَ الْعَقْلَ، وَدَوَّبَ الظَّرْفَ، وَنَتِجَةَ القَضَلِ؛ فليستتنشد ما أسفر عنه طبعُ  
مَجْدِهِ، وَأَثَمَرَهُ عَالِي فِكْرِهِ، مِنْ مُلِحِ تَمْتَرُجٍ بِالنَّفُوسِ لِنَفَاسَتِهَا، وَتَشْرَبِ  
بِالْقُلُوبِ لِسَلَاسَتِهَا: المِتْقَارِبُ:

قَوَافٍ إِذَا مَا رَوَّاهَا المَشْوِ ق هَزَّتْ لَهَا الغَانِيَاتِ القُدُودَا  
كَسَوْنَ عَيْدًا ثِيَابَ العَيْدِ وَأَضْحَى لَبِيدٌ لَدَيْهَا بَلِيدَا

وَأَيْمُ اللّهِ مَا مَرَّ يَوْمَ أَسْعَفَنِي فِيهِ الزَّمَانُ بِمُوجِهُ وَجْهِهِ، وَأَسْعَدَنِي بِالِاقْتِبَاسِ مِنْ نُورِهِ  
وَالِاعْتِرَافِ مِنْ بَحْرِهِ، فَشَاهَدْتُ ثِمَارَ المَجْدِ وَالسُّوُودِ تَتَثَرُّ مِنْ شِمَائِلِهِ، وَرَأَيْتُ فِضَائِلَ  
الدَّهْرِ عِيَالًا عَلَى فِضَائِلِهِ، وَقَرَأْتُ نَسْخَةَ القَضَلِ وَالكَرَمِ مِنَ الحَاطِطِ، وَانْتَهَيْتُ فِضَائِلَ  
الفَوَائِدِ مِنَ أَلْفَاظِهِ، إِلَّا تَذَكَّرْتُ مَا أَنشَدَنِيهِ، أَدَامَ اللّهُ تَأْيِيدَهُ لِابْنِ الرُّومِيِّ: البَسِيطُ:

لَوْلَا عَجَائِبُ صُنِعِ اللّهِ مَا تِلْكَ الفِضَائِلُ فِي لَحْمٍ وَلَا  
ثَبَّتْ

وقول الطائي: الوافر:

فَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْهَا عَلَى مَا فِيكَ مِنْ كَرَمِ الطَّبَّاعِ

وقول كُشَاجِمِ: الكَامِلُ:

مَا كَانَ أَحْوَجُ ذَا الكَمَالِ إِلَى عَيْبٍ يُوفِيهِ مِنَ العَيْنِ

وربعت بقول أبي الطيب: الوافر:

فَإِنْ تَفَقَّ الأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمُ فَإِنَّ المَسْكَ بَعْضُ دَمِ العَزَالِ

ثم استعرت فيه بيانَ أبي إسحاق الصَّابِي حيث يقول للصَّاحِبِ وَرَثَةَ اللّهِ  
أَعْمَارَهَا، كَمَا بَلَغَهُ فِي البَلَاغَةِ أَنْوَارَهَا: السَّرِيعُ:

اللّهُ حَسْبِي فِيكَ مِنْ كُلِّ مَا تَعُودُ العَبْدُ عَلَى المَوْلَى  
فَلَا تَرَلَّ تَرَفُلٌ فِي نَعْمَةٍ أَنْتَ بِهَا مِنْ عَيْرِكَ الأَوَّلَى

وقال في فصلٍ منه: وَمَا أَنَسَ لِأَيَّامِي عِنْدَهُ بِفِيروزياباد، إِحْدَى قَرَاهِ بِرِيسْتاقِ  
جُوبِنِ، سَفَاها اللّهُ مَا يَحْكِي أَخْلَاقَ صَاحِبِهَا مِنْ سَبِيلِ القَطْرِ، فَإِنَّهَا كَانَتْ - بِطَلْعَتِهِ  
البَدْرِيَّةِ، وَعِشْرَتِهِ العِطْرِيَّةِ، وَأَدَابِهِ العُلُوبِيَّةِ، وَأَلْفَاظِهِ اللُّوْلُؤِيَّةِ، مَعَ جَلَائِلِ نَعْمِهِ المَذْكُورَةِ،  
وَدَقَائِقِ كَرَمِهِ المَشْكُورَةِ، وَفَوَائِدِ مَجَالِسِهِ المَعْمُورَةِ، وَمَحَاسِنِ أَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ الَّتِي يَغِيَا  
بِهَا الوَاصِفُونَ - أُنْمُودِجَاتٍ مِنَ الجَنَّةِ، الَّتِي وُعدَ المَتَّقُونَ، وَإِذَا تَذَكَّرْتُهَا فِي المَرَابِعِ الَّتِي  
هِيَ مَرَاتِعُ النُّوَاطِرِ، وَالمَصْنَعِ الَّتِي هِيَ مَطَالِعُ العَيْشِ النَّاصِرِ، وَالبَسَاتِينِ الَّتِي إِذَا أَخَذْتُ  
بِدَائِعِ زَخَرِهَا، وَنَشَرْتُ طَرَائِفَ مَطَارِفِهَا، طَوِي لَهَا الدِّيَاجَ الحُسْرُوانِي، وَنُفِي مَعَهَا  
الوَشْيَ الصَّنِيعَانِي، فَلِمَ تُشَبِّهِهُ إِلَّا بِشَيْمِهِ، وَأَثَارَ قَلَمِهِ، وَأَزْهَارِ كَلِمِهِ، تَذَكَّرْتُ سِجْرًا وَسِيمًا،  
وَخَيْرًا عَمِيمًا، وَارْتِيحًا مُقِيمًا، وَرُوحًا وَرَبِحَانًا وَنَعِيمًا.

وَكَثِيرًا مَا أَحْكِي لِلإِخْوَانِ أَنِّي اسْتَعْرَفْتُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ بِحَضْرَتِهِ، وَتَوَقَّرتُ عَلَى خِدْمَتِهِ،  
وَلَزِمْتُ فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِي عَالِي مَجْلِسِهِ، وَتَعَطَّرْتُ عِنْدَ رُكُوبِهِ بَعْبَارَ مَوْكِبِهِ؛ فَبِاللّهِ يَمِينًا  
كُنْتُ غَنِيًّا عَنْهَا لَوْ خَفْتُ جِنًّا فِيهَا إِنِّي مَا أَنْكَرْتُ طَرْفًا مِنْ أَخْلَاقِهِ؛ وَلَمْ أَشْأْهِدْ إِلَّا مَجْدًا  
وَشَرَفًا مِنْ أَحْوَالِهِ. وَمَا رَأَيْتُهُ اعْتَابَ غَائِبًا، أَوْ سَبَّ حَاضِرًا، أَوْ حَرَمَ سَائِلًا، أَوْ خَيَّبَ أَهْلًا،  
أَوْ أَطَاعَ سُلْطَانَ العَصَبِ فِي الحِصْرِ، أَوْ تَسَلَّى بِنَارِ الصَّجَرِ فِي السَّقْرِ، أَوْ بَطَشَ بِطِشَ  
المُتَجَبِّرِ؛ وَلَا وَجَدْتُ المَأْتَرَ إِلَّا مَا يَتَعَاطَاهُ، وَالمَأْتَمَ إِلَّا مَا يَتَخَطَّاهُ.

وقال في فصلٍ منه يصفه: وَأَمَّا فَنُونَُ الأَدَبِ فَهُوَ ابْنُ بَجْدَتِهَا، وَأَخُو جَمَلَتِهَا، وَأَبُو عُدْرَتِهَا،  
وَمَالِكُ أَرْمَتِهَا، وَكَأَنَّمَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي الاسْتِنْتِارِ بِمَحَاسِنِهَا، وَالتَّفَرُّدِ بِبِدَائِعِهَا، وَلِلّهِ هُوَ إِذَا  
غَرَسَ الدَّرَّ فِي أَرْضِ القَرَاطِيسِ، وَطَرَّرَ بِالظَّلَامِ رِذَاءَ النِّهَارِ، وَأَلْقَتِ بِحَارِّ خِوَاطِرِهِ  
جِوَاهِرَ البَلَاغَةِ عَلَى أَنَامِلِهِ، فَهَنَّاكَ الحُسْنُ يُرْمَتُهُ، وَالحُسْنُ بِكَلِيَّتِهِ.

وَذَكَرَ عَمْرُ بْنُ عَلِيٍّ المُطَوَّعِي فِي كِتَابِ أَلْفِهِ فِي شِعْرِ أَبِي الفَضْلِ وَمَنْثُورِهِ وَالشُّعْرَاءِ،  
فَقَالَ: رَأَيْتُ أَهْلَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ قَدْ تَشَعَّبُوا عَلَى طَرِيقِ، وَانْقَسَمُوا عَلَى ثَلَاثِ فِرْقٍ،

فَمِنْهُمْ مَنْ اكْتَسَى كَلَامَهُ شَرَفَ الاكْتِسَابِ دُونَ شَرَفِ الاكْتِسَابِ كَالْمَكْتَسِبِينَ مِنْ  
الشُّعْرَاءِ بِالمَدَائِحِ، المِتْرَشِحِينَ بِهَا لِأَخْذِ الجِوَائِزِ وَالمَنَائِحِ، وَهُمْ الأَكْثَرُونَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ  
الصَّنَاعَةِ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ شَرَّفَتْ بِنَاتُ فِكْرِهِ عِنْدَ أَهْلِ العُقُولِ، وَجَلِبَتْ لَدَيْهِمْ فِضَائِلُ القَبُولِ،  
لِشَرَفِ قَائِلِهَا، لَا لِكَثْرَةِ عَقَائِلِهَا، وَكَرَمِ وَاشْبِهَا، لَا لِرِقَّةِ حِوَاشِيهَا، كَالعَدَدِ الكَثِيرِ، وَالجَمِّ

الغفير، من الخلفاء والأمراء والجلّة والوزراء؛ ومنهم من أخذ بحبل الجّودة من طرقيّه، وجمع رداءً الحُسن من حاشيتيّه، كامرئ القيس ابن حُجر الكندي في المتقدّمين، وهو أمير الشعراء غير مُنازع، وسيدهم غير مجادّب ولا مدافع، وعبد الله بن المعتز بالله أمير المؤمنين في المولدين، وهو أشعر أبناء الخلافة الهاشمية، وأبرع أنشاء الدولة العباسية، ومَنْ جَلَّ كلامه في التشبيه، عن أن يُمثّل بنظير أو شبيه، وعَلَّت أشعاره في الأوصاف، عن أن تتعاطاه ألسنة الوُصّاف؛ والأمير أبي فراس بن حَمْدان فارس البلاغة، ورجل الفصاحة، ومن حكمت له شعراءُ العصر قاطبةً بالسيادة، واعترفت لكلامه بالإحسان والإجادة، حتى قال أبو القاسم إسماعيل بن عباد الصاحب: بُدئ الشعرُ بملكٍ وحُتم بملك، يعني امرأ القيس وأبا فراس؛ وهذه الطائفة أشهر الثلاثة تقدّمًا، وأثبتها في مواطن الفخر ومواضع الشرف قَدَمًا، وأسبق الشعراء في مَيدان البلاغة، وأرجحهم في ميدان البراعة؛ فإنّ الكلام الصادر عن الأعيان والصدور، أقرُّ للعيون وأشقى للصدور، فشرف القلائد بمن قُلدها، كما أن شرف العقائل بمن وَلدها: الوافر:

وَحَيْرُ الشُّعْرِ أَكْرَمُهُ رِجَالًا      وَشَرُّ الشُّعْرِ مَا قَالَ الْعَبِيدُ

وإذا اتفق من اجتمعت فيه هذه الشرائط، وانتظمت عنده هاتيك المحاسن، كان خليقاً بأن تُخلد في صحائف القلوب أشعاره، وتُدَوّن في ضمائر النفوس آثاره، وتكتب على الأحداق والعيون أخباره، وجديراً بأن يختصن بسرعة المجال في المجالس، وخفة المدار في المدارس، كالأمير الجليل السيد مولانا: الطويل:

أبي الفضل مَنْ نال السماء

ومن وَعَدَّتْهُ نَفْسُهُ بِمَزِيدِ

بفضله

توَدُّ عَقُودُ الدَّرِّ لَوْ كَانَ

فينظمها من تَوَامٍ وَفَرِيدِ

لفظه

وهذه مقطعات لأهل العصر

في وصف البلاغة

قال أبو الفتح البُشتي: الطويل:

مَدْحُكَ فَالتَّامَتْ قَلَانِدُ لِمَ

بأمثالها الصَّيْدُ الكِرَامُ

يَفْرُ

الأعظمُ

لأنك بَحْرٌ والمعاني لآلِي

وفكري عَوَّاصٌ وشعري ناظم

وقال أيضاً: البسيط:

ما إن سمعتُ بُنُورًا له ثمرٌ

في الوقت يُمتِعُ سَمْعَ المرءِ

والبَصْرَا

حتى أتاني كتابٌ منك

عن كل لفظٍ ومعنى يشبه

مبتسِمٌ

الدَّرَا

فكان لفظك في لآلئه زَهْرًا

وكان معناه في أثنائه ثمرًا

تسابقًا فأصابًا القَصْدَ في

لله من ثمرٍ قد سابق

الزَهْرَا

طَلَقِ

وقال أيضاً: البسيط:

لَمَّا أتاني كتابٌ منك

عن كلِّ يرٍ ولفظٍ غيرٍ محدودٍ

مبتسِمٌ

حكيتُ معانيه في أثناء

آثارِكَ البيضَ في أحوالي

أسطره

السُّودِ

كأنه ألم بقول الطائي: الطويل:

يرى أقبح الأشياء أوبّة أمل

كسئها يدُ المأمولِ حُلّة

وَأَحْسَنَ مِنْ تَوَّرُ تُفْتَحُهُ  
 الصَّبَا  
 وقال أبو الفتح البستي في أبي نصر أحمد بن علي الميكالي: الخفيف:  
 جمع الله في الأمير أبي نص  
 راحةً برهً وصَدْرًا قِضَاءً  
 حَطُّهُ رَوْضَةٌ وَأَلْفَاظُهُ الْأَزْ  
 وقال عمر بن علي المطوعي يَمْدَحُ أبا الفضل الميكالي من قصيدة: الكامل:  
 وإلى الأمير ابن الأمير  
 المعتلي  
 وَطِئْتُ بِي الْوَجْنَاءُ وَجَنَّةَ  
 مَهْمَه  
 كَيْمَا أَلَا حَظًّا مِنْهُ فِي أَفْقِ  
 الْغَلَا  
 كَالْبَدْرِ غَيْرِ دَوَامِهِ مَتَّكَامِلًا  
 بِالْفَضْلِ يُكْنَى وَهُوَ فِيهِ كَامِن  
 يَا مِنْ إِذَا حَطَّ الْكِتَابَ يَمِينَهُ  
 لَمْ تَجِرْ كُفْكُ فِي الْبِيَاضِ  
 مُوقِعًا  
 قَرَمَ يَدَاهُ وَقَلْبُهُ مَا مِنْهُمَا  
 وقال فيه أيضاً: الطويل:  
 كَلَامُ الْأَمِيرِ التَّدْبِ فِي ثَنِي  
 تَظْمِهِ  
 فَنَزَوَى مَتَى تَزَوَى بِدَائِعِ  
 تَظْمِهِ  
 وكتب إليه أيضاً: الطويل:  
 أَقُولُ وَقَدْ جَادَتْ جُفُونِي  
 بَأَدْمُعِ  
 وَقَدْ عَلِقْتُ بِي لِلنِّزَاعِ  
 تَوَازِعُ  
 إِلَى سَيِّدِ أَوْفَى عَلَى الشَّمْسِ  
 قَدْرُهُ  
 أَبِي الْفَضْلِ مَنْ رَاحَتْ  
 فَوَاضِلُ كَفِّهِ  
 سَقَى إِلَهًا أَرْضًا حَلًّا فِيهَا  
 سَحَابًا  
 سَحَابٌ يَحْدُوها نَسِيمِ  
 كَخُلُقِهِ  
 وَلَا زَالَ أَفْلَاكُ السَّعُودِ  
 مُطِيفَةً

خَائِبِ  
 بِيَاضُ الْعَطَايَا فِي سَوَادِ  
 الْمَطَالِبِ  
 وقال عمر بن علي الميكالي: الخفيف:  
 رَخِصَالًا تَعْلُو بِهَا الْأَقْدَارُ  
 وَذَكَاءً تَبْدُو لَهُ الْأَسْرَارُ  
 هَارٍ يَضْحَكُنْ، وَالْمَعَانِي ثِمَارُ  
 وقال عمر بن علي الميكالي من قصيدة: الكامل:  
 بكمال سُودِدِهِ عَلَى الْأَمْرَاءِ  
 مَتَقَاذِفِ الْأَكْتَفِ وَالْأَرْجَاءِ  
 فَلَكَا يُدِيرُ كَوَاكِبَ الْعَلْيَاءِ  
 كَالْبَحْرِ غَيْرِ عَذْوِيَّةٍ وَصَفَاءِ  
 كَالرِّيِّ يَكْمُنُ فِي زُلَالِ الْمَاءِ  
 أَهْدَى إِلَيْنَا الْوَشْيَ مِنْ صَنْعَاءِ  
 إِلَّا تَحَلَّتْ عَنْ يَدِ بِيضَاءِ  
 فِي النُّظْمِ وَالْإِعْطَاءِ إِلَّا  
 الطَّائِي

يَتُّوبُ عَنِ الْمَاءِ الزَّلَالِ لِمَنْ  
 يَظْمًا  
 وَتَظْمًا إِذَا لَمْ نَزَوْ يَوْمًا لَهُ  
 تَظْمًا

كَأَنِّي قَدْ اسْتَمْلَيْتُهُنَّ مِنْ  
 السُّحْبِ  
 كَثِيرَ مَعَانَاةَ الْعِنَاءِ عَلَى  
 قَلْبِي  
 وَزَادَتْ مَعَالِيهِ ضِيَاءَ عَلَى  
 الشَّهْبِ  
 وَرَاحَتِهِ تُرْبِي عَلَى عَدَدِ  
 التَّرْبِ  
 كَنَائِلُهُ الْفِيَاضُ أَوْ لَفْظُهُ  
 الْعَدْبِ  
 وَيَقْدَمُهَا بَرَقُ كِصَارِمِهِ  
 الْعَصْبِ  
 بِحَضْرَتِهِ تَنْتَابُهَا وَهُوَ  
 كَالْقُطْبِ

وقال أبو منصور الثعالبي للأمير أبي الفضل: الكامل:

أبدأً لغيرك في الورى لم تُجمَع	لك في الفضائل معجزات جَمَة
شِعْرُ الوليد وحُسْن لفظِ الأصمعي	بحران بحرٌ في البلاغة شَابَهُ
كالوْشِي في بُرْدٍ عليه مُوسَع	كالتَّوْرِ أو كالتَّسْحَرِ أو كالتَّدرُّ أو
وافى الكريمَ بُعَيْدَ فقْرٍ مُدْقِع	شكراً فكم من فقْرَةٍ لك كالغِنَى
فالحسنُ بين مُرَصَّع ومُصْرَع	وإذا تفتق تَوْرٌ شِعْرِكَ ناضراً
راسَ البديع وأنت أمجدُ مُبدِع	أرْجَلَتْ فُرسان الكلام ورُضتْ أف
تُرِّي بآثارِ الربيع المُمْرِعِ	ونقشت في فصّ الزمان بدائعاً

وقال في وصف فرس أهدها إليه ممدوحه: الكامل:

قد أنعلوه بالرياح الأربعِ	يا مُهْدِي الطَّرْفِ الجوادِ كأنما
في شكر نائلك اللطيفِ المَوْقِعِ	لا شيء أسرعُ منه إلا خاطري
لجلال مُهْدِيهِ الكريم الأروَعِ وجعلت مربطه سَوَادَ المَدْمَعِ	ولو أنني أنصفتُ في إكرامِهِ أنظمته حَب القلوب لِحُبِهِ
بُرْد الشباب لجله والبُرْقَعِ	وخلعت ثم قطعت غير مضيق

وكتب إليه في جواب كتاب ورد عليه: الخفيف:

ما رَجَّه ربا الحبيب الأثيرِ	أنسيمُ الرياض حَوْلَ الغدِيرِ
ك أسيرٍ أو يُسْر أمرٍ عسيرِ	أم وُرود البشير بالنجح من ف
تحت أيلِك من التصابي نضيرِ	في ملاء من الشباب جديدِ
د؛ فيا حبِّذا كتابُ الأميرِ من سُطورٍ فيها شفاءُ الصدورِ	أم كتاب الأمير سيدنا القَرِ وثمار الصدور ما أجتنيه
وارَ والزهر في رياض السطورِ	نمقَّتها أنامل تفتقُ الأن
ر مع الأمن من صروفِ الدهورِ	كالمنى قد جُمِعن في النعم العِ
جل باريك من لطيفِ خبيرِ ويُعَبِّرُن عن نسيم العبيرِ	يا أبا الفضل وابنته وأخاهُ شَيْمٌ يَرْتَضَعن دَرَّ المعالي

وسجايا كأنهنّ لدى النش  
ومحيا لدى الملوک محيا  
فأجابه أبو الفضل بأبيات يقول فيها في صفة أبياته: الخفيف:  
وهديّ زُفَّتْ إلى السَّمْعِ يَكْرِ  
عجب الناس أن بدت من  
سَوَادٍ  
نُظِمَتْ في بلاغة ومعانٍ  
كم تذكّرت عندها من عُهودٍ  
فدممْتُ الزمانَ إذ ضنَّ عَنَّا  
ولئن راعنا الزمانُ ببينٍ  
فعسى الله أن يُعيدَ  
اجتماعاً  
إنه قادر على ردّ ما فا  
وقال أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي في الوزير المهلبّي: الكامل:  
قل للوزير أبي محمدٍ  
الذي  
لك في المجالس منطوق  
يشفي الجوى  
وكانَ لفظك جوهراً متنخل  
وكانما آذائنا أصدافه

والمهلبّي هذا هو أبو محمد الحسن بن هارون بن إبراهيم بن عبد الله بن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب، وررّ لأحمد بن بويه الدّيلمّي، وكانت وزارته سنة تسع وثلاثين وثلثمائة، وكان أبو محمد من سَرَوَاتِ الناس وأدبائهم وأجوادهم وأعفائهم؛ وفيه يقول أبو إسحاق الصابي: الخفيف:

لَفْ إِلَّا الْأَخِيرَ النَّسَاكَ  
ن لها البر والتقى أشراكا

لصوفي: كنت معه في بعض أوقاته، أماشيته في إحدى طرقاته،

فهذا العيش  
تصدق بالوف

ثم تصرّف بما يُرضيه الدهر، وبلغ المهلبّي مبلّغه. قال أبو علي: دخلت البصرة فاجتزت بسُرّ مَنْ رَأَى، وإذا أنا بناشيطيات وحراقات وزبارب وطيّارات في عُدّة وعُدّد، فسألت: لِمَنْ هذا؟ فقل: للوزير المهلبّي، وندتوا لي صاحبي؛ فوصلت إليه حتى رأيت، فكتبت إليه رقعة، وتوصّلت حتى دخلت فسلمت، وجلست حتى خلا مجلسه، فدفعت إليه الرقعة وفيها:  
الوافر:

ألا قُلْ للوزير بلا احتشام  
مقال مُدَكَّر ما قد نسيه  
أذكر إذ تقول لضيق عيشي  
ألا موت يُباع فأشتره

فنظر إلي وقال: نعم، ثم نهض وأنهضني معه إلى مجلس الأنس، وجعل يُدَاكِرني ما مضى، ويذكر لي كيف ترقت حاله، وقُدّم الطعام قطعنا، وأقبل ثلاثة من الغلمان على رأس أحدهم ثلاث بدر، ومع الآخر تخوث وثياب، ومع الآخر طيب وبخور، وأقبلت بعلّة

رائعة بسرج ثقيل؛ فقال: يا أبا علي، تفصّل بقبول هذا، ولا تتخلف عن حاجة تعرّض لك، فشكرته وانصرفت، فلما هممت بالخروج من الباب استردّني وأنشدني بديها: مجزوء الكامل:

رَقَّ الزمان لفاقتي  
وأنالني ما أرّجني  
فلاغفرنّ له الكثي  
إلا جنايةته التي  
ورّتى لطول تحرّقي  
وأجار ممّا أتّقي  
ر من الذنوب السبّقي  
فعل المشيب بمفرّقي

قال بعض العلماء: العقول لها صُورٌ مثلُ صورِ الأجسام، فإذا أُتت لم تسبلكُ بها سبيلَ الأدبِ حارّتْ وضلتْ، وإن بعثتها في أوديتها كلت وملت، فاسبلكُ بعقلك شغاب المعاني والفهم، واستبقيهِ بالجَمَامِ للعلم، وإزّدْ لعقلك أَفْضَلَ طبقاتِ الأدب، وتوقّ عليه أفة العطب؛ فإنّ العقلَ شاهدك على القصل، وحارسك من الجهل.

واعلم أن مغارس العقول كمغارس الأشجار؛ فإذا طابت بقاع الأرض للشجر زكا ثمرها، وإذا كُرّمت النفوس للعقول طاب خَيْرُها، فاعمُرْ نفسك بالكرم، تسلم من الآفة والسقم.

واعلم أنّ العقل الحسن في النفس اللئيمة، بمنزلة الشجرة الكريمة في الأرض الذميمة، ينتفع بثمرها على حُبِّ المَعْرِس؛ فاجتنِ ثمرَ العقول وإنّ أناك من لئام الأنفس. وقال النبي عليه السلام: "رب حاملِ فقهٍ إلى مَنْ هو أوعى له". وقيل: رب حاملِ فقهٍ غير فقيه، ورب رَمِيَةٍ من غير رام. وقيل: الحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها أخذها. وسمع الشعبيُّ الحجاج ابن يوسف وهو على المنبر يقول: أمّا بعد، فإنّ الله كتب على الدنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء، فلا فناء لما كُتِبَ عليه البقاء، ولا بقاء لما كُتِبَ عليه الفناء، فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة، وأقصرُوا من الأمل، لقصر الأجل. فقال: كلامُ حكمة خَرَجَ من قلب خَرَابٍ! وأخرج الواحَه فكتب.

وقد روى ذلك عن سفيان الثوري. وقد سمع إبراهيم بن هشام وهو يخطب على المنبر ويقول: إن يوماً أشاب الصغير، وأسكر الكبير، ليومٍ شرّه مُسْتَطِير!

وصف الكتب  
قال الجاحظ: الكتاب وعاء ملى علماً، وظرف حُشي ظرفاً، وُستّان يُحمَلُ في رُدن، ورؤضة قلب في حجر، ينطق عن الموتى، ويترجم كلام الأحياء. وقال: من صنّف كتاباً فقد استهدف؛ فإن أحسن فقد استعطف، وإن أساء فقد استقذف.

وقال: لا أعلم جاراً أبرّ، ولا خليطاً أنصف، ولا رقيقاً أطوع، ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً أظهر كفاية، وأقل جناية، ولا أقل إملالاً وإبراماً، ولا أقل خلافاً وإجراماً، ولا أقل غيبةً، ولا أبعد من عضيّة، ولا أكثر أعجوبة وتصرفاً، ولا أقل صلفاً وتكلفاً، ولا أبعد من مرآء، ولا أترك لشغب، ولا أزهّد في جدال، ولا أكف عن قتال، من كتاب. ولا أعلم قريناً أحسن مُواتاة، ولا أعجل مكافأة، ولا أخضر مَعُونَة، ولا أقل مَوُونَة، ولا شجرة أطول عمراً، ولا أجمع أمراً، ولا أطيب ثمرة، ولا أقرب مُجتنى، ولا أسرع إدراكاً في كل أوّان، ولا أوجد في غير أبان، من كتاب. ولا أعلم نتاجاً في حدائه سنّه، وقرب ميلاده، ورخص ثمنه، وإمكان وجوده، يجمع من التدابير الحسنة، والعلوم الغربية، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأخبار عن القرون

الماضية، والبلاد المُتْرَاحِيَّة، والأمثال السائرة، والأمم البائدة ما يجمع الكتاب.

ودخل الرشيد على المأمون، وهو يتنظر في كتاب، فقال: ما هذا؟ فقال: كتاب يَشْحَذُ الفِكْرَةَ، ويَحْسِنُ العِشْرَةَ. فقال: الحمد لله الذي رَزَقَنِي مَنْ يرى بعين قلبه أكثر مما يرى بعين جسمه. وقيل لبعض العلماء: ما بلغ من سرورك بأدبك وكُتُبِكَ؟ فقال: هي إن خَلُوتْ لذتي، وإن اهتممتُ سَلَوْتِي، وإن قلت: إن زَهَرَ البستان، ونور الجنان، يَجْلُوَانِ الأبصار، ويمتعان بحسنهما الألباب؛ فإن بستان الكتب يَجْلُو العقل، وَيَشْحَذُ الدَّهْنَ، ويحيي القلب، ويقوي القريحة، ويُعِينُ الطَّبِيعَةَ، وَيَبْعَثُ نتائج العقول، ويستثير دقات القلوب، ويمتغ في الخلو، ويؤنس في الوحشة، ويضحك بنوادره، ويُسِرُّ بغرائبه، ويفيد ولا يستفيد، ويُعْطِي ولا يأخذ، وتصل لذته إلى القلب، من غير سامة تدرِّكك، ولا مشقة تُعرض لك.

وقال أبو الطيب المتنبي: الطويل:

وللسرمتي موضع لا يتاله  
وللخود مني ساعة، ثم بيتنا  
وما العشق إلا عثرة وطماعة  
وعير فؤادي للعواني رمية  
تركنا لأطراف القنا كل لذة  
نصرفه للطعن فوق سوابح  
أعز مكان في الدنا سرج  
سايح

نديم، ولا يُفْضِي إليه شراب  
فلاهُ إلى غير اللقاء تجاب  
يُعرض قلب نفسه فيصاب  
وعير بتاني للرخاخ ركاب  
فليس لنا إلا بهن لعب  
قد انقصت فيهن منه كعاب  
وحير جليس في الزمان  
كتاب

فقر في الكتب

إنفاق الفضة على كتب الآداب، يُخلفك عليه ذهاب الألباب. إن هذه الآداب سوارد، فاجعلوا الكتب لها أزيمة. كتاب الرجل عنوان عقله، ولسان فضله. ابن المعتز: من قرأ سطرًا من كتاب قد خط عليه فقد خان كاتبه؛ لأن الخط يُحرز ما تحته.

بزرجمهر: الكتب أصداف الحكمة، تنشق عن جواهر الكلم. بعض الكتاب: إعجام الخط يمنع من استعجابه، وشكله يؤمن من إشكاله. كان هذا الكاتب نحا إلى قول أبي تمام: الطويل:

تري الحادث المستعجم  
الخطب معجماً

ما كُتِبَ قر، وما حُفِظَ قر. الخطوط المعجمة، كالبرود المعلمة. وقال ابن المعتز بصف كتاباً: الوافر:

وذي نكت موشى نمقنه  
بشكل يرفع الإشكال عنه

جملة من ألفاظ أهل العصر في صفة الكتب وتهاديبها، وما يتعلق بأسمائها ومعانيها

حضرة مولاي تجل عن أن يُهدى إليها غير الكتب، التي لا يترفع عنها كبير، ولا يمتنع منها خطير، وقد فكرت فيما أنفذت به مقيماً للرسم في جملة الخدم، وحافظاً للاسم في غمار الحشم، فلم أجد إلا الرق الذي سبق ملكه له، والمال الذي منحه وحوله، فعدلت إلى الأدب الذي تنفق سوفه بباب سيدنا ولا تكسد، وتهب ريحه بجانبه ولا تترك، وأنفذت كتابي هذا

راجياً أن أسرّف بقبوله، ويوقّع إليّ بحصوله؛ ولما وجب على ذوي الاختصاص لسيدنا إهداء ما جرت العادة بتسابق الأولياء إلى الاجتهاد في إهدائه، وجب العدول في إقامة رسم الخدمة إلى اتباع ما صدر عنه من الرخصة فيما تسهّل كلفته، وتجلّ عند ذوي الألباب قيمته، وتحلو ثمرته: وهو علمٌ يُفَتِّنى، وأدبٌ يُجَتِّنى.

قال أبو الحسن ابن طباطبا العَلَوِيّ: الكامل:

لا تُكَيِّرُنْ إِهْدَاءَنَا لَكَ مَنطِقاً      منك استفدنا حُسْنَهُ ونظامَهُ  
فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يشكر فِعْلَهُ      يَتْلُو عليه وَحْيَهُ وكلامَهُ  
مَنْ

وأهدى أحمد بن يوسف إلى المأمون في يوم مَهْرَجَانٍ هديةً قيمتها ألف ألف درهم، وكتب: الطويل:

علي العَبْدِ حَقٌّ فَهَوَ لا بَدَّ      وَإِنْ عَظَمَ المَوْلى وَجَلَّتْ  
فَاعِلُهُ      فضائلُهُ  
أَلَمْ تَرْنَا نُهْدِي إلى الله ما      وَإِنْ كان عنه ذا عِنْتِي وَهَوَ  
لَهُ      قايِلُهُ

وقال أبو الفتح البستي: البسيط:

لا تُكَيِّرَنَّ إِذا أَهديت نحوكَ      علومك العُرِّ أو آدابك النتفا  
مِنْ

فقيمُ الباغِ قد يُهْدِي لِمالِكِهِ      برسم خدمته من باغهِ التَّحَفَا

وكتب أبو إسحاق الصّابي إلى عضد الدولة في هذا المعنى: العبيد تُلاطف ولا تكاثر الموالى في هداياها، والموالى تُقبِلُ الميسور منها قبولاً هو محسوبٌ في عطاياها. ولما كان - أدام الله تعالى عِزَّهُ -! مبرزاً على ملوك الأرض في الخطر الذي قَصَرُوا عنه شديداً، والسعي الذي وقفوا منه بعيداً، والآداب التي عجزوا عن استعلامها قَصَلًا عن علمها، والأدوات التي نكلوا عن استفهامها فضلاً عن فهمها، وجب أن يُعَدَّلَ عن اختياراتهم ما تَخَطَى به الجسومُ البهيمية، إلى اختياره فيما تَخَطَى به النفوسُ العليّة، وعمّا يَبْفُقُ في سوقهم العامية، إلى ما يَبْفُقُ في سوقه الخاصة، إفراداً لِرُبِّيَّتِهِ العُليا، وغايته القصوى، وتمييزاً له عمن لا يَجْرِي معه في هذا المضمار، ولا يتعلّقُ منه بالعُبار: وقد حملت إلى خِزانة - عمرها الله! - شيئاً من الدفاتر وآلة النجوم، فإن رأى مولانا أن يتطوّل على عبده بالإذن في عَرَضِ ذلك عليه مُسَرِّفاً له وزائداً في إحسانه إليه فَعَلَّ إن شاء الله تعالى.

وأهدى أبو الطيب المتنبي إلى أبي الفضل بن العميد في يوم نوروز قصيدة مدحه فيها، يقول في آخرها: الخفيف:

كَثُرَ الفِكرُ كيف نُهْدِي كما ته      دي إلى ربها الرئيسِ عِبَادُهُ  
وَالَّذِي عِنْدَنَا مِنَ المَالِ      لَ قَمِنَهُ هِبائُهُ وقِيادُهُ  
وَالْحَيِّ      فبِعْتنا بِأَرْبَعينَ مِهَاراً

فَارْتَبَطَها فَإِنَّ قَلْباً تَمَها      كَلِّ مُهَرِّ مَيَدانُهُ إِنشادُهُ  
مَرَبِطٌ تَسْبِقُ الجِياذَ جِياذُهُ      مَرَبِطٌ تَسْبِقُ الجِياذَ جِياذُهُ

وفي هذه الكلمة يقول وقد احتفل فيها، واجتهد في تجويد ألفاظها ومعانيها، فعقّب عليه أبو الفضل في مواضع وقف عليها فقال: الخفيف:

هل لِعُدْرِي إلى الهُمامِ أبي      لَ قَبُولِ سَوادِ عيني  
الفض      مداذُهُ؟

أنا من شدة الحياءِ عَلِيْلُ      مَكْرَماتُ المُعِلَّةِ عُوادُهُ  
ما كفاني تَفْصِيرُ ما قُلْتُ      عن غِلاهُ حتى ثناهُ انتقادُهُ  
فيه

ل، وهذا الذي آتاه اغتياؤه  
 أن يكون الكلام ممّا أفاده  
 فاشتهد أن يكون منها  
 فؤاده

وَبُكَاءَ إِنْ لَمْ يَجْر دَمْعُكَ أَوْ  
 جَرَى  
 يقول فيها: الكامل:  
 جالستُ رَسْطاليسَ  
 والإسكندرا  
 مَنْ يَنْحَرُ الْبِدْرَ النَّصَارَ لَمْ  
 قَرَى  
 مُتَمَلِّكاً مُتَبَدِّياً مُتَحَضِراً  
 رَدَّ الْإِلَهَ نَفُوسَهُمْ وَالْأَعْضَرَ  
 وَأَتَى فَذَلِكَ إِذْ أَتَيْتَ مُؤَخَّرًا

ما تَعَوَّدْتُ أَنْ أَرَى كَأَبِي  
 الْفَضْ  
 عَمَرْتُنِي فَوَائِدَ شَاءَ مِنْهَا  
 مَا سَمِعْنَا بِمَنْ أَحَبَّ  
 الْعَطَايَا  
 وقد كان مدحه بقصيدته التي أولها: الكامل:  
 بَادٍ هَوَاكَ صَبَّرْتَ أُمَّ لَمْ  
 تَصْبِرَا  
 وفيها معانٍ مخترعة، وأبيات مبتدعة،  
 مَنْ مَبْلُغُ الْأَعْرَابِ أُنْبِي بَعْدَهَا  
 وَمَلَلْتُ تَحَرَ عِشَارِهَا  
 فَأَضَافَنِي  
 وَسَمِعْتُ بِطَلِيمُوسَ دَارِسَ  
 كَتَبَهُ  
 وَرَأَيْتُ كُلَّ الْفَاضِلِينَ كَأَنَّمَا  
 تُسَبِّحُوا لَنَا نَسَقَ الْحِسَابِ  
 مَقَدِّمًا  
 وفيها يقول:

وَدَعَاكَ خَالِقُكَ الرَّئِيسَ  
 الْأَكْبَرَ  
 كَالْخَطِّ يَمْلَأُ مِسْمَعِي مَنْ  
 أَبْصَرَ

فَدَعَاكَ حُسَدَاكَ الرَّئِيسَ  
 وَأَمْسَكُوا  
 خَلَقْتَ صِفَاتِكَ فِي الْعَيُونِ  
 كَلَامَهُ

أخذه من قول الطائي يصف قصائده: الطويل:

بِقُرْبِ يَرَاهَا مَنْ يَرَاهَا  
 بِسَمْعِهِ

وَيَدُّوْهُ إِلَيْهَا ذُو الْحِجَا وَهُوَ  
 شَاسِعٌ

نموذج في وصف الكتب

كتاب كَتَبَ لِي أَمَانًا مِنَ الدَّهْرِ، وَهَنَانِي فِي أَيَّامِ الْعَمْرِ. كتاب أَوْجِبَ مِنْ  
 الْإِعْتِدَادِ فَوْقَ الْأَعْدَادِ، وَأَوْدَعَ بِيَاضِ الْوُدَادِ سَوَادَ الْفَوَادِ. كتاب النَّظَرِ فِيهِ نَعِيمٌ  
 مَقِيمٌ، وَالظَّفْرِ بِهِ فَتْحٌ عَظِيمٌ. كِتَابٌ ارْتَحَتَ لِعَيَانِهِ، وَاهْتَزَزَتْ لِعُنْوَانِهِ. كتاب  
 هُوَ مِنَ الْكُتُبِ الْمَيَّامِينَ، الَّتِي تَأْتِي مِنْ قَبْلِ الْيَمِينِ. كتابٌ عَدَدَتَهُ مِنْ حَجُولِ  
 الْعُمْرِ وَعُزْرِهِ، وَاعْتَدَدْتَهُ مِنْ فُرْصِ الْعَيْشِ وَعُزْرِهِ. كتابٌ هُوَ أَنْفَسُ طَالِعٍ،  
 وَأَكْرَمُ مُتَطَّلِعٍ، وَأَحْسَنُ وَاقِعٍ، وَأَجَلُّ مُتَوَقِّعٍ. كتابٌ لَوْ قُرِئَ عَلَى الْحِجَارَةِ  
 لَأَنْفَجَرَتْ، أَوْ عَلَى الْكُوكَبِ لَأَنْتَثَرَتْ. كتابٌ كِدْتُ أَبْلِيهِ طَيِّبًا وَنَشْرًا، وَقَبْلَتُهُ  
 أَلْفًا، وَيَدَّ حَامِلُهُ عِشْرًا. كتابٌ نَسِيْتُ لِحَسَنِهِ الرُّوْضَ وَالرَّهْرَ؛ وَغَفَرْتُ لِلزَّمَانِ  
 مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. كتابٌ أَمْلَيْتُهُ هِرَّةً الْمَجْدِ عَلَى بِنَانِكَ، وَنَطَقَ بِهِ  
 لِسَانُ الْقَضَلِ عَنْ لِسَانِكَ. أَنَا أَلْتَقِطُ مِنْ كُلِّ حَرْفٍ تُدِيرُهُ أَنَا مُلْكُ نُحْفَةٍ، وَأَخُذُ  
 مِنْ كُلِّ سِطْرٍ تَتَجَشَّمُ تَخْطِيطَهُ نَزْهَةً. إِذَا قَرَأْتَ مِنْ خَطِّكَ حَرْفًا، وَجَدْتُ عَلَى  
 قَلْبِي خِفًّا، وَإِذَا تَأَمَّلْتُ مِنْ كَلَامِكَ لَفْظًا، أزددت من أنسي حطًا. كتابٌ كَتَبَ  
 لِي أَمَانًا مِنَ الزَّمَانِ، وَتَوَقَّيْعُ وَقَعَ مِنِّي مَوْقِعَ الْمَاءِ مِنَ الْعَطْشَانِ. كتابٌ هُوَ  
 تَعَلُّهُ الْمَسَافِرُ، وَأُنْسُهُ الْمَسْتَوْحِشُ، وَزَبْدَةُ الْوَصَالِ، وَعُقْلَةُ الْمَسْتَوْفِرِ. كتابٌ  
 هُوَ رُقِيَةُ الْقَلْبِ السَّلِيمِ، وَغَرَّةُ الْعَيْشِ الْبَهِيمِ، كِتَابٌ هُوَ سَمَرٌ بِلَا سَهْرِ، وَصَفْوٌ

بلا كدر. كتاب تمنعت منه بالنعيم الأبيض، والعيش الأخضر، واستلهمته استلام الحجر الأسود، ووكلت طرفي من سطورِهِ بوشي مُهلل، وتاج مُكَلَّل، وأودعتُ سمعي من محاسنه من أنساني سماع الأغاني من مطريات العواني. نشأت سحابة من لفظك، عيّمها نعمة سابعة، وعيّننا حكمة بالغة، سقت روضة القلب، وقد أجهدتها يدُ الجذب؛ فاهتزت وربّت، واكتست ما اكتسبت. كتاب حسبه ساقطاً إليّ من السماء، اهتزازاً لمطلعه، وابتهاجاً بحسن موقعه، تناولته كما يتناول الكتابُ المرقوم، وفضضته كما يفضُّ الرّحيقُ المختوم. كتاب كالمشتري شُرّف به المسير، وقميص يوسف جاء به البشير. كتاب هو من الحسن، روضة حزن، بل جنة عذّن، وفي شرح النفس وبسط الأنس برد الأكباد والقلوب، وقميص يوسف في أجفان يعقوب. قد أهديت إليّ محاسن الدنيا مجموعةً في ورقه، ومباهج الحلّى والحلل محصورة في طيقه. كتاب الصّفته بالقلب والكبد، وشمته شمّ الولد. ورد منك المسك ذكياً، والزهرُ جنيّاً، والماء مرّياً، والعيش هنيئاً، والسحر بابلئاً. كتاب مطلعه أهلة الأعياد، وموقعه موقع تيل المراد. كتاب وجدته قصير العمر، كليالي الوصال بعد الهجر، لم أبدأ به حتى استكمل، وقارب الآخر منه الأول. كتاب منتقض الأطراف، منقطع الأكتاف، أبتّر الجوارح، مضطرب الجوانح، كتاب كأنه توقيع متحرّز، أو تعريض مُتبرز. كاد يلتقي طرفاً، ويتقارب مُفتّحه ومُنْتِهاهُ. كتاب التقت طرفاه صِعراً، واجتمعت حاشيتاه قصرأ. ما أظنني ابتدأته حتى ختمته، ولا استفتحت حتى أتممتها، ولا لمحت حتى استوفيتها، ولا نشرته حتى طويته، وأحسبني لو لم أجود ضبطه، ولم ألزم يدّي حفظه، لطار حتى يختلط بالجو، فلا أرى منه إلا هباءً منثوراً، وهواءً منشوراً. كتاب حسبه يطير من يدي لخفته، ويلطف عن جسّي لقلته، وعجبت كيف لم تحمله الرياح قبل وصوله إليّ، وكيف لم يختلط بالهواء عند وصوله لديّ. كتاب قصّ الاقتصارُ أجنته، فلم يدع له قوادم ولا خوافي، وأخذ الاختصار جنته، فلم يبق ألفاظاً ولا معاني. طلع كتابك كإيماء بطرفي، أو وحي بكفّ.

وقال أبو العباس عبد الله بن المعتز: استعرت من علي بن يحيى المنجم جزءاً فيه أخبار معبد بخت حماد بن إسحاق الموصلي، وكان وعدني به، فبعث إليّ بستّ ورقات لطاف، فرددتها وكتبت إليه: إن كنت أردت بقولك جزءاً الجزء الذي لا يتجزأ فقد أصبت، وإن كنت أردت جزءاً فيه فائدة للقارئ، ومُنْعَةٌ للسامع، فقد أحلت: وقد ردّته عليك بعد أن طار اللخط عنيّ طيرة.

فأجابني: إذا كان السّفر عنْدك منجاةً فما أصنع؟

في محادثة الجليس

وقال أبو العباس: دخل رجلٌ على الحسن بن سَهْل بعد أن تأخّر عنه أياماً، فقال: ما ينقصني يوم من عمري لا أراك فيه إلا علمت أنه مبتور القدر، منحوس الحظ، معبُون الأيام.

فقال الحسن: هذا لأنك توصل إليّ بحضورك سُروراً لا أجده عند غيرك، وأنتسّم من أرواح عَشْرَتِكَ ما تجد الحواسُّ به بُعْيَتِها، وتستوفي منه لذتها، فنفسك تالف مني مثل ما ألقه منك.

وكان يقال: محادثة الرجال تُلقيح الألباب.

وقال ابن الرومي: مجزوء الكامل:

ولقد سئمتُ مآربي  
إلا الحديث؛ فإنه  
قال مخارق: لقيني أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم قبل نسكه، فقال: أنا والله صبّ  
بك، ولوع إليك، مغمور القلب بشكرك، واللسان بذكرك، متشوّف إلى رؤيتك  
ومفاوضتك، وقد طالت الأيام على ما أعدّ به نفسي من الاجتماع معك، ومن قضاء  
الوطر منك؛ فما عندك؟ أنا الفداء لك! وتزورني أم أزورك؟ قلت: جعلني الله فداك!  
ما يكون عند من هو منك بهذا الموضع وفي هذا المحل إلا الانقياد إلى أمرك، والسمع  
والطاعة لك، ولولا أن أسبيء الأدب في أمر بدأت فيه بالفضل لقلت: إن كثير ما  
ابتدأت به من القول يقلّ فيما عندي من الشوق إليك، والشغف بك، دون ما حرّك هذا  
القول مني، فوجبت لك به المنة عليّ، وأنا بين يديك، فأئن عتاني إلى ما أردت، وفؤدني  
كيف شئت، تجدني كما قال القائل: البسيط:

ما تبتئبه فإني اليوم  
فاعله  
والقلب صبّ فما جسّمته  
جشما

وذكر سهل بن هارون رجلاً، فقال: لم أر أحسن منه فهماً لجليل، ولا تفهما لدقيق،  
أشار إليه أبو تمام فقال: الوافر:

وكنت أعزّ عراً من فنوع  
فصرت أدلّ من معني دقيق  
تعرّصه صفوح من ملول  
به فقّر إلى ذهن جليل

وقال سعيد بن مسلم للمأمون: لو لم أشكر الله تعالى إلا على حسن ما أبلاني من  
أمير المؤمنين من قصده إليّ بحديثه، وإشارته إليّ بطرفه؛ لقد كان في ذلك أعظم  
الرفعة، وأرفع ما توجبه الحرمة. فقال: يفعل أمير المؤمنين ذلك؛ لأن أمير المؤمنين  
يجدّ عندك من حسن الإفهام إذا حدثت وحسن الفهم إذا حدثت ما لا يجده عند أحد  
ممن مضى، ولا يظن أنه يجده عند أحد ممن بقي، فإنك لتستقصي حديثي، وتقف عند  
مقاطع كلامي، وتؤخّر بما كنت أغفلته منه.  
وقال المتوكل لأبي العيناء: ما تحسن؟ قال: أفهم وأفهم.

وقال بعض الحكماء لتلميذه، وقد صرّب الموسيقى: أفهمت؟ قال: نعم، قال: بل لم  
تفهم، لأنني لا أرى عليك سرور الفهم! وقد قيل: من نظر إلى الربيع وأنواره، والروض  
وأصباغه، ولم ينتهج كان عديم حسّ، أو سقيم نفس.  
ومرّ أبو تمام بأبرشهر من أرض فارس، فسمع جارية تغني بالفارسية، فسأقه شجيّ  
الصوت، فقال: الوافر:

ومُسَمِّعَةٍ تروق السمع  
حسناً  
ولم تصممه، لا يصمم  
صداها!

لوت أوتارها فشجت  
وشاقت  
فلو يستطيع حاسدُها فداها

ولم أفهم معانيها، ولكن  
شداها  
وَرث كيدي فلم أجهل

فكنت كأنني أعمى معني  
قال أبو الفضلى أحمد بن أبي طاهر: قلت لأبي تمام: أخذت هذا المعنى من أحد؟ قال:  
نعم، أخذته من قول بشار بن برد: البسيط:

يا قوم أذني لبعض الحيّ  
عاشقه  
والأذن تعشق قبل العين  
أحياناً

قالوا: بمن لا ترى تهدي؟  
فقلت لهم:  
الأذن كالعين تُوفي القلب ما  
كانا

وقال بشار أيضاً في هذا المعنى: البسيط:

قال عَقِيل بن كعب إذ  
تعلقها  
قلبي فأصْحى به من حُبها  
أثر:

أنتى ولم ترها تهدي! فقلتُ  
لهم:  
وقال: الطويل:

يزهدني في حبِّ عبدة  
معشُر  
فقلت: دُعُوا قلبي وما اختارَ  
وارتضى

وما تبصُرُ العينان في موضع  
الهوى

وقد قال أبو يعقوب الخريمي في هذا المعنى، وكان قد أعورَ ثم عمي،  
وقيل: إنها للخليل بن أحمد: الكامل.

قالت أتهزأ بي عداة لقيتها؟  
فأجبتها: نفسي فداؤك إنما  
وقريب من هذا قول الحكم بن قنبر إن لم يكن منه: البسيط:

إن كنتَ لست معي فالذكر منك  
معي  
العين تبصُر مَنْ تهوى  
وتفقدته

وقال آخر: الطويل:  
أما والذي لو شاء لم يخلق  
الهوى

لئن غبت عن عيني فما غبت  
عن قلبي  
أناجيك من قرْبٍ وإن لم تكن  
قربي

ترينيك عَيْنُ الوهمِ حتى  
كانني

وقال أبو عثمان سعيد بن الحسن الناجم: الطويل:

لئن كانَ عن عينيَّ أحمدُ  
غائباً

له صورةٌ في القلب لم  
يُقصِها النوى

إذا ساءني منه سُخُوطُ  
مزاره

عطفْتُ على شَخْصٍ له غير  
نازح

وذكر أبو عبيدة كيسان مستمليه في بعض الأمر، فقال: ما فهم، ولو فهم لوهم. وكان  
كيسان يوصف بالبلادة والغفلة.

قال الجاحظ: كان يكتب غير ما يسمع، ويستقني غير ما يكتب، ويقرأ غير ما يستقني،  
ويملئ غير ما يقرأ، أمليت عليه يوماً: مجزوء الوافر:

عجبتُ لمعشر عدلوا

بمعتمر أبا عمرٍ

فكتب أبا بشر، وقرأ أبا حفص، واستقني أبا زيد.  
قال أبو عباد: للمحدث على جليسه، السامع لحديثه، أن يجمع له باله، ويصغي إلى  
حديثه، ويكتم عليه سره، ويبسط له عذره.

وقال: ينبغي للمحدث إذا أنكر عين السامع أن يستفهمه عن معنى حديثه، فإن وجده  
قد أحلص له الاستماع أتم له الحديث، وإن كان لاهياً عنه حرمة حسن الإقبال عليه،

وَتَفَعَّ الْمُؤَانِسَةُ لَهُ، وَعَرَفَهُ بِسُوءِ الْإِسْتِمَاعِ وَالتَّقْصِيرِ فِي حَقِّ الْمَحْدَثِ.  
وقال: تَشَاطُرُ الْمَحْدَثِ عَلَى قَدْرِ فَهْمِ الْمَسْتَمِعِ.  
وكان عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه! - يقول: حَدِّثِ النَّاسَ مَا حَدَّجُوكَ  
بِأَسْمَاعِهِمْ، وَلِحْظُوكَ بِأَبْصَارِهِمْ، فَإِذَا رَأَيْتَ مِنْهُمْ فَتُوراً فَأَمْسِكْ.  
وقال أبو الفتح البستي: الوافر:

إِذَا أَحْسَسْتَ فِي لَفْظِي  
وَحَفْظِي وَالبَلَاغَةِ وَالبَيَانِ  
فَتُوراً

فلا تَرْتَبْ بِفَهْمِي إِنَّ رَفُصِي  
على مقدار إيقاع الرِّمانِ  
وقال عامر بن عبد قيس: الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت  
من اللسان لم تُجَاوِزِ الأَذَانَ.  
وقال الحسن - وقد سمع متكلماً يَعْطُ فلم تَقَعْ مَوْعِظَتُهُ مِنْ قَلْبِهِ ولم يرق لها -: يا هذا،  
إن بقلبك لَشَرّاً، أو بقلبي! وقال محمد بن صبيح المعروف بابن السماك لجاريتته: -  
كيف ترين ما أعطى الناس به؟ قالت: هو حَسَنٌ، إلا أنك تكررهِ، قال: إنما أكرره ليفهمه  
مَنْ لم يكن قَهْمَهُ، قالت: إلى أن يفهمه البطنيءُ يَنْقُلُ على سَمْعِ الذِّكْرِيِّ.  
وَأَسْتَعِيدُ ابْنَ عَبَّاسٍ حَدِيثاً فَقَالَ: لَوْلَا أَنِّي أَخَافُ أَنْ أُعْصَ مِنْ بَهَائِهِ، وَأَرِيقَ مِنْ مَائِهِ،  
وَأَخْلِقَ مِنْ جِدِّهِ، لِأَعِدَّتِهِ.

وقال أبو تمام الطائي يصف قصائده: الوافر:

مُنْزَهَةٌ عَنِ السَّرْقِ الْمُؤَدِّي  
مَكْرَمَةٌ عَنِ الْمَعْنَى الْمَعَادِ  
أخذه البحرني فقال: مجزوء الكامل:

لَا يُعْمَلُ اللَّفْظُ الْهَيْكُ  
رَرَّ فِيهِ وَالبَلْفَظُ الْمُرْدَدُ  
والإطالة مملولة كما يملُّ التكرير.

وقد قال الحسن بن سهل: الآداب عشرة؛ فثلاثة شهرجانية، وثلاثة  
أَبُوشْرَوَانِيَّة، وثلاثة عَرَبِيَّة، وواحدة أَرَبَتْ عَلَيْهِنَ؛ فأما الشهرجانية ففُضِرْبُ  
العُودِ، ولعب الشطرنج، ولعب الصَّوَالِجِ. وأما الأَبُوشْرَوَانِيَّةُ فالطَبْ،  
والهندسة، والفروسية. وأما العربية فالشَّعْرُ، والنَّسَبُ، وأيام الناس. وأما  
الواحدة التي أَرَبَتْ عَلَيْهِنَّ، فمقطعات الحديث، والسمر، وما يتلقاه الناس  
بينهم في المجالس.

وكان يُقال: حُذِّ مِنَ الْعُلُومِ نَتْفِهَا، وَمِنِ الْآدَابِ طُرْفِهَا.  
وكان يقال: مَقْطَعَاتُ الْآدَابِ، قُرَاضَاتُ الذَّهَبِ.

وَحَصَّرَ بَشَائِرَ بَيْنِ بُرْدٍ مَجْلِساً فَقَالَ: لَا تَجْعَلُوا مَجْلِسَنَا غِنَاءَ كَلِّهِ، وَلَا شَعْرًا  
كَلِّهِ، وَلَا سَمْرًا كَلِّهِ، وَلَكِنْ انْتَهَبُوهُ انْتِهَابًا.  
وقال الحسن رحمه الله: حَادِثُوا هَذِهِ الْقُلُوبَ فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ الدُّبُورِ، وَأَقْدَعُوا  
هَذِهِ الْأَنْفُسَ فَإِنَّهَا طَلْعَةٌ؛ وَإِنِّكُمْ إِلَّا تَزَعُّوْهَا تَنْزَعُ بِكُمْ إِلَى شَرِّ غَايَةٍ.  
وقال أزدشير بن بابك: إِنْ لِلْأَذْهَانِ كَلَالًا، وَلِلْقُلُوبِ مَلَالًا، فَفَرَّقُوا بَيْنَ  
الْحَكْمَتَيْنِ يَكُنْ ذَلِكَ اسْتِجْمَامًا.

ويروى في حكمة آل داود: لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُخْلِي نَفْسَهُ مِنْ أَرْبَعٍ؛ عِدَّةً  
لِمَعَادِهِ، وَصَلَاحٌ لِمَعَاشِهِ، وَفِكْرٌ يَقِفُ بِهِ عَلَى مَا يُضْلِحُّهُ مِنْ فِسَادِهِ، وَلَذَّةٌ  
فِي غَيْرِ مُحْرَمٍ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى الْحَالَاتِ الثَّلَاثِ.  
وما أحسن ما قال أبو الفتح بن كشاجم: الرمل:

عَجَبِي مِمَّنْ تَنَاهَتْ حَالُهُ  
كَيْفَ لَا يُقْسِمُ سَنَطَرِي عَمْرِهِ  
وَكَفَّاهُ اللَّهُ ذِلَّاتِ الطَّلَبِ  
بَيْنَ حَالَيْنِ نَعِيمٍ وَأَدَبِ؟  
سَاعَةٌ يُمْتَعُ فِيهَا نَفْسُهُ  
مِنْ غِذَاءٍ وَشَرَابٍ مُنْتَحَبِ  
وَدُّنُو مِنْ دُمَى هُنَّ لَهُ  
حِينَ يَشْتَاقُ إِلَى اللَّعْبِ لَعَبِ  
فَإِذَا مَا تَالَ مِنْ ذَا حَظِّهِ  
فَحَدِيثٌ وَنَشِيدٌ وَكُنُوبِ

مرة جد، وأخرى راحة  
ففضى الدنيا نهاراً حَقَّها  
فإذا ما غَسَقَ الليل انْتَصَبَ  
وقضى الدنيا متى يَعْمَلُ بها  
دَهْرُهُ يَسْعَدُ وَيَرْشُدُ وَيُصِيبُ  
وقال أبو العباس محمد بن يزيد: قَسَمَ كسرى أيامه فقال: يَصْلِحُ يَوْمُ الرِّيحِ  
للنوم، ويوم العَيْمِ للصيد، ويومُ المَطَرِ للشرب واللَّهو، ويوم الشمس لقضاء  
الحوائج.

قال الحسين ابن خَالَوَيْه: ما كان أعرفهم بسياسة دُنْيَاهُمْ، يعلمون ظاهراً  
من الحياة الدنيا وهُمْ عن الآخرة هم غافلون، ولكن نَبَّيْنَا، صلى الله عليه  
وسلم، قَدْ جَزَأَ نهاره ثلاثة أجزاء: جُزءٌ لله، وجزءٌ لأهله، وجزءٌ لنفسه، ثم  
جُزءٌ جزأه بينه وبين الناس؛ فكان يستعين بالخاصَّة على العامة، وكان يقول:  
أبْلِغُونِي حاجةً من لا يستطيع إبلاغني؛ فإنه من أبلغَ ذا سلطان حاجةً مَنْ لا  
يستطيع إبلاغها أمنهُ اللهُ تعالى يَوْمَ القَرَعِ الأكبر.  
رجع إلى البلاغة

وقال شبيب بن شيبه: إن ابْتُلِيت بمقام لا يد لك فيه من الإطالة فقدم إحكام البلوغ  
في طلب السلامة من الخَطَلِ، قبل التقدُّم من إحكام البلوغ في شَرَفِ النَّجْوِي؛ ثم  
إياك أن تُعَدِلَ بالسلامة شيئاً، فقليلٌ كافٍ حَبِيزٌ لك من كثير غير شافٍ.  
وكان جعفر بن يحيى يقول لكتابه: إن اسْتَطَعْتُمْ أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع  
فافعلوا.

وقال ثمامة بن أشرس: لم أر قط أنطق من جعفر بن يحيى بن خالد، وكان صاحب  
إيجاز.  
وكان أبو وائلة إياس بن معاوية - على تقدمه في البلاغة، وفضل عقله وعلمه - بالإكثار  
مَعِيَا، وإلى التطويل مَنسُوباً، وقال له عبد الله بن شبرمة: أنا وأنت لا تنفق، أنت لا  
تشتهي أن تسكت، وأنا لا أشتهي أن أسمع. وقيل له: ما فيك عيبٌ إلا كثره كلامك.  
قال: أفتسمعون صواباً أم خطأ؟ قالوا: بل صواباً، قال: فالزيادة في الخير خير.  
قال الجاحظ: وليس كما قال، بل للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فصل عن  
مقدار الاحتمال، ودعا إلى الاستثقال والكلال؛ فذلك هو الفِصَالُ والهَدْرُ والخَطَلُ  
والإشهاب الذي سمعُ الخُطباءِ يعيبونه.  
وذكر الأصمعي أن ابن هبيرة لما أراد إياساً على القضاء قال: إني والله لا أصلح له،  
قال: وكيف ذلك؟ قال: لأني دميم حديد، ولأني عيبي، قال ابن هبيرة: أما الجدة فإن  
السُّوطَ يُقَوِّمُك؛ وأما العبيُّ فقد عبَّرت عما تريد؛ وأما الله الدَّمامة فإنني لا أريد أن  
أحاس بك.

ولم يصفه أحد بالعيبي، وإنما كان يُعَابُ بالإكثار، ولكنه أراد المدافعة عن نفسه والحديث  
ذو شجون.

قال أبو العيبي، دُكِرْتُ لبعض القِيانِ فعشقتني على السماع، فلما رأيتني استقبحتني،  
فقلت: الطويل:

وشاطرةٍ لما رأتني تنكَّرتُ  
وقالت: قبيحٌ أخولٌ ما له  
جسمُ  
فإن تُنكري مني احولاً  
أديبٌ أريبٌ لا عيبي ولا قدُمُ  
فإنني

فاتصل بها الشعر، فكتبت إلي: إننا لم نرد أن نُؤَلِّيك ديوانَ الزمام! وكان  
عمرُ بن عبد العزيز رحمه الله تعالى كتب إلى عدي بن أرطاة: إن قبلك  
رَجُلَيْنِ من مزينة - يعني بكر بن عبد الله وإياس بن معاوية - قَوْلُ أَحَدَهُمَا  
قضاءَ البَصْرَةَ؛ فأحضرهما، فقال بكر: والله ما أحسن القضاء؛ فإن كنتُ  
صادقاً فما تجلُّ توليتي، وإن كنتُ كاذباً فذلك أوجبٌ لتركبي، فقال إياس:  
إنكم وَقَفْتُمُوهُ على شفير جهنم، فافتدى منها بيمين يكفرها، ويستغفر الله

تعالى منها، فقال له عدِّي: أما إذ اهتديت لها فأنت أحقُّ بها، فولاه. ودخل إياس الشام وهو غلام صغير، فقدم خصماً له إلى بعض القضاة، وكان الخصم شخياً، فصال عليه إيايُنْ بالكلام، فقال له القاضي: حَقَصْ عليك، فإنه شَيْخٌ كبير، قال: الحقُّ أكبر منه، قال: إسكت! قال: فَمَنْ يَنْطِقُ بحجتي؟ قال: ما أراك تقولُ حقاً، قال: لا إله إلا الله! فدخل القاضي على عبد الملك فأخبره؛ فقال: أفصِّ حاجته الساعة وأخرجه من الشام لا يُفْسِدَ أهلها! وقال أحمد بن الطيب السرخسي تلميذ يعقوب بن إسحاق الكندي: كنت يوماً عند العباس بن خالد، وكان ممن حَبَّ الله إليه أن يتحدث، فأخذ يحدثني، ويتنقل من حديثٍ إلى حديث، وكنا في صَحْنٍ له، فلما بلغتنا الشمس انتقلنا إلى موضعٍ آخر، حتى صار الظلُّ قَيْناً؛ فلما أكثر وأصجر، ومللت حُسنَ الأدب في حُسن الاستماع، وذكرت قول الأوزاعي: إن جِيسَ الاستماع قوة للمحدث، قلت له: إذا كنتُ وأنا أسمع قد عَيَّبتُ ممَّا لا كَلْفَةَ عليّ فيه، فكيف أراك وأنت المتكلم؟ فقال: إنَّ الكلام يحلُّ الفضولَ اللزجة الغليظة التي تعرض في اللهواتِ وأضل اللسان ومنايت الأسنان، فوثبتُ وقلت: لا أراني معك اليوم إلا إِبَارحَ القيقرا، فأنت تتعرَّع بي! فاجتهد في أن أجلس فلم أفعل.

قال أحمد بن الطيب: كنا مرّة عند بعض إخواننا، فتكلّم وأعجبه من نفسه البيان، ومنا حسن الاستماع، حتى أفترط، فعرض لبعض من حضر مَلل، فقال: إذا بارك الله في الشيء لم يفن، وقد جعل الله تعالى في حديث أخينا البركة! ولعبد الله بن سالم الخياط في رجل كثير الكلام: المنسرح: لي صاحبٌ في حديثه البركة يزيدُ عند السكون والحركة لو قال لا في قليلٍ أحرفها لردّها بالحروف مُشْتَبِكة ومن طرائف التطويل ما أنشاه البديع، وسيمر من كلامه ما هو أتق من زهر الربيع.

في الظرف والمُلاح والمزاح

قال الأصمعي: بالعلم وصلنا، وبالملاح نلتا، وقال الأصمعي أيضاً: أنشدت محمد بن عمران قاضي المدينة، وكان أعقل من رأيه: السريع:

يا أيها السائلُ عن مَنْزلي نزلتُ في الخانِ على نفسي

يغدو عليّ الحُبزُ من خابزٍ لا يقبل الرهن ولا ينسي

أكلُ من كَيْسي ومن كسرتي حتى لقد أوجعني صِرسي

فقال: اكتب لي هذه الأبيات، فقلت: أصلحك الله! هذا لا يُشْبِهُ مثلك، وإنما يروي مثل هذا الأحداث؛ فقال: اكتئبها فالأشرافُ تُعْجِبهم المُلح. وقد قال أبو الدرداء رحمه الله تعالى: إني لأستجِمُّ نفسي ببعض الباطل، ليكون أقوى لها على الحق.

وقال ابن مسعود رحمه الله: القلوب تمل كما تمل الأبدان، فاطلبوا لها طرائف الحكمة.

وقال ابن الماجشون: لقد كنا بالمدينة وإن الرجل ليحدثني بالحديث من الفقه فيمليه عليّ، ويذكر الخبر من المُلح فأستعيده فلا يفعل، ويقول: لا أعطيك مُلجِي، وأهيك ظرفي وأدبي.

وقال ابن الماجشون: إني لأسمع بالكلمة المَليحة وما لي إلا قميصٌ واحدة فأدفعه إلى صاحبها، وأستكسي الله عز وجل.

وقال الزبير بن بكار: رُوي الغاصريُّ يُتازع أشعَبَ الطمع عند بعض الوُلاة،

ويقول: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ! إِنَّ هَذَا يَدْخُلُ عَلَيَّ فِي صِنَاعَتِي، وَيَطْلُبُ مِشَارَكَتِي فِي بِيضَاتِي، وَهَيْئَتُهُ هَيْأَةُ قَاضٍ، وَالْأَمِيرُ يَضْحَكُ، وَكَانَا جَمِيعاً فَرَسِي رَهَانٍ وَرَضِيعِي لِيَانٍ فِي بَيَانِهِمَا؛ إِلَّا أَنَّ الْغَاضِرِي كَانَ لَا يَتَخَلَّقُ بِالطَّمَعِ تَخَلَّقَ أَشْعَبُ.

وَأَتَى الْغَاضِرِي يَوْمًا الْحَسَنَ بْنَ زَيْدٍ فَقَالَ: جُعِلَتْ فِدَاكَ! إِنِّي عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قَالَ: بئس ما صنعت! وكيف ذلك. قَالَ: لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَا يُفْلِحُ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ"، وَأَنَا أَطَعْتُ امْرَأَتِي، فَاشْتَرَيْتُ غُلَامًا فَهَرَبَ.

قَالَ الْحَسَنُ: فَاخْتَرْتُ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ: إِنْ شِئْتَ فَتَمَنُّ الْغُلَامِ، قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ! قِفْ عِنْدَ هَذِهِ وَلَا تَتَجَاوَزْهَا! قَالَ: أَعْرِضْ عَلَيْكَ الْخَصْلَتَيْنِ، قَالَ: لَا، حَسْبِي هَذِهِ.

وَقَدْ رُوِيَ نَحْوُ هَذَا عَنْ أَشْعَبٍ، أَنَّهُ قَالَ لَهُ بَعْضُ إِخْوَانِهِ: لَوْ صَرْتَ إِلَيَّ الْعِشْيَةَ تَتَفَرَّجُ؟ قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَجِيءَ ثَقِيلٌ، قُلْتُ: لَيْسَ مَعْنَا ثَالِثٌ، فَمَضَى مَعِي، فَلَمَّا صَلَّيْنَا الظُّهْرَ وَدَعَوْتُ بِالطَّعَامِ، فَإِذَا بَدَاقٌ يَدُقُ الْبَابَ، قَالَ: تَرَى أَنْ قَدْ صِرْنَا إِلَى مَا نَكْرَهُ، قُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ صَدِيقٌ، وَفِيهِ عَشْرُ خِصَالٍ إِنْ كَرِهْتَ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ لَمْ آدَنْ لَكَ، قَالَ: هَاتِي، قُلْتُ: أَوْلَاهَا أَنَّهُ لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ، فَقَالَ: التَّسَعُ لَكَ! قُلْ لَهُ يَدْخُلُ! وَرَأَى سَفِيَانِ الثُّورِيِّ الْغَاضِرِيَّ وَهُوَ يُضْحِكُ النَّاسَ؛ فَقَالَ: يَا شَيْخُ، أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّ لِلَّهِ يَوْمًا يَخْسِرُ فِيهِ الْمُبْطِلُونَ؟ فَوَجَّهَ الْغَاضِرِي، وَمَا زَالَ ذَاكَ يُعْرِفُ فِيهِ حَتَّى لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ.

وَأَشْعَبُ الطَّمِيعُ هُوَ أَشْعَبُ بْنُ جُبَيْرٍ، مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ، وَكَانَ أَحْلَى النَّيَّاسِ، قَالَ الزَّبِيرُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ: كَانَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَقُولُونَ: تَغْيِرُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا مِلْحَ أَشْعَبٍ، وَخُبْزَ أَبِي الْغَيْثِ، وَمِشْيَةَ بَرَّةَ؛ وَكَانَ أَبُو الْغَيْثِ يِعَالِجُ الْخُبْزَ بِالْمَدِينَةِ، وَبَرَّةُ بِنْتُ سَعِيدِ بْنِ الْأَسْوَدِ كَانَتْ مِنْ أَجْمَلِ النِّسَاءِ وَأَحْسَنَهُنَّ مِشْيَةً، وَأَشْعَبُ يَضْرِبُ بِهِ الْمِثْلُ فِي الطَّمِيعِ، وَكَانَ أَشْعَبُ قَدْ نَشَأَ فِي جَبْرِ عَائِشَةَ بِنْتُ عَثْمَانَ - رَحِمَهَا اللَّهُ! - مَعَ أَبِي الزَّنَادِ قَالَ أَشْعَبُ: فَلَمْ يَزَلْ يَعْلُو وَيَنْحَطُّ حَتَّى بَلَغْنَا الْغَايَةَ.

وَقَالَ أَشْعَبُ: أَسْلَمْتَنِي أُمِّي إِلَى بَرَّازٍ، فَسَأَلْتَنِي بَعْدَ سَنَةٍ، أَبِنَ بَلَغْتَ؟ فَقُلْتُ: فِي نِصْفِ الْعَمَلِ، قَالَتْ: وَكَيْفَ؟. قُلْتُ: تَعَلَّمْتُ النَّشْرَ وَبَقِيَ الطَّيِّ، قَالَتْ: أَنْتَ لَا تَفْلِحُ.

وَسَأَلْتُهُ صَدِيقَةً لَهُ خَاتِمًا، فَقَالَتْ: أَذْكَرُكَ بِهِ، قَالَ: أَذْكَرِي أَنْكَ سَأَلْتَنِي وَمَتَعْتُكَ! وَقِيلَ لَهُ: كَمْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ بَدْرٍ؟ قَالَ: ثَلَاثُمِائَةَ عَشْرٍ دَرَاهِمًا! ثُمَّ تَنَسَّكَ فِي آخِرِ عَمْرِهِ، وَعَرَّأَ وَمَاتَ عَلَى حَيْرٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى! وَقِيلَ لِأَشْعَبٍ: أَرَأَيْتَ أَطْمَعُ مِنْكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَلْبَةُ آلِ قَلَانَ، رَأَتْ رَجُلَيْنِ يَمْضُغَانِ عِلْكَآ، فَتَبَعَتْهُمَا فَرَسَخِينَ تَطْرُقُ أَنْهُمَا يَأْكُلَانِ شَيْئًا.

وَأَهْدَى رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ إِلَى إِسْمَاعِيلِ الْأَعْرَجِ قَالِوْدَجَةَ وَأَشْعَبُ حَاضِرٌ، فَقَالَ: كُلُّ يَا أَشْعَبُ، فَأَكَلُ مِنْهَا؛ فَقَالَ: كَيْفَ تَرَاهَا. فَقَالَ: عَلَيْهِ الطَّلَاقُ إِنْ لَمْ تَكُنْ عُمِلَتْ قَبْلَ أَنْ يُوجِيَ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَيُّ: لَيْسَ فِيهَا حَلَاوَةٌ.

وَرَوَى أَبُو هَفَانَ قَالَ: دَخَلَ أَبُو نُوَّاسٍ الْحَسَنُ بْنُ هَانِيٍّ عَلَى يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ فَقَالَ: أَنْشَدَنِي بَعْضَ مَا قُلْتَ، فَأَنْشَدَنِي: الْكَامِلُ

ويزيد في علمي حكاية مَنْ  
حَكَى  
كما أحدث مَنْ أحب  
فبصَحَا

إني أنا الرجلُ الحكيمُ  
بطبعه  
أتبعُ الطرفاء أكتبُ عنهم

فقال له يحيى بن خالد: إن أولَ رَندك ليُوري بأولِ قَدْحَةٍ، فقال ارتجالاً في معنى قول يحيى: الكامل

إنه رَندٌ إذا استَوْرَيْتَ سهْلَ  
قَدْحَا  
قد صاعَ جَدِّكَ للسماح  
ومَنَحَا

أما ورَندُ أبي علي  
إن الإلهَ ليعلمه بعباده  
تأبى الصنائع همّتي  
وقربحتي

من أهلها وتغافُ إلا مَدَحَا

ووصف أبو عبد الله الجمار أبا نواس فقال: كان أطرفَ النَّاسِ منطِقاً، وأعزَّهم أدباً، وأقدَّهم على الكلام، وأسَرَّهم جواباً، وأكثرهم حياءً، وكان أبيضَ اللون، جميلَ الوَجْهِ، مليحَ النعمة والإشارة، ملتفَّ الأَعْضاء، بين الطويلِ والقصير، مَسْتُونِ الوَجْهِ، قائمِ الأنفِ، حسنِ العينينِ والمَصْحَكِ، حُلُوِ الصورة، لطيفَ الكَفِّ والأطرافِ؛ وكان فصيحَ اللسانِ، جيِّدَ البيانِ، عَذْبَ الألفاظِ، حُلُوَ الشمائلِ، كثيرَ النوادرِ، وأعلَمَ الناسِ كيف تكلمت العربُ، زاويةً للأشعارِ، علامة بالأخبارِ، كان كلامه شعراً موزوناً. وأقبل أبو شراعة العبسي، والجمازُ في حديثه، وكان أقبح الناسِ وجهاً، وكانت يدُ أبي شراعة كأنها كربة تَحُلُّ؛ فقال الجماز: فلو كانت أطرافه على أبي شراعة لتمَّ حُسْنُهُ؛ فعَضِبَ أبو شراعة وانصرفَ يَسْتُمُّه. والجماز هو: أبو عبد الله محمد بن عمرو بن حماد بن عطاء بن ياسر، وكانوا يزعمون أنهم من حمير، نالهمُ سبَاءٌ في خِلافةِ أبي بكر، رضي الله عنه، وهم مَوَالِيه، وسَلِمَ الخاسر عمُّه، وكان الجماز من أحلى الناسِ حكاية، وأكثرهم نادرة.

قال بعض جلساء المتوكل: كُنَّا نَكْثِرُ عند المتوكل ذِكْرَ الجماز حتى اشتاقه، فكتَبَ في حَمَلِهِ إليه، فلما دخل أفجِم، فقال له المتوكل: تكلمْ فأبى أريدُ أن أهنِّئَكَ، فقال: بِحَيْضَةٍ أو بِحَيْضَتَيْنِ يا أميرَ المؤمنين؟ فقال له الفتح: قد كَلِمْتُ أميرَ المؤمنين يُولِيكَ على القروء والكلاب! قال: أفلسْتَ سامِعاً مطيعاً؟ فضحك المتوكل وأمر له بعَشْرَةِ آلاف درهم. وكان لا يُدْخِلُ بيته أكثر من ثلاثة لضيقة؛ فدعا ثلاثة، فجاءه سيِّءٌ، وقرَّعوا الباب، ووقفوا على رجل رجلٍ قَعَدَ أرجلهم من خَلْفِ الباب، فلما حصلوا عنده، قال: اخرجوا عني، وإنما دعوتُ ناساً ولم أدعُ كَرَائِي.

وقال الطائي في عمرو بن طوق التغلبي: الكامل

الجِدُّ شيمته، وفيه فكاهة  
شرس، ويتبع ذاك لين  
سجَّ ولا جدُّ لمن لم يلعب  
لا خيرَ في الصَّهْبَاءِ ما لم  
تقطبِ  
حَلِيقة

وقال في الحسن بن وهب: الكامل:

لله أيامٌ خطبنا ليَّها  
بمدامةٍ نَعْمُ السماعِ  
في ظلِّه بالخندريس  
السلسلِ  
لا خيرَ في المعلول غيرِ

معلل

بازٍ، ويغفل وهو غير مُغفل

حَسِنُ الوَقَارِ كَأَنَّهُ فِي

مَحْفَلٍ

يُنْصَى وَيُهْزَلُ عَيْشُ مَنْ لَمْ

يُهْزَلِ

تُوْمٌ فَيَكْرُ فِي النَّطَامِ وَتَيْبٌ

وَابْنُ المَقْفَعِ فِي الِيتِيمَةِ

يُسْهَبُ

وَكَثِيرَ عَزَّةٍ يَوْمَ بَيْنِ يَنْسِبُ

طَوْرًا فَيُبْكِي سَامِعِيهِ

وَيُطْرَبُ

بِرَاحٍ، وَعَلَّلَهُ بِشَيْءٍ مِّنَ

الْمَرْحِ

بِمَقْدَارٍ مَا تُعْطِي الطَّعَامَ مِنْ

الْمَلْحِ

وما زال الأشراف يمرحون ويسمحون بما لا يفدح في أديانهم، ولا يغص في مژوءاتهم.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "بعثت بالحنيفية السمحة".

وقال: "إني لأمرح ولا أقول إلا حقاً".

وقيل لسعيد بن المسيب: إن قوماً من أهل العراق لا يروون إنشاد الشعر، فقال: لقد

تسكوا تسكاً أعجباً.

وقيل لابن سيرين: إن قوماً يزعمون أن إنشاد الشعر ينقض الوضوء، فأنشد: الطويل

لقد أصبحت عرس الفرزدق

ولو رضيت رشح أسننه

لاستقرت

وقام يصلي! وقيل: بل أنشد: البسيط

أبينت أن عجوزاً جنث

أخطبها

عرقوبها مثل شهر الصوم في

الطول

ما قيل في النسب والغزل

وقيل لأبي السائب المخزومي: أترى أحداً لا ينشهي النسب؟. فقال: أما من يؤمن

بالله واليوم الآخر فلا.

وروى مصعب بن عبد الله الزبيري عن عروة بن عبيد الله بن عروة الزبيري قال: كان

عروة بن أدينة نازلاً في دار أبي بالعقيق، فسمعته ينشد لنفسه: الكامل

خلفت هواك كما خلقت هوى

لها

إن التي زعمت فؤادك

ملها

فيك الذي زعمت بها،

وكلاكمَا

أبدي لصاحبه الصبابة كلها

يوماً وقد صحيت إدن

لأطلها

ولعمرها لو كان حبك

قوقها

سفع الضمير إلى الفؤاد

فسلها

فإذا وجدت لها وسأوس

سلوة

بيضاء بآكرها التَّعِيمُ فصاعها      يلباقية فأدقَّها وأجلها

لَمَّا عَرَضْتُ مُسَلِّمًا، لِي      أَحْسَى صُغُوبَتِهَا، وَأَرْجُو دُلَّهَا  
حاجة

مَتَعْتُ تَحِيَّتَهَا فَقُلْتُ      ما كان أكثرها لنا وأقلها  
لصاحبي:

فَدَنَا وَقَالَ: لَعَلَّهَا مَعْدُورَةٌ      فِي بَعْضِ رِقَبَتِهَا، فَقُلْتُ:  
لَعَلَّهَا

قال: فأتاني أبو السائب المخزومي فقلتُ له بَعْدَ التَّرحيب به: أَلَك حاجة؟ فقال: نعم، أبيتُ لَعُورَةَ بلغني أنك سمعته يُنشدُها، فأنشدته الأبيات، فلمَّا بلغت قوله:

فَدَنَا وَقَالَ لَعَلَّهَا مَعْدُورَةٌ.. البيت

طرب، وقال: هذا والله الدائمُ الصَّابِة، الصادق العَهْدُ لا الذي يقول: الكامل:

إِنْ كَانَ أَهْلُكَ يَمْنَعُونَكَ رَغَبَةً      عَنِي فَأَهْلِي بِي أَصَنُّ وَأَرْعَبُ

لقد عدا هذا الأعرابي طُورَه، وإني لأرجو أن يغفر الله لصاحب هذه الأبيات لحُسن الظنِّ بها، وطلب العُدْر لها، قال: فعرضت عليه الطعام فقال: لا والله ما كنت لأُخلط بهذه الأبيات طعاماً حتى الليل، وانصرف.

وكان أبو السائب عَزِيْرَ الأدب، كثير الطرب، وله فكاهاتٌ مذكورة، وأخبار مشهورة، وكان جدُّه بكنى أبا السائب أيضاً، وكان خليطاً لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، فكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم، إذا ذكره قال: نَعَمَ الخليط! كان أبو السائب لا يشاري ولا يماري.

واسمُ أبي السائب عبدُ الله، وكان أشرف أهل المدينة يستظرفونه ويقدمونه لشرف منصبه، وحلاوة ظرفه.

وكان عروة بن أذينة - على زُهدِه، ووَرَعِه، وكثيرة علمه وفهمه - رقيق الغزل كثيره، وهو القائل: البسيط:

إِذَا وَجَدْتُ أَوَارَ الحُبِّ فِي      أَقْبَلْتُ نَحْوَ سِيقَاءِ القوم

كَيْدِي

هَبْنِي بَرْدُتُ بِبَرْدِ المَاءِ      قَمْنُ لِنَارٍ عَلَى الأَحْشَاءِ

ظَاهِرُهُ      تَتَقَدُّ؟

وقد زوي هذان البيتان لغيره.

ومرَّت به سكينَةُ بنتُ الحسين بن عليِّ بن أبي طالب - رضي الله عنهم! - فقالت له: أنت الذي تزعم أنك غيرُ عاشق، وأنت تقول: البسيط:

قَالَتُ وَأَبْتَنُهَا سِرِّي قَبْحَتْ      قَدْ كُنْتُ عِنْدِي تُحِبُّ السُّنَّ

بِهِ      فَايَسْتَبِرُّ

أَلَسْتَ تُبْصِرُ مَنْ حَوْلِي؟      عَطِي هَوَاكِ وَمَا أَلْقَى عَلَى

فَقُلْتُ لَهَا      بَصْرِي

والله ما خرج هذا من قلب سليم.

وروى الزبير عن رجل لم يسمه، قال: قال لي أبو السائب: أنشدني للأخوص فأشددته: الكامل:

قَالَتُ وَقُلْتُ: تَحْرَجِي وَصَلِيحَبَلْ

أَمْرِي بَوْصَالِكُمْ صَب :

الغدُرُ شَيْءٌ لَيْسَ مِنْ

صَرْبِي

صَاحِبِ إِدْنٍ بَعْلِي؟ فَقُلْتُ لَهَا:

شَيْئَانِ لَا أَذُو لَوْصَلِيهِمَا      عَزَسَ الخليل وَجَارُهُ

أَمَّا الْخَلِيلُ فَلَسْتُ  
فَاجِعُهُ  
وَالجَارُ أوصاني به رَبِّي  
بعضَ الحديثِ مَطِيكُم  
صَحِيحِي  
تُذِيبُ، بِكَ أَنْتِ بَدَأْتَ  
بِالدُّنْبِ؟  
مِنَا يَدَارِ السَّهْلِ  
وَالرُّحْبِ  
وَتَهْجُرِي تَكَدِرُ مَعِيشَتُنَا  
وَتُصَدِّعِي مُتَلَائِمَ  
السَّعْبِ

فقال: هذا والله المحب حقاً، لا الذي يَقُول: الوافر:

وَكُنْتَ إِذَا حَبِيبُ رَامَ هَجْرِي  
وَجَدْتَ وَرَائِي مُنْفَسِحاً عَرِيضاً  
ثم قال: اذهب، فلا صحبك الله، ولا وسع عليك! وخرج أبو حازم يوماً يرمي الجمار،  
فإذا هو بامرأة حاسر قد فتنت الناس بخسین وجهها، وألتهتهم بجمالها، فقال لها: يا هذه،  
إنك بمشعر حرام، وقد فتنت الناس وشغلتهن عن مناسكهم، فاتقي الله واستتري؛ فإن  
الله، عز وجل، يقول في كتابه العزيز: "وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ"؛ فقالت: إني  
من اللاتي قبل فيهن: الطويل:

أَمَاطَتْ كِسَاءَ الْحَرِّ عَن حُرِّ  
وَجْهَهَا  
مِنَ اللَّاءِ لَمْ يَحْجَجْنَ يَبْغِينِ  
جِسْبَةً  
وَأَرْحَتْ عَلَى الْمَتِينِ بُرْداً  
مَهْلَهلاً  
وَلَكِن لَيَقْتُلَنَّ الْبَرِيءَ  
الْمُعَقِّلاً

الشعر للحارث بن خالد المخزومي، فقال أبو حازم لأصحابه: تعالوا تدع  
الله لهذه الصورة الحسنة ألا يعذبها الله تعالى بالنار! فجعل أبو حازم يدعُو  
وأصحابه يؤمُّون، فبلغ ذلك الشعبي، فقال: ما أرقكم يا أهل الحجاز  
وأظرفكم! أما والله لو كان من قُرى العراق لقال اعزبي عليك لعنة الله!  
وكان أبو حازم من فضلاء التابعين، وله مقامات جميلة من الملوك، وكلام  
محفوظ يدل على فضله وعقله، وهو القائل: كل عمل تكره من أجله  
الموت فاتركه، ولا يضرك متى مت. وكان يقول: ما أحببت أن يكون معك  
غداً فقدمه اليوم. وكان يقول: إنما بيني وبين الملوك يوم واحد، أما أمس  
فلا يجدون لذته، وأنا وإياهم من غدٍ على وجل؛ وإنما هو اليوم، فما عسى  
أن يكون اليوم.  
وقال أبو العتاهية: البسيط:

حَتَّى مَتَى نَحْنُ فِي الْأَيَّامِ  
تَحْسَبُهَا  
وَأِنَّمَا نَحْنُ فِيهَا بَيْنَ يَوْمَيْنِ  
يَوْمٌ تَوَلَّى، وَيَوْمٌ نَحْنُ نَأْمُلُهُ  
رَوَى الزبير بن أبي بكر قال: قدمت امرأة من هُدَيْلِ المَدِينَةِ، وكانت جميلة، ومعها ابن  
لها صغير، وهي أيم، فخطبها الناس وأكثروا، فقال فيها عبيد الله بن عبد الله بن عُنْبَةَ  
بن مسعود: الطويل:

قَرِيبٌ وَلَا فِي الْعَالَمِينَ بَعِيدُ  
لَجُدَّتْ وَلَمْ يَصْعُبْ عَلَيْكَ  
شَدِيدُ  
أَحَبُّكَ حَبًّا لَا يَحِبُّكَ مِثْلَهُ  
أَحَبُّكَ حَبًّا لَوْ عَلِمْتَ بِبَعْضِهِ

شهيدي أبو بكر فَدَاكَ شهيدُ  
وعُرْوَةُ ما أَلْقَى بكم وسعيدُ  
وخرجةُ يُبْدي لنا ويُعيدُ  
فَلَحِبُّ عِنْدِي طَارِفٌ وتليدُ

وَحُبُّكَ يا أُمَّ العلاءِ مُتِيَمِي  
ويعلمُ وَجَدِي القاسمُ بن  
محمدٍ  
ويعلمُ ما أُخْفِي سليمانُ كلُّهُ  
متى تسألني عما أقولُ  
فتخبرني

فقال له سعيد بن المسيب: قد أَمِنَ أن تسألنا، ولو سألتنا ما شهدنا لك بزور. وكان عبيد الله أحدَ الفقهاء السبعة الذين انتهى إليهم علمُ المدينة، وقد ذكرهم عبيد الله في هذه الأبيات؛ وهم: أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ابن المغيرة المخزومي. والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وعروة بن الزبير ابن العوام، وسعيد بن المسيب بن حزن، وسليمان بن يسار، وخرجة بن زيد ابن ثابت الأنصاري. وقيل لعبيد الله: أتقول الشعر على شرفك؟ فقال: لا بُدَّ للمصدر أن يتفث؛ وعبيد الله هو القائل: الوافر:

هَوَاكَ قَلِيمَ والتأمَ الفُطُورُ  
فَبَادِيهِ مع الخافي يَسِيرُ  
ولا حُرُنٌ ولم يبلغُ سرورُ  
فَدَبَ دَبِيبَ الحَمْرِ في كلِّ  
مَفْصِلِ

سَقَقَتِ القلبَ ثم دَرَرَتْ فيه  
تَعَلَّلَ حُبُّ عَنَمَةٍ في فُؤَادِي  
تَعَلَّلَ حيث لم يبلغُ شرابُ  
أخذه سَلَمُ بن عمرو الخاسر فقال: الطويل:  
سقتني بعينها الهوى  
وسقيتها  
وقال أبو نُؤاس: الوافر:

لترداد اسمها فيها ألامُ  
مَدَاخِلَ لا تَعَلَّلَهَا المُدَامُ

أحب اللومَ فيها ليس إلا  
ويَدْخُلُ حُبها في كلِّ قلبِ  
ومنه قول المتنبي: الطويل:  
وللسرِّ مَنِّي موضعٌ لا يتألهُ  
وقال بعض المحدثين: الكامل:

تَدِيمٌ، ولا يُفْضِي إليه شَرَابُ

حتى حلت بحيث حل  
شرابي

ما زلت تغويني وتطلبُ حُلَّتِي

ما هكذا الأحبُّ للأحبابِ

ثم انصرفت بغير جِزْمٍ كان  
لي

أخذ أبو نُؤاس، قوله: أحب اللوم فيها... البيت من قول أبي محمد ابن أبي أمية: الطويل:

رسولُ أمينٍ، والنساءُ  
شهودُ

وحدَّثني عن مَجْلِسِ كُنْتُ  
زَيْتُهُ

وَذَكَرَكَ من بَيْنِ الحديثِ  
أريدُ

فقلت له رُذِّ الحديثِ الذي  
مضى

كأني بطيء الفهم عنه بَعِيدُ

أناشُدُهُ بِاللَّهِ إِلاَّ أَعَدَّتُهُ

وقول أبي نواس في البيت الأول كقوله: الوافر:

فممزوجاً بَسْمِيَةِ الحبيبِ  
عليك، إذا فعلت، من الذنوبِ

إذا عَادَيْتَنِي بِصَبُوحِ لَوْمِ  
فإني لا أَعِدُّ اللَوْمَ فيها

وإن صَنَّتْ بمبحوس النصبِ  
بغير تكلفٍ ثَمَرَ القلوبِ

ولا أنا إن عَمَدْتُ أرى جَنَانَا  
مقنعة بَنُوبِ الحُسْنِ تَرَعَى

وفي جنان هذه يقول أبو نواس: البسيط:

يا ذا الذي عن جنانٍ ظلَّ  
يُخَيِّرُنَا  
قالوا اشتككتك وقالت ما ابتليتُ  
به  
أراه من حيث ما أقبلتُ في  
أثري  
ويرفع الطرفَ نحوي إن مررتُ  
به  
حتى ليُخجلني من شدّة  
النظر  
في الموضوع الخلو لم ينطق من  
الحصر  
وإن وقفتُ له كيما يُكلمني

ما زال يفعلُ بي هذا ويُدمنه  
وفي جنان أيضاً يقول أبو نواس، وكان بها صبا، ولها محبباً الوافر:  
جنانُ تسبني ذُكرتُ بخير  
وأن مودّتي كذب ومين  
وليس كذا، ولا ردّ عليها،  
ولي قلبٌ يُتازعني إليها  
رأتُ كلّفي بها وقديمَ وجدي  
وكانت جنان مولاة لبعض الثقفين.

وفي معنى قول ابن أبي أمية يقول العباسُ بن الأحنف: الطويل:

وحدّثتني يا سعدُ عنها  
فزدتني  
جنونا فزدني من حديثك يا  
سعدُ

وأهل المدينة أكثر الناس ظرفاً، وأكثرهم طيباً، وأحلامهم مزاجاً، وأشدّهم اهتزازاً  
للسماع، وحسن أدب عند الاستماع. وقال عبد الله بن جعفر: إن لي عند السماع هزة  
لو سُئلت عندها لأعطيتُ، ولو قاتلت لأبليت.

وروى أبو العيّن قال: قال الأصمعي: مررت بدار الزبير بالبصرة، فإذا شيخٌ قديمٌ من  
أهل المدينة من ولد الزبير يكنى أبا ربحانة جالس بالباب عليه شملةٌ تسُرّه، فسلمتُ  
عليه، وجلستُ إليه؛ فبينما أنا كذلك إذ طلعتُ علينا سويداء تحمل قربة، فلما نظر إليها  
لم يتمالك أن قام إليها، فقال لها: بالله عني صوتاً. فقالت: إن موالِيَ أعجلوني، فقال:  
لا بدّ من ذلك، قالت: أما والقربة على كتفي فلا، قال: فأنا أحملها، فأخذ القربة منها،  
فاندفعت تُعني: الطويل:

فؤادي أسيرٌ لا يُفكُّ،  
ومُهجتني  
ولي مُقلّةٌ قرّحت لطول  
اشتياقها  
فديتك، أعدائي كثيرٌ،  
وشقتني

فطرب وصرخ صرّخةً، وضرب بالقربة إلى الأرض فشققها؛ فقامت الجارية تبكي،  
وقالت: ما هذا بجزائي منك! أشعفتك بحاجتك فعرضتني لما أكره من موالِيَ. قال: لا  
تغتمني فإن المصيبة عليّ حصلت، ونزع الشملة ووضع يداً من خلف ويدا مر فُدام، وباع  
الشملة وابتاع لها قربةً جديدة، وقعد بتلك الحال؛ فاجتاز به رجلٌ من ولد عليّ بن أبي  
طالب - رضي الله تعالى عنه! - فعرف حاله، فقال: يا أبا ربحانة، أحسبك من الذين  
قال الله تعالى فيهم: "فَمَا رِيحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ". قال: لا يا ابنَ رسولِ  
الله، ولكني من الذين قال الله تعالى فيهم: "فَبَسَّرَ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ  
فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ"، فضحك، وأمر له بألف درهم.  
ومر بالأوقص المخزومي، وهو قاضي المدينة، سكرانٌ وهو يتعنى لليل، فأشرف عليه،

وقال: يا هذا، شربت حراماً، وأيقطتُ نياماً، وغنيت خطأ، خُذْه عني، وأصلح له الغناء. وسمع سعيد بن المسيب منشداً ينشد: الطويل:

فلم تر عيني مثل سربٍ رأيتُه  
مَرَزْنَ بَقَحٍّ ثم رُحْنَ عَشِيَّةً  
ولما رأْتُ رَكْبَ النَمِيرِي  
أَعْرَضْتُ  
دعت نسوة شَمَّ العرانيين  
بُرْلاً  
فأبرزن لما قمن يحجن  
دونها  
تَصَوَّعَ طيباً بَطْنُ نَعْمَانَ إِذْ  
مَشَّتْ  
يُحْبِنُ أَطْرَافَ البَنَانِ مِنْ  
التَّقَى  
فقال سعيد: هذا والله مما يلدُّ استماعه، ثم قال: الطويل:  
وليست كأخرى وسَعَتْ جَيْبَ  
درعها  
وغالَتْ بَيَانَ المسكِ وَحَفَاً  
مُرْجَلاً  
وقامت تَرَاعَى بَيْنَ جَمْعٍ  
فَأَفْتَنَتْ  
وَيَخْرُجُنْ شَطْرَ اللّيلِ  
مُعْتَجِرَاتِ  
أبَدتْ بَنَانَ الكَفِّ  
للجَمَرَاتِ  
على مِثْلِ بَدْرِ لَاحٍ فِي  
الظَلَمَاتِ  
برؤيتها مَنْ رَاحَ مِنْ  
عَرَفَاتِ

قال: فكانوا يرون أن الشعر الثاني له، والأولى لمحمد بن عبد الله بن نمير الثقفي يقوله في زينب بنت يوسف أخت الحجاج؛ وطلبه الحجاج حتى ظفر به فقال: أنت القائل ما قلت؟ قال: وهل قلت أصح الله الأمير إلا

يُحْبِنُ أَطْرَافَ البَنَانِ مِنْ  
التَّقَى  
قال له: كم كنتم إذ تقول:

ولما رأْتُ رَكْبَ النَمِيرِي أَعْرَضْتُ

قال: والله ما كنت إلا أنا وصاحب لي على حمارٍ هزيل! فضحك وعفا عنه. وهو القائل: الوافر:

أَهَاجِنُكَ الطَّعَائِنُ يَوْمَ بَإِثْوَا  
طَعَائِنُ أَسْلَكَتْ فِي بَطْنِ قَوِّ  
كَأَنَّ عَلِيَّ الهَوَاجِ يَوْمَ بَانُوا  
يَهِيْجُكَ الحَمَامُ إِذَا تَغْنَى  
بني الرِّيّ الجميل من الأثاث  
تَحْتِ إِذَا رَنَتْ أَيِ احْتِثَاتِ  
نِعَاجاً تَرْتَعِي بَقْلَ البِرَاثِ  
كما سجع التَّوَادِبِ بالمِراثِ

وقال ابن المعتز: وَعَدُّ الدُّنْيَا إِلَى خَلْفِي، وَبِقَاؤِهَا إِلَى تَلْفِي، وَوَعْدُ عَطَائِهَا المَنْعِ، وَبَعْدُ أَمَانِهَا الفَجْعِ، طَوَاحِ طَرَّاحَةٍ، أَسِيَّةٌ جَرَّاحَةٍ، كَمِ رَاقِدٍ فِي طَلْهَاهَا قَدْ أَيْقَطْتَهُ، وَوَأَفْقُ بِهَا قَدْ خَاتَمَتْهُ، حَتَّى يَلْفَطُ نَفْسَهُ، وَبُودَعُ دُنْيَاهُ، وَبِسُكْنِ رَمْسَتِهِ، وَبِنَقْطِ عَنِ أَمَلِهِ، وَبُشْرَفِ عَمَلِهِ، وَقَدْ رَجَحَ المَوْتُ بِحَيَاتِهِ، وَنَقَضَ قُوَى حَرَكَاتِهِ، وَطَمَسَ البَلَى جَمَالَ بَهْجَتِهِ، وَقَطَعَ نِظَامَ صُورَتِهِ، وَصَارَ كَحَطِّ مَنْ رَمَادٍ تَحْتَ صَفَائِحِ أُنْضَادٍ؛ وَقَدْ أَسْلَمَهُ الأَحْبَابُ، وَافْتَرَشَ الثَّرَابُ، فِي بَيْتِ نَجْرَتِهِ المَعَاوِلُ، وَفُرْسَتُهُ فِيهِ الجَنَادِلُ، مَا زَالَ مُضْطَرَباً فِي أَمَلِهِ، حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَجَلِهِ، وَمَحَتِ الأَيَّامُ ذِكْرَهُ، وَاعْتَادَتِ الأَلْحَاطُ قَفْدَهُ. وكتب وهو معتقل إلى أستاذه أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب يتشوقه: الرجز:

بماء مَزْنٍ باردٍ مُصَفَّقٍ  
جادت به أخلافٌ دَجَنٍ مطيِّقٍ  
مَادَ عليها كالزَّجاجِ الأزرقِ  
إِلَّا كَوَجْدِي بكِ، لكن أُنْقِي  
وصَيْرَفِيًّا ناقداً للمنطِقِ  
إِنَّا على البعادِ والتفرُّقِ

ما وَجَدُ صَادٍ بالحبالِ مُوتَقٍ  
بالرَّيحِ لم يَكْدُرْ ولم يُرْتَقِ  
بصخرةٍ إن تَرَ شَمْساً تبرق  
صَرِيحٌ عَيْثُ خالصٍ لم يُمدَّقِ  
يا فاتحاً لكل بابٍ مُغْلَقِ  
إِنْ قَالَ هذا بَهْرَجَ لم ينفقِ  
لنلتقي بالذِّكرِ إن لم تَلْتَقِ

فأجابه: أخذت، أطلال الله بقاءك، أود هذه الأبيات مما أملئته عليك من قول جميل:  
الطويل:

على الماء، يخشين العصي  
خواني  
ولا هنَّ من بردِ الحياضِ  
دَوَانِي  
فهنَّ لأصواتِ السَّقَاةِ  
رَوَانِي  
إليكِ، ولكنَّ العدوَّ عراني  
أخوكِ والرَّاعي إذا  
استرَّ عَيْتِي

وما صَادِيَاثٌ حُمَنَ يوماً  
وليلةً  
كواعبُ لم يَصْدُرْنَ عنه  
لِوَجْهَةٍ  
يَرَيْنَ حَبَابَ الماءِ والموِثِ  
دونهُ  
بأكثرَ مني عُلَّةً وَصِباةً  
وأخذت آخرها من قول رُوَبَةَ بن العجاج: الرجز:  
إني وإن لم تَرَنِي فإِنِّي  
أراك بالوُدِ وإن لَمْ تَرَنِي

قال: فاستخفني في ذلك ونسب إليّ سوء الأدب. وكان أبو العباس عبدُ الله بنُ المعتز في المنصب العالي من الشعر والنثر، وفي النهاية في إشراف ديباجة البيان، والغاية من رقة حاشية اللسان. وكان كما قال ابن المرزبان: إذا انصرف من بديع الشعر إلى رقيق النثر أتى بحلال السحر، وليس بعد ذي الرمة أكثرُ افتناناً وأكبرُ تصرُّفاً وإحساناً في التشبيه منه. وإنما فرقتُ جملة ما اخترتُ من شعره ونثره في جملة هذا الكتاب؛ لئلا أخرج عما تقدم به الشرط في البسط، وأتي ههنا ببعض ما اختاره له، قال: الوافر:

وضوءُ الصبحِ متهمُ الطلوعِ  
على أكتافهم صدأُ الدُّروعِ  
حتى تَبَلَّى مِثْلَ وَقْفِ العجاجِ  
عُزَيانِ يَمْشِي في الدُّجَا  
بِسِرَاجِ

وَفَيْتَانِ سَرَوْا والليلُ داجٍ  
كأنَّ بُزَاتَهُمْ أمراءُ جيشٍ  
وقال أيضاً: الكامل:  
في ليلةٍ أكلَ المحاقُّ هلالَها  
والصبحُ يَتَلَوُ المشتري فكأتهُ  
وقال أيضاً يصف فرساً: الكامل:

عَقَدَتْ سَنَابِكُهُ عَجَاةً  
قَسَطَلِ  
لولا الفتاة مساوِكاً من  
إِسْجَلِ  
متبخترِ يَمْشِي بكمُّ مُسَبَلِ

ولقد عَدَوْتُ على طِمِرِ سابِحِ  
مثلثم لُجَمَ الحديدِ يُلُوْكُها  
ومحجل غير اليمين كَأتهُ  
وقال: مجزوء الرمل أو الرجز:

قد أُعْتِدِي بِقَارِحٍ  
 يَنْفِي الْحَصَى بِحَافِرٍ  
 قد ضحكت عُزْنُهُ  
 وقال أيضاً: الكامل:

ولقد وطئتُ الغيْتِ  
 يحملني  
 خَمَاعِ أَطْرَافِ الصَّوَارِ فَمَا  
 الِ  
 يمشي فيعرض في العنان  
 كما  
 فكأنه مَوْجٌ يذوبُ إذا  
 وقال أيضاً يصف سيفاً: الطويل:

ولي صارمٌ فيه المنايا كَوَامِنِ  
 ترى قَوْقُ مَنِيهِ الْفَرِيدُ كَأَنَّهُ  
 وقال يصف ناراً: الطويل:

مُشْهَرَةٌ لَا يَحْجُبُ النَّخْلُ  
 ضَوْءَهَا  
 يفرج أغصان الوقود  
 اضطرامها  
 وقال بعض أهل العصر، وهو السَّرِيّ الموصليّ: المنسرح:

يَوْمِ رِذَاذِ مُمَسِّكَ الْحُجْبِ  
 ومجلسٍ أُسْبِلتِ سِتَائِرُهُ  
 وقد جرت خيلٌ راحنا حَبَاباً  
 والتهبت نازتاً فمَنْظَرُهَا  
 إذا اِرْتَمَتْ بِالشَّرَارِ  
 فاطردت  
 رأيتُ ياقوتةً مشبِكةً  
 فانهض إلى المجلس الذي  
 ابتسمت

وقال بعض أهل العصر، وهو أبو الفرج البغيا: الخفيف:

فَحَمَاءٌ قَدَّمَ الْغَلَامُ فَأَهْدِي  
 كَانَ كَالْأَبْنُوسِ عَيْرٍ مَحَلِي  
 لقي النار في ثيابٍ حِدَادٍ  
 وقال أبو الفضل الميكالي: المتقارب:

كَأَنَّ الشَّرَارَ عَلَى نَارِنَا  
 سُحَالَةٌ تَبْرُ إِذَا مَا عَلَا  
 وقال ابن المعتز يصف سحابة: الوافر:

وموقرة بثقل الماء جاءت  
 فباتت ليلها سحاً ووبلاً

مُسَوِّمٌ يَعْجُوبِ  
 كالقَدْحِ الْمَكْبُوبِ  
 في موضع التقطيبِ

طَرَفٌ كُلُّوْنَ الصَّبْحِ حِينَ  
 وَفْدُ  
 أخرى عليه إذا جرى بأشدِّ  
 صدف المعشَقِ ذُو الدَّلَالِ  
 وصدُّ  
 أَطْلَقْتُهُ إِذَا حَبَسْتَ جَمْدُ  
 فما يُتَنَصَّى إِلَّا لِسْفِكِ دِمَاءِ  
 بَقِيَّةُ عَيْمٍ رَقَ دُونَ سَمَاءِ

كَأَنَّ سَيُوفاً بَيْنَ عِيدَانِهَا  
 تُجَلِي  
 كما شَقَّتِ الشَّقْرَاءُ عَنْ مَثْنِهَا  
 جُلَا

على شَمُوسِ الْبِهَاءِ  
 وَالْحَسْبِ  
 فِي حَلِيهَا أَوْ هَمَمِنَ بِالْخَبَبِ  
 يُعْنِيكَ عَنْ كُلِّ مَنْظَرٍ عَجَبِ  
 على دَرَاها مَطَارِدُ اللَّهَبِ  
 تطيرُ عنها قَرَاصِنُ الذَّهَبِ  
 فِيهِ رِيَاضُ الْجَمَالِ وَالْأَدَبِ

فِي كَوَانِينِهِ حَيَاةَ التُّفُوسِ  
 فَعْدَا وَهُوَ مُدْهَبُ الْآبِنُوسِ  
 فَكَسَّتُهُ مُصَبَّغَاتِ عَرُوسِ

وَقَدْ رَاقَ مَنْظَرُهَا كُلَّ عَيْنِ  
 فِيمَا هَوَى فُقَاتِ اللَّجِينِ

تَهَادِي فَوْقَ أَعْنَاقِ الرِّبَاحِ  
 وَهَطَلًا مِثْلَ أَفْوَاهِ الْجِرَاحِ

خِلَالَ نَجُومِهَا عِنْدَ الصَّبَاحِ  
تَفْتَحُ بَيْنَهُ تَوْرُ الْأَقَاحِ

كَأَنَّ سَمَاءَهَا لَمَّا تَجَلَّتْ  
رِيَاضٌ بَتَفْسِجٍ خَصِلُ ثَرَاهُ  
وقال: البسيط:

بِصَارِمِ ذِكْرِ صَمْصَامَةٍ حَزِمِ  
بِشُّهْبَةٍ كَاخْتِلَاطِ الصَّبْحِ  
بِالظَلَمِ

وَلُجَّةٍ لِلْمَنَايَا حُضْتُ عَمَرَتِهَا  
وَقَارِحِ صَبَعِ الْخِيْلَانِ دُهْمَتُهُ  
وقال: الطويل:

بِأَزْرَقِ لَمَاعٍ وَأَبْيَضِ صَارِمِ  
تَصَافِحِ رَضَارِضِ الْحَصَى  
بِمَنَاسِمِ

وَلَيْلِ كُكْخَلِ الْعَيْنِ حُضْتُ  
ظِلَامَهُ  
وَمَضْبُورَةِ الْأَعْضَادِ حَرْفِ  
كَانِهَا  
وقال يصف حيّة: البسيط:

لَوْ قَدَّهَا السِّيفُ لَمْ يَلْقُ بِهِ  
بَلَلُ  
كَانِهَا كُمْ دِرْعٍ قَدَّهُ بَطَلُ

تَعَتْ رِقْطَاءَ لَا تَحْيَا لَدَيْعَتُهَا  
تَلْقَى إِذَا انْسَلَخَتْ فِي الْأَرْضِ  
جَلَدَتِهَا  
وقال أيضاً: الطويل:

يُقَلُّ شَبَابًا حَظِّي، وَقَلْبًا  
مَشِيْعًا

وَأَسَارَ مِنِّي الدَّهْرُ عَضْبًا  
مُهَنَّدًا

سِرَائِرِ عَيْبِ الدَّهْرِ مِنْ حَيْثُ مَا  
سَعَى

وَرَأَى كَمْرَاءَ الصَّنَاعِ أَرَى بِهِ

أخذه من قول المنصور لابنه المهدي: لا تُبْرِمَنَّ أَمْرًا حَتَّى تَفَكَّرَ فِيهِ؛ فَإِنَّ فِكْرَهُ الْعَاقِلُ  
مَرَاتِهِ، تَرْبِهِ قَبِيحُهُ وَحَسَنُهُ.

وَلَمَّا دُفِنَ الْمَنْصُورُ وَقَفَ الرَّبِيعُ عَلَى قَبْرِهِ فَقَالَ: رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَغَفَرَ  
لَكَ! فَقَدْ كَانَ لَكَ حِمَى مِنَ الْعَقْلِ لَا يَطِيرُ بِهِ الْجَهْلُ، وَكُنْتَ تَرَى بَاطِنَ الْأَمْرِ بِمَرَأَةٍ مِنَ  
الرَّأْيِ، كَمَا تَرَى ظَاهِرَهُ. ثُمَّ التَفَتَ إِلَى يَحْيَى بْنِ مُحَمَّدِ أَخِي الْمَنْصُورِ فَقَالَ: هَذَا كَمَا  
قَالَ أَبُو دَهَبٍ الْجَمْحِيُّ: الْكَامِلُ:

عُقْمَ النِّسَاءِ فَمَا يَلِدَنَّ شَبِيهَهُ

إِنَّ النِّسَاءَ بِمِثْلِهِ عُقْمُ

وبعد:

سِيَانٍ مِنْهُ الْوَفْرُ وَالْعَدْمُ  
صَمْنًا، وَلَيْسَ بِجِسْمِهِ سُقْمُ

مَتَهَلَّلُ بِنَعْمٍ، يَلَا مِتْبَاعِدُ  
نَزْرُ الْكَلَامِ مِنَ الْحَيَاءِ تَخَالُهُ

أَخَذَ الْبَيْتَ الْأَخِيرَ مِنْ قَوْلِ لَيْلَى الْأَخِيلِيَّةِ: الْكَامِلُ:

إِنَّ ظَالِمًا يَوْمًا وَإِنْ مَظْلُومًا

لَا تَقْرَبَنَّ الدَّهْرَ آلَ مُطَرِّفٍ

وَأَسْنَةُ زَرْقٍ يُخْلَنَ نُجُومًا

قَوْمِ رِبَاطِ الْخَيْلِ حَوْلَ

بِيوتِهِمْ

وَسَطِ الْبِيوتِ مِنَ الْحَيَاءِ  
سَقِيمًا

وَمَمْرَقَ عَنْهُ الْقَمِيصِ تَخَالَهُ

يَوْمَ الْهِيَاجِ عَلَى الْخَمِيصِ  
زَعِيمًا

حَتَّى إِذَا رُفِعَ اللَّوَاءُ رَأَيْتُهُ

وقال: البسيط:

وَطُولِ أَنْصِبَةِ الْأَعْتَاقِ

يُشْتَهُونَ مَلُوكًا فِي تَجَلَّتِهِمْ

وَاللَّمَمِ  
 رَاخُوا كَانَهُمْ مَرَضِي مِنْ  
 الْكِرْمِ  
 وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْحَاتِمِيُّ: وَمَا أَحْسَنَ أَيْبَاتَهَا أَنْشَدَهَا أَبُو عَمْرٍو الْمَطْرُزِيُّ غَلَامٌ ثَعْلَبِيٌّ يَعْتَرِضُ  
 فِي أَثْنَائِهَا هَذَا الْمَعْنَى: الطَّوِيلُ:  
 تَخَالَهُمْ لِلْحَلْمِ صُمَّاً عَنِ  
 الْخَنَاءِ  
 وَمَرَضَى إِذَا لَاقُوا حَيَاءً وَعِقَّةً  
 لَهُمْ عَزٌّ إِنْصَافٍ وَذَلٌّ تَوَاضِعٍ  
 كَأَنَّهُمْ وَصَمَاءٌ يَخَافُونَ  
 عَارَهُ  
 وَأَنْشَدَ: الطَّوِيلُ:  
 أَحْلَامٌ عَادٍ لَا يَخَافُ جَلِيسَهُمْ وَإِنْ  
 تَطَّقَ الْعُورَاءُ عَيْبَ لِسَانِ  
 إِذَا حُدِّثُوا لَمْ يُحْشَسْ سَوْءُ اسْتِمَاعِهِمْ  
 وَقَالَ ابْنُ الْمَعْتَزِ: الطَّوِيلُ:  
 وَعَاقِدِ زُنَارٍ عَلَى عُصْنِ  
 الْأَسَى  
 سِقَانِي عُقَاراً صَبَّ فِيهَا  
 مَزَاجُهَا  
 وَقَالَ: الْكَامِلُ:  
 يَا لَيْلَةَ تَسِيَّ الزَّمَانُ بِهَا  
 فَاحِ الْمَسَاءِ بِيَدْرِهَا، وَوَسَّتْ  
 ثُمَّ انْقَضَتْ وَالْقَلْبُ يَتَّبِعُهَا  
 وَقَالَ: الْكَامِلُ:  
 يَا رَبِّ إِخْوَانٍ صَحْبَتَهُمْ  
 لَوْ تَسْتَطِيعُ قُلُوبُهُمْ تَفَرَّتْ  
 هَذَا كَقَوْلِ ابْنِ الرَّومِيِّ: الطَّوِيلُ:  
 أَعَانِقُهُ وَالنَّفْسُ بَعْدُ مَشْوَقَةٌ  
 وَأَلْتَمَّ فَاهُ كِي تَزُولَ حَرَارَتِي  
 وَلَمْ يَكْ مِقْدَارُ الَّذِي بِي مِنْ  
 الْهَوَى  
 كَانَ فَوَادِي لَيْسَ يَشْفِي  
 غَلِيلَهُ  
 وَمِنْ مَثْبُورِهِ: لَا يَزَالُ الْإِخْوَانُ يُسَافِرُونَ فِي الْمَوَدَّةِ، حَتَّى يَبْلُغُوا الشُّقَّةَ، فَإِذَا  
 بَلَّغُوا أَلْقَوْا عَصَا التَّسْيَارِ، وَأَطْمَأَنَّنَتْ بِهِمَا الدَّارُ، وَأَقْبَلَتْ وَفُودُ النَّصَائِحِ،  
 وَأَمَنْتْ حَبَايَا الضَّمَائِرِ، فَحَلُّوا عُقْدَ التَّحْفِظِ، وَنَزَعُوا مَلَابِسَ التَّحَلُّقِ.

وله: سار فلان في جيوش عليهم أريدية السيوف، وأقمصة الحديد، وكان رماحهم قرون الوغول، وكان دروعهم ربد السيول، على خيل تأكل الأرض بحوافرها، وتمد بالتقع سراقها، قد نُشرت في جوهها عُرر كأنها صحائف الرق، وأمسكها تحجیل كأنه أسورة اللجين، وفرطت عذراً كأنها الشنف، تتلقف الأعداء أوائله ولم تنهض أواخره، قد صب عليهم وقار الصبر، وهبت معهم ریح التصير.

وله في عليل: أذن الله في شفائك، وتلقي داءك بدوائك، ومسح بيد العافية عليك، ووجه وفد السلامة إليك، وجعل علتك ماحية لذنوبك، مضاعفة لثوابك.

وكتب إلى عبيد الله بن سليمان بن وهب في يوم عيد: أحررتني العلة عن الوزير أعزه الله، فحضرت بالدعاء في كتاب لينوب عني، ويعمر ما أخلته العوائق مني، وأنا أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد السالفة بركة على الوزير، ودون الأعياد المستقبلية فيما يحب ويحب له، ويقبل ما توصل به إلى مراضاته، وبضاعف الإحسان إليه، على الإحسان منه، وبمنعه بصحة النعمة ولباس العافية، ولا يربه في مسرة نقصاً، ولا يقطع عنه مزيداً، ويجعلني من كل سوء فداء، ويصرف عيوني الغير عنه، وعن حظي منه. وله إلى بعض الرؤساء: لا تشن حنين الظفر بفتح الانتقام، وتجاوز عن كل مذنب لم يسلك من الإعداء طريقاً حتى اتخذ من رجاء عقوق رقيقاً. وله اعتذار إلى القاسم بن عبيد الله: ترفع عن ظلمي إن كنت بريئاً، وتفضل بالعفو إن كنت مسيئاً، فوالله إني لأطلب عفو ذنب لم أجنه، وألتمس الإقالة مما لا أعرفه؛ لتزداد تطوُّلاً، وازداد تدللاً؛ وأنا أعيدُ حالي عندك بكرمك من واش يكيدها، وأخرسها بوفائك من باغ يحاول إفسادها، وأسأل الله تعالى أن يجعل حظي منك، بقدر ودي لك، ومحلي من رجائك، بحيث أستحق منك. وله إليه: لو كان في الصممت موضع يسع حالي لخففت عن سمع الوزير وتطره، ولم أشغل وجهها من فكره، وما زالت الشكوى، تُغرب عن لسان البلوى، ومن اختلت حالته، كان في الصممت هلكته، وقد كان الصبر ينصرتني على ستر أمري حتى خذلي.

وهذا كقول أحمد بن إسماعيل: فصاحة الشكوى، على قدر البلوى، إلا أن يكون بالشاكي انقباض، وبالمشكوى إليه إعراض.

في باب الوصف

وقد أحسن أبو العباس بن المعتز في صفة الماء في أرجوزته التي أنشدتها آنفاً، وقد قال في قصيدة له وذكر إيلاً الخفيف:

ير ماء صافي الجمام عري  
فتبدي لهن بالتجف الممد  
يمتنى على حصي يسلب  
الما

وإذا داخلته درة شمس

وقال: الكامل:

لا مثل منزلة الدويرة منزل  
يا دار، جادك وائل وسفاك  
بؤساً لدهر غيرتك صروفه  
لم يمح من قلبي الهوى  
ومحاك

لم يخل للعينين بعدك  
دَم المنازل كلهن سواك  
منظر

أي المعاهد منك أُنْدُبُ      مُمَسَاكٍ بِالْأَصَالِ أَمْ  
طَيِّبُهُ      مَعْدَاكِ

أَمْ بَرْدِ ظِلِّكَ ذِي الْغُصُونِ وَذِي      أَمْ أَرْضِكَ الْمِيثَاءِ أَمْ رَبِّكَ  
الْجَنِيِّ

وَكَأَنَّمَا سَطَعَتْ مَجَامِرُ عُنْبِرٍ      أَوْ قُتَّتْ فَأُرَّ الْمَسْكَ فَوْقَ  
تَرَاكِ

وَكَأَنَّمَا حَصَبَاءُ أَرْضِكَ جَوْهَرُ      وَكَأَنَّ مَاءَ الْوَرْدِ دَمْعُ تَدَاكِ  
وَكَأَنَّمَا أَيْدِي الرَّبِيعِ صُحْيَةٌ      نَشَّرَتْ ثِيَابَ الْوَشْيِ فَوْقَ  
رُبَاكِ

وَكَأَنَّ دِرْعًا مُفْرَعًا مِنْ فِضَّةٍ      مَاءُ الْغَدِيرِ جَرَتْ عَلَيْهِ صَبَاكِ  
وَعَشَقْتَ عَاتِكَةَ الْمَرِيَةَ ابْنَ عَمِّ لَهَا      فَرَاوَدَهَا عَنْ نَفْسِهَا فَقَالَتْ: الطَّوِيلُ:

فَمَا طَعَمَ مَاءً أَيْ مَاءً تَقُولُهُ      تَحَدَّرَ عَنْ غُرِّ طَوَالِ  
بِمَنْعَرَجٍ مِنْ بَطْنِ وَادٍ      الذَّوَائِبِ

تَقَابَلْتُ      عَلَيْهِ رِيحُ الصَّيْفِ مِنْ كُلِّ  
تَقَاتُ جَزِيَّةُ الْمَاءِ الْقَدَى عَنْ      جَانِبِ

مُتُونِهِ      فَمَا إِنْ بِهِ عَيْبٌ تَرَاهُ  
بِأَطْيَبِ مِمَّنْ يَقْصِرُ الطَّرْفَ      لِسَّارِبِ

دُونَهُ      تُقَى اللَّهُ وَاسْتَحْيَاءُ بَعْضِ  
العَوَاقِبِ

وَأُنْشِدُ الْأَصْمَعِي قَالَ: أَنْشَدَنِي أَبُو عَمْرٍو      بِنِ الْعَلَاءِ لَجَابِرِ بْنِ الْأَرْقِ، وَقَالَ: هُوَ أَحْسَنُ مَا  
قِيلَ فِي مَعْنَاهُ: الطَّوِيلُ:

أَيَا وَيْحَ نَفْسِي كُلَّمَا التَّحْتُ      عَلَى سَرَبَةٍ مِنْ مَاءِ أَحْوَاضِ  
لَوْحَةٍ      مَارِبِ

بِقَايَا نِطَافٍ أُوْدَعِ الْغَيْمِ      مَصْقَلَةَ الْأَرْجَاءِ زُرْقِ  
صَفْوَاهَا      الْمَشَارِبِ

تَرَفَّرِقَ دَمْعُ الْمُزْنِ فِيهِنَّ      عَلَيْهِنَ أَنْقَاسُ الرِّيَاحِ  
وَالْتَوَتْ      الْغَرَائِبِ

وَأُنْشِدُ إِسْحَاقَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ لِلأَبِيْرِدِ الْيَرْبُوعِيِّ، وَرَوَيْتُ لِمُضَرِّسِ بْنِ رَبِيعِ الْأَسَدِيِّ:      الطَّوِيلُ:

فَأَلْقَتْ عَصَا التَّسْيَارِ عَنْهَا،      بِأَرْجَاءِ عَدَبِ الْمَاءِ زُرْقِ  
وَحَيَّمَتْ      مَخَافِرَهُ

أَزَالَ الْقَدَى عَنْ مَائِهِ وَافِدُ      يَرُوحُ عَلَيْهِ نَاسِمًا وَيُبَاكِرُهُ  
الصَّبَا

وَأُولَ مِنْ أَتَى بِهَذَا زَهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَى فِي قَوْلِهِ: الطَّوِيلُ:

فَلَمَّا وَرَدَنَّ الْمَاءَ زُرْقًا      وَصَعْنَ عِصِي الْحَاضِرِ  
جَمَامُهُ      الْمَتَّحِيمِ

وَقَالَ ابْنُ الرَّومِيِّ: الطَّوِيلُ:

وَمَاءٌ جَلَّتْ عَنْ حُرِّ صَفْحَتِهِ      مِنَ الرِّيْحِ مِعْطَازُ الْأَصَائِلِ  
الْقَدَى      وَالْبُكْرُ

بِهِ عَبَقَ مِمَّا تَسْحَبَ فَوْقَهُ      نَسِيمُ الصَّبَا يَجْرِي عَلَى النُّورِ  
وَالرَّهْرُ

وصف الدور والقصور

ويتعلق بهذا الباب قولُ البحترى يصف بركة الجعفري وهو قصر ابتناه المتوكل في سر من رأى: البسيط:

يا من رأى البركة الحسنات  
وروتها  
ما بال دجلة كالغيري  
ثنافسها  
إذا عليها الصبا أبدت لها  
حُبكا  
فحاجبُ الشمس أحيانا  
يُعازلها  
إذا النجوم تراءت في  
جوانبها

كأنما الفضة البيضاء سائلة  
تنصبُّ فيها وفودُ الماء  
مُجَلَّة  
كان جن سليمان الذين  
ولوا  
فلو تمزُّ بها يلقيسُ عن  
عُرُض  
لا يبلغُ السمكُ المقصورُ  
غايتها  
يَعْمَنَ فيها بأوساطِ  
مُجَنِّحةٍ

ولم يُنفق أحدٌ من خلفاء بني العباس في البناء ما أنفقهُ المتوكل؛ وذلك أنه أنفق في أبنيته ثلاثمائة ألف ألف، وفي أبنيته يقول علي بن الجهم: المتقارب:

وما زلتُ أسمعُ أن الملو  
وأعلمُ أن عقولَ الرجا  
صُحونُ تسافر فيها العيون  
وقبَّة ملك كأن النجو  
إذا أوقدت تارها بالعراق  
لها سُرفات كأن الربيع  
فهنَّ كمصطحباتٍ حَرَجَنَ  
نظمن القسيي كنظم الحلى  
فمن بين عاقصةٍ شَعَرها

وللبحترى فيها شعر كثير منه: الوافر:

أرى المتوكليَّة قد تعالت  
فُصورُ الكواكب لامعات  
وروضٌ مثلُ بُردِ الوشي فيه  
غرائبُ من فنون النور فيها

مصانعها وأكملت التماما  
يكدنُ يضيئُ للساوي الظلاما  
جنِّي الحوذان يُنشرُ  
والخُرَامِي  
جنِّي الزهر الفردى والتواما

عليه الغيم ينسجم  
انسجاماً  
يريقه لكنت لها عماما  
ليتيم إلا للخليفة جعفر  
في خير مبدى للأنام  
ومحصر  
وترابها مسك يشاب بعنبر  
ومضيئة والليل ليس  
بمفمر  
ظل الغمام الصيب  
المستعبر

تصاحبها الضحى طورا  
وطورا  
ولو لم يستهل لها عمام  
وقال أيضا: الكامل:  
قد تم حسن الجعفري ولم  
يكن  
ملك تبوا حير دار أنشئت  
أفي رأس مشرفة حصاها  
لؤلؤ  
محصرة والغيث ليس  
بساكب  
رفعت بمخرق الرياح،  
وجاورت

وبعده:

أعلام رصوى أو شواهد  
صير  
ينظر منه إلى بياض  
المشتري  
شرفاته قطع السحاب  
الممطر  
من لجة فرشت وروض  
أحصر  
أعطافه في سائح متفجر  
أخذ أبو بكر الصنوبري قول البحري في صفة البركة فقال يصف موضعاً: المتقارب:  
بطيء الرقوء إذا ما سبك  
وساحته بينهن البرك  
دروعا مضاعفة أو شبك  
وماء اللجين بها فد سبك  
مكان الطيور يطير السمك  
فمفترق النظم أو مشتبك  
ودبح وجه السماء الحبك  
وتفش عصائبها والتكك

ورفعت بنيانا كأن زهاءه  
عال على لخط العيون  
كانما  
ملأت جوائبه الفضاء،  
وعانقت

وتسيل دجلة تحته ففناؤه

شجر تلاءبه الرياح فتنثني  
أخذ أبو بكر الصنوبري قول البحري في صفة البركة فقال يصف موضعاً: المتقارب:  
سقى حلباً سافك دمه  
مياديه بسطهن الرياض  
تري الريح تنسج من مائه  
كان الزجاج عليها أذيب  
هي الجؤ من رقة غير أن  
وقد نظم الزهر نظم النجوم  
كما دج الماء مر الصبا  
يهاين أعلام قمص القيان

وأخذ قوله:

إذا النجوم تراءت في جوانبها

فقال: الطويل:

بدجله في تشربن في الطول  
والعرض  
وبعض نجوم الليل يقفو سنا  
بعض  
يرى باطن الأفلاك من ظاهر

ولما تعالى البدر وامتد  
ضوؤه  
وقد قابل الماء المفصض  
نوره  
توهم ذو العين البصيرة أنه

الأرض  
ولأهل العصر في هذا النجوم كلام كثير: قال الأمير أبو الفضل الميكالي، يصف بركة  
وقع عليها شعاع الشمس فألقته على مَهو مطلق عليها يقول: البسيط:  
أما ترى البركة الغراء قد  
لَيْسَتْ  
والمَهو من فوقها يُلهيك  
منظره  
والماء من تحته ألقى الشعاع  
على  
كأنه السيفُ مصقولاً  
تُقلبه

وقال علي بن محمد الإباضي يمدح المعز ووصف دار البحر بالمنصورة: الطويل:

ولما استطال المجدُ  
واستولت الثُّني  
بني قبةً للملك في وَسْطِ  
جَنَّةِ  
بمعشوقة الساعات، أما  
عِراضها  
تحف بقَصْرِ ذي قُصُورٍ  
كأنما  
له بركةٌ للماءِ مِلءَ قَصَائِهِ  
لها جَدُولٌ يَنْصَبُ فيها كأنه  
لها مَجْلِسٌ قد قام في وَسْطِ  
مَائِهَا  
كأنَّ صَفَاءَ الماءِ فيها  
وَحُسْنُهُ  
إذا بث فيها الليلُ أشْخاصَ  
تَجْمِهُ  
وإن صافحَتْها الشمسُ لاحتْ  
كأنها  
كأن شُرَافَاتِ المَقَاصِرِ  
حولها  
يذوب الجفاءُ الجَعْدُ عن وَجْهِ  
مَائِهَا

وقال عبد الكريم بن إبراهيم: البسيط:

يا رَبِّ فتيانِ صِدْقِ رُحْتِ  
بينهم  
مَرَضَى أصائلها حَسْرَى  
شمائِها  
والشمس كالذئف المعشوق  
في الأفق  
تروح العُصن الممطُور في  
الورق

معاطياً شمسَ إبريق إذا  
مُزجت  
عن ماجل طافحٍ بالماء  
مُعْتَلِجٍ  
تصممه الريح أحياناً، وتفرفقه  
من أخضر ناضر والطلل  
يلحقه  
تهزه الريح أحياناً فيمنحها  
كأن حافاته تُطقن من ربد  
كأن قبتة من سُندسٍ نمط  
إذا تبلج فجراً فوق زرقته  
أو لازورداً جرى في مئنه  
دَّهَبٍ  
عشيّة كملت حسناً  
وساعدها  
تجلى بغيره وضاح الجبين له  
حُلُقٍ

ألفاظ لأهل العصر في وصف الماء

وما يتصل به

ماء كالزجاج الأزرق، غدير كعين الشمس، موارد كالمبارد، وماء كلسان  
الشمعة، في صفاء الدمعة، يسبح في الرضراض، سبخ النضاض، ماء أزرق  
كعين السنور، صاف كقضيب البلور، ماء إذا مسنه يد النسيم حكى سلاسل  
الفضة، ماء إذا صافحته راحة الريح، لبس الذرع كالمسيح، كأن العدير بتراب  
الماء رداء مُصنَدل، بركة كأنها مرآة السماء، بركة مفرزة بالخضرة، كأنها  
مرآة مجلوة، على ديباجة خضراء، بركة ماء كأنها مرآة الصنّاع، غدير  
ترقرقت فيه دموع السحاب، وتواترت عليه أنفاس الرياح الغرائب ماء زرق  
جمامه، طامية أرجاؤه، يئوخ بأسراره صفاؤه، وتلوح في قراره حصباؤه، ماء  
كأنما يفقده من يشهده، يتسلسل كالزرافين، ويرضع أولاد الرياحين، انحل  
عقد السماء، وهى عقد الأتواء، انحل سلك القطر عن درّ البحر، أسعد  
السحاب جفون العنّاق، وأكف الأجواد، وانحل حيط السماء، وانقطع  
شربان العمام، سحابة يتجلى عليها ماء البحر، وتفص علينا عقود الدر،  
سحاب حكى المحب في انسكاب دموعه، والتهاب النار بين صلوعه، سحابة  
تحدو من الغيوم جمالاً، وتمد من الأمطار جبالاً، سحابة ترسل الأمطار  
أمواجاً، والأمواج أفواجاً، تحللت عقد السماء بالديمة الهطلاء، غيث أجش  
يروى الهصاب والآكام، ويحيى النبات والسّوام، غيث كغزارة فضلك،  
وسلاسة طبعك، وسلامة عقدك، وصفاء وذك، وبُل كالنبل، سحابة يضحك

من بُكائها الرّوض، وتخصّر من سوادها الأرض، سحابة لا تجف جفونها ولا يخف أنبها، ديمة روت أديم الثرى، ونهت عيون النور من الكرى، سحابة ركبت أغتاق الرياح، وسخت كأفواه الجراح، مطر كأفواه القرب، ووجل إلى الركب، أندية من الله معها على البيوت بالنبوت، وعلى السقوف بالوقوف، أقبل السيل يتحدّر انحداراً، ويحمل أحجاراً وأشجاراً، كان به جنة، أو في أحشائه أجنة.

وبعض ما مرّ من هذه الألفاظ محلول نظام ما تقدّم إنشاده.

ولهم في مقدمات المطر

لبست السماء جلابها، وسحبت السحائب أذيالها، قد احتجبت الشمس في سرادق الغيم، وليس الجو مطرفه الأدكن، باحت الريح بأسرار التدي، وضربت خيمة الغمام، ورش جيش النسيم، وابتل جناح الهواء، واغرورقت مقلّة السماء، وبشّر النسيم بالندی، واستعدت الأرض للقطر، هبت شمائل الجنائب، لتأليف شمل السحائب. تألفت أشتات الغيوم، وأسبلت السطور على النجوم.

وفي الرعد والبرق

قام خطيب الرعد، ونبض عرق البرق، سحابة إرتجرت رواعدها، وأذهبت بروقها مطاردها، نطق لسان الرعد، وخفق قلب البرق، فالرعد ذو صخب، والبرق ذو لهب، ابتسم البرق عن قهقهة الرعد، زارت أسد الرعد، ولمعت سيوف البرق، رعدت سيوف الغمام، وبرقت، وانحلت عزالي السماء فطبقت، هدّرت رواعدها، وقربت أبعادها، وصدقت مواعدها، كأن البرق قلب مَشُوق، بين التهاب وحُفُوق.

ويتصل بهذه الأنحاء

ما حكاه عمر بن علي المطوعي قال: رأى الأمير السيد أبو الفضل عبيد الله بن أحمد - أدام الله عزّه! - أيام مُقامه بجوین أن يطالع قرية من قرى ضياعه تدعى نجاب على سبيل التنزه والتفرّج، فكنت في جملة من استصحبه إليها من أصحابه، واتفق أنا وصلنا والسماء مُضحية، والجو صاف لم يطرز ثوبه بعلم الغمام، والأفق قيرورج لم يعبق به كافور السحاب؛ فوقع الاختيار على ظل شجرة باسقة الفروع، متسقة الأورق والغصون، قد سترت ما حوالئها من الأرض طولاً وعرضاً، فنزلنا تحتها مستظليين بسماوة أفتانها، مستترين من وهج الشمس بستارة أعصانها، وأخذنا تتجاذب أذيال المذاكرة، وتتسالب أهداب المناشدة والمحاورة؛ فما شعرنا بالسماة إلا وقد أزعجت وأبرقت، وأظلمت بعد ما أشرقت، ثم جادت بمطر كأفواه القرب فأجادت، وحكت أنامل الأجواد ومدامع العشاق، بل أوقت عليها وزادت، حتى كاد غيثها يعود غيثاً، وهمم ويلها أن يستحيل ويلاً، فصبرنا على أذاها، وقلنا: سحابة صيف عما قليل تقشع، فإذا نحن بها قد أمطرتنا برداً كالثغور، لكنها من ثغور العذاب، لا من الثغور العذاب، فأيقنا بالبلأ، وسلمنا لأسباب القضاء؛ فما مرت إلا ساعة من النهار، حتى سمعنا حبر الأنهار، ورأينا السيل قد بلغ الرّبي، والماء قد عمّر القيعان والرّبي؛ فبادرنا إلى حصن القرية لائذين من السيل بأفنيتهما، وعائذين من القطر بأبنيتهما، وأثوابنا قد صندل كافوربها ماء الوبل، وغلف طرازبها طين الوحل، ونحن نحمد الله تعالى على سلامة الأبدان، وإن فقدنا بياض الأكمام والأردان، ونشكره على سلامة الأنفس والأرواح، شكر التاجر على بقاء

رأس المال إذا فجع بالأرياح؛ فبيننا تلك الليلة في سماء تكف ولا تكف،  
وتبكي علينا إلى الصباح بأدمع هوام، وأربعة سجام؛ فلما سل سيف الصبح  
من غمد الظلام، وضرِف يوالي الصحو غامل الغمام، رأينا صواب الرأي أن  
نوسيع الإقامة بها رقصاً، ومنتخذ الارتحال عنها قرضاً؛ فما زلنا نطوي  
الصحارى أرضاً فأرضاً، إلى أن وافينا المستقر ركضاً؛ فلما تفصتاً غبار ذلك  
المسير، الذي جمعنا في رنقة الأسير، وأفضيتنا إلى ساحة التيسير، بعد ما  
أصبتنا بالأمر العسير، وتذاكرنا ما لقينا من التعب والمشقة، في قطع ذلك  
الطريق وطى تلك الشقة، أخذ الأمير السيد - أطال الله بقاءه! - القلم  
فعلق هذه الأبيات ارتجالاً: المتقارب

دهنتنا السماء غداة السحاب  
فجاء برعد له رنة  
وثنى بؤبل عدا طوره  
وأشرف أصحابنا من أداه  
فمن لا يذيق فناء الجدار  
ومن مستجير يتادي: الغريق  
وجادت علينا سماء السقوف  
كان حراماً لها أن ترى  
وأقبل سيل له روعة  
يقلع ما شاء من دوحة  
كان بأحشائه إذ بدا  
فمن عامر ردة غامراً  
كفانا بليته ربنا  
فقل للسماء ارعدي وابزقي  
أخذ المطوعي قوله: فلما سل سيف الصبح  
البستي: الرمل:

رُب ليل أغمد الأنوار إلا  
قد نعمنا بدياحيه إلى أن  
نور تغر أو مدام أو ندام  
سل سيف الصبح من غمد  
الظلام

وقال بعض أهل العصر، وهو أبو العباس الناشئ الطويل:  
خليلي، هل للمزن مقله  
عاشق  
أشارت إلى أرض العراق  
فأصبحت  
سحاب حكك تكلى أصبحت  
بواحد  
تسربل وشياً من حزون  
تطرزت  
فوشي بلا رقم، ورقم بلا يد  
وقال آخر: المتقارب:  
أرقت لبرق شديد الوميض  
ترامى غواربه بالشهب

سُطُورٌ كُتِبْنَ بِمَاءِ الذَّهَبِ	كَأَنَّ تَأْلُقَهُ فِي السَّمَاءِ
خَلِيعٌ مِنَ الْفَيْثَانِ يَسْحَبُ	وَقَالَ ابْنُ الْمَعْتَزِ: الطَّوِيلُ:
مُنْتَزِرًا	كَأَنَّ الرَّبَابَ الْجَوْنَ دُونَ
تَلَفَّتْ وَاسْتَلَّ الْحُسَامُ	سَحَابِهِ
الْمُذَكَّرَا	إِذَا لَحِقَتْهُ خَيْفَةٌ مِنْ رَعُودِهِ
نَعَامٌ تَعَلَّقَ بِالْأَرْجُلِ	وَقَدْ قَالَ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ: الْمُتَقَارِبُ:
مَوْصِلَةٌ بِالْأَرْضِ مُرْخَاةُ	كَأَنَّ الرَّبَابَ دُوَيْنَ السَّحَابِ
الطَّنْبُ	وَقَالَ ابْنُ الْمَعْتَزِ: الرَّجَزُ:
كَمِثْلِ طَرْفِ الْعَيْنِ أَوْ قَلْبِ	بَاكِيَةٌ يَضْحَكُ فِيهَا بَرْقُهَا
يَجِبُ	رَأَيْتَ فِيهَا بَرْقَهَا مِنْذُ بَدَا
مِنْهَا لِيَ الْبَرْقُ كَأَمْثَالِ	جَرَتْ بِهَا رِيحُ الصَّبَا حَتَّى بَدَا
الشَّهْبِ	تَحْسِبُهُ طَوْرًا إِذَا مَا
أَحْشَاؤُهَا عَنْهُ شَجَاعًا	انْصَدَعَتْ
يَضْطَرِبُ	وَتَارَةً تَحْسِبُهُ كَأَنَّهُ
أَبْلَقُ مَالٍ جُلَّهُ حِينَ وَتَبُ	وَتَارَةً تَحْسِبُهُ كَأَنَّهُ
سِلَاسِلٌ مَفْصُولَةٌ مِنْ	
الذَّهَبِ	وَقَالَ الطَّائِي: الرَّجَزُ:
صَارَ عَلَى رِغْمِ الدُّجَى نَهَارًا	يَا سَهْمٌ لِلْبَرْقِ الَّذِي اسْتَطَارَا
	أَضُّ لَنَا مَاءٌ وَكَانَ نَارًا
	وَيَنْشُدُ أَصْحَابُ الْمَعَانِي: الْبَسِيطُ:
وَالنَّارُ تَلْفُحُ عِيدَانًا فَتَحْتَرِقُ	نَارٌ تَجَدَّدُ لِلْعَيْنَيْنِ نَضْرُئُهَا
وَيَذْهَبُ فِي الْمَطَرِ: الْخَفِيفُ:	وَقَالَ ابْنُ الْمَعْتَزِ يَمْدَحُ الشَّرْبَ فِي الصَّخْوِ،
عَيْرٌ وَالشَّرْبُ تَحْتَهَا فِي	أَنَا لَا أَشْتَهِي سَمَاءً كِبَطْنِ الْ
خِرَابِ	بَيْنَ سَفْفٍ قَدْ صَارَ مُنْخَلِ
وَجِدَارٍ مَلَقَى وَتَلَّ ثُرَابِ	مَاءِ
نَ وَإِيقَاعُهُ بَعَيْرِ صَوَابِ	وَبِيوتِ يُوَقِّعُ الْوَكُفَّ فِيهِ
هِ سَمَاءً مَصْقُولَةَ الْجِلْبَابِ	إِنَّمَا أَشْتَهِي الصَّبُوحَ عَلَى وَجْهِ
فَوْقَ رَوْضِ بَدِيدِ الشَّبَابِ	وَتَسِيمِ مَنْ الصَّبَا يَتَمَشَّى
رُجْلُهُ حَدَائِدُ الضَّرَابِ	وَكَأَنَّ الشَّمْسَ الْمَضِيئَةَ دِينَا
طَلَعَتْ فِي مَلَاءَةٍ مِنْ شَرَابِ	فِي غَدَاةٍ وَكَأْسَهَا مِثْلُ
فَهَيَّ صَفْرَاءَ فِي قَمِيصِ	شَمْسِ
حَبَابِ	أَوْ عُرُوسٍ قَدْ صُمِّخَتْ
بَتْنَدِي الْأَوْتَارِ وَالْمَضْرَابِ	بِخَلُوقِ
نَ وَمَسَّحِ الْأَقْدَامِ فِي كُلِّ	وَعِنَاءٍ لَا عُذْرَ لِلْعُودِ فِيهِ
بَابِ	وَتَقَاءِ الْبَسَاطِ مِنْ وَضْرِ
	الطَّيِّ

ونشاط الغلمان إن عرّصت  
ح

جاتنا في مجيئهم والذهاب

وجفاف الريحان والترّجس  
الع

ضّ بأيدي الخللّ والأصحاب

لا تندى أنوفهم كلما حُي  
ذاك يومٌ أراه عنماً وحظاً

وا بضغت ندى أنوف الكلاب  
من عطاء المهيمين الوهاب

وقال الصنوبري: المتقارب:

أنيس طباءً بوحش الطبّا  
ويوم تكلله الشمس من

وصبغ حياً مثل صبغ الحيّا  
صفاء الهوى وصفاء الهوا

بشمس الدنان وشمس  
القيان

وشمس الجتّان وشمس  
السما

وشبّيه بالأبيات التي كتبها تغلب إلى أبي العباس بن المعتز لجميل قول الآخر: الطويل:

وما وجد ملواح من الهيم  
خليت

عن الورد حتى جوفها  
يتصلصل

تحوم وتغشاها العصي  
وحولها

أقاطيع أنعام تغل وتنهل

بأكثر مني لوعة وصبابة

إلى الورد إلا أنني أتجمل

وقال أبو حية النميري: الطويل:

كفى جزناً أنني أرى الماء  
مُعَرَصاً

لعيني ولكن لا سبيل إلى  
الورد

وما كنت أحشى أن تكون  
منيّتي

بكفّ أعزّ الناس كلهم  
عندي

قال ابن المقفع: كان لي أخ أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه، وكان خارجاً من سلطان قزجه، فلا تدعوه إليه مؤنة، ولا ينسخف له رأياً ولا بدناً، وكان لا يثار عند نعمة، ولا يستكين عند مصيبة. وكان خارجاً من سلطان لسانه، فلا يتكلم بما لا يعلم، ولا يماري فيما علم، وكان خارجاً من سلطان الجهالة، فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة، وكان أكثر دهره صامتاً، فإذا قال بَرّ القائلين، وكان ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جد الجدّ، فهو الليث عاديّاً. وكان لا يدخل في دعوى، ولا يُشارك في مراء، ولا يُدلي بحجة حتى يرى قاضياً فهماً، وشهوداً عدّولا. وكان لا يلوم أحداً فيما يكون العُدْر في مثله حتى يعلم ما عُذّره.

وكان لا يشكو وجعه إلا عند من يرجو عنده الئراء، ولا يستشير صاحباً إلا أن يرجو منه النصيحة. وكان لا يتبرم ولا يتسخط، ولا يتشكى ولا ينتشهي، ولا ينتقم من العدو، ولا يعقل عن الولي، ولا يخص نفسه بشيء دون إخوانه من اهتمامه وحيلته وقوته. فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها، ولكن تطبيق، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع. وعلى ذكر قوله: وإن قال بَرّ القائلين قال ابن كناسة - واسمه محمد بن عبد الله، ويكنى أبا يحيى - في إبراهيم بن أدهم الزاهد: الطويل:

رأيتك لا ترصى بما دونه  
الرضا

وقد كان يرصى دون ذلك ابن  
أدهما

وكان يرى الدنيا صغيراً  
عظيمها

وكان لأمر الله فيها مُعَظِّماً

وأكثر ما تلقاه في الناس  
صامتاً

وإن قال بَرّ القائلين  
فأفحماً

يُثْبِغُ الْعَيْ فِي النَّاسِ إِنْ      وتلقى به البأساء عيسى بن  
مَسَّهُ الْغِنَى      مريما  
أَهَانَ الْهُوَى حَتَّى تَجَبَّه      كما اجتنب الجاني الدم  
الهُوَى      الطالب الدِّمَا

ألفاظ لأهل العصر في ذكر التقى والزهد  
فلان عَدَبَ الْمَشْرَبِ، عَفَّ الْمَطْلَبِ، تَقَيَّ السَّاحَةَ مِنَ الْمَأْتَمِ، بَرِيءُ الذِّمَّةِ مِنَ الْجَرَائِمِ،  
إِذَا رَضِيَ لَمْ يَقُلْ غَيْرَ الصَّدَقِ، وَإِذَا سَخِطَ لَمْ يَنْجَاوِزْ جَانِبَ الْحَقِّ، يَرْجِعُ إِلَى نَفْسِ أُمَّارَةَ  
بِالْخَيْرِ، بَعِيدٌ مِنَ الشَّرِّ، مَدْلُولَةٌ عَلَى سَبِيلِ الْبِرِّ؛ أَعْرَضَ عَنِ زِينِ الدُّنْيَا وَخَدَعَهَا، وَأَقْبَلَ  
عَلَى اكْتِسَابِ نِعَمِ الْآخِرَةِ وَمُنِعَهَا. كَفَّ كَفَّهُ عَنِ زُخْرِفِ الدُّنْيَا وَتَصَرَّتْهَا، وَعَضَّ طَرْفَهُ عَنِ  
مِتَاعِهَا وَزَهَرَتْهَا، وَأَعْرَضَ عَنْهَا وَقَدْ تَعَرَّضَتْ لَهُ بِزِينَتِهَا، وَصَدَّ عَنْهَا وَقَدْ تَصَدَّتْ لَهُ فِي  
جَلِيَّتِهَا.

فلانٌ لَيْسَ مِمَّنْ يَقِفُ فِي ظِلِّ الطَّمَعِ، فَيُسَيِّفُ إِلَى خَضِيضِ الطَّيِّعِ، تَقَيَّ الصَّحِيفَةَ، عَلِيٌّ  
عَنِ الْفَضِيحَةِ، عَفَّ الْإِزَارَ، طَاهِرٌ مِنَ الْأَوْرَارِ، قَدْ عَادَ لِإِصْلَاحِ الْمَعَادِ، وَإِعْدَادِ الزَّادِ.  
وَكَانَ ابْنُ الْمَقْفَعِ مِنَ أَشْرَافِ فَارَسِ، وَهُوَ مِنْ حُكَمَاءِ زَمَانِهِ، وَلَهُ مَصْنُوعَاتٌ كَثِيرَةٌ،  
وَرِسَالٌ مَخْتَارَةٌ، وَكَانَ مُحْكِمًا عَنِ قَوْلِ الشَّعْرِ، وَقِيلَ لَهُ: لِمَ لَا تَقُولُ الشَّعْرَ؟ فَقَالَ:  
الَّذِي أَرْضَاهُ لَا يَجِئُنِي، وَالَّذِي يَجِيءُ لَا أَرْضَاهُ.  
أَخَذَ هَذَا بَعْضُهُمْ فَقَالَ: الطَّوِيلُ:

أَبِي الشَّعْرُ إِلَّا أَنْ يَفِيءَ رَدِيئَهُ      إِلَيَّ، وَيَأْبَى مِنْهُ مَا كَانَ  
مُحْكَمًا      وَمُحْكَمًا  
فِيَا لَيْتَنِي إِذْ لَمْ أَحِذْ حَوْكَ      وَلَمْ أَكُ مِنْ فَرْسَانِهِ كُنْتُ  
وَشِيئِهِ      مُفْحَمًا  
وَكَانَ ظَرِيفًا فِي دِينِهِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ مَرَّ بَبَيْتِ النَّارِ فَقَالَ: الْكَامِلُ:  
يَا بَيْتَ عَاتِكَةَ الَّذِي أُتَعَزَّلُ      حَدَّرَ الْعِدَا وَبِهِ الْفَوَاذُ مُوَكَّلُ  
أَصْبَحْتُ أَمْنُحُكَ الصَّدُودَ،      قَسَمًا إِلَيْكَ مَعَ الصَّدُودِ لِأَمِيلُ  
وَإِنِّي

البيتان للأحوص بن محمد بن عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح الأنصاري، أخي  
بني عمرو بن عوف. وعاصم بن ثابت حَمِيُّ الدَّبْرِ، قَتَلَهُ بَنُو لِحْيَانَ مِنْ  
هُدَيْلِ يَوْمِ الرَّجِيعِ، فَأَرَادُوا أَنْ يَبْعَثُوا بِرَأْسِهِ إِلَى مَكَّةَ، وَكَانَتْ سَلَافَةُ بِنْتُ  
سَعْدِ نَذَرَتْ لَتَشْرَبَنَّ فِي رَأْسِهِ الْحَمْرَ، وَكَانَ قَتَلَ بَعْضَ وَلَدِهَا مِنْ طَلْحَةَ بْنِ  
أَبِي طَلْحَةَ أَحَدِ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ يَوْمَ أَحَدٍ، فَلَمَّا أَرَادُوا أَخْذَ رَأْسِهِ حَمَتَهُ الدَّبْرُ -  
وهي النحل - فَلَمْ يَجِدُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَجَعَلُوا يَقُولُونَ: إِنَّ الدَّبْرَ لَوْ قَدْ أَمْسَى  
صِرْنَا إِلَى حَشْوِ اسْتِهِ، فَلَمَّا أَمْسَوْا بَعَثَ اللَّهُ أَيْيَا فَوَارَاهُ مِنْهُمْ. وَعَاتِكَةُ الَّتِي  
ذَكَرَ هِيَ عَاتِكَةُ بِنْتُ يَزِيدِ بْنِ مَعَاوِيَةَ.

ولمَّا دَخَلَ أَبُو جَعْفَرِ الْمَنْصُورُ الْمَدِينَةَ قَالَ لِلرَّبِيعِ: ابْغِنِي رَجُلًا عَاقِلًا عَالِمًا  
بِالْمَدِينَةِ لِيَقِينَنِي عَلَى دُورِهَا؛ فَقَدْ بَعُدَ عَهْدِي بِدِيَارِ قَوْمِي؛ فَالْتَمَسَ لَهُ  
الرَّبِيعُ فَتَى مِنْ أَعْقَلِ النَّاسِ وَأَعْلَمِهِمْ، فَكَانَ لَا يَبْتَدِيءُ بِأَخْبَارِ حَتَّى يَسْأَلَهُ  
الْمَنْصُورُ فَيَجِيبُهُ بِأَحْسَنِ عِبَارَةٍ، وَأَجُودِ بَيَانٍ، وَأَوْفَى مَعْنَى، فَأَعْجَبَ  
الْمَنْصُورُ بِهِ، وَأَمَرَ لَهُ بِمَالٍ، فَتَأَخَّرَ عَنْهُ، وَدَعَتْهُ الضَّرُورَةُ إِلَى اسْتِنْجَازِهِ،  
فَاجْتَازَ بَيْتَ عَاتِكَةَ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَذَا بَيْتُ عَاتِكَةَ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ  
الْأَحْوَصُ: يَا بَيْتَ عَاتِكَةَ الَّذِي أُتَعَزَّلُ... الْبَيْتِ، فَفَكَرَ الْمَنْصُورُ فِي قَوْلِهِ،  
وَقَالَ: لَمْ يُخَالَفْ عَادَتَهُ بِابْتِدَاءِ الْإِخْبَارِ دُونَ الْاسْتِخْبَارِ إِلَّا لِأَمْرِ، وَأَقْبَلَ يَرُدُّ  
الْقَصِيدَةَ وَيَتَصَفَّحُهَا بَيْتًا بَيْتًا حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ فِيهَا:

وَأَرَاكَ تَفَعَّلُ مَا تَقُولُ      مَذِقُ اللِّسَانِ يَقُولُ مَا لَا

وبعضهم يفعل  
فقال: يا ربيع، هل أوصلت إلي الرجل ما أمرتاه به؟ فقال: أخرته عنه -  
لعله ذكرها الربيع - فقال: عجله له مصاعفاً، وهذا أطف تعريض من الرجل،  
وحسن فهم من المنصور.

في الحسد  
ومن كلام ابن المقفع: الحاسد لا يزال زارياً على نعمة الله ولا يجد لها مزالاً، ومكدرأً  
على نفسه ما به من النعمة فلا تجد لها طعماً، ولا يزال ساخطاً على من لا يترصاه،  
ومتسخطاً لما لا ينال، فهو كظوم هلوع جزوع، ظالم أشبه شيء بمظلوم، محروم  
الطليعة، منعص العيشية، دائم التسخط، لا يما قسيم له يفتح، ولا على ما لم يقسم له  
يغلب، والمحسود يتقلب في فضل نعم الله مباشراً المسرور، ممهلاً فيه إلى مدة لا  
يقدر الناس لها على قطع ولا انتقاص، ولو صبر الحاسد على ما به لكان خيراً له؛ لأنه  
كلما أراد أن يطفئ نور الله أغلاه، وبأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.  
قال الطائي:

لولا التحوُّفُ للعواقبِ لم  
تزل  
وإذا أراد الله تشراً فضيلة  
لولا اشتعال النار فيما  
جاورت

أخذه البحتري فقال: الطويل:  
ولكن تستبين الدهر موضع  
نعمة  
ولقد أحسن القائل: والبسيط:

إن يحسدوني فإني غير  
لائمهم  
فدام لي ولهم ما بي وما  
بهم  
أنا الذي يجدوني في  
صدورهم

وقال ابن الرومي لصاعد بن مخلد: الطويل:  
و ضد لكم لا زال يسفل  
جده

ولا برحت أنفاسه تتصعد  
ويغضي عن استحقاقكم فهو  
يقاد  
لأطفاً ناراً في الحشا  
تتوقد  
وأحسن من سيربالها  
المتجرّد

وقال معن بن زائدة: البسيط:

إني حسيدت فزاد الله في  
حسدي  
ما يحسد المرء إلا من  
فضائله

لا عاش من عاش يوماً غير  
محسود  
بالعلم والظرف، أو بالبأس  
والجود

ألفاظ لأهل العصر في ذكر الحسد

دَبَّتْ عِقَارِبُ الْحَسَدَةِ، وَكَمَنْتَ أَفَاعِيهِمْ بِكُلِّ مَرْصَدٍ. فَلَانَ مَعْجُونَ مِنْ طَيْبَةِ  
الْحَسِيدِ وَالْمُنَاقِشَةِ، مَضْرُوبٌ فِي قَالِبِ الصِّيقِ وَالْمُنَاقِشَةِ. قَدْ وَكَلَّ بِي  
لَحْظًا يَنْتَضِلُّ بِأَسْهُمِ الْحَسَدِ. فَلَانَ جَسِدُ كُلِّ حَسَدٍ، وَعَقَدَ كُلَّهُ جِغْدًا. الْحَاسِدُ  
يَعْمَى عَنْ مَحَاسِنِ الصُّبْحِ، بَعِينٌ تُذْرِكُ حَقَائِقَ الْقُبْحِ.  
كُتِبَ مُحَمَّدُ بْنُ حَمَادٍ يُعْرَضُ فِي حَاجَةٍ لَهُ بِبَيْتِي شَعْرًا إِلَى الْوَائِقِ يَقُولُ:  
الطويل:

جَذِبَتْ دَوَاعِي النَّفْسِ عَنْ      وَقَلَّتْ لَهَا كُفْيٌ عَنِ الطَّلَبِ  
طَلِبِ الْمُنَى                              الْمُرِّي

فَإِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِكَفِهِ      مَدَارِ رَحَى بِالرِّزْقِ دَائِبَةٍ  
تَجْرِي

فَوَقَعَ تَحْتَهَا: جَذِبَكَ نَفْسَكَ عَنْ امْتِهَانِهَا بِالمَسْأَلَةِ دَعَانِي إِلَى صَوْنِكَ بِسَعَةِ فَضْلِي عَلَيْكَ،  
فَحُذِّ مَا طَلَبْتَ هَنِئِنَّا.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ عُبَيْدَةَ: أَتَيْتُ الْحَسَنَ بْنَ سَهْلٍ بِغَمِّ الصَّلْحِ؛ فَأَقَمْتُ بِيَابِهِ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ لَا  
أَحْطَى مِنْهُ بِطَائِلٍ، فَكُتِبَتْ إِلَيْهِ: الطويل:

مَدَحْتُ ابْنَ سَهْلٍ ذَا الْأَيْدِي      بِذَاكَ يَدٌ عِنْدِي وَلَا قَدَمَ  
وَمَا لَهُ                                      بَعْدُ

وَمَا دَنْبُهُ، وَالنَّاسُ إِلَّا أَقْلَهُمْ عِيَالٌ لَهُ،  
إِنْ كَانَ لَمْ يَكُ لِي جَدُّ

سَأَحْمَدُهُ لِلنَّاسِ حَتَّى إِذَا بَدَا      لَهُ فِي رَأْيِي عَادَ لِي ذَلِكَ  
الْحَمْدُ

فَكُتِبَ إِلَيْ: بَابِ السُّلْطَانِ يَحْتَاجُ إِلَى ثَلَاثِ خِلَالَ: عَقْلٌ وَصَبْرٌ وَمَالٌ، فَكَلَّتْ لِلْوَأَسِطَةِ:  
تَوَدِّي عَنِّي؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: تَقُولُ لَهُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ لِأَعْنَانِي عَنِ الطَّلَبِ إِلَيْكَ، أَوْ  
صَبْرٌ لَصَبْرْتِ عَنِ الذَّلِّ بِبَابِكَ، أَوْ عَقْلٌ لَأَسْتَدَلَلْتُ بِهِ عَلَى النَّزَاهَةِ عَنِ رِفْدِكَ! فَأَمَرَ لِي  
بِثَلَاثِينَ أَلْفِ دِرْهَمٍ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ عُبَيْدَةَ الرِّيحَانِي يَوْمًا، وَقَدْ رَأَى جَارِيَةَ يَهْوَاهَا: لَوْلَا الْبُقْيَا عَلَى الضَّمَائِرِ  
لُنَحْنَا بِمَا تُجْنِهُ السَّرَائِرُ، لَكِنْ نِيرَانُ الْحُبِّ تَتَدَارَكُ بِالْإِخْفَاءِ، وَلَا تُعَاجِلُ بِالْإِبْدَاءِ؛ فَإِنْ  
دَوَّاهَا مَعَ إِغْلَاقِ أَبْوَابِ الْكَيْفَانِ، وَزَوَالِهَا فِي قَنَاجِ مَصَارِعِ الْإِعْلَانِ. وَقَدْ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ  
بُرَيْدِ الْأَمْوِيِّ: مَجْزُوءُ الْخَفِيفِ:

لَا وَحْبِيكَ لَا أَصَا      فُحٌّ بِالذَّمِّعِ مَدْمَعَا

مَنْ بَكَى حَبَّهُ اسْتَرَا      حَ وَإِنْ كَانَ مُوَجَعَا

وَمِنْ كَلَامِ عَلِيِّ بْنِ عُبَيْدَةَ: اجْعَلْ أُنْسَكَ آخِرَ مَا تَبْدُلُ مِنْ وُدِّكَ، وَصِنِ الْاسْتِرْسَالَ مِنْكَ،  
حَتَّى تَجِدَ لَهُ مُسْتَحَقًّا، فَإِنَّ الْأُنْسَ لِيَأْسُ الْعِرْضِ، وَتُخْفَةُ الثَّقَةِ، وَجِبَاءُ الْأَكْفَاءِ، وَشِعَارُ  
الْخَاصَّةِ، فَلَا تُخَلِّقْ جِدَّتَهُ إِلَّا لِمَنْ يَعْرِفُ قَدْرَ مَا بَدَلَتْ لَهُ مِنْكَ.

وَقَالَ: لَوْلَا حَرَكَاتُ مِنَ الْإِبْتِهَاجِ أَجَدَ جِسْمَهَا عِنْدَ رُؤْيَتِكَ فِي نَفْسِي لَا أَعْرِفُ لَهَا مُثِيرًا مِنْ  
مَطَانِهَا إِلَّا مُؤَانَسَتَكَ لِي، لِأَبْقَيْتَ عَلَيْكَ مِنَ الْعِنَاءِ، وَخَفَفْتَ عَنكَ مَوْوَنَةَ الْإِقْدَانِ، لَكِنِّي أَجِدُ  
مِنَ الزِّيَادَةِ بِكَ عِنْدِي أَكْثَرَ مِنْ قَدْرِ رَاحَتِكَ فِي تَأْخِرِكَ عَنِّي، فَأُضِيقُ عَنِ اخْتِمَالِ  
الْخُسْرَانِ بِالْوَحْدَةِ مِنْكَ.

وَقَالَ: لِيُوجَلِي مِنْ طُلُوعِ الْمَلَالَةِ بِكَرِّ الْإِقْدَانِ اسْتَخِفَّ التَّجَافِي مَعَ شِدَّةِ الشُّوقِ، لِنَبْقَى  
جِدَّةَ الْحَالِ عِنْدَ مَنْ أَحَبَّ دَوَامَهُ لِي؛ وَرَدَ طَرْفُ الشُّوقِ بَاطِنًا أَيْسَرَ مِنْ مُعَانَاةِ الْجَفَاءِ  
مَعَ الْوُدِّ ظَاهِرًا.

وَقَالَ بَعْضُ الْمُحَدِّثِينَ: الْبَسِيطُ:

كَمْ اسْتَرَاخَ إِلَيَّ صَبْرٌ فَلَمْ      صَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ الْأَشْوَاقِ فِي  
يُرِحَ    تَرِحَ

لو يُرَرِّق الوصل لم يَقْدِر على  
الْفَرَحِ

وذات الْعَصَى: جَادَتْ عَلَيْكَ  
الْهَوَاضِبُ  
دموع، أضاعت ما حفظت،  
سَوَاكِبُ

ووَطِئَ عَنِي فِيهَا الْهَوَى  
وَالْحَبَائِبُ  
على وَصَلٍ مَنَ أَهْوَى وَلَا الظن  
كَاذِبُ

تركتهم قَلْبَهُ من حُزْنٍ  
فُزِّقْتُمْ  
وقال أعرابي: الطويل:

أَلَا قُلْ لِدَارٍ بَيْنَ أَكْثَبَةِ  
الْحِمَى

أَجِدَكَ لَا آتِيكَ إِلَّا تَتَابَعْتُ

دِيَارِ تَنْسَمْتُ الْمُتَى تَحْوِ  
أَرْضِهَا

ليالي لا الهجرانُ مَحْتَكِمُ بِهَا

### آداب الجلوس

تنازع إبراهيم بن المهدي وابن بختيشوع الطيب بين يدي أحمد بن أبي دُوَادٍ في مجلس الحكم في عقار بناحية السواد، فأرَبَى عليه إبراهيم وأغلظ له، فأحفظ ذلك ابنُ أبي دُوَادٍ، فقال: يا إبراهيم، إذا نازعت في مجلس الحكم بحضرتنا امرءاً فلا أعلمنَّ أنك رفعت عليه صَوْتاً، ولا أسَّرت بيد، وليكن قَصْدُكَ أَمَّماً، وربُّكَ ساكنة، وكلامُك معتدلاً، مع وفاء مجالس الخليفة جَفَوقها من التَّعْظِيمِ، والتوقير، والاستكانة، والتوجه إلى الواجب؛ فإن ذلك أشكل بك، وأشمل لمذهبك في مَحْتَدِكَ، وعظيم حَظرك، ولا تعجلن، فَرُبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثاً، واللَّهُ يعصمك من حَظَلِ القول والعمل، ويتمَّ نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل، إن ربك حكيم عليم.

فقال إبراهيم: أَصْلَحَكَ اللهُ تعالى: أَمَرْتُ بِسَدَادٍ، وَخَصَّصْتَ عَلَى رِشَادٍ؛ وَلَسْتُ عَائِداً لِمَا يَتْلُمُ مُرُوَّةَ تِي عِنْدِكَ، وَيُسْقِطُنِي مِنْ عَيْنِكَ، وَيُخْرِجُنِي مِنْ مَقْدَارِ الْوَاجِبِ إِلَى الْإِعْتِذَارِ، فَهَا أَنَا مَعْتَذِرٌ إِلَيْكَ مِنْ هَذِهِ الْبَادِرَةِ اعْتِدَارٌ مُقَرَّرٌ بِذَنْبِهِ، مَعْتَرِفٌ بِجُرْمِهِ، وَلَا يَزَالُ الْغَضَبُ يَسْتَفْزِنِي بِمَوَادِهِ، فِيرِدُنِي مِثْلَكَ بِحَلْمِهِ، وَتَلَّكَ عَادَةُ اللهِ عِنْدَكَ وَعِنْدَنَا مِنْكَ؛ وَقَدْ جَعَلْتُ حَقِي مِنْ هَذَا الْعِقَارِ لِابْنِ بَخْتِشُوعٍ، فَلَيْتَ ذَلِكَ يَكُونُ وَأَفِيأً بِأَرْشِ الْجَنَايَةِ عَلَيْهِ؛ وَلَمْ يَتَلَفْ مَالٌ أَفَادَ مَوْعِظَةً؛ وَ"حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ".

لِذَا اسْتَوْثِقَ أَمْرُ أَرْدَشِيرِ بْنِ بَابِكٍ وَجَمَعَ مَلُوكَ الطَّوَائِفِ، وَتَمَّ لَهُ مُلْكُهُ، جَمَعَ النَّاسَ فَخَطَبَهُمْ خُطْبَةً حَضَّ فِيهَا عَلَى الْأَلْفَةِ وَالطَّاعَةِ، وَحَذَرَهُمُ الْمَعْصِيَةَ وَمِفَارِقَةَ الْجَمَاعَةِ، وَصَفَ النَّاسَ أَرْبَعَةَ صِفُوفٍ؛ فَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا، وَتَكَلَّمُ مِتْكَمَهُمْ فَقَالَ: لَا زَلْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ مَحْبُوبًا مِنَ اللهِ تَعَالَى بَعْرَ النَّصْرِ، وَوَدَرَكَ الْأَمَلِ، وَدَوَامِ الْعَافِيَةِ، وَتَمَامِ النُّعْمَةِ، وَحُسْنِ الْمَزِيدِ، وَلَا زَلْتَ تَتَابَعُ لَدَيْكَ الْمَكْرَمَاتِ، وَتَشْفَعُ إِلَيْكَ الذَّمَامَاتِ حَتَّى تَبْلُغَ الْغَايَةَ الَّتِي يَوْمَنْ زُوَالِهَا، وَتَصِلَ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ تَعَالَى لِنَظَرَانِكَ مِنْ أَهْلِ الرُّلْفَى عِنْدَهُ وَالْمَكَانَةِ مِنْهُ، وَلَا زَالَ مَلِكُكَ وَسُلْطَانُكَ بَاقِيَيْنِ بَقَاءَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، زَائِدَيْنِ زِيَادَةَ النُّجُومِ وَالْأَنْهَارِ، حَتَّى تَسْتَوِيَ أَقْطَارُ الْأَرْضِ كُلِّهَا فِي عِلْوِ قَدْرِكَ عَلَيْهَا، وَنَفَادِ أَمْرِكَ فِيهَا، فَقَدْ أَشْرَقَ عَلَيْنَا مِنْ ضِيَاءِ نُورِكَ مَا عَمَّنَا عَمُومَ ضِيَاءِ الصُّبْحِ، وَوَصَلَ إِلَيْنَا مِنْ عَظِيمِ رَأْفَتِكَ مَا اتَّصَلَ بِأَنْفُسِنَا اتِّصَالَ النَّسِيمِ؛ فَأَصْبَحْتَ قَدْ جَمَعَ اللهُ بِكَ الْأَيْدِي بَعْدَ افْتِرَاقِهَا، وَأَلْفَ الْقُلُوبَ بَعْدَ تَوْقُدِ نِيرَانِهَا، فَفَضَّلَكَ الَّذِي لَا يُدْرِكُ بَوْصَفٍ، وَلَا يُحَدُّ بِنَعْتٍ.

فقال أردشير: طوبى للممدوح إذا كان للمدح مستحقاً، وللداعي إذا كان

للإجابة أهلاً.

وقيل لأردشير: أيها الملك الرفيع الذي حَلَبَ العصور، وجَرَّبَ الدهور، أي الكنوزِ أعظمُ قدراً؟ قال: العلم الذي خَفَّ محمله، فثَقُلْتُ مفارقتَه، وكَثُرَتْ مرافقتَه، وَخَفِيَ مكانه، فَأَمِنَ من السَّرِقِ عليه؛ فهو في المَلَأِ جَمَال، وفي الوَحْدَةِ أُنيس، يرأسُ به الحَسيس، ولا يَمُكِن حاسدك عليه انتقاله عنك. قيل له: فالمال؟ قال: ليس كذلك. مَحْمَلُهُ ثَقِيل، والهَمُّ به طَوِيل؛ إن كنت في مَلَأ شغلك الفِكْرُ فيه، وإن كنت في حَلْوَةِ أتعبتك حراسته.

سير الملوك وأخبارهم

قال الجاحظ: حدَّثني الفضل بن سهل قال: كانت رسلُ الملوك إذا جاءت بالهدايا يُجَعَلُ اختلافهم إليّ، فتكون المؤامراتُ فيما معهم من ديواني، فكنت أسألُ رجلاً رجلاً منهم عن سيرِ ملوكهم، وأخبار عظمائهم، فسألْتُ رسولَ ملك الروم عن سيرة ملكهم، فقال: بَدَلَ عُرْفَه، وَجَرَّدَ سَيْفَه، فاجتمعت عليه القلوبُ رُكْبَةً ورهبةً، لا ينظر جُنْدَه، ولا يُخْرِجُ رعيته؛ سَهْلُ النِّوَالِ، حَزَنُ النِّكَالِ، الرجاءُ والخوفُ معقودان في يده. قلت: فكيف حُكْمُه؟ فقال: يردُّ الظلم، ويُرَدِّعُ الظالم، ويعْطِي كل ذي حق حقه؛ فالرعية اثنان: راض، ومغتبط.

قلت: فكيف هيئتهم له؟ قال: يتَّصِرُ في القلوب، فثَغُضِي له العيون. قال: فنظر رسولُ ملكِ الحبشة إلى إصغائي إليه، وإقبالي عليه، فسأل الترجمان: ما الذي يقوله الرومي؟ قال: يَذْكُرُ ملكهم، ويصِفُ سيرته؛ فتكلم مع الترجمان بشيء، فقال لي الترجمان: إنه يقول: إن مِلِكَهُم ذو أناة عند القُدرة، وذو حلم عند الغضب، وذو سَطْوَةٍ عند المغالبة، وذو عقوبة عند الاجْتِرَامِ، قد كسا رعيته جميلَ نِعْمَتِه، وخوفهم عسفَ نِقْمَتِه؛ فهم يتراءونه رَأْيَ الهلال خيالاً، ويخافونه مخافة الموتِ نكالاً، وَسِعَهُم عَدْلُه، وَرَدَّعَهُم سَطْوَتُه، فلا تَمْتَهِنُهُ مَرَحَةٌ، ولا تَوْمَنُه عَفْلَةٌ؛ إذا أعطى أوسع، وإذا عاقب أوجع؛ فالناس اثنان: راج وخائف، فلا الراجي خَائِبُ الأمل، ولا الخائف بعيد الأجل. قلت: فكيف هيئتهم له؟ قال: لا ترفعُ إليه العيون أجفانها، ولا تتبعهُ الأبصارُ إنسانها، كان رعيته قَطاً رُفِرت عليها صقور صوائد.

فحدَّثتُ المأمون بهذين الحديثين فقال: كم قيمتهما عندك؟ قلت: ألفا درهم. قال: يا فضل؛ إن قيمتهما عندي أكثرُ من الخلافة، أما عرفت قول علي بن أبي طالب، كَرَمَ اللهُ وجهه: قيمة كلِّ امرئٍ ما يحسن. أفتعرفُ أحداً من الخطباء البُلغاء يُحْسِنُ أن يصف أحداً من خلفاء الله الراشدين المهديين بهذه الصِّفة؟ قلت: لا. قال: فقد أَمَرْتُ لهما بعشرين ألف دينار، واجعل العذر مادة بيني وبينهما في الجائزة على المعوز؛ فلولا حقوق الإسلام وأهله لرأيتُ إعطاءهما ما في بيت مال الخاصة والعامّة دون ما يستحقانه.

وقال الجاحظ: حدثني حميد بن عطاء قال: كنتُ عند القَصلِ بن سهل، وعنده رسولُ ملكِ الخَرِّ، وهو يحدثنا عن أختٍ لملكهم، قال: أصابتنا سَنَةٌ احتدم شَوَاطِطُها علينا بحر المصائب، وصنوف الآفات؛ ففزع الناسُ إلى المَلِكِ، فلم يدرِ ما يُجِيبُهُم به، فقالت أخته: أيها الملك، إن الخوفَ لله خُلِقَ لا يَخْلُقُ جديدةً، وسبب لا يمتن عزيزه، وهو دالُّ المَلِكِ على استِصْلَاحِ رَعِيَّتِه، وزاجِرُهُ عن استفسادها، وقد قَزَعَتْ إِلَيْكَ رعيتهُ بفضل العَجْزِ عن الالتجاء إلى مَنْ لا تزيدهُ الإساءة إلى خلقه عِزاً، ولا يَنْقُصُه العَوْدُ بالإحسان إليهم

مُلْكاً، وما أحد أَوْلَى بحفظ الوصية من الموصي، ولا بركوب الدلالة من الدال، ولا بِحُسْنِ الرعاية من الراعي. ولم تزل في نعمة لم تغبرها نِقْمَةً، وفي رِضاً لم يكدره سُخْط، إلى أن جَرَى القَدَرُ بما عَمِيَ عنه البصر، ودُهِّل عنه الحَدَر، فسلب الموهوب، والواهب هو السالب؛ فَعُدَّ إليه بِشُكْرِ النعم، وعُدَّ به من فطيع النقم، فمتى تَنَسَّه يَنَسَكَ، ولا تجعلن الحياء من التذلل للمعزِّ المذل سترًا يَبْنِيكَ وبين رعيتك، فتستحق مذمومَ العاقبة؛ ولكن مُرْهُم ونفسك بصرف القلوب إلى الإقرار له بكنه القدرة، وتذلل الألسن في الدعاء بِمَحْضِ الشُّكْرِ له؛ فإن الملك ربما عاقب عبده ليرجعه عن سيئ فعل إلى صالح عمل، أو لِيَبْعَثَهُ على دائبِ شُكْرٍ لِيُحْرِزَ به فَضْلَ أَجْر. فأمرها الملك أن تقوم فيهم فتندرهم بهذا الكلام، ففعلت، فرجع القوم وقد علم الله منهم قبول الوَعْظِ في الأمر والنهي؛ فحال عليهم الحول وما منهم مفتقد نعمة كان سلبها، وتواترت عليهم الزيادات بجميل الصنع؛ فاعترف لها الملك بالفضل، فقلدها المُلْكُ؛ فاجتمعت الرعية لها على الطاعة في المكروه والمحبوب.

قال: وهذا وهم أعداء الله تعالى، وضرائر نعمته، ومستوجبو نِقْمَتِهِ، أعادَ لهم بالشكر ما أرادوا، وأعطاهم بالإقرار له بكنه قدرته ما تمنوا، فكيف بمن يجمعه على الشكر نوران اثنان: قرآن منزل، ونبى مرسل، لو صدقت النيات، واجتمعت على الافتقار إليه الطلبات؛ لكنهم أنكروا ما عرفوا، وجعلوا ما علموا، فانقلبَ جُدْهُم هَزْلاً، وسكوئهم حَبْلاً.

قطعة صادرة من أقوال الملوك

دالة على فضل كرمهم وبعد همهم

غَضِبَ كسرى أنو شروان على بعض مَرَازِبَتِهِ، فقال: يُحْطُ عن مرتبته، ولا ينقص من صلته؛ فإن الملوك تؤدب بالهجران، ولا تعاقب بالجِزْمَان. واصطنع أنو شروان رجلاً فقيل له: إنه لا قديم له. قال: اصطناعنا إياه شرفه.

قال معاوية، رضي الله عنه: نحن الزمان، من رَفَعْنَا ارتفع، ومن وَضَعْنَا اتضع. وكان يقول: إني لآنفُ من أن يكون في الأرض جَهْلٌ لا يسعُهُ جِلْمِي، ودَنْبٌ لا يسعُهُ عَفْوِي، وحاجة لا يسعُها جُودِي. عبد الملك بن مروان - أفضل الناس من تَوَاصَعَ عن رفعة، وعَفَا عن قُدْرَةٍ؛ وأُنْصَفَ عن قُوَّة.

زيد - استشفعوا لمن وراءكم؛ فليس كل أحدٍ يصلُ إلى السلطان، ولا كل من وصل إليه يَقْدِرُ على كلامه.

المهلب - عَجِبْتُ لمن يشتري الممالك بماله، كيف لا يشتري الأحرار بمعروفه! وقد روى هذا لابن المبارك. وقال لبيه: يا بني، أحسن ثيابكم ما كان على غيركم.

قال أبو تمام الطائي يستهدي قرواً، وعرض بقول المهلب: الطويل:

فهل أنت مُهْدِيه بمثل من الشُّكْرِ يعلو مُصْعِداً

شكيره

فأنت العليمُ الطَّبُّ أَيُّ بها كان أَوْصَى في الثياب

وصية المهلب

يزيد بن المهلب - استكثروا من الحمد؛ فإنَّ الذمَّ قِلٌّ من ينجو منه.

السفاح - ما أفتح بنا أن تكون الدنيا لنا وأولياؤنا خالون من أثرها.

المأمون - إنما تُطَلَّبُ الدنيا لِتُملِكَ، فإذا مُلكت فلتوهب. وقال: إنما يتكثَّرُ بالذهب والفضة من بَقْلانِ عنده.  
الحسن بن سهل - الأطراف مَنَازِلُ الأشراف؛ يتناولون ما يزيدون بالقُدْرَةِ، وينتابهم من يريدهم بالحاجة. وتعرض له رجل فقال له: من أنت؟ قال: أنا الذي أحسنت إليَّ يوم كذا وكذا. فقال: مرحباً بمن توَسَّلَ إلينا بنا.  
ولما أراد المعتصم أن يشرف أشناس التركي بعقب فَتَحَ الخزمية أمر أصحاب المراتب بالترجُّل إليه، فترحل إليه الحسن بن سهل، فنظر إليه حاجبه يمشي ويتعثر في مشيه، فبكى، فقال: ما يبكيك؟ إن الملوك شرَّفنا وشرفت بنا.

ومن كلام أهل العصر

للأمير شمس المعالي قابوس بن وَشَمَكِير - مَنْ أَعَدَّتْهُ نكاية الأيام أقامته إغاثة الكرام؛ ومن ألبسه الليل ثوب ظلماته نزعه النهار عنه بضياته.  
وله: ابتناء المناقب باحتمال المتاعب، وإحراز الذكر الجميل بالسَّعي في الخطب الجليل.

الصاحب بن عباد: المتقارب:

وَأَمْرُكَ مُمْتَلٍ فِي الأَمَمِ؟  
فإنَّ الهمومَ يَقْدِرُ الهمَمُ

وقائلة: لِمَ عَرَّكَ الهمومُ  
فقلت: دَرِينِي لما أَشْتَكِي

أبو الطيب المتنبي: البسيط:

يَخْلُو من الهمَّ أَخْلَاهُمْ من  
الفطنِ

أفاضلُ الناسِ أَعْرَاضُ لِدَا  
الزمنِ

أبو الفتح البستي: الرمل:

من هُمومِ تَعْتَرِيهِ وَعُمَمِ  
فُحْمِ الأهوالِ من بَعْدِ فُحْمِ

صاحبُ السلطانِ لا بُدَّ له  
والذي يَرَكِبُ بحرًا سَيَرِي

ومن كلام الملوك الجاري مجرى الأمثال

أردشير - إذا رغبت الملوك عن العَدْلِ رغبت الرعية عن الطاعة.  
أفريدون - الأيام صحائفُ آجالِكُمْ، فخذوها أَحْسَنَ أعمالِكُمْ.  
وقيل للإسكندر: ما بال تعظيمك لمؤدِّبك أكثر من تعظيمك لأبيك؟ قال: لأنَّ أباي سبَّبَ حياتي الفانية ومؤدِّبي سبَّبَ حياتي الباقية.  
ودخل محمد بن زياد مؤدِّب الواثق على الواثق، فأظهر إكرامه، وأكثر إعطائه، فقيل له: مَنْ هَذَا أيا أمير المؤمنين؟ قال هذا أول من فَتق لساني بِذِكْرِ اللَّهِ، وأدناني من رحمة الله.

وأشير على الإسكندر بتبنيته الفرس، فقال: لا أجعل غلبتي سرقة. وقيل له: لو تزوجت بنت دارا؟ فقال: لا تغلبنني امرأة غلبت أباه.

أنوشروان - الملك إذا كثرت ماله مما يأخذ من رعيته كان كمن يعمر سَطْحَ بيته بما يَفْتَلِعُه من قواعد بُنيانه.

أبرويز - أطفِ مَنْ فوقك يطعك مَنْ دونك.

السفاح - إن من أدنى الناس ووضعايمهم من عدَّ البخل حَزْمًا، والعفو دُلًّا. وكان يقول: إذا كان الحلم مَفْسَدَةً كان العفو مَعْجزة، والصبر حَسَنًا إلا على ما أوقع بالدين، وأوهى السلطان؛ والأناة محمودة إلا عند إمكان الفرصة.

وقد قال ابن المعتز: الكامل:

تُشْجِي بِطُولِ تَلْهُفٍ وَتَنْدُمُ  
عُصَّةَ

كَمْ فِرْصَةٍ دَهَبَتْ فَعَادَتْ  
عُصَّةَ

ولما عزم المنصور على القنك بأبي مسلم فزع من ذلك عيسى بن موسى، فكتب إليه: الطويل:

إذا كنتَ دَا رَايَ فكن ذا تَدْبِيرِ      فإنَّ فسادَ الرَّأْيِ أَنْ تَتَعَجَّلَا

فأجابه المنصور: الطويل:

إذا كنتَ ذَا رأيٍ فكن ذَا

عزيمةٍ

ولا تُمهّل الأعداء يوماً بَعْدُوه

وهذا في موضعه كقول الإمام علي، كرم الله وجهه: من فكر في العواقب لم يشجع. وقال سعد بن ناشب فأفرط: الطويل:

عليكم بداري فاهدموها!

فإنها

إذا همَّ ألقى بين عينيه

عزمه

ولم يستشِر في رأيه غير

نفسه

سأغسل عني العار بالسيف

جالباً

ويصعُر في عيني تلادي إذا

انثنت

وكان سعد من مَرَدَةِ العرب وشياطين الإنس، وفيه يقول الشاعر: الطويل:

وكيف يُفِيقُ الدهرَ سعدُ بن

ناشب

كتب مروان بن محمد الجعدي إلى عبد الله بن علي يسأله حفظَ حرمه، فقال له:

الحقُّ لنا في دمك، وعلينا في حُرْمِك.

وقال الرشيد لإسماعيل بن صبيح: إياك والدالة فإنها تفسد حرمة، ومنها أتى البرامكة. وقال المأمون: الملوك تحتمل كل شيء إلا ثلاثاً: إفشاء السر، والقدح في الملك، والتعرض للحرم.

المعتصم: إذا نُصِرَ الهوي بطل الرأى.

المنتصر - لذة العفو أطيّب من لذة التشفّي؛ وذلك أن لذة العفو يلحقها حمد العاقبة، ولذة التشفّي يلحقها ذم الندم.

والمنتصر يقول عن تجربة، لأنه قتل أباه المتوكل، والأمر في ذلك أشهر من أن يُذكر، ولكني ألمع منه بالسير: كان المتوكل قد عقّد لولده المنتصر والمعتز والمؤيد ولاية

العهد، ثم تعيّر على المنتصر دون أخويه، وكان يسميه المُنتظر، ويقول له: أنت تمني موتي، وتنتظر وقتي! وبأمر الندماء أن يعشوا به، إلى أن أوغر صدره، وأفل صبره؛ فلما

كانت ليلة الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين كان المتوكل

يشرب مع القنح في قصره المعروف بالجعفري، ومعه جماعة من الندماء والمغنين،

وكان المنتصر معهم، فلما انصرفت ثلاث ساعات من الليل قال لزرارة التركي: ألا

تسغني ساعة حتى أشيكو إليك ما يمزّ بي؟ قال: بلى، وجعل يماطله ويطاوله، وعلّق

بُغا الشرابي الأبواب كلها إلا باب الماء، ومنه دخل الذين قتلوه، فأول من ضربه باغر

التركي ضربة قطع بها حبل عاتقه، وتلقاه القنح بنفسه فأكبّ عليه، فقتل جميعاً، وبويع

المنتصر من ساعته، وكانت مدة المنتصر في الخلافة مدة شيرويه ابن كسرى - حين

قتل أباه - ستة أشهر.

وقال إبراهيم بن أحمد الأسدي يرثي المتوكل: الخفيف:

هكذا قَلتَكن مَنابيا الكرامِ بين نايٍ ومِرْهَرٍ ومُدمامِ

بين كأسين أزوَّناه جميعاً كأس لذاته وكأس

الجِمامِ

يَقْطُ في السرور حتى أتاه قدر الله

حَنَفُه في المنامِ

والمنايا مَرَاتِبٌ يَتَفَاوَضُ  
لَمْ يَزِرْ نَفْسَهُ رَسُولُ  
الْمَنَايَا  
هَابَهُ مُعْلِنًا فَدَبَ إِلَيْهِ  
أَخَذَ هَذَا الْمَعْنَى عَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ التِّيمِيُّ، فَقَالَ يَرِثِي عَيْسَى بْنِ خَلْفٍ، صَاحِبِ  
خِرَاجِ الْمَغْرِبِ، وَكَانَ قَدْ تَنَاوَلَ دَوَاءً فَمَاتَ بِسَبَبِهِ: الطَّوِيلُ:

نَ وَالْمُرْهَفَاتِ مَوْتُ  
الْكَرَامِ  
بِصَنُوفِ الْأَوْجَاعِ وَالْأَسْقَامِ  
فِي سُئُورِ الدُّجَى بِحَدِّ  
الْحَسَامِ  
مَنَايَا سَدَدَتْ الطَّرِيقَ عَنْهَا  
وَلَمْ تَدْعُ  
فَلَمَّا رَأَتْ سُورَ الْمَهَابَةِ  
دُونَهَا  
تَرَقَّتْ بِأَسْبَابِ لِطَافٍ وَلَمْ  
تَكْذُ  
فَجَاءَتْكَ فِي سِرِّ الدَّوَاءِ  
حَفِيَّةً  
فَلَمْ أَرِ مَا لَا يُتَّقَى مِثْلَ  
سَهْمِهَا  
وَقَدْ رَثَاهُ الْبَحْتَرِيُّ وَيَزِيدُ الْمَهْلَبِيُّ بِمَرِثَتَيْنِ مِنْ أَجُودِ مَا قِيلَ فِي مَعْنَاهُمَا،  
وَكَانَا حَاضِرَيْنِ لَيْلَةَ قَتْلِهِ. فَاخْتَفَى أَحَدُهُمَا فِي طَيِّ الْبَابِ، وَالْآخَرُ فِي قَنَاةِ  
الشَّادِرِوَانِ؛ فَمِنْ قَصِيدَةِ الْبَحْتَرِيِّ: الطَّوِيلُ:

تَغَيَّرَ حَسَنُ الْجَعْفَرِيِّ  
وَأَنَسَهُ  
تَحَمَلَ عَنْهُ سَاكِنُوهُ  
فُجَاءَةً  
وَلَمْ أَرِ مِثْلَ الْقَصْرِ إِذْ رِبَعِ  
سِرُّهُ  
وَإِذْ صَبِيحَ فِيهِ بِالرَّحِيلِ  
فَهَتَّكَتْ  
إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهُ أَجَدَ لَنَا  
الْأَسَى  
فَأَيْنَ عَمِيدُ النَّاسِ فِي كُلِّ  
تَوْتَةٍ  
تَحَفَّى لَهُ مُغْتَالُهُ تَحْتَ غِرَّةِ  
صَرِيحِ تَقَاضَاهِ السِّيُوفِ  
حُشَّاشَةً  
حَرَامِ عَلَيَّ الرَّاحُ بَعْدَكَ أَوْ  
أَرَى  
وَهَلْ يُرْتَجَى أَنْ يَطْلُبَ الدَّمَ  
طَالِبُ

وَقُوضِ بَادِي الْجَعْفَرِيِّ  
وَحَاضِرُهُ  
فَأَصَتْ سِوَاءَ دُورِهِ  
وَمُقَابِرُهُ  
وَإِذْ دُعِرَتْ أَطْلَاؤُهُ وَجَآذِرُهُ  
عَلَى عَجَلِ أَسْتَارِهِ  
وَسِتَائِرِهِ  
وَقَدْ كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ يُبْهَجُ  
زَائِرُهُ  
تَتُوبُ وَنَاهِي الدَّهْرَ فِيهِمْ  
وَأَمْرُهُ  
وَأَوْلَى لِمَنْ يَغْتَالُهُ لَوْ  
يَجَاهِرُهُ  
يَجُودُ بِهَا وَالْمَوْتُ حُمُرُ  
أَظْفَارِهِ  
دَمًا بَدْمٌ يَجْرِي عَلَى الْأَرْضِ  
مَائِرُهُ  
مَدَى الدَّهْرَ وَالْمَوْتُورُ بِالْدمِ  
وَإِثْرُهُ

فلا مَلِّيَ الباقي تُرَاثَ الذي  
مضى

ولا حَمَلتِ ذاكَ الدعاءِ  
مَتَابِرُهُ

وهي طويلة، وكان أبو العباس ثعلب يقول فيها: ما قبلت هاشمية أحسن منها، وقد صرَّح فيها تصریحاً مَنْ أذهلته المصائبُ عن تخوُّفِ العواقبِ.  
وقد كان البحتري يرتاح في كثير من شعره إلى ذكره وذكر الفتح بن خاقان، فمن ذلك قوله لبعض من يمدحه: الطويل:

تداركني الإحسانُ منك،  
ونالني  
وداقعتني حين لا الفتحُ  
يُرْتَجَى

على فاقية ذاك الندى  
والتطوُّلُ  
لدفع الأذى عني ولا  
المتوكلُ

وقال: الطويل:

مضى جعفرُ والفتحُ بين  
مُوسَّدٍ  
أأطلبُ أنصاراً على الدهر  
بعدهما

وبين قتيل في الدماء مَصْرَجِ  
تَوَى منهما في الترابِ أوسِي  
وَحَزْرَجِي؟

وقال في غلام له: الطويل:

عسى آيسُ من رَجْعَةِ الوصلِ  
يُوصَلُ  
أباً سَكناً فات الفراقِ  
بنفسه  
أتعجبُ لما يُعَلُّ جِسْمِي  
الصَّنَا  
فَقَبْلَكَ يانَ الفتحُ مَنِّي  
مودِّعاً  
فما بَلَغَ الدَّمْعُ الذي كنتُ  
أرتجي

وَدَهْرُ تَوَلَّى بِالْأَحْبَةِ يُقِيلُ  
وَحَالَ التَّعَادِي دونه  
والتزِيلُ  
ولم يَخْتَرِمُ نَفْسِي الجِمامُ  
المُعَجَّلُ؟  
وفارقني شَفْعاً له  
المتوكلُ  
ولا فَعَلَ الوجدُ الذي خِلْتُ  
يَفْعَلُ

وقال أبو خالد يزيد بن محمد المهلب في قصيدة أولها: البسيط:

لا وَجَدَ إِلَّا أراه دُونَ ما أَجَدُ  
ولا كَمَنْ فَقدَتْ عَيْتاي مُفتَقِدُ

يقول فيها:

لا يَبْعَدُنْ هالكَ كانت مَنِيئُهُ  
جاءت مَنِيئُهُ والعينُ هادِيَةٌ  
فخرَ فوقِ سريرِ الملكِ  
مُنْجَدِلاً  
لا يدفعُ الناسُ صَيْماً بعد  
ليلتهم  
علتُك أسيافَ مَنْ لا دوتَهُ  
أحدُ  
إذا بكيتُ فإنَّ الدمعَ  
مُنْهَمِلُ  
إِتا فَقدناكَ حتى لا اصطبارَ  
لنا

كما هَوَى من عِضاهِ الرُّبِيَّةِ  
الأسدُ  
هَلَا أَتَتْهُ المِنايا والقِتا فَصُدُّ؟  
لم يَحْمِهِ مُلْكُهُ لَمَّا انْقَضَى  
الأمْدُ  
إذ لا يَهْرُ إلى الجاني عليك  
يَدُ  
وليس فوقك إلاَّ الواحدُ  
الصَمْدُ  
وإن رَتَيْتُ فإنَّ الشِعْرَ  
مُطْرِدُ  
وماتَ قَبْلَكَ أقوامُ فما  
فَقِدُوا

قد كنتُ أشرفُ في مالي  
فُخِّلِفُهُ  
وقال فيها يذكر الأتراك، ويحضُّ على اصطناع العرب:  
لما اعتقدتم أناساً لا جِقاطَ  
لهم  
ولو جعلتم على الأحرارِ  
نعمتكم

فعلمتني الليالي كيف  
أفْتَصِدُ  
ووالدينُ والمجدُ والأرحامُ  
والبلدُ  
على الهوانِ وإن أكرمتهم  
فَسَدُّوا

وقال أبو حية النميري: الطويل:  
رَمَتْهُ فتاة من ربيعة عامرٍ  
فقلن لها في السر: نَفْدِيكَ  
لا يَرْحُ  
فَأَلْقَتْ قِناعاً دونه الشمسُ  
وَأَثَقَتْ  
وقالت فلماً أفرغتُ في  
فؤاده  
فأصبح لا يَدْرِي أفي طلعة  
الضحى  
أخذ قوله: فألقت قناعاً دونه الشمس من قول النابغة الذبياني: الكامل:  
قامت تراءى بين سَجَقِي  
كِلَّةِ  
سَقَطَ التَّصِيفُ ولم تُرد  
إسقاطه

وقال أبو حية يرثي سلمة بن عياش: الطويل:  
كَانَ أبا حفص فتى البأس لم  
يُجَبِّ  
إلى الغاية القُصوى، ولم تهد  
فتيةً  
ويُعْمِلُ عناق العيسِ حتى  
كانها  
بعيدٍ مثاني الهم يُمسيبي  
وماله

به الليل والبيض القِلاص  
النجائبُ  
كراماً وتخطوه الخطوبُ  
النوائبُ  
إذا وُضِعَتْ عنها العَلايا  
المشاجب  
سوى الله والعَصْبِ السُرْبِجي  
صاحب  
فتى في جسيمات المكارم  
راغبُ

تَوَاتَرُ أفواجاً إليه المواكب  
فإن يمس وَحْشاً بأبه  
فَلرُبُّماً

يحيون بساماً كأنَّ جبينه هلال بدأ وانجاب عنه  
 وما غائب مَنْ غاب يُرَجَى السحائبُ  
 وإياه ولكنه من ضُمنَّ اللَّحْدَ غائبُ  
 وزعم الصولي أن أبا حية إنما قالها في محمد بن سليمان بن علي بن عبيد الله بن العباس. وكان أبو حية جيد الطبع، مألوف الكلام، رقيق حواشي الشعر. وسئل الأصبعي عن قيس بن الملوح المجنون، فقال: لم يكن مجنوناً، وإنما كانت به لؤنة كلؤنة أبي حية، وهو إلقائل: الطويل:  
 رممني وسنن الله بيني  
 وبينها  
 رميمٌ التي قالت لجارات  
 بيتها:  
 ألا زبَّ يوم رممني رميتها  
 فيا عجباً من قاتل لي أوذهُ  
 يرى الناسُ أني قد سلوْتُ،  
 وإنني  
 وأنشدني إسحاق بن إبراهيم الموصلي في مثله، ولم يسمَّ قائله: الطويل:  
 هل الأدم كالآرام والزهر  
 كالدمي  
 زمان سلاحي بينهنَّ  
 شببتي  
 فأقسمن لا يسقينني قَطْرَ  
 مُزَيَّةٍ  
 وقال هارون بن علي بن يحيى المنجَّم: مجزوء الكامل:  
 الغانيات عهدُهُ  
 مَنْ شَابَ شَبَبَ لَه المودَّ  
 فأنعم بهنَّ وزند سينَّ  
 ما دُمت في روق الصِّبَا  
 فافحز بأيام الصِّبَا  
 وأعطِ الشباب نصيبهُ  
 وقال أشجع بن عمرو السلمي: الطويل:  
 وما لي لا أعطي الشباب  
 نصيبهُ  
 رأيتُ الليالي ينتهبن  
 شببتي  
 فإِنَّ بنات الدهر يخلصنَ  
 لذتي  
 وقد حوَّلت حالي الليالي  
 وأسرجت  
 وموت الفتى خيرٌ له من  
 إذا كان ذا حالين يصبو ولا  
 عشيبة أحجار الكناسِ رميمُ  
 صمئتُ لكم ألا يزال يهيمُ  
 ولكنَّ عهدي بالنضار قديم  
 أشاطَ دمي شخصٌ علي  
 كريم  
 لمدتف أحناء الضلوع سقيم  
 لها سائفٌ من حسنهن  
 ورامحُ  
 ليشيبي ولو سالت بهن  
 الأباطحُ  
 نَّ إلى انصرام وانقصابِ  
 ة بالخديعة والكذابِ  
 كَ في الشبيبة غيرُ خابي  
 وغضونه الخضر الرطابِ  
 واخلع عذاركَ في التصابي  
 ما دُمت تعذر بالشبابِ  
 وغصناه يهتران في عوده  
 الرطبِ  
 فأسرعتُ باللذات في ذلك  
 النهبِ  
 فقد جُزن سلمي وانتهين إلى  
 حرِّي  
 علي الرأس أمثال الفتيل من  
 العطبِ  
 إذا كان ذا حالين يصبو ولا

حياته

يُصبي

وقال آخر: مجزوء الكامل:

تحب وأن يحبك مَنْ تُحبه

ما العَيْش إلا أن

فَقَرَّ تتصل بهذه الأبيات، وفي وصف الشباب  
أطاع الشبابَ وَعَرَّتَه، وأجاب الصبا وشَرَّتَه، جَرَّ إزارَ الصبا، وأدَالَ ذبولَ  
الهوى، وَرَكَضَ في ميدان التصابي، وجنى ثمرات الملاهي. هو في إقبال  
شبابه، وحادثة أترابه، وَرَبَعَانِ عمره، وَعُنْفوانِ أمره. هو في إبان شبابه  
واعتداله وربعان إقباله واقْتباله. بعثه على ذَلِكَ أَشْرَ الصبا، وَلِينِ الغصنِ،  
وَشَرْحُ الشبيبةِ، وسكر الحَدَاثَةِ، قَتِي السن، رطيب الغصنِ، عمره في  
إقباله، ونشاطه في استقباله، وشبابه في إقباله، وماؤه بحاله. فلان في  
حكم الأطفال، الذين لم يَعَصُوا على تَوَاجِدِ الرجال. هو في عَنقوانِ شبيبةِ  
تُخاف سقطاتها وهفواتها، ولا يُؤمن جِيحاتها وتزواتها. هو في سكرِ الشبابِ  
والشرابِ، وبين نزوات الشبانِ، ونزعات الشيطانِ. شبابُه أعمى عن الرشيدِ،  
أصمُّ عن العَدلِ، قد لَبَّى دَاعِي هَوَاهُ، وانغمس في لُجَّةِ صَبَاهُ. قد هَجَمَ بِسُكْرِ  
الحداثة على سكرات الحوادثِ، يَجْرِي إلى الصِّبا جَرِي الصِّبَا. فلان عُقْلُ من  
سِمةِ التَّجْرِبةِ، جامخُ في عِذارِ العَقْلَةِ، صَعْبُ المراس على لجامِ العظَةِ. هو  
مِنْ سلطانِ الصِّبا في التَّوْبَةِ الأولى. قد خلع عِدَارَهُ وَمِقْوَدَهُ، وألْقَى إلى  
البطالة باعَهُ وَبَدَهُ. هو بين حُمَارِ العَدَاةِ وسكر العَيْشِ لا يعرف الصَّحْوِ، ولا  
يفارق اللهُو. فلان لا يفيق، ولا يذكر التوفيق. هو بين عَرَّرِ الشبابِ، وَعُرَّرِ  
الأحيابِ.

ويتعلق بهذه الألفاظ ألفاظ لهم

في نجابة الشباب وترشجهم للمعالي

قد جمع تَصَارَةَ الشبابِ إلى أبهة المشيبِ، وهو على حدوث ميلاده وَقُرْبِ إسناده شيخ  
قَدْرٍ وَهَيْبَةٍ، وإن لم يكن شيخَ سِنٍّ وَشَيْبَةٍ. هو بين شباب مُقْتَبِلِ، وعقل مكْتَمِلِ، قد  
ليس بُرْدَ شبابه على عُقْلِ كهلٍ، وَرَأْيِ جَزَلِ، وَمَنْطِقِ فَصْلِ. للدهر فيه مقاصد، وللأيام  
فيه مَوَاعِدُ، أرى له عي فصل ضمانِ الأيامِ وَدَائِعِ الحظوظِ والأقسامِ، تَبَاشِيرِ نَجْحِ،  
وَمَخَاطِلِ نُصْرٍ وفتح. قد استكمل قوَّةَ القِصْلِ، ولم يتكامل له سِنُّ الكَهْلِ. ما زالت  
مَخَالِيه وليدًا وناشئًا، وشمائله صغيراً وبافعاً، نواطق بالحسن عنه وضوامين النجح فيه!  
قد سما إلى مراتبِ أَعْيَانِ الرجالِ، التي لا تدرِكُ إلا مع الكمال والاكتهال. حَمِدَتْ  
عزائمهُ، قبل أن حُلَّتْ تَمائمهُ؛ وشهدت مكرماتهُ، قبل أن تدرج لِدَانَهُ.  
وقال البحتري: البسيط:

في السن وانظر إلى المجد  
الذي شَادَا  
في العين أذهبها في الجَوْ  
إصْعَادَا

لا تنظرن إلى العباس من  
صغر  
إن النجوم نجوم الأفقِ  
أصغرها

وقال آخر: الوافر:

ولم يقسّم على قَدْرِ السنينا  
حوى الآباء أنصبه البنينا

رأيت العقل لم يكن انتهاياً  
فلو أن السنين تقسّمته  
وقال الفضل بن جعفر الكاتب: الطويل:

به رُبَّةَ الكَهْلِ المؤهل  
للمَجْدِ  
صبياً وعيسى كَلَمِ الناسِ في  
المُهْدِ

فإن خلفته السن فالعقلُ  
بالغ  
فقد كان يَحْيَى أُوتِيَ الحُكْمِ  
قبله

وكان أبو حية كثير الرواية عن الفرزدق، وعمر حتى التقى بـابن مناذر فاستنشدته شعره، فأنشده أبو حية: الطويل:

أَلَا حَيٌّ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ  
الْمَعَانِيَا

إِذَا مَا تَقَاضَى الْمَرْءَ يَوْمٌ  
وَلَيْلَةٌ

حَتَّىكَ اللَّيَالِي بَعْدَمَا كُنْتُ  
مَرَّةً

فقال ابن مناذر: أو شعرٌ هذا؟ فقال أبو حية: ما في شعري عيب، غير أنك تسمعه. وفي هذه القصيدة يقول أبو حية: الطويل:

وَلَمَّا أَبَتْ إِلَّا التَّوَاءَ يُوَدِّهَا  
صَافِيَا

شَرِبْتُ بَرَقِي مِنْ هَوَاهَا  
مُكَدَّرٌ

وقد قال عمرو بن قميئة في معنى قول أبي حية: الكامل:

كَانَتْ قَتَاتِي لَا تَلِينُ لِحَامِزٍ  
وَدَعَوْتُ رَبِّي فِي السَّلَامَةِ  
جَاهِدًا

وقال التمر بن توبل: الطويل:

يَوُدُّ الْفَتَى طَوْلَ السَّلَامَةِ  
وَالْبَقَا

يَعُودُ الْفَتَى مِنْ بَعْدِ حُسْنِ  
وَصِحَّةِ

وقد روي في الحديث الشريف: "كفى بالسَّلَامَةِ داءً". وقد أحسن حميد بن ثور في قوله: الطويل:

أَرَى بَصْرِي قَدْ رَابَنِي بَعْدَ  
صِحَّةِ

وَلَنْ يَلْبِتَ الْعَصْرَانَ يَوْمَ  
وَلَيْلَةٍ

وهذان البيتان من قصيدة طويلة، وهي أجود شعر حميد، ومن أجود ما فيها: الطويل:

وَمَا هَاجَ هَذَا الشُّوقَ إِلَّا  
حَمَامَةٌ

تَرُوحُ عَلَيْهِ وَالْهَاءُ تَمَّ تَعْتَدِي

تُؤْمَلُ مِنْهُ مُؤْنِسًا  
لِأَنْفَرَادِهَا

كَأَنَّ عَلَى إِشْرَاقِهِ نَوْرَ  
خَمْرَةٍ

فَلَمَّا اكْتَسَى الرِّيشَ السُّحَامَ  
وَلَمْ تَجِدْ

تَحْتَهُ قَرِيبًا فَوْقَ عُصْنِ

بِهَ الرِّيحِ صِرْفًا أَيُّ وَجْهِ

تَدَّءَبْتُ      تَيَّمَّمَا  
 فأهوى لها صَفْرُ مُسِيفٍ فلم      لها وَلَدًا إِلَّا رِمَامًا وَأَعْظَمَا  
 يَدَعُ      لِنَائِحَةٍ فِي تَوَجُّهِهَا مُتَلَوَّمَا  
 فَأَوْقَتُ عَلَى عُصْنِ صُحَيَّا وَلَمْ      فصيحاً ولم تَفْعَرَ بِمَنْطِقِهَا  
 تَدَعُ      فما  
 عَجِبْتُ لَهَا أَنَّى يَكُونُ      ولا عَرَبِيًّا شَاقَّةُ صَوْتِ أَعْجَمَا  
 غِنَاؤُهَا      وَمِنْ خَبِيثِ الْهَجَاءِ قَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ يَخَاطِبُ رَجُلَيْنِ بَعْثُهُمَا: الطويل:  
 فلم أرَ مِثْلِي شَاقَّةُ صَوْتِ      وَقَوْلَا إِذَا جَاوَزْتُمَا أَرْضَ  
 مِثْلِهَا      عَامِرٍ  
 وَمِنْ خَبِيثِ الْهَجَاءِ قَوْلُهُ فِي هَذَا، يَرِيدُ أَنَّهُمْ لَدَلْتَهُمْ لَمْ يَتَرَوْا أَحَدًا فَيَطَالِبُهُمْ بِدُخُلِ.      تَرِيْعَانِ مِنْ جَزْمِ بِنِ رَيَّانِ  
 وقال الأصمعي: قيل لبعض الصالحين: كيف حالك؟ قال: كيف حال من يفتنى ببقائه،      أَنَّهُمْ  
 وَيَسْقَمُ بِسَلَامَتِهِ، وَيُؤْتَى مِنْ مَأْمَنِهِ.      وما هُجِيتَ جَزْمٌ بِأَشَدِّ مِنْ هَذَا، يَرِيدُ أَنَّهُمْ لَدَلْتَهُمْ لَمْ يَتَرَوْا أَحَدًا فَيَطَالِبُهُمْ بِدُخُلِ.  
 وقال محمود الوراق: الطويل:      وقال الأصمعي: قيل لبعض الصالحين: كيف حالك؟ قال: كيف حال من يفتنى ببقائه،  
 يُحِبُّ الْفَتَى طَوْلَ الْبَقَاءِ      وَيَسْقَمُ بِسَلَامَتِهِ، وَيُؤْتَى مِنْ مَأْمَنِهِ.  
 كَأَنَّهُ      وقال محمود الوراق: الطويل:  
 إِذَا مَا طَوَى يَوْمًا طَوَى الْيَوْمُ      يُحِبُّ الْفَتَى طَوْلَ الْبَقَاءِ  
 بَعْضُهُوَ يَطْوِيهِ إِنْ جَنَّ الْمَسَاءَ مَسَاءً      كَأَنَّهُ  
 زِيَادَتِهِ فِي الْجِسْمِ نَقْصُ حَيَاتِهِ      إِذَا مَا طَوَى يَوْمًا طَوَى الْيَوْمُ  
 جَدِيدَانِ لَا يَبْقَى الْجَمِيعُ      بَعْضُهُوَ يَطْوِيهِ إِنْ جَنَّ الْمَسَاءَ مَسَاءً  
 عَلَيْهِمَا      زِيَادَتِهِ فِي الْجِسْمِ نَقْصُ حَيَاتِهِ  
 وقال المتنبي: الطويل:      جَدِيدَانِ لَا يَبْقَى الْجَمِيعُ  
 زِيَادَةُ سَنِيْبٍ وَهِيَ تَقْصُ زِيَادَتِي      عَلَيْهِمَا  
 وَبَيْتُ مَحْمُودِ الْأَخِيرِ كَقَوْلِ الْبَحْتَرِيِّ:      وقال المتنبي: الطويل:  
 الوافر:      زِيَادَةُ سَنِيْبٍ وَهِيَ تَقْصُ زِيَادَتِي  
 أَنَاةٌ أَيُّهَا الْقَلَكُ الْمُدَارُ      وَبَيْتُ مَحْمُودِ الْأَخِيرِ كَقَوْلِ الْبَحْتَرِيِّ:  
 سَتَفْتَنِي مِثْلَ مَا تَفْنِي وَتَبْلَى      الوافر:  
 تُنَابُ النَّائِبَاتِ إِذَا تَنَاهَتْ      أَنَاةٌ أَيُّهَا الْقَلَكُ الْمُدَارُ  
 وَمَا أَهْلُ الْمَنَازِلِ عَيْرَ رَكْبٍ      سَتَفْتَنِي مِثْلَ مَا تَفْنِي وَتَبْلَى  
 ويقول فيها:      تُنَابُ النَّائِبَاتِ إِذَا تَنَاهَتْ  
 لَنَا فِي الدَّهْرِ آمَالٌ طَوَالُ      وَمَا أَهْلُ الْمَنَازِلِ عَيْرَ رَكْبٍ  
 أَمَا وَأَبِي بَنِي حَارِبِ بْنِ كَعْبٍ      ويقول فيها:  
 أَصَابَ الدَّهْرُ دَوْلَةَ آلِ وَهْبٍ      لَنَا فِي الدَّهْرِ آمَالٌ طَوَالُ  
 أَعَارَهُمْ رِذَاءَ الْعِزِّ حَتَّى      أَمَا وَأَبِي بَنِي حَارِبِ بْنِ كَعْبٍ  
 نَرَجِّيْهَا وَأَعْمَارُ قِصَارُ      أَصَابَ الدَّهْرُ دَوْلَةَ آلِ وَهْبٍ  
 لَقَدْ طَرَدَ الزَّمَانُ بِهِمْ فَسَارُوا      أَعَارَهُمْ رِذَاءَ الْعِزِّ حَتَّى  
 وَنَالَ اللَّيْلُ مِنْهُمْ وَالنَّهَارُ      نَرَجِّيْهَا وَأَعْمَارُ قِصَارُ  
 تَقَاضَاهُمْ فَرَدُّوا مَا اسْتَعَارُوا      لَقَدْ طَرَدَ الزَّمَانُ بِهِمْ فَسَارُوا  
 وَنَالَ اللَّيْلُ مِنْهُمْ وَالنَّهَارُ      تَقَاضَاهُمْ فَرَدُّوا مَا اسْتَعَارُوا

وقد كانوا وأَوْجِهَهُمْ بُدُور  
أخذ قوله: ستَفْتَى مثل ما تُفنى أبو القاسم بن هانئ فقال: الكامل:  
تَفْنَى النجومُ الرَّهْرُ طَالِغَةً  
والنيران: الشَّمْسُ والقمرُ  
ولئنُ تَبَدَّتْ في مَطَالِعِهَا  
منظومةً فَلَسَوْفَ تَنْتَثِرُ  
ولئن سعى القَلْكُ المدارُ بها  
فلسوف يُسَلِّمُهَا وَيَقْطِرُ  
وقد استقصى علي بن العباس الرومي المعنى الأول فقال: البسيط:

وَالدَّهْرُ يُبْلِي الْفَتَى مِنْ حَيْثُ  
يُنْشِئُهُ

حَتَّى تَكْرَ عَلَيْهِ لَيْلَةُ الْقَرَبِ  
وَيَحْتَسِي نَعْبًا مِنْهُ عَلَى  
نُعْبِ

تَسِيرُ الْمَاءِ فِي مُسْتَأْتَفِ  
الْكُتْبِ

وَإِنْ أَجْمَ فَلَمْ يُنْكَبْ وَلَمْ  
يُتَبِّ

وَالعَمْرُ أَقْدَحُ مِبْرَاهٍ مِنْ  
الْوَصْبِ

حِرْزاً لِشِلْوٍ مِنَ الْأَعْدَاءِ  
مَشْجُونِ

فِي مَطْمَحِ النَّسْرِ أَوْ فِي  
مَسْبَحِ النُّونِ

فَإِنَّمَا حِصْنُهُ سِجْنِ  
لِمَسْجُونِ

بَلْ لَيْسَ جَهْلًا وَلَكِنْ عِلْمٌ  
مَفْتُونِ

يَعْدُوهُ فِي كُلِّ آنٍ وَهُوَ  
يَأْكُلُهُ

يُودِي بِحَالٍ فَحَالٍ مِنْ  
سَبَبِيَّتِهِ

حَسِبَ امْرَأً مِنْ حَتَّى دَهْرٍ  
تَطَاوُلُهُ

فِي هُدْيَةِ الدَّهْرِ كَافٍ مِنْ  
وَقَائِعِهِ

وقال أيضاً: البسيط:

يَا بَانِي الحِصْنِ أَرْسَاهُ  
وَسَيِّدُهُ

انْظُرْ إِلَى الدَّهْرِ هَلْ فَاتَتْهُ  
بَغِيئُهُ

وَمَنْ تَحَصَّنَ مَنُحُوبًا عَلَى  
وَجَلِّ

أَشْكَوْا إِلَى اللَّهِ جَهْلًا قَدْ أَصَرَ  
بِنَا

وقال الطائي: الطويل:

وَإِنْ بُنَّ حَيْطَانٌ عَلَيْهِ فَإِنَّمَا

ودخل يحيى بن خالد على الرشيد وقد ابتدأت حاله في التغير، فأخبر أنه مشغول، فرجع، فبعث إليه الرشيد: حُتْنِي فَاثْمَمْتَنِي، فقال: إذا انْقَصَتِ المدة كان الحَتْفُ في الحيلة، والله ما انصرفُ إلا تخفيفاً.

أخذه ابن الرومي فقال وقد فصدته بعضُ الأطباء، فزعم أن القَصْدَ زاد في علته: الكامل:

غَلَطَ الطَّبِيبُ عَلَيَّ غَلَطَةً  
مُورِدِ

وَالنَّاسُ يَلْحَوْنَ الطَّبِيبَ،  
وَإِنَّمَا

ما قيل في الثغر

وقال أبو حية النميري: الطويل:

سَقَّنِي بِكَاسِ الحَبِّ صِرْفًا  
مَرَوْقًا

وَحُمَصَاتِي تَفْتَرُّ عَنْ  
مَتَشَقِّ

عَجَزَتْ مَحَالَتُهُ عَنِ الإِصْدَارِ

غَلَطُ الطَّبِيبِ إِصَابَةُ المَقْدَارِ

رِقَاقِ الثَّنَائِيَا عَدْبَةَ المِتْرَاقِ

كَتُورِ الأَفَاحِي طِيبِ  
الْمِتَذَوِّقِ

أنايبَ من عُودِ الأراكِ  
المخلِّقِ  
فضيضاً بخَرْطُومِ الرَّحِيقِ  
المَرَّوقِ

وكالدر منظوماً إذا لم تكلم  
وتملأ عَيْنَ الناظرِ المتوسِّمِ  
ومن لؤلؤ عند الحديثِ  
تُساوِطُهُ

إذا امتضغت بعد امتناع من  
الضحى  
سَقَتْ شُعَبَ المسواكِ ماءً  
غمامةً  
وأنشد الثوري: الطويل:

تري الدرّ مثوراً إذا ما  
تكلمت  
تُعَبِّدُ أحرارَ القلوبِ بدلها  
والبيت الأول من هذين كقول البحري: الطويل:  
فمن لؤلؤ تجلوه عند  
ابتسامها

وقد تقدم.

قال أبو الفرج الرياشي: سمعت الأصمعي يقول: أحسن ما قيل في وصف الثغر قول  
ذي الرمة: الطويل:

من العَبْرِ الهِنْدِيِّ والمِسْكِ  
يُصْبِحُ

إليه الندى من رامة المتروخِ  
لأخْرَسَ عنه كاد بالقولِ  
يُفْصِحُ

ومن قديم هذا المعنى وجيده قولُ النابغة الذبياني في صفة المتجرِّدة امرأة النعمان  
بن المنذر: الكامل:

بَرْدًا أَسِفَ لِنَائِهِ بالإثْمِدِ  
جَفَّتْ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلَهُ تَدِي  
عَذْبُ مَقْبَلُهُ سَهِي الْمَوْرِدِ  
يشفي برِّياً ريقها العَطِشُ  
الصِّدِّي

ومن قوله - ولم أذقه أخذ كل من أتى بهذا المعنى، ففتقه الناس بعده،  
قال المتوكل الليثي: الوافر:

تَرَقَّرِقُ بَيْنَ رَاوُوقِ وَوَدَنٍ  
فِرَاسُهُ مُقْلَتِي وَصَحِيحُ طَنِي

إلّا شهادة أطرافِ  
المساويكِ

تُتِي ولا تجعلها بيضة الديكِ  
حَسْبِي برائحة الفردوسِ مِنْ  
فِيكَ

وقيل لبيشار: يا أبا معاذ، كم بين قولك، وأنشد هذه الأبيات. وبين أن تقول: الرمل:  
إنما عظم سُلَيْمَى حُلَّتِي

غلب المِسْكِ على ربحِ  
التبصلِ

وَتَجْلُو بَقَرَعٍ مِنْ أَرَاكِ كَأَنَّهُ

دُرِّي أَفْحُوَانِ وَآجِهَ اللَّيْلِ  
وَأَرْتَقَى

هَجَانَ الثَّنَائِيَا مُعْرِبٍ لَوْ  
تَبَسَّمَتْ

تَجْلُو بِقَادِمَتِي حَمَامَةِ أَيَّكَةِ  
كَالْأَفْحُوَانِ عَدَاةَ غَبِّ سَمَائِهِ  
رَعَمَ الْهَمَامُ بِأَنَّ قَاهَا بَارِدُ  
رَعَمَ الْهَمَامُ وَلَمْ أَذُقْهُ أَنَّهُ

كَانَ مَدَامَةً صِهْبَاءَ صِرْفًا  
تُعَلُّ بِهَا الثَّنَائِيَا مِنْ سَلِيمَى

يا أَطْيَبَ النَّاسِ رِيقًا غَيْرِ  
مُخْتَبِرِ

قَدْ زُرْتِنَا مَرَّةً فِي الدَّهْرِ  
وَاحِدَةً

يا رَحْمَةَ اللَّهِ حُلِّي فِي  
مَنَازِلِنَا

وإذا قُرب منها بَصَلُ

فقال: إنما الشاعر المطبوع كالبحر؛ مرةً يقذف صدْفُهُ، ومرةً يقذف جَيْفَهُ. وقد تناول هذا المعنى أبو الحسن عليّ بن العباس الرومي من أقرب تناول فقال: وكَسَّفَهُ بأَوْضَحِ عبارة - في صفته لجارية أبي الفضل عبد الملك بن صالح السوداء بعد أن استوفى جميع صفاتها وكان قد اقْتَرَحَ عليه وصفها: المنسرح:

وصَفْتُ فِيهَا الَّذِي هَوَيْتَ عَلَى  
ال  
إِلَّا بِأَخْبَارِكَ الَّتِي رُفِعَتْ  
حَاشَا لِسَوْدَاءٍ مَنْظِرٍ  
وَهُمْ وَلَمْ تَخْتَبِرْ وَلَمْ تَذُقِ  
مِنْكَ إِلَيْنَا عَنْ طَبِيَةِ الْبُرْقِ  
ذِرَاكَ إِلَّا عَنْ مَخْبِرٍ يَقْقِ  
سَكَنْتَ

وهذه الأبيات من قصيدة له وصف فيها السوداء، وإحتج بتفضيله على البياض، حتى أغلق فيه الباب بعده، ومنع أن يقصد فيه أحد قصده، إلا كان مقصّر السهم عن غرض الإحسان. وقد نبه علي بن عبد الله بن العباس المسيب على فضائلها، وأجاد التشبيه، وكشف عن وجوه الإبداع، وضروب الاختراع. وقد مدح الناس السوداء والسود فأكثرُوا؛ فمن جيد ما قالوا فيه قول أبي حفص الشطرنجي: السريع:

أَشْبَهَكَ الْمَسْكُ وَأَشْبَهْتَهُ  
لَا شَكَّ إِذَا لَوْنُكُمَا وَاحِدٌ  
قَائِمَةٌ فِي لَوْنِهِ قَاعِدَةٌ  
أَنْكُمَا مِنْ طِينَةٍ وَاحِدَةٍ  
فَأَخَذَ ابْنُ الرَّومِيِّ هَذَا الْمَعْنَى، وَأَضَافَ إِلَيْهِ أَشْيَاءَ أُخْرَ تَوْسَعًا وَاقْتِدَارًا، فَقَالَ:  
يَذَكُرُكَ الْمَسْكُ وَالْعَوَالِي  
وَالسَّكَّ  
ذَوَاتِ النَّسِيمِ وَالْعَبَقِ

وهذه الأشياء وإن كانت ناقصةً عن المسك، فهي ممدوحة بالطيب، غير مستغنى عن ذكرها في التشبيه، فأما زيادته على جميع مَنْ تعاطى مدح السوداء فقلوه: المنسرح:

سوداء لم تنتسب إلى برص  
الشَّ  
قر ولا كُلقَةٍ ولا بهق

والأبيض الشديد البياض معيب، وقد دل عليه قوله: المنسرح:

وَبَعْضُ مَا فَضَّلَ السَّوَادُ بِهِ  
أَلَا يَعِيبُ السَّوَادَ حَلَكْتُهُ  
وَالْحَقُّ ذُو سَلْمٍ وَذُو تَفَقِّ  
وَقَدْ يُعَابُ الْبَيَاضُ بِالتَّهَقِّ

قوله: الحق ذو سلم وذو تفق أراد أن الحق يتصرف في جهات، وضرب الصعود والنزول لذلك مثلاً؛ ثم قصد لوصف هذه السوداء بالكمال في الصفة؛ ومن عيب السودان أن أكفهم عابسة متشقة، وأطرافهم ليست بناعمة لينة، وكذلك لا يزال القلح في شفاههم، وهي الشقوق المذمومة الموجودة في أكثر السودان في أوساط الشفاه، وأيضاً فإن الأسود مهجو بحيث العرق، فنفى هذه الصفات المذمومة الموجودة في أكثر السودان عنها، فقال: المنسرح:

لَيْسَتْ مِنَ الْعُبْسِ الْأَكْفُ وَلَا  
ال  
فُلُجِ الشَّفَاهِ الْخَبَائِثِ الْعَرَقِ

ثم عاج بخاطره على وصف هذه السوداء بأضداد تلك الصفات المذمومة، فقال: المنسرح:

فِي لَيْنٍ سَمُورَةٍ تَخِيرُهَا الِ  
وَمِنْ بَدِيعِ مَدْحِ السَّوْدَاءِ قَوْلُهُ: الْمَنْسَرَحُ:  
فَرَاءٌ أَوْ لَيْنٌ جَيِّدِ الدَّلَقِ  
أَكْسَبَهَا الْحَبُّ أَنَّهُا صُبِغَتْ  
صَبْغَةَ حَبِّ الْقُلُوبِ وَالْحَدَقِ  
فَانصرفت نحوها الضمائرُ  
وَالِ  
أَبْصَارِ يَعَشَّفْنَ أَيَّمَا عَشَّقِ

فأخبر أن القلوب إنما أحببتها بالمجانسة التي بينها وبين حب القلوب من السوداء، وكذلك الحدق.

ومن جِدِّ تشبيهات أبي نواس وقد نبه نديماً للصباح فأخبر عن حاله وقال:  
البيسط:

فقام والليل يَجْلُوهُ الصبَاحُ  
كَمَا  
جَلَا التَّبَسُّمُ عَنِ عُرِّ الثَّنِيَاتِ

ولعلي بن العباس عليه التقدم بقوله: المنسرح:

يَفْتَرُّ ذَاكَ السَّوَادُ عَنِ يَقْقِ  
كَأَنَّهَا وَالْمَزَاخُ يُضْحِكُهَا  
مِنْ ثَغْرَهَا كَاللَّائِكِ التَّسْقِ  
لَيْلٌ تَعْرَى دُجَاهَ عَنِ قَلْقِ  
وَفَضْلُ هَذَا الْكَلَامِ عَلَى ذَاكَ أَنْ هَذَا قَدَّمَ لِمَعْنَاهُ فِي التَّشْبِيهِ مَقْدَمَةَ أَيْدِيهِ، وَوَطَأَتْ لَهُ  
الْأَذَانَ، وَأَصْغَتِ الْأَفْهَامَ إِلَى الْاسْتِحْسَانِ، وَهِيَ قَوْلُهُ:

يَقْتَرُّ ذَاكَ السَّوَادُ عَنِ يَقْقِ  
وَفِي هَذِهِ السُّودَاءِ يَقُولُ، وَقَدْ سَأَلَهُ أَبُو الْفَضْلِ الْهَاشِمِيُّ أَنْ يَسْتَعْرِقَ صِفَاتِ مَحَاسِنِهَا  
الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ، فَقَالَ: الْمَنْسَرَحُ:

لَهَا حِرٌّ يَسْتَعِيرُ وَقَدَّتَهُ  
مِنْ قَلْبٍ صَبٌّ وَصَدْرٍ ذِي  
حَنْقِ

كَأَنَّهَا حِرُّهُ لِخَابِرِهِ  
حُرق

يَزْدَادُ ضَيْقاً عَلَى الْمِرَاسِ  
كَمَا  
تَزْدَادُ ضَيْقاً أَنْشُوطُهُ الْوَهَقِ

ثم فكَّرَ فيما فَكَّرَ فِيهِ النَّابِغَةُ، وَقَدْ أَمَرَهُ النَّعْمَانُ بِوَصْفِ الْمُتَجَرِّدَةِ، فَوَصَفَ مَا يَجُوزُ  
ذَكَرَهُ مِنْ ظَاهِرِ مَحَاسِنِهَا، ثُمَّ كَرِهَ أَنْ يَذْكَرَ مِنْ فِضَائِلِهَا مَا لَا يَسُوغُ بِمِثْلِهِ أَنْ يَذْكَرَ مِنْهَا،  
فَرَدَّ الْإِخْبَارَ عَنِ تِلْكَ الْفِضَائِلِ إِلَى صَاحِبِهَا، وَهُوَ الْمَلِكُ، فَقَالَ: الْكَامِلُ:

زَعَمَ الْهُمَامُ بَأْنَ فَاها بَارِدُ  
عَدْبٌ إِذَا قَبَّلْتَهُ قَلْتِ أَرْدَدِ  
فَاحْتَذَى عَلِيُّ بْنُ الْعَبَّاسِ هَذَا، فَقَالَ بَعْدَ مَا سَأَلَهُ أَنْ يَسْتَعْرِقَ فِي وَصْفِ فِضَائِلِهَا  
الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ: الْمَنْسَرَحُ:

حُدُّهَا أبا الْفَضْلِ كَسُوءَةً لَكَ  
مِنْ  
حَرِّ الْأَمَادِيحِ لَا مِنْ الْخِرْقِ

وَصَفَتْ فِيهَا الَّتِي هَوَيْتَ عَلَى  
الْوِ

إِلَّا بِأَخْبَارِكَ الَّتِي وَقَعَتْ  
حَاشَا لِسُودَاءِ مَنْظَرٍ

سَكَنَتْ  
دُرَاكَ إِلَّا عَنْ مَخْبَرِ يَقْقِ

وهذا المعنى أوماً إليه النابغة إيماءً خفيًا تذهبُ معرفته عن أكثر الناس، ولو أثار النابغة  
ترك الاختصار، وهم بكشف المعنى وإيضاحه، ما زاد على هذا الكشف الذي كشفه ابن  
الرومي.

وأصحابه المعاني ينشدون للفرزدق: الطويل:

وَجِفْنَ سِلَاحٍ قَدْ رُزِنْتُ فَلَـمِ  
أَنْجِ  
عَلَيْهِ وَلَمْ أَبْعَثْ عَلَيْهِ الْبَوَاكِـيَا

وَفِي بَطْنِهِ مِنْ دَارِمِ ذُو  
حَفِيظَةٍ

ومعناه عندهم أنه رثى امرأة توفيت حاملاً، فقال علي بن العباس وقد وصف هذه  
المرأة السوداء: المنسرح:

أَخْلِقُ بِهَا أَنْ تَقُومَ عَنِ دَكْرِ  
كَالسَيْفِ يَفْرِي مُصَاعَفَ  
الْحَلْقِ

إِنَّ جفونَ السِيفِ أَكْثَرُهَا  
فُهْذِهِ زِيَادَةُ بَيْتِهِ، وَعِبَارَةٌ وَاضِحَةٌ، لَمْ تَحْتَجْ إِلَى تَفَاسِيرِ أَصْحَابِ الْمَعَانِي، وَقَالَ مِمَّا لَمْ  
يُنْشِدُهُ الْمُتَنَبِّي: الْمُنْسَرِحُ:  
عُصْنٌ مِنَ الْإِبْتُوسِ رُكِبَ فِي  
يَهْتَزُّ مِنْ نَاهِدِيهِ فِي ثَمَرِ  
وَهَذَا مَعْنَى قَدْ بَلَغَ قَائِلُهُ مِنَ الْإِجَادَةِ، فَوْقَ الْإِرَادَةِ، وَامْتَثَلَ أَبُو الْفَضْلِ الْهَاشِمِيُّ مَا أَشَارَ  
بِهِ ابْنُ الرَّومِيِّ، فَأَوْلَدَهَا، فَانْجَبَتْ.  
وَفِي مَعْنَى قَوْلِ الْفَرَزْدَقِ قَالَ الطَّائِي وَأَحْسَنُ وَذَكَرَ وَلَدَيْنِ تَوْأَمَيْنِ مَا تَأْتِي لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ  
طَاهِرٍ الْكَامِلِ:

إِنْ تُرَزَّرَ فِي طَرَفِي نَهَارٍ وَاحِدٍ  
فَالثَّقُلُ لَيْسَ مِضَاعِفًا  
لِمِطِيَّةٍ

لَهْفِي عَلَى تِلْكَ الْمَشَاهِدِ  
مِنْهُمَا

لَعْدَا سَكُونُهُمَا حِجِّي،  
وَصَبَاهُمَا

إِنْ الْهَلَالَ إِذَا رَأَيْتَ نِمَاءَهُ  
وَعَلَى ذِكْرِ التَّوَأْمَيْنِ الْفَاطِ

لَأَهْلِ الْعَصْرِ فِي التَّهْنِئَةِ بِتَوْأْمَيْنِ

تَيْسَرَتْ مِئْخَاتَانِ فِي وَطَنِ، وَانْتَضَمَتْ مَوْهَبَتَانِ فِي قَرْنِ، طَلَعَ فِي أَفْقِ  
الْكَهْمَالِ نَجْمًا سَعْدًا، وَشِهَابًا عَزًّا، وَكَوْكَبًا مَجْدًا، فَتَاهَلَّتْ بِهِمَا رُبُوعُ الْمَحَاسِنِ،  
وَوُطِّئَتْ لِهَمَّا أَكْنَافُ الْمَكَارِمِ، وَاسْتَشْرَقَتْ إِلَيْهِمَا صُدُورُ الْأَسْرَةِ وَالْمَتَابِرِ.  
بَلَّغَنِي حَبْرُ الْمَوْهَبَةِ الْمَشْفُوعَةَ بِمِثْلِهَا، وَالنَّعْمَةَ الْمَقْرُونَةَ بِعِدْلِهَا فِي  
الْفَارَسِيِّينَ الْمَقْبَلِينَ، رَضِيعِي الْعِزِّ وَالرَّفْعَةِ، وَقَرِينِي الْمَجْدِ وَالْمَنْعَةِ، فَشَمَلَنِي  
مِنَ الْإِعْتِبَاطِ مَا يُوجِبُهُ اِرْتِدَاؤُ الْبُشَيْرِي، وَاقْتِرَانُ غَادِيَةِ بَأْخَرِي.  
وَالشَّيْءُ يُدْكَرُ بِمَا قَارِبَ نَاحِيَةٍ مِنْ أَنْحَائِهِ، وَجَادِبَ حَاشِيَةٍ مِنْ رِدَائِهِ.

فِي الْهَجَاءِ

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعَصْرِ يَهْجُو رَجُلًا وَضَمَّنَ قَوْلَ النَّابِغَةِ: الْكَامِلِ:

كَالْأَقْحَوَانَ عَدَاةً غِيبَ سَمَائِهِ

وَأَرَاخَهُ عَنِ بَابِهِ؛ فَجَاءَ مَلِيحًا فِي الطَّبِيعِ، مَقْبُولًا فِي السَّمْعِ: الْكَامِلِ:

يَا سَائِلِي عَنِ جَعْفَرِ، عَهْدِي

رَطَبَ الْعِجَانِ وَكَفَهُ كَالْجَلْمَدِ

بِهِ  
كَالْأَقْحَوَانَ عَدَاةً غِيبَ سَمَائِهِ

وَمِنْ مُسْتَحْسَنٍ مَا رَوِيَ فِي هَذَا التَّضْمِينِ قَوْلَ الْآخِرِ وَضَمَّنَ بَيْتًا لِمَهْلَهْلِ ابْنِ رَبِيعَةَ:  
الْوَافِرِ:

وَسَائِلِي عَنِ الْحَسَنِ بْنِ وَهْبٍ

وَعَمَّا فِيهِ مِنْ كَرَمٍ وَخَيْرٍ

فَقُلْتُ هُوَ الْمَهْدَبُ، غَيْرَ أَنِّي

أَرَاهُ كَثِيرَ إِرْخَاءِ السُّتُورِ

وَأَكْثَرَ مَا يَغْيِيهِ قَتَاةُ

حُسَيْنٍ حِينَ يَخْلُو بِالسُّرُورِ

فَلَوْلَا الرِّيحُ أَسْمِعَ مَنْ يَحْجُرُ

صَلِيلَ الْبَيْضِ تُفْرَعُ بِالذُّكُورِ

وَهَذَا الْبَيْتُ لِمَهْلَهْلِ مِمَّا يَعْدُونَهُ مِنْ أَوَّلِ كَذْبِ الْعَرَبِ، وَكَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ لَا  
تَكْذِبُ فِي أَشْعَارِهَا، وَكَانَ بَيْنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَتْ فِيهِ هَذِهِ الْوَاقِعَةُ وَهِيَ  
بِالْجَزِيرَةِ وَبَيْنَ حُجْرٍ وَهِيَ قَصَبَةٌ بِالْيَمَامَةِ مَسَافَةٌ بَعِيدَةٌ، فَأَخْرَجَهُ هَذَا الشَّاعِرُ

بقوة مُتته، ونفاذِ فِطنته، إلى معنىٍ آخرٍ مستطرفٍ في بابه. وهذا المذهبُ أحسنُ مَذاهبِ التضمين. ومن مליح ما في هذا الباب تضمينات الحمدوني في طيلسان أحمد بن حرب المهلي، وسيأتي ما أختاره من ذلك في غير هذا الموضوع.

??رجع إلى ما قيل في الثغر

وقد جاء في صفة الثغور والأفواه والرِّيق شعرٌ كثير. قال جميل: الطويل:

تمنيُّتٌ منها نظرةٌ وهي	تُرِيكَ تَقِيًّا وَاصِحَّ الثَّغْرِ
وَاقِفٌ	أَشْتَبَا
كَأَنَّ عَرِيضًا مِنْ قَضِيضٍ	هَزِيمٌ الدُّرَى تَمْرِي لَهُ الرِّيحُ
غَمَامَةٌ	هَيِّدَا
يُصَفِّقُ بِالمِسْكِ الذَّكِي	إِذَا النَّجْمُ مِنْ بَعْدِ الهُدَى
رُضَابُهُ	تَصَوَّبَا

وقال: الكامل:

وكان طارقها على عَليِّ	والنَّجْمُ وَهَنًا قَدْ بَدَا لِتَعَوُّرِ
الكرى	

يَسْتَأْفُ رِيحَ مُدَامَةٍ مَعْلُولَةٍ	بِرُضَابِ مِسْكِ فِي ذَكِي
	العنبر

وقال عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي: الطويل:

يَمُجُ ذَكِي المِسْكِ مِنْهَا مُقْلَجٌ	تَقِي الثَّنَايَا ذُو عُرُوبٍ مُؤَسَّرٌ
يَرِفُ إِذَا تَفَتَّرَ عَنْهُ كَأَنَّهُ	حَصَى بَرْدٍ أَوْ أَقْحَوَانٌ مُنَوَّرٌ

وقال الهذلي: الوافر:

وما صَهَبَاءُ صَافِيَةٌ لَصَبِّ	كلون الصَّرْفِ مُنْجَابٌ قَذاها
تُشِخُّ بِنُطْقَةٍ مِنْ مَاءِ مُزْنٍ	أحلتها برَضْرَاضٍ عُرَاها
بِأَطْيَبِ مَشْرَعًا مِنْ طَعْمِ	إِذَا مَا طَارَ عَنْ سِنَّةٍ كَرَاها
فِيها	

وقال آخر: البسيط:

وشق عنها قِناعِ الخَزِ عَنْ	كالذَّرِّ لَا كَسَسَ فِيهِ وَلَا تَعَلُّ
بَرْدٍ	

كأنه أَقْحَوَانٌ باتَ يَصْرِبُهُ	طَلَّ مِنَ الدَّجَنِ سَقَاطُ النَّدى
	هَطِلُ

كأن صِرْفًا كَمِيتِ اللَّوْنِ	شُجَّتْ بِماءِ سماءِ سَنَّهُ
صَافِيَةٌ	جَبَلُ

فُوها إِذا ما قَصَّتْ مِنْ نومِها	أَوْ اعْتَرَاها سُبَاتُ التَّومِ
سِنَّةٌ	والكسَلُ

وقال الآخر: الوافر:

هَجانُ اللَّوْنِ وَاصِحَّةُ المَحيا	قَطِيعِ الصَّوْتِ آنِسَةُ كَسولُ
تَبَسُّمٌ عَنْ أَعْرَ لَهُ عُرُوبٌ	فُرَاتِ الرِّيقِ لَيْسَ بِهِ فِلولُ

كَأَنَّ صَيِّبَ غَاديَةٍ لَصَبِّ	تُشِخُّ بِهِ شامِيَةٌ شَمولُ
عَلَى فِيها إِذا الجُوزاءُ عَالَتْ	مُحَلَّقَةٌ وَأُرْدَفُها رَعيلُ

وقال ابن المعتز: المديد:

يا نديمي أَشربا واسقِيانا	قد بَدَا الصَّبْحُ لَنَا واسْتَبانا
---------------------------	-------------------------------------

واتركا الدهر فما شاءَ كانا  
فإذا دامَ على المرءِ هانا  
طاب للعطشان ورداً وحناناً  
ناصر الريق إذا الرِّيق حاناً

يمجه بين ثناياكا  
والماءِ يُرويك وينهاكا

أخشى عُقوبةَ مالِكِ  
الأملاكِ

من أنْ أكونَ خليفةَ  
المسواكِ

صَبَّ بحبك دونَ عُودِ أراكِ؟

واقْتلا همِّي بصرفِ عقارِ  
إن للمكروه لَدُعةً تَبَرِّ  
وامزجا كأسِي بريقةِ أَمْي  
من فمٍ قد عُرسَ الدُّرُّ فيه

وقال ابن الرومي: السريع:

يا رَبِّ ريقِ باتِ بَدْرُ الدُّجَى  
يروِي ولا ينهاكِ عن شربِهِ

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر: الكامل:

وإذا سألْتُكِ رَشْفَ ريقِكِ  
قُلْتُ لي:

ماذا عليكِ؟ جُعَلت قبلكِ في  
الثرى!

أيجوزُ عندك أن يكون  
مُتَيِّمٌ

وهذا المعنى يجاوز الإحصاء، ويفوٹ الاستقصاء؛ وكله مأخوذ من قول امرئ القيس:  
المتقارب:

وريحَ الحُرَامِي وتَشَرَّ القُطْرُ  
إذا طَرَبَ الطائِرُ المُسْتَحِرُّ

وريحَ الحُرَامِي وذوَبَ العَسَلِ  
إذا التَّجْمُ وَسَطَ السماءِ  
أَعْتَدَلُ

كَانَ المُدَامَ وَصَوَّبَ العِمامِ  
يُعَلِّ به بَرْدُ أنيابها

فجمع ما فرَّقوه، وأخذَه الجعفري فقَصَّر عنه: المتقارب:

كَانَ المُدَامَ وَصَوَّبَ العِمامِ  
يُعَلِّ به بَرْدُ أنيابها

ويلحق بهذه المعاني من شعر أهل العصر قولُ أبي علي محمد بن الحسين بن المظفر  
الحاتمي - وذكر خمرًا: الكامل:

فَتَنُّ تَقَنَّعَ بالملاحَةِ واعتَجَرَ

يُوحِي إليَّ أن ارتقبهم  
واصْطَبِرْ

تَهْوِي إلى أفرادِ دُرِّ ذِي  
أَشْرُ

كالشمسِ تَعْرُبُ في هِلَالِ  
من قَمَرِ

واضحاً كاللؤلؤِ الرَّطْبِ أَعْرَّ  
كان من ريقِكِ يُسْقَى في  
السَّحَرِ

حَظُّهُ منكِ لِأَتَيْ وشَكَرْ  
بَرْدُ أنيابِكِ في كلِّ سَحَرِ

مِنْ كَفِّ ساقِ أهَيْفِ  
حَرَكَاتِهِ

ناولته كأسِي وكسُرْ  
جُفُونِهِ

فثنى لها أَفلامَ دُرِّ رَحْصَةِ

فتحدَّرَتْ من كأسِهِ في  
تَغْرِهِ

وأهدى أبو الفتح كشاجم لبعض القيان مسواكاً وكتب إليها: الرمل:

قد بعثناه لكي تَجْلُو بِهِ  
طابَ منه العَرْفُ حَتَّى خِلْنُهُ

وَأما واللَّه لو يَعْلَمُ ما

ليتني المهدى فيروي  
عَطَشِي

أملح الشعر وأرقه

وكان دُكْرَ بحضرة ابن أبي عتيق شعر عمر بن أبي ربيعة والحارث بن خالد  
المخزوميين، فقال رجل من ولد خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة: صاحبنا الحارث

أشعر، فقال ابنُ أبي عتيق: دَعُ قولك يَا بَنَ أَخِي، فليشعر ابن أبي ربيعة لَوِطَةً بالقلب، وعَلِقَ بالنفس، ودَوَّكَ للحاجة ليس ليشعر الحارث، وما عَصِي اللُّهُ بشعر قط أكثر مما عَصِي بشعر ابن أبي ربيعة، فحَدُّ عَنِّي مَا أَصْفُ لَكَ: أشعر قريش مَنْ رَفَّ معناه، ولطف مَدَحَ له، وسَهَّلَ مَحْرَجَه، وتعطفت حواشيه، وأنارت معانيه، وأعْرَبَ عن صاحبه، فقال الذي من ولد خالد بن العاص: صاحبنا الذي يقول: الكامل:

إني وما تحزوا عداة مني      عند الجمار تؤودها العُقلُ  
لو بدلتُ أعلى منازلها      سُفلاً وأصبح سُفلها يعلو  
فيكادُ يعرفها الخبيرُ بها      فيرده الإقواءُ والمحل  
لعرفت معناها بما احتملتُ      مني الضلوعُ لأهلها قبلُ

فقال ابنُ أبي عتيق: يا ابن أخي، اسْتُرَّ على صاحبك، ولا تشاهد المحاضر بمثل هذا، أما تطير الحارثُ عليها حين قَلَبَ رَنِعَهَا فجعل عاليه سافله؟ ما بقي إلا أن يسأل الله حجارةً من سجليل وعذاباً أليماً. ابنُ أبي ربيعة كان أَحْسَنَ الناسِ للرَّبعِ مخاطبةً وأجملَ مصاحبةً إذ يقول: الخفيف:

سائلاً الرِّبعَ بالبليِّ وقولا      هجت شوقاً لي العداة طويلا  
أين أهلُ خلوك إذ أنت مسرو      ريهم أهلُ أراك جميلاً؟  
قال: ساروا وأمعنوا،      وبكُرهي لو استطعتُ سبيلا  
واستقلوا

سَمُّوناً بما سَمَّمنا مُقَاماً      واستحبوا دَمَاتَهُ وسهولا  
وها هنا حكاية تأخُّد بطرفِ الحديث، دخل مزيد المدني على مولى لبعض أهل المدينة، وهو جالس على سرير ممهد، ورجلٌ من ولد أبي بكر الصديق وأخز من ولد عمر - رضي الله عنهما! - جالسان بين يديه على الأرض، فلما رأى المولى مريداً تَجَهَّمه، وقال: يا مَزِيد، ما أكثر سؤالك! وأشد إلحافك! جئت تسألني شيئاً؟ قال: لا والله، ولكني أردتُ أن أسألك عن معنى قول الحارث بن خالد: الكامل:

إني وما تحزوا عداة مني      عند الجمار تؤودها العُقلُ  
لو بدلتُ أعلى منازلها      سُفلاً وَأَصْبَحَ سُفلها يعلو  
فلما رأيتك ورأيتُ هذين بين يديك عرفتُ معنى الذي قال. فقال: أعْرَبَ في غير حِفْظِ الله! وصَحَّحَ أهلُ المجلس.  
وأخذ الحارث قوله: الكامل:

لعرفت معناها بما احتملتُ      مني الضلوعُ لأهلها قبلُ  
من قول امرئ القيس؛ قال علي بن الصباح وَرَأَى بن مُحلم: قال لي أبو محلم: أتعرفُ لامرئ القيس أبيانا سينية قالها عند موته في فُرُوحه والحلة المسمومة، غير قصيدته التي أولها: الطويل:

ألمَا عَلَى الرِّبعِ القديمِ بعَسَعَسَا      فقلت: لا أعرف غيرها، فقال: أنسَدني جماعةٌ من الرُّواة: المتقارب:  
لِمِنْ طَلَّلَ دَرَسَتْ آيَةُ      وغيره سالفُ الأخرسِ  
تَنَكَّرُهُ العَيْنُ من حادِثٍ      ويعرفه شَغَفُ الأنفُسِ  
وفد أخذه طريح بن إسماعيل الثقفي، فقال: الكامل:

تَسْتَحِيرُ الدَّمَنَ القِفَارَ ولم      لترد أخباراً على مُسْتَحِيرِ  
تَكَرُّ      مَعْنَى أَحْبَبته وطَرْفٍ مُنْكَرِ  
فَطَلَّلَتْ تحكم بين قلبٍ      عارفٍ

وقال الحسن بن وهب، إشارة إلى هذا المعنى: المنسرح:  
 أَهْلَيْتَ جِسْمِي مِنْ بَعْدِ جِدَّتِهِ  
 فَما تَكَادُ العِيونُ تُبْصِرُهُ  
 كَأَنَّهُ رَسْمٌ مَنْزِلُ حَلْقِ  
 تَعْرِفُهُ العَيْنُ ثُمَّ تَنْكُرُهُ  
 وقال يحيى بن منصور الذهلي: الطويل:  
 أَمَا يَسْتَفِيقُ القَلْبُ إِلَّا أَنْبَرَى  
 لِهُ  
 أَخَادِعَ مِنْ عِرْقَانِهِ العَيْنِ؛  
 إِنَّهُ  
 تَذَكَّرُ طَيْفٍ مِنْ سَعَادٍ وَمَرْبَعٍ  
 مَتَى تَعْرِفُ الأَطْلَالَ عَيْنِي  
 تَدَمِّعُ

وقال آخر: مجزوء الوافر:

ف لِمَ لَا تَعْرِفُ الدَّارَا  
 كَ أَعْلَامًا وَأَثَارَا  
 وَتَبْدِي العَيْنُ إِنْكَارَا  
 وقال أبو نؤاس، وتعلق أولُ قوله بهذا المعنى، وأنا أنشد الأبيات كلها لِمَلَاَحَتْهَا؛ إذ كان  
 الغرض في هذا التصرف هو إرادة الإفادة: الطويل:  
 أَلَا لَا أَرَى مِثْلِي أَمْتَرَى اليَوْمَ  
 تَغْصُّ بِه عَيْنِي وَيَلْفِظُهُ  
 وَهَمِي  
 فِي رَسْمِ  
 أَتَتْ صُورُ الأَشْيَاءِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ  
 فَطَبَّ بِحَدِيثٍ مِنْ حَبِيبِ  
 مَسَاعِدِ  
 ضَعِيفَةٌ كَرَّ الطَّرْفِ تَحْسَبُ  
 أَنَّهَا  
 يَفُوقُ مَالِي مِنْ طَرِيفِ  
 وَتَالِدِ  
 وَإِنِّي لَأَتِي الوَصْلَ مِنْ حَيْثُ  
 يُبْتَغَى  
 وَبِإِقَابَةٍ بَيْنَ المَرَاهِقِ  
 وَالحُلْمِ  
 قَرِيبَةٌ عَهْدٍ بِالإِقَابَةِ مِنْ  
 سَقَمِ  
 تَفُوقِي الصَّهْبَاءَ مِنْ حَلَبِ  
 الكَرَمِ  
 وَتَعْلَمُ قَوْسِي حِينَ أَنْزَعَ مَنْ  
 أَرْمِي

وَرَوَى أَبُو هَفَانَ قَالَ: كَانَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ زِيَادِ الأَعْرَابِيِّ يَطْعَنُ عَلَى  
 أَبِي نَوَاسٍ، وَيَعِيبُ شَعْرَهُ، وَيَضَعُفَهُ، وَيَسْتَلِينُهُ، فَجَمَعَهُ مَعَ بَعْضِ رُؤَاةِ شَعْرِ  
 أَبِي نَوَاسٍ مَجْلِسًا وَالشَّيْخُ لَا يَعْرِفُهُ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُ أَبِي نَوَاسٍ: أَتَعْرِفُ -  
 أَعْرَكَ اللهُ! - أَحْسَنَ مِنْ هَذَا؟ وَأَنْشَدَهُ: ضَعِيفَةٌ كَرَّ الطَّرْفِ... الأبيات،  
 فقال: لا والله، قَلِمَنْ هُوَ؟ قَالَ: لِلذِّي يَقُولُ: الكَامِلُ:

رَسْمُ الكَرَى بَيْنَ الجَفُونِ  
 عَقَى عَلَيْهِ بِكَأُ عَلَيْكَ طَوِيلُ  
 مُجِيلُ  
 يَا نَاطِرًا مَا أَفْلَعَتْ لِحْظَاتُهُ  
 حَتَّى تَشْحَطَ بَيْنَهُنَّ قَتِيلُ  
 فَطَرَبَ الشَّيْخُ، وَقَالَ: وَبِحُكِّ! لِمَنْ هَذَا؟ فَوَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ أَحْوَدَ مِنْهُ لِقَدِيمٍ وَلَا لِمُحَدَّثٍ!  
 فقال: لا أُخْبِرُكَ أَوْ تَكْتِبُهُ؛ فَكَتَبْتَهُ، وَكَتَبَ الأَوَّلُ، فَقَالَ: لِلذِّي يَقُولُ: البَسِيطُ:  
 رَكِبَ تَسَاقُؤًا عَلَى الأَكْوَارِ  
 كَأْسِ الكَرَى فَانْتَشَى المَسْقِيُّ  
 بَيْنَهُمْ  
 كَأَنَّ أَرْوُسَهُمُ وَالنُّومُ  
 وَاضِعُهَا  
 سَارُوا فَلَمْ يَقْطَعُوا عَقْدًا  
 عَلَى المَنَاكِبِ لَمْ تُحَلَّقْ  
 بِأَعْنَاقِ  
 حَتَّى أَنَاخُوا إِلَيْكُمْ قَبْلَ

لِرَاحِلَةٍ  
مِنْ كُلِّ جَائِلَةِ الطَّرْفَيْنِ  
ناجِيَةً  
إِشْرَاقِي  
مُشْتَاقَةً حَمَلْتُ أَوْصَالَ  
مُشْتَاقٍ  
فَقَالَ: لِمَنْ هَذَا؟ وَكُتِبَ. فَقَالَ: لِلَّذِي تَدُمُّهُ، وَتَعْيِبُ شَعْرَهُ، أَبِي عَلِيٍّ الْحَكَمِيِّ! قَالَ: أَكُتْمُ عَلِيٍّ، فَوَاللَّهِ لَا أَعُودُ لِدَلِّكَ أَبَدًا.  
أَخَذَ قَوْلَهُ: كَأَنَّ أَرْوُسَهُمُ وَالنُّومُ وَاضْعُهَا أَبُو الْعَبَّاسِ بْنِ الْمَعْتَزِ، فَقَالَ يَصِفُ شَرِّبًا:  
الطَّوِيلُ:

كَأَنَّ أَبَارِيْقَ اللَّجَيْنِ لَدَيْهِمْ  
وَقَدْ شَرَبُوا حَتَّى كَانُوا  
رُؤُوسَهُمْ  
طِبَاءٌ يَأْغَى الرَّقْمَتَيْنِ قِيَامُ  
مِنَ اللَّيْلِ لَمْ يُخْلَقْ لَهُنَّ  
عِظَامُ  
الْبَيْتُ الْأَوَّلُ مِنْ هَذَيْنِ مِنْ قَوْلِ عُلُقَمَةَ بْنِ عَبْدِ: وَالْبَسِيطُ:  
كَأَنَّ إِبْرِيْقَهُمْ طَبِيٌّ عَلَى  
شَرَفٍ  
مُقَدَّمٌ بِسَبَابِ الْكَثَّانِ مَلُتُومٌ

أَرَادَ بِسَبَابِ، فَحَذَفَ. وَقَدْ أَحْسَنَ مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي قَوْلِهِ: الْكَامِلُ:  
إِبْرِيْقَتَا سَلَبِ الْعِزَالَةِ جِيْدَهَا  
يَسْتَقِيكَ بِالْأَلْحَاطِ كَأَنَّ صَبَابَةَ  
وَأَنشَدَ الْحَارِثُ بْنُ خَالِدٍ أَبِيَاتَهُ: الْكَامِلُ:  
إِنِّي وَمَا تَحَرُّوا عَدَاةَ مِنِّي

لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو، فَلَمَّا بَلَغَ إِلَى قَوْلِهِ: الْكَامِلُ:

لَعَرَفْتُ مَعْنَاهَا بِمَا احْتَمَلْتُ  
مِنِي الصُّلُوعُ لِأَهْلِهَا قَبْلُ  
قَالَ لَهُ ابْنُ عَمْرِو: قُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: إِذَا تَفَسَّدَ الشَّعْرُ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ: لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ يُفْسِدُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.  
وَكَانَ الْحَارِثُ بْنُ خَالِدٍ أَحَدَ الْمَجِيدِينَ فِي التَّشْيِيبِ، وَلَمْ يَكُنْ يَعْتَقِدُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا يَقُولُهُ تَضَرُّفًا وَتَخْلَعًا، وَكَانَ أَكْثَرَ شَعْرَهُ فِي عَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ، فَلَمَّا قُتِلَتْ عَنْهَا مُضْعَبُ بْنُ الزَّبِيرِ قِيلَ لَهُ: لَوْ خَطَبْتَهَا! قَالَ: إِنِّي لِأَكْرَهُ أَنْ يَتَوَهَّمُ النَّاسُ عَلَيَّ أَنِّي كُنْتُ مَعْتَقِدًا لِمَا أَقُولُ فِيهَا، وَهُوَ الْقَائِلُ: الْبَسِيطُ:

يَا أُمَّ عِمْرَانَ مَا زَالَتْ وَمَا  
بَرَحَتْ  
الْقَلْبُ تَاقَ إِلَيْكُمْ كَيْ  
يَلَاقِيَكُمْ  
تُوفِيكَ شَيْئًا قَلِيلًا وَهِيَ  
خَائِفَةٌ  
بَنَا الصَّبَابَةَ حَتَّى مَسَّنَا  
الشَّقَقُ  
كَمَا يَتَوَقَّعُ إِلَى مَنَاجِيهِ الْعَرِيقُ  
كَمَا يَمْسُ بِظَهْرِ الْحَيَةِ  
الْقَرِيقُ

أَخَذَ هَذَا الطَّائِيُّ فَحَسَّنَهُ فَقَالَ: الْكَامِلُ:

تَأْبِي عَلَى التَّضَرِّيدِ إِلَّا تَائِلًا  
نِزْرًا كَمَا اسْتَكْرَهَتْ عَابِرَ  
نَفْحَةٍ

وَحَجَّتْ عَائِشَةُ بِنْتُ طَلْحَةَ، فَوَجَّهَ إِلَيْهَا يَسْتَأْذِنُهَا فِي الزِّيَارَةِ، فَقَالَتْ: نَحْنُ حَرَامٌ، فَأَخَّرَ ذَلِكَ حَتَّى نَحَلَّ، فَلَمَّا أَحَلَّتْ أَدْلَجَتْ وَلَمْ يَعْلَمْ، فَكُتِبَ إِلَيْهَا: الْكَامِلُ:

مَا ضَرَكُمْ لَوْ قُلْتُمْ سَدَدًا  
وَلَهَا عَلَيْنَا نِعْمَةٌ سَلَفَتْ  
لَوْ تَمَمَّتْ أَسْبَابَ نِعْمَتِهَا  
إِنِّي وَإِبَاهَا كَمَفْتَتَيْنِ  
إِنَّ الْمَنِيَّةَ عَاجِلُ عَدُّهَا  
لَسْنَا عَلَى الْأَيَّامِ تَجَحَّدُهَا  
تَمَّتْ بِذَلِكَ عِنْدَنَا يَدُّهَا  
بِالنَّارِ تَحْرِيقُهُ وَيَعْبُدُّهَا

وابنُ أبي عتيق هذا هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه! وكان من أفاضل رَمَانِهِ عِلْمًا وَعِفَافًا، وكان أخلَى الناس فِكَاهَةً، وأظرفهم مزاحًا، وله أخبار مستظرفة سيمرُّ منها ما يُسْتَحْسَن إن شاء الله.

روى الزبير بن أبي بكر أنه دخل على عائشة - يعني بنت طلحة، رضي الله عنهما! - وهي لما بها؛ فقال: كيف أنت، جُعِلْتُ فداك؟ قالت: في الموت، قال: فلا إذا، إنما ظننت في الأمر فُسْحَةً، فضحكت، وقالت: ما تدعُ مَرْحَكَ بحال.

وفيه يقول عمر بن أبي ربيعة القرشي: المديد:

لَيْتَ شعري هل أقولن لركب      بفلانة هم لديها حُشوعُ  
طالما عرَّسْتُم فاستقلوا      حان من نجم الثريا طلوعُ  
إنَّ همِّي قد تقى النوم عني      وحديث النفس مني يروعُ  
قال لي فيها عتيق مقالاً      فجرت مما يقول الدموعُ  
قال لي: ودع سليماً ودعها      فأجاب القلب: لا أستطيع  
لا تلمني في اشتياقي إليها      وابك لي مما تجنُّ الصلوعُ

قال أبو العباس محمد بن يزيد: قوله: حان من نجم الثريا طلوع كناية، وإنما يريد الثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر، وكانت موصوفةً بالجمال، وتزوجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، فنقلها إلى مصر، وفي ذلك يقول عمر، وضرب لهما المثل بالنجمين: الخفيف:

أبها المنكح الثريا سهيلاً      عمرك الله، كيف يلتقيان؟  
هي شامية إذا ما استقلت      وسهيل إذا استقلَّ يمانِي

فمات سهيل عنها، أو طلقها، فخرجت إلى الوليد بن عبد الملك وهو خليفة دمشق تطلب في دین عليها، فبينما هي عند أم البنين ابنة عبد العزيز إذ دخل الوليد فقال: مَنْ هذه عندك؟ قالت: الثريا، جاءتك تطلب في دین ارتكبتها، فأقبل الوليد عليها، فقال: أتروين من شعر عُمر بن أبي ربيعة شيئاً؟ قالت: نعم، أما إنه رحمه الله كان عفيفاً، عفيف الشعر، أروي له قوله: الخفيف:

ما على الرِّسْمِ بالبليين لو      ن رجع السلام أو لو أجابا

بي  
فإلى قصر ذي العُشيرة      فأمسى من الأيس يتابا

وبما قد أرى به حي صدق      ظاهري العيش نعمةً وسبأبا  
وجساناً، جوارباً، حفراتٍ،      حافظاتٍ عند الهوى الأُحْسَابَا  
لا يُكْتَرَن بالحديث ولا يت      بعن، يتعقن باليهام، الطرابا

فلما خلا الوليد بأم البنين قال: لله دُرُّ الثريا! أتدريين ما أرادَتْ بإنشادها ما أنشدت من شعر عمر؟ قالت: لا، قال: فأني لما عرَّضت لها بعمر عرَّضت بأن أمي أعرابية؛ وأم الوليد ولادة ابنة العباس بن جزء بن الحارث بن زهير العبسي، وهي أم سليمان، ولا تُعلم امرأة ولدت خليفتين في الإسلام غيرها، وغير الخيزران، وهي سبية من خرسنة، ولدت موسى الهادي وهارون الرشيد ابني محمد المهدي، وشاهسفرم بنت فيروز بن بزجر بن شهریار بن كسرى أبروير؛ فإنها ولدت للوليد بن عبد الملك يزيد بن الوليد الناقص وإبراهيم بن الوليد المخلوع؛ جلس في الخلافة بعد أخيه يزيد مدة يسيرة، ثم جاء مروان بن محمد بن مروان آخر ملوك بني أمية فخلعه وولي بعده.

وسببه بقول الثريا في باب التعريض أنه دخلت عرَّة على عبد الملك بن مروان، فقال لها: أنت عرَّة كثير؟ قالت: أنا أم بكر الضمريّة، قال لها: يا عرَّة؟ هل تروين من شعر كثير شيئاً؟ قالت: ما أعرفه، ولكن سمعت الرواة ينشدون له: الطويل:

وَعَرَّةٌ مَمْطُولٌ مُعْتَى غَرِيمُهَا

قَصَى كُلَّ ذِي دَيْنٍ فَوْفَى  
غَرِيمَهُ

قال: فتروين قوله: الطويل:

وَمَنْ ذَا الَّذِي يَا عَزَّ لَا يَتَغَيَّرُ؟  
عَهْدَتْ وَلَمْ يُخْبَرْ بِسَرِّكَ  
مُخْبِرٌ

وقد زعمتُ أني تَغَيَّرْتُ بَعْدَهَا  
تَغَيَّرَ حَالِي وَالْخَلِيقَةُ كَالَّذِي

قالت: ما سمعت هذا، ولكن سمعتهم ينشدون: الطويل:

مَنْ الصَّمُّ لَوْ تَمَشَيْتُ بِهَا  
الْعُصْمُ زَلَّتْ

كَأَنِّي أَنَادِي صَخْرَةً حِينَ  
أَعْرَضْتُ

فَمَنْ مَلَ مِنْهَا ذَلِكَ الْوَصْلَ  
مَلَّتْ

عَضُوبًا فَمَا تَلَقَّاكَ إِلَّا  
بِخَيْلَةٍ

قال: وكُلُّ ما ذَكَرَ ابْنُ أَبِي رَيْبَعَةَ فِي شِعْرِهِ مِنْ عَتِيقٍ، أَوْ أَبِي عَتِيقٍ، فَإِنَّمَا هُوَ ابْنُ أَبِي عَتِيقٍ، وَكَانَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَيْبَعَةَ، وَاسْمُ أَبِي رَيْبَعَةَ حَذِيفَةَ، ابْنُ الْمَغِيرَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِ بْنِ مَخْزُومٍ، وَيَكْنَى أَبُو الْخَطَّابِ، أُمُّهُ أُمٌ وَلِدَ سَبِيَّةً مِنْ حَضْرَمَوْتِ، وَيُقَالُ مِنْ حَمِيرٍ، وَمِنْ ثَمَّ أَنَا الْعَرَّلُ؛ لِأَنَّهُ يُقَالُ: عَشِقْتُ يَمَانِي، وَدَلَّ حِجَازِي. قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمَوْصِلِيُّ: الْخَفِيفُ:

مَعَ طَبَّيٍّ مِنَ الطُّبَّاءِ الْجَوَازِي  
مَعَ طَرْفِ الْعِرَاقِ دَلُّ الْحِجَازِ

إِنْ قَلْبِي بِالتَّلِّ تَلَّ عَزَازِ  
سَّادِينَ لَمْ يَرَ الْعِرَاقَ وَفِيهِ  
وَقَالَ الطَّائِي وَذَكَرَ نَفْسَهُ: الْكَامِلُ:

مِنْهُ الْعِرَاقُ، وَرَفَقَتَهُ الْمَشْرِيقُ

قَدْ تَفَقَّطَ مِنْهُ الْحِجَازُ،  
وَسَهَّلَتْ

وَهَجَرَتِ الثَّرِيَا عَمْرًا، فَقَالَ: الْخَفِيفُ:

أُحِبُّ الْقَوْلَ أَحْتَّ الرَّبَّابُ؟

قَالَ لِي صَاحِبِي لِيَعْلَمَ مَا  
بِي:

ءِ إِذَا مَا فَقَدْتَ بَرْدَ الشَّرَابِ

قَلْتُ: وَجَدِي بِهَا كَوَجْدِكَ  
بِالْمَا

مُهِجَتِي؟ مَا لِقَاتِلِي مِنْ مَتَابِ  
بَيْنَ خَمْسِي كَوَاعِبِ أَتْرَابِ

أَرْهَقْتُ أُمَّ تَوْقَلٍ إِذْ دَعَّيْتُهَا  
أَبْرَزُوهَا مِثْلَ الْمَهَاةِ تَهَادَى

فِي أَدِيمِ الْخَدَيْنِ مَاءُ  
الشَّبَابِ

وَهِيَ مَكْنُونَةٌ تَحْدَرُ مِنْهَا

عَدَدَ الرَّمْلِ وَالْحَصَى وَالثَّرَابِ

ثُمَّ قَالُوا: تُحِبُّهَا؟ فَلْتُ: بَهْرًا  
وَلَمَّا بَلَغَ ابْنُ أَبِي عَتِيقٍ قَوْلَهُ:

صِفْتُ ذَرْعًا بِهَجْرَتِهَا وَالكِتَابِ

مَنْ رَسُولِي إِلَى الثَّرِيَا؟  
فَأَنِي

قال: إِيَّاي أَرَادَ، وَبِي هَتَفَ وَتَوَّهَ، لَا حَرَمَ لَا دُفْتُ طَعَامًا أَوْ أَشْخَصَ إِلَيْهَا، وَأَصْلِحَ بَيْنَهُمَا؛ قَالَ مَوْلَى لَبْنِي تَمِيمٍ: فَنَهَضَ وَنَهَضْتُ مَعَهُ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى السُّوقِ إِلَى الضَّمْرَتَيْنِ، فَأَتَى قَوْمًا مِنْ بَنِي الدَّيْلِ بْنِ بَكْرِ يَكْرُونَ النَّجَائِبَ، فَقَالَ: بِكُمْ نَكْرُوتِي رَاحَتَيْنِ إِلَى مَكَّةَ؟ قَالُوا: بِكَذَا وَكَذَا دَرَاهِمًا، فَقَلَّتْ لِبَعْضِ التَّجَارِ: اسْتَوْصِعُوا شَيْئًا، فَقَالَ ابْنُ أَبِي عَتِيقٍ: وَيْحَكَ! إِنْ الْمِكَّاسُ لَيْسَ مِنْ أَخْلَاقِ الْإِنْسَانِ. ثُمَّ رَكِبَ وَاحِدَةً وَرَكِبْتُ أُخْرَى، وَأَجَدْتُ السَّيْرَ، فَقَلْتُ: أَرْفُقْ بِنَفْسِكَ، فَقَالَ: وَيْحَكَ! أَبَادِرْ حَيْلَ الْوَصْلِ أَنْ يَنْقَضِبَا. وَمَا أَمْلَحَ الدُّنْيَا إِذَا تَمَّ الْوَصْلُ بَيْنَ عَمْرِ وَالثَّرِيَا! فَقَدِمْنَا مَكَّةَ وَأَتَى بَابَ الثَّرِيَا، فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا كُنْتُ لَنَا رَوَّارًا، فَقَالَ: أَجَلْ، وَلَكِنْ جِئْتُ بِرِسَالَةٍ، يَقُولُ لَكَ ابْنُ عَمِّكَ عَمْرٌ: صِفْتُ ذَرْعًا بِهَجْرَتِهَا وَالكِتَابِ.

فلامه عمر، فقال ابن أبي عتيق: إنما رأيتك مبادراً تَلْتَمِسُ رسولاً، فحَقَفْتَ في حاجتك،  
فإنما كان ثوابي أن أشكر.

ووصف ابن أبي عتيق لعمر امرأةً من قومه، وذكر جمالاً رائعاً، وعقلاً فائقاً، فرآها عمر،  
فشَبَّ بها، فغَضِبَ ابنُ أبي عتيق وقال: تشبَّبَ بامرأة من قومي؟ فقال عمر: الخفيف:

لا تَلْمَنِي عتيقُ حَسْبِي الذي  
بي

إن بي مُضَمَّراً من الحبِّ قد  
أب

لا تَلْمَنِي فَأَنْتَ رَبَّتْهَا لي.

فقال ابن أبي عتيق:

أَنْتَ مِثْلُ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ

فقال عمر: هكذا وَرَبُّ الكعبةِ قلت.

فقال ابن أبي عتيق: إن شَيْطَانَكَ وَرَبُّ القَبْرِ ربما أَلَمَّ بي! وَحَجَّتْ رملة بنت عبد الله  
بن خلف أخت طلحة الطلحات، فقال عمر فيها: الخفيف:

أصبح القلبُ في الحبال  
رَهِيناً

ولقد قلت يومَ مكة سِراً  
أنتِ أهوى العباد قُرْباً وَبُعْداً

قاده الحينُ يومَ سَرْنَا إلى  
الح

فإذا نعجة تراعي نِعَاجاً  
فَسَبَّئَنِي بمقلةٍ وَبِحَيْدٍ

قلتُ من أنتم؟ فَصَدَّتْ  
وقالت

أَنْ تَبَلَّتِ الفؤَادَ أَنْ تصدقينا  
فأبيني لنا ولا تكذبينا  
أخبريه بعلم ما تكتمينا  
قبلها قاطنينَ مكة حيناً  
ت؟ عسى أن يجر شأنُ  
شؤوننا

ت ظنوناً وما قَتَلْنَا يقينا  
قد نراه لناظرٍ مُسْتَبِيناً

قولها: وكنا قبلها قاطنين مكة حيناً أرادت إذ كانت مكة لخزاعة. وكان آخر من تَبَدَّ  
مفتاح الكعبة من خُزَاعَةَ أبو عُبَيْشَانَ، فباعه من قَصِي بَرْقِ خمر؛ ففيل في المثل:  
أخسر صفقةً من أبي عُبَيْشَانَ. وكان أبو عُبَيْشَانَ إذ باعَ المفتحَ قُصِيّاً مريضاً قد يئس من  
نفسه، فلما أبل من مرضه لأمه قومه، وسأله استرجاعه، وذلك الذي هاج الحرب بين  
خُزَاعَةَ وقريش، فظفر قُصِي وَاستولى على مكة، وجمع قريشاً بها؛ ولذلك سمي  
مجمعاً، قال مطرف الخزاعي: الطويل:

أبوكم قُصِي كان يُدْعَى  
مُجَمَّعاً

وقال الطائي: الطويل:

ولمَّا نَصَا ثوبَ الحياةِ  
به نائباتُ الدهر ما يُتَوَقَّعُ

وَأَوْقَعَتْ  
غدا ليس يَدْرِي كيف يصنع  
مُعْدَمٌ  
ولم أنس سَعْيِي الجودِ خَلْفَ  
سريره  
وتكبيره حَمْساً عليه مَعاً  
لَنَا  
وما كنتُ أدري يَعْلَمُ اللَّهُ  
قَبْلَهَا  
عَدَوًا في زوايا نعشه  
وكأَمَّا  
وقال الشاعر في أمر قصي وأبي عُبَيْشان: الوافر:  
أبو عُبَيْشانَ أَظْلَمُ مِنْ قُصَيٍّ  
فلا تَلَحَّوْا قُصَيًّا في شِرَاهُ  
وكان عمر أسود الثنيتين.  
قال مولى ابن أبي عتيق بلال: أتيتُ الثريا مسلماً عليها، فقالت: أنشدني لعمر،  
فأنشدتها: الخفيف:

أَصْبَحَ القَلْبُ في الجِبَالِ رَهِيناً  
فقال الثريا: إي والله، لئن سلّمت له لأردن من سآوه، ولأثنين من عتانه، ولأعرفته  
نفسه! فمهرت فيها حتى انتهيت إلى قوله: الخفيف:  
قُلْتُ مَنْ أَنْتُمْ فَصَدَّتْ وَقالت أُمِّدْ سؤَالَكَ العالَمِينَا؟  
فقال: أو قد أجابته بهذا؟ أي وقت؟ فلما انتهيت إلى قوله: الخفيف:

وترى أننا عرفناك بالثعب  
قالت: جاءت النوكاء بأخر ما عندها من موقف واحد،  
وسأله أخوه الحارث - وهو المعروف بالقباع، وكان من أفاضل أهل دهره - أن يترك  
الشعر، ورغب إليه في ذلك، ووعظه، فقال: أمّا ما دمك بمكة فلا أقدر، ولكنني أخرج  
إلى اليمن، فخرج؛ فلما سار إلى هناك لم تدعه نفسه وترك الشعر، فقال: البسيط:

هيهات من أمة الوهاب  
منزلنا  
واحتل أهلك أجياداً، وليس  
لنا  
بل ما نسيت غداة الخيف  
موقفها  
وقولها للثريا وهي مطرقة  
بالله قولي له في غير  
معتبة  
إن كنت حاولت دُنياً أو  
ظفرت بها

فلما بلغ الشعر الحارث قال: قد علمنا أنه لا يفي.  
وروى سفيان بن عيينة عن ابن جريح قال: لزمني دين مرّة فضاقت  
ساحتي وبلادتي بي، فتوجهت إلى معن بن زائدة باليمن، فقال: ما أقدمك

هذه البلدة: قلت: دَيْن طردني عن وطني، قال: يُفْصَى دَيْتُكَ، وَتُرَدُّ إِلَى  
وطنك محبوبًا مَحْبُورًا، قال: فأقمت عنده، ثم رأيتُ الناس يرحلون إلى  
الحجِّ، فحننت إلى مكة، وذكرت قول ابن أبي ربيعة، وذكر الأبيات... فأثيْتُ  
باب مَعْن، فقلت للحاجب: استأذِنْ لي على الأمير، فلمَّا دخلت عليه قال:  
إِنَّ لَكَ لِحَادَثَ حَبْرٍ! قلت: أَسْتَوِدِعُ الله الأمير وأستحفظه عليه. قال: وما  
هاج هذا مِنْكَ؟ فقلت: رأيت خروج الناس إلى الحجِّ، وذكرت قولَ عمر،  
فحننت إلى مكة، فقال: أَنْتَ وحنينك، وإن كنتُ بفراقك صَنِينًا، وسيُتَّبَعُكَ ما  
تحتاجُ إليه؛ فسيرُ مُصَاحِبًا، قال: فَسِرْتُ إِلَى رَحْلِي، فَأَتَبَعَنِي بِمَالٍ وَثِيَابٍ  
وَمَطَايَا وَدَوَابٍّ، وَسَرْتُ إِلَى مَكَّةَ مِنْ قَوْرِي.

وكان عمر - على عَزَلِهِ، وما يذكره في شعره - عَفِيفًا. حَدَّثَ المَغِيرَةَ بن  
عبد الرحمن عن أبيه قال: دخلت مع أبي مكة، فجاءه عمر، فسلم عليه،  
وأنا غلام شابٍّ وعلِيٌّ جَبَّةً، فجعل يأخُذُ بخصلة من شَعْرِي فتمتدُّ في يده،  
يُزِيلُهَا فترجع، فيقول: واشباباه! فَمَالُ لي: يا ابن أخي، قد سمعت قولِي:  
قُلْتُ لَهَا وَقَالَتْ لِي؛ وَكُلَّ مَمْلُوكٍ لِي حَرٌّ إِنْ كُنْتُ قَطُّ كَشَفْتُ عَنْ فَرْجِ  
حَرَامٍ! قال: فقممت وفي نَفْسِي من يمينه شيء؛ فسألْتُ عن رَقِيقِهِ، فقيل  
لي: أما في هذا الحول فسبعون.

ويستحسن قول عمر في المساعدة: الوافر:

وَخَلَّ كُنْتُ عَيْنَ النَّصْحِ مِنْهُ إِذَا نَظَرْتُ وَمَسْتَمِعًا مُطِيعًا  
أَطَافَ بَعِيَّةٍ فَتَهَيْتُ عَنْهَا وَقُلْتُ لَهُ: أَرَى أَمْرًا شَنِيعًا  
أَرَدْتُ رَشَادَهُ جُهْدِي، فَلَمَّا أَبِي وَعَصَى أَثِيَّتَاهَا جَمِيعًا

وهذا مأخوذ من قول دريد بن الصِّمَّة الجُشَمِي: الطويل:

أَمَرْتُهُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللَّوَى فَمَنْ يَسْتَبِينُوا الرُّشْدَ إِلَّا صَحَا  
فقلت لهم؛ طُنُوا بِالْقِيِّ إِذَا نَظَرْتُ وَمَسْتَمِعًا مُطِيعًا  
مُدَجِّحٍ سَرَاتُهُمْ فِي الْفَارِسِيِّ وَقُلْتُ لَهُ: أَرَى أَمْرًا شَنِيعًا  
فلما عصوني كنتُ منهم وقد أَبِي وَعَصَى أَثِيَّتَاهَا جَمِيعًا  
أرى غوايتهم وأنني عَيْرٌ مُهْتَدِي وَإِنْ تَرَشَّدُ عَزْبُهُ  
وما أنا إلا من عَزْبِيَّةٍ إِنْ عَوْتُ أَرَشَّدِ

ومن جيد شعره: الطويل:

يقولون إنني لستُ أضدق في وَإِنِّي لَا أَرَعَاكَ حِينَ أُغِيبُ  
الهُوَى لَه أَنْفُسٍ مِنْ مَعَشَرٍ  
فما بال طَرْفِي عَفَّ عَمَّا وَقُلُوبُ  
تَسَاقَطَتْ عَشِيَّةً لَا يَسْتَنكِرُ الْقَوْمُ أَنْ لِيْب  
يَرَوْا وَلَا فَتَنَةً مِنْ نَاسِكٍ أَوْ مَضَتْ بَعَيْنُ الصَّبَا كَسَلَى الْقِيَامِ  
لَهُ تَرَوِّحَ يَزْجُو أَنْ تُحَطَّ دُنُوبُهُ لَعُوبُ  
وما النَّسِكُ أَسْلَانِي، وَلَكِنْ عَلَى الْعَيْنِ مَنِّي وَالْفَوَادِ رَقِيبُ  
لِلْهُوَى

ونظر عمر بن أبي ربيعة إلى فتى من قريش يكلم امرأة في الطواف، فعاب ذلك عليه، فذكر أنها ابنة عمه، فقال: ذلك أشنع لأمرك، فقال: إني خطبتها إلى عمي، وإنه زعم أنه لا يزوجني حتى أصدقها أربعمئة دينار، وأنا غير قادر على ذلك، وذكر من حاله وجه لها؛ فأتى عمر عمه، فكلمه في أمرها، فقال: إنه مملوك، فزوجه، وساق عمر عنه المهر.

وكان عمر حين أسر خلفي ألا يقول بيتاً إلا أعتق رقبة، فانصرف إلى منزله يحدث نفسه، فجعلت جاريته تكلمه ولا يجيبها؛ فقالت: إن لك لساناً، وأراك تريد أن تقول شعراً، فقال: الوافر:

طَرَبْتُ وَكُنْتُ قَدْ أَقْصَرْتُ  
جِيناً

وهاج لك الهوى داءً دفيناً  
إذا ما شئت فارقت القرينا  
فشاقك أم لقيت لها حدينا؟  
كبعض رماننا إذ تعلمينا  
فذكر بعض ما كنا نسينا

تقول وليدتي لما رأيتني

أراك اليوم قد أهدت أمراً  
وكنت زعمت أنك ذو عزاء  
لعمرك هل رأيت لها سمياً  
فقلت: شكا إلي أخ مجب  
فقص علي ما يلقي بهند

مشوق حين يلقي  
العاشقينا

لغير قلبي، وكنث بها صنيينا  
وإن جنّ الفؤاد بها جنونا

و ذو الشوق القديم وإن  
تعزى

فكم من حلة أعرضت عنها  
أردت يعادها فصددت عنها  
ثم دعا تسعة من رقيقه  
فأعتقهم.

قال عثمان بن إبراهيم: حججت أنا وأصحاب لنا، فلما رجعنا من مكة مررنا بالمدينة، فرأينا عمر بن أبي ربيعة، وقد نساك وترك قول الشعر، فقال بعضنا لبعض: هل لكم فيه؟ فمِلنا إليه، وسلمنا عليه، وجلسنا وهو ساكت لا يكلمنا. فقال له بعضنا: أيعجبك قول الفرزدق: البسيط:

فبت مُسْتَلْهِياً من بعد  
مَسْرَاهَا

إن كنتِ تَمْتَالِهَا أو كُنْتِ  
إِيَاهَا

حتى نقول: دنت منا برباها

هيهات مصبحها من بعد  
مُمسَاهَا

من نحو بلدتها تاع فينعها  
وتضمير النفس ياساً ثم  
تسلاها

يا بؤس للدهر ليت الدهر  
أبقاها

فلم يهش لذلك! فقال الآخر: أيعجبك قول العُدري: البسيط:

لمر يهوي سريعا نحوها  
راسي

سرت لعينك سلمى بعد  
مَعْقَاهَا

فقلت: أهلاً وسهلاً! من  
هَذَاكِ لنا؟

تأتي الرياح التي من نحو  
بلدتك

وقد تراخت بهم عتاً نوى  
قذفت

من أجلها أتمنى أن يلاقيني  
كيما أقول: افتراق لا اجتماع  
له،

ولو تموت لراعنتني وقلت  
لها:

لو حرّ بالسيف رأسي في  
موتها

ولو بلى تحت أطباق الثرى  
جَسَدِي  
أو يقبض الله رُوحِي صَارَ  
ذِكْرُكُمْ  
لولا نسيم لذكراكم  
يُرْوِحُنِي  
لكنت أبلَى وما قلبي لكم  
تَاسِي  
رُوحاً أَعِيشُ بِهِ مَا عَشْتُ فِي  
النَّاسِ  
لكنتُ محترقاً من حَرِّ  
أَنفَاسِي

فتحرّك ثم قال: يا ويحَه! أيعدم ما يحزُّ رأسه يَمِيلُ إليه؟ ثم أنشأ يحدثنا، فقال: أتاني خالد الدليل، فقال: إن هندا وأثربها بموضع كذا وكذا من الصحراء أيام الربيع، فقلت: كيف الحيلة؟ فقال: تتلثم وتكثفل كأنك طالِبُ ضالّة، ففعلت، فدُفعت إليهنّ، فقلن: يا أعرابي، ما تطلب؟ قلت: ضالّة لي، فقلن: قد كَلِيتَ يا أعرابي، فلو جِلست فأصبت من حديثنا وأصبتنا من حديثك، ولعلك تروح إلى وجود ضالتك، فنزلت؛ فلما امتدّ الحديث بنا حسرت هِنْدُ لِنَامِي، وقالت: أترأك خدعتنا؟ نحن والله خَدَعْتَاكَ، وبعتنا إليك خالداً، رأينا خلاءً ومنظراً فأردتَاكَ، ونظرت في دِرْعِي فأعجبني ما رَأَيْت، فقلت: يا أبا الخطاب، قال عمر: فقلت: لبيك، وفي ذلك أقول: الطويل:

ألم تسأل الأطلالَ  
والمُتَرَبِعَا  
إلى السّرح من وادي المغمس  
بُدِّلْتُ  
فبيخَلن أو يُخَيَّرن بالعلم  
بَعْدَمَا  
لهند وأترابٍ لهند إذ الهوى  
وإذ لا نطيعُ العاذلين ولا تَرَى  
وإذ نحنُ مثلُ الماء كان  
مِرَاجُهُ  
ثُوغَتَنَ حتى عاودَ القلبَ  
حَبْلُهُ  
فقلت لمُطَرِبِهِنَّ بِالْحُسْنِ:  
إنما  
وأشريت فاستشري وقد كان  
قد صَحَا  
لئن كان ما حُدِّثْتُ حَقّاً فما  
أرى  
فقال: فقم فانظر، فقلتُ:  
وكيف لي؟  
فقال: اكنفل ثم التثم فأت  
باغيا  
فأقبلتُ أهوي مثل ما قال  
صاحبي

فلما تواقفنا وسلّمْتُ  
وَجُوهَ رَهَاهَا الْحَسْنُ أَنْ



أستر شيئاً لو كان يمكنني  
وقد بين العلة التي أوجبت اهتمامه في قوله: الطويل:  
تعممت إحصاناً لرأسي  
بُرْهَةً  
فلما دَهَى طولُ التعمم  
لِمَتِي  
عزمت على لبسِ العمامة  
حيلةً  
فيا لك من جانٍ عليّ جنايةً  
وأعجب شيء كان دائي  
جعلته  
وهذا كقوله، وإن لم يكن في معناه، وقد رأيت من ينسبه إلى كشاجم: الوافر:  
طربتُ إلى المِراةِ فرَوَعْتَنِي  
فأما سَنِيبةٌ فَفَزَعَتْ منها  
وأما سَنِيبةٌ فصفحتُ عنها  
فأعجبٌ بالدليل على مَشِيبي  
وهو القائل في صفة رجل أصلع: السريع:  
يجذب من نقرته طرّةً  
فوجّههُ يأخُذُ من رأسيهِ  
وقال أعرابي: الرجز:  
قد ترك الدهرُ صفاتي  
صَفْصَفًا  
كأنه قد كان رَبْعًا قَعَقًا

قال أعرابيٌّ لسليمان بن عبد الملك: إني أكلّمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله، فإن وراءه إن قيلته ما تحبه، قال: هاته يا أعرابي، فنحن نجوّد بسعة الاحتمال عليّ من لا نأمن عَيْبته، ولا نرجو نصيحته، وأنت المأمون غيباً، الناصح جيباً. قال: إني سأطلقُ لساني بما حرّست عنه الألسن، تاديةً لحقّ الله تعالى؛ إنه قد اكتفك رجالُ أساءوا الاختيارَ لأنفسهم؛ وابتاعوا دُنياك بدينهم، ورضاك بسخطِ ربهم، وخافوك في الله ولم يخافوا اللهَ فيك، فهم حربٌ للأخرة، وسلمٌ للدنيا، فلا تأمنهم على ما اتّمتك اللهُ عليه؛ فإنهم لم يألوا الأمانةَ تضييعاً، والأمةَ كسفاً وحسفاً، وأنت مسؤولٌ عما اجترموا، وليسوا مسؤولين عما اجترمت؛ فلا تُصلِحْ دنياهم بفسادِ آخرتك؛ فإن أعظم الناس عند الله عَبْنًا مَنْ باعَ آخرته بَدُئياً غيره.

فقال سليمان: أما أنت يا أعرابي، فقد سللت لسانك وهو سَيْفُك، قال: أجل يا أمير المؤمنين، لك لا عليك.

وروى العتبي عن أبيه عن مولى لعمر بن حريث قال: شخّصت إلى سليمان بن عبد الملك، فقيل لي: إنك تردُّ عليّ أفصح العرب، وسيسألك عن المطر، فانظر ما تجيبه، فقلت: ما عندي من الجواب إلا ما عند العامة، فقيل لي: ما ذلك بمُفنعٍ عنده، فلقيني أعرابي فقلت: هل لك في درهمين. فقال: إني والله محتاج إليهما، حريصٌ عليهما، فما سَأَلْتُكَ؟ فقلت: لو سألتُك سائلٌ عن هذا المطر بم كنت تُجيبه؟ قال: أو يَعْجَبُ بهذا أحد؟ قلت: نعم، سَأَلْتُكَ! قال: أتَعْجَبُ أن تقول: أصابتنا سماءٌ، عمد لها الثرى، واتصل بها العرى، وقامت منها العُدْر، وأتتك في مثل وجار الصَّبْع؟ فكتبتُ الكلام، وأعطيتُه درهمين: فكان هَجْرًا على الرَّاحلة، فإذا نزلت أقبلت عليه وأمثل نفسي كاني واقفٌ

بين يديه، وقد سلّمت عليه بالخلافة وهو يسألني عن المطر! فلما انتهيت إليه سألتني فاقصصت الكلام، فكسّر إحدَى عينيه، وقال: إني لأسمع كلاماً ما أنت بأبي عُذرتَه. قلت: صدقت! وحياتك يا أمير المؤمنين اشتريته بدرهمين! فاستغرب صِحْكَاً، ثم أحسن صِلْتِي.

وقال أعرابي يمدح رجلاً الطويل:

تَدَّ حِينَ لَا يَنْدَى السَّحَابُ  
سَكُوبُ

حَلِيمٌ مَعَ التَّقْوَى، شُجَاعٌ مَعَ  
الْجَدَا

لمات حُفَاتاً أَوْ لِكَادَ يَذُوبُ

وَيَجْلُو أَمْوَرًا لَوْ تَصَيَّفَنَ  
غَيْرُهُ

به لقلوبِ الْعَالَمِينَ وَجِيبُ

شَدِيدِ مَنَاطِ الْقَلْبِ فِي  
الموقف الذي

وَمِنْ عَيْرِ تَأْدِيبِ الرَّجَالِ  
أَدِيبُ

فَتَى هُوَ مِنْ عَيْرِ التَّخَلُّقِ  
مَاجِدُ

وقال بعض المحدثين يمدح: الطويل:

وَيَجْعَلُ دُونَ الْعُذْرِ فَضْلُ  
التَّكْرَمِ

فَتَى يَجْعَلُ المَعْرُوفَ قَبْلَ  
سُؤَالِهِ

تُصَبُّ وَمَتَى تَطْلُبُ بِهِ العُتْمُ  
تَعْنَمُ

أَعْرُ مَتَى تَقْصِدُ بِهِ فَضْلُ  
حَطِّهِ

وَيَنْحَلُّ مِنْ عَقْدِ العُرَى كُلِّ  
مُبْرَمِ

عَلَى رَأْيِهِ يَنْضَمُّ مُنْصَدِعُ  
الصِّفَا

وَحَاطَرَةٌ رَامَ كَالْحُسَامِ  
المصممِ

لَهُ عَزْمَةٌ أَعْنَى مِنَ الجِيشِ فِي  
الْوَعَى

جملة من كلام بدیع الزمان الهمداني

أبي الفضل أحمد بن الحسين

وهذا اسمٌ وافق مُسَمَّاهُ، ولفظٌ طابِقَ مَعْنَاهُ، وكلامٌ غَضُّ المَكَّاسِرِ، أُنِيقُ  
الجواهر، يَكَادُ الهَوَاءَ يَسْرِقُهُ لُطْفًا، والهوى يَعْشَقُهُ ظَرْفًا.

ولمَّا رَأَى أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي أعرب بأربعين حديثاً،  
وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره، واستنخبها من معادن فِكْرِهِ، وأبداها

للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضمان، في معارض أعجمية، وألفاظ  
خوشية، فجاء أكثر ما أظهر تنبؤ عن قبوله الطباع، ولا ترفع له حُجَّتْهَا

الأسماغ، وتوسّع فيها؛ إذ صرف ألفاظها ومعانيها، في وجوه مختلفة،  
وضروس متصرفة، عارضها لأربعمئة مقامة في الكُدَيْة، تذوب ظَرْفًا،

وتقطر حُسْنًا، لا مناسبة بين المقامتين لفظاً ولا معنى، وعطف مُسَاجَلْتِهَا،  
ووقف مناقلتها، بين رجلين سمى أحدهما عيسى بن هشام والآخر أبا الفتح

الإسكندري، وجعلهما يتهديان الدَّر، ويتنافثان السحر، في معانٍ تُصْحِكُ  
الحزين، وتحرك الرّصين، يتطلع منها كل طريفة، ويوقف منها على كل

لطيفة، وربما أفرد أحدهما بالحكاية، وخص أحدهما بالرواية؛ وسأذكر منها  
ما لا يخل طوله بالشرط المعقود، ولا ينافي حصوله الغرض المقصود.

كتب إلي أبي نصر أحمد بن علي الميكالي: كتابي - أعز الله الأمير! -  
وبودي أن أكوته، فأسعد به دُوتَه، ولكن الحريص محروم، لو بلغ الرزق

فاه، لولاه قَفَاه. فرّق الله بين الأيام، تفريقها بين الكرام، وألهمها أن تورد  
بعقل، وتصدر بتمييز، وما ذلك على الله بعزير، وأنا في مفاتحة الأمير، بين

ثقة تعد، وَيَدِّ تَزْتَعِد، ولم لا يكون ذلك. والبحر وإن لم أره، فقد سمعتُ خبره، ومن رأى من السيف أثره، فقد عاين أكثره، والليث وإن لم ألقه، فلم أجهل خلقه، وما وراء ذلك من تاليد أصل وحسب، وطارف فضل وأدب، وبُعْد همة وصيت، فمعلوم تَشْهَد به الدفاتر، والخبر المتواتر، وتنطق به الأشعار، كما تصدق به الآثار، والعين أقل الحواس إدراكاً، والأذن أكثرها استمساكاً، وإن بعدت الدار فلا صير؛ إِنَّ أَيْسَرَ البعدين بُعْدُ الدارين، وخير القربين قُرْبُ القليبين.

وكتب إليه في سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة: الأمير الفاضل، والشيخ الرئيس، رفيع مُنَاطِ الهمة، بعيد منال الحرمة، وفسيح مجال الفضل، رَجِيبٌ مُنْحَرِقُ الجود، رطيب مكسير العود: المجتث:

فلو تَطَمْتُ الثريا	والشعرَيْنِ قَرِيضاً
وكاهل الأرض ضرباً	وشعب رَضْوَى عَرُوضاً
وصُغْتُ للدر ضداً	وللهواء نقيضاً
بل لو جَلَوْتُ عليه	سُودَ النوائبِ بِيضاً
أو ادَّعيت الثريا	لأخمصيه حَضِيضاً
والبحر عند لَهَاة	يوم العطاء مَغِيضاً

لما كنت إلا في ذمة القُصُور، وجانب التقصير، فكيف وأنا قاعدُ الحالة في المدح، قاصِرُ الآلة عن الشرح؟ ولكني أقول: الثناء مُنْجَحٌ أتى سلك، والسخي جوده بما ملك، وإن لم تكن عُرَّةً لائحة قَلْمَحَةً دالة، وإن لم يكن صدأ فماء، وإن لم يكن خمر قَحْل، وإن لم يُصَبِّها وابل قَطْل، وتبدل الموجود غاية الجود، وبعض الجهد آخر المجهود، وماش خير من لا ش، ووجود ما قل خير من عدم ما جل. وقليل في الجيب خير من كثير في العيب، وجهد المقل خير من عذر المخل، وحمار أيس خير من فرس ليس، وكوخ في العيان خير من قصر في الوهم. ودَيْتَ خير من لبت، وما كان أجود من لو كان، وقد قيل: عصفور في الكف أجود من كركي في الجو، ولأن تقطف خير من أن تقف، ومن لم يجد الجميم رعى الهشيم، ومن لم يحسن سهيلاً تهق، ومن لم يجد ماء تيمم؛ والأمير الرئيس - أدام الله نعماه! - لا ينظر في قوافي صنيعته إلى ركافة ألفاظها، وبُعْدِ أغراضها، ولكن إلى كثرة جذرها، وثقل مهرها، وقلة كفتها، وإنني منذ فارقت قصبة جرجان، ووطئت عتبة خراسان، ما زلفتها إلا إليه، ولا وقفها إلا عليه، هذا على تمرغي في أعطاف المحن، وضرورتي إلى أبناء الزمن، وإن كان الأمير الرئيس يرفع لكل لفظ حجاب سمعه، ويُفَسِّحُ لكل شعر فناء طبعه، فهالك من النثر ما ترى، ومن النظم ما يترى: مجزوء الرمل:

أدھق الكاسَ فعَرَفُ الـ	فَجَرٍ قَد كَادَ يَلُوحُ
فهو للناس صباح	ولذي الرأي صبُوحُ
والذي يمرح بي في	حَلْبَةِ اللّهُو جَمُوحُ
فاسقنيها والأمانِي	لِهَا عَرَفُ يَفُوحُ
إنّ للأيام أسرا	رأ بها سوف تَبُوحُ
لا يغرّتك جسم	صَادِقُ الجِسِّ وروح
إنما نحن إلى الآ	جال تَعْدُو ونروح
وبك هذا العمر تبري	ح وهذا الروح ريج
بينما أنت صحيح الـ	جسم إذ أنت طريح
فاسقنيها مثل ما يل	فضه الذبك الذبيح
قبل أن يضرب في الده	ر بي القِدْحُ السَّنيح
إنما الدَّهْرُ عَرُورُ	ولمن أضغى نصيحُ

طِ لَوَاعِيهِ فَصِيحُ  
م مَّا تَسْتَبِيحُ  
لُ الْمَنَايَا لَا تَرِيحُ  
سُ مِنْ النَّاسِ مُرِيحُ  
فَسْنَا وَهُوَ مَبِيحُ  
ل بِالْمَرْءِ قَبِيحُ  
ثُكَ شَيْقُ وَسَطِيحُ  
لَا عَلَى كَفَاءٍ شَحِيحُ  
دُ لِعِلَاتِي مُزِيحُ  
فَضْلِي فِيكُمْ لَفْسِيحُ  
دُوح يَأْتِيكَ الْمَدِيحُ  
فَع وَالطَّرْفُ الطَّمُوحُ  
هَر وَالخَلْقُ الصَّبِيحُ  
رَف فِيهِ وَيَطِيحُ  
ثَل وَالخَلْقُ السَّجِيحُ  
عَادَهُ مِنْكَ الْمَسِيحُ

ولسان الدَّهْر بِالْوَع  
نَسْتَبِيحُ الدَّهْرَ وَالْأَيَا  
نَحْنُ لَاهُونَ وَأَجَا  
يَا غَلَامُ الْكَاسِ فَالْيَا  
ضَاعَ مَا نَحْمِيهِ مِنْ أَنْ  
وَقَنُوعًا فَمَقَامُ الدِّ  
أَنَا يَا دَهْرَ بَابِنَا  
وَبَابِكِارِ الْقَوَافِي  
يَا بَنِي مِيكَالِ وَالْجُو  
شَرَفًا إِنْ مَجَالَ الْ  
وَعَلَى قَدْرِ سَنَاءِ الْمِم  
فَهَنَّاكَ الشَّرْفِ الْأَر  
وَالثَّدَى وَالخُلُقِ الطَّا  
مَرْتَقَى مَجْدٍ يَحَارُ الطَّا  
أَيْهَذَا الْكِرْمِ الْمَا  
كَانَ هَذَا الْجُودَ مِيثًا

هذه - أطال الله بقاء الأمير! - هديّة الوقت، وعَفْوُ السَّاعَةِ، وَقَيْضُ الْبِدِيهَةِ، ومَسَارِقَةُ الْقَلَمِ، وَمَسَابِقَةُ الْيَدِ لِلْفَمِّ، وَجَمْرَاتُ الْحَدَّةِ، وَثَمَرَاتُ الْمَدَّةِ، وَمَجَارَاةُ الْخَاطِرِ لِلنَّاطِرِ، وَمَبَارَاةُ الطَّبَعِ لِلسَّمْعِ، وَمَجَاذِبَةُ الْجَنَانِ لِلْبَيَانِ، وَالشَّعْرُ إِذَا لَمْ تَقْدِّمَهُ رُؤْيَةً، وَلَمْ تَنْصُجْهُ نَبِيَّةً، لَمْ يَفْتَحْ لَهُ السَّمْعُ بِأَبِهِ، وَلَمْ يَرْفَعْ لَهُ الْقَلْبُ حِجَابَهُ، وَإِذَا لَبَسَ الْأَمِيرُ هَذِهِ عَلِيًّا عَلَاتُهَا رَجُوتُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَهَا مَا هُوَ أَفْتَنُ وَأَحْسَنُ وَأَرْصَنُ، فَرَأَيْهِ أَيْدَهُ اللَّهُ فِي الْوُقُوفِ عَلَيْهَا مُوَفَّقًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وله إليه معاتبة: الطويل:

لَيْنُ سِنَاءِي أَنْ يَلْتَنِي

بِمَسَاءَةٍ

لقد سرّني أئبي حَطَرْتُ بِبَالِكَ

الأمير الفاضل الشيخ الرئيس، أطال الله بقاءه إلى آخر الدعاء، فِي خَالِ بَرِّهِ وَجَفَائِهِ مُتَّفَضِّلٍ، وَفِي يَوْمِي إِبْعَادِهِ وَإِدْتَائِهِ مُتَّطَوِّلٍ. وَهِنِيئًا لَهُ مِنْ حِمَانَا مَلِّ يُحْلَهُ، وَمِنْ عُرَانَا مَا يَحْلُهُ، وَمِنْ أَعْرَاضِنَا مَا يَسْتَحْلُهُ، بَلْغَنِي أَنَّهُ - آدَامُ اللَّهِ عَزَهُ! - اسْتِزَادَ صَنِيعَتَهُ، وَكَنتُ أَطْنِي مَجْنِيًّا عَلَيْهِ، مُسَاءً إِلَيْهِ، فَإِذَا أَنَا فِي قَرَارَةِ الدُّنْبِ، وَبِمَثَابَةِ الْعَنْبِ، وَلَيْتَ شِعْرِي أَيَّ مُحْظُورٍ فِي الْعِشْرَةِ حَصَرْتَهُ، أَوْ مِفْرُوضٍ مِنَ الْخِدْمَةِ رَفَضْتَهُ، أَوْ وَاجِبٍ فِي الزِّيَارَةِ أَهْمَلْتَهُ. وَهَلْ كُنْتُ إِلَّا صَيْفًا أَهْدَاهُ بَلْدُ شَاسِعٍ، وَأِدَّاهُ أَمَلٌ وَاسِعٌ، وَحَدَاهُ فَضْلٌ وَإِنْ قَلَّ، وَهَذَاهُ رَأْيِي وَإِنْ صَلَّى، ثُمَّ لَمْ يُبْلَقْ إِلَّا فِي آلِ مِيكَالَ رَحْلَهُ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَّا بِهِمْ حَبْلَهُ، وَلَمْ يَنْظُمْ إِلَّا فِيهِمْ شِعْرَهُ، وَلَمْ يَقِفْ إِلَّا عَلَيْهِمْ شُكْرَهُ، ثُمَّ مَا بَعْدَتْ صِحْبَةُ إِلَّا دَنَتْ مَهَانَةٌ، وَلَا زَادَتْ حُرْمَةً إِلَّا نَقَصَتْ صَيَانَةَ، وَلَا تَضَاعَفَتْ مِنْهُ إِلَّا تَرَاجَعَتْ مَنَزِلَةٌ، وَلَمْ تَزَلْ الضَّعْفَةُ بِنَا حَتَّى صَارَ وَابِلُ الْإِعْظَامِ قَطْرَةً، وَعَادَ قَمِيصُ الْقِيَامِ صُدْرَةً، وَذَلِكَ التَّقَرُّبُ أَرْوَرَارًا، وَطَوِيلُ السَّلَامِ اخْتِصَارًا، وَالْاهْتِزَازُ إِيمَاءٌ، وَالْعِبَارَةُ إِشَارَةٌ؛ وَحِينَ عَاتَبْتَهُ أَمِلَ إِعْتَابَهُ، وَكَاتَبْتَهُ أَتَّظَّرَ جَوَابَهُ، وَسَأَلْتَهُ أَرْجُو إِجَابَهُ، أَجَابَ بِالسُّكُوتِ، وَأَعْتَبَ بِالْقُوتِ، فَمَا أَزْدَدَتْ إِلَّا لَهُ وِلَاءً، وَعَلَيْهِ ثَنَاءً؛ لَا جَرَمَ إِنِّي الْيَوْمَ أَبْيَضُ وَجْهَ الْعَهْدِ، وَاضِحَ مَحْجَةِ

الوُد، طويلٌ عِتَانُ القول، رفيعٌ حِكْمَةُ العُدْرِ؛ وقد حَمَلتُ فلاناً من الرسالة ما تجاقى عنه القلم؛ وإلّا أميرُ الرئيس أطال الله بقاءه يُنعمُ بالإصغاء لما يورده موفّقاً إن شاء الله.

وله إليه في هذا الباب: أنا في خدمة الأمير الرئيس - أطال الله بقاءه! - مترجّحٌ بين أن أشربها رنقة ولا أسيغها، وأجلج منها مُصْغَةً ولا أجزها، وبين أن أطويها على عَرّها، ولا أرتضع أخلاف دَرّها: الوافر:

فلا تَفْسِي تَطَاوَعِي لِرَفْضٍ ولا هَمَمِي تُوَطُّئِي لِحَفْضٍ  
وبقي أن أقرضه بأنامل العُتْبِ، وأحشمه بالباط العَدْلِ، وأعرفه أنني ما أطوي مسافة مزار إلا متجشّماً، ولا أطأ عتية دار إلا متبرماً؛ وليستُ كمن يئسُّ يده مُسْتَجْدِياً، أو يُنقل قدمه مُسْتَعْدِياً؛ فإن كان الأميرُ الرئيس - أيده الله! - يسرُّ طرفه مني في طامح أو طامع، فليُعد للفراسة نظراً: الطويل:

فما الفقرُ من أرض العشيرة إليك، ولكننا بفرباك ننجح  
ساقني

وأجدني كلما استقرّني الشوق إلى تلك المحاسن، أطيّر إليها بجناحين عَجَلًا، وأرجع بعرجاوين خَجَلًا، ولولا أن الرضا بذلك ضرب من سقوط الهمة، وأن العتاب نوع من أنواع الخدمة، لصنّت مجلسه عن قلّمي، كما أضونه عن قَدَمِي، ولملّثُ إلى أرض الدعاء فهو أنجع، وإلى جانب الثناء فهو أوسع، وسأفعل لتخف مؤنّي، ولا تثقل وطأتي: المتقارب:

إذا ما عتبت فلم تُعتبِ وهنتُ عليك فلم تُعنَ بي  
سلّوت، ولو كان ماء الحياة لعفتُ الورودَ ولم أشربِ

قطعة من مفردات الأبيات لأهل العصر في معان شتى تجري مجرى الأمثال أبو فراس الحمداني: الطويل:

إذا كان غيرُ الله للمرء عُدّةً أتته الرزايا من وجوه  
المكاسِبِ

وله: الطويل:

عَافَكَ عِي، إنما عَقَّةُ القَتَى إذا عَفَ عن لَدَاتِهِ وَهوَ قَادِرٌ

وقال المتنبي: الخفيف:

كل جِلْمٍ أتى بغيرِ اقتِدَارٍ حُجّةٌ لاجئٍ إليها اللئام

وله: الخفيف:

وإذا كانتِ النفوسُ كِبَاراً تَعَبَتْ في مرادها الأَجْسَامُ

وله: الكامل:

وإذا أثثك مَدَمَّتِي من ناقص فَهِيَ الشّهَادَةُ لي بأني كامل

وله: البسيط:

لا يُعْجِبَنَّ مَضِيماً حُسْنَ بَرَّتِهِ وهل تَرُوقُ دَفِيناً جَوْدَهُ  
الكفن؟

وله: الخفيف:

من أطاق التماسَ شيءٍ واغتصاباً لم يَلْتَمِسْهُ سُؤالا  
غلاباً

وله: الكامل:

والظلم من شيمِ النفوسِ، ذا عَقَّةٍ فَلِعَلَّةٍ لا يَطْلِمُ  
فإن تجدُ

وله: البسيط:

ماذا لقيتُ من الدنيا وأعجبتُ أني بما أنا بك منه محسودُ

وله: البسيط:

ذِكْرُ الْفَتَى عُمَرُ الْثَانِي،  
وَحَاجَتُهُ

وَالْمَتَنِي أَكْثَرُ الْمَحْدَثِينَ افْتِنَانًا وَإِحْسَانًا فِي الْإِغْرَابِ بِهَذَا الْبَابِ؛ وَالِاسْتِقْصَاءُ يَخْرُجُ عَنِ  
شَرْطِ الْكِتَابِ.

وَقَالَ السَّرِيُّ الْمَوْصِلِيُّ: الْبَسِيطُ:

خُدُّوا مِنَ الْعَيْشِ فِالْأَعْمَارِ  
فَائِتُهُ

وَالدَّهْرُ مُنْصَرِّمٌ وَالْعَيْشُ  
مُنْقَرِضٌ

وله: الوافر:

فَإِنَّكَ كَلَّمَا اسْتَوْدِعْتِ بِيْرًا

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّابِي: الْبَسِيطُ:

الضَّبُّ وَالنُّونُ قَدْ يُرْجَى  
التَّقَاؤُهُمَا

أَنْتُمْ مِنَ النَّسِيمِ عَلَى الرِّيَاضِ

وَلَيْسَ يُرْجَى التَّقَاءُ اللَّبِّ  
وَالذَّهَبِ

وَقَالَ ابْنُ نَبَاتَةَ: الْكَامِلُ:

مِثْلُ خَلَعْتُ عَلَى الزَّمَانِ  
رِدَاءَهُ

عَوَزُ الدَّرَاهِمِ آفَةُ الْأَجْوَادِ

وله: الكامل:

يَهْوَى الثَّنَاءَ مَبْرُورٌ وَمُقَصِّرٌ

وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ السَّلَامِيُّ: الْوَافِرُ:

تَبَسَّطْنَا عَلَى اللَّذَاتِ لَمَّا

وَقَالَ ابْنُ لَنَكِّ الْبَصْرِيُّ: الطَّوِيلُ:

وَمَاذَا أَرْجِي مِنْ حَيَاةٍ  
تَكْدَّرَتْ

رَأَيْتَا الْعَفْوَ مِنْ تَمَرِ الدُّنُوبِ

وَلَوْ قَدْ صَفَّتْ كَانَتْ كَأَحْلَامِ  
نَائِمٍ

وَقَالَ أَبُو طَالِبِ الْمَأْمُونِيُّ: الْكَامِلُ:

لِي فِي صَمِيرِ الدَّهْرِ سُرٌّ  
كَامِنٌ

لَا بَدَّ أَنْ تَسْتَلَّهُ الْأَقْدَارُ

وَقَالَ أَبُو الْفَضْلِ بْنِ الْعَمِيدِ: الْكَامِلُ:

الرَّأْيُ يَصْدَأُ كَالْحُسَامِ لِعَارِضٍ

وَقَالَ أَبُو الْفَتْحِ: الطَّوِيلُ:

بَطِرْتُمْ فَطِرْتُمْ وَالْعَصَا رَجْرُ مَنْ

عَصَى

وَتَقْوِيمِ عَبْدِ الْهُونِ بِالْهُونِ  
رَادِعٌ

وله: المتقارب:

إِذَا بَلَغَ الْمَرْءُ آمَالَهُ

وَقَالَ الصَّاحِبُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبَادٍ: مَجْزُوءُ الرَّمْلِ:

إِنَّ أُمَّ الصَّقْرِ فِي الْوَدُ

وله: مخلع البسيط:

مَنْ لَمْ يَعْذْنَا إِذَا مَرِضْنَا

وله: الرجز:

فَاحْقَظْهُ حِفْظَ الشُّكْرِ  
لِلْإِحْسَانِ

حِفْظُ اللِّسَانِ رَاحَةُ الْإِنْسَانِ

وَقَالَ إِسْمَاعِيلُ النَّاشِئِيُّ: الطَّوِيلُ:

وَكُنْتُ أَرَى أَنَّ التَّجَارِبَ عُدَّةٌ

فَخَانَتْ ثِقَاتُ النَّاسِ حَتَّى  
التَّجَارِبِ

وقال أبو الفتح البستي: السريع:

لا تَرُجْ شيئاً خالِصاً تَفْعُهُ

وله: الطويل:

ولم أر مثل الشكر جنة

غارِسٍ

وله: الطويل:

وطول مُقام الماء في

مستقرِّه

وله: الخفيف:

ما استقامت قنأه رأيي إلا

وقال أبو الفضل الميكالي: الطويل:

هو الشوك لا يُعطيك وافر

منة

وله: السريع:

ذو الفضل لا يسلم من قدح

وقال شمس المعالي: البسيط:

وفي السماء نجوم ما لها

عدد

هذا مأخوذ من قول الطائي: البسيط:

إن الرياح إذا ما استعصفت

قصفت

بنات نعش وتعيش لا كسوف

لها

وقال أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي: البسيط:

الهجر أروح من وصل على

حذر

وقال أبو بكر الخوارزمي: الخفيف:

لا تغرنك هذه الأوجه العر

فالغيث لا يحلو من العيث

ولا مثل حُسنِ الصبر جُبة

لايس

يُغيره ربحاً ولوناً ومطعماً

بعدهما عوج المَشيبِ قناتي

يد الدهر إلا حين تضره جلدًا

وإن عدا أقوم من قدح

وليس يُكسف إلا الشمس

والقمر

عيدان نجد فلم يعبان

بالرتم

والشمس والبدر منها الدهر

في الرقم

والموت أطيب من عيش

على عر

فيا رب حية في رياض

قال أبو العيناء: كان عيسى بن قزحان شاه يتيه علي في ولايته الولاية، فلما صُرف رهبتي، فلقيني فسلم علي فأخفى، فقلت لغلامي: من هذا؟ قال: أبو موسى؛ فدنوت منه وقلت: أعزك الله، والله لقد كنت أفتع بإيمانك دون بيانك، وبلخطك دون لفظك، فالحمد لله على ما آلت إليه حالك، فلئن كانت أخطأت فيك النعمة، فلقد أصابت فيك النعمة، ولئن كانت الدنيا أبدت مقايحها بالإقبال عليك، لقد أظهرت محاسنها بالانصراف عنك، ولله المنة إذ أعاننا عن الكذب عليك، ونزّهتنا عن قول الزور فيك، فقد والله أسأت حمل النعم، وما شكرت حق المنعم، فقيل له: يا أبا عبد الله، لقد بالغت في السب، فما كان الذنب؟ قال: سألته حاجة أقل من قيمته، فرد عنها بأقبح من خلقته. وقال علي بن العباس الرومي لأبي الصقر إسماعيل بن ببل لما نكبه الموفق بن أحمد وآلم في بعض قوله بقول أبي العيناء: الكامل:

وبكت بشجو عين ذي

حسدك

بك همة لجأت إلى سديك

إلا ليوم قت في عصدك

ما كان أقبح حسنها بيدك

لما عدت برداً على كبدك

لا زال يومك عبرة لعدك

فلئن نكبت لطالما نكبت

لو تسجد الأيام ما سجدت

يا نعمة ولت عصارتها

فلقد عدت برداً على كبدك

ورأيت نُعمى الله زائدةً  
ولقد تمتُّ كلَّ صاعقة  
لَمْ يَنْقُ لي ممَّا بَرَى جسدي  
وله فيه أهَّاج كثيرة لما نكب، منها قوله: السريع:  
خَفَّضُ أبا الصَّقْر فكمَّ طائرٍ  
لما اسْتَبَانَ النقص في عَدَدِكَ  
لو أنها صُبْتُ على كَتَدِكَ  
إلا بقاء الرُّوح في جَسَدِكَ  
خَرَّ صَرِيحاً بَعْدَ تحليقٍ

رُؤِجَتِ نعمى لم تكن كُفَّأها  
لا قُدِّسَتْ نُعمى تَسْرَبَلَتْها  
وكان أبو الصقر لَمَّا ولي الوزارة مَدَّحَه ابن الرومي بقصيدته النونية التي أولها:  
البيسط:

أَجْيَيْتِكَ الوردَ أَغصانُ  
وَكُتْبَانُ  
فيهنَّ نوعان تُفَّاحُ ورمَانُ

سود لهن من الظلِّماء  
ألوانُ  
فوق دَيْنِكَ أَعْنَابٌ مُهَدَلَةٌ

أطرافهنَّ قلوب القوم  
قِنَوانُ  
وتحت هاتيك عُتَّابٌ تَلُوحُ بِهِ

وما الفواكِهُ مما يَحْمِلُ  
البانُ  
غصونُ بانٍ عليها الزهر  
فاكِهة

وأقحوان منير اللون رِيانُ  
فَهِنْ فَاكِهَةٌ شَتَى وَرِيحانُ  
ونرجس بات سَارِي الطَّلِّ  
يَصْرِبُهُ

الفن من كل شيء طيبٍ  
حَسِنُ  
ثمار صِدْقٍ إذا عايَنْتَ

لكنها حين تَبْلُو الطَعْمَ  
حُطْبَانُ  
ظاهرها

والغانيات كما شُبِّهْنَ  
بَسْتانُ  
ولا يَدْمَنَّ على عَهْدٍ لمعتقدٍ

ويَمِيلُ طوراً بحملٍ ثم  
يَعْدُمُهُ  
وَبِكَتْسِي ثَم يُلْقَى وهو  
عُريانُ

وهي أكثر من مائتي بيت، مرَّ له فيها إحسان كثير، فأنشدها أبو الصقر، فلما سمع قوله:

قالوا أبو الصقر من شَيْبَانُ  
قلت لهم  
كلا لعمرِي ولكن منه  
شَيْبانُ

قال: هجاني، قيل له: إنَّ هذا من أحسن المدح؛ ألا تسمع ما بعده:  
وكم أبٍ قد عَلَاً بابن دُرِّي  
كما عَلَتْ برسول الله  
شَرَفِي

قال: أنا بشيبان لا شيبان بي. فقيل له فقد قال:

ولم أقصر بشيبان التي  
بلغت  
بها المبالغ أعراقُ وأغصانُ

لله شيبان قوم لا يشوبُهُم  
رَوْعٌ إذا الروع شابت منه  
ولَدانُ

فقال: لا والله لا أثيبه على هذا الشعر، وقد هجاني.  
قال أبو بكر محمد بن يحيى الصولي: كنت يوماً عند عبيد الله بن عبد الله بن طاهر،

وقد ذكروا قصيدة ابن الرومي هذه النونية، فقال: هذه دائر البطبخ، فاقرأوا تشبيهاها تعلموا ذلك! فضحك جميع من حضر.

وفي هذه القصيدة يقول من المختار في النسب:

يا رُبَّ حُسْنَانَةٍ مِنْهُنَّ قَدْ  
فَعَلْتُ  
تُسْكِي الْمَحَبَّ وَتَلْفِي الدَّهْرَ  
شَاكِيَةً  
سَوْءًا، وَقَدْ يَفْعَلُ الْأَسْوَاءُ  
إِحْسَانُ  
كَالْقَوْسِ تُصِمِّي الرَّمَائِيَا وَهِيَ  
مِرْنَانُ  
وهذا كقوله في قصيدة يَصِفُ فيها قوس البندق: الطويل:

لَهَا رَتَّةٌ أَوْلَى بِهَا مِنْ تَصِيْبِهِ  
وَأَجْدَرُ بِالْإِعْوَالِ مَنْ كَانَ  
مُوجَعًا

يقول فيها:

لَا تَلْحَيَانِي وَإِيَّاهَا عَلَيَّ صَرَاعِي  
إِنِّي مَلَكْتُ فَبِي لِلرَّقِّ  
مَسَكْنُهُ  
لِي مُدٌّ تَأْتُ وَجَنَّةٌ رِيًّا  
بِمَشْرِبِهَا  
وَرَهْوَاهَا، لِحَّ مَفْعُونٌ وَفَتَانُ  
وَمُلْكْتُ فَلَهَا بِالْمُلْكِ طُعْيَانُ  
مِنْ عَبْرَتِي وَفَمُّ مَا عِشْتُ  
ظَمَانُ

وفيهما في مدح بني شيبان:

قَوْمٌ سَمَّاحَتُهُمْ غَيْثٌ،  
وَتَجَدَّتْهُمْ  
تَلْقَاهُمْ وَرِمَاخُ الْخَطِّ  
حَوْلَهُمْ  
عَوْتُ، وَآرَاؤُهُمْ فِي الْخَطِّ  
شُهْبَانُ  
كَالْأَسَدِ أَلْبَسَهَا الْآجَامَ  
خَفَانُ  
صَانُوا النُّفُوسَ عَنِ الْفَحْشَاءِ  
وَابْتَدَلُوا  
إِلْمَعْمُونَ وَمَا مَنُّوا عَلَيَّ  
أَحَدٍ  
مِنْهُمْ فِي سُبُلِ الْعِلْيَاءِ مَا  
صَانُوا  
يَوْمًا بِنُعْمَى، وَلَوْ مَنُّوا لَمَا  
مَاتُوا

يقول فيها في أبي الصقر:

يَقْدِيهِ مَنْ فِيهِ عَن مِقْدَارِ  
فِدْيَتِهِ  
قَوْمٌ كَأَنَّهُمْ مَوْتَى إِذَا مُدِحُوا  
صَاحِي الطَّبَاعِ إِذَا سَالَتْ  
هَوَاجِسُهُ  
يُصْحِيهِ ذَهْنٌ وَبَابِي صَحْوُهُ  
كِرْمُ  
عَنِ الْمَفَادَاةِ تَقْصِيرُ  
وَنُقْصَانُ  
وَمَا لَهُمْ مِنْ حَيِّيرِ الشَّعْرِ  
أَكْفَانُ  
وَإِنْ سَأَلْتَ يَدَّيْهِ فَهَوَ  
تَشْوَانُ  
مُسْتَحْكِمٌ فَهُوَ صَاحٍ وَهُوَ  
سَكْرَانُ  
كَأَنَّهُ النَّاسُ طُرًّا وَهُوَ إِنْسَانُ  
رَدُّ الْإِلَهِ نَفُوسَهُمْ وَالْأَعْصَرَا

وهذا كقول أبي الطيب: الكامل:

وَلَقِيْتُ كُلَّ الْفَاضِلِينَ كَأَنَّمَا

نُسِيقُوا لَنَا نَسَقَ الْحِسَابِ  
مُقَدَّمَا

وقد تقدّم.

وقال: الطويل:

وَأَتَى قَدْلِكَ إِذْ أَتَيْتَ مُؤَخَّرَا

فإن يك سَيَّارُ بن مكرم  
انْقَصَى

مَصَى وَبَنُوهُ وَانْفَرَدَتْ  
بِقَضَلِهِمْ

وقال البحتري: الطويل:

فإنك ماءُ الْوَرْدِ إنْ دَهَبَ  
الْوَرْدُ  
وَأَلْفَ إِذَا مَا جُمِعَتْ وَاحِدٌ  
قَرْدٌ

لدى المجد، حتى عُدَّ أَلْفٌ  
بِوَاحِدٍ

ولم أَرِ أَمْثَالَ الرِّجَالِ تَفَاوُتاً

ومدحه وعاتبه بقصائد كثيرة فما أنجحت، فمن ذلك قوله في قصيدة طويلة يمدحه:  
البيسط:

مِي وَجْهَهُ رَوْضَةٌ لِلْحَسَنِ

مُوْنِقَةٌ

طَلُّ الْحَيَاءِ عَلَيْهَا سَاقِطٌ  
أَبْدًا

مَا رَادَ فِي مِثْلِهَا طَرْفٌ وَلَا

سَرَحًا

كَاللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ لَوْ رَفَّرَقْتَهُ  
سَفَحًا

أَلَا يَرَى بَعْدَهَا بُؤْسًا وَلَا

تَرَحًا

أَنَا الزَّعِيمُ لِمَكْحُولٍ بَعُورَتِهِ

مَهْمَا أَتَى النَّاسَ مِنْ طَوَّلٍ

وَمِنْ كَرَمٍ

يُعْطِي الْمَزَاحَ وَيُعْطِي الْجَدَّ

حَقَّهُمَا

فَالْمَوْتُ إِنْ جَدَّ، وَالْمَعْرُوفُ إِنْ

مَرَّحًا

فَأَعْطِيَاهُ مِنَ الْحَظِّينِ مَا

أَفْتَرَجًا

وَافِي عُطَارِدَ وَالْمَرِيخِ

مَوْلِدِهِ

وَلَمْ يَقُلْهَا لِمَنْ يَسْتَمْنِخُ

الْمِنَحًا

إِنْ قَالَ: لَا، قَالَهَا لِلْأَمْرِيهِ

بِهَا

تُبْلًا، وَنَاهِيكَ مِنْ كَفِّ بِمَا

اتَّشَحَا

فِي كَفِّهِ قَلَمٌ نَاهِيكَ مِنْ

قَلَمٍ

فَمَا الْمَقَادِيرُ إِلَّا مَا مَحَا

وَوَحَى

يَمْحُو وَيُنْبِتُ أَرْزَاقَ الْعِبَادِ بِهِ

كَأَنَّمَا الْقَلَمُ الْعُلُويُّ فِي

يَدِهِ

يُجْرِيهِ فِي أَيِّ أُنْحَاءِ الْبِلَادِ تَحَا

قَهْقِهِ فَلَا تَعْلَا تُبْدِي وَلَا قَلَحَا

وَقَدْ وَجَدْتَ بِهَا فِي الْقَوْلِ

مُنْفَسِحًا

لَمَّا تَبَسَّمَ عَنْكَ الْمَجْدُ قَلْتِ

لَهُ

أَنْتِي عَلَيْكَ بِنِعْمَاكَ الَّتِي

عَظَّمْتِ

أَنْتِ الْمَحْيَا بِرِيَاهِ إِذَا تَقَحَا

أَمْطَرُ بِدَاكَ جَنَانِي تَكْسُهُ

زَهْرًا

أنشدتها على متوالي الاختيار، وكذلك أجري في كثير من الأشعار.  
وقال يعاتبه ويستبطنه: الطويل:

حَبَائِسَ حَسْرَى قَدْ أَبَتْ أَنْ

تَسْرَحَا

يُرَى لَكَ أَهْجَى مَا يُرَى لَكَ

أَمْدَحَا

عَقِيدَ النَّدَى، أَطْلِقِ مَدَائِحِ

جَمَّةً

وَكُنْتُ مَتَى تَنْشُدُ مَدِيحًا

ظَلَمْتَهُ

عَدَّرْتُكَ لو كانت سماءً  
تَقَشَّعَتْ  
ولكنها سُقِيَا حُرِمْتَ رَوِيهَا  
وَأَكْلَاءَ مَعْرُوفٍ حَرَمْتَ  
مَرِيغَهَا  
عَرَضْتُ لأورادي وَبَحْرَكَ  
زَاخِرٌ  
فلو لم تَرِدْ أَدْوَادَ عَيْرِي  
غِمَارَهُ  
فيا لك بَحْرًا لم أَجِدْ فيه  
مَشْرِبًا  
مديحي عصا مُوسَى، وذلك  
أَنبِي  
سَأْمِدِحَ بعضَ الباخلين  
لَعَلَّهُ  
فيا لَيْتَ شِعْرِي إن صَرَبْتُ به  
الصَّفَا  
كَتَلَكِ التي أَبَدَتْ تَرَى الأرض  
يَابِسًا  
مَلَكْتَ فَأَسْجِحُ يا أبا الصَّفْرِ  
إِنَّهُ  
وما ضِرْعَ إلى أحد هذه الضَّرَاعَةِ، ولا في طَوْقِهِ هذا الاحتمال؛ وهذه الأبيات الأخيرة  
إنما ولد أكثرها من قول أبي تمام الطائي لمحمد بن عبد الملك الزيات: الطويل:  
فلو حَارَدْتُ شَوْلَ عَدَّرْتُ  
لِقَاحَهَا  
أَكَابَرْنَا عطفًا علينا؛ فإننا  
وفيه يقول: السريع:  
هذا مقامي يا بَنِي وائل  
أُنْسِبَ فيه الدهر أظفارَهُ  
فَأُنْصِفُوا منه أَحَا حُرْمَةٍ  
فما أرى الدهر على جَوْرِهِ  
وقال أيضاً: المنسرح:  
يا أَيُّهَا السَيِّدُ الَّذِي وَهَبْتَ  
فَأُضْبَحْتَ في يَدِ الضَّعِيفِ  
وذي ال  
غيري على أَنبي مؤمِّلِكَ الأقدم  
سائلٌ بذاك وامْتَحِنِ  
مادح عشرين حجة كَمَلًا  
فضلك أو عدلك الذي ائتمن  
الل

سَحَائِبُهَا أو كان رَوْضٌ تَصَوَّحَا  
وَعَارِضُهَا مُلِقٌ كَلَاكِلَ جُنْحَا  
وقد عاد منها السَهْلُ وَالْحَزَنُ  
مَسْرَحَا  
فلَمَّا أَرَدَنَّ الوِرْدَ أَلْقَيْنَ  
صَحْضَحَا  
لُقُلْتُ: سَرَابٌ بِالمِثَانِ  
تَوَضَّحَا  
وإن كان غيري واجدًا فيه  
مَسْبِحَا  
صَرَبْتُ به بَحْرَ النَدَى  
فَتَصَحَّضَحَا  
إذا اطَّرَدَ المِقْيَاسُ أَنْ  
يَتَسَمَّحَا  
أَبِيعْتُ لي منه جداولَ  
سُيْحَا؟  
وَشَقْتُ عيونًا في الحجارة  
سُفْحَا  
إذا مَلَكَ الأحرارَ مِثْلَكَ  
أَسْجَحَا

لنا ظمأ بَرَّحٌ وأنتم مناهلُ  
مات مستجير بكم عائذُ  
وعضه بالنابِ والناجِذِ  
لأدَّ بكمُ منه مع اللائِذِ  
يَخْرُجُ مِنْ حَكْمِكُمُ النافِذِ

أنصارُ أمواله وَلَمْ يَهِنِ  
قُوَّةُ وَالْباقِلِيِّ وَاللسينِ  
محرومها عنك عَيْرِ  
مضطغنِ  
ه عليه أَجَلٌ مؤتَمِنِ

إِنْ كُنْتَ فِي الشَّعْرِ نَاقِدًا  
فَطِنَا  
وَإِنْ أَكُنْ فِيهِ سَاقِطًا زَمِنًا  
فَلْتَعْطِنِي حَقَّ حَصِّهِ الرَّمِينِ  
سَمِ بِي دِيَوَانِكَ الَّذِي  
عَدَلْتُ  
كَثْرَ بِشْخَصِي مَنِ اسْتَطَعْتُ  
مِنَ النَّاسِ  
مَا حَقَّ مِنْ لَانَ صَدْرِهِ لَكَ  
بِالْ

وقال أبو العباس الرومي لرجل مدحه في كلمة: الوافر:  
أَبْعَدَ لِقَائِي دُونَكَ كُلِّ قَفْرِ  
وَإِعْمَالِي إِلَيْكَ بِهِ الْمَطَايَا  
وَرَفُضِي النَّوْمَ إِلَّا أَنْ تَرَانِي  
تَسُوقَ بِنَا الْخُدَاةُ فَلَيْسَ  
تَذْرِي  
أَصَادِفَ دِرَّةَ الْمَعْرُوفِ  
شَكَرِي

يقول فيها:  
عَدَا يَغْلُو الْجِيَادَ وَكَانَ يَغْلُو إِذَا مَا  
اسْتَفْرَةَ السَّنْتِ الرَّقَاقَا  
أَعْنَتَهَا الشُّسُوعُ فَإِنْ عَرَاهَا  
فَرُوحَ بَعْدَ قَفْرِ مِنْهُ  
نُغْمِي

أبو العيناء  
قال أبو القاسم علي بن حمزة بن شمردل: حدثني أبي قال: سألتُ أبا العيناء عن نسبه، فقال: أنا محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر بن سليمان، وأصل قومي من بني حنيفة من أهل اليمامة، ولحقهم بيباء في أيام المنصور؛ فلما صار ياسر في قيده أعنته، فولأنا لبني هاشم؛ وكان أبو العيناء صرير البصر؛ ويقال: إن جدّه الأكبر لقي علي بن أبي طالب - رضي الله عنه! - فأساءه مخاطبته؛ فدعا عليه وعلى ولده بالعمى، فكل من عمي منهم صحيح النسب! قال الصولي: حدثني أبو العيناء، قال: لما أذخلت على المتوكل فدعوت له وكلمته استحسني كلامي، وقال لي: بلغني أنّ فيك شرّاً! فقلت: يا أمير المؤمنين، إن يكن الشرُّ ذكراً المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته فقد رزى الله تعالى ودم، فقال في التزكية: "نعم العبد إنّه أواب"، وقال في الذم: "هماز مشاءً بتميم، متاع للخير معتد أئيم". وقال الشاعر: الطويل:

إِذَا أَنَا لَمْ أَمْدَحْ عَلَى الْخَيْرِ  
وَلَمْ أَدْمَمِ الْجِبْسَ اللَّئِيمَ  
أَهْلُهُ  
الْمَذْمُومَ

فَفِيمَ عَرَفْتُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ  
وَشَقَّ لِي اللَّهُ الْمَسَامَحَ  
بِاسْمِهِ  
وَالْقَمَا؟

وإن كان الشرُّ كفعل العفرب التي تلسع السنني والذني بطبع لا بتميز، فقد صان الله عبدك عن ذلك! فقال لي: بلغني أنك رافضي، فقلت: يا أمير المؤمنين، وكيف أكون رافضياً وبلدي البصرة ومنسني في مسجد جامعها، وأستاذي الأضمعي، وليس يخلو القوم أن يكونوا أراذوا الدين أو الدنيا؛ فإن كانوا أرادوا الدين فقد أجمع الناس على تقديم من أحرأ،

وتأخير من قدموا، وإن كانوا أرادوا الدنيا فأنت وآباؤك أمراء المؤمنين، لا دين إلا بك، ولا دنيا إلا معك.

قال: كيف ترى داري هذه؟ قال: قلت: رأيت الناس يتنوا دورهم في الدنيا، وأنت بنيت الدنيا في دارك.

فقال لي: ما تقول في عبيد الله بن يحيى؟ قلت: نعم العبد لله ولك، مقسم بين طاعته وخدمتك، يؤثر رضاك على كل فائدة، وما عاد بصلاح ملكك على كل لذة.

قال: فما تقول في صاحب البريد ميمون بن إبراهيم؟ - وكان قد علم أني واجد عليه بتقصير وقع منه في أمري - فقلت: يا أمير المؤمنين، يد تيسر وأست تضرط؛ وهو مثل اليهودي سرق نصف جزية، فله، إقدام بما أدى، وإحجام بما أبقي، إساءته طبيعة، وإحسانه تكلف! قال: قد أردتكم لمجالستي، قلت: لا أطيق ذاك، وما أقول ذلك جهلاً بما لي في هذا المجلس من الشرف، ولكني محجوب، والمحجوب تختلف عليه الإشارة، ويحقى عليه الإيماء، ويجوز أن يتكلم بكلام غصبان ووجهك راض أو بكلام راض ووجهك غصبان، ومتى لم أميز بين هذين هلكت، قال: صدقت، ولكن تلتزمتنا، قلت: لزوم القرض الواجب اللازم، فوصلني بعشرة آلاف درهم.

ولأبي العيناء مع المتوكل مجالس أدخل الرواة بعضها في بعض، وسأورد مستطرفها إن شاء الله: قال له المتوكل يوماً: يا أبا العيناء، لا تكثير الوقعة في الناس، قال: إن لي في بصري لشغلاً عن الوقعة فيهم، قال: ذلك أشد لحيفك في أهل العافية! وقال له يوماً: هل رأيت طالبياً حسن الوجه قط؟ فقال: يا أمير المؤمنين، رأيت أحداً قط سألت ضريباً عن هذا؟ قال: لم تكن ضريباً فيما تقدم، وإنما سألتك عما سلف، قال: نعم، رأيت منهم ببغداد منذ ثلاثين سنة فتني ما رأيت أجمل منه، قال المتوكل: تجده كان مؤاجراً، وتجدك كنت قواداً عليه! فقال أبو العيناء: وفرغت لهذا يا أمير المؤمنين، أتراني أدع موالي على كثرتهم، وأقود على الغرباء؟ قال: اسكت يا مابون؟ قال: مولى قوم منهم! قال المتوكل: أردت أن أشتفي به منهم فاشتفي لهم مني.

وكان أبو العيناء أحد الناس خاطراً، وأخصرهم نادرة، وأسرعهم جواباً، وأبلغهم خطاباً.

والمتوكل أول من أظهر من خلفاء بني العباس الانهماك على شهوته، وكان أصحابه يتسخفون ويستخفون بحضرتة، وكان يهاثر الجلساء، ويفاجر الرؤساء، وهو مع ذلك من قلوب الناس محبب، وإليهم مقرب؛ إذ أمات ما أحياه الواثق من إظهار الاعتزال، وإقامة سوق الجدال.

قال محمد بن مكرم الكاتب: من زعم أن عبد الحميد أكتب من أبي العيناء إذا أحسن بكرم، أو شرع في طمع، فقد ظلم.

كتب إلى أبي عبيد الله بن سليمان وقد نكبه وأباه المعتمد، وهما يطالبان بمال يبيعان له ما يملكانه من عقار وأثاث وعبيد وأمة، وقد أعطني بخادم أسود لعبيد الله خمسون ديناراً: قد علمت - أضحك الله! - أن الكريم المنكوب أجراً على الأحرار من اللئيم الموفور؛ لأن اللئيم يزيد مع النعمة لوماً، والكريم لا يزيد مع المحنة إلا كرمًا، هذا منك على رازقه، وهذا يسيء الظن بخالقه، وعبدك إلى ملك كافور فقير، وثمانه على ما اتصل بي يسير؛ لأنه بخدمته السلطان يعرفني الرؤساء والإخوان؛ ولست بواجد

ذلك في غيره من الغلمان؛ فإن سمحت به فتلك عادتك، وإن أمرت بأخذ ثمنه فمالك مادتي، أدام الله دولتك، واستقبل بالنعمة نكتك. فأمر له به. وسمع ابن مكرم رجلاً يقول: من ذهب بصره قلت حيلته، قال: ما أعقلك عن أبي العيناء! وكتب أبو العيناء إلى عبيد الله بن سليمان: أنا - أعزك الله تعالى! - وولدي وعيالي رزق من رزقك، إن سقيته راع وركا، وإن جفوته دبل ودوى؛ وقد مسني منك جفاء بعد بر، وإغفال بعد تعاهد، حتى تكلم عدو، وشمت حاسد، ولعبت بي ظنون رجال كنت بهم لاعبا، ولهم مجرسا، ولله در أبي الأسود في قوله: الرمل:

لا تُهني بعد إذ كرمتني وشديد عادة مُنترَعَه

فوقع في رقعته: أتا - أسعدك الله! - على الحال التي عهدت، وميلى إليك كما علمت، وليس من أنسأتاه أهملناه، ولا من أخزتاه تركناه، مع اقتطاع الشغل لنا، واقتسام زماننا، وكان من حقاك علينا أن تذكرنا بنفسك، وتعلمنا أمرك؛ وقد وقعت لك برزق شهرين؛ لتريح غلتك، وتعرفني مبلغ استحقاك، لأطلق لك باقي أرزاقك، إن شاء الله، والسلام. وكان إذا خرج من داره يقول: اللهم إني أعود بك من الركب والركب، والأجر والحشب، والزوايا والقرب.

قطعة من خطابه وجوابه: دخل على أبي الصقر بعدما تأخر عنه، فقال: ما أخرك عنا؟ قال: سرق حماري، قال: وكيف سرق؟ قال: لم أكن مع اللص فأخبرك! قال: فلم لم تأتينا على غيره؟ قال: قعدت بي عن الشراء قلته يساري، وكرهت ذلة المكارى، ومية العواري.

وزحمه رجل بالجسر على حماره، فضرب بيديه على أدتي الحمار، وقال: يا قتي، قل للحمار الذي فوقك يقول: الطريق! ودخل على إبراهيم بن المدبر، وعنده الفصل بن اليزيدي، وهو يلقي على ابنه مسائل من النحو، فقال: في أي باب هذا؟ قال: في باب الفاعل والمفعول به، قال: هذا بابي وباب الوالدة حفظها الله! فغضب الفصل وانصرف؛ وكان البحري حاضرا فكتب بعد ذلك بقصيدته إلى إبراهيم بن المدبر التي أولها: الخفيف:

دكرتنيك روحة للشمول أوقدت لوعتي وهاجت غليلي  
أي شيء ألهاك عن سر من ء وظل للعيش فيها ظليل

وفيها يقول:

أقتصاراً على أحاديث فصل وهو مستكره كثير الفصول  
فعلام اصطفت منكسف ل معد المحراق نزر القبول  
البا إن تزره تجده أخلق من ب العواني ومن تعي  
شيئ التلول ح ادلاجاً للشخذ والتطفيل  
مسرَجاً ملجماً وما متع الصب

غير أن المعلمين على حا ل قليلو التمييز صغى  
فإذا ما تذاكره الناس معنى العقول  
قال: هذا لنا ونحن كشفنا من متين الأشعار والمجهول  
عنيه للسؤال والمسؤول

ضرب الأصمعيُّ فيهم أم الأح مَرُّ أم ألقحوا بأير الخليل  
 جُلُّ ما عنده التردد في الفا عِلٌّ مِنْ وَالِدَيْهِ وَالْمَفْعُولِ  
 وَعَزَى بَعْضَ الْأَمْرَاءِ، فَقَالَ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ، كَانَ الْعِزَاءُ لَكَ لَا بِكَ، وَالْفَنَاءُ لَنَا لَا  
 لَكَ، وَإِذَا كُنْتَ الْبَقِيَّةَ فَالرِّزِيَّةُ عَطِيَّةٌ، وَالتَّعْزِيَّةُ تَهْنِئَةٌ.  
 وَسئِلُ أَبُو الْعِيْنَاءِ عَزَّ مَالِكُ بْنُ طَوْقٍ، فَقَالَ: لَوْ كَانَ فِي رَمَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ  
 وَنَزَلَ دَبْحٌ بِالْبَقْرَةِ مَا دُبِحَ غَيْرُهُ! قِيلَ: فَأَخُوهُ عَمْرٌ؟ قَالَ: كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ  
 يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا.  
 وَكَانَ مُوسَى بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ قَدْ اغْتَالَ نَجَاحُ بْنُ سَلْمَةَ فِي شَرَابٍ شَرِبَهُ  
 عِنْدَهُ، فَقَالَ الْمُتَوَكَّلُ بَعْدَ ذَلِكَ لِأَبِي الْعِيْنَاءِ: مَا تَقُولُ فِي نَجَاحِ بْنِ سَلْمَةَ؟  
 قَالَ: مَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ! فَاتَّصَلَ ذَلِكَ بِمُوسَى،  
 فَلَقِيَ الْوَزِيرَ عُبيدَ اللَّهِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَاقَانَ، فَقَالَ: أَيُّهَا الْوَزِيرُ، أَرَدْتُ قَتْلِي  
 فَلَمْ تَجِدْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا إِلَّا بِإِدْخَالِ أَبِي الْعِيْنَاءِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ  
 عَدَاوَتِهِ لِي! فَعَاتَبَ عُبيدُ اللَّهِ أَبَا الْعِيْنَاءِ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا اسْتَعْدَبْتُ  
 الْوَقِيعَةَ فِيهِ حَتَّى دَمَمْتُ سَرِيرَتَهُ لَكَ! فَأَمَسَكَ عَنْهُ.  
 ثُمَّ دَخَلَ بَعْدَ ذَلِكَ أَبُو الْعِيْنَاءِ عَلَى الْمُتَوَكَّلِ فَقَالَ: كَيْفَ كُنْتَ بَعْدُ؟ قَالَ: فِي  
 أَحْوَالٍ مُخْتَلِفَةٍ، حَيْرٌهَا رُؤْيُكَ وَشَرُّهَا عُيْبُكَ، فَقَالَ: قَدْ وَاللَّهِ اشْتَقُّكَ! قَالَ:  
 إِنَّمَا يَسْتَأْفِقُ الْعَبْدُ؛ لِأَنَّهُ يَتَعَدَّرُ عَلَيْهِ لِقَاءَ مُوَلَاهُ، وَأَمَّا السَّيِّدُ فَمَتَى أَرَادَ عَبْدَهُ  
 دَعَاهُ.

وقال له المتوكل: مَنْ أَسْحَى مَنْ رَأَيْتَ؟ قَالَ: ابْنُ أَبِي دُوَادٍ، قَالَ  
 الْمُتَوَكَّلُ: تَأْتِي إِلَى رَجُلٍ رَفَضْتَهُ فَتَنْسِبُهُ إِلَى السِّخَاءِ؟ قَالَ: إِنَّ الصِّدْقَ يَا  
 أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَيْسَ فِي مَوْضِعٍ مِنَ الْمَوَاضِعِ أَنْفَقَ مِنْهُ فِي مَجْلِسِكَ؛ وَإِنَّ  
 النَّاسَ يَغْلَطُونَ فَيَمُنُّ بِنُسْبَتِهِ إِلَى الْجُودِ؛ لِأَنَّ سِخَاءَ الْبِرَامِكَةِ مَنْسُوبٌ إِلَى  
 الرَّشِيدِ، وَسِخَاءُ الْفَضْلِ وَالْحَسَنِ ابْنِي سَهْلٍ مَنْسُوبٌ إِلَى الْمَأْمُونِ، وَجُودُ  
 ابْنِ أَبِي دُوَادٍ مَنْسُوبٌ إِلَى الْمُعْتَصِمِ؛ فَإِذَا نَسَبَ النَّاسُ الْقَيْحَ وَعُبيدَ اللَّهِ  
 ابْنِي يَحْيَى إِلَى السِّخَاءِ فَذَلِكَ سَخَاؤُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: صَدَقْتَ؛  
 فَمَنْ أَبْخَلَ مِنْ رَأَيْتَ؟ قَالَ: مُوسَى بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، قَالَ: وَمَا رَأَيْتَ مِنْ  
 بُخْلِهِ؟ قَالَ: رَأَيْتَهُ يَخْدُمُ الْقَرِيبَ كَمَا يَخْدُمُ الْبَعِيدَ، وَيَعْتَذِرُ مِنَ الْإِحْسَانِ كَمَا  
 يَعْتَذِرُ مِنَ الْإِسَاءَةِ، فَقَالَ لَهُ: قَدْ وَقَعْتَ فِيهِ عِنْدِي مَرَّتَيْنِ، وَمَا أَحَبُّ لَكَ  
 ذَلِكَ؛ فَالْقَهْ وَأَعْتَذِرْ إِلَيْهِ، وَلَا يَعْلَمُ أَيُّ وَجْهَتِ بِكَ، قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،  
 مَنْ يَسْتَكْتَمُنِي بِحَضْرَةِ أَلْفٍ؟ قَالَ: لَنْ تَخَافَ، قَالَ: عَلَى الْإِحْتِرَاسِ مِنْ  
 الْخَوْفِ.

فصار إلى موسى فاعتذر كلُّ واحدٍ منهما إلى صاحبه، وافترقا عن صلح؛  
 فلقبه بعد ذلك بالجعفري، فقال: يا أبا عبد الله، قد اصطلحنا، فما لك لا  
 تأتينا؟ قال: أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسك بالأمس؟ فقال موسى: ما  
 أرانا إلا كما كنا.

وقال له المتوكل: إبراهيم بن نوح النصراني واجدٌ عليك، قال: ولن ترصني  
 عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم! قال: إن جماعة من الكتاب  
 يلومونك! فقال: الطويل:

إِذَا رَضِيْتُ عَنِّي كِرَامُ  
 عَشِيرَتِي  
 فَلَا زَالَ عَضْبَانًا عَلَيَّ لِثَامَهَا

قال المتوكل له: أكان أبوك في البلاغة مثلك؟ قال: لو رأى أمير المؤمنين أني لرأى  
 عبداً له لا يرصاني عبداً له.

وقيل لأبي العيناء: إن المتوكل قال: لولا أنه ضربير البصر لتأدّمته، فقال: إن أعفاني من رؤية الأهله، وقراءة تفسّش الفصوص، فانا أصلح للمنادمة.  
ولقيه رجل من إخوانه في السّحر، فجعل يُعجّب من بُكوره، فقال: أراك تشاركني في الفعل وتُفردني بالتعجب! ووقّف به رجل من العامّة فأحسّ به، فقال: مَنْ هذا؟ قال: رجل من بني آدم! قال: مرحباً بك، أطال الله بفاك! وبقيت في الدنيا، ما ظننتُ هذا التّسلّ إلا قد انقطع! ودخل على عبيد الله بن سليمان فقال: أقرب منّي يا أبا عبد الله، فقال: أعزّ الله الوزير، تقرّب الأولياء، وجرّمانُ الأعداء، قال: تقرّبك عنّمْ، وجرّمانك ظلم؛ وأنا ناظرٌ في أمرك نظراً يصلّح من حالك إن شاء الله.  
وقال له يوماً: اعذرني فأبّي مشغول، فقال له: إذا فرغت من شغلك لم تحجّ إليك، وأنشده: الطويل:

فلا تَعْتَذِرْ بِالشُّغْلِ عَنَّا؛ فَإِذَا  
تُناطُ بِكِ الأَمالُ ما اتَّصَلَ  
الشُّغْلُ

ثم قال: يا سيّدي، قد عذرتك، فإنه لا يصلّح لشكرك من لا يصلّح لعذرك. وأقبل إليه يوماً فقال: من أين يا أبا عبد الله؟ قال: من مطّارح الجفّاء! وقال له مرّة: نحن في العطلّة مرّحومون، وفي الوزارة محرومون، وفي القيامة كلّ نفس بما كسبت رهينة.  
وسار يوماً إلى باب صاعد بن مخلد، فقيل: هو مشغولٌ يصلي، قال: لكل جديد لذة! وكان صاعداً نصرانياً قبل الوزارة.  
ودخل إلى عميد الله بن سليمان، فشكا إليه حاله، فقال: أليس قد كتبنا لك إلى إبراهيم بن المدبر؟ فقال: كتبت إلى رجل قد قصّر من همته طولُ الفقر، ودلّ الأسر، ومعاناهُ مَحَن الدَّهر، فأخفته في طليّتي! قال: أنت اخترته؟ قال: وما علي - أعزّ الله الوزير! - في ذلك: قد اختار موسى قومه سبّعين رجلاً، فما كان منهم رشيد، واختار النبيّ، صلى الله عليه وسلم ابنَ أبي سرح كاتباً، فرجع إلى المشركين مرتداً، واختار علي بن أبي طالب أبا موسى حاكماً فحكّم عليه!

هروب إبراهيم بن المدبر من السجن  
وكان إبراهيم بن المدبر أسره صاحبُ الرّنج بالبصرة وحيسه؛ فاحتال حتى نقب السجن وهرب، فلذلك ذكر أبو العيناء ذلك الأسر، وكان قد ضرب في وجهه ضرباً بقي أثرها إلى أن مات؛ ولذلك قال البحري: الكامل:

ومبيّةٍ شهّر المنازلَ وسَمّها  
والخيل تكبّو في العجاج  
الكابي

كانت بوجهك دون عرضك إذ  
رأوا  
ولئن أسيرت فما الإسارُ على  
امرئ  
نام المضلل عن شرك ولم  
تخف  
فركبتّها هولاً متى تُخيزُ بها  
ما راعهمُ إلا استراقك  
مُصَلِّياً  
تحمي أعيلمّةً وطائشهُ  
الخطي

أنّ الوجوه تُصانُ  
بالأحساب  
تصّر الإسارَ على الفرار  
يعاب  
عين الرقيب وقسوة  
البواب  
يقلّ الجبان: أتيت غير  
صواب  
في مثل بُرد الأرقم  
المُنساب  
تصلي التلفت حشية  
الطلاب

قد كان يوم ندى يطوِّلكَ  
 باهراً  
 حتى أضفت إليه يومَ  
 ضراب  
 ذكّر من البأس استعدت إلى  
 أعطيت في الأخلاق  
 والذي  
 ووحيدة أنت انقردت  
 والآداب  
 لولاك ما كتبت على  
 الكُتاب  
 بفضلها

أخبار صاحب الزنج

قال أبو بكر الصولي: حدثني محمد بن أبي الأزهر، وقد ذكّرته خير علي صاحب الزنج، قال: ادّعى أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، فنظرت مولده ومولد محمد ابن أحمد الذي ادعاه فكان بينهما ثلاث سنين؛ وكان لمحمد بن أحمد ولد اسمه علي، مات بعد هذا المدعي اسمه ونسبه بزمان. ثم رجع عن هذا النسب فادّعى أنه علي بن محمد بن عبد الرحيم بن رحيب بن يحيى المقتول بخراسان ابن زيد بن علي.  
 قال أبو عبيدة محمد بن علي بن حمزة: ولم يكن ليحيى ولد يقال له رحيب ولا غيره؛ لأنه قُتل ابن ثمانى عشرة سنة ولا ولد له.

قال بشر بن محمد بن السري بن عبد الرحمن بن رحيب: هو ابن عم أبي لحاء علي بن محمد بن عبد الرحمن بن رحيب، ورحيب رجل من العجم من أهل ورتين من ضياع الري، وهو القائل لبني العباس: الطويل:

بني عمنا إنا وأنتم أنامل  
 بني عمنا وليتم الترك أمرنا  
 فما بال عجم الترك تقسم  
 قيننا  
 فأقسيم لا ذقت القراح وإن  
 أذق

وقال أيضاً: الخفيف:

لَهْفَ نفسي على قصورِ  
 د وما قد حَوَّته من كلِّ عاصِ  
 ببغدا

ورجال على المعاصي  
 جِراسِ  
 أفجم الخيل بين تلك  
 العِراسِ  
 وحمورِ هناك تُشربُ جَهراً  
 لسئ بابنِ الفواطمِ الزُّهرِ  
 إن لم

وله في هذا المعنى شعر كثير قد ناقصه البغداديون، وكانت مدته حين نجم إلى أن قتل أربع عشرة سنة، وجملة من قتل ألف ألف وخمسمائة ألف. رجع إلى أخبار أبي العيناء

وذكر أبو العيناء رجلاً، فقال: صَحِكُ كالبكاء، وتودد كالعزاء، ونوادِر كندب الموتى! وكان يُهاثر ابن مكرم كثيراً، وكتب إليه ابن مكرم يوماً: قد ابْتَعْتُ لك غلاماً من بني ناشر، ثم من بني تاعِظ، ثم من بني نهد. فكتب إليه: فأنتا بما تَعِدْتا إن كنت من الصادقين.

وولد لأبي العيناء ولد، فأتى ابن مكرم فسلم عليه، ووضع حجراً بين يديه وانصرف، فأحس به، فقال: مَنْ وضع هذا؟ فقليل: ابن مكرم؟ قال: لعنه الله! إنما عَرَضَ بقول النبي صلى الله عليه وسلم: الولد للفراش وللعاهر الحجر.

وقال لابن مكرم، وقد قدم من سفر: ما لك لم تُهدِ إلينا هدية؟ قال: لم آت

بشيء، وإنما قدمت في حُف. قال: لو قدمت في حُفٍ لَخَلَّفَتْ رُوحَكَ! وأتى إلى باب إبراهيم بن رباح، فحجب، فقال: إذا شغل بكأس يمانه وبحر يسراه، وانتسب إلى أبي لا يعرف أباه، ولا يَحْفَلُ بِحِجَابِ مَنْ أَتَاهُ. وقدم إليه أبو عيسى بن المتوكل سيكباحة، فجعل لا تقَعُ يده إلا على عظم؛ فقال: جعلت فِدَاكَ! هذه قدر أو قبر؟ ودعا ضريراً ليعشيه، فلما يدَعُ شيئاً إلا أكله، فقال: يا هذا، دعوتك رحمةً فتركتني رحمة.

ألفاظ لأهل العصر في صفات الطعام ومقدماته، وموائده، وآلاته  
أفرش طعامك اسم الله، وألحفة حمَدَ الله. لا يَطِيبُ حضور الإخوان، إلا مع الإخوان. البخلُ بالطعام، من أخلاق الطعام. الكريم لا يحظر، تقديم ما يحضر. قد قامت خطباءُ القدور. قدورُ أبقار، بخواتم النار. قدر طار عَرَفُها، وطاب عَرَفُها. دَهْمَاءُ تهدير كالقنيق، وتَفُوحُ كالمسك القتيق. مائدة كدَارَةِ البدر، تباعد بين أنفاس الجلّاس. مائدة مثلُ عروس. مائدة لطيفة، محفوفة بكل طريفة. مائدة تشتمل على بدائع المأكولات، وغرائب الطيبات. مائدة كأنما عملها صنّاع صنّعاء، تجمع بين أنوار الربيع، وثمر الخريف.

وقال الجمار: جاءنا فلان بمائدة كأنها رَهْنُ البرامكة على العفاة! ودَمَّ آخر رجلاً فقال: لا يحضر مائدته إلا أكرمُ الخلق والأمهم - يريد الملائكة والدُّباب.

وقال ابن الحجاج لرجل دعاه وأجر الطعام: السريع:  
قد جُنَّ أصحابك من جوعهم فاقراً عليهم سورة المائدة  
ولبعض أهل العصر يذم رجلاً الوافر:

خَوَانٌ لَا يَلِيْمٌ بِهِ ضِيُوفٌ وَعِرْضٌ مِثْلُ مَنْدِيلِ الْخَوَانِ  
رَعْفَانٌ كَالْبُدُورِ الْمُنْمَطَّةِ بِالنُّجُومِ. حَمَلٌ ذَهَبِي الدَّنَارِ، فَصِي الشُّعَارِ. أَطْيَبُ مَا يَكُونُ الْحَمَلُ، إِذَا حَلَّتِ الشَّمْسُ الْحَمَلَ. جَدِي كَأَنَّمَا يُدْفَعُ عَلَيَّ جَبِينُهُ الْقَز. زِبْرَاجَةٌ، هِيَ لِلْمَائِدَةِ دِيبَاجَةٌ، تَشْفِي السَّقَامَ، وَلَوْنُهَا لَوْنُ السَّقِيمِ. سِكْبَاجَةٌ تَفْتَقُ الشَّهْوَةَ، وَاسْفِيذَبَاجَةٌ تُغْذِي الْقَرْمَ، وَطَيَاهِجَةٌ يَتَّفَكُّ بِهَا، وَحَبِيصٌ يَخْتَمُ بِخَيْرٍ. طَيَاهِجَةٌ مِنْ شَرَطِ الْمَلُوكِ، كَأَعْرَافِ الدِّيُوكِ، وَقَلِيَّةٌ كَالْعُودِ الْمُطْرَى. مَغْمُومَةٌ تَفْرَحُ عَمَّ الْجَائِعِ. هَرِيْسَةٌ بَفَيْسَةٍ، كَأَنَّهَا خِيُوطٌ قَزٌّ مُشْتَبِكَةٌ، كَأَنَّ الْمُتْرِيَّ عَلَيْهَا عُصَارَةُ الْمَسْكَ عَلَى سَبِيكَةِ الْفِصَّةِ. أَرْزَةٌ مَلْبُونَةٌ، فِي السُّكَّرِ مَدْفُونَةٌ. شِوَاءٌ رَشْرَاشٌ، وَفَالُودِجٌ رَجْرَاجٌ. طَيَاهِجَةٌ تَغْذِي وَفَالُودِجَةٌ تَعْزِي، وَاسْفِيذَبَاجَةٌ تَصْفَعُ قَفَا الْجُوعِ. وَلَا فِرَاشٌ لِلنَّبِيذِ، كَالْحَمَلِ الْحَنِيدِ. دِجَاجَةٌ سَمِيْطَةٌ، لَهَا مِنَ الْفِصَّةِ جَسْمٌ، وَمِنَ الذَّهَبِ قَشْرَةٌ. دِجَاجَةٌ دِينَارِيَّةٌ ثَمَنًا وَلَوْنًا. وَهَذَا مَحْلُولٌ مِنْ قَوْلِ عَلِيِّ بْنِ الْعَبَّاسِ الرَّومِيِّ يَصِفُ طَعَامًا أَكَلَهُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ الْبَاقَطَانِيِّ: الْكَامِلُ:

ثَمَنًا وَلَوْنًا رَفَهَا لَكَ حَزْوَرٌ	وَسَمِيْطَةٌ صَفْرَاءُ دِينَارِيَّةٌ
وَعَلَّتْ فَكَادَ إِهَابُهَا يَتْفَطَّرُ	عَظُمَتْ فَكَادَتْ أَنْ تَكُونَ
	إِوْرَةً
فَأَتَى لِبَابِ اللُّوزِ فِيهَا	طَفِقَتْ تَجُودُ بِدَوْبِهَا
السُّكَّرِ	جَوْدَابَةً
فَكَانَ تَبْرًا عَنِ الْجَيْنِ	ظَلَّتْ نَقِشُ جِلْدِهَا عَنِ
يُفَشِّرُ	لَحْمِهَا
مِثْلَ الرِّيَاضِ بِمِثْلِ ذَاكَ	وَتَقَدَّمَ ثَمَنًا قَبْلَ ذَاكَ تَرَائِدُ
تُصَدَّرُ	

ومرَقَّات كُلُّهُنَّ مَزْخَرَفٌ  
وَأَنْتِ قَطَائِفُ بَعْدَ ذَاكَ  
لَطَائِفُ  
ضَحْكُ الْوَجْوهِ مِنَ الطَّبْرَزْدِ  
فَوْقَهَا  
بِالْبَيْضِ مِنْهَا مُلَبَّسٌ وَمُدَّتَرٌ  
تَرْضَى اللَّهَاءُ بِهَا وَيَرْضَى  
الْحَنْجَرُ  
دَمْعُ الْعِيَانِ مِنَ الدَّهَانِ  
يُعَصَّرُ

قال البديع: حدّثني عيسى بن هشام قال: اسْتَهَيْتُ الْأَزَادَ، وَأَنَا بَبْعَدَادَ،  
وَلَيْسَ مَعِيَ عَقْدٌ، عَلَيَّ تَقْدٌ، فَخَرَجْتُ أَنْتَهْرُ مَحَالَةَ، حَتَّى أَحَلَّنِي الْكَرْحُ؛ فَإِذَا  
أَنَا بِسَوَادِيٍّ يَخْدُو بِالْجَهْدِ حِمَارَهُ، وَطُطَّرَفَ بِالْعَقْدِ إِزَارَهُ؛ فَقُلْتُ: طَفَرْنَا وَاللَّهِ  
بَصِيدٍ، وَحَيَاكَ اللَّهُ أَبَا زَيْدٍ! مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ وَأَيْنَ تَزَلْتِ؟ وَمَتَى وَاقَيْتِ،  
فَهَلَمَّ إِلَى الْبَيْتِ. فَقَالَ السَّوَادِيُّ: لَسْتُ بِأَبِي زَيْدٍ، وَإِنَّمَا أَبُو عُبَيْدٍ! فَقُلْتُ:  
نَعَمْ، لَعَنَ اللَّهُ الشَّيْطَانَ، وَأَبَعَدَ النَّسِيَانَ، أَسَانِي طَوْلَ الْعَهْدِ بِكَ، كَيْفَ  
أَبُوكَ، أَشَابَ كَعَهْدِي، أَمْ شَابَ بَعْدِي. قَالَ: قَدْ تَبَّتِ الْمَرْعَى عَلَى دِمَّتِيهِ،  
وَأَرْجُو أَنْ يُصَيِّرَهُ اللَّهُ إِلَى جَنَّتِيهِ، فَقُلْتُ: إِنَّا لِلَّهِ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَمَدَدَتْ يَدُ  
الْبِدَارِ، إِلَى الصَّدَارِ أَرِيدُ تَمْزِيقَهُ، وَأُحَاوِلُ تَخْرِيقَهُ، فَقَبِضِ السَّوَادِيَّ عَلَى  
حَصْرِي بِجَمْعِهِ. وَقَالَ: تَشَدُّتُكَ بِاللَّهِ لَا مَرْفَئَةَ، فَقُلْتُ: فَهَلَمَّ إِلَيَّ الْبَيْتِ نُصِبَ  
غَدَاءٌ، أَوْ إِلَى السُّوقِ نَشْتَرِي شِوَاءً؛ وَالسُّوقُ أَقْرَبُ، وَطَعَامُهُ أَطْيَبُ،  
فَاسْتَفْرَتُهُ حُمَةُ الْقَرَمِ، وَعَطَفَتُهُ عَطْفَةُ النَّهْمِ، وَطَمِعَ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ وَقَعَ، ثُمَّ  
أَتَيْتِ شِوَاءً يَتَقَاطِرُ شِوَاؤُهُ عَرْقًا، وَيَتَسَايَلُ جُودَابَهُ مَرَقًا فَقُلْتُ: أُبْرَزُ لِأَبِي  
زَيْدٍ مِنْ هَذَا الشِّوَاءِ، ثُمَّ زِنَ لَهُ مِنْ تِلْكَ الْخَلْوَاءِ، وَاخْتَرِ مِنْ تِلْكَ الْأَطْيَاقِ  
وَنُضِدْ عَلَيَّ أَوْرَاقَ الرِّقَاقِ، وَشَيْئًا مِنْ مَاءِ السَّمَاقِ، لِأَكْلِهِ أَبُو زَيْدٍ هَنِيئًا.  
فَأَنْحَى الشِّوَاءَ بِسَاطُورِهِ، عَلَى زُبْدَةِ تَنْوَرِهِ، فَجَعَلَهَا كَالْكَحْلِ سَحَقًا،  
وَكَالطَّيْنِ دَقًا، ثُمَّ جَلَسَ وَجَلَسْتُ، وَلَا تَبَسَ وَلَا نَبَسَ، حَتَّى اسْتَوْفِينَاهُ،  
وَقُلْتُ لِصَاحِبِ الْخَلْوَاءِ: زِنَ لِأَبِي زَيْدٍ مِنَ اللَّوْزِ بَيْتَ رَطْلِينَ، فَإِنَّهُ أَجْرِي فِي  
الْحَلُوقِ، وَأَسْرَى فِي الْعُرُوقِ، وَلِيَكُنْ لَيْلِي الْعُمَرُ، يَوْمِي النَّشْرُ، رَقِيقُ  
الْقَشْرِ، كَيْفَ الْحَشْوِ، لَوْلِيَّيَّ الدَّهْنُ كَوَكْبِي اللَّوْنِ، يَذُوبُ كَالصَّمْغِ، قَبْلَ  
الْمَضْغِ، لِأَكْلِهِ أَبُو زَيْدٍ هَنِيئًا. فَوزنهُ، ثُمَّ قَعَدَ وَقَعَدْتُ، وَجَرَدَ وَجَرَدْتُ،  
وَاسْتَوْفِينَاهُ، ثُمَّ قُلْتُ: يَا أَبَا زَيْدٍ، مَا أَحْوَجُنَا إِلَى مَاءٍ يَشْعَشَعُ بِالثَّلْجِ، لِيَقْمَعَ  
هَذِهِ الصَّارَةَ، وَيَفْتَأَ هَذِهِ اللَّقْمَ الْحَارَةَ؛ أَجْلِسْ أَبَا زَيْدٍ حَتَّى آتِيكَ بِسِقَاءٍ،  
يَحْيِينَا بِشَرِيبَةٍ مِنْ مَاءٍ، ثُمَّ خَرَجْتُ، وَجَلَسْتُ بِحَيْثُ أَرَاهُ وَلَا يَرَانِي، أَنْظُرُ مَا  
يَصْنَعُ بِهِ. فَلَمَّا أَبْطَأْتُ عَلَيْهِ قَامَ السَّوَادِيُّ إِلَى حِمَارِهِ، فَاعْتَلَقَ الشِّوَاءَ  
بِإِزَارِهِ، وَقَالَ: أَيْنَ ثَمَنٌ مَا أَكَلْتُ؟ قَالَ: مَا أَكَلْتَهُ إِلَّا ضَيْفًا! قَالَ الشِّوَاءُ: هَاكَ  
وَأَكْ مَتَى دَعُونَكَ؟ زِنَ يَا أَخَا الْقَحْبَةِ عَشْرِينَ، وَإِلَّا أَكَلْتُ ثَلَاثًا وَتَسْعِينَ!  
فَجَعَلَ السَّوَادِيُّ يَبْكِي وَيَمْسَحُ دَمُوعَهُ بِأَرْدَانِهِ، وَيَحُلُّ عَقْدَةَ بِأَسْنَانِهِ، وَيَقُولُ:  
كَمْ قُلْتُ لَذَلِكَ الْقَرِيدِ، أَنَا أَبُو عُبَيْدٍ، وَهُوَ يَقُولُ: أَنْتَ أَبُو زَيْدٍ! فَانْشَدْتُ:  
مَجْزُوءَ الْكَامِلِ:

اعْمَلْ لِرِزْقِكَ كُلَّ آلِهِ  
وَأَنْهَضْ بِكُلِّ عَزِيمَةٍ  
وَمَنْ مَلِيحٌ مَا قِيلَ فِي الْقَطَائِفِ قَوْلُ عَلِيِّ بْنِ يَحْيَى بْنِ أَبِي مَنْصُورِ الْمَنْجَمِ: الرَّجْزُ:  
قَطَائِفٌ قَدْ حُشِيَتْ بِاللُّوزِ  
يَسْبِغُ فِي آذِي دَهْنِ الْجَوْرِ  
سُرُورُ عَبَّاسٍ بِقَرَبِ قَوْزِ  
لَا تَقْعَدَنَّ بَدُلَّ حَالِهِ  
فَالْمَرْءُ يَعْجَزُ لَا الْمَحَالَهُ  
سِرِّرْتُ لَمَّا وَقَعْتُ فِي حَوْزِي

ومن ألفاظ أهل العصر في الحلواء: فالوذج بلباب البُرِّ، ولعاب النَّخل، كأنَّ اللوز فيه  
كواكب دُرِّ، في سماء عَقِيق.

ولم يقل أحد في صفة اللوزيَّج أحسن من قول ابن الرومي: السريع:

لا يُخَطِّبِي مِنْكَ لوزِينِج  
لو شاء أن يذهبَ في صخرة  
لم تَغْلِقِ الشّهوةَ أبوابها  
يَدور بالنَّفحة في جامِه  
عاوَن فيه منظرٌ مخبِراً  
مستكثف الحَشو ولكنه  
كأنما قدَّت جَلابيه  
يخالُ من رِقَّة خرشائه  
لو أنَّه صُوِّرَ من خَبزِه  
من كلِّ بيضاء يَوَدُّ الفَتَى

مدهونة زرقاء مدقوقة  
قرّة عين وقم حُسنت  
ديف له اللوز؛ فما مرّة  
وانتقد السكر نُقادِه  
فلا إذا العينُ رآته تَبَتْ  
لا تُنكروا الإدلال من وامِق

هذه الأبيات يقولها في قصيدة طويلة يمدح فيها أبا العباس أحمد بن محمد  
ابن عبد الله بن بشر المرثدي، وبهنيه يابن ولده، وأولها:

شمسٌ وبدرٌ ولدَا كوكبا

قال أبو عثمان سعيد بن محمد الناجم: دخلت على أبي الحسن وهو يعمل هذه  
القصيدة، فقلت: لو تَفَاءَلتَ فيها لأبي العباس بسبعة من الولد؛ لأن أبا العباس منكوساً  
سابع، لجا المعنى ظريفاً، فقال: السريع:

وقد تَفَاءَلتُ له زاجِراً  
إني تَأَمَّلتُ له كُنْيَةً  
يَصُوغُهَا العكسُ أبا سابع  
بل ذاكَ فالُ ضامِنٌ سَبْعَةَ  
يأتون من صلِبِ فتى ماجِدٍ  
وقد أتانا منهمُ واحد  
في مُدَّةٍ تَعْمُرُهَا نِعْمَةٌ  
حتى نراهُ جالِساَ بينهمُ  
كالبدرِ وَاقَى الأرضَ من نُورِه  
وليُشكِرَ النَّاجِمُ عن هذِه  
سَدَى وَأَلْحَمْتُ أخَ لِمَ أَرَلُ

وكان ابن الرومي منهوماً في المأكَل، وهي التي قَتَلْتُهُ، وكان مُعجَباً بالسَّمك، فوعده  
أبو العباس المرثدي أن يبعثَ إليه كل يوم بوظيفة لا تَنقُط، فبعثَ إليه يومَ سَبْتِ، ثم  
قطعه، فقال: الخفيف:

أخلفَ الزائرونَ منتظرِيهمْ  
من حِقَاطِ عليه ما يَكْفِيهمْ  
فكأَنَّ اليهودُ أو تَحْكِيهمْ  
رِ قَلِمٍ يُسْخِطُونَ مَن يُرْضِيهمْ  
يوم لا يَسْتَبُون لا تَاتِيهمْ

ما لِحَيْتَانِنَا جَفَنُنَا وَأَتَى  
جاء في السبتِ زَوْرُهُمْ فَأَتِينَا  
وجعلناه يوم عيد عظيم  
وأرأهمْ مُصَمِّمِينَ على الهَجِّ  
قد سَبَبْنَا وما أَتَبْنَا وكأَنُوا

فاتصل ذلك بالنجم، فكتب إلى الرومي: المتقارب:

لُ تَحَمَدُ في الفِضْلِ رُجْحَانَهُ  
وقد قَلَلِ اللهُ إِحْسَانَهُ  
إِذَا وَعَدَ الوَعْدَ إِخْوَانَهُ  
قَئِلُ في طِلَابِك حَيْثَانَهُ

أبا حسن، أَنْتَ مَنْ لا تَزَا  
فكم تُحْسِنُ الظن بالمرثدي  
ألم تَدْرُ أَنْ الفَتَى كَالسَّرَابِ  
فَبَحْرُ السَّرَابِ يَفُوتُ  
الطُلوْبَ

وخرج ابن الرومي إلى بعض المتنزهات وقصدوا كزماً رازقياً، فشرّبوا هناك عامة يومهم، وكانوا يتهمونه في شعره، فقالوا: إن كان ما نُشِدُّنَا لَكَ فُؤَلُ في هذا شيئاً، فقال: لا تَريموا حتى أقول فيه، وأنشدهم لوقته: الرجز:

كَأَنه مَخَازِنُ البُلُورِ  
وفي الأعالِي ماء وَزْد خوري

ورازقي مُخْطَفِ الخُصُورِ  
قد صُمِّنتِ مِسْكَاً إلى  
الشطُورِ

له مَذاق العَسَلِ المَشُورِ  
ونكَّههُ المِسْكَ مع الكافورِ  
بَاكَرُتُهُ والطِيْرُ في الوُكُورِ  
أَمْلاً لِلعَيْنِ من البُدُورِ  
قبل ارتفاع الشمس للذُورِ  
بطاعة الرَّاغِبِ لا المقهورِ

بلا قَرِيد وبلا شُدُورِ  
وَبَزْدُ مَمَّنِ الخَصِرِ المَقُورِ  
ورقة الماء على الصدورِ  
بِفَيْئَةٍ من وَلَدِ المنصورِ  
حتى أَتِينَا حَيِّمَةَ الناطورِ  
فانحط كالطاوي من  
الصقُورِ

حتى أَنانا بِصُرُوعِ حورِ  
والطَلُّ مثل اللؤلؤ المنثورِ  
بين حِفاقي جَدُولِ مَسجورِ  
أو مثل متن المُنصلِ  
المشهورِ

والحرُّ عَبْدُ الحَلْبِ المشطُورِ  
مملوءةٍ من عَسَلِ محصورِ  
ثم جَلَسْنَا جِلْسَةَ المحبورِ  
أبيض مثل المَهْرَقِ المنشورِ

بَيْن سِمَاطِي شَجَرِ مَسطُورِ  
فَنِيَلَتِ الأوطارِ في سُرُورِ  
تَعَلَّة من يَوْمِنا المنظُورِ

يَنسَابُ مثل الحَيَّةِ المذعُورِ  
ناهيك للعقود من ظُهورِ  
وكل ما يُقْصَى مِنَ الأمورِ  
ومُنْعَةٌ من مُتَعِ العُرُورِ

ألفاظ تناسب هذا النحو لأهل العصر  
في صفات الفواكه والثمار

كزَمُ تُسَلِّفُهُ الماء القَرَّاحِ، وَيَقْضِينَا أُمّهات الرِّاحِ. عنقود كالثريّا، وَعَيْبُ  
كمخازن البلور، وضروب الثور، وأوعية السرور. أمّهات الرحيق، في مخازن  
العقيق. تَحَلُّ تُسَلِّفُهُ الماء، ويقضينا العسل. رُطْبُ كأنها شُهْدَةٌ بالعقيق  
مَقْتَنَّة، بالعُقَيان مُقَمَّعة. رُمان كأنه صُرَّرِ الياقوت الأحمر. سَفَرجل يَجْمَعُ  
طيباً، ومنظراً حسناً عجبياً، كأنه زئبر الخرز الأغر، على الديباج الأصفر. تَفَّاحُ  
تَفَّاحُ، يجمع وَصَفَ العاشقِ الوَجِلِ، والمعشوقِ الحَجَلِ، له نسيمُ العبيرِ،

وَطَعْمُ الْكَرِّ، رَسُولُ الْمَجِبِ، وَشَبِيهِ الْحَبِيبِ. تَيْنَ كَأَنَّهُ سُفْرٌ مَضْمُومَةٌ عَلَى  
عَسَلٍ. مَشْمَشٌ كَأَنَّهُ الشَّهْدُ فِي بَيَادِقِ الذَّهَبِ.

ما قيل في وصف الليل والصيد واللهو

قال بعضُ الرواة: أنشدت أعرابياً قولَ جرير بن عطية بن الحَظْفِي:

أبدل الليل لا تسري  
كواكبُهُ  
أم طال حتى حسبت النجم  
حَيْرَانَا؟

فقال: هذا حسنٌ في معناه، وأعوذ بالله من مثله؛ ولكنني أنشدك في ضده من قولي،  
وأنشدني: الوافر:

وليل ثم يُقَصِّرُهُ رُقَادٌ  
تَعِيمُ الْحَبِّ أَوْرُقٌ فِيهِ حَتَّى

وقصّر طولَه وَصَلَّ الْحَبِيبِ  
تناولنا جَنَاهُ من قَرِيبِ

بمجلس لَدَّةٍ لم تَقْوِ فِيهِ  
بَخَلْنَا أن نَقْطَعَهُ بَلْفُظٍ

على شَكْوَى ولا عَدَّ الذُّنُوبِ  
فَتَرَجَمَتِ الْعَيُونُ عن القُلُوبِ

فقلت له: زدني فما رأيت أظرفَ منك شعراً؛ فقال: أمّا هذا الباب فحسبك، ولكن  
أنشدك من غيره: الوافر:

وكننت إذا عَلِقْتَ حبالَ قوم  
فأحسبُ حين يُحْسِنُ

صَحْبُهُمْ وَشِيَمَتِي الوفاءُ  
وأجتنب الإساءة إن أساءوا

أشياء سوى مشيئتهم فَآتِي  
محسنوهم

مشيئتهم وأترك ما أشاء

قال الأصمعي: قرأت على أبي مُحَدَّرٍ خلف بن حيان الأحمر شعرَ جرير، فلما بلغت إلى  
قوله: الطويل:

ويوم كإبهام القِطَاةِ محبِّبٍ  
رُزِقْنَا به الصِّيدَ العزيرَ ولم

إلي صباهُ غَالِبٌ لي باطلُهُ  
كمن تَبَلُّهُ مَحْرُومَةٌ وَحَبَائِلُهُ

نكن  
فيا لك يومٌ حَيْرُهُ قبل شرِّه  
تَغَيَّبَ واشبه وأقصرَ عادِلُهُ

فقال خلف: وَيَحَهُ! فما ينفعه خيرٌ يؤول إلى شرٍّ؟ فقلت له: كذا قرأته على أبي عمرو

بن العلاء، فقال لي: وكذا قال جرير، وما كان أبو عمرو ليقرئك إلا ما سمع، قلت:

فكيف كان يجبُّ أن يكونَ؟ قال: الأَجُودُ أن يقولَ: حَيْرُهُ دون شرِّه، فأزوه كذلك، فقد

كانت الرواة قديماً تُصْلِحُ أشعارَ الأوائل، فقلت: والله لا أرويه بعدها إلا كذا.

ومن أجود ما قيل في قِصْرِ الليل قول إبراهيم بن العباس: الرجز:

وليلةٍ من الليالي العُرِّ  
لم تك غير شفقٍ وَفَجْرِ

قابلتُ فيها بَدْرَها بِبَدْرِي  
حتى تَقَصَّصَتْ وهي بِكُرِّ الدَّهْرِ

وقال محمد بن أحمد الأصبهاني فيما يتعلّق بهذا المعنى وإن كان في ذكر النهار:  
الخفيف:

كيف يُرْجَى لمقلتي هُدُو  
بأبي مَنْ تَعِمْتُ منه يَوْمِ

ورقادي لَطْرَفِ عَيْنِي عَدُو؟  
لم يَزَلْ للسرورِ فيه نَمُو

يوم لهُوَ قَدِ التَّقَى طرفاهُ  
فكأنَّ العَشِيَّ فِيهِ عُدُو

ولبَدْرِ السَّمَاءِ مني دُنُو  
ولبَدْرِ السَّمَاءِ مني دُنُو

وقال ابن المعتز: السريع:

يا رب ليل سَحَرُ كُلُّهُ  
تلتقطُ الأنفاسُ بَرْدَ التَّدَى

مفتصح البدرِ عليل النسيم  
فيه فنهديه لِحَرِ الهُمُومِ

في ضوئه إلا بِسُكْرِ النديمِ  
ولدَّةِ الرَّاحِ ثيابَ النعيمِ

لا أعرفُ الإصباحَ لَمَّا بدا  
لبسْتُ فيه بالتذاذِ الهوى

وصف منبج

أخذ قوله: سحر كله من قول عبد الملك بن صالح بن علي، وقد قال له الرشيد لما دخل منبج: أهذا منزلك؟ قال: هو لك، ولي بك يا أمير المؤمنين، قال: كيف بناؤه؟ قال: دون منازل أهلي، وفوق منازل الناس، قال: وكيف ذلك وقدرك فوق أقدارهم؟ قال: ذلك خلق أمير المؤمنين أتأسى به، وأفقو أثره، وأخذوا حدوه، قال: فكيف طيب منبج؟ قال: عذبة الماء، قليلة الأدواء، قال: فكيف ليّلها؟ قال: سحر كله؟ وأخذ هذا الطائي فقال: الكامل:

أيامنا مصقولة أطرافها      بك، والليالي كلها أسحار  
ولأهل العصر، قال أبو علي محمد بن الحسين بن المظفر الحاتمي: البسيط:  
يا رب ليل سُرور خِلته      كعارضِ البرقِ في أفقِ الدُجَا  
قِصرًا      بَرَقَا

قد كَادَ يعثر أولاه بآخره      وكادَ يسبق منه فَجْرُه  
الشَّقَا      الشَّقَا  
كأتما طرّقه طرّف اتفق      جَفْتَانِ مِنْهُ على الإطباقِ  
ال      وافتَرَقَا

ألفاظ في هذا المعنى لأهل العصر

ليلة من حسنات الدهر، هواؤها صحيح، ونسيمها عليل، ليلة كبرد الشباب، وبرد الشراب. ليلة من ليالي الشباب، فضية الأديم، مسكية النسيم. ليلة هي لمعة العمر، وعرة الدهر. ليلة مسكية الأديم، كافورية النجوم. ليلة رقد الدهر عنها، وطلعت سعودها، وغابت عذالها. ليلة كالمسك منظرها ومخبئها. ليلة هي باكورة العمر، وبكر الدهر: ليلة ظلماتها أنوار، وطوال أوقاتها قِصار.

الفضل بن سهل

كان سبب اتصال سعيد بن هريم بذي الرياستين الفضل - وسمي ذا الرياستين؛ لأنه جمع بين رياسة القلم ورياسة التدبير للمأمون - أنه دخل عليه يوماً، فقال: الأجل آفة الأمل، والمعروف دُخْرُ الأبد، والبر غنيمة الحازم، والتفريط مصيبة أخي القدرة، وأنا لم تَصُنْ وجوهنا عن سؤالك، فصن وجهك عن ردنا، وصعنا من إحسانك بحيث وصعنا أنفسنا من تأميك.

فأمر أن يكتب كلامه، وسماه سعيداً الناطق، ووصله المأمون فخص به. فلحقته في بعض الأوقات جفوة من الفضل، فكتب إليه: يا حافظ من يضع نفسه عنده، وما ذاك من تسيي نصيبه منه، ليس كتابي إذا كتبت استبطاءً، وما إمساكي إذا أمسكت استغناءً، فكتبت مذكراً لا مستقصراً فَعَلْكَ. فوصله وأحسن إليه.

وقد روي بعض هذا الكلام المنسوب إلى سعيد بن هريم لأبي حفص الكرمانى مع ذي الرياستين.

ويقول أبو محمد عبد الله بن أيوب التميمي: الطويل:

لِعَمْرِكَ ما الأشرافُ في كلِّ      وإنْ عَظُمُوا لِلْفَضْلِ إلَا  
بَلَدَ      صَتَاءُ

تَرَى عَظَمَاءَ النَّاسِ لِلْفَضْلِ      إذا ما بَدَا، وَالْفَضْلُ لِلَّهِ  
حُشَعًا      خُشَعًا

تَوَاصَعَ لَمَّا زاده اللّه رفعةً      وكلّ جليل عنده مُتَوَاصِعُ

وقال إبراهيم بن العباس: مجزوء المتقارب:

لفضل بن سهل يد      تقاصر عنها المثل

فباطئها للندی

وظاهرها للقبلى

وبسطئها للغنى

وسطوئها للأجل

أخذه ابنُ الرومي فقال لإبراهيم بن المدير: الكامل:  
أَصْبَحْتُ بَيْنَ صَرَاعَةٍ وَتَجْمَلٍ وَالْمَرْءُ بَيْنَهُمَا يَمُوتُ هَزِيلًا  
فَامدُّ إِلَى يَدَا تَعَوَّدَ بَطْنُهَا بَدَلِ النَوَالِ وَظَهَرُهَا التَّقْيِيلَا  
وقال يمدح عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، وزاد في هذا المعنى تشبيهاً  
ظريفاً: الطويل:

مَقْبَلُ ظَهْرِ الكَفِّ وَهَابٍ لَهَا رَاحَةٌ فِيهَا الحَطِيمُ وَرَمَزَمٌ  
بَطْنُهَا

فَظَاهِرُهَا لِلنَّاسِ رُكْنٌ مَقْبَلٌ وَبَاطِنُهَا عَيْنٌ مِنَ العُرْفِ  
عَيْلَمٌ

وكان ذو الرياستين يَفْبَلُ صَوَابَ القائلين بما في قوته من صفاء الغريزة، وجودة  
التحيزة، فهو كما قال أبو الطيب: الخفيف:

مَلِكٌ مُنْشِدُ القَرِيضِ لَدَيْهِ يَضَعُ الثَّوبَ فِي يَدَيْ بَرَّازٍ

وكانت مخايل فضيله، ودلائل عقله، ظهرت ليحيى بن خالد وهو على دين المجوسية،  
فقال له: أَسْلِمَ أَجْدَ السَّبِيلِ إِلَى اصْطِنَاعِكَ، قال: فأسلم على يد المأمون، ولم يزل  
في جنبته، إلى أن رُقِيَ إلى رُبنته.

وذكره يحيى عند الرشيد فأجمل الثناء، فأمر بإحضاره، فلما رآه أفرج؛ فتظّر الرشيد  
إلى يحيى كالمستفهم؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إن من أدل دليل على قراهة المملوك  
أن تملك هيبته مولاة لساتته وقلبه، فقال الرشيد: لئن كنت سكت لكى تقول هذا فقد  
أحسنت، ولئن كان هذا شيئاً اعتراك عند الحصر لقد أجدت؛ وزاد في إكرامه وتقريبه،  
وجعل لا يسأله بعد ذلك عن شيء إلا أجابه بأفصح لسان، وأجود بيان.

قال سهل بن هارون: ومما حفظ من كلام ذي الرياستين مما رأينا تخليده في الكتب،  
لِيُؤْتَمَّ بِهِ، وَبُنْتَقَعَ بِمَقُولِ حِكْمَتِهِ، قَوْلُهُ: مَنْ تَرَكَ حَقًّا فَقَدِ عَنِ حَطًّا، وَمَنْ قُضِيَ حَقًّا فَقَدِ  
أَحْرَزَ عُنْمًا، وَمَنْ آتَى فَضْلًا فَقَدِ أُوجِبَ شِكْرًا، وَمَنْ أَحْسَنَ تَوَكُّلاً لَمْ يَعدِمِ مِنَ اللَّهِ صُنْعًا،  
وَمَنْ تَرَكَ لِلَّهِ شَيْئًا لَمْ يَجِدْ لِمَا تَرَكَ فَقْدًا، وَمَنْ التَّمَسَّ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ حَمْدًا عَادَ ذَلِكَ عَلَى  
مُلْتَمِسِهِ ذَمًّا، وَمَنْ طَلَبَ بِخِلَافِ الحَقِّ لَهُ دَرَكًا عَادَ مَا أَدْرَكَ مِنْ ذَلِكَ لَهُ مُوبِقًا؛ وذلك  
أَوْجِبَ الفَلَاحَ لِلْمَحْسِنِينَ، وَجَعَلَ سَوْءَ العَاقِبَةِ لِلْمَسِيئِينَ المَقْصَرِينَ.

ووقع في رقعة ساع: نحن نرى قبول السعاية شرًا منها، لأن السعاية دالة، والقبول  
إجازة، وليس من دل على شيء وأخبر به كمن قبله وأجازة؛ فأتقوا الساعي، فإنه لو  
كان في سبعايته صادقاً لكان في صدقه أثمًا؛ إذ لم يحفظ الحرمة، ولم يستر العورة.  
والشيء يُقَرَّنُ مع جنسيه: كتب محمد بن علي إلى محمد بن يحيى بن خالد، وكان والياً  
على أرمينية للرشيد: إن قوماً صاروا إلى سبيل التصح فذكروا ضياعاً بأرمينية فدعت  
وَدَرَسَتْ، يرجع منها إلى السلطان مال عظيم، وإني وقفت عن المطالبة حتى أعرف  
رأيك.

فكتب إليه: قرأت هذه الرقعة المذمومة، وفهمتها، وشوق السعاية بحمد الله في أيامنا  
كاسدة، والساعة السعاة في أيامنا كليله خاسئة؛ فإذا قرأت كتابي هذا فأحمل الناس  
على قانونك، وحذهم بما في ديوانك؛ فإنما لم نولك الناحية، لتتبع الرسوم العافية، ولا  
لإحياء الأعلام الدائرة، وجنّبي وتجنب بيت جريير يخاطب الفرزدق: الوافر:

وَكُنْتَ إِذَا حَلَلْتَ بَدَارِ قَوْمٍ رَحَلْتَ بِحَزْبِيَّةٍ وَتَرَكْتَ عَارًا

وَأَجْرُ أُمُورِكَ عَلَى مَا يَكْسِبُ الدُّعَاءَ لَنَا لَا عَلَيْنَا، وَاعْلَمْ أَنَّهَا مَدَّةٌ تَنْتَهِي،  
وَأَيَّامٌ تَنْقُضِي، فَإِمَّا ذِكْرٌ جَمِيلٌ، وَإِمَّا خَزْيٌ طَوِيلٌ.

وقال رجل للمهدي: عندي نصيحة يا أمير المؤمنين، فقال: لِمَنْ نَصِيحَتِكَ  
هذه؟ لنا، أم لعامة المسلمين، أم لنفسك؟ قال: لك يا أمير المؤمنين،  
قال: ليس الساعي بأعظم عورة ولا أقيح حالاً ممن قيل سبعايته، ولا تخلو  
من أن تكون حاسد نعمة، فلا تشفي عيظك، أو عَدُوًّا فلا نعاقب لك عدوك؛  
ثم أقبل على الناس فقال: لا يتصح لنا تاصح إلا بما فيه لله رضا،  
وللمسلمين صلاح، فإنما لنا الأبدان وليس لنا القلوب؛ ومن استتر عنا لم

نكشفه، ومن بادانا طلبنا تَوْبته، ومن أخطأ أقلنا عَثْرته؛ فإني أرى التأديبَ  
بالصِّفحِ أبلغَ منه بالعقوبة، والسلامة مع العفو أكثرُ منها مع المُعاجلة،  
والقلوب لا تبقى لوال لا يَنْعَطِفُ إذا اسْتَعْطِفَ، ولا يعفو إذا قَدَّر، ولا يغفر  
إذا ظفر، ولا يَرْحَمُ إذا اسْتُرْحِمَ.

ووقع ذو الرياستين إلى تميم بن خزيمه: الأمور بتمامها، والأعمال  
بجَوَاتمها، والصنائعُ باستدامتها، وإلى الغاية يَجْرِي الجواد؛ فهناك كَشَفَتِ  
الْخَبْرَةُ قِنَاعَ الشُّكِّ؛ فحمد السابق، وذم الساقط.  
وذو الرياستين هو القائل: البسيط:

أنضيت أحرف لا مما لَقَطتِ  
فحوّلي رَحَلَهَا عَنَّا إلى نَعَم  
بها

أو صَيَّرَها إليها منك منعمةً  
إِنْ كُنْتَ حاولت فيها خِفَّةَ  
الْكَلِمِ  
يا أَحْسَنَ الناسِ من قَرَنَ إلى  
قَدَمِ  
فِسْتُم عَلينا فعارِضُنَا  
قِياسَكُم

ولما قتل ذو الرياستين دَخَلَ المأمون على أمّه فقال: لا تَجْرَعِي فإني ابْنُك  
بعد ابْنِك. فقالت: أفلا أبْكي على ابنِ أكْسَيْنِي ابناً مِثْلَكَ؟  
في وصف الخيل

ووصف ابن القريّة فرساً أهْدَاهُ الحجاجُ إلى عبد الملك بن مروان فقال: حَسَنُ القَدِّ،  
أَسِيلُ الحَدِّ، يسبق الطَرْفَ، ويسْتَعْرِقُ الوَصْفَ.  
وأهدى عبد الله بن طاهر إلى المأمون فرساً وكتب إليه: قد بعثتُ إلى أمير المؤمنين  
بفرس يلحق الأرانب في الصَّعْداءِ، ويجاوزُ الطِّباءَ في الاستواءِ، ويسبق في الحَدورِ  
جَزِيَّ الماءِ، فهو كما قال تَابُطُ شَرًّا: الطويل:

ويَسْبِقُ وَفَدَ الرِّيحِ من حيث  
بِمُنْحَرِقٍ من شَدِّهِ  
يَنْتَحِي  
الْمُتَدَارِكِ

وقال رجل لبعض النخاسين: اِبْتِئِرْ لي فرساً جَيِّدَ القَمِيصِ، حَسَنَ الفُصُوصِ، وثيق  
القَصَبِ، نَقِيَّ العَصَبِ، يُشْبِرُ بأذنيه، وَيُدْسُ برجليه، كانه موجٌ في لجة، أو سَيْلٌ في  
حَدورِ.

جمع محمد بن الحسين، هَدَيْنَ الكلامين وزاد فقال يصف فرساً: هو حَسَنُ القَمِيصِ،  
جَيِّدُ الفُصُوصِ، وثيق القَصَبِ، نَقِيَّ العَصَبِ، يُشْبِرُ بأذنيه، وَيَتَنَوَّعُ بيديه؛ وَبُدَاخِلَ برجليه،  
كانه موجٌ في لجة، أو سَيْلٌ في حَدورِ، يَناهِبُ المشي قبل أن يُبْعَثَ، ويلحق الأرانب في  
الصعداءِ، ويجاوزُ جوارِي الطِّباءِ في الاستواءِ، ويسبق في الحَدورِ جَزِيَّ الماءِ، إِنْ عَطِفَ  
جَارَ، وَإِنْ أرسِلَ طارَ، وَإِنْ كلف السيرَ أَمْعَنَ وسارَ، وَإِنْ حُبَسَ صَقَنَ، وَإِنْ استوقفَ  
فَطَنَ، وَإِنْ رَعِيَ أبْنٌ، فهو كما قال تَابُطُ شَرًّا، وذكر البيت:  
وأول هذه الأبيات: الطويل:

وإني لَمُهْدٍ من تَنائي  
فَقاصِدِ  
أهْرِبُهُ في تَدْوَةِ الحَيِّ  
عِطْفُهُ  
قليل التَشَكِّي لِلْمَلَمِ  
يُصِيبُهُ  
يظَلُّ بِمَوَماةٍ وَيُمسِي  
بِعَيرِها  
ويَسْبِقُ وَفَدَ الرِّيحِ من حيث  
يَنْتَحِي  
به لابن عمِّ الصَّدَقِ شَمَسِ  
بن مالِكِ  
كما هز عِطْفِي بالهجانِ  
الأوارِكِ  
كثيرُ الهوى سَتَّ التَوَى  
والمسائِلِ  
جَحِيشاً وَيَعْرَوْرِي ظُهورَ  
المهالِكِ  
بِمُنْحَرِقٍ مِنْ شَدِّهِ  
الْمُتَدَارِكِ

إذا خاط عينيه كرى النوم لم  
يَزَلْ  
إِذَا طَلَعَتْ أُولَى الْعَدْوِ  
فَنَفَرُهُ  
له كالىُّ من قلب شَيْخَانِ  
فَاتِكِ  
إِلَى سَلَةِ مِنْ صَارِمِ الْعَرَبِ  
بَاتِكِ  
إِلَى ضَرْبَةِ مِنْ حَدِّ أَخْلَقِ  
صَائِكِ  
نَوَاجِدُ أَفْوَاهِ الْمَنَايَا  
الصَّوَاكِ  
بِحَيْثِ اهْتَدَتْ أُمُّ النُّجُومِ  
الشَّوَاكِ

وأهدى عمرو بن العاص إلى معاوية ثلاثين فرساً من سوابق خيل مصر، فعرضت عليه، وعنده عقبة بن سنان بن يزيد الحارثي، فقال له معاوية: كيف ترى هدايانا يا أبا سعيد؟ فإن أحاك عمراً قد أطبب في وصفها، فقال: أراها يا أمير المؤمنين على ما وصف، وإنها لمخيلة بكل خير؛ إنها لسامية العيون، لاحقة البطون، مصغية الآذان، قباء الأسنان، ضحام الركبات، مشرفات الحجات، رحاب المناجر، صلاب الحوافر، وقعها تحليل، ورفعها تحليل، فهذه إن طليت سبقت، وإن طلبت ليجت. قال له معاوية: اصرفها إلى رحك؛ فإن بنا عنها غنى، وبفتيانك إليها حاجة.  
وقال النابغة الجعدي: الطويل:

وإنا أناس لا نعوذ خيلنا  
وننكر يوم الروع ألوان  
خيلنا  
فليس بمعروف لنا أن  
تردها

وقال بعض العرب: الكامل:

ولقد شهدت الخيل يوم  
طرادها

فدعوا: نزال! فكنت أول  
نازل

ووصف أعرابي فرساً فقال: لما أرسلت الخيل جاءوا بشيطان في أشطان، فأرسلوه، فلمع لمع البرق، واستهل استهلال الودق، فكان أقربهم إليه الذي يقع عينه من بُعد عليه.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: عنده فرس طويل العذار، أمين العثار؛ فكنت إذا رأيته عليه ظننته بازياً على مزبأ، عليه رُمح طويل يقصر به الأجال.  
وقال بعض المحدثين في هذا التطابق: الوافر:

لقيناهم بأرماح طوال  
تبشرهم بأعمار قصار  
ووصف أعرابي خيلاً لبني يربوع، فقال: خرجت علينا خيل من مستطير تفع، كأن هودبها أعلام؟ وأذاتها أقلام، وفرسانها أسود آجام.  
ولما أنشد العماني الرشيد يصف فرساً: الرجز:

كأن أدبته إذا تشوقاً  
فأرمة أو قلماً محرفاً  
ولحن، ففهم ذلك أكثر من حضر؛ فقال الرشيد: اجعل مكان كأن يحال، فعجبوا لسرعة تهبه.

وللطائيين في هذا النوع أشعار كثيرة معني من اختبارها كثرة اشتهاها، وسأنشد بعض ذلك، قال أبو تمام: الكامل:

ما مقرب يحال في  
ملا من صلف به وتلهوق

أَشْطَانِهِ  
بِخَوَافِرِ حُفْرِ وَصَلَّتِ أَصْلَتِ  
ذو أولقٍ تحَّت العجاج، وإنما  
صافي الأديم كأنما ألبسته  
إمليسة إمليدة لو عُلِّقت  
مُسَوْدُ شَطْرٍِ مثل ما اسْوَدَّ  
الدجى

وقال أبو عباد: الكامل:

قد رُحِّت عنه على أغرٍ  
مُحَجَّلٍ  
يوم اللقاء على مُعَمِّ  
مُحُولٍ  
صيداً وَيَتَنَصَّبُ انْتِصَابَ  
الأجدلِ  
ثُرَيَّانٍ من وَرَقٍ عليه مُوَصَّلِ  
عَرِضٍ على السِّنِّ البعيدِ  
الأطولِ

وأَعَرَّ في الزَمَنِ البهيمِ  
مُحَجَّلٍ  
وَإِفي الصُّلُوعِ يَنْشُدُ عَفَدَ  
جِزَامِهِ  
يهوي كما هَوَتْ العُقَابُ إِذَا  
رَأَتْ  
متوَحِّشٌ بدقيقتين كأنما  
كالرَّاحِ التَّشْوَانِ أَكْثَرُ  
مَشِيهِ

من تَشْوَةِ أو جِنَةِ أو أَفْكَلِ  
نغماتٍ مَعْبَدَةٍ في الثَّقِيلِ  
الأولِ  
والبَدْرِ عُرَّةٌ وَجِهَهُ المتهلِّلِ  
بصفاءٍ نُفَيْتَهُ مَدَاوِكُ صَيْقَلِ  
مهما تَلَاحِظَهَا بَلَخِطٍ يَحْجَلِ  
صَهْبَاءُ لِلبَرْدَانِ أو قُطْرُبُلِ  
تَظَرَّ المُحِبِّ إِلى الحبيبِ  
المُقبِلِ

ويظن رَيْعَانَ الشبابِ  
يَرُوغُهُ  
هَنَجِ الصَّهِيلِ كَأَنَّ في  
تَبْرَاتِهِ  
تتوهَّمُ الجُوزَاءُ في أُرْسَائِهِ  
صافي الأديم كأنما عُنيَتْ  
له  
وكأنما كَيْسِيَّ الخدودِ  
تَوَاعِمًا  
وكأنما تَقْصُتُ عليه صِبْغَهَا  
مَلَكُ العيونِ؛ فَإِنْ بَدَا  
أَعْطَيْنَهُ

وقال إسحاق بن خلف النهرواني لأبي دلف، وكان له فرسٌ أدهم يسميه غراباً: الكامل:

لو يَسْتَطِيعُ شَكَا إِليكَ لَهُ  
الفمُ  
حَطَّ يَنْمُقُهُ الحُسَامُ المِخْدَمُ  
حتى يَفُوتَ الرِّيحَ وهو مَقْدَمُ  
واللونِ أَدْهَمُ حينَ صَرَّجِهِ  
الدَّمُ  
وكأَنَّهُ يَغْرَى المَجْرَةَ مُلْجَمُ

كم كم تجرعه المنونُ  
ويسلمُ  
من كل منبت شعرة من  
جلدهِ  
مَا تُدْرِكُ الأرواحِ أَدَّتِي جَرِيهِ  
رَجَعْتُهُ أَطْرَافُ الأيْسِنَةِ أَشْقَرًا  
وكأنما عقد النجومِ يَطْرَفِهِ

وقال أبو الطيب: الطويل:  
جَفَنِي كَأَنِّي لَسْتُ أَنْطَقَ  
قَوْمَهَا

وأطعتهم والشهبُ في صور  
الدُّهُمِ

وقال أبو الفتح كشاجم: الرجز:

قد راح تحت الصُّبْحِ لَيْلِ  
مَظْلَمِ

إذ لاح في السَّرَجِ المحلَّى  
الأدْهُمِ

ديباج ألوان الجيادِ، ولم  
يكن

لِيُخَصَّ بالديباج إلا الأكرمُ

صَحِكَ اللَّجِينُ على سَوَادِ  
أَدِيمِهِ

وكذا الظلامُ تَنِيرُ فيه  
الأنجمُ

فكانه ببنات نعشٍ ملبب

وكأنما هو بالثريا مُلجَمُ

قلت: هذا من قول ابن المعتز: الطويل:

ألا فاسقياني والظلامُ  
مُقَوِّضُ

ونجم الدجى تحت المغارب  
يَرْكُضُ

كأن الثريا في أواخر ليلها

تَفُحُّ تَوْرًا أو لِجَامُ مفضض

وقال أبو الفتح: الكامل:

مَنْ نَشَأَ في فضلِ الكُمَيْتِ  
فبينه

فيه وبين يقينه المِصْمَارُ

في منظرٍ مستحسنٍ  
محمودة

أخباره إذ تُبْتَلَى الأخبارُ

ماء تَدْفُقُ طَاعَةً وسَلَاسَةً

فإذا أسُدَّ الحُصْرُ فيه فتار

وإذا عَطَفَتْ به على  
تَاوَزِدِهِ

لثديره فكأنه يركأ

وصف الخلق أديمه  
فكأنما

أهدى الخلق لجلده عطار

قصرت قِلَادَةُ نَحْرِهِ وَعِدَارِهِ

والرُسْعُ، وهي من العتاق  
قِصَارُ

وكأنما هاديه جذعُ مُشْرِفٍ

وكأنما للضبع فيه وجار

يَرُدُّ الضخاضِ غير ثاني  
سُنْبِكُ

ويروُدُ طَرْفَكَ خَلْفَهُ فتحار

لو لم تكن للخيل نسبة  
خَلْقِهِ

حَاكَنَّهُ من أشكالها الأَطْيَارُ

وقال ابن المعتز: الطويل:

وَحَيْلُ طَوَاهَا القَوْدُ حتى  
كَأَنَّهَا

أنابيبُ سُمُرٍ من قَنَا الخَطِّ<sup>٤</sup>  
دُبَلُ

صَبِينَا عليها ظالمين سَيَاطِنَا فطَارَتْ  
بِهَا أَيْدِ سِرَاعٍ وَأَرْجُلُ

قوله: ظالمين من أَدَعِ حَسْبِ جَرَى في بيت، وكان ابن المعتز أشار إلى قول أعرابي  
مولد: الطويل:

وَعَوْدُ قَلِيلِ الذنْبِ عَاوَدَتْ  
ضَرْبَهُ

إذا هاج شوقي من  
معاهدتها ذكر

فقلت له: دَلْفَاءُ وَيْحَكَ! سَبَّبْتُكَ  
الصَّبْرَ، فاصبر إِنَّ عَادَتَكَ الصَّبْرُ  
قال ابن المعتز: الوافر:

كقَدْحِ النَّبْعِ فِي الرَّيْشِ  
اللُّوَامِ  
بُعْرَتِهِ دَيَاحِيرَ الظَّلَامِ  
صُعُودَ البَرَقِ فِي جَوِّ العَمَامِ

أراجعتي فِدَاكَ بأَعْوَجِيَّ  
بأدهم كالظَّلَامِ أَغَرَّ يَجْلُو  
تَرَى أَحْجَالَه يَصْعَدَنَّ فِيه  
وقال أيضاً: الرجز:

فِي أَفْقِي مِثْلِ مَدَاكِ الطَّيْبِ  
ذِي أذنِ كِخُوصَةِ العَسِيبِ  
يَسْبِقُ شَأَوَ النُّظْرِ الرَّحِيبِ  
ومن رُجوعِ لحظةِ المُرِيبِ

قد أَغْتَدِي والصُّبْحُ كالمَشِيبِ  
بقارحِ مَسْتَوِّمِ يَعْبُوبِ  
أَوْ أَسِيَّةِ أَوْقَتِ عَلَى قَضِيبِ  
أَسْرَعِ من مَاءٍ إِلَى تَصْوِيبِ  
وقال: المديد:

نَجُو إِسْرَاجٍ وَيَشَدَّ رِحَالِ  
تَأْكُلُ الأَرْضَ بِأَيْدِ عِجَالِ  
كبدورِ فِي وُجُوهِ لِيَالِ

رُبَّ رَكْبٍ عَرَّسُوا ثم هَبُّوا  
وَعَدَّوْنَا بِأَعِينَةِ خَيْلِ  
زِينَتِهَا غَرَّرَ صَاحِكَاتِ  
وقال علي بن محمد الإيادي: الكامل:

وَمَشَى فِقْبَلِ وَجْهَهُ البِدْرُ  
وقال الناشئ أبو العباس عبد الله بن محمد: الكامل:

مَسَحَ الظَّلَامِ بِعَرْفِهِ يَدَهُ  
أَحْوَى عَلَيْهِ مَسَائِحُ من لِيَطَّةِ

شَهَبِ تَسِيلِ عَلَى تَوَاشِيرِ  
سَاقِهِ

فَكَانَهُ مُتْلَفِعِ قِبْطِيَّةِ  
فَسَوَادُهُ كَاللَّيْلِ فِي إِظْلَامِهِ  
صَافِي الأَرِيمِ كَرِيمُهُ أَنَسَابُهُ  
كتب أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي إلى الأمير أبي  
الفضل عبد الله بن أحمد بن ميكال، وقد زاره الأمير في داره: الكامل:

أَثَاوُهَا مَشْدُودُهُ بِنِطَاقِهِ  
وَبَيَاضِهِ كَالصُّبْحِ فِي إِشْرَاقِهِ  
أَخْلَاقُهُ عَيْنٌ عَلَى أَغْرَاقِهِ

لَا زَالَ مَجْدُكَ لِلسَّمَاءِ  
رَسِيلًا

وَعَلُوْ جَدِّكَ بِالخُلُودِ كَفِيلًا

يَا عُرَّةَ الزَّمَنِ البَهِيمِ إِذَا  
عَدَا

أَهْلُ العُلَا لَزَمَانِهِم تَحْجِيلًا

يَا زَائِرًا مَدَّتْ سَحَابُ  
طَوْلُهُ

طِلًّا عَلَيَّ مِنَ الجَمَالِ  
ظَلِيلًا

وَأَتَتْ بِصَوْبِ جَوَاهِرٍ من  
لَفْظِهِ

حَتَّى انْتَضَمْنَ لِمَفْرُقِي  
إِكْلِيلًا

بِأَبِي وَعَيْرِ أَبِي هِلَالِ نُورُهُ  
نَقَشَتْ حَوَافِرُ طَرْفِهِ فِي  
عَرِصَتِي

يَسْتَعْجِلُ التَّسْبِيحَ وَالتَّهْلِيلًا  
تَفْشًا مَحَوْتُ رَسُومَهُ تَفْئِيلًا

وَلَوْ اسْتَطَعْتَ فَرَشْتُ  
مَسْقَطَ حَطْوِهِ

بَعْيُونَ عَيْنٍ لَا تَرَى التَّكْجِيلًا

وَنَثَرْتُ رُوحِي بَعْدَمَا مَلَكَتْ  
يَدِي

وَحَرَزْتُ بَيْنَ يَدَيَّ هَوَاهُ قَتِيلًا

وقال أبو القاسم بن هانئ يصف خيل له المُقَرَّبَاتِ الْجُرْدُ يُنْعِلُهَا  
 دماً  
 إِذَا قَرَعَتْ هَامَ الْكُمَاةِ  
 السَّيَّاتِكُ  
 وَيُرِيقُ عَلَيْهَا اللَّوْلُو الرُّطْبُ  
 مَاءَهُ  
 وَبَسْبِكُ فِيهَا ذَائِبَ التَّبْرِ  
 سَائِكُ  
 صَقِيلَاتِ أَجْسَامِ الْبُرُوقِ  
 كَأَنَّمَا  
 أَمَّرْتُ عَلَيْهَا بِالشَّمُوسِ  
 الْمَدَاوِكُ  
 وقال يصف فرساً لجعفر بن علي بن حمدون: الطويل:  
 إِذَا جَالَ مَاءُ الْخُسْنِ فِيهِ  
 غَرِيقُ  
 تَهَلَّلَ مَصْقُولِ النَّوَّاحِي كَأَنَّهُ  
 مِّنَ الْبُهْمِ وَرُدُّ اللَّوْنِ شَيْبُ  
 بِكُمْتَةٍ  
 جَرَى سَبِيحٌ مِنْهُ وَدَابَّ عَقِيقُ  
 وقال في قصيدة يمدح بها أبا الفرج الشيباني: الكامل:  
 وَأَمْدَكُمُ قَلَقُ الصَّبَاحِ  
 الْمَسْفِرِ  
 فَتَقَّتْ لَكُمْ رِيحُ الْجِلَادِ بَعْنَبَرِ  
 وَجَنِيْتُمْ ثَمَرَ الْوَقَائِعِ يَانِعاً  
 أُنْبِي الْعَوَالِي السَّمَهْرِيَّةِ  
 وَالسِّيُو  
 مَنُ مِنْكُمْ الْمَلِكُ الْمَطَاعُ  
 كَأَنَّهُ  
 تَحْتَ السَّوَابِغِ تَبْعُ فِي حَمِيرِ  
 خُرْرًا إِلَى لِحْظِ السَّنَانِ  
 الْأَخْرَرِ  
 شُوَازِبَا  
 قُبِ الْأَيَاطِلِ دَامِيَاتِ  
 الْأَنْسُرِ  
 تُبْعَتُ النَّوَاصِي حَسْرَةً  
 آذَانُهَا  
 فَيَطَّأَنَّ فِي خَدِ الْعَزِيزِ  
 الْأَصْعَرِ  
 تَبُو سَنَابِكُهُنَّ عَنْ عَقْرِ  
 الثَّرَى  
 وَخَلُوقَهُمْ عَلَقُ التَّجِيعِ  
 الْأَحْمَرِ  
 فِي فَتِيَّةِ صَدَا الْحَدِيدِ  
 عَيْبُرُهُمْ  
 مِمَّا عَلَيْهِ مِنَ الْقَنَا  
 الْمَتَكْسَرِ  
 عَقِيرَهُمْ  
 وقال في قصيدة يمدح بها إبراهيم بن جعفر بن علي: الكامل:  
 فَخَرُّ لِيَطْرَفِ أَعُوجِي أَنْتَ فِي  
 يَيْدِي لِعَزْكَ نَخْوَةً، فَكَأَنَّهُ  
 صَهْوَاتِهِ وَالْحَسَنُ وَالتَّطْهِيمُ  
 مَلِكٌ تَدِينُ لَهُ الْمَلُوكُ عَظِيمُ  
 هَادٍ عَلَى الْخَيْلِ الْعِتَاقِ، كَأَنَّهُ  
 بَيْنَ الدُّجْنَةِ وَالصَّبَاحِ صَرِيمُ  
 سَامِي الْقَدَالِ بِمِسْمَعِيهِ  
 عِيَاقُهُ  
 تَحْتَ الدُّجَى وَلَطْرَفِهِ تَنْجِيمُ  
 وَحَشَاً أَقْبِ، وَكَلْكَلِ مَلْمُومُ  
 وَالْجَيْشُ مِنْ أَنْقَاسِهِ مَهْرُومُ  
 أَدُنُّ مَوْلَاهُ، وَقَلْبُ أَصْمَعِ  
 فَالطَّوْدُ مِنْ صَهْوَاتِهِ مُتَرَلِّزُ  
 وَصَفَا فُقُلْنَا مَا عَلَيْهِ أَدِيمُ  
 حَرَقَ الْعَيُونَ قَصَلَ عَنْهَا لَوْنُهُ

فكأنما جَمَدَتْ عليه مُرْتَةٌ  
وكأنما نُجِرَتْ عليه بَوَارِقٌ  
وكأنك ابنُ المنذِرِ النعمانُ فو  
وقال علي بن محمد الإيادي يصف فرس أبي  
الكامل:  
وإنجابَ عنه عارضٌ مَرَكُومٌ  
وكأنما كُسِفَتْ عليه نُجُومٌ  
ق سَرَاتِهِ، وكأنه اليَحْمُومُ  
عبد الله جعفر بن أبي القاسم القائم:

وأقب من لَحَقَ الجيادِ،  
كأنه  
لَيْسَتْ قوائمُه عصائبَ  
فِصَّةٍ  
وكأنما انفجرَ الصِّباحُ  
بوجهه  
قَبِدُ العيونِ إذا بصرنَ  
بشخصه  
مُتَسَيِّطِرٍ بالراكبينَ، كأنه  
يستوقف اللَحَطَاتِ في  
خَطَرَاتِهِ  
خُلُو الصَّهيلِ تخال في  
لَهَوَاتِهِ  
متجبرٌ يُبَيِّ بعنقِ نِجارِهِ  
ذو نَحْوَةٍ شمختُ به عن  
يَدِهِ  
وكأنه فلكٌ إذا حركتهُ  
قد راح يَحْمِلُ جعفرَ بن  
محمدٍ  
وما أحسن ما قال أبو الطيب المتنبّي: الطويل:  
ويوم كَلَوْنَ العاشقينَ  
كَمَنَتِهِ  
وعَيْنِي إلى أَدْنِي أغرَ كأنه  
له فَصْلَةٌ عن جسمِهِ في  
إِهَابِهِ  
شَقَقْتُ به الظلْمَاءَ، أَدْنِي  
عِنَاتِهِ  
وأَصْرَعُ أي الوَحْشِ قَفَيْتُهُ  
به  
وما الخيلُ إِلَّا كالصَدِيقِ  
قليلة  
إذا لم تُشَاهِدْ غَيْرَ حُسْنِ  
شِيَاتِهَا  
قَصْرٌ تباعدَ رُكْنُهُ من رُكْنِهِ  
وعَدَّتْ بِسُمْرٍ صَفَا المسيلِ  
وَدُكْنِهِ  
حُسْنًا، أو اخْتَبَسَ الظلامُ  
بمئنه  
ورضا القلوبِ إذا اصطلينَ  
بضغينه  
باز تروح به الْجَنُوبِ لو كُنِيهِ  
بكمالِ خَلْقَتِهِ ودِقَّةِ  
حُسْنِهِ  
حَادٍ يَصُوعُ بدائِعًا من  
لحنيه  
إِشْرَافُ كاهِلِهِ ودِقَّةُ أَدْنِهِ  
وشهامَةٍ طمحت به عن  
قَرْنِهِ  
جارٍ على سَهْلِ البلادِ  
وحَزْنِهِ  
حَمَلِ النسيمِ لو ابل من  
مُزْنِهِ  
أراقِبُ فيه الشَّمْسَ أيا نَ  
تَعْرُبُ  
مِنَ اللَّيْلِ باقٍ بينَ عينيه  
كوكبُ  
تجيءُ على صدرِ رحيبِ  
وتذهِبُ  
فِيَطْعَى، وأرْخِيهِ مِرَارًا  
فيلعبُ  
وأنزلُ عنه مثله حينَ أُرْكَبُ  
وإن كُتِرَتْ في عَيْنِ مَنْ لا  
يُجَرَّبُ  
وأعضائها فالْحُسْنُ عنك  
مُغِيْبُ

وينخرط في سبلك هذا المعنى مقامة من مقامات الإسكندري في الكُدَيْة، ممَّا أنشأه  
بديع الزمان وأمله في شهور سنة خمس وثمانين وثلاثمائة. قال البديع: حدَّثنا عيسى  
بن هشام قال: حضرنا مجلس سيف الدولة يوماً وقد عُرضَ عليه قَرَسٌ: الطويل:

مَتَى مَا تَرَقَّ الْعَيْنُ فِيهِ تَسَهَّلْ

فَلَحَطْتُهُ الْجَمَاعَةَ؛ فَقَالَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ: أَيَكُمُ أَحْسَنَ صِفَتِهِ، جَعَلْتَهُ صِلَتَهُ؛ فَكَلَّمَ  
جَهْدَ جَهْدِهِ، وَبِذَلِّ مَا عِنْدَهُ؛ فَقَالَ أَحَدُ خَدَمِهِ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ! رَأَيْتُ بِالْأَمْسِ  
رَجُلًا يَطَأُ الْقِصَاحَةَ بِنَعْلَيْهِ، وَتَقِفُ الْأَبْصَارُ عَلَيْهِ، يُسَلِّي النَّاسَ، وَيَشْفِي  
الْيَاسَ، وَلَوْ أَمَرَ الْأَمِيرُ بِإِحْضَارِهِ، لَفَضَّلَهُمْ بِحِضَارِهِ.

فَقَالَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ: عَلِيٌّ بِهِ فِي هَيْئَتِهِ، فَصَارَ الْخَدْمُ فِي طَلْبِهِ، فَجَاءُوا لِلْوَقْتِ  
بِهِ، وَلَمْ يُعْلِمُوهُ لِأَيِّ حَالٍ دُعِيَ بِهِ، ثُمَّ قُرَّبَ وَاسْتَدْنِي، وَهُوَ فِي طِمْرَيْنِ قَدْ  
أَكَلَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمَا وَشَرِبَ، وَحِينَ حَضَرَ السَّمَاطُ، لَثِمَ الْبَسَاطُ، وَوَقَفَ. فَقَالَ  
سَيْفُ الدَّوْلَةِ: بَلَعْنَا عَنْكَ عَارِضَةً، فَأَعْرَضْنَا فِي هَذَا الْفَرَسِ وَصِفِهِ. فَقَالَ:  
أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ! كَيْفَ بِهِ قَبْلَ رُكُوبِهِ وَوُجُوبِهِ، وَكَشَفَ عَيْبَهُ وَعُيُوبَهُ؟ فَقَالَ:  
ارْكَبْهُ، فَركبهُ وَأَجْرَاهُ، ثُمَّ قَالَ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ! هُوَ طَوِيلُ الْأَذْنَيْنِ، قَلِيلُ  
الْإِثْنَيْنِ، وَاسِعُ الْهَمْرَاتِ، لَيْنُ الثَّلَاثِ، غَلِيظُ الْأَكْرَعِ، غَامِضُ الْأَرْبَعِ، شَدِيدُ  
النَّفْسِ، لَطِيفُ الْخَمْسِ، ضَيْقُ الْقَلْبِ، رَقِيقُ السِّتِ، حَدِيدُ السَّمْعِ، غَلِيظُ  
السَّبْعِ، رَقِيقُ اللِّسَانِ، عَرِيضُ الثَّمَانِ، شَدِيدُ الصَّلْعِ، قَصِيرُ التَّسْعِ، وَاسِعُ  
السَّخْرِ، بَعِيدُ الْعَشْرِ، يَأْخُذُ بِالسَّابِحِ، وَيُطَلِّقُ بِالرَّامِحِ، وَيَطْلُعُ بِاللَّاحِ، وَيَصْحَكُ  
عَنْ قَارِحٍ، يَحْزُ وَجْهَ الْكَدِيدِ، بِمَدَاقِ الْحَدِيدِ، يُخْضِرُ كَالْبَحْرِ إِذَا مَاجَ، وَالسَّيْلُ إِذَا  
هَاجَ.

فَقَالَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ: لَكَ الْفَرَسُ مُبَارَكًا فِيهِ. فَقَالَ: لَا زِلْتَ تَأْخُذُ الْأَنْفَاسَ،  
وَتَمْتَحُ الْأَفْرَاسَ، ثُمَّ انْصَرَفَ، وَتَبَعْتُهُ، وَقُلْتَ: لَكَ عَلَيَّ مَا يَلِيقُ بِهَذَا الْفَرَسِ  
مَنْ خَلَعَةٍ إِنْ فَسَّرْتَ مَا وَصَفْتَ، فَقَالَ: سَلْ عَمَّا أَحْبَبْتَ.  
فَقُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِكَ: بَعِيدُ الْعَشْرِ؟ فَقَالَ: بَعِيدُ النَّظَرِ، وَالْحَطُّو، وَأَعَالِي  
الْجَنَيْنِ، وَمَا بَيْنَ الْوَقْبَيْنِ وَالْجَاعِرَتَيْنِ، وَمَا بَيْنَ الْعُرَابَيْنِ، وَالْمُنْخَرَيْنِ، وَمَا بَيْنَ  
الرُّجْلَيْنِ، وَمَا بَيْنَ النَّقْبَةِ وَالصَّفَاقِ، وَبَعِيدُ الْقَامَةِ فِي السَّبَاقِ.  
فَقُلْتَ: لَا فَضَّ قَوْلِكَ! فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ: قَصِيرُ التَّسْعِ؟ قَالَ: هَاكَ: قَصِيرُ  
الشُّعْرَةِ، قَصِيرُ الْأَطْرَةِ، قَصِيرُ الْعَسِيبِ، قَصِيرُ الْقَضِيبِ، قَصِيرُ الْعَصْدَيْنِ،  
قَصِيرُ الرُّسْعَيْنِ، قَصِيرُ النَّسَا، قَصِيرُ الطَّهْرِ، قَصِيرُ الْوُطَيْفِ.  
فَقُلْتَ: لِلَّهِ أَنْتَ! فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ: عَرِيضُ الثَّمَانِ؟ قَالَ: عَرِيضُ الْجَبْهَةِ،  
عَرِيضُ الصَّهْوَةِ، عَرِيضُ الْكَتْفِ، عَرِيضُ الْحَنْبِ، عَرِيضُ الْوَرِكِ، عَرِيضُ  
الْعَضْبِ، عَرِيضُ الْبَلْدَةِ، عَرِيضُ صَفْحَةِ الْعُنُقِ.  
فَقُلْتَ: أَحْسَنْتَ، فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ: غَلِيظُ السَّبْعِ؟ قَالَ: غَلِيظُ الذَّرَاعِ، غَلِيظُ  
الْمُحْزَمِ، غَلِيظُ الْعُكُوءِ، غَلِيظُ الشَّوَى، غَلِيظُ الرُّسْعِ، غَلِيظُ الْقَخْدَيْنِ، غَلِيظُ  
الْجِبَالِ.

فَقُلْتَ: لِلَّهِ دَرْكُ! فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ: رَقِيقُ السِّتِ؟ فَقَالَ: رَقِيقُ الْجَفْنِ،  
رَقِيقُ السَّالِفَةِ، رَقِيقُ الْجَحْفَلَةِ، رَقِيقُ الْأَدِيمِ، رَقِيقُ أَعْلَى الْأَذْنَيْنِ، رَقِيقُ  
الْعَرَضَيْنِ.

فَقُلْتَ: أَجَدَّتْ، فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ: لَطِيفُ الْخَمْسِ؟ قَالَ: لَطِيفُ الزُّورِ،  
لَطِيفُ النَّسْرِ، لَطِيفُ الْجُبَّةِ، لَطِيفُ الْعَجَايَةِ، لَطِيفُ الرُّكْبَةِ.  
فَقُلْتَ: حَيَّاكَ اللَّهُ! فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ: غَامِضُ الْأَرْبَعِ؟ قَالَ: غَامِضُ أَعَالِي  
الْكَيْفَيْنِ، غَامِضُ الْمَرْفِقَيْنِ، غَامِضُ الْجَجَاجَيْنِ، غَامِضُ الشَّطْطَى.  
قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِكَ: لَيْنُ الثَّلَاثِ؟ قَالَ: لَيْنُ الْمَرْدَعَتَيْنِ، لَيْنُ الْعُرْفِ، لَيْنُ

العنان.  
قلت: فما معنى قولك: قليل الاثنين؟ قال: قيل لحم الوجه، قليل لحم  
المثنين.  
قلت: فمن أين تَبَّأْتُ هذا العلم؟ قال: من الثغور الأموية، وبلاد الإسكندرية.  
فقلت له: أنت مع هذا الفضل، تُعَرِّضُ وجهك لهذا البَدَلِ؟! فأنشأ يقول:  
المجتث:

ساخِفْ زمانك جِدًّا      فالدهر جد سَخِيفِ  
دَعِ الحمية نِسِيًّا      وَعِشْ بِخَيْرٍ وَرِيفِ  
وَقُلْ لعبدك هَذَا      يَجِيءُ لنا بِرَعِيفِ

سقط عنا تفسيره في لين الثلاث، وأكثر هذا التفسير يحتاج إلى تفسير، ولم يُردِّ بما  
أورد إفهام العوامِّ، والبلاغة لمحة دالة، وبلاغة النثر أخت بلاغة الشعر؛ وقد قال  
البحثري: المنسرح:

والشعرُ لَمَحٍ يخفي إشارتهُ      وليس بالهذر طُولتْ حُطْبُهُ

وسأقول في شرحه بكلام وجيز زيادة في الإفادة: الوُقبان: نُفرتان فوق  
العينين. والجاعرتان من الفرس: موضع الرِّقمتين من الحمار، وهما منتهى  
صَرَبِهِ بَدَّتَبِهِ إذا حَرَكَهُ. والغرابان: الناتان من أعلى الوركين، وفكر النقبه  
هنا، وهو الذي يُعَرَّفُ بالْمُنْقَبِ، وهو من السَّرَّةِ حيث ينقب البيطار.  
والصفاق: الخاصرة، وقد قيل: جلد البطن كفه صفاق، والذي أرادَه  
الخاصرة. وأراد يُبْعِدُ القامة في السباق امتدادَه إذا جَرَى مع الأرض.  
والإطْرَة هنا: طرف الأُتْهر، وهي طِفْطِفة غَلِيظة. والأبهر: عِرْقٌ يستبطن  
الظهر، فيُتَّصَلُ بالقلب، وقيل: هو الأكل. والعسيب: عظم الذنب. والرِّسْعُ  
من الفرس: موضع القيد. والنَّسَا: عرق مستبطن الفخذين، وقصره محمود  
في جَرْيِ الفرس، ولكنه لا يسمح بالمشي. والوظيف لكل ذي أربع: ما فوق  
الرِّسْعِ إلى الساق. والصهوة: الظهر. والبَلْدَة: ما بين عينيه. والعُكوة: مغرز  
الذنب. والشَّوى: الأطراف. والحبال: حبال العاتق والظهر. والجَحْفَلَة من  
ذوات الحافر: كالشفة من الإنسان. والغُرْصَانُ من الفرس: ما انحدر من  
قَصْبَةِ الأنف من جانبيها. والزور: الصدر. والنَّسْرُ في الحافر: لحمه يابسة  
أسفلها يشبهها الشعراء بالشَّوى. والجَبَّة: التي فيها الحوشب، والحَوْشِبُ:  
حشو الحافر. والعُجَاية: عَصَبٌ في قوائم الفرس والبعير مركب فيه  
فصوص من عظام كأمثال الكِعَابِ تكون عند الرِّسْعِ. والجَجَّاجان: العظامان  
المُطِيفان بالعين. والشَّطَى: عظم لاصق بالذراع. والتمتان: جانباً الظهر؛  
وسقط عنَّا تفسير الثلاث من نفس المقامة.

ما قيل في المواعد

قال الجاحظ: قال أبو القاسم بن معن المسعودي لعيسى بن موسى: أيها  
الأمير، ما انتفعتُ بك مُنْذُ عرفْتُكَ، ولا إلى خير وصلتُ منك منذ صَحِبْتُكَ،  
فقال: ولم؟ ألم أكلمُ لك أمير المؤمنين في كذا وكذا؟ قال: بلى! فهل  
استنجزت ما وعدت، وعاودت ما ابتدأت؟ فقال: حالتُ دون ذلك أمورٌ  
قاطعة، وأحوال عاذرة. قال: أيها الأمير، فما زدْتَنِي على أنْ نَبَّهتَ إلهمَّ من  
رَفْدَتِهِ، وأثرتَ الحُرْنَ من رُبُضَتِهِ، إنَّ الوعدَ إذا لم يصحبه إنجازٌ يحقِّفه كان  
كلْفِظٍ لا مَعْنَى له، وجسم لا روح فيه. وكلم منصور بن زبادة يجيب بن خالدٍ  
في حاجة لرجل، فقال: عَدَّه قَصَاءَهَا. قال: فقلت: أصلحك الله! وما  
يَدْعُوكَ إلى العِدَّةِ مع وجود القدرة؟ فقال: هذا قولٌ من لا يعرفُ موضِعَ

الصَّنَائِعِ مِنَ الْقُلُوبِ، إِنَّ الْحَاجَةَ إِذَا لَمْ يَتَقَدِّمَهَا مَوْعِدٌ يُنْتَظَرُ بِهِ نُجْحُهَا لَمْ تَتَجَادَّبِ الْأَنْفُسَ سُرُورَهَا؛ إِنْ الْوَعْدَ تَطَعْمٌ وَالْإِنْجَازَ طَعَامٌ؛ وَلَيْسَ مِنْ قَاجَاهُ طَعَامٌ كَمَنْ وَجَدَ رَائِحَتَهُ؛ وَتَمَطَّقَ بِهِ، وَتَطَعَّمَهُ ثُمَّ طَلَعَهُ؛ فَدَعِ الْحَاجَةَ تُحْتَمُّ بِالْوَعْدِ؛ لِيَكُونَ بِهَا عِنْدَ الْمُصْطَنِعِ حُسْنُ مَوْقِعٍ، وَلَطْفُ مَحَلٍّ.

ووعد المهدي عيسى بن داب جارية، ثم وهبها له، فأنشده عبد الله بن مضعب الزبيري معرضاً بقول مضرس الأسدي: الطويل:

فلا تياسن من صالح أن تتأله وإن كان قدماً بين أيدي تبادره  
فضحك المهدي، وقال: ادفعوا إلى عبد الله فلانة، لجارية أخرى؛ فقال عبد الله بن مصعب: الرجز:

أُنْجِزَ حَيْزُ النَّاسِ قَبْلَ وَعْدِهِ أَرَاخَ مِنْ مَطْلٍ وَطُولِ كَدِّهِ

فقال ابن داب: ما قلت شيئاً، هلا قلت: الرجز:

حَلَاوَةُ الْفَضْلِ بُوْعِدٍ يُنْجِزُ لَا حَيْرَ فِي الْعُرْفِ كَتَهَبٍ يُنْهَرُ

فقال المهدي: مجزوء الكامل:

الْوَعْدُ أَحْسَنُ مَا يَكُونُ إِذَا تَقَدَّمَ صَمَانُ

وقد قال أبو قابوس النصراني يمدح يحيى بن خالد: البسيط:

رَأَيْتُ يَحْيَى، أَتَمَّ اللَّهُ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ، يَأْتِي الَّذِي لَمْ يَأْتِهِ أَحَدٌ

يُنْسِي الَّذِي كَانَ مِنْ مَعْرُوفِهِ إِلَى الرِّجَالِ، وَلَا يُنْسَى الَّذِي أَبَدًا

وقال أبي الطيب المتنبي: المنسرح:

قَوْمٌ بُلُوعُ الْعُلَامِ عِنْدَهُمْ طَعْنٌ تُحُورِ الْكُمَاةَ لَا الْحُلْمُ  
كَأَنَّمَا يُوَلِّدُ النَّدَى مَعَهُمْ لَا صِعْرٌ عَاذِرٌ وَلَا هَرَمٌ  
إِذَا تَوَالَوْا عِدَاوَةً كَشَفَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا صَنِيعَةً كَتَمُوا  
تَظُنُّ مِنْ فَقْدِكَ اعْتِدَادَهُمْ أَتَهُمْ أَنْعَمُوا وَمَا عَلِمُوا

ودخل أبو عليّ البصير على الفضل بن يحيى، فأنشده: الرمل:

وُصِفَ الصَّدِّ لَمَنْ أَهْوَى فَصْدٌ وَبَدَا يَمْرَحُ بِالْهَجْرِ فَجَدٌ  
مَا لَهُ يَعْدِلُ عَنِّي وَجْهَهُ وَهُوَ لَا يَعْدِلُهُ عِنْدِي أَحَدٌ؟

لا تُرِيدُوا غِرَّةَ الْفَضْلِ، وَمَنْ يَطْلُبُ الْغُرُوبَةَ فِي خَيْسِ الْأَسَدِ

مَلِكٌ تَدْفَعُ مَا تَخْشَى بِهِ وَإِذَا مَا أَنْجَرَ الْفَضْلُ وَعَدَّ

وقال ابن الرومي في هذا المعنى: البسيط:

لَهُ مَوَاعِدٌ بِالْحَيْرَاتِ بَادِرَةٌ لَكِنهَا تَسْبِقُ الْمِيعَادَ بِالصَّفَدِ  
يُعْطِيكَ فِي الْيَوْمِ حَقَّ الْيَوْمِ وَلَا يُصَبِّعُ بَعْدَ الْيَوْمِ حَقَّ عَدِّ مَبْتَدَأًا

في البرِّ والإِنْعَامِ

خطب سليمان بن عبد الملك فقال: أيها الناس، مَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَبْوَابَ مَدْخَلِهِ فِي الْكِرَامَةِ، وَجَهْلَ طَرِيقَتِهِ الَّتِي وَقَعَتْ بِهِ عَلَى النِّعْمَةِ كَانَ يُعْرَضُ رُجُوعًا إِلَى دَارِ هَوَانٍ، وَانْقِلَابًا بِفَادِحِ حُسْرَانٍ.

فقام إليه أبو وائلة السدوسي، وهو حاجبه، فقال: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، كُنَّا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "هَلْ أُنِيَ عَلَى الْإِنْسَانِ جِئِنَ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا"، ثُمَّ صِرْنَا كَمَا قَالَ رُهِير: الْوَافِر:

يَدُ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ تَنَاوَلَتْهُمْ بِإِحْسَانٍ فَلَيْسَ لَهَا مُزِيلٌ

لأنَّ الخَيْرَ أَجْمَعَ فِي يَدَيْهِ وَرَبِي بِالْجِزَاءِ لَهُ كَفِيلٌ  
فقال سليمان: هذه والله المعرفةُ بِقَدْرِ النِّعْمَةِ، والعلمُ بما يَجِبُ للمنعِمِ.  
ورؤي يونس بن المختار في دارِ المأمون، ومرتبتهُ في أعلىِّ مراتبِ بني  
العباس، قاعداً على الأرض، فقال الحاجبُ: ارتفعْ يا أبا المعلى إلى مرتبتك،  
قال: قد رفعتني الله إليها بأمير المؤمنين، وليس لي عملٌ يَفِي بها، فلمْ لا  
أكرمها عن القعود عنها إلى أن يتهيا لي الشكر عليها؟ فبلغ الكلامُ المأمونَ؛  
فقال: هذا والله غايةُ الشكر، وبمثلته تدر النَّعم.

وقال رجل للمعلِّي بن أيوب، وقد رَفَعَهُ المَعْتَصِمُ إلى مرتبةِ أهل بيته: ما  
يزيدُكَ التَّقريبُ إلا تَباعُداً. فقال: يا هذا، إني أصون تقريبي إياي بتباعدي  
منه؛ لئلا تفسد حُرْمَتِي عنده بقلَّةِ الشكرِ على نعمته.  
ولما استعان المنصورُ بالحارث بن حسان قال له: يا حارث، إني قد مكنتك  
من حُسْنِ رَأْيِي فِيكَ، فاحفظهُ بتركِ إغفالِ ما يجبُ عليك! قال: يا أميرَ  
المؤمنين، مَنْ أَعْقَلَ سَبَبَ حُلُولِ النِّعْمَةِ، وَلَهَا عَنِ الْحَالِ التي أَصارتُ إليها،  
استصحبَ اليأسَ من تَيْلٍ مِثْلِهَا، وانقطع رجاءُها من الزيادة فيها، فقال أبو  
جعفر: مَنْ كانت عنده هذه المعرفة دامت النعمة له، وبقي الإحسانُ إليه.  
ولما قال المأمونُ لعبد الله بن طاهر عند قدومه من مصر: ما سرَّني اللهُ  
منذ وليتُ الخلافةَ بشيءٍ عَظُمَ مَوْقِعُهُ عِنْدِي، بعد جميلِ عافيةِ الله، هو  
أكثر من سروري بقدومك، فقال عبدُ اللهِ: إبدنْ لي يا أميرَ المؤمنين، في  
تفريقِ أموالِي من طَارِفٍ وتالد. قال: ولم؟ قال: شكراً على هذه الكلمة؛  
وإلا قَصَّرَ بي الحياءُ عن النَّظرِ إلى أمير المؤمنين، فقال المأمون لَمَنْ  
حضر من أهل بيته وقواده: ما شيءٌ من الخلافةِ يَفِي لعبد الله ببعض  
شكره.

وقال أبو نواس: الكامل:

عن ضعف شُكْرِيهِ وَمُعْتَرِفَا  
أَوْهَتْ قُوَى شُكْرِي فَقَدْ  
صَعُفَا

تَلَقَّاكَ بِاللِّصْرِيحِ مِنْكَشِفَا  
حَتَّى أَقَوْمَ بِشُكْرٍ مَا سَلَفَا

حَتَّى أَقَوْمَ بِشُكْرٍ مَا سَلَفَا  
وَرَجَعْتُ بِالْحِزْمَانِ مُنْصَرِفَا

تَ أَمُوراً يَصِيقُ عَنْهَا الْجِزَاءُ  
مَا لِمِعْشَارِهَا لَدَيْنَا كِفَاءُ  
ثُمَّ قَدْ رَدَّنَا إِلَيْكَ الْحِيَاءُ  
وَلَمَّا حَقَّ إِنَّ بَرَزْتَ الْجِفَاءُ  
وَقَدِيمًا أَرِيحَتْ الْأَنْضَاءُ

قَدْ قَلْتُ لِلْعَبَّاسِ مَعْتَذِراً

أَنْتَ أَمْرٌ وَجَلَلْتَنِي نِعْمًا

فإِلَيْكَ مِنِّي الْيَوْمَ تَقْدِيمَةً

لَأُتَسَدِّينَ إِلَيَّ عَارِفَةً

عارضه الناشئ واعترض معناه، فقال: الكامل:

إِنْ أَنْتَ لَمْ تُحَدِّثْ إِلَيَّ يَدًا

لَمْ أَحْظَ مِنْكَ بِنَائِلِ أَبَدًا

وقال ابن الرومي: الخفيف:

عَاقِنَا أَنْ نَعُودَ أَتَكَ أَوْلِي

عَمَرْنَا مِنْكَ الْأَيَادِي اللَّوَاتِي

فَتَهَانَا عَنْكَ الْحِيَاءُ طَوِيلًا

وَلَمَّا حَقَّ إِنَّ قَرَّبْتَ التَّنَائِي

عَيَّرَ أَنَا أَنْضَاءُ شُكْرٍ أَرِيحَتْ

ألفاظ لأهل العصر

في العجز عن الشكر لتكاثر الإنعام والبرِّ  
عندي من بره ما ملك الاعتذار بأزمته، وقبض السنة أمراء الكلام وأئمنه. عندي له مبارز  
أعجزني شكرها، كما أعوزني حصرها. شكَّره شأؤ بعيداً لا تبلغه أسواطِي، ولا أتلاقِي

التفريط في حقّه بإفراطِي. إحسانه يُعيد العربَ عُجماً، والفُصحاء بُكماً. قد زحمني من مكارمه ما يُحصّرُ عنه المبين، ويصحبه العي ونس القرين.  
وقال أعرابي: الطويل:

رهنت يدي بالعجز عن شكرٍ وما فَوْقَ شُكْرِي للشكورِ  
بِرِّهِ مَزِيدٌ

ولو كان شيئاً يستطاعُ واستطَعْتُهُ  
ولكنَّ ما لا يُستطاعُ شَدِيدٌ

وقال يحيى بن أكنث: كنتُ عند المأمون، فأتى برجل تُرَعِدُ فرائضه؛ فلما مثل بين يديه قال المأمون: كَفَرْتُ نعمتي، ولم تشكر معروفِي، فقال: يا أمير المؤمنين، وأبن يقعُ شكري في جنب ما أنعم الله بك عليّ، فنظر إليّ المأمون، وقال متمثلاً الطويل:

ولو كان يَسْتغني عن الشكرِ لرفعةِ قَدْرٍ أو علوِّ مَكَانِ  
مَا جِدُّ

لما أمر الله العبادَ بشكره فقال: اشكروا لي أيها  
الثقلان

ثم التفت إلى الرجل فقال: هَلَّا قلت كما قال أصرم بن حميد: البسيط:

ملكك حمدي حتى إنني كُلي بکلّ ثناءً فيك مشغِلُ  
رَجُلٌ

خُولت شكري لما خُولت من فخرٍ شكري، لما خُولتني،  
نَعَمِ حَوَلٌ

وقال أبو الفتح البستي: الطويل:

لئن عَجَزْتُ عن شُكْرِ بَرِّكَ وأقوى الوری عن شُكْرِ بَرِّكَ  
قُوَّتِي عَاجِزٌ

فإنّ ثنائي واعتقادي لأفلاكٍ ما أوليتنيها مَراكِزُ  
وطاقتي

وقال أبو القاسم الزعفراني: الخفيف:

لي لسانٌ كأنه لي مُعَادِي ليس يُنبي عن كُنه ما في  
فؤادي

حكم الله لي عليه فلو أن صف قلبي عَرَفْتُ قَدْرُ  
ودادي

وقال إسماعيل بن القاسم، أبو العتاهية، يمدحُ عُمر بن العلاء: الكامل:

إني أمنتُ من الزمان ورِيبي لَمَّا عَلِقْتُ من الأمير جبالاً  
لو يستطيعُ الناسُ من إجلاله

ما كان هذا الجودُ حتى كنت عمر، ولو يوماً تَزُولُ لزالاً  
يا

إن المطايا تشتكك لآثها فإذا وَرَدَنَ بنا وَرَدَنَ مُخِفةً  
قطعتُ إليك سبائباً ورمالاً وإذا صدرنَ بنا صدرنَ ثقالاً

وهي قصيدة سهلة الطبع، سلسلة النظام، قريبة المتناول.

وروي أنّ عمر بن العلاء وصله عليها بسبعين ألف درهم، فحسدته الشعراء، وقالوا: لنا باب الأمير أعوامٌ تخدمُ الآمال، ما وصلنا إلى بعض هذا ا فاتصل ذلك به، فأمر بإحضارهم، فقال: بلغني الذي قُلْتُمْ؛ وإنّ أحدكم يأتي فيمدحني بالقصيدة يشبب فيها فلا يصلُ إلى المدح حتى تذهب لده حلاوته، ورائقُ طلاوته؛ وإنّ أبا العتاهية أتى فشبب بأبيات يسيرة، ثم قال: إنّ المطايا تشتكك؛ لأنّها... وأنشد الأبيات. وكان أبو العتاهية

لما مدحه بهذا الشعر تأخر عنه برّه قليلاً، فكتب إليه يستبطنه: الطويل:

أصابنا علينا جودك العيونُ يا  
عُمَرُ  
أصابتك عَيْنٌ في سخائك  
صُلْبُهُ  
سَيَّرَ قَيْكَ بِالْأَشْعَارِ حَتَّى  
تُمْلِهَا

وقال: البسيط:

يا ابْنَ الْعَلَاءِ يَا ابْنَ الْقَرَمِ  
مِرْدَاسِ  
أَتْنِي عَلَيْكَ وَلي حَالُ  
تُكْذِبُنِي  
حَتَّى إِذَا قِيلَ: مَا أَوْلَاكَ مِنْ  
صَفْدِ

فأمر حاجبه أن يدفع إليه المال، وقال: لا تُدْخِلْهُ عَلَيَّ، فَإِنِّي أَسْتَحْيِي مِنْهُ.  
وذكر بعض الرواة أن المهدي خرج متصيذاً، فسمع رجلاً يتغنى من القصيدة التي مرت  
منها الأبيات في عمر بن العلاء أنفاً: الكامل:

يا مَنْ تَفَرَّدَ بِالْجَمَالِ فَمَا  
تَرَى  
أَكْثَرْتُ فِي قَوْلِي عَلَيْكَ مِنْ  
الرُّقَى  
فَأَيَّتْ إِلَّا جَفْوَةً وَقَطِيعَةً  
بِاللَّهِ قَوْلِي إِنْ سَأَلْتِكَ  
وَاصْدُقْنِي  
أَمْ لَأَ، ففِيمَ جَفَوْتَنِي  
وطلَّمْتَنِي

كم لائم لو كنت أسمعُ  
قوله

فقال المهدي: عَلَيَّ به، فجاءه، فقال: لِمَنْ هَذَا الشَّعْرُ؟ قال: لإسماعيل ابن  
القاسم أبي العتاهية، قال: لمن يقوله؟ قال: لَعُتْبَةَ جَارِيَةِ الْمَهْدِيِّ، قال:  
كَدَّبْتِ، لو كَانَتْ جَارِيَتِي لَوَهَّبْتُهَا لَهُ، وَكَانَتْ عُتْبَةُ لَرِبْطَةَ بِنْتِ أَبِي الْعَبَّاسِ  
السَّفَّاحِ، وَكَانَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ فَد بَلَّغَ مِنْ أَمْرِهَا كُلِّ مَبْلَغٍ، وَكُلَّ ذَلِكَ فِيمَا زَعَمَ  
الرَّوَاهُ تُصَنِّعُ، وَتَخْلُقُ، لِيُذَكَّرَ بِذَلِكَ.

أبو العتاهية  
قال يزيد بن حوراء المغني: كلمني أبو العتاهية أن أكلم المهدي في عتبه؛ فقلت: إن  
الكلام لا يمكنني، ولكن قل شعراً أغنيه إياه، فقال: البسيط:

نَفْسِي بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا  
مُعَلَّقَةٌ  
اللَّهُ وَالْقَائِمُ الْمَهْدِيُّ يَكْفِيهَا

إِنِّي لِأَيَّاسٍ مِنْهَا ثُمَّ يَطْمَعُنِي  
فَعَمِلْتُ فِيهِ لِحْنًا وَغَيْثُهُ الْمَهْدِيُّ؛ فَقَالَ: لِمَنْ هَذَا؟ فَأَخْبَرْتَهُ خَبَرَ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ،  
فَقَالَ: نَنْظُرُ فِي أَمْرِهِ، فَأَخْبَرْتُ بِذَلِكَ أبا العتاهية؛ فمكث أشهراً، ثم أتاني  
فقال: هل حَدَّثْتَ خَبْرًا؟ فقلت: لا، فقال: عَنَّهُ بِهَذَا الشَّعْرِ: الْخَفِيفُ:

ليت شِعْري ما عندكم ليت  
شعري

إنما آخر الجوابٍ لأمرٍ

ما جواب أولى بكل جميل  
قال يزيد: فغيتُ به المهدي، فقال: علي بعتبة، فأحضرت، فقال: إن أبا العتاهية كلمني  
فيك، وعندني لك وله ما تحبان؛ فقالت له: قد علم مولاي أمير المؤمنين ما أوجب من  
حق مولاتي، فأريد أن أذكر لها ذلك؛ قال: فافعلي؛ فأعلمتُ أبا العتاهية بما جرى،  
ومضت الأيام؛ فسألني معاودة المهدي، فقلت له: قد عرفت الطريق فقل ما شئت  
حتى أغنيه، فقال: الكامل:

أشربت قلبي من رجائك  
ماله

عنى إليك يخبُ بي ورسيمُ

وأملتُ نحو سماء صويك  
ناظري

أزعى مَحَايل بَرَقِها وأشيمُ

ولقد تنسَمْتُ الرياح  
لحاجتي

وإذا لها من راحتِك نسيم

ولربما استيأسْتُ ثم أقولُ:  
لا

إنَّ الذي صَمِنَ النجاحَ كريم

فغنيته بالشعر، فقال: عَلَيَّ بعتبة، فأنت؛ فقال: ما صنعت؟ قالت: ذكرت ذلك لمولاتي  
فأبته وكرهته، فليفعلُ أمير المؤمنين ما يريد، فقال: ما كنتُ لأفعل شيئاً تكرهه،  
فأعلمت أبا العتاهية بذلك، فقال: الكامل:

قَطَعْتُ منك حبايلَ الآمالِ  
ما كان أشأمَ إذْ رجاؤك

وأرْحْتُ من حلٍّ ومن ترحال

وبناثٍ وعدك يَعْتَلِجَنَ بيالي

ولئن طَمَعْتُ لربِّ بَرَقِ خُلْبِ  
وقد ثقلت هذه الحكاية على غير هذا الوجه، والله أعلم بالحق في ذلك.

مالت بذي طَمَعٍ ولُمَعَةِ آلِ

ومالي على طَبِي الخليفة مِنْ  
عَدَوِي

ألا إنَّ طَبِيًّا للخليفة  
صادني

وقال: أبي يتمرسُ، ولحرمي يتعرَضُ، وينسائي يعبث؟ ونقاه إلى الكوفة.  
وفي ضربه يقول أبو دهمان: المنسرح:

عُشاق من صَرَبَهُمْ إذا  
عشقوا

لولا الَّذِي أَحَدَثَ الخليفةُ لل

لُبْحُتْ باسمِ الَّذِي أَحِبَّ ول

وكان أبو العتاهية بالكوفة، لما نفي، يَدُكُرُ عُنْتَبَةَ، ويكئُّ باسمها، فمن ذلك قوله: مجزوء  
الرملة:

بأبي أنت وأمي

بَحْتُ من أَكْبَرِ هَمِّي

إذْ أذابَ الحَبَّ لَحْمِي

فاكْتَفُوا مِنِّي بعلمي:

قى فَإِنَّ الحَبَّ سُقْمِي

دَ، وفي الكوفةِ جِسْمِي

قُلْ لمن لَسْتُ أسمى

بأبي أنت لقد أص

ولقد قلت لأهلي

وأرادوا لي طبيباً

من يكن يَجْهَلُ ما أُلْ

إِنَّ رُوحِي لبغدا

وقوله: البسيط:

أَمْسَى ببغدادَ طَبِيًّا لَسْتُ  
إلا بَكَيتُ إذا ما ذَكَرُهُ  
حَطَرَا

أَمْسَى ببغدادَ طَبِيًّا لَسْتُ  
أذْكَرُهُ

إنَّ المَجِبَ إِذَا شَطَطَتْ  
مَنَازِلُهُ  
يَا رَبَّ لَيْلَى طَوِيلَ يَتُّ  
أَرْقُبُهُ  
مَا كُنْتُ أَحْسِبُ إِلَّا مُدُّ  
عَرَفْتِكُمْ  
وَاللَّيْلُ أَطْوَلُ مِنْ يَوْمِ الحِسَابِ  
عَلَّعَيْنِ الشَّجِيِّ إِذَا مَا تَوَّمُهُ تَقَرَّا

ولما قدمت عُتْبَةُ بِبَعْدَادٍ قَدِمَ مَعَهَا أَبُو العَتَاهِيَةِ، وَتَلَطَّفَ حَتَّى اتَّصَلَ بِالرَّشِيدِ فِي خِلافةِ أَبِيهِ المَهْدِيِّ؛ وَتَمَكَّنَ مِنْهُ، وَبَلَغَ المَهْدِيُّ خَبْرَهُ، فَأَحْضَرَهُ؛ فَقَالَ: يَا بَائِسُ، أَنْتَ مُسْتَقْتَلٌ، وَسَأَلَهُ عَنِ حَالِهِ؛ فَأَنشده قصيدته التي يقول فيها: مجزوء الكامل:

أَنْتَ المُقَابِلُ وَالمُدَا  
بَيْنَ العُمُومَةِ وَالحُؤُ  
فَإِذَا انْتَمَيْتَ إِلَى أَبِي  
وَإِذَا انْتَمَى خَالٌ قَمَا  
يُرِيدُ يَزِيدُ بْنُ مَنْصُورَةَ وَكَانَتْ أُمُّ المَهْدِيِّ أُمُّ مُوسَى بِنْتِ مَنْصُورِ الحَمِيرِيِّ، وَأَنشده:  
المديد:

عَلِمَ العَالَمُ أَنَّ المَنَايَا  
سَامَعَاتُ لَكَ فَيَمْنُ عَصَاكَ

رَجَعَتْ تَرَعْفُ مِنْهُ قَنَاكَ  
فِي سَمَاحٍ قَصَرَتْ عَنِ نَدَاكَ

فَإِذَا وَجَّهَتْهَا نَحْوَ طَاغٍ  
وَلَوْ أَنَّ الرِّيحَ بَارَتْكَ يَوْمًا

وأَنشده: المتقارب:

إِلَيْهِ تُجَرَّرُ أَدْيَالُهَا  
وَلَمْ يَكُ يَصْلُحُ إِلَّا لَهَا  
لُزْزِلَتْ الأَرْضُ زَلْزَالَهَا  
لَمَّا قَبِلَ اللهُ أَعْمَالَهَا

أَنَّه الخِلافةُ مُنْقَادَةٌ  
فَلَمْ تَكُ تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ  
وَلَوْ رَامَهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ  
وَلَوْ لَمْ تُطِعه بِنَاتُ القُلُوبِ

فَقَالَ لَهُ المَهْدِيُّ: إِنْ شِئْتَ أَدْبَانِكَ بِصَرِّ وَجِيعٍ؛ لِإِقْدَامِكَ عَلَيَّ مَا نُهِيتُ عَنْهُ، وَأَعْطَيْتَنِيكَ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ جَائِزَةً عَلَيَّ مَدِّحِكَ لَنَا. وَإِنْ شِئْتَ عَقَوْنَا عَنكَ فَقَطْ. فَقَالَ: بَلْ يَصِيفُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ إِلَى كَرِيمٍ عَفْوُهُ جَمِيلٌ مَعْرُوفُهُ؛ وَمَكْرَمَتَانِ أَكْثَرُ مِنْ وَاحِدَةٍ، وَأَمِيرُ المُؤْمِنِينَ أَوْلَى مِنْ شَفَعِ نَعْمَتِهِ وَأَتَمَّ كَرَمِهِ. فَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَعَفَا عَنْهُ.

وَلَمَّا قَدِمَ الرَّشِيدُ الرَّقَّةَ أَظْهَرَ أَبُو العَتَاهِيَةِ الزَّهْدَ وَالتَّصَوُّفَ وَتَرَكَ العَزَلَ، فَأَمَرَ الرَّشِيدَ أَنْ يَتَغَزَّلَ، فَأَبَى، فَحَبَسَهُ، فَغَنَّى بِقَوْلِهِ: الطويل:

تَكُونُ عَلَيَّ الأَقْدَارُ حَتْمًا مِنْ  
الحَتْمِ  
فَهَذَا مَقَامُ المَسْتَجِيرِ مِنْ  
الظلمِ  
أَلَّا مُسْعِدٌ حَتَّى أَنُوحَ عَلَيَّ  
جِسْمِي

خَلِيلِي مَا لِي لَا تَزَالُ  
مَصْرَتِي  
كَفَاكَ بِحَقِّ اللهِ مَا قَدِ  
ظَلَمْتَنِي  
أَلَّا فِي سَبِيلِ اللهِ جِسْمِي  
وَقُوتِي

فَأَمَرَ بِأَحْضَارِهِ وَقَالَ: بِالأَمْسِ يَنْهَاكَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ المَهْدِيُّ عَنِ العَزْلِ فَتَأْبَى إِلَّا لِجَاجًا وَمَحْكًا؛ وَاليَوْمِ أَمَرَكَ بِالقَوْلِ فَتَأْبَى جُزْأَةً عَلَيَّ وَإِقْدَامًا، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، إِنْ الحَسَنَاتُ يُدْهَبْنَ السَّيِّئَاتُ، كُنْتُ أَقُولُ العَزَلَ وَلِي شَبَابٌ وَجِدَّةٌ، وَبِي حَرَكَ وَقُوَّةٌ، وَأَنَا اليَوْمَ شَيْخٌ ضَعِيفٌ لَا يَحْسَنُ بِمِثْلِي تَصَابٍ؛ فَردَهُ إِلَى حَبْسِهِ؛ فَكُتِبَ إِلَيْهِ: الطويل:

أنا اليوم لي، والحمد لله،  
أشهر  
تذكر، أمين الله، حقي  
وحزمتي  
ليالي تدي منك بالقرب  
مجلسي  
فمن لي بالعين التي كنت  
مرة  
فبعث إليه: لا بأس عليك: فقال: الوافر:  
كان الخلق ركب فيه روح  
أمين الله إن الحسن بأس  
فأخرجه.

أخذ البيت الأول من هذين علي بن جبلة وزاد فيه، فقال لأبي غانم الطوسي: السريع:  
دجلة تسقي وأبو غانم  
والخلق جسم، وإمام الهدى  
عمر بن العلاء

وكان عمر بن العلاء ممدحاً، وفيه يقول بشار بن برد: المتقارب:  
إذا أيقظتك حروب العدى  
دعاني إلى عمر جوده  
ولولا الذي ذكروا لم أكن  
فتى لا يبيت على دمتة  
أخذ هذا البيت أبو سعيد المخزومي، فقال: البسيط:  
وما يريدون، لولا الجبن، من  
رجل  
لا يضرب الماء إلا من قليب  
دم  
وقال أبو الطيب: الطويل:  
تعود ألا تقصم الحب خيله  
ولا ترد العدران إلا وماؤها  
وقال أبو القاسم بن هانئ: الكامل:  
من لم ير الميدان لم ير  
معركا  
وكتائباً تُردي غواربها العدى  
لا يوردون الماء سنبك سابح

وقال أبو القاسم بن هانئ: الكامل:  
من لم ير الميدان لم ير  
معركا  
وكتائباً تُردي غواربها العدى  
لا يوردون الماء سنبك سابح

قال: وبلغ عمر بن العلاء أن أبا العتاهية عاتب عليه في هتات نالها منه في مجلس، وكان كثير الانقطاع إليه، فتخلف عنه، فساء ذلك عمر، فكتب إليه: قد بلغني الذي كان من تجنبك فيما استخفك به سوء الأدب عن علم حقيقة مني، فصرت مُتَرَدِّداً. من العمى في يلاميع الشبهة؛ ولو كان معك من علمك داع إلي لقائي لكشفت لك مَوْرَدَ الأمر ومصدره، لترجع إلى الصلة، فتقال أو تأبى إلا الصَّريمة فتصَّرم؛ وقد قال الأول: الطويل:

وَمُسْتَعْتَبٌ أَبَدَى عَلَى الظنِّ وَأَخْرَجَ مِنْهُ الْمُحْفِظَاتِ عَليُّ  
عَنْهُ

كشفت له عُذْرًا فَأَبْصَرَ وجهه فعاد إلى الإنصاف وهو دَلِيلٌ فأجابه أبو العتاهية: لم أُجْرُ بِعَيْبِي الحقيقة إلى الشبهة، ولم أجد سعة مع عظيم قدرتك إلى حمل اللائمة، فقصر بي الخوف من سُخْطِكَ، على تَرْكِ معاتبتك، لأنَّ المعاتب لا تجتني إلا من المساوي، ولو رغبت عن الصلة إلى القطيعة لتقاضيتك ذلك عن طول الضحبة، وسالف المدة، وأنا أقول: الطويل:

رَضِيْتُ بِبَعْضِ الذَّلِّ حَوْفَ  
جميعه  
وَكُنْتُ أَمْرًا أَحْسَى الْعِقَابَ  
وَأَتَقَى  
فَهَلْ مِنْ شَفِيعٍ مِنْكَ يَصْمَنُ  
تَوْبَتِي  
وليسَ لمثلي بالملوكِ يَدَانِ  
مَعْبَةً مَا تَجْنِي يَدِي وَلِسَانِي  
فإني امرؤ أوفي بكل  
ضمان؟

فتراجعا إلى أحسن ما كانا عليه. وإنما ألم أبو العتاهية في قوله: إن المطايا تشتكك... وما يليه بقول أبي الحجاج نصيب الأكبر: الطويل:

فَعَاوَا فَاتُّوَا بِالذِّي أَنْتَ  
أَهْلُهُ  
وَلَوْ سَكَّنُوا أَنْتَ عَلَيْكَ  
الْحَقَائِبُ

وقال أبو الطيب في أبي العشائر الحمداني: المنسرح:  
تُنْشِدُ أَتْوَابَنَا مَدَائِحَهُ  
يَا لَسُنَّ مَا لَهْنَ أَقْوَاهُ  
إِذَا مَرَّرْنَا عَلَى الْأَصْمِ بِهَا  
أَعْنَتْهُ عَن مِسْمَعِيهِ عَيْنَاهُ  
وهذا المعنى من النصبة الدالة بذاتها التي ذكرتها عن الجاحظ في أقسام البيان.

سبحان الخالق الكريم  
وقال بعضُ الخطباء: أشهد أن في السماوات والأرض آياتٍ ودلالات، وشواهد قائمة، كل يؤدي عنك الحجة، ويشهد لك بالربوبية. ونظير هذا قول أبي العتاهية، وروى أنه جلس في دكان وراق، وأخذ كتاباً فكتب على ظهره: المتقارب:

فَوَا عَجِبًا كَيْفَ يُعْصَى الْمَلِي  
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ  
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ  
وَانصرف، فاجتاز أبو نواس بالموضع فرأى الأبيات، فقال: لمن هذا؟ فلوددتها لي بجميع شعري، فقيل: لإسماعيل بن القاسم، فوقع تحتها: المجتث:

سَبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْخَلَّ  
فَصَاعَهُ مِنْ قَرَارٍ  
يَحُولُ شَيْئًا فَشَيْئًا  
حَتَّى بَدَتْ حَرَكَاتُ  
كُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَا حِدُّ؟  
وَتَسْكِينَتِي فِي الْوَرَى شَاهِدُ  
تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاجِدُ  
قِ مَنْ ضَعِيفٍ مَهِينِ  
إِلَى قَرَارٍ مَكِينِ  
فِي الْحُجْبِ دُونَ الْعَيُونِ  
مَخْلُوقَةٌ مِنْ سُكُونِ

وقال الفضل بن عيسى الرقاشي: بَسَلِ الْأَرْضَ مَنِ عَرَسَ أَشْجَارَكَ، وَسَقَ أَنْهَارَكَ،  
وَجَتَى ثَمَارَكَ، فَإِنْ لَمْ تُجِبْكَ جَوَارًا، أَجَابَتْكَ اعْتِبَارًا.

وهذا شبيه بقول عدِّي بن زيد، وقد نزل النعمان بن المنذر تحت سَرْحَةٍ، فقال: أَتَدْرِي  
مَا تَقُولُ هَذِهِ السَّرْحَةُ أَيُّهَا الْمَلِكُ؟ قَالَ: وَمَا تَقُولُ؟ قَالَ: تَقُولُ: الرَّمْلُ:

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَتَاخُوا حَوْلَنَا

يَشْرَبُونَ الْحَمْرَ بِالْمَاءِ الزُّلَالِ

ثُمَّ أَضْحَوْا لَعِبِ الدَّهْرِ بِهِمْ

وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ حَالًا بَعْدَ حَالٍ

ويروى عَكَفَ الدَّهْرُ بِهِمْ فَتَوَّؤُوا. فتكذَّرَ حالُ النُّعْمَانِ وَمَا كَانَ فِيهِ مِنْ لَذَّةٍ.

الفاظ لأهل العصر في الشكر بدلالة الحال

لَوْ سَكَتَ الشَّاكِرُ لَتَطَقَّتْ الْمَائِثُ. لَوْ صَمَتَ الْمُخَاطَبُ لَأَثَّتَ الْحَقَائِبُ،

وَلِنَشَهَدَتْ شَوَاهِدُ حَالِهِ، عَلَى صِدْقِ مَقَالِهِ. إِنْ جَحَدْتُ مَا أَوْلَانِيهِ، كَفَرْتُ مَا

أَعْطَانِيهِ، نَطَقْتُ أَنَا زُ أَيَادِيهِ عَلَيَّ، وَلَمَعَتْ أَعْلَامُ عَوَارِفِهِ لَدِي.

ولأبي الفضل الميكالي من رسالة: وَرَدَ فَلَانٌ فَتَعَاطَى مِنْ شُكْرِهِ عَلَى نَعِيمِهِ

الَّتِي أَلْبَسِيهِ جَمَالَهَا، وَأَسَخَبَهُ أَفْيَالَهَا، مَا لَوْ لَمْ يَتَحَدَّثْ بِهِ نَاشِرًا وَمُثْنِيًا، وَمَعِيدًا

وَمُبْدِيًا، لَأَثَّتْ بِهِ حَالَهُ، وَشَهَدَتْ بِهِ رِخَالَهُ، حَتَّى لَقَدْ اِمْتَلَأَتْ بِذِكْرِهِ الْمُحَافِلُ،

وَسَارَتْ بِحَبْرِهِ الرِّكْبَانُ وَالْقَوَافِلُ، وَصَارَتْ الْأَلْسِنَةُ عَلَى الشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ لِسَانًا،

وَالْجَمَاعَةُ عَلَى التَّشْرِيرِ وَالِدَعَاءِ أَنْصَارًا وَأَعْوَانًا، عَلَى أَنَّهُ وَإِنْ بَالَعَ فِي هَذَا

الْبَابِ، وَجَاوَزَ حَدَّ الْإِكْتَارِ وَالْإِسْهَابِ، نَهَائِيهِ الْقُصُورُ دُونَ وَاجِبِهِ، وَالسَّقُوطُ

عَنْ أَدْنَى دَرَجَاتِهِ وَمَرَاتِبِهِ.

ومما يقترن لهم بهذا المعنى من ذِكْرِ الشُّكْرِ: قَالَ أَبُو الْفَتْحِ الْبِسْتِي: الْحَرُّ

تَحُلُّ الشُّكْرَ، إِنْ أَجْتَاهُ الْمَرْءُ مِنْ خَيْرِهِ شُكْرًا أَجْنَاهُ مِنْ بَرِّهِ شَهْدًا.

غيره: الشُّكْرُ تَرْجَمَانُ النَّيَّةِ، وَلِسَانُ الطَّوْبَةِ، وَشَاهِدُ الْإِخْلَاصِ، وَعَنْوَانُ

الْاِخْتِصَاصِ. الشُّكْرُ نَسِيمُ النَّعْمِ، وَهُوَ السَّبَبُ إِلَى الزِّيَادَةِ، وَالطَّرِيقُ إِلَى

السَّعَادَةِ. الشُّكْرُ قَيْدُ النَّعْمَةِ، وَمِفْتَاحُ الْمَزِيدِ، وَتَمَنُّ الْجَنَّةِ. مَنْ شُكِرَ قَلِيلًا،

اسْتَحَقَّ جَزِيلًا. شُكْرُ الْمَوْلَى، هُوَ الْأَوْلَى. الشُّكْرُ قَيْدُ النَّعْمِ وَشِكَالِهَا، وَعِقَالِهَا،

وَهُوَ شَبِيهِ بِالْوَحْشِ الَّتِي لَا تَقِيمُ مَعَ الْإِيحَاشِ، وَلَا تَرِيمُ مَعَ الْإِيْنَاسِ. مَوْقِعُ

الشُّكْرِ مِنَ النَّعْمَةِ مَوْقِعُ الْقَرَى مِنَ الضَّيْفِ، إِنْ وَجَدَهُ لَمْ يَرَمْ، وَإِنْ فَقَدَهُ لَمْ

يُقِم. الشُّكْرُ غَرَسٌ إِذَا أَوْدِعَ سَمْعَ الْكَرِيمِ أَمْرَ الزِّيَادَةِ، وَحَفْظَ الْعَادَةِ. الشُّكْرُ

تَعَرَّضَ لِلْمَزِيدِ السَّائِغِ، وَالنَّعْمِ السَّوَابِغِ. شُكْرُهُ شُكْرُ الْأَسِيرِ لِمَنْ أَطْلَقَهُ،

وَالْمَمْلُوكِ لِمَنْ أَعْتَقَهُ. أَثْنَى عَلَيْهِ ثَنَاءَ الرُّؤُوسِ الْهُمَجِلِ، عَلَى الْعَيْثِ الْمُسْبِلِ.

أَثْنَى عَلَيْهِ ثَنَاءَ لِسَانِ الزَّهْرِ، عَلَى رَاحَةِ الْمَطَرِ. أَثْنَى عَلَيْهِ ثَنَاءَ الْعَطِشَانِ

الْوَارِدِ، عَلَى الزُّلَالِ الْبَارِدِ. شُكْرُهُ شُكْرُ الْأَرْضِ لِلدَّيْمِ، وَزُهَيْرُ لَهْرَمٍ بَسَطَ

لِسَانَ الثَّنَاءِ وَالِدَعَاءِ، وَبَلَغَ عِنَانَ الشُّكْرِ عَنَانَ السَّمَاءِ. شُكْرُهُ شُكْرًا تَرْتَاخُ لَهُ

الْمَكَارِمُ، وَتَهْتَزُ لَهُ الْمَوَاسِمُ. لِأَشْكَرَنَهُ شُكْرًا تَشْبِيعَ أَنْوَاغِهِ، وَتَبْسِطَ أَبْوَاغِهِ،

وَيَلْذُ ذِكْرَهُ وَسَمَاعُهُ. شُكْرٌ مَلَأَ الْقَلْبَ وَاللِّسَانَ، كَشُكْرِ حَسَّانَ لَالَ عَسَّانَ.

أَطَالَ عِنَانَ الشُّكْرِ، وَفَسَحَ مَجَالَهُ، وَرَفَعَ أَعْمِدَتَهُ، وَمَدَّ أَرْوَقَتَهُ. شُكْرٌ كَأَنْفَاسِ

الْأَحْيَابِ، أَوْ أَنْفَاسِ الْأَسْحَارِ، أَوْ أَنْفَاسِ الرِّيَاضِ غِبِّ الْقِطَارِ.

من أخبار نصيب وشعره

رَجَعَ إِلَى مَا انْقَطَعَ: كَانَ سَبَبُ قَوْلِ نَصِيبِ: الطَّوِيلُ:

فَعَاجُوا فَأَتُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ

أنه كان مع الفرزدق عند سليمان بن عبد الملك، فقال سليمان بن عبد الملك: يَا

فَرَزْدَقُ، مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ؟ قَالَ: أَنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: لِمَاذَا؟ قَالَ: بِقَوْلِي: الطَّوِيلُ:

وَرَكِبَ كَأَنَّ الرِّيحَ تَطْلُبُ

عِنْدَهُمْ لَهَا تِرَةً مِنْ جَذْبِهَا بِالْعَصَائِبِ

سَرَوْا وَسَرَتْ نِكْبَاءُ وَهَيَّ  
تلفهْمُ  
إذا أنسوا ناراً يقولون:  
ليتها،

إلى شُعَبِ الأَكْوَارِ ذاتِ  
الحقائبِ  
وقد حَصِرَتْ أَيْدِيهِمْ نَارٌ  
غالب

يريد أباه - وهو غالب بن صَعَصَعَةَ بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان ابن مجاشع - فأعرض عنه سليمان كالمغضب؛ لأنه إنما أراد أن يُنشد مدحاً فيه؛ ففهم نُصيب مراده، فقال: يا أمير المؤمنين، قد قلتُ أبياتاً على هذا الروي ليست بدونها، فقال: هَاتِهَا؛ فأنشأ نُصيبُ يقول: الطويل:

أَقُولُ لِرَكِبٍ قَافِلِينَ  
لَقِيْتَهُمْ  
فقد أخبروني عن سليمان  
أنني  
فعاَجوا فأننوا بالذي أنت  
أهلهُ  
فقالوا: تركناه وفي كل  
لَيْلَةٍ  
ولو كان فَوْقَ النَّاسِ حي  
فِعَالِه  
لَقُلْنَا: له شِبْهُ، وَلَكِنْ  
تَعَدَّرَتْ

قَفَا ذَاتِ أَوْشَالٍ وَمَوْلَاكَ  
قَارِبُ  
لمعروفه من آل وِدَّانَ  
طالبُ  
ولو سكتوا أثنتُ عليكَ  
الحقائبُ  
يُطِيفُ به من طالبي العُرفِ  
راكِبُ  
كفعلك أو للفعل منك  
يقاربُ  
سِوَاكَ عن المستشفعين  
المطالبُ

هو البدرُ والناسُ الكواكبُ  
حَوْلَهُ

وهل تُشْبِهُ البدرَ المنيرَ  
الكواكبُ؟

فقال سليمان: أحسنت، والتفت إلى الفرزدق فقال: كيف تسمع يا أبا فراس؟ قال: هو أشعرُ أهلِ جلدته، قال: وأهلِ جلدتك؛ فخرج الفرزدق وهو يقول: الوافر:

وَحَيْرُ الشَّعْرِ أَكْرَمُهُ رَجَالاً

وفي باب المدائح  
قال أبو العباس محمد بن يزيد: وهذا بابٌ في المدح حسن متجاوز مُبتدع لم يُسبق إليه.

قول نصيب: من أهل وِدَّان. قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: ذكر محمد ابن كناسة والزيدي أن نصيباً من أهل وِدَّان، وكان عبداً لرجل من بني كنانة هو وأهل بيته، وزعم أبو هفان أنه عبد لعبد العزيز بن مروان، وكان نصيبٌ شديد السواد، وهو القائل:

كُسيْتُ ولم أملك سِوَاداً،  
وتحتهمي من الفوهي بيضُ  
بِئَانُهُ

لكالمسك لا يسألو عن  
المسك ذائقه

فما ضرَّ أنوابي سِوادي، وإتني

وقال سُحيم عبد بني الحسحاس: البسيط:

عند الفخار مقام الأصل  
والورق

أشعارُ عبد بني الحسحاس  
فمن له

إِنْ كُنْتُ عَبْدًا فَنَفْسِي حُرَّةٌ  
كَرْمًا  
أَوْ أَسْوَدَ اللَّوْنِ إِنِّي أَبْيَضُ  
الْخُلُقِ

وقال أبو الطيب المتنبي لكافور الإخشيدي: الخفيف:

إِنَّمَا الْجِلْدُ مَلْبَسٌ وَابْيَضُ  
ال  
خَلْقٌ حَيْرٌ مِنْ ابْيَضِ الْقَبَائِ

وقال نصيب ليعض ملوك بني أمية: إن لي بنات نَقَصْتُ عليهنَّ من سوادِي، فقال: ما أحسن ما تَلَطَّفْتَ لهنَّ! وأمر له بصلة. وكان أبو تمام حبيب بن أوسٍ، لَمَّا مدح أبا جعفر محمد بن عبد الملك الزيات بقصيدته التي أولها: الطويل:

لَهَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ وَتَفْعَلَا  
ونذكر بعض الفضل منك  
وتفضلا

وهي من أحسن شعره، وفج له على ظهرها: الطويل:

رَأَيْتُكَ سَمَحَ الْبَيْعِ سَهْلًا،  
وَأِنَّمَا  
يُغَالِي إِذَا مَا صَنَّ بِالشَّيْءِ  
بِائِعُهُ

فَأَمَّا إِذَا هَانَتْ بِضَائِعِ بَيْعِهِ  
فيوشك أن تبقى عليه  
بَصَائِعُهُ

هُوَ الْمَاءُ إِنْ أَجْمَمْتَهُ طَابَ  
وَرُدُّهُ  
ويفسد منه أن تُبَاحَ مَشَارِعُهُ

فأجابه بقصيدة طويلة، واحتج عليه واعتذر إليه في مدحه لغيره؛ فقال في بعض ذلك: البسيط:

أَمَّا الْقَوَافِي فَقَدْ حَصَّنْتُ  
عُرَّتَهَا  
فَمَا يُصَابُ دَمٌ مِنْهَا وَلَا  
سَلْبٌ

مَتَّعْتَ إِلَّا مِنَ الْأَكْفَاءِ أَيْمَهَا  
وَالْحَدْبُ  
وَلَوْ عَصَلْتِ عَنِ الْأَكْفَاءِ  
أَيْمَهَا

كَانَتْ بَنَاتِ نَصِيبٍ حِينَ صَنَّ  
أَرْبُ  
عَلَى الْمَوَالِي وَلَمْ تَحْفَلْ بِهَا  
الْعَرَبُ

وقد قيل إن أبا تمام أجابه بقوله: الطويل:  
أبا جعفر، إن كنتُ أصبحتُ  
شاعراً

فَقَدْ كُنْتُ قَبْلِي شَاعِرًا  
أَبَايَعُهُ  
تَسَاهَلُ مِنْ عَادَتِ عَلَيْكَ  
مَنَافِعُهُ

فَصِرْتُ وَزِيرًا وَالْوَزَارَةُ  
مَكْرَعُ  
وَكَمْ مِنْ وَزِيرٍ قَدْ رَأَيْنَا  
مَسْلُطًا

وَلِلَّهِ قَوْسٌ لَا تَطِيشُ  
سِيَاهُهَا  
يَعَصُّ بِهِ بَعْدَ اللَّذَاذَةِ كَارِعُهُ  
فَعَادَ وَقَدْ سُدَّتْ عَلَيْهِ  
مَطَالِعُهُ

وَلِلَّهِ سَيْفٌ لَا تَقْلُ مَقَاطِعُهُ  
سِيَاهُهَا

قال أبو بكر محمد بن يحيى الصولي: ويقال إن هذه الأبيات متحولة لحبيب. وليس مثل أبي جعفر في جلاله قَدْرُهُ واصطناعه لحبيب يُعَامَلُ بِمِثْلِ هَذَا الْجَوَابِ، وَلَا يَنْتَهِي جَهْلُ حبيب أن يقابل مأموله ومن يَرْتَجِي جَلِيلَ الْفَائِدَةِ مِنْهُ بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ. وقد قيل: بل قالها، ولم ينشدها أحداً؛ وإنما ظهرت بعد موته.

وكان ابنُ الزيات كما قال شاعراً، ومدح الحسن بن سهل في وزارته للمأمون؛ وأعطاه عشرة آلاف درهم، فقال: البسيط:

لَمْ أُمْتِدِحْكَ رَجَاءَ الْمَالِ      لَكِنْ لِيُثْبِتَنِي التَّحْجِيلَ  
أَطْلُبُهُ      وَالْعُرْرَا  
مَا كَانَ ذَلِكَ إِلَّا أَتْنِي رَجُلٌ      لَا أَقْرُبُ الْوَرْدَ حَتَّى أُعْرِفَ  
الصَّدْرَا

قال الصولي: وكان السببُ الذي أوجد أبا جعفر على أبي تمام حتى قال: لقد رأيتك سهلاً البيع - الأبيات قول أبي تمام قصيدته المشهورة في ابن أبي دؤاد التي أولها: الوافر:

سَقَى عَهْدَ الْحَمَى سَبْلُ      وَرُؤْيَى حَاضِرٍ مِنْهُ وَبَادٍ  
الْعِهَادِ      رَأَيْتَ الدَّمَاعَ عِنْ خَيْرِ الْعَنَادِ  
تَرَحُّتْ بِهِ رُكِيٍّ الدَّمَاعِ لَمَا      يَقُولُ فِيهَا فِي مَدْحِهِ:

هُمْ عِظَمُ الْأَثَافِي مِنْ تَبَارٍ      وَأَهْلُ الْهَضْبِ مِنْهَا وَالنَّبَادِ  
مُعْرَسٌ كُلُّ مَعْصَلَةٍ وَخَطْبٍ      وَمَنْبِتٌ كُلُّ مَكْرَمَةٍ وَادٍ  
إِذَا حَدَّثَ الْقَبَائِلِ سَاخِلُوهُمْ      فَإِنَّهُمْ بَنُو الْمَجْدِ التَّلَادِ  
تُفْرَجُ عَنْهُمْ الْغَمْرَاتِ بَيْضٌ      جِلَادٌ تَحْتَ قَسْطَلَةِ الْجِلَادِ  
وَحَشْوُ حَوَادِثِ الْأَيَّامِ مِنْهُمْ      مَعَاقِلُ مِطْرَدٍ وَبَنُو طِرَادِ  
لَهُمْ جَهْلُ السَّبَاعِ إِذَا الْمَنَايَا      تَمَشَّتْ فِي الْوَعَى وَخُلُومٌ  
عَادِ

لَقَدْ أُنْسِتْ سُلُؤِي كُلَّ دَهْرٍ      مُحَاسِنٌ أَحْمَدَ بْنَ أَبِي دُؤَادِ  
مَتَى تَخَلَّلُ بِهِ تَحَلُّلُ جَنَابَا      رَضِيْعًا لِلسَّوَارِي وَالْعَوَادِ  
وَمَا اشْتَبَهَتْ سَبِيلُ الْمَجْدِ      هَذَاكَ لِقَبْلَةِ الْمَعْرُوفِ هَادِ  
إِلَّا

وما سافرتُ في الأفاق إلا      ومِنْ جَدَّوَاك رَاجِلَتِي وَزَادِي  
مَقِيْمُ الظَّنِّ عِنْدَكَ وَالْأَمَانِي      وَإِنْ قَلِقْتُ رَكَابِي فِي الْبِلَادِ  
وهذه النكت التي أحقدت أبا جعفر، وأعتبته على أبي تمام، وفي هذه القصيدة يقول معتذراً إليه في الذي فُرف به عنده من هجاء مضر:

أَنَا بِي عَائِرُ الْأَنْبَاءِ تَسْرِي      عَقَارْبُهُ بَدَاهِيَةَ نَادِ  
تَبَّأَ خَبْرًا كَانَ الْقَلْبَ مِنْهُ      يُجَرُّ بِهِ عَلَى سَوْكِ الْقَتَادِ  
بَأْنِي نِلْتُ مِنْ مُصْرٍ وَخَبْتُ      إِلَيْكَ سَكَيْتِي خَبَبِ الْجَوَادِ  
وَمَا رَبَّعَ الْقَطِيعَةَ لِي بَرَّعَ      وَلَا تَادِي الْأَدَى مِنِّي بِنَادِ  
وَأَيْنَ يَجُوزُ عَنِ قَصْدٍ لِسَانِي      وَقَلْبِي رَائِحٌ بِرِضَاكَ غَادِ؟  
وَمَا كَانَتْ الْحُكْمَاءُ قَالَتْ:      لِسَانُ الْمَرْءِ مِنْ حَدَمِ الْفُؤَادِ  
وَقَدْ مَا كُنْتُ مَعْسُولَ الْقَوَافِي      وَمَأْدُومَ الْمَعَانِي بِالسَّدَادِ

ابن أبي دؤاد  
وكان ابن أبي دؤاد غالباً في التعصب لإياد وإلحاقها بنزار، على مذهب نساب العدنانيين. قال: وكل من بالعراق من إياد دخلوا في التَّحَجُّع، وإليهم يُنسَبون؛ وَمَنْ كَانَ بِالشَّامِ فَهَمَّ عَلَى نَسَبِهِمْ فِي نِزَارٍ، وَابْنُ أَبِي دُؤَادِ يَرْمِي بِالِدَّعْوَةِ؛ وَالتَّكْثِيرُ مِنْ أَخْبَارِهِ يُخْرِجُ إِلَى مَا أَخَافَهُ مِنْ تَطْوِيلِ التَّصْرِيفِ، فِي مَمْلُوقِ التَّكْلِيفِ.  
وكان ابن أبي داود عالماً بصروب العلم والأدب، متصرفاً في صناعة الجدال، على

مذهب أهل الاعتزال، وكانت العداوة بينه وبين ابن الزيات بينة، والنفاسة في الرياسة بينهما متمكنة، وقال له بعض الشعراء: الوافر:

أكلُّ أبي دُوَادٍ من إِيَادٍ فكلُّ أبي ذُوَيْبٍ من هُدَيْلٍ

قال مسلم: ما تاه إلا وضع، ولا فاخر إلا سقيط، ولا تعصب إلا دَخِيلُ. وقال مدني لرجل: ممن أنت؟ فقال: من قريش، والحمد لله، قال: بأبي أنت! التحميد هاهنا ريبة! واسم أبي دُوَادٍ دُعَيْمِي، قال أبو اليقظان: وهم من قبيلة يقال لها بنو زهرة أخوة بني جدان، وقد ذكره الطائي في قوله: الكامل:

والغيث من زهرٍ سحابةٌ رَافِةٍ والركنُ من شيبانٍ طَوْدُ حديدٍ

ذكر شيبان؛ لأن خالد بن يزيد الشيباني شَفَعَ له عند ابن أبي دُوَادٍ فيما ينساق الحديث إليه من مَوْجِدَتِهِ عليه.

قال محمود الوراق: كنتُ جالساً بطرفِ الجِسْرِ مع أصحابِ لي، فمرَ بنا أبو تمام، فجلس إلينا، فقال له رجلٌ منّا: يا أبا تمام، أيُّ رجلٍ أنتَ لو لم تكن من اليمَن؟ قال: ما أحبُّ أني بغيرِ الموضعِ الذي اختاره اللهُ لي، فَمِمَّنْ تحبُّ أن أكونَ؟ قال: من مُصَرِّ، قال: إنما شَرَّفَتِ مُصَرِّ بالنبي، صلى اللهُ عليه وسلم، ولولا ذلك ما قيسوا بملوكنا وأدوائنا، وفينا كَدًا، ومنا كذا - يَفْحَرُ؛ وذكر أشياءَ عاب بها مُصَرِّ، وتُسمى الخبرُ إلى ابن أبي دُوَادٍ وزيدٍ فيه، فقال: ما أحبُّ أن يَدْخُلَ عليّ، فقال يعتذر إليه بقصيدة أولها:

سَعِدَتْ عُزْبَةُ النَوَى بسُعَادٍ في طلوعِ الإتهامِ والإنجادِ

يقول فيها:

بعد أن أصَلتِ الوُشَاهُ سَيُوفاً قَتَفِي عنكَ رُخْرَفِ القَوْلِ لَمْ يَكُنْ فِرْضُهُ لغيرِ السَدَادِ سَمْعُ

دُونَ غُورِ الكَلَامِ بالأسْدَادِ ضَرَبَ الجَلْمُ والوقارُ عليه وَحياً أَرْمَةً وَحِيَّةً وَادٍ مَلَأَتْكَ الأَحْسَابُ أيَّ حَيَاةٍ مِنْ مُقَاسَاةٍ مَعْرَمٍ أَوْ نِجَادٍ عَاتَقُ مُعْتَقٍ مِنَ الرِّقِّ إلَّا لِلحَمَالِاتِ والحَمَائِلِ فِيهِ

فما رَضِي عنه حتى تشفع إليه بخالد بن يزيد بن مزيد الشيباني، فقال في قصيدة: الكامل:

أَسْرَى طَرِيداً للحِياءِ مِنَ رَعْمُوا، وليس لقوله بطَريدِ التي

كُنْتُ الرِّبِيعَ، أَمَامَةَ ووراءَهُ قَمَرُ القَبَائِلِ خَالِدُ بنِ يَزِيدِ لو قَدْ نَفَضْتَ تَهَائِمِي وَنَجُودِي

لله دُرٌّ أيُّ بَابِ مُلِمَّةٍ لَمْ يُزَمْ فِيهِ إِلَيْكَ بِالإقْلِيدِ تِلْكَ الشُّهُودُ عَلِيٌّ وَهُيَ شُهُودِي

من بعد ما ظنُّوا بأنَّ سيكوُنُ لي يَوْمٌ يَرَعْمُهُمْ كِيَوْمِ عَبِيدِ

يريد عبيد بن الأبرص الأسدي، وكان النعمان بن المنذر لقيه يوم بُؤسِه فقتله.

وكان ابن أبي دُوَادٍ كريماً فصيحاً جَزْلاً. قال أبو العيناء: كنا عند ابن أبي دُوَادٍ ومعنا محمود الوزّاق وجماعة من أهل الأدب والعلم؛ فجاءه رسول إيتاخ فقال: إن الحاجب أبا منصور يقرأ على القاضي السلام، ويقول: القاضي يتعنى ويحيى في الأوقات؛ وقد تفاقم الأمر بينه وبين كاتب أمير المؤمنين، يريد ابن الزيات، فصار يضربنا عند قصده القاضي، وما أحب أن يتعنى إلي لهذا السبب؛ إذ كنت لا أصل إلى مكافأته. فقال: أجيبوه عن رسالته، فلم تدر ما نقول، ونظر بعضنا إلى بعض فقال: أما عندكم جواب؟ قلنا: القاضي - أعزّه الله، أعلم بجوابه مثلاً، فقال للرسول: اقرأ عليه السلام، وقل له: ما أتيتك متكثرأ بك من قلة، ولا متعزراً بك من ذلة، ولا طالباً منك رتبة، ولا شاكياً إليك كرتة، ولكنك رجل ساعدك رمان، وحركك سلطان، ولا علم يؤلف، ولا أصل يُعرف؛ فإن جئتك فبسلطانك، وإن تركتك فلنفسك! فعجبنا من جوابه.

خالد بن عبد الله القيسري

صعد خالد بن عبد الله القيسري المنبر يوم الجمعة، فخطب وهو إذ ذاك أمير على مكة، فذكر الحجاج فأحمد طاعته، وأثنى عليه خيراً، فلما كان في الجمعة الثانية ورد عليه كتاب سليمان بن عبد الملك يأمره فيه ينسب الحجاج وذكر عيوبه، وإظهار البراءة منه، وصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن إبليس كان ملكاً من الملائكة، وكان يُظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى له بذلك فضلاً، وكان الله تعالى قد علم من غيبه ما خفي عن الملائكة، فلما أراد الله فضيحه ابتلاه بالسجود لآدم، فظهر لهم ما كان يُخفيه عنهم فلعنوه؛ وإن الحجاج كان يُظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له بذلك فضلاً، وكان الله عز وجل، أطلع أمير المؤمنين من غلبه وحُبته على ما خفي عنا، فلما أراد الله فضيحه أجرى ذلك على يدي أمير المؤمنين، فالعنوه، لعنه الله. ثم نزل.

أبو تمام والأفشين

وكان أبو تمام قد مدح الأفشين التركي، واسمه خيدر بن كاؤس، وكان من أجل قواد المعتصم، وأبلى في أمر بابك الخرمي بلاء حمده له؛ فلما سخط المعتصم عليه لما نسب إليه من سوء السيرة، وقبح السريرة، وأنه يخطب درجة بابك، ويريد التحصن بموضع يخلع فيه يده عن الطاعة، وأظهر القاضي أحمد بن أبي دُوَادٍ عليه أنه على غير الإسلام، قال أبو تمام معتذراً للمعتصم من تقديمه واجتباؤه، ولنفسه من مدحه وإطرائه: الكامل:

ما كان لولا فحشُ غدره

ليكونَ في الإسلام عامٌ

حيدر

فجار

هذا الرسول وكان صفوة

من خير بادٍ في الأنام وقار

ربه

قد خص من أهل النفاق

وهم أشد أذى من الكفار

عصابة

واختار من سعدٍ لعين بني

سرح لعمر الله غير خيار

أبي

حتى استضاء بشعلة السور

رفعت له سترأ من الأستار

التي

ثم ذكر في هذه القصيدة أنّ قتل الأفشين لبابك لم يكن بصِدْقِ بصيرة، ولا لصحة سريرة، فقال:

والهاشمون المستقلة  
عن كربلاءً بآثقل الأوزار  
ظعنهم

فشفاهم المختارٌ منه ولم  
في دينه المختارٌ بالمختارِ  
يكن

أهل النفاق

أما من دُكر من أهل النفاق، فقد كانوا يظهرُونَ عَيْتَ ما يُسِرُّون، حتى أطلع الله نبيّه عليه السلام على أخبارهم، وتَشَرَّ له مَطَوْفي أسرارهم. وأما ابنُ أبي سَرْح فهو عبدُ الله بن سعد بن أبي سَرْح بن الحسام بن الحارث بن حبيب بن خزيمة بن نصر بن مالك بن حَسَل بن عامر بن لؤي، أسلم قبل الفَتْح، واستكتبه النبيُّ عليه السلام؛ فكان يكتبُ مَوْضِعَ الغفورِ الرحيمِ العزيزِ الحكيمِ، وأشبهه ذلك؛ فأطَّلَع اللهُ عليه النبيُّ عليه السلام، فهرب إلى مكة مرتداً؛ وأنزل فيه: "وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللهُ". فأهدرَ النبي، صلى الله عليه وسلم، يومَ الفَتْحِ دَمَهُ، فهرب من مكة، فاستأمن له عثمانُ رضي الله عنه؛ فأمنه رسولُ الله، صلى الله عليه وسلم، وهو أخو عثمان من الرِّضَاعَةِ، وأسلم فحسُنَ إسلامُهُ، وولي مصر سنة أربع وعشرين، فأقام عليها إلى أن حُصِرَ عثمان، ومات بقيسارية الشام، ولم يدخل في شيء من الفتنِ الحجازية في ذلك الوقت.

وأما المختارُ الذي ذكره فهو المختار بن أبي عُبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير ابن عوف بن عَفْدَةَ بن عروة بن عَوْف بن قَسِي وهو ثقيف؛ وكانت لأبيه في الإسلامِ آثارٌ جميلة، وأخذت المختار صفة بنت أبي عبيد زوج ابن عمر، والمختار هو كذاب ثقيف الذي جاء فيه الحديث، وكان يزعم أنه يُوحَى إليه في قتلة الحسين؛ فقتلهم بكل موضع، وقتل عبيد الله بن زياد، وله أسجاع يصنعها، وألفاظ يبتدعها، ويزعم أنها تنزل عليه، وتُوحَى إليه. وقيل للأحنف بن قيس: إنّ المختار يزعم أنه يُوحَى إليه! فقال: صدق، وتلا: "وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ". وأخباره كثيرة ليس هذا موضعها.

لما هُزم أمية بن خالد بن أُسَيْدٍ لم يَدِّرِ الناس كيف يقولون له، فدخل عبدُ الله بن الأَهمم عليه، فقال: الحمد لله الذي نظر لنا أيها الأمير عليك، ولم ينظر لك علينا، فقد تعرّضت للشهادة بجَهْدِكَ، إلا أن الله علم حاجة أهل الإسلام إليك، فأبقاك لهم بخذلان مَنْ معك. فصدر الناس عن كلامه.

ويتعلق بهذه المقامة

فصل في غرائب التكتاب

كتب حمدون بن تَهْران إلى عامل عَزَل عن عَمَلِه: بلغني، أعزك الله، انْصِرَافَكَ عن عملك، ورجوعك إلى منزلك؛ فسُرِرْتَ بذلك، ولم أَسْتَفْظِعْهُ وَأَجْرَعْ له؛ لعلمي بأنَّ قدرَكَ أَجَلٌ وأَعْلَى من أن يرفعَكَ عملٌ تتولاه، أو يضعَكَ عَزْلٌ عنه؛ ووالله لو لم تختبر الانصرافَ وتُرد الاعتزالَ لكان في لطفٍ تدبيرك، وثقوب رويتك، وحُسن تاتيكَ، ما تُزِيل به السببَ الداعي إلى عَزْلِكَ، والباعث على صَرْفِكَ؛ ونحن إلى أن نهنتك بهذه الحالِ أُولَى بنا من أن نعزبك؛ إذ أردت الانصرافَ فأوتيته، وأحببت الاعتزالَ فأعطيته، فبارك الله

لك في مُنْقَلَبِكَ، وهَنَّاكَ النعمَ بَدَوَامِهَا، ورزقك الشُّكْرَ الموجِب لها الزائد فيها.

وكتب ابن مكرم إلى نصراني أسلم:

أما بعد، فالحمدُ لله الذي وفقك لشكره، وعزّفك هدايته، وطهر من الارتباب قلبك، وما زالت مَخَائِلُكَ ممثلةً لنا حقيقةً ما وهب اللهُ فيك، حتى كأنك لم تنزل بالإسلام مَوْسُومًا، وإن كنت على غيره مُقيمًا، وكنا مؤملين لما صرّت إليه، مُشْفِقِينَ مما كنت عليه، حتى إذا كاد إشفاقنا أن يَسْتَعْلِي رجاءنا أتت السعادةُ بما لم تزل الأنفسُ تعدّ منك؛ فأسال الله الذي أضاء لك سبيلَ رُشدِكَ أن يوفّقك لصالح العمل، وأن يؤتيك في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً، وَيَقَيِّكَ عذابَ النار.

قال بعضُ الكتاب: من الحقّ ما يُسْتَحْسِن تَرْكُهُ، ويستهجَنُ عمله، وقد يقع من ذلك فيما يحلّه الشرع، ويكرهه الأدياء؛ وكثير ممن يغلبُ على طبعه هذا المعنى يراه سموً نفس، وعلوً همة، حتى رأينا من لا يحضر تزويج كَرِيمَتِهِ، ويولي أمرها غير نفسه، ورأينا من يُجَاوِرُ ذلك إلى ألا يُنكحَ مسيئتكها، وزاد به العلوُ إلى تَرْكِ ما ذكره أولى، وكنا عرفنا حال إنسان تزوجت أمّه، فعظم لذلك همّه، وانفرد عن أودّائه، وتوارى عن أصفائه؛ حياءً من لقائهم، وكُرْهًا لتهنئتهم له أو عزائهم، واضطرته الوَحْشَةُ إلى قَصْدِ من ظنّ به منهم المسئكة في تحامي خطابه فيما اجتنب لأجله خُلاته، وفارق بسببه إخوانه، وتخيّل ذلك المقصودُ أنه إنما لجأ إليه ليسليه؛ فأفاض معه فيما قدر أنه قصد له من المعنى الذي جعله وحيداً خوف المفاوضة.

ثم مضت الأيامُ واختلف الحال، ورجع إلى العِشْرَةِ وأبناء المودّة؛ فكان عنده من لم يخاطبه أخطى، وفي نفسه أوفى، وعلى قلبه أخفّ، وفي نفسه أشفت، وتقم على ذلك الصديق وعتب؛ إذ لكل من الناس - إلا من طاب مَحْتِدُهُ وطال سؤدده - حالٌ من الإلف والرغبة تحسن المساوي، ثم حال من المَلَلِ والنّراهة تقبّح المحاسن؛ واعتذر المتكلف من التسلية بما لم يلزمه، ولم يرده صفيه، فإنه فعل ما أوجبه الأخوة، وحقوق الخلطة، وأسباب العشرة، وانبساط المفاوضة؛ ودبت عقارب الظنون والوشاية، إلى أن خرجا بالملاحاة إلى المَعَاداة؛ فلما وقع بعضُ الناس بينهما من معاودة الحسنى، ومراجعة الأولى؛ جاهر هذا الماقت بقَرع بين الأسف على تخيل النهى والوقار من الممقوت، وظاهر الممقوت بتقريع الماقت، بتزويج أمّه، الذي تجشّم من كلامه فيه فضلاً، وتكلف من خطابه عليه ما من حسرة خلا؛

فأفضى الأمرُ بينهما إلى الأوتار، وطلب الثأر

فإن اضطر إلى القول في هذا المعنى أحدٌ بأمر قاهر من السلطان، أو حوادث الأزمان، أو تطارح الإخوان، فليقل وليكُتّب ما مثلنا إن لم يجد عنه بداً: أنت - بقضلي الله عليك وإحسان تبصيره إياك - حق أهل الدين، وخلص اليقين، فكما لا تتبع الشهوة في مجطور تبئحه، فكذا لا تتبع الأتفة في مباح تحظره؛ وقد اتّصل بنا ما اختاره الله والقضاء لذات الحق عليك، المنسوبة - بعد نسبك إليها - إليك، ممّا كرهه إباؤك الديبوي لك ولها، ورصيه الحلال الديني له ولها، فنحن نعزيك عن فائت محبوك، ونهنئك في الخيرة في اختيار القدر لك، ونسال الله أن يجعلها أبداً معك فيما رضيت وكرهت، وأبيت وأتيت.

فهذا، ونحوه أصوبُ وأسلم، إن اضطررت إليه، وتركه أحسن وأحزم، إن

ملكيت رأيك فيه؛ والتلطف للكتابة عما يُستهجن ولا يستحسن التواجه به من أحسن الأشياء وأسدها.

وكتب أبو الفضل بن العميد في بابه: الحمد لله الذي كشف عنا سِتْرَ الْحَيْرَةِ، وهدانا لِسِتْرِ الْعَوْرَةِ، وَجَدَعَ بما شرع من الحلال أَنْفَ الْعَيْرَةِ، وَمَنَعَ من عَصْلِ الأمهات، كما منع من وَادِ البنات، استنزالاً للنفوس الأبيّة، عن حَمِيَّةِ الجاهلية. ثم عرّض للجزيل من الأحر من استسلم لمواقع قضائه؛ وعوض جزيل الثواب لمن صبر على نازلِ بلائِهِ؛ وهناك الله، الذي شرح للتقوى صَدْرَكَ، ووسع في البَلْوَى صَبْرَكَ، ما ألهمك من التسليم بمشيئته، والرضا بقضيته، ووفّقك له من قضاء الواجب في أحد أبوك، ومن عظم حقه عليك؛ وجعل الله تعالى حَدَه ما تجرّعته من أنفٍ، وكطَمَّته من أسفٍ، معدوداً يعظم الله عليه أجرك، ويجزل به دُخْرَكَ؛ وَقَرَنَ بالحاضر من امتِعَاضِكَ لِفَعْلِهَا المنتظر من ارتماضِكَ لَدَفْنِهَا، وعوّضكَ من أسيرة فرسِهَا أعواد تَغْشِيهَا؛ وجعل ما يُنْعَمُ به عليك من بعدها من نعمة مُعَرَّى من نِقمة، وما يُولِيكَ بعد قَبْضِهَا من منحة مبراً من مِحْنَةٍ.

ألفاظ لأهل العصر في التهاني بالبنات  
هنا الله سيدي وَرَدَ الكريمة عليه، وثمّر بها أعداد النسل الطيب لديه؛ وجعلها مُؤَدِنَةً بأخوة بَرَّة، يَغْمُرُونَ أُنْدِيَةَ القَصْلِ، وَيَعْبُرُونَ بَقِيَّةَ الدَّهْرِ.  
اتصل بي حَبْر المولودة، كَرَّمَ الله عُزَّتِهَا وَأَبْتَهَا نباتاً حسناً، وما كان من تَعْيِيرِكَ بعد اتِّصَاحِ الخَبْرِ، وإنكارك ما اختاره الله لك في سابق القَدَرِ، وقد علمت أنهن أقرب من القلوب، وأن الله تعالى بدأ بهن في الترتيب، فقال جلي من قائل: "بِهَبِّ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَانَا وَيَهَبُّ لِمَنْ يَشَاءُ الدُّكُورُ". وما سَمَاهُ هبة فهو بالشكر أولى، وبخسّن التقبل أحرى. أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء، وأمّ الأبناء، وجالية الأصهار، وأولاد الأطهار، والمبشرة بأخوة يتناسقون، وتُجَبِّأ يتلاحقون: الوافر:

فَلَوْ كَانَتِ النِّسَاءُ كَمِثْلِ هَذِي      لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ  
فَمَا التَّائِبُ لِاسْمِ الشَّمْسِ      وَلَا التَّذْكَيرُ فَحَرٌّ لِلْهَلَالِ  
عَيْبٌ

والله يعرفك البركة في مَطْلَعِهَا، والسعادة في موقعها، فأدرع اغتباطاً، واستأنف نشاطاً. الدنيا مؤنثة، والرجال يخدمونها. والنار مؤنثة، والذكور يعبّدونها. والأرض مؤنثة، ومنها خُلِقَت البرية، وفيها كثرت الذرّية. والسماء مؤنثة، وقد خُلِيت بالكواكب، وزينت بالنجوم الثواقب. والنفوس مؤنثة، وهي قوام الأبدان، وملاك الحيوان. والحياء مؤنثة، ولولاها لم تتصرّف الأجسام ولا عُرفَ الأنام. والجنة مؤنثة، وبها وُعِدَ المتقون، وفيها يَنْعَم المرسلون؛ فهناك الله ما أوليت، وأورَعَكَ شُكْرَ مَا أُعْطِيت، وأطَالَ اللهُ بقاءَكَ ما عُرفَ التَّسَلُّ والوَلَد، وما بقي العَصْرُ والأبَد؛ إنه فعّال لما يشاء.

مديح النساء  
والتصرّف في النساء ضيقُ النطاق، شديدُ الخِثَاق، وأكثر ما يُمدح به الرجال ذمّ لهنّ، وَوَضُمَّ عليهنّ، قال ابن الرومي: البسيط:

ما للحسان مسيئاتٍ بِنَا،      إلى المسيئات طولَ الدهرِ  
ولنا      تَحْنَانُ  
فإن يبحنّ بعهدٍ قُلن:      إنا نسينا، وفي النسوان  
معدرةً      نَسِيَانُ  
لا نلزم الذكر، إنا لم نَسَم      ولا مُيْحَنَاهُ، بل للذكر دُكْرَانُ

به  
قَصُّ الرِّجَالِ عَلَيْنَا أَنْ  
شِيمَتَهُمْ

جودٌ وبأسٌ وأحلامٌ وأذهان  
وهل يكون مع النقصان  
رُجْحَانُ؟

وَأَنْ مِنْهُمْ وَفَاءً لَا نَقُومُ لَهُ

وقال أبو الطيب المتنبي: الطويل:

بِنَفْسِي الْخِيَالُ الزَّائِرِي بَعْدَ  
هَجَعَةٍ  
سَلَامٌ فَلَوْلَا الْبُخْلُ وَالْحَوْفُ  
عِنْدَهُ  
وَقَوْلَتِهِ لِي: بَعْدَنَا الْعُمُصَ  
تَطَعْمُ  
لَقُلْنَا أَبُو حَفْصٍ عَلَيْنَا  
الْمَسْلَمُ

ألا ترى أن الجود، والوفاء بالعهود، والشجاعة والبطان، وما جرى في هذا السنن، من فضائل الرجال، لو مُدِح النساء به لكان تفضاً عليهن، وذمّاً لهن؟ ولمديح النساء أبواب تفرقت في الكتاب: أنشد رجل زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور: مجزوء الكامل:

أُرَيْدُهُ ابْنَهُ جَعْفَرٍ  
طُوبَى لَزَائِرِكَ الْمَثَابِ

تُعْطِينَ مِنْ رِجْلَيْكَ مَا  
فُوتِبَ إِلَيْهِ الْخِدمُ يَضْرِبُونَهُ، فَمَنْعَتَهُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَتْ: أَرَادَ خَيْرًا وَأَخْطَأَ، وَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّنْ أَرَادَ شَرًّا فَأَصَابَ، بِسَمِّ قَوْلِهِمْ شِمَالُكَ أُنْدَى مِنْ يَمِينِ غَيْرِكَ فَفْتَهُ أَنَّهُ إِذَا قَالَ هَكَذَا كَانَ أَبْلَغَ، أَعْطَوْهُ مَا أَمَّلَ، وَعَرَفُوهُ مَا جَهِلَ. وَقَالَ كَثِيرٌ: الطويل:

وَلَمَّا قَصَيْنَا مِنْ مَتَى كُلِّ  
حَاجَةٍ  
وَشُدَّتْ عَلَيَّ حِدْبِ الْمَطَايَا  
رِحَالِنَا  
أَحَدْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ  
بَيْنَنَا  
تَقَعْنَا قُلُوبًا بِالْأَحَادِيثِ  
وَاشْتَقَّتْ  
وَلَمْ نَحْشَ رَيْبَ الدَّهْرِ فِي  
كُلِّ حَالَةٍ

وقال: الطويل:

تَفَرَّقَ الْأَفُّ الْحَجِيجِ عَلَيَّ  
مِئِي  
فَرِيقَانِ مِنْهُمْ سَالِكِ بَطْنِ  
تَخْلَةٍ  
فَلَمْ أَرِ دَارًا مِثْلَهَا دَارِ غِبْطَةٍ  
أَقْلٌ مَقِيمًا رَاضِيًا بِمَكَانِهِ  
فَأَصْبَحَ لَا تَلْقَى خَبَاءً عَهْدَتُهُ  
فَشَاقُوكَ لَمَّا وَجَّهُوا كُلَّ  
وَجْهَةٍ

وَشَتَّتَهُمْ سَخَطَ النُّوَى مَشِي  
أَرْبَعِ  
وَآخِرُ مِنْهُمْ جَازِعٌ ظَهَرَ تَضْرَعُ  
وَلَهُوَ إِذَا التَفَّ الْحَجِيجَ بِمَجْمَعِ  
وَكَثَّرَ جَارًا ظَاعِنًا لَمْ يُودَعِ  
بِمَضْرِبِهِ أَوْ تَادَهُ لَمْ تُنْزَعِ  
فَبَاثُوا وَخَلُّوا عَنِ مَنَازِلِ بَلْقَعِ

ودخل كثير على عزة يوماً، فقالت: ما ينبغي أن تأذن لك في الجلوس، فقال: ولم ذلك؟ قالت: لأنني رأيت الأحوص ألين جانباً عند الغواني منك في شعره، وأصرع خدّاً للنساء، وأنه الذي يقول: البسيط:

يا أيها اللائمي فيها لأصْرِمَهَا  
أكثر فلست مُطاعاً إذ وشيت  
بها  
ويعجبنى قوله: الطويل:

أدور ولولا أن أرى أم جعفر  
وما كنت زواراً، ولكن ذا  
الهوى  
لقد متعت معروفها أم  
جعفر  
ويعجبنى قوله: البسيط:

كم من دني لها قد كنت  
أتبعه  
لا أستطيع نزعاً عن  
محببتها  
أدعو إلى هجرها قلبي  
فيتعني  
وزادني رغبة في الحب أن  
متعت،  
وقوله: الطويل:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما  
الهوى  
وما العيش إلا ما تلد  
وتشتهي  
وإني لأهواها وأهوى لقاءها

علاقة حب ليج في سنن  
الصبا  
هذان البيتان ألحقهما العُتبي وغيره بشعر الأحوص، وأنشدها أبو بكر بن دريد لأعرابي، فقال كثير: قد والله أجادَ فما استقبحت من قولي؟ قالت: قولك: الطويل:

وكنت إذا ما جئت أجللن  
مجلسي  
يحادرن مني غيره قد  
عرفنها

تراهن إلا أن يخالسن  
نظرة  
كواظم لا يئطقن إلا محورة  
وكن إذا ما قلن شيئاً  
يسرهن

بمؤخر عين أو يقلبن معصما  
رجية قول بعد أن يتفهما  
أسر الرضا في نفسه  
وتحرما

وقولك: الطويل:

وَدِدْتُ وَبَيْتِ اللَّهِ أَنْكَ بَكَرَهُ  
هَجَانُ، وَأَنِي مُصْعَبٌ ثُمَّ  
تَهْرَبُ  
عَلَى حُسْنِهَا جَزْبَاءُ تُعْدِي  
وَأَجْرَبُ

نكون لذي مالٍ كثير  
مَعْقَل

إِذَا مَا وَرَدْنَا مِنْهَا صَاحَ أَهْلُهُ  
عَلَيْنَا فَمَا نَنْفَكُ تُؤْذِي  
وَنُضْرَبُ

وَيَحُكُّ! لَقَدْ أُرِدْتُ بِي الشَّقَاءَ، أَمَا وَجَدْتَ أُمْنِيَةً أَوْطَأَ مِنْ هَذِهِ؟ فَخَرَجَ  
حَجَلًا.

وقد تمّنى بمثل هذه الأُمْنِيَةِ الفرزدق. وأُغْرِبَ مِنْ هَذَا قَوْلُ أَبِي صَخْرٍ  
الَهْدَلِيِّ: الطويل:

تَمَيَّيْتُ مِنْ حُبِّي عُلَيَّةَ أَنَّنَا  
عَلَى رَمَتْ فِي الْبَحْرِ لَيْسَ لَنَا  
وَفُرُّ

عَلَى دَائِمٍ لَا يَعْبرُ الْفَلَكَ  
مَوْجُهُ

فَنَقْضِي هَمَّ النَّفْسِ فِي غَيْرِ  
رُقْبَةٍ

وقيل: الأمل رفيق مؤنس؛ إن لم يُبْلَغْ فقد ألهاك.

وقال مسلم بن الوليد: الطويل:

وَأَكْثَرُ أَفْعَالِ اللَّيَالِي إِسَاءَةٌ  
وَأَكْثَرُ مَا تَلْقَى الْأَمَانِي كَوَادِبًا

وقال آخر: الطويل:

مُنَى إِنْ تَكُنْ حَقًّا تَكُنْ أَحْسَنَ  
الْمُنَى

أَمَانِيٍّ مِنْ لَيْلَى حِسَانُ  
كَأَنَّمَا

وقال آخر: الطويل:

رَفَعْتُ عَنِ الدُّنْيَا الْمُنَى غَيْرِ  
حُبِّهَا

وقيل لأعرابي: ما أمتع لذات الدنيا؟ فقال: مِمَّا زَحَتْهُ الْمَحَبَّةُ، وَمِحَادَثَةُ الصَّدِيقِ، وَأَمَانِي  
تَقَطَّعَ بِهَا أَيَّامُكَ، وَأَنْشَدَ: مجزوء الخفيف:

عَلَّيْنِي بِمَوْعِدٍ  
وَدَعَيْنِي أَفَوْزٌ مِنْ

فَعَسَى يَعْثُرُ الرَّمَامُ  
نَ بَخَطِي فَيَنْتَبِهُ

كثير عزة

وكان كثير بن عبد الرحمن بن أبي جُمُعَةَ الخزاعي - ويعرف بعزّة، على حدّة خاطرِهِ،  
وجوّدة شعرِهِ - أَحْمَقَ النَّاسِ.

دخل عليه نفرٌ من قريش وهو عليل يهزأون به، قال بعضهم: فقلت له: كيف تجدك؟  
قال: بخير، هل سمعتم الناس يقولون شيئاً. فقلت: نعم، سمعتمهم يقولون: إنك

الدجال. فقال: والله لئن قلت ذلك إني لأجد في عيني اليمنى صَعْفًا منذ أيام.

وكان رافضياً يدين بالرجعة، ويقول بإمامة محمد بن الحنفية، والروافض يزعمون أنه

دخل في شِعْب باليمن في أربعين من أصحابه، ولا بدَّ من ظهوره، وفي ذلك يقول:  
الوافر:

أَلَا إِنَّ الْأُمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ  
عَلَيَّ وَالثَّلَاثَةَ مِنْ بَنِيهِ  
قَسِبْتُ سِبْطُ إِيْمَانٍ وَبِرٍ  
وَسِبْطُ لَا يَدُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى  
تَعَيَّبَ لَا يُرَى عَنْهُمْ زَمَانًا  
وَلَاةَ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءٌ  
هُمْ الْأَسْبَابُ لَيْسَ بِهِمْ حَفَاءٌ  
وَسِبْطُ عَيْبُهُ كَرَبَلَاءُ  
يَقُودَ الْحَيْلَ يَقْدُمُهَا اللَّوَاءُ  
بِرَاصِوِي عِنْدَهُ عَسَلُ وَمَاءُ

وكان خلفاء بني أمية يعلمون ذلك منه، وتلبسونه عليه.  
دخل يوماً على عبد الملك بن مروان فقال: نشدتك بحق علي بن أبي طالب، هل رأيت  
أعشق منك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لو سألتني بحقك لأخبرتك، نعم، بينما أنا أسير  
في بعض القلوات إذا أنا برجل قد تصب حباله، فقلت له: ما أجلسك هاهنا؟ قال:  
أهلكني وأهلي الجوع، فنصبت حبالتي لأصيب لهم ولنفسي ما يكفيننا سحابة يوماً،  
قلت: أرايت إن أقممت معك فأصبتنا صيدا، أتجعل لي منه جزءاً؟ قال: نعم، فبينما نحن  
كذلك إذ وقعت طيبة، فخرجنا مُتدربين، فأسرع إليها فحلبها وأطلقها؛ فقلت: ما حملك  
على هذا؟ قال: دخلتني لها رقة لشبهها بليلى، وأنشأ يقول: الطويل:

أَيَا شِبْهَةَ لَيْلَى لَا تُرَاعِي  
فَأَتَنِي  
لَكَ الْيَوْمَ مِنْ وَخْشِيَّةٍ  
لَصَدِيقُ

أقول وقد أطلقتها من وثاقها لأنت  
ليلي ما حبيت طليق

وروى الكلبي وابن داب أنه لما حلبها قال: الخفيف:

أَذْهَبِي فِي كِلَاءَةِ الرَّحْمَنِ  
لَا تَخَافِي بَأْنَ تُهَاجِي بِسَوْءٍ  
أَنْتِ مَنِي فِي ذِمَّةٍ وَأَمَانٍ  
مَا تَعْتَى الْحَمَامَ فِي الْأَغْصَانِ

ترهيني والجيدُ منك ليلَى  
وقال قيس بن الملوح: الكامل:

لَأَرَى تَصَيِّدَهَا عَلَيَّ حَرَامًا  
فَأَرَى عَلَيَّ لَهَا بِذَاكَ ذِمَامًا  
أَوْ أَنْ يَدْفَنَ عَلَيَّ يَدَيَّ حِمَامًا  
وَسَوَالِفًا  
أَعَزُّ عَلَيَّ بَأْنَ أُرُوعَ شَبِيهَا

ومن جيد شعر كثير: الطويل:

وَكَانَتْ لِقَطْعِ الْحَبْلِ بَيْنِي  
وَبَيْنَهَا

فَقُلْتُ لَهَا: يَا عَزُّ، كُلُّ مُصِيبَةٍ  
إِذَا وُطِئَتْ يَوْمًا لَهَا التَّفْسُ  
دَلَّتْ

وَلَمْ يَلْقَ إِنْسَانٌ مِنَ الْحَبِّ  
مَيْعَةً

أَبَاحَتْ حِمَى لَمْ يَزَعَهُ النَّاسُ  
قَبْلَهَا

هَنِيئًا مَرِيئًا عَيْرَ دَاءٍ مُخَامِرٍ  
لَعْرَةً مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا  
اسْتَحَلَّتْ

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا  
مَلُومَةٌ  
لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتْ

ووالله ما قاربْتُ إلاَّ  
تباعدتُ  
بهَجْرٍ، ولا استكثرتُ إلاَّ  
أقلتُ  
وما مرَّ من يومٍ عليَّ كيومها  
فيا عجباً للقلْبِ كيف  
اعترافه  
وإني وتَهيامي بعزَّةٍ بعدما  
لكالمرتجِي ظلَّ العمامة،  
كلما

وكان كثير قصيراً دميماً، ولذلك قال: الطويل:

فإنَّ أكَ معروقِ العِظامِ  
فإنني  
إذا ما وَرَنتُ القومَ بالقومِ  
وَازِنُ

ودخل كثير على عبد الملك بن مروان في أول خلافته، فقال: أنت كثير؟ فقال: نعم، فافتحتمه، وقال: تَسْمَعُ بالمعدي لا أن تراه؛ فقال: يا أمير المؤمنين، كلُّ إنسان عند محله رَحْبُ الفِئَاءِ، شامخُ البِئَاءِ، عَالِي السِّئَاءِ، وأنشد يقول: الوافر:

تري الرجل النحيفَ فتزدرِبه  
ويُعجِبُكَ الطَّيرُ إذا تراهُ  
بُعَاثُ الطَّيرِ أطولها رِقَاباً  
حَشَاشُ الطَّيرِ أكثرها فِرَاحاً  
ضِعَافُ الأَسَدِ أكثرها زَبيراً  
وقد عَظَمَ البعيرُ بغير لَبِ  
يُبَوِّحُ ثم يُصْرَبُ بالهَرَاوِي  
يُقَوِّدُهُ الصَّبِيُّ بكلِّ أَرْضِ  
فما عَظَمَ الرجالُ لهم بَزْرِينِ  
فقال: قاتله الله! ما أطولَ لسائته، وأمدَّ عِئانته، وأوسعَ جَنانته؛ إني لأحسبه  
كما وصف نفسه.

في الطول والقصر

وأنشد أحمد بن عبيد الله الشاعر قديم: الطويل:

وعاذلةٍ هَبَّتْ بليلاً تَلُومُنِي  
تقول: اتنَّدُ لا يدْعُكَ الناسُ  
مُمْلِقاً  
فقلتُ: أبَتَّ نفسِ عليَّ  
كريمةً  
ألم تعلمي يا عَمْرِكِ اللهُ  
أنني  
وأنبي لا أحرَى إذا قيل  
مُمْلِقِ  
فلا تَتَّبِعِي النفسَ الغويةَ  
وانظري  
ولا تَدَّهَبِي عيناك في كل  
ولم يغتمرني قَبْلَ ذاكِ  
عَدُولُ  
وئزري بمنْ يا ابنَ الكرامِ  
تَعُولُ؟  
وطارقُ ليل عند ذاكِ يَقُولُ  
كريمُ على حين الكرامِ  
قليلُ  
سَخِي، وأحرَى أن يُقالَ  
بخيلُ  
إلى عُصْرِ الأحسابِ كيف  
يَؤُولُ  
له قَصَبُ جُوفِ العِظامِ

شَرَمَحٌ  
عسى أن تَمَنَى عرسه أنني  
لها  
إذا كنتُ في القوم الطوال  
فطُلْتُهُمْ  
ولا خَيْرَ في حُسْنِ الجسوم  
وطولها  
فكائنُ رأينا من فروع  
طويلة  
فإلَّا يَكُنْ جِسمي طويلاً  
فإنني  
ولم أَرُ كالمعروفِ: أمَّا  
مَذَافُه  
وقال ابن الرومي: الخفيف:  
وتَصِيفُ من الرجال نحيفٍ  
في أناسٍ أوتوا حلومَ  
العصافي  
أخذه من قول حسان بن ثابت؟ وقال له بنو  
بأجسامنا على العرب حتى قلت: البسيط:  
دَعُوا النَّحَاجُوْ وَامشوا مشيةً  
سجاً  
لا بأسَ بالقومِ من طولِ  
ومن عِظَمِ  
فتركنا لا نرى أجسامنا شيئاً.  
والعربُ تمدح الطول، وتثني عليه، وقال عنتره بن شداد: الكامل:  
يُحَدِّدِي نِعَالِ السَّبْتِ لَيْسَ  
بِتَوَامٍ  
قوله: ليس بتوأم يريد ليس ممن زوحم في الرَّحْمِ فضعف، كما قال الشعبي، وقد  
دخل على عبد الملك بن مروان، فجعل ينظرُ إليه، وكان الشعبي قد وُلِدَ توأماً مع أخيه،  
فكان نحيفاً، فقال: يا أمير المؤمنين، إنني رُوحمت في الرحم، وقال: الطويل:  
ولمَّا التقى الصَّفَّانِ واختلف  
القَتَا  
تبين لي أنَّ القمَاءَةَ ذِلَّةٌ  
وقال أبو نواس: الطويل:  
وكنا إذا ما الحائنُ الجَدُّ  
غَرَّةٌ  
تردَّى له الفضلُ بن يحيى بن  
خالدٍ  
أمام خميس أرجوانٍ كأنه  
ومن هذا البيت أخذ أبو الطيب المتنبي قوله: المتقارب:  
ولكنه بالقنا مخمل

رجع إلى كثير عزة  
ودخل كثير على عبد العزيز بن مروان وهو غليل، وأهله يتمنون أن يتبسّم، فقال: لولا  
أن سرورك لا يتمّ بأن تسلم وأسقم لدعوت الله أن يصرف ما بك إلي، ولكنني أسأل  
الله أيها الأمير العافية لك ولي في كتفك؛ فضحك وأمر له بمال فخرج وهو يقول:  
الكامل:

ونعودُ سيدنا وسيدِّ غيرنا      ليت التشكّي كانَ بالعُوادِ  
لو كان تُقبَلُ فِدْيَةُ لِفديتهُ      بالمصطَفى من طارِفي  
وتلّادي

قال محمد بن سلام الجمحي: قال أبي: ذكرتُ مروان بن أبي حفصة شِعَرَ جبر  
والفرزدق وكثير، فذهب إلى تقديم كثير، وجعل يُطربُه ويقول: هو أمدحهم للخلفاء،  
فقلت: أمِنْ جودة مدحه للخلفاء قوله لعبد الملك بن مروان: الطويل:

تري ابنَ أبي العاصي وقد      ثمانون ألفاً قد تَوَاقَتْ  
صُفِّ دونهُ      كمولها

يقَلب عيني حية بمقارّة      إذا أمكنته شدّة لا يُقيلها؟

فقال هذا للخليفة ودونه ثمانون ألفاً، وجعله يقلب عيني حية.  
وقوله: الطويل:

وإن أمير المؤمنين هو الذي      عَزَا كامناتِ الودِّ مني فنالها  
زعم أن أمير المؤمنين استعطفه حتى عَزَا كامناتِ صدّره.  
وقوله لعبد العزيز بن مروان: الوافر:

وما زالتْ رُقاكَ تُسَلُّ ضِغني      وتُخْرِجُ من مَكّامها ضِبابي  
ويَرْقيني لكِ الحاؤون حتى      أجابك حَيّة تحت الحجابِ

زعم أن عبد العزيز ترصّاه، واحتال له ورقاه، حتى أجابه؛ أكّداً تُمدح الملوك؟  
فأسكتته.

فصول قصار

من كان له من نفسه واعظ، كان من الله عليه حافظ. العبد حرٌّ إذا قنع،  
والحرُّ عبدٌ إذا طمع. الأمانى تحذعك، وعند الحقائق تدعك. إذا كان الطمعُ  
هلاكا، كان اليأسُ إدراكاً. ليس يُعدُّ حكيماً، من لم يكن لنفسه حصيماً. تعرّ  
عن الشيء إذا مُنِعته، بقلة ما يصحبك إذا مُنحتّه. تجرّع مَصَص الصبر تطفئ  
نار الضر. الحكمة حفظ ما كلفت، وتترك ما كفيت. الصبر عن محارم الله،  
أيسر من الصبر على عذاب الله.

شذور لأهل الصرّ في معانٍ شتى

قطعة من كلام الأمير قابوس بن وشمكير شمس المعالي في أثناء رسائله:  
برّند الشفيع ثوري نار النجاح، ومن كفّ المفيض يُنتظر فوز القِداح، الوسائل  
أقدام ذوي الحاجات، والشفاعات مفاتيح الطلبات. العفو عن المجرم من  
موجبات الكرم، وقبول المعذرة من محاسن الشيم. وبالقوادم والخوافي  
قوة النجاح، وبالأستة والعوالي عمل الرماح. الدنيا دار تغير وخذاع،  
وملتقى ساعة لوداع، والناس مُتصرفون بين كلِّ ورد وصدّر، وصائرون خبراً  
بعد أثر. غاية كل متحرك إلى سكون، ونهاية كل متكون ألا يكون، وآخر  
الأحياء فناء والجزع على الأموات عتاء، وإذا كان ذلك كذلك، فلم التهاك  
على الهالك؟ جشؤ الدهر أحزان وهموم، وصفوه من غير كدر معدوم. إذا  
سمح الدهر بالجباء، فأبشر بوشك الانقضاء، وإذا أعار، فاحسبه قد أعار.  
الدهر طعمان؛ حلو ومر، والأيام ضربان؛ عُسر ويسر. لكل شيء غاية  
ومنتهى، وانقطاع وإن بلغ المدى. تزك الجواب، داعية الارتباب، والحاجة

إلى الاقتضاء، كسوف في وجه الرجاء. هم المنتظر للجواب ثقيل، والمدى فيه وإن كان قصيراً طويلاً. النجيب إذا جرى لم يشق غباره، وإذا سرى لم تلحق آثاره. ومن أين للضباب صوب السحاب، وللغراب هوي العقاب، وهيهات أن يكتسب الأرض لطافة الهواء، ويصير البدر كالشمس في الضياء. شمس المعالي ابن وشمكير

وقد ترجم عن شمس المعالي أبو منصور الثعالبي في كتاب ألفه له؛ قال في أوله: أما على أثر حمد الله الذي هو أول كتابه، وأخر دعوى ساكني دار توابه، والصلاة على خيرته من بريته، وعلى الصفة من ذريته، فإن خير الكلام ما شغل بخدمة من جمع الله له عزة الملك إلى بسطة العلم، ونور الحكمة إلى نفوذ الحكم، وجعله مميّزاً على ملوك العصر، ومدبّر الأرض وولاة الأمر، بخصائص من العدل، وجلال من الفضل، ودقائق من الكرم المحض، لا يدخل أيسرها تحت العادات، ولا يدرك ألقها بالعبارات؛ ومحاسن بيبر الأتام، تحرسها أسنة الأقالم، وتدرسها السنة الليالي والأيام، وهذه صفة تُغني عن تشبيه الموصوف لاختصاصه بمعناها، واستحقاقه إياها، واستثاره على جميع الملوك بها، ولعلم سامعها ببديهة السماع أنها للأمير، شمس المعالي، خالصة وعليه مقصورة، وبه لائق، وعن غيره تافرة؛ إذ هو - بمعاينة الآثار، وشهادة الأخبار، وإجماع الأولياء، واتفاق الأعداء - كافل المجد، وكافي الخلق، وواحد الدهر، وعرة الدنيا، ومفرع الوري، وحسنه العالم، ونكتة القلق الدائر؛ فيلغى الله أقصى نهاية العمر، كما بلغه أقصى غاية الفخر؛ وملكه أزمنة الأمر، كلما ملكه أئمة الفضل؛ وأدام حُسن النظر للعباد والبلاد، بإدامة أيامه التي هي أعياد الدهر، ومواسم البُمن والأمن، ومطالع الخير والسعد، وزاد دولته شباباً ونموّاً، كما زاده في الشرف علواً، حتى تكون السعادات وفدّ بابه، والبشائر فرى سمعه، والمسار غداء نفسه، وبتراعى به الإقبال إلى حيث لا يبلغه أمل، ولا يقطعُه أجل.

تخا في قوله: وهذه صفة تُغني عن الموصوف إلى قول أبي الطيب يَرثي أخت سيف الدولة: البسيط:

يا أختَ حَيرٍ أخٍ يا بنتَ حَيرٍ      كنايةً بهما عن أشرفِ  
أب      التَّسبِ  
أجلُ قَدْرِكَ أن تُسمِّيَ مُوثَنَةً      ومَنْ دَعَاكَ فَقَدْ سَمَاكَ  
لِلعَرَبِ

ومن شمس المعالي يقول الأمير أبو الفضل الميكالي: الرجز:

لا تَعْصِيَنَّ شَمْسَ العُلا      فمن عَصَى قابوسَ لاقى  
قابوساً

وله يقولُ بديعُ الزمان في قصيدة نظمها في تضاعيف رسالة موشحة:  
الخفيف:

إن مَنْ كنت من مُناه      وتعدّاك سيءُ الاقتراح  
بمَرأى      وقَبولٍ يُعيد ريشَ جناحي  
بين بِشَرٍ يَرُدُّ غائِضَ جاهي      س به وادرعتُ بُرد النجاجِ  
وبساطٍ وَرَدْتُ مَشْرَعَةَ الأن      في نظام من النُهَى وتَصاحِ  
فأفُض أُوطاراً التَّقْتُ      والمَعالي  
ملكٌ دُوته تقطَعُ أبصا      ر الليالي يَوْمًا تَدَى وكِفَاحِ  
ملكٌ لو يشاءُ مَد على النَّج      م رِواقاً وَرَدَّ وفَدَّ الرِّياحِ  
تارَةً في حُشوتَةِ الدَّهْرِ تَلقا      ه وطوراً في حُسنِ ذاتِ  
ملكٌ كلِّما بَدَا نَقْفُ الأف      الوِشاحِ  
لاك عُجباً به وَقَرَطَ اِرْتِياحِ

هكذا هكذا تكون المعالي طُرُقُ الجدِّ عَيْرُ طُرُقِ المزاجِ

وهي طويلة، كتبتها على طريق الاختيار. رقة ليدع الزمان إلى شمس المعالي، وقد ورد حضرته: لم تَزَلِ الآمالُ - أطال الله بقاء الأمير السيد شمس المعالي، وأدام سلطانه - تَعُدُّني هذا اليوم، والأيامُ تمطلني بالسنة صروفها، على اختلاف صنوفها، بين حُلُوِ استرقني، ومرِّ استخفني، وشَرِّ صار إلي، وخير صيرت إليه، وأنا في خلال هذه الأحوال أذرعُ الأفاق فأكون طورا مشرقا للمشرق الأقصى، وطورا مغربا للمغرب، ولا مطمح إلا حضرته الرفيعة، وسُدُّته المربعة، ولا وسيلة إلا المنزِع السَّاسِع، والأمل الواسع؛ وقد صرت - أطال الله بقاء الأمير مولانا - بين أنياب النوائب، وتجنَّمت هَوْلُ الموارد، وركبت أكتاف المكاره، ورضعتُ أخلاق العوائق، ومسحت أطراف المراحل، حتى حضرت الحَصْرَة البهيبة أو كدث، وبلغت الأمانة أو زدت، وللأمير السيد في الإصغاء إلى المجد، والبسط من عنان الفضل، بتمكين خادمه من المجلس يلقاه بقدمه، والبساط يلثمه بفمه، تفضله، فله الرأي العالي إن شاء الله.

وله إلى بعض الرؤساء وقد وعد بحضور مجلسه بالغداة وأمره أن يزف إليه ما أنشأه، فبعث به وكتب إليه: مَرَحَباً بسلام الشيخ سيدي ومولاي أطال الله بقاءه، ولا كالمَرَحِبِ يطلِّعته؛ وقد وصلت تحيته فشكرتها، وعِدُّته الجميلة بالحضور غدا فانتظرتها؛ ودعوتُ الله أن يطوي ساعات النهار، ويزجج الشمس في المغار، ويُقرَّب مسافة القلِّك الدَّوار، ويترقِّع البركة من سيره، ويجهز الحركة إلى دوره؛ ويُسيِّرني بوقدِ الظلام وقد نزل، ثم لم يلبث إلا ريثما رحل؛ وقد بعثت بما طلب سمعا لأمره وطاعة، والنسخة أسقم من أجفان العُصبان، والشيخ سيدي - أدام الله عزه - يُركِّض قلمه في إصلاحها، وحبذا هو في غدٍ، وقد طلع كالصبح إذا سطع، والبرق إذا لمع: الكامل:

يا مرحباً بَعْدٍ ويا أهلاً به إن كان إماماً الأحياء في غدٍ

وله إلى أبي الطيب سهل بن محمد يسأله أن يصله بأبي إبراهيم إسماعيل بن أحمد:

لو كان للكرم عن جناب الشيخ مُنصَرَفٌ لَانصَرَفْتُ، أو للأمل مُنحَرَفٌ إلى سواه نُحَرَفْتُ، أو للنجح يابٌ سواه لَوَلَجْتُ، أو للفضل خاطبٌ غيره لزوجت، ولكن أبي الله أن يعقد إلا عليه الخنصر، أو يتحلى إلا بفواضله الدهر، ولا يزال كذا يتسيم المجدُ بسيمته، ويجذب العلاء بهمته، ويُسعِدُ الدينَ بنظره، والدنيا بجماله، وغلامه أنا لو استعار الدهر لسانا، واتخذ الريح ترجمانا، ليُشيع إنعامه حق الإشاعة، لقصرت به يدُ الاستطاعة، فليس إلا أن يلبس مكارمه صافيةً سابعة، ويرد مشارعه صافيةً سائغة، ويحيل الجزاء على يد قصور، والشكر على لسان قصير؛ ثم إن حاجاتي، إذا لم يعر من قلائد المجد نخرها، ولم يعطل من حلي المجد صدرها، كبر مهزها، وعجز كفوها، ولم أجد لها إلا واحداً أحصر الجلد في بيت العرب، أو ماجداً يملأ الدلو إلى عقد الكرب. وهذه حاجة أنا أزفها إلى الشيخ الإمام حرص الله مهجته، وأسوقها منظومة من الصدر إلى العجز، كما يساق الماء إلى الأرض الجُرْز؛ وأنا من مفتِّح اليوم إلى مختيمه، ومن قرن النهار إلى قديمه، قاعد كالكركي، أو الديك الهندي، في هذا الأذجي، يمر بي أولو الحل والحل، ويجتاز ذوو الخيل والحول، وما أنا والنظر إلى ما لا يليني، والسؤال عما لا يعينني، واليوم، لما افتضنا غدرة الصباح، ملأ جفوني من منظر ما أحوجه إلى عيب يصرف عيني كماله، عن جماله، فقلت لمن حضر: مَنْ هذا؟ فأخذوا يحرِّكون الرؤوسَ استظرافاً لحالي، ويتغامزون تعجباً من سؤالي، وقالوا: هذا الشيخ الفاضل أبو إبراهيم إسماعيل بن أحمد، فقلت: حرس الله مهجته، وأدام غبطته؛ فكيف الوصول إلى خدمته، وأنى مآتى معرفته؟ قالوا: إن الشيخ الإمام - أدام الله تأييده - يضرب في مودته بالقدح المَعلى، ويأخذ

في معرفته بالحظ الأعلى، فإن رأى الشيخ - أطال الله بقاءه - أن تُجَعَلَ  
 عنايته حَرْفَ الصلّة، وتفضّله لآمَ المعْرِقَة، فَعَلَّ، إن شاء الله.  
 البرامكة  
 قال الرشيد ليحيى بن خالد: يا أبتِ، إنني أردتُ أن أجعل الخاتم الذي في  
 يد الفضل إلى جعفر، وقد احتشمت منه فإكفنيه.  
 فكتب إليه يحيى: قد أمر أمير المؤمنين - أعلى الله أمره - أن يحول  
 الخاتم من يمينك إلى شمالك.  
 فأجاب الفضل: قد سمعتُ ما قاله أمير المؤمنين في أخي، وقد اطلعت  
 على أمره، وما انقلبتُ عني نعمةً صارت إليه، ولا عَرَبت عني رتبة طلعت  
 عليه.  
 فقال جعفر: لله أخي! ما أنقَسَ نفسه، وأبَيَنَ دلائل الفضل عليه، وأقوى  
 مُتَّة العَقْل فيه، وأوسع في البلاغة دَرْعَه، وأزحَبَ بها جنابه. يُوجب على  
 نفسه ما يجب له، ويَحْمِلُ بكرمه فوق طاقته.  
 وذكّر جعفرُ بن يحيى في مجلسِ ثُمَامَةَ بن أشرس فقال: ما رأيتُ أحداً  
 من خَلْقِ الله كان أَبَسَطَ لساناً، ولا أَلَحَنَ بحجّة، ولا أقدر على كلام، بَنَظَمَ  
 حَسَنَ، وألفاظٍ عذبة، ومَنطوقٍ فصيح، من جعفر بن يحيى، كان لا يتوقف،  
 ولا يَتَحَسِسُ، ولا يَصِلُ كلامه بِحَشْوٍ من الكلام، ولا يُعِيدُ لفظاً ولا معنى، ولا  
 يَخْرُجُ من فنِّ إلي غيره، حتى يبلغَ آخرَ ما فيه؛ وكان لا يرى شيئاً إلا حكاه،  
 ولا يَحْكِي شيئاً إلا كان أكثر منه، ولا يَمُرُّ بذهنه شيء إلا حفظه، وكان إذا  
 شاء أضحك التكلّي، وأذهل الزاهد، وخشّن قلبَ العابد.  
 قلت: فكيف كانت معرفته؟ قال: كان من أعلم الناس بالخبر الباهر،  
 والشعر النادر، والمثل السائر، والفصاحة التامة، واللسان البسيط.  
 قال سهل بن هارون، وذكر يحيى بن خالد وابنه جعفرًا، فقال: لو كان  
 الكلام مُنصَوِّراً دُرّاً، ويُلقِيه المنطق جَوْهَراً، لكان كلامَهُمَا، والمنتقى من  
 ألفاظهما. ولقد عَبَّرتَ معهما، وأدركتَ طبقة المتكلمين في أيامهما، وهم  
 يَرَوْنَ البلاغة لم تُسْتَكْمَلْ إلا فيهما، ولم تكن مقصورةً إلا عليهما، ولا  
 انقادت إلا لهما. وإنهما للبابُ الكرم، عِنَقَ منظر، وجودة مَحْبِر، وسهولة  
 لفظ، وجزالة منطوق، ونزاهة نفس، وكمال خصال؛ حتى لو فأخرت الدنيا  
 بقليل أيامهما، والماثور من خصائصها جميع أيام مَن سواهما من لَدُنْ آدم  
 إلى أن يُنْفَخَ في الصور، ويبعث أهل القبور - حاشا أنبياء الله الكرام،  
 وسلف عباده الصالحين - لما باهت إلا بهما، ولا عَوَلت في الفخر إلا  
 عليهما، ولقد كنا - مع تهذيب أخلاقهما، ومَعَسُولِ مَدَاقهما، وسنا  
 إشراقهما، وكمال الخير فيهما - في محاسن المأمون كالنقطة في البحر،  
 والحرَدَلِ في القَفْرِ.  
 ووقع جعفرُ بن يحيى لرجو اعتذر عنده من ذنب: قد قدمتُ طاعتك،  
 وظهرت نصيحتك، ولا تغلب سيئة حسنتين.  
 ووَاقِعَ - وقد قرأ كتاباً فاستحسن خطه -: الخَطُّ حَيْطُ الحِكْمَةِ، يُنظَمُ فيه  
 منثورها، ويفصل فيه شدوؤها.  
 واختصم رجلان بحضرته، فقال لأحدهما: أنت خَلِيٌّ، وهذا سَجِيٌّ؛ فكلامك  
 يَجْرِي على بَرْدِ العافية، وجوابه يَجْرِي على حَرِّ المصيبة.  
 ودخل مروان بن أبي حفصة على جعفر بن يحيى فأنشده: الطويل:  
 ابرُ فما تَرَجُّو الجيادُ لحاقه أبو الفضل سَبَّاقُ الأضاميم

جَعْفَرُ

وزيرُ إذا ناب الخلافةَ حادِثٌ  
فقال جعفر: أنشدني مرثيتك في مَعْنِ بن زائدة، فَأُنْسِدَهُ: الوافر:  
أشار بما عنه الخلافةُ تَصُدُّرُ  
أَقْمَنَّا بِالْإِمَامَةِ أَوْ تَسِينَا  
مقاماً ما تُريدُ به رَوالا  
وقلنا: أينَ نذهبُ بعد مَعْنِ  
وقد ذهب التَّوَالُ فلا تَوَوالا؟  
وكان الناسُ كلُّهم لَمَعْنِإلى أن زار  
حُفَرَتَهُ عِيالاً

حتى فرغ من القصيدة، وجعفر يُرْبِيل دموعه على خديه، فقال: هل أثابك على هذه  
المرثية أحدٌ من أهل بيته وولده؟ قال: لا، قال: فلو كان معن حياً، ثم سمعها منك، كم  
كان يُثْنِيك عليها؟ قال: أربعمائة دينار، قال: فإتما كُتِّبَ نَظْمٌ أَنَّهُ لَا يَرِضِي لَكَ بِذَلِكَ، وَقَدْ  
أمرنا لك عِن مَعْنِ - رحمه الله - بالضعف مما ظننته، وزدناك مثل ذلك؛ فأقبض من  
الخازن ألفاً وستمائة دينار قبل أن تخرج، فقال مروان - يذكر جعفرأ وما سمح به عن  
معن -: الوافر:

تَفَحَّتْ مُكَافِئاً عَنِ جُودِ مَعْنِ  
فَعَجَلَتْ الْعَطِيَّةُ يَا ابْنَ يَحْيَى  
لنا فيما تَجُودُ به سِجَالاً  
لِنادِيهِ وَلَمْ تُرِدِ الْمِطَالَ  
بَأَجُودِ رَاحَةٍ بَدَلَتْ تَوَالاً  
بَنَاءً فِي الْمَكَارِمِ لَنْ يُنَالَا  
تَجُودُ به يَدَاهُ يُفِيدُ مَالاً  
كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

أخذ هذا من قول زهير: الطويل:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً  
وهذا البيت لزهير من قصيدة يقول فيها:

وَذِي نِعْمَةٍ تَمَّمْتَهَا  
وَشَكَرْتَهَا

دَفَعْتُ بِمَعْرُوفٍ مِنَ الْحَقِّ  
صَائِبٌ

وَذِي خَطَلٍ فِي الْقَوْلِ  
يَجْهَسُ أَنَّهُ

عَبَأْتُ لَهُ حِلْمًا، وَأَكْرَمْتُ  
غَيْرَهُ

وَأَبْيَضَ فَيَاضِ يَدَاهُ عَمَامَةٌ  
عَدَوْتُ عَلَيْهِ عَدْوَةً فَرَأَيْتُهُ

يُقَدِّبُهُ طَوْرًا، وَطَوْرًا  
يَلْمُنُهُ

فَأَعْرَضَنَ عَنْهُ عَنِ كَرِيمِ  
مُرَّرًا

جَمُوحِ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ  
فَاعِلُهُ

أَجِي ثِقَّةً لَا يُذْهِبُ الْخَمْرُ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُذْهِبُ الْمَالَ نَائِلُهُ  
قال أبو الفرج قُدامَةُ بن جعفر، في معنى أبيات زهير الأولى: لما كانت فضائلُ الناسِ  
من حيث هم ناس، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان، على ما عليه

أهلُّ الألباب من الاتفاق في ذلك، إنما هي العقلُ والعفةُ والعَدْلُ والشجاعة، كان  
القاصد للمدح بهذه الأربعة مُصَيِّباً، وبما سواها مخطئاً؛ وقد قال زهير:  
أخي ثقة لا يُتْلَفُ الخمرُ مالهٌ ولكنه قد يُهْلِكُ المالَ نائلُهُ  
فوصفه بالعفة لقلّة إمعانه في اللذات، وأنه لا يُتْعَدُ فيها ماله، وبالسخاء لإهلاك ماله  
في النوال، وانحرافه إلى ذلك عن اللذات، وذلك هو العدل، ثم قال:  
تراه إذا ما جئتُه مُتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ  
فزاد في وَصْفِ السخاء بأنه يَهْش ولا يلحقه مَضَض ولا تَكَرُّهُ لِفَعْلِهِ ثم قال:  
قَمَنْ مِثْلُ حِصْنٍ فِي الْحُرُوبِ لِإِنْكَارِ ضَيْمٍ أَوْ لِأَمْرِ يُحَاوِلُهُ  
وَمِثْلُهُ

فأتى في هذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة والعقل؛ فاستوفى ضروب المدح  
الأربعة، التي هي فضائل الإنسان على الحقيقة، وزاد الوفاء، وإن كان داخلًا في  
الأربعة؛ فكثير من الناس لا يعلم وَجْهَ دخوله فيها حيث قال: أخي ثقة فوصفه بالوفاء؛  
والوفاء داخل في هذه الفضائل التي قدّمناها.

وقد يتفنن الشعراء فيعدّون أنواع الفضائل الأربع وأقسامها، وكلّ ذلك داخل في  
جملتها؛ مثل أن يذكروا ثِقَابَةَ المعرفة، والحياء، والبيان، والسياسة، والصدع بالحجة،  
والعلم، والحلم عن سفاهة الجَهْلَةِ؛ وغير ذلك ممّا يَجْرِي هذا المجرى، وهو من أقسام  
العقل. وكذكّرهم القناعة، وقلّة الشّيرة، وطهارة الإزار؛ وغير ذلك أيضاً من أقسام  
العفة. وكذكّرهم الحماية، والأخذ بالتأثر، والدفاع، والنكايّة، والمهابة، وقنل الأقران،  
والسير في المَهَامِه والفقار؛ وما يشاكل ذلك، وهو من أقسام الشجاعة؛ وكذكّرهم  
السماحة، والتغابن، والانظام، والتبرّع بالنائل، وإجابة السائل وقري الأضياف؛ وما  
جانس هذه الأشياء، وهو من أقسام العدل.

فأمّا تركيب بعضها على بعض فتحدث منها ستة أقسام: يحدث من تركيب العقل مع  
الشجاعة: الصبر على الملمات، ونوازل الخطوب، والوفاء بالوعود. وعن تركيب العقل  
مع السخاء: إنجاز الوعد، وما أشبه ذلك. وعن تركيب العقل مع العفة: التنزه والرغبة  
عن المسألة، والاقتصار على أدنى معيشة، وما أشبه ذلك. وعن تركيب الشجاعة مع  
السخاء: الإخلاف، والإتلاف، وما أشبه ذلك. وعن تركيب الشجاعة مع العفة: إنكار  
الفواحش، والغيرة على الحرّم. ومن السخاء مع العفة: الإسعاف بالقوت، والإيثار على  
النفس، وما شاكل ذلك. وكل واحدة من هذه الفضائل الأربع وَسَط بين طرفين  
مذمومين.

وقد قال أبو جعفر محمد بن منذر لما حجّ الرشيد مع البرامكة: الطويل:

أَنَا بَنُو الْأَمْلَاقِ مِنْ آلِ	فِيَا طَيْبِ أَحْبَارٍ، وَبِأَحْسَنِ
بَرَمِكِ	مَنْظِرِ
لَهُمْ رَحْلَةٌ فِي كُلِّ عَامٍ إِلَى	وَأُخْرَى إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ
الْعِدَا	الْمُشَهَّرِ
فَتُظْلِمُ بَغْدَادَ، وَيَجْلُو لَنَا	بِمَكَّةَ مَا حَجَّوْا ثَلَاثَةَ أَقْمَرِ
الدُّجَى	بِيَحْيَى وَبِالْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى
إِذَا نَزَلُوا بِطَحَاءِ مَكَّةَ	وَجَعْفَرِ
أَشْرَقَتْ	وَأَقْدَامُهُمْ إِلَّا لِأَغْوَادِ مَنْبَرِ
فَمَا خُلِقَتْ إِلَّا لَجُودِ أَكْفُهُمْ	وَحَسْبُكَ مِنْ رَاعٍ لَهُ وَمَدْبِرِ
إِذَا رَاضَ يَحْيَى الْأَمْرَ دَلَّتْ	صِعَابُهُ
تَرَى النَّاسَ إِجْلَالاً لَهُ	عَرَانِيْقُ مَاءٍ تَحْتَ بَارِ
وَكَانَهُمْ	مُضْرَصِرِ
مَذْهَبِ التَّجْنِيسِ فِي الْعَزْلِ	

قطعة من شعر الأمير أبي الفضل الميكالي في طَرَفٍ أخذ بطرف من التجنيس  
مستطرف في ضروب من الغزل، قال: الطويل:

لقد راعني بَحْرُ الدُّجَى  
بِضُدُّودِهِ  
فيا جَرَّعِي، مَهْلًا عَسَاهُ يَعُودُ  
لي  
وقال: الطويل:

مواعيده في الفِضْلِ أحلامُ  
نائم

فَمَنْ لِي بَوَجْهِ لَوْ تَحَيَّرَ فِي  
الدُّجَى  
وقال: الخفيف:

صِلْ مَحَبًّا أَعْيَاهُ وَصَفْ هَوَاهُ  
كَلَّمَا رَاقَهُ سِوَاكَ تَصَدَّتْ  
وقال: السريع:

يا ذا الذي أرسل من طَرَفِهِ  
شِفَاءً نَفْسِي مِنْكَ تَحْمِيشُهُ  
وقال: الكامل:

يا مُبْتَلَى بِضَنَاهُ يَرْجُو رَحْمَةً  
أَوْصَاكَ سِحْرُ جَفُونِهِ بِتَسْهُدِ  
أَصْبِرْ عَلَى مَصَّضِ الْهَوَى  
فَلَرَبَّمَا  
وقال: الوافر:

كَتَبْتُ إِلَيْهِ أَسْتَهْدِي وَصَالًا  
أَلَا لَيْتَ الْجَوَابَ يَكُونُ خَيْرًا

وقال: الكامل:

إِنْ كُنْتَ تَأْتِسُ بِالْحَبِيبِ  
وَقَرِيبِهِ  
إِنْ الرَّقِيبَ إِذَا صَبَرْتَ  
لِحُكْمِهِ  
وقال: الطويل:

شَكُوتُ إِلَيْهِ مَا أَلَا قِي فَقَالَ  
لِي:  
فَلَوْ كَانَ حَقًّا مَا ادَّعَيْتَ مِنْ  
الْهَوَى  
وقال: الوافر:

تَوَى لِي بَعْدَ إِكْثَارِ السُّؤَالِ  
فَلَمَّا رُمْتُ إِجْزَاءَ لَوْعَدِي  
وَكَانَ الْقُرْبُ مِنْهُ شِفَاءً  
حَبِيبٌ أَنْ يُسَامِحَ بِالنَّوَالِ  
عَلَيْهِ أَبِي الْوَفَاءِ بِمَا تَوَى لِي  
فَقَدْ قَضَتْ النِّوَانُ بِاللَّوَى

لي	نفسى وقال: البسيط:
ونحنُ نحكي عناقاً شكل تُؤين فستهمُ هجرك ترمي ثم تؤيني	سقياً لدهرٍ مصى والوصلُ يجمَعُنَا فصرْتُ إذ عَلِقْتُ كفي حَبَائِلِكُمْ وقال: مجزوء الكامل:
فجعاً رُقادي إذ صدفُ أضحى لها جفني صدفُ	صدفَ الحبيبِ بوصله ونثرت لؤلؤ أدمع وقال: الكامل:
ويَسُوْمُني التعذيبَ في تهذيبه لعجزت عن تهذيب ما تهذي به	يا مَنْ يقولُ الشعرَ عَيْرُ مهذبٍ لو أنَّ كلَّ النَّاسِ فيك مُسَاعِدِي وقال: السريع:
نم بما تُخفي أساريه قد ذاب من فرط الأسي ريه	أراد أن يُخفي هَوَاهُ وَقَدْ وكيفَ يُخفي داءه مُدْتَفُ وقال: مجزوء الكامل:
ب المرء منه شمائلُ والقدُّ عُصْنُ مائلُ تنشقُّ عنه خمائلُ تمت بهن شمائل إلا العذارِ حَمَائِلُ	ومهفهف تهفو يل فالرْدُفُ دِعْصُ هائلُ والخدُّ نورُ شقائق والعَرْفُ تَشْرُ حِدَائِقُ والطَرْفُ سَيْفُ ما له ولأبي الفتح البستي في هذا المذهب: الخفيف:
وجناناً يخفي حريق جواه ستراه يُفشي الذي ستراه أودعاني أمث بما أودعاني	إن لي في الهوى لِسَاناً كثوماً غير أنني أخاف دَمْعِي عليه ولأبي الفتح البستي في مذهب هذا البيت الأخير: الخفيف: تَاطِرَاهُ فيما جَنَى تَاطِرَاهُ وله: المتقارب:
أمرت وأعرض عن الجاهلين فمستحسن من ذوي الجاه لين	حُدِّ العَفْوِ وأمرُ بعَرْفٍ كما ولن في الكلام لكل الأنام وله: مجزوء الوافر:
أرى قَدَمِي أراق دمي وليس بنافعي تَدَمِي	إلى حَنَفِي سَعَى قَدَمِي فَمَا أَنْفَكُ من تَدَمِي وله: البسيط:
أنساك كل كمي هَرَّ عاملُه أقر بالرق كتاب الأنام له	إن هز أعلامه يوماً لِيُعْمِلَهَا وإن أقر على رَق أنامله وقال لمن استدعاه إلى موَدَّتِه: المتقارب:

وقلّ الخليلُ الحفِيُّ الوفي  
فهل راغبٌ أنت في أن تُفي؟

كجنتٍ قد حوثَ تَعِيمَا  
أبَاخني حَبه الحريما  
تَنفِي حريقاً به قديما  
لا بَلُ حَرِيماً أباح رِيماً

بشادن حل فيه الحسنُ  
أجمعه  
فالآن قد لَانَ بعد الصدِّ  
أخذُهُ

ومُراقٍ دَمعي للنوى وصِيبيهِ  
لغرامِ قلبي في الهوى  
ولهيبه

غلاماً مخموراً خمش وجهه: الكامل:  
ويَمي فُوادي بالصدود  
فأزَعَجَا

والوردُ في خديه عاد  
بَتَفَسَّجَا

بقرص بعارضه أثرا  
ووردهُ خديهِ تيلوقرا

تم العذارُ بحاقتيه فلاحا  
شعري ظلماً واستعاضَ  
صباحا

لُ بخده رَوْضاً مَرِيحاً  
فجرى له دَمعي ذريعا  
د بعرقه أماً ووجيعاً  
ما سال من دَمِه نجيعاً

قَدَيْتُكَ قلّ الصديقُ الصدوق  
ولي راغب فيك إمّا وفيت  
وللأمير أبي الفضل: مخلع البسيط:

أهلاً بَطِيبي حواهُ قَصْر  
طَرَفُهُ لا أهَاب سَوْءاً  
فجاد مَنْ فيه لي بَرّاح  
أقدي حريقاً أباح ريقاً

وله: البسيط:

مَنْ لي بِشَمَلِ المَتى والأُنس  
أجمعه  
ما زال يُعْرِضُ عن وَصلي  
وأخذُهُ

وقال: الكامل:

بأبي عزال نام عن وَصبي به  
يا لَيْته يَرثي على وَلهي به

وله في هذا الباب من غير هذا النمط يصف

هَبهُ تُعَيَّر حائلاً عن عَهديه

ما بالُ تَرَجِسِه تحوّل وردةً

وله في هذا المعنى: المتقارب:

وريم على السكرِ خَمْسُهُ  
فأصبح نَرَجِسُه وردةً

وقال في وصف العذار: الكامل:

طَبِي كَسَا رَأْسَ الشَّبابِ  
بعارضٍ

فكأنما أهدى لعارضٍ خدّه

وقال في غلام افتصد: مجزوء الكامل:

ومُهْفَهفِ غرس الجما  
قَصَدَ الطَّيِّبُ ذِراعَهُ  
وأمسني وقع الحدي  
فأريته من عَبرتي

فقر في ذكر العلم والعلماء

العلماء ورثه الأنبياء. والعلماءُ أعلامُ الإسلام. العلماء في الأرض كالنجوم في السماء.  
ابن المعتز - العلماءُ غرباء، لكثرة الجهل. وله: العلمُ جمالٌ لا يخفى، وتَسب لا يُجفَى.

وله: رَلُّهُ العالمُ كانِكِسار سفينَةٍ تُعَرِّق وَيُعَرِّق معها حَلَقٌ كثير.  
غيره - إذا زَلَّ العالمُ، زَلَّ بزَلَّتِه عالمٌ. غيره: الملوكُ حُكَّامٌ على الناسِ، والعلماءُ حكام

على الملوك. من لم يحتمل ذلَّ التعلُّم ساعة، بقي في ذلَّ الجهل أبداً. ما صِينَ العلمُ  
بمثل بَدَلِه لأهله. من كتم علماً فكانه جاهله: مجزوء الكامل:

العلمُ يمنَعُ أهله  
أن يمنعوهُ أهله

أبو الفتح كشاجم: مجزوء الكامل:

والعلمُ يمنعُ جانبَهُ

لا تمنع العلمُ أمراً

هم لطقُهُ وَعَرَائِبُهُ

أما الغبي فليس يف

ئد عنده كالغائبة

وتكون حاضرةً الفوا

أن ينالَ مَطَالِبُهُ

وأخو الحصافة مُسْتَحِقُّ

مِنْ فَضْلِ عِلْمِكَ وَاجِبُهُ

فبحقّه أعطيتُهُ

ومن رق وجهه عند السؤال، رقّ عِلْمُهُ عند الرجال. عِلْمٌ بلا عمل، كشجرة بلا ثمر. كما لا يُنْبِتُ المطرُ الكثيرُ الصَّخْرَ، كذلك لا ينفعُ البليدُ كثرةَ التعلّم. من ترفع بعلمه وصّعه الله بعمله. الجاهلُ صغيرٌ وإن كان كبيراً، والعالمُ كبيرٌ وإن كان صغيراً. من أكثر مذاكرة العلماء، لم ينس ما علم، واستفاد ما لم يعلم.

ابن المعتز: المتواضعُ في طلاب العلم أكثرهم عِلْماً، كما أن المكان المنخفضُ أكثر البقاع ماء. إذا علمت فلا تذكُر مَنْ دونك من الجهال، واذكُر مَنْ فوقك من العلماء. النارُ لا يُنْقِصُها ما أخذَ منها، ولكن يُنْقِصُها ألا تجد حطباً، كذلك العلمُ لا يُفْنِيهِ الاقتباسُ منه، وقفدُ الحاملين له سببُ عدمه. مات حَرَنَةُ الأموال وهم أحياء، وعاش حُرَانُ العلم وهم أموات. مثلُ عِلْمٍ لا ينفع ككنز لا ينفق منه. أزهّدُ الناس في عالم جبرائله.

وقيل للصّلتِ بن عطاء، وكان مقدماً عند البرامكة: كيف عَظمت عليهم وعندهم مَنْ هو أدبُ منك؟ قال: ليس للقرباء طرافة العُرباء، وكنت أمراً بعيد الدار، نائي المزار، غريب الاسم، قليل الجرم، كثير الالتواء، شحيحاً بالإملاء؛ فرغبهم في رغبتني عنهم، وزهدني فيهم رغبتهم في. علم لا يعبر معك الوادي، لا يعمر بك النادي. لو سكت مَنْ لا يعلم لسقط الاختلاف. إذا ازدحم الجوابُ حَفِي الصواب. الغلط تحت اللّغط. حرقُ الإجماع حُرْق. المحجوج بكل شيء ينطق.

استعارات فقهية تليق بهذا المكان

دخل أبو تمام الطائي على أحمد بن أبي دؤاد في مجلس حكمه، وأنشده أبياتاً يستمطِرُ نائله، وينشر فضائله، فقال: سيأتيك ثوابها يا أبا تمام، ثم اشتغل بتوقيعات في يده؛ فأحفظ ذلك أبا تمام، فقال: احضر، أيديك الله، فإنك غائب، واجتمع فإنك مفترق، ثم أنشده: المنسرح:

وَتَرَكْ مَا تَرْتَجِي مِنَ الصَّفَدِ

إِنَّ حَرَاماً قَبُولُ مِدْحَتِنَا

صَرَفَ حَرَامٍ إِلَّا يَدَا بَيْدِ

كما الدنانير والدراهم في ال

فأمر بتوفير جِثَّته، وتعجيل عطائه.

ولمّا ولي طاهر بن عبد الله بن طاهر خراسان دخل الشعراء يهنتونه، وفيهم تمام بن أبي تمام فأنشده: السريع:

ما من جزيل الملك أعطاك

هَتَاكَ رَبُّ النَّاسِ هَتَاكَ

والبأس والإنعام عيناك

قَرَّتْ بِمَا أُعْطِيَتْ يَا دَا

الْحَجِي

وأورق العودُ بجذواك

أشْرقتِ الأَرْضُ بِمَا نِلْتَهُ

فاستضعف الجماعةُ شعره، وقالوا: يا بُعد ما بينه وبين أبيه! فقال طاهر لبعض الشعراء: أحبه، فقال:

إِنَّ الَّذِي أَمَلْتِ أَخْطَاكَ

حِيَاكَ رَبُّ النَّاسِ حِيَاكَ

ولو رأى مَدْحاً لآسَاكَ

فقلتُ قولاً فيه ما زانهُ

فهاك إن شئت بها مدحةً      مثل الذي أعطيت أعطاك  
فقال تمام: أعز الله الأمير، وإن الشَّعْرَ بالشعر رِباً، فاجعل بينهما صنجاً من الدراهم،  
حتى يحل لي ولك! فضحك وقال: إلا يكن معه شعْرُ أبيه، فمعه ظرف أبيه؛ أعطوه  
ثلاثة آلاف درهم! فقال عبد الله بن إسحاق: لو لم يعط إلا لقول أبيه في الأمير أبي  
العباس - رحمه الله - يريد عبد الله بن طاهر: البسيط:

يقولُ في قَوْمِ صَحْبِي وقد      منا السُّرَى وَحُطَا المَهْرِيَّةِ  
أَخَذْتُ      القُودِ  
أُطلع الشمس تبغي أن تُوَمَّ      فقلتُ: كلاً، ولكن مطلع  
بنا؟      الجودِ

فقال: ويعطى بهذا ثلاثة آلاف.

ولاية طاهر بن عبد الله بن طاهر خراسان  
وكان سبب ولاية طاهر خراسان بعد أبيه ما حدَّث به أبو العيناء قال: كُنَّا  
عند أحمد بن أبي دواد، فجاء الخبر أنَّ الكتَبَ وردت على الواثق من  
خراسان بوفاة عبد الله بن طاهر، وأن الواثق يُعزِّي عنه، وأنه قد ولي  
مكانه خراسان إسحاق ابن إبراهيم، وكان عدواً له لانخراطه في سبلك ابن  
الزيات؛ فلبس ثيابه ومضى، وقال: لا تبرحوا حتى أعود إليكم، فلبث قليلاً،  
ثم عاد إلينا فحدَّثنا أنه دخل على الواثق فعزاه عن عبد الله وجلس، قال:  
فقال لي الواثق: قد ولينا إسحاق خراسان، فما عندك؟ قلت: وفق الله  
أمير المؤمنين ولا نذمه. قال: قل ما عندك في هذا. قلت: أمر قد أمضي،  
فما عسيت أن أقول فيه. قال: لتفعلن. فقلت: يا أمير المؤمنين خراسان  
منذ ثلاثين سنة في يد طاهر وابنه، وكل من بها صنائعهم، وقد حلف عبدُ  
الله عشر بنين أكثرهم رجال، وجميع جيش خراسان لهم عبيد أو موالٍ أو  
صنائع، وسيقولون: أما كان فينا مُصطنع؟ وكان يجب أن يجزينا أميرُ  
المؤمنين، فإن وقينا بما كان يفي به أبونا وجدنا، وإلا استبدل منا بعد عُذْرٍ  
فينا؛ ويقدم خراسان إسحاق وهو رجل غريب فينا فسه هؤلاء، ويتعصب  
أهلها لهم؛ فينتقض ما أبرم، ويفسد ما أصلح.

قال: صدقت يا أبا عبد الله، والرأي ما قلت، اكتبوا بعهد طاهر بن عبد الله  
على خراسان. فكتبت كتب طاهر، وحرق كتب إسحاق، فخرجت الزنج  
تطيئ بها، ثم لقيني إسحاق داخلاً، فقلت: يا أبا الحسن، لا عدمت عداوة  
رجل أزال عنك ولاية خراسان بكلمة.

ومدح ابن الرومي أبا العباس بن ثوبة، فعارضه أخوه أبو الحسن بقصيدة  
يمدح أخاه بها، فقال ابن الرومي: المتقارب:

أليس القوافي بتات القتي      إذا صورة الحق لم تُمسَخِ  
فلا تقبلنَّ أماديه      حرام نكاح بنات الأخ

ولما أنشد أبو تمام قصيدته في المعتصم:

السيف أصدق أنباء من الكتب

قال له: لقد جَلَوْتُ عروسك يا أبا تمام فأحسن جلاءها. قال: يا أمير المؤمنين، والله  
لو كانت من الحور العين لكان حُسْنُ إصغائك إليها من أوقى مُهورها.  
وقال الأمير أبو الفضل الميكالي: الوافر:

أقول لشادن في الحُسنِ      يصيد بلحظه قلب الكمي  
أضحى

ملك الحسن أجمع في      فأد زكاة منظرك البهي  
قوام

وذلك أن تجودَ لمُسْتَهَام  
فقال: أبو حنيفة لي إمامٌ  
وربما أنشد هذه الأبيات على قافية أخرى فقال: الوافر:

أقول لشادن في الحسن  
قَرِدٌ  
ملكك الحسن أجمع في  
قوام  
وذلك أن تجودَ لمستهام  
فقال: أبو حنيفة لي إمام  
وقال: الطويل:

بَنَفْسِي عَزَالَ صَارَ لِلْحُسْنِ  
قَبْلَةً  
دعاني الهوى فيه فلبَّيْتُ  
طائِعاً  
فطرفي بالتسهد والدمعِ  
قَارِنُ  
وقال أبو الفتح كشاجم: البسيط:

قَدَيْتُ زَائِرَةً فِي الْعِيدِ  
وَاصِلَةً  
فلم يزل خدّها زُكْنًا أطوف  
بِهِ

بَرِيقٌ مِنْ مُقْبِلِكَ الشَّهِي  
فَعَنْدِي لَا زَكَاةَ عَلَى الصَّبِيِّ  
يَصِيدُ بِلِحْظِهِ قَلْبَ الْجَلِيدِ  
فَلَا تَمْتَعِ وَجُوباً عَنِ وُجُودِ  
بَرَشْفِ رُضَابِكَ الْعَذْبِ الْبَرُودِ  
فَعَنْدِي لَا زَكَاةَ عَلَى الْوَلِيدِ  
يُحَجُّ مِنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ  
وَيُقْصَدُ  
وَأَحْرَمْتُ بِالْإِخْلَاصِ وَالسَّعْيِ  
يَسْهَدُ  
وَقَلْبِي عَلَيْهِ بِالصَّبَابَةِ  
مُفْرِدُ  
وَالهَجْرُ فِي غَفْلَةٍ مِنْ ذَلِكَ  
الْخَبْرِ  
وَالخَالُ فِي خَدِّهَا يُعْنِي عَنِ  
الْحَجْرِ

وينضاف إلى هذا النظم قطعة من رسالة طويلة كتبها بديع الزمان إلى أبي نصر بن المرزبان: كتابي، أطال الله بقاء الشيخ وأنا سالم، والحمد لله رب العالمين، كيف تقلب الشيخ في درع العافية، وأحواله بتلك الناحية؛ فإني ببعده مُنْغَصٌ بِشَرْعَةِ الْعَيْشِ، مقصوص أجنحة الأنس. ورد كتابه المشتمل من خبر سلامته، علي ما أرغب إلى الله في إدامته، وسكنت إليه بعد انزعاجي لتأخره؛ وقد كان رَسَمَ أن أعرفه سبب خروجي من جرجان، ووُقوعِي بِخُرَاسَانَ، وَسَبَبَ غَضَبِ السُّلْطَانِ؟ وَقَدْ كَانَتِ الْقِصَّةُ أَنِّي لَمَّا وَرَدْتُ مِنْ ذَلِكَ السُّلْطَانِ حَضْرَتَهُ، الَّتِي هِيَ كَقَبَّةِ الْمَحْتَاكِ، لَا كَعَبَةِ الْحَجَاجِ، وَمَسْتَقْرُّ الْكُرْمِ، لَا مَشْعَرَ الْحَرَمِ، وَقَبْلَةَ الصَّلَاةِ، لَا قَبْلَةَ الصَّلَاةِ، وَمَتَى الصَّيْفِ، لَا مَتَى الْحَيْفِ، وَجَدْتُ بِهَا نُدْمَاءَ مِنْ تَبَاتِ الْعَامِ، اجْتَمَعُوا قِيَصَةَ كَلْبٍ عَلَى تَلْفِيْقِ خَطْبِ، أَرْعَجَنِي عَنِ ذَلِكَ الْفِتَاءِ، وَأَشْرَفَ بِي عَلَى الْفِتَاءِ، لَوْلَا مَا تَدَارَكَ اللَّهُ بِجَمِيلِ صُنْعِهِ، وَحَسَنِ دَفْعِهِ؛ وَلَا أَعْلَمُ كَيْفَ احْتَالُوا، وَلَا مَا الَّذِي قَالُوا؛ وَبِالْجَمَلَةِ عَيَّرُوا رَأْيَ السُّلْطَانِ، وَأَشَارَ عَلِي إِخْوَانِي، بِمَفَارِقَةِ مَكَانِي، وَبَقِيْتُ لَا أَعْلَمُ أَيْمَنَةً أَضْرِبُ أَمَّ شَامَةَ، وَتَجِدَا أَقْصَدُ أَمَّ تَهَامَةَ:

ولو كنت في سلمى أجد  
وشعابها  
لكان لِحجاجِ عليّ دليلُ

وقد علم الشيخ أن ذلك السلطان سماءً إذا تغيم لم يُرْجِعِ صَحْوُهُ، وماءً إذا تغيّر لم يُشْرِبِ صَفْوُهُ، وملكاً إذا سَخِطَ لم يُنْتَظِرِ عَفْوُهُ، وليس بين رضا والسخط عَوْجَةٌ، كما ليس بين عَصَبِهِ وَالسَّيْفِ قَرْجَةٌ، وليس من وراء سُخْطِهِ مَجَازٌ، كما ليس بين الحياة والموت معه جِازٌ؛ فهو سيّدٌ يُعْضِبُهُ الْجُرْمُ الْحَفِيّ، وَلَا يُرْضِيهِ الْعَذْرُ الْجَلِيّ؛ وَتَكْفِيهِ الْجَنَائِيَةُ وَهِيَ إِرْجَافٌ، ثُمَّ لَا

تشفيه العقوبة وهي إجحاف، حتى إنه ليرى الذنب وهو أضيق من ظلّ  
الرمح، وَيَعْمَى عن العذر وهو أبين من عمود الصُّبْح؛ وهو ذو أذنين يسمع  
بهذه القول وهو بهتان، ويحجب عن هذه العذر وله برهان؛ وذو يدين يبسط  
إحداهما إلى السفك والسفح، ويقبض الأخرى عن العفو والصفح؛ وذو  
عينين يفتح إحداهما إلى الجرم، ويغمض الأخرى عن الحلم، فمزحه بين  
القَدِّ والقَطْع، وجَدّه بين السيف والنُّطْع، ومراده بين الظهور والكمون،  
وأمره بين الكاف والنون؛ ثم لا يعرف من العقاب، غير ضرب الرقاب، ولا  
يهتدي من التأييب إلا لإزالة النعم، ولا يعلم من التأديب غير إراقة الدم، ولا  
يحمل الهتة على حجم الذرة، ودقة الشعرة، ولا يحلم عن الهفوة، كوزن  
الهنوة، ولا يُغْضِي عن السقطة، كجرم النقطة؛ ثم إن النقم بين لفظه  
وقلمه، والأرض تحت يده وقدمه، لا يلقاه الولي إلا بفمه، ولا العدو إلا  
بدمه؛ والأرواح بين حَبْسِه وإطلاقه، كما أن الأجسام بين حله ووثاقه؛  
فنظرْتُ فإذا أنا بين جُودَيْن؛ إما أن أجودَ بآسي، وإما أن أجودَ برآسي،  
وبين رُكُوبَيْن؛ إما المفازة، وإما الجِيازَة، وبين طَرِيقَيْن؛ إما العُرْبَة، وإما  
التربة، وبين فِرَاقَيْن؛ إما أن أفارق أرضي، أو أفارق عرضي، وبين  
راحتين؛ إما ظهورَ الجمال، وإما أعناقَ الرجال، فاخرتُ السماح بالوطن،  
على السماح بالبدن؛ وأنشدت: الطويل:

إذا لم يكن إلا المنية مَرَكَبٌ فلا رأي للمحمول إلا ركوبها  
وَلَدَ ما ذكر من كعبة المحتاج، لا كعبة الحُجَّاج، من قول أبي تمام: الكامل:  
بيتان حجُّهما الأناث؛ فهذه حجُّ العَيْنِي، وتلكم للمُعَدِم

أبو عليّ البصير

وشتم بعض الطالبين أبا عليّ الفضل بن جعفر البصير، فقال أبو عليّ: والله ما نَعَيْتَا  
عن جوابك، ولا تَعَجَّرُ عن مَسِيئَتِكَ؛ ولكننا نكوُنُ خيراً لِنَسِيكِ منك، ونحفظ منه ما  
أَصَعَبَتْ؛ فاشكرُ توفيرنا ما وقَرْنَا منك، ولا يَغْرَنُك بالجهل علينا جِلْمُنَا عنك.  
وسأل أبو عليّ البصير بعض الرؤساء حاجةً ولقيه؛ فاعتذر إليه من تأخرها؛ فقال أبو  
عليّ: في شُكْرٍ ما تقدّم من إحسانك شاغلٌ من استبطاء ما تأخر منه.  
وأبو عليّ أخذَ مَنْ جمع له حظّ البلاغة في الموزون والمنثور، وهو القائل: الطويل:

ألمت بنا يوم الرحيل  
اختلاسةً  
فاضرم نيران الهوى النطر  
الجلس

تأبت قليلاً وهي تُرعدُ خيفةً  
كما تتأتى حين تعدي  
الشمس

فخاطبها صمّتي بما أنا  
مضمير  
وولت كما ولي الشباب  
لطيفة  
وأبست حتى ليس يسمع لي  
جس  
طوت دونها كسحاً على يأسها  
النفس

وقال يصف بلاغة الفتح بن خاقان وشعره: الطويل:

سمعنا بأشعار الملوک؛  
فكلها  
إذا غص مننیه الثقاف  
تاودا

سوى ما رأينا لأمرئ القيس؛ إنانراه  
متى لم يشعر القتح أوحدا

أقام زماناً يسمع القول صامتاً  
فلما امتطاه راكباً ذل  
ونحسبه إن رام أكدى  
وأضلدا  
وسار فأضحى قد أغار

وَأَجَدًا

متى يَسْتَطِيعُ منها الزيادة  
يَزِدُّ  
فكيف احتراسي مِنْ هَوَى  
متجددٍ؟

صَعْبُهُ

والفتح بن خاقان يقول: الطويل:  
وَإِنِّي وَإِيَاهَا لَكَالْحَمْرِ،  
وَالْفَتَى  
إِذَا أزدَدْتُ منها زاد وَجْدِي  
بُقْرِبِهَا

وكتب إلى أبي الحسن عبيد الله بن يحيى: وَإِن أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمَّا اسْتَخْلَصَكَ لِنَفْسِهِ، وَاتَّمَنَكَ عَلَى رِعْيَتِهِ؛ فَنَطَقَ بِلِسَانِكَ، وَأَخَذَ وَأَعْطَى بِيَدِكَ، وَأَوْرَدَ وَأَصْدَرَ عَن رَأْيِكَ، وَكَانَ تَفْوِيضُهُ إِلَيْكَ بَعْدَ امْتِحَانِهِ إِيَّاكَ، وَتَسْلِيطِهِ الْحَقَّ عَلَى الْهَوَى فِيكَ، وَبَعْدَ أَنْ مَثَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ سَمَوْا لِمَرْئِيَّتِكَ، وَجَرَوْا إِلَى غَايَتِكَ، فَاسْقَطَهُمْ مَصَاوُؤُكَ، وَخَفُّوا فِي مِيزَانِكَ، وَلَمْ يَزِدْكَ - أَكْرَمَكَ اللَّهُ - رِفْعَةً وَتَشْرِيفًا إِلَّا أزدَدَتْ لَهُ هَيْبَةً وَتَعْظِيمًا، وَلَا تَسْلِيطًا وَتَمَكِينًا، إِلَّا أزدَتْ نَفْسُكَ عَنِ الدُّنْيَا عُزُوفًا وَتَنْزِيهًا، وَلَا تَقْرِيبًا وَاخْتِصَاصًا، إِلَّا أزدَدَتْ بِالْعَامَّةِ رَأْفَةً وَعَلَيْهَا حِدَابًا، لَا يَخْرُجُكَ قَرِطُ النَّصِيحِ لَهُ عَنِ النَّظَرِ لِرِعْيَتِهِ، وَلَا إِثَارَ حَقِّهِ عَنِ الْأَخْذِ بِحَقِّهَا عِنْدَهُ، وَلَا الْقِيَامُ بِمَا هُوَ لَهُ عَنِ تَضَمُّينِ مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَلَا يَشْغَلُكَ مُعَانَاةُ كِبَارِ الْأُمُورِ عَنِ تَفْقُدِ صِغَارِهَا، وَلَا الْجِدُّ فِي صَلَاحٍ مَا يَصْلُحُ مِنْهَا عَنِ النَّظَرِ فِي عَوَاقِبِهَا، تَمْضِي مَا كَانَ الرَّشْدُ فِي إِمضَائِهِ، وَتُرْجَى مَا كَانَ الْحَزْمُ فِي إِرْجَائِهِ، وَتَبْدُلُ مَا كَانَ الْفَضْلُ فِي بَدْلِهِ، وَتَمْنَعُ مَا كَانَتْ الْمَصْلِحَةُ فِي مَنَعِهِ، وَتَلِينُ فِي غَيْرِ تَكْبَرٍ، وَتَخُصُّ فِي خَيْرِ مَبِيلٍ، وَتَعْمُ فِي غَيْرِ تَصَيُّعٍ، لَا يَسْتَقَى بِكَ الْمَحِقُّ وَإِنْ كَانَ عَدُوًّا، وَلَا يَسْتَعِدُّ بِكَ الْمَبْطَلُ وَإِنْ كَانَ وَلِيًّا؛ فَالسلطان يعتدُّ لك من العناء والكفاية، والدب والحياطة، والنصح والأمانة، والعفة والنزاهة، والنصب فيما أدى إلى الراحة، بما يراك معه - حيث انتهى إحسانه إليك - مستوجباً للزيادة، وكافئة الرعية - إلا من عمط منهم النعمة - مُثْنُونَ عَلَيْكَ بِحُسْنِ السَّيْرِ، وَيُثْمِنُ النَّقِيْبَةَ، وَيَعْدُونَ مِنْ مَأْثَرِكَ أَنْكَ لَمْ تُدْحِضْ لِأَحَدٍ حُجَّةً؛ وَلَمْ تَدْفَعْ حَقًّا لِشَيْئَةٍ؛ وَهَذَا يَسِيرٌ مِنْ كَثِيرٍ، لَوْ قَصَدْنَا لِتَفْصِيلِهِ، لَأَثَقْنَا الزَّمَانَ قَبْلَ تَحْصِيلِهِ، ثُمَّ كَانَ قَصْدُنَا الْوَقُوفَ دُونَ الْغَايَةِ مِنْهُ.

وله إلى عبيد الله بن يحيى: يَقْطَعُنِي عَنِ الْأَخْذِ بِحَطِّيٍّ مِنْ لِقَائِكَ، وَتَعْرِيفِكَ مَا أَنَا عَلَيْهِ عَنِ شُكْرِ إِعْنَامِكَ، وَإِفْرَادِي إِيَّاكَ بِالتَّامِيلِ دُونَ غَيْرِكَ، تَخْلِفِي عَنِ مَنزِلَةِ الْخَاصَّةِ، وَرِعْيَتِي عَنِ الْحُلُولِ مَحَلِّ الْعَامَّةِ، وَأَنِّي لَسْتُ مَعْتَادًا لِلْخِدْمَةِ وَلَا الْمَلَاذِمَةِ، وَلَا قُوَّةً عَلَى الْمَعَادَاةِ وَالْمُرَاوَحَةِ؛ فَلَا يَمْتَعُّكَ ارْتِفَاعُ قَدْرِكَ، وَعَلُو أَمْرِكَ، وَمَا تَعَانِيهِ مِنْ جَلَائِلِ الْأَحْوَالِ الشَّاعِلَةِ، مِنْ أَنْ تَتَطَوَّلَ بِتَجْدِيدِ ذِكْرِي، وَالْإِصْغَاءِ إِلَى مَنْ يَحْضُكَ عَلَى وَصْلِي وَبِرِّي، وَيَرْعَبُكَ فِي إِسْدَاءِ حُسْنِ الصَّنِيعَةِ عِنْدِي.

وله إليه آخر فصل من كتاب: وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي رَجِمَ الْعِبَادَ بِكَ، عَلَى حِينِ افْتِقَارِهِ مِنْهُمْ إِلَيْكَ، أَنْ يُعِيدَهُمْ مِنْ قَفْدِكَ، وَلَا يُعِيدَهُمْ إِلَى الْمَكَارِهِ الَّتِي اسْتَنْقَذْتَهُمْ مِنْهَا بِيَدِكَ.

السفر

ولقي رجلاً رجلاً خارجاً من مصر يريد المغرب، فقال: يَا أَخِي، أَتَتَّبِعُ الْقَطْرُ، وَتَدْعُ مَجْرَى السَّيُولِ؟ فقال: أَخْرَجَنِي مِنْ مِصْرَ حَقِّ مُضَاعٍ، وَشُكِي مُطَاعٍ، وَإِقْتَارِ الْكَرِيمِ، وَحَرَكَةِ اللَّئِيمِ، وَتَغْيِيرِ الصِّدِيقِ، بَيْنَ السَّعَةِ وَالصِّيقِ، وَالْهَرَبِ إِلَى النَّزْرِ بِالْعِزِّ، خَيْرٌ مِنْ طَلْبِ الْوَقْرِ بِذُلِّ الْعِزِّ.

وأوصى بعضُ الحكماء صديقاً له، وقد أرادَ سفرًا، فقال: إنك تدخلُ بلدًا لا يَعْرِفُكَ أَهْلُهُ، فتمسكْ بوصيتي تنفق بها فيه؛ عليك بحُسن الشمائل فإنها تدكُّ على الحرية، وتقاء - الأطراف فإنها تشهد بالملوكية؛ ونظافة اليزرة فإنها تنبئ عن النشء في النعمة؛ وطيب الرائحة فإنها تظهر المروءة، والآداب الجميل فإنه يكسب المحبة، وليكن عقلك دون دينك، وقولك دون فعلك، ولباسك دون قدرِك، والزم الحياء والأناة؛ فإنك إن استحيت من الغضاضة اجتنبت الخساسة، وإن أنفت عن الغلبة، لم يتقدمك نظيرٌ في مرتبة. قال الأصمعي: سمعتُ أعرابياً يُوصي آخرَ أرادَ سفرًا، فقال: أثر بعملك معادك، ولا تدع لسهوتك رشادك، وليكن عقلك وزيرك الذي يدعوك إلى الهدى، ويجتنبك من الردى، وأحس هواك عن الفواحش، وأطلقه في المكارم؛ فإنك تبرّ بذلك سلفك، وتثيبه به شرفك. وأوصت أعرابية ابنها في سفر، فقالت: يا بني، إنك تجاوز الغرباء، وتزحل عن الأصدقاء، ولعلك لا تلقى غير الأعداء؛ فخالط الناس بجميل البشر، واتق الله في العلانية والسر. وقال بعضُ الملوك لحكيم وقد أرادَ سفرًا: قفني على أشياء من حكمتك أعمل بها في سفري، فقال:

اجعلُ تأنيك أمام عَجَلَتِكَ، وجَلَمَكَ رسولَ شِدَّتِكَ، وعَفْوَكَ مالِكَ قدرتك، وأنا ضامن لك قلوبَ رعيتك، ما لم تُخرِجهم بالشدة عليهم، أو تُبَطِّرهم بالإحسان إليهم. وقال أبان بن تغلب: شهدت أعرابيةً لوصي ولداً لها أرادَ سفرًا وهي تقول: أي بني، اجلسْ أُمْنَحْك وصيتي، وبالله توفيقك، قال أبان: فوقفت مستمعاً لكلامها، مستحسناً لوصيتها، فإذا هي تقول: أي بني، إياك والتميمة، فإنها تزرع الضغينة، وتفرق بين المحبين، وإياك والتعرض للعيوب فتخذ عَرَضاً، وخليقاً ألا يثبت العَرَضُ على كثرة السهام؛ وقلما اعتورت السهام عَرَضاً إلا كلمته، حتى يهي ما اشتد من قوته؛ وإياك والجودَ بدينك، والبخلَ بمالك؛ وإذا هزرت فاهز كريمةً يلن لمهزتك؛ ولا تهزز اللئيم فإنه صخرة لا يتفجر ماؤها، ومثل بنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه؛ فإن المرء لا يرى عيب نفسه؛ ومن كانت مودته بشره، وخالف منه ذلك فعله، كان صديقه منه على مثل الريح من تصرفها. ثم أمسكت، فدنوتُ منها، فقلت لها: بالله يا أعرابية، إلا ما زدته في الوصية؛ قالت: أو قد أعجبك كلامُ العرب يا حصري؟ قلت: نعم! قالت: العدرُ أقيح ما تعامل به الناسُ بينهم، ومن جمع الجلم والسخاء فقد أجاد الحلة ريطتها وسربالها. فقر في مدح السفر

أبو القاسم بن عباد الصاحب: الخبر المنقول أن المقبوض غريباً شهيد. وفي الحديث: سافروا تغموا. السفرُ أحدُ أسباب العيش التي بها قوامه، وعليها نظامه. إن الله لم يجمع منافع الدنيا في الأرض؛ بل فرّقها وأحوج بعضها إلى بعض. المسافرُ يسمع العجائب، ويكسبُ التجارب، ويحلبُ المكاسب. الأسفارُ مما تزيدك علماً بقدره الله وحكمته، وتدعوك إلى شكر نعمته. ليس بينك وبين بلدٍ تسب؛ فخيرُ البلاد ما حملك. السفرُ يسفر عن أخلاق الرجال. أوحشُ أهلِكَ إذا كان في إحاشهم أنسك، وأهجرُ وطنك إذا نبث عنه نفسك. ربما أسفر السفر عن الظفر،

وتعذر في الوطن قضاءً الوطر، وأنشد: البسيط  
 ليس ارتحالك تترتأد الغنى      بل المقام على حسف هو  
 سفيراً      السفر  
 وهذا كقول الطائي: الطويل  
 وما القفر بالبيد الفضاء،      تبث بي وفيها ساكنوها هي  
 بك التي      القفر  
 أخذه المتنبي فقال: البسيط  
 إذا ترحلت عن قوم وقد      ألا تفارقهم فالراجلون هم  
 قدروا

نقيض ذلك في ذم السفر والغربة  
 في الحديث إن المسافر وماله لعل، قلت: إلا ما وقى الله؛ أي على هلاك. شيان  
 لا يعرفهما إلا من ابتلي بهما: السفر الشاسع، والبناء الواسع. السفر والسقم  
 والقتال ثلاث متقاربة؛ فالسفر سفينة الأذى، والسقم حريق الجسد، والقتال منبت  
 المنايا. إذا كنت في غير بلدك فلا تنس نصيبك من الذل. الغربة كربة. الثقلة مثله.  
 الغريب كالغرس الذي زايل أرضه، وققد شربته؛ فهو دأو لا يتمر، وذابل لا ينضر.  
 الغريب كالوحش النائي عن وطنه؛ فهو لكل سعي قريسة، ولكل رام رمية؛ وأنشد:  
 الوافر

لقرّب الدار في الإقتار      من العيش الموسع في  
 حير      اغتراب  
 وقال أبو الفتح البستي: البسيط  
 لا يعدم المرء شيئاً يستعين      ومنعه بين أهليه وأصحابه  
 به      كالليث يحقر لما غاب عن  
 ومن نأى عنهم قلت      غايه  
 مهابتة

العزل بعد المؤانسة  
 كتب أبو عبيد الله إلى المهدي بعد عزله إياه عن الدواوين: لم ينكر أمير  
 المؤمنين حالي في قرب المؤانسة وخصوص الخلطة، وحالي عنده قبل  
 ذلك في قيامي بواجب خدمته، التي أدتني من نعمته، فلم أبدل - أعز  
 الله أمير المؤمنين - حال التباعد، ويقرب في محل الإقصاء، وما يعلم  
 الله مني فيما قلت إلا ما علمه أمير المؤمنين، فإن رأى أكرمه الله أن  
 يعارض قولتي بعلمه بداءً وعاقبةً فعل إن شاء الله.  
 فلما قرأ كتابه شهد بتصديقه قلبه، فقال: ظلمنا أبا عبيد الله، فيرد إلى  
 حاله، ويعلم ما تجدد له من حسن رأبي فيه.

ولما أمر المأمون أن يحجب عنه الفضل بن الربيع لسبب تألم قلبه منه كتب  
 إليه: يا أمير المؤمنين، لم ينسيني التقريب حالي أيام التباعد، ولا أغفلتني  
 المؤانسة عن شكر الابتداء، فعلى أي الحالين أبعد من أمير المؤمنين،  
 ويلحقني ذم التقصير في واجب خدمته؟ وأمير المؤمنين أعدل شهودي على  
 الصدق فيما وصفت؛ فإن رأى أمير المؤمنين ألا يكتم شهادتي فعل إن شاء  
 الله.

وقال أبو جعفر المنصور لأبي مسلم حين أرمع قلبه: هل كنت قبل قيامك  
 بدولتنا جائر الأمر على عبدين؟ قال: لا، يا أمير المؤمنين. قال: فلم لم

تَعْرِضُ حَالِي غُسْرَتِكَ وَمَهَانَتِكَ عَلَى أَيَامِنَا، وَتَعْرِفُ لَنَا مَا يَعْرِفُ غَيْرُكَ مِنْ  
إِجْلَالِنَا وَإِعْظَامِنَا، حَتَّى لَا يِنَازِعَكَ الْحَيْنَ عَيْنَانِ الطَّمَأْنِينَةُ؟ قَالَ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا  
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنَّ الزَّمَانَ وَإِسَاءَتَهُ قَلْبًا مَا كَانَ مِنْ حُسْنِ صَنِيعَتِي، قَالَ:  
فَلَا مَرْغُوبَ فِيكَ، وَلَا مَأْسُوفَ عَلَيْكَ، وَفِي اللَّهِ خَلْفٌ مِنْكَ! وَأَمْرٌ بِقَتْلِهِ.

جملة من شعر أبي الفتح

كشاجم في الأوصاف

قال يصف أجزاء من القرآن: الخفيف

مَنْ يُنْبِ خَشِيَّةَ الْعِقَابِ فَإِنِّي

بَعَثْتَنِي عَلَى الْقِرَاءَةِ وَالنُّسْ

حِينَ جَاءَتْ تَرَوْقَنِي بِاعْتِدَالِ

سَبْعَةِ أَشْبَهَتْ لِي السَّبْعَةَ

الآن

كُسِيتَ مِنْ أَدِيمِهَا الْحَالِكِ

اللو

مُسْتَبِيهَا صَبْغَةَ الشَّبَابِ وَلَمَّا

وَرَأَتْ أَنَّهَا تَحْسُنُ بِالضَّدِّ

فَهِيَ مَسْوَدَّةُ الظُّهُورِ، وَفِيهَا

مَطْبِقَاتٌ عَلَى صَحَائِفَ

كالري

وَكَأَنَّ الْخَطُوطَ فِيهَا رِيَاضَ

وَكَأَنَّ الْبِيَاضَ وَالنُّقْطَ السُّو

وَكَأَنَّ الْعَشُورَ وَالذَّهَبَ السَّا

وَهِيَ مَشْكُولَةٌ بَعْدَهُ أَشْكََا

فَإِذَا شَتَّتْ كَانَ حَمْرُهُ فِيهَا

حُضْرَةٌ فِي خِلَالِ حُمْرٍ وَصَفْرٍ

مِثْلَ مَا أَثَرَ الدَّيْبُ مِنَ الذَّرِّ

صُمِّنَتْ مُحْكَمَ الْكِتَابِ كِتَابِ

الل

فَحَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ أَتْلُو الْقُرْ

وقال يصف التخت الذي يضرب عليه حساب الهند: الرجز

وَقَلَمٌ مِدَادُهُ تَرَابٌ

يَكْتُرُ فِيهَا الْمَحْوُ وَالْإِضْرَابُ

حَتَّى يَبِينَ الْحَقُّ وَالصَّوَابُ

فِيهِ وَلَا شَكَّ وَلَا ارْتِيَابُ

وقال يصف بزكاراً استهداه: المنسرح:

جُدُّ لِي بِبِرْكَارِكَ الَّذِي صَنَعْتُ

مِلْتَمُ الشُّعْبَتَيْنِ مَعْتَدِلُ

شَخْصَانِ فِي شَكْلِ وَاحِدٍ

فُدْرَا

تُبْتُ أَنْسَاءً بِهَذِهِ الْأَجْزَاءِ

كُ وَمَا خِلْتُنِي مِنَ الْقِرَاءِ

مِنْ قُدُودٍ وَصِيغَةٍ وَاسْتِوَاءِ

جَمِ ذَاتِ الْأَنْوَارِ وَالْأَضْوَاءِ

نَ غِشَاءً أَحَبُّ بِهِ مِنْ غِشَاءِ

تِ الْعِذَارِيِّ وَلِبْسَةِ الْخَطْبَاءِ

فَتَاهَتْ بِجِلْيَةِ بِيضَاءِ

نُورٍ حَقٍّ يَجْلُو دُجَى الظُّلْمَاءِ

طَ تَخِيرُنَّ مِنْ مُسُوكِ الظُّبَاءِ

شَاكِرَاتِ صَنِيعَةِ الْأَنْوَاءِ

دَ عَيْبُ رَشِشَتُهُ فِي مُلَاءِ

طَعِ فِيهَا كَوَاكِبُ فِي سَمَاءِ

لٍ وَمَقْرُوءَةٌ عَلَى أَنْحَاءِ

وَإِذَا شَتَّتْ كَانَ فِيهَا

الِكِسَائِي

بَيْنَ تِلْكَ الْأَضْعَافِ وَالْأَثْنَاءِ

عَلَى جِلْدِ بَصَّةٍ عَدْرَاءِ

هَ ذِي الْمَكْرُمَاتِ وَالْآلَاءِ

آنَ فِيهِنَّ مُصْبِحِي وَمَسَائِي

وقال يصف التخت الذي يضرب عليه حساب الهند: الرجز

فِي صُحُفٍ سُطُورِهَا حِسَابُ

مِنْ غَيْرِ أَنْ يُسَوِّدَ الْكِتَابُ

وَلَيْسَ إِعْجَامٌ وَلَا إِعْرَابُ

فِيهِ يَدًا قَيْنَةَ الْأَعَاجِبِ

مَا شِينَ مِنْ جَانِبٍ وَلَا عَيْبَا

وَرُكْبَا بِالْعُقُولِ تَرْكِيبَا

أشبه شيئين في اشتكالهما  
أوثق مسماره وُعيب عن  
فَعَيْنُ مَنْ يَجْتَلِيهِ يَحْسِبُهُ  
قد صَمَّ فُطْرَبَهُ مُحْكِمًا لهما  
يزداد جِرْصًا عليه مُبْصِرُهُ  
ذو مُقْلَةٍ بَصْرَتُهُ مَذْهَبُهُ  
ينظرُ فيها إلى الصواب فما

بصاحب لا يزال مصحوبا  
نواظر الناقدین تَغْيِيبًا  
في قالب الاعتدال مَصْبُوبًا  
صَمَّ مُجِبَ إليه محبوبًا  
ما زَادَهُ بِالْبِتَانِ تَفْلِييبًا  
لم تَأْلُهُ رِقَّةً وَتَهْذِيبًا  
بها يزالُ الصوابُ مطلوبًا

لولاه ما صحَّ خطُّ دَائِرَةِ  
الحقِّ فيه فإن عَدَلْتَ إلى  
لَوْ عَيَّنْ إقليدسي به بَصْرَتِ  
فابَعْنُهُ واجنبه لي بمسْطَرَّة  
وقال يصف بيكاتنا: البسيط:

ولا وَجَدْنَا الحِسابَ محسوبا  
سواه كان الحِسابُ تقريبا  
خَرَّ لَهُ بالسجودِ مكبوبا  
تُلْفِ الهوى بالثناء مَجْنُوبًا

روح من الماء في جِسْمٍ من  
الصُّفْرِ

مولد بلطيف الحِسِّ والنظرِ

مستنعر لم يَغِبْ عن طَرْفِهِ  
سكن

ولم يَبَيْتْ من دَوِي ضِعْنِ على  
حَدَرِ

له على الظهر أجفان محجرة

ومُقْلَةٌ دَمْعُهَا جَارٍ على قَدَرِ  
كأنها حركاتُ الماءِ في

تُنْشَأُ له حركاتٌ من أسافله

الشجرِ

وفي أعاليه حُسبان يُقْصَلُهُ

لِلناظرين بلا ذهنٍ ولا فِكْرٍ  
خافي المسير وإن لم يَبِكْ لَمْ

إذا بكى دارٍ في أحشائه فَلَكَ

يُدْرِ

مُترجم عن مَوَاقِيتِ يخبِرُنَا

بها فيوجدُ فيها صادق الخبرِ  
غَطَى على الشمسِ سِنْرُ العَيْمِ

وَالجُوبِ وإن

وَالمَطَرِ

وإن سَهْرَتْ لأوقاتٍ تُورِقُنِي

عرفتُ مقدارَ ما ألقى من

مُحَدَدِ كل مِيقَاتِ تَخِيرُهُ

السَّهْرِ

ومخرج لك بالأجزاء أَلْطَقَهَا

دَوو التَّخِيرِ للأسفارِ وَالْحَضَرِ

من النهارِ وقوسِ الليلِ

وَالسَّحْرِ

يا حبذا أبداع الأفكارِ في

الصُورِ

نتيجة العلمِ والتفكيرِ صورَتُهُ

وقال يصف أسطرلاباً: البسيط

ومستدير كجِزْمِ البدرِ

مَسْطُوحِ

صُلْبُ يَدَاؤِ على قُطْبِ

يثبته

ملء البِتَانِ وقد أوقَتْ

صفائِحُهُ

عن كلِّ رافعةِ الأشكالِ

مَصْفُوحِ

تمثالُ طرفِ بِشكرِ الحذقِ

مَكْبُوحِ

على الأقاليمِ من أقطارِهَا

الفِيحِ

تُلْفَى بِهِ السَّبْعَةَ الْأَفْلَاكَ  
مُحْدِقَةً  
تُثْبِكُ عَنْ طَائِحِ الْأَبْرَاجِ  
هَيْئُهُ  
وإن مَصَّتْ سَاعَةٌ أَوْ بَعْضُ  
ثَانِيَةٍ  
وإن تَعَرَّضَ فِي وَقْتٍ  
يُقَدِّرُهُ

مميز في قياساتِ الضلوعِ  
بِهِ  
لَهُ عَلَى الظَّهْرِ عَيْنًا حِكْمَةٌ  
بِهِمَا  
وَفِي الدَّوَابِّ مِنْ أَشْكَالِهِ  
حِكْمٌ

لَا يَسْتَقِلُّ لِمَا فِيهِ بِمَعْرِفَةٍ  
حَتَّى تَرَى الْغَيْبَ فِيهِ وَهُوَ  
مَنْغَلِقُ الْإِلَاحَ  
نَتِيجَةُ الذَّهْنِ وَالتَّفْكِيرِ  
صَوْرُهُ

وكان أبو شجاع فتاحشرو عصد الدولة قد نكب أبا إسحاق الصابي، على تقدمه في الكتابة، ومكانه في البلاغة، واستصفى أمواله من غير إيقاع به في نفسه، فأهدى إليه في يوم مهرجان أسطرلاباً في دور الدرهم، وكتب إليه: البسيط

أَهْدَى إِلَيْكَ بَنُو الْحَاجَاتِ  
وَاحْتَشَدُوا  
لَكِنَّ عَبْدَكَ إِبْرَاهِيمَ حِينَ  
رَأَى  
لَمْ يَرْضَ بِالْأَرْضِ يُهْدِيهَا إِلَيْكَ،  
فَقَدِ

وصف المرأة  
وقول أبي الفتح: ملء البنان..... البيت نظير قول علي ابن العباس الرومي يصف هن امرأة: الخفيف:

يَسْتَعُ السَّبْعَةَ الْأَقَالِيمَ طُرّاً  
كَضْمِيرِ الْفَوَادِ يَلْتَهُمُ الدَّنَ  
وَهُوَ فِي أَصْبَعِينَ مِنْ إِقْلِيمٍ  
يَا وَتَحْوِيهِ دَفْتَا حَيْرُومٍ  
وإنما أخذه ابن الرومي من قول بعض الشعراء يذكر كاتباً: السريع

بقافيه  
واللا  
م  
والم  
يم

في فعله مثل الأقاليم  
كإبرة الرُّوقِ من الرِّيمِ  
قلمٌ أصابَ من الدَّوَاةِ مِدَادَهَا  
وذكر ظبية: الكامل

دُه  
بن الرقاع العاملي، وقد وصف قَرَنَ ريم، وشبَّهه بقلم  
ري مجرى السرقة.  
ن بالرَّمَلِ والكُثبان، قال الشاعر: الطويل  
كَأَنَّما  
ير خَلَقَهَا  
كَأَنَّهَا

ة والإسلام، فأغرب ذو الرمة في قلبه وأحسن، فقال

تَأَزَّرَن دُونَ الْأَزْرِ رَمَلَاتٍ عَالِيَاتٍ  
إِذَا الرُّسُخُ لَمْ يَصْبِرَنَّ دُونَ المَمْنَاتِ  
قِصَارٍ وَإِنْ طَالَتْ بِأَيْدِي النِّسْوَاتِ

وقد جَلَلَتْهُ المِظْلَمَاتُ الْخَنِينُ  
صُمُوتِ القُلُوبِ والخلخال، وامتناع الخِدامِ من المَجَالِ؛ قال خالد بن يزيد بن معاوية، وذكر رملة بنت الزبير بن العوام: الطويل  
لِرَمَلَةٍ خَلْخَالَ يَجُولُ وَلَا قُلْبَا  
وَمَنْ أَجْلَهَا أَحْبَبْتُ أَخْوَالَهَا كَلْبَا

ولا أرى  
حُبَّهَا

صُمُوتَانِ مِنْ مَلَأَ وَقَلَّةٍ مَنْطِقِ

ت أوسعا

قَتَا الخِطَّ إِلَّا أَنْ تَلِكَ دَوَائِلُ  
لِهَا وَشُحًّا جَالَتْ عَلَيْهَا الخِلاخِلُ

أواينس  
تِيلَ صِيَّرَتْ

تَحْتَ الظَّلَامِ بِهِ فَمَا نَطَقَا  
مَلَأَ العَبِيرُ بِسِيرِهَا الطُّرُقَا

شَتْ  
مَتْ

كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ حَدَقِ نِطَاقَا

ه  
مخلع البسيط:

مَثَقَلُ فَهِيَ عَنكَ بُوْثُ  
وُشُحُهَا كَظْمِ صُمُوثُ

ن  
مِلْحَابِ

لَا كَالتي تحسن في النَّدْرَةِ

تُحْطِئُ بِالإِحْسَانِ فِي النَّدْرَةِ

بن طليق، وكان قد تقلد قضاء البصرة: السريع:

يَخْطِئُ فِينَا مَرَّةً بِالصَّوَابِ  
مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَهَذَا عَذَابُ

لا  
مضى

كما قال مسلم بن الوليد يهجو قومًا: الكامل:

حَسُنَتْ مَنَازِرُهُمْ بِقَبْحِ الْمَخْبِرِ  
 قَلِمَا التَّقِينَا صَغَرَ الْخَبْرُ الْخَبْرُ  
 وَكَمِيئُهُ الْمَخْفِي عَلَيْهِ كَمِينُ  
 مَا يَحْسِبُ النَّاسُ أَنَّهُ عَطْبُهُ  
 وَسَتَى فَمَا تَصْطَلَاذُ عَيْرِ الصَّيْدِ  
 فَوَارِسَ يَصْطَادُ الْفَوَارِسَ صَيْدُهَا

حَبْرُهُمْ  
 قَائِهِ  
 تَبِينُهُ  
 إِذَا عَدَّتْ  
 دَارِ أَمْنِهَا

حزام بَعْضَةِ الْمَوْمُوقِ

قلبه ألبحتري فقال: المنسرح:  
 يَسْرُنِي الشَّيْءُ قَدْ يَسُوءُكُمْ نَوَةٌ يَوْمًا يَخَامِلُ لِقْبُهُ  
 قال أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر: المعنى في المصراع الأول أُتِينُ منه في الثاني؛ ألا ترى أنه لو قال: إنه ليسوءك الشيء قد يسر، كان مثل ذلك المعنى مستوياً، إلا أنه قلبه لحاجته.

قال ابن الرومي يهجو مغنية: الرمل:  
 قينة ملعونة من أجلها  
 فإذَا عَنَت تَرَى فِي خَلْقِهَا  
 رَقَصَ اللَّهُوَّ مَعًا مَن رَفِصَهُ  
 كل عِرْقٍ مِثْلَ بَيْتِ الْأَرْضَةِ  
 فقلبه ابن المعتز فقال يصف أرضة أكلت له كتاباً: الرجز  
 تَنْنِي أَنَابِيْبَ لَهَا فِيهَا سَبَلٌ  
 مثل العروق لا ترى فيها خَلَلٌ  
 وهذا كثير يُكْتَفَى منه باليسير.

ما لا ينقلب من المعاني  
 ومن المعاني ما لا ينقلب: ألا ترى أنك تقول: نام القوم حتى كأنهم موتى، ولا يحسن أن تقول: ماتوا حتى كأنهم نيام؛ وقد أخذ على أبي نواس قوله يصف داراً وقف بها: السريع:

كأنها إذ حرسَتْ جارم  
 بين يَدَيِ تَفْنِيده مُطْرِقُ  
 قالوا: إنما يجب أن يشبه الجارم إذا عدلوه فسكت وانقطعت حجته بالدار الخالية التي لا تُجيب.  
 وأخذوا عليه قوله: البسيط:

كأن نيراننا في جنبِ حصنهم  
 معصفرات على أرسانِ  
 وقد تبعه أبو تمام الطائي فقال في الأفشين لما أحرق: الكامل:  
 ما زال سرُّ الكُفْرِ بَيْنَ  
 حتى اصْطَلَى سرَّ الزنادِ  
 ضُلُوعِهِ  
 الواري  
 نازٍ يساورُ جسمَه من حرها  
 لَهَبٌ كَمَا عَصَفَرَتْ شَيْقُ إِزَارِ  
 طارت له شُعَلٌ يَهْدَمُ  
 أَرْكَائُهُ هَدْمًا بَغِيرِ غَبَارِ  
 لفحها  
 وفعلنَ فاقرةً بكُلِّ قَقَارِ  
 فصلنَ منه كلَّ مجمَعِ

مَفْصِل

صَلَّى لَهَا حَيًّا، وَكَانَ وُقُودَهَا      مَيِّتًا، وَيَدْخُلُهَا مَعَ الْكُفَّارِ  
وَكِذَاكَ أَهْلُ النَّارِ فِي الدُّنْيَا      يَوْمَ الْقِيَامَةِ جُلُّ أَهْلِ النَّارِ  
هَم

أردت البيت الثاني، قالوا: وإنما تشبه الثياب المعصفرة بالنار؛ فهذا وما أشبهه لا يتوازن انعكاسه، وتتضاد قضاياه؛ وإنما يصح القلب فيما يتحقق تضاده أو يتقارب.

قطعة من شعر أهل العصر في ذكر النجوم  
قال أبو الفتح البستي: البسيط:

قَدْ غَضَّ مِنْ أَمَلِي أَنِّي أَرَى      أَقْوَى مِنَ الْمَشْتَرِي فِي أَوَّلِ  
عَمَلِي      الْحَمَلِ  
وَأَنِّي رَاحِلٌ عَمَّا أَحَاوِلُهُ      كَأَنِّي أَسْتَدْرُ الْحِظَّ مِنْ  
رُحَلِ

وقال: البسيط

إِذَا غَدَا مَلِكٌ بِاللَّهِوِ      فَاحْكَمْ عَلَى مُلْكِهِ بِالْوَيْلِ  
مَشْتِغَلًا      وَالْحَرْبِ  
أَلَمْ تَرَ الشَّمْسَ فِي الْمِيزَانِ      لَمَّا غَدَا بَرَجَ نَجْمِ اللَّهِوِ  
هَابِطَةً      وَالطَّرَبِ؟

وقال: الوافر

وَقَدْ تُدْنِي الْمَلُوكُ لَدَى رِضَاهَا      وَتُبْعِدُ حِينَ تَحْتَقِدُ احْتِقَادَا  
كَمَا الْمَرِيخُ فِي التَّثْلِيثِ      وَفِي التَّرْبِيعِ يَسْلُبُ مَا أَقَادَا  
يُعْطِي

وقال: المتقارب

أَلَا فَتَقُوا بِي فَإِنِّي كَمَا      تَمَدَّحْتَ قَلِيمْتَحْنٍ مِنْ يُحِبُّ  
فَمَا كَوَكْبِي رَاجِعًا فِي الْوَفَاءِ      وَلَا بُرْجُ قَلْبِي بِالْمَنْقَلَبِ

وقال: المتقارب

لئن كَسَفُونَا بِلَا عَلَّةٍ      وَفَازَتْ قِدَاخُهُمْ بِالظَّفَرِ  
فَقَدْ يَكْسِفُ الْمَرْءَ مَنْ دُونَهُ      كَمَا يَكْسِفُ الشَّمْسَ جِرْمُ  
الْقَمَرِ

وقال: الرمل:

شَرَفُ الْوَعْدِ بُوْعْدٍ مِثْلِهِ      مَا فِيهِ بَزِيغٌ وَخَلَلٌ  
وَدَلِيلُ الصَّدَقِ فِيمَا قُلْتُهُ      شَرَفُ الْمَرِيخِ فِي بَيْتِ رُحَلِ

وقال: الكامل:

قُلْ لِلَّذِي عَرَّتَهُ عِرَّتُهُ مُلْكِهِ      حَتَّى أَخَلَ بِطَاعَةِ النَّصَحَاءِ  
شَرَفُ الْمَلُوكِ بَعْلَمِهِمْ      وَكَذَاكَ أَوْجُ الشَّمْسِ فِي  
الْجُوزَاءِ      وَبِرَأْيِهِمْ

وقال: المتقارب:

وَقَدْ يَفْسُدُ الْمَرْءُ بَعْدَ الصَّلَاحِ      فَسَادَ الْأَمَاكِنِ، وَالشَّرُّ يُعْغِي  
كَمَا السَّعْدُ يَقْبَلُ طَبِيعَ      إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعٍ غَيْرِ سَعْدِ  
النَّحُوسِ

وقال: الرجز:

من بَعْدِ طَوْلِ الْعَهْدِ بِالْمَوَارِدِ  
من سَيِّدِ مَحْضِ التَّجَارِ مَا حِدِ

ما أَنَيْسُ ظَمَانٍ بِمَاءٍ بَارِدِ  
إِلَّا كَأَنْسِي بِكِتَابٍ وَارِدِ  
كَأَنَّمَا اسْتَمَلَاهُ مِنْ عَطَارِدِ

وقال: الكامل:

لِرِيَّاسَةٍ، وَتَصَاغُرُوا وَتَخَادَمُوا  
إِلَّا عَطَارِدَ حِينَ صُورَ آدَمُ

يَا مَعْشَرَ الْكِتَابِ لَا تَتَعَرَّضُوا  
إِنَّ الْكَوَاكِبَ كُنْ فِي أَشْرَافِهَا

وقال: المتقارب:

لَهُ الْخُلُقُ الْأَشْرَفُ الْأَطْرَفُ  
بَعْدَ هُوِ الْأَطْرَفِ الْأَطْرَفُ  
عَطَارِدَ فِي بَيْتِهِ أَشْرَفُ

دَعَانِي إِلَى بَيْتِهِ سَيِّدُ  
فَلَا رَمْتُ بَيْتِي وَلَا طَفْتُهُ  
عَطَارِدُ تَجْمِي، وَلَا شَكُّ أَنْ

وقال: البسيط:

وَصِرْتُ بَعْدَ تَوَاءِ رَهْنٍ أَسْفَارِ  
وَالشَّمْسُ فِي كُلِّ بُرْجٍ ذَاتِ  
أَنْوَارِ

لِنَنْ تَنْقَلْتُ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارِ  
فَالْحَرُّ عَزِيزُ النَّفْسِ حَيْثُ  
تَوَى

وقال: الطويل:

وَلِلدَّهْرِ حَكْمٌ لِلْجَمِيعِ صَدُوعُ  
وَلِلشَّمْسِ مِنْ بَعْدِ الْغُرُوبِ  
طَلُوعُ

لِنَنْ صَدَعَ الدَّهْرُ الْمَشْتَتُ  
شَمَلْنَا  
فَلِلتَّجْمِ مِنْ بَعْدِ الرَّجُوعِ  
اسْتِقَامَةُ

وقال لمحبوس: الطويل:

تَضِيءُ بِهِ الْأَفَاقُ لِلْبَدْرِ  
وَالشَّمْسِ  
فَأُولُ كَوْنِ الْمَرْءِ فِي أَصِيْقِ  
الْحَبْسِ

حُبِّبْتِ وَمِنْ بَعْدِ الْكَسُوفِ  
تَبَلَجُ  
فَلَا تَعْتَقِدْ لِلْحَبْسِ غَمًّا  
وَوَحْشَةً

وقال أيضاً: الكامل:

حَاشَاكَ أَنْ تَنْقَادَ لِلْمَرِيخِ

يَا مَنْ تَوَلَّى الْمَشْتَرِي تَدْبِيرَهُ

وقال: الكامل:

مَا كُلُّ تَدْبِيرِ الْبُرُوجِ بِضَائِرِ

لَا تَفْزَعَنَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ  
مُفْزِعِ

وقال يرثي أبا القاسم صاحب: الطويل:

كَذَاكَ كَسُوفُ الْبَدْرِ عِنْدَ  
تَمَامِهِ

فَقَدْنَاهُ لَمَّا تَمَّ وَاعْتَمَ بِالْعُلَا

وقال أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد بن درست لأبي الفضل الميكالي: الوافر:

فَوَجْهَكَ عِنْدَنَا الْبَدْرُ الْمُقِيمُ  
فَوَجْهَكَ نَجْمٌ سَعِدٍ مُسْتَقِيمُ

إِذَا مَا غَابَ وَجْهُ الْبَدْرِ عِنَّا  
فَإِنْ رَجَعْتَ نُجُومُ السَّعِدِ  
يَوْمًا

وقال مسكويه الخالدي: البسيط:

فَضِيلَةُ الشَّمْسِ لَيْسَتْ فِي  
مَنَازِلِهَا  
مَا زَادَ ذَلِكَ شَيْئًا فِي  
فَضَائِلِهَا

لَا يَعْجَبُكَ حَسْنُ الْقَصْرِ  
تَنْزَلُهُ  
لَوْ زِيدَتْ الشَّمْسُ فِي  
أَبْرَاجِهَا مَائَةً

وقال أبو بكر الخوارزمي: الطويل:

رَأَيْتُكَ إِنِ أَيْسَرْتَ خَيْمَتَ  
عَنْدَنَا  
لِزَامًا، وَإِنِ أَعْسَرْتَ زُرَّتْ  
لَمَامَا

فَمَا أَنْتَ إِلَّا الْبَدْرُ: إِنِ قَلَّ  
ضَوْؤُهُ

وهذا كقول إبراهيم بن العباس الصولي في محمد بن عبد الملك الزيات: الرمل:

أَسَدٌ صَارَ إِذَا مَا تَعَنَّهُ  
يَعْرِفُ الْأَبْعَدَ إِنِ أَثْرَى، وَلَا  
وَأَبُّ بَرٍّ إِذَا مَا قَدْرَا  
يَعْرِفُ الْأَدْنَى إِذَا مَا افْتَقَرَا

وقال ابن المعتز: الطويل:

إِذَا مَا أَرَادَ الْحَاسِدُونَ  
أَنْهَدَامَهُ

وَمَاذَا يَرِيدُ الْحَاسِدُونَ مِنْ  
أَمْرِيَّ

إِذَا مَا هُوَ اسْتَغْنَى اهْتَدَى  
لِافْتِقَارِهِمْ  
وَلَا تَهْتَدِي يَوْمًا إِلَيْهِمْ  
مَفَاقِرُهُ

وَكَانُوا كَرَامَ كَوْكَبَا بِبِصَاقِهِ  
فَرَدَّ عَلَيْهِمْ وَبَلَهُ وَمَوَاطِرُهُ

وهذا البيت كما قال بعض العرب في إحدى الروايات: الطويل:

رَمَانِي بِأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي  
بِرِيًّا وَمِنْ جَالِ الطَّوِيِّ رَمَانِي

الجول والجال: الناحية، والطوي: البئر؛ يريد رمانى بما عاد عليه، والرواية المشهورة: من أجل الطوي، فعلى هذا تسقط المناسبة بينه وبين قول ابن المعتز.

من أخبار الأصمعي

قال بعض الرواة: كنا مع أبي نصر راوية الأصمعي في رياض من المذاكرة تجتني ثمارها، وتجتلي أنوارها، إلى أن أقصنا في ذكر أبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي؛ فقال: رحم الله الأصمعي! إنه لمعدين حكم، وبحر علم، غير أنه لم نر قط مثل أعرابي وقف بنا فسلم، فقال: أيكم الأصمعي؟ فقال: أنا ذاك، فقال: أأذنون بالجلوس؟ فأذنا له، وعجبنا من حسن أدبه مع جفاء أدب الأعراب.

قال: يا أصمعي، أنت الذي يزعم هؤلاء التفر أنك أثقبتهم معرفة بالشعر والعربية، وحكايات الأعراب؟ قال الأصمعي: فيهم من هو أعلم مني، ومن هو دوني، قال: تبتدونني من بعض شعر أهل الحضرة حتى أقيسه على شعر أصحابنا؟ فأنشده شعرا لرجل امتدح به مسلمة بن عبد الملك: الطويل:

أَمْسَلَمْ، أَنْتَ الْبَحْرُ إِنِ جَاءَ  
وَأَرْدُ  
وَأَنْتَ كَسِيفُ الْهِنْدُؤَانِيَّ إِنِ  
عَدَّتْ

وَمَا خُلِقْتَ أَكْرَمَةً فِي أَمْرِيَّ  
لَهُ

وَلَا غَايَةَ إِلَّا إِلَيْكَ مَابَهَا  
بِهَا، وَعَلَى كَفَيْكَ يَجْرِي  
حِسَابُهَا

كَأَنْكَ دِيَّانٌ عَلَيْهَا مُوَكَّلٌ  
إِلَيْكَ رَحْلَنَا الْعَيْسَ إِذْ لَمْ نَجِدْ

أَخَا ثِقَةَ يَرْجَى لَدَيْهِ ثَوَابَهَا

لها

قال: فتبسّم الأعرابي، وهزّ رأسه، فظننا أن ذلك لاستجسانه الشعر، ثم قال: يا أصمعي، هذا شعزّ مهلهل خلق النسج، خطؤه أكثر من صوابه، يغطي عيوبه حسن الروي، ورواية المنشد؛ يشبهون الملك إذا امئدح بالأسد، والأسد أبخر شتيم المنظر، وربما طرده شردمة من إمائتا، وتلاعب به صبياننا، ويشبهونه بالبحر، والبحر صعب على من ركبته، مّر على من شرّبه، وبالسيف وربما خان في الحقيقة، وتبا عند الضربة! ألا أنشدتني كما قال صبي من حيننا! قال الأصمعي: وماذا قال صاحبكم؟ فأنشده: البسيط:

لم يُعزّ إكرامها إلا إلى الهول فالتيلُ يشكرُ منه كثره التيلُ في كرهه عند لفّ الخيل بالخيل أو زاحم الصمّ ألجأها إلى الميل وعند أعدائه أجرى من السيل ولا تراه إليها ساحب الذيل	إذا سألت الوري عن كل مكرمة فتى جواد أذاب المال تائله الموئ يكره أن يلقى مئيته وزاحم الشمس أبقى الشمس كاسيفة أمصى من النجم إن نابته نائبه لا يستريح إلى الدنيا وزينتها يقصّر المجد عنه في مكارمه
--	--

قال أبو نصر: فأهتتنا والله ما سمعنا من قوله، قال: فتأى الأعرابي، ثم قال للأصمعي: ألا تنشدني شعرا ترناخ إليه النفس، ويسكن إليه القلب؟ فأنشده لابن الرقاع العاملي: الطويل:

مؤشّرة يسبي المعايق طيبها إذا ارتشقت بعد الرقاد عروبها مئى كل نفس حيث كان حبيبها	وناعمة تجلو بعود أراكة كأن بها خمرا بماء غمامة أراك إلى تجد تحن، وإنما
---	--

فتبسّم الأعرابي وقال: يا أصمعي، ما هذا بدون الأول، ولا فوجه، ألا أنشدتني كما قلت؟ قال الأصمعي: وما قلت؟ جعلت فداك! فأنشده: الطويل:

فقلبي عن كل الوري فارغ يكر وتكفيك ضوء البدر إن حجب البدر جميلاً، وهل في مثلها يحسن الصبر؟ ووالله ما من ريقها حسبك الخمير لكان لمس الذر في جليدها أثر	تعلقها بكرة، وعلفت حبها إذا احتجبت لم يكفك البدر ضوءها وما الصبر عنها، إن صبرت، وجدته وحسبك من خمير يفوئك ريقها ولو أن جلد الذر لامس جليدها
---	---

ولو لم يكن للبدْر ضِدًّا  
وتفضله في حُسْنِها لصفَا  
جمالها  
البدْرُ

قال أبو نصر: قال لنا الأصمعي: اكتبوا ما سمعتم ولو بأطرافِ المَدَى في رِقاق الأكياد! قال: وأقامَ عندنا شهراً، فجمعَ له الأصمعيُّ خمسمائة دينار، وكان يتعاهدنا في الحين بعد الحين، حتى مات الأصمعي وتفرَّق أصحابنا! ففقر من كلام الأعراب في ضروب مختلفة قال الجاحظ: ليس في الأرض كلامٌ هو أمتع، ولا أنفع، ولا أنق، ولا ألد في الأسماع، ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة، ولا أفنق للسان، ولا أجود تقويماً للبيان، من طولِ استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء.

قال ابن المقفع، وقد جرى ذكْرُ الشعرِ وفضيلته: أي حكمة تكون أبلغ، أو أحسن، أو أعرب، أو أعجب، من غلام بدوي لم ير ريفاً، ولم يشبع من طعام؛ يستوحش من الكلام، ويفزع من البشر، ويأوي إلى القفر واليرابيع والطبّاء، وقد خالط الغيلان، وأنس بالجان؛ فإذا قال الشعر وصف ما لم يره، ولم يغذ به، ولم يعرفه، ثم يذكر محاسن الأخلاق ومساوئها، ويمدح ويهجو، ويدم ويعاتب، ويشبب ويقول ما يكتب عنه، ويروي له، ويبقى عليه. وقال بعض الأعراب: الطويل:

وإني لأهدى بالأوانس  
كالدمى  
وإني على ما كان من  
عُنْجِيَّتِي  
وإني بأطراف القنّاء للعوب  
ولوثة أعرابيتي لأديب

كأن الأدب غريب من الأعراب، فافتخر بما عنده منه. وقال الطائي في فطنتهم، يستعطف مالك بن طوق على قومه بني تغلب: الكامل: لا رقة الخضر اللطيف عدّتهم وتباعدوا عن فطنة الأعراب فإذا كسفتهم وجدّت لديهم كرم النفوس وقلة الآداب ووصف أعرابي رجلاً فقال: هو أظهر من الماء، وأرق طباعاً من الهواء، وأمضى من السيل، وأهدى من النجم. ووصف أعرابي رجلاً فقال: ذاك والله من ينفع سلّمه، ويتواصف جلمه، ولا يُستمرأ ظلّمه. وقال أعرابي: جلسْتُ إلى قوم من أهل بغداد فما رأيتُ أرجح من أحلامهم، ولا أطيّش من أقلامهم.

وذكر أعرابي من بني كلاب رجلاً فقال: كان والله الفهم منه ذا أذنين، والجواب ذا لِسَانين، ولم أرَ أحداً أرتق لخلل رأي، ولا أبعد مسافة روية، ومَرَاد طَرْفٍ منه؛ إنما كان يرمي بهمته حيث أشار إليه الكرم، وما زال يتحسى مرارة أخلاق الإخوان، ويسقيهم عذوبة أخلاقه.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: والله لكأن القلوب والألسن رِيضت له، فما تُعقد إلا على وُدّه، ولا تنطق إلا بحمده. وقال أعرابي: أقيح أعمال المقتدرين الانتقام، وما استنبط الصواب بمثل المشاورة، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكبر. قال الأصمعي: وخطبنا أعرابي بالبادية، فقال: أيها الناس، إنّ الدنيا دارٌ مفر، والآخرة دار مقر؛ فخذوا من مفركم لمفركم، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم.

قال المعافر بن نعيم: وقفْتُ أنا ومعبد بن طوق العنبري على مجلس لبني العنبري، وأنا على ناقة وهو على حمار، فقاموا فبدأوني فسلموا علي؛ ثم انكأوا على معبد،

فقبض يده عنهم؛ وقال: لا، ولا كرامة! بدأتُم بالصغير قبل الكبير، وبالمولى قبل العربي، وبالمفحم قبل الشاعر، فأسكت القوم، فانبهرى إليه غلام، فقال: بدأنا بالكاثر قبل الأمي، وبالمهاجر قبل الأعرابي، وبراكب الراحلة قبل راكب الحمار. ووصف أعرابي قومه فقال: ليوث حَرْب، وعيوث جَدْب، إن قاتلوا أبْلُوا، وإن بذلوا أَعْتُوا.

ووصف أعرابي قوماً فقال: إذا اصطَفُوا سَقَرَتْ بينهم السهام، وإذا تصافَحُوا بالسيوف فَعَرَّ قَمَه الجِمامُ.

وُسئِلَ أعرابي عن صديق له، فقال: صَفِرَتْ عِيَابُ الود بيني وبينه بعد امتلائها، واكفَّهْرَتْ وجوهُ كانت بمائها.

وقال الأصمعي: وسمعت أعرابياً يقول: إن الآمال قَطَعَتْ أعناق الرجال، كالسراب عَرَّ مَنْ رآه، وأخلف من رجاه، ومَنْ كان الليل والنهار مَطِيئته أسرع السير والبلوغ به: البسيط:

والمرءُ يفرح بالأيام يقطعها  
وكلُّ يوم مضى يُدني من  
الأجل

وذكر أعرابي مصيبة نالته، فقال: إنها، والله، مصيبة جعلت سُودَ الرؤوس بيضاً، وبيضَ الوجوه سوداً، وهونت المصائب، وشيبت الذوائب. وهذا كقول عبد الله بن الزبير الأسدي: الوافر:

رَمَى الحِدَّتَانُ نِسْوَةَ آلِ حَرْبٍ  
بمقدارٍ سَمَدَنَ له سُموذا

فرد شعورهن السُّود بيضاً  
ورد وجوههن البيضَ سُوداً

وإنك لو رأيت بكاءً هُنْدٍ  
ورملة إذ تُصْكَانِ الخدودا

بَكَيْتُ بُكَاءً مُعْوَلِيَةً حَزِينٍ  
أصابَ الدهرُ واحدها الفقيدا

ونظيرُ هذا التطابق بين السواد والبيض، وإن لم يكن من هذا المعنى، قولُ ابن الرومي: الخفيف:

يا بياضَ المَشْيِبِ سَوَّدَتْ  
عند بياضِ الوجوه سُودِ

وَجْهِي  
القرونِ

فلعمري لأخفيتك جَهْدِي  
عن عياني وعن عيانِ العيونِ

ولعمري لأمنعك أن تَصُ  
حك في رَأْسِ أسْفِ محزونِ

بسوادٍ فيه ابيضاضٌ لوجهي  
وسوادٌ لوْجَهَكَ المَلْعُونِ

سأل أعرابيان رجلاً، فحرمهما، فقال أحدهما لصاحبه: نزلت والله بوادٍ غير ممطور، وأتيت رجلاً بك غير مسرور، فلم تُدرك ما سألت، ولا نلت ما أمّلت؛ فارتجل بندم، أو أقم على عَدَم.

قال الأصمعي: وسمعتُ أعرابياً يقول: عَقَلْنَا ولم يَعْقِلِ الدهرُ عَنَّا، فلم نتعظ بغيرنا حتى وُعِظَ غَيْرُنَا بنا، فقد أدركت السعادة من تنبه، وأدركت الشقاوة من عَقَل، وكفى بالتجربة واعظاً.

وقال أعرابي لرجل: أشكر للمنعم عليك، وأنعم على الشاكر لك، تستوجب من ربك زيادته، ومن أخيك مُتَاصحته.

ومدح أعرابي رجلاً فقال: ذلك والله فَسِيحُ الأدب، مُسْتَحْكِمُ السبب، من أيِّ أقطاره أتيتهُ تُنْني عليه بكرمِ فعال، وحُسنِ مقال.

وذمَّ أعرابي رجلاً فقال: أفسد أخرتَه بصلاحِ دُنْيَاه، ففارق ما أصلح غيرَ راجع إليه، وقدم على ما أفسد عَيْرَ منقل عنه، ولو صدق رجلٌ نفسه ما كَدَّبَتْهُ، ولو ألقى زمامه أوطاه رَاجِلَتُهُ.

وقال أعرابي: خرجت حين انحدرتُ أيدي النجوم، وشالت أرجلها، فما زلتُ أصدع الليل حتى انصدع الفجر.

وقال أعرابي: الرجز:

وقد تَعَالَتْ دَمِيلَ الْعَنْسِ  
بِالسَّوْطِ فِي دَيْمُومَةٍ  
كَالتَّرْسِ

إِذْ عَرَجَ اللَّيْلُ بُرُوجَ الشَّمْسِ

ومن مליح الاستعارة في نحو هذا قولُ الحسن بن وهب: شربت البارحة على وجهِ الجوزاء؛ فلما انتبه الفجرُ نمت، فما عقلت حتى لَحَفَنِي قَمِيصُ الشَّمْسِ. وقال أعرابي لصاحبه في شيء ذكره: قل إن شاء الله، فإنها تُرْضِي الرَّبَّ، وتُسَخِّطُ الشيطان، وتُذْهِبُ الْجَنَّةَ، وتَقْضِي الْحَاجَةَ. وروى العتبي عن أبيه قال: سمعت أعرابياً يقول لأخيه في معاتبته جَرَبْتُ بَيْنَهُمَا: أَمَا وَاللَّهِ لِرُبِّ يَوْمٍ كَتَنُورِ الطَّاهِي، رِقَاصٌ بِالْحَمَامَةِ، قَدْ رَمَيْتُ تَفْسِي فِي أَحْيَجِ سَمُومِهِ، أَحْتَمِلُ مِنْهُ مَا أَكْرَهُ لَمَّا أَحَبَّ. قال أبو العباس محمد بن يزيد: وأحسب العتبي صنع هذا الكلام، وأخذه من قول بَشَّارِ: الطويل:

ويوم كَتَنُورِ الإِمَاءِ سَجَرَتَهُ  
وَأَوْقَدَنَ فِيهِ الْجَزَلَ حَتَّى  
تَضَرَّمَا

رَمَيْتُ بِنَفْسِي فِي أَحْيَجِ  
وَبِالْعَيْسِ حَتَّى بَصَّ مَنَحَرَهَا  
سَمُومِهِ  
دَمًا

أخذ هذا المعنى بعضُ أصحاب أبي العباس ثعلب فقال يهجو المبرد: الطويل:  
ويوم كَتَنُورِ الطَّاهَاةِ سَجَرَتُهُ  
ظَلَلْتُ بِهِ عِنْدَ الْمَبْرَدِ جَالِسًا  
عَلَى الْقَبْرِ، وَهِيَ مُوجَعَةٌ فَقَالَتْ: وَاللَّهِ يَا بَنِيَّ لَقَدْ عَدَوْتُكَ رَضِيعًا، وَفَقَدْتُكَ سَرِيعًا، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَالِيْنَ مَدَّةٌ التَّدْبُعِ بِعَيْشِكَ فِيهَا، فَأَصْبَحْتَ بَعْدَ النَّضَارَةِ وَالْعَصَارَةِ وَرَوْنِقِ الْحَيَاةِ وَالتَّنَسُّمِ فِي طَيْبِ رَوَائِحِهَا، تَحْتَ أَطْبَاقِ الثَّرَى جَسَدًا هَامِدًا، وَرُقَاتًا سَحِيقًا، وَصَعِيدًا جُرْزًا؛ أَي بَنِيَّ! لَقَدْ سَحَبْتِ الدُّنْيَا عَلَيْكَ أَذْيَالَ الْفَنَاءِ، وَأَسْكَنْتِكَ دَارَ الْبِلَى، وَرَمَيْتِي بَعْدَكَ نَكْبَةً الرَّدَى، أَي بَنِيَّ، لَقَدْ أَسْفَرَ لِي وَجْهَ الدُّنْيَا عَنِ صَبَاحِ دَاجِ ظِلَامِهِ. ثم قالت: أَي رَبِّ وَمَنْكَ الْعَدْلُ، وَمِنْ خَلْقِكَ الْجَوْرُ، وَهَبْتَهُ لِي فُرَّةَ عَيْنٍ فَلَمْ تُمَتِّعْنِي بِهِ كَثِيرًا، بَلْ سَلَبْتَنِيهِ وَشِيكَأ؛ ثم أمرتني بالصبر، وَوَعَدْتَنِي عَلَيْهِ الْأَجْرَ، فَصَدَقْتَ وَعَدَّكَ، وَرَضِيْتَ قِضَاءَكَ، فَرَحِمَ اللَّهُ مِنْ تَرَحُّمِ عَلَى مَنْ اسْتَوَدَعْتَهُ الرَّذْمَ، وَوَسَدَّتُهُ الثَّرَى؛ اللَّهُمَّ ارْحَمْ غَرْبَتَهُ، وَأَيْسِرْ وَحْشَتَهُ، وَأَسْتُرْ عَوْرَتَهُ، يَوْمَ تُكَشِّفُ الْهَنَاتِ وَالسُّوءَاتِ.

فلما أرادت الرجوع إلى أهلها وقفت على قبره، فقالت! أي بني، إني قد تَزَوَّدْتُ لِسَفْرِي، فَلَيْتَ شِعْرِي مَا زَادُكَ لِبُعْدِ طَرِيقِكَ، وَيَوْمَ مَعَارِكَ؟ اللَّهُمَّ إني أسألك له الرضا برضائي عنه. ثم قالت: اسْتَوَدَعْتُكَ مَنْ اسْتَوَدَعْتَنِيكَ فِي أَحْسَائِي جَنِينًا؛ وَأَثَكَلَ الْوَالِدَاتُ! مَا أَمْضَ حِرَارَةَ قُلُوبِهِنَّ، وَأَقْلَقَ مَضَاجِعِهِنَّ، وَأَطْوَلَ لَيْلِهِنَّ، وَأَقْصَرَ نَهَارِهِنَّ، وَأَقْلَقَ أَنْسَهِنَّ، وَأَشَدَّ وَحْشَتِهِنَّ، وَأَبْعَدَهِنَّ مِنَ السُّرُورِ، وَأَقْرَبَهِنَّ مِنَ الْأَحْزَانِ.

لم تزل تقولُ هذا ونحوه حتى أبكت كل مَنْ سَمِعَهَا. وَحَمَدْتَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَاسْتَرْجَعْتَ وَصَلْتَ رَكَعَاتٍ عِنْدَ قَبْرِهِ وَأَنْطَلَقْتَ.

وَأَنْشَدَ الْمُفَضَّلُ الضَّبِّيُّ لَامْرَأَةً مِنَ الْعَرَبِ تَرْتِي ابْنًا لَهَا: الْكَامِلُ:

يَا عَمْرُو مَالِي عَنْكَ مِنْ صَبْرٍ  
لِلَّهِ يَا عَمْرُو، وَأَيَّ فِتْنَى  
يَا عَمْرُو يَا أَسْفَى عَلَى عَمْرُو  
كَفَنْتِ يَوْمَ وُضِعَتْ فِي الْقَبْرِ؟  
وَعَلَى عَصَارَةِ وَجْهِهِ النَّصْرِ  
أَحْثُوا التُّرَابَ عَلَى مَقَارِقِهِ

وبدا مُنِيرَ الوجه كالبدر  
 ورأوا شمائل سَيِّدِ عَمْرٍ  
 وَعَدَا مع الغَادِينَ في السفر  
 مَرَطَى الجِرَاءِ شَدِيدَهُ الأَسْرِ  
 فَلِجْ يَقلِبُ مُقْلَتِي صَفْرٍ  
 في اليُسْرِ أَعْدُوهُ وفي العُسْرِ  
 فيه قَبِيلَ تَلَاخِقِ الثَغْرِ  
 في الأَرْضِ بين تَتَائِفِ عُبْرٍ  
 وَأَجَلُهُ في المَهْمَةِ القَفْرِ  
 من قُنْرٍ مَوْمَأَةٍ إلى قُنْرِ  
 حيث انتَوَيْتُ به ولا أُدْرِي  
 سَوَقَ المُعِيرِ تُسَاقَ للَعْنْرِ  
 ورمى فَأَعْفَى مَطْلِعَ الفَجْرِ  
 رَمْسٌ يُسَاوِرُ منه كَالسُّكْرِ  
 وَدُعِرْتُ منه أَيَّمَا دُعْرِ  
 قد كَدَحَتْ في الوَجْهِ والتَّحْرِ  
 مما يَجِيثُ به من الصَّدْرِ  
 كالثوبِ عند الطَيِّ والنَشْرِ  
 من قبل ذلك حَاضِرَ النُّصْرِ  
 بين الوريدِ وَمَدَقِعِ السَّحْرِ  
 جَلَّتْ مَصِيبُهُ عن القَدْرِ  
 مالي وما جَمَعْتِ من وَفْرِ  
 آثَرُهُ بالشَّطْرِ من عُمْرِي  
 وَرَمَى عَلَيَّ وقد رَأَى قَفْرِي  
 بَابِنِي وشَدَّ بأُزْرِهِ أُرْرِي  
 كُنَّا إِلَيْكَ، صَفَائِحُ الصَّخْرِ  
 إِمَّا مَصَّيْتُ فَنَحْنُ بالإثْرِ  
 لا بد سَالِكهَا على سَفْرِ  
 يتوقعون وهم على دُعْرِ  
 قَسْرًا؛ فقد دَلَّوا على القَسْرِ  
 بأعلى سَنَامِي فَالِحِ يَتَطَوَّحُ  
 ويُورِي كَرِيمَاتِ النَّدَى حين  
 يَقْدَحُ  
 هَلَالًا بَدَا في جَانِبِ الأَقْفِ  
 يَلْمَحُ  
 وَيَقْصُرُ عنه مَدْحٌ مَنُ يَتَمَدَّحُ

حين استوى وَعَلَا الشَّبَابُ بهِ  
 ورجا أَقَارِبُهُ مَنَاقِعُهُ  
 وَأَهْمَهُ هَمِّي فساوَرَهُ  
 تَعَدُّو به سَقْرَاءَ سَامِيَةٍ  
 ثَبِتَ الجَنَانُ بهِ، وَيَقْدَمُهَا  
 رَبِيئُهُ دَهْرًا أَفْتَقُهُ  
 حتى إِذَا التَّامِيلُ أَمَكِنَنِي  
 وَجَعَلْتُ من شَغْفِي أَنْقَلُهُ  
 أَدَعِ المَنَارِعَ والحِصُونَ بهِ  
 ما زِلْتُ أَضْعِدُهُ وَأُحْدِرُهُ  
 هَرَبًا بهِ والمَوْتُ يَطْلُبُهُ  
 حتى دَفَعْتُ بهِ لِمَصْرَعِهِ  
 ما كان إِلا أَن هَجَعْتُ له  
 ورمى الكَرَى رَاسِي وَمال بهِ  
 إِذ راعني صوت هَبِيت بهِ  
 وَإِذَا مَنِيئُهُ تَسَاوَرَهُ  
 وَإِذَا له عَلَقٌ وَحَشْرَجَةٌ  
 والموتُ يَفِيضُهُ وَيَبْسُطُهُ  
 فَدَعَا لِأَنْصَرَهُ وَكُنْتُ له  
 فَعَجَزْتُ عنه وهي رَاهِقَةٌ  
 فَمَضَى وَأَي فُتِي فُجَعْتُ بهِ  
 لو قِيلَ تَفْدِيهِ بِذَلِكَ له  
 أو كُنْتُ مَقْتَدِرًا على عُمْرِي  
 قد كُنْتُ ذَا قَفْرِ له، فَعَدَا  
 لو شاء رَبِّي كَأَن مَتَعَنِي  
 بُنَيْتُ عَلَيْكَ بُنْيَ، أَحوج ما  
 لا يَبْعَدُنكَ اللهُ يا عَمْرِي  
 هَذِي سَبِيلُ النَّاسِ كُلِّهِمْ  
 أو لا تَرَاهُمْ في ديارِهِمْ  
 والموتُ يُورِدُهُمْ مَوَارِدَهُمْ  
 وقال أعرابي يمدح رجلاً الطويل:  
 يَمُدُّ نِجَادَ السَّيْفِ كَأَنه  
 وَيُدْلِجُ في حَاجَاتِ مَنْ هُوَ  
 نَائِمٌ  
 إِذَا اعْتَمَّ بالبُرْدِ اليماني  
 حَسْبَتُهُ  
 يَزِيدُ على فَضْلِ الرِّجَالِ  
 فَضِيلَةَ  
 وَأَنشَدَ ابْنُ أَبِي طَاهِرٍ لأعرابي: الطويل:

وقبلي أبكى كل من كان ذا  
هو  
وهن على الأطلال من كل  
جانب

هتوف البواكي والديار  
البلاقع  
توائح ما تحصل منها المدامع

مُزِرَجَةُ الأعناق نمُرُ  
ظهورها  
تَرى طُرُزاً بَيْنَ الخَوَافِي  
كانها  
ومن قَطَعَ الياقوتِ صيَعَتْ  
عُيُونُهَا

مخطمة بالدرّ خضر رواع  
خواشي بز ريتها الوشائع  
خواضب بالحناء منها الأصابع

ومن جيد ما قيل في الحمام قول ابن  
وقفت بمطراب العشيات  
والضحى  
حليفة شجو هاج ما بي وما  
بها  
فباح به فوها وأخفته عينها

الرومي: الطويل:  
فطلت أسح الدمع مني  
وأسجم  
تباريح شوق يشتكها  
المتيم  
وباخت به عيني وكتمه  
القم

ودخل أعرابي على الرشيد، فأنشده أرجوزة مدحه بها، وإسماعيل بن صبيح يكتب كتاباً  
بين يديه - وكان من أحسن الناس خطاً، وأسرعهم يداً - فقال الرشيد للأعرابي: صف  
الكاتب فقال: الطويل:

رقيق خواشي العلم حين  
توره  
له قلما بؤسى وتعمى كلاهما  
يتاحيك عما في ضميرك  
حطه

يريك الهونا والأمور تطير  
سحابته في الحالتين درور  
ويفتح باب النجح وهو عسير

فقال الرشيد: قد وجب لك يا أعرابي عليه حق، كما وجب لك علينا يا غلام؛ ادفع له  
دية الخمر، فقال إسماعيل: وعلى عبدك دية العبد.  
وقال أعرابي من بني عقيل: الطويل:

أجرني إلى أرض الحجاز،  
وحاجتي  
وما تطري نحو الحجاز  
بنافعي  
أفي كل يوم تطره ثم  
عبره

خيام بنجد دونها الطرف  
يقصر  
فتيلاً، ولكني على ذاك أنظر  
لعينيك يجري ماؤها يتحدّر

متى يستريح القلب إماً  
مجاور

حزين وإما نازح يتذكر

وقال أعرابي: الطويل:

وإني لأعصي مقلتي على  
القدي  
وإني لأدعو الله والأمر  
صيق

والتبس ثوب الصبر أبيض  
أبلجا  
علي، فما ينفك أن يتفرجا

أصاب لها من دَعْوَةِ اللَّهِ  
مَخْرَجاً

إليك أمانيه وإن لم يكن  
وَصَلُّ

ولكنها موصولة ما لها فَصْلٌ

وَعَالِكَ مُصْطَافُ الْحِمَى  
ومرابعه

إذا ما تَأَى هَاتَتْ عَلَيْكَ  
وَدَائِعُهُ

مُنَى النَّفْسِ لو كانت تُتَالُ  
شَرَائِعُهُ

أخذت أزدُ العتيك شاعراً من قيس بن ثعلبة اسمه المعذل في دم، فأتاه البيهس بن ربيعة فحملة، وأمره أن يتجو بنفسه، وأسلم نفسه مكانه، فقال له المعذل: أخيرك بين أن أمدحك أو أمدح قومك؛ فاختار مدح قومه فقال: الطويل:

جزى الله فتيان العتيك، وإن  
تأت جازياً

أبـة لما حُم ما كان آتياً

ولا يحسئون الشر إلا تبارياً

إذا الموت في الأبطال كان  
تحامياً

وذكرت الرواة أن المهلب بن أبي صفرة عرض جنده بخراسان، فعرض جيش بكر بن وائل، فمر به المعذل فقال: هذا المعذل القيسي الذي يقول، وأنشد الأبيات، فقالوا: أيها الأمير، أحسبه علينا، فانطلق مائة منهم، فجاءوا بمائة وصيف ووصيفة، فقالوا: أعطه هذا وليعذرنا.

قوله: كأن دنانيراً على قسمااتهم نظير قول أبي العباس الأعمى: الخفيف:

ليت شعري من أين رائحة  
المس ك وما إن إخال بالخيف  
إنسي؟

والبهاليل من بني عبد  
شمس حين غابت بنو أمية عنه

خطباء على المنابر، فرسا  
في حلوم إذا الحلوم  
استفرت ووجه مثل الدنانير ملس

من أخبار أبي نواس ولما خلع المأمون أخاه محمد بن زبيده ووجه بطاهر بن الحسين لمحاربتة، كان يعمل كتباً يعيوب أخيه يُقرأ على المنابر بخراسان؛ فكان مما عابه به أن قال: إنه استخلص رجلاً شاعراً ماجناً كافراً، يقال له الحسن بن هانئ، واستخلصه ليشرَب معه الخمر، ويرتكب المأثم، ويهتك المحارم، وهو الذي يقول: الطويل:

ألا فاسقني حمراً وقل لي هي ولا تسقني سراً إذا أمكن

الخمُرُ

وُبِحَ بِاسْمِ مَنْ تَهَوَى وَدَعْنِي  
عَنِ الْكُنَى

ويذكر أهل العراق فيقول: أهل فسوق وخمور، وماحور وفجور؛ ويقوم رجل بين يديه فينشد أشعار أبي نواس في المجون؛ فاتصل ذلك بابن زبيدة؛ فنهى الحسن عن الخمر، وحبسه ابن أبي الفضل بن الربيع؛ ثم كلمه فيه الفضل، فأخرجه بعد أن أخذ عليه ألا يشرب خمرًا، ولا يقول فيها شعراً، فقال: الكامل:

مَا مِنْ يَدٍ فِي النَّاسِ وَاحِدَةٍ  
نَامَ الثَّقَاتُ عَلَى مَضَاجِعِهِمْ  
قَدْ كُنْتُ خِفْتُكَ، ثُمَّ آمَنِي  
فَعَفَوْتَ عَنِّي عَقْوَ مُقْتَدِرٍ

ومن قوله في ترك الشراب: الخفيف:

أَيُّهَا الرَّائِحَانُ بِاللُّومِ، لَوْ مَا  
تَأَلَّنِي بِالْمَلَامِ فِيهَا إِمَامٌ  
فَاصْرِفَاها إِلَى سِوَايَ؛ فَإِنِّي  
جُلُّ حَظِي مِنْهَا إِذَا هِيَ دَارَتْ  
فَكَأَنِّي وَمَا أَزِينُ مِنْهَا  
كُلَّ عَنِّ حَمَلِهِ السَّلَاحَ إِلَى  
الْحَرِّ

كَيْدِ أَبُو الْعَبَّاسِ مَوْلَاهَا  
وَسَرَى إِلَى نَفْسِي فَأَحْيَاهَا  
مَنْ أَنْ أَخَافُكَ، حَوْفُكَ اللَّهُ  
وَجَبْتُ لَهُ نِقْمَ فَأَلْغَاهَا  
لَا أذُوقُ الْمُدَامَ إِلَّا شَمِيمًا  
لَا أَرَى لِي خَلَاقَهُ مُسْتَقِيمًا  
لَسْتُ إِلَّا عَلَى الْحَدِيثِ نَدِيمًا  
أَنْ أَرَاهَا وَأَنْ أَشْمَ النَّسِيمًا  
قَعْدِي يُزَيِّنُ التَّحْكِيمًا  
بِ فَأَوْصِي الْمُطِيقَ أَلَّا يُقِيمَا

القَعْدِيَّةُ: فرقة من الخوارج، يأمرون بالخروج ولا يخرجون؛ وزعم المبرد أنه لم يُسَبِّقْ إلى هذا المعنى. وقال: الكامل:

عَيْنَ الْخَلِيفَةِ بِي مُوَكَّلَةٌ  
صَحَّتْ عَلَانِيَتِي لَهُ، وَأَرَى  
وَلْتَنْ وَعَدْتُكَ تَرْكَهَا عِدَّةً  
سَلَبُوا قِنَاعَ الدَّنِّ عَنِ رَمَقِ  
فُتْنَفَسَتْ فِي الْبَيْتِ إِذْ  
مُزَجَّتْ

أخذ قوله: ولتن وعدتك تركها عدة الحسن بن علي بن وكيع فقال: البسيط:

مَتَى وَعَدْتُكَ فِي تَرْكِ الصَّبَا  
عِدَّةً  
أَمَا تَرَى اللَّيْلَ قَدْ وَلَّتْ  
عَسَاكِرُهُ  
وَجِدَّ فِي أَثَرِ الْجَوْرَاءِ  
يَطْلُبُهَا  
كَصَوْلَجَانِ لُجَيْنٍ فِي يَدَيْ  
مَلِكٍ

فَاشْهَدْ عَلَى عِدَّتِي بِالزُّورِ  
وَالْكَذِبِ  
وَأَقْبَلِ الصَّبْحَ فِي جَيْشِ لَهُ  
لَجِبِ  
فِي الْجَوْرِ كُضًا هِلَالٌ دَائِمٌ  
الطَّلَبِ  
أَدْنَاهُ مِنْ كُرَّةٍ صَيَعَتْ مِنْ  
الذَّهَبِ

فَقُمْ بِنَا تَصْطَيْحُ صَفْرَاءَ  
صَافِيَةً  
عَرُوسٌ كَرَمٌ تَخْتَالُ فِي  
حُلَلِ

كَالنَّارِ لَكِنَّهَا تَارُ بِلَا لَهَبِ  
صُفْرٌ عَلَى رَأْسِهَا تَأْجُ مِنْ  
الْحَبَبِ

وقال أبو الفضل الميكالي في اقتران الهلال بالزهرة: الرجز:

أما ترى الزهرة قد لاحت لنا  
ككرة من فضة مجلوة  
تحت هلال لوته يحكي اللهب  
واقى عليها صولجان من  
ذهب

وعلى قول أبي نواس: الكامل:

صحت علانيتي له، وأرى  
كتب أبو العباس بن المعتز إلى أبي الطيب  
يا أيها الجافي ويستجفي  
إني في الشوق إلينا كمن  
مخوت أثارك من ودنا  
دين الضمير له على حرف  
القاسم بن محمد النميري: السريع:  
ليس تجنيك من الطرف  
يؤمن بالله على حرف  
غير أساطيرك في الصحف

فإن تحاملت لنا زورة  
وحدث أبو عمر الزاهد قال: ذلك بعض الزهاد المرائين جبهته يتوم وعصبا، ونام ليصبح  
بها كآثر السجود، فأنحرفت العصابة إلي صدغه، فأخذ الأثر هناك، فقال له ابته: ما هذا  
يا أبت؟ فقال: أصبح أبوك ممن يعبد الله على حرف! وقال أبو نواس في الباب الأول:  
الخفيف:

عنا بالطلول كيف بلينا  
من سلاف كأنها كل شيء  
أكل الدهر ما تجسم منها  
فإذا ما اجتليتها فهباء  
ثم شجت فاستضحكت عن  
لال  
في كؤوس كأنهن نجوم  
طالعات مع السقا علينا  
لو ترى الشرب حولها من  
بعيد  
وغزال يديرها بتان  
كلما شئت علي برصاب  
ذاك عيش، لو دام لي غير  
أني

وقال: الطويل:

أعادل، أعتبت الإمام،  
وأعتبا  
وقلت لساقبها: أجزها فلم  
أكن  
فجوزها عني سلافا ترى لها  
إذا عب فيها شارب القوم  
خلته  
ترى حيثما كاتت من البيت  
مشرقاً  
يدور بها رطب البنان ترى  
وأعربت عما في الضمير  
وأعربا  
ليأبي أمير المؤمنين  
وأشربا  
لدى الشرف الأعلى شعاعا  
مطتبا  
يقبل في داج من الليل  
كوكبا  
وما لم تكن فيه من البيت  
مغربا  
على مستدار الخد صدغاً

لَهُ  
سِقَاهُمْ وَمَنَانِي بَعِيَّتِيهِ  
مُنِيَّةً  
قال الحسين بن الضحاك الخليع: أنشدت أبا نواس قولي: المنسرح:  
وَشَاطِرِي اللِّسَانِ مَخْتَلِقِ  
الَّتِ  
كُرِيهِ شَابَ الْمُجُونِ بِالنُّسْكِ  
فلما بلغْتُ فيه:

كَأَنَّمَا نُضِبَ كَأَسِيهِ قَمَرِ  
تَعَرَ تَعَرَةً مَنكَرَةً، فقلت: ما لك، فقد رعتني؟ قال: هذا المعنى أنا أحقُّ به منك؛ ولكن  
سَتَرِي لِمَنْ يُرَوِّي! ثم أنشد بعد أيام:  
إِذَا عَبَّ فِيهَا شَارِبُ الْقَوْمِ  
خَلَّتْهُ  
فقلت: هذه مطالبة يا أبا علي! فقال: أتظنُّ أنه يُرَوِّي لك معنى مליح وأنا في الحياة؟  
وقال ابن الرومي فكان أحسن منهما: الكامل:

ومهفهف كَمَلْتُ مَحَاسِنُهُ  
تَصُبُّو الكُؤُوسَ إِلَى مَرَاثِيهِ  
أَبْصَرْتُهَا وَالكَأْسُ بَيْنَ فَمِّ  
فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّ شَارِبَهَا  
وقال أبو الفتح كشاجم: الخفيف:  
وَسَحَابٌ يَجْرُ فِي الْأَرْضِ  
دَيْلِي

د بَطِيءٌ يَكْسُو الْمَسَامِعَ  
وَقَرَا  
وَأُهُ يَيْكِي جَهْرًا وَيَصْحَكُ  
سِرًا  
سَحَرْتَنِي وَليْسَ تُحْسِنُ  
سِيحْرًا  
حَ أَرْتَنِي سَنَمَسًا تُقْبَلُ بَدْرًا  
بَرْقُهُ لَمَحَةٌ، وَلَكِنْ لَهُ رَع  
كَحَلِي مَنَافِقٍ لِلَّذِي يَه  
قَدْ سَقَتَنِي الْمُدَامَ فِيهَا  
فَتَاهُ  
فَادَا مَا رَأَيْتُهَا تَشْرَبُ الرَّا

بشار بن برد  
وإنما احتذى أبو نواس في هذه الأشعار التي وصف فيها ترك الشراب  
وطاعته لأمر الأمين مثال بشار بن بُرد، وصبَّ على قلبه؛ وذلك أن بشاراً  
لما قال: الكامل:

لَا يُؤَيِّسُنَاكَ مِنْ مَخْبَأَةٍ  
عُسْرُ النِّسَاءِ إِلَى مُيَاسِرَةٍ  
بَلِّغْ ذَلِكَ الْمَهْدِي فِغَاضِهِ؛ وَقَالَ: يَحْرُضُ النِّسَاءَ عَلَى الْفَجُورِ، وَيَسْهَلُ  
السَّبِيلَ إِلَيْهِ! فَقَالَ لَهُ خَالُهُ يَزِيدُ بْنُ مَنْصُورِ الْحَمِيرِيِّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَدْ  
فَتَنَ النِّسَاءَ بِشَعْرِهِ، وَأَيُّ امْرَأَةٍ لَا تَصُبُّو إِلَى مِثْلِ قَوْلِهِ: الرَّمْلُ:  
هَلْ يُجِيدُ النِّعَتَ مَكْفُوفُ  
النَّظْرُ؟  
عَجِبَتْ فَطَمَةٌ مِنْ نَعْيِي لَهَا  
بَيْنُ عَشْرِ وَثَلَاثَ قَسَمَتْ  
دَرَّةً بَحْرِيَّةً مَكْنُونَةً  
مَارَهَا التَّاجِرُ مِنْ بَيْنِ الدَّرَرِ

من وَلُوعِ الكفِ رِكابِ الحَظَرِ  
ووشاحي جله حتى انتنر  
علنا في خَلوةِ تَقْضِي الوَطَرِ  
واعترها كجنون مُسْتَعِرِ  
دَمْعُ عَيْنِ عَسَلِ الكُحْلِ قَطَرِ  
وسلوني اليومَ ما طَعْمُ  
السَّهَرِ

فأمره المهدي ألا يتغزل، فقال أشعاراً في ذلك، منها: مجزوء الكامل:

من وجه جارية فديته  
تَوَبَّ الشباب وقد طويته  
ما إن عَمَرْتُ ولا تَوَيْتُهُ  
عَرَضَ البلاءُ وما ابتغيته  
وإذا أبى شيئاً أبيته  
ب إذا عَدَوْتُ، وأين بيته  
فصبرت عنه وما قَلَيْتُهُ  
مُ عن النساءِ فما عصيته  
عَهْداً، ولا رأياً رأيته

أعطيتُ صَيماً عليّ في  
شَجَن  
مِرْهَرِ في ظلِّ مَجْلِسِ  
حَسَنِ

نفسِي، صُنِعَ الموقِّقُ اللَّقِنِ

بين الحميا والجوّاري العِدَابِ

وربما طَبِثُ لِحَبِ وطَابِ  
صوْتُ أميرِ المؤمنينِ  
المُجَابِ

وتام عُدالي ومات العِتَابِ

وربما ذلّتْ لهن الرِّقَابِ

سَبَقَتْ بالسَّيْلِ مَسَاكِ  
السَّحَابِ

ما جاءه من خطإٍ أو صَوَابِ  
يُنْني على اللِّقْحَةِ ما في  
الجِلَابِ

وراحَ في آلِ الرسولِ

أُذْرَتِ الدَمْعَ وَقَالَتِ: وِبلتِي  
أَمْتِي بَدَدَ هَذَا لِعَبِي  
فَدَعَيْني مَعَهُ يا أَمْتِي  
أَقْبَلْتُ في خَلوةِ تَضْرِبُها  
ياأبي وَاللهِ ما أَحْسَنَهُ  
أبها التُّوَامُ هَبُوا وَبِحَكْمِ

يا منظرًا حسنًا رأيتُه  
لمعتُ إليّ تَسُومَنِي  
واللهِ ربِّ مُحَمَّدِ  
أَمْسَكْتُ عَنكَ، وربما  
إن الخليفة قد أبى  
ويشوقني بيتُ الحبي  
قام الخليفة دوتُه  
ونهانِي المَلِكُ الهُيْمَا  
بَلْ قد وفيتُ ولم أضِعْ  
وقال أيضاً: المنسرح:

والله لولا رِصَا الخليفةِ ما

قد عِشْتُ بين التَّدْمَانِ  
والرَّاحِ وال  
ثم نهاني المهدي  
فانصرفتُ

وقال: السريع:

أفنيثُ عمري وتَقْضِي  
الشبابِ

فالآن شفعتُ إمامَ الهُدَى

لهوْتُ حتى رَاعَنِي دَاعِيَا

لبيكَ لبيك! هَجَرْتُ الصِّبَا  
أبصرتُ رُشْدِي وتركتُ  
المُتَى

في كلمة طويلة يقول فيها:

يا حامدِ القولِ، ولم يبلُه

الفعلُ أَوْلَى ببناءِ الفتى

دع قولَ واءٍ وانتظر فعله

إذا غدا المهديُّ في جُنْدِهِ

الغِصَابُ  
كالظلمِ يَجْرِي فِي الثَّنَايَا  
العِدَابُ

واسقياني من ريق بيضاء  
رُودِ

شَرِبْتُ مِنْ رُضَابِ تَعْرِ بَرُودِ

رَقَرْتُ يَاكُلْنَ قَلْبَ الْجَلِيدِ

وحديثُ كالوَيْشِي وَشِي  
البُرُودِ

ب ونالت زيادةً المستزيد

والليالي يُتْلِينَ كُلَّ جَدِيدِ  
إِنْ قَصَى اللَّهُ مِنْكَ لِي يَوْمِ  
جُودِ

وتستفرّ حشاً الرائي بإرعادِ

فكلّ جارحةٍ وجهه بمِرْصَادِ

فطابَ له بطيبِ تَيْبِيئِكَ  
أَقْبَلُ فِيهِ فَانِكِ وَمُقْلَتِيكَ

قلبي ضعيفٌ وَقَلْبُهَا جَجْرُ  
فِي الرَّأْسِ وَالْعَيْنِ وَالْحَشَا  
سُكْرُ

شعراً أغزل منه: الخفيف:  
بتلاقٍ، وكيف لي بالتَّلَاقِ؟  
ك وَأَخَشَى مِصَارِعَ الْعِشْقِ  
مَوْضِعَ السُّلُوكِ فِي طُلَا  
الْأَعْنَاقِ

رَخِيمًا، وَقَلْبِي لِلْمَلِيحَةِ  
أَعَشِقُ

كريمًا سقاهُ الخمرَ بَدْرُ  
مُحَلَّقِ

بأذني وإن عنيت قُرْطُ مَعْلَقُ

بدا لك المعروف في وجهه

ومن شعر بشار في الغزل: الخفيف:

أبها الساقيان ضبّا شَرَابِي

إِنْ دَائِي الصَّدى، وَإِنَّ  
شِفَائِي

عندها الصبرُ عن لقائي،  
وعندي

ولها مَبْسِمْ كَعُرِّ الْأَقَاحِي

نزلت في السواد من حبة  
القل

ثم قالت: تَلَقَاكَ بَعْدَ لَيَالٍ  
لَا أَبَالِي مَنْ صَنَّ عَنِي بَوْضَلِ

وقال: البسيط:

تُلَقَى بِتَسْبِيحَةٍ مِنْ حَسَنِ مَا  
خُلِقْتُ

كَأَنَّمَا صَوَّرْتُ مِنْ مَاءٍ لَوْلُؤَةٍ

وقال: الوافر:

وَهَبْتِ لِي عَلَى الْمَسْوَاكِ رِبْقًا  
أَقْبَلُهُ عَلَى الذِّكْرِ كَأَنِّي

وقال: المنسرح:

لَا أُسْتَطِيعُ الْهَوَى وَهَجَرَتَهَا

كَأَنَّ وَجْدِي بِهَا وَقَدْ حَجَبَتْ

وأنشد له أبو تمام، وكان يقول: ما رأيتُ

زُودِينَا يَا عَبْدَ قَبْلِ الْفِرَاقِ

أَنَا وَاللَّهِ أَشْتَهِي سِحْرَ عَيْنِي

أُمَّتِي مِنْ بَنِي عُقَيْلِ بْنِ

كَعْبِ

وقال: الطويل:

لَقَدْ عَشِيقْتُ أَذْنِي كَلَامًا

سَمِعْتُهُ

وَلَوْ عَايَتْهُوا لَمْ يَلُومُوا عَلَى

الْبُكَاءِ

وكيف تناسي مَنْ كَانَّ

حديثه

وقال: الطويل:

أزائرُ وَيَدْعُونِي الهَوَى فَأَزُورُ

وقد كنت في ذاك الشبابِ  
الذي مضى

يُدِيرُ حَيَاتِي فِي يَدَيْهِ مُدِيرُ

فإن فاتني إلفٌ ظَلِلْتُ  
كأنما

تَمُورُ بِسِحْرِ عَيْنِهَا وَتَدُورُ

ومُرْتَجَةِ الأَرْدافِ مهضومةِ  
الحشا

وَكَادَتْ قُلُوبُ العَالَمِينَ  
تَطِيرُ

إذا نظرتُ صَبَّتَ عَلَيْكَ  
صَبَابَةٌ

إِلَى الصُّبْحِ دُونِي حَاجِبٌ  
وَسُنُورُ

خَلُوتُ بِهَا لَا يَخْلُصُ المَاءُ  
بَيْنَنَا

ومن هذا أخذ علي بن الجهم قوله: الطويل:

وَلَا تَهْجُرِي أَفْدِيكَ بِالْأُمِّ وَالْأَبِ

صَلِينِي وَحَبْلُ الوَصْلِ لَمْ  
يَنْشَعَبِ

وَأَدَّتِي فُوَادًا مِنْ فُوَادٍ مُعَذِبِ

رَعَى اللّهُ دَهْرًا صَمَمًا بَعْدَ  
فُرْقَةٍ

يَرَى جَسَدَاتَا جِسْمَ رُوحِ  
مَرْكَبِ

عِنَاقًا وَضَمًّا وَالتَّزَامًا كَأَنَّمَا

مِنَ الحَمْرِ فِيمَا بَيْنَنَا لَمْ  
تَسْرِبِ

فَيْتَنَا وَإِنَّا لَوْ تُرَاقِ زَجَاجَةٌ

وشعره في هذا المعنى كثير.

وروى أنه قال: أنا أشعرُ الناس؛ لأن لي اثني عشر ألفَ قصيدة، فلو اختير من كل قصيدة بيت لاستندر، ومن ندرت له اثنا عشر ألف بيت فهو أشعرُ الناس؛ وقد نثر تظمه في أضعاف الكتاب استدعاءً لنشاط القارئ وكرهه في إملاله. وكان بشار أرقَّ المحدثين ديباجةً كلام، وسُمي أبا المحدثين؛ لأنه قَتَقَ لهم أكمَامَ المعاني، ونَهَجَ لهم سبيلَ البديع، فاتبعوه؛ وكان ابن الرومي يُقدِّمه، ويزعمُ أنه أشعرُ من تقدِّمٍ وتأخر.

وهو يتعلق في شعره بولاء عَقِيلِ بن كَعْبِ بن رِبِيعَةَ بن عامر بن صعصعة، ويفتخر بالمضربة. قال له المهدي: فيمن تُعْتزِّي؟ قال: أما اللسان فِعْرَبِي، أما الأصل فكَمَا قَلتَ فِي شِعْرِي! قال: وما قَلتَ؟ فأَنشده: المتقارب:

يَقُولُونَ مَنْ ذَا وَكُنْتُ العَلَمُ  
لِيَعْرِفَنِي أَنَا إلفُ الكَرَمِ  
فُرُوعِي وَأَصْلِي فُرَيْشُ  
العَجَمِ

وَنَبْتُ قَوْمًا لَهُمُ إِحْنَةٌ  
أَلَا أَيُّهَا السَّائِلِي جَاهِلًا

نَمَتْ فِي المَكَارِمِ بِي عامرِ

وَأَصْبِي الفَتَاةَ فَلَا تَعْتَصِمُ

وَإِنِّي لأُعْنِي مَقَامَ الفَتَى

البيت الأول من هذه الأبيات ينظرُ إلى قول جميل: الطويل:

يَقُولُونَ مَنْ هَذَا وَقَدْ عَرَفُونِي

إِذَا مَا رَأُونِي طَالِعًا مِنْ ثَنِيَّةٍ  
وَفِي هَذِهِ القَصِيدَةِ يَقُولُ بشار: المتقارب:

ب فِي وَجْهِهَا لَكَ إِذْ تَبْتَسِمُ  
أَطْفَنَ بَحَوْرَاءَ مِثْلَ الصَّمَمِ

وَبِيضَاءَ يَضْحَكُ مَاءُ الشَّبَا  
دُورًا العَدَارَى إِذَا زُرَّتْهَا

كَمَا يَمْسَحُ الحَجَرَ المَسْتَلِمَ  
وَلَكِنَّهُ نُصِبُ هَمٍّ وَعَمٍّ

يَرْحَنَ فَيَمْسَحَنَ أَرْكَاتِهَا  
أَصْفَرَاءَ لَيْسَ الفَتَى صَحْرَةً

صَبَبَتْ هَوَاكَ عَلَى قَلْبِهِ فَضَاقَ وَأَعْلَنَ مَا قَد كَتَمَ  
 ويقال: إنه مولى لأم الأطباء السدوسية، ولذلك قال أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزال  
 رئيس المعتزلة لما هجاه بشار: أما لهذا الأعمى الملجد المشنف المكتني بأبي معاذ  
 مَنْ يَقْتُلُهُ؟ وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ الْغَيْلَةَ مِنْ سَحَابَاتِ الْعَالِيَةِ، لَبَعَثْتُ إِلَيْهِ مِنْ يَبْعَجُ بطنه في جوف  
 منزله، ولا يكون إلا سدوسياً، أو عُقَيْلياً.  
 وكان واصل بن عطاء أحد أعاجيب الدنيا؛ لأنه كان ألثغ في الرأء، فأسقطها من جميع  
 كلامه وخطبه؛ إذ كان إمام مذهب، وداعي نحلة، وكان محتاجاً إلى جوده البیان،  
 وفصاحة اللسان. قال الجاحظ: فانظر كثرة ترداد الرأء في هذا الكلام وكيف أسقطها؟  
 قال: الأعمى، ولم يقل الضرير، وقال: الملحد ولم يقل الكافر، وقال: المشنف، ولم  
 يقل المرعث، وقال: المكتني: بأبي معاذ، ولم يقل بشاراً ولا ابن برد، وقال: الغالية،  
 ولم يقل المغيرة، ولا المنصورية، وهم الذين أراد، وقال: لبعثت، ولم يقل لأرسلت،  
 وقال: يبعج، ولم يقل يبقر، وقال: في جوف منزله، ولم يقل في داره، وأراد بذكر  
 عُقَيْل وسدوس ما ذكر من اعتزائه إليهم.  
 وزعم الجاحظ أن بشاراً كان يدين بالرجعة، ويكفر جميع الأمة؛ وأنشد له أشعاراً صوب  
 بها رأي إبليس في تقديم النار على الطين، منها قوله: البسيط

الأرض مُظْلِمَةٌ ، والنارُ  
 مُشْرِقَةٌ  
 والنارُ معبودةٌ مُدُّ كانتِ النارُ

وقال داود بن رزين: أتينا بشاراً، فأذِنَ لنا والمائدة بين يديه، فلم يدعنا إلى الطعام، ثم  
 جلسنا فحضر الظهر والعصر والمغرب فلم يصل، ودعا بطسنت فبال بحضرتنا، فقلنا  
 له: أنت أستاذنا، وقد رأينا منك أشياء أنكرناها، قال: ما هي؟ قلنا: دخلنا والطعام بين  
 يديك فلم تدعنا، قال: إنما أذنت لتأكلوا، ولو لم تُرد ذلك لم نأذن لكم، قلنا له: ودعوت  
 بالطلست ونحن حضور، قال: أنا مكفوف، وأنتم مأمورون بغض الأبصار دوني، قلنا:  
 وحضرت الصلاة فلم تصل! قال: الذي يقبلها تفريق يقبلها جملة! هذا وهو القائل:  
 الخفيف:

كَيْفَ يَبْكِي لِمَحَبَسٍ فِي  
 طُولِ  
 مِنْ سَيْفِضِي لِحَبَسِ يَوْمِ  
 طَوِيلِ  
 إِنْ فِي الْبَعَثِ وَالْحِسَابِ  
 لَشُغْلًا  
 عَنْ وَقُوفٍ بِرَسْمِ دَارِ مَحِيلِ

وقال: الطويل:

ذَكَرْتُ بِهَا عَيْشًا فَقُلْتُ  
 لِصَاحِبِي:  
 وَهَا حَاجَتِي لَوْ سَاعَدَ الدَّهْرُ  
 بِالْمُنَى  
 كَأَنْ لَمْ يَكُنْ مَا كَانَ حِينَ  
 يَزُولُ  
 كِعَابٌ عَلَيْهَا لَوْلُو وَشُكُولُ  
 وَأَنْ بَقَائِي إِنْ حَيِّثُ قَلِيلُ  
 عَلَى كُلِّ نَفْسٍ لِلْحَمَامِ  
 دَلِيلُ  
 خَلِيلِكَ مَا قَدَمْتَ مِنْ عَمَلِ  
 الثُّقَى  
 وَكَانَ بَشَارٌ حَاضِرَ الْجَوَابِ، سَجَّاعًا، خَطِيبًا، صَاحِبَ مَنثورٍ وَمُرْدُوحٍ وَرَجَزٍ وَرِسَائِلِ  
 مَخْتَارَةٍ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْكَلَامِ، وَدَخَلَ عَلَى عُقْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ بِنِ قَتَيْبَةَ، فَأَنشَدَهُ مَدِيحًا  
 وَعِنْدَهُ عَقْبَةُ بْنُ رُؤْبَةَ، فَأَنشَدَهُ أَرْجُوزَةً، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى بَشَارٍ فَقَالَ: هَذَا طِرَازٌ لَا تَحْسَنُهُ يَا  
 أَبَا مَعَاذٍ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأَنَا أَرْجُزُ مِنْكَ وَمَنْ أَيْبُكَ؛ ثُمَّ غَدَا عَلَى عَقْبَةَ مِنَ الْعَدَدِ، فَأَنشَدَهُ  
 أَرْجُوزَتَهُ: رَجَزٌ:

يَا طَلَّلَ الْحَيِّ بِذَاتِ الصَّمَدِ  
 بِاللَّهِ حَبَّرَ كَيْفَ كُنْتُ بَعْدِي

يقول فيها:

صَدَّتْ بِخَدِّ وَجَلَّتْ عَنْ حَدِّ  
وصاحب كالدمل المُمِدِّ  
حتى اغتدى غير فقيد الفَقْدِ  
وهذا كقول الآخر: الطويل  
يودون لو حَاطُوا عَلَيْكَ  
جلودَهُم

وفيها يقول:

الحرُّ يُلْحَى والعصا لِلْعَبْدِ  
اسْلَمَ وَحُيِّتَ أبا المِلْدِّ  
وليس لِلْمُلْجِفِ مِثْلُ الرَدِّ  
مفتاحُ بابِ الحَدِّثِ المُنْسَدِّ

والبسن طرّازي غير مُسْتَرَدِّ  
لِلَّهِ أَيامُكَ فِي مَعَدِّ  
هي طويلة، فأجزَلَ صلته، فلَمَّا سمع ابن رُؤبة ما فيها من الغريب قال: أنا  
وأبي وجدي فتَحَنَّا الغريبَ للناس؛ وإني لخليق أن أسدّه عليهم، فقال  
بشار: ارحمهم، رحمتك الله! قال: تستخفُّ بي وأنا شاعر ابن شاعر ابن  
شاعر؟ قال: إذا أنت من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرّجس  
وطهّرهم تطهيراً! فضحك كلٌّ مَنْ حضر.  
ودخل على المهدي وعنده خاله يزيد بن منصور الحميري، فأنشده قصيدة،  
فلَمَّا أتمها قال له يزيد: ما صناعتك يا شيخ. قال: أثقُبُ اللؤلؤ، فقال له  
المهدي: أتَهزأ بخالي؟ فقال: يا أمير المؤمنين، فما يكونُ جَوَابِي لمن يَرَى  
شَيْخاً أعمى يُنْشِدُ شعراً فيسأله عن صناعته؟ وقال جَوَارِي المهدي  
للمهدي: لو أذِنْتَ لبشار يدخل إلينا يؤانسنا ويُشيدنا فهو محجوب البصير، لا  
غيرة عليك منه، وأكمره فدخل إليهنّ واستظرفته، وقلن له: ودننا والله يا  
أبا معاذ أنك أبونا حتى لا نفارقك، قال: ونحن على دين كسرى! فأمر  
المهدي ألا يدخل عليهن.

وكان المتنبي نظر إلى هذا فقال: الكامل:

يا أُخْتِ مُعْتَنِقِ الفوارسِ فِي  
الوَعَى  
لأُحْوِكِ تَمَّ أرقِ مِنْكَ وَأَرْحَمُ  
يَرْتُو إِلَيْكَ مع العَفَافِ  
وَعِنْدَهُ  
أَنَّ المَجوسَ تصيبُ فيما  
تَحْكُمُ

في المودة والعتاب والصدق والكذب  
قال علي بن عبدة الريحاني: المودّة تَعَاطُفُ القلوب، وائتلافُ الأرواح،  
وحنين النفوس إلى مَنَابَةِ السرائر، والاسترواحُ بالمستكنات في الغرائز،  
ووحشة الأشخاص عند تَبَايُنِ اللقاء، وظاهر السرور بكثرة التزوار، وعلى  
حسب مشاكلة الجواهر يكون اتِّفَاقُ الخصال.  
وقال: العِتابُ حدائقُ المتحابِّين، وثمارُ الأوداء، ودليل الظنِّ، وحرركات  
الشوق، وراحةُ الوَاجِدِ، ولسانُ المُشْفِقِ.  
قال بعض الكتاب: العِتابُ عَلامَةُ الوَفاءِ، وخاصّةُ الجَفاءِ، وسلاحُ الأكفاءِ.  
وقال علي بن عبدة: التجنّي رسولُ القطيعة، وداعي القلى، وسبب السلو،  
وأولُّ التجافي، ومنزل التهاجر.  
وقال: الصدقُ ربيعُ القلب، وزكاةُ الحَلْقِ، وثمرّة المروءة، وشُعاعُ الضمير،  
وعن جلاله القدر عبارته، وإلى اعتدالِ وَزَنِ العقلِ يُنْسَبُ صاحبه، وشهادته

قاطعةً في الاختلاف، وإليه ترجع الحكومات.  
وقال: الكذبُ شِعَارُ الخيانة، وتحريفُ العلم، وخواطرُ الزور، وتسويلُ  
أضغاثِ النفس، واعوجاجُ التركيب، واختلافُ البنية، وعن خمولى الذكر ما  
يكون صاحبه.

وعلى بن عبيدة كثير الإغارة، عَلَى ما كان عَيْرُهُ قد استتارَه.  
فقر في الكذب لغير واحد  
بعض الفلاسفة: الكذاب والميئُ سواء؛ لأن فضيلة الحي التُّطق، فإذا لم يُوتَّق بكلامه  
فقد بطلت حياته.

الحسن بن سهل: الكذاب لِيصِّ؛ لأن اللص يسرقُ مالك، والكذاب يسرقُ عقلك؛ ولا  
تأمن مَنْ كذب لك أن يكذب عليك، ومن اغتاب غيرك عندك فلا تأمن أن يغتابك عند  
غيرك.

قال إبراهيم بن العباس في هذا النحو: مجزوء الكامل:

إني متى أحقدُ بحق  
ومتى أطعنك في أخي  
حتى أرى متقسماً  
حسبُ الكاذب بعقله سقماً  
وبقلبه خصماً.

ابن المعتز: علامة الكذاب جُوده باليمين لغير مستحلف، وقال: البسيط

وفي اليمين على ما أنت  
فاعله  
ما دلّ أنك في الميعادِ مُتَّهَمُ

وقال: اجتنِبْ مصاحبة الكذاب، فإن اضطررت إليه فلا تصدِّقه، ولا تُعلمه أنك تكذبه،  
فينتقل عن وده، ولا ينتقل عن طبعه. يعتري حديث الكذاب من الاختلاف ما لا يعتري  
الجبَّان من الارتعاد عند الحَرْب. لا تصيخُ للكذاب رُؤُبا، لأنه يُخبر عن نفسه في اليقظة  
بما لم يَر، فتريه في النوم ما لا يكون، وأنشد: البسيط:

لا يكذب المرءُ إلا مِنْ  
مَهَاتَه  
أو عادة السوء، أو مِنْ قِلَّةِ  
الأدب

ولأهل العصر: فلان مُنعميس في عيبه، يكذب لذيله على جَنِيه، يقول بهتاً،  
وَرُوراً بَحْتاً، قد ملأ قلبه رَيْناً، وقوله مَيْناً؛ يدين بالكذب مَذْهباً، وبستشير  
الزور مركباً.

أقاويلُ يتمشى الزورُ في مناكبها، ويبرُّزُ البهتانُ في مذاهبها.  
وقال أعرابي لابنه وسمعه يكذب: يا بني، عجبْتُ من الكذاب المُشيد  
بكذبه، وإنما يدك على عَيْبه، ويتعزِّضُ للعقاب من رَبِّه؛ فالإثمُ له عادة،  
والأخبارُ عنه متضادة، إن قال حقاً لم يُصدِّق، وإن أراد خيراً لم يوقِّق، فهو  
الجاني على نفسه بفعاله، والدَّالُّ على فضيحه بمقاله. فما صحَّ من  
صدقه نُسِبَ إلى غيره، وما صحَّ من كذب عَيْرِه نُسِبَ إليه، فهو كما قال  
الشاعر: مجزوء الكامل:

حسبُ الكذوب من المَهَا  
ما إن سمعت بكذبة  
نة بَعْضُ ما يحكى عليه  
من عَيْرِه نسبَتْ إليه

ما قيل في الزفاف

كتب الحسن بن سهل إلى المأمون، بعد أن رُفِّت إليه يوران وتوَهَّم القوادُ  
أن هذا التزويجُ قد أنسى الحسن حاله قبل ذلك؛ قد تولى أمير المؤمنين من  
تَعْظيم عبده في قبول أمته شيئاً لا يتسَعُّ له الشكرُ عنه إلا بمعونة أمير  
المؤمنين، أدام الله عزَّه، في إخراج توقيعه بتزيين خالي في العامة

والخاصة، بما يراه فيه صواباً إن شاء الله. فخرج التوقيع: الحسن بن سهل زمام على ما جمع أمور الخاصة، وكَتَف أسباب العامة، وأحاط بالنفقات، ونفذ بالولاة، وإليه الخراج والبريد واختيار القضاة، جزاءً بمعرفته بالحال التي قربته منا، وإثابةً لشكره إيانا على ما أولينا.

قال يحيى بن أكرم: أراد المأمون أن يزوج ابنته من الرضا فقال: يا يحيى تكلم، فأجلته أن أقول: أنكحت، فقلت: يا أمير المؤمنين، أنت الحاكم الأكبر، والإمام الأعظم، وأنت أولى بالكلام، فقال: الحمد لله الذي تصاغرَت الأمور بمشيئته، ولا إله إلا هو إقراراً بربوبيته، وصلى الله على محمد عند ذكره.

أمّا بعد، فإن الله قد جعل النكاح ديناً، ورَضِيَهُ حُكْماً، وأنزله وحياً؛ ليكون سببَ المناسبة؛ ألا وإنني قد زوجت ابنة المأمون من علي بن موسى، وأمهرتها أربعمائة درهم، اقتداءً بسنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وانتهاءً إلى ما دَرَج إليه السلف، والحمد لله رب العالمين. قال الأصمعي: كانوا يستحبون من الخاطب إلى الرجل حُرْمته الإطالة، لتدل على الرغبة، ومن المخطوب إليه الإيجاز، ليدل على الإجابة. وخطب رجل من بني أمية إلى عمر بن عبد العزيز أخته، فأطال؛ فقال عمر: الحمد لله في الكبرياء، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء؛ أما بعد، فإن الرغبة منك دَعَتْك إلينا، والرغبة منا فيك أجابَتْ، وقد زوجناك على كتاب الله: إمساكٌ بمعروف، أو تسريحٌ بإحسان. وخطب رجل إلى قوم فأتى بمن تَخَطَبَ له، فاستفتح بحمد الله وأطال، وصلى على النبي عليه السلام وأطال، ثم ذكر البدء وخلق السماوات والأرض، واقتصر ذكر القرون حتى صَجِرَ مَنْ حضر، والتفت إلى الخاطب، فقال: ما اسمك أعزك الله؟ فقال: والله قد أنسيت اسمي من طول خطبتك، وهي طالِقٌ إن لزوجتها بهذه الخطبة؛ فضحك القوم، وعَقَدُوا في مجلس آخر.

فقر في الكتاب والقلم والسيف والخط وقال ابن المعتز: الكتاب وَالِجُّ الأبواب، جريءٌ على الحجاب، مُفْهِمٌ لا يَفْهَم، وناطقٌ لا يتكلم، به يشخص المشتاق، إذا أفعده الفراق، والقلم مجهزٌ لجيوش الكلام، يخدم الإرادة، لا يمل الاستزادة، ويسكت واقفاً، ويَبْطِئُ سائراً، على أرض بياضها مُظْلِمٌ، وسوادها مُضِيءٌ، وكأنه يقبل بساط سلطان أو يفتح نُور بستان. وهذا كقوله في القاسم بن عبيد الله، قال الصولي: لما عَرَضَ القاسم بن عبيد الله ليخلف أباه: قال ابن المعتز: الخفيف:

قلم ما أراه أم فلك يَج	ري بما شاء قاسم ويسير
خاشعٌ في يديه يَلْتَمُ قَرْطاً	سأ كما قتل البساط شكور
ولطيف المعنى جليلٌ تَحِيْفُ	وكبير الأفعال وهو صغير
كم منايا وكم عطايا وكم حت	في وعيش تَصُمُّ تلك السطور
نقشت بالدجا نهارةً فما أد	ري أخط فيهن أم تصوير
هكذا من أبوه مثل عبيد ال	له ينمى إلى الغلا ويصير

عَظَمَتْ مِنْهُ الإله عليه وقال بعض البلغاء: صورة الخط في الأبصار سواد، وفي البصائر بياض. وقال أبو الطيب المتنبي: الطويل:

وهذا الكلامُ النَّظْمُ والنَّائِلُ  
النُّزْرُ  
إِذَا كُتِبَتْ بَيِّضٌ مِنْ نَوْرِهَا  
الْجَبْرُ

وقال ابن المعتز في عبيد الله بن سليمان بن وهب: الطويل:  
بمختلصات الظن يسمعُ أو  
يرى

يُفْتَحُ تَوْرًا أَوْ يُنْظَمُ جَوْهَرًا

فاخِرَ صَاحِبِ سَيْفٍ صَاحِبِ قَلَمٍ، فَقَالَ صَاحِبُ الْقَلَمِ: أَنَا أَقْتُلُ بِلَا عَرَرٍ، وَأَنْتَ تَقْتُلُ عَلَيَّ  
خَطَرَ. فَقَالَ صَاحِبُ السَّيْفِ: الْقَلَمُ خَادِمُ السَّيْفِ، إِنْ تَمَّ مَرَادُهُ وَإِلَّا فإِلَى السَّيْفِ مَعَادَهُ؛  
أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ أَبِي تَمَامٍ: الْبَسِيطُ:

فِي حِدِهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ  
وَاللَّعِبِ  
مُتُونِهِنَّ جَلَاءُ الشَّكِّ  
وَالرَّيْبِ

إِلَى مَنْ احْتَصَنَتْ أَحْفَافُهَا  
بَدَمِ

وَلَا أَشَاهِدُ فِيهَا عِفَّةَ الصَّتَمِ

الْمَجْدُ لِلسَّيْفِ لَيْسَ الْمَجْدُ  
لِلْقَلَمِ  
فَإِنَّمَا تَحْنُ لِلْأَسْيَافِ  
كَالْحَدَمِ

هذا مقلوبٌ من قول علي بن العباس النوبختي، وقد رواه أبو القاسم الزجاجي لابن  
الرومي، وإنما وهم لاتفاق الاسمين: البسيط:

لَهُ الرِّقَابُ وَدَائِتُ خَوْفِهِ  
الْأُمَمُ

دَعَانِي إِلَيْكَ الْعِلْمُ وَالْجِلْمُ  
وَالْحِجْيُ  
وَمَا قُلْتُ مِنْ شِعْرِ تَكَادُ  
بُيُوتُهُ

عَلِيمٌ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ، كَأَنَّهُ

إِذَا أَخَذَ الْقُرطَاسَ خَلَّتْ  
يَمِينُهُ

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءٍ مِنْ  
الْكُتُبِ

بَيِّضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودُ  
الصَّحَائِفِ فِي

وقال أبو الطيب: للبسيط:

مَا زِلْتُ أَصْحِكُ إِبْلِي كُلَّمَا  
نَظَرْتُ

أَسْبِيْرَهَا بَيْنَ اصْنَامِ  
أَشَاهِدُهَا

حَتَّى رَجَعْتُ وَأَقْلَامِي قَوَائِلُ  
لِي

أَكْتُبُ بِنَا أَبَدًا بَعْدَ الْكِتَابِ  
بِهِ

هذا مقلوبٌ من قول علي بن العباس النوبختي، وقد رواه أبو القاسم الزجاجي لابن  
الرومي، وإنما وهم لاتفاق الاسمين: البسيط:

إِنْ يَخْدُمُ الْقَلَمُ السَّيْفَ الَّذِي  
خَضَعَتْ

فَالْمَوْتُ وَالْمَوْتُ لَا شَيْءَ يُعَالِمُهُ مَا

زَالَ يَتَّبِعُ مَا يَجْرِي بِهِ الْقَلَمُ  
بِذَا قَصَى اللَّهُ لِلْأَقْلَامِ مَدَّ بُرَيْتَانُ

السِّيُوفِ لَهَا مَدُّ أَرْهَفَتْ حَدَمَ

وقال ابن الرومي: المتقارب:

لَعَمْرُكَ مَا السَّيْفُ سَيْفُ  
الْكَمِيِّ

لَهُ شَاهِدٌ إِنْ تَأَمَّلْتَهُ

أَدَاةُ الْمَنِيَّةِ فِي جَانِبِهِ

سِنَانُ الْمَنِيَّةِ فِي جَانِبِ

أَلَمْ تَرَ فِي صَدْرِهِ كَالسِّنَانِ

وقال أبو الفتح البستي: الطويل:

بِأَخْوَفَ مِنْ قَلَمِ الْكَاتِبِ

ظَهَرَتْ عَلَى سِرِّهِ الْعَائِبِ

فَمِنْ مِثْلِهِ رَهْبَةُ الرَّاهِبِ

وَحَدُّ الْمَنِيَّةِ فِي جَانِبِ

وَفِي الرَّدْفِ كَالْمُرْهَفِ

الْقَاصِبِ؟

إذا أقسم الأبطال يوماً  
بسيفهم  
كفى قلم الكتاب مجداً  
ورفعةً  
وعدوه ممّا يُكسبُ المجدَ  
والكرمُ  
مدى الدهرِ أن الله أقسم  
بالقلم

وقد قيل: صريرُ الأقلام، أشدُّ من صليل الخُسام.  
قال الصولي: أنشدني طلحة بن عبيد: الكامل:

وإذا أمرَ على المهارقِ كفه  
متقاصراً مُتطاوِلاً ومفصلاً  
ترك العُدّة رواجفاً أحشاؤها  
كالحيّة الرّفساء إلا أنه  
يرمي به قلماً يمجُّ لعابه

وقال محمود بن أحمد الأصبهاني: السريع:

أخرسٌ يُنبِك بإطراقه  
يُدري على قِرطاسه دَمعةً  
كعاشقٍ أحقى هواه وقد  
تُبصره في كلِّ أحواله  
يُرى أسيراً في دِوَاةٍ وقد  
أخرق لو لم تَبْره لم يَكُنْ

كالتخّر إذ يجري، وكالليل إذ

وقال أحمد بن جرّار: السريع:

أهيفُ ممشوقٌ بتحريكه  
له لسانٌ مُزَهَفٌ حدُّه  
تَرى بسيطَ الفكر في نظمه  
كأنما يَسْحَبُ في إثره  
لولاه ما قام منارُ الهدى

ومن أجود ما قيل في صفة القلم قول تمام

لَكَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى الَّذِي  
بِشَبَاتِهِ

له رِبقة طَلُّ وَلَكِنْ وَقَعَهَا  
لُعَابُ الْأَفَاعِي الْقَاتِلَاتِ  
لُعَابُهُ

له الخلوات اللاء لولا تَجِيُّهَا

وقال الأمير تميم بن المعز: الطويل:

وذي عَجَبٍ من طولِ صَبْرِي  
على الذي

يقولون: ما تَشْكُو؟ فقلت: مَتَى  
سَكَا

وإن أمراً يشكو إلى غير نافع

ألاقي من الأزرَاءِ وَهُوَ جَلِيلُ

شَبَا السيفِ عَضْبُ الشفرتينِ  
صَقِيلُ؟

ويَسْخو بما في نفسه

لَجْهول  
 عليلٌ وَمَنْ أشكو إليه عليل  
 بجَمَلَة ما ألقاه قَبْلَ أقولُ  
 أري الصبرَ سيفاً ليس فيه  
 فُلُولُ  
 وقال: الكامل:  
 يا دَهْرُ، ما أقساك مِنْ  
 مُتْلون  
 أتروح للنكس الجهول  
 ممهداً  
 وإذا صَفَوَت كَدَّرَت، شيمَة  
 باخل،  
 لا أرتضيك، وإن كرمت؛ لأنني  
 زمنٌ إذا أعطى استرد  
 عطاءهُ  
 ما قام خيرك يا زمانُ بشره  
 من أخبار الكاتب أحمد بن يوسف

وكان أحمد بن يوسف منصرفاً عن غسان بن عباد، وجرث بينهما هتات بحضرة المأمون، فقال يوماً بحضرة خاصة أصحابه: أخبروني عن غسان بن عباد؛ فإني أريده لأمر جسيم؛ وكان قد عزم على تقليده السند مكان بشر بن داود؛ فتكلم كل فريق بما عنده في مَدْحِه؛ فقال أحمد بن يوسف: هو، يا أمير المؤمنين، رجلٌ محاسنه أكثر من مساويه، لا يتطرفُ به أمرٌ إلا تقدم فيه، ومهما تخوف عليه فإنه لن يأتي أمراً يعتذر منه؛ لأنه قسم أيامه بين أفعال القُصَل؛ فجعل لكل خُلق توبة، إذا نظرت في أمره لم تدر أي حالاته أعجب؛ أما هَذَاهُ إليه عَقْلُهُ أم ما اكتسبه بأدبه؟ فقال له المأمون: لقد مدحته على سوء رأيك فيه! قال: لأنني في أمير المؤمنين كما قال الشاعر: الوافر:

نصحتك في الصديق وفي  
 عدائي

كفى ثمنا لِمَا أسدّيت أني  
 وأنا حين تَنُدُّبني لأمرٍ

قال الصولي: وقد روي هذا لغير أحمد، ولعل أحمد استعاره؛ فأعجب المأمون ذلك منه، وشكره غسان بن عباد له، وتأكدت الحال بينهما. وكان أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح، مولى عجل بن لجيم، عالي الطبقة في البلاغة، ولم يكن في زمانه أكتب منه، وله شعرٌ جيد مرتفع عن أشعار الكتاب، ووزر للمأمون بعد أحمد بن أبي خالد، وكان أول ما ارتفع به أحمد أن المخلوع محمد بن الرشيد لَمَّا قتل أمر طاهر بن الحسين الكتاب أن يكتبوا إلى المأمون؛ فأطالوا، فقال طاهر: أريد أخصر من هذا، فوصف له أحمد بن يوسف وموضعه من البلاغة، فأحضره لذلك، فكتب: أما بعد، فإن كان المخلوع قسيم أمير المؤمنين في التَّسَبُّبِ

واللَّحْمَةَ، فقد فَرَّقَ بينهما حكمُ الكتاب في الولاية والخدمة، بمفارقتِهِ  
عِصْمَةَ الدين، وخروجه عن الأَمْرِ الجامع للمسلمين؛ لقول الله عَزَّ وَجَلَّ  
فيما اقتص علينا من نبي نوح وابنه: "إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ  
صَالِحٍ"؛ ولا طاعة لأحدٍ في معصية الله، ولا قطيعةً ما كانت القطيعةُ في  
ذاتِ اللَّهِ؛ وكتابي إلى أمير المؤمنين وقد أنجز اللَّهُ له ما كان ينتظرُ من  
سابقِ وَعْدِهِ، والحمد لله الراجِع إلى أمير المؤمنين معلوم حَقِّه، الكائد له  
فيمن حَتَرَ عَهْدَهُ، وَتَقَصَّ عَقْدَهُ، حتى رَدَّ به الألفَةَ بعد فُرْقَتِهَا، وَجَمَعَ به  
الأمَّة بعد سَنَّتَيْهَا، وَأَضَاء به أَعْلَام الدين بعد دُرُوسِهَا؛ وقد بعثتُ إليك بالدنيا  
وهي رَأْسُ المخلوع، وبالأخرة وهي البُرْدَةُ والقَضِيبُ؛ والحمدُ لله الآخِذِ  
لأمير المؤمنين حَقِّه، الراجِع إليه تُرَاتِ أبائِهِ الراشدين.

وكان أحمد بن أبي خالد كثيراً ما يَصِفُ أحمدَ للمأمونٍ ويحثه عليه، فأمره  
المأمون بإحضاره، فلما وقف بين يديه قال: الحمدُ لله يا أمير المؤمنين  
الذي استخَصَّك فيما استخفظك من دينه، وقلدك من خلافتِهِ، بسوايغ  
نعمه، وفضائلِ قِسْمِهِ، وعَرَفَكَ من تيسيرِ كلِّ عسيرٍ حاولك عليه متمرداً،  
حتى ذلَّ لك ما جعله تكملةً لما حَبَاكَ به من مواردِ أموره يُنَجِّح مصادرها،  
حَمْدًا نامياً زائداً لا يَنْقَطِعُ أولاه، ولا يَنْقُصِي أَحْرَاه، وَأَنَا أَسْأَلُ الله يا أميرَ  
المؤمنين من إتمامِ بلائه لديك، ومِيتِهِ عليك، وكفائتِهِ ما ولَّاكَ واسترعاكَ،  
وتحصينِ ما حَارَ لك، والتمكينِ من بلادِ عدوك، مما يمنعُ به بَيْضَةَ الإسلامِ،  
ويُعِزُّ بك أَهْلَهُ، وَيُبِيحُ بك حِمَى الشَّرِكِ، ويجمع لك مُتَبَايِن الألفَةِ، وَيُجِزُّ بك  
في أهلِ العِنَادِ والضلالةِ وَعَدَّةً؛ إنه سميع الدعاء، فَعَالَ لما يشاء.

فقال المأمون: أحسنت، بُوركَ عليك ناطقاً وساكتاً! ثم قال بعد أن بَلَاه  
واختبره: يا عجباً لأحمد بن يوسف! كيف استطاع أن يَكْتُم نَفْسَهُ؟ وكتب  
إلى المأمون يستَجِدِّي لزوارِ علي باه: إن داعِي تَدَاكَ، وَمُتَادِي جَدَّوَاكَ،  
جَمَعاً ببابك الوُفُودِ، يرجون نائِلَكَ العَتِيدِ، فمنهم من يَمُتُّ بِجُرْمَةٍ، ومنهم  
من يُذَلِّي بسالفِ خِدْمَةٍ، وقد أَجْحَفَ بهم المقام؛ فإن رأى أميرُ المؤمنين  
أن يَنْعَشَهُم بسِيبِهِ، ويحقق ظَنَّهُم بطُولِهِ، فَعَلَّ.  
فوقع المأمون في عرض كتابه: الخَيْرُ متبع، وأموال الملوك مَطَّان لطلاب  
الحاجات؛ فاكْتُب أسماءَهُم، ويَبَيِّنْ مرتبَةَ كُلِّ واحدٍ منهم، ليصيرَ إليه على  
قَدْرِ استحقاقِهِ؛ ولا تكدرن معروفنا بالمَطْلِ والحجاب؛ فقد قال الشاعر:

فإنك لَنْ تَرَى طَرْدًا لِحُرِّ  
ولم تُجَلِّبْ مودَّةً زِي وَفَاءً

قال أحمد بن يوسف: أمرني المأمون أن كتب في زيادةِ قناديل شهر  
رمضان؛ فأغيا علي، ولم أَجِدْ مثلاً أَحْتَذِي عليه؛ فبت مغموماً، فأتاني أت  
في النوم فقال: اكتب؛ فإنَّ فيها إضاءةٌ للمتجهدين، ونفياً لمكان الريب،  
وأُنْبِيَا للسائلة، وتنزيهاً لبيوتِ الله من وَخْشَةِ الظلم، فأخبرت بذلك  
المأمون، فأستظرفه، وأمر أن تمضي الكُتُبُ عليه.

وأهدى إلى المأمون في يوم نوروز طبقَ جَزَعٍ عليه ميل من دَهَبٍ، فيه  
اسمه منقوش، وكتب إليه: هذا يوم جَرَّت فيه العادةُ، بِالْإِطْفَافِ العبيدِ  
السادة، وقد بعثتُ إلى أمير المؤمنين طبقَ جَزَعٍ فيه ميل.  
فلما قرأ المأمون الرقعة قال: أجات هديةُ أحمد بن يوسف؟ قالوا: نعم،  
قال: هي في داري أم داري فيها؟ فلما رفع المنديل استظرف الهدية

واسترجح مُهْدِيهَا.  
وأهدى إلى إبراهيم بن المهدي هدية وكتب إليه: الثقة بك قد سهلت  
السييل إليك، فأهديتُ هدية من لا يحسنم إلى من لا يعتنم.  
وكتب إلى بني سعيد بن سلم: لولا أن الله، عز وجل، ختم نبوته بمحمد،  
صلى الله عليه وسلم، وكتبه بالقرآن، لنزل فيكم نبي نعمة، وأنزل فيكم  
قرآن عذر؛ وما عسيت أن أقول في قوم محاسنهم مساوي السؤل،  
ومساويهم فصائح الأمم، وألسنتهم معقولة بالعبي، وأيديهم معقودة بالبحل،  
وهم كما قال الشاعر: البسيط:

لا يكبرون وإن طالت حياتهم ولا تبديد مخازيهم وإن بادوا  
وعنى مَعْن بحضرة أحمد بن يوسف ولم يكن مُحسناً، فلم يُنصتوا له،  
وتحدثوا مع غنائه، فغضب المغنبي، فقال أحمد بن يوسف: أنت، عافاك الله،  
تحمل الأسماع ثقلاً، والقلوب مللاً، والأعين قباحة، والأنف نثانة، ثم تقول:  
اسمعوا مني، وأنصتوا إلي! هذا إذا كانت أفهامنا مُفقلة، وأذاننا صدئة، فإمّا  
رضيت بالعفو منا، وإلا قمت مذموماً عتاً.

الفاظ لأهل العصر في ذم المغنين  
يترجم فيتعِب ولا يُطرب. إذا غنى غنى، وإذا أدى أدى. يميت الطرب، ويحيي الكرب.  
ضربه يُوجب ضربه. من عجائب غنائه أنه يُورد الشتاء في الصيف. ما رؤي قط في دارٍ  
مرتين، وحضر لحظة مجلساً فيه علي بن بسام، فتفرق القوم المخاد، فقال لحظة:  
فما لي لم تعطوني مخدة؟ فقال علي بن بسام: غنّ فالمخاد كلها إليك تصير! وفيه  
يقول ابن بسام: السريع:

يا مَنْ هَجَوْنَاهُ فَعَتَّانَا

سِيَانِ إِنْ غَنَى لَنَا حِظَّةً

وكان خالد يُستبرد، فبعث بعضُ الظرفاء غلامه يشتري له خمسة أرطال ثلج، فأناه  
بخالد وقال: يا مولاي، طلبت خمسة أرطال، وهذا جمل! وتغنى بخصرة محموم، فقال:  
ويحك! دَعْنَا نَعْرُق! وقال بعضُ المحدثين في قريس المغنبي: المتقارب:

أَلَا فَاسْقِنِي قَدْحًا وَأَفْرًا

أَكَلْنَا قَرِيْسًا وَعَنَى قَرِيْسَ

ولقي أبو العباس المبرد بردَ الخيار المغنبي في يوم تلج بالجرس، فقال: أنت المبرد وأنا  
برد الخيار، واليوم كما ترى، اعْبُر بنا لا يهلك الناس بالفالج بسينا.  
وقال ابن عباد صاحب في مغن يعرف بابن عذاب: مَجَلع البسيط:

أَقُولُ قَوْلًا بَلَا اِحْتِشَامَ

ابن عذابٍ إِذَا تَعَنَى

رجع إلى أحمد بن يوسف

ومن شعر أحمد بن يوسف: مَجَلع البسيط:

ضَمِيرٌ وَجِدٍ بِقَلْبٍ صَب

فَصَارَ دَمْعِي لِسَانَ وَخِدي

لَوْلَا دَمْعِي وَقَرَطُ حُبِي

وقال: المنسرح:

وَعَامِلٌ بِالْفَجْوَرِ يَأْمُرُ بِالِ

أَوْ كَطِيبٍ قَدْ شَقَّه سَقَمِ

يَا وَعَظَ النَّاسِ غَيْرَ مَنَعِظِ

وقال: الطويل:

بِرِّ كَهَادٍ يَخَوْضُ فِي الظَّلَمِ

وَهُوَ يُدَاوِي مِنْ ذَلِكَ السَّقَمِ

تَوَبَّكَ طَهَّرَ أَوْلَا فَلَا تَلْمِ

فَأَلْسُنَا حَزْبٌ وَأَبْصَارُنَا سَلْمٌ

إِذَا مَا التَّقِينَا وَالْعِيُونَ نَوَاطِرُ

وقال في الحزن: الطويل:

كثير هموم القلب حتى  
كانما

إذا قيل ما أضناك! أسبل  
دمعه

وقال: الطويل:

عليه سرور العالمين حرام

فأخبر ما يلقي وليس كلام

ليردع عن سلطانه سنن  
الكبر

دعاه إلى تسكينها عظم  
القدر

كريم له نفس يلين بلينها

إذا ذكرته نفسه عظم قدرها

ووقع في كتاب رجل يحته على استتمام صنائعه عنده: مستتم الصنعة من  
عدل زيغها، وأقام أودها، صيانة لمعروفه، ونصرة لرأيه؛ فإن أول المعروف  
مستخف، وآخره مستثقل، يكاد أول الصنعة يكون للهوى، وآخرها للرأي،  
ولذلك قيل: رب الصنعة أشد من ابتدائها.

وكان أبو العتاهية له صديقاً قبل ارتفاع حاله، فأحس منه في حين وزارته  
تغيراً، فكتب إليه: الطويل:

أمنت إذا استغيت من سورة القفر

ف

ص

ر

ت

ت

ر

ي

ا

ر

ا

خ

و

ا

ن

ب

ل

ن

ظ

ر

أ

ل

مش

ز

ر

أبا جعفر إن الشريف  
يُهينهُ

فإن تهت يوماً بالذي نلت من  
غنى

ألم تر أن الفقر يُرَجَى له  
الغنى

وروى أبو بكر يموت بن المزرع عن خاله الجاحظ قال: حجب أحمد بن  
يوسف أبا العتاهية، ثم عاد، فقيل: هو نائم، فكتب إليه: الطويل:

لئن عدتُ بعد اليوم إني  
لظالمٌ

متى يظفر الغادي إليك  
بحاجةٍ

وقال: الخفيف:

يا أبو جعفر أخي وخَليلي  
في عداد الموتى وفي  
ساكني الدن

ميت مات وهو في ورق  
العَي

لم يمت ميتة الوفاة،  
ولكن

وخاصم أحمد بن يوسف رجلاً بين يدي المأمون، وكان صَعَا المأمون إليه  
على أحمد، ففطن لذلك، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه يَسْتَملي من عينيك ما  
يَلْقاني به، ويستبينُ بحركته ما تُجِنُّه له، وبلوغُ إرادتك أحب إليَّ من بلوغ  
أمني، ولذَّةُ إجابتك أمتعُ عندي من لذة ظفري؛ وقد تركتُ له ما نازعني فيه،  
وسلمتُ له ما طالبني به، فاستحسن ذلك المأمون.

ومن كلام أحمد بن يوسف: مجالسةُ البُعْصَاء تُثيرُ الهمومَ، وتَجَلِبُ الغمومَ،  
وتؤلم القلبَ، وتقدح في النشاط، وتطوي الانبساط.

الفاظ لأهل العصر في صفات الثقلاء

فلان ثقيل الطلعة، بغيضُ التفصيل والجملة، باردُ السكون والحركة؛ قد خرج عن حد  
الاعتدال، وذهب من ذات اليمين إلى ذات الشمال. يحكي ثقل الحديث المعاد، ويمشي  
في القلوب والأكياد، ولا أدري كيف لم تحمل الأمانة أرضَ حملته؟ وكيف احتاجت إلى  
الجبال بعد ما أفلته؟ كان وجهه أيام المصائب، وليالي النوائب، وكأنما فُرَّ به فقدُ  
الحنائب، وسوء العواقب. وكانما وصله عدمُ الحياة، وموتُ الفجأة، وكانما هجره قوة

المنّة، وريح الجنة. يا عجبني من جسم كالخيال، وروح كالجبال، كأنه ثقل الدين، على  
وَجَعِ الْعَيْنِ. هُوَ ثَقِيلُ السُّكُونِ، بَغِيضُ الْحَرَكَةِ، كَثِيرُ الشُّؤْمِ، قَلِيلُ الْبُرْكَاتِ. هُوَ بَيْنَ الْجَفَنِ  
وَالْعَيْنِ قَدَاةٌ، وَبَيْنَ الْأَخْمَصِ وَالنَّعْلِ حِصَاةٌ. مَا هُوَ إِلَّا غِدَاةُ الْفِرَاقِ، وَكِتَابُ الطَّلَاقِ،  
وَمَوْثُ الْحَبِيبِ، وَطَلُوعُ الرَّقِيبِ. مَا هُوَ إِلَّا أَرْبَعَاءٌ لَا تَدُورُ فِي صَفَرٍ، وَالْكَابُوسُ فِي وَقْتِ  
السَّحَرِ، وَأَثْقَلُ مِنْ حَرَّاجِ بِلَاغِلَةٍ، وَدَوَاءٌ بِلَا عِلَّةٍ، وَأَبْعَضُ مِنْ مِثْلِ غَيْرِ سَائِرٍ، وَأَجْمَعُ  
لِلْعَيُوبِ مِنْ بَغْلَةِ أَبِي دُلَامَةَ، وَحِمَارِ طَيَّارٍ، وَطِيلَسَانَ ابْنِ حَرْبٍ، وَأَيْرَ أَبِي حَكِيمَةَ، وَأُنْشِدُ:  
الطويل:

وقال: إلهي زِيدَتِ الْأَرْضُ  
ثَانِيَةً

مشى فدعا من ثقله الحوثُ  
رَبَّهُ

وأنشد: الخفيف:

إليه لَحْظًا مُقْلَةً الرَّامِقِ  
أثْقَلُ مِنْ وَاشٍ عَلَى عَاشِقِ

مشتَمِلٍ بِالْبُعْضِ لَا تَنْتَنِي  
يُظَلُّ فِي مَجْلِسِنَا قَاعِدًا

وقال الحمدوني: المتقارب:

وعلمي بَأْتِكَ لَا تَصَدُقْ  
وإلا فَأَنْتَ إِذَا أَحْمَقُ

سألتك بِاللَّهِ إِلَّا صَدَقْتَ  
أَتَبْعُضُ نَفْسِكَ مِنْ ثَقْلِهَا

وكتب أبو عبد الرحمن العطوي إلى بعض إخوانه: الطويل:

مَلَأْتَ بَعْدُ مِنْكَ سَمْعَ لَبِيبِ

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُزِيلِ وَجِئْتَ فَلَـمِ  
أَصْلُ

ولا صاحباً إِلَّا بوجهِ قَطُوبِ

أَتَيْتَكَ مُشْتِاقًا فَلَمْ أَرِ  
حَاجِبًا

طَلُوعُ رَقِيبٍ أَوْ نَهْوِضُ حَبِيبِ

كَأَنِّي غَرِيمٌ مُقْتَضٍ، أَوْ  
كَأَنَّنِي

وكان أبو عبيدة معمر بن المثنى يستثقل جليساً اسمه زنباع، فقال له رجل يوماً: ما  
الزنبعة في كلام العرب؟ قال: التثاقل، ولذلك سُمِّيَ جليسُنَا زنباعاً.

وقد كثر الناس في الثقلاء، وأنا أستحسن قول جحظة، وإن كان غيره قد تقدمه في  
مثله: السريع:

يا لَفْظَةَ النَّعْيِ بِمَوْتِ الْخَلِيلِ      يا وَقْفَةَ التَّوْدِيعِ بَيْنَ الْحُمُولِ

الْمَنْزِلِ يَا وَجْهَ الْعَدُولِ الثَّقِيلِ

يا شَرِبَةَ الْيَارِجِ يَا  
أَجْرَةَ

أَقْرَمِ مِنْ بَعْدِ الْأَنْبَسِ الْحُلُولِ

يا طَلْعَةَ النَّعْشِ وَبِ  
مَنْزِلًا

يا نَعْمَةَ قَدْ آدَتَتْ بِالرَّحِيلِ

يا نَهْضَةَ الْمَحْبُوبِ عَنِ  
عَصْبَةِ

لِلوَعْدِ مَمْلُوءًا بَعْدُ طَوِيلِ

يا كِتَابًا جَاءَ مِنْ  
مُخْلِيفِ

مَسْتَوْدِعٍ فِيهَا عَزِيزُ التُّكُؤِ

يا بُكْرَةَ التُّكْلَى إِلَى  
حُفْرَةِ

بَصْرَفِهِ الْقَيْنَاتِ عِنْدَ الْأَصِيلِ

يا وَثْبَةَ الْحَافِظِ  
مَسْتَعْجَلًا

عَلَى أَخِي سُقْمٍ بِمَاءِ الْبِقُولِ

وَيَا طَبِيبًا قَدْ أَتَى

باكرًا

يا شوكةً في قدم

رخصةٍ

يا عشرةً المجذوم في

رخله

باردةً الحاجب عن

قسنوةٍ

ليس إلى إخراجها من سبيل

ويا صعود السُّعْر عند المُعِيل

ونكسةً من بعد بُرءِ العليل

وجحظةً هذا هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك، وقال أبو الحسن علي بن محمد بن مُقَلَّة الوزيُّر: سألتُ جَحْظَةَ مَنْ لِقِيه بهذا اللقب؟ فقال: ابنُ المعتز، لقيني يوماً، فقال لي: ما جِوان إنْ نكسُوه أتنا آلة للمراكب البحرية، فقلت: عَلَّقْ، إذا نكس صار قلعاً، قال: أحسنت يا جحظة؛ فلزمني هذا اللقب، وكان نأتى العينين جدًّا، قبيح الوجه، ولذلك قال ابن الرومي: الكامل:

نبئت جَحْظَةَ يستعيرُ جُحوظَهُ  
مِنْ فِيلٍ شَطْرَ نَجِّ وَمِنْ  
سِرطان

يا رحمتي لمُنادميهِتحمَلوا أَلَمَ العيون  
للذَّةِ الأَذان

وكان طيبَ الغناء، ممتدَّ النَّفس، حسنَ المسموع؛ إلا أنه كان ثَقِيلَ اليد في الضرب؛ وكان حُلُوَّ النادرة، كثير الحكاية، صالح الشَّعر، ولا تزال تندر له الأبيات الجيدة، وهو القائل: الكامل:

جانبت أطيَّبَ لذتي  
وشرابي

فإذا كتبتُ لكي أنزّه ناظري  
في حُسْنِ لفظك لم تجدْ

إن كنت تنكر ذلتي وتذللي  
بجوابٍ ونُحُولٍ جسمي وامتدادِ  
عَدَّابي

فانظر إلى بَدَنِي الذي  
لِلناظرين بكَثْرَةِ الأَثوابِ  
مَوْهُهُ

وقال: مجزوء الكامل:

وإذا جفاني صاحبُ  
وتركته مثل القُبُو

وقال: البسيط:

ضاقت عليّ وجوهُ الرأي في  
يَلْقَوْنَ بِالْجَدِّ وَالْكَفْرانِ  
إحساني

فما أقابل إنساناً بإنساني  
أَقْلَبَ الطَّرْفَ تصعيداً  
ومنحدرًا

وقال: المتقارب:

لقد مات إخواني الصالحون  
وإن أقبل الصبحُ ولى السرور

وقال يهجو رجلاً الكامل:

لا تعذلوني إن هَجَرْتُ طعامه  
خوفاً على نفسي من  
الماكولِ

فمتى أكلتُ قتلته من بُخله  
ومن حكاياته ما حدّثني خالد الكاتبُ قال: جاءني يوماً رسولُ إبراهيم ابن المهدي،  
فصرت إليه، فرأيتُ رجلاً أسودَ على فُرْش فد غاص فيها، فاستجلسني وقال: أنشدني  
من شعرك، فأنشدته: الطويل:

رأَتْ منه عيني منظرين كما  
رأَتْ  
من الشمس والبدر المنير على  
الأرض

عشيّة حيّاني بوّرد كأنه  
بعض  
خدودٌ أضيقتُ بعضهنَّ إلى

ونازعني كأساً كأن حبّابها  
غمضي  
دموعي لما صدّ عن مقلتي

وراح وفعلُ الراح في حرّكاته  
الغصن  
كفعل نسيم الريح بالغصن

فرحفت حتى صار في ثلثي الفراش، وقال: يا فتى، شبهوا الخدودَ بالوُرد، وأنت شبهت  
الورد بالخدود، زدني فأنشدته: مجزوء الكامل:

عاتبْتُ نفسي في هوا  
ك فلم أجدها تقبل

وأطعتُ داعيتها إلي  
ك فلم أطع من يعدل

لا والذي جعل الوُجو  
ه لحسن وجهك تمثّل

لا قلتُ إنّ الصبر عن  
ك من التّصابي أجمل

فرحفت حتى انحدر عن الفرش ثم قال لي: زدني، فأنشدته: الرمل:

عش فحبيك سريعاً قاتلي  
والصّنى إن لم تصلني  
وأصلي

ظفّر الحبّ بقلب دزيف  
فيك والسّفمُ بجسم ناحل

فهما بين اكتئابٍ وصنّى  
تركاني كالقضيب الدّابل

وبكى العاذلُ لي من رحمة  
فيكائي لبكاء العاذل

فتعر طرباً وقال: يلبق؛ كم معك لنفقتنا؟ قال: ثمانمائة وخمسون ديناراً. قال: أقسمها  
بيني وبين خالد، فدفعت إلي نصفها.

وأنشد جحظة أو غيره ولم يسمّ قائله: البسيط:

لا يبعد الله إخواناً لنا سلفوا  
أفناهم حدّثان الدهر والأبدُ

نمدهم كل يومٍ من بقيتنا  
ولا يوّوب إلينا منهم أحدُ

ما قيل في السكين

وكان أحمد بن يوسف جالساً بين يدي المأمون، فسأل المأمون عن السكين فناوله  
أحمد السكين، وقد أمسك بِنصّابها، وأشار إليه بالحدّ، فنظر إليه المأمون نظر مُنكر؛  
فقال: لعل أمير المؤمنين أنكر عليّ أخذي التّصاب؛ وإشارتي إليه بالحدّ؛ وإنما تفاءلت  
بذلك أن يكون له الحدّ على أعدائه، فعجب المأمون من سرّعة فطنته، ولطيف جوابه.  
وقال بعض الكتاب: السكين مسّ الأقدام يشحذها إذا كلت، وبصقلها إذا تبتّ، وبطلقها  
إذا وقفت، ويلمّها إذا شعثت، وأحسّنها ما عرّضَ صدرّه، وأرّهفَ حدّه، ولم يفصل على  
القبضة نصّابها.

وقال أبو الفتح كشاجم يرثي سكيناً سرقته له: البسيط:

يا قاتل الله كتابَ الدواوين  
ما يستحثون من أخذ

السكاكين

لقد دهاني لطيفٌ منهم

في ذات حدّ كحدّ السيف

مسنون

فأقفرْتُ بعد عُمرانٍ

منها دواةٌ فتى بالكُتبِ

بموقعها  
تبكي على مُدِيَّةِ أودى الزمان  
بها  
كانت تقدِّمُ أقلامِي وتَنَحُّثُهَا  
مَفْتُون  
كانت على جائرِ الأفلامِ  
تُعِدِّني  
نحتاً وتَسْخِطُهَا بَرِّياً  
فَتُرْضِيني  
وأضحك الطرس والقرطاس  
عن حَلَل  
فإن قَسَّرت بها سوداءَ من  
صُحفي  
جَرُّ النصاب لطيفات  
شَعَائِرُهَا  
هيفاء مُرْهَقَةٌ بيضاء مُدْهَبَةٌ  
لكن مقطِيَّ أمسى شامتاً  
جَذَلًا  
قَصِين حتى يُضاهي في  
صيانته  
ولستُ عنها بسالٍ ما حَيِّثُ،  
ولا  
بواجِدٍ عَوَضًا منها يُسليني

ولو يَرُدُّ فِدَاءَ ما فَجِعْتُ بِهِ منها فديناه بالدنيا وبالدين

الفاظ لأهل العصر في صفات السكاكين  
سكِّين كأنَّ القَدْرَ سائِقُهَا، أو الأَجَلَ سابقُهَا، مُرْهَقَةٌ الصَّدْرِ، مُخْطَفَةٌ الخَصْرِ،  
يجولُ عليها فِرند العِنُقِ، ويموج فيها ماء الجَوْهرِ؛ كأنَّ المنيَّةَ تبرق من حدها،  
والأَجَلَ يلمع من متنها، رَكِبْتُ في نِصابِ أنوس، كأنَّ الحَدَقَ نَفَصَتْ عليه  
صَبَعُهَا، وَحَبَّ القلوب كسْتَه لباسها. أخذ لها حديدُها الناصح بخط من الروم،  
وضرب لها نصابها الحالك بسهم من الزنج، فكانها ليل من تحت نهار، أو  
مجمر أبدي سَنًا تار، ذات غرار ماضٍ، وذباب قاض. سكِّين ذات مَنَسِيرِ بازِيٍّ،  
وجَوْهر هوائيٍّ، ونِصاب زنجيٍّ، إن أَرْضِيَتْ أولت مَنِينًا كالدهان؛ وإن أَسْخَطَتْ  
انْتَقَتْ بناب الأفعوان. سكِّين أَحْسَنُ من التلاقِ، وأَقْطَعُ من الفراقِ، تفعل  
فِعْلَ الأَعْدَاءِ، وتنفَعُ بِنِعْمِ الأَصْدِقَاءِ. هي أَمْصَى من القِصَّاءِ، وأَنْقَدُ من القَدْرِ  
المَتَّاحِ، وأَقْطَعُ من طَبَةِ السيفِ الحُسامِ، وألمع من البَرِّقِ في العَمَامِ.  
جمعت حُسْنَ المنظرِ، وكَرَمَ المُخْبَرِ، وتملكتُ عِنانَ القلبِ والبصرِ، ولم  
يُخَوِّجُهَا عِنُقُ الجَوْهرِ إلى إمهاءِ الحجرِ.  
الاستدعاء إلى المؤانسة والمنادمة

قال محمد بن أنس للقاسم بن صبيح: ما زلنا في سَمَرٍ تَصِلُ فصولُه  
بتشوقك، فيذهب ذِكْرُكَ مَلَلِ السامرِ، وتَعَسَّةُ الساهرِ. فقال القاسم: مثلك  
ذكر صديقَه فأطراه، واعتذر إليه فأرضاه، ولو كنتم آذَنُوموني كنت أحدكم،  
مسرورا بما به سُررتم، مَفيضا فيما فيه أَقْصُتُم.  
قال بعض الطرفاء: شَرِطُ المنادمة قِلَّةُ الخلافِ، والمعاملةُ بالإنصافِ،  
والهيسامحة في الشرابِ، والتغافل عن ردِّ الجوابِ، وإدمان الرضا،  
وإطراح ما مَصَى، وإسقاط التحياتِ، واجتناب اقتراح الأصواتِ، وأكل ما

حضر، وإحضار ما تيسر، وسَتَرَ العَيْبِ، وحفظ الغيب.  
وقد أحسن أبو عبد الرحمن العطوي في قوله: الوافر:

حقوقُ الكأسِ والتَّدْمَانِ  
خمس

وثانيها مسامحةُ التَّدَامَى  
ذِمَارٍ

وثالثها، وإن كنتَ ابنَ حَيْرِ الِ  
ورابعها وللتَّدْمَانِ حق

إذا حَدَّثته فأكسُ الحديثِ الِ  
فما حُتَّ النبيذُ بمثلِ حسنِ الأِ

وخامسةٌ يدُكُ بها أخوها  
حديثِ الأَمسِ ننسَاهُ جميعاً

ومن حَكَمَتِ كاسُكُ فيه  
فأحْكُمُ

وقال حسان بن ثابت: الوافر:

تُوَلِّيها الملامةُ إنَّ أَلَمَّا

وشرب اليزيدي عند المأمون فلما أخذت منه الكأس أقبل يعتز عليه بتعليمه إياه،  
وأساء مخاطبته، فلما أفاق من سُكْرِهِ عُرِفَ ما جرى، فليس أكفانه، ووقف بين يدي  
المأمون فأنشده: الطويل:

أنا المذنبُ الخطأُ والعفُوُ  
واسعُ

تَمَلْتُ فأبَدْتُ مَنِّي الكاسُ  
بعضَ ما

ولا سيما إن كنتُ عند خليفَةٍ  
اللَّعُوُ

فإن تَعَفُّ عني أَلْفِ حَطْوِي  
واسعاً

فقال المأمون: لا تثرِبَ عليك، فالنبيذ بساط يطوى بما عليه.

وشرب كوزان المغني عند الشريف الرضي، فافتقد رداءه، وزعم أنه سرق. فقال له  
الشريف: ويحك! مَنْ تتهم منا؟ أما علمت أن النبيذ بساط يطوى بما عليه؟ قال:

انشروا هذا البساط حتى أخذ رداي واطووه إلى يوم القيامة.

وكان أبو جعفر أحمد بن جدار، كاتب العباس بن أحمد بن طولون، ينقل أخبار أبي  
حفص عمر بن أيوب، كاتب أحمد بن طولون، على الشراب إلى العباس، فصار إليه أبو

حفص فقال: يا أبا جعفر، إنما مجلس المدام مجلس حرمة، وداعية أنس، ومسرح  
لبانة، ومداد هم، ومرتع لهو، ومعهد سرور، وإنما توسطته عند من لا ينهم عيبه، ولا

يخشى عتبه، وقد اتصل بي ما تنهيه إلى أميرنا أبي الفضل أعز الله أمره، من أخبار  
مجالستي، فلا تفعل، وأنشده: الخفيف:

ولقد قلت للأخلاء يوماً  
إنما مجلس المدام بساط

فإذا ما انتهوا إلى ما أرادوا  
وهمُ أخرياء، إن كان منهم

فاعتذر ابن جدار وحلف ما فعل، وقام من مجلسه.

وأنشد أبو حفص: الكامل:

كم من أخٍ أوجسْتُ منه  
سجِيَّةً  
فأنسيتَ بعدَ ودادِهِ بفراقِهِ  
لم أحمد الأيامَ منه خليقةً  
عول أبو حفص في أكثر كلامه على تَقْلِ كلام أبي العباس الناشئ في  
الشراب، والأبيات التي أنشد أولاً له.  
أبو القاسم إصاحب: قدماً حُمِلْتُ أوزارُ السُّكْرِ، على ظهور الخمر،  
وطوي بساطُ الشراب، على ما فيه من خطأ أو صواب. متابعة العُقار،  
تعذر في حَلِ العِدَار، وتُغني عن الاعتذار. متابعة الأبطال، تبطل سورة  
الأبطال، وتَدَعُ الشيوخ كالأطفال.  
كتب إسحاق بن إبراهيم الموصلي إلى بعض الجَلَّةِ يستدعيه: يؤمنا يوم  
لِيُنَّ الحواشي، وَطِيءُ النواحي؛ وسماؤنا قد أقبلت، وورعدت بالخير  
وبرقت، وأنت قُطِبَ السرور، ونظام الأمور؛ فلا تفرِّدنا فنقل، ولا تنفرد عنا  
فندل.  
وكتب بعض أهل العصر - وهو السَّري الموصلي - إلى أخ له يستدعيه إلى  
مؤانسته: الطويل:

خِلاكَ، ما اختل الصديق،  
سَحَابُ  
وَأنت شقيق الرُّوحِ تُؤثر  
وَصَلَّها  
ونحن خلال القَصْفِ ولَعْرِفِ  
نَجَّتني  
وعندي لك الرِّيحان زِين  
بِسَاطُهُ  
وَجِيشٌ كما انجرت ذيولُ  
عَلَّائِلِ  
وقد أَطَلقت فيه الشمائل،  
واشْتَتِ  
وحافظة ماءَ الحياة لِفَتيةٍ  
تُسَرِّبُها أخفى اللباس،  
وإنما  
على جَسَدٍ مثل الرِّبْرِجِدِ لم  
تزل  
إذا استودعت حُرَّ اللُّجَيْنِ  
سبائكاً  
وشوق رؤوس القوم عَيْمُ  
معلق  
بوارقُهُ حَمْرُ الكؤوس  
وَرَعْدُهُ  
ولا عائق يثني عِناتِكَ عَن  
هوى

وبشرك ما هبَّت رِيح،  
مَوَاهِبِ  
إذا رَاعَها بالهَجْرِ خِل  
وصاحبُ  
ثمارَ مَلَاةٍ كلهنَّ أَطايِبُ  
بَرَّهر كما زانتَ سماءَ  
كَوَاكِبُ  
مُصنِّدَلَّةً تختالُ فيها  
الكَوَاعِبِ  
مُفَقِّدَةً عن جانبيها  
الجَنائِبِ  
حياتهم أن تستلذ  
المشارِبُ  
يلفُّ بها أفواههُ والسبائبُ  
تشاكله في لونه وتُناسبُ  
تَصَوِّبه في أحشائها وَهوَ  
دَائِبُ  
من اللد لا يَجْري ولا هو  
ذاهبُ  
أناملُ بيضٍ للطبول  
تَلَاعِبِ  
رَعَى جانب منه وأومضُ  
جانبُ

فبادِرْ؛ فإن اليوم صافي من  
القَدَى  
وقال ابن المعتز: المنسرح:  
لا شَيْءَ يسلي همي سوى  
قَدَحٍ  
ففي غَيْمٍ تَدُّ يَرْجِي سَحَابَهُ  
وقال الحسن بن محمد الكاتب يصف طيلاً البسيط:  
يا حَبْدًا يومنا تَلْهُو بِمُلْهِيةٍ  
تَلْهُو بِشَيْءٍ له رَأْسَانِ في  
جَسَدٍ  
قد سَدَّ هذا إلى هذا كأنهما  
تَظَلَّ نلطم حَدْيِهِ إذا ضَرَبَتْ  
فتسمعُ الصوت منه حين  
تَضْرِبُهُ  
تَدَمَى عليه أوداج إبريق  
بَرَقُ ابتسامٍ ورَعْدُ تصفيقٍ  
تُلْهُو بِشَيْءٍ له رَأْسَانِ في  
جَسَدٍ  
من شِدَّةِ الشدِّ مقروبان في  
صَقْدٍ  
بكل طاقتها لطمًا بلا حَرَدٍ  
كأنه خَارُجٌ من ماضِعِي أسدٍ

ومن ألفاظهم في الاستدعاء

نحن في مجلس قد أبيت راحه أن تصفو لنا أو تتناولها يُمنَّاك، وأقسم عتاؤه لا  
طاب أو تبعه أدناك، فأما خدود نارجه فقد احمرت حجلًا لإبطائك، وعيون  
ترجسه قد حدقت تأملاً للقائك، فبحياتي عليك إلا تعجلت، وما تمهلت.  
نحن بغيبتك كعقد تغيبت وإسبطته، وشباب قد أخلقت جدته، وإذ قد غابت  
شمس السماء عتًا، فلا بد أن تدنو الأرض منا. أنت من ينتظم به شمل  
الطرب، وبلقائه يبلغ كل أرب. طر إلينا طيران السهم، واطلع علينا طلوع  
النجم. ثب إلينا وثوب الغزال، واطلع علينا طلوع الهلاك، في غرة شوال. كن  
إلينا أسرع من السهم إلى ممّره، والماء إلى مقره. جشم إلينا قدمك، واخلع  
علينا كرمك، وإن رأيت أن تحضرنا لتتصل الواسيطة بالعقد، وتحصل بقربك  
في جنة الخلد، وتُسهم لنا في قريك الذي هو قوت النفس، ومادة الأُنس.

ولهم في استدعاء الشراب

قد تألف لي شمل إخوان كان يفترق لعوز المشروب، واعتدنا فضلك  
المعهود، ووردنا بحرك المورد، وأنا ومن سامحني الدهر بزيارته من إخواني  
وأوليائك وقوفٍ بحيث يقف بنا اختيارك من النشاط والفتور، وبترضيته لنا  
إيثارك من الهم والسرور، والأمر في ذلك إليك، والاعتماد في جمع شمل  
السمرة عليك، فإن رأيت أن تكلني إلى أولى الظنين بك فعلت. أطف  
المتن موقعا، وأجلها في النفوس موضعًا، ما عمّر أوطان المسرة، وطرد  
عوارض الهم والفكرة، وجمع شمل المودة والألفة. قد انتظمت في رُفقة  
لي في سيمط الثريا، فإن لم تحفظ علينا النظام بإهداء المُدام غدنا كينات  
تغش، والسلام. فرأيت في إرواء غلتنا بما ينقعها، والطول على جماعتنا بما  
يجمعها.

ولهم في الكتابة عن الشراب

قد تبيط لتناول ما يستمد البشر، وبشرح الصدر، قد استمطر سحابة الأُنس، واستدّر  
حلوبة السرور، وقدح رند اللهو، فهو يمري دماء العناقيد، ويقصد عروق الدنان، ويتظلم  
عقد التدمان.

كتب الحسن بن سهل إلى الحسن بن وهب وقد اصطحب في يوم دجن لم يمطر: أما  
ترى تكافؤ هذا الطمع واليأس في يومنا هذا بقرب المطر وبعده، كأنه قول كثير:  
الطويل:

وَإِنِّي وَتَهَيَّامِي بَعْدَمَا  
لِكَالْمَرْتَجِي ظِلَّ الْعِمَامَةِ،  
تَخَلَّيْتُ مِمَّا بَيْنَنَا وَتَخَلَّتْ  
تَبَوَّأَ مِنْهَا لِلْمَقِيلِ اضْمَحَلَّتْ  
كَلَّمَا

وما أصبحتُ أمنيبي إلا في لقائك، فليت حجاب النأي هتك بيني وبينك! رفعتني هذه وقد دارت زجاجاتٌ أوقعت بعقلي ولم تتحيفه، وبعثت نشاطاً حركني للكتاب؛ فرأيت في إبطاري سروراً بسار خبرك؛ إذ حُرمت السرور ببطر هذا اليوم، موقفاً إن شاء الله. وكتب الحسن بن وهب: وصل كتاب الأمير أيده الله وقمي طاعم وبدي عاملة، ولذلك تأخر الجواب قليلاً، وقد رأيت تكافؤ إحسان هذا اليوم وإساءته، وما استوجب ذنباً استحق به دماً؛ لأنه إذا أشمس حكي حُسنك وضيائك، وإن أمطر حكي جودك وسخائك، وإن غام أشبه ظلك وفنائك، وسؤال الأمير عني نعمة من نعم الله، عز وجل، أعقني بها آثار الزمان السيئ عندي! وأنا كما يجب الأمير صرف الله الحوادث عنه، وعن خطي منه.

وذم رجل رجلاً فقال: دعواته ولائم، وأقداحه مخاجم، وكؤوشه محابر، ونوادره بواذر. وقال أبو الفتح كشاجم: كان عندي بعض المجان من النيذيين، فسمعني وأنا أحمدُ الله جلَّ ذكْرُه في وِسط الطعام لشيءٍ خطر ببالي من نعم الله التي لا تُحصى، فنهض وقال: أعطني الله عهداً إن عاودت! وما معني التحميد هنا؟ كأنك تُعلمنا أنا قد شعبنا. ثم مال إلى الدواة والقرطاس، وكتب ارتجالاً الوافر:

وَحَمْدُ اللَّهِ يَحْسُنُ كُلَّ وَقْتٍ  
لَأَنَّكَ تُحْسِنُ الْأَضْيَافَ فِيهِ  
وَتُوذِنُهُمْ، وَمَا شَبِعُوا بِشَبْعِ  
وَكَتَبَ الْقَرِيمِي إِلَى بَعْضِ إِخْوَانِهِ وَقَدْ تَرَكَ النَّبِيذَ الْبَسِيطَ:  
إِنْ كُنْتَ تُبَتُّ عَنِ الصُّهْبَاءِ  
تَشْرَبُهَا  
تُبُّ رَاشِدًا، وَاسْقِنَا مِنْهَا، وَإِنْ  
عَدَلُوا  
وَلَكِنْ لَيْسَ فِي أَوْلَى الطَّعَامِ  
وَتَأْمُرُهُمْ بِإِسْرَاعِ الْقِيَامِ  
وَذَلِكَ لَيْسَ مِنْ خُلُقِ الْكِرَامِ  
وَكَتَبَ الْقَرِيمِي إِلَى بَعْضِ إِخْوَانِهِ وَقَدْ تَرَكَ النَّبِيذَ الْبَسِيطَ:  
تُسْكَا فَمَا تُبَتُّ عَنْ بَرِّ  
وَإِحْسَانِ  
فِيَمَا فَعَلْتُ فَقُلْ مَا تَابَ  
إِخْوَانِي

وقال بعض النيذيين، وقد ترك الشرب: الوافر:  
تَحَامُونِي لِتَرْكِي شُرْبِ رَاحٍ  
وَمَا انْقَرَدُوا بِهَا دُونِي لِفَضْلِ  
وَأَرْفَعُهُمْ عَلَى وَتَرٍ وَصَنْجٍ  
إِذَا شَقُّوا الْجِيُوبَ شَقَّقَتْ  
جَبِي

فقر للنيذيين  
ما جمشت الدنيا بأطرف من النبيذ، ما للعقار والوقار. إنما العيش في الطيش، الراح تريق سم الهَمِّ. النبيذ ستر فانظر مع من تهتكه. اشرب النبيذ ما استبشعته، فإذا استطبته فدعه. لولا أن المخمور يعلم قصته لقدم وصيته. الصاحي بين السكاري كالحَي بين الموتى؛ يضحك من عقليهم، ويأكل من ثقلهم. أحمق ما يكون السكران إذا تعاقل. التبذل على النبيذ ظرف، والوقار عليه سخر، حد السكران أن تغرب الهموم، ويظهر السرُّ المكتوم.

وقال الحسن بن وهب لرجل رآه يعبس عند الشراب: ما أنصفتها، تضحك في وجهك، وتعبس في وجهها.  
وقال الطائي: الطويل:

إِذَا ذَاقَهَا، وَهِيَ الْحَيَاةُ، رَأَيْتَهُ  
يُعَبِّسُ تَعْبِيسَ الْمَقْدَمِ لِلْقَتْلِ  
وقد أحسن الشيخ صدر الدين حيث قال: البسيط:

وَأَنْ أَقْطَبَ وَجْهِي حِينَ تَبَسُّمُ لِي  
 وترك رجلٌ النبيذَ، فقيل له: لم تركته، وهو رسولُ السرورِ إلى القلب؟ قال: ولكنه  
 رسولُ بأسٍ يُبعثُ إلى الجوفِ فيذهب إلى الرأسِ.  
 وقيل لبعضهم: ما أصبكَ بالخمرة! فقال: إنها تُسرح في يدي بنورها، وفي قلبي  
 بسرورها، كأنَّ الناشئَ نظر إلى هذا الكلام فقال: الكامل:

رَأَى إِذَا عَلَتِ الْأَكْفُ كُؤُوسَهَا  
 فكأنها من دونها في الرَّاحِ  
 وَكَأَنَّهَا الْكَاسَاتُ مِمَّا حَوْلَهَا  
 من نورها يَسْبَحَنَ فِي  
 صَحْصَاحِ

لَوْ بُتَّتْ فِي عَسَقِ الظَّلامِ  
 ضِيَاؤُهَا  
 نَفَصَتْ عَلَى الْأَجْسَامِ ناصِعَ  
 لَوْتِهَا  
 البيت الأول كقول البحري: الكامل:  
 يخفي الزجاجَةُ ضوؤها،  
 فكأنها  
 وللناشئ في هذا المعنى: الكامل:

وَمُدَامَةَ يَخْفَى النَّهَارَ لِنُورِهَا  
 صبوت فأحدق نورها بزجاجها  
 وَتَبَرَّى إِذَا صَبَتْ بَدَتْ فِي  
 كَاسِهَا  
 وَتَكَادُ أَنْ مُزَجَّتْ لِرِقَّةِ لَوْنِهَا  
 صفراء تُضجِي الشمسُ، إن  
 قَيْسَتْ بِهَا  
 وَإِذَا تَصَفَحَتِ الْهَوَاءَ رَأَيْتُهُ  
 تَزْدَادُ مِنْ كَرَمِ الطَّبَاعِ بِقَدْرِ  
 مَا  
 لَا شَيْءَ أَعْجَبَ مِنْ تَوْلَدِ  
 بُرْيِهَا  
 وقال: الكامل:

إِنْ رَمَتْ وَصَفَ الرَّاحِ فَأَتِ  
 بِمَا  
 هِيَ مَاءٌ ياقوتِ، وَإِنْ مُزَجَّتْ  
 فَكَأَنَّهَا وَحِبَابُهَا ذَهَبٌ  
 ولأهل العصر: الدنيا معشوفة ريقها الراح. أخذ هذا المعنى من قول ابن الرومي في  
 صاعد بن مخلد: الطويل:

فَتَى هَاجَرَ الدُّنْيَا وَحَرَمَ  
 رِيْقِهَا  
 وَلَوْ طَمِعْتَ فِي عَطْفِهِ  
 وَوَصَالِهِ

فَعِنْدَ بَسْطِ الْمَوَالِي يَحْفَظُ  
 الْأَدَبَ

فَكَأَنَّهَا مِنَ الدُّجَى لَضِيائِهَا  
 فَكَأَنَّهَا جَعَلَتْ إِنْاءَ إِنْاءِهَا  
 مِتْقَاصِرَ الْأَرْجَاءِ عَنْ أَرْجَائِهَا

تَمْتَازُ عِنْدَ مِزَاجِهَا مِنْ مَائِهَا  
 فِي ضَوْئِهَا، كَاللَّيْلِ، فِي  
 أَضْوَائِهَا  
 كَدِرَ الْأَدِيمَةَ عِنْدَ حُسْنِ  
 صِفَائِهَا

تُودِي بِهِ الْأَيَّامَ مِنْ أَجْرَائِهَا  
 مِنْ سَقْمِهَا، وَدَوَائِهَا مِنْ  
 دَائِهَا

فِيهَا مِنَ الْأَوْصَافِ مِنْ قُرْبِ  
 فِي كَاسِهَا بِالْبَارِدِ الْعَدْبِ  
 كَلَّتَهُ بِاللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ  
 أخذ هذا المعنى من قول ابن الرومي في

وَهَلْ رِيْقُهَا إِلَّا الرِّحِيقُ  
 الْمَوْرَدُ؟

أَبَاحَتُهُ مِنْهَا مَرْشَفًا لَا يُصَرِّدُ

الخمْرُ أشبهُ شيءٍ بالدنيا؛ لاجتماع اللذات والمرارة فيها. الخمر مصباح  
 السرور، ولكنها مفتاح السرور. لكل شيء سر، وسرُّ الرّاحِ السرور. لا  
 يطيبُ المُدّام الصافي، إلا مع النديم الصافي.  
 ومن ألفاظهم في صفات  
 مجالس الأُنس وآلات اللهو وذكر الخمر  
 مَجْلِس رَاحِه ياقوت، وتَوْره ورد، وتَارِجُه ذهبٌ، ونرجسه دينار ودرهم،  
 يحملهما زبرجد. عندنا أُنْرَجُ كأنه من خَلْقِكَ خُلِق، ومن سَمَائِلِكَ سُرِق،  
 وتَارِج ككَرَاتٍ من سَقَن ذهب، أو ثدي أَيْكَارٍ خلقت. مجلسٌ أَحَدَتْ فيه  
 الأوتار تتجاوب، والأقداح تتناوب. أعلامُ الأُنس خافقَةٌ، وألْسُن الملاهي  
 ناطقة. ونحن بين بدور، وكاساتٍ تَدور، وبروقٍ رَاح، وشموس أقداح. قد  
 نشأت عَمامة النَّدِّ، على بسِطِ الوُرْد. مجلسٌ قد تفتحت فيه عيونُ  
 النرجس، وفاحت مَجامير الأُنْرَج، وفتقت قَارَاتِ التَّارِج، ونطقت ألسُنُ  
 العيدان، وقامت خطباءُ الأوتار، وهبت رياحُ الأقداح، وطلعتْ كواكبُ  
 التَّدْمان، وامتدَّتْ سماءُ النَّدِّ. مجلسٌ مَنْ رآه حسب الجَنان قد اضْطَقَّتْ  
 عيونُها، فجعلت في قدر من الأرض، وتخيَّرتْ فصوصها، فثِقَلتْ إلى مجلس  
 الأُنس واللهو. قد فضَّ اللَهُو ختامه، ونشر الأُنس أعلامه. قد هَبَّتْ للأُنس  
 ريح بَرَقها الرّاح، وسحابها الأقداح، وعودها الأوتار، ورياضها الأقمار. قد  
 فرغنا للهو والدهرُ عَنَّا في شغل.  
 جُل هذا من قولِ بعض أهل العصر: الرمل:

كم جوى مثله رسم مثل  
 ودم قد طل أثناء طلل  
 ولال كلل الخد بها  
 لعب البين بربات الكلل  
 حبداً عيش الليلي باللوى  
 لو تجاقى الدهر عنا وعقل  
 إذ فرغنا فيه للهو وقد  
 بائت الأقدار عنا في شغل  
 وأدرتا ذهباً في لهب  
 كلما أحمداً بالماء اشتعل

قد اقتعدنا غارب الأُنس، وجربنا في مِيدانِ اللهو. عمدنا إلى أقداحِ اللهو فأجلتْها،  
 ولمراكبِ السرور فامتطيناها. قد امتطينا غواربِ السرور بالأقداح. مُدّامة تُورد ریح  
 الوُرْد، وتُحكي نارَ إبراهيم في اللون والبرْد، ولستُ أدري أشقيق أم عقيق، أم رحيق أم  
 حريق. راحُ كان الدْيوكُ صبت أحداقها فيها. راح كأنما اشتقت من الروح والراحة.  
 قال ابن الرومي: الكامل:

والله ما تدرى لاية علة  
 يدعوتها في الرّاح باسمِ  
 الرّاح

ألريحتها أم روحها تحت  
 أم لا ريتاح نديمها المُرْتاح؟  
 الحشى

راخُ كالنارِ والنورِ والنور، أصغى من البلور، ومن دَفَع المهجور. روح نور لها من الكأس  
 جسم، كأنها شمس في غلالةِ سَراب. شراب أكادُ أقول: هو أصغى من مودتي لك،  
 ومن نعم الله عندي فيك، وأطيبُ من إسعافِ الزمان بلفائك. مُدّامة قد سبك الدهرُ  
 يَبْرها فصفًا. كأسُ كأنها نورٌ ضميره تار. راح كياقوتة في دُرّة، أصغى من ماء السماء،  
 ودَمعُ العاشقة المَرْهاء، أحسن من الدنيا المُقبلة، والنعم المكملة. أحسن من العافية  
 في ألبَدن، وأطيب من الحياة في السرور. أرقُ من نسيم الصبا، وعهد الصبا. أرق من  
 دَفَع محب، وشكوى صبّ. أرقُ من دموع العشاق، مَرْتها لوعَةُ الفراق. مُزج تارُ الرّاح  
 بثور الماء. راح كأنها معصورة من وَجْتة الشمس، في كأس كأنها مخروطة من فِلَقَة  
 البَدْرِ. كأسها ملء اليد، وريحها ملء البلد، تصب على الليلِ ثوبَ النهار، كأنها في  
 الكأس معنى دقيق في ذهنٍ لطيف. كأنَّ الرّاح من حَدّه معصورة، وملاحة الصورة

عليها مقصورة. وهذا من قول الطائي كأنها من حَدِّهِ تُعَصَّرُ وقال عبد السلام بن رَعْبَان الملقب بديك الجن الشاعر المشهور: الطويل:

مَعْتَقَهُ مِنْ كَفِّ ظَبْيٍ كَأَنَّمَا تَنَاوَلَهَا مِنْ حَدِّهِ فَأَدَّارَهَا  
تَمَيَّيْتُ الصِّهْبَاءُ فِي عِظَامِهِمْ، وَتَرَقَّتْ إِلَى هَامِيهِمْ، وَمَا سَتَّ فِي أَعْطَافِهِمْ، وَمَالَتْ  
بِأَطْرَافِهِمْ. سَارَتْ فِيهِمُ الْكُؤُوسُ، وَنَالَتْ عَنْهُمْ سَوْرَةُ الْخَنْدَرِيسِ. شَرِبْتَ عَقُولَهُمْ،  
وَمَلَكْتَ قُلُوبَهُمْ.

وقال أبو نُؤَاسٍ، وهو أستاذ الناس في هذا الشأن: الكامل:

صِفَةُ الطَّلُولِ بِلَاغَةُ الْقَدَمِ فَاجْعَلْ صِفَاتِكَ لَابِنَةَ الْكَزَمِ  
تَصِفُ الطَّلُولَ عَلَى السَّمَاعِ أَقْدُو الْعِيَانَ كَثَابَتِ الْعِلْمِ؟  
بِهَا  
وَإِذَا وَصَفْتَ الشَّيْءَ مُبْبَعًا لَمْ تَحُلْ مِنْ عَلَطٍ وَمِنْ وَهْمِ  
وقال: الكامل:

الكأس أهواها وإن رزأت صفراء مَجْدَهَا مَرَازِيْهَا  
دُخِرْتُ لِأَدَمَ قَبْلَ خَلْقِيهِ فَاعْذِرْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ رَجُلٌ  
وقال: المديد:

بُلِّغِ الْمَعَاشَ وَقَلَّلْتَ فَضْلِي جَلْتُ عَنِ النَّظْرَاءِ وَالْمِثْلِ  
فَتَقَدَّمَتْهُ بِخَطْوَةِ الْقَبْلِ مَرَّتْ مَسَامِعُهُ عَلَى الْعَدْلِ  
فتسليت بشرب عُقَارٍ فتناسها الجديدان حتى  
وافترعتا مرة الطعم بها واحتسنا من رحيق عتيق  
لم يُجفها مَبْرَلُ الْقَوْمِ حَتَّى أَوْ كِعْرَقِ السَّامِ تَنْشِقُ مِنْهُ  
وقال: الكامل:

وَحَدِيثٍ لِدَاتٍ مُعَلَّلٍ صَاحِبٍ  
يَقْتَاتُ مِنْهُ فَكَاهَةً وَمُرَاحًا حَسْبِي وَحَسْبُكَ صَوْءُهَا  
مَصْبَاحًا  
قال: ابغني المصباح، قلت له: ائتد  
فسكبت منها في الزجاجه شربة  
وهذا كقوله: الوافر:

وَحَمَّارٍ أَتَخْتُ عَلَيْهِ لَيْلًا فَتَرَجَمَ وَالْكَرَى فِي مُقْلَتِيهِ  
أَيْنَ لِي كَيْفَ صِرْتِ إِلَى حَرِيمِي  
فقلت له: ترقق بي، فإنني فكان جوابه أن قال: كلاً  
وقام إلى الدنانِ فسَدَ قَاهَا  
وقال بعض المحدثين: الكامل:

مَا زَالَ يَشْرِبُهَا وَيُشْرِبُ عَقْلَهُ خَيْلًا، وَتُوْذِنُ رُوحَهُ بَرَوَاحِ

حتى انثنى متوسِّداً بيمينه  
 وقال الصنوبري وذكر شرباً: الكامل:  
 نازعتهم كأساً تخالُ تسييمها  
 شقت قِناعَ الفَجْرِ لما غادرتُ  
 صبغت سوادَ دُجَاهُ حمرةً  
 لونها  
 وقال أبو الشَّيْص: الطويل:  
 وكأس كَسَا الساقِي لنا بعد  
 هَجْعَةٍ  
 كأنَّ اطرادَ الماءِ في جَبَّاتِها  
 سقاني بها، واللَّيْلُ قد شابَ  
 رَأْسُهُ  
 وقال أبو عدي الكاتب: الطويل:  
 وليس لها حدُّ تُحِيطُ  
 بَوْضِفِهِ  
 ولكنه كالبرقِ أَوْمَضَ ماضياً  
 وقال ابن المعتز: الطويل:  
 ألا فاسقنيها قد مشى الصبح  
 في الدُّجَى  
 فناولني كأساً أضاءت بَنانَهُ  
 ولما أريناها المزاج تسعرت  
 يطوف بها ظَبْيٌ من الإنس  
 شارِئُ  
 عليم بأسرار المحبين حاذق  
 فضل يُتاجيني يُقَلِّبُ طَرْفَهُ  
 وقال: الطويل:  
 ألا عَجَّ على دار السرور  
 فسلم  
 وقل: ما حَلَّتْ بالعين بعدك  
 لذة  
 وصفراءً من صيغ المِرْجِ  
 برأسها،  
 قطعْتُ بها عُمَرَ الدُّجَى  
 وشرَّبْتُها  
 من إنشَاء بديع الزمان الهمذاني  
 كتب أبو الفضل بديع الزمان إلى أبي عدنان بن محمد الضبي يعزيه عن بعض أقاربه:  
 الوافر:

سَكَرَأ، وَأَسْلَمَ رُوْحَهُ لِلرَّاحِ

مِسْكَاً تَضَوَّعَ فِي الْإِنَاءِ عَتِيقاً  
 كَفَ النَّدِيمِ قِنَاعَهَا مَشْفُوقاً  
 فَكَأَنَّهُ سَبَّحَ أُعِيدَ عَقِيقاً

خَوَّاشِيهَا مَا مَجَّ مِنْ رَيْقَةِ  
 الْعِنَبِ

تَرِبَ مَاءَ الدَّرِّ فِي سُبُكِ  
 الذَّهَبِ

غَزَالُ بَحْتَاءِ الزَّجَاجَةِ  
 مَخْتَصِبُ

لِغَاثٍ، وَلَا جِسْمٍ يَبَاشِرُهُ  
 لَمَسُ

فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ مَا تَذَكَّرُ  
 النُّفْسُ

عُقَّاراً كَمَثَلِ النَّارِ حَمْرَاءَ  
 قَرَقَفَا

تَدَفَّقُ يَاقُوتاً وَدُرّاً مُجَوِّفاً  
 وَخَلَّتْ سَنَّاها بَارقاً قَدِ  
 تَكشِفاً

يَقَلِّبُ طَرْفاً فَاسِقَ اللَّحْظِ  
 مُدْتَفَاً

بِتَسْلِيمِ عَيْنِيهِ إِذَا مَا تَخُوفَا  
 بِأَطْيَبِ مِنْ تَجْوَى الْأَمَانِي  
 وَالطَّفَا

وَقُلْ: أَيْنَ لِدَّائِي وَأَيْنَ  
 تَكَلِّمِي؟

سِوَاكِ، وَإِنْ لَمْ تَعْلَمِي ذَاكَ  
 فَاعْلَمِي

إِذَا مُرِجْتَ، إِكْلِيلُ دُرٍّ مَنْظَمِ

ظَلَامِيَةِ الْأَحْشَاءِ نُورِيَّةِ الدَّمِ

إذا ما الدهرُ جر على أناسٍ      حوادثه أناخَ بأخرينا  
فقلْ للشامتين بنا أفيقوا      سيلقى الشامتون كما لقينا

أحسنُ ما في الدهرِ عمومُه بالنوائبِ، وخصوصه بالرغائبِ، فهو يدعُو الجعَلَى إذا ساءَ، ويخصُّ بالنعمة إذا شاء، فليفكر الشامت؛ فإن كان أفلت، فله أن يشمت، ولينظر الإنسانُ في الدهرِ وضروفه، والموتِ وصنوفه، من فاتحة أمره، إلى خاتمة عُمره؛ هل يجدُ لنفسه، أثراً في نفسه؟ أم لتدبيره، عوناً على تصويره، أم لعمله، تقديماً لأمله، أم لحياله، تأخيراً لأجله؟ كلا، بل هو العبدُ لم يكن شيئاً مذكوراً، خُلق مَفْهُوراً، ورُزق مقدوراً، فهو يخياً جَبْراً، وبهلك صَبْراً، وليتأمل المرءُ كيف كان قبلاً، فإن كان العدمُ أصلاً، والوجودُ فضلاً، فليعلم الموتُ عدلاً؛ فالعاقلُ من رَفَع من جوانب الدهرِ ما ساءَ بما ستر، ليذهب ما تَفَع بما ضر؛ فإن أحبَّ ألا يحزن فليُنظر يَمَنَةً، هل يرى إلا مَحَنَةً، ثم ليعطف يَسْرَةً، هل يرى إلا حَسْرَةً؟ ومثلُ الشيخ الرئيس - أطال الله بقاءه! - من قَطَن لهذه الأشرارِ، وعَرَف هذه الديارِ، فأعدَّ لنعيمها صَدْرًا لا يملؤه فرحاً، ولبؤسها قلباً لا يطيره تَرَجاً، وصحت البريةَ برأي من يعلم أن للمتعة حدًّا، وللعارية رَدًّا، ولقد نُعي إلي أبو قبيصة، قدّس الله روحه، وبرّد ضريحه، فَعَرَضت عليّ أمالي فُعوداً، وأمانِي سوداً، وبكيت، والسخيّ جودُه بما يملك؛ وضحكت، وشئُ الشدائد ما يُضحك، وعضضت الأصبع حتى أدْمَيْتُه، وذممت الموتَ حتى تمنيتُه؛ والموتُ أطال الله بقاء الشيخ الرئيس حَظْبٌ قد عظم حتى هان، وأمر قد خشن حتى لَانَ، ونكّر قد عمّ حتى عادَ عَرَفاً؛ والدنيا قد تنكرت حتى صار الموتُ أخفَّ خطوبها، وقد خبثت حتى صار أقلَّ عيوبها، ولعلَّ هذا السهم قد صاب آخر ما في كتانتها، وأنكأ ما في خزانتها، ونحْنُ معاشِرَ التبع نتعلمُ الأدبَ من أخلاقه، والجميلُ من أفعاله، فلا نحْتِ على الجميل وهو الصبر، ولا نرْعَبه في الجزيل وهو الأجر؛ قَلِيْرَ فيهما رأيُه إن شاء الله.

وله إلى بعض إخوانه جواباً عن كتاب كتبه يهتبه بمرض أبي بكر الخوارزمي وكانت بينهما مُقَارَعَةٌ، ومنازعة، ومناقرة، ومهاجرة؛ ولهما مجالس مستظرفة قهره البديعُ فيها وبهره، وبكته حتى أسكته، ليس هذا موضعها، لكني أذكر بعد هذه الرسالة بعضَ مكاتبات جرّت بينهما؛ إذ كان ما لهما من الابتداء، والجواب أخذاً بوصول الحكمة وفضل الخطاب: الحر أطال الله بقاءك - لا سيما إذا عرف الدهرُ معرفتي، ووصف أحواله صفتي - إذا نظر علم أن نَعَمَ الدهرُ ما دامت معدومة فهي أمانِي، وإن وُجِدت فهي عَوَارِي، وأن مَحَنَ الأيامِ وإن طالت فستنفد، وإن لم تُصب فكان قد، فكيف يشمت بالمحنة من لا يأمنها في نفسه، ولا يَعْدَمها في جنسها، والشامت إن أقلت فليس يقوت، وإن لم يمت فسيموت؛ وما أقبح الشماتة، بمن أمن الإمامة، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة، وعَقِبَ كل لفظة، والدهرُ عَرْتَان طعمه الخيار، وظمان شربُه الأحرار، فهل يشمت المرءُ بأنياب أكله، أم يُسَرُّ العاقلُ بسلاح قاتله؟ وهذا الفاضل شفاه الله وإن ظاهرناه بالعداوة قليلاً، فقد باطنأه وُدّاً جميلاً، والحُرُّ عند الحمية لا يسطأ، ولكنه عند الكرم يتفاد، وعند الشدائد تذهبُ الأحقاد، فلا تتصور حالتني إلا بصورتها من التوجع لعلته، والتحرُّن لمرضته، وقاهُ واللّه المكروه، ووقاني سماعَ المحذور فيه، بمنّه وحوّله، ولطفه وطوّله.

قال البديع في سياقة أخباره مع أبي بكر الخوارزمي:

أولها أنا ووطننا خراسان، فما اختَرنا إلا نيسابور داراً، وإلا جوار السادة جواراً، لا جرم أنا حَطَطنا بها الرَّحْل؛ ومددنا عليها الطُّبَّ، وقديماً كنا نَسْمَعُ بحديث هذا الفاضل فنتشوقه، وبخبره على العَيْبِ فنتعشقه، ونقدِّرُ أنا إذا ووطننا أَرْضَه، ووَرَدنا بلدَه، يخرج لنا في العِشْرَةِ عن القِشْرَةِ، وفي المودَّةِ عن الجلدة، فقد كانت كلمة العُزْبَةِ جَمَعَتْنَا، ولَحْمَةُ الأَدبِ تَطْمِنُنَا، وقد قال شاعر القوم غير مدافع: الطويل:

أَجَارَتْنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَا هُنَا      وكلُّ غَرِيبٍ لِلغَرِيبِ تَسِيبُ

فأخلف ذلك الظن كل الإخلاف، واختلف ذلك التقدير كل الاختلاف، وكان قد انفق علينا في الطريق من العرب اتفاق، لم يوجبه استحقاق، من بَرَّةِ بَرِّوْهَا، وَفِصَّةِ فِصْوْهَا، وَذَهَبِ ذَهَبِوْهَا، ووَرَدنا نيسابور بِرَاحَةٍ، أَنْقَى من الراحة، وَكَيْسٍ أَخْلَى من جَوْفِ حِمَارٍ، وَزِي أَوْحَشَ من طلعة المعلم، بل اطلاعة الرقيب، فما حَلَلْنَا إلا قصبة جواره، ولا وَطِنُنَا إلا عَتْبَةَ دَارِهِ؛ وهذا بعد رُفْعَةِ قَدَمَتَاهَا، وَأَجْوَالِ أَنْسِ نَظْمِنَاهَا. ونسخة الرقعة: أنا بَقْرَبِ الأَسْتَاذِ أَطَالَ اللهُ بِقَاهُ كَمَا طَرِبَ النَّشْوَانُ مَالَتْ بِهِ الخَمْرُ، وَمِنَ الأَرْتِيَاخِ لِلقَائِهِ كَمَا انْتَفَضَ العُصْفُورُ بِلِلَّةِ القَطْرِ، وَمِنَ الأَمْتِرَاجِ بولائه كما التقت الصَّهْبَاءُ وَالبَارِدُ العَدْبُ، وَمِنَ الإِبْتِهَاجِ لَمَرَّارِهِ كَمَا اهْتَرَّتْ تَحْتَ البَارِحِ العُصْنُ الرَطْبُ، فكيف تَنَشَّطُ الأَسْتَاذُ سَيِّدِي لِصَدِيقِ طَرَأَ إِلَيْهِ مِمَّا بَيْنَ قَصْبَتِي العِرَاقِ وَخُرَاسَانَ، بل عتبتني نيسابور وجرجان؟ وكيف اهتزازه لضيف: الكامل:

رَبِّ الشَّمَائِلِ مُخَلِّقِ الأَنْوَابِ      بَكَرَتْ عَلَيْهِ مُغْيِرَةُ الأَعْرَابِ

وهو - أَيْدَهُ اللهُ! - وَلِيٌّ إِنْعَامِهِ، بِإِنْفَادِ عُلَامِهِ، إِلَى مُسْتَفْرِي، لِأَفْضِي إِلَيْهِ بِمَا عِنْدِي - إِنْ شَاءَ اللهُ -.

فَلَمَّا أَخَذْنَا عَيْنَهُ سَقَانَا الدُّرْدِيَّ مِنْ أَوَّلِ دَنِّهِ، وَأَجْتَانَا سَوَاءَ العِشْرَةِ مِنْ بَاكُورَةِ فَهِّهِ، مِنْ طَرَفٍ تَطَّرَ بِشَطْرِهِ، وَقِيَامِ دَفْعِ فِي صَدْرِهِ، وَصَدِيقِ اسْتِهَانِ بِقَدْرِهِ، وَضَيْفِ اسْتِخْفِ بِأَمْرِهِ؛ لَكِنَّا أَقْطَعْنَاهُ جَانِبَ أَخْلَافِهِ، وَوَلِينَاهُ حُطَّةَ نِفَاقِهِ؛ فَوَاصِلِنَاهُ إِذْ جَاءَتْ، وَقَارِبَتَاهُ إِذْ جَاءَتْ، وَشَرِبَتَاهُ عَلَى كُدُورَتِهِ، وَلَبَسْنَاهُ عَلَى حُشُونَتِهِ، وَرَدَدْنَا الأَمْرَ فِي ذَلِكَ إِلَى زِيِّ اسْتِغْنَاهُ، وَلِبَاسِ اسْتِرْتِهَانِهِ، وَكَاتِبِنَاهُ نَسْتَمْدُ وَدَادَهُ، وَنَسْتَلِينُ قِيَادَهُ، وَنُقِيمُ مَنَادَهُ، بِمَا هَذِهِ نَسَخْتُهُ.

الأستاذ أبو بكر، واللَّهُ يطيل بقاءه، أَرَزَى بِضَيْفِهِ أَنْ وَجَدَهُ يَصْرُبُ إِلَيْهِ أَبَاطُ القَلَّةِ، فِي أَطْمَارِ العُزْبَةِ، فَأَعْمَلَ فِي رُتْبَتِهِ أَعْمَالَ المِصَارِفَةِ، وَفِي الأَهْتِرَازِ إِلَيْهِ أَصْنَافَ المِضَاقَةِ، مِنْ إِيْمَاءِ بِنِصْفِ الطَّرْفِ، وَإِشَارَةِ بِشَطْرِ الكَفِّ، وَدَفْعِ فِي صَدْرِ القِيَامِ عَنِ التَّمَامِ، وَمَصْغِ للكَلَامِ، وَتَكْلِيفِ لِرَدِّ السَّلَامِ؛ وَقَدْ قَبِلْتَ تَرْتِيبَهُ صَعْرًا، وَاحْتِمَلْتَهُ وَزْرًا، وَاحْتَصَّنْتَهُ نَكْرًا، وَتَأَبَطْتَهُ شَرًّا، وَلَمْ أَلِهْ عُدْرًا؛ فَإِنَّ المِرَّةَ بِالمَالِ وَثِيَابِ الجَمَالِ، وَلَسْتُ مَعَ هَذِهِ الحَالِ وَفِي الأَسْمَالِ، أَتَقَرَّرُ مِنْ صَفِّ النَعَالِ، فَلَوْ صَدَّقْتُهُ العِتَابَ، وَنَاقَشْتَهُ الحِسَابَ، لَقُلْتُ: إِنَّ بُوَادِينَا ثَاغِيَةَ صَبَاحٍ، وَرَاغِيَةَ رَوَاحٍ، وَنَاسًا يَجْرُونَ المِطَارِفَ، وَلَا يَمْنَعُونَ المَعَارِفَ: الطويل:

وَفِيهِمْ مَقَامَاتُ حِسَانٍ      وَأُنْدِيَّةٌ يَنْتَابُهَا القَوْلُ وَالفِعْلُ  
وَجَوْهُهُمْ

فَلَوْ طَوَّحْتَ يَا بِي بَكَرٍ - أَيْدَهُ اللهُ - إِلَيْهِمْ مَطَارِحُ العُزْبَةِ، لَوَجَدَ مَنْزِلَ البِشْرِ رَحِيبًا، وَمَحَطَ الرَّحْلِ قَرِيبًا، وَوَجْهَ المُضَيِّفِ خَصِيْبًا؛ فَرَأَى الأَسْتَاذَ أَبِي بَكَرٍ، أَيْدَهُ اللهُ، فِي الوُقُوفِ عَلَى هَذَا العِتَابِ الَّذِي مَعْنَاهُ وُدٌّ، وَالمَرَّ الَّذِي يَتَلَوُّهُ شَهْدٌ، مُوقِفٌ إِنْ شَاءَ اللهُ.

فَأَجَابَ بِمَا نَسَخْتُهُ: وَصَلْتُ رُفْعَةَ سَيِّدِي وَرئيسِي أَطَالَ اللهُ بِقَاهُ إِلَى آخِرِ السَكْبَاجِ، وَعَرَفْتُ مَا تَضَمَّنَهُ مِنْ حَسَنِ خُطَابِهِ، وَمُؤَلِّمِ عِتَابِهِ، وَصَرَفْتُ ذَلِكَ مِنْهُ إِلَى الصَّجْرَةِ الَّتِي لَا يَخْلُو مِنْهَا مَنْ مَسَّه عُسْرٌ أَوْ تَبَا بِهِ دَهْرٌ؛ وَالحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنِي مَوْضِعَ أُنْسِهِ، وَمِظْلَّةَ مَشْتَكِي مَا فِي نَفْسِهِ، أَمَا مَا شَكَاهُ سَيِّدِي وَرئيسِي مِنْ مِضَاقَتِي إِيَّاهُ فِي القِيَامِ، فَقَدْ وَفَيْتَهُ حَقَّهُ - أَيْدَهُ اللهُ - سَلَامًا وَقِيَامًا، عَلَى قَدْرِ مَا قَدَّرْتَ عَلَيْهِ، وَوَصَلْتَ إِلَيْهِ، وَلَمْ أَرْقِعْ عَلَيْهِ إِلَّا

السيد أبا البركات العلوي أدام الله عزّه، وما كنت لأرفع أحداً على مَنْ  
أبوه الرسول، وأمه البتول، وشاهداه التوراة والإنجيل، وناصره التأويل  
والتنزيل، والبشير به جبريل ميكائيل؛ فأما القوم الذين صدر عنهم سيدي  
فكما وصفَ: حسن عشرة، وسداد طريقة، جمال تفصيل وجملة، ولقد  
جاوَزْتُهُمْ فأحمدت المراد، ونلت المراد: الطويل:

فإن كنت قد فارقت نجداً  
وأهله  
فما عهد نجدٍ عندنا بزميمٍ

والله يعلم نيتي للأحرار كافة، ولسيدي من بينهم خاصة؛ فإن أعاني الدهر على ما في  
نفسي بلغت له ما في النية، وجاوَزْتُ به مسافة القدر والأمنية، وإن قطع علي طريق  
عزّمي بالمعارضة، وسوء المناقضة، صرفت عتاني عن طريق الاختيار، بيد الاضطرار:  
الطويل:

فما النفسُ إلا نطفة  
بقرارة  
إذا لم تكدر كان صفواً  
عديرتها

وبعد، فحبذا عتابُ سيدي إذا استوجبتنا عتبا، واقترفتنا ذنبا؛ فأما أن يسلفنا العربة فنحن  
تصوئته عن ذلك، وتصوئ أنفسنا عن احتمال، ولست أسومه أن يقول: "أستغفر لينا  
ذئوبتاً إنا كنا خاطئين"، ولكن أسأله أن يقول: "لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم  
وهو أرحم الراحمين".

فحين وردَ الجواب وعينُ العذر رَمِدَة تركناه بعزّه، وطوبيتاه على عزّه، وعمدنا إلى  
ذكره فسحوناه، ومن صحيفتنا مَحَوْنَاه، وصيرنا إلى اسمه فأخذناه ونبذناه، وتنكبتنا  
خطته، وتجنبنا حطته، فلا طرنا إليه، ولا صيرنا به، ومضى على ذلك الأسبوع، ودبت  
الأيام، ودرجت الليالي، وتناولت المدة، وتصرم الشهر، وصيرنا لا نُعيّرُ الأسماع ذكره،  
ولا نودع الصدور حديثه؛ وجعل هذا الفاضل يستزيد، ويستعيد، بألفاظ تقطعها الأسماع  
من لسانه، وتؤديها إلي، وكلمات تحفظها الألسنة من فمه، وتعيدها علي؛ فكاتبناه بما  
هذه نسخته: أنا أريدُ من الأستاذ سيدي - أطال الله بقاه - شريعةً وده وإن لم تصف،  
وألبس خلة بره وإن لم تصف، وقصاري أن أكيله صاعاً عن مد؛ فإني وإن كنت في  
الأدب دعي النسب، ضيق المضطرب، سيئ المنقلب، أمث إلى عشرة أهله بنية،  
وأنزع إلى خدمة أصحابه بطريقة، ولكن بقي أن يكون الخليط مُنصفاً في الوداد، إذا  
زرت رار، وإن عذت عاد، وسيدي - أبقاه الله - ناقشني في القبول أولاً، وصارمني في  
الإقبال أخراً؛ فأما حديث الاستقبال، وأمر الإنزال والأنزال، فينطق الطمع ضيق عنه،  
غير متسع لتوقعه منه، وبعد فكلفة القصل بينة، وفروض الود متعينة، وأرض العشرة  
لبنة، وطرقها هينة، فلم اختر قعود التعالي مركباً، وصعود التعالي مذهباً؛ وهلا زاد  
الطير عن شجر العشرة، وذاق الخلو من ثمرها؛ فقد علم الله أن شوقي إليه قد قد  
الفؤاد بزحاً إلى برح، ونكاه قرحاً إلى قرح، ولكنها ميرة مرة، وتفس جره، لم تُقد إلا  
بالإعظام، ولم تُلق إلا بالإجلال والإكرام، وإذا استعفاني من معاتبته، فأعفى نفسه من  
كلف القصل يتجشمها، فليس إلا غصص الشوق أنجرعها، وحلل الصبر أندرعها، ولم  
أعره من نفسي، وأنا لو أعزت جناحي طائر لما طرت إلا إليه، ولا وقعت إلا عليه:  
الطويل:

أحبك يا شمسَ النهار وبدره  
وإن لامني فيك السها  
والقراقذ  
وذلك لأنَّ الفضلَ عندك باهر  
وليس لأنَّ العيشَ عندك  
بارد

فلما وردت عليه الرقة حشد تلاميذه وخدمه، وجشيم للإيجاب قدمه،  
وطلع علينا مع الفجر طلوعه، ونظمتنا حاشيتنا دار الأمير أبي الطيب؛  
فقلنا: الآن تُشرق الحشمة وتنور، ونجد في العشرة ونعور، وقصدنا  
شاكرين لما أتاه، وانتظرنا عادة بره، وتوقعنا مادة فضله؛ فكان حلباً

شَمَّتَاه، وآلا وَرَدَّتَاه، وصرفنا في تأخّره وتأخّرنا عنه إلى ما قاله ابن المعتز: الرجز:

إنا على البعاد والتفرّق  
لنلتقي بالذکر إن لم تلتق  
وأُشدنا قول ابن عسرينا: الوافر:

أحبك في البتول وفي أبيها  
ولكنني أحبك من بعيد  
وبقينا تلتقي خيالاً، ونقنع بالذكر وصلاً، حتى جعلت عواصفه تهب، وعقاربه تدب.  
والمجلس طويل جداً.

قلت: إن كنت خرجت لطول هذا الكلام عن ضبط الشرط، فلعلي أسامح فيه لفضله، وعدم مثله، وهو وإن كان في باب الاتصال، فهو بتقدير الانفصال، لقيام كل رسالة بذاتها، وانفرادها بصفاتهما.

وكتب إلى رئيس هرة عدنان بن محمد يصف ما جرى بينه وبين الخوارزمي: ما ألوم هذا الفاضل على بساط شتر طواه، وموقد حطب اجتواه، ولكني ألومه على ما نواه؛ ثم لم يتبع هواه، ورامه، ثم لم يبلغ أتمامه، وأقول: قد ضرب فأين الإيجاج؟ وأندّر فأين الإيجاج؟ وهذه بوارقه، فأين صواعقه؟ وذلك وعيده، فأين عديده؟ وتلك بنوذه، فأين جنوذه؟ وأنشد: الكامل:

هذي معاهده فأين عهدوه؟

وما أهول رعدّه، لو أمطر بعده! اللهم لا كُفران، ولعن اللّه الشيطان، فإنه أشفق لغريب أن يُظهر عواره، وإن طار طواره، وإن كان قصد هذا القصد فقد أساء إلى نفسه من حيث أحسن إليّ، وأجحف بفضله من حيث أبقى عليّ، وأوهم الناس أنه هاب البحر أن يخوضه، والأسد أن يروضه، وشجعتني على لقائه، بعدما برعني بإيمائه، فبينما كنت أنشد: الخفيف:

إن جنبي على الفراش لناب

إذ أنشدت: الخفيف:

طاب ليّلي وطاب فيه شرايبي

وبينما أنا أقول: الخفيف:

ما لقلبي كأنه ليس مني

إذ قلت: الخفيف:

أين من كان موعداً لي بأني

فلو أن هذا الفاضل قضى حقنا بالزيارة عند قدومنا أو الاستزارة، لكان في الضرب أحسن، وفي طريق المعاشرة أذهب، لا، ولكنه وعد بالمباراة أولاً، وهددنا بالمسائل ثانياً، وأخلف بالتخلف ثالثاً؛ فأبلغ وجدّي إليه، وأعرض شوقي عليه، وقل له إن كنت ندمت على النضال، فلا تندم على الإفصال، فإن طويتنا حيث الجهاد، فانشُرنا حيث الوداد، وإن لم تلقنا في باب المكاشرة، فأتنا من باب المعاشرة.

وله إلى الإمام أبي الطيب سهل بن محمد: قد كان الشيخ يعذني عن هذه الحضرة عدات أشم لها الأنف، لا ذهاباً بتلك الفواضل عنها، لكن استحالة من هذا الزمان أن يجود بها؛ فحين أسرفت على الحضرة ماجت إليّ أمواج الشرف منها، وخلص إليّ نسيم الكرم عنها، وأنحفتني على رسم الإجلال بمركوب شامخ، ومركب ذهب سايع، وجنّيب شرف زائد؛ وسرث بحمد الله محفوفاً بأعيان الكتاب، ووعيون الرجال، حتى شاقهت بساط العز، مستقبلاً ملك الشرق أدام الله علوه، فجدب بصيغتي عن أرض الخدمة، إلى جوار وليّ النعمة، حرس الله مكانه، فاهتر اهتزازاً فات سمة الإكرام، وتجاوز اسم الإعظام إلى القيام، فقبلت من يُمناه مفتاح الأرزاق، وفتاح الآفاق، ولحقت منه بقاب العقاب، وخاصبني بمخاطبات تشدّث بها ضالة الكرام، وهلمّ جراً

إلى ما تبعها من جميل الإنزال، وسنني الأجرال.  
 وطرات من الشيخ العميد على شخص يسعه الخاتم، ولا يسعه العالم، وبهتز  
 عند المكارم كالغصن، ويثبت عند الشدائد كالركن، وسلطان يحلم حلم  
 السيف مُعمداً، وبغضب مجرداً، فهو عند الكرم لئن كصفحته، وعند السياسة  
 خشن كسفرته، وملك يأتي الكرم نية، والفضل سجية، ويفعل الشر كلفة أو  
 خطية، فهو صرور بالاته، تفوع بذاته، عطارد قلمه ودوائه، والمريخ سيفه  
 وقتائه، عيبه أن لا عيب فيه، فيصرف عين الكمال عن معاليه.  
 وصادفت من الشيخ الموفق، أيده الله، ملكاً يشاهد عياناً، وجيلاً قد سمي  
 إنساناً، وحسيناً قد ملئ إحساناً، وأسداً قد لقب سلطاناً، وخرأً قد أمسك  
 عناناً، وحططت رجلي بفناء الأمير الفاضل أبي جعفر أدام الله عزه، فوجدت  
 حكمي في ماله أنقذ من حكمه، وقسمي من غناه أوفر من قسمه، واسمي  
 في ذات يده مقدماً على اسمه، ويدي إلى خزانته أسبرع من يده، وإن  
 قصدت أن أفرِد لكل مدحاً، وأعبر الجملة شرحاً، أطلت، فهلم جراً إلى ما  
 افتتحت الكتاب لأجله.

ورد للخوارزمي كتاب يتقلب فيه على جنب الحر، ويتقل على جمر  
 الضجر، ويتأوه من حمار الخجل، ويتعثر في أذيال الكلل، ويذكر أن الخاصة  
 قد علمت لأينا كان الفلج، فقلت: است البائن أعلم، والخوارزمي أعرف،  
 والأخبار المتظاهرة أعدل، والآثار الظاهرة، أضدق، وخبلة السباق أحكم، وما  
 مضى بيننا أشهد، والعود إن تشط أحمد، ومتى استراد زدنا، وإن عادت  
 العقرب غدنا، وله عندي إذا ما شاء، كل ما شاء! وهي طويلة فيها هنات  
 صنّت الكتاب عنها، وقد أعاد البديع معنى قوله في صدر حكايته مع  
 الخوارزمي، فقال في رقعة كتبها إلى سعيد الإسماعيلي، وقد وقفت به  
 الضرورة على تلك الصورة من سلب العرب ماله: كتابي، بل رُفعتي، أطال  
 الله بقاء الشيخ، وقد بكرت عليّ مُغيرة الأعراب، كمهلهل، وربيعه بن مُكدم،  
 وعتيبة بن الحارث بن هشام، وأنا أحمد الله، إلى الشيخ الفاضل، وأذم  
 الدهر؛ فما ترك لي من فصّة إلا فضها، ولا ذهب إلا ذهب به، ولا علق إلا  
 علقه، ولا عقار إلا عقره، ولا صبغة إلا أضاعها، ولا مال إلا مال إليه، ولا سبيد  
 إلا استبد به، ولا لبد إلا لبد فيه، ولا بزة إلا بزها، ولا عارية إلا ارتجعها، ولا  
 ودّيعه إلا انتزعها، ولا خلعة إلا خلعها، وأنا داخل نيسابور ولا جلية إلا الجلدة،  
 ولا بُرد إلا القشرة، والله وليّ الخلف يعجله، والفرج يسهله، وهو حسبي  
 ونعم الوكيل.

وليس البديع بأبي عذرة هذا الخطاب، وسترى نظير هذا المعنى في هذا  
 الكتاب.

ومن إنشائه في مقامات أبي الفتح الإسكندري  
 قال: حدّثني عيسى بن هشام قال: كنت في بعض بلاد بني قزارة مرتحلاً تجيبة، وقائداً  
 جنيبة، يسبحان سبحاً، وأنا أهيم بالوطن، فلا الليل يتنيني بوعيده، ولا البغد يُدنيني  
 بيده، وظللت أحيط ورق النهار، بعضا التسيار، وأخوض بطن الليل، بحوافر الخيل،  
 فبينما أنا في ليلة يضل بها العطاء، ولا يُبصر بها الوطواط، أسبح ولا سانح إلا السبع،  
 ولا بارح إلا الصبغ، إذ عن لي راكب تامّ الآلات، يطوي منشور القلوات، فأخذني منه ما  
 يأخذ الأعرل من شاكي السلاح، لكنني تجلّدت فقلت: أرضك لا أم لك! فدونك شرط  
 الجداد، وخرط القناد، وحصم ضخم، وحمية أزدية، وأنا سلم إن شئت، وخرّب إن  
 أردت، من أنت؟ قال: سلماً أصبت، قلت: خيراً أجبت، قلت: فمن أنت؟ قال: نصيح إن  
 شاورت، فصيح إن حاوّر، ودون اسمي لئام، لا تُميطه الأعلام. قلت: فما الطعمة؟  
 قال: أجوت جيوب البلاد، حتى أقع على جفنة جواد، ولي فؤاد يخدمه لسان، وبيان

يَرْقَمُه بَنَانٌ، وَقَصَارَايَ كَرِيمٌ يَنْفُضُ إِلَيَّ حَقِيْبَتَهُ، وَيَخْفَفُ لِي جَنِيْبَتَهُ، كَابِنِ حُرَّةٍ طَلَعَ إِلَيَّ  
بِالْأَمْسِ، طَلُوعِ الشَّمْسِ، وَغَرَبِ عَنِي بَعْرُوبِهَا؛ لَكِنَّهُ غَابَ وَلَمْ يَغِبْ تَذْكَارُهُ، وَوَدَّعَ  
وَشَبَّعَنِي آثَارُهُ، وَلَا يَبْنِيكَ عَنْهَا أَقْرَبُ مِنْهَا، وَأَوْمَأُ إِلَيَّ مَا كَانَ يَلْبَسُهُ، فَقُلْتُ: شَحَاذُ وَرَبِّ  
الْكَعْبَةِ أَخَاذُ، لَهُ فِي الصَّنْعَةِ تَقَاذُ، بَلْ هُوَ فِيهَا أَسْتَاذُ، وَلَا بَدَّ أَنْ تَرْتَشَّحَ لَهُ وَتَسِيخَ عَلَيْهِ،  
وَقُلْتُ لَهُ: يَا فَتَى، قَدْ أَجْلَيْتَ عِبَارَتَكَ، فَايْنَ شَعْرُكَ مِنْ كَلَامِكَ؟ فَقَالَ: وَأَيْنَ كَلَامِي مِنْ  
شَعْرِي! ثُمَّ اسْتَمَدَّ غَرِيْبَتَهُ، وَرَفَعَ عَقِيْرَتَهُ، بِصَوْتِ مَلَأِ الْوَادِي، وَأَنْشَأَ يَقُولُ: الطَّوِيلُ:

وَأَرْوَعُ أَهْدَاهُ لِي اللَّيْلُ وَالْقَلَا  
وَحَمْسُ تَمَسُّ الْأَرْضَ لَكِنْ كَلَا  
وَلَا

عَرَضْتُ عَلَى نَارِ الْمَكَارِمِ  
عُودَهُ  
فَكَانَ مُعَمًّا فِي السَّوَابِقِ  
مُحُولًا

وَخَادَعْتُهُ عَنْ مَالِهِ  
فَخَدَعْتُهُ  
وَسَاهَلْتُهُ فِي بَرِّهِ فَتَسَهَّلَا

وَلَمَّا تَجَالَيْنَا وَأَحْمَدَ مَنْطِقِي  
بَلَانِي فِي تَطْمِ الْقَرِيضِ بِمَا  
بَلَا

فَمَا هَزَّ إِلَّا صَارِمًا حِينَ هَزَّنِي  
وَلَمْ يَلْقَنِي إِلَّا إِلَى السَّبْقِ  
أَوْلَا

فَلَمْ أَرَهُ إِلَّا أَعْرَ مُحَجَّبًا  
وَمَا تَحْتَهُ إِلَّا أَعْرَ مُحَجَّلًا

فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ يَا فَتَى، وَلَكَ مِمَّا يَصْحَبُنِي حَكْمُكَ. فَقَالَ: الْجَنِيْبَةُ، قُلْتُ: إِنْ وَمَا  
عَلَيْهَا. ثُمَّ قَبِضْتُ بِجَمْعِي عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ الَّذِي أَلْهَمَهَا لَمْسِيَا، وَشَقَّهَا مِنْ وَاحِدَةٍ  
حَمْسًا، لَا تُزَايِلُنَا أَوْ تَعْلَمُ عِلْمُكَ، فَحَدَّرَ لِثَامَهُ عَنْ وَجْهِهِ، فَإِذَا وَاللَّهِ شَيْخَنَا أَبُو الْفَتْحِ  
الْإِسْكَندَرِي، فَمَا لَبِثْتُ أَنْ قُلْتُ: الْهَزَجُ:

تَوَشَّحْتَ أَبَا الْفَتْحِ  
بِهَذَا السِّيفِ مُحْتَالًا

وَمَا تَصْنَعُ بِالسِّيفِ  
إِذَا لَمْ تَكُ قِتَالًا؟

فَصُعُ مَا أَنْتَ حَلِيْتُ  
بِهِ سَيْفَكَ خَلْحَالًا

وَعَلَى ذِكْرِ قَوْلِهِ: إِنْ وَمَا عَلَيْهَا، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: وَقَدَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ الْأَسَدِي عَلَى  
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَامِ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ رَجْمًا مِنْ قَبْلِ  
فَلَانَةِ الْكَاهِلِيَّةِ؛ هِيَ أَحْتِنَا، وَقَدْ وَلِدْتَكُمْ، وَأَنْ ابْنَ فُلَانٍ؛ فَلَانَةُ عَمَّتِي. فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ:  
هَذَا كَمَا ذَكَرْتُ، وَإِنْ فَكَّرْتُ فِي هَذَا أَصَبْتُ، النَّاسُ كُلُّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى أَبِي وَاحِدٍ، وَأَم  
وَاحِدَةٍ.

فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ تَقَعْتِي قَدْ دَهَبْتُ. قَالَ: مَا كُنْتُ ضَمَنْتُ لِأَهْلِكَ أَنَّهَا تَكْفِيكَ  
إِلَى أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِمْ. قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ نَاقَتِي قَدْ تَقَبْتُ وَدَبَّرْتُ. فَقَالَ لَهُ: أَنْجِدْ  
بِهَا يَبْرُدُ خَفَّهَا، وَارْقَعْهَا بِسَيْتٍ، وَأَخْصِفْهَا بِهَلْبٍ، وَسِرْ عَلَيْهَا الْبَرِيدِينَ. قَالَ: يَا أَمِيرَ  
الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّمَا جِئْتُكَ مَسْتَحْمِلًا، وَلَمْ أَتِكَ مُسْتَوْصَفًا، لَعَنَّ اللَّهَ نَاقَةَ حَمَلْتَنِي إِلَيْكَ. قَالَ  
ابْنُ الزُّبَيْرِ: إِنْ وَرَاكِبَهَا! فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ: الْوَافِرُ:

أَرَى الْحَاجَاتِ عِنْدَ أَبِي حُبَيْبٍ  
نَكِدَنْ، وَلَا أُمِيَّةَ فِي الْبِلَادِ

مِنَ الْأَعْيَاصِ أَوْ مِنْ آلِ حَرْبٍ  
أَعْرَ كَعْرَةَ الْفَرَسِ الْجَوَادِ

وَمَا لِي حِينَ أَقْطَعُ ذَاتَ عِرْقٍ  
إِلَى ابْنِ الْكَاهِلِيَّةِ مِنْ مَعَادِ

وَقُلْتُ لَصَحْبَتِي أَدُّوْا رِكَابِي  
أَفَارِقُ بَطْنَ مَكَّةَ فِي سَوَادِ

فَبَلَغَ شَعْرَهُ هَذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، فَقَالَ: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ لِي أُمَّةً أَحْسَنَ مِنْ عَمَّتِهِ الْكَاهِلِيَّةِ  
لَنَسَبْتَنِي إِلَيْهَا، وَكَانَ ابْنُ الزُّبَيْرِ يَكْنَى أَبَا بَكْرٍ وَأَبَا حُبَيْبٍ.

قَالَ الصَّوْلِيُّ: أَخَذَ الْمُعْتَصِمُ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَاتِ فَرَسًا أَشْهَبَ أَحْمَرَ، كَانَ  
عِنْدَهُ مَكِينًا، وَكَانَ بِهِ صَنِينًا، فَقَالَ يَرْتِيهِ: الْكَامِلُ:

قَالُوا: جَزَعْتُ، فَقُلْتُ: إِنْ  
جَلَّتْ رِزْيَتُهَا، وَضَاقَ الْمَذْهَبُ

مصيبة

قال أبو بكر: هكذا أنشدني ابن المعتز على أن إن بمعنى نعم، وأنشد النحويون:  
الكامل:

قالوا: كبرت، فقلت: إن،  
وربما

ذَكَرَ الكَبِيرُ شِبَابَهُ فَتَطَرَّبَا

الكامل:

كيف العزاء وقد مضى  
لسبيله

عنا فودّعنا الأحم الأشهَبُ

دب الوُشاة فباعدوه،  
وربما

بَعَدَ الفتى وهو الحبيبُ  
الأقربُ

لله يوم غدوت فيه طاعناً

وَسَلِبْتُ قَرَبَكَ، أَيَّ عِلْقِ  
أَسْلَبُ؟

نفسي مقسّمة أقام  
قريبها

ومضى لطيته فريق يُجَنَّبُ

الآن إذ كملت أداتك كلّها

ودعا العيونَ إليك حُسن  
مُعْجِبُ

وغدوت طنان اللجام  
كأنما

في كل عُصو منك صنْجُ  
يُضْرَبُ

وكأنّ سَرَجك، إذ عَلاك،  
عَمامة

و كأنما تحت الغمامة  
كوكبُ

أُنساک؟ لا زالت إذأ  
منسية

نفسي، ولا برحت بمثلک  
تنكب

أضمرت منك اليأس حين  
رأيتني

وقوى حبالی من حبالک  
نُقِصَبُ

يا صاحبي لمثل دأ من  
أمره

صحب الفتى في دهره من  
يَصْحَبُ

إن تُسعدا فصنيعه  
مشكوره

أو تخذلا فصنيعه لا تذهبُ

عُوجاً فقولا: مرحبا،  
وتزودا

نظراً، وقل لمن تُحب  
المرحَبُ

منع الرقادَ جوى تضمته  
الحسنا

مما أكابده وهم مُنصِبُ

ما قيل في المزاح

قال الحجاج بن يوسف لابن القرية: ما زالت الحكماء تكثره المزاح، وتنهى  
عنه، فقال: المزاح من أدنى منزلته إلى أقصاها عشرة أبواب: المزاح أوله  
قَرَح، وآخره تَرَح. المزاح نقائص السفهاء، كالشعر نقائص الشعراء.

والمزاح يُوغر صدر الصديق، وينقر الرفيق، والمزاح يُبدي السرائر؛ لأنه  
يظهر المعايير. والمزاح يُسقط المروءة، ويُبدي الخنى. لم يجز المزاح خيراً،  
وكثيراً ما جرّ شراً. الغالب بالمزاح وآثر، والمغلوب به تائر. والمزاح يجلب  
الشتّم صغيره والحرب كبيره، وليس بعد الحرب إلا عفؤ بعد قدرة.

فقال الحجاج: حسبك، الموت خير من عفؤ معه قدرة.

وذكر المزاح بحضرة خالد بن صفوان فقال: يُشِيقُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ مِثْلَ  
الْخَزْدَلِ، وَيُفْرَعُ عَلَيْهِ مِثْلَ الْمِرْجَلِ، وَيَزِمِيهِ بِمِثْلِ الْجَنْدَلِ. ثم يقول: إنما  
كنت أمزح! أخذ هذا المعنى محمود بن الحسين الوراق فقال: الكامل:

تَلَقَى الْفَتَى يَلْقَى أَخَاهُ  
وَحَدَّثَهُ  
في لَحْنٍ مَنْطِقُهُ بِمَا لَا يُعْفَرُ  
ويقول: كنت مِمَّا زَحَاً  
وَمُلَاعِباً  
أَوْ مَا عَلِمْتَ وَكَانَ جَهْلَكَ  
غَالِباً

فقر في هذا النحو لأهل العصر وغيرهم  
الْمَرْاحَةُ تَذْهَبُ بِالْمَهَابَةِ، وَتُورِثُ الضَّغِينَةَ. الإفراط في المَزَاحِ مُجُونٌ،  
والاقتصاد فيه ظَرْفٌ، والتقصير عنه تَدَامَةٌ. أوكد أسباب القطيعة المِرَاءُ  
والمَزَاحُ.

ابن المعتز - من كَثُرَ مُزَاحُهُ لَمْ يَحُلْ مِنْ اسْتِخْفَافٍ بِهِ أَوْ جَفَدَ عَلَيْهِ.  
قال أيوب بن القزيبية: الناس ثلاثة: عاقل، وأحمق، وفاجر؛ فالعاقل الدين  
شريعته، والحلم طبيعته، والرأي الحسن سجيته؛ إن سُئِلَ أَجَابَ، وَإِنْ نَطَقَ  
أَصَابَ، وَإِنْ سَمِعَ الْعِلْمَ وَعَى، وَإِنْ حَدَّثَ رَوَى. وَأَمَّا الْأَحْمَقُ فَإِنْ تَكَلَّمَ عَجِلَ،  
وَإِنْ حَدَّثَ وَهَلَ، وَإِنْ اسْتُنْزِلَ عَنْ رَأْيِهِ نَزَلَ، فَإِنْ حُمِلَ عَلَى الْقَبِيحِ حَمَلَ.  
وَأَمَّا الْفَاجِرُ فَإِنْ ائْتَمَّنَتْ خَانِكَ، وَإِنْ حَدَّثَتْ شَأْنَكَ، وَإِنْ وَثِقَتْ بِهِ لَمْ يَرَعَكَ،  
وَإِنْ اسْتَكْتَمَ لَمْ يَكْتُمَ، وَإِنْ عَلَّمَ لَمْ يَعْلَمْ، وَإِنْ حُدِّثَ لَمْ يَفْهَمْ، وَإِنْ فَهَّمَ لَمْ  
يَفْقَهُ.

الطيرة والرَّجْرُ

قال أبو حية النميري: الطويل:

جَرَى يَوْمَ رُحْنَا عَامِدِينَ  
لأرضنا  
فهابَ رجال منهم فتغيّفوا  
عُقَابُ بِأَعْقَابٍ مِنَ الدَّارِ  
بعدها  
وقالوا: حمامات، فحُمَّ  
لِقَاؤِهَا  
وقال صحابي: هُدُّهُ فَوْقَ  
بَانِيَةٍ،  
وقالوا: دَمٌ، دَامَتْ مَوَائِقُ  
بَيْنَنَا  
لَعَيْنَاكَ يَوْمَ الْبَيْنِ أَسْرَعُ  
وَإِكْفَاً  
ونسوة شَحْشَاحٌ عَيُّورٌ  
يَحْفَنُهُ  
يقُلْنَ، وَمَا يَدْرِينَ أُنِّي  
سَمِعْتُهُ  
أهذا الذي غَنَى بِسَمْرَاءَ

سَنِيحٌ، فَقَالَ الْقَوْمُ: مَرَّ  
سَنِيحٌ  
فقلت لهم: جاري إلي ربيعُ  
تَأْتِ تَأْيَةً بِالظَّاعِنِينَ طَرِيحُ  
وطلح فنيلت والمطي  
طليحُ  
هُدَى وَبَيَانٌ بِالنَّجَاحِ يَلُوحُ  
ودام لنا حُلُوُّ الصَّفَاءِ صَرِيحُ  
مِنَ الْعَتَنِ الْمَمْطُورِ وَهُوَ  
مَرُوحُ  
أخي ثقة يلهون وهو مُشِيحُ  
وهنَ بِأَبْوَابِ الْخِيَامِ جُنُوحُ:  
أَتَاخَ لَهُ حُسْنُ الْغِنَاءِ مُتِيحُ؟

مَوْهِنًا

كما أن من حر السلاح جريح  
على ما به من غنة لمليح  
بجلدي من قول الوشاة  
قروح

إذا ما تغنى أن من بعد زفرة  
وقائلة: يا دهم وبحك! إنه  
فلو أن قولاً يجرح الجلد قد  
بدا

وهذا من غريب الرجز مليح التفاؤل.

قال أبو العباس محمد بن يزيد: أنشدني أعرابي في قصيدة ذي الرمة التي أولها:  
الطويل:

ولا زال مُنْهَلًا بجزعائك  
القَطْرُ

ألا يا أسلمى يا دارمي على  
اليلى

بيتين لم يروهما الرواة في ديوانه، وهما:

من القصب لم يثبت لها ورق  
حُضِرُ  
لقصب النوى هذي العيافة  
والزجر

رايت غراباً ساقطاً فوق  
قصبية  
فقلت: غرابٌ لا غراب،  
وقصبته

وقال آخر: الطويل:

وصاح بذات البين منها غرابها

دعا صرداً يوماً على عَصْنِ  
بانة

فهذا لعمرى تأيها واغترابها

فقلت: أتصربدُ وشحطُ  
وعُزْبَةُ؟

وقد أكثرت العرب من ذكر الطيرة، والرجز، وكانت تقتدي بذلك وتجري  
على حكمه، حتى ورد التهي في سنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم،  
فقال: لا عدوى ولا طيرة، وقد قال الأول: الطويل:

ولا راجرات الطير ما الله  
صانع

لعمرك ما تدري الضوارب  
بالحصى

وقال ضابئ بن الحارث البرجمي: الطويل:

نجاحاً ولا عن ريثهن يخيب

وما عاجلات الطير، تُذني من  
الفتى

على نائبات الدهر حين  
تنوب

ولا خير فيمن لا يوطن  
نفسه

وللقلب من مخشاتهم  
وجيب

ورب أمور لا تضيرك صيرة

وقال الكميت بن زيد الأسدي: الطويل:

أصاح غراب أم تعرّض ثعلب  
أمّر سليم القرن أم مر  
أعصب

ولا أنا ممن يرجز الطير هم  
ولا السانحات البارحات  
عشية

وقال شاعر قديم: مجزوء الكامل:

ء الخير تعقاد التمام  
س ولا التيامن بالمقاسم  
أغدو على واق وحاتم  
من والأيامن كالأشائم

لا يمنعك من بغا  
ولا التشاؤم بالعطأ  
فلقد عدوت وكنت لا  
فإذا الأشائم كالآيا

وكذاك لا خيرٌ ولا  
قد خط ذلك في الرُّبُو  
ولقد أحسن ابن كناسه في رثاء ولده يحيى،  
تيممت فيه الفال حتى رزنته  
فسميته يحيى ليحيا؛ فلم  
يكن  
شَرَّ على أحدٍ بدائم  
ر الأوليات القدائم  
أنشده أبو العباس ثعلب: الطويل:  
ولم أدر أن الفال فيه يفيلُ  
إلى رد أمر الله فيه سبيلُ

وروي المدائني قال: خرج كثير من الحجاز يريدُ مصر، فلما قَرَّبَ منها نزل بمنزل، فإذا هو بَعْرَابٍ على شجرة بَانٍ يَنْتِفِ ريشته وَيَنْعَبُ؛ فأسرع الرحيل، ومضى لوجهه؛ فلقيه رجلٌ من بني تَهْدٍ، فقال: يَا أَخَا الْحِجَازِ، مَا لِي أَرَاكَ كَاسِيفَ اللَّوْنِ؟ قال: مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا، قال: فَهَلْ رَأَيْتَ فِي طَرِيقِكَ شَيْئًا أَنْكَرْتَهُ؟ قال: لَا وَاللَّهِ إِلَّا فِي مَنْزِلِي هَذَا، فَإِنِّي رَأَيْتُ غَرَابًا يَنْتِفِ ريشته على بَانَةٍ وَيَنْعَبُ. قال: أَمَا إِنَّكَ تَطْلُبُ حَاجَةً لَا تَدْرِكُهَا. فقدم مصر والناسُ منصرفون من جنازة عزة، فقال: الطويل:  
رَأَيْتُ غَرَابًا سَاقِطًا فَوْقَ  
بَانَةٍ  
وَبَطَايِرُهُ  
فقلت ولو أني أشاء رَجَزْتُهِنْفَسِي  
للنهدي: هل أنت زاجره؟

فقال: غراب لا غراب من النوى  
وفي البان بين من حبيب  
تجاوره

فما أعيفَ النهدي، لا دَرَّ  
دَرُّهُ!  
وأزجره للطير، لا عَزَّ  
نَاصِرُهُ

ثم أتى قبر عزة فأناخ به ساعة ثم رحل، وهو يقول: الطويل:  
أَقُولُ وَنِصْوِي وَاقِفٌ عِنْدَ  
رَأْسِهَا  
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَالْعَيْنُ  
تَسْفَحُ

فهذا فراق الحق لا أن  
تُزِيرَنِي  
وقد كنت أبكي من فراقكِ  
حياة

وقال جرير: الكامل:

بَانَ الْخَلِيطُ بِرَامَتَيْنِ فَوَدَّعُوا  
إِنَّ السَّوَانِحَ بِالضُّحَى هَيْجَتَنِي  
وقال عوف الراهب خلاف هذا: الكامل:  
غَلَطَ الَّذِينَ رَأَيْتَهُمْ بِجِهَالَةٍ  
مَا الذَّنْبُ إِلَّا لِلْأَبَاعِرِ؛ إِنَّهَا

يَلْحَوْنَ كُلَّهُمْ غَرَابًا يَنْعَقُ  
مِمَّا يُشِثُّ جَمِيعَهُمْ وَيَفَرِّقُ  
وَتُشِثُّ الشَّمْلَ الْجَمِيعَ  
الْأَيْتِقُ

وقد تبعه في هذا المذهب أبو الشيص فقال: مجزوء الرجز:

مَا فَرَقَ الْأَحْبَابَ بَعِ  
وَالنَّاسَ يَلْحَوْنَ غُرَا  
دَ اللَّهِ إِلَّا الْإِبِلُ  
بَ الْبَيْنِ لَمَّا جَهِلُوا

وما على ظَهْرِ غُرَا  
ولا إذا صاح غُرَا  
وما غرابُ البين إل  
بَ الْبَيْنِ تُطَوِي الرُّحْلُ  
بُ فِي الدِّيَارِ احْتَمَلُوا  
لَا نَاقَةَ أَوْ جَمَلُ

وما أملح ما قال القائل: الكامل:

زعموا بأنَّ مَطِيئَهُمْ عَوْنُ

النوى

والمؤذوناتُ بفرقةِ الأحبابِ

وَلَوْ أَنَّهَا حَنَفِي لَمَا أَبْغَضْتُهَا

ولها بهم سببٌ من الأسبابِ

وكان علي بن العباس الرومي مُفْرِط الطَّيْرَةِ، شديداً الغلوِّ فيها. قال علي بن عبد الله بن المسيب: وكان يحتجُّ لها، ويقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يُحِبُّ الْفَالَ، وَيَكْرَهُ الطَّيْرَةَ؛ أفتراه كان يتفائلُ بالشيءِ، ولا يتطيرُ من ضده؟ ويقول: إن النبي، صلى الله عليه وسلم، مَرَّ بِرَجُلٍ وَهُوَ يَرْتَحِلُ نَاقَةً ويقول: يا ملعونة، فقال: لا يَصْحَبُنَا ملعون، وإن علياً، رضي الله عنه، كان لا يَعْزُو عَزَاةً وَالْقَمْرُ فِي الْعَقْرِبِ، ويزعم أن الطيرة موجودةٌ في الطباع قائمةٌ فيها، وأن بعضَ الناس هي في طباعهم أظهر منها في بعض، وأن الأكثرَ في الناس إذا لقي ما يكرهه، قال: على وَجْهِ من أصبحت اليوم؟ فدخل علينا يوم مهرجان سنة ثمان وسبعين وقد أهدى إليّ عدةً من جوارِي القِيَانِ، وكانت فيهنَّ صبيةٌ حَوْلَاءَ، وعجوزٌ في إحدى عينها نكتة، فتطير من ذلك، ولم يُظْهِرْ لي أمره، وأقام باقي يومه؛ فُلَمَّا كان بعد مدة يسيرة سقطت ابنة لي من بعض السطوح، وجفاه لقاسم بن عبيد الله، فجعل سبب ذلك المعنيين المغنيتين، وكتب إليّ: الخفيف:

أين كانت عنك الوجوهُ

الحسانُ؟

سأني فيك أيها الخُلصَانُ

رِ أَرَانَا مَا أَعْقَبَ الْمَهْرَجَانُ

رة مصبوغةً بها الأُكْفَانُ

لج فيه الجفَاءُ وَالْهَجْرَانُ

لا يُدَانِيهِ عِنْدِي الْخُلَانُ

مَ وَإِشْعَارُهُ شِعَاراً يُصَانُ

ار وَاَعْلَمُ بِأَنَّهَا عُنْوَانُ

واستمع ثم ما يقول الرِّمَانُ

ن مِيبِنِ وَلِلرِّمَانِ لِسَانُ

بَارِ حَتَّى تَهِينِ مَا لَا يُهَانَ

بَارِ حَتَّى يَقْدَمَ الْبَرْهَانُ

طول تلك المهونات هوان

بحديث يلوح فيه البيان

نت لقوم وخبر القرآن

قاله ذو الجلال والفُرقانُ؟

يَمْتَرِي فِي النَّذِيرِ يَا وَسْنَانُ

رة والنصح مُثمن مجانُ

أيها الْمُتَحِفِي بِحَوْلٍ وَعُورٍ

قَدْ لَعَمْرِي رَكِبْتَ أَمراً مَهِيناً

فَتَنَحَّكَ الْمَهْرَجَانُ بِالْحَوْلِ

وَالْعُورِ

كَانَ مِنْ ذَلِكَ فَقْدُكَ ابْنَتَكَ

الْحُ

وَتَجَافِي مُؤَمَّلَ لِي جَلِيلِ

وعزيز عليّ تقريع خل

غير أني رأيت إذكارة الحز

لا تَهَاوُنُ بِطَيْرَةٍ أَيُّهَا النُّظْرُ

قف إذا طيرة تَلَقَّتْكَ وَأَنْظُرُ

قلما غاب من أمورك عنوا

لا تكن بالهوى تَكْذِبُ بِالْأَخِ

لا يَقْدَكَ الْهَوَى إِلَى نَصْرَةٍ

الْأَخِ

إِنْ عُقْبِي الْهَوَى هُوِيٌّ،

وَعُقْبِي

لا تصدق عن النبيين إلا

خَبَرَ اللَّهِ أَنْ مَشَامَةً كَا

أَقْرُورَ الْحَدِيثِ تَقْبِلُ أَمْ مَا

أَتْرَى مِنْ بَرَى الْبَشِيرُ

بَشِيرَا

فدع الهزل والتضحك

بالطي

وقد فَرَّقَ حُذَاقُ أَهْلِ النَّظَرِ فِي الْمَقَالِ، بَيْنَ الطَّيْرَةِ وَالْفَالِ، فَقَالُوا: الطَّيْرَةُ كَانَتْ الْعَرَبُ تَرْجِعُ إِلَى مَا تَمْضِيهَا، وَتَجْرِي عَلَى تَقْضِيهَا، وَكَانَ الَّذِي يَهْمُ بِهِمْ إِذَا مَا رَأَى مَا

يتطير منه رجع عنه؛ وفي ذلك ما يصرفه عن الإحالة على المقادير الجارية بيد  
مُضِيها، النازلة على حكم قاضيتها، والقَالَ لا يردُّ المرید عمَّا يريد إنما يُقَوِّي مُنته،  
ويُسُرُّ مهجته؛ وليس هذا موضع تطويل، في إيراد الدليل.  
وفي جفاء القاسم بن عبید الله إياه يقول معاتباً: الطويل:

ألم ترني أقرضك الودَّ طائعا  
ولم تر قبلي مُعسيرا قط  
لعمري لقد صوّرت أبيض مشرقا  
فيا ويح مولاك استغاث  
بمشرِبٍ

ولولا اعتقادي أنك الخيرُ كلُّهُ  
لأزَمَعْتُ توديعاً، قضى الله ما  
قَصَى  
وإني وإن دارت علي دوائر  
لأَعْرِضُ عَمَّنْ صَدَّ عني  
وأَعْرِضَا  
وما زلت عَرافاً إذا الزاد  
رأني  
وهذا البيت كقول الآخر: الطويل:  
وإني للماء المخالط للقدَى  
وفي ابنة المسيبي يقول ابن الرومي يعزبه: الطويل:

أخا ثقتي أعزُّ علي بنكبةٍ  
صبت، وما للمرء من حُكمِ  
رَبِّهِ  
وقد مات من لا يخلف الدهر  
مثله

تعزيزت عمّن أثمرتك حياته  
لأن اختيال الدهر في ابنِ  
وفي ابنةٍ  
تعذر أن نعتاض من أمهاتنا  
فلا تهلكن حُزنا على ابنة  
جنةٍ  
لعل الذي أعطاك ستر  
حياتها  
فكم من أخي حرية قد  
رأيتهُ  
فلا تتهم لله فيها ولايةٍ  
وأنت وإن أبصرت رشداً  
مرةً

ومن مליح تعازيه عن ابنةٍ قوله لعلني بن يحيى: الكامل:  
لا تبعدن كريمة أودعتها  
صِراً من الأصهار لا يخزيكا

إني لأرجو أن يكون صداقها  
لا تياسن لها فقد زوّجتها  
من جنة الفردوس ما يرضيك  
كفوًا وضمّنت الصّدّاق مليكا

في موت الينت

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر: الطويل:

لكل أبي بنت يرجي بقاؤها  
فبيث يغطيها، وبعل يصونها  
ثلاثة أصهار إذا ذكر الصهر  
وقبر يواربها، وخيرهما القبر

وقال عقيل بن علقمة وكان أعير الرب: الرجز:

وإني وإن سيق إلي المهز  
أحبُّ أصهاري إلي القبر

ومنه أخذ عبيد الله، قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: دخل علينا ابن خلف  
البهرازي فأنشدنا: البسيط:

لولا أميمة لم أجزع من  
العدم

وزادني رغبة في العيش  
معرفتي

أحاذر الفقر يوماً أن يلم  
بها

تهوى حياتي وأهوى موتها  
شفقا

وكانت أميمة بنت أخته، وكان قد تبناها، ثم غابت غيبة، فسألناه عنها، فأنشد: البسيط:

أمست أميمة مغموراً بها  
الترجم

يا شقة النفس، إن النفس  
والهة

قد كنت أخشى عليها أن  
يؤخرها

فالآن نمت فلا هم يؤرّفني

فالآن نمت، فلا هم يؤرّفني  
للموت عندي أيادٍ لست

أنكرها

من أخبار ابن الرومي

عاد ذكر ابن الرومي - وكان أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش غلام أبي  
العباس المبرد في عصر ابن الرومي شاباً مترفاً، ومليحاً مستظرفاً، وكان  
يعبث به، فيأتيه بسخر؛ فيقرع الباب، فيقال له: من؟ فيقول: قولوا لأبي  
الحسن ميرة بن حنظلة، فيتطير لقلوبه، ويقوم الأيام لا يخرج من داره، وذلك  
كان سبب هجائه إياه، فمن أول ما عاتبه به: المنسرح:

قولوا لتحوينا أبي حسن  
إن حسامي متى صرّبت

وإن نبلي إذا هممت بأن  
لا تحسبن الهجاء يحفل بال

أرمي تصلّتها بجمر عضا  
رفع ولا حفص خافض خفصا

ولا تَحَلْ عودتي كباديتي  
 أعرف في الأشقياء بي  
 رجلاً  
 يُليح لي صَفْحَةَ السلامة  
 وال  
 أضحي مغيظاً عليّ أن غضب  
 ال  
 وليس تجدي عليه  
 موعظتي  
 كأنني بالشقيِّ معتذرا  
 ينشدني العهد يوم ذلك  
 وال  
 لا يأمنن السفية بادرتي  
 عندي له السوط إن تلوم  
 في ال  
 أسمعُ إنباضتي أبا  
 حسن  
 وهو معافى من السهاد فلا  
 أقسمت بالله لا غفرت له  
 فاعتذر إليه، وتشقّع عنده بجماعة من أهل بغداد - وكان الأخفش أكثر  
 الناس إخواناً - فقبل عذره، ومدحه بقصيدته التي يقول فيها: الخفيف:  
 دُكِرَ الأخفش القديمُ  
 فقلنا:  
 وإذا ما حكمت والرومُ قومي في  
 كلام مُعَرَّب كنتُ عَدُوًّا  
 أنا بين الخصوم فيه غريبٌ  
 ومتى قلت باطلاً لم  
 ألقب  
 الأخفش القديم هو أبو الخطاب، وكان أستاذ سيبويه، وهو من المتقدمين في النحو،  
 ويُعرف بالأخفش الكبير، وكان في عصر سيبويه أيضاً أبو الحسن سعيد بن مسعدة،  
 وهو الأخفش الصغير، وهو الذي قال: كان سيبويه يعرض ما وَّصَحَّ من النحو عليّ،  
 ويرى أنني أعلم منه، وكان في وقته ذلك أعلم مني.  
 ثم عاد علي بن سليمان إلى أذاه، واتصل به أن رجلاً عرض عليه قصيدة من شعره  
 فطعن عليها، فقال قصيدته التي يقول فيها: المنسرح:  
 أعتقتُ عبدي في القريض  
 معاً  
 عبدةً والقحل من بني  
 عبدة  
 رآع عن القصد أو أبى  
 سدده  
 إن أنا لم أرم بالإساءة من

قلت لمن قال لي عرضت  
على ال  
قصرت بالشعر حين  
تعرضه  
أنشدته مَنطِقِي ليشهده  
ما بلغت بي الخطوب رتبة  
من  
ولا أنا المفهم البهائم وال  
فإن يقل إنني حفظت  
فكالد  
سأسمع الناس دَمَهُ أَبَدًا  
ما سَمِعَ اللَّهُ حَمْدَ مَنْ  
حَمَدَهُ

عَبْدَةُ بن الطيب، وعلقمة بن عبدة الفحل، وكانا شاعرين مجيدين، وقال  
علقمة ابنَ عبدة لرجل ورأى آخر يعتذر إليه وهو معبس في وجهه: إذا  
اعتذر إليك المعتذر فتلقه بوجه مُشْرِقٍ، وبِشْرٍ مَطْلُوقٍ؛ لينبسط المتذلل،  
ويؤمّن المتنصّل.

ولابن الرومي في الأخفش إفحاش صُنْتُ الكتابَ عنه.  
قال علي بن إبراهيم كاتب مسروق البلخي: كنت بداري جالساً فإذا حجارة  
سقطت بالقرب مني، فبادرتُ هارباً، وأمرتُ الغلام بالصعود إلى السطح،  
والنظر إلى كل ناحية؛ من أين تأتي الحجارة، فقال: امرأةٌ من دار ابن  
الرومي الشاعراً! قد تشوّقتُ وقالت: اتّقوا الله فينا، واسقونا جرّة من  
ماء، وإلا هلكنا، فقد مات من عندنا عطشاً.  
فتقدمتُ إلى امرأة عندنا ذات عقلٍ ومعرفة أن تصعدَ إليها وتخطبها،  
ففعلتُ وبادرتُ بالحجرة، وأتبعتها شيئاً من المأكول؛ ثم عادت إليّ فقالت:  
ذكرت المرأة أن الباب عليها مُقفلٌ من ثلاث بسبب طيرة ابن الرومي،  
وذلك أنه يلبس ثيابه كلَّ يوم، ويتعوّذُ ثم يصيرُ إلى الباب، والمِفْتَاحُ معه،  
فيضعُ عينه على ثقبٍ في خشب الباب، فتقعُ عينه على جار له كان نازلاً  
بازائه، وكان أَحَدَبٌ يُقعد كل يوم على بابه، فإذا نظر إليه رجع وخلق ثيابه،  
وقال: لا يفتح أحدُ البابِ.

فعجبتُ لحديثها، وبعثتُ بخادم كان يعرفه، فأمرته بأن يجلس بازائه -  
وكانت العينُ تميلُ إليه - وتقدّمتُ إلى بعض أعواني أن يدعُو الجار  
الأحدب؛ فلما حضر عندي أرسلتُ وراء غلامي؛ لينهض إليّ ابن الرومي،  
ويستدعيه الحضور؛ فإني لجالس ومعي الأحدب إذ وافى أبو حذيفة  
الطرَسوسِي ومعه بَرْدَعَةُ الموسوس صاحبُ المعتضد، ودخل ابن الرومي،  
فلما تخطى عتبة باب الصّحن عتّر فانقطع شِسْعُ نَعْلِهِ، فدخل مذعوراً؛  
وكان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظراً يدل على تغيّر حال؛ فدخل وهو لا  
يَري جاره المتطير منه، فقلت له: يا أبا الحسن، أيكُون شَيْءٌ في خروجك  
أحسن من مخاطبتك للخادم، ونظرك إلي وجهه الجميل؟ فقال: وقد  
لحقني ما رأيت من العترة؛ لأنني فكرت أن به عاهة! وهي قطع انثيته، قال  
بَرْدَعَةُ: وشيخنا يتطير؟ قلت: نعم ويُفِرط، قال: ومن هو؟ قلت: علي بن  
العباس، قال: الشاعر؟ قلت: نعم، فأقبل عليه وأنشده: الطويل:  
ولما رأيت الدهر يُؤذُنُ      بتفريق ما بيني وبين

صَرَفُهُ  
رجعتُ إلى نفسي فوطنتها  
على  
وَمِنْ صَحِبِ الدُّنْيَا عَلَى جَوْرِ  
حُكْمِهَا  
فَحُذِّ خُلْسَةً مِنْ كُلِّ يَوْمٍ  
تَعِيشُهُ  
وَدَعُ عَنْكَ ذِكْرَ الْفَالِ وَالزُّجْرِ  
وَاطْرَحِ

فبقِيَ ابن الرومي باهتاً ينظرُ إليه ولم أدرُ أنه سَعَلَ قَلْبَهُ بحفظ ما أنشده، ثم قام أبو حذيفة وبرذعة معه، فحلف ابنُ الرومي لا يتطير أبداً من هذا ولا من غيره، وأوماً إلى جاره، فقلت: وهذا الفكر أيضاً من التطير، فأمسك، وعجب من جودة الشعر ومعناه، وحسن مآثاه، فقلت له: ليتنا كتبتاه؟ قال: اكتبه فقد حفظته، وأملاه علي. ومن شدة حذره، وعظيم تطيره، قوله لأبي العباس بن ثوبة، وقد تدبته إلى الخروج إليه وركوب دجلة: الطويل:

حَضَصْتَ عَلَى حَظْبِي لِتَارِي قَلَا  
تَدَعُ  
وَمَنْ يَلُوقَ مَا لَاقَيْتُ فِي كُلِّ  
مُجْتَنِي  
أَدَاقَتِي الْأَسْفَاؤَ مَا كَرَّهَ  
الْغَنَى  
وَمِنْ نَكْبَةٍ لَاقَيْتَهَا يَعدُ نَكْبَةً  
فَصَبْرِي عَلَى الْإِفْتَارِ أَيْسَرُ  
مَطْلَبَا  
لَقَيْتُ مِنَ الْبَرِّ التَّبَارِيحَ  
بَعْدَمَا  
سُقَيْتُ عَلَى رِي بِهِ أَلْفَ  
مَطْرَةٍ  
وَلَمْ أُبْغَهَا، بَلْ سَاقَهَا  
لِمَكِيدَتِي  
أَبَى أَنْ يُعَيْتَ الْأَرْضَ حَتَّى إِذَا  
رَمَتْ  
سَبَقَى الْأَرْضَ مِنْ أَجْلِي  
فَأَصْحَتْ مَزَلَةً  
فَمَلْتُ إِلَى حَانَ مُرْتِّ بِنَاؤُهُ  
فَمَا زِلْتُ فِي جَوْعٍ وَخَوْفٍ  
وَوَحْشَةٍ  
يُؤَرِّقُنِي سَفْفَ كَأَنِّي تَحْتَهُ

الْحَبَائِبِ  
رُكُوبِ جَمِيلِ الصَّبْرِ عِنْدِ  
النَّوَائِبِ  
فَأَيَّامُهُ مَحْفُوفَةٌ بِالْمَصَائِبِ  
وَكُنْ حَذِرًا مِنْ كَامِيَاتِ  
الْعَوَاقِبِ  
تَطَيَّرَ جَارٌ أَوْ تَقَاوُلَ صَاحِبِ  
لَكَ الْخَيْرُ، تَحْذِيرِي سُرُورِ  
الْمَحَاطِبِ  
مِنَ الشُّوْكِ يَرْهَدُ فِي الثَّمَارِ  
الْأَطَايِبِ  
إِلَيَّ، وَأَعْرَانِي يَرْفُضِ  
الْمَطَالِبِ  
رَهْبْتُ اعْتِسَافَ الْأَرْضِ ذَاتِ  
الْمَنَاقِبِ  
عَلَيَّ مِنَ التَّعْزِيرِ بَعْدِ  
التَّجَارِبِ  
لَقَيْتُ مِنَ الْبَحْرِ ابْيَاضَ  
الدَّوَائِبِ  
شُغِفْتُ لِبَعْضِهَا بِحُبِّ  
الْمَجَادِبِ  
تَلَاعَبْتُ دَهْرِي جَدَّ بِي كَالْمُلَاعِبِ  
بِرَحْلِي أَنَاهَا بِالْعُيُوثِ  
السَّوَاقِبِ  
تَمَائِلَ صَاحِبِهَا تَمَائِلَ شَارِبِ  
مَمِيلَ غَرِيقِ الثَّوْبِ لَهْقَانِ  
لَاغِبِ  
وَفِي سَهْرٍ يَسْتَعْرِقُ اللَّيْلَ  
وَاصِبِ  
مِنَ الْوَكْفِ تَحْتَ الْمُدْجَتَاتِ  
الْهَوَاصِبِ

يظل إذا ما الطيُّنُ أثْقَلَ مَتْنَهُ  
 وكم حَانَ سَفَرِ حَانَ فَانْقَضَ  
 فوقهم  
 وما زالَ ضاحِي البَرِّ يَصْرِبُ  
 أهله  
 فإن فاتهُ قَطْرٌ وثلجُ فإنه  
 فذاك بلاءُ البَرِّ عِنْدِي شاتياً  
 ألا ربِّ نارٍ بالقضاءِ اضْطَلَيْتُهَا  
 فَدَعُ عَنْكَ ذِكْرَ البَرِّ إِنِّي رَأَيْتُهُ  
 وما زالَ يَبْغِينِي الخُوفَ  
 مُوَارِباً  
 فَطَوَّراً يُغَادِينِي بِلِصِّ مُصَلَّتِ  
 وَأَمَّا بلاءُ البَحْرِ عِنْدِي فَإِنَّهُ  
 ولو ثابَ عَقْلِي لَمْ أَدْعُ ذِكْرَ  
 بَعْضِهِ  
 ولمْ لا ولو أَلْقَيْتُ فِيهِ وَصْحَرَةً  
 ولمْ أَتَعَلَّمْ قَطُّ مِنْ ذِي  
 سِبَاخَةٍ  
 وَأَيْسَرُ إِشْفَاقِي مِنَ المَاءِ  
 أَنَّنِي  
 وَأَخْسَى الرِّدَى مِنْهُ عَلَى كَلِّ  
 شَارِبِ  
 أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ أَبِي نُوَّاسٍ وَقَدْ رَأَى التَّمْسَاحَ بِمِصْرَ أَخَذَ رِجْلًا: البَسِيطُ:  
 أَصْمَرْتُ لِلنَّيْلِ هِجْرَانًا  
 وَمَقْلِيَّةً  
 فَمَنْ رَأَى النَّيْلَ رَأَى العَيْنِ  
 عَنِ كَتَبِ  
 تَصَرُّ تَوَاحِيهِ صَرِيرَ الجَنَادِ  
 كَمَا انْقَضَ صَفْرُ الدَّجْنِ قَوْقُ  
 الأَرَانِبِ  
 بِسَوَاطِي عَذَابِ جَامِدٍ بَعْدُ  
 ذَائِبِ  
 رَهِيْنٌ بِسَافٍ تَارَةً وَبِحَاصِبِ  
 وَكَمْ لِي مِنْ صَيْفٍ بِهِ ذِي  
 مَنَالِبِ  
 مِنَ الصَّخِّ يُودِي لَفْحُهَا  
 بِالْحَوَاجِبِ  
 لِمَنْ خَافَ هَوْلَ البَحْرِ شَرَّ  
 المِهَارِبِ  
 يَحُومُ عَلَى قَتْلِي وَغَيْرِ  
 مُوَارِبِ  
 وَطَوَّراً يُمَسِّسِنِي يُوْرِدِ  
 الشُّوَارِبِ  
 طَوَّانِي عَلَى رَوْعٍ مَعَ الرُّوحِ  
 وَاقِبِ  
 وَلَكِنَّهُ مِنْ هَوْلِهِ غَيْرُ ثَائِبِ  
 لَوَاقِيْتُ مِنْهُ القَعْرَ أَوَّلَ  
 رَاسِبِ  
 سَوَى الغَوْصِ وَالمَضْعُوفِ غَيْرِ  
 مُغَالِبِ  
 أَمُرُّ بِهِ فِي الكَوْرِ مَرَّ المُجَانِبِ  
 فَكَيْفَ بِأَمْنِيهِ عَلَى تَفْسِ  
 رَاكِبِ؟

رجع  
الطويل:

أَظَلَّ إِذَا هَزَّتْهُ رِيْحٌ وَوَلَّاتُ  
 كَأَنِّي أَرَى فِيهِنَّ فُرْسَانَ  
 بُهْمَةً  
 فَإِنْ قَلَّتْ لِي قَدْ يُرَكَّبُ اليَمِّ  
 طَامِيًا  
 لَهُ الشَّمْسُ أَمْوَاجًا طَوَالَ  
 العَوَارِبِ  
 يُلِيحُونَ نَحْوِي بِالسِّيُوفِ  
 القَوَاصِبِ  
 وَدَجَلَةٌ عِنْدَ اليَمِّ بَعْضُ  
 المَدَانِبِ

فلا عُذْرَ فِيهَا لِامْرِئٍ هَابَ  
مِنْهَا  
لِدِجْلَةٍ خَبِ لَيْسَ لَلَيْمِ؛  
إِنَّهَا  
تَطَامُنُ حَتَّى تَطْمَئِنَ  
قَلُوبُنَا  
وَلَلَيْمِ إِندَارٌ بَعَّوْصٍ مُثُونِهِ  
وفي اللجة الخضرَاءُ عُذْرٌ  
لِهَائِبِ  
تَرَايَءُ يَحْلِيمُ تَحْتَهُ جَهْلُ  
وَإِثْبِ  
وَيَغْصَبُ مِنْ مَرِحِ الرِّيَاحِ  
اللُّوَاعِبِ  
وما فيه من آذيه  
المتراكِبِ

وهي طويلة، وفيما مرّ كفاية تنبئ عنه وتدل عليه، ولو مددت أطناب الاختيار  
لتتبع هذا النحو من شعره لخرجت عن غرض الكتاب.  
في العيافة والزجر

ومن مליح العيافة والزجر ما رواه الصولي، قال: كان لأبي نواس إخوان لا يفارقهم،  
فاجتمعوا يوماً في موضع أحقوه عنه، ووجهوا إليه برسولٍ معه طهرٌ قرطاس أبيض، لم  
يكتبوا فيه شيئاً، فخرّموه بزير، وختموه بقار، وتقدموا إلى رسولهم ليرمي كتاب من  
وراء الباب؛ فلما رآه استعلم خبرهم، وعلم أنه من فعلهم، فتعرّف موضعهم وأتاهم،  
فأتاهم فأنشدهم: الوافر:

وجدت كتابكم لما أتاني  
نظرتُ إليه مخزوماً بزير  
فقلت: الزير مُلهية وَلَهُو  
وَجِلْتُ الظَّهْرَ أَهْيَفَ فُرْطَقِيًّا  
فَهَمُّتُ إِلَيْكُمْ طَرَبًا وَسَوْقًا  
فكيف ترونني وترون وِجْدِي  
وقال الطائي: الكامل:

أتضععتُ عبراتُ عَيْنِكَ أَنْ  
دَعَتْ  
لا تنسجُنْ لها؛ فإن بكاءها  
هَنْ الحَمَامُ وَإِنْ كَسَرَتْ  
عِيَافَةً  
ورقأءُ حين تضععتُ  
الإِظْلَامُ؟  
صَحِكَ، وَإِنْ بكاءك  
استغرام  
مِنْ حَائِهِنَّ فَإِنَّهِنَّ حِمَامٌ

وروي يموت ابن المزرع قال: كان أحمد بن المدبر إذا مدحه شاعرٌ فلم  
يَرْضَ شِعْرَهُ لِعِلامه: امض به إلى المسجد الجامع فلا تفارقه حتى يُصلي  
مائة ركعة، ثم خله؛ فتحاماه الشعراءُ، إلا الأفرادَ المجيدين؛ فجاءه أبو عبد  
الله الحسين بن عبد السلام المصري المعروف بالجمل، فاستأذنه في  
النشيد، فقال: قد عرفت الشّرط؟ قال: نعم، وأنشده: الوافر:

أرَدْنَا فِي أَبِي حَسَنِ  
مَدِيحًا  
فقلنا: أكرمُ الثقلين طُرًّا  
فقالوا: يقبل المدحات  
لكن  
فقلت لهم: وما تُعني  
كما بالمَدْحِ يُنتَجِعُ الوِلاءُ  
ومَنْ كفاه دجلةُ والفراتُ  
جوائزُهُ عليهن الصَّلَاةُ  
عيالي! إنما الشأنُ الرِّكَاةُ

صَلَاتِي  
فَأَمَّا إِذْ أَبِي إِلَّا صَلَاتِي  
وعاقنتني الهموم الشاغلات  
فتصبح لي الصلاة هي  
الصلوات  
فيأمر لي بكسرِ الصادِ منها  
فضحك واستظرفه، وقال: من أين أخذت هذا؟ قال: من قول أبي تمام الطائي:  
الكامل:

هُنَّ الْحَمَامُ فَإِنْ كَسَرْتَ  
عِيَاةً  
مِنْ حَائِهِنَّ فَإِنَّهِنَّ حِمَامٌ

فأحسن صلته.  
وقال الأمير أبو الفضل الميكالي لقوم من أهل مرو انخلعوا عن طاعته: الكامل:

يَا رَاكِبًا أَضْحَى يَخْبُ بِعَنْسِهِ  
المَهْيَعِ  
ليؤم مرو على الطريق

أَبْلَغُ بِهَا قَوْمًا أَثَارُوا فِئْتَةً  
إِذْ أَقْدَمُوا ظُلْمًا عَلَى  
سُلْطَانِهِمْ  
ظلت لها الأكباد رهن تقطع  
بالقدر والخلع الذميم  
المفطع

وَبِحَلِّ عَقْدِ لَوَائِهِ وَإِبَاحَةِ  
أَبْلَغِهِمْ أَنِّي اتَّخَذْتُ لِفَعْلِهِمْ  
مَوْقِعَ  
لجتابه وحريمه المتمنع  
قآلاً، له في القوم أسوأ  
موقع

أَمَّا اللُّوَاءُ وَحَلَّهُ فَمَخْبَرٌ  
مُسْتَجْمِعٌ  
عن حل عقد بينهم

وَالخَلْعُ يَخْبِرُ أَنْ سَخَّلَعُ عَنْهُمْ  
ال  
أرواح بالقتل الأشد الأشنع

وَالغَدْرُ يُنْبِئُ أَنْ تُعَادَرَ فِي  
الْوَعَى  
أشلاؤهم لنسوره والأضبع

وَالفِرْقَتَانِ فَشَاهِدُ مَعْنَاهُمَا  
فَتَسَمَّعُوا لِمَقَالَتِي وَتَاهَبُوا  
بِذَمِيمِ بَغْيِكُمْ لِشَرِّ الْمَصْرَعِ  
حتى تحل بكم عقوبة موجه

فَاللَّهُ لَيْسَ بِغَافِلٍ عَنْ  
أَمْرِكُمْ

قال أبو عثمان الجاحظ: سمعت النظام، وذكر عبد الوهاب الثقفي، قال: هو  
أخلى من أمن بعد خوف، وبراء بعد سقم، ومن خصب بعد جدب، وغنى بعد  
فقْر، ومن طاعة المحبوب، وفرج المكروب، ومن الوصال الدائم، والشباب  
الناعم.

من أخبار الجاحظ

وكان الجاحظ مائلاً عن ابن أبي دُوادٍ إلي محمد بن عبد الملك الزيات، فلما  
نكب محمد بن عبد الملك أدخل الجاحظ على ابن أبي دُوادٍ مقبداً، فقال له  
أحمد: والله ما علمك إلا مُتَناسِيباً للنعمة، كفوراً للصبيحة، معدداً للمساوي،  
وما فتني باستيلاحي لك، ولكن الأيام لا تُصلح منك؛ لفساد طويتك، ورداءة  
دخيلتك، وسوء اختيارك، وتغالب طباعك.

فقال الجاحظ: خفض عليك، أصلحك الله، فوالله لأن يكون لك الأمر علي  
خير من أن يكون لي عليك، ولأن أسيء وتحسن أحسن في الأحدثوة من أن  
أحسن فتسيء، ولأن تعفو عني على حال قدرتك علي أجمل بك من الانتقام  
مني، فعفا عنه.

من أخبار عتبة بن أبي سفيان  
قال سعد مولى عُتْبَةَ بن أبي سفيان: خطب عُتْبَةُ الناسَ في الموسم سنة  
إحدى وأربعين، والناسُ إذ ذاك حديثو عَهْدٍ بالفتنة؛ فقال: قد وَلِينَا هذا المقام  
الذي يُضَاعَفُ فيه للمحسن الأجرُ، وللمُسيءِ الوزرُ؛ ونحن علي سبيل قَصْدٍ،  
فلا تمدُّوا الأعناقَ إلى غيرنا؛ فإنها تُقَطَّعُ دوننا؛ فربَّ مُتَمَنَّ أمرًا حَنَفُهُ في  
أمنيته؛ فاقبلوا منَّا العافية ما قبلناها منكم؛ وأنا أسأل الله أن يُعين كلا على  
كل.

فناداه أعرابي من ناحية المسجد: أيها الخليفة، فقال: لستُ به ولم تُبْعِدْ،  
قال: يا أخاه، قال: سمعتُ فقل، فقال: والله لأنْ تحسنوا وقد أسأنا خيرٌ من  
أن تسيئوا وقد أحسنا، فإن كان الإحسان منكم فما أولاكم بإتمامه، وإن كان  
منا فما أولاكم بمكافأتنا عليه، وأنا رجلٌ من بني عامر بن صعصعة يمتُّ  
بالعمومة ويختصُّ بالخوولة، كَثُرَ عِيَالُهُ، وَوَطِنُهُ زَمَانُهُ، وبه فقر وفيه أجر،  
وعنده سُكْرٌ.

فقال له عتبة: أستغفر الله منك، وأستعين به عليك، وقد أَمَرْتُ لك بغناك،  
فليت إسراعي إليك يقوم بإبطائي عنك!

عود إلى الجاحظ

قال الجاحظ: تشاغلنا مع الحسن بن وهبٍ أخي سليمان بن وهبٍ بِشُرْبِ النبيذ أياماً،  
فطلبني محمد بن عبد الملك لمؤانسته، فأخبر باتصال شعلي مع الحسن ابن وهبٍ،  
فتنكر لي، وتلوَّن علي؛ فكتبْتُ إليه رقعة نسختها: أعاذك الله من سوء العَصَبِ،  
وعَصَمَك من سرفِ الهوى، وصَرَفَ ما أعارك من القوة إلى حث الإنصاف، ورجح في  
قلبك إثارة الأناة، فقد خَفْتُ - أَيْدِكَ اللهُ! - أن أكون عندك من المنسويين إلى نزق  
السفهاء، ومُجانبة سُبُلِ الحكماء، وبعد، فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت:  
الطويل:

وإن أمراً أمسى وأصبح  
سالمًا  
من الناس إلا ما جنى لَسَعِيدُ

وقال الآخر: السريع:

ومن دعا الناس إلى دَمِهِ  
ذموه بالحقِّ وبالباطلِ  
فإن كنتُ اجترأتُ عليك - أصلحك الله - فلم أجترئُ إلا لأنَّ دوامَ تغافلِكَ  
عني شبيه بالإهمال، الذي يُورِثُ الإغفال، والعفو المتتابع يؤمنُ مِنَ المِكَافَاةِ،  
ولذلك قال عُيَيْبَةُ بنِ حِصْنِ بن حذيفة لعثمان رحمه الله: عمر كان خيراً لي  
منك، أرهبني فأثقاني، وأعطاني فأغنانني، فإن كنت لا تَهَبُ عقابي - أَيْدِكَ  
الله! - لخدمته فهذه لأيديك عندي؛ فإن النعمة تشفع في النقمة، وإلا تفعلُ  
ذلك لذلك فعدُّ إلى حُسْنِ العادة، وإلا فافعلْ ذلك لحُسْنِ الأحدثة؛ وإلا فات  
ما أنتُ أهله من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة، فسبحان مَنْ  
جعلكَ تَعْفُو عن المتعمِّد، وتتجافى عن عقاب المُصِرِّ، حتى إذا صرَّت إلى مَنْ  
هَفُوتَهُ ذِكْرُ، ودَثَبَهُ نسيان، ومن لا يعرف الشكرَ إلا لك، والإنعامَ إلا منك  
هجمت عليه بالعقوبة. وأعلم - أيدك الله! - أن سَيِّئَ عَصَبِكَ علي كَرَبِّينِ  
صَفَحِكَ عني، وأن موت ذكري مع انقطاع سببي منك كحياة ذكرك مع اتصال  
سببي بك، واعلم أن لك فطنة عليم، وغفلة كريم، والسلام.

من حكم علي بن أبي طالب

عليه الصلاة والسلام

قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: أَعْجَبْتُ ما في الإنسان قَلْبُهُ، وله مواد من  
الحكمة، وأصداد من خلافتها؛ فإن سَتَحَ له الرجاء أدَّله الطمع، وإن هاجه الطمعُ أهلكه  
الجِرْصُ، وإن ملكه اليأسُ قتله الأسف، وإن عرض له الغضب اشتدَّ به العَيْطُ، وإن

أسعد بالرضا نسيي التحفظ، وإن أتاه الخوفُ شغلَه الحدَر، وإن اتسع له الأمن استلبته العِزة، وإن أصابته مصيبة فَصَحَه الجَرَع، وإن استفاد مالا أطغاه الغنى، وإن عضته فاقة بلغ به البلاء، وإن جهد به الجوعُ قعد به الضعف، وإن أفرط في الشيع كظته البيطنة، فكل تقصيرٍ مضِرٍّ، وكل إفراطٍ له قاتل.

البيت الذي أنشده الجاحظ لعبد الرحمن بن حسان في أبيات يقول فيها: الطويل:

متى ما يَرَى الناس الغني  
وجاره

وليس الغنى والفقْر من حيلة  
الفتى

وإن امراً يمسي ويصبحُ  
سالمًا

والبيت الذي أنشده بعده لمحمد بن حازم الباهلي في أبياتٍ يقول فيها:  
السرير:

إن كنت لا تَرْهَبُ دَمِي لما

فأخشَ سكوتي أدنًا مُنصِتًا

فسامعُ الشرِّ شريك له

مقالة السوء إلى أهلها

ومن دعا الناس إلى دمه

فلا تهج، إن كُنْتَ ذا إزبةٍ

فإن ذا العقل إذا هجته

تُبصِرُ في عاجلِ شدَّاته

وفي ابن الزيات يقول الجاحظ: المتقارب:

بدا حين أثرى لإخوانه

وأبصر كيف انتقال الزمان

ففلل منهم شباة العدم

فبادر بالعرف قبل الندم

الجاحظ ورجل من البرامية في مرضه

قال بعضُ البرامية: كنت أتقلد السند، فاتصل بي أني صرقتُ عنها، وكنت كسبتُ

ثلاثين ألف دينار، فحُفَّت أن يفجأني الصارف، ويُسعى إليه بالمال، فصُعْتُه عشرة آلاف

إهليلجة في كل إهليلجة ثلاثة مثاقيل، وجعلتها في رجلي، ولم أبعُد أن جاء الصارف؛

فركبتُ البحر، وانحدرتُ إلى البصرة؛ فخبرتُ أن بها الجاحظ، وأنه عليل؛ فأحببت أن

أراه قبل وفاته، فصرتُ إليه، فأفضيتُ إلى باب دار لطيف، فقَرَعْتُه، فخرجتُ إليّ خادمٌ

صفراءٍ فقالت: مَنْ أنت؟ فقلت: رجل غريب أحب أن يدخل إلى الشيخ فيستر بالنظر

إليه، فأدت ما قلت، وكانت المسافة قريبة لصغر الدهليز والحجرة، فسمعتة يقول:

قولي له: وما تصنع بنشق مائل، ولعاب سائل، ولون حائل؟ فأخبرتني، فقلت: لا بدَّ من

الوصول إليه، فقال: هذا رجل قد اجتاز بالبصرة، فسمع بي وبعلتي، فقال: أراه قبل

موته؛ لأقول: قد رأيت الجاحظ.

فدخلت فسلمت فردَّ ردًا جميلًا واستدنانني، وقال: مَنْ تكون؟ أعزك الله! فانتسبتُ له،

فقال: رحم الله أباك وقومك الأسخياء الأجواد، الكرام الأمجاد، لقد كانت أيامهم رَوْضَ

الزمنة، ولقد انجبر بهم خلق، فسقى لهم ورعياً؛ فدعوت له، وقلت: أنا أسألُ الشيخ أن

يُنشِدني شيئاً من الشعر أذكره به، فأنشدني: الطويل:

لئن قُدِّمَتْ قبلي رجال

فطالما

ولكن هذا الدهر تأتي

صروفه

مَنَسَيْتُ على رِسْلي فكنت

المقدما

فثُبرِمُ منقوضاً، وتنقضُ

مُبرِما

ثم نهضت، فلما قاربته الدهليز صاح بي فقال: يا فتى، أرايت مفلوجاً يتفقه الإهليلج؟ فقلت: لا، قال: فأنا ينفعني الإهليلج الذي معك، فأنفذ إلي منه، فقلت: السمع والطاعة، وخرجت مُفرط التعجب من وقوعه على خبري، حتى كان بعض أحابي كاتبه بخبري حين صُغته، فأنفذت إليه مائة إهليلجة. المقامة الجاحظية

مقامة من إنشاء البديع تتعلق بذكر الجاحظ قال: حدثنا عيسى بن هشام قال: جمعتني مع رِفْقَةَ وليمه، وأجبتُ إليها للحديث المأثور فيها عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "لو دُعيت إلى كِرَاعٍ لأجبتُ، ولو أُهْدِي إليّ ذراعٍ لقبلت"، فأفصى بنا المسيرُ إلى دارٍ قد فُرش بساطها، وبُسيطت أنماطها، ومَدَّ سِماطها، وقوم قد أخذوا الوقت بين أس مخضود، ووَرِدٍ منضود، ودَنٍ مَقْصود، وتَآيٍ وعود؛ محصِرنا إليهم وصاروا إلينا، ثم عكفنا على خِوَانٍ قد مُلِئَتْ حياصُه، ونوَّرت رِياصُه، واصطَفَّت جِقاؤه، واختلفت ألوانُه؛ فمن حالك بآرائه تاصع، ومن قان في تلقائه فاقع، معنا على الطعام رجلٌ تُسافرُ يدهُ على الخِوَانِ، وتَسْفِرُ بين الألوان، وتأخذُ وجوهَ الرُغفان، وتَفْقَأُ عيونَ الجِقان، وتَرَعَى أَرْضَ الجيران؛ يَرْحَمُ اللَّقْمَةَ باللُقْمَةِ، ويَهْزِمُ المَصْغَةَ بالْمَصْغَةِ، وهو مع ذلك ساكتٌ لا يَنبِسُ، ونحن في الحديث نجري معه حتى وقف بنا على ذِكرِ الجاحظ وخطابته، ووصف ابن المقفع ودرايته، ووافق أول الحديث آخر الخِوَانِ، ورُئنا عن ذلك المكان، فقال الرجلُ: أين أنتم من الحديث الذي فيه كنتم، فأخذنا في وصف الجاحظ ولسنينه، وحُسنِ سننِه في الفصاحة وسُننِه فيما عرفناه؛ فقال: يا قوم، لكل عمل رجال، ولكل مقام مقال، ولكل دار سُكَّان، ولكل زمان جاحظ، ولو انتقدتم، لبطل ما اعتقدتم، فكل كشر له عن ناب الإنكار، وشمَّ بأنفِ الإكبار، وصَحِكْتُ إليه، لأجلَب ما لديهِ، وقلت: أفدنا وزدنا، إنَّ الجاحظ في أحد شقي البلاغة يقطف، وفي الآخر يقف، وأبليغ من لم يُقَصِّرْ نظمه عن نثره، ولم يُزِرْ كلامه بشعره، فهل ترؤون للجاحظ شعراً رائعاً؟ قلنا: لا، قال: فهلموا إلى كلامه؛ فهو بعيد الإشارات، قريبُ العبارات، قليل الاستعارات، منقادٌ لعريان الكلام يستعمله، تفور من مُغتاصِه يهمله، فهل سمعتم له بكلمة غير مسموعة، أو لفظة غير مصنوعة؟ فقلت: لا، فقال: هل تحب أن تسمع من الكلام ما يخفف عن منكبيك، وينمُّ على ما في يدك؟ فقلت: إي والله، قال: فأطلق لي عن خنصرِكَ ما يعين على شكرِكَ، فأنلته ردائي، فقال: الطويل:

لَعَمْرُ الَّذِي أَلْقَى إِلَيَّ ثِيَابَهُ  
لَقَدْ كَسَبَتْ تِلْكَ الثِّيَابُ بِهِ  
مَجْدًا

وَقَدْ قَمَرَتْهُ رَاحَةُ الْجُودِ بِرَّةً  
فَمَا ضَرَبَتْ قِدْحًا وَلَا نَصَبَتْ  
تَرْدًا

أَعِدْ نَظْرًا يَا مَنْ كَسَانِي  
ثِيَابَهُ  
وَلَا تَدَعِ الْأَيَّامَ تَهْدِمُنِي هَدَاً

وَقُلْ لِلأُلَى إِنَّ أَسْفَرُوا أَسْفَرُوا  
وَأِنْ طَلَعُوا فِي عُمَّةٍ طَلَعُوا  
صُحَى  
وَرَدًا

صَلُّوا رَحِمَ العَلْيَا وَبُلُّوا  
لَهَاثَهَا  
فَحَيِّرُ النَّدَى مَا سَخَّ وَابُلَّهُ  
تَفْدًا

قال عيسى بن هشام: فارتاحت الجماعة إليه، واثالثت الصّلات عليه، وقلت لما تآسنا:  
من أين مطلع هذا البدر؟ فقال: المجتث:

إسكندرية داري  
لو قرّ فيها قراري  
لكن ليلى بنجد  
وبالحجاز تهاري

ما قالته الملوك

تظلمت رعية أردشير بن بابك إليه في سنة مُجدبة لعجزهم عن الخراج،  
وسألته أن يخففه عنهم؛ فكتب لهم ما نسخته: من أردشير المزيد بالبهاء،  
ابن الملوك العظماء، إلى الفقهاء الذين هم حفظة البيضة، والكتاب الذين  
هم سياسة المملكة، وذوي الحرث الذين هم عمرة البلاد، أما بعدُ، فإننا نحمدُ  
الله تعالى حمداً الصالحين، وقد وضعنا عن رعيتنا بفضل رأفتنا إتاوتنا  
الموظفة عليهم سنتنا هذه، ونحن كاتبون مع ذلك ثملهم بوصية تنفع الكل:  
لا تستشعروا الجفد لئلا يغلب عليكم العدو، ولا تحتوا الاحتكار لئلا يشملكم  
القحط، وكونوا للغرباء مؤوبين، لتؤووا غداً في المعاد، وتروّجوا في القرابة  
فإنه أحسن للرحم، وأثبت للنسب، ولا تعدّوا هذه الدنيا شيئاً فإنها لا تبقى  
على أحد، ولا تزفؤها مع ذلك؛ فإن الآخرة لا تُنال إلا بها.  
وقيل ليزر جمهر: أي الاكتساب أفضل؟ قال: العلم والأدب كثران لا يتقدان،  
وسراجان لا يُطفان، وحقتان لا تبليان؛ من نالهما نال أسباب الرشاد وعرف  
طريق المعاد، وعاش رفيعاً بين العباد.

وقال أنوشروان ليزر جمهر لما ظفر به: الحمد لله الذي أظفّرني بك، قال  
له: فكافئه بما يحب كما أعطاك ما تحب. قال: وبم أكافئه يا فاسق؟ قال:  
بالعفو عمّن أظفرك به اليوم كما تحب أن يعفو عنك غداً.  
ونظير هذا الكلام قد تقدم لعلي، رضي الله عنه.

وقيل لكسرى؛ أي الملوك أفضل؟ قال: الذي إذا جاوزه وجدته عليمًا، وإذا  
خبرته وجدته حكيماً، وإذا أغضب كان حليماً، وإذا ظفر كان كريماً، وإذا  
استمنح منح جسيماً، وإذا وعد وفى، وإن كان الوعد عظيماً، وإذا شكى إليه  
وجد رحيماً.

من إنشاء الميكالي

كتب الأمير أبو الفضل الميكالي إلى أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل  
الثعالبي؛ كتابي وأنا أشكو إليك شوقاً لو عالجه الأعرابي لما صبا إلى رمل عالج، أو  
كأبده الخلي لانتى على كيد ذات حرق ولواعج؛ وأدّم زماناً يفرق فلا يحسن جمعاً،  
ويحرق فلا ينوي رفيعاً، ويوجع القلب بتفريق شمل ذوي الوداد، ثم يبخل عليهم بما  
يشفي الصدور والأكتاد؛ قاسي القلب فلا يلين لاستعطاف، جائر الحكم فلا يميل إلى  
إنصاف، وكم استعدي على صرّفه وأستنجد، وأتلظى غيظاً عليه وأنشد: الطويل:

متى وعسى يئني الزمان  
بعثرة حال والزمان عثور  
عناته

فندرك آمال وتفضى مآرب وتحدث من بعد الأمور أمور  
وكلاً، فما على الدهر عتب، ولا له على أهله ذنب؛ وإنما هي أقدار تجري  
كما شاء مجربها، وتنفذ كالسهام إلى مراميها؛ فهي تدور بالمكروه  
والمحبوب، على الحكم المقذور والمكتوب، لا على شهوات النفوس  
وإرادات القلوب؛ وإذا أراد الله تعالى أذن في تقرب البعيد النازح،  
وتسهيل الصعب الجامح، فيعود الأنس بلقائك الإخوان كأنهم ما لم يزل  
معهوداً، ويجدد للمذاكرة والمؤانسة رسوماً وعهوداً، إنه الملبى به، والقادر  
عليه.

وله إلى أبيه: ولو مَلَكَتُ عِنانَ اختياري، وأسعفني بعض ما أقترحه القَدْرُ الجاري، لما غَبْتُ عن حضرته - انسها الله! - ساعةً من دهرِي، كما لا أعد ساعات بُعْدِي عنها وإخلائي لبابها من أيام عمري؛ ولقنت أبدأً ماثلاً بها في زمرة الخدم والعييد، جامعاً بها بين حاشيتي العزِّ المديد، والشرف العتيد؛ لا سيما في هذا الوقت وقد أشرقَت البلاد بنور طلعتيه التي هي في ظلمة الدَّهر صباح، وعزَّ مطالعته التي فيها لصدور ذوي الشَّنا شجاً ولزَّيد الآمال اقتداح، ومعاودة ظلِّه التي أضحتِ الشمسُ من حساده، والزمان من عدد ساكنيه وعتاده، إلا أن الحريص - كما علمه مولانا - مُخلى عن أعذب مواردِه، وممنوع بالعوائق عن أكرم مطالعه ومقاصده.

وله يستفتح مكاتبة بعض إخوانه: أنا وإن لم تتقدَّم بيني وبينه المكاتبة، وعادة المساجلة والمفاوضة، من فرط جِرْصي على افتتاحها وتعاطيتها، واعتراض العوائق دون المراد والغرض فيها، فإن قلبي بوَّده مَعْمُور، وضميري على مُصافاته مقصور، فاعتداده لفضائله التي أصبح فيها أوْحدي العِتان، وزاحم فيها منكب العِتان، واستأثر فيها بالغرر والأوضاح، ما أوفى بها على عَرَّة الصباح، حتى تشاهدتُ بها ضمائر القلوب، وتهادتُ أبناءها ألسنة البعيد والقريب، اعتداداً من يَجْمَعُ بالاعتداد لها بين شهادة قلبه ولسانه، ومن ينظم في إجلال قَدْرها صفقة إسراره وإعلانه، فهو يتنسمُ الريح إذا هبَّت من ناحيته شوقاً ونزاعاً، ويسْتَملي الوارد والصادر خبر سلامته انصياعاً بالود إليه وانقطاعاً.

شذور من كلامه في أثناء رسائل شتى: أياديه التي غمرتني سبجاً لها، واتسع عندي مجالها، وأعيًا شكري عَفوها وانثيالها، تناولت فيها المُنَى دانيةً القطوف، واجتليت أنوار العيش مأمونة الكسوف، ليس يكادُ يبرد غليلُ شوقي وحنيني، أو ترجع نافرة أنسي وسكوني، أو تخلو من الاهتمام والفكرة فيه خواطري ووطنوني، إلا بالتقاءً يدنو أمده، ويَقْرُب مَوْعده، وتعلو على الفراق يده، فنعاود العيشَ طلقاً عزيزاً، ونجتني ثمر المُنَى عَصاً نضيراً، وتَجْئلي وجه الزمان مُشرقاً منيراً. فوائده لها عندي أثر العمام أو أنفع، ومحل السَّمَاكِ أو أرفع. حالي في مفارقة حَضْرته حالُّ بنات الماء قد تَصَب عنها الغدير، ونبات الأرض أخطأها التَّوؤُّ المِطِيرُ. لهفي علي دهر الحداثة إذ عُصُّ شبابي غض وريق، وتَقَلُّ شرابي غض وريق. كلامُ أحلى من ريق التُّحل، وأصفى من ريق الوبل. من تسود قبل وقته وآلته، فقد تعرَّض لِمَقْتِه وإذالته. نظمه له: مجزوء الرمل:

إن مَنْ يَلتمس الصد  
ر بلا وَفْتِ وآلِه  
لحقيق أن يُلقى  
كل مَقْتِ وإدَالِه

الشكلُ للكتاب، كالحلي للكعب. لو كان الشبابُ فِضةً لكان الشيبُ له خبثاً. النعمة عروسٌ مهرها الشكر، وثوبٌ صَوُّهُ النشر. الخصاب تذكرة الشباب. لا تقاسُ المَهاوي بالمَراقِي، ولا الأقدام بالتَراقي، ولا البحورُ بالسواقي. كم أبلاني من عُزْفٍ جزيل لا يُبلي الدهرُ جدَّةً رِداً، وقِضاني من دَيْنٍ تأميل لا يَقْضي الشكرُ حقَّ نعمائه. الشكر للنعمة نتاج، والكفران لها رِتا، وكلما زدت النعمة شكراً، زادت طيباً وتَشراً. قطعة من شعره في تجنيس القوافي قال في أبيه: الخفيف:

مبدعاً في شمائل المجد  
ما اهتدبنا لأخذه واقتباسه

خِيماً

وجواد بالعفو في وقت باسه

فهو فظ بالمال وقت نداءه

وقال فيه: الوافر:

ولم تدركه في الجود الندامة

إذا ما جَادَ بالأموال ثنى

لريب حوادث قال الندى مه

وإن هَجَسَتْ خَواطِرُهُ بجمع

وقال فيه: المتقارب:

فِرْعْنَا إلى سَيِّدِ نَابِهِ

ولما تَنَارَعَ صَرَفُ الزمان

كشَفْنَا الحَواذِثَ عَنَّا بِهِ

إذا كَشَّرَ الدهرُ عَن نَابِهِ

وقيل فيه: السريع:

تَغْنِي عن الجِيشِ وَتَسْرِيه

إِنْ نابنا حَطَبٌ فَآراؤهُ

لِلرَّكِبِ نَجْمًا فَهُوَ يسري بِهِ

وإن دَجَا ليلٌ بَدَا نورهُ

وقال يفتخر: المتقارب:

لِعَصَّةِ نَفْسِ شِجَاهَا شَجَاهَا

وكم حاسد لي انْبَرَى فائْتَنَى

وما بَتَّ مَالًا وَلَا رَاشَ جَاهَا

ومن أَيْنَ يَسْمُو لَيْلِ العُلَا

ومنها قوله: الوافر:

وعَمَّا حَارَ في الدنيا جَمَالِي

وسائِلُهُ تُسَائِلُ عن فعالي

وفي سُبُلِ المكارمِ لِحَّ مَالِي

فقلت: إلى المعالي حَن

قلبي

فما لي تاركًا دَا التَّهَجِّ مَا لي

وللعلياء تَهَجُّ مستقيمٌ

فَعَالِي وَالتَّجَارُ فَالْجَمَا لي

إذا أُسْرِجَتْ في فخرٍ سَمَا

بي

وقال في نوع من هذا الجنس: الطويل:

من المجد يسري فوق

وَمَنْ يَبْسُرُ فوقَ الأرضِ يطلُبُ

جُمُجْمَةَ النَّسْرِ

غَايَةَ

فإِثًّا من العلياء تَجْرِي على

ومن يَخْتَلِفُ في العالمين

تَجْرِي

نِجَارُهُ

فبِالمالِ تَسْري رايحِ الحَمْدِ

ومن يَتَجَرُّ في المالِ يَكْسِبُ

والتَّسْرِ

رُبْحَهُ

وعلى نحو هذا الحدو يقول أبو الفتح البستي: الوافر:

لشيء من حُلَى الأشعار عار

أبا العباس، لا تحسب بآني

رُلاؤٌ من دُرِّ الأحجارِ جاري

ولي طَبَعُ كَسَلَسَالِ المِجاري

فلي رَنْدٌ على الأذوارِ واري

إذا ما أَكَبَتِ الأذوارُ رَنْدًا

وقال أبو الفتح البستي أيضاً: الوافر:

رأيناها مُبَدَدَةَ التَّطَامِ

بَسَيْفِ الدَّولةِ اتَّسَقَتْ أُمُورٌ

فليس كمثلِه سامٍ وحامٍ

سَمَا وحمى بني سامٍ وحامٍ

? ما قيل في الحاجب

قال بعضُ الملوكِ لحاجبه: إنك عيني التي أنظرُ بها، وُجنتي التي أستنيم

إليها؛ وقد وليتُك بأبي، فما تراك صانعاً برعيتي؟ قال: أنظر إليهم بعينك،

وأحملهم على قَدْرِ منازلهم عندك، وأضعهم لك في إبطائهم عن بابك

ولزومهم خِدْمَتِكَ مواضع استحقاقهم، وأرتبهم حيث جعلهم ترتيبك،

وَأَحْسِنُ إِبْلَاعَكَ عَنْهُمْ، وَإِبْلَاعَهُمَا عَنْكَ.  
قال: قَدْ وَقَيْتَ بِمَا عَلَيْكَ قَوْلًا، إِنْ وَقَيْتَ بِهِ فَعَلًا، وَاللَّهُ وَلِيٌّ كَفَايَتِكَ  
ومعونتك.

قال المهدي للفضل بن الربيع: إني قد وَلَيْتُكَ سَتْرَ وَجْهِهِ وَكَشَفَهُ، فلا  
تجعل الستر بيني وبين خواصِّي سبباً لضغفهم يُفْجِحُ رَدَّكَ، وَعُجْبُوسَ وَجْهَكَ،  
وقدم أبناء الدعوة، فإنهم أَوْلَى بالتقديم، وَتَنُّ بِالْأَوْلِيَاءِ، وواجب للامة وَقْتًا  
إِذَا دَخَلُوا أَعْجَلَهُمْ ضَيْفُهُ عَنِ التَّلَبُّثِ، وَصَرَفَهُمْ عَنِ التَّمَكُّثِ.  
وقال الحسن بن سهل: إِذَا كَانَ الْمَلِكُ مَحْتَجِبًا عَنِ الرَّعِيَّةِ، وَلَمْ يَنْزِلِ  
الوزير نفسه منزلةً تكون وسائلُ الناسِ إليه أَنفُسَهُمْ وَاسْتِحْقَاقَهُمْ دُونَ  
الشفاعات والحرمان، حتى يختصَّ الفاضلُ دُونَ المفضول، وَيَرْتَبُ النَّاسَ  
عَلَى أَقْدَارِهِمْ وَأَوْزَانِهِمْ وَمَعْرِفَتِهِمْ، امْتَزَجَ التَّدْبِيرَ، وَاخْتَلَتِ الْأُمُورُ، وَلَمْ يَمَيِّزْ  
بَيْنَ الصُّدُورِ وَالْأَعْجَازِ، وَالنَّوَاصِي وَالْأَذْنَابِ، وَكَانَ النَّاسُ قَوْضَى، وَوَهَتْ  
أَسْبَابُ الْمُلْكِ، وَانْتَقَصَتْ مَرَائِزُهُ، وَشَاعَتْ سِرَائِرُهُ، وَإِنَّ أَقْرَبَ مَا أَرْجُو بِهِ  
صِلَاحٌ مَا أَتَوَلَاهُ اسْتِمَاعِي مِنَ الْمُتَنَسِّمِينَ بِأَنْفُسِهِمْ، الْمُتَوَسِّلِينَ بِأَفْهَامِهِمْ،  
المتوصلين بكفايتهم، وَابْتَدَالَ نَفْسِي لَهُمْ، وَصَبْرِي عَلَيْهِمْ، وَتَصَفَّحِي مَا  
تَوَسَّلُوا بِهِ وَانْتَخَلَوْهُ مِنَ الْعُقُولِ وَالْآدَابِ، وَالْحِمَايَةِ وَالْكَفَايَةِ. فَمَنْ ثَبَّتَ لَهُ  
دَعْوَاهُ أَنْزَلَتْهُ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ، وَلَمْ أَتَّحِيفْهُ حَقَّهُ، وَلَا تَقْصُتْهُ حَظَّهُ، وَمَنْ قَصَرَ  
عَمَّا ادَّعَى كَانَتْ مَنْزِلَتُهُ مَنْزِلَةَ الْمُقْصَرِّينَ، وَلَمْ أُخَيِّبْ أَمَلَهُ مِنْ مِقْدَارِ مَا  
يَسْتَحِقُّهُ.

وقاد بعضُ البلغاء: إِذَا أَسَدَلَ الْوَالِي عَلَى نَفْسِهِ سِتْرَ الْجَبَابِ، وَهِيَ عَمُودُ  
تدبيره؛ وَاسْتَرَحَّتْ عَلَيْهِ حِمَائِلُ الْحَزْمِ، وَازْدَلَقَتْ إِلَيْهِ وَفُودُ الذَّمِّ، وَتَوَلَّى  
عنه رَشْدَ الرَّاجِحِ، وَنَالَ أُمُورَهُ حَلْلَ الْإِنْتِشَارِ، وَأَفَةُ الْإِهْمَالِ، وَتَسَرَّعَ إِلَيْهِ  
العائبون بلواذع السننهم وَدَيِّبَ قَوَارِضِهِمْ.

وَحُجِبَ سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ عَنْ عَبِيدِ اللَّهِ بْنِ سَلِيمَانَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ: سِرْتُ  
إِلَى بَابِكَ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - عِنْدَمَا حَدَثَ مِنْ أَمْرِكَ، فَلَمْ يُقْضَ لِقَاؤُكَ، وَعَلِمْتُ  
أَنْ يَثْقُتَكَ بِمَا عِنْدِي، قَدْ مَتَلَّتُ لَكَ حَالِي مِنَ السَّرُورِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عِنْدَكَ،  
وَأَرْتِكَ مَوْضِعِي مِنَ الْإِعْتِدَادِ بِكُلِّ مَا حَصَّكَ وَوَصَلَ إِلَيْكَ، فَوَكَلْتُ الْعُدْرَ إِلَى  
ذَلِكَ. ثُمَّ إِنَّا نَاتَيْكَ مَتِيمَيْنِ بَطَلَعَتَكَ، مُشْتَاقِينَ إِلَى رُؤْيَتِكَ، فَيَحْبِبُنَا عَنْكَ  
مُلاحِظًا. وَهُوَ كَمَا عَلِمْتَ رَنِيمَ الصَّنِيعَةِ، لَنَيْمِ الطَّبِيعَةِ، يَحْجُبُ عَنْكَ الْكِرَامَ،  
وَيَأْدُنُ عَلَيْكَ لِلنَّامِ، كَلِمًا نَجَمَتْ لَهُ يَدٌ بِيضَاءَ، أَتْبَعَهَا يَدًا سَوْدَاءَ؛ فَإِنْ رَأَيْتَ -  
أَعَزَّكَ اللَّهُ - أَنْ تَصْرِفَهُ عَنِ بَابِ مَكَارِمِكَ فَعَلْتَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وقال أبو السمط بن أبي حفصة: الطويل:

فَتَى لَا يُبَالِي الْمَدْلُجُونَ	إِلَى بَابِهِ أَلَا تُضِيءَ
بُنُورِهِ	الْكُوكُوبُ
لَهُ حَاجِبٌ فِي كُلِّ حَيْرٍ	وَلَيْسَ لَهُ عَنِ طَالِبِ الْعُرْفِ
يُعِينُهُ	حَاجِبٌ

أَخَذَ الْبَيْتَ الْأَوَّلَ مِنْ قَوْلِ جَدِّهِ مَرْوَانَ بْنِ أَبِي حَفْصَةَ الْأَكْبَرِ: الطويل:  
إِلَى الْمُصْطَفَى الْمَهْدِيِّ دُجِيَ اللَّيْلُ يَخِيطَنَّ السَّرِيحَ  
خَاضَتْ رُكَابِنَا الْمُخَدَّمَا

يَكُونُ لَهَا نُورُ الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ  
دَلِيلًا بِهِ تَسْرِي إِذَا اللَّيْلُ  
أَظْلَمَا

وقال إدريس بن أبي حفصة، وذكر إبلًا البسيط:

وَمِنْ رَجَائِكَ فِي أَعْتَاقِهَا  
حَادِي

عَنِ الرُّتُوعِ وَتَلْهِبِهَا عَنِ الرَّادِ

كَفَى لِمَطَايَاَنَا بُوْجْهَكَ هَادِيَا  
وَإِنْ كُنْ حَسْرَى، أَنْ تَكُونَ  
أَمَامِيَا

وَقَدْ جَدَّ شَوْقَ مُطْمَعٍ فِي  
وَصَالِكِ  
أَعْدَنَ الطَّرِيقَ النَّهْجَ وَعَرَّ  
الْمَسَالِكِ

وَأَسْفَرَ مِنْهَا كُلَّ أَسْوَدَ خَالِكِ  
وَقَدْ تَثَبَّتْ فِينَا أَكْفُ الْمَهَالِكِ  
وَإِنْ كُنْتَ لَمَّا تُحْطِرِنِي بِبَالِكِ

دُجِيَ اللَّيْلُ حَتَّى انْجَابَ عَنْهُ دِيَاجِرُهُ  
لِدِكْرَاكُمُ أَمْ يَسْجُرُ اللَّيْلَ سَاجِرَهُ؟

إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ سَيِّدٌ قَامَ صَاحِبُهُ  
بَدَا كَوَكْبٌ تَأْوِي إِلَيْهِ كَوَاكِبُهُ  
دُجِيَ اللَّيْلُ حَتَّى تَظْمَ الْجَرْعَ تَاقِبُهُ

كَمَا أَضَاءَتْ نَجُومُ اللَّيْلِ لِلْسَارِي

مِنَ الْأَيَّامِ مُظْلِمَةٌ أَضَاءُوا

لَوْ أَنَّكَ تَسْتَضِيءُ بِهِمْ أَضَاءُوا  
وَمَكْرَمَةٌ دَتَتْ لَهُمُ السَّمَاءُ  
وَمِنْ كَرَمِ الْعَشِيرَةِ حَيْثُ شَاءُوا

كَفَوْا خَاطِبَ الظُّلْمَاءِ فَفَدَّ المَصَابِحِ  
فَكَمْ ثَمَّ مِنْ آسِي جِرَاحٍ وَجَارِحِ

فَغَطَى بِهَا مَا بَيْنَ سَهْلٍ وَقَرَدٍ  
بِهِ حَلٌّ مِيرَاثُ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ  
رَأَيْتَا بِنَصْفِ اللَّيْلِ نُورَ ضَحَى غَدِ  
سُلُوكًا مِنَ الْجَزَعِ الَّذِي لَمْ يَسْرَدِ

لَهَا أَمَامَكَ نُورَ تَسْتَضِيءُ بِهِ

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاكِ  
تَشَعَّلُهَا

وَأَصْلُهُ قَوْلُ عَمْرُو بْنِ شَاسٍ الْأَسَدِيِّ: الطَّوِيلُ:

إِذَا نَحْنُ أَدْلَجْنَا وَأَنْتَ أَمَامَنَا  
أَلَيْسَ يَزِيدُ الْعَيْسَ خِفَةً  
أَدْرِعُ

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعَصْرِ: الطَّوِيلُ:

وَلَيْلٌ وَصَلْنَا بَيْنَ قُطْرِيهِ  
بِالسُّرَى  
أَرَبَّتْ عَلَيْنَا مِنْ دُجَاهِ  
خَنَادِسِ

فَنَادَيْتُ يَا أَسْمَاءَ، بِاسْمِكَ، فَانْجَلْتِ  
بِنَا أَنْتِ مِنْ هَادٍ تَجُونَا بِذِكْرِهِ  
مَنْحَتِكَ إِخْلَاصِي وَأَصْفَيْتِكَ الْهُوَى

وَقَالَ الْقِطَامِيُّ: الطَّوِيلُ:

ذَكَرْتُكُمْ لَيْلًا فَنُورَ ذِكْرِكُمْ  
فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَصَوُّهُ مُسَجَّرُ

وَقَالَ الْقَيْنِيُّ: الطَّوِيلُ:

وَإِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ هُمْ هُمْ  
نَجُومٌ سَمَاءً كُلَّمَا انْقَضَ كَوَكْبُ  
أَصْأَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوَجُوهُهُمْ

وَقَالَ الْحَطِيبَةُ: البسيط:

نَمْشِي عَلَى صَوِّهِ أَحْسَابٍ أَصَّانَ لَنَا

وَقَدْ رَدَدَهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فَقَالَ: الْوَافِرُ:

هُمُ الْقَوْمُ الَّذِينَ إِذَا أَلَمَتْ

وَكَلَامُ الْقَاسِمِ بْنِ حَنْبَلِ الْمَدَنِيِّ مِنْ هَذَا، حَيْثُ يَقُولُ: الْوَافِرُ:

مِنْ الْبَيْضِ الْوَجُوهَ بَنِي سِنَانِ  
قَلُّوا أَنَّ السَّمَاءَ دَتَتْ لِمَجْدِ  
هُمْ حَارُّوا مِنَ الشَّرْفِ الْمَعْلَى

وَقَالَ بَعْضُ الْمُتَقَدِّمِينَ: الطَّوِيلُ:

إِذَا أَشْرَقَتْ فِي جُنْحِ لَيْلٍ وَجُوهُهُمْ  
وَإِنْ نَابَ حَطْبٌ أَوْ أَلَمَتْ مُلَمَّةٌ

وَقَالَ أَبُو بَدِيلِ الْوَضَّاحِ بْنُ مُحَمَّدِ التَّمِيمِيِّ فِي الْمُسْتَعِينِ: الطَّوِيلُ:

وَقَائِلَةٌ وَاللَّيْلُ قَدْ تَشَّرَ الدُّجَى  
أَرَى بَارِقًا يَبْدُو مِنَ الْجَوْسِقِ الَّذِي  
أَضَاءَتْ لَهُ الْآفَاقُ حَتَّى كَانَمَا  
فَطَلَّ عَدَارَى الْحَيِّ يَنْظُمَنَّ تَحْتَهُ

فقلت: هو البدر الذي تعرفونه

والأ يَكُنُ فالنور من وجه أحمد

?? ما قيل في الاشتياق

وقال عُمَرُ بن عبد الله بن أبي ربيعة في معنى قول عمرو بن شأس في حثّ الاشتياق: الطويل:  
خليلي، ما بال المطايا كأنما  
فقد أُنْعَبَ الحادي سُراهُنَّ، وانحسبهنَ فما بِالْأ  
عجولٍ مَقْلَصُ

تراها على الأعقابِ بالقومِ تَنكُصُ

فأعْيُنُهَا مِمَّا تَكَلَّفُ تَشْخَصُ  
إذا ازدادَ قُرْبُ الدارِ والبُعدُ يَنْقُصُ

وقد قُطِعَتْ أعناقُهنَّ صَبَابَةً  
يَزِدْنَ بنا قُرْباً فيزدادُ شَوْقُنَا  
وقال بعض الرجاز، وذكر إيلاء الرجز:

لم يَدْلجِ اللَّيْلَةَ فيمَنْ أَدلجا  
وليس يَنْسَاكُمُ إنْ حَلَّ أو سَارَا

إن لها لسائقا حَدْلجا

حتى يبيعَ بَعْمَرِ القُرْبِ أعمارا  
والقربُ يُلهِبُ في أحشائه تَارَا

صَبَّ يحث مطاياهُ بذكرِكم  
لو يستطيعَ طَوَى الأيامِ نحوكمُ  
يرجو النجاةَ من البلوى بقربكم

يريد امرأة يحبها فيحثه ما يجده من الشوق على إجهاد مطاياها بالسوق. كما أنشد إسحاق الموصلي: البسيط:

هذا البيت يناسب أبيات ابن أبي ربيعة. يقول: كلما دنا ازدادَ جِزْصاً على اللقاء.

وشخص إسحاق الموصلي إلى الواثق بشر من رأى، وأهلُه ببغداد، فتصيد الواثق وهو معه إلى نواحي عُكْبَرَاء، فلما قرب من بغداد قال: الوافر:

وهاجَكَ منهم قُرْبُ المَرَارِ  
إذا دَنَتِ الديارُ من الديارِ

طربت إلى الأصبيّة الصغار  
وكلُّ مسافرٍ يزدادُ شوقاً

ولحنه وغناه الواثق، فاستحسنه وأطربه، فصرفه إلى بغداد على ما أحبّ  
وكان إسحاق قال أولاً: الوافر:

وكل مسافرٍ يَشْتاقُ يوماً  
فعاثوا قوله يوماً، وقالوا: هي لفظة قَلِقة في هذا الموضع، لم تحلّ بمركزها، ولا لها هنا  
موقع. قال: فضَعُوا مكانها مثلها لا خيراً منها. فما استطاعوا ذلك، فغيّرها إلى ما  
أنشئت أولاً.  
وقال أبو نواس: الكامل:

بين اشتياق العيسِ  
والرّكبانِ  
حتى طلَعْنَ بها على  
الأوطانِ

أما الدّيارُ فقلما لِيئُوا بها

وضعوا سِياطَ الشّوقِ فوق  
رقابها

وقال مَخْلَدُ بن بكار الموصلي: الطويل:

ولم يبقِ منها عَيْرَ عَظْمٍ  
مجلدٍ

أقولُ لِنِصْوِ أنقَدَ السّيرِ  
نيهاً

وشاقك تَحْتانُ الحَمامِ  
المَعْرَدِ

خدي بي ابتلاك الله بالشّوقِ  
والهوى

تَشُقُّ بي المَوماءَ في كلِّ  
قَدَقِدِ

فمرت سريعاً حَوفَ دَعْوَةٍ  
عاشقٍ

فكانت لها سَوطاً إلى ضحوةِ  
العَدِ

فلما وَتَتْ في السّيرِ تَئِيَتْ  
دَعْوَتِي

وكان مخلد حلو الطبع، وهو القائل يمدح رجلاً الرمل:

يَطْلُعُ التَّجْمُ عَلَى صَعْدَتِهِ  
مَعَشِرٌ إِنْ طَمِئَتْ أَرْمَاحُهُمْ  
تَحْسُنُ الْأَلْوَانُ مِنْهُمْ فِي  
الْوَعَى  
سُخِطَ عَبْدُ اللَّهِ يُذْنِي الْأَجْلَا  
يُعِشِبُ الصَّلْدَ إِذَا سَالَمَهُ  
مَلِكٌ لَوْ تُشِّرْتَ آلاؤُهُ  
خَلَّ بِالْبَاسِ ابْنُ عَمْرٍو مَنْزِلًا  
حَطَّ رَحْلِي فِي دَرَاهِ جُودِهِ

في الخط

سئل بعضُ الكتاب عن الخط: متى يستحق أن يوصفَ بالجودة؟ فقال: إذا اعتدلت أقسامه، وطالت ألفه ولأمه، واستقامت سطورُه، وصاهاى صعوده خُدُورُه، وتفتحت عيونُه، ولم تشبهه رآؤه ونوئه، وأشرق قِرطاسه، وأظلمت أنفاسه، ولم تختلف أجناسه، وأسرع إلى العيون تصوُّرُه، وإلى العقول تَنَمُّرُه، وقُدِّرت فصوله، وأندمجت وُصوله، وتناسب دقيقه وخليله، وخرج من مَطِّ الورَّاقين، وبَعُدَّ عن تصنع المحررين، وقام لصاحبه مقام النسبة والحلية، كان حينئذ كما قال صاحب هذا الوصف في صفة خط: المتقارب:

إِذَا مَا تَجَلَّلَ قِرْطَاسُهُ  
تَضَمَّنَ مِنْ حَطِّهِ حُلَّةٌ  
حُرُوفٌ تُعِيدُ لِعَيْنِ الْكَلِيلِ  
وَسَاوَرَهُ الْقَلَمُ الْأَرْقَشُ  
كَتَفَشِ الدَّنَائِرِ، بَلْ أُنْقَشُ  
نَشَاطًا وَيَقْرُوهَا الْأُحْقَشُ

قال أبو هفان: سألت ورَّاقًا عن حاله فقال: عيشي أضيَّق من مَحْبَرَةٍ، وجسمي أدقُّ من مِسْطَرَةٍ، وجاهي أرقُّ من الزجاج، ووجهي عند الناس أشدُّ سوادًا من الحبر بالزجاج، وحظي أخفى من شقِّ القلم، ويَدَايِ أضعف من قَصَبَةٍ، وطعامي أَمْرٌ من العَفْصِ؛ وشَرَابِي أَحْرٌ من الحبر، وسوءُ الحال أَلْزَمُ لي من الصَّمْعِ؛ فقلت له: عبرت عن بلاء بلاء!

وقال الحمدوني: البسيط:

ثِنْتَانِ مِنْ أَدَوَاتِ الْعِلْمِ قَدْ  
ثِنْتَانِ  
أَمَّا الدَّوَاةُ فَأَدَمَى جَرْمُهَا  
جَسَدِي  
وَحَبَّرْتُ لِي صَحْفَ الْحَرْفِ  
مِحْبَرَةٍ  
وَالْعِلْمُ يَغْلَمُ أَنِي حِينَ  
أَخَذُهُ

وللحمدوني في الحرفة أشعار مستظرفة؛ وكان مليح ألافنتان، حلو التصرف؛ وهو إسماعيل بن إبراهيم بن حمدويه، وحمدويه جدُّه، وهو صاحب الزنادقة في أيام الرشيد، والحمدوني القائل: السريع:

مَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا لَهُ سَّارَةٌ  
فَتَحْنُ مِنْ نَظَارَةِ الدُّنْيَا

تَرْمُقُهَا مِنْ كَتَبِ حَسْرَةٍ  
وَقَالَ: الْكَامِلُ:

قَدْ قُلْتُ إِذْ خَرَجُوا لَكِي  
يَسْتَمْطِرُوا:  
كَأَنَّا لَقَطٌ بِلَا مَعْنَى  
لَا تَقْنَطُوا وَاسْتَمْطِرُوا  
بثيابي

عَطَى ضِيَاءَ الشَّمْسِ جَوْ  
سَحَابٍ  
عُمَرُ فَيُرَوِّهِمْ دُعَاءَ مُجَابٍ

لو في خَزيرانٍ هَمَمْتُ  
بِعَسَلِهَا  
فكأنها العباسُ يَسْتَسْقِي  
به  
صنعة الأدب

وقال آخر في المعنى الأول: البسيط:

عن كل حظ وجاءت جِرْفَةٌ  
الأدب  
مخيمًا سَفَطُ الأَقْلَامِ  
والكُتُبِ

لما أَجَدْتُ حُرُوفَ الخَطِ  
حَرَفَيْي  
أَقْوَتَ مَنَازِلُ مَالِي حِينَ  
وَطَنَهَا

وقال يعقوب الخريمي: البسيط:

إلا تَزِيدَتْ حَرْفًا تَحْتَهُ سُومُ

مَا إِزْدَدْتُ فِي أَدْبِي حَرْفًا  
أَسْرُّ بِهِ

أَتَى تَوْجَةَ فِيهَا فَهَوَّ مَحْرُومُ

كَذَاكَ مِنْ يَدَّعِي حُذْقًا  
بِصَنَعَتِهِ

ولما قتل المقتدر أبا العباس بن المعتز، وزعم أنه مات حَتَفَ أَنفَهُ، قال علي بن محمد بن بسام: البسيط:

ناهيكَ في العلم والآداب  
والحسب  
وإنما أدركته حرفة الأدب

لله دركٍ مِنْ مَيِّتٍ بِمَصِيَعَةٍ

ما فيه لَوٌّ وَلَا لَيْثٌ فَيَنْقِصُهُ

قال ابن الرومي: الكامل:

عُصِمُوا مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالْفِتَنِ  
فقلوبهم مَرَضَى الحزنِ  
من غيرهم بِمَصَاصَةِ الشَّجَنِ

يا لَيْتَ أَهْلَ البَيْتِ إِذْ حُرِمُوا

لكنهم حُرِمُوا وَمَا عُصِمُوا

وَهُمْ أَطَبُّ عَلَى بَلِيَّتِهِمْ

وقال جعفر بن محمد: إن الله وَسِعَ أرزاقَ الحَمَمَى لِيُعْتَبَرَ العَقْلَاءُ، وَيَعْلَمُوا أَنَّ الدنْيَا لَا يَتَأَلَّ مَا فِيهَا بِعَقْلٍ وَلَا حَيْلَةٍ، أَلَا إِنَّ كَسْبَ المَالِ بِالْحِطِّ، وَحِفْظَهُ بِالْعَقْلِ. قال إبراهيم بن سيار النظام: الذهبُ لثيم؛ لِأَنَّ الشَّكْلَ يَصِيرُ إِلَى شَكْلِهِ، وَهُوَ عِنْدَ اللُّثَامِ أَكْثَرُ مِنْهُ عِنْدَ الكَرَامِ. قال المتنبي - وأخذ هذا المعنى: الوافر:

وَشَبَّهُ الشَّيْءَ مُنْجَذِبٍ إِلَيْهِ

وَأَشْبَهَنَا بِدُنْيَانَا الطَّعَامَ

وكان النظام له نظر بوجوه التصرف، وكان السلطان يصفه بالكثير، وكان

محظوظاً؛ فإذا اجتمع له مال حَسَنٌ لنفسه بُلْغَةً، وَفَرَّقَ الباقِي فِي أَبْوَابِ

المعروف؛ فقليل له في ذلك، فقال: مِنْ حَقِّ المَالِ عَلَيَّ أَنْ أَطْلُبَهُ مِنْ

مَعْدِنِهِ، وَأَصِيبَ بِهِ لِلْفُرْصَةِ عِنْدَ أَهْلِهِ؛ وَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ أَنْ يَقِينِي السُّوءَ

بِنَفْسِهِ، وَيَصُونَ عِرْضِي بِإِيْتِذَالِهِ، وَلَا يَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا بَأْنِ أَسْمَحَ بِهِ؛ أَلَا تَرَى ذَا

الغنى؛ مَا أَدْوَمَ تَصَبُّهُ، وَأَقْلَّ رَاحَتِهِ، وَأَخْرَجَ مِنْ مَالِهِ حَظَّهُ، وَأَشَدَّ مِنَ الأَيَّامِ

حَدْرَهُ، وَأَعْرَى الدَّهْرَ بَثْلِيهِ وَتَقْصِيهِ، ثُمَّ هُوَ بَيْنَ سُلْطَانِ يَرْعَاهُ، وَذَوِي حَقُوقِ

يَسْبُونَهُ وَأَكْفَاءِ يَنَافِسُونَهُ، وَوَلَدٍ يَرِيدُونَ فِرَاقَهُ، قَدْ بَعَثَ عَلَيْهِ الغِنَى مِنْ

سُلْطَانِهِ العَنَاءِ، وَمِنْ أَكْفَائِهِ الحَسَدِ، وَمِنْ أَعْدَائِهِ البَغْيِ، وَمِنْ ذَوِي الحَقُوقِ

الذَّمِّ، وَمِنْ الوَلَدِ المَلَالِ، وَذُو البُلْغَةِ قَنَعَ فِدَامَ لَهُ السُّرُورِ، وَرَفِضَ الدنْيَا فَسَلِمَ

مِنَ المَحْذُورِ، وَرَضِيَ بِالكِفَافِ فَتَنَكَّبَتَهُ الحَقُوقُ.

أدوات الوَرَّاقِ

قال الصولي: أنشدني محمد بن أحمد بن إسحاق: السريع:

أَدْمَى البُكَاءُ جَفْتِيَّ وَالْمَاقِيَّ فَطَلْتُ دَا هَمٌّ وَذَا اخْتِرَاقِيَّ

ما إن أرى في الأرض والأفاق  
إذا أتى في القمص الأخلاق  
يفرح بالأقلام والأوراق  
وقال بعض الوراقين: المتقارب:  
إذا كنت بالليل لا أكثب  
فطوراً يبطلني مأكلاً  
فإن دام هذا على ما أرى  
وقيل لورّاق: ما تشتهي؟ فقال: قلماً مَسَاقاً، وجِبراً بَرِاقاً، وجلوداً رِقَاقاً.  
وكل امرئ فأمنيته على ما يطابق غريزته، ويوافق تحيزته.  
اللذات  
قال عليّ بن جبلة العكوك: قال الأصمعي: سئل امرؤ القيس: ما أطيب  
لذات الدنيا؟ قال: بيضاء رغوبة، بالحسن مكبوبة، وبالشحم مكروبة،  
بالمسك مشبوبة.

وسئل الأعشى عن ذلك، فقال: صهباء صافية، تمرؤها ساقية، من صوب  
غادية.

وسئل طرفة عن ذلك، فقال: مركب وطي، وتؤب بهي، ومطعم شهبي.  
قال العكوك: فحدثت بهذا أبا دلف، فقال: الخفيف:

أطيب الطيبات قتل الأعادي ورسول يابى بوعد حبيب  
وحدثت بذلك حميداً الطوسي، فقال: الطويل:

فلولا ثلاث هن من لدة الفتى  
وجدك، لم أحفل متى قام  
عودي

فمنهن سبق العاذلات  
كُميت، متى ما تُعلّ بالماء  
تزيد

وكري إذا نادى المصاف  
كسبيد العضا ذي السورة  
المتورد

وتقصير يوم الدجن مُعجب  
الشعر لطفة بن العبد.

وحدثت بذلك يزيد بن عبد الله، فقال: ما أدري ما قالوا، ولكني أقول: المنسرح:  
فأقبل من الدهر ما أتاك به  
من قر عينا يعيشه تفعه

فكان أسدهم.  
والبيت للأضبط بن فُريع، أنشده أبو العباس ثعلب، قال: وبلغني أن هذه الأبيات قيلت  
قبل الإسلام بدهر طويل: المنسرح:

لكل ضيق من الأمور سعة  
والصبح والمسي لا فلاح  
معه

ما بال من سره مصابك لا  
يملك شيئاً من أمره ورعه  
يا قوم، من عاذري من  
الحدعة؟

أدود عن حوضه ويدفني  
حتى إذا ما انجلت عمائته  
أقبل يلحى وعيه فجعه  
ويأكل المال غير من جمعه

قد يجمع المال غير آكله

ويقطعُ الثوبَ غيرَ لابسِهِ  
فأقبلُ من الدهرِ ما أتاك بهِ  
وصلُ حبالَ البعيدِ إن وصلَ  
القطعةُ

ولا تُعَادِ الفقيرَ علكَ أن  
هذا البيت شبيه بما روي عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كثيراً ما يستنشدني قول اليهودي: الكامل:

ارفعُ ضعيفك لا يحزُ بك  
ضعفه  
يجزبك، أو يُتني عليك، وإن  
من

فأنشده، فيقول: إني فطين لها.  
وكان الأضبط سيد بني سعد، وكانوا يشتمونه ويؤذونه، فانتقل إلى حي من العرب فوجدهم يؤذون سادتهم، فقال: حيثما أوجه ألق سعداً! فذهبت مثلاً. قال الطائي: الطويل:

فلا تحسبنُ هنداً لها العذرُ  
وحدها

وصف المحبرة والقلم  
قال بعضُ الكتاب يصف محبرة: الكامل:

ولقد مصيتُ إلى المحدثِ  
أنفاً  
وإذا طبأء الإنسِ تكثبُ كل  
ما

يتجاذبون الجيرَ من ملمومةٍ  
من خالص البلورِ غيرَ لونها  
إن نكسوها لم تسيلُ،  
ومليتها

ومتى أمالوها ليرشِفِ  
رُضابها  
وكانها قلبي يضمن بسيره  
يمتأخها ماضي الشبابة  
مدلق

وقال أبو الفتح كشاجم: المنسرح:  
رجلاه رأسُ عنده لكتته  
وكانته والجبرُ يخضبُ رأسه  
لم لا الأحظه بعين جلاله

مخبرة جاد لي بها قمرُ

جوهرة حصني بجوهرة

بيضاء والجبرُ في قراراتها

ويلبسُ الثوبَ غيرَ من قطعهُ  
من قر عيناً بعيشه تفعهُ  
حبل، وأقصِ القريبَ إن  
قطعه

تركع يوماً والدهرُ قد رقعهُ  
الله عليه وسلم، كثيراً ما يستنشدني قول اليهودي: الكامل:

يوماً فتذركه العواقب قد  
نما  
أتنى عليك بما فعلت كمن  
جزي

فأنشده، فيقول: إني فطين لها.  
وكان الأضبط سيد بني سعد، وكانوا يشتمونه ويؤذونه، فانتقل إلى حي من العرب فوجدهم يؤذون سادتهم، فقال: حيثما أوجه ألق سعداً! فذهبت مثلاً. قال الطائي: الطويل:

فلا تحسبنُ هنداً لها العذرُ  
وحدها

وصف المحبرة والقلم  
قال بعضُ الكتاب يصف محبرة: الكامل:

ولقد مصيتُ إلى المحدثِ  
أنفاً  
وإذا طبأء الإنسِ تكثبُ كل  
ما

يتجاذبون الجيرَ من ملمومةٍ  
من خالص البلورِ غيرَ لونها  
إن نكسوها لم تسيلُ،  
ومليتها

ومتى أمالوها ليرشِفِ  
رُضابها  
وكانها قلبي يضمن بسيره  
يمتأخها ماضي الشبابة  
مدلق

وقال أبو الفتح كشاجم: المنسرح:  
رجلاه رأسُ عنده لكتته  
وكانته والجبرُ يخضبُ رأسه  
لم لا الأحظه بعين جلاله

مخبرة جاد لي بها قمرُ

جوهرة حصني بجوهرة

بيضاء والجبرُ في قراراتها

ويلبسُ الثوبَ غيرَ من قطعهُ  
من قر عيناً بعيشه تفعهُ  
حبل، وأقصِ القريبَ إن  
قطعه

تركع يوماً والدهرُ قد رقعهُ  
الله عليه وسلم، كثيراً ما يستنشدني قول اليهودي: الكامل:

يوماً فتذركه العواقب قد  
نما  
أتنى عليك بما فعلت كمن  
جزي

فأنشده، فيقول: إني فطين لها.  
وكان الأضبط سيد بني سعد، وكانوا يشتمونه ويؤذونه، فانتقل إلى حي من العرب فوجدهم يؤذون سادتهم، فقال: حيثما أوجه ألق سعداً! فذهبت مثلاً. قال الطائي: الطويل:

فلا تحسبنُ هنداً لها العذرُ  
وحدها

وصف المحبرة والقلم  
قال بعضُ الكتاب يصف محبرة: الكامل:

ولقد مصيتُ إلى المحدثِ  
أنفاً  
وإذا طبأء الإنسِ تكثبُ كل  
ما

يتجاذبون الجيرَ من ملمومةٍ  
من خالص البلورِ غيرَ لونها  
إن نكسوها لم تسيلُ،  
ومليتها

ومتى أمالوها ليرشِفِ  
رُضابها  
وكانها قلبي يضمن بسيره  
يمتأخها ماضي الشبابة  
مدلق

وقال أبو الفتح كشاجم: المنسرح:  
رجلاه رأسُ عنده لكتته  
وكانته والجبرُ يخضبُ رأسه  
لم لا الأحظه بعين جلاله

مخبرة جاد لي بها قمرُ

جوهرة حصني بجوهرة

بيضاء والجبرُ في قراراتها

ويلبسُ الثوبَ غيرَ من قطعهُ  
من قر عيناً بعيشه تفعهُ  
حبل، وأقصِ القريبَ إن  
قطعه

مثل بياض العيون رَيْتُهُ      مُسَوِّدٌ مَا شَبَّاهُ مِنْ الْحَدَقِ  
كأنما جبرها إذا تَنَرَّتْ      أقلامنا ظله على الِوَرَقِ  
كحلُّ مَرْتِه العُيُونُ مِنْ مُقَلِّ      نُجَلِّ فَأَوْقَتَ بِهِ عَلَى يَقَقِي  
حَرْسَاءَ لَكِنَّهَا تَكُونُ لَنَا      عَوْتًا عَلَى عِلْمِ أَفْصَحِ النَّطْقِ

وقال عبد الله بن أحمد: القلم أمره، ما لم يكتحل بإئيد الدواة. وكتب إبراهيم بن العباس كتاباً فأراد محو حرف فلم يجد منديلاً، فمحاه بكُمه فقبل له في ذلك، فقال: المالُ قَرْعٌ، والعلمُ أصل، وإنما بلغنا هذه الحال، واعتقدنا هذه الأموال بهذا القلم والمداد، ثم قال: الوافر:

إذا ما الفکرُ أَضْمَرَ حُسْنَ لَفْظِ

وَوَشَّاهُ وَتَمَمَّه مَسَدٌ

رَأَيْتَ حُلَى الْبَيَانِ مِنْوَرَاتِ

فصيحُ بِالْمَقَالِ وَبِاللِّسَانِ

تَصَاحَكَ بَيْنَهَا صَوْرَ الْمَعَانِي

ألفاظ لأهل العصر في أوصاف آلات الكتابة والدوي والأقلام. الدواة من أنفع الأدوات، وهي للكتابة عتاد، وللخاطر زناد، غدير لا يرده عَيْرُ الأفهام، ولا يمتح بغير أرشبية الأقلام، دواة أنيقة الصنعة، رشيقة الصبغة، مسكية الجلد، كأفورية الجلية. غدير تفيض ينبع الحكمة من أقطاره، وتنشأ سُحْبُ البلاغة من قراره. دواة تداوي مرض عفانك، وتدوي قلوب عدانك، على مرفع يؤذن بدوام رفعتك، وارتفاع النوائب عن ساحتك، ومداد كسواد العين، وشوْبِدَاءِ القلب، وجناح العُراب، ولعاب الليل، وألوان دهم الخيل. وهذا من قول ابن الرومي: الرجز:

حبر أبي حَفْصِ لَعَابِ اللَّيْلِ      كانه ألوانُ دُهمِ الخيلِ

قال العاصر: مِدادٌ ناسبٌ خافية العُرابِ، واستعار لونه من شَرَحِ الشبابِ، وأقلام جَمَّةِ المحاسنِ، بعيدة من المَطَاعِينِ، تعاصي الكاسي، وتمانع الغامر القاسي. أنابيب ناسبت رِمَاحِ الخَطِّ في أجناسها، وشاكلت الذهب في ألوانها، وضاهت الحديد في لمعانها؛ كأنها الأميالُ استواءً، والأجالُ مضاءً، بطيئة الحفى، قوية القوى، لا يُشْطِطُهَا القَطُّ، ولا يَنْشَعَبُّ بِهَا الخَطُّ. أقلام بحرية مؤشبية الليط، رائقة التخطيط. قلم معتدل الكُعُوبِ، طويل الأنوبِ، باسِقُ الفروعِ، رَوِيَّ التَّبُوعِ، هو أَوْلَى باليد من البَتَّانِ، وأَحَقُّ للسِرِّ من اللِّسَانِ. هو للأنامل مطيئة، وعلى الكتابة معونة مَرَضِيَّة. نعم العُدَّةُ القلم: يقلم أظافر الدَّهرِ، ويملك الأقاليم بالتهى والأمر، إن أَرَدْتَ كان مسجوناً لا يملُّ الإِسَارَ، وإن شئتَ كان جواداً جارياً لا يعرف العنار، لا يَبُوءُ إذا تَبَّتِ الصِّفَاحُ، ولا يُحْجِمُ إذا أَحْجَمَتِ الرِّمَاحُ. قال أبو الفتح كشاجم، يصف محبرة ومقلمة وأقلاماً وسكيناً: الرجز:

جسمي من اللُّهُوِ وآلاتِ      الطَّرَبِ

ومن مُدَامٍ وَمَتَانٍ تَصْطَلِحِبُ

وهممة طمَّاحةٍ إلى الرُّتَبِ

معمورةٌ من كلِّ عِلْمٍ

وَأَدَبِ

تَكَادُ مِنْ حَرِّ الحَدِيثِ

تَلْتَهِبُ

ولغةً تجمَعُ أَلْقَاظَ العَرَبِ

أَوْ كَتَائِبِ الرِّزْقِ مِنْ غَيْرِ

طَلِبِ

محلِّيات بلجَيْنٍ وَذَهَبِ

مثقوبة آدائها، وفي الثُقُبِ

مُحَبَّرَةٌ يُرْهِى بِهَا الجِبْرُ الأَلَبِ

مثل سُوفِ الحُرْدِ البِيضِ

العُرْبِ

تضمن قطراً للكتب عشب

أَسْوَدَ يَجْرِي بِمَعَانٍ  
كَالشُّهْبِ

لَا تَنْصُبُ الْحِكْمَةَ إِلَّا إِنْ  
تَصَبَّ

نِيَطَتْ إِلَى يُسْرَى يَدَيَّ  
يَسَبَّ

كَالْفُرْطِ فِي الْجِيدِ تَدَلَّى  
فَاضْطَرَبُ

تصحبها، والأخوات تُصْطَحَبُ

كَأَنَّهُ يُوَدَعُ تَبَلًّا مِنْ قَصَبُ

لَمْ يَعْطَاهَا رِيثُ وَلَمْ تَحْمِلْ  
عَقَبُ

لَا تَصْحَكُ الْأُورَاقُ حَتَّى  
يَتَّحِبُ

تَرْمِي بِهَا يَمْنَايَ أَعْرَاضَ  
الْكَتُبِ

رَمِيًّا مَتَى أَقْصِدُ بِهِ السَّمْتَ  
أَصِيبُ

وَمُدِّيَةَ كَالْعَصْبِ مَا مَسَ  
الْقَصْبُ

عَصَبِي عَلَى الْأَقْلَامِ مِنْ غَيْرِ  
سَبَبُ

تَسْطُو بِهَا فِي كُلِّ حِينٍ  
وَتَثِبُ

وَإِنَّمَا تَرْضِيكَ فِي ذَاكَ  
الْعَصْبُ

فتلك آلاتي، وآلاتي تُحَبُّ

وَالظَّرْفُ فِي الْأَلَاتِ مِمَّا  
يُسْتَحَبُّ

لا سيما ما كان منها للآدب

من أخبار الخليفة المأمون

تظلم رجل إلى المأمون من عامل له، فقال: يا أمير المؤمنين، ما ترك لي فِضَّةَ إِلَّا  
فِضَّاهَا، وَلَا ذَهَبًا إِلَّا ذَهَبَ بِهِ، وَلَا غَلَّةَ إِلَّا غَلَّاهَا، وَلَا صَبِيْعَةً إِلَّا أَضَاعَهَا، وَلَا عِلْقًا إِلَّا عَلَّقَهُ، وَلَا  
عَرَضًا إِلَّا عَرَضَ لَهُ، وَلَا مَاشِيَةً إِلَّا امْتَسَّهَا، وَلَا جَلِيلًا إِلَّا أَجْلَاهُ، وَلَا دَقِيقًا إِلَّا أَدَقَّهُ، فَعَجِبَ  
مِنْ فَصَاحَتِهِ وَقَضَى حَاجَتَهُ.

قال عمرو بن سعد بن يسلم: كانت علي نوبة أنوبها في حرس المأمون، فكنت في  
نوبتي ليلة فخرج متفقداً من حصر، فعرفته ولم يعرفني، فقال: من أنت؟ قلت: عمرو،  
عمرك الله، ابن سعيد، أسعدك الله، ابن سلم، سلمك الله. فقال: تكلونا منذ الليلة.  
قلت: الله يكلوك قبلي، وهو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.  
فقال المأمون: الرجز:

إِنْ أَخَاكَ الْحَقُّ مِنْ يَسْعَى  
مَعَكَ

وَمَنْ يَصُرُّ نَفْسَهُ لِيُنْفَعَكَ

وَمَنْ إِذَا صَرَفُ زَمَانٍ صَدَعَكَ

بَدَدَ شَمْلَ نَفْسِهِ لِيَجْمَعَكَ

وصف الروض والزهور

وقال علي بن العباس الرومي: الكامل:

حَجَلْتُ حُدُودَ الْوَرْدِ مِنْ  
تَفْضِيلِهِ

خَجَلًا تَوَرَّدَهَا عَلَيْهِ شَاهِدُ

لَمْ يَخْجَلِ الْوَرْدُ الْمُوَرَّدُ لَوْنِهِ

إِلَّا وَنَاجِلُهُ الْفَضِيلَةُ عَانِدُ

لِلنَّرْجِسِ الْقَصْلُ الْمَبِينُ إِذَا  
بَدَا

بَيْنَ الرِّيَاضِ طَرِيفُهُ وَالنَّالِدُ

وكان ابن الرومي منعصماً للنجس، كثير الذم للورد، وكتب إلى أبي الحسن ابن  
المسيب: الكامل:

أَدْرِكُ ثِقَاتِكَ إِنْهُمْ وَقَعُوا  
فَهُمْ بِحَالٍ لَوْ بَصُرْتَ بِهَا

فِي تَرَجِسٍ مَعَهُ ابْنَةُ الْعَيْبِ  
سَبَحَتْ مِنْ عُجْبٍ وَمِنْ عَجَبِ

وَرَبَّحَائِهِمْ دَهَبٌ عَلَى دُرِّ  
 فِي رَوْضَةٍ شَنْوِيَّةٍ رَضَعَتْ  
 وَالْيَوْمَ مَدْجُونٌ فَحَرَّتْهُ  
 ظَلَّتْ تَسَامِرْنَا وَقَدْ بَعَنْتْ  
 وَكَانَ كَيْسَرِي أَبُو شِرْوَانَ مُسْتَهْتَرًا بِالنَّجَسِ، وَكَانَ يَقُولُ: هُوَ يَأْقُوتُ أَصْفَرَ، بَيْنَ دَرِّ  
 أَيْبِضٍ، عَلَى زَمْرَدٍ أَخْضَرَ، نَقَلَهُ بَعْضُ الْمُحَدِّثِينَ فَقَالَ: الطَّوِيلُ:

وَيَأْقُوتَةُ صَفْرَاءُ فِي رَأْسِ دُرَّةٍ  
 كَمَثَلِ بَيْهِ الدَّرِّ عَقْدَ نِظَامِهَا  
 كَأَنَّ بَقَايَا الطَّلِّ فِي جَنَابَاتِهَا  
 رَجَعَ إِلَى ابْنِ الرَّومِيِّ: الْكَامِلُ:

فَصَلُّ الْقَضِيَّةِ أَنْ هَذَا قَائِدُ  
 شَتَانٍ بَيْنَ اثْنَيْنِ: هَذَا مُوعِدُ  
 فَإِذَا احْتَفِظْتَ بِهِ فَاْمَتَّعْ  
 صَاحِبَ  
 يَنْهَى الْأَنْدِيمَ عَنِ الْقَبِيحِ  
 بِلِحْظِهِ  
 اطْلُبْ بَعْقَلِكَ فِي الْمَلَا حِ  
 سَمِيهِ  
 وَالْوَرْدُ إِنْ فَتَّشْتَ فَرْدُ فِي  
 اسْمِهِ  
 هَذَا النُّجُومِ هِيَ الَّتِي رَبَّيْنَاهَا  
 فَاَنْظُرْ إِلَى الْوَالِدِينَ، مَنْ  
 أَدْنَاهُمَا  
 أَيْنَ الْخُدُودُ مِنَ الْعَيُونِ  
 نَفَاسَةٌ

وَقَدْ نَاقَضَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْبَغْدَادِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ فِي هَذَا الْمَذْهَبِ، وَذَهَبُوا إِلَى  
 تَفْضِيلِ الْوَرْدِ؛ فَمَا دَانُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوهُ.  
 قَالَ أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ الْكَاتِبِ رَادًا عَلَيْهِ: الْكَامِلُ:

يَا مَنْ يُشَبِّهُ تَرْجِسًا  
 بِنَوَاطِرِ  
 إِنْ الْقِيَاسَ لِمَنْ يَصِحُّ  
 قِيَاسُهُ،  
 وَالْوَرْدُ أَصْدَقُ لِلْخُدُودِ  
 حِكَايَةٌ

مَلِكٌ قَصِيرٌ عُمُرُهُ مُسْتَأْهِلٌ  
 إِنْ قَلْتَ إِنْ الْوَرْدَ فَرْدَ فِي  
 اسْمِهِ  
 فَالشمسُ تُفَرَّدُ بِاسْمِهَا  
 وَالمشترى  
 أَوْ قَلْتَ إِنْ كَوَاكِبًا رَبَّيْنَاهَا

وَشِرَابُهُمْ دُرٌّ عَلَى ذَهَبٍ  
 دَرُّ الْحَيَا خَلْبًا عَلَى خَلْبٍ  
 فِيهِ بِمُطَّلَعٍ وَمُخْتَجِبٍ  
 ضَوْءًا يَلَاحِظُنَا بِلَا لَهَبٍ  
 مَرْكَبَةٌ فِي قَائِمٍ مِنْ رَبَّرَجِدٍ  
 تَثِيرُ فِرْنِدٍ قَدْ أَطَافَ بِعَسْجِدٍ  
 بَقِيَّةُ دَمَعٍ فَوْقَ حَدِّ مَوْرِدٍ  
 زَهْرُ الرَّبِيعِ وَأَنَّ هَذَا طَارِدُ  
 بَتَّصُرْمِ الدُّنْيَا، وَهَذَا وَاعِدُ  
 بِحَيَاتِهِ، لَوْ أَنَّ حَيَا خَالِدُ  
 وَعَلَى الْمُدَامَةِ وَالسَّمَاعِ  
 يُسَاعِدُ  
 أَبَدًا؛ فَإِنَّكَ لَا مَحَالَةَ وَاجِدُ  
 مَا فِي الْمَلَا حِ لَهُ سَمِي وَاحِدُ  
 بِحَيَا السَّحَابِ كَمَا يَرْبِي  
 الْوَالِدُ  
 شَبَّهًا بِوَالِدِهِ فَذَاكَ الْمَاجِدُ  
 وَرِيَّاسَةً، لَوْلَا الْقِيَاسُ  
 الْفَاسِدُ؟  
 دُعِجْ، تَنْبَهُ إِنْ فَهَمَكَ رَاقِدُ  
 بَيْنَ الْعَيُونِ وَبَيْنَهُ مَتَّبَاعِدُ  
 فَعَلَامَ تَجَدُّ فَضْلَهُ يَا جَاحِدُ؟  
 تَخْلِيدُهُ، لَوْ أَنَّ حَيَا خَالِدُ  
 مَا فِي الْمَلَا حِ لَهُ سَمِي  
 وَاجِدُ  
 وَالبدرُ يُشْرِكُ فِي اسْمِهِ  
 وَعَطَّارِدُ  
 بِحَيَا السَّحَابِ كَمَا يُرْبِي

الوالد

جَدَّوِي هُوَ الزَّاكِي النَجِيبُ  
الرَّاشِدُ

ولها منافعُ جمّةٌ وعَوَائِدُ  
وله فضائلُ جَمَّةٌ وَقَوَائِدُ  
وينفحه أبداً مقيم رَاكِدُ  
وصَحَّتْ عليه دلائلُ  
وشواهدُ  
وافطرُنْ فما يَصْفَرُّ إِلَّا  
الحاسِدُ

قلنا أحقهما يَطَّعَ أبيه في  
ال

رُهْرُ النجومِ تَرُوقُنَا بضِيائِها  
وكذلكِ الوَرْدُ الأنيقُ يَرُوقُنَا  
وخليفه إن غاب ناب بَنَفَعِه  
إِنْ كُنْتَ تُنَكِّرُ ما دَكَّرْنَا بعدما  
انْظُرْ إلى المَصْفَرِّ لونا  
منهما

نبذ من النظم والنثر

في صفات الثور والزهر  
قال علي بن الجهم: البسيط:

حُسْنُ الرِّياضِ وصوت الطائرِ  
العَرِدِ  
وراحتِ الرَّاحُ في أثوابِها  
الجُدِّ

لم يضحك الورْدُ إلا حين  
أَعَجِبَه  
بدا فأبَدَتْ لنا الدنيا  
محاسِنَها

إلى الترائب والأحشاءِ  
والكَبِدِ  
أو مانِعاً جَفَنَ عينيه مِن  
السُّهْدِ

وقابلته يد المُشْتاقِ تسنيدُهُ  
كأن فيه شفاءً من صَبَابِته

وسَيَّرَه مِن يَدِ موصولَةٍ بِيَدِ

بين النديمين والخلين  
مَصْرَعُهُ

إلا تبينت فيه ذلّة الحسدِ

ما قابلت طلعة الرِّيحانِ  
طلعته

تَشْفِي القلوبَ من الأوصابِ  
والكَمَدِ

قامت بحجته ریح مَعَطَرَة

بمسمع باردٍ أو صاحب نِكِدِّ  
وكان أردشير بن بابك يصف الورد ويقول: هو دُرٌّ أبيض، وياقوتٌ أحمر، على كراسي  
زبرجد أخضر، توسطه شذوْرٌ من دَهَبٍ أصفر، له رِقة الخمر، ونفحات العطر، أخذه  
محمد بن عبد الله بن طاهر فقال: البسيط:

لا عذبَ اللّهُ إِلَّا من يَعَدِّبُه

رُمُّرْدٌ وَسَطَه شَذْرٌ مِن  
الدَّهَبِ

كانهن يواقيتُ يُطِيفُ بها

مِن حَمْرَةٍ مَرَّة كالجَمْرِ في  
اللَّهَبِ

فَأشْرَبُ على مَنظَرٍ  
مستظرفٍ حَسَنٍ

وقال يزيد المهلبي: أحب المتوكل أن ينادمه الحسين بن الضحاك، الخليل البصري، وأن  
يَرَى ما بَقِيَ من ظَرْفِه وشهوته لما كان عليه، فأحضره وقد كبر وضعف، فسقاه حتى  
سكر، وقال لخدمه شفيح: اسقِه! فسقاه وحباه بوردة، وكانت على شفيح أثواب، فمدَّ  
الحسين يده إلى دُرْع شفيح، فقال المتوكل: أتخمش غلامِي بحضرتي؟ كيف لو حَلَوْتُ  
به! ما أحوجك يا حسينُ إلى أدب! وكان المتوكل غمز شفيحاً على العيب به، فقال  
حسين: سيدي، أريد دواة وقرطاساً؛ فأمر له بهما، فكتب: الطويل:

من الوَرْدِ يسعى في قَراطِقِ

وكالوردة البيضاء حيا

بأَحْمَرَ  
له عَيْنَاتٍ عِنْدَ كُلِّ تَحِيَّةٍ  
تَمَيَّتْ أَنْ أُسْقَى بِكَفِّهِ  
شَرِبَةً  
كَالْوَرْدِ  
بِكَفِّهِ يَسْتَدْعِي الْخَلِيَّ إِلَى  
الْوَجْدِ  
تَذَكَّرْنِي مَا قَدْ نَسِيتُ مِنْ  
الْعَهْدِ

سَقَى اللَّهُ عَيْشًا لَمْ أُنْمُ فِيهِ  
لَيْلَةً  
مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا مِنْ حَبِيبٍ عَلَى  
وَعْدِ

ثم دفع الرقعة إلى شفيع، وقال: ادْفَعُهَا إِلَى مَوْلَاكَ؛ فَلَمَّا قَرَأَهَا اسْتَمْلَحَهَا، وَقَالَ: لَوْ  
كَانَ شَفِيعٌ مِمَّنْ تَجُوزُ هَبْتُهُ لَوْهَبْتُهُ لَكَ، وَلَكِنْ بَحْيَاتِي يَا شَفِيعَ إِلَّا كُنْتَ سَاقِيَهُ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ!  
وَأَمْرٌ لَهُ بِمَالٍ كَثِيرٍ حَمَلَ مَعَهُ لَمَّا انْصَرَفَ.

قال يزيد المهلبي: فَصَرْتُ إِلَى الْحُسَيْنِ بَعْدَ انْصِرَافِهِ مِنْ عِنْدِ الْمُتَوَكِّلِ بِأَيَّامٍ، فَقُلْتُ:  
وَيْحَكَ! أَنْدَرِي مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: لَا أَدْعُ عَادَتِي بِشَيْءٍ، وَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكَ: مَجْزُوءُ الْخَفِيفِ:

لَا رَأَى عَطْفَةَ الْأَحِبِّ  
أَصْعُرُ السَّاقِيَيْنِ أَشْ  
لَوْ تَرَاهُ كَالظَّبِيِّ يَسُنُّ  
خَلَّتْ عُصْنًا عَلَى كَتَبِ

قال الصولي: وَكَانَ الْأَوَّلُ مِنْ أَيْبَاتِ الْحُسَيْنِ

بِيضَاءٍ فِي حُمْرِ الثِّيَابِ كَوَرْدَةٍ  
تَهْتَرُ فِي عَيْدِ الشَّبَابِ إِذَا  
مَسَّتْ  
بَيَّةٌ مَنْ لَا يَصْرُخُ  
كُلُّ عِنْدِي وَأَمْلَحُ  
نَحْ طَوْرًا وَيَبْرَحُ  
بِ بَتَّورٍ يُوشِحُ

من قول العباس بن الأحنف: الكامل:

بِيضَاءٍ بَيْنَ شَقَائِقِ النِّعْمَانِ  
مِثْلَ اهْتِرَازِ تَوَاعِمِ الْأَعْصَانِ

قال أبو بكر الصولي: كَانَ عِنْدَ الْخَصِيِّ الْوَزِيرِ ظَبِيٍّ دَاجِنٍ وَيُيَبُّ فِي دَارِهِ، فَعَمِدَ إِلَى  
نَيْلُوفَرٍ فَأَكَلَهُ، فَاسْتَمْلَحَ الْغَزَالَ وَأَنْسَهُ، وَقَالَ: لَوْ عَمِلَ فِي أَنْسِ هَذَا الْغَزَالِ وَفَعَلَهُ  
بِالنَيْلُوفَرِ لَاشْتَمَلَ الْعَمَلَ عَلَى مَعْنَى مَلِيحٍ! فَبَلَغَ الْخَبْرَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ ابْنَ مُحَمَّدِ بْنِ  
عُرْفَةَ نَفْطُوبِهِ، فَبَادَرَ لئَلَّا يُسْبِقَ، وَعَمِلَ أَيْبَاتًا أَوْلَاهَا: الطويل:

جَرَتْ ظَبِيَّةٌ عَنَاءً تَرَعَى  
بَرُوضَةَ

في أبيات غير طائفة، فاستبرد ما أتى، قال الصولي: فقلت: الطويل:

وَبَيْلُوفَرٍ يَحْكِي لَنَا الْمِسْكَ  
طَيْبُهُ

قَدْ اجْتَنَّ خَوْفَ الْحَادِثَاتِ  
بِجُنَّةٍ

تُرَكَّبُ كَالْكَاسَاتِ فِي  
دَهْبِيَّةٍ

وَأَلْبَسُ ثَوْبًا يَفْضُلُ اللَّحْظَ  
حُسْنُهُ

كَمَا عَيَّنْتُ عَيْنٌ بِحَدِّ مَوْرِدِ  
عَذْتُهُ أَهَاضِيبُ السَّمَاءِ  
بَدَّرَهَا

فَفَضَّلَ عَنْهُ الْحُسْنَ فِي كُلِّ  
مَشْهَدِ

وَفِي وَسْطِهِ مِنْهُ أَصْفَرَاؤُ  
بَرِيئُهُ

كِيَا قَوْتِي زَرْقَاءَ فِي رَأْسِ  
عَسْجِدِ

حَكِي طَرْفٍ مِنْ أَهْوَى وَحُسْنِ المُقَلِّدِ ولم يَسْتَعِنْ فِي أَخْذِ الكَاسِ بِالْيَدِ وقال أبو محمد الحسن بن علي بن وكيع: الكامل:	أَطَافَ بِهِ أَحْوَى المَدَامِ شَادِنُ كَمَا أَخَذَ الظَّمَانُ بِالفَمِ كَاسَهُ وقال أبو محمد الحسن بن علي بن وكيع: الكامل:
نَاهِيكَ مِنْ يَوْمِ أَغْرَ مُحْجَلِ خَلَعًا قَبِيْنًا مُمَسِّكِ وَمُصَنِّدِ بموردٍ وَمُعْصِفِرٍ وَمُكْحَلِ مِنْ شُرْبِ كَاسَاتِ العَيُونِ الهَطَلِ فَهَدَّتْ لَعِينِ النَّاطِرِ الْمَتَامِلِ	يَوْمٌ أَتَاكَ بَوَجْهِهِ المَتَهَلِّلِ خَلَعَ العِمَامُ عَلَى أَحْضِرَارِ سَمَائِهِ وَكَسَا الرُّبَى حُلَلًا تَخَالَفَ شَكْلَهَا وَتَمَايَلَتْ فِيهِ قَدُودٌ غَضُونِهِ وَعَلَا عَلَى الأشْجَارِ قَطْرُ سَمَائِهَا يَحْكِي قَبَابَ رُؤْمِدٍ قَدْ كَلَلَتْ
بِمَنْظَمٍ مِنْ لَوْلُو وَمُقَصِّلِ يَرْنُو إِلَيْكَ بَعِينِ أَكْحَلِ أَقْبَلِ وَتَرَاهُ مُنْتَقِبًا بِحُمْرَةِ مُخْجَلِ وَجْهَ الخَرِيْدَةِ فِي الخَمَارِ الصَّنْدَلِي فِي كُلِّ أَنْوَاعِ المَلَابِسِ تَجْتَلِي مِنْ صِنْعَةِ البَرْدَانِ أَوْ قُطْرَبِلِ	وَأَتَاكَ نَوُورُ البَاقِلَاءِ كَأَنَّمَا الْوَرْدُ يُخْجَلُ كُلِّ نَوْرِ طَالِعِ وَحَكِي بِيَاضِ الطَّلَعِ فِي كَافُورِهِ فَكَأَنَّمَا الدُّنْيَا عَرُوسٌ أَقْبَلَتْ فَاشْرَبْ مُعْصَفَرَةَ القَمِيصِ سُلَافَةً وقال أبو الفتح البستي: الكامل:
مَرَجَ السَّحَابُ ضِيَاءَهُ بِظِلَامِ وَالْعَيْمُ يَبْكِي مِثْلَ طَرْفِ هَامِ	يَوْمٌ لَهُ فَضْلٌ عَلَى الأَيَامِ فَالْتَرَقُّ يُخْفِقُ مِثْلَ قَلْبِ هَائِمِ
وُصِلَتْ سِجَامُ دَمُوعِهِ بِسِجَامِ وَبَهَنَ تَصْفُو لَدَّةُ الأَيَامِ وَمَغْنِيَا عَرْدًا، وَكَأْسَ مُدَامِ	وَكَأَنَّ وَجْهَ الأَرْضِ حَدْ مَتِيمِ فَاطْلُبْ لِيَوْمِكَ أَرْبَعًا: هُنَّ المُنَى وَجْهَ الحَبِيبِ، وَمَنْظَرًا مَسْتَشْرِقًا، وقال الأمير أبو الفضل الميكالي: الكامل:
تَرَكَتْهُ مَجْرُوحًا بِلَا إِعْمَادِ صَحِيكْتَ لِسَاجِمِهَا رَبِّي الْأَنْجَادِ تُرْهِى بِنُوبَتِي حُمْرَةَ وَسَوَادِ	سَلَّ الرِّبِيْعُ عَلَى السَّنَاءِ صَوَارِمًا وَبَكَتْ لَهُ عَيْنُ السَّمَاءِ بِأَدْمَعِ وَوَدَّتْ شَقَائِقُهَا خِلَالَ رِيَاضِهَا

فكأنها يَنْثُ الشتاء توجَعَتْ  
فَقَنُوءُ حُفَرَتِهَا خِصَابُ نَجِيعِهِ  
وقال: الطويل:

لَمُصَابِهِ كَشَقِيقَةِ الْأَوْلَادِ  
وَسِوَادُ كُسُوتِهَا لِبَاسُ جِدَادِ

تصوعُ لنا كفُّ الربيعِ حدائقا  
وفيهن أنوارُ الشقائقِ قد  
حَكَتْ

كعقد عَتِيقٍ بين سِمَطٍ لآلي  
حُدُودَ عِذَارَى نَقَطتِ بَعَوَالِي

وقال: المتقارب

كَأَنَّ الشَّقَائِقَ إِذْ أَبْرَزَتْ  
قِطَاعُ مِنَ الْجَمْرِ مَشْبُوبَةٌ  
وقال في حديقة ربحان: الكامل:

غِلَالَةٌ دَادٍ وَتَوْبًا أَحْمَمٌ  
فَأَطْرَافُهَا لَمَعَ مِنْ حَمَمِ

أَعَدَدْتُ مُحْتَفَلًا لِيَوْمِ  
قَرَاغِي

رَوْضًا عَدَا إِنْسَانَ عَيْنِ  
الْبَاغِي  
فِيهِ لِكَأْسِ الْأَنْسِ أَيٌّ  
مَسَاغِ

رَوْضَ بَرُوضٍ هُمُومِ قَلْبِي  
حُسْنُهُ

حَيْثُ بِمِثْلِ سِلَاسِلِ الْأَصْدَاغِ

فَإِذْ بَدَتْ قِصْبَانُ رِيحَانٍ بِهِ  
وقال في النرجس: المجتث:

يُرْهِى بِحَسَنِ وَطِيبِ  
عَلَى قِصْبِ رَطِيبِ  
يُرْبِنُهُ لِلْقَلُوبِ  
حُرُوفَ بَرُّ حَيْبِ

أَهْلًا بِنَرْجِسِ رَوْضِ  
يَزُؤُ بَعَيْنِي غِزَالِ  
وَفِيهِ مَعْنَى خَفِيٍّ  
تَصْحِيفُهُ إِنْ نَسَفَتْ أَلِ

وقال: الطويل:

يَقُومُ بَعْدَ اللَّهْوِ عَنِ خَالِعِ  
الْعُدْرِ  
كِقَامَةِ سَاقٍ فِي عِلَائِلِهِ  
الْحُضْرِ

وَمَا ضَمَّ شَمَلَ الْأَنْسِ يَوْمًا  
كِنَرْجِسِ  
فَأَحْدَاقُهُ أَحْدَاقُ تَبْرِ،  
وَسَاقُهُ

وقال البحتري: الطويل:

إِلَى الْجِفِّفِ مِنْ رَمْلِ اللَّوِيِّ  
الْمِتْقَاوِدِ

سَقَى الْغَيْثُ أَكْنَافَ اللَّوِيِّ مِنْ  
مَحَلَّةِ

عَلَيْهِ بِمَحْمَرٍ مِنَ النُّورِ  
جَاسِدِ

وَلَا زَالَ مَخْضَرُ مِنَ الرُّوْضِ  
يَانِعِ

دَمُوعِ التَّصَابِي فِي خُدُودِ  
الْخِرَائِدِ

شَقَائِقُ يَحْمِلُنَ النَّدَى  
فَكَانَهُ

وَمَنْ نَكَتِ مُصْفَرَةً  
كَالْقَرَائِدِ

وَمَنْ لَوْلُو فِي الْأَقْحَوَانِ  
مَنْظَمِ

دِنَانِيرُ تَبْرِ مِنْ تُؤَامِ وَفَارِدِ

كَأَنَّ جَنَى الْحُودَانِ فِي رَوْتَقِ  
الضْحَى

شَآيِبُ مَجْتَازِ عَلَيْهَا  
وَقَاصِدِ

إِذَا رَاوَحَتْهَا مُزَنَّةٌ بَكَرَتْ لَهَا

بِكُلِّ جَدِيدِ الْمَاءِ عَدْبِ  
الْمَوَارِدِ

رِبَاعِ تَرَدَّتْ بِالرِّيَاضِ مَجُودَةً

تَلِيهَا بِتِلْكَ الْبَارِقَاتِ

كَأَنَّ يَدَ الْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ

أقبلتُ  
قال أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه: قال لي البحري وقد اجتمعنا على حلوة عند المبرد وسلكنا مسلماً من المذاكرة: أشعرت أني سبقت الناس كلهم إلى قولي: الطويل:

شقائقٍ يحملنَ الندى  
دموعُ التصابي في حدودِ  
فكأنه

كأن يد القنح بن خاقان  
أقبلتُ

هكذا أنشد، فاستحسن ذلك المبرد استحساناً أسرف فيه، وقال: ما سمعت مثل هذه الألفاظ الرطبة، والعبارة العذبة، لأحدٍ تقدّمك ولا تأخر عنك. فاعتزته أرتجيه جربها رداء العجب؛ فكأنه أعجبي ما يُعجب الناس من مراجعة القول؛ فقلت: يا أبا عبادة، لم تسبق إلى هذا، بل سبقك سعيد بن حميد الكاتب إلى البيت الأول بقوله: الكامل:

عذبَ الفراقُ لنا قبيلَ وداعنا  
وكأنما أثرُ الدموعِ بخدّها  
ثم اجترعناه كسماً نافع  
وشركَ فيه صديقنا أبو العباس الناشئ بما أنشدنيه أنفاً: المتقارب:

بكتَ للفراقِ وقد راعني  
بكاءُ الحبيبِ لئعدِ الديارِ  
كأنَّ الدموعَ على خدّها  
بقية طلّ على جُنارِ

وما أساء علي بن جريح، بل أحسن في زيادته عليك بقوله: المنسرح:

لو كنتَ يومَ الوداعِ شاهداً  
لم ترَ إلاَّ دموعَ باكيةٍ  
وهنَ يُطفينَ غلّةَ الوجودِ  
تسْفحُ من مُقلّةٍ على خدِّ  
كأن تلكَ الدموعَ قطرٌ تدّي  
يقطرُ من ترّجسٍ على وِردِ

وسبقك أبو تمام إلى معنى البيتين معاً بقوله: الكامل:

من كل زاهرةٍ تفرّق  
فكأنها عينٌ إليه تحدرُ  
بالندى

تبدو ويحجبها الجميمُ كأنها  
خلقٌ أطل من الربيع كأنه  
عذراء تبدو تارة وتخفرُ  
خلقُ الإمامِ وهديُّه  
المتنشرُ

في الأرض من عدلِ الإمام  
وجوده  
ومن الربيع الغض سرح في  
يزهر

يُنسي الربيع وما يروض  
جودة  
أبدأً على مَرّ الليالي يُذكرُ

قال: فشوق ذلك عليه، وحلّ حبوته ونهض، فكان آخر عهدي بمؤانسته وعلّظ ذلك على محمد بن يزيد، وقدح ذلك في حالي عنده.

وقال البحري يمدح الهيثم بن عثمان الغنوي: الطويل:

ألسنت ترى مدّ القُراتِ  
جبال شروزي جئن في البحر  
كأنه  
عوماً

وما ذاك من عاداته غير أنه  
رأى شيمَةً من جاره  
فتعلّمَا

وقد نبه التوروز في عبّش  
الدجى  
أوائلَ وِردِ كُنّ بالأمس نوماً

يُفتحها برْدُ الندى فكأنه  
ومن شجرٍ ردّ الربيع لِبأسه  
بيث حديثاً بينهنّ مكثّما  
عليه كما تشّرت بُرداً

مُنْمَنَمًا  
وكان قَدَى للعين مذ كان  
مُحْرَمًا  
وما يَمْنَعُ الأوتار أن تترنمًا  
وراحوا بُدوراً يستجثون  
أَنْجَمًا  
فما اسطَعْنَ أن يُخَدِّتْنَ فيك  
تكرما

بجثةٍ فجرث راحاً ورِيحَاتَا  
سِرّاً بها وتداعى الطير  
إعلاناً  
تَسْمُو بها وتَمْسُ الأَرْضُ  
أحياناً  
والعُصْنَ من هَزَّةٍ عِطْفِيهِ  
تَسْوَاتَا

فيها الصُّبُوحُ صفة جامعة، إذا قال رجز:  
وتَشَّرَ المنثور بُرْدًا أَصْقَرَا  
واعْتَنَقَ الورد اعتناق الوامقِ  
وَحُدْمَ كهامةِ الطاووسِ  
منظم كِقِطْعِ العِقْيَانِ  
قد استمد الماءَ من تُرْبٍ تَدِ  
وَجَدُولٍ كالبَرْدِ الحليِّ  
كأنه مصاحِفُ بيضِ الوَرَقِ  
تَخَالها تجسمت من نور  
قد حَجَل اليابس من أصحابه  
مثل الدبابيس بأيدي الجند  
كقطنٍ قد مسه بعض بلل  
ودَخَلَ الميدان في صَمَانِه

كأنها جَمَاجِمُ من عَنَبِرِ  
جمجمة كهامةِ الشَّمَّاسِ  
وجوهرٍ من زهرٍ مختلفِ  
أو مثل أعراف ديوك الهند  
قد صُقِلَتْ أنواره بالقطر

كما رَضِيَ الصَّدِيقُ عن

أَحَلَّ فأبدي للعيونِ  
بَسَّاشَةً  
فمما يمنع الراح التي أنت  
خَلَّها  
وما زلت خِلاً للندامى إذا  
اعْتَدُوا  
تَكَرَّمْتَ مِنْ قَبْلِ الكؤوسِ  
عليهم  
وقال آخر: البسيط:

حَيْثُكَ عِنا شمال طافَ  
طائِفُهَا  
هَبْتُ سُخَيْراً فَنَجَى العُصْنُ  
صاحبه  
وَرُوقٌ تَعْنَى على حُضِرِ  
مُهَدَّلَةٍ  
تَخَالُ طائرها تَشْوَانِ من  
طَرَبِ

ولابن المعتز في أرجوزته البستانية التي دم  
أَمَا تَرى البُسْتَانَ كيف تَوَّرا  
وضَحَكَ الوردَ إلى الشقائقِ  
في رَوْضَةٍ كحلية العروسِ  
وياسمين في دُرَى الأَعْصَانِ  
والسُرُو مثل قَصَبِ الرِّبْرِجِدِ  
على رياض وثرى تَدِي  
وَقَرَّحَ الخَشَّاشَ جَيْبًا وَقَتَّقُ  
أو مثل أقداحِ مِنَ البَلُّورِ  
وبَعْضُهُ عُريَانُ من أثوابه  
تُبْصِرُهُ عند انتشار الوردِ  
والسُّوسَنِ الأزار مَنشورِ  
الحُلَلِ  
نورَ في حاشيتي بُسْتَانِه

وقد بدت فيه ثمار الكنكرِ  
وحلق البهار بين الآسِ  
خلال شيخ مثل شيب التَّصْفِ  
وجُلنار كاحمرار الوردِ  
والأقحوان كالثنايا العُرِّ

وقال أبو الفتح كشاجم: الوافر:  
ورَوْضٍ عن صَنِيعِ الغيثِ راضٍ

الصديق

أتمّ نه الصنعة في العَبوق  
 كأنّ تراه من مسك فتيق  
 بقايا الدمع في خدّ مشوق  
 فمالت مثل شراب  
 الرّجيق  
 مُحَصَّرة شقائق من عقيق  
 صنيع اللطم في الخدّ  
 الرّقيق

إذا ما القطر أسعدّه  
 صبوحاً

يُعبّر الرّيح بالتفحات ريحاً  
 كأنّ الطلّ منتشرأ عليه  
 كأنّ غصوته سُقيت رحيقا  
 كأنّ شقائق النعمان فيه  
 يُدكّرني بتفسّجه بقايا

وقال: الرجز:

متصل الويل سريع الركض  
 مُتصلاً بطوله والعرض  
 ثم سما كاللؤلؤ المرّقض  
 في حليها المُحمّر والمبيّض  
 مثل الخدود نُقّشت بالعضّ  
 ونرجس ذاك النسيم بض  
 ترنو فيعشها الكرى فتعضي

عَيْتُ أتنا مؤزناً بالحفّض  
 دنا فخلّناه دوين الأرض  
 إلغاً إلى ألف يسرّ يُفضي  
 فالأرض تُجلى بالنبات الغصّ  
 من سوسن أحوى وورد عصّ  
 وأفحوان كاللجين المخض  
 مثل العيون رتقت للغمض

جملة من هذا النوع لأهل العصر

قال أبو فراس الحمداني: مجزوء الرجز أو مجزوء السريع:

على أعالي شجره  
 أحمره وأصفره  
 في خرقة مُعصّره

وجلنار مُشرق  
 كأنّ في رؤوسه  
 قرّاضة من ذهب

وقال: الطويل:

بأنواع حلي فوق أثوابه  
 الحُصير

فضول ذيول الغانيات من  
 الأزير

قطفت قبل عقديها: الرجز:  
 كأنها بين الغصون الحُصير  
 قد خفّفته لقوة بوكر  
 أو ببت في تربة من جمر  
 لو كف عنها الدهر صرّف  
 الدهر

ويوم جلا فيه الربيع رياضه

كأن ذيول الجلنار مُطلّة

وقال أبو القاسم بن هانئ، يصف زهرة رمان  
 وبنّت إليك كالشباب التّصير  
 جنانُ باز أو جنان صفر  
 كأنما سحّت دماً من تحر  
 أو سُقيت بجذول من حمر

جاءت كمثل التهد فوق  
 الصدر

في مثل طعم الوصل بعد  
 الهجر

ولهم في هذا المعنى

روضة رقت حواشيها، وتأنق واشبها. روضة كالعقود المنظمة، على البرود  
 المتممة. روضة قد راضتها كف المطر، ودبجتها أيدي الندى. أخرجت

الأرضُ أسرارها، وأظهرتْ يدُ الغيثِ آثارها، وأبدتِ الرياضُ أزهارها.  
الرياض كالعرائس في خليها ورخارفها، والقيان في وشيها ومطارفها،  
باسطة زرابتها وأنماطها، ناشرة حبراتها ورباطها، رَاهية بحمرائها  
وصفرائها، تائهة بعيديها وعُدرائها، كأنما احتفلت لوقد، أو هي من حبيب  
على وعد. روضة قد تَضَوَّعت بالأرج الطيب أرجاؤها، وتبرجت في ظلل  
الغمام صحراؤها، وتنافجت بنوافج المسك أنوارها، وتعارضت بغرائب  
النطق أطيارها. بستان رِقَّ نورُه النضيد، وراق عودُه النضير. بستان عودُه  
خضر، ونوره تضر، ويُبَّعه خَصِك، وماؤه خَصِر. بستانُ أرضه للبقل  
والريحان، وسماؤه للنخل والرمان. بستان أنهاره مفروزة بالأزهار،  
وأشجاره مُوقَّرة بالثمار. أشجارُ كان الحور أعارتها فُدودها، وكسَّتها  
بُرودها، وحلتها عقودها. الربيعُ شبابُ الزمان، ومقدمة الورد والريحان.  
زمنُ الورد مَرموق، كأنه من الجنة مسروق. قد ورد كتاب الورد، بإقباله  
إلى أهل الودِّ، إذا وَرَدَ الورد، صدرَ البرد. مرحباً بإشراف الزهر، في  
أطراف الدهر، وأنشد: الطويل:

سقى الله وَرْدًا صارَ حَدَّ ربيعنا  
فقد كان قبل اليوم ليس له حَدُّ

كأن عَيْنَ النرجس عَيْن، وورقه ورق، النرجس نزهة الطرف، وظرفُ  
الطرف، وغذاء الروح، شقائق كتيجان العقيق على رؤوس الزنوج، كأنها  
أصداعُ المسك على الوجَّات الموردة. شقائق كالزنوج تجارحت وسالت  
دماؤها، وصعقت فسال دماؤها. كأن الشقيق جامٌ من عقيق أحمر، مُلئت  
قرارته بمسك أدقر. الأرض زمردة، والأشجار وشي، والماء سيوف،  
والطيور قيمان. قد غردت خطباءُ الأطيار، على منابر الأنوار والأزهار. إذا  
صدح الحمام، صدع الحمام قلبَ المستهام. انظر إلى طربِ الأشجار لغناء  
الأطيار. ليس للبلابل كغناء البلابل، وخمر بابل.  
ولهم فيما يتعلق بهذا النحو

في وصف أيام الربيع

يوم سماؤه قاحتية، وأرضه طاؤسية. يومٌ جلايبُ غيومه رواق، وأردية نسيمه رفاق.  
يوم مُمسك السماء، مُعصفرُ الهواء، مُعَبَّرُ الرُّوض، مُصنِّدُ الماء. يوم زرَّ عليه جيب  
الصَّبَاب، وانسحب فيه ديلُ السحاب. يوم سماؤه كالخز الأذكن، وأرضه كالديباج  
الأخضر: الخفيف:

شادنٌ يَرْتعي القلوب  
ببغدا  
أقبلت والربيعُ يختالُ في  
الرَّو  
ذو سماءٍ كأذكنِ الخُرِّ قد  
غي  
فتجلى عن كلِّ ما يتمنى  
فظللنا في نزهتين وفي  
حُس  
بقناة تسرُّنا في المَتَّاني  
أخذت من رؤوس قومٍ  
كرامٍ  
د ولا يَرْتعي الكلا بالنباج  
ض وفي المزن ذي الحيا  
التَّجَّاج  
مَت وأرضٍ كأخضرِ الديباج  
موعد الكدخداء والهيلاج  
نين بين الأرمال والأهزاج  
وعَجُوزٍ تسرُّنا في الرُّجاج  
ثارها عند أَرْجُل الأعلج

يوم حَسَنَ الشَّمائل، مُمتِعَ المَخايل، سَجَسَجَ الهِواء، مَوْنِقَ الأَرْجاءِ. يوم تَبَسَّمَ عنهُ الرِّبْعُ، وَتَبَرَّجَ عنهُ الرُّوضُ المَرِيع. يوم كَأَنَّ سَماءَهُ ما تَمَّ تَباكِي، وَأَرْضُهُ عَرُوسٌ تَتَجَلَّى. يوم مَشْهُرَ الأَوْصافِ، أَغْرَّ الأَطْرافِ. يوم يُعْفِي فِيهِ النُّورُ وَيَنْتَبِه، وَتُسْفِرُ فِيهِ الشَّمْسُ وَتَنْتَقِبُ، وَتَعْتَبِقُ العُصُونُ وَتَفْتَرِقُ، وَيُوشِي العِيمُ وَيَنْسَكِبُ. يوم غابَ تَحْسُهُ وَهَوَى، وَطَلَعَ سَعْدُهُ وَاعْتَلَى، وَالزَّمانُ ساقِطَةٌ جِمارُهُ، مُفَعَّمَةٌ أَنهارُهُ، مُوْنِقَةٌ أَشجارُهُ، مَعْرَدَةٌ أَطيارُهُ. نحنُ فِي غَبِّ سَماءٍ، قَدْ أَقْلَعْتَ بَعْدَ الأَرْتِواءِ، وَأَقْشَعْتَ عِنْدَ الاستِغناءِ، فَالنبْتُ حَاضِلٌ مِمطُورٌ، وَالتَّقَعُّ سِياكُنَ مَحْضُورٌ. يوم جَوَّهُ طارُونِيٍّ، وَأَرْضُهُ طاوِسيِّيٍّ. يوم دَجَّئُهُ عاكِفٌ، وَقَطْرُهُ وَاكِفٌ. يومٌ من أعيادِ العُمَرِ، وَأَعْيانِ الدَّهْرِ. ولَهُم في تشبِيهِ مَحاسِنِ الرِّبْعِ بِمَحاسِنِ الإِخوانِ والسَّادَةِ:

عَيْتٌ مَشَبِّهَةٌ بِكَفِّكَ، وَاعْتَدالُهُ مُصَافٍ لِخُلُقِكَ، وَرَهْرَهُ مُوازٍ لِتَشْرِكِكَ، كَأَما اسْتَعارَ حَللَهُ من شَيْمَتِكَ، وَخَلْبَتَهُ من سَجِيَّتِكَ، واقتَبَسَ أنوارَهُ من مَحاسِنِ أَيامِكَ، وَأَمطارَهُ من جُودِكَ وَإِنعامِكَ. قَدِمَ الرِّبْعُ مُنْتَسِباً إِلَيَّ خَلْقِكَ، مُكْتَسِباً مَحاسِنَهُ من طَبْعِكَ، مَتَوَشَّحاً بِأَنْوارِ لَفْظِكَ، مَتَوَصَّحاً بِأَنْوارِ لَسانِكَ وَبَدِكَ. أنا فِي بُستانِ أَذْكَرَنِي وَرَدُّهُ المَفْطِحِ بِخَلْقِكَ، وَجَذولُهُ السَّابِحِ بِطَبْعِكَ، وَرَهْرَهُ الجَنِيِّ بِقَرْبِكَ. أنا فِي بستانِ كَأَنَّهُ من شَمائِلِكَ سَرِقٌ، وَمن خُلُقِكَ خَلِيقٌ، وَقَدْ قابَلتَنِي أَشجارٌ تَتَمائِلُ فَتَذْكَرَنِي تَبْرِيحِ الأَحبابِ، إِذا تداوَلتَهُم أَيْدِي الشَّرابِ، وَأَنهارُ كَأَنَّهُا من يَدِكَ تَسِيلُ، وَمن راحَتِكَ تَفِيضُ. أنا على حَافَةِ حَوْضِ أَزْرَقٍ كَصَفاءِ مودَتِي لَكَ، وَرِقَّةِ قولِي فِي عَتَبَتِكَ. وقال ابنُ عَوْنِ الكاتِبِ: الخَفِيفُ:

جاءنا الصومُ في الرِّبْعِ فَهَلَّا  
تار رِبْعاً من سائِرِ الأَرْباعِ

وكانَ الرِّبْعُ فِي الصَّومِ  
فوقِ نَخْرٍ غَطاهُ فَضْلُ قَناعِ

وكتب أبو الفتح كشاجم إلى بعض إخوانه يستدعيه إلى زيارته في يوم شك: مجزوء الكامل:

هو يوم سَنَيْكَ يا عِل	ي وبشرة مذ كان يحَدَّر
والجوُّ حَلَّتْهُ مَمَس	كة ومطرُفَه مَعنِبِر
والماءُ فَضَيَّ القَمِي	يَصُ وَطَيْلَسانُ الأَرْضِ أَخْضَر
تَبَتْ يَصَعِدُ رَهْرُهُ	في الرُّوضِ قَطِرَ نَدَى تَحَدَّر
ولنا فَضَيْلاتُ تَكُو	ن لِيومِنا قَوتاً مُقَدَّر
ومدامَةُ صَفراءُ أَد	رَكَ عُمَرُها كِسْرِي وَقِيسِر
فانْشَطْ لَنا لِتَحْتِ مِنْ	كاساتِنا ما كانَ أَكْبَر
أو لا فإِنَّكَ جاهِلٌ	إِنْ قَلتِ إِنَّكَ سَوفِ تَعَدَّر

وكتب بديع الزمان إلى بعض أهل هَمَدان: كتابي - أطال الله بقاءك - عن شهر رمضان، عَرَفنا اللهُ بِرِكةِ مَقَدَمِهِ، وَبِمَنْ مَخْتَمِهِ، وَخَصَّكَ بِتَقْصِيرِ أَيامِهِ، وَإِتمامِ صِيامِهِ وَقيامِهِ؛ فَهُوَ - وَإِنْ عَظَمَتْ بِرِكتُهُ - ثَقِيلٌ حَرِكتُهُ، وَإِنْ جَلَّ قَدْرُهُ بَعِيدَ قَعْرِهِ، وَإِنْ عَمَتْ رَافَتُهُ، طَوِيلَ مَسافَتِهِ، وَإِنْ حَسَنَتْ قَرِبتَهُ، شَدِيدَ صَحْبَتِهِ، وَإِنْ كَبُرَتْ حَرِمتُهُ كَثِيرَ حَشِمتِهِ. وَإِنْ سَرَّنا مُبْتَداهُ فَلَنْ يَسُوعِنا مَنتَهاهُ فَإِنْ حَسَنَ وَجْهُهُ فَلَيْسَ يَفْجَحُ قَفاهُ، وَما أَحْسَنَهُ فِي القَدالِ، وَأَشَبَّهُ إِدبارَهُ بِالإِقبالِ، جَعَلَ اللهُ قَدومَهُ سَبَبَ تَرَحُّالِهِ، وَبَدْرَهُ فِداءً هِلالِهِ، وَأَمَدَّ فَلكَهُ

تحريكاً، بتقضي مُدَّتِه وَثِيكاً، وأظْهَر هلالَه نحيفاً، ليزِفَ إلى اللذاتِ زفيفاً،  
وعفا الله عن مَرَح يكرهه، ومُجُون يُسْخِطُه.  
عَوَّل البديع في هذا الكلام على قول أبي الفضل بن العميد في رسالة له في  
مثل ذلك: إِسْأَل الله أن يَعَرِّقَنِي بركته، ويلقيني الخير في باقي أيامه  
وخاتمته؛ وأرغب إليه في أن يقربَ على القَلَلِ دورَه، ويقصره سَيَرَه،  
ويخَفِّ حَرَكتَه، ويعجل تَهْصَتَه، ويتقص مسافةَ فلكه ودَائِرَتِه، ويزيل بركةَ  
الطول عن ساعاته، ويردَّ عليَّ عَرَّةَ شِوَال، فهي أسَى الغررِ عندي، وأقرُّها  
لعيني؛ ويطلعَ بَدْرَه، ويريني الأيديَ متطلبةَ هلاله ببشر، وبسمعني النعي  
لشهر رمضان، ويعرض عليَّ هلاله أخفى من السحر، وأظلم من الكفر،  
وأنحف من مجنون بني عامر، وأبلى من أسير الهجر، وأستغفر الله جل  
وجهه مما قلت إن كرهه، وأستعفيه من توفيقه لما يذمه، وأسأله صفحاً  
يُفيضه، وعَفواً يوسعه، إنه يعلم حَائِنَةَ الأعين وما تخفي الصدور.  
من أخبار المأمون والأمين

قال المأمون لطاهر بن الحسين: صِف لي أخلاق المخلوع. قال: كان واسعَ  
الصدر، صَيَق الأَدَب، يبيح من نفسه ما تَأْتفه هَمم الأحرار، ولا يُضْغِي إلى  
نصيحة، ولا يقبل مَشُورَة، يستبدُّ برأيه، ويبصر سوءَ عاقبته، فلا يردُّه ذلك  
عما يهْمُ به. قال: فكيف كانت حروبه؟ قال: كان يجمعُ الكتائب بالتبذير،  
ويفرِّقها بسوء التدبير. فقال المأمون: لذلك حلَّ ما حلَّ به؛ أمَّا والله لو ذاق  
لذاتِ النَّصائح، واختار مَشُوراتِ الرجال، ومَلَكَ تَفْسَه عن شهواتها، لما ظفَرَ  
به.

ولما عقد الرشيدُ البيعةَ للأمين وهو أصغرُّ من المأمون لأجل أمه زُبَيْدَة،  
وكلام أخيه عيسى بن جعفر، وقدمه على المأمون، جعل يرى فَضْلَ عقله  
فيندَم على ذلك، فقال: الطويل:

لقد بان وجهُ الرَّأيِ لي عَيَّرَ	عُلِبْتُ على الأَمْرِ الذي كان
أَتَّني	أَحْرَمَا
فكيف يَرُدُّ الدَرَّ في الصَّرَعِ	تَوَزَّعَ حتى صار تَهْبَأً
بعدا	مَقْسَمَا
أَخَافُ التَّوَاءَ الأَمْرِ بعد	وَأَنْ يُنْقَضَ الحَبْلُ الذي كان
استوائه	أَبْرَمَا

قال أسد بن يزيد بن مزيد: بعث إليَّ الفضلُ بن الربيع بعد مقتل عبد الرحمن الأنباري،  
قال: فأتيته وهو في صَحْن داره، وفي يده رُفْعَة قد عُصِبَ لما نظرَ فيها، وهو يقول:  
يَنَامُ تَوَمَّ الطَّرِبَانِ، وينتبه انتباهَ الذئبِ، هَمَّتُه بَطْنُه، ولذته قَرْجُه، لا يفكر في زوال  
نعمة، ولا يتروى في إمضاء رأي ولا مكيدة، قد شمر له عبدُ الله عن ساقه، وفوق له  
أسد سهامه، يرميه على بعدِ الدار بالحنفِ النافذ والموت القاصد، قد عبى له المنايا  
على متون الخيل، وناطَ له البلاءُ في أسنة الرماح وشفار السيوف، ثم تمثَّل بشعر  
البيعت: الطويل:

يقَارِعُ أتراك ابن خاقانَ ليله	إلى أن يرى الإصباح لا يتلعثمَ
فيصبح في طول الطراد	نحيل، وأضحى في النعيم
وجِسْمه	أصمم
فشتان ما بيني وبين ابن	أمية في الرزق الذي الله
خالد	يقسم

ثم قال: يا أبا الحارث، أنا وأنت نجري إلى غاية إن قصرنا عنها ذمنا، وإن اجتهدنا في بلوغها انقطعنا، وإنما نحن شعبة من أصل، إن قوي قوبنا، وإن ضَعَفَ ضعفنا؛ إن هذا الرجل قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكفاء؛ يشاور النساء، ويعتمد على الرؤيا، وقد أمكن أهل اللهو والخسارة من سَمِعِهِ؛ فهم يُمَثُّونَهُ الطَّغْرَ، وَيَعْدُوْنَهُ عَوَاقِبَ الأَيَّامِ؛ والهلاك إليه أسرع من السيل إلى قيعان الرمل؛ وقد خَشِيْتُ أن تَهْلِكَ بهلاكه، ونعطب بعطيه، وأنت فارس العرب وابن فارسها، وقد فزع إليك في لقاء طاهر لأمرين؛ أحدهما صدق طاعتك، وفضل نصيحتك؛ والثاني يُمنّ تقيبتك، وشدة بأسك؛ وقد أمرني أن أبسط يدك، غير أن الاقتصاد رأس النصيحة، ومفتاح البركة؛ فبادر ما تريد، وعجل النهضة، فأني أرجو أن يوليكَ الله شرف هذا القتح، ويلم بك شَعَتِ الخلافة.

فقلت له: أنا لطاعتك وطاعة أمير المؤمنين مقدم، ولما وهن عدو كما مؤثر؛ غير أن المحارب لا يفتتح أمره بتقصير، وإنما مَلَاكَ أمره الجنود، والجنود لا تكون بلا مال، وقد رفع أمير المؤمنين الرغائب إلى قوم لم يجذوا عليه، ومتى سمت من أقدر به الانتفاع له بالرضا بدون ما أخذ غيرُه ممن لم يكن عنده غناء ولا معونة، لم ينتظم بذلك التدبير، وأحتاج لأصحابي رزق سنة قَبْضًا، وحملا إلى ألف فرس لحمل من لا أرْتَضِي فرسه، وإلى مال أستظهر به، لا ألام على وضعه حيث رأيت. فقال: شاوِر أمير المؤمنين؛ فأدخلني عليه، فلم تَدِرْ بيني وبينه كلمتان حتى أمر بحبسي.

ويروى أن الأمين لما أعينته مكايذ طاهر قال: الوافر:

بُلِيتَ بِأَشْجَعِ الثَّقَلَيْنِ تَفْسًا      تَزُولُ الرَّاسِيَاثُ وَمَا يَزُولُ  
لَهُ مَعَ كُلِّ ذِي بَدَنِ رَقِيْبٌ      يَشَاهِدُهُ وَيَعْلَمُ مَا يَقُولُ  
فَلَيْسَ بِمَغْفَلٍ أَمْرًا عَنَّا      إِذَا مَا الأَمْرُ ضِيَعَهُ الجَهْلُ

وفي الفضل بن الربيع يقول بعض الشعراء: البسيط:

كَمْ مِنْ مَقِيمٍ بِبَغْدَادٍ عَلَى      لَوْلَا رَجَاءَ أَبِي العَبَّاسِ لَمْ  
طَمَعِ      يَقْمِ  
البَدْرَ أَنْ نَفَرُوا، وَالبَحْرَ إِنْ      وَالجِصْنَ إِنْ رَهَبُوا، وَالسَيْفَ ذُو  
رَغَبُوا      النِّقْمِ

وقال عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع: ما مدحنا شاعر بشعر أحب إلينا من قول أبي نواس: الكامل:

سَادَ المَلُوكُ ثَلَاثَةَ مَا مِنْهُمُ      إِنْ حَصَلُوا إِلَّا أَعَزَّ قَرِيْعِ  
سَادَ الرِّبِيْعِ وَسَادَ فَضْلَ بَعْدِهِ      وَعَلَتِ بِعَبَّاسِ الكَرِيْمِ فُرُوعِ  
عَبَّاسٍ عَبَّاسٌ إِذَا احْتَدَمَ      وَالفَضْلُ فَضْلٌ وَالرِّبِيْعُ رِبِيْعِ  
الْوَعَى

وقيل للعتابي: أمدحت أحدا؟ قال: لا، وليس لي على ذلك قدرة، ف قيل له: فقد مدحت الربيع، فقال: ذلك ليوم يستحق فيه المدح، فقلت: الطويل:

ومعضلة قام الربيع إزاءها      لِيَعْمِدَ رُكْنَ الدِّينِ لَمَّا تَهَدَّمَا  
بِمَكَّةَ وَالمَنْصُورِ رَهْنٍ كَمَا أَتَى      أَخَا الوَحِيِّ دَاعِي رَّبِّهِ فَتَقَدَّمَا

غَدَاةُ عَدَاةِ الدِّينِ شَاحِذَةٌ      إِلَيْهِ وَعُؤُلُ الحَرْبِ فَاغِرَةٌ فَمَّا  
الْمَدَى

مبايعة المهدي

وكان المنصور قد توفي بمكة وهو حاج في ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة، فأخذ الربيع للمهدي البيعة على الناس، وأخذ بتجديدها عن المنصور على أنه حي، وأدخل إليه قوماً فرأوه من بعيد وقد جلله بثوب، وأقعد إلى جنبه من يحرك يده وكأنه يومئ بها إليهم، فلم يشكوا في حياته؛ فما خالف أحد؛ فشكره المهدي لذلك، وفي ذلك يقول أبو نواس في مدحه الفضل بن الربيع: مجزوء الرجز:

أَبُوكَ جَلَى عَن مَصْرٍ      يَوْمَ الرُّوَاقِ المَحْتَضِرِ

والحرب تَفْرِي وتَدْر  
 قامَ كريماً فانتَصِرُ  
 ما مس من شيء هَبَر  
 من ذي خجول وغرر  
 وقال أيضاً: مجزوء الكامل:  
 آل الربيع فَضَلْتُم  
 من قاس غيركم بكم  
 ابن القليل بنو القلي  
 ابن النجوم التالي  
 قوم كَفَوْا أيام مك  
 وتداركُوا نصر الخلا  
 لولا مقامهم بها  
 ومن قول أبي نواس: من قاصر غيركم بكم... البيت، أخذ أبو الطيب المتنبي: الطويل:  
 قواصِدَ كافورٍ تَوَارِكَ غيرِهِ  
 السواقيَا

إلى عَصْرِهِ إلا تُرَجِّي التَّلَاقِيَا

فَتَى ما سَتَرَيْتَا في ظهورِ  
 خدودِنَا

أفضل الأوقات لمخاطبة الملوك

وقال الفضل بن الربيع: من كلم الملوك في الحاجات في غير وقت الكلام لم يظفر بحاجته، وضاع كلامه، وما أشبههم في ذلك إلا بأوقات الصلوات لا تُقبَل الصلاة إلا فيها، ومن أراد خطاب الملوك في شيء فليُرصد الوقت الذي يصلح في مثله ذكر ما أراد، ويسبب له شيئاً من الأحاديث يحسن ذكره بعقبه.

وقال المأمون للفضل بن الربيع لما ظفر به: يا فضل، أكان في حقي عليك، وحق أبائي ونعمهم عند أبيك وعندك، أن تثليني وتسبني، وتخرص على دمي؟ أتحب أن أفعل بك ما فعلته بي؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن عذري يحقدك إذا كان واضحاً جميلاً، فكيف إذا حفته العيوب، وقبحته الذنوب؛ فلا يضيق عني من عفوك ما وسع غيري منك، فأنت كما قال الشاعر فيك: الطويل:

من العافر لم يعرف من الناس  
 مجرماً

صفوح عن الأجرام حتى  
 كأنه

إذا ما الأذى لم يعش بالكُرهِ  
 مُسليماً

وليس يبالي أن يكون به  
 الأذى

والشعر للحسن بن رجا بن أبي الضحاك.

من أخبار المنصور

قال سعيد بن مسلم بن قتيبة: دعا المنصور بالربيع، فقال: سلني ما تريد، فقد سكت حتى نطقت، وخففت حتى ثقلت، وأقللت حتى أكثرت.

فقال: والله - أمير المؤمنين ما أرهب بخلك؛ ولا أستقصير عُمرِكَ، ولا أستصغر فضلك، ولا أغتني مالك؛ وإن يومي بفضلك علي أحسن من أمسِي، وعَدك في تأميلي أحسن من يومي؛ ولو جاز أن يشكركَ مثلي بغير الخِدمةِ والمُناصحةِ لما سَبَقني لذلك أحد.

قال: صدقت، علمي بهذا منك أحلك هذا المحل؛ فسألني ما شئت، قال: أسألك أن تقرّب عبدك الفضل، وتؤثره وتحبه.

قال: يا ربيع، إنَّ الحب ليس بمال يُوهب، ولا رُبَّة تُبدل، وإنما تؤكِّدُه

الأسباب.

قال: فاجعل لي طريقاً إليه، بالتفضل عليه.  
قال: صدقت، وقد وصلته بألف ألف درهم، ولم أصل بها أحداً غير  
عمومتي، لتعلم ماله عندي، فيكون منه ما يستدعي به محبتي، ثم قال:  
فبكيف سألت له المحبة يا ربيع؟ قال: لأنها مفتاح كل خير، ومغلاق كل  
شر، تُسْتَر بها عندك عيوبه، وتَصِير حَسَنَاتِ ذنوبه.  
قال: صدقت وأتيت بما أردت في بابه.  
أخذ قوله: خفت حتى ثقلت أبو تمام فقال لمحمد بن عبد الملك الزيات:  
الطويل:

على أن إفراط الحياء      إليك، ولم أعِدْ بعرضي  
استمالي      مَعْدِلاً  
ثقلت بالتخفيف عنك،      يخفُّ في الحاجات حتى  
وبعضهم      يُثَقِّلًا

من أخبار الرشيد

ودخل سهل بن هارون على الرشيد، وهو يُصَاحِكُ المأمون، فقال: اللهم زدّه من  
الخيرات، وابسط له من البركات، حتى يكون في كل يوم من أيامه مُرَبِّياً على أميّه،  
مَقْصِراً عن غده.

فقال له الرشيد: يا سهّل، من رَوَى من الشعر أحسنه وأرصنه، ومن الحديث أفصحه  
وأوضحه، إذا رام أن يقول لم يُعْجزه القول.  
فقال سهل بن هارون: يا أمير المؤمنين، ما طننت أن أحداً تقدمني إلى هذا المعنى.  
قال: بل أغشى همدان حيث يقول: الوافر:

رأيتك أمس خَيْر بني لؤي      وأنت اليوم خير منك أمس  
وأنت غداً تزيد الخَيْر ضعفاً      كذاك تزيد سادة عبْدِ شمس

من نظم الفضل بن الربيع

ومن شعر الفضل بن الربيع ما أنشده الصولي: مجزوء الكامل:

أبي امرؤ من هاشم      بفتاء معمور التّوَّاحي  
أهل الهدى ودوي التقى      وأولي البسالة والسَّمَّاح  
أهل المعالم والمكا      رم في المساء وفي الصَّبَّاح  
أهل النبوة والخلأ      قة والكمال برعم لاجي  
يتالمون من الصدو      د ويصبرون على الجراح

من أخبار أبي العيناء

حَمَلَ محمد بن عبيد الله بن خاقان أبا العيناء على دابة رَعَم أنها عَيْر قاره،  
فكتب إليه: أعلم الوزير، أعزه الله، أن أبا علي محمداً أراد أن يتبرني  
فعقني، وأن يُركبني فأرَجَلَنِي، أمر لي بدابة تقف للنبرة، وتغر بالبعرة،  
كالقضيب اليابس عَجفاً؛ وكالعاشق المهجور دتفاً، قد أدكرت الرواة عذرة  
العذري، والمجنون العامري، مساعد أعلاه لأسفله، حباقه مقرون بسعاله،  
فلو أمسك لترجيت، ولو أفرد لتعزيت، ولكنه يجمعهما في الطريق المعمور،  
والمجلس المشهور، كأنه خطيب مُرشد، أو شاعر مُنشد، تصحك من فعله  
النسوان، وتتناغي من أجله الصبيان؛ فمن صائح يصيح: داوه بالطباشير،  
ومن قائل يقول: نوله الشعير، قد حفيط الأشعار، ورؤى الأخبار، ولحق  
العلماء في الأمصار، فلو أعين بنطق؛ لروى بحق وصدق، عن جابر الجعفي،  
وعامر الشعبي؛ وإنما أتيت من كاتبه الأعور، الذي إذا اختار لنفسه أطاب  
وأكثر، وإن اختار لغيره أحبث وأنزر؛ فإن رأى الوزير أن يُبدلني به، ويُريحني

منه بمركوب يُضجكني كما ضجك مني، يَمْخُو بِحُسْنِهِ وَقَرَاهْتَهُ، مَا سَطَّرَهُ  
الْعَيْبُ بِقُبْحِهِ وَدَمَامَتِهِ؛ وَلَسْتُ أَذْكَرُ أَمْرَ سَرْجِهِ وَلِجَامِهِ؛ فَإِنَّ الْوَزِيرَ أَكْرَمُ مَنْ  
أَنْ يَسْلُبَ مَا يَهْدِيهِ، أَوْ يَنْقُضَ مَا يُمَضِيهِ.

فوجه عبيد الله إليه برذونا من براذينه يسرجه ولجامه، ثم اجتمع مع محمد  
ابن عبيد الله عند أبيه، فقال عبيد الله: شكوت دابة محمد، وقد أخبرني الآن  
أنه يشتريه منك بمائة دينار، وما هذا ثمنه لا يُشْتَكَى.

فقال: أعز الله الوزير، لو لم كذب مستزيداً، لم انصرف مستفيداً، وإني  
وإياه لكما قالت امرأة العزيز. "الآن حصص الحق، أتأراؤدته عن نفسه  
وإنه لمن الصادقين". فضحك عبيد الله، وقال: حجتك الداخضة بملاحتك  
وظرفك أبلغ من حجة غيرك البالغة.

قطعة من رسالة أجاب بها أبو الخطاب الصابي عن أبي العباس بن سابور  
إلى الحسين بن صبرة عن رقعة وردت منه في صفة حمل أهداه  
وصلت رُفَعَتِكَ، فَقَصَصْتُهَا عَنْ حَطِّ مُشْرِقٍ، وَلَفْظِ مُونِقٍ، وَعِبَارَةِ مُصِيبَةٍ،  
ومعاني غريبة، واتساع في البلاغة يَعْجِزُ عَنْهُ عَبْدُ الْحَمِيدِ فِي كِتَابَتِهِ، وَقَسَّ  
وَسَخَبَانَ فِي خَطَابَتِهِ؛ وَتَصَرَّفَ بَيْنَ جَدِّ أَمْضَى مِنَ الْقَدْرِ، وَهَزَلُ أَرْقٍ مِنْ  
نَسِيمِ السَّحْرِ، وَتَقَلَّبَ فِي وَجْهِ الْخِطَابِ، الْجَامِعِ لِلصَّوَابِ؛ إِلَّا أَنَّ الْفِعْلَ  
قَصَّرَ عَنِ الْقَوْلِ، لِأَنَّكَ ذَكَرْتَ حَمَلًا، جَعَلْتَهُ بِصِفَتِكَ حَمَلًا، فَكَانَ الْمُعِيدِيَّ  
الَّذِي تَسْمَعُ بِهِ وَلَا أَنْ تَرَاهُ. وَحَضَرَ فَرَأَيْتَ كَبْشًا مُتَقَادِمَ الْمِيلَادِ، مِنْ نِتَاجِ  
قَوْمٍ عَادَ، قَدْ أَفْنَتْهُ الدَّهْرُ، وَتَعَاقَبَتْ عَلَيْهِ الْعُصُورُ، فَظَنَنْتَهُ أَحَدَ الرَّوْجِينَ  
الَّذِينَ جَعَلَهُمَا نَوْعَ فِي سَفِينَتِهِ، وَحَفِظَ بِهِمَا جِنْسَ الْغَنَمِ لِدَرْبَتِهِ؛ صَغَرَ عَنِ  
الْكِبَرِ، وَلَطَّفَ عَنِ الْقَدَمِ، فَبَاتَتْ دَمَامَتُهُ، وَتَقَاصَرَتْ قَامَتُهُ، وَعَادَ نَاحِلًا  
ضَيْلًا، بَالِيًا هَزِيلًا، بَادِيَ السَّقَامِ، عَارِي الْعِظَامِ، جَامِعًا لِلْمَعَايِبِ، مُشْتَمَلًا  
عَلَى الْمَتَالِبِ، يَعْجَبُ الْعَاقِلُ مِنْ حُلُولِ الْحَيَاةِ بِهِ، وَتَأْتِي الْحَرَكَةُ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ  
عَظْمٌ مَجْلِدٌ، وَصُوفٌ مُلِيدٌ، لَا تَجِدُ فَوْقَ عِظَامِهِ سَلْبًا، وَلَا تَلْقَى يَدَكَ مِنْهُ إِلَّا  
حَسْبًا، لَوْ أَلْقَيْتَ إِلَى السَّبْعِ لِأَبَاهُ، وَلَوْ طَرَحَ لِلذَّنْبِ لِعَاقِبِهِ وَقَلَاهُ، قَدْ طَالَ  
لِلْكَلاِ قَفْذُهُ، وَبَعُدَ بِالْمَرَعَى عَهْدُهُ، لَمْ يَرِ الْقَتَّ إِلَّا نَائِمًا، وَلَا عَرَفَ الشَّعِيرَ إِلَّا  
حَالِمًا، وَقَدْ خَيْرْتَنِي بَيْنَ أَنْ أَفْتِنِيهِ فَيَكُونَ فِيهِ غَيْتِي الدَّهْرُ، أَوْ أَذْبَحَهُ فَيَكُونَ  
فِيهِ خَصْبُ الرَّحْلِ؛ فَمِلْتُ إِلَى اسْتِيقَانِهِ لِمَا تَعْرِفُ مِنْ مَحَبَّتِي مِنَ التَّوْفِيرِ،  
وَرَغْبَتِي لِلتَّنْمِيرِ، وَجَمْعِي لِلْوَلْدِ، وَادِّخَارِي لِعَدِّ، فَلَمْ أَجِدْ فِيهِ مَسْتَمْتَعًا لِلْبَقَاءِ،  
وَلَا مَدْفَعًا لِلْفَنَاءِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بَأَنْثَى فَتَحْمِلُ، وَلَا بَفْتَى فَيَنْسُلُ، وَلَا بِصَحِيحٍ  
فَيَرَعَى، وَلَا بِسَلِيمٍ فَيَنْقَى؛ فَمِلْتُ إِلَى الثَّانِي مِنْ رَأْيِكَ، وَعَوَلْتُ عَلَى الْآخِرِ  
مِنْ قَوْلِكَ، وَقُلْتُ: أَذْبَحَهُ فَيَكُونَ وَظِيفَةً لِلْعِيَالِ، وَأَقِيمَهُ رَطْبًا مَقَامَ قَدِيدِ  
الْعَزَالِ، فَأَنْشِدُنِي وَقَدْ أَضْرِمَتِ النَّارُ، وَحُدَّتِ الشِّفَارُ، وَشَمَّرَ الْجَزَارُ:  
الْبَسِيطُ:

أَعِيذُهَا نِظْرَاتٍ مِنْكَ  
صَادِقَةً  
أَنْ تَحْسِبَ الشَّحْمَ فَيَمَنْ  
سَحْمُهُ وَرَمٌ

وقال: ما الفائدة لك في ذبحي؟ وأنا لم يبق مني إلا نفس خافت، ومفلة  
إنسانها باهت: لسْتُ بذي لحم، فأصلح للأكل؛ لأن الدهر قد أكل لحمي، ولا  
جلدي يصلح للدِّبَاغِ، لأن الأيام قد مزقت أديمي، ولا لي صوف يصلح للغزل؛  
لأن الحوادث قد حصت وبري، فإن أردتني للوقود فكف بغير أبقى من ناري،  
ولن تفي حرارة جمري بريح قتاري، فلم يبق إلا أن تطلبني بدخل أو بيني  
وبينك دم، فوجدته صادقاً في مقالته، ناصحاً في مشورته، ولم أعلم من أي

أَمْرِيهِ أَعْجَبُ؛ أَمِنْ مِمَّا طَلَّتْهُ لِلدَّهْرِ بِالْبِقَاءِ، أَمْ مِنْ صَبْرِهِ عَلَى الصَّرِّ وَاللَّوَاءِ،  
أَمْ مِنْ قَدْرَتِكَ عَلَيْهِ جَمْعَ إِعْوَازٍ مِثْلِهِ، أَمْ مِنْ تَأْهِيلِكَ الصَّدِيقَ بِهِ مَعَ خَسَاسَةِ  
قَدْرِهِ؟ وَبِأَلَيْتٍ شَعْرِي إِذْ كُنْتُ - وَإِلَيْكَ سَوْقَ الْغَنَمِ، وَأَمْرُكَ يَنْقُذُ فِي الضَّانِ  
وَالْمَعَزِ، وَكُلَّ كَبِشٍ سَمِينٍ وَحَمَلٍ بَطِينٍ مَجْلُوبٍ إِلَيْكَ، مَقْصُورٌ عَلَيْكَ - تَقُولُ  
فِيهِ قَوْلًا فَلَهُ تُرَدُّ، وَتُرِيدُهُ فَلَا تُصَدُّ، وَكَانَتْ هَدَيْتُكَ هَذَا الَّذِي كَانَ تَأْشُرُ مِنْ  
الْقُبُورِ، أَوْ قَائِمٍ عِنْدَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ، فَمَا كُنْتُ مُهْدِيًا لَوْ أَنَّكَ رَجُلٌ مِنْ عُرْضِ  
الْكِتَابِ، كَأَبِي وَأَبِي الْخَطَّابِ، مَا كُنْتُ تَهْدِي إِلَّا كَلْبًا أَجْرَبُ، أَوْ قَرْدًا أَحَدَبُ.  
من نظم الحمدوني

وقال الحمدوني في شاة سعيد بن أحمد بن خوسندا: الكامل:

أَسْعِيدُ، قَدْ أَعْطَيْتَنِي	مَكَّنْتُ زَمَانًا عِنْدَكُمْ مَا
أَضْحِيَّةً	تَطْعَمَ
نِصُورًا تَعَاقَرَتِ الْكِلَابُ بِهَا	شَدُّوا عَلَيْهَا كَيْ تَمُوتَ
وَقَدْ	فِيؤْلَمُوا
فَإِذَا الْمَلَا صَحَّكُوا بِهَا قَالَتْ	لَا تَهْزُؤُوا بِي وَارْحَمُونِي
لَهُمْ:	تَرْحَمُوا
مَرَّتْ عَلَى عَافٍ فَقَامَتْ لَمْ	عَنْهُ، وَغَنَّتْ وَالْمَدَامُغُ
تَرِمُ	تَسْجَمُ
وَقَفَ الْهُوَى بِي حَيْثُ أَنْتِ	مَتَأَخَّرَ عَنْهُ وَلَا مُتَقَدِّمُ
فَلَيْسَ لِي	

وقال أيضاً: البسيط:

أَبَا سَعِيدٍ، لَنَا فِي شَاتِكَ	جَاءَتْ وَمَا إِنْ لَهَا بَوْلٌ وَلَا
الْعَبْرُ	بَعْرُ
وَكَيفَ تَبْعُرُ شَاةَ عِنْدَكُمْ	طَعَامُهَا الْأَبْيَضَانَ الشَّمْسُ
مَكَّنْتُ	وَالْقَمَرُ
لَوْ أَنَّهَا أَبْصَرَتْ فِي نَوْمِهَا	عَنَّتْ لَهُ وَدَمُوعُ الْعَيْنِ تَنْحَدِرُ:
عَافًا	

يَا مَانِعِي لَذَّةَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا

وقال أيضاً: المنسرح:

شَاةُ سَعِيدٍ فِي أَمْرِهَا عِبْرُ	لَمَّا أَتْنَا قَدْ مَسَّهَا الضَّرُّ
وَهِيَ تَغْنِي مِنْ سُوءِ حَالَتِهَا	حَسْبِي بِمَا قَدْ لَقِيتُ يَا عَمْرُ
مَرَّتْ بِقَطْفِ خَضِرٍ يَنْشُرُهَا	قَوْمٌ فَظَنَّتْ بِأَنَّهَا حُضِرُ
فَأَقْبَلْتُ نَحْوَهَا لِتَأْكُلَهَا	حَتَّى إِذَا مَا تَبَيَّنَ الْخَبْرُ
وَأَبْدَلْتُهَا الظُّنُونُ مِنْ طَمَعِ	يَأْسًا تَغْنَتْ وَالْدَمْعُ مُنْحَدِرُ
كَانُوا بَعِيدًا وَكُنْتُ أُمَّلَهُمْ	حَتَّى إِذَا مَا تَقَرَّبُوا هَجَرُوا

وقال: مجزوء الخفيف:

لِسَعِيدٍ شُوَيْهَةٌ	سَلَهَا الصُّرُّ وَالْعَجْفُ
قَدْ تَغْنَتْ وَأَبْصَرَتْ	رَجُلًا حَامِلًا عَافًا:
بِأَبِي مَنْ بَكَفَهُ	بُرءُ مَا بِي مِنَ الدَّافِ
فَاتَّاهَا مَطْمَعًا	وَأَتَتْهُ لَتَعْتَلِفُ
فَتَوَلَّى فَأَقْبَلْتُ	تَتَغْنِي مِنَ الْأَسْفِ:

لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ وَقَفٌ  
عَذِبَ الْقَلْبَ وَأُصْرَفُ  
قال: وإذ قد جَرَتْ بعضُ تضمينات الحمدوني في هذا الموضع فأنا أذكر هنا قطعةً من شعره في الطيلسان، وأنعطف في غير هذا الموضع إليها وأكثر عليها؛ وكان أحمد بن حَرْب المهلب من المُنعِمين عليه، والمحسِنين إليه، وله فيه مدائح كثيرة، فوهب له طيلساناً أَخَصَرَ لم يَرِصَه، قال أبو العباس المبرد: فأنشدنا فيه عشر مقطعات، فاستَحَلينا مَدَّهيه فيها، فجعلها فوق الخمسين؛ فطارت كل مَطَّار، وسارت كل مَسَّار، فمنها: الخفيف:

مَلَّ من صُحْبَةِ الزمانِ وَصَدَا

لَ إِلى ضَعْفِ طَيْلَسانِكَ سَدَا  
لو بَعَثَناه وَوَحَدَه لَتَهَدَّى

تُودِي بِجِسمِي كما أُولَى بِكَ  
الرَّزْمَنُ  
قد أَوْهَنْتِ حيلتي أركانِكَ  
الوَهْنُ  
كَأَنني في يَدَيْهِ الدَّهْرُ  
مُزَّتْهَنُ

كَأَما لي في حانوتِهِ وَطَنُ

فالأقحوانة مِثْما مَنزِلُ قَمِينُ

يا ابْنَ حَرْبِ كَسَوْتَنِي  
طَيْلَساناً

فحَسَبنا نَسِجَ العناكبِ قد حَا  
طال تَرَدُّدُه إِلى الرَّفُو حتى

وقال فيه أيضاً: البسيط:

يا طيلسانَ ابنِ حَرْبٍ قد  
هَمَمْتُ بِأَنْ

ما فيكَ مِنْ ملبسِ يَغني ولا  
ثَمَن

فلو تَرانِي لَدَى الرَّقَّاءِ  
مُزَّتِبطاً

أَقولُ حينَ رآني الناسُ  
أَلزَمُهُ

مَنْ كانَ يَسألُ عَنَّا أَيَّنْ  
مَنزِلُنا

وقال: مجزوء الكامل:

قل لابنِ حَرْبِ طيلسا  
أَفْتَى القَروَنَ ولم يَزلُ

وَإِذا العيونُ لَحَظَّتْهُ  
يُودِي إِذا لم أَرُفُهُ

كالكلبِ إِذِ نَحْمِلُ علي

وقال: الكامل:

قل لابنِ حَرْبِ طيلساؤنكَ قد  
مُتَبِّينَ فيه لِمُبصِرِهِ

وَكانَهُ الخَمْرُ التي وَصَفْتُ  
فَإِذا رَمَمَناه فَقيلَ لَنا:

مِثْلَ السَّقِيمِ بَرًّا فَرأِجَعُهُ  
أَنشَدتِ حينَ طَغى فَأَعجَزني

الخمر التي وُصفت من قول أبي نواس: المديد:

يا شَقيقَ النَفسِ مِنْ حَكمِ  
فاسقني البِحَرَ التي اَعْتَجَرَتِ

تُمَّتْ أَصَواتُ الشِبابِ لَها  
فَهيَ لَليومِ الذي بُزِلتُ

عُتِّقْتُ حتى لو اتَّصَلتُ

أَرهَى قَوايَ بِكَثَرةِ العُرمِ  
أثارُ رَفُوِ أوائِلِ الأَممِ

في يا شَقيقَ الرُوحِ مِنْ حَكمِ  
قد صَحَّ، قالَ لَه البلى: ائهِدِمِ

نكسَ فأسلَمَه إِلى سَقَمِ  
ومِن العِناءِ رِياضَةُ الهَرَمِ

نَمَّتْ عَن لَيْلى ولم أَنمِ  
بِخِمارِ الشيبِ في الرَّحَمِ

بَعَدَ أَن جازتُ مَدى الهَرَمِ  
وهي تَلو الدَّهْرَ في القِدامِ

بِسلانٍ ناطقِ وَقَمِ

لاخْتَبْتُ فِي الْقَوْمِ مَآثِلَةً

ثُمَّ قَصْتُ قِصَّةَ الْأَمَمِ

فَرَعَتْهَا بِالْمَزَاجِ يَدَ

خُلِقْتُ لِلْكَاسِ وَالْقَلَمِ

وَقَالَ الْحَمْدُونِيُّ: الرَّمْلُ:

طَيْلَسَانَ لَابْنَ حَرْبٍ جَاءَنِي

خَلَعَةً فِي يَوْمِ نَحَسٍ مُسْتَمِرِّ

فَإِذَا مَا صَحْتُ فِيهِ صَيِّحَةً

تَرَكْتَهُ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظَرِّ

وَإِذَا مَا الرِّيحُ هَبَتْ نَحْوَهُ

طَيَّرْتَهُ كَالْجَرَادِ الْمُنْتَشِرِّ

مُهْطِعُ الدَّاعِي إِلَى الرَّافِي إِذَا

مَا رَأَاهُ قَالَ: ذَا شَيْءٍ نَكَرُ

وَإِذَا رِقَاؤُهُ حَاوَلَ أَنْ

يَتَلَفَاهُ تَعَاطَى فَعَقَّرُ

وَقَالَ: الْمُتَقَارِبُ:

أَيَا طَيْلَسَانِي أَعْيَيْتَ طَبِّي

أَسْأَلُ بِجَسْمِكَ أَمْ دَاءٌ حَبٌّ؟

وَيَا رِيحَ صَيَّرْتَنِي أَتَقِيكَ

وَقَدْ كُنْتُ لَا أَتَقِي أَنْ تَهْبِي

وَمُسْتَخْبِرُ حَبْرِ الطَيْلَسَانَ

فَقُلْتُ لَهُ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي

وَقَالَ فِيهِ: الرَّمْلُ:

طَيْلَسَانُ لَابْنَ حَرْبٍ جَاءَنِي

قَدْ قَصَى التَّمْرِيقُ مِنْهُ وَطَرَهُ

أَنَا مِنْ خَوْفِي عَلَيْهِ أَبَدًا

سَامِرِي لَيْسَ يَأْلُوهُ حَذْرَهُ

يَا ابْنَ حَرْبٍ خَذَهُ أَوْ فَابَعَثَ

نَشْتَرِي عِجْلًا بِصَفْرِ عِشْرَةَ

بَمَا

فَلَعَلَّ اللَّهَ يُخَيِّبُهُ لَنَا

إِنْ ضَرَبْنَاهُ بِبَعْضِ الْبَقَرَةِ

فَهُوَ قَدْ أَدْرَكَ نَوْحًا، فَعَسَى

عِنْدَهُ مِنْ عِلْمِ نُوحٍ حَبْرَهُ

أَبَدًا يَقْرَأُ مِنْ أَبْصَرَهُ

أِذَا كُنَّا عِظَامًا تَخِرُّهُ

وَقَالَ فِيهِ: الْخَفِيفُ:

يَا ابْنَ حَرْبٍ أَطَلَّتْ فَقْرِي

طَيْلَسَانًا قَدْ كُنْتُ عَنْهُ غَنِيًّا

بَرْفَوِي

فَهُوَ فِي الرَّفْوِ آلَ فَرْعَوْنَ

ضِ عَلَى النَّارِ عُذْرَةً وَعَشِيًّا

فِي الْعَرِّ

رُزْتُ فِيهِ مَعَاشِرًا

فَتَغْنِيْتُ إِذَا رَأَوْنِي زَرِيًّا:

فَازْدَرَوْنِي

وَعَلَى الْبَابِ قَدْ وَقَفْتُ

جُنْتُ فِي زِي سَائِلِ كِي

مَلِيًّا

أَرَاكُم

وَقَالَ فِيهِ: الْوَافِرُ:

وَهَبْتُ لَنَا ابْنَ حَرْبٍ طَيْلَسَانًا

يَزِيدُ الْمَرْءَ ذَا الضَّعَةِ اثِّصَاعًا

يُسَلِّمُ صَاحِبِي فَيَعِيدُ

لَأَنَّ الرُّوحَ يَكْسِبُهُ انْصِدَاعًا

بِشَّنْمِي

أَجِيلَ الطَّرْفِ فِي طَرَفِيهِ

وَعَرَضًا مَا أَرَى إِلَّا رِقَاعًا

طَوْلًا

فَلَسْتُ أَشْكُ أَنْ قَدْ كَانَ

لُنُوحٍ فِي سَفِينَتِهِ شِرَاعًا

قَدَمًا

فَقَدْ غَنَيْتُ إِذْ أَبْصَرْتُ مِنْهُ

جَوَانِبَهُ عَلَى بَدَنِي تَدَاعَى:

قَفِي قَبْلَ التَّفَرُّقِ يَا ضُبَاعًا

وَلَا يَكُ مَوْقِفٍ مِنْكَ الْوَدَاعَا

مِنْ أَخْبَارِ الْمَأْمُونِ

دخل المأمون بعضَ الدواوين، فرأى غلاماً جميلاً على أذنه قلم، فقال: من أنت يا غلام؟ فقال: أنا يا أمير المؤمنين الناشئُ في دولتك، المتقلب في نعمتك، المؤمل لخدمتك، خادمك وابنُ خادمك الحسنُ بن رجاء. فقال: أحسنت يا غلام، وبالإحسان في البديهة تَقاصلت العُقُول. فأمر أن يرفع عن مرتبة الديوان.

قال أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج: قال لي أبو العباس المبرد: ما رأيتُ في أصحاب السلطان مثل إسماعيل والحسن؛ كنت إذا رأيته رأيت رجلاً كأنما خلق لذرّوة منبر، أو صدرٍ مجلس، يتكلم وكأنه يتنفس، يُسهبُ ويُنطِب، ويعربُ ويعرب، ولا يعجب ويعجب. أراد القاضي إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد، والحسن ابن رجاء بن أبي الضحاك.

من أخبار المبرد  
وكان أبو العباس يُعد في البلغاء، وقال: لما دخلت على المتوكل اختار لي القنخ بن خاقان وقتَ شربه، وكافي الشراب قد أخذ منه، فسألني وقال: يا بصري، رأيت أحسن وجهاً مني؟ فقلت: لا والله ولا أسمع راحة، ثم تجاسرت فقلت: الوافر:  
جَهْرُتُ بِحَلْفَةٍ لَا أَتَّقِيهَا      بِشِكِّ فِي الْيَمِينِ وَلَا ارْتِيَابِ  
بَأَنَّكَ أَحْسَنُ الْخُلَفَاءِ وَجْهًا      وَأَسْمَحُ رَاحَتَيْنِ، وَلَا أَحَابِي  
وَأَنَّ مُطِيعَكَ الْأَعْلَى مَحَلًّا      وَمَنْ عَاصَاكَ يَهُوِي فِي تَبَابِ  
فقال: أحسنت وأجملت في حُسن طبعك وبديهتك، فقلت: ما ظننتُني أبلغُ هذا الشرف، ولا أنال هذه الرتبة؛ فلا زال أمير المؤمنين يسمو بخدمه إلى أعلى المراتب، ويُصرفهم في المذاهب.

وكان ابنُ المعتز قد غضبَ على بعض وكلائه، فصار إلى أبي العباس المبرد يسأله أن يكلمه له؛ فكتب إليه المبرد: أنت والله كما قال مسلم بن الوليد في جدك الرشيد: الكامل:

بَأَبِي وَأُمِّي أَنْتَ مَا أُنْدَى      وَأَبْرَ مِيثَاقًا، وَمَا أَرْكَاكَ  
يَدًا

يَعْدُو عَدُوَّكَ خَائِفًا، فَإِذَا رَأَى      أَنْ قَدِ قَدَرْتَ عَلَى الْعِقَابِ  
رَجَاكَ

وهذا معنَى كثير.

في المدح

أنشد أحمد بن يحيى ثعلب الأعرابي: الطويل:

كريم يغض الطرفَ فَضَلَ      وَيَدُّو وَأَطْرَافُ الرِّمَاحِ دَوَانِي  
حَيَّاهُ

وكالسيفِ إن لم يَنْتَه لَانَ      وَحَدَّاهُ إِنْ خَاشَتْنَهُ حَشِيَّتَانِ  
مُنَّه

وهذا يناسب قول ابن المعتز في بعض جهاته:

وَيَجْرَحُ أَحْشَائِي بَعِينٍ      كَمَا لَانَ مَتْنُ السِّيفِ وَالْحَدُّ  
مَرِيضَةٌ      قَاطِعُ

وقال الأخطل في بني مروان: البسيط:

صُمُّ عَنِ الْجَهْلِ، عَنِ قِيلِ      إِذَا أَلَمَّتْ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ  
الْخَنَا أَنْفِ      صَبَّرُوا

شُمْسُ الْعِدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ      وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا

لهم  
وفال إبراهيم بن علي بن هزّمة يمدح أبا جعفر المنصور: الطويل:  
كريم له وجّهان، وجّهه لدى  
الرضا  
وليس بمُعطي الحقّ من غيرِ  
قدرةٍ  
له لحظات من جفافي  
سريره  
فأمّ الذي أمّنت أمّته  
الردى  
وقال الطائي في أبي سعيد محمد بن يوسف: الطويل:  
هو السيلُ إن واجهته انقَدتْ  
طَوْعَهُ  
وكان عصابة الجرجاني، واسمه إسماعيل بن محمد، منقطعاً إلى الحسن بن رجاء  
متصلاً به، وهو القائل فيه: الكامل:  
ومحجّبٍ بالنور ليس بمدركٍ  
ملكٌ يُحب الله فهو يحبُّه  
يمشي الهويّتا للصلاة يُقيمها  
لله درك أيما ابن عزيمةٍ  
ثم عتب عليه في بغض الأمر، فهجاه هجاءً قبيحاً؛ فهرب إلى عمان، ثم اعتذر إليه  
بقصيدته التي أولها: الكامل:  
لا تخضبن عوالي المُرانِ  
وهي أجود شعر قيل في معناه، وهي التي يقول فيها:  
إقر السلام على الأمير، وقل  
له:  
ما إن أتى حشّمي بأنك  
سأخط  
وعَدت علي مطاعمي  
ومشّاري  
فكتب إليه الحسن: الكامل:  
أبلغ أبا إسحاق أنّ محلّه  
لا تبعدن بك الديارَ لترغيةٍ  
فليفرخ الرّوع الذي رُوّعته  
بين جميل وعمر بن أبي ربيعة  
اجتمع جميل بن معمر العذري بعمر بن أبي ربيعة المخزومي، فأنشده جميل قصيدته  
التي أولها: الطويل:  
لقد فرح الواشون أنّ  
صرمت حبلي  
يقولون: مهلاً يا جميل،  
وإني  
حليلي فيما عشتما هل  
رأيتما

قَدَرُوا  
طليقٌ، ووجهه في الكريهة  
بأسيل  
ويغفو إذا ما أمكنته  
المقاتلُ  
إذا كرها فيها عقاب وتائلُ  
وأم الذي حاولت بالثكل  
تاكلُ  
وتقتادهُ من جانبيه فيتبعُ  
ولا بما تأتي به الأنبياءُ  
ويطبعه فتطبعه الأشياءُ  
وإذا مشى للحرب فالحيلاءُ  
يشوي الزمان وما له إشواءُ  
إلا من العلق النجيع الآنِ  
إنّ المنادمة الرضاع الثاني  
حتى استخف بموضعي  
علماني  
وملابسي من أعوانِ  
مني بحيث الرأس والعينانِ  
ولتبعدن توازع الشيطانِ  
إنّ المحل محل كل أمانِ  
بئيتة أو أبدت لنا جانب  
البحل  
لأقسم ما لي عن بئيتة من  
مهل  
قتيلاً بكى من حب قاتله  
قبلي؟

نقله أبو العتاهية، فقال: السريع:

يا مَنْ رَأَى قَبْلِي قَتِيلًا  
بكى من شِدَّةِ الوَجْدِ على  
القاتل  
فلمَّا أتمها قال لعمر: يا أبا الخطاب، هل قلت في هذا الروي شيئاً؟ قال: نعم، ثم  
أنشده: الطويل:

جرى ناصح بالودّ بيني وبينها  
فعرضني يومَ الحِصَابِ إلى  
قتلي

فما أنسَ م الأشياء لا أنسَ  
قولها  
فلمَّا تواقفنا عرَفْتُ الذي  
بها  
كمثل الذي بي حذوك التعلّ  
بالنعل  
عدو مكاني أو يرى حاسد  
فِعلي

فسلمتُ واستأنستُ خيفةً  
أن يَرى  
وأقبلَ أمثالُ الدُمى  
يكتنِفُها  
وكل يُفدي بالموَدّةِ والأهل  
معني فتكلم عَيْرَ ذي رِقبةٍ  
أهلي

فقلت وأزحّت جانب السِّرِّ:  
إنما  
فقلتُ لها: ما بي لهم من  
ترقب

فاستخذى، جميلٌ وصاح: هذا والله الذي طلبت الشعراء فأخطأته، فتعللوا بوصف  
الديار، ونعت الأطلال.

ولما مات عمر بن أبي ربيعة نُعي لامرأة من مولدات مكة، وكانت بالشام، فبكت  
وقالت: مَنْ لأباطح مكة؟ ومن يمدح نساءها، ويصف محاسنهن، ويبيكي طاعتهن؟!  
ف قيل لها: قد نشأ فتى من ولد عثمان بن عفان على طريقته، فقالت: أنشدوني له،  
فأنشدوها: الطويل:

وقد أرسلت في السر ليلى  
بأن أقم  
لعل العيون الرامقات  
لوصلنا  
ولا تقرّبنا فالتجئ أجمل  
تكذب عتاً أو تتأم فتغفل

فما كتمنا السر عنهم  
تقولوا  
فما حفظوا العهد الذي كان  
بيننا  
فلمّا كتمنا السر عنهم  
تقولوا  
فما حفظوا العهد الذي كان  
بيننا

فتسلت وقالت: هذا أجل عَوْضٍ، وأفضل حَلْفٍ، فالحمد لله الذي خلف على حرمه  
وأتمه مثل هذا.

وقال عروة بن أذينة: أنشدت ابن أبي عتيق للعرجي: الطويل:

فما ليلةٌ عندي وإن قيل  
ليلة  
بعادلة الاثنين، عندي  
وبالحرّ  
ولا ليلة الأضحى ولا ليلة  
الفطر  
يكونُ سواء مثلها ليلة  
القدر  
لجارتها: قومي سلي لي عن  
الوئر

وما أنسَ م الأشياء لا أنس  
قولها

فجاءت تقول الناس في  
ست عشرة  
فقال ابن أبي عتيق: هذه أفعه من ابن أبي شهاب؛ أشهدكم أنها حرة من مالي إن  
أجاز أهلها ذلك.  
والعرجي هو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان، وكان ينزل بعرج الطائف  
فنسب إليه، وهو القائل: المنسرح:

هل في ادكاري الحبيب من  
حرج  
أم كيف أنسى مسيرنا  
حرما  
يوم يقول الرسول قد  
أذنت  
أقبلت أهوي إلى رحاليهم  
وكان محمد بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم والياً على مكة - وهو خال  
هشام بن عبد الملك - بلغه أن العرجي هجاه، فضربه ضرباً مبرحاً، وأقامه على أعين  
الناس، فجعل يقول: الوافر:

سيغضب لي الخليفة بعد  
رقي  
علي عباءة بزقاء ليست  
وتغضب لي بأسرتها فصي  
فحلف محمد بن هشام ألا يخرجها ما دامت له ولاية؛ فأقام في السجن سبع سنين حتى  
مات، وهو القائل في سجنه: الوافر:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا  
وخلوني ومعتك المنايا  
كأنني لم أكن فيهم وسيطاً  
أجرز في الجوامع كل يوم  
عسى الملك المجيب لمن  
دعاه  
فأنجزني بالكرامة أهل ودي

جملة من الفصول القصار لابن المعتز  
البشر دال على السخاء كما يدل التور على الثمر. إذا اضطرت إلى  
الكذاب فلا تصدقه، ولا تعلمه أنك تكذبه، فينتقل عن وده، ولا ينتقل عن  
طبعه. كما أن الشمس لا يخفى ضوءها وإن كانت تحت السحاب كذلك  
الصبي لا تخفى غريزة عقله وإن كان مغموراً بأخلاق الحداثة. كرم الله،  
عز وجل، لا يتفرض حكمته، ولذلك لا يجعل الإجابة في كل دعوة. كما أن  
جلاء السيف أهون من صنعه، كذلك استصلاح الصديق أهون من اكتساب  
غيره. إذا استرجع الله مواهب الدنيا كانت مواهب الآخرة. لولا ظلمة  
الخطا ما أشرق نور الصواب. الحوادث الممضنة مكسبة لحظوظ جزيلة؛  
من صواب مدخر، وتطهير من دتب، وتنبه من عقلة، وتعريف بقدر النعمة،  
ومروان على مقارعة الدهر. ومثل هذا الفصل محفوظ عن ذي الرياستين،  
قاله بعقب علة فأغار عليه ابن المعتز.

ولا تعجلي عنه فإنك في  
أجر  
أم هل لهم الفؤاد من فرج  
يوم خللنا بالتحل من أمج  
فأت على غير رقبة قليج  
أهدى إليها بريحتها الأرج  
ويَسأل أهل مكة عن  
مساقي  
من البلوى تُجاوِزُ نصفَ  
ساقِي  
ولاة الشعب والطرق العماق  
له ولاية؛ فأقام في السجن سبع سنين حتى  
ليوم كرية وسداد تغر  
وقد شرعت أسنتهم لتخري  
ولم تك نسبتني في آل عمرو  
ألا لله مظلمتي وهضري  
سيجيني فيعلم كيف  
شكري  
وأنجزني بالضغائن أقل ضري

وكتب إلى أحمد بن محمد جواباً عن كتاب استزاده فيه،: قَيِّدْ نِعْمَتِي عِنْدَكَ  
بِمَا كُنْتَ إِسْتَدْعَيْتَهَا بِهِ، وَدُلْتَ عَنْهَا أَسْبَابَ سُوءِ الظَّنِّ، وَاسْتَدِمَّ مَا تُحِبُّ  
مَنِي بِمَا أَحَبَّ مِنْكَ.

وكتب إليه: وَاللَّهِ لَا قَابِلَ إِحْسَانِكَ مِنِّي كَيْفُ، وَلَا تَبِعَ إِحْسَانِي إِلَيْكَ مَنْ، وَلَكِ  
عِنْدِي يَدٌ لَا أَقْبِضُهَا عَنْ نَفْعِكَ، وَأُخْرِجِي لَا أَبْسُطُهَا إِلَى ظَلْمِكَ، فَتَجَنَّبِي مَا  
يُسْخِطُنِي، فَإِنِّي أَصُونُ وَجْهَكَ عَنْ دُلِّ الْإِعْتَذَرِ.

وكان أحمد بن سعيد يؤديه فتحمل البلاذري علي قبيحة أم ابن المعتز يقوم  
سألوا أن تاذن له أن يدخل إلى ابن المعتز وقتاً من النهار، فأجابت أو  
كادت تجيب، قال ابن سعيد: فلما اتصل الخبر بي جلست في منزلي  
عَصَبَانٍ لِمَا بَلَغَنِي عَنْهَا، فَكُتِبَ إِلَيَّ ابْنُ الْمُعْتَزِ وَلَهُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً:

البيسط:

أَصْبَحْتَ يَا ابْنَ سَعِيدِ خِدْنَ	عنها يقصّر مَنْ يَحْفَى
مَكْرَمَةَ	وَيَنْتَعِلُ
سَرَبَلْتَنِي حِكْمَةً قَدْ هَدَّبَتْ	وَأَجَبْتَ نَارَ ذَهْنِي فَهِيَ
شَيْمِي	تَشْتَعِلُ
أَكُونُ إِنْ شِئْتَ قُسًّا فِي	أَوْ حَارِثًا وَهُوَ يَوْمَ الْحَقْلِ
حَطَابَتِهِ	مُرْتَجِلُ
وَإِنْ أَسَأَ فِكْرَ رَبِّدٍ فِي	أَوْ مِثْلَ نِعْمَانَ لِمَا ضَاقَتْ
فِرَائِضِهِ	الْحَيْلُ
أَوْ الْخَلِيلِ عَرُوضِيًّا أَحَا	أَوْ الْكِسَائِي تَحَوَّبًا لَهُ عِلْلُ
فِطْنِ	كَمِثْلِ مَا عَرَفْتَ آبَائِي
تَعْلُو بَدَاهَةُ ذَهْنِي فِي	الْأَوَّلِ
مَرَكَبِهَا	مِنْ عَمْدِهِ فَدَرَى مَا الْعَيْشُ
وَفِي فَمِي صَارِمٍ مَا سَلَّهُ	وَالجَدَلُ
أَحَدِ	يَبْقَى بِجِدَّتِهِ مَا أَطَّتِ الْإِيْلُ
عُقْبَاكَ شُكْرٌ طَوِيلٌ لَا نِفَادَ	
لَهُ	

وقس الذي ذكر: هو قس بن ساعدة الإيادي، وقد سمع النبي، صلى الله عليه وسلم،  
شِعْرَهُ، وَعَجِبَ مِنْهُ.

وحارث: هو الحارث بن جلزة البشكري، وصف ارتجاله يوم قَحْرِهِ بقصيدته التي  
أَنشَدَهَا بِحَضْرَةِ عَمْرٍو بْنِ هِنْدٍ الَّتِي أَوْلَاهَا: الْخَفِيفُ:

أَدْنَتْنَا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ رُبْ ثَاوٍ يَمَلُّ مِنْهُ التَّوَاءُ

وزيد: هو زيد بن ثابت الأنصاري، وإليه انتهى علم الفرائض. ونعمان: هو أبو  
حنيفة النعمان - رضي الله عنه - بن ثابت، سبق أهل العراق في الفقه.  
والخليل بن أحمد الفَرُّهَوْدِي، ويقال: الْقَرَاهِيْدِي، منسوب إلى حيٍّ في الأزْد،  
اليحمرِي. والكسائي: علي بن حمزة الكوفي.

من إنشاء ابن العميد

وكتب أبو الفضل محمد بن العميد إلى بعض إخوانه:

أَنَا أَشْكُو إِلَيْكَ - جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ - دَهْرًا خَوْنًا عَدُّورًا، وَزَمَانًا جَدُّوعًا  
عَرُّورًا، لَا يَمْنَحُ مَا يَمْنَحُ إِلَّا رَبَّتْ مَا يَنْتَزِعُ، وَلَا يَبْقَى فِيمَا يَهَبُ إِلَّا رَيْثُ مَا  
يَرْتَجِعُ، يَبْدُو حَيْرُهُ لَمَعًا ثُمَّ يَنْقَطِعُ، وَيَحْلُو مَاؤُهُ جُرْعًا ثُمَّ يَمْتَنِعُ. وَكَانَتْ مِنْهُ  
شَيْمَةٌ مَالُوفَةٌ، وَسَجِيَّةٌ مَعْرُوفَةٌ، أَنْ يَشْفَعُ مَا يُبْرِئُهُ بِقُرْبِ انْتِقَاضِ، وَيُهْدِي

لما يبسطه وَشُكَّ انقباض، وكنا تَلَبَّسُهُ على ما شرط، وإن خان وَقَسَط؛  
 وَتَرَضَى عَلَيَّ الرِّغْمَ بحكمه، وَتَسَيَّبَتْ بِقَصْدِهِ وظلمه، ونعتدُّ من أسباب  
 المسرَّة الأيجيء محذوره مصمتاً بلا انفراج، ولا يأتي مكروهه صِرْفاً بلا  
 مِرَاجٍ، وتتعلل بما نختليسه من عَقَلَاتِهِ، ونستَرِفُّهُ من ساعاته. وقد استحدث  
 غيرَ ما عرفناه سُنَّةً مبتدعة، وشريعةً متبعة، وأعدَّ لكلِّ صالحَةٍ من الفساد  
 حالاً، وَقَرَنَ بكلِّ حَلَّةٍ من المكروه خِلالاً. وبيان ذلك - جعلني الله فِدَاكَ -  
 أنه كان يَقْنَعُ من معارضته الإلفين، بنفريق ذاتِ البين، فقد أثني مَمْنُؤًا فيك  
 بجميع ما أوعَرَه، وما أطوبه من البِلَوَى منك أَكْثَرَ مما أنشُرَه، وأحسبني قد  
 ظَلَمْتُ الدهرَ بسوء الثناء عليه، وألزمته جُرْماً لم يكن قدره بما يحيط به،  
 وقدرته تَرْتَقِي إليه، ولو أنك أَعْنَتَهُ وظَاهَرْتَهُ، وقصدت صرفه وأَرَزْتَهُ،  
 وَبِعْتَنِي ببيع الخلق وليس فيمن زَادَ ولكن فيمن نقص، ثم أعرضت عني  
 إِعْرَاضَ غير مراجع، واطرحتني أطراح غير مُجَامِلٍ؛ فهلاً وجدت نفسك أهلاً  
 للجميل حين لم تَجِدْنِي هناك، وَأَنْقَدْتَ من جِلٍّ ما عقدت من غير جريمة،  
 ونكثت ما عهدت من غير جريرة، فَأَجِبْنِي عن واحدة منهما؛ ما هذا التَّغَالِي  
 بنفسك، والتَّغَالِي على صديقك؟ ولم تَبَدِّدْتَنِي تَبَدُّ النِوَاةِ، وطَرَحْتَنِي طَرْحَ  
 القَدَاةِ؟ ولم تَلْفِظْنِي من فيك، وتمجني من حلقك؟ وأنا الحلال الخلو،  
 والبارد العذب، كيف لا تُحْطِرْنِي بِالكِ حَظْرَةٍ، وتُصِيرْنِي من أشغالك مرة؛  
 فترسل سلاماً إن لم تتجشَّم مكاتبة، وتذكرني فيمَن تَذَكَّرُ إن لم تكن  
 مخاطبة؟ وأحسب كتابي سَيَرُدُّ عَلَيْكَ فتنكره حتى تثبتت، ولا تجمع بين  
 اسم كاتبه وتَصَوِّرُ شخصه حتى تتذكر؛ فقد صرت عندك مِمَّن مَحَا النسيانُ  
 صورته من صدرك، واسمه من صحيفة حِفْظِكَ، ولعلك أيضاً تتعجب من  
 طمعي فيك وقد توليت، واستمالي لك وقد أبيت، ولا عجب فقد يتفجر  
 الصَّخْرُ بالماء الزلال، وَيَلِينُ مَنْ هو أقسى منك قلباً فيعود إلى الوصال،  
 وآخر ما أقوله أن ودي وَقَفَ عَلَيْكَ، وَحَبَسُ فِي سَبِيلِكَ، ومتى عدت إليه  
 وجدته غصاً طربياً، فَجَرَّبَهُ فِي المَعَاوِدَةِ فإنه في العود أَحْمَدُ.  
 اجتليت هذا الكلام على اختيار الاختصار.

حلُّ قوله فقد يتفجر الصَّخْرُ بالماء الزلال من قول ابن الرومي: مجزوء  
 الرمل:

يا شبيه البدر في الحس      ن وفي بُعْدِ المَنَالِ  
 جُدُّ فقد تتفجر الصَّخْرُ      رة بالماء الزُّلالِ

وفي هذه الرسالة في ذكر قَنَحٍ وإن لم يستبق منه المعنى: وقد خصنا الله  
 تعالى معاشرَ عُبَيْدِ الأميرِ عضد الدولة بنعمة يعلو مراتب النعم مَوْقِعُهَا،  
 ويفوت مقدار المواهب موضعها، فباسمِهِ - أبقاه الله - فُتِحَ القَنَحُ، وبشعاره  
 اسْتُنْزِلَ النَجْعُ، وَيُؤْمَنُ نَقِيْبَتَهُ فُرْجُ الكَرْبِ، وبسعادة جَدِّهِ كَثِيفِ الحَطْبِ،  
 وباهتزازهِ للدولة وحمايته عاد إليها ماؤها، وراجعها بهاؤها، فعز الملك وتُصِرُ،  
 وذلل العدو وفُهِرُ، وَحُمِيَتْ أطرافُ الدولة، وَحُفِظَتْ أكنافُ الملة، واستجد  
 نظام النعمة، وسُدِّلَتْ ستورُ الصيانة دون الحرمة؛ ولو جعل المولى - تقدس  
 اسمه - لنعمته إذا تناهت على عبيده جزاءً غَيْرَ الإخْلَاصِ في شكره، وقيل ما  
 في مقابلة المَوْهَبَةِ التي يستجدها عند خَلْقِهِ غَيْرَ الإغْرَاقِ في حَمْدِهِ، لرأيت  
 ألا أقتصر في قضاء حَقِّهِ على بعض الملك دون بعض، ولجعلت في صَدْرِ ما  
 أبذل عن هذه النعمة الأَعَزِّينَ؛ الأهل والولد، والأنصِرِينَ؛ الساعد والعُصْدُ، بل  
 العميدين؛ القلب والكبد؛ بل النفس كلها، والمُهَجَّة بأسرها.

ما قيل في العتاب

وقال سعيد بن حميد يعاتبُ بعض إخوانه: الكامل:

أقلل عتابك فالبقاء قليل  
لم أهلك من زمن دَمَمْتُ  
صُروفه  
والدهر يَعِدِلُ تارةً ويميلُ  
إلا بكَيْتُ عليه حين يَزُولُ

ولكلِّ نائبةٍ أَلَمْتُ مُدَّةً  
تَخْوِيلُ

والمنتمون إلى الإخاء  
جماعة  
ولعل أحداثَ المنيةِ  
والردى  
فلئن سَبَقْتُ لتبكين  
بحسرة  
ولتفَجَعَنَّ بِمُخْلِصٍ لكَ  
وامق

ولئن سَبَقْتُ ولا سبقت ليمضيَنَّ لا  
يُشْكَالُه لَدَيْ خَلِيلٍ

وليذهبَنَّ بهاءُ كل مروءةٍ  
المأهول

وأراك تَكَلَّفُ بالعتاب  
وؤدُنَا

ودَّ بَدَا لَدَوِي الإخاءَ جماله  
ولعلَّ أيامَ الحياةِ قليلةٌ  
ويَطْوُلُ؟

وقال أيضاً: الطويل:

لقد ساءني أن ليس لي عنك  
مَذْهَبُ

وأفكر في ود تقادم بيننا  
مَرَعَبُ

وأنت سقيمُ الودِّ رَتَّ حِبَالُه  
التجنبُ

ثُسيءٌ وتَأبَى أن تعقب  
مُذْنِبُ

وأحذُرُ إن جازيت بالسوء  
أَنْجَبُ

أساء اختياراً أو عَرَّته مَلَاكُه  
يتعَبُّ

فخبثُ من الود الذي كان  
حُلْبُ

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر: الطويل:

إلى كم يكونُ الصَّدُّ في كلِّ ساعةٍ  
وَلَمْ لا تَمَلَنَّ القطيعةَ والهَجْرًا؟  
رويدك! إنَّ الدهرَ فيه بقيَّةٌ لتفريقِ ذاتِ البينِ فانتظرِ  
الدَّهْرَ

آخر: الكامل:

ولقد علّمت فلا تكن متجنباً  
حَسْبُ الأحيّةِ أن يفرّقَ بينهم  
أن الصدودَ هو الفِرَاقُ الأوّلُ  
صَرَفَ الزمانِ، فما لنا تَسْتَعِجِلُ؟

آخر: الطويل:

دَرِ النفسَ تأخذُ وُسْعَها قبلَ بينها  
فمفترقِ جارانِ دارهما العمرُ

ويقرب من المعنى قول المتنبي أيضاً: الخفيف:

رَوَيْنا من حُسْنِ وجهك ما دَا وَصَلِيْنا تَصَلِّكِ في هذه الدَّنِ  
مَ فَحَسُنُ الوجوهِ حالٌ يَحْوُلُ يا فَإِنَّ المُقامَ فيها قَلِيْلُ

ما يتعلق بالأعراب

وقف أعرابي يسأل، فعُيِّث به فتى، فقال: ممن أنت؟ فقال: من بني عامر ابن صعصعة، فقال: من أيهم؟ فقال: إن كنت أردت عاطفة القرابة فليكفك هذا المقدار من المعرفة، فليس مقامي بمقام مُجادلة ولا مفاخرة، وأنا أقول: فإن لم أكن من هاماتهم فلسْتُ من أعجازهم. فقال الفتى: ما رويت عن فضيلتك إلا النقص في حسبك، فامتعض الأعرابي لذلك؛ فجعل الفتى يَعْتَذِرُ، ويخلط الهزل والدعابة باعتذاره، وأطال الكلام، فقال له الأعرابي: يا هذا، إنك منذ اليوم أذيتني بمزجك، وقطعتني عن مسالتي بكلامك واعتذارك، وإنك لتكشف عن جهلك بكلامك ما كان السكوت يَسْتُرُه من أمرك، وَيُحَكُّ! إنَّ الجاهل إن مَرَحَ أَسْحَطَ، وإن اعتذر أفرط، وإن حدث أسقط، وإن قدر تسلط، وإن عزم على أمر تورط، وإن جلس مجلس الوقار تبسط، أعودُ منك ومن حال اضطررتني إلى احتمال مثلك! وقال إسحاق الموصلي: قال أعرابي لرجل كان يعتمده بالعطية: اسأل الذي رحمني بك أن يرحمك بي.

وسأل أعرابي رجلاً، فأعطاه، فقال: الحمد لله الذي ساقني إلى الرزق وساقك إلى الأجر.

من إنشاء بديع الزمان الهمذاني

ومن إنشاء البديع من مقامات الإسكندري:

قال: حدّثنا عيسى بن هشام قال: أفضتُ بي إلى بلخ تجارة البرّ، فوردتها وأنا بقَرَوَة الشباب وبالِ الفراغ، وجليّة الثروة، لا يهمني إلا نزهة فكر أستفيدها، وشريفة من الكلام أصيدها، فما استأذن علي سَمْعِي مسافة مُقامي، أفصح من كلامي. ولما حنى التفرق بنا قوسه أو كاد، دخل إليّ شابٌ في زي مِلءِ العَيْنِ، ولحية تَشْوُكُ الأخدَعَيْنِ، وطَرْفٌ قد شرب بماء الرّافدين، ولقيني من البرّ في السناء، بما زدّته من الشكر والثناء؛ ثم قال: أظعننا تُريد؟ قلت: إي والله، فقال: أخصّب الله رائدك، ولا أصل قائدك، فمتى عرّمت؟ فقلت: غداً غد، فقال: الوافر:

صباح الله لا صبْحُ انطلاقِ وطير الوصلِ لا طيرُ الفِراقِ

قال: أين تريد؟ قلت: الوطن، قال: بُلِّغَتِ الْوَطَنُ، وَقَصَّيْتُ الْوَطَرَ، فمتى العود؟ قلت: القابل؟ قال: طَوَّيْتُ الرَّيْطَ، وَتَيَّيْتُ الْخَيْطَ، فإين أنت من الكرم؟ قلت: بحيث أردت؟ قال: إذا رجعت الله من هذه الطريق، فاستصحب لي عدواً في بردة صديق، من نجار الصُّفْر، يدعو إلى الكفر، ويرقص على الطفر، كدارة العين، يحط ثقل الذين، وينافق بوجهين! فعلمت أنه يلتمس ديناراً، قلت: لك ذلك نقداً، ومثله وغداً، فأنشأ يقول: مخلص البسيط:

رَأَيْتُكَ مِمَّا حَاطَبْتُ أَعْلَى  
صَلَبْتُ عُوداً وَفُقْتُ جُوداً  
لَا أَسْتَطِيعُ الْعَطَاءَ حَمَلاً  
قَصُرْتُ عَنِ مُنْتَهَاكَ طَنّاً  
يَا رَحْمَةَ اللَّهِ وَالْمَعَالِي  
لَا زِلْتُ لِلْمَكْرُمَاتِ أَهْلاً  
وَطَيْتُ فِرْعَاً وَطَيْتُ أَصْلاً  
وَلَا أَطِيقُ السُّؤَالَ ثِقْلاً  
وَطَلْتُ عَمَّا طَنَنْتُ فِعْلاً  
لَا لَقَيْتُ الدَّهْرَ مِنْكَ تُكْلاً

قال عيسى بن هشام: فُئِلْتُهِ الدِّينَارُ، وَقُلْتُ: مَنْ أَيْنَ نَبَتْ هَذَا الْفَضْلُ؟ قَالَ: تَمَتَّنِي قَرِيشٌ، وَمُهَّدٌ لِي الشَّرْفُ فِي بَطْحَانِهَا. فَقَالَ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ: أَلَسْتَ أبا الْفَتْحِ السَّكَنْدَرِيِّ؟ أَلَمْ أَرَكَ بِالْعِرَاقِ، تَطُوفُ بِالْأَسْوَاقِ، مُكَدِّياً بِالْأَوْرَاقِ؟ فَأَنْشَأَ يَقُولُ: مَجْزُوءُ الرَّمْلِ:

إِنَّ لَلَّهِ عَبِيداً  
فَهُمْ يُمَسُّونَ أَعْرَا  
أَخَذُوا الْعُمَرَ خَلِيطاً  
بَا وَيُصْخُونُ نَبِيطاً

وله إلى أبي نصر الميكالي يشكو إليه خليفته بهراً: كتابي، أطال الله بقاء الشيخ الجليل، والماء إذا طال مُكَّتَهُ، ظَهَرَ خُيْبُهُ، وَإِذَا سَكَنَ مَتْنُهُ، تَحَرَّكَ نَتْنُهُ، كَذَلِكَ الضَّيْفُ يَسْمُجُ لِقَاؤُهُ، إِذَا طَالَ تَوَاؤُهُ، وَيَثْقُلُ ظِلُّهُ، إِذَا انْتَهَى مَحَلُّهُ، وَقَدْ حَلَبْتُ أَشْطَرَ خَمْسَةَ أَشْهُرٍ بِهَرَاةٍ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ دَارَ مِثْلِي لَوْلَا مُقَامُهُ، وَمَا كَانَتْ تَسْعُنِي لَوْلَا دِمَامُهُ، وَلِي فِي بَيْتِي قَيْسٌ مَثَلُ صَدُوقٍ، وَإِنْ صَدَّرَا مَصْدَرَ عِشْقٍ: الطويل:

وَأَدَّتْنِي حَتَّى إِذَا مَا سَبَيْتَنِي  
بِقَوْلِ يُحِلُّ الْعُصْمَ سَهْلَ  
تَجَاقَيْتَ عَنِّي حَيْثُ لَا لِي  
وَحَلَفْتَ مَا خَلَفْتَ بَيْنَ  
حَيْلَةٍ  
الْجَوَانِحِ

نعم. قنصتني نَعَمُ الشَّيْخِ الْجَلِيلِ، فَلَمَّا عَلِقَ الْجَنَاحَ، وَقَلِقَ الْبَرَّاحَ، طَرَتْ مَطَارَ الرِّيحِ، بَلْ مَطَارَ الرُّوحِ، وَتَرَكْتَنِي بَيْنَ قَوْمٍ يَنْقُضُ مَسْهُمَ الطَّهَارَةِ، وَتُوهِنُ أَكْفَهُمُ الْحَجَارَةَ، وَحَدَّثَتْ عَن هَذَا الْخَلِيفَةِ، بَلْ الْجَيْفَةِ، أَنَّهُ قَالَ: قَضَيْتُ لِفَلَانٍ خَمْسِينَ حَاجَةً مِنْذُ وَرَدَ هَذَا الْبَلَدِ، وَلَيْسَ يَقْنَعُ، فَمَا أَصْنَعُ؟ فَقُلْتُ: يَا أَحْمَقُ، إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَرَانِي مُحْتَاجاً، فَاسْتَطَعْتَ أَنْ أُرَاكَ مُحْتَاجاً إِلَيْكَ. أَفَ لِقَوْلِكَ وَلِفَعْلِكَ، وَلِدَهْرِ أَحْوَجَ إِلَى مِثْلِكَ! وَأَنَا أَسْأَلُ الشَّيْخَ الْجَلِيلَ أَنْ يَبِيضَ وَجْهِي بِكِتَابِ يُسَوِّدُ وَجْهَهُ، وَيَعْرِفَهُ قَدْرَهُ، وَيَمْلَأَ رَعْباً صَدْرَهُ، إِلَى أَنْ تَبِينَ عَلَى صَفْحَاتِ جَنْبِهِ، أَنَاؤُ ذَنْبِهِ.

وله إليه يعاتبه:

قَدْ عَرَفْتُ الشَّيْخَ الْجَلِيلَ الْإِسْأَمِيَّ بِعِبُودِيَّتِهِ، وَلَوْ عَرَفْتُ وَرَاءَ الْعِبُودِيَّةِ مَكَاناً لَبَلِغْتَهُ مَعَهُ، وَأَرَانِي كُلَّمَا قَدَمْتُ ضُحْبَةً، رَجَعْتَ رُتْبَةً، وَكُلَّمَا طَالَتْ خِدْمَةٌ، قَصُرَتْ حِشْمَةٌ، وَلَسْتُ مِمَّنْ يَذْهَبُ عَلَيْهِ أَنْ لِلْسُلْطَانِ أَنْ يَرْفَعَ عَبْدًا حَبْشِيًّا، وَيَصَّعَ قُرْشِيًّا، وَلَكِنْ أَحَبُّ أَنْ أَقِفَ مِنْ مَكَانِي عَلَى رُتْبَةٍ كَوَكَيْهَا لَا يَغُورُ، وَمَنْزِلَةٍ لَوْئُهَا لَا يَدُورُ، فَإِذَا عَرَفْتُ قَدْرِي وَخَطَهُ، لَمْ أَتَخَطَّهُ، ثُمَّ إِنْ رَأَيْتُ مُحَلِّي وَحْدَهُ، لَمْ أَتَعَدَّهُ، إِنْ قَدَّمَنِي يَوْمًا عَلَيْهَا عَلِمْتُ أَنْ عِنَايَةً قَدَّمْتَنِي، وَإِنْ أَخْرَنِي عَنْهَا عَلِمْتُ أَنْ جِنَايَةً أَخْرَنِي. رُفِعَ عَلَيَّ الْيَوْمَ فَلَانٌ وَلَسْتُ أَنْكِرُ بَيْنَهُ وَقَضْلَهُ، وَلَا أَحْجِدُ بَيْنَهُ وَأَصْلَهُ، وَلَكِنْ لَمْ تَجْرِ الْعَادَةُ بِنَقْدَمِهِ، لَا فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ، وَلَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَالِيَةِ؛ وَشَدِيدٌ عَلَى الْإِنْسَانِ مَا لَمْ يُعُودْ؛ فَإِنْ كَانَ

حاسدٌ قد هم، أو كاشح قد نم، أو خَطْبٌ قد ألم، أو أمرٌ قد رقع وتم، فالشيخُ  
الجليلُ أولى من يعرفه ويعرفُ فيه، وإلا فما الرأي الذي أوجب اصطناعي، ثم  
ضياعي، والسبب الذي اقتضى بيّعي بعد ابتياعي؟  
عود إلى المأمون

ولما رضي المأمون عن إبراهيم بن المهدي أمر به فأدخل عليه، فلما وقف بين يديه  
قال: وليُّ الثار محكم في القصاص، ومن تناوله الاعتزاز بما مُدَّ له من أسباب الرجاء  
أمن عادية الدهر من نفسه، وقد جعلك الله تعالى فوق كل ذي ذنب، كما جعل كل ذي  
ذنب دونك، فإن أخذت فبحقك، وإن عفوت فبفضلك. ثم قال: المجتث:

دَنَّبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ وَأَنْتَ أَغْمٌ مِنْهُ  
فَخُدُّ بِحَقِّكَ، أَوْ لَا فَاصْفَحْ بِفَضْلِكَ عَنْهُ

إِنْ لَمْ أَكُنْ فِي فِعَالِي مِّنَ الْكِرَامِ فَكُنْهُ

فقال لي: إني شاورت أبا إسحاق والعباس في قتلك، فأشارا به، قال: فما قلت لهما يا  
أمير المؤمنين؟ قال: قلت لهما: بداناه بإحسان، ونحن نستأمره فيه، فإن غير فالله  
يغير ما به، قال: أما أن يكونا قد نصحا في عظيم ما جرت عليه السياسة فقد فعلا  
وبلغا ما يبلغك، وهو الرأي السديد، ولكنك أبيت ألا تستجلب النصر إلا من حيث عودك  
الله. ثم استعبر باكيا، فقال له المأمون: ما يبكيك؟ قال: جدلا! إذ كان دَنَّبِي إِلَيَّ مَن  
هذه صفته في الإنعام، ثم قال: إنه وإن كان قد بلغ جُرْمِي استحلال دمي، فعلم أمير  
المؤمنين وقضله بلغاني عفوه، ولي بعدهما شفاعة الإقرار بالذنب، وحق الأبوّة بعد  
الأب. فقال: يا إبراهيم، لقد حُبِّبَ إِلَيَّ العفو حتى خِفْتُ ألا أوجر عليه، أما لو علم  
الناس ما لنا في العفو من اللذة لتقرَّبوا إلينا بالجنايات، لا تُثْرِبَ عَلَيْكَ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكَ،  
ولو لم يكن في حقِّ نسبك ما يبلغ الصفح عن جرمك لبلغك ما أملت حسنُ تنصُّلك  
ولطف توصلك، ثم أمر برد ضياعه وأمواله، فقال: البسيط:

رَدَدْتَ مَالِي وَلَمْ تَبْخَلْ عَلَيَّ وَقَبْلَ رَدِّكَ مَالِي قَدْ حَقَنْتَ  
بِهِ دَمِي

وَقَامَ عِلْمُكَ بِي فَاحْتَجَّ عِنْدَكَ مَقَامَ شَاهِدٍ عَدْلٍ غَيْرِ  
لِي مَتَّهِمِ

فَلَوْ بَدَلْتُ دَمِي أَبْغِي رِضَاكَ وَالْمَالِ حَتَّى أَسْلُ النَّعْلَ مِنْ  
بِهِ قَدَمِي

مَا كَانَ ذَاكَ سِوَى عَارِيَّةٍ لَوْ لَمْ تَهْبِئْهَا لَكُنْتَ الْيَوْمَ لَمْ  
تَسْلَقْنِي

أخذ معنى قول المأمون: لقد حُبِّبَ إِلَيَّ العفو حتى خفت ألا أوجر عليه أبو تمام الطائي  
فقال: الكامل:

لَوْ يَعْلَمُ الْعَافُونَ كَمَا لَكَ فِي مَن لَذَّةٍ وَقَرِيحَةٍ لَمْ تَحْمُدِ  
النَّدَى

فكان أبو تمام في هذا كما قال أبو العباس المعتز في القاسم بن عبيد الله:  
إذا ما مدحناه استعنا بفعله فناخذ معنى قولنا من فعالة

وكان تصويب إبراهيم لرأي أبي إسحاق المعتصم والعباس بن المأمون  
الطف في طلب الرضا ودفع المكروه واستمالتهما إلى العاطفة عليه من  
الإزراء عليهما في رأيهما، وكان إبراهيم يقول: والله ما عفا عني لرحم ولا  
لمحبة؛ ولكن قامت له سوق في العفو كره أن يفسدها بي.  
وكان المأمون شاور في قتل إبراهيم أحمد بن أبي خالد الأحول، فقال: إن  
قتلته فلك نظير؛ وإن عفوت عنه فلا نظير لك؛ فأختار لك العفو.  
بين المأمون وإسحاق بن العباس

وقال المأمون لإسحاق بن العباس: لا تحسبني أغفلت أمر ابن المهدي وتأبيدك له، وإيقادك لِناره.

قال: والله يا أمير المؤمنين لأجرام قريش إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أعظم من جُرمي إليك؛ ولرحمي أمس بك من أرحامهم؛ وقد قال لهم كما قال يوسفُ علي نبينا وعليه الصلاة والسلام لأخوته: "لا تثرِبَ عليكم اليومَ يَعْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ". وأنت يا أمير المؤمنين، أحقُّ وارثٍ لهذه الأمة في الطول، وممثلٌ لخلال العفو والفضل.

قال: هيهات! تلك أجرامٌ جاهلية عفا عنها الإسلام، وجُرمك جُرمٌ في إسلامك، وفي دار خلافتك.

قال: يا أمير المؤمنين، فوالله للمسلم أحقُّ بإقالة العنزة وعُفْران الذنب من الكافر. وهذا كتاب الله بيني وبينك إذ يقول: "وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنةٍ عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين".

والناس يا أمير المؤمنين، نسبة دخل فيها المسلم والكافر، والشريف والمشروف.

قال: صدقت، ورَيْتُ بك زنادي، ولا بَرِحْتُ أرى من أهلك أمثالك.

في الاستعطاف

وقال رجل لبعض الملوك وقد وقف بين يديه: أسألك بالذي أنت بين يديه غداً أدل مني بين يديك اليوم، وهو على عقابك أفدّر منك على عقابي، إلا ما نظرت في أمري تطر من بُرئي أحب إليه من سُقْمِي، وبراءتي أحب إليه من بليتي.

وأراد معاوية عقوبة روح بن زباع فقال: يا أمير المؤمنين، أنشدك الله تعالى ألا تضع مني خسيصة أنت رفعتها، أو تنقض مني مبريرة أنت أبرمتها، أو تشمت بي عدواً أنت كبت، وحاسداً بك وقمته؛ وأسألك بالله إلا أرى جلمك على خطئي وصفحك على جهلي.

فقال معاوية رضي الله عنه: إذا لله ثنى عقد شيء تيسرا.

أشار إلى هذا أبو الطيب المتنبي إذ قال: الطويل:

أزل حسد الحساد عني      فأنت الذي صيرتهم لي  
بكبئهم      حسدا  
إذا شدّ رندي حُسنُ رأيك في      صرَيْتُ بسيفٍ يقطع الهام  
يدي      مُعمداً

عفو الملوك

وعتّب المأمون على بعض خاصته، فقال: يا أمير المؤمنين، إن قديم الحرمة وحديث التوبة يَمْخُوان ما بينهما من الإساءة. قال: صدقت، وعفا عنه.

وكان في ملوك فارس ملك عظيم المملكة، شديدُ النعمة، فقرب له صاحب المطبخ طعامه، فنقطت نُقطة من الطعام على المائدة، فَرَوَى له الملك وجهه، وعلم صاحب المطبخ أنه قاتله، فعمد إلى الصَّحفة فكفأها على المائدة ثم ولى، فقال له الملك: ما حملك على ما فعلت، وقد علمت أن سقوط النقطة أخطأ بها يدك ولم يَجْر بها تعمُّدك، فما عندك في الثانية؟ قال: استحييتُ للملك أن يُوجب قتلي، ويبيح دم مثلي، في سني وخرميتي، وقديم اختصاصي وخدمتي، في نُقطة أخطأ بها يدي، فاردتُ أن يعظم دُني ليحسُنَ بالملك قتلي.

قال: لئن كان اعتذارك يُنجيك من القتل، فليس يُنجيك من التأديب، اجلدوه مائة جلد، واخلعوا عليه خلع الرضا.

وخرج بهرام جور متصيِّداً فعنَّ له حمار ووحش ، فأتبعه حتى صرعه، وقد انقطع عن أصحابه، فنزل عن فرسه يريدُ دَبْحَه، وبصَّرَ براع فقال: أمسك عليّ قَرسِي، وتشاغل بذبح الحمار، وحانتُ منه التفاتة، فنظر إلى الراعي يقطع جَوْهَرِ عِذارِ فرسه، فحوّل بهرام جور وَجْهَهُ وقال: تأملُ العيبِ عَيْب، وعقوبةٌ من لا يستطيع الدفاع عن نفسه سَقَه، والعفوُ من أفعال الملوك، وسُرْعَةُ العقوبة من أفعال العامة.

ثم قال: يا غلام، ما بال شَرِيانِك يضطربُ لعقك آذاك تكسيرُنا أرضك بحوافر حَيْلنا، فقال: نعم، وقد عزمْتُ على أن أنقل مائة فرسخ، فقال بهرام: لا تُرَع؛ فهذا الموضع وما فيه لك، وكان الراعي خبيثاً، فقال: إن الملوك إذا قالت قولاً تَمَّتْ على قولها، فرجع بهرام إلى عسكره وقال: اتبعني لأوثق لك من هذه الأرض، فأتبعه، فلما بصُر به الوزير قال: أيها الملك السعيد، إني لأرى جَوْهَرِ عِذارِ فرسك مُقْلَعاً، فتبسّم وقال: أخذه من لا يرده، ورأه من لا ينمُّ به، فَمَنْ أخذه صاحبنا ولا يُطالبه به.

نقل ابن الرومي قول بهرام: تأمل العيب عَيْبُ كما اتفق موزوناً فقال: المجتث:

تأملُ العَيْبِ عَيْبُ	مَا فِي الَّذِي قُلْتُ رَبُّبُ
وكلُّ حَيْرٍ وَشَرٍ	دُونَ الْعَوَاقِبِ عَيْبُ
وربُّ جَلَبَابِ هَمٍ	فِيهِ مِنَ الصَّبِغِ جَيْبُ
لا تحقِرَنَّ سُبَيْباً	كَمْ قَادٍ خَيْراً سَيِّبُ
أخذ البيت الأخير من قول الطائي: مخلص البسيط:	
رب قليل غدا كثيراً	كَمْ مَطَرٍ بَدُوهُ مُطَيِّرُ

وقوله: الخفيف:

لا تزيَلنُ صَغِيرَ هَمِّكَ وانظُر	كَمْ بذي الأثَلِ دوحَةٌ مِنْ
	قَصِيبِ

وقد أعاد ابن الرومي قوله: المجتث:

وكلُّ حَيْرٍ وَشَرٍ	دُونَ الْعَوَاقِبِ عَيْبُ
---------------------	---------------------------

في قصيدته التي مدح بها أحمد بن محمد بن ثوبة حين ساوره، وقال: لو أتى لبيد لتعجب منه، فاستجزله وقال: الطويل:

ولما دَعَانِي لِلْمُثَوْبَةِ سَيِّدِ	يَرَى الْمَدْحَ عَاراً قَبْلَ بَدَلِ
تتارَ عني رَعْبٌ وَرَهْبٌ	الْمَنَابِ
كِلَاهُمَا	قَوِي، وَأَعْيَانِي طُلُوعِ
فقدَمْتُ رِجْلاً رَعْبَةً فِي	الْمَعَايِبِ
رَعْبِيَّةِ	وَأَخْرْتُ رِجْلاً رَهْبَةً
أخاف على نَفْسِي وَأَرْجُو	لِلْمَعَاظِبِ
مفَارَها	وَأَسْتَأْزِرُّ عَيْبَ اللَّهِ دُونَ
أَلَا مَنْ يُرِينِي عَائِتِي قَبْلِ	الْعَوَاقِبِ
مَذْهَبِي	وَمِنْ أَيْنَ وَالْغَايَاتُ بَعْدَ
	الْمَذَاهِبِ

???رجع إلى إنشاء بديع الزمان

نسخة رقة كتبها بديع الزمان إلى أبي علي إسماعيل يعتذر إليه: سوء الأدب من سكر اللذّب، وسكر الغضب من الكيائثر التي تنالها المغفرة، وتسعها المغذرة، وقد جرى بحضرة الشيخ ما جرى، وقد أفتيت يدي عصاً، وأسنانني رَضاً، وإن لم أوف ما جرى

فَالْعُدْرُ أُمَّدٌ خَطَأً، فَإِنْ كَانَ بِسَاطِطاً يَطْوِي، وَحَدِيثاً لَا يُرْوَى، فَأُولَى مَنْ عَدَّرَ اللَّاعِبَ،  
وَأُخْرَى مِنْ عَقْرِ الصَّاحِبِ؛ وَإِنْ كَانَ مَيْتاً يُنْشَرُ، وَسَبباً يُذَكَّرُ، فَلْيَكُنِ الْعِقَابُ مَا كَانَ، إِنْ  
لَمْ يَكُنِ الْهَجْرَانِ، عَلَى أَنِّي قَدْ أَخَذْتُ قِسْطِي مِنَ الْعِقَابِ، وَاسْتَقَدْتُ مِنْ رَدِّ الْجَوَابِ،  
مَا كَفَى وَأَوْجَعَ الْقَعَا؛ فَكَانَ مِنْ مُوجِبِ أَدَبِ الْخِدْمَةِ، إِبْقَاءُ الْحِشْمَةِ لَوْلِي النِّعْمَةِ،  
بِاحْتِمَالِ الشُّنْمِ، وَالْإِغْضَاءِ عَنِ الْخِصْمِ، لَكِنِّي أَخَدَقْتُ بِي ثَلَاثَةَ أَحْوَالٍ لَا يَسْلُمُ صَاحِبُهَا؛  
اللَّعِبِ وَسُكْرِهِ، وَالْخِصْمِ وَهُجْرِهِ، وَالْإِدْلَالَ وَالثِّقَةَ، وَهَنْ اللَّوَاتِي حَمَلْنِي عَلَى مَاءِ الْوَجْهِ  
فَهَرَفْتُهُ، وَحِجَابِ الْحِشْمَةِ فَحَرَقْتُهُ، وَقَدْ مَنَعَنِي الْآنَ قَرْطُ الْحَيَاءِ مِنْ وَشِكِّ اللَّقَاءِ،  
وَعَهْدِي بِوَجْهِي وَهُوَ أَضْفَقُ مِنَ الْعُدْمِ الَّذِي حَمَلْنِي عَلَى جَهْلِهِ، وَأَوْقَحُ مِنَ الدَّهْرِ الَّذِي  
أَحْجَنِي إِلَى أَهْلِهِ؛ لَكِنِ النِّعْمُ إِذَا تَوَالَتْ عَلَى وَجْهِ رَقَّتْ قِسْرَتُهُ، وَالْأَنْتُ بَسْرَتُهُ؛ وَأَنَا  
مُنْتَظَرٌ مِنَ الْجَوَابِ مَا يَرِيشُ جَنَاحِي إِلَى خِدْمَتِهِ، فَإِنْ رَأَى أَنْ يَكْتُبَ فَعَلَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.  
وَلَهُ رَقْعَةٌ إِلَى أَبِي عَلِيٍّ بِنِ مَشْكُوبِهِ أَوْلَاهَا: الطَّوِيلُ:

وَيَا عَزَّ إِنِّ وَاشٍ وَشَى بِي  
عِنْدَكُمْ  
فَلَا تُمְهِلِيهِ أَنْ تَقُولِي لَهُ: مَهْلًا

كَمَا لَوْ وَشَى وَاشٍ بَعِزَّةً  
عِنْدَنَا  
لَقَلْنَا: تَرَّخَّحَ لَا قَرِيباً وَلَا أَهْلًا

بَلْغَنِي، أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الشَّيْخِ أَنْ قِيضَةَ كَلْبٍ وَاقْتَهُ بِأَحَادِيثٍ لَمْ يُعْرِهَا  
الْحَقُّ نَوْرَهُ، وَلَا الصِّدْقُ ظَهْوَرَهُ، وَأَنَّهُ - أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ - أَذِنَ لَهَا عَلَى مَجَالِ  
أُذُنِهِ، وَفَسَحَ لَهَا فِنَاءَ ظَنِّهِ، وَمَعَاذَ اللَّهِ أَنْ أَقُولَهَا، وَأَسْتَجِيزَ مَعْقُولَهَا؛ بَلْ قَدْ  
كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ الشَّيْخِ عِتَابٌ لَا يَنْزِلُ كَنْفَهُ وَلَا يَجْدُفُ، وَحَدِيثٌ لَا يَتَعَدَى  
النَّفْسَ وَضَمِيرَهَا، وَلَا يَعْرِفُ الشِّفَةَ وَسَمِيرَهَا، وَعَزْبَدَةٌ كَعَرْبَدَةٌ أَهْلُ  
الْفَضْلِ، لَا تَتَجَاوَزُ الذَّلَالَ وَالْإِدْلَالَ، وَوَحْشَةٌ لَا يَكْشِفُهَا عِتَابٌ لِحِطَّةٍ، كَعِتَابِ  
جَحْطَةِ، فَسَبْحَانَ مَنْ رَبِّي هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى صَارَ أَمْرًا، وَتَأْبَطُ شَرًّا، وَأَوْجَبَ  
عُدْرًا، وَأَوْحَشَ حُرًّا. وَسَبْحَانَ مَنْ جَعَلَنِي فِي حَيْزِ الْعَدُوِّ أَشِيمَ بَارِقَتِهِ،  
وَأَتَخَوَّفُ صَاعِقَتَهُ، وَأَنَا الْمَسَاءُ إِلَيْهِ، وَالْمَجْنِيُّ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ مِنْ بُلِيٍّ مِنْ  
الْأَعْدَاءِ بِمِثْلِ مَا بُلِيَّتِ، وَرُمِي مِنَ الْحَسَدِ بِمَا رُمِيَتْ، وَوَقَفَ مِنَ التَّوْحُدِ  
وَالْوَحْدَةِ حَيْثُ وَقَفْتُ، وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَكَارِهِ مَا وَصَفْتُ، اعْتَذَرَ مَظْلُومًا،  
وَصَحَّكَ مَشْتُومًا، وَلَوْ عِلْمَ الشَّيْخِ عِدَّةَ أَوْلَادِ الْجَدِّ، وَأَبْنَاءِ الْعَدْدِ، بِهَذَا الْبَلَدِ،  
مِمَّنْ لَيْسَ لَهُ هَمٌّ إِلَّا فِي سَعَايَةِ أَوْ شِكَايَةِ أَوْ حِكَايَةِ أَوْ نِكَايَةِ، لَضَنَّ، بِعَشْرَةِ  
غَرِيبٍ إِذَا بَدَرَ، وَبَعِيدٍ إِذَا حَضَرَ، وَلِصَانَ مَجْلِسِهِ عَمَّنْ لَا يَصُونُهُ عَمَّا رَقِيَ  
إِلَيْهِ، وَهَبْنِي قَدْ قَلْتُ مَا حَكَى، أَلَيْسَ الشَّائِمُ مَنْ أَسْمِعُ، وَالْجَانِي مَنْ أُبْلَغُ؟  
فَقَدْ بَلَغَ مِنْ كَيْدِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَنَّهُمْ حِينَ صَادَفُوا مِنَ الْأَسْتَاذِ نَفْسًا لَا تُسْتَفْزَرُ،  
وَجِبَالًا لَا يَهْرُ، وَشَوْا إِلَى خِدْمَتِهِ بِمَا أَرْتَوْا نَارَهُمْ، وَوَرَدَ عَلَيَّ مَا قَالُوهُ فَمَا  
لَبِثْتُ أَنْ قَلْتُ: الطَّوِيلُ:

فَإِنَّ تَكُّ حَرْبٍ بَيْنَ قَوْمِي  
وَقَوْمِهَا  
فَإِنِّي لَهَا فِي كُلِّ نَائِبَةٍ سَلْمٌ

وَلْيَعْلَمْ الْأَسْتَاذُ أَنَّ فِي كَيْدِ الْأَعْدَاءِ مِنْ جَهْمَةِ، وَأَنَّ فِي أَوْلَادِ الزُّنَا عِنْدَنَا كَثْرَةٌ، وَقُضَارَاهُ  
نَارٌ يَشْبُونَهَا، وَعَقْرَبٌ يُدْتَبُونَهَا، وَمَكِيدَةٌ يَطْلُبُونَهَا، وَلَوْلَا أَنَّ الْعُدْرَ إِقْرَارٌ بِمَا قِيلَ، وَأَكْرَهُ  
أَنْ أَسْتَقِيلَ، لِبَسْطِ فِي الْإِعْتِزَارِ شَادِرُونَ، وَدَخَلَتْ فِي الْإِسْتِقَالَةِ مَيْدَانًا، لَكِنَّهُ أَمْرٌ لَمْ  
أَضَعُ أَوْلَهُ، فَلَمْ أَتَدَارِكْ آخِرَهُ.  
وَقَدْ أَبِي الشَّيْخِ أَبُو مُحَمَّدٍ - أَيُّدُهُ اللَّهُ - إِلَّا أَنْ يَوْصَلَ هَذَا النَّثْرَ الْفَاتِرَ بِنِظْمِ مِثْلِهِ فَهَآكِهِ  
يَلْعَنُ بَعْضُهُ بَعْضًا: السَّرِيعُ:

مَوْلَايَ إِنْ عَدْتُ وَلَمْ تَرْضَ  
لِي  
أَنْ أَشْرَبَ الْبَارِدَ لَمْ أَشْرَبِ

إِمْتَطِ خَدِي وَانْتَعِلْ نَاطِرِي  
وَصِدُّ بَكْفِي حُمَةَ الْعَقْرِ

تالله ما أنطق عن كاذب  
فالصفو بعد الكذب المفتري  
إن أجتني الغلظة من سيدي  
أو يفسد الزور على تاقدي

ولعلَّ الشيخَ أبا محمد - أيده الله - يقوم من الاعتذار بما قعد عنه القلم  
واللسان؛ فنعم رائد الفضل هو، والسلام.

فقرُّ من كلام سهل بن هرون للمأمون  
كان المأمون استتقل سَهْلَ بن هرون، فدخل عليه يوماً، والناسُ على  
مَراتبهم، فتكلم المأمون بكلام دَهَب فيه كل مذهب؛ فلما فرغ من كلامه  
أقبل سهلُ بن هرون على الجَمع فقال: ما لكم تسمعون ولا تعون،  
وتشاهدون ولا تَفْقَهُون، وتفهمون ولا تتعجَّبون، وتتعجَّبون ولا تُنصفون؟ والله  
إنه ليقول ويفعلُ في اليوم القصير ما فعل بنو مروان في الدهر الطويل،  
عَرَبُكُمْ كعجمكم، وَعَجَمُكُمْ كعبيدكم، ولكن كيف يَعْرِف الدواء من لا يشعر  
بالدواء؟ فرجع المأمونُ فيه إلى الرأي الأول.

من ترجمة سهل بن هرون، وأخباره  
وكان أبو عمرو سهل بن هرون من أهل ميسان، نزل البصرة فُنسب إليها، وهو القائل:  
الكامل:

يا أهل ميسان السلام عليكم  
أما الوجوهُ ففِيضَةٌ مُزجت  
أُترِبْدُ كلب أن أناسبها  
أجعلت بيتاً فوق رابية  
كَبَيْتِ شَعِيرٍ وَسَطِ مَجْهَلَةٍ

وكان سهل شعوبياً، والشعبوية فِرْقَةٌ تتعصب على العرب وتتنقضها، وكان  
أبو عبيدة يُرمى بذلك.

وسهل ظريفٌ عالم حسنُ البيان، وله كتب ظريفة صنفها معارضاً للأوائل  
في كتبهم بما لا يستصوبه منهم، حتى قيل له: بزر جمهر الإسلام وقال  
يمدح رجلاً: الطويل:

عدوُّ تِلَادِ المَالِ فِيمَا يَنْوِيهِ  
مَذَلَّ نَفْسٍ قَدْ أَبَتْ غَيْرَ أَنْ  
تَرَى

وهذا نظير قوله في كتاب تَعَلَّةٍ وَعُفْرَةٍ الذي عارض به كيلة ودمنة: اجعلوا أداء ما  
يَجِبُ عليكم من الحقوق مقدماً قبل الذي تجودون به من تفضلكم؛ فإن تَقْدِيمِ النافلة  
مع الإبطاء عن الفريضة مُظَاهِرٌ على وَهْنِ العقيدة، وتقصير الروية، ومُضِرٌّ بالتدبير،  
محل بالاختيار، وليس في نفع محمدية عَوْضٍ من فساد المروءة ولروم النقيصة. وكتابه  
هذا مملوء حكماً وعلماً. وسهل القائل: الطويل:

تقسمني هَمَانٍ قَدْ كَسَفَا  
بِالِي  
هَمَا أَذْرِيَا دَمْعِي، وَلَمْ تَذِرْ  
عَبْرَتِي  
وَلَا فَهْوَةٌ لَمْ يَبْقَ مِنْهَا عَلَى  
الْمَدَى  
تَحَلَّلَ مِنْهَا جِرْمُهَا

وقد تركا قَلْبِي مَحَلَّةً بَلْبَالِ  
رَهِينُهُ خِذْرُ ذَاتِ سِمِطِ  
وخلخالِ  
سوى أن تحاكي النور في  
رأس ذيالِ  
لها نَفْسٌ معدوم على الزمن

وتماسكت  
ولكما أبكي بعين سخينة  
فراق خليل لا يقوم به  
الأسى  
فواحسرتي حتى متى القلب  
موجع  
وما الفضل إلا أن تجود  
بنائل  
وهو القائل: البسيط:

إذا امرؤ ضاق عني لم يضق  
خُلقي  
لا أطلبُ المال كي أعتى  
بفضلته  
وأنشده الجاحظُ يهجو رجلاً البسيط:  
من كان يعمُر ما شادت  
أوائله  
ما كان في الحق أن تحوي  
فعالهم  
فأنتَ تعمُر ما شادوا وما  
سمكوا  
وأنت تحوي من الميراث ما  
تركوا

وقال محمد بن زياد الزيادي: وجدُّ علي سهل بن هرون في بعض الأمر، فهجوته، فكتب إلي؛ أما بعد، فالسلام على عهدك وداع ذي صن بك، في غير مقلية لك، ولا سلوة عنك، بل استسلام للتلوي في أمرك، وإقرار بالمعجزة في استعطافك، إلى أوان فيئك، أو يجعل الله لنا دولة من رجعتك، والسلام.  
وكتب في أسفل الكتاب: المنسرح:

إن تغف عن عبدك المسيء  
ففي  
أنت ما استحق من خطي  
من عطات الحسن البصري

وقال الحسن البصري، رحمه الله في يوم فطر وقد رأى الناس وهياتهم: إن الله تبارك وتعالى جعل رمضان مضمراً لخلقه، يستيقنون فيه بطاعته إلى مَرْضاتِهِ، فسبق قوم ففازوا، وتخلف آخرون فخابوا، فالعجب من الضاحك اللاعب في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون، ويخسر فيه المبتطلون، أما والله لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه ومسيء بإساءته.  
ونظر إلى قوم منصرفين من صلاة الفطر يتدافعون ويتضاحكون، فقال: الله المستعان! إن كان هؤلاء قد تقرر عندهم أن صومهم قد تُقبل فما هذا محل الشاكرين، وإن علموا أنه لم يتقبل فما هذا محل الخائبيين.  
وكان الحسن من الخطباء التَّسَاكُ الفقهاء الأجواد، ويقال: إنه لم يكن تابعيًّا أفضل منه.

هذا قول أهل العراق جميعاً، وأهل الحجاز يقدمون سعيد بن المسيب عليه، وكان سعيداً أحسن من الحسن ورعاً، وأشد الناس حذراً، وأقلهم كلاماً.  
وكان الحسن لا يدع أن يتكلم بما هجس في نفسه، وجاش في صدره.  
وعلى ذكر الحسن شهر رمضان نقول:

ألفاظ لأهل العصر

في التهنة بإقبال شهر رمضان

مع ما يتصل بها من الأدعية

ساق الله تعالى إليك سعادة إهلاله، وعزفك بركة كماله. قسم الله لك من فضله، ووفقك لقرضه وتقبله. لقاك الله ما ترجو، ورفاك إلى ما تحته فيما تملوه. جعل الله ما أظلك من هذا الصوم مقروناً بأفضل القبول، مؤذناً بدرك البغية ونجح المأمول، ولا أخلاك من بر مرفوع، ودعاء مسموع. قابل الله تعالى بالقبول صيامك، وبعظيم المتوبة تهجدك وقيامك. عرفك الله من بركاته ما يُزبي على عدد الصائمين والقائمين، ووفقك الله لتحصيل أجر المتجهدين. أسأل الله تعالى أن يضاعفه بمنه لك، ويجعله وسيلة بقبوله إلى مرضاته عنك. أعاد الله إلى مولاي أمثاله، وتقبل فيه أعماله، وأصلح في الدين والدنيا أحواله، وبلغه منها أماله. أسعده الله بهذا الشهر، ووفاه فيه أجر المَثُوبَةِ والأجر، ووفر حظه من كل ما يرتفع من دُعاء الداعين، وينزل من ثواب العاملين، وقبل مساعيه وزكاها، ورفع درجاته وأعلاها، وبلغه من الآمال مُنتهاها، وظفر بأبعدها وأقصاها.

وقال الحسن: من أخلاق المؤمن قوة في دين، وحزم في لين، وحرص على العلم، وقناعة في فقر، ورحمة للمجهود، وإعطاء في حق، وبر في استقامة، وفقه في يقين، وكسب في حلال.

وقال محمد بن سليمان لأبي السماك: بلغني عنك شيء، قال: لا أباليه، قال: ولم؟ قال: لأنه إن كان حقاً غفرته، وإن كان باطلاً كذبتة. وقال محمد بن صبيح المعروف بابن السماك، خير الإخوان أقلهم مصانعة في النصيحة، وخير الأعمال أحلاها عاقبة، وخير الثناء ما كان على أفواه الأخيار، وأشرف السلطان ما لم يخالطه البطر، وأغني الأغنياء من لم يكن للجزص أسيراً، وخير الإخوان من لم يخاصم، وخير الأخلاق أعونها على الورع، وإنما يختبر ود الرجال عند الفاقة والحاجة.

ووصف بعض البلغاء رجلاً فقال: إنه بسيط الكف، رخب الصدر، موطأ الأكناف، سهل الخلق، كريم الطباع، عيئت مغيث، وبخر زخور، صخوك السن، بشير الوجه، بادي القبول، غير عبوس، يستقبلك بطلاقة، ويحييك ببشر، ويستدبرك بكرم عيب، وجميل سر، تهجك طلاقته، ويرضيك بشره، صخاك على مائدته، عبء لضيافته، غير ملاحظ لأكيله، بطين من العقل، خميص من الجهل، راجح الجلم، ثاقب الرأي، طيب الخلق، محصن الضريبة، معطاء غير سائل، كاس من كل مكرمة، عار من كل ملامة، إن سئل بذر، وإن قال فعل.

قال أبو الفتح كشاجم: الطويل:

من الرِّيحِ والصافي الرقيق من  
الحَمْرِ  
ولو كنت طيباً كنت من عَبْر  
الشَّخْرِ  
ولو كنت عوداً ما افتقرت إلى  
رَمْرِ

مزاك للمنتى من العودِ  
والصِّبَا  
فلو كنت وُرداً كنت وُرداً  
مُضَاعِفاً  
ولو كنت لَحْناً كنت تَأليفِ  
مَعْبِدِ

وقال أعرابي: الطويل:

ألا حَبذا البُرْدُ الذي      ويا حَبذا مَنْ باعكَ البُرْدَ من  
تَلَبَّسِينَهُ      تَجَرَّ  
فلو كنت ماءً كنت ماءً      ولو كنت دَرًّا كنت من دُرِّةٍ  
غمامةٍ      بكرٍ  
ولو كنت لَهْوَاً كنت تَعْلِيلَ      ولو كنت تَوْماً كنت إغفاءةٍ  
ساعةٍ      الفَجْرِ  
ولو كنت لَيْلاً كنت قَمَرَاءَ      نُحُوسِ لَيْالي الشَّهْرِ أو ليلةِ  
جُنبت      القَدْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
نَبذَ مِنْ أَلْفَاظِ بَلْغَاءِ أَهْلِ الْعَصْرِ

تجري في المدح مجرى الأمثال، لحسن استعارتها، وبراعة تشبيهاتها: فلان مسترضعٌ تَدَيُّ المجد، مُفْتَرِشٌ حَجَرَ الفضل، له صَدْرٌ تَضِيقُ به الدَهْتَاءُ، وَتَفَرَّعَ إليه الدَهْمَاءُ، له في كلِّ مكرمة عَزْرَه الإصباح، وفي كلِّ فضيلة قَادِمَةٌ الْجَنَاحُ، له صورة تستنطق الأَفْوَاهَ بالنسيح، ويترَفَّرِقُ فيها ماءُ الكرم، وتقرأ فيها صحيفة حُسْنِ البشر، تحيا القلوب بلفائه، قبل أن يُمِيتَ الفَقْرَ بعطائه، له خُلُقٌ لو مُزجَ به البحرُ لنفى مُلُوحَتَه، وكفى كدورته. هو عِذَاءُ الحياة، ونسيم العشق، ومادَّةُ الفَضْلِ، أراؤه سكاكين في مفاصل الحُطُوبِ، له هِمَّةٌ تعزل السماءَ الأَعَزْلَ، وتجرُّ دَيْلِها على المجرَّة، هو راجحٌ في موازين العَقْلِ، سابقٌ في ميادين الفَضْلِ، يَفْتَرَعُ أباكارَ المكارم، ويَرَفَعُ مَنَارَ المحاسن، ينباع الجود يتفجر من أنامله، وربيعُ السماءِ يَصْحَكُ من قِوَاضِيهِ. هو بيتُ القصيدة، وأولُ الجريدة، وعَيْنُ الكتيبة، وواسطة القلادة، وإنسانُ الحدقة، ودُرَّةُ التاج، ونقشُ الفِصِّ! وهو ملح الأرض، ودِرْعُ المِلَّةِ، ولسانُ الشريعة، وحِصْنُ الأمة. هو عُرَّةُ الدَّهْرِ والزمان، وناظرُ الإيمان. له أخلاقٌ خُلِقْنَ من الفَضْلِ، وشيَمَ تُشَامُ منها بَوَارِقُ المَجْدِ، أرح الزمانُ بفضله، وعَقَمَ النساءُ عن الإتيانِ بِمِثْلِهِ. الجميلُ لديه مُعْتَادٌ، والفضلُ منه مبدوءٌ ومُعَادٌ، مَالُهُ لِلْعَقَاةِ، مُبَاحٌ، وفِعَالُهُ فِي ظِلْمَةِ الدهرِ مُصْبَاحٌ، كَأَنَّ قَلْبَهُ عَيْنٌ، وكَأَنَّ جِسْمَهُ سَمْعٌ، يرى بأولِ رَأْيِهِ آخرَ الأمرِ، جوهر من جواهر الشرف لا من جواهر الصَّدْفِ، ويقاوتة من يواقيت الأحرار، لا يواقيت الأحجار، طلعته للبشاشة عليها ديباجة حُسْرٍ وَائِيَّةٍ، وفيها للطلاقة روضة ربيعية. وَجْهُهُ كَأَنَّ بَشَرَتَهُ نَشْرَ البَشَرِ، ومواجهته أمانٌ من الدَّهْرِ. يصل ببشره، قبل أن يَصِلَ بِبِرِّهِ، قد لحظت من وجهه الأنوار، ومن بَتَانِهِ النُّوَارِ. أنا من كرم عشرته، وطلاقة أسيرته، في روضة وغدير، وجنةٍ وحرير، وهو بَحْرٌ من العلم ممدود بسبعة أبحر، ويومُه من يومِ الأدب كعمر سبعة أنسُر. العلم حَشْوُ ثِيَابِهِ، والأدب مِلءُ إهَابِهِ. هو شَخْصُ الأدب مائلاً، ولسانُ العلم قائلاً. شَجَرَةٌ فَضْلٌ عودها أدب، وأغصانها عِلْمٌ، وثمرتها عَقْلٌ، وعروقها سَرْوٌ، تسقيها سماءُ الحرِّيَّةِ، وتغذيها أرضُ المروءة. هم ملح الأرض إذا فسدت، وعمارَةُ الأرض إذا حَرِبَتْ، ومعرض الأيام إذا احتشدت! وهم جمالُ الأيام، وخواصُّ الأنام، وفرسانُ الكلام، وفلاسفة الإسلام. فلان عُصْنُ طَبَعِهِ تَضِيرُ، ليس له في مَجْدِهِ نظير، قد جمع الحِفْظَ الغزير، والفَهْمَ الصحيح، والأدب القويِّ القويم، وما يُؤْنِسُهُ من الوَحْشَةِ إلا الدفاتر، ولا يَصْحَبُهُ في الوَجْدَةِ إلا المحابر. فلان يحل دقائق الأشكال، ويُزيل معترض الإشكال. له خلق كنسيم الأشجار، على صفحات الأنوار. كالماء صَفَاءً، والمسك ذكاءً. أخلاق قد جمعت المروءة أطرافها، وحرست الحربة أكنافها.

أخلاق تجمع الأهواء المتفرقة على محبته، وتؤلف الآراء المتشعبة على مودته. أخلاق أعذب من ماء الغمام، وأحلى من ريق النحل، وأطيب من زمان الورد. أخلاق أحسن من الدرّ والعقيقان، في نحر الحسنان، وأذكى من جركات الروح والريحان. فلان يستحط القمر بطرفه، ويستنزل النجم بلطفه. هو خلو المذاق، سهل المساع. أجمل الناس في جدّ، وأحلام في هزل. يتصرف مع القلوب، كتصرف السحاب مع الجيوب. ذو جذ كعلو الجدّ، وهزل كحديقة الورد. له عشرة ماؤها يقطر، وصحوها من العصاره يمطر. هو ريحانة على القدح، وذريعة إلى الفرح. عشرته أطف من نسيم الشمال، على أديم الزلال، وألصق بالقلب، من علائق الحب. إذا أردت فهو سبحة ناسك، أو أحببت فهو ثقافة فاتك، أو اقترحت فهو مدرعة راهب، أو أثرت فهو نخبة شارب. أخباره زكية، وأثاره ذكية. أخباره تأتيها كما ونسى بالمسك رباه، وتم على الصباح محيّاه. قد انتشر من طيب أخباره ما زاد على المسك القيق، وأوقى على الزهر الأبيق. مناقب تشدخ في جبينها غرة الصباح، وتتهادى أنباءها وفود الرياح. فلان أخباره أثاره، وعينه فراره، قد حصل له من حميد الذكر، وجميل النشر، ما لا تزال الرواة تدرسه، والتواريخ تحرسه. سألت عن أخباره فكانني حرّكت المسك فتيقا، أو صبحت الروض أنيقا. أخباره متضوعة كتضوع المسك الأذقر، ومشرقة إشراق الفجر الأنور. أحبته بالخبر، قبل الأثر، وبالوصف قبل الكشف. هو ممن يثقل ميزان ودّه، ويخصف ميثاق عهده. هو كريم العهد، صحيح العقد، سليم الصدر في الود، حميد الورد فيه والصدّر. هو لإخوانه غدة تشدهم وتقويهم، ونور يسعى بين أيديهم. هو ركن الإخاء، صافي شرب الوفاء، حافظ على الغيب ما يحفظه على اللقاء. هو ممن لا تدوم المداهنة في عرصات قلبه، ولا تحوم المؤاربة على جنات صدره. هو ينسري إلى كرم العهد، في ضياء من الرشد. عهده نقش في صخر، ووده تنسب ملان من فخر. يقبل من إخوانه العفو، كما يوليهم من إحسانه الصفو. في وده غنى للطالب، وكفاية للراغب، ومراذ للصخب، وزاد للركب. هو في حيل الوفاء حاطب، وعلى فرض الإخاء مواظب. النجح معقود في نواصي آرائه، واليمن معتاد في مذاهب أنجائه. له الرأي الثاقب الذي تحقى مكايده، وتظهر عوائده، والتدبير الناقد الذي تتجع مبادئه، وتبهج تواليه. رأي كالمسهم أصاب غرة الهدف، ودهاء كالبحر في بعد العور وقرب المغترف، لا يضع رأيه إلا مواضع الأصالة، ولا يصرف تدبيره إلا على مواقع السداد والإصابة. يعرف من مبادئ الأقوال خواتم الأفعال، ومن صدور الأمور أعجاز ما في الصدور. رؤيته رأي صليت، وبديته قدر مصيب. يسافر رأيه وهو دان لم يرح، وبسير تدبيره وهو تاو لم ينزج. له رأي لا يخطئ شاكلة الصواب، ولا يخشى بادرة العثار. فلان يخمر الرأي ويحيله، ويجيد الفكر ويحيله، حتى يحصل على لب الصواب، ومحض الرأي. إذا أذكى سراج الفكر، أضاء ظلام الأمر، هو قطب صواب تدور به الأمور، ومستنبت صلاح يرد إليه التدبير. يرى العواقب في مزاة عقله، وبصيرة ذكائه وقضله. وله رأي يرد الخطب مصلما، والرمح مقلما. آراؤه سكاكين في مفاصل الخطوب، كأنه ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق، وبطالعه بعين السداد والتوفيق. يستنبت حقائق القلوب، ويستخرج ودائع الغيوب. قد سرينا من مشورته في ضياء ساطع، ومن رأيه الصائب في حكم قاطع. مسك فتيقا، أو صبحت الروض أنيقا. أخباره متضوعة كتضوع المسك

الأذقر، ومُشرقة إشراق الفجر الأنور. أحببته بالخبر، قبل الأثر، وبالوصف قبل الكشف. هو ممن يثقل ميزانُ وده، ويخصف ميثاق عهده. هو كريم العهد، صحيح العقد، سليم الصدر في الود، حميد الورد فيه والصدّر. هو لإخوانه غُدّة تشدّهم وتقويهم، ونور يسعى بين أيديهم. هو ركن الإخاء، صافي شرّب الوفاء، حافظ على الغيب ما يحفظه على اللقاء. هو ممن لا تدوم المداهنة في عرصات قلبه، ولا تحوم المواربة على جنبات صدره. هو يسري إلى كرم العهد، في ضياء من الرشد. عهده تقش في صخر، ووده تنسب ملان من فخر. يقبل من إخوانه العفو، كما يوليهم من إحسانه الصفو. في وده غنى للطالب، وكفاية للراغب، ومراد للصحب، وراد للركب. هو في حيل الوفاء حاطب، وعلى فرض الإخاء مواظب. النجح معقود في نواصي آرائه، واليمن معتاد في مذاهب أنحائه. له الرأي الثاقب الذي تحقى مكايده، وتظهر عوائده، والتدبير النافذ الذي تتجع مباديه، وتبهج تواليه. رأي كالسهم أصاب غرّة الهدف، ودهاء كالبحر في بُعد العور وقرب المغترف، لا يضع رأيه إلا مواضع الأصالة، ولا يصرف تدبيره إلا على مواقع السداد والإصابة. يعرف من مبادئ الأقوال خواتم الأفعال، ومن صدور الأمور أعجاز ما في الصدور. رؤيته رأي صليت، وبديته قدر مصيب. يسافر رأيه وهو دان لم يبرح، ويسير تدبيره وهو تاو لم ينزج. له رأي لا يخطئ شاكلة الصواب، ولا يخشى بادرة العثار. فلان يخمر الرأي ويحبله، ويجيد الفكر ويحبله، حتى يحصل على لب الصواب، ومحض الرأي. إذا أذكى سراج الفكر، أضاء ظلام الأمر، هو قطب صواب تدور به الأمور، ومستنبت صلاح يمد إليه التدبير. يرى العواقب في مراءة عقله، وبصيرة ذكائه وقضله. وله رأي يرد الخطب مصلماً، والرمح مقلماً. أراؤه سكاكين في مفاصل الخطوب، كأنه ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق، ويطالعه بعين السداد والتوفيق. يستنبت حقائق القلوب، ويستخرج ودائع الغيوب. قد سررتنا من مشورته في ضياء ساطع، ومن رأيه الصائب في حكم قاطع.

وقيل لبعض الملوك، وقد بلغ في القدر ما لم يبلغه أحد من ملوك زمانه: ما الذي بلغ بك هذه المنزلة؟ قال: عفو عند قدرتي، وليني عند شدّتي، وبدلي الإنصاف ولو من نفسي، وإبقائي في الحب والبغض مكاناً لموضع الاستبدال.

وقال الإسكندر لأحد الحكماء، وأراد سفراً: أرشدني لأحزم أمري. قال: لا تملأ قلبك من محبة الشيء، ولا يستولين عليك بغضه، واجعلهما قصداً؛ فإن القلب كاسمه ينزع ويرجع، واجعل وزيرك الثابت، وسميرك التيقظ، ولا تُقدم إلا بعد المشورة؛ فإنها نعم الدليل، فإذا فعلت ذلك ملكت قلوب رعيتك.

وقيل لبعض الحكماء: ما الحزم؟ قال: سوء الظن. قيل: فما الصواب؟ قال: المشورة. قيل: فما الرأي الذي يجمع القلوب على المودة؟ قال: كف بدول، وبشر جميل. قيل: فما الاحتياط؟ قال: الاقتصاد في الحب والبغض. وسئل بزرجمهر: ما المروءة؟ قال: تزك ما لا يعني. قيل: فما الحزم؟ قال: انتهاء الفرصة. قيل: فما الحلم؟ قال: العفو عند المقدرة. قيل: فما الشدة؟ قال: ملك الغضب. قيل: فما الخرق؟ قال: حب مفرق؛ وبغض مفرط.

قال معاوية، رضي الله عنه، لزيد حين ولّاه العراق: يا زباد، ليكن حُبُّك  
وبغضك قَصْدًا؛ فَإِنَّ الْعَثْرَةَ فِيهِمَا كَامِنَةٌ، واجعل للنزوع والرجوع بقية من  
قلبك، واحذرْ صَوْلَةَ الانهماك، فإنها تؤدي إلى الهلاك.

ومن كلام بلغاء أهل العصر

في ذكر السلطان

أبو القاسم صاحب: مَرْضَاة السلطان، لا تغلو بشيء من الأثمان، ولا يبدل  
الروح والجنان. تهب السلطان قَرْضٌ وَكَيْدٌ، وَحَتْمٌ عَلَى مَنْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ  
شهيد.

أبو إسحاق الصابي: الْمَلِكُ أَحَقُّ بِاصْطِفَاءِ رَجَالِهِ مِنْهُ بِاصْطِفَاءِ أَمْوَالِهِ؛ لَأَنَّهُ  
مع اتساع الأمر وجلالة القدر لا يكتفي بالوَحْدَةِ، ولا يستغني عن الكثرة؛  
ومثله في ذلك مثل المسافر في الطريق البعيد الذي يجب أن تكون عناية  
بفرسه المَجْتُوبِ، كعنايته بفرسه المركوب.

فصل للصابي: الْمَلِكُ بِمَنْ غَلَطَ مِنْ أَتْبَاعِهِ فَاتَّعَظَ أَشَدَّ انْتِفَاعًا مِنْهُ بِمَنْ لَمْ  
يغلط ولم يتعظ؛ فالأول كالقارح الذي أدبته العُرَّة، وأصلحته القَدَامَةُ، والثاني  
كالجَدَعِ الْمُتَهَوِّكِ الذي هو راكب للغرّة وراكن إلى السلامة.

وقيل: إن العظم إذا جبر من كسره عاد صاحبه أشد بطشاً وأقوى أيداً.  
أبو بكر الخوارزمي: لا صغير مع الولاية والعمالة، كما لا كبير مع العُطْلَةِ  
والبطالة؛ وإنما الولاية أنثى تصغر وتكبر بواليتها، ومطية تحسن وتقبح  
بمُطَّيِّبِهَا، والصّدْرُ لمن يليه، والدّست لمن جلس فيه، والأعمال بالعمال،  
كما أن النساء بالرجال.

فصل له: إن ولاية المرء ثوبه؛ فإن قصر عري منه، وإن طال عثر فيه. قليل  
السلطان كثير، ومُدَارَاؤُهُ حَزْمٌ وتديبر، ومكاشفته عُرُورٌ وتغبير.  
أبو الفتح البستي: أجهل الناس من كان على السلطان مُدْلًا، وللأخوان مُدْلًا.  
أبو الفضل ابن العميد: الإبقاء على حشم السلطان وعُمّاله عَدْلٌ الإبقاء على  
ماله، والإشفاق على حاشيته وحشمه مثل الإشفاق على ديناره ودرهمه.

وله من رسالة طويلة، جواب لأبي شجاع عضد الدولة عن كتاب اقتضاه فيه  
صدّر كتاب الله أبو الحسن الصوفي في نوع من علوم الهيئة:

أنا أقدم الإجابة بحمد الله تعالى جدّه، على ما وهب لنا معاشر عبده  
وخدمه خاصة، بل لرعاياه عامّة، بل لأهل الأرض كافة، من عظيم النعمة  
يمكنه، وجسيم الموهبة بإنفاق أعمارنا في زمانه، حتى شاركناه في  
أسباب السعادة التي لم تزل مدخورة عليه، حتى صارت إليه، وساهمناه  
في مواد الفضيلة التي لم تزل محفوظة له حتى اتصلت به؛ فإن المرء  
أشبه شيء بزمانه، وصفات كل زمان منتسخة من سجايا سلطانه؛ فإن  
فصل شاع الفضل في الزمان وأهله، وتحلى الدهر بأفضل جليته، وتجلي  
للعيون والقلوب بأحسن زينته، وكسا بينه والناشئين فيه بشرف جوهره،  
وأورثهم نيل فضله، وعز العلم وأهله، وعرف لمقتبسه قدره، وتوجهت  
الأذهان نحوه، وتعلقت إلخاوطر به، وصرفت الفكر فيه، ونشدت صوّاله،  
ونظم أشناته، وجمعت أفراده، ووثقت نفوس الساعين في استفادته  
بحسن عائدته، فحرصت عليه، وصرقت نظرها إليه، وأيقنت في بضاعتها  
بالتفاق، وفي تجارتها بالإزفاق، فصار ذلك إلى تمام العلوم وزيادتها داعية،  
ولتكثير قليلها وإيضاح مجهولها سبباً وعلّة، وإلى انخراط جواهرها  
المتفرقة في سلوك التصنيف سبيلاً، وإلى تقييد شواردها بعقل التأليف

طريقاً. وإن رذل السلطان اتبعت الرذيلة اتباعاً، وذهبت الفضائل ضياعاً، وبطلت الأقدار والقيم، وسلبت الأخطار والهمم، وزال العلم والتعلم، ودّرس الفهم والتفهم، وضرب الجهل بحرايه، ووطئ بمنسمه، واستعلت الخمول على النباهة، واستولى الباطل على الحق، وصار الأدب وبالاً على صاحبه، والعلم نكالاً على حامله. وبحسب عظيم المحنة بمن هذه صفتة، والبلوى مع من هذه صورته، تعظم النعمة بملك سلطان عالم، كالأمر الجليل عضد الدولة، أطال الله تعالى بقاءه، وأدام قدرته، الذي أحله الله عز وجل من الفضائل بملئها وطرقها ومجتمع فرقتها، فهي تواد ممن لاقت حتى تصير إليه، وشوارد نوازع حيث حلت حتى تقع عليه، تتلفت تلفت الرامق، وتتشوف إليه تشوف الصب العاشق، قد ملكها أتى توجهت وحشة المضاع وخيرة المرتاع: الطويل:

فإن تغش قوماً غيره أو  
فكالوحش يذنيها من الأتس  
المحل  
تزرهم

حتى إذا قابلته أسرعت إليه إسراع السيل ينصب في الحدور، والطير ينقض إلى الوكور.

وقال أبو الطيب المتنبي: المنسرح:

أحقت عاف بدمعك الهمم  
وإنما الناس بالملوك، وما  
لا أدب عندهم ولا حسب  
بكل أرض وطئها أمم  
يستحشون الحز حين يلمسوه  
أخذت شيء عهداً بها القدم  
تفليح عزب ملوكها عجم  
ولا عهود لهم ولا ذمم  
تزعى بعبد كأنها عتم  
وكان يبترى بظفره القلم

وقال الزبير بن بكار: قدم ابن ميادة، واسمه الرماح بن أبرد، زائراً لعبد الواحد بن سليمان، وهو أمير المدينة، فكان عنده ليلة في سماره؛ فقال عبد الواحد لأصحابه: إني لأهم أن أزوج فأبغوني أيماً، قال ابن ميادة: أنا - أصلحك الله - أدلك، قال: على من، يا أبا بشر، تميل؟ قال: قدمت عليك أيها الأمير، فلما قدمت ألفت المسجد وإذا أشبه شيء به وبمن فيه الجنة ومن فيها، فبينما أنا أمشي إذ قادني رائحة رجل عطر حتى وقفت عليه، فلما وقع بصري عليه استلهمي حُسنه ناظري، فما أقلعت ناظري حتى تكلم فما زال يتكلم كأنما ينثر دُرّاً، ويتلو زبوراً، ويدرس إنجيلاً، ويقراً فرقاناً، حتى سكت، فلولا معرفتي بالأمير ما شككت أنه هو، ثم خرج من مُصلاّه إلى داره، فسألت عنه، فأخبرت أنه من الحسن بمكانة، وأنه للخليفين، وأنه قد نالته ولادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لها ساطع من عزته؛ فإن اجتمعت أنت وهو على ولدٍ ساد العباد، وجاب ذكره البلاد.

فلما قضى ابن ميادة كلامه قال عبد الواحد ومن حضر: ذلك محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، رضي الله تعالى عنه، لفاطمة بنت الحسين بن علي، رضي الله عنهم.

وقال ابن ميادة: الطويل:

لهم سيرة لم يعطها الله  
غيرهم  
وكل قضاء الله فهو مقسم

هذا في تقابل نسبه، وكمال منصبه، كقول عوف القوافي في طلحة بن عبد الله الزهري: الطويل:

يضم رجال حين يدعون  
للندی  
ويدعى ابن عوف للندی  
فيجيب

وذاك امرؤ من أي عطفيه  
إلى المجد يحوي المجد وهو

يَلْتَفِتُ  
وعبد الواحد بن سليمان هذا هو الذي يقول فيه القطامي: البسيط:  
أَقُولُ لِلْحَرْفِ لَمَّا أَنْ شَكْتُ  
قَرِيبُ  
أَصْلًا  
إِنْ تَرْجِعِي مِنْ أَبِي عَثْمَانَ  
فَقَدْ يَهُونُ عَلَى الْمُسْتَنْجِحِ  
مَنْجِحَةً  
أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَا يَحْزَنُكَ  
إِذَا تَخَطَّأَ عَبْدَ الْوَاحِدِ الْأَجَلَ  
شَأْنَهُمْ

ومن قول القطامي: إن ترجعي من أبي عثمان منجحة أخذ الآخر قوله: الطويل:  
إِذَا مَا تَعَنَّى الْمَرْءُ فِي إِثْرِ  
فَأَنْجَحَ لَمْ يَثْقُلْ عَلَيْهِ عَنَاؤُهُ  
حَاجَةٌ

وهو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان، قال الكلبي: هو عبد الواحد ابن الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، والأول قول ابن السكيت. والقصيدة التي منها هذه الأبيات من أجود قوله، وفيها يقول مماً يتمثل به: البسيط:

وَالْعَيْشُ لَا عَيْشَ إِلَّا مَا تَقَرُّ بِهِ  
عَيْنٌ وَلَا حَالٌ إِلَّا سَوْفَ يَنْتَقِلُ  
وَالنَّاسُ مَنْ يَلْقَى خَيْرًا قَائِلُونَ  
لَهُ  
مَا يَشْتَهِي وَلَا مِمَّ الْمَخْطِئُ  
الْهَبْلُ

قَدْ يُدْرِكُ الْمَتَانِي بَعْضَ  
حَاجَتِهِ  
وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجَلِ  
الرَّزْلُ

قوله: والناس من يلق خيراً قائلون له مأخوذ من قول المرقش: الطويل:  
وَمَنْ يَلْقَى خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسُ  
وَمَنْ يَعْوَى لَا يَعْدَمُ عَلَى الْغِيِّ  
أَمْرُهُ  
لَأَمَّا

وقال عمرو بن سعيد للأخطل: أيسرك أن لك بشعرك شعراً؟ قال: لا، ما يسرني أن لي بقولي مقولاً من مَقَاوِيلِ الْعَرَبِ، غير أن رجلاً من قومي قال أبياتاً حسدته عليها، وإيم الله، إنه لمُعْدِفِ الْقِنَاعِ، ضَيْقِ الذَّرَاعِ، قَلِيلِ السَّمَاعِ، قال: وَمَنْ هُوَ؟ قال: القُطَامِيُّ، قال: وما هذه الأبيات؟ فأنشد له يَصِفُ إِبْلًا مِنْ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ: البسيط:

يَمْشِينَ رَهَوًا فَلَا الْأَعْجَازُ  
خَاذِلَةٌ  
وَلَا الصَّدُورُ عَلَى الْأَعْجَازِ  
تَشْكِلُ

فَهِنَّ مَعْتَرِضَاتُ وَالْحَصَا  
رَمِيضُ  
وَالرَّيْحُ سَاكِنَةٌ وَالظَّلُّ  
مَعْتَدِلُ

يَنْبَعْنَ سَامِيَةَ الْعَيْتَيْنِ  
تَحْسِبُهَا  
مَجْتُونَةٌ أَوْ تَرَى مَا لَا تَرَى  
الْإِبْلُ

بين اللفظ واللحن

قال أبو العتاهية لمخارق: أنت بنغم ألفاظك دون نغم الحانك، تُطْرِبُ إِذَا تَكَلَّمْتَ، فكيف إذا ترنمت!.

وقال له يوماً: يا حكيم هذه الأقاليم، اصبب في هذه الآذان من جيد تلك الألحان، فأقسم لو كان الكلام طعماً، لكان غناؤك له إداماً. قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: دخلت على المعتصم يوماً وقد خلا، وعنده جارية تُعَيَّبِيهِ، وكان معجباً بها، فلما جلست قال لي: يا أبا إسحاق، كيف تراها؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أراها تقهره بحدق، وتختله برفق، ولا تخرج من حسن إلا إلى أحسن منه، وفي حلقها شذور نغم أحسن من دوام النعم، قال: يا إسحاق، هي غايات الأمل، ومُنْسِيَّاتِ الْأَجْلِ، والسقم الداخل، والشغل الشاغل، وإن صفتك هذه لو سمعها من لم يرها لفقد لله، وقصى

تَحَبَّه.

وسئِلَ إسحاق عن المُجيد من المغنين، فقال: مَنْ لَطَفَ في اختلاسه، وتمكن من أنفاسه، وتفرَّع في أجناسه، يكادُ يَعْرِفُ ضمائرَ مُجَالِسِيهِ، وشهواتِ مُعَاشِرِيهِ، يَقْرَعُ مسمع كلِّ واحد منهم بالنحو الذي يُوافِقُ هواه، ويُطابقُ معناه.

وكان إسحاقُ بن إبراهيم قد جمع إلى جِدِّهِ بصناعتِهِ حُسْنَ التصرف في العلوم، وجَوْدَةَ الصنعة للشعر، و حَدَّثَ عن نفسه فقال: كنت أيام الرشيد أبكر إلى هُنَيْم ووكيع فأسمعُ منهما، ثم أنصرف إلى عاتكة بنت شهيد؛ فَنُطِرَ حُنِي صوتين، ثم أصير إلى زلزل الضارب فأخذُ منه طريقين، ثم أسير إلى منزلي فأبعث إلى أبي عبدة والأصمعي، فلا يَرَالانِ عندي إلى الظهر، ثم أذهبُ إلى الخليفة.

ونزل أبوه بالموصل وليس من أهلها فُنسِبَ إليها، وهو مولى خزيمة بن خازم التميمي، وفي ذلك يقول إسحاق: الطويل:

إذا مضى الحمراء كانت  
أرومتي  
عطلستُ بأنفي شامخاً  
وتناولتُ  
وقام يتصري خازمُ وابنُ  
خازمِ  
بتاني الثريا قاعداً غير قائمِ

وفيه يقول محمد بن عامر الجرجاني يرثيه: الطويل:

على الجدِّ الشرقيِّ عوجاً  
فسلما  
أإسحاق، لا تبعد، وإن كان قد  
رَمَى  
متى تأتبه يوماً تحاولُ  
مُنْفِسا  
إذا هزل اخضرتُ فروغُ  
حديثه  
وإن جدَّ كان القولُ جدّاً  
وأقسمتُ

ببغداد لما صدَّ عنه  
عوائدُه

بك الموتِ مرّى ليس يصدر  
وارِدُه

من الدين والدنيا فإنك  
واحدُه

ورقتُ حواشييه وطابتُ  
مشاهدُه

مخارجه ألا تلينَ شدائِدُه

ومن جيد شعر إسحاق قصيدته في إسحاق بن إبراهيم المصعبي بعد إيفاعه بالخرميّة: الطويل:

تَقَصَّتُ لَباناً وَجَدَّ رَجِيلُ  
وَمَدَّتْ أَكْفُ لِلوداعِ  
فصا قَحِيْتُ  
ولا بدُّ للألفِ مِنْ قَيْضِ عَبْرَةٍ  
فكم مِنْ دمٍ طلَّ يومِ  
تَحَمَّلْتُ  
غداً جَعَلْتُ الصبرَ شيئاً  
نَسِيْتُه  
ولم أنسَ مِنْهَا نظراً هاجَ لي  
بها

ولم يُشْفَ مِنْ أَهْلِ الصفاءِ  
غليلَ

وفاضت عيونُ للفراقِ  
تَسِيلُ

إذا ما حَلِيلُ بَانَ عَنْهُ حَلِيلُ  
أوانِسُ لا يُودَى لهن قَتِيلُ

وأعولتُ لو أجدى عَلَي  
عَوِيلُ

هَوَى مِنْهُ بادٍ طاهرٌ ودَخِيلُ

كما نظرت حوراء في ظلِّ  
 سِدْرَةٍ  
 فلا وصلَ إلا أن تلافاه أيقنُ  
 إذا قلبت أجفانها بتئوفَةٍ  
 تفرد إسحاق بئضح أميره  
 يفرج عنه الشك صدقُ  
 عزيمَةٍ  
 أغرَّ نجيبُ الوالدين كأنه  
 بني مُصعبٍ، للمجد فيكم إذا  
 بدتْ  
 كُرمتم فما فيكم جبانُ لدى  
 الوغى  
 غلبتم على حُسنِ الثناء  
 قراقم  
 إذا استكثر الأعداء ما قلتُ  
 فيكم  
 وهذا نمط الحذاق الفحول، وقال: الطويل:  
 ومدرجة للريح عَبْرَاء لم  
 يكن  
 يَصِلُ بها الساري وإن كان  
 هادياً  
 تعسفتُ أبري جَوْرَها  
 بشملةٍ  
 كأن سَرارِ المَرُو من تَبْذِها  
 بهِ  
 إذا صَمَّها والسفَر ليلُ  
 فغيبتُ  
 تنادوا فصاروا تحت أكنافِ  
 رَحْلِها  
 وقال: الطويل:  
 ولما رأينَ البَيِّنَ قد جدَّ  
 جدُّه  
 دتوتاً فسلمنا سلاماً  
 مُخالساً  
 تصدُّ بلا بُغْضٍ ونخلس  
 لمحةً  
 نداد إذا حُمننا لنشفي غلَّةً  
 وما أحسن ما قال أبو العباس الناشئ في هذا المعنى: الطويل:  
 دَعَاها إلى ظلِّ الكِتاسِ  
 مَقِيلُ  
 عِتاق تَمَاهَا شَدَقْمٌ وَجَدِيلُ  
 طوى البعدَ منها هزَّةً  
 ودَمِيلُ  
 فليس له عند الإمام عَدِيلُ  
 ولُبُّ به يعلو الرجالَ أصيلُ  
 حسامٌ جَلَّتْ عنه العيون  
 صقيلُ  
 وجوهكم للناظرين دَلِيلُ  
 ولا منكم عند العطاء بَخِيلُ  
 ثناءً بأفواه الرجالِ جَمِيلُ  
 فإن الذي يستكثرون قَلِيلُ  
 لِيَجَسَّمها زَمِيلَةٌ عَيرِ صَارِمِ  
 وتقطعُ أنفاسَ الرياحِ  
 التَّواسِمِ  
 بعيدة ما بين العرى  
 والمَحازِمِ  
 نجومٌ هَوَتْ إحدى الليالي  
 العوائِمِ  
 دياجيرهم عنهم رؤوس  
 المعالمِ  
 ليهديهم قَدْحُ الحَصَى  
 بالمَناسِمِ  
 ولم يبقَ إلا أن تَبِينِ  
 الرَكائبُ  
 فردَّتْ علينا أعيُنُ وحواجِبُ  
 إذا غفلت عنا العيونُ  
 الرواقِبُ  
 كما زيدَ عن وريدِ الحِياضِ  
 العَرَائِبُ

ولما رأين البين زُمتِ ركابهُ

طلبن على الرّكبِ المجدين  
عِلَّةً

فلما تلاقينا كتبتن بأعْيُنٍ

فلما قرأناهنَّ سِرّاً طويتهَا

وقال إسحاق: الطويل:

ألا مَنْ لقلبٍ لا يزالُ رَمِيَّةً

وللخُمُرِ اللاتي تساقط  
لونها

وصف الذوائب

وعلى ذكر الذوائب قال ابن المعتز:  
الطويل:

سَقَيْتِي فِي لَيْلٍ شَبِيهَ بِشَعْرِهَا  
فَأَمْسَيْتِ فِي لَيْلَيْنِ بِالشَّعْرِ  
وَالدَّجَى

وقال بكر بن النطاح: الكامل:

بِيضَاءُ تَسْحَبُ مِنْ قِيَامِ  
شَعْرِهَا

فكَأَنَّهَا فِيهِ نَهَازٌ مَبْصُرٌ

وقال المتنبي: الكامل:

نَشَّرْتُ ثَلَاثَ ذَوَائِبٍ مِنْ  
شَعْرِهَا

وَاسْتَقْبَلْتُ قَمَرَ السَّمَاءِ  
بِوَجْهِهَا

وقال ابن الرومي: المنسرح:

وَفَاحِمٌ وَارِدٍ يُقْبَلُ مَمٌّ  
أَقْبَلَ كَاللَّيْلِ فِي مَفَارِقِهِ

حَتَّى تَنَاهَى إِلَى مَوَاطِئِهِ  
كَأَنَّهُ عَاشِقٌ دَنَا شَغْفًا

يُغْشِي عَوَاشِي قَرُونِهِ قَدَمًا  
مِثْلَ الثَّرِيَّا إِذَا بَدَتْ سَحْرًا

أخذه بعض أهل العصر - وهو محمد بن مطران - فقال: الطويل:

طِبَاءٌ أَعَارَتْهَا الطَّبَا حُسْنَ  
مَشِيهَا

فَمِنْ حُسْنِ ذَاكَ الْمَشِيِّ  
قَامَتْ فَقَبَّلَتْ

وقال مسلم بن الوليد: الطويل:

أَجْدُكَ هَلْ تَدْرِيْنَ أَنْ رُبَّ لَيْلَةٍ

وَأَيَقَنَّ مَنَّا بِانْقِطَاعِ  
المطالِبِ

فَعُجِّنَ عَلَيْنَا مِنْ صُدُورِ  
الرَّكَائِبِ

لَنَا كَثْبًا أَعْجَمَتْهَا بِالْحَوَاجِبِ

جِذَارِ الْأَعَادِي بَارُورَارِ  
المناكِبِ

لِلْمَحَّةِ طَرْفٍ أَوْ لِكِسْرَةِ  
حَاجِبِ

فَتُورِ الْخَطَا عَنْ وَارِدَاتِ  
الذَوَائِبِ

شَبِيهَةً خَدَيْتِهَا بِغَيْرِ رَقِيْبِ

وَخَمْرَيْنِ مِنْ رَاحٍ وَخَدِّ حَبِيْبِ

وَتَغِيْبُ فِيهِ وَهُوَ جَثْلٌ أَسْحَمٌ

وَكَأَنَّهُ لَيْلٌ عَلَيْهَا مَظْلِمٌ

فِي لَيْلَةٍ فَأَرَتْ لِيَالِي أَرْبَعَا

فَأَرْتِنِي الْقَمَرَيْنِ فِي وَقْتِ  
مَعَا

شَاهُ إِذَا اخْتَالَ مُسْبِلًا عُذْرَهُ

مِنْخَدِرًا لَا يُرَامُ مُنْخَدَرَهُ

يَلْتَمُّ مِنْ كُلِّ مَوْطِئٍ عَقْرَهُ  
حَتَّى قَضَى مِنْ حَبِيْبِهِ وَطْرَهُ

بِيضَاءَ لِلنَّاطِرِينَ مُقْتَدِرَهُ  
بَعْدَ غَمَامٍ وَحَاسِرٍ حَسْرَهُ

كما قد أعارتها العيون  
الجاذِرُ

مواطئ من أقدامهن  
الغدائرُ

كَأَنَّ دُجَاهَا مِنْ قَرُونِكَ يُنْشَرُ

نَصَبْتُ لَهَا حَتَّى تَجَلَّتْ يُغْرَّةٌ كَعُرَّةٍ يَحْيَى حِينَ يُذَكِّرُ جَعْفَرَ

القصيدة والإنسان

قال الحاتمي: مثلُ القصيدة مثلُ الإنسان في اتِّصالِ بعضِ أعضائه ببعض؛ فمتى انفصلَ واحدٌ عن الآخر وبأيتِه في صحَّةِ التركيب، غادر الجسمَ ذا عاهةٍ تتخوَّنُ محاسنَه، وتُغْفِي معالِمَه؟ وقد وجدتُ خُذَّاقَ المتقدِّمين وأربابَ الصناعاتِ من المحدثين يحترسون في مثل هذا الحال احتراساً يجتنبهم شوائبُ النقصان، ويقفُ بهم على محجَّةِ الإحسان، حتى يقع الاتِّصالُ، ويؤمن الانفصال، وتأتي القصيدةُ في تناسُبِ صدورِها وأعجازِها وانتظامِ نسيبِها بمديحِها كالرسالةِ البليغةِ، والخُطبةِ الموجزةِ، لا يفصلُ جزءٌ منها عن جزء، وهذا مذهبُ اختصَّ به المحدثون؛ لتوفِّدِ خواطرهم، ولطفِ أفكارهم، واعتمادهم البديعِ وأفانينه في أشعارهم، وكأنه مذهبُ سهَّلوا حَزَبَهُ، ونهجوا رَسْمَهُ؛ فأما الفحول الأوائِل، ومَنْ تَلَّاهُمْ مِنَ المخضرمين والإسلاميين فمذهبتهم المتعالِم عددٌ عن كذا إلى كذا وقصَّارَه كلُّ واحدٍ منهم وَصَفُ ناقتهِ بالعتق، والتَّجَابَةُ والنَّجاء، وأنه امتطَّاهَا؛ فأدَّرعَ عليها جِلَّتَابَ الليل؛ وربما اتَّفَقَ لأحدِهم معنى لطيف يتخلَّص به إلى غرض لم يتعمَّده إلا أن طبعه السليم، وصراطه في الشعر المستقيم، نصبا مَنَّارَه وأوقداً باليقاع نارَه؛ فمن أحسن تخلَّص شاعر إلى معتمده قولُ النابغة الذبياني: الطويل:

فَكَفَّكَتْ مِنِّي عَبْرَةً عَلَى النَّحْرِ، مِنْهَا مُسْتَهَلٌّ  
قَرَدَدْتُهَا وَدَامِعٌ  
عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ وَقَلْتُ: أَلَمَّا أَصَحَّ وَالشَّيْبُ  
عَلَى الصَّبَا وَازِعٌ

وقد حالَ هَم، دُونَ ذَلِكَ،  
شَاغِلٌ مَكَانَ الشُّغَاغِي، تَبْتَغِيهِ  
الأصَابِعُ

وعيدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ  
أَتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضُّوَاجِعُ  
وهذا كلام متناسخ، تقضي أوائله أواخره، ولا يتميَّز منه شيء عن شيء: الطويل:  
أَتَانِي، أبيت اللعن، أَنْكَ  
لُمْتَنِي وَتِلْكَ الَّتِي تَسْتَكُّ مِنْهَا  
المسامِعُ

مقالة أن قد قلت سوف  
أناله وذلك من تلقاءٍ مثلك رائع

ولو توصل إلى ذلك بعضُ الشعراء المحدثين الذين واصلوا تفتيش المعاني، وفتحوا أبواب البديع، واجتنوا ثمر الآداب، وفتحوا زهر الكلام لكان معجزاً عجباً، فكيف بجاهل بدوي إنما يغترف من قليب قلبه، ويستمدُّ عفو هاجسه.  
وقال علي بن هارون المنجم عن أبيه: لم يتوصل أحدٌ إلى مدح بمثل قول ابن وهيب: الكامل:

مَا زَالَ يُلْتَمِنِي مَرَاشِفُهُ وَبُعَلْنِي الْإِبْرِيْقُ وَالْقَدْحُ  
حَتَّى اسْتَرَدَّ اللَّيْلُ خَلْعَتَهُ وَبَدَا الصَّبَا حَانَ عُرَّتُهُ  
وقال علي بن الجهم: البسيط:

وَلَيْلَةٌ كَحَلَّتْ بِالنَّفْسِ مُقْلَتَهَا  
إِلْقَتْ قِتَاعَ الدُّجَى فِي كُلِّ أَحْدُودٍ  
قَدْ كَادَ يُعْرِفُنِي أَمْوَاجُ ظَلَمَتِهَا  
لَوْلَا اقْتِبَاسُ سَنَاءِ وَجْهِ ابْنِ دَاوُدَ

قوله: كَحَلَّتْ بِالنَّفْسِ مُقْلَتَهَا مأخوذ من قول أعرابي: والليل. قد صَيَّغَ الحصى بِمِدَادٍ. وقد أخذ هذا أبو نواس فقال: الوافر:

أَيْنَ لِي كَيْفَ صِرْتِ إِلَى  
حَرِيمِي  
وَقَدْ أَخَذَ هَذَا أَبُو تَمَامٍ فَقَالَ: الطويل:  
إِلَيْكَ هَتَكْنَا جُنْحَ لَيْلٍ كَانَهُ  
وَقَدْ أَخَذَ لَفْظَ الْأَعْرَابِيِّ الْمُتَقَدِّمِ أَبُو نَوَاسٍ فَقَالَ: الرَّجَزُ:  
وَقَدْ أَغْتَدِي وَاللَّيْلُ كَالْمِدَارِ  
طَرِدَ الْمَشِيْبِ حَالِكَ السَّوَادِ  
وَأَمَّا نَظْرٌ فِي هَذَا إِلَى قَوْلِ الْأَعْرَابِيِّ: البسيط:  
أَقُولُ وَاللَّيْلُ قَدْ مَالَتْ  
أَوْ أَحْرَهُ  
أَلْمَحَ مِنْ سَنَاءٍ بَرِّقَ رَأَى  
بَصْرِي  
بَلْ وَجْهُ نُعْمٍ بَدَا وَاللَّيْلُ  
مُعْتَكِرٌ

وَمِنْ بَدِيعِ الْخُرُوجِ قَوْلُ عَلِيِّ بْنِ الْجَهْمِ وَذَكَرَ سِحَابَةَ: الطويل:  
وَسَارِيَةٍ تَزْدَارُ أَرْضًا يَجُودِهَا  
أَنْتَنَا بِهَا رِيحُ الصَّبَا فَكَأَنَّهَا  
فَمَا بَرَحَتْ بَغْدَادَ حَتَّى  
تَفْجَرَتْ  
وَلَمَّا قَصَتْ حَقَّ الْعِرَاقِ  
وَأَهْلَهُ  
فَمَرَّتْ تَفُوْتُ الطَّيْرِ سَبْقًا

يُرِيدُ انْصِرَافَ أَصْحَابِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ خَاقَانَ عَنِ الْجَعْفَرِيِّ إِلَى سُورٍ مِنْ رَأَى عِنْدَ قَتْلِ  
الْمُتَوَكِّلِ. وَقَدْ أَخَذَ هَذَا التَّشْبِيهَ مَعْكُوسًا مِنْ قَوْلِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ: الْوَافِرُ:  
وَرَايَاتٍ يَحُلُّ النَّصْرُ فِيهَا  
وَقَالَ دِيكَ الْجَنِّ: الْخَفِيفُ:

وَعَرِيرٌ يَقْضِي بِحَكْمِينَ: فِي  
الرَّاءِ  
لِللِّقَا رِدْفُهُ، وَلِللَّخُوطِ مَا  
فَعَلَتْ مُقْلَتَاهُ بِالصَّبِّ مَا تَفُّ  
وَمِنْ بَارِعِ الْخُرُوجِ قَوْلِ الْمُتَنَبِّيِّ: البسيط:  
مَرَّتْ بِنَاءٍ بَيْنَ تَرْبِيئِهَا فَقُلْتُ  
لَهَا  
فَاسْتَضْحَكْتُ ثُمَّ قَالَتْ  
كَالْمَغِيثِ يُرَى

وَاشْتَهَارَ شَعْرُهُ، يَمْنَعُنِي مِنْ ذِكْرِهِ.

اِفْتِتَاحُ الْقِصَائِدِ بِالْغَزْلِ

قَالَ ابْنُ قَتِيْبَةَ: سَمِعْتُ بَعْضَ أَهْلِ الْأَدَبِ يَذْكَرُ أَنَّ مَقْصِدَ الْقِصِيدَةِ إِنَّمَا ابْتَدَأَ  
بِوَصْفِ الدِّيَارِ وَالذَّمَنِ وَالْإِنَارِ؛ فَبِكِي وَشِكَا، وَخَاطَبَ الرَّبِيعَ، وَاسْتَوْقَفَ  
الرَّفِيقَ؛ لِيَجْعَلَ ذَلِكَ سَبَبًا لَذِكْرِ أَهْلِهِ الطَّاعِنِينَ، إِذْ كَانَتْ نَازِلَةٌ الْعَمْدِ فِي

الحلول والطعن عليّ خلاف ما عليه نازلة، المَدْر؛ لانتقالهم من ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكَلأ، وتتبعهم مساقط الغيث حيثُ كان؛ ثم وصل ذلك بالنسيب، فبكى شدّة الوجد، وألم الصباية والشوق؛ لِيُمِيلَ نحوه القلوب، ويَصْرِفَ إليه الوجوه، ويستدعي إصغاء الأسماع، لأن النسيب قريبٌ من النفوس، لائط بالقلوب، لما جعل الله تعالى في تركيب العباد من محبّة الغزل، وإلف النساء، فليس أحدٌ يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب، وضارياً فيه بسهم، حلال أو حرام. فإذا استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له، عَقَّبَ بإيجاب الحقوق؛ فرحل في شعره، وشكا التّصَبَ والسهر، وسرَى الليل وحر الهجير، وإنشاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حقّ الرجاء وِزَامَ التأميل، وقَرَّرَ عنده ما ناله من المكاره في المسير، بدأ في المديح فبعثه على المكافأة، وقَصَّله على الأشباه، وصَغَّرَ في قدره الجزيل، وهزّه لفعل الجميل؛ فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحداً أغلب على الشعر، ولم يطل فيمِلُّ السامعين، ولم يقطع وفي النفوس ظمأ إلى المزيد.

بين أبي تمام والبحري

ويتعلّق بهذه القطعة ما حدّث به الحاتمي عن نفسه، وإن كانت الحكاية طويلة فهي غير مملولة؛ لما لبسّته من حُلل الآداب، وتزيّنت به من حُلَى الألباب، قال: جمعني ورجلاً من مشايخ البصرة ممن يُومأ إليه في علم الشعر مجلسٌ بعض الرؤساء، وكان خبره قد سبق إليّ في عصبيته للبحري، وتفضيله إياه على أبي تمام، ووجدت صاحب المجلس مؤثراً لاستماع كلامنا في هذا المعنى، فأنشأتُ قولاً أنحيثُ فيه على البحري إنحاءً أسرفْتُ فيه، واقتدختُ زنادَ الرجل، فتكلم وتكلمتُ، وحُصْنَا في أفانين من التفضل والمماثلة، غلوْتُ في جميعها غلوّاً شهده جميع من حضر المجلس، وكانوا جُمّة الوقت، وأعيان الفضل، فاضطر إلى أن قال: ما يحسن أبو تمام بيتي، ولا يخرج، ولا يختم، ولو لم يكن للبحري عليه من الفضل إلا حسن ابتداءته، ولطفُ خروجه، وسرعة انتهائه، لوجب أن يَقَعَ التسليم له، فكيف بأوابده التي تزدادُ على التكرار عَصَاة وجدة، ثم إقبل عليّ، فقال: أين يُذهب بك عن ابتدائه: الكامل:

عارضنا أضلاً فقلنا الرّبربُ حتى أضاء الأفحوان الأشنبُ  
واخضرتْ مَوْشِيّ البرودِ وقد منهنّ ديباجُ الخدودِ المذهبُ  
بداً

وأنتي لأبي تمام مثل خروجه حيث يقول: الطويل:

أدارهُمُ الأولى بدارة جُلجل سقايّ الحيّا رَوْحاته وبواكره  
وجاءك يحكي يوسف بن فروّك ربّاهُ وجادك ماطره  
محمد

وقد كرر هذا وزاد فيه فقال: البسيط:

تنصّب البرقُ مختالاً فقلت لو جُدّت جودَ بني يَزْدان لم  
له تزد

ومن ذا الذي لطف لأن يخرج من وصف روض إلى مدح، فقال أحسن من أقوله: الطويل:

كأنّ سناها بالعشيّ لصحبها تبلج عيسى حين يلفظُ  
بالوعْدِ

وأنتي لأبي تمام مثل حسن انتهائه حيث يقول: الطويل:

إليك القوافي نازعات يسير صاجي ونشيتها وبتمم  
شوارداً بهاءً وحسنًا أنها لك تُنظم  
ومشرقةً في النظم عُرا

يزيدها

وقوله في هذا المعنى: الطويل:

ألسـت المـوَالِي فيك تَطْمَ  
قَصَائِدِ

هي الأنجم اقتادت مع الليل  
أنجماً

ثناء تَخَالُ الروضَ فيه منوراً  
ضَحَى، وتخال الوَشْيَ فيه  
مُتَمِّمًا

ولقد تقدم البحري الناس كلهم في قوله: الكامل:

لو أن مشتاقاً تكلف فوق ما  
قال أبو علي: وكنت ساكناً إلى أن استتم كلامه، فكان الجماعة أعجبهم  
ذلك، عصبية علي لا على أبي تمام؛ لأنني كنت كالشجى معترضاً في  
لهواتهم، وأسر كل واحد منهم إلى صاحبه سرّاً يومئ به إلى استيلاء  
الرجل علي؛ فلما استتم كلامه وبرقت له بارقة طمع في تسليمي له  
ابتدأت فقلت: لست ممن يُقَعِّعُ له بالشَّان، ولا يُفَرِّعُ له بالعصا، لا إله إلا  
الله! استنتت الفصال حتى القرعى! هل هذه المعاني إلا عون مُفْتَرَعَة، قد  
تقدم أبو تمام إلى سبك نصارها، وافتضاض أبقارها، وجرى البحري على  
وتيرته في انتزاع أمثالها وأتباعها، فأما قوله: عارضتنا أصلاً فقلنا الربوب،  
فمن قول أبي جويرية العبدى: الكامل:

سلمن نحوي للوداع بمقلة  
وقرآن بالحدق المراض تحية

فكأنما نظرت إلينا الربرب  
كادت تكلمنا وإن لم تُعرب  
وأما قوله في صفة الغيث مخاطباً للدار: وجاءك يحكي يوسف بن محمد، وقوله في  
هذا المعنى: لوجدت جود بني يزدان لم تزد فمن قول أبي تمام: الكامل:

ولئوبها في القلب نُؤي  
شفه

وكأنما استسقى لهن  
محمد

ومن قوله الذي تقدم فيه كل أحد لفظاً رشيقاً ومعنى رقيقاً: الوافر:  
ديمة سَمَحَةُ القياد سَكُوبُ  
لو سَعَتْ بقعة لإعظام تُعمى  
ومن هنا أخذ البحري: لسعى إليك المنبر: الوافر:

أبها الغيث، حي أهلاً بمعداً  
لأبي جعفر خلائق تحكي  
أنت فينا في ذا الأوان غريبُ

وأما قوله: الطويل:

كأن سناها بالعشي لصحبها  
تبلج عيسى حين يلفظ  
بالوعد

فإنما نظر فيه إلى قول دُعيل بن علي: المتقارب:

وميتاء خضراء زربية  
ضحوكاً إذا لاعتبه الرياح  
فشبهه صحتي سنا نورها  
فقلت: بعتهم، ولكنني  
فتى لا يرى المال إلا العطاء

بها النور يلمع في كل فن  
تاود كالشارب المرَجِحِ  
بدياج كسرى وعصب اليمن  
أشبهه بجناب الحسن  
ولا الكنز إلا اعتقاد المن

وأما قوله في صفة الغواني: يسيّر ضاحي وشبيها وينمنم وقوله في وصفها: وتخال  
الوشى فيه منمنماً فمن قول أبي تمام: الكامل:

حلوا بها عُقَدَ النسيب،  
وَتَمْتَمُوا  
ومن قوله الذي أبدع فيه: الطويل:

ووالله لا أنفك أهدي  
شوارداً

تخال به بُرداً عليك محبباً  
ألد من السلوى وأطيب  
نفحةً

أخف على قلبي وأثقل  
قيمةً

وقول البحتري: هي الأنجم اقتادت مع الليل أنجماً مأخوذ من قول أبي تمام مقصراً  
عنه كل تقصير عن استيفاء إحسانه حيث يقول: الطويل:

أصيح تستمع حُرّ القوافي؛  
فإنها  
كواكب إلا أنهن سعوذ

ولا تمكن الإخلاق منها وإنما  
يلد لباس البُرد وهو جديد

فهذه خصال صاحبك فيما عدته من محاسنه التي هتكت بها ستور عواره، وتشرت  
مطوي أسرارهِ، حتى استوضحت الجماعة أن إحسانه فيها عارية مرتجة، ووديعة  
منتزعة، فاسمع ما قال أبو تمام في نحو أبياتك التي أوجبت الفضل لصاحبك حين قال  
مبتدئاً: الكامل:

لا أنت أنت، ولا الديار ديار  
كانت مجاورة الطلول  
وأهلها

وقوله: الكامل:

رقت حواشي الدهر فهي  
تمرمر

وقوله: الكامل:

أرأيت أي سوائف وُحدودٍ  
عنت لنا بين اللوى وزرودٍ

وهل يستطيع أحد أن يبتدئ بمثل ابتدائه: الكامل:

طلل الجميع لقد عَقَوَت  
حميداً

دمن كأنّ البين أصبح طالباً  
أو مثل قوله مبتدئاً: الكامل:

يا دائر، درّ عليك إرهام الندى  
وكسبت من خلع الحيا  
مستأسداً

أو مثل قوله مبتدئاً: الطويل:

غدت تستجير الدمع خوف  
نوى عد

فأدرى لها الإشفاق دمعاً  
مورداً

وعاد قتاداً عندها كل مرقدٍ  
من الدم يجري فوق خدٍ  
مورِد

ولقد أحسن حين ابتداء فقال: الوافر:  
تَوَاوَرُ فِي صَوَاحِبِهَا تَوَاوَرُ  
تَكْذَبَ حَاسِدٌ فَنَاتٌ قُلُوبُ  
وحيث يقول: الكامل:

كما فاجاك سِرْبٌ أَوْ صَوَاوِرُ  
أَطَاعَتْ وَأَشْيَاءٌ وَنَاتٌ دِيَارُ

ما في وقوفك ساعةٍ مِنْ  
بَاسٍ

تَقْضِي ذِمَامَ الْأَرْبَعِ الْأَدْرَاسِ  
وَالدَّمْعُ مِنْهُ خَاذِلٌ وَمُوَاسِي

فَلَعَلَّ عَيْتَكَ أَنْ تَجُودَ بَدَمَعِهَا  
وحيث يقول: الخفيف:  
مَا عَهْدُنَا كَذَا تَحِيْبَ الْمَشُوقِ  
وحيث يقول: الكامل:

كيف والدمعُ آيةُ المعشوقِ

دِمْنُ أَلَمِّ بِهَا فَقَالَ: سَلَامٌ،

كَمْ حَلَّ عَقْدَةَ صَبْرِهِ  
الإِلْمَامُ؟

نَحَرْتُ رِكَابُ الرِّكْبِ حَتَّى  
يَعْبُرُوا

رجلاً، وقد عنفوا عليّ ولاُمُوا

وحيث يقول: البسيط:

فَلَا تَكْفَنَّ عَنْ شَانِيكَ أَوْ  
يَكْفَا

أَمَّا الرِّسُومُ فَقَدْ أَدَّكَرْنَ مَا  
سَلَفَا

لِلدَّمْعِ بَعْدَ مَضِيِّ الْحَيِّ أَنْ  
يَقِفَا

لَا عَذْرَ لِلصَّبِّ أَنْ يَفْتَى السَّلْوُ  
وَلَا

ومن اقتضاباته البعيدة قوله: الطويل:

وَنَذَكَرَ بَعْضَ الْفَضْلِ مِنْكَ  
فَتُفَضِّلَا

لِهَانَ عَلَيْنَا أَنْ تَقُولَ وَتَفْعَلَا

وقوله أيضاً مقتضباً الكامل:

فَحَذَارِ مِنْ أَسَدِ الْعَرِينِ حَذَارِ  
إِلَى الْمَدْحِ قَوْلُهُ: الْبَسِيطُ:  
فَقَدْ أَظْلَكَ إِحْسَانُ ابْنِ  
حَسَّانِ

الْحَقُّ أْبْلَجُ وَالسِّيُوفُ عَوَارِي  
وَمَا تَقَدَّمَ فِيهِ كُلُّ وَاحِدَةٍ فِي حَسَنِ التَّخْلِصِ  
إِسَاءَةٌ الْحَادِثَاتِ اسْتَنْبِطِي  
نَفْقَا

وقوله: الطويل:

تَقَطَّعَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّوَائِبِ

إِذَا الْعَيْسُ لَاقَتْ بِي أَبَا دُلْفٍ  
فَقَدْ

وقوله: البسيط:

مَحْمَدُ بْنُ أَبِي مِرْوَانَ  
وَالنُّوبُ

لَمْ يَجْتَمِعْ قَطُّ فِي مِصْرٍ وَلَا  
طَرْفٍ

وقوله المنقطع دونه كل قول في هذا المعنى: الكامل:

أَقْوَاتَهَا لِتَصْرُفِ الْأَحْرَاسِ

إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الْخَلَائِقَ  
فَاتَّهَا

وَبَنُو الرِّجَاءِ لَهُمْ بَنُو  
الْعَبَاسِ

فَالْأَرْضُ مَعْرُوفُ السَّمَاءِ  
قَرَى لَهَا

فِيهِمْ، وَهُمْ جَبَلُ الْمَلُوكِ  
الرَّاسِي

الْقَوْمُ ظَلَّ اللَّهُ أَسْكَنَ  
دِيْنَهُ

وقوله: الكامل:

مَسْحُورَةٌ وَتَنُوفَةٌ صِيْهُودِ

عَامِي وَعَامُ الْعَيْسِ بَيْنَ

وَدَيْقَةَ  
حتى أغادر كل يوم بالفلا  
هيهات منها روضة محموده  
بمعزس العرب الذي وجدته  
به  
ومن أبدع ابتدائه قوله: الكامل:

وَعَدَّتْ عَلَيْهِمْ تَضْرَهُ وَنَعِيمٌ  
ما عهدتها عند الديار دميم  
مُرٌّ وَأَنْ أَبَا الْحُسَيْنِ كَرِيمٍ  
نفسى على إلفي سيواك  
تحوُّمٌ

مجدُّ إلى حيثُ السماء مقيم  
طرقيه فهو أخ له وحميم

وأبو تمام الذي وصف القوافي بما لم يستطع وصفها به أحد فقال: الطويل:

عَدُوُّكَ فَاعْلَمْ أَنَّنِي غَيْرُ حَامِدٍ  
وتنقاد في الآفاق من غير  
قائدٍ  
إلى كل أفق واحداً غير وافدٍ  
فتصدر إلا عن يمين وشاهدٍ

سِمَطَانٍ فِيهَا لِلْوَلُو  
المكنون  
حركات أهل الأرض وهى  
سكون  
وأجادها التخصير  
والتلسين  
حلي الهدى، ونسجها  
موضون  
حسب إذا نصب الكلام  
معين  
نصت، ولكن القوافي عون

سبقت سوابقها إليك جيادي  
أبقى من الأطواق في الأجياد

وَدَيْقَةَ  
حتى أغادر كل يوم بالفلا  
هيهات منها روضة محموده  
بمعزس العرب الذي وجدته

به  
ومن أبدع ابتدائه قوله: الكامل:

سَقَى دِيَارَهُمْ أَجَشُّ هَزِيمٌ  
جاءت معاهدتهم عهداً سحابة  
ثم تخلص إلى المدح فقال وأحسن كل الإحسان:  
لا والذي هو عالم أن التوى  
ما زلت عن ستن الوداد ولا  
عدت

ثم عاد إلى المدح، فقال:  
لمحمد بن الهيثم بن شبابة  
ملك إذا نسيب التدى من  
ملتقى

وأبو تمام الذي وصف القوافي بما لم يستطع وصفها به أحد فقال: الطويل:

فإن أنا لم يحمدك عنى  
صاغراً  
بسياحة تنساق من غير  
سائقٍ  
محببة ما إن تزال ترى لها  
مخلقة لَمَا تَرُدُّ أذَنَ سَامِعٍ  
والذي قال أيضاً في صفتها: الكامل:  
جاءتكَ من تظم اللسان  
قلادة

إنسية وحشية كثرت بها  
حذيت حذاء الحصرميه  
أرهفت  
ينوعها خصل، وحلي  
قربضها  
أحداكها صنع الضمير  
يمده

أما المعاني فهي أبكار إذا  
وقد أبدع في وصفها فقال: الكامل:  
لم أبق حلية منطلق إلا وقد  
أبقين في أعناق جودك  
جوهراً

هل يستطيع أحد أن ينسب هذا أو شيئاً منه إلى السَّرَق والاحتذاء؟ وهل يستطيع مماثلته بشيء من شعر الجحري، أو أشعار المحدثين في عصره ومن قبله؟ فعَيَّ عن الجواب قصوراً، وأحجم عن المساجلة تقصيراً، وحكمت الجماعة لي بالقَهْر، وعليه بالنصر، ولم ينصرف عن المجلس حتى اعترف بتقديم أبي تمام في صنعة البديع واختراع المعاني على جميع المحدثين. وكان يوماً مشهوداً.

حول الغناء

وقال ثُمّامة بن أشرس: كنتُ عند المأمون يوماً، فاستأذن الغلام لِعَمِيرِ المأموني فكرهت ذلك، ورأى المأمون الكراهية في وجهي، فقال: يا ثُمّامة، ما بك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، إذا غَنَّانا عمير ذكرت مواطن الإبل، وكُتِّبان الرمل، وإذا غَنَّانا فلانة انبسط أُملي، وقوي جَدلي، وانشرح صَدْرِي، وذكرت الجنان والولدان، كم بين أن تغنيك جارية عادة كأنها غصن بان، ترنو بمقلة وسْتان، كأنما خلقتُ من ياقوته، أو خرطت من فضة، بشعر عكاشة العميِّ حيث يقول: الكامل:

من كفَّ جارية كأن بَنَّاها  
من فضة قد طَرَفَتْ عُنابا  
وكانَّ يمناها إذا ضربت بها  
تُلقي على الكف الشمال  
حسابا

وبين أن يغنيك رجل كَث اللحية، غليظ الأصابع، خشن الكف، بشعر ورقاء بن زهير حيث يقول: الطويل:

رأيت زهيراً تحت كَلْكِ خالد  
فأقبلتُ أسعى كالعَجُول  
أبادرُه

وكم بين أن يحضرك مَنْ تشتهي النظر إليه، وبين من لا يقفُ طَرَفك عليه؟ فتبسّم المأمون، وقال: الفرق بينهما واضح، والمنهج فسيح؛ يا غلام، لا تاذنْ له، وأخصّر طيب قَبَّاتِه، فظَللنا في أمتع يوم.

وعكاشة هذا هو عكاشة بن عبد الصمد البصري، نقيّ الديباجة، ظريف الشعر، كان شاعراً مجيداً. وقد أخذ معنى قوله أبو العباس الناشئ، وزاد فيه، فقال: الكامل:

وإذا بضرت بكفها اليُسرى  
يد حاسبٍ تُلقي عليك  
حكّت  
صنوفاً

فكأنما المضربُ في أوتارِه  
قَلَمٌ يُمَجِّجُ في الكتاب  
حروفاً

ويجسُّه إبهامُها فكأنما  
في النقر تنفي بهرجاً  
ورُيوقاً

أخذ هذا البيت من قول أبي شجرة السلميّ  
تَطيِّرُ عنها حصى الطَّرانِ من  
بَلَدٍ  
وَأصله قول امرئ القيس: الطويل:

كان صليلَ المَرِّو حين تُشِدُّه  
وقال أبو الفتح كشاجم: الكامل:

لو لم تحرَّكه أنا ملها  
جَسَنُّه عالمةً بحالته  
عنت فخلتُ أظنني طرباً  
وَحسبت يُمناها تحركه  
كان الهواءُ يُعيدُه نطقاً  
جَسَنُّ الطيب لمدنف عرقاً  
أَسْمُو إلى الأفلاك أو أرقى  
رعداً وخلت يسارها بَرَقاً

وأنشد الحاتمي لأبي بكر الصولي: الخفيف:

وغناءً أرق من دَمْعَةِ الصب وشكوى  
المتيم المهجور  
يَشْعَلُ المرءَ منظرٌ ثم نطقٌ  
صافحَ السمعَ بالذي  
يشتهيه  
ليس بالقائل الضعيف إذا  
ما

فهو يُصْغِي بظاهر وضمير  
وأذاقَ النفوسَ طعمَ  
السرورِ  
راضِ نغماً ولا الشنيعِ  
الجهيرِ

وقال أبو نُؤاس: الوافر:

وأهيفَ مثل طاقيةِ ياسمينِ  
يحرِّكُ حين يشدُّ وساكناتِ  
وهذا مليحٌ، يريد حركة الجوانح للغناء، وسكون الجوارح للاستماع. وقال الحمدوني  
يصف عوداً: البسيط:

له حَطَّانٌ من دُتْيَا ودينِ  
فتنبعث الطبايع للسكرانِ  
وقال الحمدوني

كأنه فخذٌ نيطتُ إلى قَدَمِ  
بيدي ضميرِ سواه منطلقِ  
القلمِ

وناطقِ بلسانِ لا ضميرَ له  
يُبْدي ضميرَ سِوَاهُ للقلوبِ  
كما

في صفة القيان

ومن أحسن ما قيل في صفة القيان قولُ ابن الرومي: الخفيف:

عاطفات على بَيْنِهَا حَوَانِي  
مرضعات وَلَسْنَ ذَاتَ لَبَانِ  
ناهدياتُ كأحسنِ الرُّمَانِ  
وَهِيَ صِفْرٌ من دِرَّةِ الألبانِ  
بين عُوْدٍ ومزهرٍ وِكِرَانِ

وقيان كأنها أمهاتُ  
مُطْفِلاتٌ وما حملنَ جنيناً  
ملقِماتُ أطفالهنَّ نُديّاً  
مفعمات كأنها جافلاتُ  
كل طفل يُدعى بأسماء  
سُتَى

وهو بادي الغنى عن  
الترجمانِ

أمه دَهْرُها تترجمُ عنه

وقال أبو الفتح كشاجم: المنسرح:

صوتُ فتاةٍ تشكو فِراقَ فتى  
كأنما الزهرُ حوله نبتا  
مثل اختلافِ العيونِ مذ ثبتا  
على بريدٍ لعاجٍ والتفتا

جاءت بعود كأن تَعَمَّتْهُ  
محقف حفت العيونُ بهِ  
دارتُ ملاويه فيه فاختلفتُ  
لو حركته وراء منهزم

وقال: الطويل:

وصوت المثاني والمثالث  
عالي

يقولون نُبٌ والكأس في كف  
أغيد

وشاهدت هذا في المنام  
بَدالي

فقلت لهم لو كنت أزمعت  
توبةً

وقال: الكامل:

بالعودِ حتى شفني إطرابا

أفدي التي كَلِفَ الفؤادُ مِن  
أجلها

كبراً بذاك، وأعجبت إعجابا

تاهتُ بجمع صناعتين،  
وأظهرتُ

تشدو، وكنا مثلكم كتابا

قالت: فضلتك بالغناء وأنت

لا

نغمًا ولم أعْغِلْ لهنَّ حسابا  
قلمي وعاتبها عليه عتابا  
وجعلتُ جانبَ عَجْزه مِضْرابا

فُعْنِيتِ بالأوتار حتى لم أدع  
وألفتها فأغار ذاك على يدي  
فجعلت للقرطاس جانبَ

صدره

وقال: البسيط:

فما يُرى فيه إلا الوهمُ  
والشَبْحُ  
صوتاً به الشوقُ في الأحشاء  
يَنْقَدِحُ  
فان نأت عنك غاب اللهو  
والفرحُ  
وكلُّ ما تتغنى فهو مقترح

جاءتْ بَعُودِ كَأَنَّ الحَبَّ  
أَنحَلَهُ

فحرَّكته وغنتُ بالثقلِ لنا  
بيضاء يحضرُ طيبُ اللهو ما  
حضرَتْ  
كل اللباس عليها مَعْرَضُ  
حَسَنُ

هذا من قول ابن المعتز: المتقارب:

ن وارتجَّ بالطرب المجلسُ  
ومَعْرِضها كل ما تَلَبَّسُ

وغنت فأغنتُ عن المسمعي  
محاسنِها نُزْهَةً للعيون

وقال أيضا: الخفيف:

ناغم الصوت مُنْعَبِ مكدودِ  
قُ فضاهاى به أنينَ العُودِ  
أشتهي الضربَ لازماً للعُمودِ  
للمبادي موصولةً بالتَّشديدِ  
بين حالين شدَّة وركودِ

أشْتَهِي في الغناء بُحَّةَ حَلْقِ  
كأنينِ المحبِّ أضعفه الشَّوُّ  
لا أَحِبُّ الأوتار تعلقو كما لا  
وأحب المجنَّبات كحبي  
كهبوب الصبا توسط حالاً

وقال: الخفيف:

لفتاة موصولة الإيقاع  
نعب الصوت راحة الأسماع  
صوت شكواه شدَّة الأوجاع

أه من بُحَّةٍ بغير انقطاع  
أتعبت صوتها وقد يُجْتَنَى من  
فَعَدَّتْ تكثر الشَّجَاخِ وحطت = طبقات الأوتار بعد ارتفاع .  
كأنينِ المحبِّ خفض منه

وقال بعض أهل العصر، وهو أبو الحسن بن يونس: الكامل:

فكأنما الصوتان صوتُ العودِ

غنت فأخفت صوتها في  
عُودِها

أبداءً، ويتبعها اتباع ودود  
وأرق من تشر الثنا المعهودِ  
ماء الغمامة وابنة العُنقودِ

عِيداء تأمر عودها فيطيعها  
أُذَى من التُّوار صُبحاً صَوْتُها  
فكأنما الصوتان حين تمارجَا

وأبو الحسن هذا هو: علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى، صاحب عبد الله بن وهب الفقيه، وكان لأبي الحسن في الشعر مذهب حسن، وطبع صحيح، وحوك مليح، وكان عالماً بالنجوم وما يتعلق بها من علوم الأوائل، وهو القائل: الطويل:

بضربٍ من المُرِنِ الكَتَّهَوْرِ  
هَامِلِ

سقى الله أكنافَ اللوى كلما  
سقى

عَدَا وَهُوَ حَلِيٌّ للرياضِ  
العَواطِلِ

إذا نشرت ريح جُمانَ  
سحابةٍ

ووسواسٌ وَدَقِّ ليس بين  
مفاصل  
تلقَّاه دُرُّ النَّورِ فوقَ  
الخمائل

وَأَرَقُّ منه ما يَمُرُّ عليه  
فكسَّته فتنة ناظره إليه

وناصحتي من دون كل  
صديق  
بلُّجِه ماء وهو غير عَرِيقِ

راق غير الإعشاء للأجفانِ  
أجريت فيه صُفْرَةُ العِقيانِ

ر لست مضمّن بعد ثمان  
بُزاةٍ تَعْدُو على غِرْلانِ  
حَسَنٌ مُخْبِر بنبيل الأمانِ  
حاصِرٌ نفسه بغير أوانِ

ه إليها وَرَجَعَه سِيانِ

لاح فيها فإنها شَمْسَانِ

ض ففيها تقابل النيرانِ  
خائفٌ فانثنى بغير أمانِ

به وَجُدُّ رَعْدٌ ليس بين  
جوانح  
إذا كان خدُّ البرق يلمس  
نبتة

وقال، وذكر غلاماً: الكامل:

يجري النسيمُ على غلائل  
حَدِّه

ناولته المرأة ينظرُ وَجْهَهُ  
وقال ابن المعتز - وذكر المرأة: الطويل:

تبيّني لي كلما رُمت نظرةً  
يقابلني منك الذي لا عدْمُهُ

وقال أبو الفتح كشاجم يصفُ مرآةً أهدها: الخفيف:

أخت شمس الصفاء في  
الحسن والإش

ذات طُوقٍ مشرف من  
لُجين

فهو كالهالة المحيطة بالبد  
وعلى ظهرها فوارسٌ تلهو  
لك فيها إذا تأملت فال  
لم يكن قبلها من الماء  
جرم

عدّلت عكسها الشعاع  
فمبدا

وهي شمسٌ وإنْ مثالك  
يوماً

أينما قابلت مثالك من أر  
فالقها منك بالذي ما رآه

ومن أفاظ أهل العصر

في مدح الغناء

غِنَاؤُهُ كالغنى بعد الفقر، وهو جِبر للكسر. غِنَاؤُهُ يبسط أسيرَةَ الوَجْهِ، ويرفعُ  
حجابَ الإذن، ويأخذُ بمجاميع القلب، ويحرك النفوس، ويرقص الرؤوس.  
فلان طيب القلوب والأسماع، ومحبي مَوات الخواطر والطباع، يُطعمُ  
الآذانَ سروراً، ويقدح في القلوب نوراً القلوب من غِنائه على حَطر؛ فكيف  
الجيوب؟! السكر على صوته شهادة.

كل ما يغنيه مقترح. لغنائه في القلب، موقع القَطْرِ في الجَدْب. نعمة نغمته  
تطرب، وضروب صرّبه لا تضطرب. وقيل: السماع مُنعة الأسماع، وإدام  
المدام.

في وصف القلم

أهدى بعضُ الكتّاب إلى أخ له أقلاماً وكتب إليه: إنه - أطال الله بقاءك! - لما كانت  
الكتابة قوامَ الخلافة، وقريّة الرياسة، وعمود المملّكة، وأعظم الأمور الجليلة قدراً،  
وأعلاها حَطرًا، أحببتُ أن أتجفك من ألتها بما يخفُّ عليك مَحمله، وتثقل قيمته، ويكثر

تَفْعُهُ؛ فَبِعَثْتُ إِلَيْكَ أَقْلَامًا مِنْ الْقَصَبِ النَّابِتِ فِي الْأَعْدَاءِ، الْمَغْذُوبِ بِمَاءِ السَّمَاءِ، كَاللَّائِي الْمَكْنُونَةِ فِي الصَّدْفِ، وَالْأَنْوَارِ الْمَحْجُوبَةِ بِالسَّدْفِ، تَنْبُو عَنْ تَأْثِيرِ الْأَسْنَانِ، وَلَا يَنْبِيهَا عَمْرُ الْبَنَانِ، قَدْ كَسَتْهَا طِبَاعُهَا جَوْهَرًا كَالْوَشِيِّ الْمَحْبَرِ، وَفَرَنْدِ الدِّيَاجِ الْمَنْيْرِ، فَهِيَ كَمَا قَالَ الْكَمِيتُ: الْمَتَقَارِبُ:

وَبِيضِ رِقَاقِ صِحَاحِ الْمَتَوِ      نَ تَسْمَعُ لِلْبِيضِ فِيهَا صَرِيرًا  
مُهَيَّدَةً مِنْ عَتَادِ الْمَلُوكِ      يَكَادُ سَنَاهُنَّ يُعِيشِي الْبَصِيرَا

وكقدح النبل في ثقل أوزانها، وقُصْبُ الْخَيْرَانِ فِي اعْتِدَالِهَا، وَوَشِيحِ الْخَطِّ فِي اطْرَادِهَا، تَمُرُّ فِي الْقِرَاطَيْسِ كَالْبَرْقِ اللَّائِحِ، وَتَجْرِي فِي الصَّحْفِ كَالْمَاءِ السَّائِحِ، أَحْسَنُ مِنَ الْعُقَيَانِ، فِي نَحْوِ الْقِيَانِ.

وكتب عبيد الله بن طاهر إلى إسحاق بن إبراهيم من خراسان إلى بغداد يسأله أن يوجه إليه بأقلام قصبية: أما بعد، فإنا على طول الممارسة لهذه الصناعة التي غلبت على الاسم، ولزمت لزوم الوسم، فحلت محل الأنساب، وجرت مجرى الألقاب - وجدنا الأقلام القصبية أسرع في الكواغيد، وأمر في الجلود، كما أن البحريه منها أسلس في القراطيس، والين في المعاطف، وأكل عن تمزيقها، والتعلق بما ينبو من شظاياها. ونحن في بلاد قليلة القصب، رديء ما يوجد بها منه؛ فأحببت أن تتقدم في اختيار أقلام قصبية، وتتأق في انتقائها قبلك، وطلبها في منابتها، من شطوط الأنهار، وأرجاء الكروم، وأن تتيم باختيارك منها الشديدة المجس، الصلبة المعص، الغليظة الشحوم، المكتنزة الجوانب، الضيقة الأجواف، الرزينة الوزن، فإنها أبقى على الكتاب، وأبعد من الحقاء، وأن تقصد بانتقائك منها للرفاق القصبان، اللطاف المنظر، المقومات الأود، الملس العقد، ولا يكون فيها التواء عوج ولا أمت؛ وضم الصافية القشور، الخفية الإبن، الحسنه الاستدارة، الطويلة الأنابيب، البعيدة ما بين الكعوب، الكريمة الجواهر، المعتدلة القوام، تكاد أسافلها تهتر من أعلاها، لاستواء أصولها برؤوسها، المستكملة ييسا، القائمة على سوقها، قد تشربت الماء في لحائها، وانتهت في التضح منتهاها، لم تعجل عن تمام مصلحتها، وإبان يُنْعَمُ، ولم تؤخر في الأيام المخوفة عاهاتها؛ من حصر الشتاء، وعقن الأنداء، فإذا استجمعت عندك أمرت بقطعها ذراعاً ذراعاً، قطعاً رقيقاً تتحرز معه أن تنتشعب رؤوسها، أو تنشق أطرافها، ثم عبأت منها حزماً فيما يصونها من الأوعية، وعليها الخيوط الوثيقة، ووجهتها مع من يحتاط في حراستها وحفظها وإيصالها؛ إذ كان مثلها يتوانى فيه، لقله خطرهما عند من لا يعرف فصل جوهرها؛ واكتب معه بعدتها وأصنافها وأجناسها وصفاتها، على الاستقصاء، من غير تأخير ولا إبطاء.

فأجابه ووجه إليه مع الأنابيب: أتاني كتاب الأمير - أعزه الله! - بما أمر به ولخصه، من البعث بما شاكل نَعْتَهُ، وضاهى صِفَتَهُ، من أجتاس الأقلام، فتممت بغيته قاصداً لها، وانتهجت معالم سبيله آخذاً بها، فأقعدت إليه حزمًا أنشئت بلطيف السقيا، وحسن العهد والبقيا، لم تعجل بإخراجها، ولا بؤدرت قبل إدراكها؛ فهي مستوية الأنابيب معتدلتها، مثقفة الكعوب مقومتها؛ لا يرى فيها أمث رور، ولا وصم صغر ولا عوج، وقد رجوت أن يجدها الأمير عند إرادته وحسب يغيته.

ومن كلام منصور بن عمار في صفة القلم، ويقال إنه لسليمان بن الوليد الكاتب: أو ليس من عجائب الله في خلقه، وإنعامه على عباده، تعليمه إياهم

الكتاب المفيد للباقيين حكم الماضين، والمخاطب للعيون بسرائر القلوب، على لغات مختلفة، بمعان مفترقة معقودة، وأحرف مقلوبة، من ألف وتاء، وجيم وباء، متباينات الصور، مختلفات الجهات، لِقَاحها التفكير، ونتائجها التأليف، تخرس مفردة، وتنطقُ مزدوجة، بلا أصواتٍ مسموعة، ولا ألسنٍ محدودة، ولا حركات ظاهرة، بل قلم حَرَفَ باريه قطته، ليعلق المدادُ به، وأزْهَفَ جانبيه ليرد ما انتشر عنه إليه، وشق في رأسه ليحتبس الاستعداد عليه، ورفع من شعبيته لتجتمع حواشي تصويره؛ فهناك روي القلم في شقه، وقف المادّة إلى صدره، فإذا علقتها العيون حكَّها الألسن، فالقلوب حينئذٍ رَاعِيَة، والآذان وَاِعِيَة، لكلام سَدَاه العَقْل، وألحمه اللسان، وأدَّتْه اللَهَوَات، ولفظته الشَقَاه، ووعته الأسماع، على اختلاف أنحاء، من صفاتٍ وأسماء؛ فتبارك الله أَحْسَنُ الخالقين.

حمل من رسالة كتبها بعض أهل العصر، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله النجيري، في القلم إلى أبي عمران بن رباح:

إنه لما كان القلم مطية الفكر والبيان، ومُخْرَج الضمير إلى العيان، ومستنبطاً ما تُورِيه ظلمُ الجَنَان إلى نُور البيان، ومُريحِ الفطن العواذب، وجالبِ الفكرِ الغرائب ولسانِ الغائب، وبزِ الكاتب، مكتبِ الكتاب، ومفرقِ الجلأب، وعمادِ السُّلم، وزنادِ الحرب، وبدَ الحدَثان، وخليفة اللسان، ورأس الأدوات التي خصَّ الله بها الإنسان، وشرفه بها على سائر أصناف الحيوان، ومركباً لآلة قد تقدَّمتُ كلَّ آلة، وحكمة سبقَتْ في الإنسان كلَّ حكمة، وقواماً لهندسة عقلية، ومصدراً لعقلِ العاقل، وجهلِ الجاهل. الناقل إلينا حكَم الأولين، وحاملها عنا إلى الآخرين، الحافظ علينا أمرَ الدنيا والدين، أول شيء خلقه الله بأمره وسبَّحه، ومجَّده وحمَّده وسجَّده له، فكان له فرسانٌ خُلِقَ لهم، وكُنَّتْ عميدَهم، وأقرانٌ قُصِرَ عليهم، وأنت صنديدهم، وميدان كنت رَينَه، ومضمار كنت عَينَه، وجليَّة كنت سابقها ومعجزها، وغاية كنت مَالِكها ومُخَرِّرها، ورمت بي الأيام إلى معدنه الذي كلفت به وعنيت بطلبه، فانفردت منه بقدرِ قَدِّ أُوحد، قَرَد في منيته، قد ساعدت عليه السعود في فلك البروج حولاً كاملاً، مُخْتَلِف يُؤلفه أركانها وطباعها، ومتباين أنوائها وأنحائها، وتؤيده بقواها وجواهرها، حتى غدَّه عِرْقاً في الثرى معرقاً، وأرضعته ناجماً، وسقته مكعباً، وأروته مقصباً، وأظمأته مكتهلأً، ولوحته مستحصداً، وجللته بهاءها، وألقت عليه عنوانها، وأودعته أعراقها، وأوراقها وأخلاقها، حتى إذا شقَّ بآزله، ورقَّت شمائله، وابتسم من غشائه، ونادى من لِحائه، وتعرى عن خز المصيف، بانقضاء الخريف، وانكشف عن لون البيض المكنون، والصدف المخزون، ودر البحار، وفتات الجمار، دعا منه تَقَق العَاج بنقبة الديباج، وقميص الدرر بطراز النساج، فاجتمعت له زينة الأيدي البشرية، إلى الأيدي العلوية، والأنساب الأرضية، إلى الأنساب السماوية، فلما قادت السعادة إليّ، ورأيتُه نسيجَ وَحْدِه في الأقلام، رأيت أولى الناس به نسيجَ وَحْدِه في الأنام، فأثرتُك به مُؤثراً للصنعة؛ عالماً أن زين الجيادِ فرسانها، وزين السيوف أقرانها، وزين بزة لايسُها، وزين أداة ممارسُها، فالآن أعطيت القوس باريها، وزناد المكارم مُوريها، والصمصامة مُصليتها، والقناة مُعلمها، وحلة المَجْد لايسها.

وكان النجيري جيد الروية والبديهة في نظمه ونثره، حلو التصريف، مليح

التأليف، وكان يوماً عند أبي المسك كافور الإخشيدي، فدخل عليه أبو  
الفضل بن عياش فقال: أدام الله أيام سيدنا الأستاذ - بالحفض - فتبسم  
كافور إلى أبي إسحاق، فقال ارتجالاً: البسيط:

لا عَزْوُ إن لَحَنَ الدَّاعِي  
لَسَيِّدنا  
وَعُصَّ من هَيْبَةٍ بالربقِ  
والبَهْرِ

فمثل سيدنا حالت مهائبُهُ  
بين البليغ وبين القول  
بالحَصْرِ

فإذ يكن حَفْصَ الأيامِ من  
دَهَشِ

فقد تَفَاءَلت في هذا  
لَسَيِّدنا

بأن أيامه حَفْصٌ بلا تَصَبِ

فأمر له بثمائة دينار، ولابن عياش بمائتين.  
وقال حمدان الدمشقي يصف قلماً:  
الكامل:

للأيم بعثته وَسَقَّ لِسَانِهِ  
كالحيَةِ النَّصْطَاضِ إلا أَنَّهُ  
قال العتابي: سألتني الأصمعي فقال لي: أي الأنايب أَصْلَحُ للكتابة وعليها  
أصبر؟ فقلت: ما نَشِيفَ بالهجير ماؤُهُ، وستره عن تلويجه عشاؤُهُ، من التبرية  
القشور الدرية الظهور، الفضية الكسيور، قال: فاي نوع من التبري أكتب  
وأصوب؟ قلت: البرية المستوية القط، عن يمين سَنِّها، بَرية تَأْمَنُ معها  
المجّة عند المط، الهواء في مَسَقِّها فتيق، والريح في جوفها خريق، والمِدَادُ  
في خرطومها رقيق، قال: فبقي الأصمعي شاخصاً إليّ ضاحكاً لا يُجِيزُ  
مسألة ولا جواباً.

العتابي

والعتابي: هو كلثوم بن عمرو بن الحارث التغلبي، يُكْنَى أبا عمرو، قال أبو  
عثمان الجاحظ: كان العتابي ممن اجتمع له الخطابة، والبيان، والشعر  
الجيد، والرسائل الفاخرة، وعلى ألفاظه وحذوه يقول في البديع جميعاً من  
يتكلف ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور التمر، ومسلم بن الوليد  
الأنصاري، وأشباههما، وكان العتابي يَحْتَذِي حَذْوَ بَشَارِ في البديع، ولم يكن  
في المولدين أجودُ بديعاً من بشار وابن هَرَمَةَ.  
والعتابي من ولد عَمْرُو بن كلثوم ابن مالك بن عَنَابِ بن سعد، ولذلك قال:  
البسيط:

إني امرؤُ هدم الإقتار  
مأثرتي  
أنا ابنُ عمرو بن كلثوم  
يسوِّدُهُ  
أرومةٌ عطَلَّتني من  
مكارمها  
واجتاح ما أبدت الأيام من  
خطري  
حيّاً ربيعةً والأحياء من مضرٍ  
كالقوسِ عطَّلها الرامي من  
الوترِ

وكان صاحبَ بديهة في المنظوم والمنثور، حسنَ العقلِ وَالتَّمييزِ، وَالْعَرْبُ تقول: من  
تمنى رجلاً حسنَ العقلِ، حسنَ البيانِ، حسنَ العلمِ، تمنى شيئاً عسيراً. وقد اجتمع ذلك  
كله للعتابي.

وَعَاتِبَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ عَلَى لِبَاسِهِ، وَكَانَ لَا يُتَابِلِي أَيُّ ثَوْبِيهِ ابْتِذَالَ! فَقَالَ: أَبَعَدَ اللَّهُ رَجُلًا مَهْمُهُ أَنْ يَكُونَ جَمَالُهُ فِي لِبَاسِهِ وَعَطْرِهِ. إِنَّمَا ذَلِكَ حِطُّ النِّسَاءِ، وَأَهْلُ الْأَهْوَاءِ، حَتَّى يَرْفَعَهُ أَكْبَرَاهُ: هِمَّتُهُ، وَوَلِيَّهُ، وَيَعْلُو بِهِ مَعْظَمَاهُ: لِسَانُهُ، وَقَلْبُهُ.  
وَدَخَلَ عَلَى الرَّشِيدِ فَقَالَ: تَكَلِّمْ يَا عَتَابِي! فَقَالَ: الْإِنْسَانُ قَبْلَ الْإِبْسَاسِ، لَا يُمَدِّحُ الْمَرْءَ بِأَوْلِ صَوَابِهِ، وَلَا يُدَمُّ بِأَوْلِ خَطْئِهِ؛ لِأَنَّهُ بَيْنَ كَلَا رَوْزَةٍ، أَوْ عِيٍّ حَصْرَةٍ.  
وَذَكَرَ أَبُو هَقَّانٍ أَنَّ الرَّشِيدَ لَقِيَهِ بَعْدَ قَتْلِ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى وَزَوَالِ نِعْمَتِهِ، فَقَالَ:  
مَا أَخَدْتِ بَعْدُ يَا عَتَابِي؟ فَانْشُدْهُ  
ارْتِجَالًا: الطَّوِيلُ:

تَلُومَ عَنِي تَرَكِ الْعَيْتَى بِأَهْلِيئِهِ  
رَأَيْتُ حَوْلَهَا النِّسْوَانَ يَرْفَلْنَ فِي  
الْكُسَا  
أَسْرَكَ أَنِي نِلْتُ مَا نَالَ  
جَعْفَرُ  
وَأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَعْصَنِي  
فِي رَفِيعَاتِ الْمَعَالِي  
مَشْهُوِيَةٍ  
وَكَانَ مُتَحَرِّفًا عَنِ الْبِرَامِكَةِ، وَفِيهِمْ يَقُولُ: الْبَسِيطُ:

طَوَى الدَّهْرُ عَنْهَا كُلَّ طِرْفٍ  
وَتَالِدٍ

مَنْظَمَةً أَجْيَادُهَا بِالْقَلَائِدِ  
مِنَ الْمَلِكِ أَوْ مَا تَالَ يَحْيَى بْنُ  
خَالِدٍ  
مَغْصَهُمَا بِالْمُرْهَقَاتِ الْبُورِدِ  
بِمَسْتُودَعَاتٍ فِي بَطُونِ  
الْأَسَاوِدِ

بِصَفْحَةِ الدِّينِ مِنْ نَجْوَاهُمْ  
تَدَبُّ

مَضْرَجَ بَدَمَ الْإِسْلَامِ مَخْتَضِبُ

إِنَّ الْبِرَامِكَ لَا تَنْفِكُ أَنْجِيَّةً

تَجْرَمَتْ حَجَّ مِنْهُمْ  
وَمُنْصَلُهُمْ

وَاجْتَازَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ بِالرَّقَةِ بِمَنْزِلِ الْعَتَابِيِّ، فَقَالَ: أَلَيْسَ هَذَا مَنْزِلَ كَلْثُومِ بْنِ عَمْرٍو؟ قِيلَ: نَعَمْ، فَتَنَّى رِجْلَهُ، وَدَخَلَ إِلَيْهِ، فَأَلْقَاهُ جَالِسًا فِي بَيْتِ كَتَبِهِ، فَحَادَثَهُ وَذَاكَرَهُ، ثُمَّ انْصَرَفَ، فَتَحَدَّثَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ، وَقَالُوا: إِنْ الْأَمِيرُ لَمْ يَقْصِدْهُ، وَإِنَّمَا اجْتَازَ بِهِ فَأَخْطَرَ ذَلِكَ الزِّيَارَةَ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ: الْكَامِلُ:

بَعَدَ الْخَمُولِ نِبَاهَةَ الذِّكْرِ  
وَمَجَازَ حَاطَرِكَ لَيْسَ بِالْخَطَرِ  
تَسْتَنْفِدُ الْمَجْهُودَ مِنْ شُكْرِي  
إِنَّ الثَّلَاثَ تَتَمُّ الْوَتَرَ

يَا مَنْ أَفَادْتَنِي زِيَارَتُهُ  
قَالُوا الزِّيَارَةُ حَاطَرَةٌ حَاطَرْتُ  
فَادَّقَعُ مَقَالَتَهُمْ بِثَالِثَةٍ  
لَا تَجْعَلَنَّ الْيَوْتَرَ وَاحِدَةً  
فَبَعَثَتْهُ الْأَبْيَاطُ إِلَى أَنْ زَارَهُ ثَلَاثًا.

وَكَانَ يَمِيلُ إِلَى الْمَأْمُونِ، فَلَمَّا خَرَجَ إِلَى خُرَاسَانَ شِيعَهُ حَتَّى وَصَلَ مَعَهُ إِلَى سَنَدَانَ كِسْرَى، فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ: سَأَلْتُكَ بِاللَّهِ يَا عَتَابِي إِلَّا عَمِلْتَ عَلَيَّ زِيَارَتَنَا إِنْ صَارَ لَنَا مِنْ هَذَا الْأَمْرِ شَيْءٌ، فَلَمَّا وَلِيَ الْمَأْمُونُ الْخِلَافَةَ، وَدَخَلَ بَغْدَادَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَمِائَتَيْنِ تَوَصَّلَ إِلَيْهِ الْعَتَابِيُّ، فَلَمْ يُمْكِنَهُ الْوَصُولُ، فَقَالَ لِلْقَاضِي يَحْيَى بْنِ أَكْثَمٍ: إِنْ رَأَيْتَ أَنَّ تُعْلِمُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَكَانِي! فَقَالَ: لَسْتُ بِحَاجِبٍ! قَالَ: قَدْ عَلِمْتَ، وَلَكِنَّكَ ذُو فَضْلٍ، وَذُو الْفَضْلِ مِعْوَانٌ! فَقَالَ: سَلَكْتُ بِي غَيْرَ طَرِيقِي! قَالَ: إِنْ اللَّهُ تَعَالَى الْحَقُّكَ بِجَاهٍ وَنِعْمَةٍ، وَهَمَا يَقِيمَانِ عَلَيْكَ بِالزِّيَادَةِ إِنْ شَكَرْتَ، وَالتَّغْيِيرِ إِنْ كَفَرْتَ، وَأَنَا الْيَوْمَ لَكَ خَيْرٌ مِنْكَ لِنَفْسِكَ؛ أَدْعُوكَ لِمَا فِيهِ زِيَادَةُ نِعْمَتِكَ، وَأَنْتَ تَابِي ذَلِكَ؛ وَلِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ، وَزَكَاةُ الْجَاهِ بَدْلُهُ لِلْمَسْتَعِينِ، فَدَخَلَ يَحْيَى عَلَى الْمَأْمُونِ فَقَالَ: أَجِزْنِي مِنْ لِسَانِ الْعَتَابِيِّ، فَلَهَا عَنْهُ، وَلَمْ يَأْذِنْ لَهُ، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِ كِتَابُ إِلَيْهِ: الْخَفِيفُ:

ما على ذلك افترقنا يسندنا  
لم أكن أحسب الخلافة يزدا  
تضرب الناس بالمتففة  
السُّم

ن ولا هكذا عهدنا الإخاء  
د بها ذو الصفاء إلا صفاء  
ر على عذرهم وتنسى الوفاء

يعرض بقنله لأخيه على عذره، ونكته لِمَا عقد الرشيد؛ فلما قرأ المأمون الأبيات أمر أن يُدخَلَ عليه. فلَمَّا سلم قال: يا عتابي، بلغتنى وفادتك فسررتني، وقد كانت بلغتنى وفائك فساعتني، وإني لحرِيّ بالغم لبُعْدِكَ، والسرور بفريك! فقال: يا أمير المؤمنين، لو قسم هذا الكلام على أهل الأرض لوسعهم عدلاً وأعجزهم شكراً، وإن رضاك لغاية المني، لأنه لا دين إلا بك، إلا معك، قال: سَلني، قال: يَدُّك بالعطية أطلق من لساني بالمسألة، بخمسين ألفاً.

وقال العتابي وودع جارية له: الخفيف:

ما عناء الجدار والإشفاق  
ليس يفوى الفؤاد منك على  
الض

وشأبيب دمَعك المَهْرَاقِ  
د ولا مُقَلَّتَا طَلِيحِ المَآفِي

غدرات الأيام منتزعات  
إن قصى الله أن يكون تلاقٍ  
هَوْنِي ما عليك واقفني حياءً  
أبنا قدَمَتْ صروفُ المنايا  
ويدُ الحادثات رهْنُ بمُرَّا

ما غنمنا من طول هذا  
العناق  
بعد ما قد ترين كان تلاقٍ  
لست تبقين لي ولست  
بِباقٍ  
فالذي أحرث سريعُ اللحاق  
ت من العيش مُصِيرَاتِ  
المذاق

عُرَّ مَنْ ظن أن يفوت  
المنايا

كم صفيين مُتَّعَا باتفاق  
قلت للفرقدين والليل مُلْقٍ  
إِيقِيَا مَا بقيتما سوف يُرمى

ثم صارا لُعْرَبَةٍ وافتراق  
سُودَ أكنافه على الآفاقِ  
بين شخصيكما بسَهمِ  
الفِرَاقِ

بينما المرء في عَصَارَةِ  
عَيْشٍ

عطفَتْ شِدَّةُ الزمان  
فَأدَّتْ

لا يدومُ البقاءُ لِلخَلْقِ لَكِ  
وقال في الرشيد: الطويل:

إمامٌ له كفَّ تَصُمُّ بَنَائِهَا

وعينٌ محيطٌ بالبرية  
طَرَفُهَا

وقال فيه: الطويل:

رعى أمة الإسلام فهو  
إمامُهَا

مقيمٌ بمستنِّ القَلَا حَيْثُ  
طَوَارِقُ أَبْكَارِ الخُطُوبِ

تَلْتَقِي

وَعُوْنُهَا

وكان منصور النمري سَعَى به إلى الرشيد فخافه، فهرب إلى بلد الروم، وله قصائد، يعتذر فيها، جيدة مختارة، وهو مشبه في حسن الاعتذار بالنابعة الذبياني، ومن جيد اعتذاره قوله للرشيد، ويقال: بل قالها على لسان عيسى بن موسى الهاشمي يخاطب الرشيد: الطويل:

جَعَلْتُ رَجَاءَ الْعَفْوِ عِذْرًا  
وَسَبَّهُ

بِهَيْبَةٍ إِمَّا غَافِرٍ أَوْ مُعَاتِبٍ

وَكُنْتُ إِذَا مَا خَفْتُ حَادِثَ  
تَبْوَةٍ

جَعَلْتِكَ حِصْنًا مِنْ حِذَارِ  
النَّوَابِ

فَأَنْزَلَ بِي هَجْرًا تُكُ الْيَأْسَ بَعْدَمَا  
حَلَلْتُ بَوَادٍ مِنْكَ رَحَبَ الْمَشَارِبِ

وَأَوِي إِلَى حَافَاتِ أَكْدَرِ  
تَأْضِبِ

أَظْلَ وَمَرَعَايَ الْجَدِيدِ مَكَاتِهِ

وَلَمْ يَثْنِ عَنِ نَفْسِي الرَّدَى  
غَيْرَ أَنَّهَا

تَنْوَأُ بِبِقَاقٍ مِنْ رَجَائِكَ  
ثَائِبِ

هِيَ النَّفْسُ مُحْبُوسٌ عَلَيْكَ  
رَجَاؤُهَا

يُظَلُّ وَيُؤْمِسِي مُسْتَلِينَ  
الْجَوَانِبِ

وَتَحْتَ ثِيَابِ الصَّبْرِ مَنِي  
ابْنِ لَوْعَةٍ

فَأَقْلَعَنَّ عَنْهُ دَامِيَاتِ  
الْمِخَالِبِ

فَتَى ظَفَرْتُ مِنْهُ اللَّيَالِي  
بِرَلَةٍ

بِذَلٍّ، وَأَحْرَزْتُ الْمَنَى  
بِالْمَوَاهِبِ

حَتَّى تَأْتِيكَ إِنِّي لَمْ أَكُنْ بَعْدُ  
عِزَّةً

عَقُوبَةَ زَلَّاتِي وَسُوءِ  
مَنَاقِبِ

فَقَدْ سُمِّتَنِي الْهَجْرَانَ حَتَّى  
أَدْفَنَنِي

عَلَى حَدِّ مِصْقُولِ الدَّنَابِينِ  
قَاضِبِ

فَهَا أَنَا مُقْصَى فِي رِضَاكَ،  
وَقَابِضُ

هَوَاكَ مِثَالًا بَيْنَ عَيْنِي  
وَحَاجِبِي

وَمَنْتَزَعُ عَمَا كَرِهْتِ  
وَجَاعِلُ

وفي هذه القصيدة مما يختار أهل الصناعة: الطويل:

غَرِيبَ الْكَرَى بَيْنَ الْفَجَاجِ  
السَّبَاسِبِ

وَأَشْعَتِ مِشْتَاقَ رَمَى فِي  
جَفُونِهِ

دُجَى اللَّيْلِ حَتَّى مَجَّ ضَوْءُ  
الْكَوْكَبِ

سَخَبْتُ لَهُ دَيْلَ السُّرَى وَهُوَ  
لَا يَسُ

أَجَلُّ لَهَا أَكْلُ الدَّرَى  
وَالْعَوَارِبِ

وَمِنْ فَوْقِ أَكْوَارِ الْمَهَارِي  
لِبَانَةٍ

وَطِيُّ الْحَشَى دُونَ الْهَمُومِ  
الْعَوَارِبِ

وَكُلُّ فَتَى عَادَاتِهِ قَصْرُ  
شَوْقِهِ

صُرَاخًا، وَلَمْ تَسْمَعْ بِهِ أُذُنُ  
صَاحِبِ

يُسِيرُ الْهَوَى لَمْ يُبَيِّدِهِ نَعْتِ  
فَرَقَةٍ

إذا اذَّرع الليل انجلى  
وكانه  
بركبٍ ترى كسر الكرى في  
جفونهم  
وقال أيضاً: الخفيف:  
لورأتني بذي المَحَارَةِ  
قَرْدًا  
أطفئ الحزنَ بالدموع إذا  
ما  
خاشع الطرف قد توشَّحنى الضر  
فلانت له قنأه قِيادي

بقية هندي الحسام  
المضارب  
وعهد الليالي في وجوه  
مَسَاحِبِ

وذراعُ ابنة القلابة وسادي  
حُمهُ الشوقِ أثرت في  
فُوادي

حُزنَ والبؤسَ واقياً  
مِلادي  
س من النائرات  
والأحقادِ  
ل بهوجاء فوقها أفئادي  
بين سرجي ومُنحني  
أغوادي

تربُّ بؤسٍ أها هموم كأنَّ ال  
وكأنني استشعرت ما لفظ  
الناس  
أصدى الردى واذرع اللي  
خط عيني من الكرى  
خفقات  
أوحش الناسُ جانبيَّ فما  
أ

قد رددت الذي به أتقي  
الناس  
فاستهلت عليَّ تمطرني  
الشو  
وقال: الطويل:  
أما راع قلبَ العامرية أنني  
وقال: الطويل:  
أكائم لوعاتِ الهوى وبيئها  
ومطووفة الإنسان في كلِّ  
لوعة

غدوت ومرجوعُ السقام  
قريني؟

تخلل ماء الشوق بين  
جفوني  
لها نظرة موصولة بخنين

بنو وهب: وقال الحسن بن وهب بن سعيد: السريع:  
إبكٍ فمن أحسن ما في البكا  
وهو إذا أنت تأملتُه  
وقد أعرق بنو وهب في الكتابة وأنجبوا، ولهم في هذا الكتاب ما يشهد لهم بما تُسب  
إليهم، وفيهم يقول الطائي: الخفيف:  
كلُّ شِعْبٍ كنتم به آل وهبٍ  
إن قلبي لكم لكالكبد الحرَّى وقلبي  
لغيركم كالقُلُوبِ  
وفي هذه القصيدة يقول في مدح سليمان بن وهب:

ما عَلَى الْوُسْجِ الرَّوَاتِكِ مِنْ عَبِّ  
بِ إِذَا مَا أَتَتْ أَبَا أَيُّوبِ  
حَوْلٌ لَا فِعَالَهُ مَزْرَعُ الذَّمِّ م وَلَا عِرْضُهُ مَنَاخُ الْعُيُوبِ  
واجد بالصديق من بُرْحَاءِ الشُّوقِ  
وجدانَ غَيْرِهِ بِالْحَبِيبِ  
أَخَذَ سَلِيمَانُ مِنْهُ مَعْنَى هَذَا الْبَيْتِ الْآخِرِ، فَقَالَ فِي رِسَالَةٍ لِبَعْضِ إِخْوَانِهِ:  
ظَرَفُ الصِّدَاقَةِ، أَرْقُ مِنْ ظَرْفِ الْعِلَاقَةِ، وَالنَّفْسُ بِالصِّدِيقِ، أَنْسَ مِنْهَا  
بِالْعَشِيقِ.

فقال له أبو تمام: كلامك هذا أرق من شعري.  
والحسن بن وهب حسن الشعر والبلاغة، جيد اللسان، حلو البيان، وكان  
يحب بنان جارية محمد بن حماد، وله فيها شعر جيد، ولها يقول: الطويل:

أَقُولُ وَقَدْ حَاوَلْتُ تَقْبِيلَ  
وَبِي رِعْدَةٌ أَهْتَرُ مِنْهَا وَأَسْكُنُ  
كَفِّهَا

لِيَهْنِكَ أَتِي أَشْجَعُ النَّاسِ  
لِدَى الْجَرْبِ إِلَّا أَنِّي عَنْكَ  
كَلِّهِمْ

وحضرت مجلسه وبين يديه نار فأمرت بإزالتها، فقال: الكامل:

أَبَايَ كَرِهَتِ النَّارَ حَتَّى  
فَعَلِمْتُ مَا مَعْنَاكَ فِي  
أَبْعَدْتُ  
إِبْعَادَهَا

هِيَ صَرَّةٌ لِكَ فِي التِّمَاعِ  
وَهَبُوبٍ تَفَحَّتْهَا لَدَى إِيقَادِهَا  
ضِيَائِهَا

وَأَرَى صَنِيعَكَ فِي الْقُلُوبِ  
بَسِّيَالِهَا وَأَرَاكِهَا وَعَرَادِهَا  
صَنِيعِهَا

شَرَكْتُكَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ  
وَضِيَائِهَا وَصَلَاحِهَا وَفَسَادِهَا  
بِفِعْلِهَا

وإلى هذا ينظر قول الأمير تميم بن المعز: الخفيف:

مَا هَجَرْتُ الْمُدَامَ وَالْوَرْدَ  
رَ بَطْوَعِ، لَكِنْ بَرَعَمَ وَكُزْرِهِ  
وَالْبَدِ

مَنْعَتَنِي مِنَ الثَّلَاثَةِ مَنْ لَوْ  
قَاتِ الْوَرْدُ وَالْمُدَامَةُ وَالْبَدِ  
رُضِيَائِي وَلَوْ خَدِّي وَوَجْهِي

قَلْتُ بَخْلًا بِكُلِّ شَيْءٍ فَقَالَتْ  
لَا وَلَكِنْ بَخَلْتُ بِي وَبِشَيْئِهِي  
قَلْتُ يَا لَيْتَنِي شَبِيبُكَ قَالَتْ

ولما مات الحسن بن وهب - وكان موته بالشام - عُزِّي عنه أخوه سليمان، فجاء أبو  
العيناء، فقال: أنشدني أبو سعيد الأصبغي: الطويل:

لِعَمْرِي لِنِعَمِ الْمَرْءِ مِنْ آلِ  
بِحُورَانَ أَمْسَى أَعْلَقْتَهُ  
جَعْفَرَ  
الْحَبَائِلُ

لَقَدْ فَقَدُوا عَزْمًا وَحَزْمًا  
وَعِلْمًا أَصِيلًا خَالَفْتَهُ  
وَسُودَدَا  
الْمَجَاهِلِ

فَإِنْ عِشْتِ لَمْ أَمَلِّ حَيَاتِي  
فَمَا فِي حَيَاتِي بَعْدَ مَوْتِكَ  
وَإِنْ تَمَتَّ  
طَائِلُ

فقال سليمان: أحسن الله جزاءك، ووصل إخاءك، إن هذا لمن أحسن الشعر، وقد  
تمثل به قتيبة حين بلغه موث الحجاج، ولكني أقول كما قال كعب بن سعد الغنوي  
يرثي أخاه أبا المغوار: الطويل:

أخي ما أخي لا فاجش عند  
بئته  
حليم إذا ما سورة الجهل  
أطلقت  
حبيب إلى الزوار غشيان  
بيته  
إذا ما تراه الرجال  
تحفظوا

ولا ورع عند اللقاء هئوب  
حبي الشيب، للنفس اللجوج  
غلوب  
جميل المحيا شب وهو  
أريب  
فلم تُنطق العوراء وهو  
قريب

فانصرف الناس يعجبون من علم سليمان، وحسن جوابه، وصحة تمثله. والأبيات التي أنشدها الأصمعي للحطيئة، واسمه جرول بن أوس بن جويبة بن مخزوم بن مالك بن غالب. بن قطيفة بن عبس بن بغيض، يقولها في علقمة بن علاثة وفيها يقول: الطويل:

فما كان بيني لو لقيتك  
سالمًا

قال سليمان بن وهب: لما جار علينا بالنكبة السلطان، وحقًا من أجلها الإخوان، أنصفنا ابن أبي دؤاد بتطوُّله، وكفانا الحاجة إليهم بتفضله، فكنا وإياه كما قال الحطيئة: الكامل:

جاورث آل مقلد فحمدتهم  
أيام من يرد الصنعة يضطنع

وله فصل إلى بعض إخوانه: لك أن تعتب، وشبهك أن يعذر، فهب أقل الأمرين لأكثرهما، وقدم فضلك على حَقِّك، وبقينك على شكِّك. ووصف رجلاً بليغاً فقال: كان والقه واسع المنطق، جزل الألفاظ، ليس بالهذر في لفظه، ولا المظلم في مقصده؛ معناه إلى القلم أسرع من لفظه إلى السَّمْع.

وهذا ضد قول محمد بن عبد الملك الزيات في عبيد الله بن يحيى بن خاقان: هو مهزول الألفاظ، غليظ المعاني، سخيْفُ العقل، ضعيف العقدة، واهي العزم، مافون الرأي.

ألفاظ لأهل العصر

في ذم الكتاب والكتاب والنثر والشعر  
الحرس أحسن من كلامه، والعي أبلغ من بيانه، خاطره يئبو، وقلمه يكبو، ويسهو ويغلط، ويخطئ ويُسقط. هو قصير باع الكتابة، قاصر سعي الخطابة، وكتبه مضطربة الألفاظ، متفاوتة الأبعاض، منتشرة الأوضاع، متباينة الأغراض. الجلم أولى بكفه من القلم، والطاس أليق بها من القرطاس. كلام تنبو عن قبوله الطباع، وتتجافى عن استماعه الأسماع. ألفاظ تنبو عنها الأذان فتمجها، وتنكرها الطباع فترجها. كلام لا يرفع الطبع له جباباً، ولا يفتح السمع له باباً. كلام يصدِّي الریان، ويصدئ الأفهام والأذهان. كلام قد تعمل فيه حتى تبذل، وتكلف حتى تعسف. طبع جاس، ولفظ قاس، لا مساع له في سَمْع، ولا وصول له مع خلو دَرَع. كلام لا الروية ضربت فيه بسهم، ولا الفكرة جالت فيه بقِدَح. كلام تتعثر في حزونته، وتتحرر الأفهام من وُغورته. كلمات ضعيفة الإتيان، قليلة الأعيان، مضمحلة على الامتحان. ألفاظ تُستعَار من الدياجي، ومعانٍ تقدر من الأثافي. كلام بمثله يتسلى الأخرس عن كلمه، ويفرح الأصم بصممه، أثقل من الجندل، وأمر من الحنظل، هو هذيان المحموم، وسوداء الهموم. كلام رث، ومعنى

عَتَّ، لا طائل فيهما، ولا طلاوة عليهما. أبيات ليست من محكم الشعر وحكمه، ولا من أحجال الكلام وعُزْره. شعر ضعيف الصنعة رديء الصبغة بغيض الصفة وقد جمع بين إقواء وإيطاء، وإبطاء وإخطاء. ما قطع في شعره شَعْرَةٌ ولا سقى قطرة. لو شعر بالنقص ما شَعِر. لا يميز بين خبيث القول وطيبه، ولا يفرق بين يكره وتببه. هو باردُ العبارة، ثقيل الاستعارة. هو من بين الشعراء منبوذُ بالعَرَاء. لم يلبس شعره حلة الطلاوة. له شعر لا يطيب دَرْسه، ولا يخف سَرده، وخط مضطرب الحروف، متضاعف التضعيف والتحريف. خط يُفْذِي العين ويُشْجِي الصَّدْر. خطٌ منحط، كأنه أرجل البط، وأنامل السرطان، على الجيطان. قلمه لا يستجيب بَرِّيه، ومداده لا يساعده جَرِّيه. قلمه كالولد العاق، والأخ المشاق، إذا أدْرته استطال، وإذا قَوَّمته مال، وإذا بعثته وقف، وإذا وقفته انحرف. قلم مائل الشق، مضطرب المشق، متفاوت البرِّي، معدوم الجَرِّي، محرّف القط. قلم لم يُقَلِّم ظفره فهو، يخدش القِرطاس، وينقش الأنفاس، وبأخذ بالأنفاس. قلم لا يُبعث إذا بعثته، ولا يقف إذا وقفته. قد وقف اضطرابُ بَرِّيه، دون استمرار، جَرِّيه، واقتطع تفاوت قطه، عن تجويد خطه.

### خير الكلام

ذكر عُتْبَةُ بن أبي سفيان كلامَ العرب فقال: إن للعرب كلاماً هو أرقُّ من الهواء، وأعذب من الماء، مرق من أفواههم مُروق السهام من قسيها، بكلمات مؤتلفات، إن فُسِّرَت بغيرها عطلت، وإن بدلت بسواها من الكلام استصعبت؛ فسهولة الفاطم توهمك أنها ممكنة إذا سمعت، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طلبت. هم اللطيف فهمهم، النافع علمهم، بلغتهم نزل القرآن، وبها يدرك البيان، وكلُّ نوع من معناه مُبَيَّن لما سواه، والناس إلى قولهم يصيرون، وبهداهم ياتمون، أكثر الناس أحلاماً، وأكرمهم أخلاقاً. وكان يقال: خير الكلام المُطْمِع الممتنع.

وأنشد إبراهيم بنُ العباس الصُّولي لخاله العباس بن الأحنف: السريع:

إليك أشكو ربَّ ما حلَّ بي      من صدِّ هذا العاتب المُدْنِبِ  
إن قال لم يفعل، وإن سبيل      يبذل، وإن عُوتب لم يُعْتَبِ  
لم

صب بعصيانني، ولو قال لي      لا تشرب البارِدَ لم أشرب

ثم قال: هذا والله الشعر الحسن المعنى، السهل اللفظ، العذب المستمع، الصعب الممتنع، العزيز النظير، القليل الشبيه، البعيد مع قُرْبِه، الحزن مع سهولته، فجعل الناس يقولون: هذا الكلام أحسن من الشعر. وقال أبو العباس الناشئ يصف شعرة: الكامل:

يتحير الشعراء إن سمعوا      في حُسن صنعته وفي  
به      تأليفه

فكانه في قُرْبِه من قَهْمِهِم      ونكولهم في العَجْرِ عن  
ترصيفه

شجرٌ بدَا للعَيْنِ حُسْنُ نباته      وتَأَى عن الأيدي جَنَى  
مقطوفه

فإذا قرنت أبيه بمُطِيعِهِ      وقرنته بَعْرِيه وطريفه

ألفيت معناه يطابق      والنظم منه جليّة بلطيفه  
لَفْظَه

فأتاه مُسْبِقاً على      قد نيط منه رزينه بخفيفه

إحسانه

هذبته فجعلته لك باقياً  
ومنعت صرف الدهر عن  
تصريفه

وقال الناشئ في فضل من كتبه في الشعر: الشعر قَيْدُ الكلام، وعقل الآداب، وشوْرُ البلاغة، ومعدن البراعة، ومجال الجنان، ومسرحُ البيان، وذريعة المتوسّل، ووسيلة المتوصل، وذمام الغريب، وحُرْمَةُ الأديب، وعِصْمَةُ الهارب، وعَدَّةُ الراهب، ورحلة الداني، ودَوْخَةُ الممثل، وروحة المتحمل، وحاكم الإعراب، وشاهدُ الصواب. وقال في هذا الكتاب: الشعر ما كان سهلَ المطالع، فصل المقاطع، فحل المدح، جزل الافتخار، شجيّ النسيب، فكّه الغزل، سائر المثل، سليم الزلل، عديم الخلل، رائع الهجاء، موجب المعذرة، مُحَبّ المعتبة، مُطعم المسالك، فائت المدارك، قريب البيان، بعيد المعاني، تائي الأغوار، ضاحي القرار، نقي المستشف، قد هريق فيه ماء الفصاحة، وأضاء له نور الزجاجة، فانهل في صادي الفهم، وأضاء في بهيم الرأي. لمتامله ترقق، ولمستشفه تألق، يروق المتوسم، ويسر المترسم؛ قد أبدت صدوره مُثونه، ورهت في وجوهه عيونه، وانقادت كواهل لهوآديه، وطابقت أفاظه معانيه، وخالفت أجناسه مبانيه، فاطرد لمتصفحه، وأنار، لمستوضحه، واشبه الروض في وشي ألوانه، وتعقم أفنانه، وإشراق نواره، وابتهاج أنجاده بأغواره؛ وأشبه الوشي في اتفاق رُقومه، واتساق رُسومه، وتسطير كفوفه، وتحبير كفوفه؛ وحكى العقد في التثام فُصوله، وانتظام وُصوله، وازديان ياقوته بذرّه، وفريده بشدّره، فلو اكتنف الإيجاز موارده، وصقلت مَدَاوِسِ الدربة مناصله، وشحذت مدارس الأدب قِياصه، جاء سليماً من المعايب، مهذباً من الأدناس، تتحاشاه الأبن، وتتخاماه الهجن، مُهدياً إلى الأسماع بهجته، وإلى العقول حكّمته.

وقد قلت في الشعر قولاً جعلته مثلاً لقائليه، وأسلوباً لسالكيه، وهو: الكامل:

الشعر ما قومت رُبغ صدوره  
وشددت بالتهذيب أسر  
مُثونه

ورأبت بالإطناب شَعَبَ  
صدوعه  
وجمعت بين قريبه وبعيده  
وعقدت منه لكل أمر  
يقتضي

فإذا بكيت به الديار وأهلها  
أجريت للمحزون ماء  
شؤونه

وكلته بهومومه وغمومه  
وإذا مدحت به جواداً ماجداً  
أصفيته بنفيسيه ورصينه  
فيكون جزلاً في اتفاق  
صنوفه

وإذا أردت كنايةً عبئ ربيّة  
فجعلت سامعه يشوب  
شكوكه

وإذا عتبت على أخ في زلة  
فتركته مستأنساً لدمائة  
وإذا نبذت إلى التي غلقتها

أدمجت شدته له في لينه  
مستينساً لوعوئه وحزونه  
إن صارمتك بفاتنات شؤونه

تِيَمَّتْهَا بِلطيفه ورقيقه  
وَإِذَا اعْتَذَرْتَ إِلَى أَخٍ فِي زَلَّةٍ  
وَشَغَفْتَهُمَا بِخَفِيهِ وَكَمِينِهِ  
فَيَحْوِرُ دَنْبُكَ عِنْدَ مَنْ يَعْتَدُّهُ  
وَإِسْتَكْتَبَ بَيْنَ مُجِيلِهِ وَمُبِينِهِ  
وَالْقَوْلُ يَحْسُنُ مِنْهُ فِي  
عَنْبَاءً عَلَيْكَ مُطَالِباً بِيَمِينِهِ  
مَنْشُورِهِ  
مَا لَيْسَ يَحْسَنُ مِنْهُ فِي  
مَوْزُونِهِ

وقال الخليل بن أحمد: الشعراءُ أمراءُ الكلام، يصرفونه ألى شاءوا؛ وجائز لهم ما لا يجوزُ لغيرهم، من إطلاق المعنى وتقييده، ومن تصريف اللفظ وتعقيده، ومد مقصوره، وقصُر ممدوده، والجمع بين لغاتِهِ، والتفريق بين صفاته.

وقال: الشعرُ جليةُ اللسان، ومدْرَجةُ البيان، ونظامُ الكلام، مقسومٌ عَيْرٌ محظور، ومشتركٌ غير محصور، إلا أنه في العرب جَوْهري، وفي العجم صناعي.

قال أعرابي لشاعر من أبناء فارس: الشعرُ للعرب، فكل مَنْ يقول الشعر منكم فإنما نزا على أمه رجل منا! فقال الفارسي: وكذلك من لا يقول الشعر منكم، فإنما نزا على أمه رجل منا!.

وقال عمارة بن عقيل: أجود الشعر ما كان أمْلَسَ المتون، كَثِيرَ العيون، لا يَمُجُّ السمع، ولا يستأذِنُ على القلب وأنشد الجاحظ شعرَ أبي العتاهية فلم يَرِضْهُ، وقال: هو أمْلَسُ المتون، ليس له عيونٌ، كأنه وعُمارة تجاذبا كلاماً واحداً.

وقال ابن عقيل: الشعرُ بضاعة من بضائع العرب، ودليل من أدلة الأدب، وأثارة من أثارات الحسب. ولئن يهز الشعرُ إلا الكريمَ المَحْتَدِ، الكثير السؤدد، الكلف بذكر اليوم والعد.

ومدح بشار المهدي فلم يُعْطِه شيئاً، ف قيل له: لم تُجِدْ في مَدْحِهِ. فقال: لا والله، لقد مَدَحْتَهُ بشعرٍ لو قُلت مثله في الدهر لما خيف صَرْفُهُ على حُرِّ، ولكنني أَكْذِبُ في العمل، فأكْذِبُ في الأمل.

نظمه الناجم فقال: الوافر:

ولي في أحمدٍ أملٌ بَعِيدٌ  
ومَدْحٌ حين أنشده طريفٌ  
مدائح لو مَدَحْتَ بها الليالي  
لما دارت عليَّ لها صروفٌ

قال هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان: صف لي جريراً والفرزدق والأخطل، فقال: يا أمير المؤمنين، أما أعظمهم قَحْرًا، وأبعدهم ذكراً، وأحسنهم عذراً، وأسيئهم مَثَلًا، وأقلهم غزلاً، وأحلامهم عِللاً، البحر الطامي إذا رَحَرَ، والحامي إذا دَعَرَ، والسامي إذا خَطَرَ، الذي إذا هَدَرَ جال، وإذا خطر صال، الفصيح اللسان، الطويل العنان، فالفرزدق. وأما أحسنهم تَعْتًا، وأمدجهم بيتاً، وأقلهم قُوْتًا، الذي إن هجا وضع، وإن مدح رَفِعَ، فالأخطل. وأما أعزُّهم بحراً، وأرفهم شعراً، وأكثرهم ذكراً، الأغر الأبلق، الذي إن طلب لم يُسْبِق، وإن طلب لم يُلْحَق، فجرير. وكلهم ذكيُّ الفؤاد، رفيع العماد، واري الزناد.

قال مسلمة بن عبد الملك، وكان حاضراً: ما سمعنا يا ابن صفوان في الأولين ولا في الآخرين، أشهدُ أنك أحسنهم وصفاً، وأليئهم عِطفاً، وأخفهم مقالاً، وأكرمهم فعلاً. فقال خالد: أتمَّ الله عليك نِعْمه، وأجزل لك قِسْمه. أنت والله أيها الأمير - ما علمت - كريمُ الغراس، عالمٌ بالناس، جوادٌ في المَحَلِّ، بسام عند البَدَلِ، حلِيم عند الطَيْشِ، في الدَّرْوَةِ من قریش، من

أشرف عبد شمس، ويومك خيرٌ من أمس. فضحك هشام وقال: ما رأيت مثلك يا ابن صفوان لتخلصك في مَدْح هؤلاء، ووصفهم، حتى أَرْضيتهم جميعاً وسَلِمْتَ منهم. ودخل العجاجُ عليَّ عبد الملك بن مروان فقال له: بلغني أنك لا تُحسِن الهجاء، فقال: يا أمير المؤمنين، مَنْ قَدَرَ على تشييد الأبنية، أمكنه خَرَابُ الأخبية، قال: ما يمنعك من ذلك؟ قال: إِنَّ لَنَا عِزًّا يَمْنَعُنَا من أَنْ نُظَلَمَ، وَجِلْمًا يَمْنَعُنَا من أَنْ تَظَلَمَ، قال: لَكَلِمَاتُكَ أَحْسَنُ من شعرك! فما العُرُ الذي يمنعك أَنْ تَظَلَمَ. قال: الأدب البارِع، والفهم الناصع. قال: فما الجِلْمُ الذي يمنعك من أَنْ تَظَلَمَ؟ قال: الأدب المستطرف، والطبع التالد، قال: لقد أصبحتَ حكيماً. قال: وما يمنعني من ذلك وأنا تَجِيَّ أمير المؤمنين؟ قال أبو إسحاق: وليس كما قال العجاج، بل لكثير من الشعراء طباع تَنبُو عن الهجاء كالطائي وأضرابه، وأصحاب المطبوع أقدرُ عليه من أهل المصنوع، إذ كان الهجو كالنادرة التي إذا جَرَّتْ على سَجِيَّةٍ قائلها، وقربت من يَدِ متناولها، وكانَ واسع العطن، كثير الفطن، قريب القلب من اللسان، التهيت بنار الإحسان.

ومما يَنخُو هذا النحو من مقامات أبي الفتح الإسكندري إنشاء بديع الزمان قال: حدَّثنا عيسى بن هشام قال: طرحني النوى مطارحها، حتى إذا وطئتُ جُرْجان الأفضى، فاستظهرتُ على الأيام بضياع أجلتُ فيها يَدَ العِمارة، وأموال وقفتها على التجارة، وحانوت جعلته مَثابَةً، ورُفقة اتخذتهم صحابةً، وجعلتُ للدار حاشيتي النهار، والحانوت ما بينهما، فجلسنا يوماً نتذاكرُ الشعر والشعراء، وتلفاتاً شاب قد جلس غير بعيد، يُنصت وكأنه يفهم، ويسكت وكأنه لا يعلم، حتى إذا مال الكلام بنا مَيْلَهُ، وَجَرَ الجَدَلَ فينا دَيْلَهُ، قال: أصبتم عُدَيْقَهُ ووافيتم جُدَيْلَهُ، ولو شئتُ للفظت فأقضت، ولو أردت لسردت، ولجلوت الحقَّ في معرض بيان يُسْمِعُ الصم، ويُنزل العُصم. فقلت: يا فاضل، لِدُنِّ فقد مَيَّت، وهات فقد أثيت، فدنا وقال: سَلُونِي أَجِبْكُمْ، واستمعوا أعجبكم.

قلنا: فما تقول في امرئ القيس؟ قال: هو أول مَنْ وَقَفَ بالديار وعَرَصَاتِهَا، وَاغْتَدَى والطيرُ في وُكَيَاتِهَا، ووصف الخيلَ بِصِفَاتِهَا، ولم يقل الشعرَ كاسبياً، ولم يُجِدِ القولَ راعباً، فَفَضَلَ من تَفْتَقَ لِلحيلة لسائِهِ، وانتَجَعَ للرجبة بنائِهِ.

قلنا: وما تقول في النابغة؟ قال: ينسب إذا عَشِيق، وَيَتَلَبُّ إذا حَنِيق، ويمدح إذا رَغِب، ويعتذر إذا رَهَب، فلا يرمي إلا صائباً. قلنا: فما تقول في طرفة؟ قال: هو ماءُ الأشعار وطينتها، وكَنز القوافي ومدينتها، مات ولم تظهر أسرارُ دَفَائِنِهِ، ولم تطلق عِتَاقُ خَزَائِنِهِ. قلنا: فما تقول في زهير؟ قال: يُذِيبُ الشعرَ والشعرُ يذِيبُهُ، ويدعو القَوْلَ والسَّحْرُ يُجِيبُهُ.

قلنا: فما تقول، في جرير والفرزدق. وأيهما أسَيِّق؟ قال: جرير أرقُّ شعراً، وأَعَزَّرَ غزراً، والفرزدق أَمْتُّ صخراً، وأكثر فخراً، وجرير أوجع هَجْواً، وأشرف يوماً، والفرزدق أكثر رَوْماً، وأكثر قوماً، وجرير إذا نَسَبَ أشجى، وإذا تَلَبَّ أزدى، وإذا مدح أسنى، والفرزدق إذا افتخر أجزى، وإذا وصف أوفى، وإذا احتقر أزرى.

قلنا: فما تقول في المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم؟ قال:

المتقدمون أشرفُ لفظاً، وأكثرُ في المعاني خطأً، والمتأخرون أطفُ صُنْعاً، وأرقُ تَسْجاً.  
قلنا: فلو أريت من أشعارك، ورويت من أخبارك، قال: خُذْهُمَا فِي مَعْرَضٍ وَاحِدٍ، أَنْشِدْ: الرَّجْزُ:

أَمَا تَرَوْنِي أَتَغْشَى طِمْرًا      مُلْتَجِفًا فِي الصُّرِّ أَمْرًا إِمْرًا  
مُنْطَوِبًا عَلَى اللَّيَالِي غَمْرًا      مَلَاقِيًا مِنْهَا صُرُوفًا حُمْرًا  
أَقْصَى أَمَانِي طُلُوعَ الشَّعْرَى      فَقَدْ غُنِينَا بِالْأَمَانِي دَهْرًا  
وَكَانَ هَذَا الْحَرْ أَعْلَى قَدْرًا      وَمَاءُ هَذَا الْوَجْهِ أَعْلَى سِعْرًا  
ضَرَبْتَ لِلسُّرُو قَبَابًا خُصْرًا      فِي دَارِ دَارًا وَإِوَانٍ كِسْرًا  
فَانْقَلَبَ الدَّهْرُ لِبَطْنِ ظَهْرًا      وَعَادَ عَزْفُ الْعَيْشِ عِنْدِي  
تُكْرًا

لَمْ يَبْقَ مِنْ وَفْرِي إِلَّا ذِكْرًا      ثُمَّ إِلَى الْيَوْمِ هَلَمَّ جَرًّا  
لَوْلَا عَجُوزٌ لِي بَسْرٌ مَنْ رَا      وَأَفْرَحُ دُونَ جِبَالِ بُصْرَى  
قَدْ جَلَبَ الدَّهْرُ إِلَيْهِمْ شَرًّا      قَتَلْتُ، يَا سَادَهُ، نَفْسِي صَبْرًا

قال عيسى بن هشام: فئلته ما تآخ، وأعرض عنا قراح، وجعلت أنفيه وأثبته، وأنكره وكأنني أعرفه، ثم دلنتي عليه ثنياه، فقلت: الإسكندري والله! فلقد كان فارقتنا خشفاً، ووفانا جلفاً، ونهضت على إثره، ثم قبضت على خصره، وقلت: ألسنت أبا الفتح، ألم تكن فينا وليداً، ولبننت فينا من عمرك سنين؟ فأني عجوز لك بسر من رأي؟ فضحك وقال: مخلع البسيط:

ويحك هذا الزمان زورٌ      فلا يغرَّتْكَ العُروُرُ  
عزٌّ وبرق وكلٌ وطرقٌ      واسرقٌ وطلُّيقٌ لمن تزورُ  
لا تلتزم حالة ولكن      دُرٌّ لليالي كما تدورُ

ومن إنشائه مقامة ولدها على لسان عصمة وذو الرمة قال: حدثنا عيسى بن هشام قال: بينا نحن في مجتمع لنا ومعنا يومئذ رجلٌ العرب جفطاً ورواية عصمة بن بدر الفزاري، فأقضى الكلام إلى ذكر من أعرض عن خصمه جلماً، أو أعرض عنه خصمه احتقاراً، حتى ذكر الصلتان العبدى واللعين المنقري، وما كان من احتقار جرير والفرزدق لهما. فقال عصمة: سأحدثكم بما شاهدته عيني، ولا أحدثكم عن غيري: بينا أنا أسيرُ في بلاد تميم مرتحلاً نجيباً، وقائداً جنيباً، عن لي راكب على أورق جعد اللعَام، فاجتاز بي رافعاً صوته بالسّلام. فقلت: من الراكب الجهيرُ الكلام، المحيي بتحية الإسلام؟ فقال: أنا عيلان بن عُقبَةَ. فقلت: مرحباً بالكريم حسبه، الشهير نسبه، السائر منطقته. فقال: رَحْبٌ وَاوَدِيك، وعز وَاوَدِيك، فمن أنت؟ قلت: عصمة بن بدر الفزاري. فقال: حياك الله، نعم الصديق، والصاحب والرفيق. وسرنا فلما هجرنا قال: ألا نُعوِّزُ يا عصمة، فقد صهرتنا الشمس؟ فقلت: أنت وذاك، فملنا إلى شجرات ألاء كأنهن عذارى متبرجات، قد تشرن الغدائر، وسرحن الضفائر؛ لأثلاث متناوحات؛ فحططنا رحالنا، ونلتنا من الطعام، وكان ذو الرمة زهيد الأكل. وزال كل منا إلى ظل أثلة يريد القائلة، واضطجع ذو الرمة، وأردت أن أصنع صنيعه، فوليت ظهري الأرض، وعيناي لا يملكهما غمض، فنظرت غير بعيدٍ إلى ناقة كؤماء، صجيت وعبيطها ملقى، وإذا رجل قائم يكلؤها كأنه عسيف أو أسيف، فلهيبت عنهما، وما أنا والسؤال عما لا يعينني! ونام ذو الرمة غراراً، ثم أنتبه، وكان ذلك في أيام مهاجته لذلك المرّي. فرفع عقربه ينشد فيه: المتقارب:

أمن ميةً الطللُ الدارسُ  
فلم يبقَ إلا شجيج القَدالِ  
وجَوْضٌ تَلْتَمَّ من جانبِيهِ  
وعَهْدِي بِهِ وبِهِ سَكْنُهُ  
سناتي امرأ القيس مأثورةً  
ألم تر أنَّ امرأ القيس قد  
همُّ القومُ لا يَأْلُمون الهجاءَ  
فما لهمُ في القلأ رَاكِبُ  
إذا طَمَحَ الناسُ للمكرمات  
تَعَاثُ الأكارمُ إصهارهم

فلما بلغ هذا البيت جعل ذلك النائم يمسح عينيه ويقول: أذو الرميمة يمنعي النوم بشعر غير مثقف ولا سائر؟ فقلت: يا غيلان، من هذا؟ فقال: الفريزد، يعني الفرزدق، وحمي ذو الرمة: المتقارب:

وأما مجاشع الأزدلون  
سَيَعْقَلُهُم عن مَسَاعِي  
الكِرَامِ  
فلم يَسْقِ مِيْتَهُم رَاجِسُ  
عِقَالُ، وَيَحْسِيْهُمْ حَايسُ

فقلت: الآن يشرق فيثور، ويعم الفرزدق هذا وقبيله بالهجاء. فوالله ما زاد على أن قال: قبحاً لك يا ذا الرميمة! أتعرض لمثلي بمقال مُنتحل. ثم عاد في تومئه كأن لم يسمع شيئاً، وسار ذو الرمة وسيرت، وإني لأرى فيه انكساراً حتى افترقنا. قوله فيما ولد على الفرزدق بمقال مُنتحل، يريد أن البيت الأخير منقول من قول جرير: الطويل:

ألم تر أن الله أَحَزَى  
مَجَاشِعاً  
وما زال معقولاً عِقَالُ عن  
الندى  
إذا ما أَفَاصَتْ في الحديث  
المجالسُ  
وما زال محبوباً عن المجد  
حَايسُ

عقال: ابن محمد بن سعيد بن، مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، وهو جد الفرزدق. وحابس: ابن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم، وهو أبو الأقرع بن حابس أحد المؤلفات قلوبهم. فقر في الشعر

قيل لابن الزبغري: لم تقصّر أشعارك؟ فقال: لأنها أعلق بالمسامع، وأجول في حافل.

وقيل ذلك لعقيل بن عُلفة في أهاجيه، فقال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق.

غيره: لسان الشاعر أرض لا تُخرج الزهر حتى تستسلف المطر، وما ظنك بقوم الاقتصار محمود إلا فيهم، والكذب مذموم إلا منهم. إياكم والشاعر فإنه يطلب على الكذب مَثُوبة، ويقرع جليسه بأدنى رلة.

أبو القاسم الصاحب بن عباد: النثر يتطاير كتطاير الشرر، والنظم يبقى بقاء النَّفْسِ الحَجَرِ.

أبو عبيدة: الرَّحَافُ في الشعر كالرُخْصَة في الدين، لا يُقَدِّم عليها إلا فقيه. وقال أبو فراس الحمداني: مخلع البسيط:

تَبَاهَضُ الناسُ للمعاني  
تَكَلَّفُوا المَكْرَمَاتِ كَدًّا  
لَمَّا رَأَوْا نَحْوَهَا نُهَوْضِي  
تَكَلَّفَ الشَّعْرَ بِالْعَرُوضِ

وقد مدح الجاحظ العروض وذمّها، فقال في مدحها: العروض ميزان، ومعارض بها يعرفُ الصحيح من السقيم، والعليل من السليم، وعليها مدار الشعر، وبها يسلم من الأود والكسر. وقال في ذمّه: هو علم مؤلّد، وأدب مستبّرّد، ومذهب مرفوض، وكلام مجهول، يستنكر العقل بمستفعلن وفعول، من غير فائدة ولا محصول. ومن مفردات الأبيات في هذا المعنى قول دعبل: الطويل:

بموت رديء الشعر من قبل  
أهله

البحثري: البسيط:

أعيا عليّ؛ فلا هيابة فرق  
يخشى الهجاء، ولا هشّ  
قيمتدح

آخر: الوافر:

ومما يقبل الشعراء عمّا  
عداوة من يُعلّ عن الهجاء  
أحمد بن أبي قنن: الطويل:

وإن أحقّ الناس باللوم شاعرٌ  
يلوم على البخل اللئام،  
ويبخل

وهذا كقول علي بن العباس الرومي في أبي الفياض سّوار بن أبي شراعة، وكان سّوار شاعراً مجيداً: الكامل:

يا من صناعته الدعاء إلى  
الغلا  
ناقصت في فعليك أيّ نقاض

عجباً لحصاص الكرام على  
الذي  
هو فيه محتاج إلى حصاص

وصف المكارم وهو فيها  
زاهدٌ  
ورأى الجميل وفيه عنه  
تغاض

لم ألّق كالشعراء أكثر  
حارصاً  
وأشدّ معيّة على الحراض

كم فيهم من أمر برشيديّة  
يا حسرتي لمودّة أدبيّة  
لم يأتيها، ومرغب رفاض  
لم نفترق عنها افتراق  
تراض

ليس العتابُ بنافع في  
قاطع

أعيا المشيبُ تتابع المفاض

ثم قال بعد هذا التبكيت والعتاب ما منعه أن يتوّهم أنه هجاه: الكامل:

ولما هجوئك، بل وعظئك  
إتني  
لا أجعل الأعراض كالأغراض

فاكفّ سهامك عن أخيك  
فإنما  
أسفته، قرماك بالمعراض

فمتى حلمت وجدت أحنف  
دهره  
ومتى جهلت منيت بالبراض

فأعذر أخاك على الوعيد؛  
فإنما  
أنذرت قبل الرمي بالإباض

وأعلم وقيت الجهل أن  
خساسة  
بطر الغنى ومذلة الإبعاض

ثم هجاه بقوله: البسيط:

وما تكلمت إلا قلت  
فأحشة  
مهما تقل فسيهاؤ منكَ  
مُرْسَلُهُ  
كأن فكَيْكَ للأغراض  
مِغْرَاضُ  
وَقُوكُ قَوْسُكَ والأغراض  
أَعْرَاضُ

وابن الرومي هذا كما قال مسلم بن الوليد الأنصاري في الحكم بن قنبر المازني:  
الخفيف:

عَابِنِي مِنْ مَعَايِبِ هُنَّ فِيهِ  
وَمَا قَالَ الْآخِرُ: الطويل:

وَيَأْخُذُ عَيْبَ النَّاسِ مِنْ عَيْبِ  
نَفْسِهِ  
حُكْمٌ فَاشْتَفَى بِهَا مِنْ هَجَائِي  
مُرَادٌ لِعَمْرِي مَا أَرَادَ قَرِيبُ

ترجمة الأحنف بن قيس وأخباره

وروى عيسى بن دآب قال: أول ما عرف الأحنف بن قيس وقُدِّمَ أنه وفد على عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وكان أخذت القوم سنًا، وأقبحهم منظرًا، فتكلم كل رجل من الوفِدِ بحاجته في خاصته، والأحنف ساكِنٌ، فقال له عمر: قل يا فتى! فقام فقال: يا أمير المؤمنين، إن العرب نزلت بمساكن طيبة ذات ثمار وأنهارٍ عَذَابٍ، وأكثت ظليلة، ومواضع فسيحة، وإنا نزلنا بسبخةٍ تَشَّاشَةُ، ماؤها ملح، وأفنيتهَا ضيقة، وإنما يأتينا الماء في مثل حلق النعامة إلا تدركنا يا أمير المؤمنين بحفر نهر يَعْزُرُ ماؤه، حتى تأتي الأمة فتغرف بجرّتها وإنائها أوشك أن نهلك، قال: ثم ماذا؟ قال: تزيد في صَاعِنَا ومُدْنَا، وتثبت من تلاحق في العطاء من دُرِّينَا. قال: ثم ماذا؟ قال: تخفف عن ضعيفنا، وتنصف قوينا، وتتعاهد ثغورنا، وتجهز بعننا، قال: ثم ماذا؟ قال: إلى ها هنا انتهت المطالب، ووقف الكلام. قال: أنت رئيس وقُدِّك، وخطيب مصرك، قم عن موضعك الذي أنت فيه. فأدناه حتى أقعده إلى جانبه، ثم سأله عن نسبه، فانتسب له، فقال: أنت سيد تميم، فبقيت له السيادة إلى أن مات.

وهو الأحنف، واسمه الضحّاك بن قيس بن معاوية بن حصين بن حصن بن عبادة بن النزال بن مرّة بن عبيد بن مقاعس بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم.

وقال بعض بني تميم: حضرت مجلس الأحنف وعنده قوم مجتمعون له في أمر لهم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الكرم مَنعَ الحرم، ما أقرب النعمة من أهل البغي، لا خير في لذة تُعَقِّبُ نديماً، لم يهلك من اقتصد، ولم يفتقر من زهد، رب هزل قد عاد جداً، من أمن الزمان خانه، ومن تعظم عليه أهانه، دَعُوا المِرَاحَ فإنه يُورَثُ الضغائن، وخير القول ما صدقه الفعل، احتملوا لمن أدلّ عليكم، واقبلوا عُدْرَ من اعتذر إليكم، أطع أخاك وإن عصاك، وصله وإن جفاك، أنصف من نفسك قبل أن ينتصف منك، إياكم ومشاورة النساء، واعلم أن كُفْرَ التَّعَمُّ لؤم، وضحبة الجاهل سُؤم، وبين الكرم الوفاء بالدمم، ما أفتح القطيعة بعد الصلة، والجفاء بعد اللطف، والعداوة بعد الوُدِّ، لا تكوننَّ على الإساءة أقوى منك على الإحسان، ولا إلى البُخل أسرع منك إلى البَدَلِ، واعلم أن لك من دُنياك ما أصلحت به متوآك، فأنفق في حقِّ، ولا تكن خازناً لغيرك، وإذا كان العُدْرُ موجوداً في الناس فالثقة بكل أحدٍ عَجْز؛ اعرف الحق لمن عرفه لك، واعلم أن قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل. قال: فما سمعتُ كلاماً أبلغ

منه. فقامت وقد حفظته.  
 ودخل الأحنف على معاوية، ويزيدُ بين يديه، وهو ينظرُ إليه إعجاباً، فقال: يا  
 أبا بَحر، ما تقولُ في الولدِ؟ فعلم ما أراد، فقال: يا أميرَ المؤمنين، هم  
 عمادُ ظهورنا، وثمرُ قلوبنا، وقرّة أعيننا، بهم تصولُ على أعدائنا، وهم  
 الخلف مِنَّا بَعْدَنا، فكن لهم أرضاً ذليلة، وسماً ظليلة، إن سالوك فأعْطهم،  
 وإن استعتبوك فأعْتبهم، ولا تمنعهم رَفْدِكَ فيملوا قُرْبَكَ، ويستثقلوا حياتك،  
 ويتمنّوا وفاتك. فقال: لله دُرُك يا أبا بَحر، هم كما قلت!  
 وزعمت الرواة أنها لم تسمع للأحنف إلا هذين البيتين: المتقارب:  
 فلو مدَّ سَرُوي بمالٍ كثيرٍ      لَجُدْتُ وَكُنْتُ لَهُ بَازِلاً  
 فإنَّ المروءةَ لا تستطاع      إذا لم يَكُنْ مالها فاضلاً  
 وكان يُبْخَل. وقال لبي تميم: أتزعمون أني بخيل! والله إني لأشير بالرأي  
 قيمته عشرة آلاف درهم! فقالوا: تقويمك لرأيك بخل. وكان الأحنف من  
 الفضلاء الخطباء السَّاك، وبه يُضْرَب المثل في الجلم.  
 وقد ذُكر للنبي، صلى الله عليه وسلم، فاستغفر له، فقد بعث النبي، صلى  
 الله عليه وسلم، رجلاً إلى قومه بني سَعْدِ يَعرَض عليهم الإسلام، فقال  
 الأحنف: إنه يدعوكم إلى خَيْر، ولا أسمع إلا حسناً. فذُكر للنبي، صلى الله  
 عليه وسلم، فقال: "اللهم اغفر للأحنف". وكان الأحنف يقول: ما شيء  
 أَرَجَى عِنْدِي مِنْ ذَلِكَ.

قال عبدُ الملك بن عُمَيْر: قدم إلينا الأحنفُ، فما رأينا خصلةً تُدَمُّ في رجل  
 إلا رأيناها فيه، كان أصلع الرّأس، متراكب الأسنان، أشدق، مائل الدّقن،  
 ناتئ الوجنتين، باخق العينين، خفيف العارضين، أحنف الرجلين، وكانت  
 العينُ تفتحُهم دَمَامَةً وقلّة رُواء، ولكنه إذا تكلم جلى عن نفسه. وهو الذي  
 خطب بالبصرة حين اختلفت الأحياء، وتنازعت القبائل؛ فقال بعد أن حمد  
 الله وأثنى عليه: يا معشرَ الأزديين، أنتم إخواننا في الدين، وشركاؤنا  
 في الصّهر، وأكفأؤنا في النسب، وجيراننا في الدار، ويَدُّنا على العَدُوِّ،  
 والله لأرُدُّ البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة، ولأرُد الكوفة أحب إلينا من  
 تميم الشام، وفي أموالنا وأحلامنا سعة لنا ولكم.  
 وقد قام خطباءُ البصرة في هذا اليوم وتكلموا وأسهبوا، فلما قام الأحنف  
 أضغّت القبائلُ إليه، وانتالت عليه، وقال الناس: هذا أبو بَحر، هذا خطيب  
 بني تميم، وحضر ذلك الجمعَ جاريةً لآل المهلب، فذهبت ترومُ النظر إليه،  
 فاعتاص ذلك عليها، فأشرفَتْ عليه من دارها، فلما رآته والأبصارُ خاشعةٌ  
 لكلامه، ورأت دمامةً خلّقه، وكثرة آفاتِ جوارحه، قالت: فقدت هذه الخلقة  
 ولو افتترت عن فصل الخطاب.

وذكر المدائني أنّ الأحنفَ بن قيسٍ وَقَدَ على معاوية، رضي الله عنه، مع  
 أهل العراق، فخرج الأذنُ، فقال: إنّ أميرَ المؤمنين يعزم عليكم ألا يتكلمَ  
 أحدٌ إلا لنفسه. فلما وصلوا إليه قال الأحنف: لولا عَزْمَةُ أمير المؤمنين  
 لأخبرته أن دافّة دَفَّتْ، ونازلة نزلتْ، ونابئة نبئتْ، كلهم بهم حاجة إلى  
 معروفِ أمير المؤمنين وبرّه، قال: حسبك يا أبا بحر، فقد كفيت الشاهدَ  
 والغائب.

ولما عزم معاوية على البيعة ليزيد كتب إلى زياد أن يوجّه إليه بوَفْد أهل  
 العراق، فبعث إليه بوَفْدِ البصرة والكوفة، فتكلمت الخطباءُ في يزيد،

والأحنف ساكث، فلما فرغوا قال: قل يا أبا بحر، فإنَّ العيونَ إليك أشرع منها إلى غيرها، فقام الأحنف فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيِّه، صلى الله عليه وسلم، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إنك أعلمنا بيزيدٍ في ليله ونهاره، وإعلانه وإسراره، فإن كنت تعلمه لله رضاءً فلا تشاور فيهِ أحدًا، ولا تُقيم له الخطباءَ والشعراءَ، وإن كنت تعلم بُعده من الله فلا تزوده من الدنيا وتزحل أنت إلى الآخرة، فإنك تصير إلى يومٍ يفرُّ فيه المرءُ من أخيه، وأمّه وأبيه، وصاحبته وبنيه. قال: فكانه أفرغ على معاوية ذنوب ماء بارد. فقال له: اقعُدْ يا أبا بحرٍة فإن خيرة الله تجري، وقضاء الله يمضي، وأحكام الله تنفذ، لا مُعقب لحكمه، ولا رادٍّ لقضائه؛ وإن يزيد فتى قد بلوتاه، ولم نجد في قريش فتى هو. أجدر بأن يجتمع عليه منه. فقال: يا أمير المؤمنين، أنت تحكي عن شاهد، ونحن نتكلم على غائب، وإذا أراد الله شيئاً كان.

قال ابن الرومي: الكامل:

إن امرأ رقص المكاسب  
يتعلم الآداب حتى أحكما  
واعتدى

فكسنا وحلّى كلَّ أروع ماجد  
من حُرِّ ما حاك القريضَ  
وتظما

ثقة برعي الأكرمين حقوقه  
لأحق ملتمس بالألَّ يحرما

قال أبو العباس أحمد بن عبيد الله بن عمارة: ومن نادر شعر أبي الحسن في هذا المعنى - قوله، ووصف إتعاب الشعراء أنفُسهم بدؤوبهم في صناعتهم، وما يتصرَّم من أعمارهم، وأن إلحاحهم في طلب ما في أيدي من أسلفوه مديحهم لو كان رغبة منهم إلى ربهم كان أجدى عليهم، وأقرب من درك بُغيتهم، ونجح طلبتهم، ثم انحرف إلى توبيخ من مدَّحه فحرمه بأحسن عبارة، وأرضى استعارة، فقال: الكامل:

للناس فيما يكلفون مغارم  
ومغارم الشعراء في  
أشعارهم  
وجفاء لذاتٍ ورفض  
مكاسب  
وتشأغل عن ذكر رب لم يزل  
من لو بخدمته تشاغل  
معشُر

أقما لذلك حُرمة مرعية  
لم احتسب فيك الثواب  
بمدحتي  
لو كان شعري حسبة لم  
أكسهُ

أحدًا أحق به من الأيتام  
فتنام والشعراء غير نيام  
فلهم أشدُّ معرة العرام  
حكّموا لأنفسهم على  
الحكام  
وجناية العادي عليهم تنقضي  
وعقابهم يتقى مع الأيام

أبو الطيب المتنبي: الكامل:

ومكايذ السفهاء واقعة بهم  
وعداوة الشعراء ينس  
المفتى

مات الأحنف بن قيس بالكوفة، فمشى مصعب بن الزبير في جنازته بغير رداء، وقال: اليوم مات سرُّ العرب؛ فلما دُفن قامت امرأة على قبره فقالت: لله دَرَكٌ من مُجَرِّ في جنن، ومُدْرَج في كَفَن، نسألُ الذي فجعنا بموتك، وابتلانا بَقْفِكَ، أن يجعلَ سبيلَ الخيرِ سبيلك، ودليلَ الرِّشدِ دليلك، وأن يوسِّعَ لك في قبرك، ويغفرَ لك يومَ حَشْرِكَ؛ فوالله لقد كنت في المحافلِ شريفاً، وعلى الأرامِلِ عَطوفاً، ولقد كنت في الحي مُسَوِّداً، وإلى الخليفة مُوقِداً، ولقد كانوا لقولك مستمعين، ولرأيتُ مَبْعِين؛ ثم أقبلت على الناس فقالت: ألا إن أولياء الله في بلاده، شهود على عباده، وإني لقائلةٌ حقاً، ومثنيةٌ صدقاً، وهو أهلٌ لحُسْنِ الثناء، وطيب الثنا، أما والذي كنت من أجله في عِدَّة، ومن الحياة إلى مدَّة، ومن المقدار إلى غَايَة، ومن الإياب إلى نِهايَة، الذي رفع عملك، لما قَصَى أجليك، لقد عِشت حميداً مودوداً، ومُتَّ سعيداً مفقوداً، ثم انصرفت وهي تقول: الكامل:

لله دَرَكٌ يا أبا بَحْرٍ  
لله دَرَكٌ أي حَشْوِ ثَرَى  
إِنْ كان دَهْرٌ فيك جَرٌّ لنا  
فلکم يَدِ أسديتها ويدٍ

ثم انصرفت فيسئَلُ عنها، فإذا هي امرأته وابنة عَقِه. فقال الناس: ما سمعنا كلامَ امرأة قطُّ أبلغ ولا أصدق منه.

قال: وكان الأحنفُ قدم الكوفة في أيام مصعب بن الزبير، فرآه رجلٌ أعورَ دميماً قصيراً أحنَفَ الرجلين، فقال له: يا أبا بحر، بأي شيء بلغت في الناس ما أرى؛ فوالله ما أنت بأشرف قومك، ولا أجودهم؟! فقال: يا ابن أخي، بخلاف ما أنت فيه! قال: وما هو؟ قال: تَرَكِي من أمرك ما لا يعينني، كما عَنَّاك من أمري ما لا تتركه.

ترجمة منصور النمري وأخباره  
اجتمع الشعراء بباب المعتصم فبعث إليهم: مَنْ كان منكم يحسِنُ أن يقول مثل قول منصور النمري في أمير المؤمنين الرشيد: البسيط:

إِنَّ المكارمَ والمعروفَ  
أودية  
أحلَّك الله منها حيث تجتمعُ

إِذا رَفَعْتَ امرأً فاللَّهُ رافِعُهُ  
ومن وضَعْتَ من الأقسام  
متنَعُ

من لم يكن بأمين الله  
معتضماً  
فليس بالصلوات الخمس  
ينتفعُ

إِنْ أخلف الغيْثُ لم تُخْلِفِ  
أناملُهُ  
أو ضاق أمرٌ ذكرناه فيتسع

فليدخل، فقال محمد بن وهيب: فينا من يقولُ خيراً منه، وأنشد: البسيط:  
ثلاثة تشرقُ الدنيا بهجتهم  
شمس الضحى وأبو إسحاق،  
والقمر

يحكي أفاعيلَه في كل  
نائية  
الغيثُ والليثُ والصمصامة  
الذكَرُ

فأمر بإدخاله وأحسن صلته.

أخذ معنى البيت الأول من بيتي محمد بن وهيب أبو القاسم محمد بن هانئ الأندلسي: الكامل:

الْمُدْتَفَانِ مِنَ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا  
وَالْمُشْرِقَاتُ النَّيْرَاتُ ثَلَاثَةٌ؛  
قَلْبِي وَطَرْفُ بَابِلِيٍّ أَحْوَرُ  
الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ الْمَنِيرُ  
وَجَعْفَرُ

وبيت أبي القاسم الأول مأخوذ من قول ابن الرومي: مجزوء الرمل:

يا عليلاً جعل العلة مِفْتَاحاً  
لسقمي

ليس في الأرضِ عليلٌ  
غير جَفْنَيْكَ وَجِسْمِي

ومرّ النمري بالعتابي مغموماً فقال: ما لك، أعزك الله؟ فقال: امرأتِي  
تطلق منذ ثلاث ونحن على يأس منها. فقال له العتابي: وإن دواءها منك  
أقرب من وجهها، قل: هارون الرشيد، فإن الولد يخرج! فقال: شكوت  
إليك ما بي، فأجبتني بهذا؟ فقال: ما أخذت هذا إلا من قولك: البسيط:

إن أخلف الغيث لم تخلف  
أنامله  
أو ضاق أمرٌ ذكرناه فيتسعُ

وأبيات منصور بن سَلَمَة بن الزبيرقان النمري التي ذكرها المعتمد من قصيدة له وهي  
أحسن ما قيل في الشيب أولها: البسيط:

ما تنقضي حَسْرَةُ ولا جَرَعُ  
بأن الشباب وفاتتني بغيرته  
إذا ذكرتُ شباباً ليس يُرْتَجَعُ  
خطوبٌ دَهْرٌ وأيامٌ لها حُدُوعُ  
حتى انقضى فإذا الدنيا له  
تبعُ

عِزَّتِهِ  
تعجبت أن رأيتُ أسرابَ  
دمعته

أصبحت لم تطعمي تُكَلِّ  
الشباب ولم

لا ألحين فتاتي غير كاذبةٍ  
عين الكذوب فما في ودِّكم  
طمعُ

ما واجه الشيب من عيبٍ وإن  
ومقتُ

إني لمعترف ما في من أربٍ  
قد كدت تقضي على قوتِ  
الشباب أَسَى

وذكر أن الرشيد لما سمع هذا بكى، وقال: ما خير دنيا لا تخطر فيها ببرد الشباب!  
وأنشد ميمثلاً الوافر:

أنامل رجعة الدنيا سَفَاهاً  
فليت الباقيات يكلُّ أرضُ  
وقد صار الشبابُ إلى ذهابِ  
جمعن لنا فئحن على الشبابِ

وكان الرشيد يقدم منصوراً النمري بجودة شعره، ولما يمُّت إليه من النسب من  
العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنه، وكانت نثيلة أم العباس من النمر بن قاسط؛  
ولما كان يُظهر من الميل إلى إمامة العباس وأهله، والمنافرة لآل علي، رضي الله  
عنه، ويقول: الوافر:

عليكم بالسدادِ من الأمورِ  
وأحلاماً يعدون عِدَاة زورِ  
بني حسن وقل لبني حُسينِ  
أميطوا عنكم كذب الأمانِي

تَسْمُونَ النّبِيَّ أَبَا وَيَّابِي

من الأحزاب سَطْرُ فِي

سطور

يريدُ قولَ الله تعالى: "ما كانَ محمدٌ أباً أحدٍ من رجالِكُمْ". وهذا إنما نزل في شأن زيد بن حارثة، وكان رسولُ الله، صلى الله عليه وسلم، تَبَّاهُ، فقال له الرشيد: ما عدوت ما في نفسي، وأمره أن يدخل بيتَ المال فيأخذ ما أحب. وكان يضمر غير ما يظهر، ويعتقد الرِّفض، وله في ذلك شعر كثير لم يَطَّهَرُ إلا بعد موته، وبلغ الرشيد قوله: الكامل:

أَلِ النّبِيِّ وَمَنْ يُحِبُّهُمْ

يتطالِمَنونَ مَخَاقَةَ القَتْلِ

أَمِنَ النصارى واليهودُ وَمَن

مِنَ أَمَّةِ التوحيدِ فِي أَرْلِ

إِلَّا مَصَّالتِ يَنْصُرُوهُمْ

بَطَلًا الصَّوارِمِ وَالقَنَا الدُّبُلِ

فأمر الرشيد بقتله وكان حينئذ برأس العين، فمضى الرسولُ فوجده قد مات فقال الرشيد: لقد هممت أن أنيش عظامه فأحرقها. وكان يُلَغِزُ في مدحه لهارون، وإنما يريد قول النبي، صلى الله عليه وسلم، لعلي، رضوان الله عليه: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى". وقال الجاحظ: وكان يذهب أولاً مذهب الشُّراة، فدخل الكوفة وجلس إلى هشام بن الحكم الرافضي وسمع كلامه، فانتقل إلى الرِّفض، وأخبرني مَنْ رآه على قبر الحسين بن علي، رضي الله عنهما، ينشد قصيدته التي يقول فيها: الوافر:

فما وَجَدت على الأكتافِ

ولا الأقفاء آثارُ النُّصولِ

منهم

ولكنَّ الوجوةَ بها كُلوْمُ

وفوق حُجُورهم مَجْرَى

السيولِ

أريق دَمُ الحسينِ ولم

وفي الأحياء أمواتُ العُقُولِ

يراعوا

فدث نفسي جيبَتِكَ مِنْ

جَرَى دَمُهُ عِلَّ خَدِّ أسيلِ

جَبِينِ

أَيخَلو قَلْبُ ذِي وَرَعٍ وَدِينِ

مِنَ الأَحْزَانِ والأَلَمِ الطويلِ

شَرِقتُ رِمَاحُ بني زيادِ

بِرِيٍّ من دماءِ بني الرسولِ

بتريةَ كَرْبلاءَ لهم دِيارُ

نِيامُ الأهلِ دارِ سَتَةِ الطُّلُولِ

فأوصالِ الحسينِ بَبَطْنِ قاعِ

ملاعِبُ للدَّبُورِ وللقَبولِ

تحياتُ ومغفرةَ وروحِ

على تلكِ المحلَّةِ والحُلُولِ

برثنا يا رسولَ الله ممن

أصابكَ بالأدْيَةِ والدَّحُولِ

أخبار ابني المعدل

وقال أحمد بن المعدل: الوافر:

أخو دَتَفٍ رَمَنهُ فأقصدتُهُ

سِيهاتُ من جفونِكَ لا تَطِيشُ

كثيبِ إن ترخَّلَ عنه جيشُ

من البَلْوى أَلَمَ به جُيوشُ

وكان أحمد بن المعدل بن عَيَّلان العدي في اللغة والبيان والأدب والحلاوة غايةً. قال: دخلت المدينة فتحملت على عبد الملك بن الماجشون برجل ليخصني ويُعنى بي، فلما فاتحني قال: ما تحتاج أنت إلى شفيع، معك من الحذاء والسقاء ما تأكل به لبّ الشجر، وتشرب صفو الماء.

وكان أخوه عبد الصمد يؤديه ويهجوّه، فكتب إليه أحمد: أما بعد، فإن أعظم المكروه ما جاء من حيث يُرَجَى المحبوب، وقد كنت مؤملاً مَرَجُوا، حتى شمل شرّك، وعمّ أذاك، فصرت فيك كأبي العاق: إن عاش نَعَصه، وإن مات نَعَصه، واعلم لقد خَسنت صدْرَ أخٍ جَيَّبَهُ لك ناصحٌ، والسلام.

وكان يقول له: أنت كالأصبع الزائدة: إن تُرِكَتْ شَانَتْ، وإن قطعت أَلَمْتَ!  
ومثلُ هذا قولُ النعمان بن شمر الغساني: الطويل:

وَصَالَ أَبِي بَرْدٍ عَتَاءً، وتركه  
بلاء، فما أدري به كيف أصنعُ  
وإن غبت عنه ظلَّت العين  
تَدْمَعُ إذا زُرَّته يومين ملَّ زيارتي

وقول الضحاک بن همام الرقاشي: الطويل:

وَأَنْتَ أَمْرٌ مَّا خَلَقْتَ  
لغيرنا  
حياتُكَ لا تُرَجَى وموتُكَ  
فاجِعُ وأنت على ما كان منك ابنُ

حرّةٍ وإنِّي لما يرضى به الخصم مانعُ

وفيك خصالٌ صالحات يَشِيئُهَا  
لديك جفاءٌ عندهُ الودُّ  
ضائعُ

وقال بعضُ المحدثين: الطويل:

إِذَا سِأَيْتَنِي فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ  
جَاهِدًا  
فيا ليتَ شِعْرِي ما يعاملني  
به  
وفي كل حال مَنْ أحب  
وأَمَحَصُ  
على كلِّ ذنبٍ مَنْ أُعَادِي  
وأَبْغَضُ

وقال أبو العباس المبرد: وكان أحمد بن المعدّل من الأثمة، والتمسك بالمنهاج،  
والتجّب للعبث، والتعرّض للإشفاق لما في أيدي الناس، وإظهار الرُّهْد فيه، والتباعد  
عنه، على غاية، حتى حُمل في فقهاء وأدباء من أهل البصرة، فأخذ الصلة غير مُمْتَنِع  
ولا مُنْكَر. ووصله إسحاق بن إبراهيم فقبل، واستدعى اجْتَبَاهُ إِيَّاهُ، وتحلى له جهده،  
فقال عبد الصمد: الوافر:

عَذِيرِي مِنْ أَخٍ قَدْ كَانَ يُبْدِي  
عَنْبَةَ  
عَلَى مَنْ لَابَسَرَ السُّلْطَانَ

وكان يذمُّهم في كلِّ يوم  
فلما أن أتته دُرَيْهَمَاتُ

وقال فيه: مجزوء الخفيف:

لِي أَخٍ لَا تَرَى لَهُ  
أَجْمَعُ النَّاسِ كُلَّهُمْ  
دون معروفٍ كَفِّهِ  
ليت لي منك يا أخي  
نارها كلُّ شَتْوَةٍ  
سائلاً غيرَ عَاتِبِ  
للثيم المَدَاهِبِ  
لَمَسُ بَعْضِ الْكُوكَبِ  
جَارَةً مِنْ مُحَارِبِ  
مِثْلُ نَارِ الْخُبَايِبِ

ذهب إلى قول القُطَامِي، وقولُ القُطَامِي من خبيث ألّهَاء، وكان تزل بامرأة من  
مُحَارِبِ بْنِ حَصَّعَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَيْلَانَ بْنِ مَضْرٍ فذمَّ مَنَوَاهُ عِنْدَهَا، فقال: الطويل:

وإن كان ذا حقٍّ على الناسِ  
واجِبِ  
وإنِّي وإن كان المسافرُ  
نازلاً

فلا بدُّ أن الضيفَ يُخَيِّرُ ما  
رَأَى  
مُحَبَّرُ أَهْلِ أَوْ مُحَبَّرُ صَاحِبِ

لمخبرك الأنباء عن أمِّ  
منزل

تلقِّعُ في طَلِّ وريح  
تَلْفُنِي  
إلى طرِمِساءَ عَيْرِ ذاتِ  
كُوكَبِ

إلى حَيْرُوبُونَ تُوقِدُ النَّارَ  
بعدهما  
تَلَفَّعَتِ الظُّلَمَاءُ مِنْ كُلِّ  
جَانِبٍ

تَصَلَّى بِهَا بَرْدَ الْعِشَاءِ وَلَمْ  
تَكُنْ  
تَخَالُ وَمِيزُ النَّارِ يَبْدُو  
لِرَاكِبٍ

فَمَا رَاعَهَا إِلَّا بُغَامٌ مَطِيئِي  
تَرِيحٌ بِمَحْسُودٍ مِنَ الصَّوْتِ  
لَاغِبٍ

فَجُنَّتْ فَنُونًا مِنْ دِلَاثِ  
مُنَاخَةٍ

سَبَّرَى فِي حَلِيكِ اللَّيْلِ حَتَّى  
كَانَمَا

تَقُولُ وَقَدْ قَرَّبْتُ كُورِي  
وَنَاقِيَتِي

فَسَلَّمْتُ وَالتَّسْلِيمُ لَيْسَ  
يَسْرُهَا

فَرَدَّتْ سَلَامًا كَارَهَا ثُمَّ  
أَعْرَضَتْ

فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الْحَدِيثَ سَأَلْتُهَا  
مَنْ الْمَشْتَوِينَ الْقَدِّ مِمَّا

تَرَاهُمْ  
جِيَاعًا وَرِيفُ النَّاسِ لَيْسَ  
بِنَاضِبٍ

فَلَمَّا بَدَأَ حَرَمَانُهَا الضَّيْفَ لَمْ  
يَكُنْ

وَقُمْتُ إِلَى مَهْرِيَّةٍ قَدْ  
تَعَوَّدَتْ

أَلَا إِنَّمَا نِيرَانُ قَيْسٍ إِذَا  
سَنَّتُوا

ومحارب: قبيلة منسوبة إلى الضعف، وقد ضربت العربُ بها المثل. قال  
الفرزدق لجرير: الطويل:

وَمَا اسْتَعَهَدَ الْأَقْوَامُ مِنْ زَوْجِ  
حُرِّ

أَي يَأْخُذُونَ الْعَهْدَ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلْبٍ وَلَا مِنْ مَحَارِبٍ.

وقال أبو نواس في قصيدته التي فخر فيها باليمانية وهجا قبائل معد: المنسرح:

وَقَيْسٌ عَيْلَانٌ لَا أُرِيدُ لَهَا

وكانت أم عبد الصمد بن المعذل طباحة، فكان أحمد يقول إذا بلغه هجاؤه: ما عسيبُ  
أن أقول فيمن الفح بين قدر وتثور، ونشأ بين رُق وطنبورا؟ وعبد الصمد شاعر أهل  
البصرة في وقته، وهو القائل: الطويل:

تَكَلَّفْنِي إِذْ لَالَ نَفْسِي  
لِعِزِّهَا

تَقُولُ: سَلِّ الْمَعْرُوفَ يَحْيَى  
بَنَ أَكْثَمِ

وهان عليها أن أهان  
لتكرما

فقلت: سَلِّهِ رَبِّ يَحْيَى بَنِ  
أَكْثَمِ

قال أبو سُراة القيسي: كنتُ في مجلس، العُبي مع عبد الصمد بن المعذل، فتذاكرنا أشعار المولدين في الرقيق، فقال عبد الصمد: أنا أشعر الناس فيه وفي غيره، فقلت: أحذق منك والله بالرقيق الذي يقول، وهو راشد بن إسحاق أبو حُكيمة الكوفي: الطويل:

ومستوحشٍ لم يمَس في دارِ  
عُرْبَةٍ  
طَوَاهُ الهوى واستشعر الوصل  
غيره  
سلامٌ على الدارِ التي لا  
أزورها  
وإن حَبِبتُ عن ناظريَّ  
سئورها  
هوى تَصْحَكُ اللِّذَاتُ عند  
حضوره  
تَنَنَّى به الأعطافُ حتى كأنه  
ألم تر صَمْتِي حين يَجْرِي  
حديثه  
رضيت بسَعْيِ الدهر بيني  
وبينه  
أحاذِرُ إنْ واصلته أن ينالني  
أرى دون مَنْ أهوى عيوناً  
تُرِينِي  
أدارِي جليسي بالتجلد في  
الهوى  
وأخْبِرُ عنه بالذي لا أحبُّه  
مخافةً أن تَعْرِى بنا ألسنُ  
العِدا  
كأن مجالَ الطَّرْفِ في كل  
ناظر  
أرى خطرات الشوق يبكين دَا  
الهوى  
وكم قد أذل الحب من  
متمنعٍ  
وإن حُضُوْعَ النفس في طلب  
الهوى  
فلم ينطق بحرف.

ولأبي سُراة يمدح بني رباح: البسيط:

بني رباح، أعاد الله نعمتكم  
خير المعاد وأسقى ربّعكم

دِيمَا

يَكَادُ يَنْهَلُ مِنْ أَعْطَافِهِ كَرَمًا

إِلَّا تَلْبَسُهَا إِخْوَانُهُمْ نِعْمًا

وفي إبراهيم بن رباح يقول عبد الصمد بن المعدل: الخفيف:

وهي حَسْرَى إِنْ هَبَّ مِنْهَا  
نَسِيم

فَكَمْ بِهِ مِنْ قَتَى خُلُو

شَمَائِلُهُ

لَمْ يَلْبَسُوا نِعْمَةً لِلَّهِ مُدُّ

خَلْقُوا

قد تركت الريح يا ابن رباح

نَهَكَتْ مَالَكَ الْحَقُوقُ

فَأَصْحَى

لَكَ مَالٌ نِصْوُ وَفَعَلُ جَسِيم

وكان عبد الصمد بن المعدل متصلاً بإبراهيم وبنيه، وأفاد منهم أموالاً جليلاً، واعتقد عقداً نفيسة، فما شكر ذلك ولا أصبحه بما يجب عليه من الثناء عند بكتته، وكان الواثق عزّله عن ديوان الضياع، ودفعه إلى عمر بن فرج الرخجي، فحبسه فهجاه عبد الصمد. قال أبو العباس محمد بن يزيد: وكان عبد الصمد شديد الإقدام عليّ رديء السريرة فيما بينه وبين الناس، خبيث النية، يرصد صديقه بالمكروه، تقديرًا أن يعاديه فيسوءه بأمر يعرفه؛ ولا يكاد يتسلم لأحد، وكان مشهوراً في ذلك الأمر، يلبس عليه، ويحمل على معرفة، عجباً يظرف لسانه، وطيب مجلسه، وأيضاً لُقِّبَ مسبته، وشائن معرّته. قال أبو العيّن: ولما حبس الواثق إبراهيم بن رباح، وكان لي صديقاً، صنعت له هذا الخبر رجاءً أن ينتهي إلى أمير المؤمنين فينتفع به، فأخبرني زيد بن علي بن الحسين أنه كان عند الواثق حين قرئ عليه فصحك واستظرفه. وقال: ما صنع هذا كفه أبو العيّن إلا في سبب إبراهيم بن رباح، وأمر بتخليته، والخبر قال: لقيت أعرابياً من بني كلاب فقلت له: ما عندك من خبر هذا العسكر؟ فقال: قتل أرضاً عالمها، قال: فقلت: فما عندك من خبر الخليفة؟ قال: بخبح بعزه، وضرب بجرانه، وأخذ الدرهم من مصره، وأرهف قلم كل كاتب بجبايته. قلت: فما عندك في أحمد بن أبي دؤاد؟ قال: عُضلة لا تُطاق، وجندلة لا تُرام، ينتحي بالمدى لتحزه فيجور، وتنصب له الحبال حتى تقول: الآن، ثم يضبر صبرة الذئب، ويخرج خروج الضب، والخليفة يحنو عليه، والقرآن أخذ بضبعيه. قلت: فما عندك في عمر بن فرج؟ قال: صنم حنجر، غضوب هزبر، قد أهدفه القوم لبغهم، وانتضلوا له عن قسيهم، وأخبر له بمثل مصرع من يصرع. قلت: فما عندك في خبر ابن الزيات؟ قال: ذلك رجل وسع الوري شره، وبطن بالأمور خيره. فله في كل يوم صريع، لا يظهر فيه أثر ناب ولا مخلب، إلا بتسديد الرأي. قلت: فما عندك في خبر إبراهيم بن رباح؟ قال: ذاك رجل أوبقه كرمه، وإن يقُر للكرام قرح، فأخبر بمنجاته، ومعه دعاء لا يخذله، ورِب لا يسلمه، وفوقه خليفة لا يظلمه. قلت: فما عندك في خبر نجاح بن سلمة؟ قال: لله دُرّه من ناقض أوتار، يتوقّد كأنه شعلة نار، له في القبيّة بعد الفينة، عند الخليفة خلسة كخلسة السارق، أو كحسوة الطائر، يقوم عنها وقد أفاد نعماً، وأوقع نقماً. قلت: فما عندك في خبر ابن الوزير؟ قال: إخاله كبش الزنادقة، ألا ترى أن الخليفة إذا أهمله خصم ورّع، وإذا أمر بتقصيه أمطر فأمرع. قلت: فما عندك من خبر الخصيب أحمد؟ قال: ذاك أحمق، أكل أكلة تهم، فاختلف اختلاف بشم. قلت: فما عندك في خبر المعلى بن أيوب. قال: ذاك رجل فُدّ من صخرة، فصبره صبرها، ومسه مسها، وكل ما فيه بعد فمناها ولها. قلت: فما عندك من خبر أحمد بن إسرائيل؟ قال: كتوم غرور، وجلد صبور، رجل جلدّه جلد نمر، كلما خرقوا له إهاباً، أنشأ الله له إهاباً. قلت: فما عندك من خبر الحسن بن وهب؟ قال: ذاك رجل أخذ السلطان آخاً، فاتخذ السلطان عبداً، قال: قلت: فما عندك من خبر أخيه سليمان بن وهب؟ قال: شدّ ما استوفيت مسألتيك أيها الرجل! ذاك حرمة حبست مع صواحبتها في جريرة محرمة، ليس من القوم في وريد ولا صدر، هيهات: الخفيف:

وعلى الغانيات جرّ الذبول

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا

قال: قلت: فما عندك من خبر عبد الله بن يعقوب؟ قال: أمواتٌ غير أحياء، وما يشعرون أيّان يبعثون.

قلت: فأين نزلت فأؤمِّك. قال: ما لي منزل تأمُّه. أنا أستتر في الليل إذا عَسَعَس، وأنتشر في الصبح إذا تنفَّس.

?ابن راشد

ومن مليح شعر راشد بن إسحاق بن راشد، وهو أبو حُكَيْمة، وكان قَوِيَّ أسْرِ الشعر: الطويل:

أَجِيلُ وَجوه الرأْيِ فِيكِ وما أَدْرِي أَمَّ اقْتَعُ بِالإِعْرَاضِ والنظَرِ الشَّرِّ عَلَى حُرْقٍ بَيْنَ الجِوَانِحِ والصَّدْرِ فَأَلْقَاكَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي سِنِّ وَلِكِنْ دَعَانِي اليأسُ فِيكِ إلى الصَّبْرِ كَمَا صَبَرَ الظَّمآنُ فِي البَلَدِ القَفْرِ	تَحَيَّرْتُ فِي أَمْرِي وَإِنِّي لِوَأَقِفُ أَأْغْزُمُ عَزَمَ اليأسِ فَاالموْتُ رَاحَةً وَإِنِّي وَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْكَ لِمُنْطَوٍ إِذَا هَاجَ شَوْقِي مِثْلَكَ لِي المَنَى فَدَيْتَكَ لَمْ أَصْبِرْ وَلِي فِيكِ حَيْلُهُ تَصَبَّرْتُ مَغْلُوبًا وَإِنِّي لِمَوْجَعُ
--	---

وقال: الوافر:

فَمَا عَطَقَتْكَ ألسنة العتابِ عَلَى عَنَبِ الضميرِ المستترابِ هَزَزْتُ إِلَيْكَ أَجِنَحَةَ التصابي	عَتَبْتَ عَلَيْكَ فِي قِطْعِ العتابِ وَفِيمَا صرْتَ تَظْهَرُ لِي دَلِيلُ وَمَا خَطَرْتُ دِوَاعِي الشَّوْقِ إِلَّا
--	--

وقال أيضاً: الطويل:

بَكَيْتِ لِمَحْزُونِ الفؤادِ كَثِيبِ وَلَا قَلْبُهُ مِنْ زَفْرَةٍ وَنَحِيبِ غَرِيبِ الهوى بِأَكْلِ لِكُلِّ غَرِيبِ وَمَا كَانَ مِنْ حُسْنٍ هُنَاكَ وَطِيبِ وَنَأْخِذُ مِنْ لِدَائِهِ بِنَصِيبِ عَلَى عَفْلَةٍ مِنْ كَاشِحِ وَرَقِيبِ فَبَدَّلَ مِنْهَا مَشْهَدُ بِمَغِيبِ	ضَحِكْتُ وَلَوْ تَدْرِينِ مَا بِي مِنْ الهوى لَمَنْ لَمْ تُرْخِ عَيْنَاهُ مِنْ قَيْضِ عَبْرَةٍ لِمَسْتَأْنَسِ بِالهَمِّ فِي دَارِ وَخَسَنَةٍ أَلَا بَأبِي العيشِ الَّذِي بَانَ فَانْقَضَى لِيَالِي يَدْعُونَا الصَّبَا فَنَجِيبُهُ نَرَدُّ مُسْتَوْرِ الأَحَادِيثِ بَيْنَنَا إِلَى أَنْ جَرَى صَرْفُ الحِوَادِثِ فِي الهوى
---	---

وله مذهب استفترغ فيه أكثر شعره، صنَّتُ الكتاب عن ذكره.

أخبار عبد الملك بن صالح

دعا الرشيد بعبد الملك بن صالح - وكان معتقلاً في حبسه - فلما مَثَلَ بين يديه التفت إليه، وكان يُحدث يحيى بن خالد بن برمك وزبیره، فقال متمثلاً الوافر:

أريد حياتَه ويريدُ قَتْلِي  
عذيرَكَ مِنْ خَلِيلِكَ مِنْ مُرَادِ

ثم قال: يا عبدَ الملك، كَأني أنظر إلى سُؤوبِها قد هَمَّع، وإلى عارِضِها قد لَمَّع، وكَأني بالوعيد قد أُوْرِي، بل أَدْمِي، فأبرز عن بَرّاجِم بلا مَعاصِم، ورؤوس بلا عَلاصِم، فمهلًا بني هاشم، فبي والله سَهَلْ لكم الوَعْر، وصفا لكم الكَدْر، وألَقْتُ لكم الأمور أثناءً أزمتهَا، فنذارٍ لكم نذراً قبل حلول داهية خبوط باليد والرَّجْل، فقال عبد الملك: أفدًا أنكلم أم تُوأما؟ قال: بل قَدًا، قال: إثق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك، وأحفظه في رعاياك الذي استرعاك، ولا تجعل الكفر بموضع الشكر، والعقاب بموضع الثواب، فقد، والله، سَهَلْتُ لك الوَعور، وجمعت على خوفك ورجائك الصدور، وشددت أواخي ملكك بأوثق من رُكْنِي يَلْمَلَم، وكنث لك كما قال أخو بني جعفر بن كلاب - يعني لبيدًا -: الرمل:

ومقام صَيِّقٍ فَرَجْتُهُ

بلسانٍ وبَيَانٍ وَجَدَلٌ

رَلٌّ عن مثل مقامي ورَجَلٌ

لو يقومُ الفيلُ أو فيالُهُ

فأعاده إلى محبسه، وقال: لقد نظرتُ إلى موضع السيف من عاتقه مرارًا، فيمنعني

عن قتله إبقائي على مثله.

وأراد يحيى بن خالد أن يصع من عبد الملك ليُرْضِيَ الرشيد، فقال له: يا عبد الملك، بلغني أنك حَقُود! فقال عبد الملك: أيها الوزير، إن كان الحقد هو بقاء الشرِّ والخير، إنهما لباقيان في قلبي! فقال الرشيد: تالله ما رأيتُ أحدًا احتجَّ للحقد بأحسنَ ممَّا احتجَّ به عبد الملك.

وقد مدح ابن الرومي الحقد، وأخذ هذا المعنى من قول عبد الملك، وزاد فيه، فقال لعاتب عابه بذلك: الطويل:

من الخير والشرِّ انتحيت على  
عرصي

لئن كُنْتُ في حظي لما أنا  
مُودَعٌ

وربَّ امرئ يُزري على خُلُقٍ  
مَحْضٍ

بل العيبُ أن تَدانَ دِينًا ولا  
تقضي

توفيك ما تسدي من القَرَضِ  
بالقرض

من البَدْرِ فيها فهي ناهيك من  
أرض

لينقض وتراً آخر الدهر ذو  
نقض

وبعض السجايا ينتمين إلى  
بعض

فتمَّ ترى شكرًا على حَسَنِ  
القَرَضِ

واقْتداراً: البسيط:

لقد سَلَكتُ إليه مسلِكًا  
وَعِثًا

يعودُ ما لم منه مرةً شَعِثًا  
على القلوب ولكن قل ما  
لبتًا

فلن ترى سببًا منهن

لَمَّا عِبْتَنِي إِلَّا بِفَضْلِ إِبَانَةٍ

ولا عيبَ أن تُجَرِّي القروضُ  
بمثلها

وخيرُ سَحِيَّاتِ الرجالِ  
سَجِيئَةٌ

إذا الأَرْضُ أَدَّتْ رَيْعَ ما أنت  
زارعٌ

ولولا الحَقُودُ المستكنات لم  
يكنَ

وما الحِقْدُ إلا توأمُ الشكر في  
الفتى

فحيث ترى حِقْدًا على ذي  
إساءة

وقال يرد على نفسه، ويذمُّ ما مدح، توسعاً واقْتداراً: البسيط:

يا مادِحِ الحقدِ محتالاً له  
شبهًا

إن القبيح وإن صَنَعْتَ  
ظَاهِرَهُ

كم زَحَرَفِ القولِ ذو زُورٍ  
ولبَّسَهُ

قد أبرم الله أسباب الأمور

معاً	منتكِنا
يا دافنَ الحِقْدِ في ضعفي	ساء الدفينُ الذي أضحت له
جوانبه	جَدثا
الحقْدُ داءٌ دَوِيٌّ لا دواءَ له	يَري الصدورَ إذا ما جَمُرُهُ
فاستشَفِ منه بصَفْحٍ أو	حُرثا
معاتبَةٍ	فإنما يبرئ المصدورَ ما
واجعل طلابك بالأوتار ما	تَقَنَّا
عظمتُ	ولا تكن بصغير القول
فالعفوُ أقربُ للتقوى وإن	مُكثِرثا
جُرْمُ	من مجرم جَرَحَ الأكبادَ أو
يكفيك في العفو أن الله	فرثا
قرّطُهُ	وخيّاً إلى خير من صلى ومن
شهدت أنك لو أذبت ساءك	بُعِثا
أن	تلقى أخاك حَفُوداً صَدْرَه
إذا وسرّك أن تلقى الذنوب	شرثا
معاً	وأن تصادف منه جانباً دَمِثًا
إني إذا خلط الأقسام	بسيئ الفعل جداً كان أو
صالحهم	عَبثًا
جعلت قلبي كظرف السبك	يستخلص الفِصَّة البيضاء لا
حينئذ	الحَبثا
ولستُ أجعله كالحوض	بحفِظ ما طاب من ماء وما
أمدحُه	حَبثًا

والبيث الذي تمثل به الرشيد هو لعمر بن معد يكرب يقوله لقيس بن المكشوح المرادي، وقد تمثل به علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، لَمَّا رأى عبد الرحمن بن مُلجَم المرادي فقال له: أنت تخضب هذه من هذه، وأشار إلى لحيته وتُقَرّته. فقيل له: يا أمير المؤمنين، ألا تقتله؟ فقال: كيف يقتل المرء قاتله؟ وكان بين مسلمة بن عبد الملك وبين العباس بن الوليد تباغُد، فبلغ العباس أن مسلمة ينتقصه، فكتب إليه يقول: الوافر:

ألا تَقُنِي الحياءَ أبا سعيدٍ	وئُقصر عن ملاحاتي وعَدلي؟
فلولا أن قَرَعَكَ حين تُنَمِي	وأصلك منتهى فرعي وأصلي
وإني إن رَمَيْتُكَ هِصْتُ	ونالنتي إذا نالُك تَبلي
عَظمي	يَضُمُّ حَشَاكَ عن سَنَمي
لقد أنكرتني إنكارَ خوفٍ	وأكلي
فكم من سَوْرَةٍ أبطأت عنها	بني لك مجدّها طلبي
ومُبْهمة عيّت بها فأبدى	وحفلي
كقول المرء عَمَرُو في	عويلي عن مخارجها وقصلي
القوافي	لِقَيْسٍ حين خالف كلَّ عَدل
عذيري من خليلي من مرادٍ	أريدُ حياته ويريدُ قنلي

لم يتفق له في القافية كما قال عمرو، فغيّره.  
وعبد الملك هذا هو ابن صالح بن علي، وكان بليغاً جَهِيراً فاضلاً عاقلاً.  
وقال الجاحظ: قال لي عبد الرحمن مؤدّب عبد الملك بن صالح: قال لي  
عبد الملك، بعد أن خَصَّنِي وصيرني وزيراً بدلاً من قُمامة: يا عبدَ الرحمن،  
انظر في وجهي؛ فأنا أَعَرَفُ منك بنفسك ولا تُسَعِدني على ما يقبح؛ دع عنك  
كيف الأمير، وكيف أصبح الأمير؟ وكيف أمسيتُ؟ واجعل مكانَ التقريظ حُسْنَ  
الاستماع مني، واعلم أن صوابَ الاستماع أحسنُ من صوابِ القول، وإذا -  
حدّثتكَ حديثاً فلا يفوتنيك شيء منه؛ وأرني فهمك في طرفك؛ إني اتخذتك  
وزيراً بعد أن كنت مُعلماً، وجعلتُك جليساً مقرباً بعد أن كنت مع الصبيان  
مُبعداً، ومتى لم تعرف نقصان ما خرجت منه لم تعرف رُجحان ما صرت  
إليه.

وساير الرشيدُ عبدَ الملك، فقال له قائل: طأطئ من إشرافه، واشدّد من  
شكائمه، وإلا فسدَ عليك، فقال له الرشيد: ما يقول هذا؟ قال: حاسدٌ نعمة،  
ونافس رتبة، أغضبه رصاك عني، وباعدَه قُرْبك مني، وأساءه إحسانك إلي.  
فقال له الرشيد: انخفض القومُ وعلوتهم؛ فتوقّدت في قلوبهم جَمْرَةٌ  
التأسف. فقال عبد الملك: أصرّمها الله بالتزديد عندك فقال الرشيد: هذا لك  
وذاك لهم.

وصعد المنبر، فأرتج عليه فقال: أيّها الناس، إن اللسان بضعة من الإنسان  
تكل بكلاله إذا كل، وتنفسح بانفساحه إذا ارتجل، إن الكلام بعد الإفحام  
كالإشراق بعد الإظلام، وإنا لا نسكتُ حَصراً، ولا ننتطقُ هَدَراً؛ بل نسكتُ  
مفيدين، وننتطقُ مُرشدين، وبعد مقامنا مقام، ووراء أيامنا أيام، بها فضل  
الخطاب، ومواقع الصواب، وسأعودُ فأقول، إن شاء الله تعالى.  
وقال الأصمعي: كنتُ عند الرشيد فدعا بعبد الملك بن صالح من حَبْسِهِ،  
فقال: يا عبد الملك، أكفراً بالنعمة، وعَدَراً بالسلطان، ووثوباً على الإمام؟  
فقال: يا أمير المؤمنين، بُؤثُ بأعباءِ الندم، واستحلال النِّدم واستحلال النقم،  
وما ذاك إلا من قول حاسدٍ، ناشدتك الله والولاية، ومودّة القرابة. فقال  
الرشيد: يا عبد الملك، تَضَعُ لي لسانك، وترفعُ لي جَنَانك، بحيث يحفظ الله  
لي عليك، وبأخذ لي منك، هذا كائِبك قمامة ينبئ عن غلِّك، فالتفت عبدُ  
الملك إلى قمامة وكان قائماً، فقال: أحقاً يا قمامة؟ قال: حقاً، لقد رُمْتُ  
حَتْرُ أمير المؤمنين! فقال عبد الملك: وكيف لا يكذب علي يا أمير المؤمنين  
في عَيْبتي من يَبْهَتني في حضرتي. فقال الرشيد: دَعُ قمامة، هذا ابْنك عبد  
الرحمن ينبئ عنك بمثل خير قمامة، فقال عبد الملك: إنَّ عبد الرحمن  
مأمور أو عاقٌّ؛ فإن كان مأموراً فهو معذور، وإن كان عاقاً فما أتوقّع من  
عقوبه أكثر.

بين الرشيد والخارجين من السجن  
وقال الرشيد للحسن بن عمران وقد أُدْخِلَ عليه يَوْسُفُ في قُبُودِهِ: وليتكَ  
دمشق وهي جنة موثقة، تحيط بها عُدرُ كاللجين، فتكف على رياض  
كالزَّرابي، وكانت بيوت أموال فما برح بها التعدي، حتى تركتها أجرّد من  
الصَّخْرِ، وأوحش من القَفْرِ! فقال: يا أمير المؤمنين، ما قصدت لغير التوفيق  
من جهته، ولكني وليت أقواماً ثَقَلَ على أعناقهم الحق، فتفرّغوا في ميدان  
التعدي، ورأوا أن المراغمة بتّرك العمارة أوقِعَ بأضرار السلطان، وأنّوه  
بالشنعة؛ فلا جرّم أن مَوْجِدَةَ أمير المؤمنين قد أخذت لهم بالحظ الأوفر من

مساءتي! فقال عبد الله بن مالك: هذا أجزلُ كلام سُمع لخائف، وهذا ما كنا نسمعه عن الحكماء: "أفضل الأشياء بديهةً آمن وردت في مقامِ حَوْفٍ".  
ولما رَضِيَ الرَّشِيدُ عن يزيد بن مَزِيد دَخَلَ عَلَيْهِ فقال: الحمد لله الذي سَهَّلَ لي سُبُلَ الكَرَامَةِ بِلِقَائِكَ، وردَّ عَلَيَّ النِّعْمَةَ بِوَجْهِ الرِّضَا مِنْكَ، وَجَزَاكَ اللهُ فِي حَالِ سُخْطِكَ حَقَّ المِتِّبِتِينَ المِرَاقِبِينَ، وَفِي حَالِ رِضَاكَ حَقَّ المِنْعَمِينَ المِتَّطَوِّلِينَ؛ فَقد جَعَلَ اللهُ - وَله الحمد - تَتَبَّتْ تَحَرُّجاً عِنْدَ الغَضَبِ، وَتَتَطَوَّلَ مِمَّنًا بِالنِّعَمِ، وَتَسْتَبْقِي المَعْرُوفَ عِنْدَ الصَّنَائِعِ تَفْضُلاًَّ بِالعَفْوِ.  
في باب الرثاء

وفي يزيد بن مزيد يقول مسلم بن الوليد مرثيته، وقد رُويت له في يزيد بن أحمد السلمي: الكامل:

قَبْرٌ بَيَّرَدَعَةً أُسْتَسَرَّ ضَرِيحُهُ      حَطَرًا تَقَاصَرُ دُونَهُ الأَخْطَارُ  
تَقَصَّتْ بِكَ الأَحْلَاسُ تَفُضَّ      وَاسْتَرَجَعَتْ نُرَاعَهَا الأَمْصَارُ  
إِقَامَةٌ

فَاذْهَبْ كَمَا ذَهَبَتْ عَوَادِي      مُرْتَبَةٌ  
سَلَكْتُ بِكَ العَرَبُ السَّبِيلَ      حَتَّى إِذَا سَبَقَ الرَّدَى بِكَ  
إِلَى العُلَا      حَارُوا

وقال أبو عبد الرحمن محمد بن أبي عطية يرثي أخاه: الكامل:

حَنَّتْهُ يَا نَصْرًا بِالكَافُورِ      وَرَفَقَتْهُ لِمَنْزِلِ المَهْجُورِ  
هَلَّا بِيَعُضِ خِصَالِهِ حَنَّتْهُ      فَيَصُوعُ أَفْقِ مَنَازِلِ وَقُبُورِ  
وَاللهُ لَوْ بِنَسِيمِ أَخْلَاقِ لَهُ      تُعْرَى إِلَى التَّقْدِيسِ  
والتَّطْهِيرِ

حَنَطتْ مِنْ وَطْئِ الحِصَى وَعَلَا      لَتزُودُ بِلِ عُدَّةٍ لِنَشُورِ  
الرَّبِي

فَاذْهَبْ كَمَا ذَهَبَ الشَّبَابُ      قَدْ كَانَ خَيْرَ مُجَاوِرِ وَمُجِيرِ  
فَإِنَّهُ

وَإِذْهَبْ كَمَا ذَهَبَ الوَفَاءُ      عَصَفَتْ بِهِ رِيحًا صَبَاً وَدُبُورِ  
فَإِنَّهُ

وَاللهُ مَا أَبْنَتْهُ لِأزِيدِهِ      شَرَفًا وَلَكِنْ تَفَّتَهُ المِصْدُورِ  
وَمَاتَ رَجُلٌ مِنَ العَرَبِ كَانَ يَعْوَلُ اثْنِي عَشَرَ أَلْفًا، فَلَمَّا حُمِلَ عَلَى سَرِيرِهِ صُرَّ، فَقَالَ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ: الطويل:

وَلَيْسَ صَرِيرُ النِّعَشِ مَا      وَلَكِنَّهُ أَصْلَابُ قَوْمٍ تَقْصِفُ  
تَسْمَعُونَهُ

وَلَيْسَ فَتِيحُ المِسْكِ مَا      وَلَكِنَّهُ ذَاكَ الثَّنَاءُ المِخْلَفُ  
تَجِدُونَهُ

وقال عبد الله بن المعتز في عبيد الله بن سليمان بن وهب يرثيه: الخفيف:

يَا ابْنَ وَهْبٍ بِالكُرْهِ مَنِّي      عَجِبِي يَوْمَ مَتِّ كَيْفَ حَيِّتُ  
بِقِيَّتُ

إِنَّمَا طَيِّبُ الثَّنَاءِ الَّذِي خَلَفْتَ      لَا مِسْكَ تَعْتِكِ المِفْتَوْتُ  
وَإِخْتَصَرْتَ الطَّرِيقَ بَعْدَكَ      تِ فَلَاقِيَّتُهُ وَلَسْتُ أَفَوْتُ  
لِلْمَوِّ

كيف يَنْقَى على الحوادث  
حَيُّ  
وقال أيضاً: المتقارب:  
ذكرت ابنَ وَهْبٍ فله ما  
تقطر أقلامه من دم  
وظاهر أطرافه سَاكِنٌ  
وقال: الطويل:  
ذكرت عبید الله والترُّبُ  
دُونَهُ  
وحاشاه من قولٍ سَقَى  
الغَيْثُ قَبْرَهُ  
وهذا مأخوذ من قول الطائي: الطويل:  
سقى الغيثُ غَيْثاً وَاَرَتِ الْأَرْضُ  
شَخَصَهُ  
وكيف اِحْتَمَالِي للسحابِ  
صَنِيعَةً  
وقال ابن المعتز: الخفيف:  
لم تَمُتْ أَنْتِ، إِنَّمَا مَاتَ مَنْ  
لَمْ  
لَسْتُ مُسْتَسْقِيًّا لِقَبْرِكَ  
غَيْثًا  
والبيت الثاني من هذين من بيت الطائي: وقال: البسيط:  
محمَّدُ بْنُ حُمَيْدٍ أَخْلَقَتْ  
رِمْمُهُ  
رَأَيْتَهُ يَنْجَادِ السَّيْفِ مُخْتَبِيًّا  
كَالْبَدْرِ حِينَ انْجَلَتْ عَنْ وَجْهِهِ  
ظَلْمُهُ  
في روضةٍ حَفَهَا مِنْ حَوْلِهَا  
رَهْرُ  
فَقَلْتُ وَالِدْمُعُ مِنْ وَجْدٍ وَمِنْ  
حُرْقٍ  
ألم تمت يا سليلَ المجد من  
زمن؟  
وقال بعض أهل العصر: البسيط:  
عُمُرُ الْفَتَى ذِكْرُهُ، لَا طَوْلُ  
مَدِّيهِ  
فَأَحْيِ ذَكَرَكَ بِالْإِحْسَانِ  
تَزْرَعُهُ  
وقال عبد السلام بن رعيان الجمصي: الطويل:  
سَقَى الْعَيْثُ أَرْضًا ضَمَّتْكَ  
وَسَاحَةً  
وما هي أَهْلُ إِذْ أَصَابَتْكَ  
بِالْيَلَى

بيد الدَّهْرِ عُوْدُهُ منحوت  
ذكرتُ وما غَيَّبُوا فِي الْكَفَنِ  
وَيَعْلَمُ بِالظَّنِّ مَا لَمْ يَكُنْ  
وما تحته حَرَكَاتُ الْقَطِرِ  
فلم تحبس العينانِ مِنِّي  
بِكَاهُمَا  
يَدَاهُ تَرَوِّي قَبْرَهُ مِنْ تَدَاهُمَا  
وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ سَحَابٌ وَلَا  
قَطْرٌ  
بِاسْقَائِهَا قَبْرًا وَفِي لَحْدِهِ  
الْبَحْرُ  
يُتَّقِي فِي الْمَجْدِ وَالْمَكَارِمِ  
ذِكْرًا  
كَيْفَ يَظْمَأُ وَقَدْ تَضَمَّنَ بَحْرًا؟  
أَرِيْقُ مَاءُ الْمَعَالِي إِذْ أَرِيْقُ  
دَمُهُ  
كَالْبَدْرِ حِينَ انْجَلَتْ عَنْ وَجْهِهِ  
ظَلْمُهُ  
أَيَقْنَتُ عِنْدَ انْتِبَاهِي أَنَّهَا  
نِعْمَةٌ  
يَجْرِي وَقَدْ خَدَّدَ الْخَدَيْنِ  
مَنْسَجْمُهُ:  
فَقَالَ لِي: لَمْ يَمُتْ مِنْ لَمْ  
يَمِتْ كَرْمُهُ  
وَمَوْتُهُ مَوْتُهُ لَا مَوْتَهُ الدَّانِي  
تُجْمَعُ بِهِ لَكَ فِي الدُّنْيَا  
حَيَاتَانِ  
لَقَبْرِكَ فَعَه الْعَيْثُ وَاللَّيْثُ  
وَالْبَدْرُ  
لِسُقْيَا، وَلَكِنْ مَنْ حَوَى ذَلِكَ  
الْقَبْرُ

أخذ هذا البيت الأول، الراضي فقال يرثي أباهُ المقتدر: الطويل:  
بنفسي تَرَى صُمِّمْتُ فِي سَاحَةِ الْبَلَى  
لقد صَمَّ مِنْكَ الْغَيْثَ وَاللَيْثَ  
وَالْبَدْرَا

فلو أن عمري كان طوعَ  
مَشِيئَتِي  
وأسعدني المقدورُ قاسمُكَ  
العمرَا  
ولو أن حيًّا كان قَبْرًا لمَيِّتٍ  
لصَيَّرْتُ أَحْشَائِي لِأَعْظَمِهِ  
قَبْرَا

هذا البيت ينظر إلى قول المتنبي: الكامل:  
حتى أتوا جدًّا كان ضريحه  
في قلب كل موحدٍ محفورٍ

أخبار قطر الندى  
لما حُمِلت قَطْرُ الندى بنت حُمَارَوْه بن أحمد بن طولون إلى المعتضد كتب  
معها أبوها إليه يذكر بخُرْمَةِ سلفها بسلفه، ويذكر ما تَرُدُّ عليه من أبهة  
الخلافة، وجمالة الخليفة، ويسأل إيناسها وبسَطَها، فبلَّغَتْ من قلب المعتضد  
لما رُفِت إليه. مبلغاً عظيماً، وسُرَّ بها غاية السرور، وأمر الوزير أبا القاسم  
عبيد الله بن سليمان بن وهب بالجواب عن الكتاب، فأراد أن يكتبه بخطه،  
فسأله أبو الحسين بن تَوَابَةَ أن يُؤثِّره بذلك ففعل، وغاب أياماً وأتى بنسخة  
يقول في فصل منها: وأما الْوَدِيعَةُ فهي بمنزلة شيءٍ انتقل من يمينك إلى  
شمالك، عنايةً بها، وحيَاطةً عليها، ورعايةً لمودتك فيها. ثم أقبل عبيد الله  
يُعبج من حُسْن ما وقع له من هذا، وقال: تسميتي لها بالوديعة نصفُ  
البلاغة، فقال عبيد الله: ما أقيح هذا تفاءلت لامرأة رُفِت إلى صاحبها  
بالوديعة، والوديعةُ مستردة. وقولك: لا من يمينك إلى شمالك أقيح؛ لأنك  
جعلت أباها اليمين وأمير المؤمنين الشمال، ولو قلت: وأما الهدية فقد  
حسن موقعها مِثْلًا، وجلَّ خطرُها عندنا! وهي وإن بعدت عنك، بمنزلة من  
قربت منك؛ لتفقدنا لها، وأنسينا بها، ولسرورها بما وردت عليه، واعتباطها بما  
صارت إليه لكان أحسن. فنفذ الكتاب.

وكأنت قَطْرُ الندى مع جمالها موصوفةً بفضل العقل، خلا بها المعتضد يوماً  
للأنس بها في مجلس أفرده لم يحضره غيرها، فأخذت منه الكأس، فنام  
على فخدها، فلما استثقل وضعت رأسه على وسادة، وخرجت فجلست في  
ساحة القصر على باب المجلس، فاستيقظ فلم يجدها، فاستشاط غضباً،  
ونادى بها فأجابته على قرب، فقال: ما هذا؟ أخليتك إكراماً لك، ودفعت إليك  
مهجتي دون سائر حظاياي، فتصعين رأسي على وسادة! فقالت: يا أمير  
المؤمنين، ما جهلت قدر ما أنعمت به عليّ، وأحسنت فيه إليّ، ولكن فيما  
أدبني به أبي أن قال لي: لا تنامي مع الجلوس، ولا تجلسي بين النيام.

رجع إلى الرثاء

وفي أبي الحسين بن ثوبة يقول ابن المعتز يرثيه: الخفيف:

ليس شيءٌ لَصِحَّةٍ وَدَوَامٍ علبَ الدهرِ حيلة الآقوامِ  
وتولى أيو الحُسينِ فعلى رُوحه سلام  
حميداً السلام

حين عاقدته على الحفظ  
للعه  
د وصافحته بكفِّ الدمام  
كاصطفاء الأرواح  
واصطفئه على الأخلَاءِ

تَفْسِي  
كَانَ رِيحَانَةَ النَّدَامَى وَمِيزَا  
وَمَكَانَ السَّهْمِ الَّذِي لَا يَتَرَى الشُّكَّ  
وَلَا يَسْتَعِيثُ بِالْأَوْهَامِ  
سَاحِرِ الْوَحْيِ فِي الْقِرَاطِيسِ لَا  
تَحْبِسُ عَنْهُ أَعْيُنُ الْأَقْلَامِ  
فَإِذَا مَا رَأَيْتَهُ خِلْتِ فِي خَدَيْهِ صُبْحًا  
مَنْقَبًا بِظِلَامِ  
نَفْسٌ، صَبْرًا لَا تَجْرَعِي إِنْ هَذَا  
مَا قَالَتْهُ الشُّعْرَاءُ فِي رِيْعَانِ الشُّبَابِ  
وَأَنْشُدُ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى ثَعْلَبٌ لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي كِلَابٍ: الطَّوِيلُ:  
سَقَى اللَّهُ دَهْرًا قَدْ تَوَالَتْ  
عَيَاطِلُهُ  
لِيَالِي خَدْنِي كُلُّ أَبْيَضٍ  
مَاجِدٍ  
وَفِي دَهْرِنَا وَالْعَيْشُ فِي ذَاكَ  
غِرَّةٌ  
بِمَا قَدْ غَنِينَا وَالصَّبَا جُلُّ  
هَمِّنَا  
وَجَرَّ لَنَا أَذْيَالَهُ الدَّهْرُ حِقْبَةً  
فَسَقِيًّا لَهُ مِنْ صَاحِبِ خَدْلَتِ  
بِنَا  
أَصْدُ عَنْ الْبَيْتِ الَّذِي فِيهِ  
قَاتَلِي  
هَذَا الْبَيْتُ يَنَاسِبُ قَوْلَ ذِي الرَّمَةِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْمَعْنَى، يَصِفُ ظَبِيَّةً  
وَوَلَدَهَا: الطَّوِيلُ:  
إِذَا اسْتَوَدَعْتَهُ صَفْصَفًا أَوْ  
صَرِيمَةً  
جِدَّارًا عَلَى وَسْنَانَ يَصْرَعُهُ  
الْكَرَى  
وَتَهْجُرُهُ إِلَّا اخْتِلَاسًا تَهَارَهَا  
وَقَالَ أَبُو حِيَةَ النَّمِيرِيُّ: الْوَافِرُ:  
أَمَّا وَأَبِي الشُّبَابِ لَقَدْ أَرَاهُ  
إِذِ الْأَيَّامُ مَقْبَلَةٌ عَلَيْنَا  
وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ بَسَامٍ: الْوَافِرُ:  
بِشَاطِئِ نَهْرِ قَبْرِكَ فَالْمَصْلَى  
مَعَاهِدُ لَهْوِنَا وَالْعَيْشُ عَضُّ  
لِلْيَدَيْنِ

وكان ابن بسام هذا - وهو علي بن محمد بن منصور بن بسام، مليح المقطعات، كثير الهجاء خبيثه، وليس له حظ التطويل، وهو الفائز: الكامل:

كم قد قطعْتَ إليك من  
دَيْمُومَةٍ  
نُطِفُ المياهِ بها سَوادُ الناظِرِ  
في ليلةٍ فيها السماءُ مُرِدَّةٌ  
سوداءُ مظلمةٌ كَقَلْبِ الكافرِ  
والبرقُ يخفِقُ من خلال  
حَفَقَ الفؤادِ لموعِدٍ من زائرِ  
سحابه  
والقَطْرُ منهملٌ يسُحُّ كأنه  
وقال في العباس بن الحسين لما وَرَرَ مكتفي: السريع:

وزارة العباس من تَحْسِبها  
سَتَقَلع الدولة من أُسَّها  
شَبهته لما بَدَأ مُقْبِلًا  
في خَلعٍ يَخجلُ من لَبْسِها  
جاريةٌ رَعْناءُ قد قَدَرَتْ  
ثياب مولاها على نَفْسِها

وقال في علي بن يحيى المنجم يَرْثِيه: الكامل:

قد نَزِرْتُ قَبْرَكَ يا علي  
مسلمًا  
ولكَ الزيارة من أَقلِّ الواجِبِ

ولو استطعت حملتُ عنكَ  
تُرَابَهُ  
فلطالما عني حملتِ نوائبي

وكان مولعاً بهجاء أبيه، وفيه يقول وقد ابتنى داراً: الرملي:

بَنَدتُ داراً خِلتُها مَكْرُمَةً  
وأرانيك صريعاً وسطها  
سَلط اللهُ عليها العَرَقا  
وأرانيها صعيداً رَلَقا

وقال أبو العباس بن المعتز يهجو: المجتث:

من شاء يَهْجُو علياً  
لو أنه لأبيهِ  
فشعرُهُ قد كَفاهُ  
ما كان يَهْجُو أباهُ

من أخبار المأمون ويزيد بن معاوية

وقال المأمون لأحمد بن أبي خالد، وهو يخلف الحسن بن سهل، وقد أشار إليه برأي استرجحه: قد اعتل الحسن ولزم بيته، ووكل الأمر إليك، فأنا إلى راحتك وبقائه، أحوج مني إلى إيتابه وفنائه، وقد رأيت أن أستوزرك، فإن الأمر له ما دُمت أنت تقوم به، وقد طالعت رأيه في هذا الأمر، فما عدّاك. فقال: يا أمير المؤمنين، أعفني من التسمي بالوزارة، وطالمني بالواجب فيها، واجعل بيني وبين الغاية ما يرجوني له ووليي، ويخافني له عدوّي، فما بعد الغايات إلا الآفات. فاستحسن كلامه، وقال: لا بُدَّ من ذلك، واستوزره.

ورأى المأمون خط محمد بن داود فقال: يا محمد! إن شاركتنا في اللفظ، فقد فارقتنا في الخط، فقال: يا أمير المؤمنين، إن من أعظم آيات النبي، صلى اله عليه وسلم، أنه أدّى عَن الله سبحانه وتعالى رسالته، وحفظ عنه وَحْيَهُ، وهو أُمي لا يعرف من فنون الخط قَنًّا، ولا يقرأ من سائره حَرْفاً، فبقي عمود ذلك في أهله، فهم يَشْرُفون بالشَّبه الكَريم في نَفْصِ الخط، كما يشرف غيرهم بزيادته؛ وإن أمير المؤمنين أخصُّ الناس برسول الله، صلى اله عليه وسلم، والوارث لموضعه، والمتقلد لأمره ونهيه؛ فعلقته به المشابهة الجلييلة، وتناهت إليه الفضيلة، فقال المأمون: يا محمد، لقد تركتني لا أَسَى علي. الكتابة، ولو كنتُ أمياً. وهذا شبيهة بقول سعيد بن المسيب، وقد قيل له: ما بال قريش أضعفُ

العرب شعراً، وهي أشرفُ العرب بيتاً؟ قال: لأنَّ كَوْن رسول الله صلى  
 له عليه وسلم، منها قطع متن الشعر عنها.  
 وقال إبراهيم بن الحسن بن سهل: كُتِّبَ في مجلس المأمون وعَمَرُو بن  
 مَسْعُودَةَ يقرأ عليه الرقاع، فجاءته عَطَسَةٌ، فلَوَى عنقه فردّها، فرأه  
 المأمون فقال: يا عمرو، لا تفعل فإن ردَّ العَطَسَة وتحویل الوجه بها  
 يُورثان انقطاعاً في العنق. فقال بعض ولد المهدي: ما أحسنها من مولى  
 لعبده، وإمام لرعيته! فقال المأمون: وما في ذلك؟ هذا هشامُ اضطربت  
 عِمَامَتُه فاهوى الأبرش الكلبى إلى إصلاحها، فقال هشام: إنا نتخذُ الإخوان  
 حَوَالاً! فالذي قال هشامُ أحسنُ مما قلته. فتمال عمرو: يا أمير المومنين،  
 إنَّ هشاماً يتكلفُ ما طيغَت عليه، ويظلم، فيما تعدل فيه، ليس له قرابتك  
 من رسول الله، صلى له عليه وسلم، ولا قيامك بحقِّ الله، وإنك والملوك  
 لكما قال النابغة الذبياني: الطويل:

ألم تر أن الله أعطاك سَوْرَةَ ترى كل مَلِكٍ دونها يتذبذبُ  
 لأنك شمسٌ والملوك إذا طلعت لما يبذُ منهم  
 كواكبُ كواكبُ

أخذ النابغة هذا من قول شاعرٍ قديم من كندة: الطويل:

تكاذُ تَمِيدُ الأرض بالأناس إنْ لعمرُو بن هند عَصْبَةٌ وهو  
 رَأَوْا عَاتِبَ  
 هو الشمس واقْتِ يوم دَجِنِ على كل ضوءٍ والملوكُ  
 فأفضلتُ كواكبُ

قار يزيد بن معاوية لجميل بن أوس، وكان أكرمه واجتباه: لم كرهت  
 الإفراط في تقديمي، وتطامنت عن الدرجة التي سما بك إليها مكانك مني؟  
 فقال: أيدُّ الله سلطانك، وأعلى مكانك، إن الذين كانوا قبلنا من أهل العلوم  
 والآداب، والعقول والألباب، كانوا أطول أعماراً منّا، وأكثر للزمان صُحْبَةً،  
 وأكثر للأيام تجربة، وقد قال الحكيم: بقدر الثواب عند الرضا يكون العقاب  
 عند السخط، ويقدر السمُّ في الرفعة تكون وجبة الرفعة، ولا خير فيمن لا  
 يسمع الموعظة، ولا يقبل النصيحة، وأنا يا أمير المؤمنين، وإن كنت أماناً من  
 التعرض لسُخْطِك والدنوِّ ممّا يقرب منه، فليستُ بأمن من طعن المُساوي  
 في الدرجة عندك، وحقر المشاركة لي في المنزلة منك، وليس من تقديمك  
 قليل، ولا من تعظيمك يسير، فإن أقل ذلك فيه النباهة، والفخر، والثناء،  
 والذكر، وحسبي مما بذلته من أموالك استحقاقي عندك لإكرامك، وحسبي  
 من تقديمك خالص رضاك، وصفاء ضميرك.

مختار من أقوال الحكماء عند وفاة الإسكندر  
 لما جُعِل الإسكندر في تابوت من ذهبٍ تقدّم إليه أحدهم فقال: كان الملك يخبأ الذهب،  
 وقد صار الآن الذهبُ يخبؤه، وتقدم إليه آخر، والناسُ يبكون وبجزعون، فقال: حررنا  
 بسكونه، أخذه أبو العتاهية فقال: الخفيف:

يا عليّ بن ثابت بان مني صاحبُ جَلٍّ فقَّده يوم بنتنا  
 قد لعمرى حكيته لي عُصَصِ تِ وحرركتني لها وسكننا  
 المو

وتقدّم إليه آخر فقال: كان الملك يعظنا في حياته، وهو اليوم أوعظ منه أمس. أخذه  
 أبو العتاهية فقال: الوافر:

وكانت في حياتك لي عِظَاتُ وأنت اليوم أوعظُ منك حياً

وتقدّم إليه آخر فقال: قد طاف الأَرْضَيْنِ وتملّكها، ثم جُعِلَ منها في أربعة أذرع. ووقف عليه آخر فقال: ما لك لا تُثَقِّلَ عضواً من أعضائك، وقد كنت تستقلُّ ملكَ العباد؟ ووقف عليه آخر فقال: انظرْ إلى حلم النائم كيف انقضى، وإلى ظلِّ الغمام كيف انجلى. وقال آخر: ما لك لا ترعّبُ بنفسك عن ضيق المكان، وقد كنت ترعّبُ بها عن رحب البلاد! وقال آخر: كان الملك غالباً فصار مغلوباً، وأكلأ فصار مأكولاً. وقال آخر: أمات هذا الميث كثيرًا من الناس لئلا يموت، وقد مات الآن. وقال آخر: ما كان أقبح إفراطك في التجبّر أمس، مع شدّة خضوعك اليوم. وقالت بنت دارا: ما علمت أنّ غالب أبي يُغلب. وقال رئيس الطباخين: قد نضدت النضائدُ، وألقيت الوسائد، وتُصبت الموائد، ولست أرى عميدَ المجلس!.

جملة من كلام ابن المعتز

في الفصول القصار في ذكر السلطان

أشقى الناس بالسلطان صاحبه، كما أنّ أقرب الأشياء إلى النارٍ أسرعها احتراقاً. لا يُدركُ الغني بالسلطان إلا نفس خائفة، وجسمٌ تعب، ودينٌ متئلم. إن كان البحرُ كثير الماء فإنه بعيدُ المهوى، ومن شارك السلطان في عزِّ الدنيا شاركه في ذلِّ الآخرة. فسادُ الرعية بلا ملك كفسادِ الجسم بلا روح، إذا زادك السلطان تأنيساً فزدهُ إجلالاً. من صحب السلطان صبر على قسوته كصبر الغوّاص على ملوحة بخره. الملك بالدين يبقى، والدين بالملك يَفُوق. من نصح لخدمة نصحته المجازاة. لا تلتبس بالسلطان في وقت اضطراب الأمور عليه؛ فإن البحر لا يكادُ يسلم صاحبه في حال سكونه، فكيف عند اختلاف رياحه، واضطراب أمواجه؟.

ومن كلام أهل العصر

وغيرهم في هذا النحو

الأوطانُ حيث يعدل السلطان. إذا نطق لسان العدل في دار الإمارة، فلها البُشرى بالعز والإمارة. آخر بالملك العادل أن يستقل سريره في سُرة الأرض، ريح السلطان على قوم سَموم، وعلى قوم تَسيم. أخلِق بدم المستخفّ بالجبابة أن يكون جباراً. من غمس يده في مال السلطان فقد مشى بدمه على دمه. الملك خليفة الله في عبادِهِ وبلادِهِ، ولن يستقيم أمرُ خلافته مع مخالفته. الملك من ينشرُ أثواب الفضل، ويبسط أنواع العدل. السلطان كالنار: إن باعدتها بطل تفعها، وإن قاربتها عظم ضررها. إقبال السلطان تعب وفنئته، وإعراضه حسرة ومذلة. صاحب السلطان كراكب الأسد يهابه الناس وهو لمركبه أهيب. السلطان إذا قال لعمّاله: هاتوا، فقد قال لهم: خذوا ثلاثة لا أمان لهم: السلطان، والبحر، والزمان. ليكن السلطان عندك كالنار: لا تدنو منها إلا عند الحاجة إليها، وإن اقتبست منها فعلى حذر. مثل أصحاب السلطان كقوم رَفُوا جبلاً ثم وقعوا منه، فكان أقربهم إلى التلف أبعدهم في المرقى. مثل السلطان كالجبل الصعب الذي فيه كلُّ ثمرة طيبة، وكل يتبع حطوم، فالارتقاء إليه شديد، والمقام فيه أشد. لئن عزّ الملوك في الدنيا بالجور ليدلن في الآخرة بالعدل.

لابن عبّاد الصاحب: الوافر:

إذا ولأك سلطانُ فزده من التعظيمِ واخذَرُهُ وراقِبْ

فما السلطانُ إلا البحرُ وتربُ البحر مَحْدُورُ العواقِبِ عظاماً

ووصف أحمد بن صالح بن شيران جاريةً كاتبة فقال: كأنَّ خطها أشكال صورتها، وكأنَّ مدادها سوادُ شعرها، وكان قرطاسها أديمٌ وجهها، وكأنَّ قلمها بعضُ أناملها، وكان بناؤها سيحراً مقلتها، وكان سيكيتها عُجج لحظها وكان مقطعها قلبُ عاشقها.

وقال بعضُ الكتاب يصف غلاماً كاتباً: الكامل:

انظرْ إلى أثر المداد بخده كبنفسج الروض المَشُوبِ

يُؤزِّدُهُ  
 ما أخطأتُ نُوتائهُ من صُدْغِهِ  
 شَيْئاً، ولا أَلْفائهُ مِنْ قَدِّهِ  
 أَلَقْتُ أَناملُهُ على أَقلامِهِ  
 شَبِهاً أراكِ فِرْندَها كِفِرْندِهِ  
 وكأنما أَنفاسُهُ من شَعْرِهِ  
 وقال أحمد بن أبي سمرة الدارمي فيما ينظر إلى هذا من طَرْفِ حَفِي: الطويل:  
 وَسَمُّ الأَفاعي مُبْرِئٌ عِنْدَ  
 سَرابُ الفِيافي صادِقٌ عِنْدَ  
 صَدِّها  
 وعدَّها

رمتني ولم أَشَعِدْ بأيام  
 وَصَلَّها  
 بعيني مَهارةً أَنحَسَّني بِبُعْدِها  
 قَعَلَقها قَلبي كما تَعَلَّقت  
 صوالجِ صَدغِها بِتَفَّاحِ حَدِّها  
 فقلبي لَمَّا أَضعَفته كخَصَرها  
 ودمعي لَمَّا تَظَمته كعَقْدِها  
 ونيلِ الثَّرِيّا مَمكُنٌ عِنْدَ  
 وَأَسرَعُ من بَرقِ تَناقُضِ  
 وعدَّها  
 وصلَّها

؟ من إنشَاء بديع الزمان

رَقعة كَتَبها بديع الزمان إلى ابن العميد يستنجزه: أين تَكَرَّم الشَّيخ العميد  
 أَيُّدُهُ اللهُ على مولاه؟ وكيف معدله إلى سِوَاه؟ أيقصر في النعمة، لأني  
 قَصَّرت في الخدمة؟ إِذَنْ فقد أساء المعاملة، ولم يحسن المقابلة، وعثر  
 في أذيال السُّهُو، ولم ينعش بيدِ العفو، أم يقول: إن الدهر بيننا حُدَّع،  
 وفيما بعد مُتَّسع، فقد أرفَ رَجِلي، ولا ماء بعد الشط، ولا سطح وراء  
 الخط؛ أم ينتظر سؤالي؟ وإنما سألته، يوم أَمَلتُه، واستمَحَّتُه، يوم مدحته،  
 واقتصيته، يوم أتيتُه، وانتجعت سحابه، بما قرعت بابَه، وليس كل السؤال  
 أَعْطِني، ولا كل الردِّ أَعْفِني؛ أم يظن - أَيُّدُهُ اللهُ تعالى - أني أُرِدُ صِلتَه، ولا  
 أَلْبَسُ خَلعتَه؟ وهذه فراسة المؤمن إلا أنها باطلة، ومَخيلة العارف إلا أنها  
 فاسدة؛ أم ليس يجد في مكاناً للنعمة يضعُّها، وأرضاً للمنة يزرعها؟ فلا  
 أَقلُّ من تجربة دفعة، والمخاطرة بإنفاذ خلة، ليخرج من ظلمة التخمين،  
 إلى نور اليقين، وينظر أشكر أم أكفر؛ أم يتوقع - أَيُّدُهُ اللهُ - صاعقة  
 تملكني، أو بائقة تهلكني، فلهذا أَمَلُ موفر؛ لأن شيخ السوء باق مُعَمَّر؛ أم  
 يقدر - أَيُّدُهُ اللهُ - أني أشكره إذا اصطنع، وأعذره إذا منع، وتالله لو كنت  
 ينبوع المعاذير ما حظي منها بجرعة، فليُرِحني بسُرعة.

وكتب أبو القاسم الهمداني إلى البديع: قد كتبت لسيدي حاجة إن قضاها  
 وأمضاها، ذاق حلاوة العطاء، وإن أياها وقلَّ شَبَّها لقي مرارة الاستبصاء،  
 فأَيُّ الجودين أخفُّ عليه. أجودُّ بالعلق، أم جودُّ بالعرض؟ ونزول عن  
 الطريف، أم عن الخلق الشريف؟.

فأجابته: جعلت فداك هذا طيبخ، كله تويخ، وثيريد، كله وَعَعيد، ولُقم، إلا أنها  
 نَقَم، ولم أرَ قِدراً أكثرَ منها عظماً، ولا أكلاً أكثرَ مني كَطَماً، ولم أرَ شَرِيبةً  
 أَمَرَّ منها طعماً، ولا شاربياً أَمَّ مني حِلماً، ما هذه الحاجة؟ ولتكن حاجتك  
 من بعدُ أَلينَ جوانب، وألطفَ مطالب، توافق قضاها وترافق ارتضاءها،  
 إن شاء اللهُ تعالى.

وفي مقامات أبي الفتح الإسكندري من إنشائه، قال: حدَّثنا عيسى بن  
 هشام قال: أحلني جامع بخارى يوم، وقد انتظمت مع رُفقاء في سيمط  
 الثريا، وحين احتفل الجامع بأهله طلع علينا ذو طَمَرين، قد أرسل ضوانا،

واستتلى طفلاً، عُزباناً، يضيق بالضرِّ وُسْعُه، ويأخذُه القُرَّ ويدْعُه، لا يملك  
عَيْرَ القِشْرَةِ بُرْدَةَ، ولا يلتقي لَحْيَاهُ رَعْدَةَ، ووقف الرجل وقال: لا ينظر لهذا  
الطفل إلا مَنْ رحم طفله، ولا يرقُّ لهذا الضرِّ إلا مَنْ لا يأمنُ مثله، يا  
أصحاب الجُدود المفروزة، والأزديّة المطروزة، والدور المنجّدة، والقصور  
المشيّدة، إنكم لن تأمنوا حادثاً، ولن تعدموا وارثاً، فيأذروا الخيرَ ما أمكن،  
وأحسنوا مع الدهر ما أحسن، فقد والله طِعْمناً السكّاج، وركبنا الهملاج،  
ولبسنا الديباج، وافترشنا الحشايا بالعشايا، فما راعينا إلا هوبُ الدهر  
بَعْدَرِه، وانقلاب المجنِّ لظهره، فعاد الهملاج قَطوفاً، وانقلب الديباج ضُوفاً،  
وهلّم جرّاً، إلى ما تشاهدون من خالي وزبّي؛ فيها نحن نرضع من الدهر  
تَدْيَ عقيم، ونركب من الفقر ظهر بهيم، ولا تَرْتُو إلا بعين اليتيم، ولا نمدُّ إلا  
يد العديم، فهل من كريم يجلو عنّا غياهب هذه البؤوس، ويفلّ سببا هذه  
النخوس؟. ثم قعد مرتفقا، وقال للطفل: أنت وشأنك. فقال: وما عسى  
أن أقول، وهذا الكلام لو لقي الشعر لحلقه، أو الصخر لفلقه، وإنّ قلباً لم  
يُنْضِجْه ما قلت لنيء! قد سمعتم يا قوم، ما لم تسمعوا قبل اليوم،  
فليشغل كلّ منكم بالجود يده، وليذكر عدّه، وأقياً بي ولده، واذكروني  
أذكركم، وأعطوني أشكركم!.  
قال عيسى بن هشام: فما أتسني في وِخْدتي إلا خاتم خُتّمت به خنصره،  
فلما تناوله أنشأ يقول: مجزوء الكامل:

وممنطّق من نفسه	بقلادة الجوزاء حُسنا
كمتيم لقي الحيي	ب فضمه شغفاً وحرنا
متألف من غير أس	رته على الأيام خدنا
علق سني قذره	لكن من أهداه أسنى
أقسمت لو كان الوري	في المجد لفظاً كنت معني

قال عيسى بن هشام: فتبعته حتى سقرت الخلوة عن وجهه، فإذا والله  
شيخنا الإسكندري، وإذا الصبيّ غلام له، فقلت: المتقارب:  
أبا الفتح ثبت وشب الغلام فأين الكلام، وأين السلام.  
فقال:

غريباً إذا جمعنا الطريق	أليفاً إذا نظمنا الخيام
فعلمت أنه كره لقائي، فتركته وانصرفت.	
شعر في وصف فص وخاتم	
وقال أبو الفتح كشاجم يصف فصاً: الكامل:	
ساجلُ بفصك من أردت	فكفى به كمداً لقلب
وباهه	الحاسد
متألق فيه الفرند كأنه	وجهي غداة ندّي وصيف
قاصد	قاصد
لو أنّ ظمأى منه علّت	من ماء جوهره المعين البارد
لازتوت	
بهر العيون إضاءةً في رقة	فكأنني مختم بعطارد
وقال بعض المحدّثين يصف خاتماً: الخفيف:	
ووجيد الكيان صيغ بديعاً	فإذا تم صيغ من جوهرين
خلعت حجلة الخدود عليه	خلعاً قد لبسن فوق
	اللجين

فإذا ما رأيته في بنانٍ  
قد كساها من حُسْنِه  
حُلَّتَيْنِ  
قلت نجم هوى من الجوّ  
حتى صار مجرى بُروجه في  
اليَدَيْنِ  
وقال البحرى يستهدي المعتزّ فصّاً: الطويل:  
فهل أنت يا ابن الراشدين  
مُحْتَمِي  
يغارُ احمرار الورْدِ مِنْ حُسْنِ  
وئسْرِي  
صَبْغِهَا  
وَيُحْكِيهِ جَارِي الرِّحِيقِ  
المُعْتَقِ  
إِذَا بَرَزْتُ وَالشَّمْسُ قَلْتُ  
تَسْبُقُ  
إِذَا التَّهَبْتُ فِي اللَّحْظِ ضَاهِي  
جَبِينِكَ عِنْدَ الْجُودِ إِذْ يَتَأَلَّقُ  
ضِيَاؤُهَا  
أَسْرَبُلُ مِنْهَا ثَوْبَ فَحْرٍ  
مُعْجَلٍ  
وعلى ذكر الخاتم قال أبو الفتح كشاجم: الطويل:  
عَرَضَنْ فَعَرَّضَنْ الْقُلُوبَ مِنْ  
لَأَسْرَعَ مِنْ كَيِّ الْقُلُوبِ عَلَى  
الْهُوَى  
مِنَ التَّبَرِّ مَخْتَوْمٌ بِهِنَ عَلَى  
الدَّرِّ  
كَانَ الشِّفَاهُ اللَّعْسَ مِنْهَا  
خَوَاتِمُ  
وقال الناظم:  
يَرُوعُ مُتَاجِيهِ بِهَارُوتِ لِحْظِهِ  
تَرَى فِيهِ لَأَمًا فَرْدَةً فَوْقَ  
وَرْدَةٍ  
وَيُؤْنِسُهُ مِنْهُ بِصُورَةِ آدَمَ  
وَفَصّاً مِنَ الْيَاقُوتِ مِنْ فَوْقِ  
حَاتِمِ

بين الكلام والصمت

وقال أبو تمام الطائي: تذاكرت في مجلس سعيد بن عبد العزيز الكلام  
وفضله، والصمت وئبله، فقال: ليس النجم كالقمر؛ إنك إنما تمدح السكوت  
بالكلام، ولا تمدح الكلام بالسكوت، وما أنبا عن شيء فهو أكبر منه.  
قال الجاحظ: كيف يكون الصمت أرفع من الكلام، ونفعه لا يكاد يجاوز  
صاحبه، ونفع الكلام يعتم ويخص، والرواه لم تزو سكوت الصامتين، كما  
روت كلام الناطقين؛ فبالكلام أرسل الله تعالى أنبياءه لا بالصمت، ومواضع  
الصمت المحموده قليلة، ومواضع الكلام المحموده كثيره، وبطول الصمت  
يفسد البيان. وكان يقال: محادثه الرجال تليق لألبابها.  
وذكر الصمت في مجلس سليمان بن عبد الملك فقال: إن من تكلم فأحسن  
قدّر أن يسكت فيحسين، وليس من سكت فأحسن يتكلم فيحسين.  
قال بعض النساك: أسكتني كلمه ابن مسعود عشرين سنة؛ وهي: من كان  
كلامه لا يوافق فعله فإنما يوبخ نفسه.

الحنين إلى الوطن

قال أبو عمرو بن العلاء: مما يدل على حربة الرجل وكرم غريزته حنينه إلى  
أوطانه، وتشوقه إلى متقدم إخوانه، وبكاؤه على ما مضى من زمانه.  
وقالوا: الكريم يحن إلى جنابه، كما يحن الأسد إلى غايه.  
وقالوا: يشواق اللبيب إلى وطنه، كما يشواق النقيب إلى عطنه.

ألفاظ لأهل العصر في ذكر الوطن  
بلد لا تُؤثر عليه بلداً، ولا تَصِيرُ عنه أبداً. هو عَشُّهُ الذي فيه دَرَجٌ، ومنه  
خَرَجٌ. مجمع أسرته، ومقطع سُرَّتِهِ. بلد أنشأته تربُّهُ، وغذاه هواؤُهُ، وربَّاه  
نسيبُهُ، وحُلَّتْ عنه التَّمائِمُ فيه.

قالوا: وكان الناسُ يتشوّقون إلى أوطانهم، ولا يفهمون العلةَ في ذلك،  
حتى أوضحها علي بن العباس الرومي في قصيدة لسليمان بن عبد الله  
بن طاهر يستعديه على رجل من التجار، يعرف بابن أبي كامل، أجبره  
على بيع داره واغتصبه بعض جُدرها، بقوله: الطويل:

ولي وطنٌ آليثٌ إلا أبيعُهُ  
وَألا أرى غيري له الدهر  
مالِكا

عهدتُ به شَرَحَ الشبابِ  
ونعمةً  
كينمةً قوم أصبحوا في  
طلالِكا

وحبُّ أوطانِ الرجالِ إليهمُ  
إذا ذكروا أوطانهم ذكُرْتُهُمُ  
قد ألقته النفسُ حتى كأنهُ  
لها جَسَدٌ إن بانَ عُودِرَ هالِكا

يقول له فيها:

وقد عرّني فيها لئيمُ  
وسامني  
فقال لي أجهدُ فيَّ جهَدُ  
احتياِكا

وما هو إلا نسجُك الشَّعرِ  
ضلةً  
وما الشعرُ إلا ضلَّةٌ من  
ضلالِكا

بصيرٌ يتسألُ الملوكَ، ولم  
يكن  
بعار على الأحرارِ مثل  
سؤاِكا

وإنِّي وإن أضحى مُدِلاً  
بمالِهِ  
لأملُ أن أضحى مُدِلاً بمالِكا

فإن لم تُصِبي من يمينك  
نِعْمَةً  
فلا تُحطِنْتُهُ نِعمَةً من  
شمالِكا

فكم لقي العافون بدءاً  
وعودَةً  
نوالِكَ والعادون مُرَّ نكالِكا

وقال علي بن عبد الكريم النصيبي: أتاني أبو الحسن بن الرومي بقصيدته هذه، وقال:  
أنصفتي، وقل الحق: أهما أحسن قولي في الوطن أو قول الأعرابي: الطويل:

أحبُّ بلادِ الله ما بين مَنعِجِ  
سحابِها  
إليّ وسلّمى أن يَصُوبَ

بلادُ بها نبطتُ عَلَيَّ تمايمي  
فقلت: بل قولك، لأنه ذكر الوطنَ ومحبتَهُ، وأنت ذكرتُ العلةَ التي أوجبتُ ذلك.  
وقال ابن الرومي أيضاً يتشوّق إلى بغداد، وقد طال مقامه بسُرٍّ من رأى: الكامل:

بلدٌ صحبتُ به الشَّبيبةَ  
والصبا  
ولبستُ ثوبَ العيشِ وهو  
جديدُ

فإذا تمثَّلَ في الضميرِ رَأْيُهُ  
وعليه أغصانُ الشبابِ تَمييدُ

وقال أبو العباس: ولما احتفل القائل في هذا المعنى السابق إليه قال:

بلادُ بها حلَّ الشبابِ تمايمي

وقد تقدّم. وإذا كانت تمايمه قطعت بأبرق العرّاف، وكان الترابُ الذي مَسَّ جلده ترابَ  
جزيرة سیراف، وجب أن يحنَّ إليه حينَ المتأسفين على عُوطَةِ دمشق، وقصور مدينة

السلام، ونجف الجزيرة، ومستشرق الخوزرق، وجوسق سر من رأى، لَمَّا بعد عنها،  
وطال مقامه غيرها، كلاً، ولكن هذا الرجل علم أن الجنين إلى الأوطان لما تُدكر من  
معاهد اللهو فيها، بحدة الشباب الذي ذكر أن غول سكرته، يغطي على مقدار فضيلته،  
في قوله: الكامل:

لا تلح من يئكي شبيبته  
عيبُ الشبية غولُ سكرتها  
لستأ نراها حق رؤيتها  
كالشمس لا تبدو فضيلتها  
ولرب شيء لا يبينه  
أخذها هذا من قول الطائي: السريع:  
راحت وفود الأرض عن  
قبره

فارعَة الأيدي ملاء القلوب

يُعرفُ فقدُ الشمس بعد  
الغروب

قد علمت ما رزئت، إنما

وأخذ ابن الرومي قوله في صفة الوطن قول بشار: الطويل:

يسعدني فإن العهد منك  
قريب

متى تعرف الدار التي بان  
أهلها

لديها فمعناها لديك حبيب

تذكرك الأهواء إذا أنعت يافع

أو من قول بعض الأعراب: الطويل:

بشوقي إلى عهد الصبا  
المتقادم

ذكرت بلادي فاستهلت  
مدامعي

وقطع عني قبل عقد  
التمائم

حنت إلى أرض بها اخضر  
شاربي

وأنشد ثعلب من لرجاء بن هارون العكي: الطويل:

لعهد الصبا فيه وتذكار أول  
نسيم حبيب أو لقاء مؤمل

أجن إلى وادي الأراك صباة  
كان نسيم الريح في جتباته

قال أبو بكر الصولي: ولست أشك أنه من قول رجاء أخذ، وبه ألم، وعليه  
عول؛ لأنه في تناوله المعنى غريب الأخذ، عائر السهم، لا يعارض معنى  
معروفاً إذا أنشد علم الناس أنه معدنه الذي انتحته منه.

وقد اختلس معنى قول ابن الرومي: الطويل:

لها جسد إن بان غودر هالكا  
الأخذ ولطف في البيرقفة: السريع:

فقد ألقته النفس حتى كأنه  
أخذ علي بن حمد الإبدي وقال فأحسن

ذات ليال قد توت قصار  
وإنما الناس نفوس الديار

بالجرع فالحبين أشلاء دار  
بانوا فماتت أسفا بعدهم

وقال أعرابي: الطويل:

تصافحه أيدي الرياح الغرائب  
كذلك أتراب عذاب  
المشارب

أيا حبذا نجد وطيب ترابه  
وعهد صبا فيه ينازعك الهوى

عذاب الثنايا واردة  
الذوائب

تنال المتى منهم في كل  
مطلب

وقال ابن ميادة يخاطب الوليد بن يزيد: الطويل:

بحرة ليلي حيث ربتني

ألا ليت شعري هل أبيت

ليلةً  
بلاذٌ بها نيطتُ عليَّ  
تمائمي  
فإن كنتَ عن تلك المواطنِ  
مانعي

وقال سوار بن الصرير، ورويت لمالك بن الريب: الوافر:

سقى الله اليمامة من بلادِ  
وجوًّا زاهراً للريح فيه  
به سُفْتُ الشباب إلى زمانٍ  
وقال: أعرابي: الوافر:

أقول لصاحبي والعيسُ  
تَحْدِي  
تَمْنَعُ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ تَجْدٍ  
ألا يا حَبْدًا نَفَحَاتِ تَجْدٍ  
وأهلك إذ يحلُّ القوم نجدا  
شهور يُقَصِّصِينَ وما شعرنا  
وهذا البيت كقول الآخر: الطويل:

سقى الله أياماً لنا قد  
تتابعيت  
ليالي أعطيتُ البطالة  
مَقُودِي

وتخلف سليمان عن نصره ابن الرومي، فذاك الذي هاجه على هجائه، فمن ذلك قوله،  
وقد خرج في بعض الوجوه فرجع مهزوماً: السريع:

جاء سليمانُ بني طاهرٍ  
كأن بغدادَ وقد أبصرتُ  
مستقبل. منه ومستدبر

وقال: المنسرح:

قِرْنِ سليمانَ قد أضربَ به  
كم يعدُّ القِرْنَ باللقاءِ وكم  
لا يعرف القِرْنَ وجهه ويرى

وقد أخذ هذا المعنى من قول بعض الخوارج، وقد قال له أبو جعفر المنصور: أخيرني  
أي أصحابي كان أشدَّ إقداماً في مُبارزتك، فقال: ما أعرفُ وجوههم، ولكنني أعرفُ  
أقفاءهم، فقل لهم يدبروا أعرفك.

وفي هذه المنازعة يقول ابن الرومي لمواليه بني هاشم وكان ولاؤه لعبيد الله بن  
عيسى بن جعفر بن المنصور: الطويل:

تَخَذْتُكُمْ دِرْعاً عَلِيَّ  
لَتَدْفَعُوا  
وقد كنتُ أرجو منكم خير  
ناصرٍ  
فإن أنتم لم تحفظوا  
لمودَّتي  
فُقُوا موقفَ المعذور عني

أهلي  
وقُطِعَ عني حين أدركني  
عقلي  
فأفش عليَّ الرزقَ واجمَعُ إذا  
شملي

نوائحها كأرواح الغواني  
تَسِيمُ لا يَرُوعُ التَّرْبَ واني  
بقبح عندنا حسنَ الزمانِ

بنا بين المنيفة فالصَّمارِ  
فما بَعَدَ العَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ  
وربَّما رَوْضِهِ غَبَّ القِطَارِ  
وأنت على زمانك غيرَ زَارِ  
بأنصافٍ لهن ولا سِرَارِ

وسقياً لعصرِ العامرية من  
عَصْرٍ  
تَمُرُّ الليالي والشهور ولا  
أذري

فاجتاح معتر بني المعصم  
طلعته نائحةً تلندمُ  
وجه بخيلٍ وقفاً منهزمُ

نِبَالِ العدى عني فكنتم  
نِصَالِهَا  
على حين خِذْلَانَ اليمينِ  
شِمَالِهَا  
زماماً فكونوا لا عليها ولا لها  
وَحَلُّوا نِبَالِي والعِدَا ونبالها

بمعزل

ألفاظ لأهل العصر

في وصف الأمكنة والأزمنة

بلدة كأنها صورة جنة الخلد، منقوشة في عَرْض الأرض. بلدة كأن محاسن الدنيا مجموعة فيها، ومحصورة في نواحيها. بلدة كأن ترائها عنبر، وخصباءها عقيق، وهواءها نسيم، وماءها رحيق. بلدة معشوقة السُّكْنَى، رَحْبَةُ المَنْوَى، كوكبها يقطان، وجَوْها عُريان، وخصاها جَوْهر، ونسيمها مُعَطَّر، وترايبها مِسْك أذفر، وبومها غداة، وليلها سحر، وطعامها هني، وشرايبها مَرِي. بلدة واسعة الرقعة، طيبة البقعة، كأن محاسن الدنيا عليها مفروشة، وصورة الجنة فيها منقوشة، واسطة البلاد وسررتها، ووجهها وغررتها.

ولهم في ضد ذلك: بلد مُتَضَائِقُ الحدود والأفنية، متراكب المنازل والأبنية. بلد حرها مؤذ، وماؤها غير مغذ. بلدة وسخة السماء، رمدة الهواء، جوها غبار، وأرضها حَبَّاز، وماؤها طين، وترايبها سِرْجِين، وحيطانها نوز، وتشرينها تموز، فكم في شمسها من محترق، وفي ظلها من عَرَق. بلدة ضيقة الديار، سيئة الجوار، حيطانها أخصاص، وبيوتها أقفاص، وحشوشها مسایل، وطرقها مَرَابِل.

ولهم في صفات الحصون والقلاع: حصن كأنه على مَرَقَب النجم، يحسر دونه الناظر، ويقصر عنه العُقابُ الكاسِرُ يَكادُ مَنْ عَلَاهُ يغرق في حوض الغمام. حصن انتطق بالجوزاء، وناجت أبراؤه بُرُوج السماء. قلعة حلقت بالجو تُناجِي السماء بأسرارها. قلعة بَعْدَ فِي السماء مُرْتَقَاهَا، حتى تساوى تَرَاهَا مع تَرِيَاهَا. قلعة تتوشح بالغيوم، وتتحدى بالنجوم. قلعة عالية على المرتقى، صمَاء عن الرقى، قد جاوزت الجوزاء سَمْنَا، وعزلت السماء الأَعْرَل سَمَكَا، هي متناهية في الحصانة، موثوقة بالوثاق، ممتنعة على الطلب والطالب، منصوبة على أضييق المسالك وأوعر المناصب، لم تزدْها الأيامُ إلا نَبُوَ أعطاف، واستصعب جوانب وأطراف، قد ملَّ الأُولَاةُ حِصَارَهَا، ففارقوها عن طموح منها وشِمَاس، وسئمت الجيوشُ ظَلْمَهَا، فغادَرَتْهَا بعد قنوطٍ وبأس، فهي حَمَى لا يُرَاع، ومَعْقِل لا يُسْتَطَاع، كأن الأيام صالحتها على الإغفاء من الحوادث والليالي عاهدتها على التسليم من القوارع. قلعة تَحْوِي من الرِّفْعَةِ قَدْرًا لا تستهان مواقعه، وتلوي في المنعة جيداً لا تستلان أخادعه، ليس للوهم قبل القدوم إليها مَسْرَى، ولا للفكر قبل الحطو نحوها مَجْرَى.

ولهم في صفات القصور والدور: قصر كأن شُرْفَاتِهِ بين النَّسْرِ والعَيْوُق، كأنه يُسْتَامِي القَرْقَد، وقد اكتسب له الشُّعْرَى العَبُور ثوب الغيور. قصر طال مَبْنَاهُ، وطاب مَغْنَاهُ؟ كأنه في الحَصَانَة جبلٌ مَنِيع، وفي الحسن ربيع مَرِيح. شُرْفَات كالعذارى سَدَدُنْ مناطقها، وتوجن بالأكاليل مقارقتها. قَصْرٌ أَقْرَّتْ لَهُ القصورُ بالقصور، كأنه سَحَاب في بحو السماء. دار قَوْرَاءُ تُوسِع العَيْنَ قُرَّة، والنفس مسرَّة. كأن بانيها استسلف الجنة فَعَجَّلَتْ لَهُ. دار تخجل منها الدور، وتتقاصر عنها القصور، إن مات صاحبها مغفوراً له فقد انتقل من جنة إلى جنة. دار قد اقترن اليُمنُ بيمينها، واليُسْرُ بيسرها، الجسمُ منها في حَصْر، والعيون على سَفَر. دار هي دائرة الميامن، ودائرة المحاسن. دار بالسعد نجمها، وفاز بالحسن سَهْمُهَا، دار يخدمها الدهر، وبأوبها البَدْر، ويكنفها

النَّصْر، هي مَرَّعِ النواظر، ومتنفس الخواطر. دارٌ قد أخذت أدوات الجِئان،  
وضحكت عن العَبْقَرِيِّ الحِسانِ.  
من أدب الميكالي نثراً وشعراً  
فصل لأبي الفضل الميكالي إلى بعض إخوانه  
ما ابتدأتُ بمخاطبة سيدي حتى سرتِ المسرَّةُ في نفسي، وقويت أركانُ  
بَهْجَتِي وأنسِي، وحتى أقبَلتُ وجوه الميامن تتهلل إلي، وبدتُ المساعِد تتثالُ  
عليّ، وكيف لا يملكني الجدَل والفرح، وكيف لا يهزُنني النشاط والمَرَح،  
وقد زفقتُ وُدِّي إلى كَفء كريم، وعرضته لحظ من الجمال جسيم، وأرجو  
أن يردَّ منه على حُسن قبول وإقبال، ويحظي من ارتياحه له بئرد اشتِمَال،  
ويُصادف من اهتزازِه وإنشائه، وعمارته وإنمائه، وتحصين أطرافه من  
شوائب الخلل، وشوائب الوهن والميل، وما تستحکم به مَرائر الوصال،  
وتؤمن على قُواها عَوادي الانتقاض والانحلال.  
وله: إذا لم يُؤت المرء في شكر المنعم إلا من عِظَم قَدْرِ الإنعام  
والاصطناع، واستغراقه منه قُوى الاستقلال والاضطلاع، فليس عليه في  
القصور عن كُنهِ واجبه عَنب، ولا يلحقه فيه نقيصة ولا عَيْب. ولئن ظهر  
عَجْزي عن حق هذه النعمة فإني أجبل بحسن الثناء على من لا يُعجزه  
حمله، ولا يُؤوده ثقله، ولا يزكو الشكرُ إلا لِدَيْه، ولا تُصرفُ الرغبةُ إلا إليه،  
والله يُبقيه لمجدٍ يقيم أعلامه، وقُصْل يفضي ذمَّامه، وعُزْفٍ يبت أقسامه،  
ووليٍّ يوالي إكرامه، وعدوٍّ يديم قمعَه وإزغَامه.  
وله: ولو وفيت هذه النعمة الجسيمة حَقَّها لمشيت إلى حضرته - أنسها  
الله تعالى - حَبُواً لا على القَدَم، ولا تُرث فيه خدمة اللسان على خِدمة  
القلم، ولما رضيت له بباعي القصير، وعبارتي الموسومة بالعجز والقصور،  
حتى أستعير فيه ألسنة تحملُ شكرياً وثناءً، وتوسيعَ نَشراً ودعاء، ثم لا أكونُ  
بلغتُ مبلغاً كافياً، ولا أبلت عُذراً شافياً؛ إلا أن عدم الإذن تبطني عن  
مقصود الغرض، وعاقني عن الواجب المفترض؛ فأقمتُ عاكفاً على دعاء  
أرَقَعُهُ إلى الله عز وجل مبتهلاً، وأواصله مجتهداً في ليلي ونهاري محتفلاً.  
وله: أحق النعمة بالزيادة نعمة لم تزل العيون إليها مستشرفة، والقلوب  
إليها متشوّفة، والأيام بها واعدة، والأقدار فيها مساعدة، حتى استقرت في  
نصابها، وألقت عصي اغترابها، فهي للنماء والزيادة مترشحة، وبالغز  
والسعادة متوشحة، وبالادعية الصالحة مستدامة مرتبهة، وباتفاق الكلمة  
والأهواء عليها مرتبطة محصنة.  
وله فصل من كتاب تعزية بالأمير ناصر الدين: أقدارُ الله تعالى في خلقه  
لم تزل تختلفُ بين مكروه ومحبوب، وتتصرفُ بين موهوب ومسلوب،  
غاديةً أحكامها مرَّةً بالمصائب والنوائب، رائحة أقسامها تارةً بالعطايا  
والرغائب، ولكن أحسنها في العيون أثراً، وأطيبها في الأسماع خبراً،  
وأحرأها بأن تكسب القلوب عزاءً وتصبراً، ما إذا انطوى نُشير، وإذا انكسر  
جُير، وإذا أخذ بيد رد بأخرى، وإذا وهب يميني سلب بيسرى، كالمصيبة  
بفلان التي قرحت الأكباد، وأوهنت الأعضاء، وسودت وجوه المكارم  
والمعالى، وصورت الأيام في صور الليالي، وغادرت المجد وهو يلبس  
جدادَه، والعدل وهو يبكي عمادَه، والدين وهو يندب جهادَه، حتى إذا كاد  
اليأس يغلِب الرجاء، ويردُّ الظنون مظلمة النواحي والأرجاء، قيض الله  
تعالى من الأمير الجليل من اجتمعت عليه الأهواء، ورضيت به الدهماء،

فَأَسَى بِهِ حَادِثَ الْكَلْمِ، وَسَدَّ بِمَكَانِهِ عَظِيمَ الثَّلْمِ، وَرَدَّ الْآمَالَ وَالنَّفُوسَ قَدْ  
اسْتَبَدَلْتُ بِالْحِيَرَةِ قُوَّةً وَانْتِصَارًا، وَصَارَتْ لِلدَّوْلَةِ الْمُبَارَكَةِ أَعْوَانًا وَأَنْصَارًا.

ومن شعره في تجنيس القوافي، في معان مختلفة: المتقارب:  
إِذَا لَمْ تَكُنْ لِمَقَالِ النَّصِيحِ  
يُنْبَهِكُ الدَّهْرُ مِنْ رَفْدَةِ إِلٍ

وقال: البسيط:

فَلَا يَسُ مِنْ ثَرَاءِ الْمَالِ أَوْ  
عَارِي فَرَقًا

كذا المعاش في الدنيا  
وساكنها

وقال: المتقارب:

مَقْسُومَةٌ بَيْنَ أَوْعَاثٍ وَأَوْعَارٍ

رِضًا بِالْقَضَاءِ وَلَا تَحْتَفِذُ  
فَأَقْبِحْ بِمَحْتَقِدٍ تَحْتَ قَدِ

حَوَى الْقِدِّ عَمْرًا فَقَلْتُ اعْتَقِدُ  
فِيمَا احْتَقَدْتَ فِضَاءَ إِلَهٍ

وقال: الكامل:

مَعَ فَضْلِهِ وَنَمَائِهِ وَكَمَالِهِ  
لَا عَوْنَ لِلرَّجُلِ الْكَرِيمِ كَمَالِهِ  
وَإِنْ اسْتَغَاثَكَ وَاثِقًا بِكَ مَالِهِ

تَمَّتْ مَحَاسِنُهُ فَمَا يُزِرِّي بِهَا  
إِلَّا قِصُورٌ وَجُودُهُ عَنِ جُودِهِ  
انصُرْ أَخَاكَ إِذَا اجْتَدَاكَ  
فَوَاسِيهِ

وقال أيضاً: مخلع البسيط:

ثُمَّ تَأْدِيبُ بِالْغَدَاءِ  
أَرَى غَدَائِي أَرَاغَ دَائِي

إِذَا تَغْدَيْتُ صَدَّرَ يَوْمِي  
فَقَلْتُ إِذْ مَسَّنِي أَذَاهُ

وله في هذا الصوغ: مخلع البسيط:

رَاحَتْنَا فِي أَدَى قَفَاهُ  
أَذَى قَفَاهُ أَذَاقَ قَاهُ

لَنَا صَدِيقٌ يُجِيدُ لَقْمًا  
مَا ذَاقَ مِنْ كَسْبِهِ، وَلَكِنْ

وقال يهجو رجلاً: المتقارب:

وَيَأْبَى لَهُ الضِيقُ فِي صَدْرِهِ  
كَمَا رَضِيَ الْخَفْضَ فِي قَدْرِهِ

يُوسِّعُ فِي بَيْتِهِ  
فَتَى سَخِطَ النَّصَبَ فِي  
قَدْرِهِ

وَلَا يُبْرِزُ الْخُبْرَ مِنْ خِدْرِهِ  
وَرَدَ عَلَيْهِ: المديد:

يَخْدُرُ أَوْصَالَ أَضْيَافِهِ  
وقال في غير هذا المذهب يصفُ كتاباً

كَلَالٍ زَانِهِنَّ نِظَامُ

قَدْ أَتَانَا مِنْ صَدِيقٍ كَلَامُ

مَطْرَبٌ يَعْجِزُ عَنْهُ الْمُدَامُ

فَسَرَى فِي الْقَلْبِ مَنِي  
سَرُورُ

حَوْلَهُ مِنْ جَمْعِهِنَّ زِحَامُ  
خَلْفًا مِنْ نَسْلِهِ لَا يُدَامُ  
قَالَ يَا بَشْرَايَ هَذَا غَلَامُ

مِثْلُ مَا يَرْتَاحُ رَبُّ بَنَاتِ  
فَرَعَى اللَّهُ طَوِيلًا يُرْجَى  
وَأَتَاهُ بَعْدَ يَأْسٍ بِشِيرِ

وقال يصف الشمع: الطويل:

نَصَبْنَا لِرَاجِيهِ عَمُودًا مِنْ  
النَّبْرِ

وَلَيْلُ كَلْوَنِ الْهَجْرِ أَوْ ظُلْمَةُ  
الْجَبْرِ

تَرَى بَيْنَ أَيْدِينَا عَمُودًا مِنْ  
الْفَجْرِ

يَشُقُّ جَلَابِيبَ الدُّجَى  
فَكَانَمَا

وذوب حشاه والدموع التي  
تجري  
وعهدي بدمع العين ينحل إذ  
يجري  
شعاع كأتا منه في ليلة  
البدر  
وفيه حياة الأنس واللّهو لو  
يدري  
فيختال في ثوب جديد من  
العمر

يزري بنور الشفق  
يبكي بجفن أرق  
وناره في المفرق  
فردنا في مشرق

ل في قد الكعاب  
ن ودمع ذي انسكاب  
وهو عريان الإهاب  
دان ملبوس الثياب  
في بلاء وعذاب

وقال كشاجم يصف شمعا أهداها إلى بعض الملوك: الوافر:

بواطئها وأظهُرها عواري

إذا افتضت من السفلى  
العذاري

تلقح في ذوائبها بنار  
إذا ما أشرق شمس العقار  
شريف الأصل محمود التجار  
محاسنه تُضيء لكل ساري

يؤذيه حتى بالقدي في مائه  
وبروغ عنه عند سكب إنائه

وهي تلوي بالوقاء وتجمخ  
قليلاً فبعض الشوك بالمن  
يسمخ

والهجر يتبعه ركضاً على الأثر

يحاكي زواء العاشقين  
بلونه  
حلاً أن جاري الدمع ينحله  
قوي  
تبدى لنا كالغصن قدأ  
وفوقه  
تحمل نوراً حتفه فيه  
كامن  
إذا ما علته علة جر رأسه

وقال: مجزوء الرجز أو مجزوء السريع:

يا رب عَصِن نوره  
يظل طول عمره  
ناز المحب في الحشا  
لاح لنا في مغرب

وقال: مجزوء الرمل:

وقصيب من بنات النح  
يُنسبه العاشق في لو  
كسى الباطن منه  
فإذا ما أنعم الأب  
فهو للشقوة منها

وقال كشاجم يصف شمعا أهداها إلى بعض الملوك: الوافر:

وضفر من بنات النحل  
تُكسى

عذاري يُفتضن من الأعلي

وأمست تنتج الأضواء حتى  
كواكب لسن عنك بأفلات  
بعثت بها إلى ملك كريم  
فأهديت الضياء بها إلى من

وقال: الكامل:

يشقى الفتى بخلاف كل  
معاند

يقذى إذا أصغى الإناء لشربه

وقال: الطويل:

أطالب أيامي بإنجاز  
مؤعدي  
أقول عساها أن تلين  
لمطلبي

وقال: البسيط:

أرى وصالك لا يصفو لأمه

كالقوس أقربُ سهميها إذا  
عطف  
أخذ هذا من قول ابن الرومي وذكر رجلاً متلوناً: الطويل:  
رأيتك بينا أنت خل وصاحب  
وأنت إذ أحنى حنوك  
موجب  
لكالقوس أحنى ما تكون إذا  
انحنت  
وله في نحو ذلك: الطويل:  
توددت حتى لم أجد متودداً  
وأتعبت أقلامي عتاباً مُردداً

كأنني أستدعي لك ابن حنيفة  
أبعدا  
وذكر عمر بن علي بن محمد المطوعي أبا الفضل الميكالي في كتاب الله  
في منظومه ومثوره فقال: قد أصبحت حضرتة - لا زالت أرجة الأرجاء  
بطيب شمائله، راضية الرضا عن صوب أنامله - مؤسيم الآمال، ومحط  
الرجال؛ وعبدة أحرار الكلام، كما خدمته أحرار الأيام، وأطاعته المعاني  
والمعالي، كما أطاعه صرف الأيام والليالي، فهو - أدام الله تمكيته -  
شهابُ المجد الذي لا يخبو واقده، ورؤوس الكرم الذي لا يجذب رائده؛ إن  
أردت البلاغة فهو مالك عنانها، وفارس ميدانها، وناظم دُرّها ومرجانها،  
وصائغ لُجَيْنها وعَفْيَانها؛ وإن أردت السماحة فهو محلها ومكائنها، وتاريخها  
وعنوانها، وبدّها ولسانها، وحدقثها وإنسانها، وحدىقتها وبُستائها؛ وإن أردت  
شرف الأصل والنسب، والجمع بين الموروث من المجد والمكتسب،  
فناهيك بأوائله شرفاً سابقاً، وفضلاً باسقا، ومجداً في فلك الفجر سامقاً،  
فهم الجحاجة العُر، والكواكب الزهر، ومن بهم يفتخر الفخر، ويتشرف  
الدهر، زحموا مناكب الكواكب من بُعد أقدارهم، وصكوا قرق الفرقد  
وصدّر البدر بشرف أخطارهم، فما فيهم إلا قمر قُضِل دار في فلك علم،  
وهلال مجد لاح في سماء قهم، توارثوا المجد كابرأ عن كابر، وباقياً عن  
غابر، وسافرت أخبارهم في البُعد والقرب. وطارت في أقاصي الشرق  
والعُرب، وسارت مسير الشمس في كل بلد، وهبت هبوب الريح في البر  
والبحر، فهم كما قال أبو عبادة البحرني في الشاه بن ميكال وأهله  
فأحسن وأجاد وبلغ ما أراد: الطويل:

بني أخوذي، يغمر الطرف  
موفياً  
ببسطته والسيف وافي  
الحمائل  
تضيؤ الدروع التبعيات  
منهم  
على كل رحب الباع سبط  
الأنام  
عراعر قوم يسكن الثغر إن  
مسنوا  
على أرضه والثغر جم  
الزلازل  
فكم فيهم من منعم  
متطول  
بالآئه أو مشرف متطاول  
نظائر جمات التلاع  
السوائل  
إذا سئلوا جادت سيوف  
أكفهم

خَلِيقُونَ سَرَوًا أَنْ تُلِينَ  
أَكْفَهُم  
وما زال لحظُ الراغبين  
مُعَلَّقًا  
وفيه، أو في أبيه، يقولُ أبو سعيد أحمد بن شبيب: الكامل:  
وإلى الأمير ابن الأمير  
تَوَاهَقْتُ  
شَيْمٌ أَرَقُّ مِنَ الْهَوَاءِ بِلِ  
الْهَوَى  
وَعِزَائِمٌ لَوْ كُنَّ يَوْمًا  
أَسْهُمَا  
مَائِيَةُ الْجَرِيَانِ إِلَّا أَنَهَا  
يَخْطُرْنَ بَيْنَ سِيَاسَةٍ  
وَرِيَاسَةٍ

ترجمة ابن أبي دواد وأخباره  
قال أبو عبد الله بن حمدون النديم: لقد رأيت الملوك في مقاصيرها، ومجامع حفلها،  
فما رأيت أغزر أدبا من الواثق؛ خرج علينا ذات يوم وهو يقول: لقد عرض عرضة من  
عرضه لِقَوْلِ الْخِزَاعِيِّ، يريدُ دِعْيَلًا الطويل:

خَلِيلِيَّ مَاذَا أَرْتَجِي مِنْ غَدٍ  
أَمْرِيَّ  
وَإِنَّ أَمْرًا قَدْ صَنَّنَ عَنِي  
بِمَنْطِقِ

فإنبرى أحمد بن أبي دواد يسأله كأنما تَشِيطُ من عَقَالِ فِي رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْيَمَامَةِ  
فَأَطْنَبَ وَأَسْهَبَ، وَذَهَبَ فِي الْقَوْلِ كُلِّ مَذْهَبٍ؛ فَقَالَ الْوَائِقُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، لَقَدْ أَكْثَرْتَ  
فِي غَيْرِ كَبِيرٍ، وَلَا طَيْبٍ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّهُ صَدِيقِي: الطويل:  
وَأَهْوُونُ مَا يُعْطِي الصَّدِيقُ  
صَدِيقُهُ  
مِنْ الْهَيْئِ الْمَوْجُودِ أَنْ  
يَتَكَلَّمَا

فقال: وما قَدَرِ الْيَمَامِي أَنْ يَكُونَ صَدِيقَكَ، وَإِنَّمَا أَحْسَبُهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ عَرْضِ  
مَعَارِفِكَ؟. قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّهُ شَهْرَنِي بِالِاسْتِشْفَاعِ إِلَيْكَ، وَجَعَلَنِي  
بِمَرَأَى وَمَسْمَعٍ مِنَ الرَّدِّ وَالِإِسْعَافِ، فَإِذَا لَمْ أَقْمِ لَهُ هَذَا الْمَقَامَ أَكُونَ كَمَا قَالَ  
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفَاءً:

خَلِيلِيَّ مَاذَا أَرْتَجِي مِنْ غَتِّي  
أَمْرِيَّ  
طَوَى الْكَنْشِخَ عَنِي الْيَوْمَ وَهُوَ  
مَكِينٌ

فقال الواثق: بالله يا محمد بن عبد الملك إلا عَجَلْتِ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ حَاجَتَهُ،  
لَيْسَلِمَ مِنْ هُجَّتَةِ الْمَطْلِ، كَمَا سَلِمَ مِنْ هُجَّتَةِ الرَّدِّ.

وكان ابن أبي دواد من أحسن الناس تأتياً، وكان يقول: ربما أردت أن  
أسأل أمير المؤمنين الحاجة بخصرة ابن الزيات فأؤخر ذلك إلى وقت  
مغيبه؛ لئلا يتعلم حُسنَ التلطف مني! وكان بينه وبين محمد بن عبد الملك  
عداوة عظيمة، وأمر الواثق أصحابه أن ينهضوا قياماً لأبي جعفر إذا دخل،  
ولم يرخص في ذلك لأحد، فاشتد الأمر على ابن أبي دواد، ولم يجد لخلاف  
الواثق سبيلاً. فوكل بعض غلمانه بمراقبة موافاته، فإذا أقبل أخبره فنهض  
يركع، فقال ابن الزيات: الكامل:

صَلَّى الصُّحَى لَمَّا اسْتَفَادَ  
عَدَاوَتِي وَأَرَاهُ يَنْسُكُ بَعْدَهَا وَيَصُومُ

لا تعدمن عداوةً موسومةً تركنك تفعُدُ بعدها وتقومُ  
وقال الواثق يوماً لابن أبي دُوادٍ تضحراً بكثرة حوائجه: قد أخلت بيوت الأموال بطلباتك  
للأذنين بك، والمتوسلين إليك. فقال: يا أمير المؤمنين، نتأج شكرها متصلة بك،  
وذخائرها موصولة لك، وما لي من ذلك إلا عشق اتصال الألسن بخلود المدح، فقال:  
والله لا متعتك ما يزيد في عشقك، ويقوي في هممتك فينا ولنا؛ وأمر فأخرج له خمسة  
وثلاثون ألف درهم.

قال أبو العيناء: قلت لابن أبي دواد: إن قوماً من أهل البصرة قدموا إلى سُرٍّ من رأى  
يداً عليّ، فقال: يدُ الله فوق أيديهم. فقلت: إن لهم مكرراً، فقال: "ولا يجيؤ المكرُّ  
السَّيِّئُ إلا بأهله" فقلت: إنهم كثير. قال: "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله  
والله مع الصابرين"، فقلت: لله دُرُّ القاضي فهو كما قالت الصُّمُوثُ الكلابية: الكامل:

لله دُرُّك أي جنة حائفٍ ومتاع دُنيا أنت للحداثِ  
متخمط يظا الرجال شهامةً وطء الفنيق مدارج القردانِ  
ويكبهم حتى تظل رؤوسهم مأمومة تنحط للغربانِ  
ويفرج الباب الشديد رتاجه حتى يصير كأنه بآبانِ  
وكانت هذه المجاوية بين أبي العيناء وبين أبي العلاء المنقري، وكان قد  
استجاش عليه قوماً من أهل البصرة. قطعة من شعر الأعراب في الغزل  
ابن ميادة: الطويل:

ألا ليت شِعْري هل يَحُلُّنَّ وأهلك روضات ببطن اللوى  
أهلنا وهل تأتيينَّ الریحُ تَدُجُ خُصراً  
مَوْهِنَا وبريح خُزامى الرمل بات فروع الأفاحي تنضب الطلِّ  
مُعَانِقَا والقَطْرَا  
ألا لَيْتَنِي أَلْقَاكَ يَا أُمَّ جَحْدَرِ قريبا، فأما الصبرُ عنك فلا  
صَبْرَا

وقال: الطويل:

وما رَوْضَةٌ بات الربيعُ يَجُودُهَا على منابها من حنوةٍ وعَرايرِ  
بأطيبٍ من ریح القرنفلِ بما التفت من دِرْعٍ لها وخِمارِ  
مَوْهِنَا

وقال آخر: الطويل:

تجالِسْتَا بنتُ الدِّلالِ عراهُ بحباتِ القلوبِ  
تعلقتُ الهوائِمِ  
وبين ما تخفى من الوجودِ غريق الأناسي في الدَّموعِ  
رَدَّهَا السَّواجِمِ  
جرى الدمعُ مَجْرَى مائه بُعْثَابِ أطرافِ الأكفِّ  
فكفَّفْتَهُ النِّواعِمِ  
وردَّ التحيات الهوى من بيقْطَانِ طَرْفِي في مَخِيلَةٍ  
عيونها نائمِ

وقال العلاء بن موسى الجهني: الطويل:

ولمَّا رأْتَنِي مَخْطِراً شَوْكَةً ردى النفسِ مُجْتَاباً إلى غيرِ

العِدَى جَلَّتْ دَاجِيِ الظُّلْمَاءِ مِنْهَا بِسُيَّةِ وَبِالْشُّدْرِ مَسْبُوكَا كَأَنَّ التَّهَابَةَ وَجَاءَتْ كَسَلِ السَّيْفِ لَوْ مَرَّ مَشْيُهَا	مَوْعِدِ وَنَحْرٍ مَشُوبٍ لَوْهُ بِالزَّبْرِجِدِ تَلَهَّبُ جَمْرَ الْفِرْقَدِ الْمَتَوَقِّدِ عَلَى الْبَيْضِ أَمْسَى سَالِمًا لَمْ يُخَصِّدْ
فَبِتْنَا وَلَمْ نَكْذِبْكَ لَوْ أَنَّ لَيْلِنَا تَدُوُّ النُّفُوسِ الصَّادِيَاتِ عَنِ الْهَوَى فَلَمَّا بَدَا ضَوْءُ الصَّبَاحِ وَرَاعَنَا نَهَضْنَا بِشَخْصٍ وَاحِدٍ فِي عَيُونِهِمْ إِلَى جَنَّةٍ مِنْهُمْ وَسَلَّمَتْ غَادِيَا وَوَلَّتْ وَأَغْبَاشَ الدُّجَى مَرَجِحَتُهُ وقال أعرابي من طيئ: الطويل: وَأَحْوَرُ يَصْطَادُ الْقُلُوبَ وَمَا لَهُ وَمَا كُنْتُ أَخْشَى الْفَنَكِ مَمَّنْ سِيْلَاحُهُ وَأَشْنَبُ بَرَّاقِ الثَّنَائِيَا عُرُوبُهُ خَلِيلِي بِاللَّهِ أَقْعَدَا فَتَبَيَّنَا يَكْشِفُ أَعْرَاضَ السَّحَابِ كَأَنَّهُ فَبِتَّ عَلَى الْأَجْيَالِ لَيْلًا أَشِيمُهُ هذا في البرق كقول الطرماح في النور: الكامل: يَبْدُو وَتَضْمُرُهُ الْبِلَادُ كَأَنَّهُ	إِلَى الْحَوْلِ لَمْ نَمَلْ وَقَلْنَا لَهُ أَزْدِدِ زِيَادًا وَنَسْقِيهِنَّ سَقِي الْمَصْرَدِ مَعَ الصَّبْحِ صَوْتِ الْهَاتِفِ الْمُتَشَهِّدِ تَطَافِي حَوَاشِي الْأَتْحَمِيِّ الْمَعْصَدِ عَلَيْهَا سَلَامَ الْبَاكِرِ الْمُتَزَوِّدِ تَأْطَرَعُضْنَ الْبَانَةَ الْمُتَأَوِّدِ مِنَ الرَّيْشِ إِلَّا زَعْفَرَانُ وَإِثْمِدُ سِوَاؤُ وَخَلْخَالُ وَطَوُّقُ مَنْصُدُ مِنَ الْبَرْدِ الْوَسْمِيِّ أَصْقَى وَأَبْرَدُ وَمِيضًا نَرَى الظُّلْمَاءَ مِنْهُ تَقْدَرُ صَفِيحَةُ هِنْدِيٍّ تُسَلِّ وَتُعْمَدُ أَقُومُ لَهُ حَتَّى الصَّبَاحِ وَأَقْعُدُ سَيِّفُ عَلَى شَرَفٍ يُسَلِّ وَيُعْمَدُ يَا عَيْدُ طَالَ بِحَبِّكُمْ عَنِّي فِي الْفُرْطِ وَالْخُلْخَالِ وَالْقَلْبِ بِرِضَابِ أَشْنَبِ بَارِدٍ عَدْبِ
وقال المتنبي: الكامل:	

بُنْتَا يُتَاوَلْنَا الْمُدَامَ بِكَفِّهِ  
تَجْنِي الكواكب من قلائد

حبيده

وأول شعر أبي الطيب:

لا الحُلمُ جادٌ به ولا بمثاله  
إن المُعيدَ لنا المنامُ خياله  
إني لأبغضُ طيفَ من أحببته

يقول: التمثيل والتخييل له في اليقظة أعاد خياله في المنام، فكأنَّ الخيال الذي في النوم تصور في اليقظة. وأظهر من هذا قول الطائي: البسيط:

زار الخيالُ لها لا بل أزاركَه

ظبي تقتنصته لما تصبَّت له

أما بيته الأول فمن قول جميل: البسيط:

حيثُ طيفك من طيفِ ألم

به

وقال ذو إلى الرمة: الطويل:

نأت دارَ ميِّ أن تُزار، وروَّرها

إذا نحن عَرَّسنا بأرضٍ سَرَى  
لنا

وبيته الثاني ألمَّ فيه بقول قيس بن الملوِّح: الطويل:

وإني لأستعشيبي وما بي

تَعسة

وأخرج من بين الجلوس

لعلني

يَقَطُّعُ أنفاسي لذكرك

أنفسا

وقد قال فيه قيس بن ذريح: الطويل:

وإني لأهوى النومَ في غير

تَعَسية

تخبرني الأحلامُ أني أراكم

وكان البحري أكثر الناس إبداعاً في الخيال، حتى صار لاشتهاره مثلاً يقال له خيال البحري وفي بعض ذلك يقول: الطويل:

ألمَّت بنا بعد الهدوِّ،

فسحامت

فما برحت حتى مضى الليلُ

وانقضى

مَنْ لَيْسَ يَحْطُرُ أَنْ نَرَاهُ بِبَالِهِ  
وَنِبَالَ عَيْنِ الشَّمْسِ مِنْ  
خَلْخَالِهِ

لولا ادِّكَارُ وَدَاعِهِ وَزِيَالِهِ

كانت إعادته خيالَ خياله

إذ كان يهجرنا زمانَ وصاليه

يقول: التمثيل والتخييل له في اليقظة أعاد خياله في المنام، فكأنَّ الخيال الذي في النوم تصور في اليقظة. وأظهر من هذا قول الطائي: البسيط:

فكُرُّ إذا نام فِكُرُّ الخلق لم

يتم

في آخر الليل أشراكاً من

الحلم

حدثت نفسك عنه وهو

مشغول

إذا ما دجا الإظلامُ منا

وساوسُ

هوى لبسته بالقلوب

اللوابسُ

وبيته الثاني ألمَّ فيه بقول قيس بن الملوِّح: الطويل:

لعل خيالاً منك يلقى خيالياً

أحدتُ عنك النفسَ في السرِّ

خالياً

يردُّنَ فما يرجعنَ إلا صواديا

لعل لقاءً في المنام يكونُ

فيا ليت أحلامَ المنامِ يقينُ

حتى صار لاشتهاره مثلاً يقال له خيال البحري وفي بعض ذلك يقول: الطويل:

بوصلٍ متى تطلُّبه في الجدِّ

تُمْتَع

وأعجلها داعي الصباح

الملمع

أوانٍ تولت من حشاي

وأضلعي

فولت كأنَّ البينَ يخلجُ

شخصها

وقال: الطويل:

سقى الغيثُ أجزاءً عَهْدَتْ  
بجَوْهَا  
إذا ما الكرى أهدى إليَّ  
خياله  
فلم نرِ مثَلنا ولا مِثْلَ  
شأننا

وقال: الطويل:

عَزَّالاً تُرَاعِيهِ الْجَاذِرُ أَعْيَدَا  
شَفَى قُرْبُهُ التَّبْرِيحَ أَوْ نَقَعَ  
الصدى  
تُعَدَّبُ أَيْقَاطاً وَتَنْعَمُ هُجَّداً

بَلَى وَخِيَالٍ مِنْ أُتَيْلَةٍ كَلِمَا  
يُرِي مَقْلَتِي مَا لَا تَرَى مِنْ  
لِقَائِهِ  
ويكفيك من حق تَحْيُلُ  
باطل

تَأْوَهُتُ مِنْ وَجْدِي تَعَرَّضَ  
يُطْمَعُ  
وَتَسْمَعُ أُنْذِي رَجَعَ مَا لَيْسَ  
تَسْمَعُ  
تُرَدُّ بِهِ نَفْسُ اللَّهْفِ قَتْرَجِعُ

قوله في البيت الأخير من قول الحسين بن الضحاك: المتقارب:

وماذا يفيدك طيفُ الخيا  
عَنَاءٌ قَلِيلٌ، وَلَكِنِّي

وللحسين في هذا المعنى وإن لم يكن في ذِكْرِ الخيال: الخفيف:

خَلْتُ أَنِي، وَمَا أَرَاكَ، أَرَاكَ

وصفَ البَدْرُ حُسْنَ وَجْهِكَ  
حَتَّى

وإذا ما تنفسُ النرجسُ الغضُّ  
توهَّمْتَهُ نَسِيمَ جَنَّاكَ

ك بِإِشْرَاقِ دَا وَنَكْهَةِ ذَاكَ

حُدَّعُ لِلْمَتَى تُعَلِّلَنِي فِي

وأول من طرد الخيالَ طرفة بن العبد، فقال: الطويل:

إِلَيْهَا فَإِنِّي وَاصِلٌ حَبَلٌ مَنْ  
وَصَلُ

فقل لخيالِ الحنظليَّةِ  
يَنْقَلِبُ

فتبعه جرير في قوله فقال: الكامل:

حِينَ الزَّبَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامِ

طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ  
وَلَيْسَ ذَا

قال البحرني، ونفى هذا المعنى بقوله: الكامل:

إِذَا كَانَ مِنْكَ الصَّدُّ غَبَّ  
تَنَاسِي

قَدْ كَانَ مِنِّي الْوَجْدُ غَبَّ  
تَذَكَّرِ

وَيَلِينُ قَلْبِي حِينَ قَلْبُكَ  
قَاسِي

تَجْرِي دَمُوعِي حِينَ دَمْعُكَ  
جَامِدُ

تَغْسِنِي، وَلَا تَهْتَهُتُ حَامِلَ  
كَاسِي

مَا قَلْتُ لِلطَّيْفِ الْمُسَلِّمِ لَا  
تُعْدُ

وقال ابن هاني الأندلسي: الطويل:

وَفِي الْحَيِّ أَيْقَاطُ وَنَحْنُ  
هُجُودُ

أَلَا طَرَقْنَا وَالنَّجُومُ رُكُودُ

وَفِي أَحْرَبَاتِ اللَّيْلِ مِنْهُ  
عَمُودُ

وَقَدْ أَعْجَلَ الْفَجْرُ الْمَلَمَعُ  
حَطَّوْهَا

فَلَمْ يَدِرْ تَحْرُ مَا دَهَاهُ  
وَجِيدُ

سَرَتْ عَاطِلًا عَصَبِي عَلَى الدَّرِّ  
وَحْدُهُ

فَمَا بَرِحْتُ إِلَّا وَمَنْ سَبَلِكُ  
أَدْمُعِي  
ألم يأتها أُنَا كَبْرُنَا عن الصَّبَا  
وقال علي بن محمد الإباضي: الطويل:

أما إنه لولا الخيال المراجع  
لأسفق واستحيا من النوم  
وَالِهُ  
وقال أيضاً: الكامل:

طيف يزورك من حبيب  
هاجر  
شق الدجى وسرى فأمعن  
في السرى  
يحدو به هيف القوام  
المنثني

لله ذك من خيالٍ واصل  
عَلَّتْ عِلَّةُ قَلْبِ صَبِّ  
هائم  
وقال عبد الكريم بن إبراهيم: البسيط:

لم أدر مَعَتَاكَ لولا المسك  
والقَطْرُ  
سرى يعارضُ أنفاسَ الرياح  
بما  
يخفي يثوب الدجى مسراه  
مستتراً  
كأنَّ أعينَ وأشيه تُراقبه  
قال: الكامل:

أهلاً به من زائرٍ معتادٍ  
يتجاوزُ الراياتِ يخفقُ ظلُّها

أنتى اهتدى في ظلِّ أخضرٍ  
مُعْدِفٍ  
بأرقٍ من كبد المتيمِّمِ  
مقدماً  
معتادة أمنت نمام حليها  
وكانما ياقوئها في تحريها  
في مجالس المنصور

خطب صالح بن أبي جعفر المنصور في بعض الأمر فأحسن، فأراد المنصور أن يقرظه  
ويثني عليه، فلم يجسر أحد على ذلك لمكان المهدي، وكان مرشحاً للخلافة، وخافوا ألا  
يقع الثناء على أخيه بموافقته، فقام عقاب بن شبة، فقال: ما رأيت أبين بياناً، ولا أفصح

لساناً، ولا أحسن طريقاً، ولا أغمض عروقاً، من خطيب قام بحضرتك يا أمير المؤمنين،  
وَحُقٌّ لِمَنْ كَانَ أَمِيرَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَبَاهُ، وَالْمَهْدِيَّ أَخَاهُ، أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ زَهِيرٌ: الْبَسِيطُ:

يَطْلُبُ شَأْوَ امْرَأَيْنِ قَدَّمَا  
حَسَنًا  
بِزَا الْمُلُوكِ وَبِزَا هَذِهِ السُّوْقَا

هُوَ الْجَوَادُ فَإِنْ يَلْحَقُ  
بِشَاوِهِمَا  
عَلَى تَكَالِيفِهِ فَمِثْلُهُ لَحِقًا

أَوْ يَسْبِقَاهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ  
مَهْلٍ  
فَبِالذِي قَدَّمَا مِنْ صَالِحٍ سَبَقَا

فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْ حُسْنِ تَخْلُصِهِ، فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: لَا يَنْصَرِفُ التَّمِيمِيُّ إِلَّا بِثَلَاثِينَ أَلْفًا.  
قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ كَاتِبُ الْمَهْدِيِّ: مَا رَأَيْتُ مِثْلَ عَقَالٍ قَطُّ فِي بِلَاغَتِهِ؛ مَدَحَ الْغَلَامَ وَأَرْضَى  
الْمَنْصُورَ، وَسَلِمَ مِنَ الْمَهْدِيِّ: وَفِي قَصِيدَةِ زَهِيرٍ هَذِهِ يَمْدَحُ هَرَمَ بْنِ سَنَانَ بْنِ أَبِي حَارِثَةَ  
الْمَرِي: الْبَسِيطُ:

قَدْ جَعَلَ الْمُبْتَعُونَ الْخَيْرَ فِي  
هَرَمٍ  
وَالسَّائِلُونَ إِلَى أَبَوَاهِ  
طَرُقًا

مَنْ يَلْقَى يَوْمًا عَلَى عِلَاتِهِ  
هَرِمًا  
يَلْقَى السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى  
خُلُقًا

وَلَيْسَ مَانِعَ ذِي قُرْبَى وَذِي  
رَجْمٍ  
يَوْمًا وَلَا مُعْدِمًا مِنْ خَابِطٍ  
وَرَقًا

لَيْتُ يَغْتَرُّ بِصِطَاذِ الرِّجَالِ،  
إِذَا  
مَا اللَّيْثُ كَذَبَ عَنْ أَقْرَانِهِ  
صَدَقًا

ضَارِبَ حَتَّى إِذَا مَا صَارُبُوا  
اعْتَنَقَا  
يَطْعَنُهُمْ مَا أُرْتَمَوْا حَتَّى إِذَا  
اطْعَنُوا

فَصَلُّ الْجَوَادِ عَلَى الْخَيْلِ  
الْبِطَاءِ فَلَا  
يُعْطِي بِذَلِكَ مَمْنُونًا وَلَا  
تَرْقًا

هَذَا وَلَيْسَ كَمَنْ يَعْيَا  
بِحُجَّتِهِ  
وَسَبَطَ النَّدَى إِذَا مَا نَاطِقٌ  
تَطَقًا

لَوْ نَالَ حَيٌّ مِنَ الدُّنْيَا  
بِمَكْرَمَةٍ  
أَفْقَ السَّمَاءِ لَنَالَتْ كُفَّهُ  
الْأَفْقَا

وَكَانَ زَهِيرٌ كَثِيرَ الْمَدْحِ لَهْرَمٍ، وَيُرْوَى أَنَّ بِنْتًا لِسَنَانَ بْنِ أَبِي حَارِثَةَ رَأَتْ بِنْتًا لَزَهِيرِ بْنِ  
أَبِي سَلْمَى فِي بَعْضِ الْمَحَافِلِ، وَإِذَا لَهَا شَارَةٌ وَحَالٌ حَسَنَةٌ، فَقَالَتْ: قَدْ سَرَّنِي مَا أَرَى  
مِنْ هَذِهِ الشَّارَةِ وَالنِّعْمَةِ عَلَيْكَ فَقَالَتْ: إِنَّهَا مِنْكُمْ. فَقَالَتْ: بَلَى وَاللَّهِ لَكَ الْفَضْلُ،  
أَعْطَيْنَاكَ مَا يَفْتَى، وَأَعْطَيْتُمُونَا مَا يَبْقَى!.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ لِابْنَةِ هَرَمَ بْنِ سَنَانَ: مَا وَهَبَ أَبُوكَ  
لَزَهِيرٍ؟ قَالَتْ: أَعْطَيْتَاهُ مَالًا وَأَنَاثًا أَفْنَاهُ الدَّهْرَ. قَالَ: لَكِنْ مَا أَعْطَاكَمُوهُ لَا تَفْنِيهِ الدَّهْرُ.  
وَقَدْ صَدَّقَ عَمْرٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَقَدْ أَبْقَى زَهِيرٌ لَهُمْ مَا لَا تَفْنِيهِ الدَّهْرُ، وَلَا تُخْلِقُهُ  
العُصُورُ، وَلَا يَزَالُ بِهِ ذِكْرُ الْمَمْدُوحِ سَامِيًا، وَشَرْفَهُ بَاقِيًا، فَقَدْ صَارَ ذِكْرُهُمْ عِلْمًا مَنْصُوبًا،  
وَمِثْلًا مَضْرُوبًا، قَالَ الطَّائِي، وَذَكَرَهُمْ فِي شِعْرِهِ: الْبَسِيطُ:

مَالِي وَمَالِكَ ثَبِيئُهُ حِينَ  
أَذْكَرُهُ  
إِلَّا زَهِيرٌ وَقَدْ أَصْعَى لَهُ هَرَمٌ

وَقَالَ يَوْسُفُ الْجَوْهَرِيُّ يَمْدَحُ الْحَسَنَ بْنَ سَهْلٍ: الْبَسِيطُ:

لَوْ أَنَّ عَيْنِي زَهِيرٌ أَبْصُرْتُ  
حَسَنًا  
وَكَيْفَ يَصْنَعُ فِي أَمْوَالِهِ  
الْكَرْمُ

إِذْ لَقَا زَهِيرٌ حِينَ يَبْصُرُهُ  
هَذَا الْجَوَادُ عَلَى الْعَلَاتِ لَا

وقال آخر، ويدخل في باب تفضيل الشعر: البسيط:  
 والشعرُ يحَقِّطُ ما أودَى  
 الزمان به  
 لولا مقالُ زهير في  
 قصائده  
 هَرِمُ  
 وقيل: أعطي هرم العطاء الجزيل قول زهير فيه: الكامل:  
 تالله قد عَلِمْتُ سَرَاهُ بني  
 دُبَيَانَ عَامَ الْحَبْسِ وَالْأَصْرِ  
 أَنْ نِعَمَ حَسَنُ الدَّرْعِ أَنْتَ إِذَا  
 دُعِيَتْ تَزَالِ وَلُجَّ فِي الدُّعْرِ

وقال: البسيط:  
 حامي الدِّمَارِ عَلَى مَحَافِظَةِ  
 ال  
 حَدْبِ عَلَى المَوْلى الصَّرِيكِ  
 إِذَا  
 ومَرَهَقُ النيرانِ يُحَمِّدُ فِي  
 ال  
 والسُّنْرُ دُونَ الفاحشاتِ، وما  
 وقال: البسيط:  
 جُلَى أَمِينُ مُعَيَّبِ الصِّدْرِ  
 ضاقت عليه نوائبُ الدَّهْرِ  
 لأواءِ غَيْرِ مُلَعَّنِ القِدْرِ  
 يَلْقَاكَ دُونَ الخَيْرِ مِنْ سِنْرِ

الخليل: الذي أخلَّ به الفقر؛ إلى غير ذلك من مُختار مدحه فيه.  
 من فضائل الشعر  
 ولما امتدح نُصَيْبُ عَبْدَ اللهِ بن جعفر، رضي الله عنه، أمر له بإبل وخيل، وثياب ودنانير  
 ودراهم، قال له رجل: أتعطي لمثل هذا العبد الأسود هذا العطاء؟ فقال: إن كان أسود  
 فإن شِعْرَه أبيض، وإن كان عبداً فإن ثنائه لِحُرٌّ، ولقد استحقَّ بما قال أكثر مما أعطى  
 وهل أعطيناها إلا ثياباً تبلى، ومالاً يفتى، ومطايأ تنصى، وأعطانا مديحاً يروى، وثناء  
 يَبْقَى؟  
 وقال الأخطل يعتدُّ على بني أمية يمدِّحه لهم: الكامل:  
 إن البخيلَ ملومٌ حيثُ كان  
 ول  
 هو الكريمُ الذي يُعْطِيكَ تَائِلَهُ  
 وإنَّ أناه خليلٌ يومَ مسأَلَةٍ  
 يقولُ: لا غائبٌ مالي ولا حَرِمٌ  
 من مُختار مدحه فيه.

وقال أبو تمام الطائي محمد بن حسان الضبي بقصيدته التي أولها: الكامل:  
 أسقى طلولهمُ أجشُّ هزيمُ  
 وصله بماد كثير، وخلع عليه خلعة نفيسة، فقال يصفها: الخفيف:  
 قد كسانا من كسوة الصيف  
 خرقُ  
 كسَّحَا القَيْضِ أو رداء  
 الشجاع  
 كالسراب الرقراق في  
 الحُسنِ، إلا  
 أنبي أمية، إن أخذت نوالكم  
 أنبي أمية، لي مدائح فيكم  
 وتذكُّرُ  
 فلقد أخذتُم من مديحي أكثرُ  
 تُنْسَوْنَ إن طال الزمانُ  
 أنه ليس مثله في الخداع

قصبياً تسترجفُ الريحُ  
مَنِّي  
ه بأمرٍ من الهبوب مطاعٍ  
رَجْفَانَا كَأَنَّهُ الدَهْرَ مِنْهُ  
كَيْدُ الصَّبِّ أَوْ حَشَا المُرْتَاعِ  
لَا زَمًا مَا يَلِيهِ تَحْسَبُهُ جِزْ  
عَا مِنْ المَتْنِينَ والأَضْلَاعِ  
صَدْرٍ رَحْبٍ الفؤَادِ رَحْبِ  
الذَّرَاعِ

سوف أكسوك ما يعفني  
عليها  
حُسْنُ هَاتِيكَ فِي العيُونِ،  
وهذا  
حُسْنُهُ فِي القلوبِ  
والأَسْمَاعِ

فقال: لعنةُ الله عليَّ إن بقي عندي ثوب أو يَصِلَ إلى أبي تمام؛ وأمر بحمل ما في خزائنه إليه.

قال إبراهيم بن العباس الصولي لأبي تمام: أمراءُ الكلام، يا أبا تمام، رعيةٌ لإحسانك، قال: ذاك لأنني أستضيءُ بنورك، وأردُّ شريعتك.

وكان الطائي مع جَوْدَةِ شعره بليغ الخطاب، حاضراً الجواب، وكان يقال: ثنتان قلما يجتمعان: اللسانُ البليغ، والشعرُ الجيد.

وقال الحسن بن جُنَادَةَ الوشاء: انصرف أبو تمام من عند بعض أصحاب السيلطان، فوقف علي، فقلت: من أين؟ فقال: كنت عند بعض الملوك فأكلنا طعاماً طيباً، وفاكهةً فاضلة، وبُخِرْنَا وَعُلِفْنَا؛ فخرجتُ هارباً من المجلس، نافرأ إلى التسلي، وما في منزلي نبذ فإن كان عندك منه شيء فامنحني، فقلت: ما عندي نبذ ولكن عندي حَمْرٌ أريده لبعض الأدوية، فقال: دع اسمه، وأعطنا جِسْمَهُ، فليس يثينا عن المدام، ما هَجَّته به من اسم الحرام.

في المواعيد

قال عبيد الله بن محمد بن صدقة: كتنا عند أبي عبيد الله، فدخل عليه أعرابي قد كان له عليه وَعْدٌ، فقال له: أيها الشيخ السيد، إني والله أَتَسَحَّبُ على كرمك، وأستوطئ فراشَ مجدك، وأستعين على نعمك بقدرك؛ وقد مضى لي موعدان، فاجعل التُّجَحَّ ثالثاً، أقدِّ لك الشُّكْرَ في العرب شادخ العُرَّة، بادي الأوصاح. فقال أبو عبيد الله: ما وعدتك تغريباً، ولا آخرتك تقصيراً، ولكن الأشغال تقطعني، وتأخذ بأوقر الحظ مني، وأنا أبلغ لك جهد الكفاية، ومنتهى الوسع بأوفر مأمول، وأحمد عاقبة، وأقرب أمد، إن شاء الله تعالى.

فقال الأعرابي: يا جلساء الصَّدْقِ، قد أحصرني التطول، فهل من معين مُنْجِدٍ ومسياعٍ منشِد؟ فقال بعضُ أحداث الكتاب لأبي عبيد الله: والله - أصلحك الله - لقد قصدك، وما قصدك حتى أمَلَّك، وما أمَلَّك إلا بعد أن أجال النظر، فأمن الخطر، وأيقن بالظفر، فحقق له أمله بتهيئة القليل، وتهنئة التعجيل. قال الشاعر: الطويل:

إذا ما اجتلاه المجد عن وَعْدٍ  
أمل  
تبلى عن بشر ليستكمل  
البشرا  
ولم يثنيه مطل العداة عن  
التي  
تصون له الحمد الموقر  
والأجرا

فأحضر أبو عبيد الله للأعرابي عشرة آلاف درهم، وقال الأعرابي للفتى: **حُذِّها فأنت سببها. فقال: شكرُك أحبُّ إليَّ منها؟ فقال له أبو عبيد الله: حُذِّها، فقد أمرتُنا له بمثلها. فقال الأعرابي: الآن كملتُ النعمة، وتمتَّ المنة.**

أخبار معاوية بن يسار  
وكان أبو عبيد الله واسع الذرع، سابع الدرع في الكرم والبلاغة، واسمه معاوية بن يسار.

وكان يقول: إن نخوة الشرف تُتأسبب بطر الغنى، والصبر على حقوق التزوة أشدُّ من الصبر على ألم الحاجة، وذلُّ الفقر يسعى على عزِّ الصبر، وجور الولاية مانع من عدل الإنصاف، إلا من ناسب بعد الهمة، وكان لسلطان عزمه قوة على شهوته.

وكان يقول: لا يكسر رأسُ صناعة إلا في أحسن رثان، وأردل سلطان، ولا يعيب العلم إلا من انسلخ عنه، وخرج منه.

وكان يقول: حُسْنُ البِشْرِ عِلْمٌ من أعلام النجاح ورائد من رواد الفلاح، وما أحسن ما قال زهير: الطويل:

تراه إذا ما جئته مُتَهَلِّلاً      كأنك تُعْطيه الذي أنت سائلُهُ

وقال له المهدي بعد أن قتل ابته على الزندقة: لا يمعنك ما سبق به القضاء في ولدك، من تلج صدرك وتقديم نُصْحِك؛ فإني لا أعرض لك رأياً على نُهْمَة، ولا أُوخِرُ لك قدماً على رتبة، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما كان ولدي حسنة من نبت إحسانك أرضه، ومن تفقدك سماؤه، وأنا طاعة أمرك، وعبد نهيك، وبقية رأيك لي أحسن الخلف عندي. وكان يقول: العالم يمشي البرار آمناً، والجاهل يهبط الغيطان كامناً، ولله در زهير حيث يقول: الكامل:

الستر دون الفاحشات وما      يَلْقَاكَ دُونَ الخَيْرِ من سِئْرٍ

وقال أبو عبيد الله: ذاكرني المنصور في أمر الحسين بن قحطه، فقال: كان أوثق الناس عندي، وأقربهم من قلبي، فلما لقي أبا حنيفة إنتكت، فقلت: إن فسدت نيته فسيصغهُ الباطل كما رفعه الحق، وتشهد مخايله عليه كما يشهدت له، فتعدل في أمره من شك إلى يقين. ثم قال لي: اكتم علي ما ألقىُّ عليك.

قال عمران بن شهاب: استعنت على أبي عبيد الله في أمر بعض إخوانه وكان قد تقدّم سؤالي إياه فيه. فقال لي: لولا أت حَقُّكَ لا يَّجِدُ ولا يَضاع، لحجبت عنك حُسْنَ نظري؛ أظننتني أجهل الإحسان حتى أعلمه، ولا أعرف موضع المعروف حتى أعرفه؟ لو كان يُبَالُ ما عندي إلا بغيري لكنت مثل البعير اللؤلؤ، يحمل عليه الحمل الثقيل، إن قيد انقاد، وإن أنيح برك، ما يملك من نفسه شيئاً، فقلت: معرفتك بموضع الصنائع أثبت معرفة، ولم أجعل فلاناً شفيحاً إنما جعلته مذكراً. قال: وأي إذكرار أبلغ عندي في رعي حَقِّكَ من مسيرك إليه وتسليمك عليه؟ إنه متى لم يتصفح المامول أسماء مؤمليه غدوةً ورواحاً لم يكن للأمل محلاً، وجرى عليه المقدار لمؤمليه على يديه بما قدر، وهو غير محمود على ذلك ولا مشكور، وما لي إمام بعد وردي من القرآن إلا أسماء رجال أهل التأميل، حتى أعرضهم على قلبي، فلا تستعن على شريفٍ إلا بشرفه؛ فإنه يرى ذلك عيباً لعرفه؛ وأنشد:

وذاك امرؤ إن تأتته في      إلى بابه لا تأتته بشفيع  
عظيمة

ومن توقيعاته: الحقُّ يُعَقِبُ قَلْجاً أو ظفراً، والباطل يُورث كذباً وتدماً. وكتب إليه رجل: والنفس مولعة بحبِّ العاجل. فكتب إليه: لكن العقل الذي جعله الله للشهوة زماماً وللهوى رباطاً موكل بحبِّ الآجل، ومستصغر لكل كثير زائل. قال مصعب بن عبد الله الزبيري: وقد زياد الحارثي على المهدي وهو بالرِّي ولي عهد،

فأقام سنتين لا يَصِلُ إليه شيء من بَرِّه، وهو ملازم كاتبه أبا عبيد الله، فلَمَّا طال أمره دخل إلى كاتبه فأنشده: البسيط:

ما بعد حولين مرًّا من  
مطالبة  
لئن رحلتُ ولم أظفر  
بفائدة  
فوق أبو عبيد الله: يصنعُ الله لك فكتب إليه: الخفيف:  
ما أردت الدعاء منك لأنني  
قد تيقنت أنه لا يُجابُ  
أجباب الدعاء من مستطيل  
جُلُّ تسيجه الخنا والسُّباب؟

ألفاظ لأهل العصر

في ذكر الاستطالة والكبر

مع ما يشاكل ذلك من معانيها، وبطرق نواحيها من المساوي والمقابح. فلان لسائه مِقْرَاضٌ للأعراض، لا يأكل خَبْرَه إلا بلحوم الناس، هو غرضٌ يرشِّق بسهام الغيبة، وعلم يقصد بالوقية، قد تناولته الألسن العاذلة، وتناقلت حديثه الأندية الحافلة. قد لزمه عار لا يُمَحَى رَسْمُه، ولزمه شنار لا يزولُ وَسْمُه، فأصبح تَقَلَّ كلُّ لسان، وصُحِّكَة كل إنسان، وصار دولة الألسن، ومُتَلِّة الأعين. وقد عرَّض عرضه غرضاً لسهام الغائبين، وألسنة القاذفين، وقلد نفسه عظيم العار والشنار، والسببة الخالدة على الليل والنهار. قد أسكرته حَمرة الكبر، واستغرقته عُرة التَّيه، كأن كسرى حامل غاشيته، وقارون وكيل نفقته، وبلقيس إحدَى داياته، وكأن يوسف لم ينظر إلا بطلعته، وداود لم ينطق إلا بنغمته، ولقمان لم يتكلم إلا بحكمته، والشمس لم تطلع إلا من جبينه، والغمام لم يندد إلا من يمينه، وكأنه امتطى السُّماكين، وانتعل الفرقدين، وتناول التَّيرين بيدين، وملك الخافقين، واستعبد الثقلين وكان الخضراء له عرشت، والغبراء باسمه فرشت.

فلان له من الطاووس رَجُلُه، ومن الوَرْدِ شَوْكُه، ومن الماء رَبْدُه، ومن النار دخانها، ومن الخمر حُمَارها، قد هبَّت سماءُ نمائمها، ودبَّت مكابد عِقَارِبه، والنمام يضرب بسَيْفٍ كليل إلا أنه يقطع، ويضرب بعضد واهن إلا أنه يوجع. هو تمثالُ الجبن، وصورة الخوف، ومقرُّ الرعب؛ فلو سُمِّيت له الشجاعة لخافَ لَفْظُهَا قبل معناها، وذكرها قبل فحواها، وفرع من اسمها دون مسماها، فهو يهلك من تخوفه أضغاث أحلام، فكيف بمسموع الكلام؟ إذا ذكرت السيوف لمس رأسه هل ذهب، ومس جبينه هل نُقِب؟ كأنه أسلم في كتاب الجُبْنِ صبيًّا، ولقن كتاب الفشل أعجمياً. وَعَدُّهُ بَرِّقُ خلب، وروغان ثعلب. عَيْمٌ وعده جهام، وحَدُّ سَيْفه كَهَام. حصلت منه على مواعيد عرقوبية، وأحزان يعقوبية، قد حرمني ثَمَرِ الوعد، وجزني على شَوْكِ المطلق. فتني له وعدُّ أجد من البرقِ الخلب خلقاً، وقد تناول من العارض الجَهَامَ طبعاً، وتركني أرعى رياضَ رجاء لا يُنبِت، وأجني ثمارَ أمل لا يُورق؛ فأنا في ضمان الانتظار، وإسارِ عِدَّةِ ضِمَار. هو يرسل بَرِّقَه، ولا يسيل ودَّقه، ويقدم رَعْدَه، فلا يمطر بعده. وَعَدُّهُ الرَّم على بساط الهواء، والخط في بساط الماء.

حلَّ هذا من قول أبي الفضل بن العميد: الكامل:

لا أستفيقُ من الغرام، ولا  
خلواً من الأشجان والبُرْحَاء

أرى  
وصروفُ أيامَ أقمَنَ قيامتي  
وجفاءِ خلٍّ كنتُ أحسبُ أنه  
تَبَّتْ العزيمةُ في العقوقِ،  
وودُّهُ  
بِنَوَى الخليطِ وفُرْقَةِ القُرَنَاءِ  
عَوْنِي على السراءِ والضراءِ  
متنقلُ كتنقلِ الأحياءِ  
كالخطِّ يُرْسَمُ في بسيطِ  
الماءِ  
ذي خلة يأتيك أثبتُ عهده

أردت هذا البيت.  
هو صخرة حَلَقَاءِ، لا يستجيبُ للمرْتَقَى، وحيّة صماء لا تسمع للرُّقَى، كَأَنِّي أُسْتَنْفِرُ بِالجَوِّ رَعْدًا، وَأَهْزُ مِنْهُ بالدعاء طودًا، هو ثابت العطف نأبي العطف، عاجز القوة، قاصر المُنَّةِ، يتعلّق بأذنان المعاذير، ويحيل على ذنوب المقادير. هو كالنعامة تكونُ جَمَلًا إذا قيلَ لها طيرِي، وطائرًا إذا قيلَ لها سيري. يفاض له بذل، ولا يفوّض إليه شغل، ويملاً له وَطْب، ولا يُدْفَعُ به حَظْب، قد وفرَّ هَمَّهُ على مطعمِ جَوْدِهِ، ومَلَبَسَ جَوْدَهُ، ومَرَقَدَ يمهده، وبنيان يشيده.  
هذا كقول الحطيئة: البسيط:

دَعِ المكارِمَ لا ترحلْ لِبُعَيْتِهَا  
واقعدْ فإنك أنتَ الطاعِمُ  
الكاسي

قَلْبٌ تَغْلُ، وَصَدْرٌ دِغْلٌ، وطولَةٌ معلولة، وعقيدة مَدْحُولَةٌ، صَفْوُهُ رنق، وبره مَلَقٌ، قد مُلئ قلبه رَيْنًا، وشُجِنَ صدره مَيْنًا يَدَّعِي الفضلَ وهو فيه دَعِيٌّ، دأبه بث الخدائع، والنَفْتُ في عُقد المكايد، ضميرُه حُبْتُ، ويمينه حِنْتُ، وعهده نكث. هو سحابة صَيْفٍ، وطارقُ صَيْفٍ، قوته غنيمَةٌ، والظفر به هزيمة. هو العَوْدُ المركوب، والوَتْرُ المَضْرُوب، يطوُّهُ الخَفُّ والحافِرُ، ويستصَيِّمُهُ الوارِدُ والصادر. يغمض عن الذكر ويصُعُرُ عن الفكر. ذأته لا يوسِّمُ أغفالهَا، وصفته لا تنفرج أقفالهَا. هو أقل من تينة في لينة، ومن قلامه في قمامة. وهو بيدق الشطرَج في القيمة والقامة، جهله كثيف، وعقله سخيْف، لا يستترُّ من العقل بسيفٍ، ولا يشتمل إلا على سَخَف. يمدُّ يدَ الجنون فيعزُّك بها أدنَ الحزْم، ويفتح جِرَاب السخف فيصقَع به قفا العقل. لا تزال الأخبارُ تورد سفائح جهله وحُرْقَه، والأنباءُ تنقلُ نتائج سُخْفِه وحُمقِه، قد ظل يتعثَّرُ في فضولِ جهله، ويتساقط في ذيولِ عقله. هو سمينُ المالِ مهزول النوال. تَرَوَّة في الثريا وهَمَّة في الثرى.  
وجهه كهولِ المطلع، وزوالِ التَّعمَّة، وقضاءِ السوءِ وموتِ الفجاءة. هو قَدَى العين، وشَجَى الصدر، وأذَى القلب، وحُمَى الروح، ووجهه كآخر الصكِّ، وظلم الشكِّ، كأنَّ النَحسَ يطلع من جبينه، والخل يقطر من وجنته. وجهه طلعة الهَجْر، ولفظه قطع الصخر. وجهه كحضور الغريم، ووصول الرقيب، وكتاب العزل، وفراق الحبيب. له من الدينار نصرتَه، ومن الوزدِ صُفْرَتُهُ، ومن السحابِ ظلمتُهُ، ومن الأسدِ نكهته. وهو عصارَةٌ لؤم في قرارة خبث. ألام مهجة في أسقط جثة. حديث النعمة، خبيث الطعمة، خبيث المركب، لئيم المنتسب، يكاد من لؤمه يعدي من جلس إلى جنبه، أو تسمَّى باسمه. قد أَرْضَع بلبان اللؤم، ورُبِّي في حجر الشؤم، وطم عن ثدي الخير، ونشأ في عرصة الخبث، وطلق الكرم ثلاثًا لم ينطق فيه استثناءً، وأعتق المجد بتاتا لم يستوجب عليه ولاء. هو حمائرُ مبطن بثور مفروز بتيس، مطرز بطرر، أتى من اللءم بنادر، لم تهتد له قصة مادر. هو قصير الشبر، صغير القدر، ضيق

الصدر، رد إلى قيمة مثله في خبث أصله، وفرط جهله، لا أمس ليومه، ولا قديم لقومه، سائله محروم، وماله مكتوم، لا يحين إنفاقه، ولا يحل خناقه، خيره كالعنقاء تسمع بها ولا ترى. خبزه في حلق، وإدامه في شاهق، غناه فقر، ومطبخه قفر، يملأ بطنه والجار جائع، ويحفظ ماله والعرض ضائع، قد أطاع سلطان البخل، وانخرط كيف شاء في سلكه. هو ممن لا يبضُّ حجره، ولا يثمر شجره، سكيت الحلبة، وساقه الكتبية، وآخر الجريدة. لعنة العائب، وعرضة الشاهد والغائب. هو عيبة العيوب، وذنوب الذنوب. وقال أبو الفضل الميكالي: الرجز:

وطلعةٍ بقبحها قد شُهرتْ      تحكي زوالَ نعمةٍ ما  
شكرتْ  
كأنها عن لحمها قد قشرتْ      أقيحُ بها صحيفةً قد نشرتْ  
يلعنها ما قد قدّمتْ  
حُشِرَتْ      وأحْرَتْ  
صاحِبُها ذو عورةٍ لو سترتْ      إن سار يوماً فالجبال  
سُيِّرَتْ  
أورامَ أكلاً فالجحيم  
سُعِّرَتْ

ويختص بهذه الأنواع رسالة بديع الزمان إلى القاضي علي بن أحمد يشكو أبا بكر الحيري القاضي ويذمه - وقد أطلت عنان الاختيار فيها لصحة مبانيها، وارتباط ألفاظها بمعانيها:

الظُّلّامة - أطال الله بقاء القاضي - إذا أتت من مجلس القضاء، لم ترق إلا إلى سيد القضاة. وما كنت لأقصر سيادته على الحكام، دون سائر الأنام، لولا اتصالهم بسببه، واتسامهم بلقبه، وهبهم مطلقين على قسمه، مغيرين على اسمه، ألهم في الصحة أديم كاديمه، أو قديم في الشرف كقديمه، أو حديث في الكرم كطريفه؟ فهنيئاً لهم الأسماء، وله المعاني، ولا زالت لهم الظواهر، وله الجواهر. ولا غزو أن يسموا قضاة، فما كل مائع ماء، ولا كل سقف سماء، ولا كل سيرة عدل العمرين، ولا كل قاض قاضي الحرمين، ويا لثارات القضاء! ما أرخص ما بيع، وأسرع ما أضيع! والسنة الإنذار، قيل خلو الديار، وموت الخيار، ألا يغار لحلى الحسناء، على السواد، ومركب أولي السياسة، تحت الساسة، ومجلس الأنبياء، من تصدر الأغبياء، وحمى البزاة من صيد البغاث، ومرتع الذكور من تسلط الإناث؟ ويا للرجال، وأين الرجال! ولي القضاء من لا يملك من آتاه غير السبّال، ولا يعرف من أدواته غير الاعتزال، ولا يتوجه في أحكامه إلا إلى الاستحلال، ولا يرى التفرقة إلا في العيال ولا يحسن من الفقه غير جمع المال، ولا يتقن من الفرائض إلا قاة الاحتفال، وكثرة الافتعال، ولا يدرس من أبواب الجدال إلا قبيح الفعال، وزور المقال، ذاك أبو بكر القاضي، أضاعه الله كما أضاع أماتته، وخان خزائنه، ولا حاطه من قاض في صولة جندي، وسبلة كردي... إلى أن قال: أيكفي أن يصيح المرء بين الزق والعود، ويمسي بين موجبات الحدود، حتى يكمل شبابه، وتشيب أترابه. ثم يلبس دنته، ليخلع دينته، ويسوي طيلسانه، ليحرف يده ولسانه، ويقصر سباله، ليطيل حباله، ويظهر

شقاشقه، ليستر مخارقه، ويبيض لحيته، ليسود صحيفته، ويبدي رعه، ليخفي طمعه، ويغشى محرابه، ليملأ جرابه، ويكثر دعاؤه، ليحشو وعاءه، ثم يخدم بالنهار أمعاؤه، ويعالج بالليل وجعائه، ويرجو أن يخرج من بين هذه الأحوال عالماً، ويقعد حاكماً؟ هذا إذا المجد كآلوه بقفزان وباعوه في سوق الخسران! هيهات حتى ينسى الشهوات، ويحسب الفلوات، ويعتصد المحابر، ويحتصن الدفاتر، وينتج الخواطر، ويحالف الأسفار، ويعتاد القفار، ويصل الليلة باليوم، ويعتاض السهر من النوم، ويحمل على الروح، ويجني على العين، وينفق من العيش، ويخزن في القلب، ولا يستريح من النظر إلا إلى التحديق، ولا من التحقيق إلا إلى التعليق، وحامل هذه الكلف إن أخطأه رائدُ التوفيق، فقد ضلَّ سواء الطريق، وهذا الجيرِيُّ رجل قد شغله طلبُ الرياسة عن تحصيل آلتها، وأعجله حصولُ الأمانة عن تحمل أدواتها: مجزوء كامل:

والكلبُ أحسن حالةً      وهُوَ النهاية في الخساسة

ممن تصدَّى للربا      سة قبل إبان الرياسة

فولي المظالم وهو لا يعرف أسرارها، وحمل الأمانة وهو لا يدري مقدارها؛ والأمانة عند الفاسق خفيفة المحمل على العائق، تُشفق منها الجبال، ويحملها الجهال، وقعد مفعد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بين حديثه يُروى، وكتاب الله يُتلى، وبين البينة والدعوى، فقبَّحه الله تعالى من حاكم لا شاهد عنده أعدل من السئلة والجام، يُدلى بهما إلي حكام، ولا مزكى أصدق لديه من الصُفر، ترقص على الطفر، ولا وثيقة أحب إليه من غمزات الخصوم، على الكيس المختوم، ولا كفيل أوقع بوقاقه من خبيثة الذيل، وحمال الليل، ولا وكيل أعز عليه من المنديل والطبق، في وقت العسق والفلق، ولا حكومة أبغض إليه من حكومة المجلس، ولا خصومة أوحش لديه من خصومة المُفليس، ثم الويل للفقير إذا ظلم، فيما يغنيه موقف الحكم إلا بالقتل من الظلم، ولا يجيره مجلس القضاء بالنار من الرمضاء. وأقسم لو أن اليتيم وقف بين أنياب الأسود، بل الحيات السود، لكانت سلامته منهما أرجى من سلامته إذا وقع من هذا القاضي بين عقاربه وأقاربه؛ وما ظنُّ القاضي بقوم يحملون الأمانة على مُئونهم، ويكألون النار في بطونهم، حتى تغلظ قصراتهم من مال اليتامى، وتسمن أكفالهم من مال الأيتام، وما رآه في دار، عمارتها خرابُ الدور، وعُطلة القدور، وخلاء البيوت، من الكسوة والقوت، وما قوله في رجل يُعادي الله في القلس، ويبعُ الدين بالثمن البخس، وفي حاكم يبُرز في ظاهر أهل السميت، وباطن أصحاب السبيت، فعُله الظلمُ البخت، وأكله الحرام السُّخت. وما قوله في سوس لا يقع إلا على صوف الأيتام؛ وجرادٍ لا يقع إلا على الزرع الحرام، ولص لا ينقب إلا خزانة الأوقاف، وكردى لا يُغير إلا على الضعاف، وليث لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود، وخارب لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود. وذكر في هذه الرسالة فصلاً في ذكر العلم - وهو مستطرف البلاغة، مستعذب البراعة - قال: والعلم - أطال الله بقاء القاضي - شيء كما تعرفه، بعيد المرام، لا يُصاَدُ بالسهام، ولا يُقسَمُ بالأزلام؛ ولا يُرى في المنام ولا يُصَبَطُ باللجام، ولا يُورث عن الأعمام ولا يكتب للنائم، ورزق لا يزكو حتى يصادف من الحزم تزي طيباً، ومن التوفيق مطراً صيباً؛ ومن الطبع جواً صافياً، ومن الجهد روحاً دائماً، ومن الصبر سقياً نافعاً، والعلم علق لا يباع

ممن زاد، وصَيِّدٌ لا يَأْلَفُ الأَوْعَادُ، وشيئٌ لا يُدْرِكُ إلا بنزع الروح، وَعَوْنُ  
الملائكةِ والروح، وَعَرَضٌ لا يَصَابُ إلا بافتراش المدر، واثساد الحجر، وورد  
الضجر، وركوب الخطر، وإدمان السهر، واصطحاب السفر، وكثرة النظر،  
وإعمال الفكر، ثم هو معتاص إلا على من زكا زرعُه، وخلا ذرعُه، وكرم أصله  
وقرعه، ووَعَى بصره وسمعُه، وصفا ذهنه وطبعُه، فكيف يناله من أنفق  
صَبَاهُ على القَحْشَاءِ؛ وشبابه على الأحشاء، وشغل نهاره بالجمع، وليله  
بالجماع، وقطع. سَلَوْتَهُ بالغنى، وخالوته بالغناء، وأفرغ جِدَّهُ على الكيس،  
وهزله في الكأس؛ والعلم ثمر لا يصلح إلا للغرس، ولا يغرس إلا في النفس،  
وصيد لا يقع إلا في الندر، ولا ينشب إلا في الصدر، وطائر لا يخدعه إلا قنص  
اللفظ، ولا يعلقه إلا شَرَكُ الحفظ ولا ينشب إلا في الصدر، وبخر لا يخوضه  
الملاح، ولا تطيقه الألواح، ولا تهيجه الرياح، وجبلٌ لا يتسم إلا بخطأ الفكر،  
وسماء لا يصعد إلا بمِعْرَاجِ الفهم، وتخمٌ لا يلمس إلا بيدِ المجد.

ومن مفردات الأبيات

في المعايب والمقايح

قول أبي تمام: الوافر:

مَسَاوِ لو قُسيْمَنَ على  
العَوَائِي

آخر: البسيط:

لما أمهزن إلا بالطلاق

من لؤم أحسايهم أن يقتلوا  
قودا

قومٌ إذا جرَّجانٍ منهم أمئوا

البحري: الطويل:

تَبَا في يدي، وابنُ اللئيمةِ  
وَاحِدٌ

ابن الرومي في رجل يعرف بابن رمضان: الوافر:

وَبَنُو الخبيثِ الطَّيِّحِ وَهُوَ  
صَقِيلٌ

رَأَيْتُكَ تَدْعِي رمضانَ دعوى

وله في أعمى: الخفيف:

وَأَنْتَ نظيرُ يومِ الشُّكِّ فيه

كيف يَرْجُو الحياءُ منه صديقٌ

غيره: الطويل:

وَسُوءَ مُرَاعَاةٍ وما ذَاكَ في  
الكلب

هو الكلب، إلا أن فيه ملالة

آخر: الطويل:

سِوَايَ فإني في مديحك  
أَكْذُبُ

أَيَا دُلْفِي يا أَكْذَبَ الناسِ  
كَلِّهْمُ

أبو الفضل الميكالي: الطويل:

يَدَ الدَّهْرِ إلا حينَ تَضْرِبُهُ جُلْدَا

هو الشُّوكُ لا يُعْطِيكَ وافرٌ  
مِنَّةً

اللحن في الكلام

قال المأمون لبعض ولده وسجع منه لحناً: ما على أحدكم أن يتعلم العربية، فيقيم بها  
أودّه، ويزين بها مشهده، ويفلح حجج خصمه، بمس كتاب حكمه، ويمليك مجلس  
سلطانه، بظاهر بيانه؛ ليس لأحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده أو أمته، فلا يزال  
الدهر أسير كلمته.

وقال رجل للحسن البصري: يا أبو سعيد، قال: كَسَبُ الدراهم شغلك أن تقول يا أبا  
سعيد، ثم قال: تعلموا العلم للأدبان، والنحو للسان، والطمث للأبدان.

وكان الحسن كما قال الأعرابي وسمع كلامه: والله إنه لفصيح إذا لفظ، نصيح إذا وعظ. وقيل له: يا أبا سعيد، ما نراك تلحن، قال: سَبَقْتُ اللحن. أخذه أبو العتاهية، وقيل له: إنك تخرج في شعرك عن العَرُوض، فقال: سبقت العروض.  
وقال إسحاق بن خلف البهراني: الكامل:

النحو يصلح من لسان الأليكن  
والميرء تعظمه إذا لم يلحن  
فإذا طلبت من العلوم أجلها  
فأجلها منها مقيم الألسن

وقال علي بن بسام: الطويل:

رأيت لسان المرء رائد  
وعنوانه فانظر بماذا تُعنون  
علمه

ولا تعد إصلاح اللسان فإنه  
يُحَبَّرُ عما عنده وبين  
على أن للإعراب حداً، وربما  
سمعت من الأعراب. ما ليس  
يحسن

ولا خير في اللفظ الكريه  
استماعه  
ولا في قبيح اللحن والقصد  
أزين

وقال بعض أهل العصر، وهو أبو سعيد الرستمي: الطويل:

أفي الحق أن يُعطى ثلاثون  
ويحرم ما دون الرضا شاعر  
شاعراً  
مثلي؟

كما سامحوا عمراً بواو  
زيادة  
وَصُوِّقَ بِسْمِ اللّهِ فِي أَلْفِ  
الْوَصْلِ

أبو الفتح البستي: الطويل:

حُذِفْتُ وَغَيْرِي مَثَبَتْ فِي  
مكانه  
كأني نون الجمع حين يُضَافُ

وقال: البسيط:

أفدي الغزال الذي في التحو  
كلمني  
مُتَاطِرًا فَاجْتَبَيْتُ الشَّهَدَ مِنْ  
شَفَتِيهِ

فأورد الحج المقبول  
شاهدتها  
محققاً ليريني فصل  
معرفة

ثم اتفقت على رأي رضى  
به  
والرفع من صفتي والنصب من  
صفته

الحسن اللحام: الكامل:

أنا من وجوه النحو فيكم  
أفعل  
ومن اللغات إذا تُعدُّ المهمل

التعلق بالغلام

وقال أحمد بن يوسف:

كتب غلامٌ من ولد أنوشروان مهنٍ كان أحد غلمان الديوان، إلى آخر منهم وكان قد علق به، وكان شديد الكلف به والمحبة له: ليس من قدرِي - أدام الله سعادتك - أن أقولَ مثلك جُعِلْتُ فِدَاكَ؛ لأنِّي أراك فوقَ كلِّ قيمةٍ خطيرةٍ وثمنٍ مُعْجِزٍ، ولأنَّ نفسي لا تُساويَ نفسك، فثُقِّيلَ في فِدَيْتِكَ، وعلى كلِّ حال؛ فجعلني الله فِدَاءً ساعةٍ من أيامك، إعلَمَ أيها السيد العليُّ المنزلة، أنه لو كان لعبيدك من شدة الخطب أمرٌ يقفُ عليَّ حدّه النعت، لاجتهدنا أن يُضَعِفَ من ذلك ما عسى أن يعطف به زمام قلبك، وتحنو له

على الرقة به والتحفي أثناء جوانحك، ولكن الذي أمسيت وأصبحت ممتحناً به فيه شَسَعٌ على كل بيان، ونزح عَنْ كل لسان؛ والحب أيها المالك لم يَشْبُهُ قَدَى ربية، ولم يختلط به قلب مَعَاب، فلا ينبغي لمن كرمته أخلاقه أن يعاف مقاربة صاحبه المدل بحرمة نيته، والذي أتمناه، أيها المولى اللطيف، مجلس أقف فيه أمامك، ثم أبوح بما أضنى جسدي، وفيت كبدِي، فإن خف ذلك عليك ورأيت نشاطاً من نفسك إليه كنت كمن فك أسيراً وأبرأً عليلاً، ومن الخير سلك سبيلاً، يتوعَّزُ سلوكها على من كان قبله، ومن يكون بعده؛ ثم أضاف إلى ذلك مَنَّةً لا يُطيقها جَبَلٌ رَاس، ولا فلك دائر، فأريك أيها السيد المعتمد في الإسعاف، قيل أن يَبْدِرني الموت؛ فيحول بيني وبين ما نزعت إليه النفس مواصلاً براً إن شاء الله تعالى.

فأجابه: تولى الله تعالى ما جرى به لسانك بالمزيد، ولا أوحش ما بيننا بطائر فُرْقَةٍ، لا صافر تشئت، وضممتا وإياك في أوتق حبال الأنس، وأوكد أسباب الألقة؛ وقفت على ما لخصته من العجز عن بلوغ ما خامر قلبك، وانطوى في ضميرك، من الشغف المقلق، والهوى المضرع، ولعمري لو كَشَفْتُ لك عن مِعْشَار ما اشتمل عليه مضمير صدري لأيقنت أن الذي عندك إذا قسنته إلى ما عندي كالمتلاشي البائد، ولكنك بفضل الإنعام سَبَقْتنا إلى كَشْف ما في الضمير. وأما طاعتي لك، وذمامي إليك؟ فطاعةُ العبد المقتني، الطائع لما يحكم له وعليه مولاه ومالكه، وأنا صائر إليك وقت كذا؛ فتأهب. لذلك بأحمد عافية، وأتم عُقْدَةَ، وأسعد نجم جرى بالألفة، إن شاء الله تعالى.

وكتب بعض الكتاب: إنني لأكره أن أفديك بنفسي استحياءً من التقصير في المعاوضة، ومن التخلف في الموازنة، وعلى الأحوال كلها، فقدّم الله رُوجي عنك، وصانني عن رُؤية المكروه فيك.  
وقال المتنبي:

فِدَى لَكَ مِنْ يُقَصِّرُ عَنْ مَدَاكَ      فَلَا مَلِكُ إِذَنْ إِلَّا فِدَاكَ

وَلَوْ قُلْنَا فِدَى لَكَ مَنْ يُسَاوِي      دَعْوَتَا بِالْبَقَاءِ لَمَنْ قَلَاكَ

وَأَمَّا فِدَاكَ كُلِّ نَفْسٍ      وَإِنْ كَانَتْ لِمَمْلَكَةٍ مِلَاكَ

وقال عبيد الله بن شبيب: كتب إلي بعض إخواني من أهل البصرة كتاباً ملح فيه وأوجز، وهو: أطال الله بقاءك، كما أطال بقاءك، وجعلني فداك إن كان في فداؤك: الوافر:

كتبْتُ ولو قدرْتُ هَوَى

إليك لكنت سطرّاً في كتابي

وشوقاً

وكتب آخر إلى إبراهيم وأحمد ابني المدبر، وقد أصابتهما محنة ثم أردفتها نعمة: لو قُبلت فيكما، ودانيتُ قدریکما، لقلت: جعلني الله فداكما، ولكني لا أجزى عنكما، فلا أقبل بكما، وقد بلغتني المحنة التي لو مات إنسان عمّاً بها لكنته ثم اتصلت النعمة التي لو طار امرؤ برحابها لكنته وكتب تحته: الطويل:

وليس بتزويقي اللسان

ولكنه قد خالط اللحم والدماً

وصوغه

وكتب ابن ثوابة إلى عبيد الله بن سليمان يعتذر في ترك مكاتبته بالتفدية: الله يعلم، وكفى به عليماً، لقد وددت مكاتبتك بالتفدية فرأيت عيباً أن أفديك بنفس لا بد لها من فتاء، ولا سبيل لها إلى بقاء، ومن أظهر لك شيئاً وأضمر لك خلافه فقد غش؛ والأمر إذا كانت الضرورة تُوجب أنه مَلَقٌ لا يحق، وإعطاء لا يتحصّل، لم يجب أن يخاطب به مثلك، وإن كان عند قوم نهاية من

نهايات التعظيم، ودليلاً من دلالات الاجتهاد، وطريقاً من طرق التقرب.

قال الزبير بن أبي بكر: قال لي مسلمة بن عبد الله بن جندب الهذلي:  
خرجت أريدُ العقيق ومعِي زَبَّانُ السَّوَّاقِ؛ فلقينا نسوة فيهن امرأة لم أرَ  
أجملَ منها فأنشدت بيتين لَزَبَّانِ: الطويل:

ألا يا عبادَ الله هذا أخوكُمُ قتلُ، فهل فيكم له اليوم  
ثائرٌ؟

خذوا بدمي، إن متُّ، كلَّ مريضةٍ جفنِ العينِ والطَّرْفِ  
خريدةٍ ساجِرُ

ثم قال: شأنك بها يا ابن الكرام فالطلاق له لازم إن لم يكن دم أبيك في  
نقابها.

فأقبلت عليّ وقالت: أنت ابن جندب؟ فقلت: نعم. قالت: إن قتلنا لا يودي،  
وأسيرنا لا يفدي، فاعتنم لنفسك، واحتسب أباك.

قال أبو عبيدة: قال رجل من فزارة لرجل من بني عذرة: تعدون موتكم من  
الحب مزية، وإنما ذاك من ضعف المنة، وعجز الروية. فقال العذري: أما  
إنكم لو رأيتم المحاجر البلج، ترشق بالأعين الدعج، فوقها الحواجب الزج،  
وتحتها المباسم الفلج، والشفاه السمر، تفتت عن الثنايا الغر، كأنها برد الدر،  
لجعلتموها اللات والعزى، ورفضتم الإسلام وراء ظهر وكم.

وقال أعرابي: دخلت بغداد فرأيت فيها عيوناً دعجاً، وحواجب زجاً، يسحب  
الثياب، ويسلبن الألباب.

وذكر أعرابي نساءً فقال: طعائن في سوافهن طول، غير قبيحات العطول،  
إذا مشين أسبلن الذبول، وإن ركين أثقلن الحمل.

ووصف آخر نساءً فقال: يتلثمن على السبائك، ويتشحن على النيازك،  
ويتزرن على العواتك، ويرتفغن على الأرائك، ويتهادين على الدرانك،  
ابتسامهن وميض، عن ثغر كالإغريض، وهن إلى الصبا صور، وعن الخنا خور.

الهوى

سئل بعض الحكماء عن الهوى، فقال: هو جليس ممتع، وأليف مؤنس، أحكامه جائزة،  
ملك الأبدان وأرواحها، والقلوب وخواطرها، والعيون ونواظرها، والنفوس وآراءها،  
وأعطى زمام طاعتها، وقياد مملكتها، توارى عن الأبصار مدخله، وغمض عن القلوب  
مسلكه.

وسئلت أعرابية عن الهوى فقالت: لا متع الهوى بملكه، ولا ملّي بسلطانه، وقبض الله  
يده، وأوهن عضده؛ فإنه جائر لا ينصف في حكم، أعمى ما ينطق بعدل، ولا يقصر في  
ظلم، ولا يرعوي للوم، ولا ينقاد لحق، ولا يبقى على عقل ولا فهم، لو ملك الهوى  
وأطبع لرد الأمور على أديارها، والدنيا على أعقابها.

ووصف أعرابي الهوى فقال: هو داءٌ تدوى به النفوس الصحاح، وتسيل منه الأرواح،  
وهو سقم مكتنم، وجمر مضطرم؛ فالقلوب له منضجة، والعيون ساكنة.

قال أبو عبيد الله بن محمد بن عمران المرزباني: أخبرني المظفر بن يحيى، قال: أحبُّ  
رجلٌ امرأةً دونه في القدر، فعذله عمه، فقال: يا عمّ، لا تلم مجبراً على سقمه؛ فإن  
المقر على نفسه مستغن عن منازعة خصمه، وإنما يلام من اقتراه ما يقدر على  
تركه، وليس أمر الهوى إلى الرأي فيملكه، ولا إلى العقل فيدبره؛ بل قدرته أغلب،  
وجانبه أعز من أن تنفذ فيه حيلة حازم، أو لطف محتال.

وقال بعضهم: رأيت امرأتين من أهل المدينة تعاتب إحداهما الأخرى على هوى لها،  
فقال: إنه يقال في الحكمة الغابرة، والأمثال السائرة: لا تلومن من أساء بك الظن  
إذا جعلت نفسك هدفاً للثمة، ومن لم يكن عوناً على نفسه مع خصمه لم يكن معه  
شيء من عقدة الرأي، ومن أقدم على هوى وهو يعلم ما فيه من سوء المغبة سلط

على نفسه لسان العذل، وضع الحزم. فقالت المعذولة: ليس أمر الهوى إلى الرأي فيملكه، ولا إلى العقل فيدبره، وهو أغلب قدرة، وأمنع جانباً من أن تنفذ فيه حيلة الحازم، أو ما سمعت قول الشاعر: الخفيف:

ليس حَطْبُ الهَوَى بِحَطْبِ  
يسيرِ  
لا يَبِيكُ عنه مِثْلُ حَبِيرِ

ليس أمرُ الهوى يُدَبَّرُ بالرأى  
ي ولا بالقياس والتفكير  
إنما الأمرُ في الهوى حَطْرَاتُ  
محدثاتُ الأمورِ بَعْدَ الأمورِ؟

قال المرزباني: أخبرني الصولي أن هذه الأبيات لعلية بنت المهدي، ولها فيها وقيل لعبد الله بن المقفع: ما بال العاقل المميز الذهن، واللييب الفطن، يتعرض للحب وقد رأي منه مواضع الهلكة، ومصارع التلّف، وعلم ما يؤول إليه عُقباه، وترجع به أخراه على أولاه؟ فقال: زُخْرَفَ ظَاهِرُ العشق بجمال زينة يستدعي القلوب إلى ملامسته، ومُلي بعاجل حلاوة يطبي النفوس إلى ملامسته، كظاهر زخرف الدنيا، وبهاء رونقها، ولذيد جنى ثمرها، وقد سكرت أبصار قلوب أبنائها عن النظر إلى قبيح عيوب أفعالها، فهم في بلائها منغمسون، وفي هلكة فتنها متورطون، مع علمهم بسوء عواقب حطبيها، وتجرع مرارة شربها، وسرعة استرجاعها ما وهبت، وإخراجها مما ملكت، فليس ينجو منها إلا من حذرّها، ولا يهلك فيها إلا من أمّنها، وكذلك صورُ الهوى؛ هما في الفتنة سواء.

العفة

وقال ابن دُرَيْد: قال بعضُ الحكماء: أَعْلِقْ أبوابَ الشبهات بأفعال الزهادة، وافتح أبواب البر بمفاتيح العبادة فإنّ ذلك يُدِينُكَ من السعادة، وتستوجب من الله الزيادة. وقال غيره: إنّ اللذة مشوبةٌ بالقبح؛ ففكروا في انقطاع اللذة وبقاء ذكْرِ القُبْحِ. قال أبو عبد الله بن إبراهيم بن عرفة يقطوبه: الكامل:

ليس الظريفُ بكامل في  
حتى يكونَ عن الحرامِ  
ظرفه عفيفا

فإذا تعفّفَ عن محارمِ رَبِّهِ  
فهناك يُدْعَى في الأنامِ  
ظريفا

وقال: البسيط:

كم قد ظفرتُ بمن أهوى  
فيمتّعني  
وكم خلوتُ بمن أهوى  
فيُقِنّني  
أهوى الملاحِ وأهوى أن  
أجالسهم  
كذلك الحبُّ لا إتيانُ معصيةٍ  
سَقَر

وقال العباس بن الأحنف: البسيط:

أتأذنون لصبِّ في زيارتكم  
لا يبصر السوءَ إن طالَتْ  
فَعندكم شهواتُ السَّمْعِ  
والبَصْرِ  
عفّ الضمير ولكن فاسق  
النظر  
إقامته

وقال بعضُ الطالبين: الطويل:

رموني وإياهم بشنعاءهم بها  
أحقُّ، أدالَ الله منهم وعجلاً

بأمر تركناه وربِّ محمدٍ  
وقال سعيد بن حميد: الخفيف:

جميعاً فإما عَقَّةٌ أو تجملاً  
مُخْطَفِ الكَشْحِ مُثْقَلِ  
الأردافِ  
قُ وأخفى الهوى وليس  
بخافي  
ث على بذله بقاء التصافي  
ه ولم يخل من لباس  
العَقَافِ

وفي الحديث الشريف: "مَنْ أَحَبَّ فَعَفَّ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ".  
والعَفَافُ مع البَدَلِ، كَالاسْتِطَاعَةِ مع الفَعْلِ، كما قال صريع الغواني: الطويل:

وما ذمِّي الأيامُ أَنْ لَسْتُ  
مادحاً  
ألا رُبُّ يومِ صادقِ العَيْشِ  
نيلتهُ

وأنشد الصولي لأبي حاتم السجستاني في المبرد، وكان يلزم حَلَقَتَهُ، وكان من المِلاح وهو غلام: مجزوء الكامل:

مَمَجَّنِ حَنِثِ الكَلَامِ  
فسمتُ له حدقُ الأثامِ  
يُجَنِّي بها تمرُّ الأثامِ  
وعزمتُ فيه على اعترامِ  
فِ وذاك أوكدُ للعَرامِ  
عباسِ جَلِّ بكِ اعتصامِ  
تَرُّ الكَرَى بادي السقامِ  
م فليس يَرَعْبُ في الحرامِ

وكان أبو حاتم يتصدق كلَّ يوم بدرهم، ويختم القرآن في كل أسبوع.

ماذا لقيتُ اليومَ من  
وقفَ الجمالِ بوجهه  
حركاته وسكونه  
فإذا خلوتُ بمثله  
لم أعُدْ أخلاقَ العَقَا  
تَفْسِي فِدَاؤِكَ يا أبا ال  
فَارْحَمِ أَخَاكَ فَإِنَّهُ  
وأبله ما دُونَ الحِرا

وذكر أنه اجتمع أبو العباس بن سُريج الشافعي، وأبو بكر بن داود العباسي، في مجلس علي بن عيسى بن الجراح الوزير، فتناظرا في الإيلاء، فقال ابن سريج: أنت بقولك: من كثرت لحظاته دامت حيسرته أبصرت منك بالكلام في الإيلاء، فقال أبو بكر: لئن قلت ذلك فإني أقول: الطويل:

أنَّه في رَوْضِ المحاسن  
مُفْلَتِي  
وأحمِلُ من ثِقَلِ الهوى ما لَو  
أنه

وأمتع نفسي أن تنال  
مُحَرَّمَا  
يُصَبُّ على الصَّخْرِ الأصمِّ  
تهدَّما

وينطق طرفي عن مترجم  
خاطري  
رأيتُ الهوى دَعْوَى من  
الناسِ كلهم

فلولا اختلاسي رَدَّهُ لتكلَّما  
فلسيتُ أرى حبًّا صحيحاً  
مسلمًا

فقال أبو العباس: بم تفتخر عليّ. وأنا لو شئت لقلت: الكامل:  
 وَمُطَاعِمٍ لِلشَّهْدِ مِنْ تَعْمَاتِهِ      قَدْ بَثُّ أَمْنَعُهُ لَدِيدَ سِنَاتِهِ  
 صَبًّا بِحُسْنِ حَدِيثِهِ وَكَلَامِهِ      وَأَكْرَرُ اللَّحْظَاتِ فِي وَجَنَاتِهِ  
 حَتَّى إِذَا مَا الصَّبْحُ لَاحَ عَمُودُهُ      وَلى بِخَاتَمِ رَبِّهِ وَبَرَائِهِ

فقال أبو بكر: أصلح الله الوزير، تحفظ عليه ما قال حتى يقيم شاهدين  
 عدلين أنه ولي بخاتم ربه فقال أبو العباس: يلزمني في هذا ما يلزمك في  
 قولك: أنزه في روض المحاسن مقلتي... البيت. فضحك الوزير، وقال: لقد  
 جمعتما طرفاً ولطفاً وفهماً وعلماً.

ألفاظ لأهل العصر

في محاسن النساء

هي روضه الحسن، وضره الشمس، وبدر الأرض. هي من وجهها في صباح شامس،  
 ومن شعرها في ليل دامس، كأنها فلقه قمر على برج فصة. بدر التم يضي تحت  
 نقابها، وعصن البان يهتز تحت ثيابها، نغرها يجمع الصرب والصرب، كأنه نثر الدر، كما  
 قال البحرني: البسيط:

إِذَا تَصَوَّنَ شُفُوفَ الرَّيْبِ      قَسَّرَنَ عَن لَوْلُؤِ الْبَحْرَيْنِ  
 أُونَةً      أَصْدَافًا

قد أثبت صدرها ثمر الشباب، خرطت لها يد الشباب حقين من عاج، كأنها البدر قرط  
 بالثرى، وينط بها عقد من الجوزاء، أعلاها كالعصن مبال، وأسفلها كالذعص مبال، لها  
 عنق كإبريق اللجين، وشرة كمدهن العاج، نطافها مجذب، وإزارها مخصب، مطلع  
 الشمس من وجهها، وثبت الدر من فيها، وملقط الورد من خدها، ومنبع السحر من  
 طرفها، ومبادئ الليل من شعرها، ومغرس العصن من قدها، ومهيل الرمل من ردفها.  
 ولهم في محاسن الغلمان والمعذرين: زاد جماله، وأقمر هلاله. ترقرق في وجهه ماء  
 الحسن، شادن فائر طرفه، ساحر لفظه. غلام تأخذه العين، ويقبله القلب، وبأخذه  
 الطرف، وترتاح إليه الروح. تكاد القلوب تأكله، والعيون تشربه، جرى ماء الشباب في  
 عوده فتمايل كالعصن، واستوفى أقسام الحسن، ولبس ديباجة الملاحة، كأن البدر قد  
 ركب أزراره، لا يشبع منه الناظر، ولا يروى منه الخاطر، كاد البدر يحكيه، والشمس  
 تشبهه ونصاهيه، صورة تجلو الأبصار، وتجل الأعمار، شادن منتقب بالدر، ومكتحل  
 بالسحر. ما هو إلا نزهة الأبصار، ومجمل الأعمار، وبدعة الأمصار، غمزات طرفه تحير  
 عن طرفه، ومنطقه ينطق عن وصفه. تخال الشمس تبرقعت غرته، والليل ناسب  
 أصداغه وطرته. الحسن ما فوق أزراره، والطيب ما تحت إزاره، شادن يصحك عن  
 الأقحوان، ويتنفس عن الريحان، كأن خده سكران من حمر طرفه، وبغداد مسروقة  
 من حسنه وطرفه، أعجمت يد الجمال نون ضدغه بحال، هذا محلول من قول ابن  
 المعتز: الوافر:

غِلَالَةَ خَدِّهِ صَبَغَتْ بَوْرِدٍ      وَنُونَ الصُّدُغِ مُعْجَمَةَ بَحَالٍ  
 عَيْنَانِ حَسَنُؤُ أَجْفَانِهِمَا السُّحْرُ،      كَأَنَّهُ قَدْ أَعَارَ الطَّبِيَّ جِيدَهُ، وَالْغُصْنَ قَدَّهُ،  
 وَالرَّاحَ رِيحَهُ، وَالْوَرْدَ خَدَّهُ، الشَّكْلَ مِنْ حَرَكَاتِهِ، وَجَمِيعُ الْحُسْنِ بَعْضُ  
 صِفَاتِهِ. قَدْ مَلَكَ أَرْمَةَ الْقُلُوبِ، وَأَظْهَرَ حَجَّةَ الذُّنُوبِ، كَأَنَّمَا وَسَمَهُ الْجَمَالُ  
 بِنَهَائِهِ، وَلِحَظَّهُ الْفَلَكَ بِعِنَايَتِهِ، فَصَاعَهُ مِنْ لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، وَخَلَاهُ بِنُجُومِهِ  
 وَأَقْمَارِهِ، وَتَقَبَّهُ بِبِدَائِعِ أَثَارِهِ، وَرَمَقَهُ بِنَوَاطِرِ سُعُودِهِ، وَجَعَلَهُ بِالْجَمَالِ أَحَدَ  
 حُدُودِهِ. وَقَدْ صَيَّغَ الْحَيَاءُ غِلَالَةَ وَجْهِهِ، وَشِيرَ لَوْلُؤَ الْعَرَقِ عَنْ وَرْدِ خَدِّهِ. تَكَادُ  
 الْأَلْحَاطُ تَسْفِكُ مِنْ خَدِّهِ دَمَ الْخَجَلِ. لَهُ طَرَّةٌ كَالْعَسْتَقِ، عَلَى عُرَّةٍ كَالْفَلْقِ.  
 جَاءَنَا فِي غِلَالَةِ تَنَمُّ عَلَى مَا يَسْتَرُهُ، وَتَجْفُو مَعَ رِقَّتِهَا عَمَّا يَظْهَرُهُ. وَجَهُ بِمَاءِ  
 الْحُسْنِ مَغْسُولٍ، وَطَرَفٍ بِمَرُودِ السُّحْرِ مَكْحُولٍ. ثَغْرُ حُمِيٍّ حِمَايَةَ الثُّغُورِ،  
 وَجُعِلَ ضَرَّةٌ لِقَلَائِدِ النُّحُورِ. السُّحْرُ فِي الْحَاطَةِ، وَالشَّهْدُ فِي الْفَاطَةِ.  
 اخْتَلَسَ قَامَةَ الْعُصْنِ، وَتَوَشَّحَ بِمَطَارِفِ الْحُسْنِ، وَحَكَى الرُّوْضَ غَبَّ الْمُزْنِ.

الأرضُ مشرقة بنور وجهه، وليل السَّرارِ في مثل شَعْرِهِ. الجنةُ مجتناةٌ من قُرْبِهِ، وماءُ الجمالِ يترقرقُ في خَدِّهِ، ومحاسنُ الربيعِ بين سَخْرِهِ وتَحْرِهِ، والقمرُ فضلةٌ من حُسْنِهِ. ما هو إلا خال في خَدِّ الطرفِ، وطِرَارٌ على علم الحُسْنِ، ووَزْدَةٌ في عُصْنِ الدهرِ، وتَفْشٌ على خاتمِ الملكِ، وشمسٌ في فَلَكَ اللطفِ. هو قَمَرٌ في التصويرِ، شمسٌ في التأثيرِ. منظرٌ يملأُ العيونَ، ويملكُ النفوسَ، زَرافينُ أصداغُه معاليقُ القلوبِ، كأنَّ صُدْغَه قرطٌ من المسكِ على عارضِ البَدْرِ. وجْهُهُ عرسٌ، وصدغُه مَأْتِمٌ، ووصله جنةٌ، وهجره جهنمٌ. أصداغُه قد اتخذتْ سَكَلَ العقاربِ، وظلمتْ ظِلْمَ الأقاربِ. إن كان عقربٌ صُدْغَه تلسعُ، فترياقُ ريقه يَنْقَعُ. كأنَّ شارِبَه زَبَبُ الخَزِّ الأخضرِ، وعِدَائُه طرازُ المسكِ والعنبرِ الإذفرِ، على الوَزْدِ الأحمرِ. إذا تكلم تكشَّفَ جِجَابُ الزمردِ والعقيقِ، عن سِمْطِ الدرِّ الأنيقِ. قد همَّ أرقمُ الشَّعْرِ على شارِبِهِ، وكاد فم الحُسْنِ يقبِّله. كأنَّ العِدَارَ ينقشُ فمَنَ وجْهَهُ، ويحرقُ فِضَّةَ خَدِّهِ. طَرَّرَ الجمالُ ديباجَ وجْهَهُ، وأبانَ عِدَائُه العَدْرَ في حُبِّهِ. لعب الربيعُ بخده، فأنبت البنفسجَ في وَرْدِهِ. لما احترقتْ فِضَّةُ خده، احترق سواد القلب من حُبِّهِ: المديد:

كيف لا يخضُرُ شارِبُهُ ومياهُ الحُسْنِ تسقيه؟

ولهم في نقيض ذلك، في ذم خروج اللحية: قد انتقب بالذَّيْجُورِ، بعد النورِ؛ فدَوْلُهُ حُسْنِهِ قد أعرضتْ أيامه، وانقرصتْ دَوْلته وأحكامه. استحال خَدُّهُ دُجًا، وزمرد خَدِّهِ سَبْجًا؛ وأخمدت نارُ حُسْنِهِ بعد الإيقادِ، ولَبِيسُ عارضه ثوبُ الجِدَادِ. دَبَلُ وَرْدُ خَدِّهِ، وتشوُّكُ زَعْفَرَانُ خطه. فارقنا حَسْفًا، ووافانا جلفًا، وفارقنا هلالًا وَعَرَآلًا، وعاد وبالًا ونكالًا. ما لي أرى الآباط جائشةً؛ والآنافُ مُعْتِيبَةٌ، والعيونُ منورةٌ، والأزرارُ مرعى، والأظفارُ حمى، واللحى لبودا، والأسنانُ حُصْرًا وَسُودًا؟.

من إنشاء بديع الزمان

وكتب إلى بديع الزمان بعضُ من عُزل عن ولاية حسنة يستمدُّ وداده ويستميل فؤاده؛ فأجابه بما نسخته: وردتْ رَفَعْتُكَ أطالَ اللهُ بقاءَكَ فأعزَّتْها طرفُ التعزُّزِ ومددتْ إليها يدَ التقرُّزِ، وجمعت عليها ذريلَ التحرُّزِ، فلم تَبْدَ على كبدِي، ولم تَحْطَ بناظري ويدي، ولقد خطبت من مَوَدَّتِي ما لم أجدك لها كَفِيًّا، وطلبت من عِشْرَتِي ما لم أرك لها رُضِيًّا؛ وقلت: هذا الذي رفع عَنَّا أجفان طَرْفِهِ، وشال بشعرات أنفه، وتاه بحُسْنِ قَدِّهِ، وزها بورْد خَدِّهِ، ولم يَسْقِنَا من تَوْبِهِ، ولم يَسْبِرْ بوضوئه، فالآنَ إِذْ نَسَخَ الدهرُ آيةَ حُسْنِهِ، وأقام مائل عُصْنِهِ، وقَلَّلَ عَرَبَ عُجْبِهِ، وكفَّ شاو زهوهِ وانتصر لنا منه بشعرات قد كسفت هلاله، وأكسفتُ باله، ومسحتُ جماله، وعَبَّرتُ حاله، وكدَّرتُ شِرْعَتَهُ، ونكَّرتُ طلعتَه، جاء يستقي من جرفنا جَرْفًا، ويغرف من طينتنا عَرْفًا، فمهلاً يا أبا الفضل مهلاً: مجزوء الكامل:

أرغبتُ فينا إذ عَلَا  
ك الشَّعْرُ في خَدِّ قَجَلٍ؟  
وخرجتُ من حدِّ الطبا  
ء وصرتُ في حدِّ الإيلِ؟  
أنشأت تطلبُ عِشْرَتِي  
عُدُّ للعداوةِ يا خجلُ

أنسيت أيامك؛ إذ تكلمنا تَرُّرًا، وتنظرنا شَرُّرًا، وتجالسُ مَنْ حضر، ونسرق إليك النظر، ونهتز لكلامك، ونهش لسلامك: الطويل:

فمن لك بالعين التي كنتُ  
إليك بها في سالفِ الدهرِ  
مرة  
أنظرُ؟

أيام كنت تتمايل، والأعضاء تتزائل، وتتغاج، والأجساد تتفالج، وتتفلت، والأكبأد تتفتت،  
وتخطر وترفل، والوَجْدُ بنا يعلو ويسفل، وتُدبر وتُقبل، فتمنى وتخيّل، وتصدّ، وتُعرض،  
فتضني وتمرض: الطويل:

وتبسم عن ألمي كأن منوراً      تخلل حرّ الرمل دعص له ندُّ  
فأقصر الآن فإنه سوق كسد، ومتاع قسد، ودولة أعرضت، وأيام انقضت: مجزوء  
المتقارب:

وعهد نفاق مَصَى      وسوق كساد نزل  
وخدّ كأن لم يكن      وخطّ كأن لم يرَل

ويوم صار أمس، وحسرة بقيت في النفس، وثغر غاص ماؤه فلا يرشف، وريق خدع فلا  
ينشف، وتمايل لا يعجب، وتئن لا يطرب، ووجه زال بهاؤه، ومُقلّة لا تجرح الحاطها،  
وشقة لا تفتن الفاطها، فحتم تدلّ، وإلام نحتمل وعلام. وأن أن تدعن الآن، وقد بلغني  
ما أنت مُتَعاطيه من تمويه يجوز بعد العشاء في العتيق، وتشبيه يفتضح عند ذوي  
البصر والصدق؛ من إفنائك لتلك الشعرات حفاً وحصاً، وإفنائك عليه نقصاً وقصاً.  
وسيكفينا الدهر مؤونة الإنكار عليك، بما يرف من بنات الشعر وأمهاة إليك؛ فأمأ ما  
استأذنت فيه رأيي من الاختلاف إلى مجلسي فما أقلّ إليك نشاطي؛ وأضيق عنك  
بساطي، وأشنع قلقي منك، وأشدّ استغناي عن حضورك، فإن حضرت فأنت داء  
تروض عليه الحلم، وتتعلم به الصبر، وتتكلف فيه الاحتمال، وتُعصي منه الجفن على  
قذّي، وتطوي منه الصدر على أذّي، ونجعله للقلوب تائباً، وللعيون تاديباً. وما لك إلا أن  
تعتاض من الرغبة عتاً رغبةً فينا. ومن ذلك التدلل علينا تذلاً لنا، ومن ذلك التعالّي  
تَبصيصاً، ومن ذلك التعالّي ترخّصاً، وما بال الدهر أعقبك من التزايد تنقصاً، ومن  
التسحب على الإخوان تقمّصاً، ولئن اعتصت من الذهب رجوعاً، لقد اعتصنا من النزاع  
تزوياً، فإنا برحلك وجانبك، ملقى حبلك على غاربك، لا أوثر قُربك، ولا أئده سيرك،  
والسلام.

ومن إنشاء بديع الزمان في مقامات الإسكندري، ولعل ما فيها من الطول غير مملول.  
قال: حدثنا عيسى بن هشام قال: كان يبلغني من مقامات الإسكندري ما يُصغي له  
التفور، ويتنفص له العصفور، ويروى لي من شعره ما يمتزج بأجزاء الهواء رقة،  
ويغمض عن أوهام الكهنة دقة، وأنا أسأل الله بقاءه، حتى أزرق لقاءه، وأتعجب من  
قعود همته بحالته، مع حُسن آتته، وقد ضرب الدهر شؤونه أسداداً وهلم جراً. إلي أن  
اتفقت لي حاجة بحمص، فشخّذت إليها الحرص، في ضحّة أفراد كنجوم الليل، أخلاس  
لظهور الخيل، فأخذنا الطريق تنهّب مسافته، ونستأصل شأفته، ولم نزل تُفري أسنمة  
التجّاد بتلك الجياد، حتى صرن كالعصي، ورجعن كالقسي، وتآخ لنا وإد في سفح جبل،  
ذي الآء وأثل، كالعداري يُسترحن الضفائر، ويُسترن الغدائر، فقالت الهاجرة بنا إليها،  
فنزلنا نُغور ونُغور، وربطنا الأفراس بالأمراس، وملنا مع الثعاس، فما راعنا إلا صهيل  
الخيول، ونظرت إلى قرسي وقد أزهفت أذنيه، وطمخ بعينيه، بجذ قويّ الحبل بمشافره،  
ويخدّ حدّ الأرض بحوافره، ثم اضطربت الخيل، فأرسلت الأبوال، وقطعت الحبال،  
وصار كل منا إلى سلاحه، فإذا الأسد في قروّة الموت، قد طلع من غابه، منتفخاً في  
إهابه، كاشراً عن أنيابه، بطرف قد ملئ صلفاً، وأنف قد حشي أنفاً، وصدر لا يبرحه  
القلب، ولا يسكنه الرعب، فقلنا: خطب والله ملم، وحادث مهم، وتبادرنا إليه من  
سرعان الرُفقة فتى: الرمل:

أخضر الجلد من بيت      يملأ الدلو إلى عقد الكرب  
العرب

بقلب ساقه قدر، وسيف كله أثر، فملكته سورة الأسد، فخانتته أرض  
قدمه، حتى سقط ليدته وفمه، وتجاوز الأسد مضرعه، إلى من كان معه،  
ودعا الحين أخاه، إلى مثل. ما دعاه، فسار إليه، وعقل الرعب يديه، فأخذ  
أرضه واقترس الليث صدره، ولكن شغلته بعمامتي فمه، حتى حقنت دمه،  
وقام الفتى فوجاً بطنه حتى هلك من خوفه، والأسد بالوجاة في جوفه،

ونهضنا على أثر الخيل، فتألفنا منها ما ثبت، وتركنا ما أفلت، وعدنا إلى الرفيق لنجهزه: الطويل:

فلما حَتَوْنَا التَّربَ فَوْقَ  
رَفِيقِنَا  
جَزَعْنَا وَلَكِنْ أَيْ سَاعَةَ مَجْرَعِ

وعدنا إلى الفلاة، فهبطنا أرضها، وسرنا حتى إذا ضمرت المزاد، ونفد الزاد، أو كاد يدركه النفاذ، ولم نملك الذهاب ولا الرجوع، وخفنا القاتلين الظماً والجوع، عن لنا فارس فصمنا صمده، وقصدنا قصده، ولما بلغنا نزل عن حاذ فرسه ينقش الأرض بشفتيه، ويلقي التراب بيديه، وعمدني من بين الجماعة، فقبل ركابي، وتحزمت بثيابي، ونظرته فإذا وجه يبرق برق العارض المتهلل، وفرس متى ما ترق العين فيه تسهل، وعارض قد اخضر، وشارب قد طرا، وساعد ملان، وقضيب ريان، ونجار تركي، وزبي ملكي، فقلت: ما جاء بك؟ لا أبالك! فقال: أنا عبد بعض الملوك، هم من قتلي بهم، فهمت على وجهي إلى حيث تراني، وشهدت شواهد حاله، على صدق مقاله، ثم قال: أنا اليوم عبدك، ومالي مالك، فقلت: بشرى لك وبك، أذاك سيرك إلى فناء رخب، وعيش رطب، وهنأني الجماعة، بحسب الاستطاعة، وجعل ينظر فتقتلنا الحاطه، وينطق فتفتننا أفاضه، والنفس تناجيني فيه بالمحطور، والشيطان من وراء الغرور، فقال: يا سادة، إن في سفح هذا الجبل عينا، وقد ركبتم فلاة عوراء، فخذوا من هنالك الماء، فلوينا الأعنة، إلى حيث أشار، وبلغناه وقد صهرت الهاجرة الأبدان، وركبت الجنادب العيدان، فقال: ألا تقولون في هذا الظل الرخب، علي هذا الماء العذب؟ فقلنا: أنت وذاك، فنزل عن فرسه، ونحى منطقتة، وحل فرطقتة، فما استتر عنا إلا بغلاة تنم، على بدنه، فما شككنا أنه خاصم الولدان، ففارق الجنان، وهرب من رضوان، وعمد إلى السروج فحطها، وإلى الأفراس فحشها، وإلى الأمكنة ففرشها، وقد حارت البصائر فيه، ووقعت الأبصار عليه، ووتد كل منا شبقا، وخنث اللفظ ملقا. وقلت: يا فتى، ما أطفك في الخدمة! وأحسبك في الجملة! فالويل لمن فارقتة، وطوبى لمن راققتة، فكيف نشكر الله على النعمة بك؟! فقال: ما سترونه أكثر، أتعجبكم خفتي في الخدمة، فكيف لو رأيتموني في الرفقة؟ أريكم من جذفي طرفا، لئزادوا بي شعفا؟ فقلنا: هات، فعمد إلى قوس أحدا فأوتره؛ وفوق بيتهما فرماه في السماء، وأبعه بأخر فشقه في الهواء، وقال: سأريكم نوعا آخر، ثم عمد إلى كنانتي فأخذها، وإلى فرسي فعلاه، ورمى أحدا بسهم أثبته في صدره، وآخر طيره من ظهره، فقلت: وبحك! ما تصنع؟ قال: اسكت يا لكع، والله ليشدن كل منكم يد رفيقه، أو لأغصنه بريقه، فلم تدر ما نصنع، وأفراسنا مربوطة، وسرورنا محطوطة، وأسلحتنا بعيدة، وهو راكب ونحن رجالة، والقوس في يده يرشق بها الظهور، وبمشق بها البطون والصدور، وحين رأينا منه الجدد، أخذنا القدد، فشدد بعضنا بعضا، وبقيت وحدي لا أجد من يشدني، فقال: اخرج بإهابك، عن ثيابك، ثم نزل عن فرسه، وجعل يصفع الواحد منا بعد الآخر، ويقول: أقمت قضيبك، فخذ نصيبك، ونزع ثيابه، وصار إلي وعلي حقان جديدان فقال: اخلعهما لا أم لك، فقلت: هذا خف لبسته رطبا، فليس يمكنني خلعه فقال: علي نزع، ثم دنا لينزع الحف، ومددت يدي إلى سكين فيه وهو مشغول، فأثبته في بطنه، وأثبته من منيه. فما زاد علي قم فعره، وألعمه حجره، وقممت إلى أصحابي فحللت أيديهم، وتورعنا سلب المقتولين،

وَأَدْرَكْنَا الرَّفِيقَ، وَقَدْ جَادَ بِنَفْسِهِ، وَصَارَ إِلَى رَمْسِيهِ، وَصِرْنَا إِلَى الطَّرِيقِ  
فَوَرَدْنَا حِمَصَ بَعْدَ لَيْالٍ، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَى فُرْصَةٍ مِنْ سُوقِهَا رَأَيْنَا رَجُلًا قَدْ قَامَ  
عَلَى رَأْسِ ابْنِ وَبَيْتِيَّةٍ، يَجْرَابُ وَعُصَيَّةً، وَهُوَ يَقُولُ: مَجْزُوءُ الْخَفِيفِ:

رَجِمَ اللَّهُ مَنْ حَسَا  
رَجِمَ اللَّهُ مَنْ رَتَى  
فِي جِرَابِي مَكَارِمَهُ  
لِسَعِيدٍ وَقَاطِمَةَ  
وَهِيَ لَا شَكَّ خَادِمَةَ  
إِنَّهُ خَادِمٌ لَكُمْ

قال عيسى بن هشام: فقلت: إن هذا الرجل هو الإسكندري الذي سمعتُ  
به وسألتُ عنه فإذا هو هو، فدلّفتُ إليه، فقلت له: أحكمك حكمك، فقال:  
درهم، فقلت: مجزوء الكامل:

لَكَ دِرْهَمٌ فِي اثْنَيْنِ، وَفِي ثَلَاثَةٍ، وَفِي أَرْبَعَةٍ، فِي خَمْسَةٍ حَتَّى بَلَغْتَ الْعِشْرِينَ، ثُمَّ قُلْتَ:  
فَاخْسِبْ حِسَابَكَ وَالتَّمَسْ  
مَا دَامَ يُسْعِدُنِي النَّفْسُ  
كَيْمَا تَنَالَ الْمَلْتَمَسُ

لك درهم في اثنين، وفي ثلاثة، وفي أربعة، في خمسة حتى بلغت العشرين، ثم قلت:  
كم معك؟ قال: عشرون رغيفاً، فأمرتُ له بها، وقلت: لا نصره مع الخذلان، ولا حيلة  
مع الجزمان.

وقال أبو فراس الحمداني: البسيط:

سَكْرْتُ مَنْ لَحُظِهِ لَا مِنْ  
مُدَامَتِهِ  
وَمَا السُّلَافُ دَهْنِي بَلْ  
سَوَالِفُهُ  
وَمَا لِي بِالنُّومِ عَنِ عَيْنِي  
تَمَائِلُهُ  
وَمَا السُّلَافُ دَهْنِي بَلْ  
سَوَالِفُهُ

أَلْوَى بَصِيرِي أَضْدَاعُ لُوبِنَ لَهُ  
وقال ابن المعتز، وقد تقدم عنه في هذه الألفاظ: الوافر:

وَيَوْمَ فَاخْتِي الدَّجَنُ مُرْخٌ  
أَبْحَثُ سُرُورَهُ وَظَلَلْتُ فِيهِ  
وَسَاقٍ يَجْعَلُ الْمَنْدِيلَ مِنْهُ  
غَلَالَةَ حَدِّهِ صَبَعْتُ بِوَرْدٍ  
بَدَا وَالصَّبِيحُ تَحْتَ اللَّيْلِ بَادٍ  
بِكَأْسٍ مِنْ زَجَاجٍ فِيهِ أَسْدٌ  
أَقُولُ وَقَدْ أَخَذْتُ الْكَاسَ مِنْهُ  
عَزَّالِيَّةٌ بَهْطَلٍ وَانْهَمَالٍ  
بِرَعْمِ الْعَاذِلَاتِ رَخِيَّ بَالٍ  
مَكَانَ حَمَائِلِ السَّيْفِ الطَّوَالِ  
وَنُونَ الصُّدُغِ مُعْجَمَةَ بِحَالٍ  
كَطِرْفٍ أَبْلَقَ مَرْخِي الْجَلَالِ  
فَرَأَيْتُ أَلْبَابُ الرِّجَالِ  
وَقَتْلِكَ السُّوءِ رَبَّاتُ الْحَجَالِ

وقد أحسن ما شاء في قوله:

فَرَأَيْتُ أَلْبَابُ الرِّجَالِ

وإن كان أصل المعنى لأبي نواس في ذكر تصاوير الكاس.  
قال الصولي: مرَّ أبو نواس بالمدائن فعدل إلي سبابط، فقال بعض أصحابه: ندخل  
إيوان كسرى، فرأينا أثراً في مكان حسن تدلُّ على اجتماع كان لقوم قبلنا، فأقمنا  
خمسة أيام نشربُ هناك، وسألنا أبا نواس صفة الحال، فقال: الطويل:

وِدَارٌ تَدَامَى عَطَلُوهَا  
وَأَدْلَجُوا  
مَسَاجِبُ مِنْ جَرِّ الرِّقَاقِ عَلَى  
الثَّرَى  
وَلَمْ أَرْ مِنْهُمْ غَيْرَ مَا شَهِدْتُ  
بِهِ  
حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي فَجَمَعْتُ  
شَمْلَهُمْ  
بِهَا أَثَرٌ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارِسُ  
وَأَصْغَاثُ رِيحَانٍ جَنِيٍّ  
وَبَابِسُ  
بِشَرْقِي سَابَاطِ الدِّيَارِ  
الْبَسَابِسِ  
وَإِنِّي عَلَى، أَمْثَالِ تَلِكِ  
لِحَابِسُ

أَقَمْنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا ثَالثًا  
وَيَوْمٌ لَهُ يَوْمُ التَّرْحُلِ  
تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي  
خَامِسُ  
عَسْجِدِيَّةِ  
حَبْنَهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ  
فَارِسُ

قَرَارُهَا كِيسَرَى وَفِي جَنَابَاتِهَا  
مَهَى تَدْرِيهَا بِالْقِسِيِّ  
الْفَوَارِسُ

فَلِلرَّاحِ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جِيُوبُهَا  
وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ  
الْقَلَانِسُ

وقال علي بن العباس النوبختي: قال لي البحتري: أتدري من أين أخذ الحسن قوله:

ولم أر منهم غير ما شهدت به؟

... البيت. فقلت: لا، قال: من قول أبي خراش: الطويل:

وَلَمْ أَدْرِ مَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ  
سِوَى أَنَّهُ قَدْ سُلِّ عَنْ مَا جِدِ  
رِدَاءُهُ  
مَخْضُ

فقلت: المعنى مختلف، فقال: أما ترى حَدْوُ الكلام واحداً، وإن اختلف المعنى؟! قال الجاحظ: نظرتا في الشعر القديم والمحدث فوجدنا المعاني تُقَلَّبُ ويؤخذ بعضها من بعض، غير قول عنترة في الأوائل: الكامل:

وَحَلَا الذَّبَابُ بِهَا يُعْتَبِي وَحَدَهُ  
عَرْدًا كَفَعَلِ الشَّارِبِ  
الْمُتَرْتِمِ

هَزِجًا يَحُكُّ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ  
قَدِحِ الْمِكَبِّ عَلَى الزِنَادِ  
الْأَجْدَمِ

وقول أبي نواس في المحدثين: الطويل:

قَرَارُهَا كِيسَرَى وَفِي جَنَابَاتِهَا  
مَهَى تَدْرِيهَا بِالْقِسِيِّ  
الْفَوَارِسُ

فَلِلرَّاحِ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جِيُوبُهَا  
وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ  
الْقَلَانِسُ

أخذه أبو العباس الناشئ فقال وولد معني زائداً: الكامل:

وَمُدَامَةً لَا يَبْتَغِي مِنْ رَبِّهِ  
أَحَدُ حَبَاهُ بِهَا لَدَيْهِ مَزِيدًا

فِي كَأْسِهَا صُورٌ تُنْظَرُ لِحُسْنِهَا  
عُرْبِيًّا بَرَزْنَ مِنَ الْخِيَامِ وَغِيدًا

وَإِذَا الْمَزَاجُ أَثَارَهَا فَتَقَسَّمَتْ  
ذَهَبًا وَدُرًّا تَوَامًا وَفَرِيدًا

فَكَأَنَّهُنَّ لِبَسَنَ ذَاكَ مَجَاسِيدًا  
وَجَعَلْنَ ذَا لِنُحُورِهِنَّ عُقُودًا

وأبيات أبي خراش، وكان خراش وعروة عَرَوَا ثَمَالَةَ فَأَسْرَوْهُمَا، وَأَخَذُوهُمَا وَهَمَّوْا بِقَتْلِهِمَا، فَنَهَاهُمُ بَنُو رِزَامٍ، وَأَبَى بَنُو هَلَالٍ إِلَّا قَتَلَهُمَا، وَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي رِزَامٍ فَأَلْقَى عَلَى خِرَاشٍ رِدَاءَهُ، وَشَغِلَ الْقَوْمَ بِقَتْلِ عُرْوَةَ، وَقَالَ الرَّجُلُ لَخِرَاشٍ: انْجُ، فَجَاءَ إِلَى أَبِيهِ، فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، وَلَا تَعْرِفُ الْعَرَبُ رَجُلًا مَدَحَ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ غَيْرُهُ: الطويل:

حَمِدْتُ إِلَهِي بَعْدَ عُرْوَةَ إِذْ  
خِرَاشُ وَبَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ  
تَجَا  
بَعْضِ

فَوَاللَّهِ لَا أَنْسَى قَتِيلًا رُزْنُهُ  
بِجَانِبِ قَوْسِي مَا مَشَيْتُ عَلَى  
الْأَرْضِ

بَلَى إِنَّهَا تَعْفُو الْكُلُومَ، وَإِنَّمَا  
تُوكَلُّ بِالْأَدْنَى وَإِنْ جَلَّ مَا  
يَمْضِي

وَلَمْ أَدْرِ مَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ  
سِوَى أَنَّهُ قَدْ سُلِّ عَنْ مَا جِدِ

رِدَاءُهُ  
وَلَمْ يَكْ مِثْلُوجِ الْفِؤَادِ مَهِيَّبًا  
وَلَكِنَّهُ قَدْ لَوَّحْتُهُ مَحَامِصَ  
كَأَنَّهُمْ يَشَبِّثُونَ بِطَائِرِ  
يُبَادِرُ قَوْتَ اللَّيْلِ فَهُوَ مُهَابِدُ  
الربيلة: الحَفْضُ والدعة، والمعابد: المجتهد  
وقال أبو خراش يرثي أخاه عروة: الطويل:  
تَقُولُ أَرَاهُ بَعْدَ غَزْوَةٍ لَاهِيَا  
فَلَا تَحْسَبِي أَنِّي تَنَاسَيْتِ  
عَهْدَهُ  
أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ قَدْ تَفَرَّقَ  
قَبْلَنَا  
وَأَنِّي إِذَا مَا الصَّبْحُ أَنْسَيْتُ  
ضَوْءَهُ  
أَبَى الصَّبْرَ أَنِي لَا أَرَاؤُ  
يَهِيْجُنِي  
مَالِكٌ وَعَقِيلُ اللَّذَانِ ذَكَرَهُمَا، تَدِيمَا جَذِيمَةَ الْأَبْرِشِ، وَكَانَا أَتْيَاهُ بَابِنِ أُخْتِهِ عَمْرُو، وَكَانَ قَدْ  
اسْتَهْوَتْهُ الْجِنُّ، فَمَنَاهُمَا فَتَمِيًّا مُنَادِمَتَهُ، وَهُمَا اللَّذَانِ عَنِي مَتَمِّمُ ابْنِ نُؤْبَرَةَ فِي مَرْتَبَةِ  
أَخِيهِ مَالِكِ: الطويل:

وَكُنَا كَتَدْمَاتِي جَذِيمَةَ حِقْبَةَ  
فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكًا  
وقول عنتره في وصف الذباب أَوْحَدَ فَرْدٍ، وَبَتِيمَ قَدًّا، وَقَدْ تَعْلَقَ ابْنُ الرُّومِيِّ بِذَيْلِهِ وَزَادَ  
مَعْنَى آخَرَ فِي قَوْلِهِ: الطويل:  
إِذَا رَنَقْتُ شَمْسُ الْأَصِيلِ  
وَنَقَصْتُ  
وَلَا حَظَّتِ النُّوَارُ وَهِيَ مَرِيضَةٌ  
كَمَا لَاحَظَتْ عُوَادَهَا عَيْنُ  
مُدْتَفِيٍّ  
وَبَيْنَ إِغْضَاءِ الْفِرَاقِ عَلَيْهِمَا  
وَقَدْ ضَرَبَتْ فِي حُضْرَةِ الرُّوضِ  
صُفْرُهُ  
وَوَلَّتْ عَيُونُ النُّورِ تَخْصَلُ  
بِالنَّدَى  
وَأَذْكِي نَسِيمَ الرُّوضِ رِبْعَانُ  
ظَلُّهُ

مَحْضُ  
أَضَاعَ الشَّبَابَ فِي الرَّبِيلَةِ  
وَالْحَفْضِ  
عَلَى أَنَّهُ ذُو مِرَّةٍ صَادِقُ  
النَّهْضِ  
خَفِيفِ الْمُنْشَاسِ عَظْمُهُ غَيْرُ ذِي  
نَحْضِ  
يَبْحَثُ الْجَنَاحَ بِالتَّبَسُّطِ  
وَالقَبْضِ  
فِي الْعَدُوِّ وَالطَّيْرَانِ.

وَذَلِكَ رُزْءٌ لَوْ عَلِمْتَ جَلِيلُ  
وَلَكِنْ صَبْرِي يَا أَمِيمَ جَمِيلُ  
خَلِيلًا صَفَاءٍ مَالِكُ وَعَقِيلُ  
يَعَاوِدُنِي قِطْعٌ عَلَيَّ ثَقِيلُ  
مَبِيئٌ لَنَا فِيمَا مَصَى وَمَقِيلُ

مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ  
يَتَصَدَّعَا  
لَطُولِ اجْتِمَاعِ لَمْ تَبِتْ لَيْلَةٌ  
مَعَا  
عَلَى الْأَفْقِ الْغَرْبِيِّ وَرَسَاً  
مُزَعَّرَعَا  
قَدْ وَضَعْتُ حَدًّا عَلَى الْأَرْضِ  
أَضْرَعَا  
تَوَجَّعَ مِنْ أَوْصَابِهِ مَا تَوَجَّعَا  
كَأَنَّهُمَا خِلَا صَفَاءِ تَوَدَّعَا  
مِنَ الشَّمْسِ فَاخْضَرَّ اخْضِرَارًا  
مَشْعَشَعَا  
كَمَا اغْرورَقَتْ عَيْنُ السَّجِيِّ  
لِتَدْمَعَا  
وَعَنَى مُعَنَى الطَّيْرِ فِيهِ مُرَجَّعَا

وَعَرَّدَ رِبْعِي الذَّبَابِ خِلالَهُ  
كَمَا حَتَّحَتِ النَّشْوَانُ صَنْجًا  
مَشْرَعًا  
فَكَانَتْ أُرَانِينَ الذَّبَابِ هُنَاكُمْ  
عَلَى شَدَوَاتِ الطَّيْرِ صَرْبًا  
مَوْعَا  
وَذَكَرَ أَبُو نَوَاسٍ مَعْتَى قَوْلَهُ فِي تِصَاوِيرِ الْكُؤُوسِ فِي مَوَاضِعٍ مِنْ شِعْرِهِ  
فَمِنْ ذَلِكَ: الطَّوِيلُ:  
بَتَيْبًا عَلَى كِشْرَى سَمَاءٍ  
مُدَامَةً  
فَلَوْ رُدَّ فِي كِشْرَى بْنِ  
سَاسَانَ رُوحُهُ  
وَأَوَّلُ هَذَا الشِّعْرِ: الطَّوِيلُ:  
لِمَنْ دِمْنٌ تَرْدَادُ طِيبِ  
نَسِيمِ  
تَجَافَى الْبَلَى عَنْهُمْ حَتَّى  
كَانَمَا  
وَهَذَا مَعْتَى مَلِيحٌ وَإِنْ أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ أَعْرَابِيٍّ: الْمَنْسُوحُ:  
شَطَطَتْ بِهِمْ عَنْكَ نِيَّةٌ قُدْفُ  
وَاسْتَوَدَعَتْ سِيرَهَا الدِّيَارَ فَمَا  
وَهَذَا صَدِّقُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ وَهَيْبٍ: الْكَامِلُ:  
طَلَّلَانَ طَالَ عَلَيْهِمَا الْأَمْدُ  
لَيْسَا الْبَلَى فَكَانَمَا وَجَدَا  
وَقَالَ الْأَخْطَلُ: الطَّوِيلُ:  
لَأَسْمَاءَ مُحْتَلًّا بِنَاطِرَةٍ  
الْيَشْرِ  
يَكَادُ مِنَ الْعِرْقَانِ يَصْحَكُ  
رَسْمُهُ  
هَذَا أَيْضًا كَقَوْلِ أَبِي صَخْرٍ الْهَذَلِيِّ: الطَّوِيلُ:  
لِلْبَلَى بَدَاتِ الْجَيْشِ دَائِرُ  
عَرَفْتُهَا  
كَأَنَّهُمَا مِ الْآنَ لَمْ يَتَعَيَّرَا  
وَقَدْ قَالَ مُرَّاحِمُ الْقَيْلِيِّ: الطَّوِيلُ:  
تَرَاهَا عَلَى طَوْلِ الْقَوَاءِ  
جَدِيدَةً  
وَقَرَأَ الزَّبِيرُ بْنُ بَكَارٍ أَخْبَارَ أَبِي السَّائِبِ! الْمَخْزُومِيٍّ، فَلَمَّا بَلَغَ إِلَى قَوْلِ مَالِكِ بْنِ أَسْمَاءِ  
الْفَزَارِيِّ: الْكَامِلُ:  
بَكَتِ الدِّيَارُ لِقَدْرِ سَاكِنِهَا  
هَذَا الْبَيْتُ نَظِيرُ قَوْلِ ابْنِ وَهَيْبٍ: الْكَامِلُ:  
بَيْنَا هُمْ سَكَنَ بِحَيْرَتِهِمْ  
فَظَلَلَتْ ذَا وَلَهُ يَعَاتِبُنِي

وإن أبا السائب قال عند سماع البيت الأوسط: ما أسرع هذا! أما اقدموا ركاباً؟ أما ودّعوا صديقاً؟ فقال الزبير: رحم الله أبا السائب فكيف لو سمع قول العباس بن الأحنف: الخفيف:

يسألونا عن حالنا كيف  
أننم

ما أنحنأ حتى ارتحلنا فما فرّقن بين  
النزول والإرتجال؟

هكذا رواه الزبير بن بكار لمالك بن أسماء، ورواها غيره لأيوب بن شبيب الباهلي.

ومن ألقاظ أهل العصر

في صفة الديار الخالية

دار لبست البلى، وتعطلت من الخلى. دار قد صارت من أهلها خالية، بعد ما كاتت بهم خالية. دار قد أنقد البين سكايتها، وأقعد حيطانها، شاهد اليأس منها ينطق، وخبيل الرجاء فيها يقصر كأن غفرانها يطوى وخرابها ينشر، أركانها قيام وعود، وحيطانها ركع وهجود.

يشبه الأول من قول مالك بن أسماء قول مزاحم العقيلي: الطويل:

بكت دأرهم من فقدهم  
دموعي، فأبي الجارعين  
فتهلكت  
ألموم؟

أمستعبر يبكي على الهون  
والبلى

أبو الطيب المتنبي: الكامل:

لك يا منازل في القلوب  
أفقرت أنت وهن منك أو أهل

منازل  
يعلّمن ذاك، وما علمت،  
وإنما

وقال علي بن جبلة، في معنى قول العباس

كيف يخفي الليل بدرأ طلعا  
زائر تم عليه حسنه

خائفا من كل أمر جزعا  
بأبي من زارني مكتما

ورعى الحارس حتى هجعا  
رصد العفلة حتى أمكنت

ثم ما سلم حتى ودعا  
ركب الأهوال في زورته

وقال الحسين بن الضحاك: الرمل:

فتنفست عليه الصعدا  
بأبي زور تلفت له

إذا تقطعت عليه كمدا  
بينما أضحك مسرورا به

أبو الطيب المتنبي: الخفيف:

وقصى الله بعد ذاك اجتماعا  
بأبي من ودوته فافترقنا

كان تسليمه علي الودعا  
فافترقنا حولا، فلما اجتمعنا

وقال أبو الحسن جحظة: قال لي خالد الكاتب: دخلت يوماً بعض الديارات فإذا أنا بشاب موق في صقاد حسن الوجه؛ فسلمت عليه، فرد عليّ، وقال: من أنت؟ قلت: خالد بن يزيد، فقال: صاحب المقطعات الرقيقة. قلت: نعم! فقال: إن رأيت أن تفرج عني بعض ما تنشدني من شعرك فأفعل، فأنشدته: المتقارب:

ترسفت من شفتيها عقارا  
وقبلت من حدها جليارا

وعانقت منها كتيبا مهيلاً  
وعصنا رطيباً وبدرأ أنارا

وأبصرت من ثورها في  
لكل مكان بليل نهارا

الظلام

فقال: أحسنت لا يفُضُّ اللهُ فاك، ثم قال: أجز لي هذين البيتين: الخفيف:  
 رَبِّ لَيْلٍ أَمَدًا مِنْ تَقَسُّ الْعَا وَجِدِيثٍ أَلَدٍّ مِنْ تَطَّرِ الْوَا  
 شَيْقُ طُولًا قَطَعْتُهُ بَانْتِحَابٍ مَقِ بَدَلْتُهُ بِسُوءِ الْعِتَابِ  
 فوالله لقد أعملت فكري فما قدرت أن أجزهما. ويمكن أن يجازا بهذا البيت: الخفيف:  
 رِقْ عَوْضْتُ عَنْهُ طَوْلَ وَوَصَالٍ أَقْلٍ مِنْ لَمَحَةِ الْبَا  
 اجْتِنَابِ

أوصاف في طول الليل والسهر  
 وقال ابن الرومي في طول الليل: الخفيف:  
 رَبِّ لَيْلٍ كَأَنَّهُ الدَّهْرُ طَوْلًا قَدِ تَنَاهَى فليسر فيه مَزِيدُ  
 فِي نَجُومٍ كَأَنَّهُنَّ نَجُومِ الشَّيْبِ لَيْسَتْ تَغِيْبُ لَكِنْ تَزِيدُ

وهذا من أجود ما جاء في هذا المعنى، وقد قال بشار: الطويل:  
 لَخَدْيِكَ مِنْ كَقَيْكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ  
 تَبِيْتُ تُرَاعِي اللَّيْلَ تَرْجُو تَفَادُهُ  
 إِلَى أَنْ تَرَى وَجْهَ الصَّبَاحِ وَوَسَادُ  
 وَلَيْسَ لِلَّيْلِ الْعَاشِقِينَ تَفَادُ

وقال: الطويل:  
 خَلِيْلِي مَا بَالُ الدُّجَى لَا تَرَحَّخُ  
 أَضَلَّ النَّهَارُ الْمُسْتَنْيِرُ سَبِيلَهُ  
 وَمَا بَالُ ضَوْءِ الصَّبْحِ لَا يَتَوَضَّحُ؟  
 أَمَ الدَّهْرُ لَيْلٌ كُلُّهُ لَيْسَ يَبْرَحُ؟  
 كَأَنَّ الدُّجَى زَادَتْ وَمَا زَادَتْ الدُّجَى  
 وَقَالَ أَيْضًا: الرَّمْلُ:  
 طَالَ هَذَا اللَّيْلُ، بَلْ طَالَ السَّهْرُ  
 لَمْ يَطْلُ حَتَّى جَفَانِي شَادِرُنْ لِي فِي لَيْلِي مِنْهُ لَوْعَةٌ  
 فَكَأَنَّ الْهَمَّ شَخْصٌ مَائِلٌ وَقَالَ أَيْضًا: الْوَافِرُ:  
 كَأَنَّ فَوَادَهُ كُرَهُ تَتَرَّى يَرْوَعُهُ السَّرَاؤُ بِكُلِّ شَيْءٍ  
 كَأَنَّ جَفُونَهُ سَمِلَتْ بِشَوْكٍ أَقُولُ وَلَيْلَتِي تَزَادُ طَوْلًا:  
 جَفَتْ عَيْنِي عَنِ التَّغْمِيضِ حَتَّى  
 قِيلَ لِبِشَارٍ: مِنْ أَيْنَ سَرَقْتَ قَوْلَكَ:  
 يَرْوَعُهُ السَّرَاؤُ بِكُلِّ شَيْءٍ؟

ولقد أعرف ليلى بالقصر  
 تَأَعَّمُ الْأَطْرَافَ فَتَانُ النَّظْرُ مَلَكَتْ قَلْبِي وَسَمَّعِي وَالْبَصْرُ  
 كَلِمَا أَبْصَرَهُ النَّوْمُ تَفَرُّ وَلَكِنْ أَطَالَ اللَّيْلَ هُمْ مُبَرَّحُ  
 جِدَارِ الْبَيْتِ إِنْ نَفَعَ الْجِدَارُ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ بِهِ السَّرَاؤُ  
 فَلَيْسَ لِنَوْمِهِ فِيهَا قَرَارُ أَمَّا لِلَّيْلِ بَعْدَهُمْ نَهَارُ  
 كَأَنَّ جَفَوْتَهَا فِيهَا قِصَارُ حَتَّى

فقال: من قول أشعب الطمع، وقد قيل له: ما بلغ من طمعك؟ قال: ما رأيت اثنين  
 ينساران إلا ظننتهما يريدان أن يأمر لي بشيء. وأخذه أبو نواس فقال: الخفيف:  
 لَا تَبِيحَنَّ حُرْمَةَ الْكُتْمَانِ رَاحَةُ الْمُسْتَهَامِ فِي الْإِعْلَانِ

راق جَهْدِي فنَمَّتِ العَيْنانِ  
ن وأُحدِثَةً بكلِّ مكانِ  
قُلْتُ ما يَخْلِوانِ إِلَّا لِشَاني

قد تَسْتَرُّ بالسكوتِ  
وبالإِط  
ترَكَّنِي الوُشاة نُصَبَ  
المشيري  
ما نرى خالِيينَ في الناسِ إلا  
ومثل قول بشار:

جَفَتْ عَيْنِي عن التغميضِ .  
... البيت، وقول الآخر: المتقارب:

قصيرُ الجفونِ ولم تَقْصُرِ  
وفي الجفونِ عن الآماقِ  
تَقْصِرُ

كَانَ المَحَبُّ بطولِ الشُّهادِ  
وقد تناول هذا المعنى العتابي فأفسده وقال: البسيط:  
وَفِي المَاقِي انقباضٌ عن  
جفونهما

وقال المتنبي: الطويل:

ورُدُّوا رُقادي فَهوَ لَحْظُ  
الحبائبِ

أَعِيدوا صَباحي فَهوَ عند  
الكواكبِ

على مُقْلَةٍ من فَقدِكم في  
عَياهِبِ  
عَقَدْتُمُ أعالي كل هُدْبِ  
بحاجبِ

كَانَ نهارِي ليلَةً مُدْلَهَمَةً

بعيدةٌ ما بَيْنَ الجفونِ كأنما

وقال الشعبي: تشاجر الوليدُ بن عبد الملك ومسلمة أخوه في شعر امرئ القيس والنابغة في طول الليل، أيهما أشعر. فقال الوليد: النابغة أشعر، وقال مسلمة: بل امرؤ القيس، فرضيا بالشعبي، فأحضره، فأنشده الوليد: الطويل:

وليلِ أقاسيه بطيء  
الكواكبِ

كِلينِي لهمَّ يا أُميمةُ ناصِبِ

وليس الذي يَرَعَى النجومَ  
بأيِّبِ  
تضاعَفَ فيه الحزنُ من كل  
جانِبِ

تطاول حتى قلتُ ليس  
بمُنْقَضِ  
وصَدْرٍ أَرَّاحَ الليلُ عازِبِ  
هَمِّهِ

وأنشده مسلمة قول امرئ القيس: الطويل:

عليَّ بأنواعِ الهمومِ لِيَبْتَلِي  
وأردفَ أعجازاً وناءً بكلِّكَلِ  
بصُبحِ، وما الإصباحُ منك  
بأَمْتَلِ  
بكلِّ مُغارِ الفئَلِ شُدَّتْ  
بِيَدُئِلِ

وليلِ كموجِ البَحْرِ أُرْحَى  
سُدُوكُهُ  
فقلتُ له لَمَّا تمطَّى بِجَوْرِهِ  
ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا  
انجلي

فيا لك من ليلٍ كأنَّ نجومَهُ

فطرب الوليد طرباً، فقال الشعبي: بانت القضية.  
معنى قول النابغة:

وصدر أراح الليل عازب هممه

أهه جعل صدّره مأوى للهموم، وجعل الهموم كاللّغم السارحة الغادية، تسرحُ نهاراً ثم تأتي إلى مكانها ليلاً. وهو أول من استثار هذا المعنى، ووصف أن الهموم مترادفة بالليل لتقييد الألفاظ عمّا هي مطلقة فيه بالنهار، واشتغالها بتصرّف اللحن عن استعمال الفكر، وامرؤ القيس كره أن يقول: إن الهمم يخفّ عليه في وقت من الأوقات

فقال: وما الإصباح منك بأمثل.  
وقال الطرماح بن حكيم الطائي: الطويل:

ألا أيها الليل الذي طال  
أصبح  
على أن للعينين في الصُّبح  
راحة  
يوم، وما الإصباح فيك بأزوح  
لطرهما طَرَقَيْهَما كلُّ  
مَطَرَح

فنقل لفظ امرئ القيس ومعناه، وزاد فيه زيادةً اغتفر له معها فحش السرقة وإنما تنبّه عليه من قول النابغة، إلا أن النابغة لَوْح، وهذا صرّح.  
وقال ابن بسّام: السريع:

لا أظلمُ الليلَ ولا أدعي  
لئلي كما شاءتْ، فإنْ لم  
تُرز  
أنْ نجومَ الليلِ ليستْ تَعُورُ  
طالَ، وإنْ زارتْ فلئلي قصيرُ

وإنما أثار ابن بسّام على قول علي بن الخليل فلم يغير إلا القافية: السريع:  
لا أظلمُ الليلَ ولا أدعي  
جاءتْ، وإن ضنتْ فلئلي  
طويلُ

ليلي كما شاءت، قصيرُ إذا  
وهذه السرقة كما قال البديع في التنبيه على أبي بكر الخوارزمي في بيت أخذ روته وبعض لفظه: وإن كانت قضية القطع تجب في الربيع، فما أشدّ شفقتي على جوارحه أجمع ولعمري إن هذه ليست سرقة، وإنما هي مكابرة محضة، وأحسب أن قائله لو سمع هذا لقال: هذه بضاعتنا ردت إلينا، فحسبت أن ربعة بن مكرم وعُتبية بن الحارث بن شهاب كانا لا يستحلان من البيت ما استحلّه، فإنهما كانا يأخذان جُلّه، وهذا الفاضل قد أخذ كله، وقد أخذ علي بن الخليل من قول الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان: البسيط:

لا أسألُ الله تغييراً لما  
صنعتْ  
فأليلُ أطول شيءٍ حين  
أفقدُها  
نامتْ وإن أسهرتْ عينيَّ  
عيناها  
والليلُ أقصرُ شيءٍ حين  
ألقاها

وابن بسّام في هذا الشعر كما قال الشاعر: الكامل:

وفتى يقول الشعر إلا أنه  
في كل حال يسرقُ  
المسروفا

ألفاظ لأهل العصر

في طول الليل والسهر

وما يعرض فيه من الهموم والفكر  
ليلة من غصص الصّدر، ونيّم الدهر، ليلة هموم وغموم، كما شاء الحسود، وساء الودود. ليلة قصّ جناحها، وضلّ صباحها. ليل ثابت الأطناب، طامي الغوارب، طامح الأمواج، وافي الدّوائب. ليال ليست لها أسخار، وظلمات لا تتخللها أنوار. بات بليلة نابغة، يُراد قوله: الطويل:

فبت كآني ساورئني ضئيلة  
من الرُّفش في أنيابها السُّمُّ  
تأقُع  
لِحلي النساءِ في يديه  
قعاقُع  
يُسَهّدُ من ليلِ التمامِ  
سليّمها

بات في الصيف بليلة شتوية. سامرته الهموم، وعائقته الغموم، واكتحل السهاد، واقترش القتاد، فاكتحل بملمول السهر، وتململ على فراش الفكر. قد أقصّ يهاده، وقليق وساده. هموم تفرّق بين الجنب والمهاد، وتجمّع بين العين والشهاد. طرّف برغي

النجوم مطروف، و فراش بشعار الهمّ محفوت. كأنه على النجوم رقيب، وللظلام  
تَقِيْب.  
ولهم فيما يتصل بضدّ ذلك من ذكر إقبال الليل وانتشار الظلمة، وطلوع الكواكب:  
أَقْبَلْتُ عَسَاكِرَ اللَّيْلِ، وَخَفَقْتُ رَايَا ظِلَامٍ. وَقَدْ أَرَخَى اللَّيْلُ عَلَيْنَا سُدُولَهُ، وَسَحَبَ  
الظلام فينا ذيوله. تَوَقَّدَ الشَّفَقُ فِي ثَوْبِ الْعَسَقِ. أَقْبَلْتُ وَفُودَ النُّجُومِ وَجَاءَتْ مَوَاكِبُ  
الكواكب. تَفْتَحُ أَزَاهِيرَ النُّجُومِ، وَتَوَرَّدَتْ حِدَائِقُ الْجَوِّ، وَأَدَكَى الْفَلَكَ مَصَابِيحَهُ. قَدْ  
طَفَّتِ النُّجُومُ فِي بَحْرِ الدُّجَى، وَلَبَسَ الظُّلَامُ جِلْبَاباً مِنَ الْقَارِ. لَيْلَةٌ كَغَرَابِ الشَّبَابِ.  
وَحَدَّقَ الْجِسَانَ، وَذَوَائِبَ الْعَدَارِي. لَيْلَةٌ كَأَنَّهَا فِي لِبَاسِ بَنِي الْعَبَّاسِ، لَيْلَةٌ كَأَنَّهَا فِي لِبَاسِ  
الثَّكَالِي، وَكَأَنَّهَا مِنَ الْعَبَّاشِ فِي مَوَاكِبِ الْحَبَشِ. لَيْلَةٌ قَدْ حَلَكَ إِهَابُهَا، فَكَأَنَّ الْبَحْرَ يَهَابُهَا.  
ولهم في ذكر النوم والنعاس: شَرِبَ كَأَسَنِ النَّعَاسِ، وَانْتَشَى مِنْ حَمْرِ الْكُرَى، قَدْ  
عَسَكَرَ النَّعَاسُ بِطُوفِهِ، وَخِيَمَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ. غَرِقَ فِي لُجَّةِ الْكُرَى، وَتَمَائِلَ فِي سَكْرَةِ  
النوم. قَدْ كَحَلَ اللَّيْلُ الْوَرَى بِالرَّقَادِ، وَشَامَتِ الْأَعْيُنُ أَحْفَانَهَا فِي الْأَعْمَادِ.  
وفي انتصاف الليل وتناهيه، وانتشار النور، وأقول النجوم: قَدْ اكْتَمَلَ الظُّلَامُ. قَدْ انْتَصَفْنَا  
عَمَرَ اللَّيْلِ، وَاسْتَعْرِفْنَا شَبَابَهُ. قَدْ شَابَ رَأْسُ اللَّيْلِ، كَادَ يَنْمُ النَّسِيمُ بِالسَّحَرِ. قَدْ  
انْكَشَفَ غَطَاءُ اللَّيْلِ. انْهَتَكَ سِنَّرُ الدُّجَى، وَشَمِطَتْ دَوَائِبُهُ، وَتَقَوَّسَ ظَهْرُهُ، وَتَهَدَّمَ  
عُمُرُهُ. قُوَّضَتْ خِيَامُ اللَّيْلِ، وَخَلَعَ الْأَفَقُ ثَوْبَ الدُّجَى. أَعْرَضَ الظُّلَامُ وَتَوَلَّى، وَتَدَلَّى  
عَنْقُودَ الثَّرِيَاءِ. طَرَزَ قَمِيصُ اللَّيْلِ بَعْرَةَ الصَّبْحِ، وَبَاحَ الصَّبْحُ بِسِرِّهِ. خَلَعَ اللَّيْلُ ثِيَابَهُ، وَحَدَرَ  
الصَّبْحُ نِقَابَهُ. لَاحَتْ تِبَاشِيرُ الصَّبْحِ، وَافْتَرَّتِ الْقَجْرُ عَنْ نَوَاجِذِهِ، وَضَرَبَ النُّورُ فِي الدُّجَى  
بِعَمُودِهِ. بَنَتْ الصَّبْحُ طَلَائِعَهُ. تَبَرَّقَعَ اللَّيْلُ بَعْرَةَ الصَّبْحِ. أَطَارَ بَازِي الصَّبْحِ غَرَابَ اللَّيْلِ،  
وَعَزَلَتْ نَوَافِجَ اللَّيْلِ بِجَامَاتِ الْكَافُورِ، وَانْهَزَمَ جُنْدُ الظُّلَامِ عَنِ عَسْكَرِ النُّورِ. خَلَعْنَا خَلْعَةَ  
الظلام، ولبسنا رداء الصباح، وملاً الأذان بزق الصباح، وسطع الضوء، وطلع النور،  
وأشرقت الدنيا، وأضاءت الآفاق. مالت الجوزاء للغروب، وولت مواكب الكواكب،  
وتناثرت عقود النجوم، وفرت أسراب النجوم من حدق الأنام، ووهى نطاق الجوزاء،  
وانطفأ قندبل الثريا. قال بعض الأعراب: خَرَجْنَا فِي لَيْلَةٍ جَنَدِسٍ قَدْ أَلْقَتْ عَلَى الْأَرْضِ  
اكَارِعَهَا، فَمَحَتْ صُورَةَ الْأَبْدَانِ، فَمَا كُنَّا نَتَعَارَفُ إِلَّا بِالْأَذَانِ.  
قال ابن محكان السعدي: الطويل:

وليل يقول الناس في  
ظلماته

سواءً صجحات العيون  
وعُورُها  
مُسوحاً أعاليها وساجاً  
ستورها

كأن لنا منه بيوتاً حصينة

وهذا يارع جداً، أراد أن أعلاه أشدُّ ظلاماً من جوانبه.  
وقال أعرابي في صفته: خَرَجْتُ حِينَ انْحَدَرَتِ النُّجُومُ، وَشَالَتْ أَرْجُلُهَا، فَمَا زِلْتُ أَضْدَعُ  
اللَّيْلَ حَتَّى انْصَدَعَ الْفَجْرُ.

ومن بديع الشعر في صفة الليل قول الأعرابي: الكامل:

والليل يطردُه النهارُ ولا ترى  
فتراه مثلَ البيتِ مَالِ رِوَاقُهُ

كالليل يطردُه النهارُ طريداً  
هتكَ المقوِّضُ سِنْرَهُ  
الممدوداً

ومن البديع: الطويل:

علي حين أثنى القومُ خيراً على  
السري

وطارت بأخرى الليلِ أجنحةُ  
الفجرِ

آخر: الوافر:

وليل ذي عياطٍ مُدْلِهِمَّ

رميْتُ بِنَجْمِهِ عَرْضَ الْأَفُولِ

يردُّ الطرفَ منقبضاً كليلاً

ويملاً هُوْلُهُ صَدْرَ الدَّلِيلِ

ابن المعتز: الكامل:

هاصت ركائبنا إليك بنا

بظليل أهل النارِ والمنحِ

فكأنَّ أيديهنَّ دائبةٌ  
وقاد كشاجم: المنسرح:  
سَقِيًّا لَّيْلٍ قَصْرَتْ مُدَّتُهُ  
وبات بَدْرَ الدَّجَى يشعشعها  
غَارَتْ على نفسها وقد  
سَفَرَتْ  
حتى رأيت الظلامَ يدرجُه ال  
فاختلط الليل والنهارُ كما  
وقال علي بن محمد الكوفي: الطويل:  
مَتَى أَرْتَجِي يَوْمًا تَشْفَاءُ مِنْ  
الصَّنَا  
ولي عَائِدَاتٌ صِفْتُهُنَّ فَجِئْنَ  
في  
نجومٌ أَرَاعِي طَوْلَ لَيْلِي  
بُرُوجَهَا  
خَوَافِقُ فِي جُنْحِ الظَّلامِ  
كانها  
تَرَى حُوتَهَا فِي الشَّرْقِ ذَاتِ  
سِبَاحَةٍ  
إِذَا مَا هَوَى الإِكْلِيلُ مِنْهَا  
حَسْبَتُهُ  
كَأَنَّ الَّتِي حَوْلَ المَجْرَةِ  
أوردتْ  
كَأَنَّ رَسولَ الصُّبْحِ يخلطُ فِي  
الدَّجَى  
كَأَنَّ اخْضِرَّارَ البَحْرِ صَرْحُ  
مَمَرْدُ  
كَأَنَّ سِوَادَ اللَّيْلِ فِي ضِوَاءِ  
صُبْحِهِ  
كَأَنَّ نَذِيرَ الشَّمْسِ يَحْكِي  
ببشره  
ولولا أَتْقَائِي عَنَّبَهُ قَلتْ  
سِيدِي  
جِوَادُ بِمَا تَحْوِي يَدَاهُ  
مَهْدَبُ  
نَسِيبُ إِخَاءٍ وَهُوَ غَيْرُ  
مَنَاسِبِ  
وَنَسَبُهُ مَا بَيْنَ الأَقْرَابِ  
وَحَشَنُهُ  
وهذا البيت كقول الطائي: الطويل:  
وقلتُ أَخِي قالوا أَحُّ مِنْ

يَفْحَصَنَّ لَيْلَتَهُنَّ عَن صُبْحِ  
يَدِيرُ مُرَّانَ مَرٍّ مَشْكَورَا  
نُورِيَّةً تَمَلَأُ الدَّجَى نُورَا  
فَعَادَ جَيْبُ الحَبَابِ مَزْرُورَا  
غَرِبَ وَدَرَجَ الصِّباحِ مَنْشُورَا  
تَخَلَطَ كَفُّ مَسْكَأً وَكَافُورَا  
إِذَا كانَ جَانِبِهِ عَلَيَّ طَبِيبِي  
لِباسِ سِوَادٍ فِي الظَّلامِ  
قَشِيبِ  
وَهَنَّ لُبُّعِدِ السَّيرِ ذَاتُ  
لُغُوبِ  
قُلُوبُ مَعَنَّاهُ بِطُولِ وَجِيبِ  
وَعَفَّرَبِها فِي الغَرَبِ ذَاتِ  
دَبِيبِ  
تَهْدَلُ عُصْنِ فِي الرِّياضِ  
رَطِيبِ  
لَتَكْرَعُ فِي ماءِ هَناكَ صَبِيبِ  
شِجَاعَةَ مِقْدامِ بِجُبْنِ  
هَيُوبِ  
وَفيهِ لالٍ لَمْ تُشْنِ بِثُقُوبِ  
سِوَادُ شِبابِ فِي بِياضِ  
مَسْثِيبِ  
عَلِيِّ بَنِ دَاوُدِ أَخِي  
وَنَسِيبِي  
وَلَكِنْ يَرَاهَا مِنْ أَجْلِ ذَنُوبِي  
أَدِيبُ عَدَا خِلالاً لِكُلِّ أَدِيبِ  
قَرِيبُ صِفاءً وَهُوَ غَيْرُ قَرِيبِ  
إِذَا لَمْ يُونَسِها ائْتِسابُ  
قُلُوبِ  
فَقَلتْ لَهُمْ إِنَّ الشُّكُولَ

فراية  
نسيبي في رأيي وعزمي  
ومذهبي  
وقال عبد السلام بن رغبان، وسلك طريق الطائي فما ضلَّ عنها: الطويل:  
أخ كنتُ أبكيه دماً وهو حاضر  
بكاء أخ لم تحوه بقرابة  
فمات فما شوقي إلى الأجر  
واقف  
وأظلمت الدنيا التي أنت نورها  
يبرِّد نيران المصائب أنني  
وفي هذه القصيدة:

أقارب  
وإن باعدتنا في الأصول  
المناسب  
جذاراً، وتعمى مُقلتي وهو  
غائب  
بلى إن إخوان الصفاء  
أقارب  
ولا أنا ني عمري إلى الله  
راغب  
كأنك للدنيا أخ ومُناسب  
أرى زمناً لم تبق فيه  
مصائب

ترسفت أيامي وهن  
كوالح  
ودفعت في كيد الزمان  
وتخره  
وقلت له: حلَّ ابن أمي  
لعصبة  
فوالله إخلاصاً من القول  
صادقاً  
لو أن يدي كاتت شفاءك أو  
دمي  
لسلمت تسليم الرضا  
واتخذتها  
فتى كان مثل السيف من  
حيث جنته

إليك، وغالبت الردى وهو  
غالب  
وأبي يد لي والزمان  
المحارب؟  
وها أنا أو فازدد فإنا  
عصائب  
وإلا فحبي آل أحمد كاذب  
دم القلب حتى يقضب الحبل  
قاصب  
يداً للردى ما حج لله  
راكب  
لنائبه نائبك فهو مصارب

فتى هَمُّهُ حَمْدُ عَلَى الدَّهْرِ  
رائح  
شَمَائِلُ إِنْ تَشْهَدُ فَهِنَّ  
مَشَاهِدُ  
وَإِنْ نَابَ عَنْهُ مَالُهُ وَهُوَ  
عَازِبُ  
عِظَامُ، وَإِنْ تَرَحَّلَ فَهِنَّ  
رَكَائِبُ

وقال الطائي لعلِّي بن الجهم: الكامل:  
إِنْ يُكِدُّ مُطَرَفُ الإِخَاءِ فَإِنَّا  
أَوْ يَفْتَرِقُ نَسَبُ يُولَفُ بَيْنَنَا  
أَوْ يَخْتَلِفُ مَاءُ الوِصَالِ  
فَمَاؤُنَا

تَعْدُو وَتَسْرِي فِي إِخَاءِ تَالِدِ  
أَدَبُ أَقْمَانُهُ مُقَامَ الوَالِدِ  
عَدَبُ تَحَدَّرَ مِنْ غَمَامٍ وَاجِدِ

وقال محمد بن موسى بن حماد: سمعتُ علي بن الجهم، وذكر دِعْبَلًا فلغنه، وكفره،  
وقال: وكان يطعنُ علي أبي تمام، وهو خيرٌ منه ديناً وشعراً، فقال رجلٌ: لو كان أبو  
تمام أخاك ما زدت علي مَدْحِكَ له. فقال: إلا يكن أخا نَسَبٍ فهو أخو أدب، أما  
سمعتُ ما خاطبني به. وأنشد الأبيات.  
وقال رجل لابن المقفع: إذا لم يكن أخي صديقي لم أحبه، قال: نعم صدقت، الأخ  
نسيبُ الجسم، والصديق نسيبُ الروح.  
وقال أبو تمام يخاطب محمد بن عبد الملك الزيات: الطويل:

أبا جَعْفَرَ، إِنَّ الجَهَالََةَ أُمَّهَا  
لَوُدُّ، وَأُمُّ العِلْمِ جَدَّاءُ  
حَائِلُ

أرى الحشَوَ والدَهْمَاءَ أَضْحُوا  
كَانَهُمْ  
عَدَّوْا وَكَأَنَّ الجَهْلَ يَجْمَعُهُمْ  
أَبَا  
شَعُوبٌ تَلَاقَتْ دُونَنَا  
وَقِبَائِلُ  
وَحَطَّ ذَوِي الآدَابِ فِيهِمْ  
تَوَافِلُ

فكن هَضْبَةً تَأْوِي إِلَيْهَا  
وَحَرَّةٌ  
فإن الفتى فِي كُلِّ حَالٍ  
مُنَاسِبُ  
يُعَرِّدُ عَنْهَا الأَعْوَجِيَّ  
المُنَاقِلُ  
مُنَاسِبَ رُوحَانِيَّةٍ مَنْ  
يَشَاكِلُ

وقال البحري لأبي القاسم بن خرداذبه: البسيط:

إِنْ كُنْتُ مِنْ فَارِسٍ فِي بَيْتِ  
سُوْدَدَهَا  
وَكُنْتُ مِنْ بَحْتَرِي البَيْتِ  
وَالنَّسَبِ

فلم يَصِرْنَا تَتَائِي المَنْصِبِينَ  
وَقَدْ  
رُحْنَا تَسِيْبِينَ فِي عِلْمٍ وَفِي  
أَدَبِ

إِذَا تَقَارَبْتَ الآدَابُ  
وَالتَّامَتْ  
دَتَّتْ مَسَافَةَ بَيْنِ العُجْمِ  
وَالعَرَبِ

وقد احتذى طريقه أبو القاسم محمد بن هانئ، فقال يمدحُ جعفر بن علي، وذكر  
النجوم، فقال الطويل:

جَعَلْنَا حَشَايَانَا ثِيَابَ  
مُدَامِنَا  
وَقَدَّتْ لَنَا الظُّلْمَاءُ مِنْ جِلْدِهَا  
لَحْفَا

فمن كَبِدٍ تُدْنِي إِلَى كَبِدِ  
هَوَى  
وَمِنْ شَقَّةٍ تُوحِي إِلَى شَقَّةٍ  
رَشْفَا

بِعَيْشِكَ نَبَّهُ كَأَسَّهَ وَجُفُوْتَهُ  
أَغْفَى  
فقد نُبِّهَ الإِبْرِيْقُ مِنْ بَعْدِ مَا  
أَغْفَى

وقد فكت الظلماء بعضَ  
قيودها  
وولت نجومٌ للثُّرَيَّا كأثها  
ومرَّ على آثارها دبرائها  
وأقبلت الشعري العُبورُ  
ملبَّة  
وقد بادرتُها أحنُّها من  
ورائها  
تخافُ رَئيرَ الليثِ يَقدُمُ  
نثرَةً  
كأنَّ السماكَيْنِ اللَّذِينِ  
تظَاهَرا  
فذا رامحٌ يَهوي إليه سِنائُه  
كأنَّ رقيبَ النجمِ أَجَدَلُ  
مَرَقِبِ  
كأنَّ سُهيلًا في مَطالِعِ  
أفقهِ  
كأنَّ بني نَعشٍ ونَعشًا  
مَطافِلُ  
كأنَّ سُهاها عاشِقُ بين  
عُودِ  
كأنَّ مُعلَى قُطبها فارسُ  
لُه  
كأنَّ قدامى النَّسرِ والنَّسرِ  
واقِعُ

وقد قام جيشُ الليلِ للفجرِ  
فاصطقًا  
خواتم تَبْدو في بَتانِ يدِ  
تَحْفَى  
كصاحبِ رِدءٍ أكمنتُ خيلُه  
خَلفا  
بِمِرْزَمِها اليَعْبُوبِ تَجُنُّه  
طِرْفا  
لِتَخْرُقَ من نَيْبِي مَجْرَئِها  
سِجْفا  
وَبَرَبَرٍ في الظلْماءِ يَنسِفُها  
تَسْفا  
عَلَى لِبْدَتَيْهِ ضامِنانِ له  
الْحَنْفا  
وذا أعزلٌ قد عَصَّ أُنْمَلَه  
لَهْفا  
يُقَلِّبُ تحتَ الليلِ في ريشِه  
طِرْفا  
مُقارِقُ إلفٍ لم يَجِدْ بعده  
إلْفا  
بِوَجْرةٍ قد أَضَلَّلَن في مَهْمِه  
خِسْفا  
فأوتَه يَبْدُو وأونَه يَحْفَى  
لِواءانِ مَرْكُوزانِ قد كَرِه  
الزَّحْفا  
فُصِصَنَ فلم تَسْمُ الخِوافِي  
بِه صَعْفا

كأنَّ أخاهُ حينَ دَوَمَ طائِراً  
أتى دونَ نصفِ البَدْرِ فاخْتطفَ  
النُّصْفا  
كأنَّ الهزيعَ الأَبْوسِيَّ مَوْهِنًا  
بِئَرِي بالنسيجِ الحُسْرُوانِيَّ  
مُلْتَفًا  
كأنَّ ظلامَ الليلِ إِذْ مالَ مَيْلَه  
صريعُ مُدامٍ باتَ يشرِبُها  
صِرْفا  
كأنَّ عمودَ الفجرِ خاقانُ  
من التُّركِ نادَى بالنجاشِيَّ  
فاستَحْفَى  
كأنَّ لواءَ الشمسِ عُرَّة  
رأى القِرْنَ فازدادتُ طلاقته  
ضَعْفًا

وقال ابن طباطبا العلوي: الطويل:

وديعه سرٌّ في صَمِيرٍ مُدِيعٍ  
يعارِضُها راعٍ وراءَ قَطِيعٍ  
تَقَلَّبَ طَرْفِي بِالدموعِ  
هموعِ  
فباتتُ كَتَشْوَانٍ هناكِ  
صَرِيعِ  
وكان يُتَادِي منه غيرَ سَمِيعِ

كَانَ اكْتِنَامَ المشتري في  
سَخَابِهِ  
كَانَ سُهَيْلاً والنجومُ أَمَامَهُ  
وقد لاحتِ الشَّعْرَى العُيُورُ  
كَانَهَا  
وأضجعتِ الجوزاءُ في أفقِ  
عَرَبِيهَا  
إلى أن أجاب الليلُ دَاعِيِي  
صُبْحِهِ

وقال: الخفيف:

شطر طوقِ المرآةِ ذي  
التذهيبِ  
أو كُتُونٍ في مُهَرَّقِي مَكْتُوبِ  
وقد طرحَ جرمه على دَجَلَةٍ: الكامل:  
والبَدْرُ في أفقِ السَّمَاءِ  
مَغْرَبُ  
وكانه فيها طرازٌ مُذْهَبُ

وكانَ الهلالَ لَمَّا تَبَدَّى

أو كَقَوْسٍ قد انحنَتْ طَرْفَاهُ

وقال علي بن محمد العلوي يصف القمر، وقد طرح جرمه على دجلة: الكامل:  
لم أنسى دَجَلَةَ والدُّجَى  
مُتَصَرِّمُ  
فكانها فيه رداءٌ أزرقُ

وقال الأمير تميم بن المعز، وكان يحتذي مثل ابن المعتز، ويقف في التشبيهات بجانبه، ويفرغ فيها على قلبه، ويتبعه في سلوك ألفاظ الملوك: الخفيف:

ليس إلا تَعَلَّةَ النفسِ  
شُغْلِي  
وي كَأني أَنهَمْتُ رَأِي  
وَعَقْلِي؟  
لُ كَلُونِ الصُدُودِ من بعدِ  
وَصَلِي

إسْقِيَانِي فلست أضغِي

لَعَدَلِ

أَطِيعُ العَذُولَ في تركِ ما

أه

عَلَّانِي بها فقد أقبل اللي

وانجَلَى الغَيْمُ بعد ما أضحك

الرَّؤُ

عن هلالٍ كصُولجانٍ نُصَّارِ

وقال: الخفيف:

ءَ وَجُنْحُ الظَّلَامِ مُرْحَى الإزَارِ  
ورَوَابٍ منيفَةٍ وصَحَارِي  
وتجيب القِيانُ فيها القَمَارِي  
وكانَ النجومَ فيها مَدَارِي  
في يَدِ الأفقِ مثلَ نِصْفِ  
سِوَارِ

رُبَّ صَفراءَ عَلَّانِي بِصَفراءِ

بين ماءٍ وروضةٍ وكُرومِ

تتنبئُ به الغصونُ علينا

وكانَ الدُّجَى عَدَائِرُ شَعْرِ

وانجَلَى الغَيْمُ عن هلالٍ تَبَدَّى

وقال: الخفيف:

ودَعَا دَمَعٌ مُفَلَّتِيهَا انسَكابُ  
فالتقى الياسمينُ والعُتَابُ  
بَ رِياءً وهَمُّه الإعتابُ  
سَنَ كما يصبغُ الخدودَ الشَّبابُ

عَتَبْتُ فانشئ عليها العِتَابُ

وضعت نحو حَدَّها بيديها

رُبَّ مُبَدِي تَعَتَّبُ جعل العَتِ

فاسقنيها مُدَامَةً تَصْبِغُ الكَأ

ما ترى الليل كيف رَق دُجَاهُ  
وكان الصبّاح في الأفق بازٍ  
وكان السماء لُجَّةً بَحْرٍ  
وكان الجوزاء سَيْفٌ صَفِيلٍ  
من وصف الشراب والكؤوس والسُّقاة في الليل  
وقال: الطويل:

وزنجية الآباء كزجية الجلب  
كميت بزلنا دنها فتفجرت  
عَيْرِيَّةِ الأنفاسِ كَرَمِيَّةِ  
النَّسَبِ  
بأخمر قانٍ مثل ما قَطَرَ  
الذَّهَبِ

فلما شربتها صَبَوْنَا كَأَنَّا  
ولم نأت شيئاً يُسَخِّطُ المجد  
فَعَلَهُ  
كان كؤوس الشرب وهي  
دوائر  
يَمُدُّ بها كفاً خضيباً مُدِيرُهَا  
فبتنا نُسَقَى الشمسَ والليلُ  
راكدُ  
وقد حجب الغيم الهلال كأنه  
كان الثريا تحت حُلْكة لونها

وقال: الطويل:

كان السحاب العرّ أضبحن  
أكؤوساً  
إلى أن رأيت النجم وهو  
مغرب  
كان سواد الليل والصبح  
طالعُ

وقال: الطويل:

وكأس يُعيد العسر يسراً،  
ويجتني  
يولد فيها المزج دراً  
منصداً  
صغار وكبرى في الكؤوس  
كانها  
إذا حثها الساقى الأغر  
حسبها

ثمار الغنى للشرب من شجر  
القفر  
كما فتت فوق الثرى نُقْطُ  
القطر  
على الرّاح واواث تجمعن في  
سَطْرِ  
نجوم الثريا لحن في راحة  
البدر

بفصّة لألاء الصباح سنّا  
القَجْر  
على الأفق الأعلى قلائد من  
دُرّ

فقد ألس الآفاق جُنح الدجى  
دَعَج  
فصوص لجينٍ قد أحاط بها  
سَبَج  
إذا جن، زنجي تبسم عن  
فلج

من العيم يهمي مرنها  
ويجود  
يطفن علينا بالمدامة غيد  
ونابت عن الورد الجني  
حُدود  
فأثقلها من حملهن نهود  
وإذ أترى في الغانيات  
حميد  
ولهو، وأيام الزمان هجود

فاحمر من حجل واصفر من  
وجل  
وبين منع تمادى فيه  
بالعلل  
ومبصر البدر لا يدعوه  
للقبل

وجار علي واقتدرا  
عليه لداب وانقطرا  
علي الغنج والحورا  
فكيف يعاتب القمر؟

ن أزراره قمرًا  
إذا ما زدته نظرا  
ر من أجفانها الحورا  
تصوب ماؤه قطرا

صحت بها صبحي وقد رندج  
الدجى  
وقد أزهرت بيض النجوم  
كأثها

وقال: الطويل:

ألا فاسقياني قهوة ذهبية  
كأن الثريا والظلام يحفها  
كأن نجوم الليل تحت  
سواده

وقال: الطويل:

أيا دير مرحتا، سقنك رعود  
فكم واصلنا في رباك  
أوانس  
وكم ناب عن نور الضحى فيك  
مبسم

وماست على الكتبان قضبان  
فصنة  
وإذ لمتي لم يوقظ الشيب  
ليلها  
ليالي أغدو بين ثوبي صباية

وقال: البسيط:

سألته فبله منه على  
عجل  
وأعتل ما بين إسعاف  
يرقفه  
وقال: وجهي بدز لا خفاء  
به

وهذا ينظر إلى قوله: مجزوء الوافر:

أباح لمقلتي السهرا  
غزال لو جرى نفسي  
ولكن عينه حسدت  
ومن أودى به قمر

كأنه ذهب إلى قول أبي نواس: مجزوء الوافر:

كأن ثيابه أطلع  
يزيدك وجهه حسنا  
بعيني خالط التفتي  
ووجه سايري لو

قيل للجاحظ: مَنْ أُنشِدُ الناسَ وأشعرهم؟ قال: الذي يقول، وأنشد هذه  
الآبيات. ونظيرُ قوله: مجزوء الوافر:

كَانَ ثِيَابَهُ أَطْلَعُ  
نَ مِنْ أَرْزَارِهِ قَمْرًا

قول الحكم بن قنبر المازني: البسيط:

وَيَلِي عَلَى مَنْ أَطَارَ النَوْمَ  
وَزَادَ قَلْبِي إِلَى أَوْجَاعِهِ وَجَعًا  
فَامْتَنَعَا

وقال تميم: الخفيف:

تَقَبَّتْ وَجْهَهَا بَحْرٌ وَجَاءَتْ  
بُمُدَامٍ مُتَقَبِّبٍ بَرْجَاجٍ  
فَتَأَمَّلْتُ فِي النِقَابَيْنِ مِنْهَا  
قَمْرًا طَالِعًا وَضَوْءَ سِرَاجٍ  
فَاسْقِيَانِي بِلَا مِرَاجٍ فَإِنِّي  
فِي الْمَعَالِي صِرْفٌ بَغِيرِ  
مِرَاجٍ

وَانظُرَا الْأَفْقَ كَيْفَ بَدَّلَهُ  
الْإِصْ

وقال: البسيط:

كَمْ قَدْ أَتَى سَهْلٌ دَهْرٍ بَعْدَ  
أَضْعَيْهِ

إِذَا حَذِرْتَ زَمَانًا لَا تُسَرُّ بِهِ

لَعَلَّ مُرَّكَ يَخْلُو فِي تَقَلُّبِهِ

فَاقْبَلْ مِنَ الدَّهْرِ مَا أُعْطَاكَ  
مُخْتَلَطًا

مِنْ كَفِّ أَقْنَى أَسِيلِ الْخَدِّ  
مُذْهِبِهِ

حُذِّهَا إِلَيْكَ، وَدَعْ لَوْمِي،  
مُسْتَعْشَعَةً

عَلَيْهِ يَحْمِيهِ مَنْ أَنْ تَسْتَبَدَّ  
بِهِ

فِي كُلِّ مَعْقِدٍ حَسَنٍ فِيهِ  
مُعْتَرِضٌ

وَوَرْدُ خَدَّيْهِ مَحْمِيٌّ بِعَقْرَبِهِ

فَكُجِّلْ عَيْنِيهِ مَمْنُوعٌ  
بِخَنْجَرِهِ

إِنِّي أَخَافُ عَلَيْهِ مِنْ تَلَهُئِهِ

لَا تَتْرِكِ الْقَدَحَ الْمَلَانَ فِي  
يَدِهِ

وَسَبِّقْهُ وَاسْقِنِي مِنْ قَصْلِ  
مَشْرَبِهِ

فَصْنُهُ عَنِ سَقِينَا؛ إِنِّي أَعَارُ  
بِهِ

وَالصَّبْحُ فِي إِثْرِهِ يَعْدُو  
بِأَشْهَبِهِ

وَانظُرْ إِلَى اللَّيْلِ كَالزُّنْجِيِّ  
مَنْهَرِمًا

كَأَنَّهُ مَلِكٌ مَا بَيْنَ مَوْكِبِهِ

وَالْبَدْرُ مُنْتَصِبٌ مَا بَيْنَ  
أَنْجُمِهِ

من المختار من شعر تميم بن المعز  
وإذا أفضيت إلى ذكره، فهاك من مختار شعره، قال: البسيط:

مِنْهُ الذُّنُوبُ وَمَقْبُولٌ بِمَا  
صَنَعَا

مُسْتَقْبَلٌ بِالذِّي يَهْوَى وَإِنْ  
كَثُرَتْ

مِنْ الْقُلُوبِ وَجِيهٌ حَيْثَمَا  
شَفَعَا

فِي وَجْهِهِ شَافِعٌ يَمْحُو  
إِسَاءَتَهُ

حُسْنًا، أَوْ الْبَدْرُ مِنْ أَرْزَارِهِ  
طَلَعَا

كَأَنَّمَا الشَّمْسُ مِنْ أَثْوَابِهِ  
بَرَزَتْ

استعارة مأخوذة من قول الآخر، وهو ابن زريق: البسيط:

أستودعُ الله في بغدادَ لي  
قمرًا  
ومن قول أحمد بن يحيى الفران: مجزوء الوافر:  
بَدَا فَكَائِمًا قَمْرٌ  
يَحِثُّ الْمَسْكَ مِنْ عَرَقِ الْ  
وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ أَسْتَاذُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ: الْكَامِلُ:  
نَفْسِي الْفِدَاءَ لِمَنْ عَصَيْتُ  
عَوَاذِلِي  
الشَّمْسُ تَطْهَرُ فِي أَسِيرَةٍ  
وَجْهِهِ  
وَقَالَ تَمِيمٌ: الطَّوِيلُ:  
أَعْدَلُ قَلْبِي وَهَوَايَ غَيْرُ  
عَاذِلُ  
وَمَنْ لِي بِصَبْرٍ أَسْتَزِيلُ بِهِ  
الْجَوَى  
فَأَوَّلُ شَوْقِي كَانَ آخِرَ  
سَلَوَاتِي  
وَقَالَ: مَجْزُوءُ الْكَامِلِ:  
وَرَدُّ الْخُدُودِ أَرْقُ مِنْ  
هَذَا تَنْشَقُّهُ الْأَنُورُ  
وَإِذَا عَدَلْتُ فَأَفْصَلُ الْ  
لَا وَرَدَ إِلَّا مَا تَوَلَّى صَبَّحَ حُمْرَتِهِ  
الدَّمُّ  
هَذَا يُبَسِّمُ وَلَا يُصَمُّ وَدَا يُضْمُّ  
وَيُسَمُّ  
سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْخُدُودَ  
وَأَعَارَهَا الْأَصْدَاعَ فِيهِ  
وَاسْتَنْطَقَ الْأَجْفَانَ فِيهِ  
وَتُبِينُ لِلْمَحْبُوبِ عَنُ  
وَتَشِيرُ إِنْ رَأَتْ الرُّقِي  
وَأَعَارَهَا مَرَضًا تَصِحُّ بِهِ الْقُلُوبُ  
وَتَسْقَمُ  
فَتَنُّ الْعْيُونَ أَجَلَ مَنْ  
وَقَالَ: السَّرِيعُ:  
إِنْ كَانَتْ الْأَلْحَاظُ رُسُلَ  
الْقُلُوبِ  
قَبْلْتُ مَنْ أَهْوَى بَعِينِي وَلَمْ  
لِكِنَّهُ قَدْ قَطِنْتُ عَيْنُهُ  
إِنْ كَانَ عِلْمُ الْغَيْبِ  
مُسْتَحْفِيًا  
وَقَالَ: مَجْزُوءُ الْكَامِلِ:

بِالْكَرِّخِ مِنْ قَلِّكَ الْأَزْرَارِ  
مَطْلَعُهُ  
عَلَى أَزْرَارِهِ طَلَعَا  
جَبِينِ بِنَائِهِ وَلَعَا  
فِي حُبِّهِ لَمْ أَحْسَنَ مِنْ  
رُقْبَائِهِ  
وَالْبَدْرُ يَطْلُعُ مِنْ خِلَالِ قَبَائِهِ  
وَأَعْصِي غِرَامِي وَهُوَ مَا بَيْنَ  
أَضْلَعِي؟  
وَلَا جِلْدِي طَوْعِي وَلَا كَبْدِي  
مَعِي  
وَآخِرُ صَبْرِي كَانَ أَوَّلَ أَدْمُعِي

وَرَدِ الرِّبَاضِ وَأَنْعَمُ  
فُ وَذَا يُقْبَلُهُ الْقَمُّ  
وَرَدِينِ وَرَدُّ يُلْتَمُّ

دَ شَقَائِقًا تُتَسَسَّمُ  
ي بِهَا شَقِيقٌ يُعَلِّمُ  
ي بَلَّحَظَهَا تَتَكَلَّمُ  
سِرَّ الْحَبِيبِ فِيهِمْ  
بَ بَلَّحَظَهَا فَتُسَلَّمُ

فَتَنُّ الْخُدُودِ وَأَعْظَمُ

فِينَا فَمَا أَهْوَى كَيْدَ الرَّقِيبِ  
يَعْلَمُ بِتَقْبِيلِي حَدُّ الْحَبِيبِ  
بَلَّحَظِ عَيْنِي فِطْنَةَ الْمَسْتَرِيبِ  
عَنَّا فَعِنْدَ اللَّحْظِ عِلْمُ الْغَيْبِ

قالوا الرحيل لخمسة  
فأجبتهم إني اتخذ  
سبحان من قسم الأسي  
وأعار للأجفان حسن

وقال: الخفيف:

عقرب الصدغ فوق تفاحة  
الخد

وسيوف اللحاظ في كل  
حين

وعيون الوشاة يفسدن  
بالرق

فمتي يشتفي المحب  
وتطقي

وقال: البسيط:

تري عذاريه قد قاما  
بمعدرتي

ريم كأن له في كل جارحة

كأن جوهرة من لطفه  
عرض

والله ما فتئت عيني  
محاسنه

ما تُصدر العين عنه لحظها  
ملاً

يا منتهى أملي لا تُدن لي  
أجلي

إن كان وجهك وجهاً صيغ من  
قمر

وقال: الطويل:

ألا يا نسيم الريح عرج  
مسلماً

وهب على من شف جسمي  
بعاده

فإن قال: ما هذا الحرور؟  
فقل له:

ومختار شعره كثير، وقد تفرق منه قطعة كافية في أعراض الكتاب.  
قال صاحب أبو القاسم إسماعيل بن عبّاد: الطويل:

لقد رحلت سُعدى فهل لك  
مُسعد؟

رعيث بطرفي النجم لَمَّا  
رأيتها

تأتي سريعا من جمادى  
ت له الأسي والحزن زادا  
بين الأحيّة والبيّادا  
نا تسترق به العبادا

نعيم مُطرر بعداب

ما نعات جنى الثايا العذاب

بّة والمنع رؤية الأحباب

بالتداني حرارة الاكتئاب؟

عند العذول فيعدو وهو  
يعذُرني

عقداً من الحُسن أو نوعاً من  
الفتن

فليس تحويه إلا أعين  
القطن

إلا وقد سخرت ألفاظه  
أذني

لأنه كل شخص مرتضى  
حسن

ولا يُعذب طنوني فيك  
بالظنن

فإن قدك قد من  
عصن

على ذلك الشخص البعيد  
المودع

يسموماً بما استمليت من نار  
أصلعي

تنفس مشتاق بحبك  
موجع

وقد أنجذت داراً فهل أنت  
مُنجذ؟

تباعد بُعد النجم بل هي  
أبعد

تُنِيرُ الثَّرِيًّا وَهِيَ قَرِصٌ      مَسْلَسَلٌ  
 مَبَدَّدٌ      وَتَعْتَرِضُ الْجُوزَاءَ وَهِيَ  
 كَكَاعِبٌ  
 وَتَحْسِبُهَا طَوْرًا أَسِيرَ جِنَايَةٍ  
 وَوَلَاخٌ سُهَيْلٌ وَهُوَ لِلصُّبْحِ  
 رَاقِبٌ  
 أَرَدَّدُ طَرْفِي فِي النُّجُومِ  
 كَأَنَّهَا  
 رَأَيْتُ بِهَا، وَالصُّبْحُ مَا حَانَ  
 وَرُدُّهُ،  
 وَفِيهِ لَنَا مِنْ مَرِيطِ الشَّمْسِ  
 أَشَقْرُ  
 وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْحَاتِمِيُّ: الطَّوِيلُ:  
 وَلَهْلُ أَقْمَنَا فِيهِ نُعْمَلُ  
 كَأَسْنَا  
 وَتَجْمُ الثَّرِيًّا فِي السَّمَاءِ  
 كَأَنَّهُ  
 الْبَحْتَرِيُّ: الْكَامِلُ:  
 وَلَقَدْ سَرَيْتُ مَعَ الْكُوكَبِ  
 رَاكِبًا  
 وَاللَّيْلُ فِي لَوْنِ الْعُرَابِ  
 كَأَنَّهُ  
 وَالْعَيْسُ تَنْصُلُ مِنْ دُجَاهِ كَمَا  
 أَنْجَلَى  
 حَتَّى تَبْدَى الْقَجْرُ مِنْ جَنَابَتِهِ  
 وَقَالَ الْأَمِيرُ أَبُو الْفَضْلِ الْمِيكَالِيُّ: الْكَامِلُ:  
 أَهْلًا بِقَجْرٍ قَدْ تَضَى ثُوبَ  
 الدُّجَى  
 أَوْ غَادَةٍ شَقَّتْ صِدَارًا أَزْرَقًا  
 وَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ يَصِفُ  
 مَخْبَأةَ أُمِّهَا إِذَا اللَّيْلُ جَنَّتْهَا  
 إِذَا انشَقَّ عَنْهَا سَاطِعُ الْقَجْرِ  
 وَأَنْجَلَى  
 وَأَلْبَسَ عَرْضَ الْأَرْضِ لَوْنًا  
 كَأَنَّهُ  
 تَجَلَّتْ وَفِيهَا حِينَ يَبْدُو  
 شَعَائِهَا  
 وَيَشْغَلُ مِنْهَا الطَّرْفُ دُرٌّ  
 مَبَدَّدٌ  
 تَمِيلُ مِنْ سَكْرِ بِهَا وَتَمِيدُ  
 تَرشِّحُ بَعْدَ الْمَشْيِ وَهُوَ  
 مُقَيَّدٌ  
 كَمَا سُئِلَ مِنْ غَمْدِ جَرَارٍ  
 مَهْنَدٌ  
 دَنَانِيرُ لَكِنِ السَّمَاءِ رَزَزَجْدُ  
 قَنَادِيلَ وَالْخَضْرَاءُ صَرْحُ  
 مَمْرَدُ  
 إِذَا مَا جَرَى فَالرَّيْحُ تَكْتُبُو  
 وَتَرْكُدُ  
 إِلَى أَنْ بَدَا لِلصُّبْحِ فِي اللَّيْلِ  
 عَسْكَرُ  
 عَلَى خُلَّةٍ رَزَقَاءَ جَيْبٍ مُدَّتَّرُ  
 أَعْجَازَهَا بَعْزِيمَةٌ كَالْكُوكَبِ  
 هُوَ فِي حُلُوكَيْهِ وَإِنْ لَمْ  
 يَنْعَبِ  
 صَبَّغُ الْخِصَابِ عَنِ الْقَدَالِ  
 الْأَشْيَبِ  
 كَالْمَاءِ يَلْمَعُ مِنْ خِلَالِ  
 الطُّحْلَبِ  
 كَالسَّيْفِ جُرَّدٌ مِنْ سَوَادِ  
 قِرَابِ  
 مَا بَيْنَ تُغْرَتِهَا إِلَى الْأَتْرَابِ  
 الشَّمْسِ: الطَّوِيلُ:  
 فَتَحَقَّى وَأَمَّا بِالنَّهَارِ فَتَظْهَرُ  
 دُجَى اللَّيْلِ وَأَنْجَابَ الْحِجَابِ  
 الْمُسْتَرِ  
 عَلَى الْأَفْقِ الشَّرْقِيِّ ثُوبٌ  
 مُعْصَفَرُ  
 وَلَمْ يَعْلُ لِلْعَيْنِ الْقَصِيرَةِ  
 مَنْظَرُ

عليها كَرَدَع الزعفران  
يشبُّه  
فلما علَتْ وابيضَّ منها  
اصفراؤها  
وجلَّت الآفاق ضوءاً  
ينيرها  
تري الظل يُطَوِي حين تَبْدُو  
وتارةً  
كما بدأتْ إذْ أشرقَتْ في  
مغيبها  
وتَدْتَفُ حتى ما يكادُ  
شيعاؤها  
فأقنَّت قروناً وهيَ في ذاك  
لم تزلْ

أحسن ما قالته العرب في الجاهلية  
وقال عبد الملك بن مروان لبعض جلسائه يوماً: ما أحكم أربعة أبياتٍ قالتها العرب في  
الجاهلية؟ فأنشده: الكامل:

منع البقاء تقلب الشمس  
وظلوعها بيضاء صافيةً  
تجري على كيد السماء كما

اليوم تعلم ما يجيء به  
قال: أحسنت، فأخبرني بأمدح بيتٍ قالته العرب في الشجاعة، قال: قول كعب بن  
مالك الأنصاري: الكامل:

تصلُّ السيوف إذا قُضِرَ  
بخطونا

قال: فأخبرني بأفضل بيتٍ قيل في الجود،

أماوي، ما يُعني الثراء عن  
الفتى

تري أن ما أبقيتُ لم أكنُ  
رَبُّه

ألم تر أن المالَ غادٍ ورائحُ  
غنينا زماناً بالتصغلك

والغنى

فما زادنا بغيًّا على فذي  
قراية

قال: فأخبرني عن أحسن الناس وصفاً، قال: الذي يقول: الطويل:

كان قلوب الطير رطباً  
ويابساً

والذي يقول: الطويل:

كان عيون الوحش حول  
وأرخلنا الجزع الذي لم يتقب

خَبَائِنَا

والذي يقوله: الطويل:

وتعرفُ فيه من أبيه شَمَائِلًا      ومن خَالِه ومن يزيدَ وَمِنْ  
حُجْرُ  
سماحةَ دَا، مع يِرِّ دَا، ووفاءَ دَا      ونائلَ دَا، إذا صَحَا وإذا سَكِرَ

يريد امرأ القيس.

ومن ألفاظ أهل العصر

في طلوع الشمس وغروبها

ومتوع النهار وانتصافه، وابتدائه، وانتهائه

بدا حاجِبُ الشمس، ولمعتْ في أجنحة الطير، وكشفتْ قنَاعَهَا، ونثرتْ  
شُعَاعَهَا، وارتفع سُرادِقُهَا، وأضاءتْ مشارِقُهَا، وانتشر جناحُ الضوء في أفق  
الجو. طنَّبَ شعاعُ الشمس في الآفاق، وذهبتْ أطراف الجدران. أبع  
النهار وارتفع. استوى سَنَابُ النهار، وعلا رونق الضحى، وبلغت الشمسُ  
كبد السماء. انتعل كل شيء ظله، وقام قائمُ الهاجِرة، ورمت الشمس  
بجَمَرَاتِ الظهر. اصفرَّتْ غِلاَّةُ الشمس، وصارت كأنها الدينارُ يلمعُ في  
قرارِ الماء، ونفضتْ تيراً على الأصيل، وسَدَّتْ رَحْلَهَا للرحيل، وتصوَّبتْ  
الشمسُ للمغيب، وتضيقتْ للغروب فأذن جَنَّبَهَا للوجوب. شاب النهارُ،  
وأقبل شبابُ الليل، ووقفت الشمسُ للعيان، وشاقفة الليلُ لسان النهارِ.  
الشمسُ قد أشرقتْ بروجُها، وجنحت للغروب، وشاقهتْ دَرَجَ الوجوبِ.  
الجو في أطمارٍ مُنْهَجَةٍ من أصائله، وشفوت مورِّسة من غلائله. استتر وجهُ  
الشمس بالتَّقَابِ، وتوارتْ بالحجابِ. كان هذا الأمرُ من مطلع الفلق، إلى  
مجتمع العَسَقِ. فلانٌ يركبُ في مقدمة الصُّبح، ويرجع في ساقية الشفق،  
ومن حين تفتح الشمس جَفَّتْهَا، إلى أن تغمض طرفها، ومن حين تسكنُ  
الطيرُ أوكارها، إلى حين ينزل السَّرَاةُ مِنْ أكوارها.

مقامة لأبي الفتح الإسكندري من إنشاء البديع، اتصلتْ بذكر الليل والنهار.  
قال عيسى بن هشام: كنت وأنا قَتِيُّ السنِّ أشدُّ رَحْلِي لكلِّ عَمَايَةٍ،  
وأركضُ طَرَفِي لكلِّ عَوَايَةٍ، حتى شربْتُ من العُمُرِ سائغهُ، ولبستُ من  
الدهرِ سابعهُ، فلما صاح النهارُ بجانب ليلي، وجمعتُ للمعادِ دَيْلِي، وطنَّتُ  
ظهَرَ المَرْوِضَةِ، لأداء المفروضة، وصحيتي في الطريق رَجُلٌ لم أنكره من  
سوء، فلما تخالينا، وحين تجالينا، سبقتِ القصَّةُ عن أصل كوفيٍّ ومذهب  
صوفيٍّ، وسرنا فلما حللنا الكوفة ملنا إلى داره ودخلناها وقد بقل وجهُ  
النهار، واخضرَّ جانبُهُ، ولما اغتمض جَفُنُ الليل وطرَّ شارِبُهُ فُرغَ علينا  
البابُ، فقلنا: من القارعُ المُنتابُ؟ فقال: وقد الليلُ وبريده، وقل الجوعُ  
وطريده، وأسير الضرِّ، والزمن المرُّ، وضيْفُ وطوهُ خفيف، وصالته رَغيف،  
وجارٌ يستعدي على الجوع، والجيبُ المرقوع، وغريب أوقدت النارُ على  
سفره، ونبخ العوَاء في أثره، وتبذت خلفه الحُصياتُ، وكنستُ بعده  
العَرَصات، فيضوهُ طليح، وعيشته تبريح، ومن دون أفراخه مَهَامَةٌ فيح.  
قال عيسى بن هشام: فقَبَضْتُ من كيسي قَبْضَةَ الليثِ وبعثتها إليه، وقلْتُ  
زِدْنَا سؤَالَ نَزْدِكَ تَوَالًا، فقال: ما عَرِضَ عَرَفُ العودِ، على أحرَّ من نارِ  
الجُودِ، ولا لَقِيَّ وَفْدَ البِرِّ، بأحسن من بريد الشكرِ، ومن ملك القَصْلِ  
قَلِيوأس، فلا يذهبُ العُرْفُ بين الله والناس، وأما أنتَ فحقق الله أملك،  
وجعل اليدَ العُلْيَا لك.

قال عيسى بن هشام: ففتحنا الباب، فإذا شيخنا أبو الفتح الإسكندري،  
فقلنا: يا أبا الفتح، شد ما بلغت بك الحصاصه، وهذا الزي خاصة! فتبسّم  
وأنشأ يقول: مجزوء الخفيف:

لا يَغَرَّكَ الَّذِي  
أنا فيه من الطَلَبِ  
أنا في بُرْدَةٍ تُشَوِّقُ لها بُرْدَةٌ  
الطَّرَبِ

أنا لو شئتُ لاتحدُّ  
تُ شِقَاقاً من الذهبِ  
وكتب البديعُ إلى بعض إخوانه: غضبُ العاشقِ أقصرُ عمراً من أن ينتظرَ  
عُدراً، وإن كان في الظاهر مَهَابَةً سَيْفٍ، إنه في الباطن سِحَابَةٌ صَيْفٍ، وقد  
رأيتُ إعراضه صَفْحاً؛ أفجداً قصداً أم مَرِحاً، ولو التبس القلبان حق  
التباسهما ما وجد الشيطانُ بينهما مساعياً، ولا والله لا أريك رَدّاً، أجدُّ منه  
بدأً، وإن محبة تحتمل شكاً لأجدُّ محبة، ألا تُشترى بحبّة، وإن كان قصداً  
مَرِحاً فما أغناها عن مَرِحٍ يحل عُقد الفؤاد حتى نقف على المراد، ولا  
تسعنا إلا العافية والسلام.

وله إليه: المودة - أعزك الله - عَيْبٌ، وهو في مكان من الصّدْر، لا ينفذه  
بصر، ولا يُدركه تَظَرٌ، ولكنها تُعَرَفُ ضرورة، وإن لم تظهر صُورَةً، ويدركها  
الناس، وإن لم تدركها الحواس، ويستملي المرءُ صِحيفتها من صدره،  
ويعلم حال غيره من نفسه، ويعلم أنها حب وراء القلب، وقلب وراء  
الجلب، وخب وراء العظم، وعظم وراء اللحم، ولحم وراء الجلد، وجلد  
وراء البُرْد، وبُرد وراء البعد. ولو كانت هذه الحُجُبُ قوارير لم ينفذها نظر،  
فيستدل عليها بغير هذه الحاسة بدليل إلا أن أزوره، والله لو التبست به  
التباساً، يجعل رأسينا رأساً، ما زدته وداً، ولو حال بيني وبينه سُورُ  
الأعراف، ورمُلُ الأحقاف، ما نقصته حقاً.  
وقال الأمير أبو الفضل الميكالي: الخفيف:

وعَرَالٍ مَنَحْتُهُ ظَهَرَ الوُدِّ  
فجَارَى بالصدِّ والانتحاب  
لم ألمه إن ردني لحجاب  
ردني وإله الفؤاد لِمَا بي  
هو روح وليس يُنكر للرو  
ح تَوَارٍ عن الوَرَى بِحِجَابٍ  
وللبديع إلى أخيه: كتابي أطال الله بقاءك، ونحن وإن بعَدَتِ الدائرُ قَرَعاً تَبَعَةً،  
فلا يَجْنِينَّ بُعْدِي على قُرْبِكَ، ولا تمحوون ذِكْرِي من قلبك، فالأَحْوَانُ، وإن كان  
أحدهما بخراسان والآخر بالحجاز، مجتمعان على الحقيقة مفترقان على  
المجاز، والاثنان، في المعنى واحد وفي اللفظ اثنان، وما بيني وبينك إلا  
ستر، طولُهُ فِتْرٌ، وإن صاحبي رَفِيقٌ، اسمه توفيق، لتلتقين سريعاً ولنسعدنَّ  
جميعاً، والله وليُّ المأمول.

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى بعض إخوانه: قد قُرِبَ - أَيْدِكَ اللهُ - محلُّك  
على تراخيه، وتَصاقَبَ مستقرُّك على تنائيه، لأنَّ الشوقَ يمثُّك، والذكر  
يخيِّلك؛ فنحن في الظاهر على افتراق، وفي الباطن على تلاق، وفي  
التسمية مُتباينون، وفي المعنى متواصلون، وإن تفارقت الأشباخُ، لقد  
تعانقت الأرواح.

جملة من كلام ابن المعتز

في الفصول القصار

الدهرُ سريعٌ الوثية، شنيع العترة. أهل الدنيا كركب يُسارُ بهم وهم نيام. والناسُ وُقْدُ  
البلى، وسكان الترى، وأقران الردى. المرءُ نُصِبُ الحوادثِ وأسيرُ الاغترار. الأمالُ

حَصَائِدُ الرِّجَالِ. الْجِرْصُ يَنْقُصُ المرءَ من قَدْرِهِ، ولا يزيِدُ في رِزْقِهِ. الكذب والحسدُ والنفاقُ أَتَافِي الذِّلِّ. التَّمَامُ جَسْرُ الشَّرِّ. الحاسدُ اسْمُهُ صديقٌ ومعناه عدو. الحاسدُ سَاخِطٌ على القَدْرِ، مغتَاظٌ على من لا ذَنْبَ له، بخيلٌ بما لا يملكه، يشفيك منه أنه يَغْتَمُّ في وقت سرورِكَ. الفُرْصَةُ سَريِعَةُ القَوْتِ بَطِيئَةُ العَوْدِ. الصبرُ من ذي المصيبة مصيبُهُ على ذَوِي الشُّمَاتِ. التواضعُ سُلمُ الشرفِ، والجودُ صِوَانُ العِزِّ من الذمِّ. العَدْرُ قاطعُ الأسرارِ إذا كثر حُزَانُهَا ازدادت ضياعاً. السوءُ كشجرة النارِ يَحْرِقُ بعضها بعضاً. عَبْدُ الشهوةِ أذلُّ من عبد الرِّقِّ. وعاء الخِطَا بالضمِّ يختم، والخرقُ بالرِّقِّ يلحم. الوَعْدُ مرضٌ المعروفِ، والإنجازُ برؤهُ، والمَطْلُ تلفهُ. إذا حَصَرَ الأجلُ، افتضح الأملُ. لا تَشَنَّ وَجْهَ العفوِ بالتقريعِ. لا تنكحْ خاطِبَ سيرِكَ. ومن زاد أدبُهُ على عقله كان كالراعي الضعيفِ مع شاةٍ كثيرة.

قال أبو العباس الناشئ لأبي سهل بن نوبخت: الطويل:

زعمت أبا سهل بأنك جامعٌ  
صُروياً من الآداب يجمعُها  
الكَهْلُ

وهبك تقول الحقَّ أي  
تكونُ لذي عِلْمٍ وليس له  
عَقْلُ

والهمَّ حبس الروح. قلوب العقلاءِ حصونُ الأسرارِ. مَنْ كُرِّمَتْ عليه نفسه هان عليه ماله. من جرى في عنانِ أمله؛ عثر بأجلِهِ. ما كل من يُحْسِنُ وعدَهُ يحسنُ إنجازَهُ. ربما أوردَ الطمعُ ولم يصدرِ، وضمن ولم يوفِّ. وربما شرق شارِبُ الماءِ قبل رِيهِ. من تجاوزَ الكفافَ لم يقنعه إكثارُ. كلما عظمَ قَدْرُ المُتَأَقِّسِ فيه عظمت الفجيعَةُ بِفَقْدِهِ، ومن أَرْحَلَهُ الجِرْصُ أنصاه الطلبِ. الأمانِي تعمي أعينَ البصائرِ، والحظُّ يأتي من لم يؤمهِ. وربما كان الطمعُ وعاءً حَشَوهُ المتالفِ، وبسائِقاً يَدْعُو إلى الندامةِ. ما أخلَى تلقِي البغيةِ، وأمرٌ عاقبة الفراقِ. من لم يتأمل الأمرَ بعينِ عقله، لم تَقَعْ حيلتهُ إلا على مَقَاتِلِهِ.

من شعر أبي العباس الناشئ في التعزية

وقال أبو العباس يَرثي المعتضد: الطويل:

قصوا ما قصوا من أمرهم ثم  
قدموا  
إماماً إمام الخلق بين  
يَدَيْهِ

وصلوا عليه خاشعين  
كانهم  
صفوفُ قيامٍ للسلامِ  
عليه

وقال يَرثيه الكامل:

قالت شريرة ما لجفنيك  
سأهراً  
قلِقاً، وقد هدأت عيونُ  
التَّوْمِ

ما قد رأيت من الزمانِ أحل  
بي  
هذا، وتحت الصَدْرِ ما لم  
تَعَلِّمي

يا نفس، صبراً للزمانِ  
ورِيهِ  
فهو المليء بما كرهتِ  
فسلّمي

إن الذي حاز الفضائلَ كلَّها  
هو ذاك في قَعْرِ الضريحِ  
المُظْلَمِ

أما السيوفُ فمن صنائعِ  
بأسِهِ  
لولاه لم يَرَوَيْنِ من سَفْكِ  
الدِّمِّ

وكانَّ أَحَدَاتِ الزمانِ  
عبيدُهُ  
فمتى يُوخَّرهن لا تستقدم  
ومعول للمُعولِ المتظلمِ

يَقْظَانِ من سِنَةِ المصْبِغِ

قَلْبَهُ  
يَرْعَى الضغائن قبل ساعةِ  
فرصةِ  
كم فرصة تُرِكَتْ فصارتْ  
غَصَّةً  
ولربَّ كَيْدٍ ظَلَّ يَسْجُدُ  
بعدها  
وهي المنايا إن رمين بتبليها  
لَلَّهِ دَرْكٌ أَي لَيْثٌ كَتِيْبَةٌ  
ولقد عمرت ولا حريم  
معاند  
وقال للمعتضد يعزّيه بابنه هارون: البسيط:  
يا ناصرَ الدينِ إِذْ هُدَّتْ  
قِوَايِدُهُ  
وقائدَ الخيلِ مَذْ شُدَّتْ  
مَازِرُهُ  
كأنهن قنأً لَيْسَتْ لَهَا عُقْدُ  
قُبِّ كَطِيٍّ ثِيَابِ الْعَصْبِ  
مضمرة  
وسائسَ الملكِ يَرْعَاهُ  
ويكلُوهُ  
تَمْرِي أَتَامِلُهُ الدنْيَا  
لصاحبها  
كَالسَّهْمِ يَبْعَثُهُ الرَّامِي  
فصفحتُهُ  
لَا يَشْتَكِي الدَّهْرَ إِذْ حَطَبُ  
أَلَمَ بِهِ  
صبراً فِدَيْتَاكَ إِنَّ الصَّبْرَ  
عَادَتُنَا  
فبادِرِ الأَجْرَ نحو الصَّبْرِ  
محتسباً

فإذا رآها أمكنت لم يُحجمِ  
تَشُجِّي بطولِ تلهّفِ  
وتندّم  
في بشرٍ وَجِهٍ مطلقِ  
متجهّم  
يرمين في نَفْسِ الأجلِ  
الأعظم  
والخيلُ تعثر بالقتا  
المتحطم  
حرمٌ ولا الإسلام  
بالمستسلم  
وأصدق الناسِ في بُوسَى  
وإنعام  
مذللّاتِ بِإِسْرَاجِ وإلجامِ  
يهرُّها الرّخرُ في كَرٍّ وإقدامِ  
تقربُ النارِ بين البيضِ  
والهام  
إذا خلاَ أَلْعَمُضُ في أجفانِ  
نُؤَامِ  
وتصلّه مِنْ عِدَاهُ قاطِرُ  
دامي  
تلقي الرّدى دوتّه، والفوقِ  
للرامي  
إلا إلى صَعْدَةٍ أو حَدِّ  
صمصام  
وإن طُوبِينَا على حُزْنِ  
وتهيام  
إنّ الجزوعَ صُبُورٌ بعد أيامِ

ولما ماتت دُرَيْدَةُ، وهي جاريةُ المعتضدِ، وكانت مَكِينَةً عنده، جزع عليها جزعاً شديداً، فقال له عبيد الله بن سليمان: مثلك يا أمير المؤمنين تَهُونُ عليه المصائبُ؛ لأنك تجدُ من كل فقيدٍ خَلْفاً، وتنالُ جميعَ ما تريد من العَوْضِ، والعَوْضُ لا يوجَدُ منك، فلا ابتلى اللهُ الإسلامَ بفقدِكَ، وعمره بطولِ بقاءِ عُمُرِكَ، وكانَ الشاعِرُ عَنَى أمير المؤمنين بقوله: البسيط:

يُبَكِّي عَلَيْنَا وَلَا تَبْكِي عَلَيَّ أَحَدٌ لَنَحْنُ أَعْلَطُ أَكْبَاداً مِنَ الإِبْلِ

فضحك المعتضد وتسلّى وعاد إلى عادته.

قال محمد بن داود الجراح: فلقيني عبيدُ الله فأخبرني بذلك، وقال: أردت شعراً في معنى البيت الذي أنشدته فما وجدته؛ فقلت له: قد قال البطين البجلي: الطويل:

طوى الموت ما بيني وبين  
أحبتي  
فلا يحسب الواشون أن  
قناتنا  
ولكن للآلأف لا بدّ لوعّة إذا جعلت  
أقرانها تتطلع  
فكتبه، وقال: لو حفظته لما عدلت عنه.  
رجع إلى ابن المعتز  
وقال ابن المعتز، وذكر الموتى: الطويل:

على قُربِ بعضٍ في المحلة من  
بعضِ  
وسكّانِ دارٍ لا تراؤرَ بينهم

كأن خواتيما من الطين  
فوقهم  
وقال يمدح عبيد الله بن سليمان: الطويل:

إليّ قريباً كنتُ أو نازح الدارِ  
وإن جادَ في أرضٍ سواها  
بإمطارِ  
يقسّمُ لحمي بين نابِ  
وأظفارِ  
وكم من أناسٍ لا يروُنَ بأبصارِ  
فيا لهفَ نفسي لو أعنتُ  
بمقدارِ  
ورفعت ناري كي يرى ضوءها  
الساري  
ترجى ومكروهٍ خلاً بعد إمرارِ  
ولا كلّ ما تخشى النفوسُ  
بضّرارِ  
كما يلحق الغيثُ البلادَ بسَيْلِهِ  
ويا مقبلاً والدّهْرُ عني مُعرضُ  
ويا مَنْ يَراني حيثُ كنتُ بقلبه  
لقد رُمت بي آمالَ نفسي  
كلّها  
ذكرتُ منى سَمع الإمام وعينه  
وكم نعمةٍ لله في صرفِ  
نِقْمَةٍ  
وما كل ما تهوى النفوسُ  
بنافعِ  
قوله:

كما يلحق الغيثُ البلادَ بسَيْلِهِ  
مأخوذ من قول نهشل بن حري وقد بعث إليه كثير بن الصّلت كسوةً ومالاً من المدينة:  
الطويل:

جزي الله خيراً والجزاءُ  
بكفّه  
أتاني وأهلي بالعراقِ  
نداهمُ  
وقال ابن المولى: الوافر:

كما سُرّ المسافرُ بالإيابِ  
غنيّاً عن مطالعة السحابِ  
سُررْتُ بجعفرٍ إذ حلّ أرضي  
كممطورٍ ببلدته فأضحى

وبعث عبدُ الله بنُ طاهر إلى أبي الجنوب بن أبي حفصة وهو ببغداد عشرين ألفَ دَرهم فقال: الطويل:

لعمري لنعم العَيْثُ عَيْثُ  
أصابنا  
وبِغدادَ من أرض الجزيرة  
وأبيلهُ  
وِنِعْمَ الفتى والبيدُ بيني  
وبينهُ  
فكنا كحيِّ صَبَحَ العَيْثُ أهلهُ  
أنى جودُ عبدِ الله حتى كفت  
به

من أخبار عضد الدولة في شجاع وكانت بنو كلاب ومن والآها من العرب بنواحي الكوفة تجمَّعوا وعزَّموا على أخذ الكوفة سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة، فبعث أبو شجاع عضد الدولة دَينير بن لشكروز فأصلحهما، وكان أبو الطيب المتنبى بها فوصله وبعث إليه خلعا وقاد إليه فرسا بسرج ثقيل، فقال في قصيدة: الطويل:

فلو لم يسِرْ سِرِّنا إليه  
بأنفس  
وما أنا ممن يدَّعي الشوق  
قلبه  
ولكن رأيت الفضلَ في القصد  
شركة  
وليس الذي يتَّبَع الوَيْلَ رائداً  
وغيره

عود إلى ابن المعتز وكان ابنُ المعتز يمدحُ أبا أحمد بن المتوكل، ويلقب بالناصر والموفق، وكانت حاله تراقت في أيام المعتضد إلى غاية لم يبلغها الخليفة، وقد ذكرها الصولي في قصيدة لصاحب المغرب، فقال وقد اقتصَّ خلفاء بني العباس من أولهم: الطويل:

ومعتضد من بعده وموفق  
دهب  
موازٍ لهم في كل فضل  
وسودد  
وقال المعتضد، أو قيلَ على لسانه، لما غلب الموفق على أمره: الوافر:

أليس من العجائب أن مثلي  
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً  
وشعر ابن المعتز فيه: الطويل:

إليك امتطينا العيسَ تنفخ في  
البرى  
صدين من التهجير حتى  
كانها

فبتنا ضيوفاً للقلّة قراهم  
يهرُّ برودَ العصبِ فوق  
متونها

ولمّا طعى أَمْرُ الدَّعِيِّ  
رميَّتهُ  
وجرّد من أغماده كل  
مُرْهَفٍ  
جرى فوق مَنبِيهِ الفرْدُ  
كأنما  
وأعلمته كيف التصافح  
بالقنا  
سريعٌ إلى الأعداء، أما  
جناهُ  
ويقرى السؤال العُدْر من بعد  
ماله

أخذ معنى قوله: نسيم كنفث الراقيات عليل عبدُ الكريم بن إبراهيم،  
فقال: المتقارب:

سلامٌ على طيب رَوْحَاتِنَا  
إلى مُزِيدِ المَوْجِ طَامِي العِبَا  
تخال به قَطْمًا مُقَرَّمًا  
ويَسْجُو فيسحب في ذائل  
كأنَّ الشمال على وَجْهِهِ  
ضعيفة رَشٌّ كَتَفَتْ الرِّقَى  
إذا دَرَجَتْ فوقه دَرَجَتْ  
وقد جللتها بأوراقها  
علتها الحمام بتغريدها  
كأن شعاع الضحى بينها  
وشائع من دَهَبِ سائل  
رُبًّا تتفقا من فوقها  
على كل محبية خلة  
كما قتل الوُفْفَ صَوَّاعُهُ

وقول ابن المعتز: ولما طغا أمرُ الدعِيِّ يريد صاحب الزنج بالبصرة، وكانت شوكته قد  
اشتدت وظفر به بعد واقعة كثيرة، وفي ذلك يقول ابنُ الرومي في قصيدة طويلة  
جداً يمدح فيها أبا أحمد الموفق بن المتوكل، وصاعد بن خالد، والعلاء بن صاعد ابنه،  
وهي من أجود شعره، فقال: الطويل:

أبا أحمدٍ، أبلَيْتِ أُمَّةَ أحمدٍ  
بلاءً سيرضاهُ ابنُ عمك  
أحمدُ  
حصرت عميدَ الزنج حتى  
تخاذلتُ  
فظلَّ، ولم تقتله، بلفظ  
نفسه  
وكأيت نواحيه كثافاً فلم  
تزلُ

قواه، وأودى زأده المتزودُ  
وظلَّ، ولم تأسيره، وهو  
مقيدُ  
تحيفها شخذاً كأنك مبردُ

تفرّق عنه بالمكايد جُنْدُهُ  
ويزدادهم جنداً وجندك  
محصدٌ

ولايسُ سَيْفِ الْقَرْنِ بَعْدَ  
أَسْتَلَايِهِ  
فمِلْ رُمْتَهُ حَتَّى اسْتَقَلَّ  
بِرَأْسِيهِ  
مَكَانَ قَنَاةِ الظَّهْرِ أَسْمُرُ  
أَجْرُدُ

هذا مأخوذ من قول مسلم بن الوليد البسيط:

ورأس مهراق قد ركبتُ قُلَّتَهُ  
لَدُنَا يَقُومُ مَقَامَ اللَّيْتِ  
وَالجَيْدِ

الطويل:

ولم تأل إنذاراً له غير أنه  
سكنت سكوناً كان رهناً  
بوئبة  
رأى أن متن البحر صرّح  
ممرّد  
عماس، كذاك الليث للوثب  
يلبّد

هذا مأخوذ من قول النابغة: البسيط:

وقلت يا قوم إن الليث  
منقبضٌ

ويقول في مدح صاعد: الطويل:

على برائيه، ليوئبة الضاري

ويوصفُ إلا أنه لا يحدّد  
طباعاً، وأمضى من سبأه  
وأنجد

يقرّط إلا أن ما قيل دونه  
أرق من الماء الذي في  
حسامه

كما اكنن في الغمد الجراؤ  
المهتد  
رأى كيف يرقى في المعالي  
ويصعد

له سؤرة مُكْتَنُهُ فِي  
سَكِينَةٍ  
كأن أباه حين سمّاه  
صاعداً

لما سمع البحري هذا البيت قال: مني أخذه، في قوله في العلاء بن  
صاعد: الكامل:

سماه أسرته العلاء وإنما  
قصدوا بذلك أن يتمّ علاه  
وهذا في قوله، كما قال ابن المرزبان وقد أنشد لابن المعتز في مناقضة الطالبين:  
المتقارب:

دَعُوا الْأَسَدَ تَسْكُنُ فِي غَابِهَا  
فَنَحْنُ وَرُثْنَا ثِيَابَ النَّبِيِّ  
ولا تدخلوا بين أثيابها  
قَلِمٌ تَجْدُبُونَ بِهَدَّابِهَا

قال: قد أخذه من أقول، بعض العباسيين: المتقارب:

دَعُوا الْأَسَدَ تَسْكُنُ أَغْيَالِهَا  
ولا تقرّبوها وأشبالها

ولكنه سرق ساجاً، وردّ عاجاً، وغلّ قطيفة، وردّ ديباجاً.  
ومن قصيدة ابن الرومي: الطويل:

تراه على الحزب العوان  
بمنزل  
وآثاره فيها، وإن غاب، شهّد

كما احتجب المقدار والحكم  
حكّمه  
على الخلق طراً ليس عنه  
معرّد

البحري: الكامل: ?وَلِيّ الْأُمُورِ بِنَفْسِهِ، وَمَحَلُّهَا= مُتْقَارِبٌ، وَمَرَامُهَا مُتْبَاعِدٌ

يَتَكَفَّلُ الْأَدَتَى، وَيَذَرِكُ رَأْيَهُ الْإِل  
أَقْصَى، وَيَتَّبَعُهُ الْأَبْيُّ الْعَائِدُ  
إِنْ غَارَ فَهَوَّ مِنَ النَّبَاهَةِ مَنْجِدُ  
أَوْ غَابَ فَهَوَّ مِنَ الْمَهَابَةِ  
شَاهِدُ

وقال أعرابي يصف رجلاً: كان إذا ولى لم يطابق بين جفونه؟ ويرسل العيون على عيوق؛ فهو غائب عنهم، شاهد معهم، والمحسب آمن، والمسيء خائف: الطويل:

فَتَى رُوحَهُ رُوحٌ بَسِيطٌ كِيَانُهُ  
وَمَسْكَنُ ذَلِكَ الرَّوْحِ نُورٌ  
مُجَسَّدٌ

صَفَا وَتَقَى عَنْهُ الْقَذَى  
فَكَأَنَّهُ

كَرِمْتُمْ فَجَاشَ الْمَفْحَمُونَ  
يَمْدِحِكُمْ

أَرَى مَنْ تَعَاطَى مَا بَلَغْتُمْ  
كَرَائِمَ

كَمَا أَزْهَرَتْ جَنَاتٌ عَدْنٍ  
وَأَثْمَرَتْ

وفي هذه القصيدة يقول:

لِمَا تُؤْزِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ  
صُرُوفِهَا

وَإِلَّا فَمَا يُبْكِيهِ مِنْهَا وَإِنِهَا  
إِذَا أَبْصَرَ الدُّنْيَا اسْتَهْلَ كَأَنَّهُ

يَكُونُ بِكَاءِ الطِّفْلِ سَاعَةً  
يُولَدُ

لَأَفْسَحُ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَأَزْعَدُ  
بِمَا سَوْفَ يَلْقَى مِنْ رَدَائِهِ  
يُهَدِّدُ

قال الصولي: افتتح ابن الرومي هذه القصيدة على ما لا يلزمه من فتح ما قبل حَرْفِ الروي اقتداراً، فحملة ذلك علي أن قال: الطويل:

مَتَاعٌ لَهُ مَقْدَارُهُ فَكَأَنَّمَا  
تَقْوُضُ تَهْلَانُ عَلَيْهِ وَصِنْدُ

تهلان: اسم جبل، وهذا لا يصح، إنما هو صندد بكسر الدال؛ لأن فعلاً لم يجرى إلا في أربعة أحرف: درهم، وهجرع للأحمق، وهبلع للذي يبلغ كثيراً، وقلمع للذي يقلع الأشياء. وقول ابن المعتز في وصف السيف: كأنما تنفس فيه القيئ وهو صقيل (معنى بديع في وصف الفرند، وقد قال: الطويل:

وَلِي صَارِمٌ فِيهِ الْمَنَايَا كَوَامِنُ  
تَرَى فَوْقَ مَتْنِيهِ الْفِرْنِدَ كَأَنَّهُ

وقال أيضاً إسحاق بن خلف: مجزوء الكامل:

أَلْقَى بِجَانِبِ خَصْرِهِ  
وَكَأَنَّمَا دَرَّ الْهَبَا

ولما صار سيف عمرو بن معد يكرب الذي يسمي الصمصامة إلى الهادي، - وكان عمرو وهبه لسعيد بن العاص، فتوارته ولده إلى أن مات المهدي، فاشتراه موسى الهادي منهم بمال جليل، وكان أوسع بني العباس كفاً، وأكثرهم عطاءً - ودعا بالشعراء، وبين يديه مكئل فيه بدرة، فقال: قولوا في هذا السيف، فبدر ابن يامين البصري فقال: الخفيف:

حَازَ صَمْصَامَةَ الزَّيْبِدِيِّ مِنْ  
بِي

سَيْفٍ عَمَّرُوهُ وَكَانَ فِيهَا  
سَمِعْنَا

أَخْضَرَ اللَّوْنَ بَيْنَ خَدَيْهِ بَرْدُ  
مِنْ دُعَايِ يَمِيسُ فِيهِ

المنون

أوقدت فوقه الصواعقُ ناراً

ث

م

ش

ا

ب

ت

ف

ي

ه

ا

ل

ذ

ء

-

ا

ف

ا

ل

-

ق

-

ي

و

ن

س ضياءً فلم تكد	فإذا ما سللته بهر الشم
تستبين	ما يُبالي من ائتصاه
أشمالاً سَطَتْ بهِ أو	لحرب
يَمِينُ؟	يستطيعُ الأَبصارَ كالقَبسِ
عَلْ ما تستقرُّ فيه	المش
العيونُ	وكانَ الفَرْدُ والجوهر
ري على صفحتيه ماءٌ	والجا
معين	نَعَمَ مخراقِ ذي الحفيظة
جاء يَعْصَى بهِ ونَعَمَ	في الهب
القريُّ	

قال موسى: أصبت ما في نفسي، واستخفّه الفرح، فأمر له بالمكّتل  
والسيف؛ فلما خرج قال للشعراء: إنما حُرمتم من أجلي، فشأنكم  
المكّتل، وفي السيف غناي فقام موسى فاشترى منه السيف بمالٍ  
جليل.

البحثري: الكامل:

لأخيك من جدوى يدك بمُنْصَل	قد جُدَّت بالطَّرْفِ الجوادِ قَتَّنَه
عَفَواً، وَيَفْتَحُ في الفضاء المُقْفَل	يتناولُ الرُّوحَ البعيدَ منالهُ
وهدايةٍ في كل نفسٍ مَجْهَل	بإنارةٍ في كلِّ حَنَفٍ مُظْلِم
مِنْ حَدِّهِ، والدَّرْعُ ليس بمَعْقِل	يَعْنَسِي الوَعْيَ فالتُّرْسُ ليس بَجَنَّةٍ
بَطَلٍ، وَمَصْفُوقٌ وإن لم يُضَقَّل	ماضٍ وإن لم تُمَضِّهِ يَدُ فارسٍ
لم يلتفتْ، وإذا قصَى لم يَعْدِل	مُضْغٌ إلى حُكْمِ الرِّدَى فإذا مَصَّي
ما أدركتْ ولو أُنْهَى في يَدْبُل	متوقِّدٌ يَفْرِي بأوَّلِ صَرِيَّةٍ
حفان يَعْصِي بالسَّمَاكِ الأَعْرَل	فكأنَّ فارسه إذا استعصى به الرُّ
وإذا أصيبَ فما له من مَقْتَل	فإذا أصابَ فكلُّ شيءٍ مَقْتَلٌ
من عَهْدٍ عادٍ عَصَّةً لم تَدْبُل	حَمَلَتْ حَمَائِلُهُ القديمةُ بِقَلَّةٍ

وقال أبو القاسم بن هاني للمعز: الكامل:

تَسِيلِ النفوسِ عليك مِنْهُ مَسِيلاً	عَجَباً لِمُنْصَلِكِ المُقْلِدِ كيفَ لم
إلا تَشَحَّطَ في الدماءِ فتيلاً	لم يَحُلْ جَبَّارُ الملوِكِ بذكره
للنَّيِّرَاتِ وَنَيِّراً مَعْلُولا مُتَنَكِّباً وَمَضَاوُهُ مَسْلُولا	فإذا رأيناهُ رأينا عِلَّةً بك حُسْنُهُ مُتَقَلِّداً وَبِهاوُهُ
يَعْدُو بها طَرْفُ الزمانِ كحَيْلا	فإذا عَصِبَتْ عَلْتُهُ دونك رُبْدُهُ
شمس الظهيرة عَارِضاً مصقولاً	وإذا طربت إلى الرُّضا أهدى إلى
فَعَرَفْتُ فيه التاجِ والإكْلِيلِ	كَتَبَ الفَرْنِدُ عليه بعضَ صفايَكُم

وقال: الكامل:

مَرِحٌ وَجائِلُهُ التُّسُوعِ أُمُونٌ؟	هل يُدْنِيبي من فنائكِ سَابِح
--	----------------------------------

وْمُهَنْدٍ فِيهِ الْفَرِنْدُ كَأَنَّهُ  
دَرَّ لَهُ حَلْفَ الْفِرَاتِ  
كَمِينٌ  
لَكِنَّهُ مِنْ أَنْفُسِ  
مَسْكُونِ  
عَصَبِ الْمَضَارِبِ مُقْفِرًا مِنْ  
أَعْيُنِ  
وأهدى الكندي إلي بعض إخوانه سيفاً، فكتب إليه: الحمد لله الذي خصك  
بمنافع كمنافع ما أهديت، وجعلك تهتز للمكارم اهتزاز الصارم، وتمضي  
في الأمور مضاء حده المأثور، وتصون عرضك بالإرفاد، كما تُصان  
السيوف بالأغماد، وبترد ماء الحياء في صفحات خدك المشوف، كما  
يشف الرونق في صفائح السيوف، وتصل شرفك بالعطيات، كما تصل  
مُتَوْنُ الْمَشْرِفِيَّاتِ.  
من أخبار أبي جعفر المنصور  
قدم على أبي جعفر المنصور وَفَدُ من الشام بعد انهزام عبد الله بن  
علي، وفيهم الحارث بن عبد الرحمن الغفاري، فتكلم جماعة منهم، ثم  
قام الحارث فقال: يا أمير المؤمنين، إنا لسنا وفد مياهاة، ولكنا وفد توبة  
استخفت حليمنا؛ فنحن بما قدمنا معترفون، وبما سلف منا مُعْتَذِرُونَ،  
فإن تعاقبنا فيما أجرمنا، وإن تغف عنا فطالما أحسنت إلى من أساء،  
فقال المنصور: أنت خطيب القوم، ورد عليه ضياعه بالغوطة.

وقاد رجل من أهل الشام للمنصور: يا أمير المؤمنين، من انتقم فقد شفى  
غيظه وانتصف، ومن عفا تفضل، ومن أخذ حقه لم يجب شكره ولم يذكر  
فضله، وكظم الغيظ حلم، والتشفي طرف من الجرع، ولم يمدح أهل التقى  
والنهي من كان حليماً بشدة العقاب، ولكن بحسن الصفح والاعتذار وشدة  
التغافل، وبعد، فالمعاقب مستدع لعداوة أولياء المذنب، والعافي مسترع  
لشكرهم أم من مكافأتهم، ولأن يئس عليك بالتساع الصدر خير من أن  
توصف بصيغه، على أن إقالتك عثرات عباد الله موجب لإقالة عثرتك من  
ربهم، وموصول بعفوه، وعقابك إياهم موصول بعقابه، قال الله عز وجل:  
"حِذِّ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ".

العفو عند المقدرة

وقال بعض الكتاب لرئيسه وقد عتب عليه: "إذا كنت لم ترض مني بالإساءة  
فلم رضيت من نفسك بالمكافأة؟".  
وأذنب رجل من بني هاشم فقبضه المأمون، فقال: يا أمير المؤمنين، من  
حمل مثل دالتي، وليس ثوب حرمتي، عُفِرَ له مثل رلتي، قال: صدقت وعفا  
عنه.

ولما دخل بعض الكتاب على أمير بعد نكبة نالته فرأى من الأمير بعض  
الازدياء، فقال له: لا يصغني عندك خمول التوبة، وزوال الثروة؛ فإن السيف  
العتيق إذا ميسه كثير الصدا استغنى بقليل الجلاء حتى يعود حده، ويظهر  
فرنده؛ ولم أصف نفسي عجباً، لكن شكراً. وقال، صلى الله عليه وسلم: "أنا  
أشرف ولد آدم ولا فخر"، فجهر بالشكر، وترك الاستطالة بالكبر.  
من أخبار المعتصم

وكان تميم بن جميل السدوسي قد أقام، بشاطئ الفرات، واجتمع إليه كثير من  
الأعراب، فعظم أمره، وبعد ذكره؛ فكتب المعتصم إلى مالك بن طوق في النهوض

إليه، فتبدد جمعهُ، وظفر به فحملهُ مُوتَقاً إلى باب المعتصم، فقال أحمد بن أبي داود: ما رأيتُ رجلاً عاين الموت، فما هاله ولا شغله عما كان يجبُ عليه أن يفعله إلا تميم بن جميل؛ فإنه لما مثَل بين يدي المعتصم وأحضر السيفَ والنطعَ، ووقف بينهما تأمله المعتصم - وكان جميلاً وسيماً - فأحبَّ أن يعلمَ أين لسائهُ من منظره، فقال: تكلم يا تميم، فقال: إذا إذ أدنت يا أمير المؤمنين، فأنا أقول: الحمدُ لله "الذي أحسنَ كلَّ شيءٍ خلقَهُ وبدأَ خلقَ الإنسانِ من طينٍ، ثُمَّ جَعَلَ تَسْلُهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ" أبا أمير المؤمنين: جبر الله، بك صدعَ الدين، ولمَّ بك شعثَ المسلمين، وأوضح بك سُبلَ الحقِّ، وأحمدَ بك نيهابَ الباطل؛ إن الذنوبَ تحرس الألسنَ الفصيحة، وتُعْيي الأفتدةَ الصحيحة، ولقد عظمتَ الجريرة، وانقطعتَ الحجةُ وساءَ الظنُّ، فلم يبق إلا عفوك وانتقامك، وأرجو أن يكونَ أقربهما مني وأسرعهما إليَّ أشبههما بك، وأولهما بكرمك، ثم قال: الطويل:

أرى الموتَ بين السيفِ وَالنطعِ كامنًا	يُلاحظني من حيثما أتلفتُ
وأكبرُ ظني أنك اليومَ قاتلي	وأَيُّ امرئٍ مما قصَى الله يفلت
وأَيُّ امرئٍ يأتي بعُدْرٍ وُحْجَةٍ وما جرّعي من أن أموتَ وإنني	وسيفُ المنايا بين عينيه مُصلتُ لأعلمُ أن الموتَ شيءٌ موقُتُ
ولكنَّ حَلْفِي صَبِيَّةٌ قد تركتهم	وأكبأُهم من حَسْرَةٍ تفتتُ
فإن عشتُ عاشوا سالمين بغِبطةٍ	أدودُ الرّدى عنهم وإن متُّ مَوْتُوا
وكم قائلٍ لا يبعد الله دارهُ	وأخر جَدْلانُ يسرُّ ويشمتُ

فتبسّم المعتصم وقال: يا جميل، قد وهبتك للصّبية، وغفرت لك الصّبوة، ثم أمر بفك قيوده، وخلع عليه، وعقد له على شاطئ القُرات. وكتب المعتصم - حين صارت إليه الخلافة - إلى عبد الله بن طاهر: عافانا الله وإياك، قد كانت في قلبي منك هتاتٌ غفرتها الاقتدار، وبقيت حزازات أخاف منها عليك عند نظري إليك؛ فإن أتاك ألفُ كتابٍ أستقدمك فيه فلا تقدّم، وحسبُك معرفةً بما أنا مُنطَوٍ لك عليه إطلاعي إياك على ما في ضميري منك، والسلام.

قال العباس بن المأمون: ولما أفصت الخلافة إلى المعتصم دخلتُ، فقال: هذا مجلسُ كنتَ أكرهه الناسَ لجلوسي فيه، فقلت: يا أمير المؤمنين، أنت تعفو عما تيقنته، فكيف تعاقب على ما توهمت؟ فقال: لو أردت عقابك لتركت عتابك.

وكان المعتصم شهماً، شجاعاً، عاقلاً، مفوّهاً، ولم يكن في خلفاء بني العباس أميٍّ غيره، وقيل: بل كان يكتبُ خطاً ضعيفاً، وكان سبب ذلك أنه رأى جنازة لبعض الخدم، فقال: ليتني مثله لأتخلص من الكتاب فقال الرشيد: والله لا عذبتك بشيءٍ تختارُ عليه الموت.

قال أبو القاسم الزجاجي: وهذا شيءٌ يُحكى من غير رواية صحيحة، إلا أن جملته أنه كان ضعيفَ البصر بالعربية.

وقرأ أحمد بن عمار المذري - وكان يتقلد العرَضَ عليه في الحضرة - كتاباً

فيه: ومطرنا مطراً كثر عنه الكلاً" فقال له المعتصم: ما الكلاً؟ فقال: لا أدري. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! خليفة أمي وكاتب أمي! ثم قال: من يقرب منا من كتاب الدار؟ فعرف مكان محمد بن عبد الملك الزيات، وكان يتولى قَهْرَمَةَ الدار، ويُشْرِفُ على المطبخ، فأحضره، فقال: ما الكلاً؟ فقال: النبات كله رطبُه ويابسُه؛ فالرطب منه خاصة يقال له خلا، ومنه سميت المخلاة، واليابس يقال له حشيش؛ ثم اندفع في صفات النبات من لى ابتدائه إلى اكتماله إلى هَيْجِه، فاستحسن ذلك المعتصم، وولاه العَرْض من ذلك اليوم، فلم يزل وزيراً مدة خلافته وخلافة الواثق، حتى نكبه المتوكل بحقودِ حَقَّدها عليه أيام أخيه الواثق؟.

وقال الرياشي: كتب ملك الروم إلى المعتصم كتاباً يتهدده فيه، فأمر بجوابه، فلما قرئ عليه لم يَرْضَ ما فيه، وقال لبعض الكتاب: اكتب: أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت خطابك، والجواب ما ترى، لا ما تسمع، وسيعلم الكافر لمن عُقِبَى الدار.

وهذا نظير قول قَطْرِي للحجاج، وقد كتب إليه كتاباً يتهدده، فأجابه قطري: أما بعد، فالحمد لله الذي لو شاء لجمع شخصيتنا؛ فعلمت أن مُثاقفة الرجال أقوم من تَسْطِيرِ المقال، والسلام.

بين المهلب والحجاج

ولما افتتح المهلبُ خراسان، وتَقَى الخوارج عنها، وتفرقت الأزارقة، كتب الحجاجُ إليه أن اكتب لي بخبر الوقعة، واشرح لي القصة حتى كاني شاهداً، فبعث إليه المهلبُ كعب بن معدان الأشعري، فأنشده قصيدة فيها ستون بيتاً تقتض خبرهم لا يخرم منه شيئاً؛ فقال له الحجاج: أخطيب أم شاعر؟ قال له: كلاهما، أعز الله الأمير! قال: أخبرني عن بني المهلب، فقال له: المغيرة سيدهم، وكفالك بيزيد فارساً، وما لقي الأبطال مثل حبيب، وما يستحي شجاع أن يفر من مُدْرِك، وعبد الملك موثٌ دُعاف وسم نافع، وحسبك بالمفضل في النجدة، واستجهر قبضة، ومحمد ليث غاب، فقال الحجاج: ما أراك فضلت عليهم واحداً منهم؛ فأخبرني عن جملتهم ومن أفضلهم؟ فقال: هم - أعز الله الأمير! - كالحلقة المفرغة لا يُدْرَى أين طرفها، قال: إن خبرَ حَرْبِكُم كان يبلغني عظيماً، أفكذلك كان؟ قال: نعم أيها الأمير، والسماع دون العيان. قال: أخبرني كيف رِضا المهلب عن جنده ورضاً جنده عنه؟ قال: أعز الله الأمير، له عليهم شفقة الوالد، ولهم به برُّ الولد. قال: أخبرني كيف فاتكم قَطْرِي؟ قال: كدَّته في منزله فتحول عنه، وتوهم أنه كادنا بذلك، قال: فهلا اتبعتموه؟ قال: الكلب إذا أجر عَقْر، قال: المهلبُ كان أعلم بك حيث أرسلك.

وقد روي أن المهلبَ لما فرغ من قتل عبد ربه الحروري دعا بشر بن مالك فأنفذه بالبشارة إلى الحجاج، فلما دخل إلى الحجاج قال: ما اسمك. قال: بشر بن مالك، فقال الحجاج: بشارة وملك! وكيف خلفت المهلب؟ قال: خلفته وقد أمن ما خاف، وأدرك ما طلب؛ قال: كيف كانت حالكم مع عدوكم؟ قال: كانت البداء لهم، والعاقبة لنا، قال الحجاج: العاقبة للمتقين، ثم قال: فما حال الجند؟ قال: وسعهم الحق، وأغناهم النقل، وإنهم لمع رجل يسوسهم سياسة الملوك، ويقايل بهم قتال الصعلوك، فلهم منه برُّ الوالد، وله منهم طاعة الولد، قال: فما حال ولد المهلب؟ قال: رعاة التيات حتى يؤمنوه، وحمأة السرح حتى يردوه، قال: فأيهم أفضل؟ قال: ذلك إلى

أبيهم، قال: وأنت أيضاً، فإني أرى لك لساناً وعبارة، قال: هم كالحلقة المفرغة لا يُدري أين طرفها، قال: ويحك أكنت أعددت لهذا المقام هذا المقال؟ قال: لا يعلم الغيب إلا الله.

بين أبي الصقر وصاعد بن مخلد  
ودخل أبو الصقر قبل وزارته على صاعد بن مخلد، وهم الوزير حينئذ، وفي المجلس أبو العباس بن ثوابة، فسأل الوزير عن رجل، فقال: أنفي؟ يريد نفي؟ فقال ابن ثوابة: في الخرز، فتضحك به أهل المجلس، فقام أبو الصقر مُغضباً.

بين أبي العيناء وابن ثوابة  
وكان أبو العيناء يُعادي ابن ثوابة لمعاداته لأبي صقر؛ فاجتمعا في مجلس صاعد في غد ذلك اليوم، فتلاخيا، فقال ابن ثوابة: أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك ضيق الطعن، كثير الوسن، خاراً على الذقن، وقد بلغني تعديك على أبي الصقر، وإنما حلم عنك؛ لأنه لم يجد لك عزاً فبدله، ولا علواً فيصعه، ولا مجدداً فيهدمه؛ فعاف لحمك أن يأكله، ودمك أن يسفكه، فقال ابن ثوابة: ما تساب إنسانان إلا غلب الأملهما، فقال أبو العيناء: فلماذا غلبت بالأمس أبا الصقر!

مكارم أبي الصقر  
ومما يُعَدُّ من مكارم أبي الصقر أن ابن ثوابة دخل عليه في وزارته، فقال: تالله لقد أترك الله علينا وإن كنا لخاطئين، فقال أبو الصقر: لا تثرِبَ عليك، يغفر الله لك وهو أرحم الراحمين، فما قصّر في الإحسان إليه، والإنعام عليه، مدة وزارته.

بين أبي الصقر وأبي العيناء  
ولما ولي أبو الصقر الوزارة خير أبا العيناء فيما يحبّه حتى يفعلّه به، فقال: أريد أن يكتب لي الوزير إلى أحمد بن محمد الطائي يعرفه مكاني، ويلزمه قضاء حق مثلي.

فكتب إليه كتاباً بخطه، فوصله إلى الطائي، فسبب له في مدة شهر مقدار ألف دينار، وعاشره أجمل عشرة، فانصرف بجميع ما يحبّه.  
وكتب إلى أبي الصقر كتاباً مضمونه: أنا - أعزك الله - طليقك من الفقر، ونقيذك من البؤس، أخذت بيدي عند عثرة الدهر، وكبوة الكبر وعلى أية حال حين فقدت الأولياء والأشكال والإخوان والأمثال، الذين يفهمون في غير تعب، وهم الناس الذين كانوا غيائاً للناس، فحللت عقدة الخلة، ورَدَدت إليّ بعد النفور النعمة، وكتبت لي كتاباً إلى الطائي، فكأنما كان منه إليك، أتيتُه وقد استصعبت عليّ الأمور، وأحاطت بي النوائب؛ فكثير من يسره؟ وبدل من يسره، وأعطى من ماله أكرمه، ومن برّه أحكمه، مُكرماً لي مدة ما أقمت، ومثقلاً لي من فوائده لما ودّعت، حكمني في ماله فتحكمت، وأنت تعرف جوري إذا تمكنت، وزادني من طوله فشكرت؛ فأحسن الله جزاءك، وأعظم حياءك، وقدمني أمامك، وأعاذني من فقديك وحمائمك؛ فقد أنفقت عليّ مما مملكك الله، وأنفقت من الشكر ما يسره الله لي، والله عز وجل يقول: "لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ" فالحمد لله الذي جعل لك اليد الغالبة، والرتبة الشريفة، لا أزال الله عن هذه الأمة ما بسطَ فيها من عدلِكَ، وبنتَ فيها من رِفْدِكَ.

بين أبي العيناء وأحمد بن الخصيب

قطعة مختارة من نسخة الكتاب الذي عمله أبو العيناء في ذمّ أحمد بن الخصب لَمَّا نَكِبَ على ألسنة الكُتّاب والقوَّاد وأرباب الدولة في ذلك الوقت. قال: ذكره محمد بن عبد الله بن طاهر فقال: ما زال يَحرق ولا يرقع، وما زِلْتُ أتوقع له الذي وَقَع فيه. وذكره أتامش، فقال: غدر بمن أثره، وتخطى إلى ما لا يقدره، فحل به ما يحذره. وذكره بُغَاءُ فقال: أَبطَرْتُهُ النعمة، ففجأته النعمة. وذكره وصيف فقال: تَرَكُ العقلاء على يَأْسِ مرتبته، والحمقى على رجاء درجته! وذكره موسى بن بُغَاءُ فقال: لولا أن القَدَر يعشي البَصْر، لَمَا تَهَى فينا ولا أمر. وذكره فارس بن بغاء فقال: لم تَمِّ له نِعْمَةٌ؛ لأنه لم تَكُنْ له في الخير هَمَّة. وذكره الفضل بن العباس فقال: إن لم يكن تاريخ البلاء فما أعظم البلوى. وذكره هارون بن عيسى فقال: كانت دولة من دُول المجانين، خرَجَتْ من الدنيا والدين. وذكره المغلى بن أيوب، فقيل له: ما أعجب ما نكَب، فقال: نعمته أعجب من نكبته! وذكره ميمون بن إبراهيم، فقال: لو تأمَّل فعاله فاجتنبها، لاستغنى عن الآداب أن يطلبها! وذكره محمد بن نجاح فقال: لئن كانت النعمة عظمت على قوم خرج عنهم لقد عظمت المصيبة على قوم نزل فيهم! وذكره علي بن يحيى بن المنجم، فقال: لم يكن له أوَّل يَرْجِعُ إليه، ولا آخر يعود عليه، ولا عقل فيزكو لديه! وذكره محمد بن موسى بن شاكر المنجم فقال: قُبِحَ الله إن ذكرت دَا قَصْل تنقصه لما فيه من صِدِّه، أو ذكرت دَا تَقْص تولاه لما فيه من شكله. وذكره ابن تُوَّابَة فقال: امرؤ أساء عِشْرَةَ الأحرار، فأصبح مَقْفِرَ الديار. وذكره حجاج بن هارون فقال: ما كان له في الشرف أسباب مِثَان، ولا في الخير عادات حِسان. وذكره أحمد بن حمدون فقال: إن منحته القدرة لقد حملته النكبة. وذكره محمد بن الفضل فقال: ما زال يستوحش بالنعمة حتى أنس بالنعمة وذكره عبد الله بن فراس فقال: كنت إذا نصحت زتاني، وإذا غششت مئاني. وذكره أبو صالح بن عمار فقال: لئن علا بحظ لقد انحط بحق. وذكره سعيد بن حميد فقال: إذا أصاب أحجم، وإذا أخطأ صمم.

أخبار أبي بكر المعروف بسبويه

وكان في هذا العصر بمصر أبو بكر المعروف بسبويه ناقلة البصرة يُشبهه في حضور جوايه وخطايه، وحسن عبارته، وكثرة روايته، وكان قد تناول البلاد؛ فعرضت له منه لوثه، وكان أكثر الناس يتبعونه ويكتبون عنه ما يقول.

قال يوماً للمصريين: يا أهل مصر، أصحابنا البغداديون أحرم منكم، لا يقولون بالولد، حتى يتخذوا له العقد والعُدَد؛ فهم أبدأ يعتزلون. ولا يقولون باتخاذ العَقَّار خوفاً أن يملكهم سوء الجوار؛ فهم أبدأ يكتزون. ولا يقولون باتخاذ الحرائر خوفاً أن تتوق نفسهم إلى السَّرَّاري؛ فهم أبدأ يتسَرَّرون. ولا يقولون أبدأ بإظهار الغنى في مكان عُرفوا بالفقر؛ فهم أبدأ يسافرون. ووقف يوماً بالجامع وقد أخذت الخلق مأخذها، فقال: يا أهل مصر، حيطلن مقابر أنفع منكم، يُستتره بها من التعب، ويُستدقأ بها من الريح، ويُستظل بها من الشمس. والبهايم خير منكم تُمتطى ظهورها، وتُختذى جلودها، وتؤكل لحومها.

وكان أبو الفضل بن خنزابه الوزير، ربّما رفع أنفه بيها، فقال له سبويه، وقد رآه فعل ذلك: أشم مني الوزير رائحة كريهة فيشم أنفه، فأطرق واستعمل النهوض، فخرج سبويه، فقال له الرجل: من أين أقبلت؟ فقال: من عند

الرَّاهِي بنفسه، المدلُّ بفرسه، المستطيل على أبناء جِيسِه. واستأذن على مسلم بن عبيد الله العلوي، ومسلم من أهل الحجاز نزل مصر، فحجب عنه، فقال: قولوا له: يرجع إلى لبس العباء، ومَصَّ النوى، وسُكِنَى القَلَا، فهو أشَبَهُ به من نعيم الدنيا. وكان على شرطِ كافور الإخشيدي أحدُ الخاصَّة؛ فوجد عليه سيبويه في بعض الأمر، فعزل عن الشرطة، فوليها رَكِي صاحب الراضي، فلم يحمده أيضاً، فوقف لكافور وهو ما رَّ إلى الصلاة يوم الجمعة، فقال: أيها الأستاذ، وليت ظالماً، وعزلت ظالماً، قليل الوفاء، كثير الجفاء، غليظ القفا. فتبسَّم ابن بُرك البغدادي، وكان يسائرُ كافوراً، فقال: وهذا ابن برك ممن يغرُّك، لن ينفَعك ولن يضرك.

وأخلى الحمام لمفلح الحسيني، فأتى سيبويه ليدخل، فمُنِع، وقيل: الأمير مفلحُ به، فقال: لا أنقى الله مغسولَه، ولا بلغه سُولَه، ولا وقاه من العذاب مَهولَه، وجلس حتى خرج، فقال: إن الحمام لا يُخلى إلا لأحدٍ ثلاثة: مبتلى في قُبله، أو مبتلى في دُبره، أو سلطان يخافُ من شرِّه، فأَي الثلاثة أنت. قال: أنا المقدم.

وأحضره أبو بكر بن عبد الله الخازن فقال: قد بلغني بَدَاءُ لسانك، وقبيحُ معاملتك للأشراف، فاحذَر أن تعودَ فينالكَ مني أشدُّ العقوبة؛ فخرج متحزناً، فكان الولدان يتولعون به ويذكرون له الخازن، فيشتدُّ عليه ذلك، فينصرف ولا يكلمهم؛ فمرَّ به رجل يكنى أبا بكر من ولد عقبة بن أبي مُعَيْط، وغلَامٌ قد ألحَّ عليه بذلك، فضحك المعيطي، فقال للغلام: ضرب الله عنق الخازن كما ضرب النبي، صلى الله عليه وسلم، عنق عقبة بن أبي معيط على الكفر، وضرب طَهْرَ أبيك بالسوط كما ضرب عليُّ بن أبي طالب بأمر عثمان، رضي الله عنهما، ظهر الوليد بن عقبة على سُرب الخمر، وألحقك يا صبي بالصُّبِيَّة، يريد قولَ النبي، صلى الله عليه وسلم، وقد قال له عقبة لما أمر النبي، صلى الله عليه وسلم، علياً، رضي الله عنه، بِقَتْلِهِ: "فَمَنْ للصُّبِيَّة يا رسول الله؟" قال: "النارُ لك ولهم"، فانصرف المعيطي وبَطْنُ الأرضِ أحبُّ إليه من ظَهْرِهَا.

رَجَعَ إلى أبي العيناء وقال أبو العيناء: أنا أولُ من أظهر العقوقَ لوالديه بالبصرة، قال لي أبي: إن الله قد قرَن طاعته بطاعتي، فقال تعالى: "أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ" فقلتُ: يا أبت، إن الله تعالى قد أمَّنني عليك ولم يأمنك عليّ، فقال تعالى: "وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَسْبِيَ إِمْلَاقٍ تَحْنُ تَبْرُؤُهُمْ وَإِيَّاكُمْ". وقال أعرابي لأبيه: يا أبت، إن كبيرَ حقِّك لا يبطل صغيرَ حقِّي عليك، والذي تَمَّتْ به إليّ أمٌّ بمثله إليك، ولست أزعمُ أنا سواء، ولكن لا يحلُّ لك الاعتداء. ودخل على عبيد الله بن سليمان فضمَّه إليه، فقال: أنا إلى ضمِّ الكفاية أحوُّ مني إلى ضمِّ اليدين.

وقال له مرة: أنا معك مقبوض الظاهر، مرحوم الباطن.

قال أبو الطيب المتنبي: البسيط:

ماذا لقيتُ من الدنيا وأعجَبها أني بما أنا بكٍ منه محسودُ

وقال له رجل: يا مخنث، فقال: "وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَّ حَلْفَهُ".

وذكر أبو العيناء محمد بن يحيى بن خالد بن برمك، فقال: بأبي وأمي دَامَ الوَجْهُ الطلق، والقول الحق، والوعد الصدق، نيته أفضل من علانيته، وفعله أفضل من قوله. وقال له المتوكل: ما أشدُّ ما مرَّ عليك من قَفْدِ بصرك؟ فقال: ما حُرِمْتُ منه من النظر إليك أيها الأمير! وقال لعبيد الله بن يحيى:

مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضَّرَّ، وبِضَاعَتُنَا الحَمْدُ والشُّكْر، وَأَنْتَ الَّذِي لَا يَخِيبُ عِنْدَهُ حَرْ. وقال له يوماً: قد اشتدَّ الحُجَاب، وفحش الحرمان، فقال: ارفق يا أبا عبد الله، فقال: لو رفق بي فعلك لرفق بك قولي! وقال له: أيها الوزير، إذا تغافل أهلُ التفصّل هلك أهلُ التجمّل. وذم رجلاً فقال: لا يعرف الحقَّ فينصره، ولا الباطلَ فيُنكره. وقيل له: ما أبلغ الكلام؟ فقال: ما أسكّت المُبطل، وحَيّر المحق. وقيل له: مات الحسين بن سهل، فقال: والله لئن أتعب المادحين، لقد أطال بكاء الباكين، والله لقد أصيب بموته الأنام، وخرست بفقده الأقلام.

باب الرثاء

قال أشجع بن عمرو السلمي: الطويل:

مضى ابنُ سعيدٍ حين لم يَبْقَ مَشْرِقٌ	ولا مغربٌ إلَّا له فيه ماريحٌ
وما كنتُ أدري ما فواضل كفّه	على الناس حتى غيَّبته الصفائحُ
فأصبح في لحدٍ من الأرض ميتاً	وكانت به حياً تضيق الصحاصحُ
كأن لم يمت ميتٌ سواك ولم تَقمُ	على أحدٍ إلا عليك النوائجُ
فما أنا من رُزءٍ وإن جَلَّ جارع	ولا بسرورٍ بعد موتك قارحُ
لئن حسنتُ فيك المراثي وذكرها	لقد حسنتُ من قبلك فيك المدائحُ
سأبكيك ما فاصت دموعي، فإن تغض	فحسبك مني ما تُكِنُّ الجوانحُ

قوله: وكانت به حياً تضيقُ الصحاصحُ يتعلق بقول الحسين بن مطير في معن بن زائدة: الطويل:

ألمَّا على معنٍ وقولا لقبيره:	سَقَنَكَ الغوادي مَرَبَعاً ثم مَرَبَعاً
فيا قبرَ معنٍ أنت أولُ حُفْرَةٍ	من الأرض حُطَّتْ للسماحة مَصْجَعاً
ويا قبرَ معنٍ كيف وارىت جودَهُ	وقد كان منه البئرُ والبحرُ مُنْرَعَا؟
بلى قد وَسِعتَ الجودَ والجودُ مَيِّتُ	ولو كان حياً ضِقتَ حتى تَصَدَّعَا
فتى عيشَ في مَعْرُوفه بعد موتِهِ	كما كان بعد السيل مَجْرَاهُ مَرْتَعَا
ولمَّا مَضَى معنُ مَضَى الجودُ وانقضى	وأصبح عَرِينُ المكارمِ أَجْدَعَا

وهذا كقول عبد الصّمد بن المعذل عمرو بن سعيد بن سيلم الباهلي: الوافر:  
أقبرُ أبي أمية لو علاهُ حملتُ إذا لضقتُ به ذراعاً

حويتَ الجودَ والتقوى  
 وعمراً  
 لموتهم أطفقت لهم  
 ضمناً  
 وقول أشجع: لئن حسنت فيك المراثي وذكرها من قول الخنساء: الكامل:  
 يا صخرُ، بعدك هاجني  
 استعباري  
 كئنا نعد لك المدائح مدّة  
 وقالت جئوبُ أخت عمرو ذي الكلب: المتقارب:  
 سألتُ بعمرو أخي صحبته  
 فقالوا: أتيح له نائماً  
 أتيح له تَمِراً أجبل  
 فأقسمُ يا عمرو لو نبهاك  
 إذا نبهت عريسة  
 إذا نبهت غير رعيده  
 هما مع تصرف ريب المنون  
 وقالوا: قتلناه في غارة  
 فهلاً إذا قبل ريب المنون  
 وقد علمت قهَم عند اللقاء  
 كأنهم لم يحسوا به  
 ولم ينزلوا بمحول السنين  
 وقد علم الضيفُ  
 والمُزملون  
 وخلصت عن أولادها  
 المرضعاتُ  
 بأئك كنت الربيع المغيث  
 وخرق تجاوزت مجهولهُ  
 فكنت النهار به شمسهُ  
 وحي صبحت وحي أبحت  
 وكم من قبيل وإن لم تكن  
 قال عمرو بن شبة: وكان عمرو بن عاصم هذا يغرُّو قهَمًا فيصيب منهم، فوضعوا له  
 رصداً على الماء، فأخذوه فقتلوه، ثم مرُّوا بأخته جئوبُ، فقالوا: أخاك! فقالت: لئن  
 طلبتموه لتجدته منيعاً، ولئن ضفتموه لتجدته مريعاً، ولئن وعدتموه لتجدنه يبريعاً!  
 فقالوا: قد أخذناه فقتلناه، وهذا نبه. فقالت: والله لئن سلبتموه لا تجدون تلتته وافية،  
 ولا حجرته جافية، ولربّ ثدي منكم قد افترشه، ونهب قد احتوشه؛ ثم قالت الأبيات  
 المتقدمة الذكر.  
 وأنشد أبو حاتم ولم يقل قائله: الطويل:  
 ألا في سبيل الله ماذا  
 تضمّنت  
 بدور إذا الدنيا دجت أشرققت  
 بهم  
 بطون الثرى واستودع البلد  
 القفر  
 وإن أجدبت يوماً فأيديهم  
 القطر

فيا شامتاً بالموت لا تشمتنُ  
 حياتُهُمُ فخرٌ وموتُهُمُ ذكُرٌ  
 أقاموا بظَهْرِ الأرضِ فاخضَرَّ  
 عودُها  
 وقال أبو عبد الله العتبي، وتوفي له بنون فُجِعَ بهم ومات في آخرهم ابنُ  
 له يكنى أبا عَمْرٍو كان يقول الشعر؛ فقال يرثيه: الطويل:

لقد شمت الواشون بي  
 وتغيرتُ  
 تجرَى عَلَيَّ الدهرُ لما  
 فقدته  
 أسكان بطن الأرض لو يُقبَلُ  
 الفِدَى  
 فيا ليت مَنْ فيها عليها، وليت  
 من  
 وقاسمني دَهري بني  
 مُشَّاطراً  
 فصاروا كأن لم يعرف الموت  
 غيرهم  
 وقاد في ابن توفي صغيراً: مجزوء الرمل:

إِنْ يَكُنْ ماتَ صَغِيرًا  
 كَانَ رَيْحَانِي فَأَمْسَى  
 عَرَسَتِهِ فِي بَسَاتِي  
 ومن هنا أخذ أبو الطيب المتنبي قوله: الطويل:

فإن تك في قبر فإنك في  
 الحشا  
 وقال خلف بن خليفة الأقطع: الطويل:

أَعَاتِبُ نَفْسِي إِنْ تَبَسَّمْتُ  
 حَالِيَا  
 وحياتُهُمُ فخرٌ وموتُهُمُ ذكُرٌ  
 وصاروا ببطن الأرض فاستوحش  
 الظهُرُ  
 وجومُ أراها بعد موت أبي  
 عَمْرٍو  
 ولو كان حَيًّا لاجترأْتُ على  
 الدهرِ  
 فدينا، وأعطينا بكم ساكني  
 الظهُرِ  
 عليها تَوَى فيها مُقيماً إلى  
 الحَشْرِ  
 فلما توفى شطره مال في  
 شَطْرِي  
 فثكلُ على ثكل وقبرُ على  
 قَبْرِ  
 فالأَسَى عَيْرٌ صَغِيرِ  
 وهو رَيْحَانُ القُبُورِ  
 ن البلى أَيدي الدهورِ  
 وإن تَكُ طِفْلاً فالأَسَى ليس  
 بالطفْلِ  
 وقد يَضْحَكُ الموتورُ وَهُوَ  
 حَزِينٌ

وبالبدِّ أشجاني وكم من شَجٍ  
لَهُ  
رُبِّي حولها أمثالها إن أتيتها  
كفى الهجر أنا لم يَصِحْ لك  
أمرنا  
وقال أبو عطاء السَّندي في ابن هبيرة: الطويل:

ألا إنَّ عينا لم تجدْ يوم  
واسطٍ  
عشية قام النَّائحُ  
وشُققت  
فإن تُمس مهجورَ الفنا فرما  
فإنك لم تبعدْ على متعهدٍ  
أعرابي: الطويل:

ومن عجب أن بتَّ مستودع  
الثرى  
فلو أنني أنصفُك الودَّ لم  
أبتُ  
سأحمي الكرى عيني  
وأفترش الثرى  
وبعدك لا آسى لعظم رزيةٍ  
ومعنى هذا البيت الأخير تداوله الناس نظماً ونثراً.

قال أبو نواس في الأمين: الطويل:  
طوى الموت ما بيني وبين  
محمدٍ  
لئن عمرتُ دُورَ بمن لا أحبه  
وكنثُ عليه أحدُّ الموتِ  
وحده

وقيل لأمِّ الهيثم السدوسية: ما أسرع ما سلوت عن ابنك الهيثم! قالت: أما والله لقد  
رُزئتُه كالبدِرِ في بهائه، والرَّمح في استوائه، والسيفِ في مصَّائه؛ ولقد فُتنتُ مصيبتُه  
كبدِي، وأفنى فُقدُه جلدي، وما اعتصمتُ من بعده إلا أَمَنَ المصائبَ لفقده.  
وعزَّى أبو العيَّان أحمد بن أبي دُواد عن ولدٍ له، فقال: ما أصيب من أئيب، والله لقد  
هان لفقده، جليل المصائب من بعده.  
ودخل أعرابي من بادية البصرة إلى الشام ومعه بنون، فلما كان بقنَّسرين مات بنوه  
بالطاعون فقال: الطويل:

من العيش أو آسى لما فات من  
عُمري؟  
فلهفي على تلك العطارفة  
الرُّهر  
بحاضر قنَّسرين من صيب  
القطر  
أبعد، بني، الدهر أرجو عَصارةً  
عطارفةً زهر مَضَوْا لسبيلهم  
سقى الله أجساداً ورائي  
تركُّها

وَشَرٌّ، فَمَا أَنْفَكُ مِنْهُمْ عَلَى  
ذِكْرِ

ولله أن يرعاك أولى وأوسع  
أخاف وأرجو والذي أتوقع

لكالغمد يوم الرّوع فارقه  
التّصل

رسائل أدتها المودّة  
والوصل

بذكراك نأى عن ضميري ولا  
شغل

لفقدك لا مال لدي ولا  
أهل

وقيل الخنى والجلم والعلم  
والجهل

وألقاك في محمودها ولك  
الفضل

بعرضك لا بالمال حاشا لك  
البحل

دع التقلّ وأحمل حاجة ما لها  
ثقل

وليس له إلاّ بني برمك  
أهل

فكالوحش يُدنيها من القنص  
المحل

يُذَكِّرْنِيهِمْ كُلَّ خَيْرٍ رَأَيْتُهُ

هذا البيت كقول الآخر: الطويل:

رَعَاكَ ضَمَانُ اللَّهِ يَا أُمَّ مَالِكٍ

يَذَكِّرُنِيكَ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَالَّذِي

وقال مسلم بن الوليد: الطويل:

وَإِنِّي وَإِسْمَاعِيلُ يَوْمَ

وَدَاعِهِ

أَمَا وَالْحَبَالَاتِ الْمَمَرَّاتِ

بَيْنَنَا

لَمَا خَنْتُ عَهْدًا مِنْ إِخَاءٍ وَلَا

نَأَى

وَإِنِّي فِي مَالِي وَأَهْلِي

كَأَنِّي

يَذَكِّرُنِيكَ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ

وَالْحَجَا

فَأَلْقَاكَ عَيْنَ مَذْمُومِهَا

مَتَنَزَّهَا

وَأَحْمَدُ مِنْ إِخْلَافِكَ الْبَخْلَ

إِنَّهُ

أَمْتَنَجَعًا مَرَوًّا بِأَثْقَالِ هَمَّةٍ

ثَنَاءً كَعَرْفِ الطَّيِّبِ يَهْدِي

لأهله

فَإِنْ أَعَشَّ قَوْمًا بَعْدَهُمْ أَوْ

أَزُورَهُمْ

ومن أفاظ أهل العصر

في التعازي وما يتعلق بمعانيها

ذكر البكاء والجزع وعظم المصائب: خَبِرَ عَزَّ عَلَى النُّفُوسِ مَسْمَعُهُ، وَأَثَرُ

فِي الْقُلُوبِ مَوْقِعُهُ. خَبِرَ تَصَطُّكُ لَهُ الْمَسَامِعُ، وَتَرْتَجُّ بِهِ الْأَصَالِعُ، وَتَسْقُطُ لَهُ

الْحِبَالِي، وَتَضْحُو مِنْهُ السَّكَارَى. خَبِرُ كَادَتْ لَهُ الْقُلُوبُ تَطِيرُ، وَالْعُقُولُ

تَطِيرُ، وَالنُّفُوسُ تَطِيحُ. خَبِرُ يَخْفُضُ الْبَصَرَ وَيَقْذِيهِ، وَيَقْبِضُ الْأَمَلَ وَيَقْدَحُ

فِيهِ. الْخَبِرُ فِي اثْنَاءِ الرَّجَاءِ قَدْ انْقَطَعَ؛ وَأَصَمَّ بِهِ النَّاعِي وَقَدْ أَسْمَعَ. نَاعِي

الْفَضَائِلِ قَائِمٌ، وَأَنْفُ الْمَحَاسِنِ رَآغِمٌ. خَبِرُ أَخْرَجَ الصَّدْرَ، وَأَحْلَ الْبِكَاةِ،

وَحَرَّمَ الصَّبْرَ، وَأَطَارَ وَقَعَ السُّكُونُ، وَأَثَارُ كَامِنِ الْوُجُومِ، وَثَقَلَتْ وَطْأَتُهُ عَلَى

أَجْزَاءِ النَّفْسِ، وَتَادَتْ مَعْرَتَهُ إِلَى سِرِّ الْقَلْبِ. كَتَبْتُ وَالْأَرْضُ وَاجِفَةٌ،

وَالشَّمْسُ كَاسِفَةٌ، لِلرَّزَاءِ الْعَظِيمِ، وَالْمُصَابِ الْجَسِيمِ، فِي فَلَكَ الْمَلِكِ،

وَرُكْنِ الْمَجْدِ، وَقَرِيعِ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ، وَمَا عَسَى أَنْ يُقَالَ فِي الْفَلَكَ الْأَعْلَى

إِذَا انْتَهَارَ مِنْ جَوَانِبِهِ، وَتَهَاقَتَ عَلَى مَنَاكِبِهِ. أَتَى النَّاعِي، فَندب المساعي،

وَقَامَتْ بَوَاكِي الْمَجْدِ، وَكَسَفَتْ شَمْسُ الْقُصْلِ، وَعَادَ النَّهَارُ أَسْوَدًا، وَالْعَيْشُ

أنكد. غرب لموته نجم الفضل، وكسدت سوق الأدب، وقامت نوادب  
السماحة، ووقف فلك الكرم، ولطمت عليه المحاسن خدودها، وشقت له  
المناقب جيوبها وبرودها، وقد كانت الرزية بحيث مارت السماء مورا،  
وسارت الجبال سيرا، حتى شوهدت الكواكب ظهرا، ثم تهافتت شفعا  
ووتيرا، فارتاعت الأمة، وانبسبت الظلمة؟ وارتفعت الرحمة، واضطربت  
الملة، وقامت نوادب المجد، وأصبح الناس من القيامة على وعد. إن  
المجد بعده لجاري الدمع، وإي الفضل لمنزعج النفس، وإن الكرم لحرخ  
الصدر، وإن الملك لواهن الظهر. كتابي وأنا من الحياة متذمم، وبالعيش  
مُتبرم، بعدما ماد الطود الشامخ، وزال الجبل الباذخ، ونطقت نوادب  
المجد، وأقيمت ماتم الفضل. تُعي فلان فتنكر وجه الدهر، وقبضت مَهجَه  
القخر، فلا قلب إلا قد تباين صدعه، ولا عين إلا وهي ترشخ بالدم بعده.  
كتبت والأحشاء محترقة، والأجفان بمائها عرقه، والدمع واكف، والحزن  
عاكف. مصالب أطلق أسراب الدموع وفرقها، وأقلق أعشار القلوب  
وأحرقها، مصاب فض عقود الدموع، وشب النار بين الضلوع. مصاب أذاب  
دموع الأحرار، فتحلبت سحاب الدموع الغزار، وانسدت مسالك السكون  
والاستقرار. كتب عن عين تدمع، وقلب يجزع، ونفس تهلع، وقد أدللت  
مضون العبرة، وحجبت وإفد الحيرة، ومدد لهم إلى جسمي يد السقم، وجر  
الدمع على خذي ذيول الدم. لولا أن العين بالدمع أنطق من كل لسان  
وقلم، لأخبرت عن بعض ما أوهن ظهري، وأوهى أُرري. إن الفجيعة إذا لم  
تجرب بجيش من البكاء، ولم يخفف من أثقالها بالاشتكاء، تضاعف دأؤها،  
وازدادت أعباؤها، وعز دأؤها. قد شفيت غليلي بما استدرتته من أسراب  
الدموع المتحيرة، وخففت عني بعض البرحاء بما امترتته من أخلافها  
المتحدرة. إن في إسبال العبرة، وإطلاق الرفرة، والإجهاش بالبكاء  
والنشيج، وإعلان الصباح والضجيج، تنفيسا عن برحاء القلوب، وتخفيفا من  
أثقال الكروب. قد أتى الدهر بما هدد الأصلاب، وأطار الألباب، من النازلة  
الهائلة؛ والفجيعة الفطبيعة. رزء أضعف العزائم القوية، وأبكى العيون  
البكية. مصيبة زلزلت الأرض، وهدمت الكرم المخص، وسلبت الأجفان  
كرها، والأبدان قواها. فجيعة لا يدأوي كلمها أس، ولا يسد ثلمها تياس.  
مصيبة تركت العقول مدلهة، والنفوس مولهة. رزء هص وهاص، وأطال  
الانخزال والانخفاض، ولم يرض بأن فض الأعضاء، حتى أفاض الدماء. رزء  
ملا الصدور ارتباعا، وقسم الألباب شعاعا، وترك الجفون مقروحة،  
والدموع مسفوحة، والقوي مهدودة، وطرق العزاء مسدودة. رزء نكا  
القلوب وجرحها، وأحر الأكباد وقرحها، ما لي يد تخط إلا بكلفة، ولا نفس  
تردد إلا في غصة، ولا عين تنظر إلا من وراء قدي، ولا صدر ينطوي إلا  
على أذى، فالدموع واكفة، والقلوب واجفة، والهيم وارد، والأنس شارد:  
الكا مل:

والناس ماتمهم عليه واحد في كل دار رته وزفير  
كأنني كندة وهي تلهف على حجر، والخنساء تبكي على صخر، أنا بين عبرة  
ورفرة، وأنة وحسرة، وتململ واضطراب، واشتعال والتهاب. مصيبة  
أصبحت لعمتها وقيدا، ولكزبتها أخيدا. كتبت وقد ملك الجرغ عزائي،  
وحصل ناظري في إسار بكائي، فالقلب دهش، والبيتان يرتعش، وأنا من  
البقاء متوحش: قد انتهى بي الهلع إلى حيث لا التاسي مصحب، ولا

التناسي مصاحب، بي انزعاج يحلُّ عُقَدَ الحَزْمِ، واكتئابٌ ينقضُّ شروط  
العَزْمِ. قد بلغ الحزنُ مبلغاً لم أبتذله للنوائب، وإن جلت وَقَعاً، ونالت مني  
منالاً لم يعتد طرق المصائب، وإن عظمت فجعا. كتبتُ عن اضطراب  
نفسٍ، واضطراب صدر، والتهاب قلب، وانتهاب صبرٍ، فما أعظمه مفقوداً!  
وما أكرمه ملحوداً! إني لأنوح عليه تَوْحَ المناقب، وأرثيه مع النجوم  
الثواقب، وأبكيه مع المعالي والمحاسن، وأثني عليه، بثناء المساعي  
والمآثر. ليت يمينَ الزمانِ شَلَّتْ قبل أن فتكتَ بمُهْجَةِ الفضل، وعَيَّنَ  
الزمانُ كُفَّت قبل أن رأت مَصْرَعَ الفخر. لقد رُزْنَا من فلان عالماً في  
شخص، وأمةً في نفس. مضى والمحاسنُ تَبْكِيه، والمناقبُ تعزِّي فيه.  
العيونُ لما قَرَّت به أسخنها فيه رَبُّبُ المنون، ولما شُرِحتْ به الصدور  
قبضها بفقدِ المقدور. قد ركبَ على الأعناق، بعد العتاق، وعلى الأجياد  
بعد الجياد، وِفَاحَ فتيتِ المسكِ من مآثره، كما يَفُوحُ العنبرُ من مجامره.  
كان منزله مَالَفَ الإضيافِ، ومَأْنَسَ الأشرافِ، ومُنْتَجِعَ الرِّكبِ، ومَقْصِدَ  
الوَفْدِ، فاستبدل بالأنسِ وَخْشِيَّةً، وبالغضارةِ عُبْرَةً، وبالبياضِ ظِلْمَةً، واعتاض  
من تَرَاحُمِ المراكبِ تِلَادَمَ المآتمِ، ومن صَجِيحِ النداءِ والصهيلِ، عجيجَ البكاءِ  
والعويلِ. هذي المكارمُ تَبْدِي شَجْوَهَا لِقَفْدِهِ، وتَلْبَسُ جِدَادَهَا من بَعْدِهِ،  
وهني المحاسنُ قد قَامَتْ نَوَادِبُهَا مع نَوَادِبِهِ، وأقْبَرَتْ مِصَائِبُهَا بمِصَائِبِهِ. لو  
قَبِلْتُ الفِدْيَةَ لوقَيْتُهُ بنفسِي وأيامَ عمري، عِلماً بأن العيشَ بمثله من إخوانِ  
الصفا يَصْفُو، وبظَعْنِهِ عن الدنيا يَكْدُرُ وَيَعْفُو. لو وُقِي من الموتِ عزيزٌ قوم  
لِعِزَّتِهِ، أو كَبِيرٌ بأولاده وأسرته، أو ذُو سُلْطَانٍ باستطالته وقُدْرته، أو زعيم  
دولةٍ بَحْسَدِهِ وَعُدَّتِهِ، لكان الماضي أحقَّ من وُقِي وأولى من فِدْيَةٍ، وكُنَّا  
أقدر على دفع ما حدث، ودَبَّ ما كَثُرَ وأزْهَق؛ لكنه الأمرُ المسوي فيه بين  
مَنْ عَزَّ جانبُه ودَلَّ، وكَثُرَ ماله وقَلَّ، حتى لحق المفضولُ بالفاضلِ،  
والناقصُ بالكامل.

ولهم فيما يطابق هذا النحو من وصف الدهر وذم الدنيا: هو الدهرُ لا يُعْجَب  
من طوارقِهِ، ولا ينكر هجوم بوائقه. عطاؤه في ضمان الارتجاع، وجبأؤه  
في قرآن الانتزاع. من عرفَ الزمانَ لم يستشعر منه الأمان، وتصرف  
الحوادثِ، بين الموروث والوارث. الدهرُ مشحون بطوارق الغيرِ، مَشْتَبُوبٌ  
صَفْوُ أيامِهِ بالكدرِ، ممزوج صائبُهُ بالعسلِ، موصولُهُ حبال الأمان فيه بأسباب  
الأجلِ. قد جعل الله الدنيا دارَ قُلْعَةٍ، ومحلَّ نُقْلَةٍ، فمن راحلَ ليوْمِهِ، ومن  
مؤخَّرَ لَغْدِهِ، وكلُّ متشوّفٍ لأجلِهِ، وجارٍ لأمْدِهِ. ما الدنيا إلا دارُ النُقْلَةِ، ولا  
المقام فيها إلا للرحلة، إنَّ المرءَ حقيق إذا طرقه ما يتحيف صَبْرَهُ ويتطرق  
صدره، أن يعودَ إلى عِلْمِهِ بالدنيا كيف نُصِبَتْ على النُقْلَةِ، وجنبتُ طويل  
المهلة، وابتدئت بالنقاد، وشُفِعَ كوئُها بالفساد، وأنَّ الثاوي فيها راجلِ،  
والأيام فيها مراحِل. موهوب الدنيا مسلوب وإن أُرْجِيءَ إلى مَهَلٍ، وممنوحها  
مجدوب وإن أُرْجِيءَ إلى أجل. لو خلد من سبق، لما وسَّعت الأرضُ مَنْ لِحْق؛  
ولذلك جعلت الدنيا دار قُلْعَةٍ، ومحلَّ نجعة: الطويل:

سُيِّنَا إِلَى الدنْيَا فلو عَاشَ  
أهلها  
مُنِعْنَا بِهَا مِنْ جَنِيَّةٍ وَدُهْوٍ  
وفارقها الماضي فراقٍ  
سليبٍ  
تملكها الآتي تملك سالبٍ

وقال عتبة بن هارون: كنتُ مع فضل الرقاشي، فمرّ بمقبرة، فقال: يا أهل الديار الموحّشة، والمحال المفقّرة، التي نطق بالخرابِ فناؤها، وشيد بالترابِ بناؤها، ساكنها مُعْتَرِب، ومحلها مُقْتَرِب، أهلُ هذه المنازلِ متشاغلون، لا يتواصلون تواصلَ الإخوان، ولا يتزاوون تزاوَرَ الجيران، قد طحنهم بكلّ كِلِه البلى، وأكلهم الجندل والثرى.

وقال خاقان بن صبيح: لَوْحِشَةُ الشكِّ التمسنا أَسَنَ اليقين، ومن ذلّ الجهل هربنا إلى عزِّ المعرفة، ولخَوْفِ الضلالةِ لزمنا الجادّة.

وقال بعض الحكماء: كموُنُ المصائبِ وسكوُنُ النوائبِ وبَغتاتِ المنايا مطوَّبَاتِ في الساعاتِ، متحرّكاتِ في الأوقاتِ، ورب مغتَبِطٍ بساعةٍ فيها انقضاءُ أَجَلِه، ومتمتّع بوقتِ صار فيه إلى قَبْرِه، ومنتظر ورودِ يومِ فيه منبّه. ووعظ أعرابيُّ ابناً له أفسدَ ماله في الشرابِ، فقال: لا الدهرُ يَعْظُك، ولا الأيامُ تنذرك، والساعاتُ تُعَدُّ عليك، والأنفاسُ تعذّ منك، وأحبُّ أمرٍيك إليك، أرُدُّهما للمصرّةِ لديك.

من إنشاء بديع الزمان

ومن إنشاء بديع الزمان في المقامات: حدّثنا عيسى بن هشام قال: كنتُ في الأهواز في رُفِقة متى ما تروقّ العينُ فيهم تسهل، ليس منّا إلا أمرد بكر الآمال، بضّ الجمال، أو مختط حسن الإقبال، مرجو الأيام والليال؛ فأفصنا في العشرة كيف نضع قواعدها، والأخوة كيف نحكم معاقدها، والسرور في أي وقت نتعاطاه، والأنس كيف نتهاداه، وفانت الحظ كيف نتلافاه، والشراب من أين نخلصه، والمجلس كيف نرتبه؟ فقال أحدنا: على البيت والمنزل، وقال آخر: على الشراب والنقل، وقال بعضنا: إلى السماع والجماع، وقمنا نجرّ أذيال الفسوق، حتى انسلخنا من السوق، وإستقبلنا رجل في طميرين، في يُمناه عكازة، وعلى كتفه جنازة؛ فتنطيرنا لما رأينا الجنازة، وأعرضنا عنها صفحاً، وطوبنا دونها كسحاً، فصاح بنا صيحة كادت الأرض لها تنقَطِر، والنجوم تنكدر، وقال: لترونها صُغراً، ولتركيبتها قسراً. ما لكم تكروهون مطيبة ركبها أسلافكم، وسيركها أخلافكم، وتتقدرون سريراً وطئته أباًؤكم، وسيطوه أبناًؤكم. أما والله لئحملن على هذه العيدان، إلى تلكم الديدان، ولننقلن بهذه الجياد، إلى تلكم الوهاد. ويحكم تطيرون، كأنكم مخيرون، وتكروهون، كأنكم منزهون، هل تنفع هذه الطيرة، يا فجرة؟

قال عيسى بن هشام: فقد نقص علينا ما كُنّا عَقَدناه، وأبطلنا ما كُنّا أرَدناه؛ فَمَلْنَا إليه، وقلنا: ما أحوَجنا إلى وعظك، وأعشقنا للفظك! ولو شئت لزدت، قال: إن وراءكم موارد أنتم وارِدوها، وقد سرّتم إليها عشرين حجة: الطويل:

وإنّ امرأً قد سار عشرين  
حجةً إلى منهل من ورده لقریب

وفوقكم من يعلم أسراكم، ولو شاء لهتك أستاركم، يعاملكم في الدنيا بجلّم، ويَقْضِي عليكم في الآخرة يعلم، فليكن الموت منكم على ذكر، لئلا تاتوا بنكر؛ فإنكم متى استشعرتموه لم تجمحووا، ومتى ذكرتموه لم تمزحوا، وإن نسيتموه فهو ذاكركم، وإن نمتم عنه فهو ثائركم، وإن كرهتموه فهو زائركم قلنا: فما حاجك؟ قال: هي أطول من أن تُحدّ، وأكثر من أن تُعدّ، قلنا: فسانح الوقت؟ قال: ردّ فائت العُمُر، ودفع نازل الأمر، قلنا: ما إلى ذلك سبيل، ولكن لك ما شئت من متاع الدنيا وزخرفها، قال: لا حاجة لي فيها.

قوله: وإن امرأً سار عشرين حجة محرف عن قول قائله: وإن امرأً قد سار خمسين حجة والبيت لأبي محمد التيمي، أنشده دعبل: الطويل:

إذا ما مضى القَرْنُ الذي أنت  
وخلقت في قرن فانت  
فيهم غريب

والبيت بعده. قال دعبل: وتزعم الرواة أنه لأعرابي من بني أسد. وقال خلد الأرقط: كنا على باب أبي عمرو بن العلاء ومعنا التيمي، فذكرنا كتاب الحجاج بن يوسف إلى قتيبة بن مسلم: إني وإياك لِدَتَان، وإن امرأً قد سار

خمسين حجة لقمين أن يرده. فأصلحناهُ بيناً، فاجتلبه التيمي في شعره. وكتب البديع إلى أبي القاسم الكرخي: أنا وإن لم ألق تطاول الإخوان إلا بالتطاول، وتحمل الأحرار إلا بالتحمل، أحاسب الشيخ على أخلاقه ضناً بما عقدت يدي عليه من الظن به، والتقدير في مذهبيه، ولولا ذاك لقلت: في الأرض مجال إن ضاقت ظلاله، وفي الناس واصل إن رنت حباله، وأؤاخذه بأفعاله؛ فإن أعارني أدناً واعيةً، وتفساً مُراعيةً، وقلباً متعظاً، ورجوعاً عن الذهاب، ونزوعاً عما يقرعه من هذا الباب، فرشت لمودته صدري، وعقدت عليه جوامع حصري، ومجامع عمري؛ وإن ركب من التعالى غير مركب، وذهب من التعالى في غير مذهب، أقطعته خطة أخلاقه، ووليته جانب إعراضه، فكنت امرأ: المديد:

لا أذود الطير عن شجره قد بلوث المرم من ثمره

فإنني - أطال الله بقاء الشيخ مولاي - وإن كنت في مقبل السن والعمر، فقد حلبت شطري الدهر، وركبت ظهري البر والبخر، ولقيت وفدي الخير والشر، وصافحت يدي التبع والصر، وضربت إبطي العسر والبسر، وبلوث طعمي الحلو والمر، ورضعت يدي العزف والتكر؛ فما تكاد الأيام تريني من أفعالها غريباً، وتسمعي من أقوالها عجباً، ولقيت الأفراد، وطارحت الأحادة فما رأيت أحداً إلا ملأت حافتي سمعه وبصره، وشغلت حيزي فكره وطره، وأثقلت كفه في الحزن، وكفته في الوزن؛ وود لو بارر القرن بصفحتي، أو لقي الفصل بصحيفتي، فما لي صغر في عينه؟ وما الذي أرزى بي عنده؟ حتى احتجب وقد قصدته، ولزم أرضه وقد حضرته، وأنا أحاشيه أن يجهل قدر الفضل، أو يخد فضل العلم، أو يمتطي ظهر النبي، على أهليه، وأسأله أن يختصني من بينهم بفضل إنعام إن زلت بي مرة قدم رأي في قصده، وكانني به وقد غضب لهذه المخاطبة المجفة، والرتبة المتحيفة، وهو في جنب جفائه يسير، وإن ألق عن عادته إلى الوفاء، ونزع عن شيمته في الجفاء؛ فأطال الله بقاء الأستاذ وأدام عزه وتأييده.

وله إليه رقعة: يعز علي - أطال الله بقاء الشيخ الرئيس - أن ينوب في خدمته قلمي، عن قلمي، ويسعد برؤيته رسولي، دون وُصولي، ويرد شرعة الانس به كتابي، قبل ركابي، ولكن ما الحيلة والعوائق جمّة: مجزوء الكامل:

وعلي أن أسعى ولي س علي إدراك النجاح

وقد حضرته داره، وقبّلت جداره، وما بي حبّ الجدران، ولكن شغفاً بالقطان، ولا عشق الحيطان، ولكن شوقاً إلى السكان، وحين عدت العوادي عنه، أملت ضمير الشوق على لسان القلم، معتذراً إلى الشيخ على الحقيقة، عن تقصير وقع، وقتور في الخدمة عرض، ولكنني أقول: المديد:

إن يكن تركي لقصدك ذنباً فكفى ألا أراك عقاباً

وله جواب إلى رئيس هراة عدنان بن محمد: ورد كتاب الشيخ الرئيس سيدي، فطلت وفود النعم تترى علي، ومثلت لدي وبين يدي، وقد أخذت مكارم نفسه، فجعلها قلادة عرسه، وتتبع المحاسن من عنده، فحلى بها بحر عبده وما أشبهه رائع حليه، في نحر وليه، إلا بالغرّة اللائحة، على الدّهمة الكالحة لا أخذ الله الشيخ بوصف نزعه عن عرضه، ورزعه في غير أرضه، ونعت سلخه من خلقه وخلقه، وأهداه إلى غير مستحقه، وقصّل استفاده من قرعه وأصله، وأوصله إلي مخير أهله. ذكر حديث الشوق ولو كان الأمر بالزيارة حتماً، أو الإذن جزماً أطلق عزمياً، لكان آخر نظري في الكتاب، أول نظري إلى الركاب، ولاستعنت على كلف السير، بأجنحة الطير، لكنه - أدام الله عزه - صرعتني بين يد سريعة النبد، ورجل وشيكة الأخذ، وأراني زهداً في ابتغاء، كحسو في ارتغاء، ونزاعاً في نزوع، كذهاب في رجوع، ورغبة في كربة عني، وكلاماً في الغلاف، كالضرب تحت

للحاف، فلم أصرِّح بالإجابة وقد عرَّض بالدعاء، ولم أعلِن بالزيارة وقد أسرَّ بالنداء، ولو لم يدعني بلسان المُحاجة، ولم يجاهرني بغم المناجاة، لكنك أسرع إليه، من الكرم إلى عطفيه، وفكرت في مُراد الشيخ، فوجدته لا يتعدى الكرم يشبُّ ناره، والفضل يُدرك ناره، وإذا كان الأمر كذلك فما أولاه بترفيه مولاه، عن زفرة صاعدة، بسفرة باعدة، ونكباء جاهدة... وقد زاد سيدي في أمر المخاطبة، وما أحسن الاعتدال، وقد كفانا منه الأستاذ، وأسأله ألا يزيد، وقد بدأ ويجب ألا يعيد، فلا تنفع كثرة العدِّ مع قلَّة المعدود، والزيادة في الحدِّ مع نقصان المحدود نقص من الحدود، وربَّ ربح أدَّى إلى خسْران، وزيادة أفصتْ إلى تُفصان، ورأي الشيخ في تشريفه بجوابه موقِّق إن شاء الله تعالى.

اجتلب قوله في أول هذه الرسالة من قول أبي إسحاق الصائبي في جواب كتاب لبعض إخوانه: وصل كتابك مشحوناً بلطيف برك، موشحاً بغامر فضلك، ناطقاً بصحَّة عهدك، صادقاً عن خلوص ودك، وفهمته وشكرت الله تعالى على سلامتك شُكر المخصوص بها، ووقفتُ على ما وصفته من الاعتدال بي، وتناهيته إليه من التقريط لي، فما زدت علي أن أعزنتي خلالك، ونحلتني خصالك، لأنك بالفضائل أولى، وهي بك أحرى، ولو كنت في نفسي ممن يشتملُ على وصفه حدِّي إذا حددت، أو يحيط بكماله وصفي إذا وصفت، لشرَّعت في بلوغها والقرب منها، لكن المادح لك مستنفد لك وُسعه وقد بحسك، ومستغرق طوقه وقد تقصك، فأبلغ ما يأتي به المُثني عليك، ويتوصل إليه المُطري لك، الوقوف في ذلك دون منتهاه، والإقرار بالعجز دون غايته ومداه.

ونقل البديع ما ذكره من تزك السفر والبعية بما حضر من قول ابن الرومي: الطويل:

أما حق حامي عرضٍ مثلك أن	له الرِّفْدَ والترفيه أوجب
تري	واجب
أقمت لكى تزداد نُعماك	وتغني بوجهٍ ناضرٍ غير
نعمة	شاحب
وكي لا يقول القائلون	وعاقبه والقول جمُّ
أثابه	المساعب
وليس عجيباً أن ينوب	عُديت به من أمل لك
تكرُّم	عائب
ذِمَامِي تَزَعَى لا ذِمَام	وحقِّي لا حقَّ القلاص
سفينة	النجائب

ودخل على أبي العتاهية ابنه، وقد تصوّف، فقال: ألم أكن قد نهيتك عن هذا؟ فقال: وما عليك أن أتعود الخير، وأنشأ عليه فقال: يا بني، يحتاج المتصوف إلى رقة حال، وحلاوة شمائل، ولطافة معنى، وأنت ثقيل الظلِّ، مظلم الهواء، راكِد النسيم، جامد العينين، فأقبل على سوقك؛ فإنها أعود عليك، وكان بزازاً.

فقر من كلام المتصوِّفة والزهاد والقصاص نور الحقيقة، أحسن من نور الحديقة. الزهد قطع العلائق، وهجر الخلائق. الدنيا ساعة، فاجعلها طاعة. التصوِّف تزك التكلف. قيل لمتصوِّف: أتبع مُرَفِّعتك؟ قال: رأيتم صياداً

يبع شبكته! وقيل لبعضهم: لو تزوّجت! قال: لو قدرت أن أطلق نفسي لطلقتها،  
وأنشد: الطويل:

تجرّد من الدنيا فإنك إنما سقطت إلى الدنيا وأنت  
مجرّد  
الدنيا توم والآخرة يقظة، والمتوسّط بينهما الموت، ونحن في أصغاث  
أحلام.

ذو النون: العبد بين نعمة وذنبي، لا يصلحهما إلا الشكر والاستغفار.  
غيره: ينبغي للعبد أن يكون في الدنيا كالمريض لا بدّ له من قوت، ولا  
يوافقه كل طعام. ليس في الجنة نعيم أعظم من علم أهلها أنها لا تزول.  
ابن المبارك: الزهد إخفاء الزهد. إذا هرب الزاهد من الناس فاطلبه، وإذا  
طلبهم فاهرب عنه. من أطلق طرفه كثر أسفه. من سوء القدر فصل  
النظر. من طاوع طرفه، تابع حنقه، ومن نظر بعين الهوى حار، ومن حكم  
على الهوى جار، ومن أطال النظر لم يدرك الغاية، وليس لناظر نهاية.  
ربما أبصر الأعمى رُشده، وأضلّ البصير قَصده. وقيل: ربّ حربٍ جُنيت  
من لفضة، وربّ حبّ عُرس من لحظة، وأنشد: الطويل:

نظرت إليها نظرةً لو كسوتها  
سرابيل أبدان الحديد  
المسرّد  
لرقت حواشيها وقصّ  
ولانت كما لانت لداود في  
اليّد

وقال سعيد بن حميد: الطويل:

نظرتُ فقادّني إلى الحنّف  
نظرة  
فلا تصرفنّ الطّرفَ في كل  
منظر  
ولم أر منلّ الحبّ أسقم ذا  
هوى  
لقد صُنّت ما بي في الضمير  
لو أنه

غيره: البسيط:

اليوم أيقنت أنّ الحبّ  
منلقة  
كيف الحياة لمن أمسى على  
شرف  
يلوم عينيه أحياناً بذنبيهما  
إذا نأى أو دنا فالقلبُ  
عندكم

ونظر محمد بن أسباط الصوفي إلى أبي المثنى الشيباني وقد نظر في  
وجه غلام مليح، فقال: إياك وإدمان النظر فإنه، يكشف الخبر، ويفصح  
البشر، ويطول به المكث في سقر.  
وقال المعلى الصوفي: شكوتُ إلى بعض الزهاد فسأداً أجده في قلبي،  
فقال: هل نظرت إلى شيء فتأقت إليه نفسك؟ قلت: نعم، قال: احفظ

عينيك؛ فإنك إن أطلقتها أوقعناك في مكروه، وإن ملكتهما ملكت سائر جوارحك.

وقال مسلم الخواص لمحمد بن علي الصوفي: أوصني، فقال: أوصيك بتقوى الله في أمرك كله، وإيثار ما يحب على محبتك، وإيالك والنظر إلى كل ما دعاك إليه طرْفك، وشوقك إليه قلبك، فإنهما إن ملكاك لم تملك شيئاً من جوارحك، حتى تبلغ لهما ما يطالغانك به، وإن ملكتهما كنت الداعي إلى ما أردت، فلم يعصيا لك أمراً ولم يردّا لك قولاً.

قال بعض الحكماء: إن الله عز وجل جعل القلب أمير الجسد، ومالك الأعضاء؛ فجميع الجوارح تتقاد له، وكل الحواسن تُطيعه، وهو مديرتها ومصرفها، وقائدها وسائقها، وبارادته تتبعه، وفي طاعته تتقلب؛ ووزيره العقل، وعاصده الفهم، ورائده العينان، وطليعته الأذنان. وهما في النقل سواء، لا يكتمانه أمراً، ولا يطويان دونه سرّاً، يريد العين والأذن.

وقيل لأفلاطون: أيهما أشد ضرراً بالقلب السمع أم البصر؟ فقال: هما للقلب كالجناحين للطائر، لا يستقل إلا بهما، ولا ينهض إلا بقوتهما، وربما قص أحدهما فنهض بالآخر على تعب ومشقة. قيل: فما بال الأعمى يعشق ولا يرى، والأصم يعشق ولا يسمع؟ قال: لذلك قلت: إن الطائر قد ينهض بأحد جناحيه ولا يستقل بهما طيراناً، فإذا اجتمعا كان ذهابه أمضى، وطيرانه أوحى.

وقال الأسود بن طالوت الجارودي: نظر إليّ أبو الغمر الصوفي وقد أطلت النظر إلى غلام جميل، فقال: ويحك! إن طرْفك لعظيم ما اجتنى من البلاء قد عرّضك للمكروه وطول العناء، لقد نظرت إلى حنْف قاتل للقلوب، وبلاءٍ مُظهِر للعيوب، وعارٍ فاضح للنفوس، ومكروه مُذهِل للعقول، أكل هذا الاغترار بالله جرّأك عليه حتى أمنت مكرهه، ولم تحف كيدته؟ أعلم أنك لم تكن في وقت من أوقاتك، ولا حالٍ من حالاتك، أقرب إلى عقوبة الله منك في حالتك هذه، ولو أخذك لم يتخلصك الثقلان، ولم يقبل فيك شفاعَةَ إنس ولا جان.

ونظر محمد بن ضوء الصوفي إلى رجل ينظر إلى غلام مليح، فقال: كفى بالعبد نقصاً عند الله، وضعة عند ذوي العقول، أن ينظر إلى كل ما سنخ له من البلاء.

ونظر بو مسلم الخشوعي فأطال النظر، فقال: إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. ثم قال: سبحان الله! ما أهجم طرْفِي على مكروه نفسه، وأدمته على تسخط سيده، وأغراه بما نهى عنه، وألهجه بما حذر منه! لقد نظرت إلى هذا نظراً شديداً خشيت أنه سيفضحني عند جميع مَنْ يعرفني في عرصة القيامة؛ ولقد تركني نظري هذا وأنا أستحي من الله تعالى إن غفر لي! ثم صعق.

ونظر غالب المضروري إلى غلام جميل على فرس رائع، فقال: لا أدري بم أدوي طرْفِي، ولا بم أعالج قلبي؟ ما أتوب إلى الله من ذنب إلا رجعت فيه، ولا أستغفره من أمر إلا أتيت أعظم منه، حتى لقد استحيت أن أسأله المغفرة لما يلحق قلبي من القنوط من عفوه، لعظيم حالي بالمنكر الذي أصنعه. فقال له قائل: وأي منكر أتيت؟ فقال: أتريد مني أكثر من نظري هذا؟ والله لقد خشيت أن يبطل كل عمل قدمته، وخير أسلفتة، ثم بكى حتى ألصق خده بالأرض.

ورأى بعضُ الزُّهَّادِ صُوفِيًّا يَضْحَكُ إلى غلامٍ جَمِيلٍ، فقال له: يا خارب القلب، ويا مفتضح الطَّرْفِ؛ أما تستحي من كِرَامِ كَاتِبِينَ، وملائكة حافِظِينَ، يحفظون الأفعال، ويكتبون الأعمال، وينظرون إليك، ويشهدون عليك، بالبلاء الظاهر، والغِلُّ الدخيل المخامر، الذي أقمت نفسك فيه مقام مَنْ لا يُبَالِي من وقف عليه، ونظر من الخلق إليه.

وقال أبو حمزة بن إبراهيم: قلت لمحمد بن العلاء الدمشقي - وكان سيد المتصوفة، وقد رأيتُه يماشي غلاماً وضيئاً مدة ثم فارقه -: لِمَ هجرت ذلك الفتى بعد أن كنت له مواصلاً، وإليه مائلاً؟ فقال: والله، لقد فارقتك من غير قلبي ولا مَلَلٍ؛ ولقد رأيتُ قلبي يدعوني إذا خلوت به، وقربت منه، إلى أمر لو أتيتَه لسقطت من عَيْنِ الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فهجرته تنزيهاً لله ولنفسه عن مصارع الفتن، وإني لأرجو أن يعقبنِي سيدي من مفارقتك ما أعقب الصابرين عن محارمِهِ عند صدق الوفاءِ بأحسنِ الجزاء؛ ثم بكى حتى رحمتُهُ.

قال أبو حمزة: ورأيتُ مع أحمد بن علي الصوفي بيت المقدس غلاماً جميلاً، فقلت: منذ كم صحبتك هذا الغلام؟ فقال: منذ سنين، فقلت: لو سرتما إلى بعض المنازل فكنتما فيه كان أحمد لكما من الجلوس في المسجد بحيث يراكما الناس؟ فقال: أخافُ احتيالَ الشيطان عليَّ به وقت خلوتي، وإني لأكره أن يراني الله فيه على معصية فيفرق بيني وبينه يوم يظفر المحبُّون بأحبابهم.

قال أبو الفتح البستي: البسيط:

تنزع الناسُ في الصوفيِّ،	فيه وظنُّوه مشتقاً من
واختلفوا	الصوفِ
ولست أنحل هذا الاسمَ غيرَ	صاقى فُصُوفِيَّ حتى لُقِّبَ
فَتَى	الصوفي

ورأى بقراط رجلاً من تلامذته يتفرَّس في وَجْهِ أَوْحِيَا، وكانت فائقة الجمال، فقال: ما هذا الشغل الذي منعك الروية والفكرة؟ فقال: التعجبُ من آثار حكمة الطبيعة في صورة أَوْحِيَا، فقال: لا تجعلنَّ نظرك لشهوتك مركباً، فيجمع لك في الوحول الأذية؛ ولتكننَّ نفسك منه على بال، إن آثار الطبيعة في وَجْهِ أَوْحِيَا الظاهرة تمحق بصرك، وإن فكرت في صورتها الباطنة تحدَّ نظرك.

وقال بعضهم: رأيت جارية حسناء الساعدِ، فقلت: يا جارية، ما أحسن ساعدك! فقالت: أجل، لكنه لم تختص به، فغضَّ بصرَ جسمك عما ليس لك؛ لينفتح بصرُ عقلك فتري ما لك.

الرأي والهوى

وقال بعضُ الفلاسفة اليونانيين: فضلُ ما بين الرأي والهوى أنَّ الهوى يُحْضُّ والرأي يعمُّ، وأن الهوى في حيز العاجل، والرأي في حيز الآجل، والرأي يبقى على طول الزمان، والهوى سريع الدثور والاضمحلال، والهوى في حيز الحسِّ، والرأي في حيز العقل.

وقال بعضُ الحكماء: من انقاد لهوَاه عرضته الشهوات.

وقال آخر: من جَرَى مع هواه طلقاً، جعل عليه للذلِّ طرقاً.

وقال ابن دُرَيْدٍ: أوصى بعضُ الحكماء رجلاً فقال: أمرك بمجاهدة هواك؛ فإنه يقال: إن الهوى مفتاحُ السيئات، وخصيم الحسنات، وكل أهوائك لك

عدو، وأعداهما هوى يكتمك نفسه، وأعدى منه هوى يمثل لك الإثم في صورة التقوى، ولن تفصل بين هذه الخصوم إذا تناظرت لديك إلا بحزم لا يشوبه وهن، وصدق لا يطمع فيه تكذيب، ومصاع لا يقاربه الشيطان، وصبر لا يغتاله الجزع، وهممة لا ينقسمها التضييع.  
وقاد أبو العتاهية: البسيط:

ولو تَمَنَعْتَ بِالْحُجَابِ	لا تَأْمَنَ المَوْتَ فِي طَرْفِ
وَالْحَرَسِ	وَفِي نَفْسِ
فِي جَنْبِ مُدَّرِعٍ مِّنَّا	فَمَا تَزَالُ سِبْهَامُ المَوْتِ
وَمُنَّرِسِ	نَافِذَةً
وَتُوْبُكَ الدَّهْرِ مَغْسُوْلٍ مِّن	مَا يَأَلُّ دِيْنَكَ تَرَضَى أَنْ
الدَّتْسِ	تُدْتَسَّهُ
إِن السَّفِيْنَةَ لَا تَجْرِي عَلَى	تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ
بَيْسِ	مَسَالِكَهَا

من البد بدائه في مجالس الخلفاء  
خرج شبيب بن شيبه من دار المهدي، فقيل له: كيف رأيت الناس؟ قال: رأيت الداخل راجياً والخارج راضياً، نحا إلى هذا المعنى ربعة الرقي فقال: السريع:

للناس والعفو عن الظالم	قد بسط المهدي كف الندى
مبشراً للوارد القادم	فالراجل الصادر عن بابه
جزاءً مقرراً بالصنعة شاكر	وقال مسلم بن الوليد في نحو هذا المعنى: الطويل:
وأرث نيران الندى للعشائر	جزيت ابن منصور على تاي
على آمن يخذويه حمل	داره
صاير	فتى راغم الأموال واصطنع
	الغلا
	تري الناس أرسالا على باب
	داره

وقال المتنبي: الطويل:

قريب بذي الكف المقداة	وألقى القم الصحاك أعلم
عهده	أنه

دخل خالد بن صفوان على أبي العباس السفاح، وعنده أخواله من بني الحارث بن كعب، فقال: ما تقول في أخوالي؟ فقال: هم هامة الشرف، وعزيب الكرم، وعرس الجود، إن فيهم لخصالا ما اجتمع في غيرهم من قومهم؛ إنهم لأطولهم أمما، وأكرمهم شيما، وأطيبهم طعما، وأوفاهم ذمما، وأبعدهم همما، الجمرة في الحرب، والرغد في الجذب، والرأس في كل حطب، وغيرهم بمنزلة العجب. فقال: وصفت أبا صفوان فأحسنت، فزاد أخواله في الفخر فغضب أبو العباس لأعمامه، فقال: أفخر يا خالد؟ قال: أعلى أخوال المؤمنين! قال: وأنت من أعمامه؟ قال: كيف أفاخر قوما بين ناسج برد، وسائس قرد، ودابغ جلد، دل عليهم هدهد، وغرقهم جرد، وملكتهم أم ولد! فأشرق وجه أبي العباس.

قال يموت ابن المززع: سمعت خالي الجاحظ، وذكر كلام خالد هذا، فقال: والله لو فكر في جمع معابهم، واختصار اللفظ في متالبيهم، بعد ذلك المدح المهذب سنة لكان قليلا، فكيف على بديته لم يرض له فكرا.

هكذا أورد هذه الحكاية الصولي، وقد جاءت بأطول من هذا، وليس من شرتنا.

قال معن بن أوس الهذلي: الطويل:

لعمرك ما أدري وإني	على أينا تأتي المنية أول
لأوجل	

وَإِنِّي أَخُوكَ الدَّائِمُ الْوَدَّ لَمْ  
أَحُلْ  
كَأَنَّكَ تَشْفِي مِنْكَ دَاءَ  
مَسَاءَتِي  
وَإِنْ سُوِّتَنِي يَوْمًا صَبِرْتُ إِلَى  
غَدٍ  
سَتَقْطَعُ فِي الدُّنْيَا إِذَا مَا  
قَطَعْتَنِي  
وَفِي النَّاسِ إِنْ رَتَّتْ حَبَالُكَ  
وَاصِلٌ  
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَنْصَفْ أَخَاكَ  
وَجَدْتَهُ  
وَيَرْكَبُ حَدَّ السِّيفِ مَنْ أَنْ  
تَصِيْمَهُ  
وَكَنتَ إِذَا مَا صَاحِبُ رَامٍ  
ظَنَّتِي  
قَلْبِيْ لَهُ ظَهَرَ الْمِجَنُّ وَلَمْ  
أَدْمُ

إِذَا نَابَ خَطْبٌ أَوْ تَبَا بِكَ  
مَنْزِلٌ  
وَسُخِّطِي، وَمَا فِي رَيْبَتِي مَا  
تَعَجَّلُ  
لِيَعْقَبَ يَوْمًا آخِرَ مِنْكَ  
مُقْبِلٌ  
يَمِينُكَ فَانْظُرْ أَيَّ كَفٍّ  
تَبَدَّلُ  
وَفِي الْأَرْضِ عَنْ دَارِ الْقَلْبِ  
مُتَحَوِّلٌ  
عَلَى طَرَفِ الْهَجْرَانِ إِنْ كَانَ  
يَعْقُلُ  
إِذَا لَمْ يَكُنْ عَنِ شَفْرَةٍ  
السِّيفِ مَرْحَلٌ  
وَيَبَدِّلُ سُوءًا بِالَّذِي كَانَ  
يَفْعَلُ  
عَلَيْهِ الْعَهْدُ إِلَّا رِيْثَمَا  
أَتَحَوَّلُ

إذا انصرفت نفسي عن  
الشيء لم تكذب  
عليّ بوجه آخر الدهر  
تقبل

ودخل عبد الله بن الزبير على معاوية بن أبي سفيان وأنشد شعر مَعْنٍ، فقال: لمن هذا؟ فقال: لي يا أمير المؤمنين، قال: لقد شَعُرْتَ بعدي يا أبا بكر! ثم دخل عليه مَعْنٍ فأنشد الشعر بعينه، فقال: يا أبا بكر، ألم تقل إنه شعرك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنه ظنّني فما كان له فهو لي. أراد معاوية معاوية فعاتبه بشعر مَعْنٍ؛ ليلعب ما في نفسه، وليس ادّعاؤه له على حقيقة منه.

وقال خالد بن صفوان: دخلتُ على هشام بن عبد الملك، فاستدّ تاني حتى كنت أقرب الناس إليه، ثم تيفّس الصعداء، وقال: يا خالد، ربّ خالدٍ جلس مجلسك هو أشهى إليّ حديثاً منك! فعلمت أنه أراد خالداً القسيري، فقلت: أفلا تعيده يا أمير المؤمنين؟ فقال: هيهات؟ إن خالداً أدلّ فأملّ، وأوجف فأعجف، ولم يدع لراجع مرجعاً. وتمثّل بهذا البيت: الطويل:

إذا انصرفت نفسي عن  
الشيء لم تكذب  
عليه بوجه آخر الدهر  
تقبل

وروى أبو حاتم عن أبي عبيدة قال: كان عبد الملك بن مروان في سمره مع أهل بيته وولده وخاصته، فقال لهم: ليقل كل واحدٍ منكم أحسن ما قيل من الشعر، وليفضل من رأى تفضيله، فأنشدوا وفضلوا. فقال بعضهم: امرؤ القيس، وقال بعضهم: النابغة، وقال بعضهم: الأعشى، فلما فرغوا قال: أشعر الناس والله من هؤلاء الذي يقول، وأنشد بعض هذه الأبيات التي أنشد، وهي لمعن بن أوس: الطويل:

وذي رجمٍ قلمتُ أظفارَ  
صغينه  
بحلمي عنه وهو ليس له  
جلم  
يحاول رعمي لا يحاول غيره  
وكالموت عندي أن يحل به

الرِّعْمُ  
 فإن أعفُ عنه أعض عيناً على  
 قَدَى  
 وليس له بالصَّفْحِ عن ذنبه  
 وإن أنتصر منه أكنُ مثل  
 عِلْمُ  
 سَهَامٍ عَدُوٍّ يُسْتَهَاضُ بِهَا  
 رَأْيُ  
 العِظْمُ  
 وما يَسْتَوِي حَزْبُ الأَقْرَابِ  
 صَبْرْتُ على ما كان بيني  
 وما يَسْتَوِي حَزْبُ الأَقْرَابِ  
 وبينه  
 والسَّلْمُ  
 وبادرْتُ منه النَّأْيَ والمرءُ  
 على سهمه ما كان في كَفِّه  
 قَادِرٌ  
 السهم  
 وبشتمَ عِرضي في المَغِيبِ  
 جَاهِداً  
 وليس لَهُ عِنْدِي هَوَانٌ وَلَا  
 إِذَا سُمُّهُ وَصَلَ القِرَابَةَ  
 شَتْمُ  
 قَطِيعَتِهَا، تَلِكُ السَّفَاهَةُ  
 سَامِنِي  
 والإثْمُ  
 فَإِنَّ أَدْعُهُ لِلنَّصْفِ يَأْبُ  
 وَيَدْعُو لِحُكْمِ جَائِرٍ غَيْرُهُ  
 إِجَابَتِي  
 الحُكْمُ  
 فَلَوْلَا اتِّقَاءُ اللَّهِ وَالرَّحْمِ  
 رِعَايَتِهَا حَقٌّ وَتَعْطِيلُهَا ظُلْمُ  
 التِي  
 إِذَا لَعَلَّاهُ بَارِقٌ وَخَطَمْتُهُ  
 وَيَسْعَى إِذَا أَبْنِي لِيهِدَمَ  
 بوسمِ شَتَارٍ لَا يَشَابَهُهُ  
 وَسَمُ  
 وليس الذي بيني كمن شَأْنُهُ  
 صَالِحِي  
 الهَدْمُ  
 يودُّ لَوْ أَنِّي مَعْدِمٌ ذُو  
 وَأَكْرَهُ جَهْدِي أَنْ يَخَالِطَهُ  
 حَصَاةُ  
 العُدْمُ  
 ويعتدُّ عُنْمًا فِي الحَوَادِثِ  
 وما إنْ لَهُ فِيهَا سَنَاءٌ وَلَا  
 نَكْبَتِي  
 عُنْمُ  
 فما زِلْتُ فِي لِينِي لَهُ  
 عليه كما تحنو على الولدِ  
 وتعطفي  
 الأمُ  
 وَجَفْضِي لَهُ مَنِي الجِنَاحِ  
 تَأْلَفَا  
 لُذْنِيَّةُ مَنِي القِرَابَةِ  
 وَصَبْرِي على أَشْيَاءٍ مِنْهُ  
 وَالرَّحْمُ  
 تَرِينِي  
 وَكَطْمِي عن غِيظِي وَقَدْ يَنْفَعُ  
 لاسْتَلِّ مِنْهُ الصُّغْنُ حَتَّى  
 الكَطْمُ  
 اسْتَلْتُهُ  
 وَقَدْ كَانَ ذَا صِغْنٍ يَصُوبُهُ  
 الحِزْمُ  
 رأيتُ انْتِلاماً بَيْنَنَا فَرَقَعْتُهُ  
 برفقي أحياناً وَقَدْ يَرْقَعُ  
 التَّلْمُ  
 وأبرأْتُ غِلَّ الصَدْرِ مِنْهُ  
 بِحِلْمِي كَمَا يُشْقَى بِالْأَدْوِيَةِ  
 التَّوَسُّعَا  
 الكَلْمُ  
 فأطْفَأَتْ نارَ الحَرْبِ بَيْنِي  
 فَاصْبِحْ بَعْدَ الحَرْبِ وَهُوَ لَنَا  
 سَلْمُ  
 وبينه  
 وكتب أبو الفضل بن العميد إلى أبي عبد الله الطبري:

وصل كئابك فصادفني قريبَ عهد بانطلاق، من عنتِ الفراق، وأوقفني  
مستريح الأعضاء والجوانح من حرّ الاشتياق، فإنّ الدهر جرى على حكمه  
المألوف في تحويل الأحوال، ومضى على رسمه المعروف في تبديل  
الأبدال، وأعتقني من مخالتيك عتقاً لا تستحق به ولاء، وأبرأني من عهدتك  
براءة لا تستوجب معها دركاً ولا استثناء، ونزع من عنقي ربةً الذلّ في  
إخائك بيديّ جفائك، ورش على ما كان يحتدم في ضميري من نيران  
الشوق ماء السلو، وشن على ما كان يلتهب في صدري من الوجد ماء  
الياس، ومسح أعشار قلبي فلأمّ فطورها بجميل الصبر، وشعب أفلاذ كبدي  
فلاحم صدوعها بحسن العزاء، وتغلغل في مسالك أنفاسي فعوض نفسي  
من النزاع إليك نزوعاً عنك، ومن الذهاب فيك رجوعاً دونك، وكشف عن  
عيني صبابات ما ألقاه الهوى على بصري، ورفع عنها غيابات ما سدّ له  
الشك دون نظري، حتى حذر النقاب عن صفحات شيمك، وسفر عن وجوه  
خليقتك؛ فلم أجد إلا منكرًا، ولم ألق إلا مستكبرًا، فوليت منها فرارًا،  
ومليت رغبًا، فذهب فقد ألقيت حبلك على غاربك، ورددت إليك ذميماً  
عهدك.

وفي فصل من هذه الرسالة: وأما عذرك الذي رمت بسطه فانقبض،  
وحاولت تمهيدته وتقريبه فاستوقر وأعرض، ورفعت بصّيعه فانخفض، فقد  
ورد ولقيته بوجه يؤثر قبوله على رده، وتزكيتيه على جرحه، فلم يف بما  
بذلته لك من نفسه، ولم يقم عند ظنك به، أتى وقد غطى التذمّم وجهه،  
ولفّ الحياء رأسه، وغصّ الخجل طرقه؛ فلم تتمكن من استكشافه، وولى  
فلم تقدر على إيقافه، ومضى يعثر في فضول ما يغشاه من كرب حتى  
سقط، فقلنا: للبد والفم. ثم أمر بمطالعة ما صحبه فلم أجده إلا تابط  
شراً، أو تحمّل وزراً.

وقوله هذا محلول من عقد نظمه إذ يقول: الكامل:

إقر السلام على الأمير وقل له	قدك أئيب أريبت في العلواء
أنت الذي شئت شمل مسرتي	وقدحت نار الشوق في أحشائي
ورضيت بالثمن اليسير معوضة	مني، فهلا يعنني بغلاء
وسألتك العنبي فلم ترني لها	أهلاً، فجدت بعدرة شوها
وردت مموهة فلم يرقع لها وأعار منطقتها التذمّم سكتة	طرّف، ولم ترزق من الإصغاء فتراجعت تمشي على استحياء
لم تشف من كمدٍ، ولم تبرد على	كبدٍ، ولم تمسح جوانب داء
داوت جوى بجوى وليس بحازم	من يستكف النار بالحلقاء
من يشف من كمد بآخر	أثرت جوارحه على الأدواء

مثله

وله إليه رسالة: أخطب الشيخ سيدي - أطال الله بقاءه - مخاطبةً مُحرَجَ  
 بِرُومِ الترويحِ عن قلبه، وُبرِغِ التفریحِ من كَرْبِهِ؛ فأكاتبه مكاتبةً مصدور، يربدُ  
 أن ينفثَ بعضَ ما به، ويخففُ الشكوى من أوصابه، ولو بقيتُ في التصبرِ  
 بقيةً ليسكتُ، ولو وجدت في أثناءٍ وجدي مخرجةً يتحللها تجلدُ لأمسكتُ؛  
 فقديمًا لبسْتُ الصديقَ على علاته، وصفحتُ له عن هناته، ولكني مغلوب  
 على العزاء، مأخوذٌ من عاداتي في الإغضاء، فقد سل من جفائك ما ترك  
 احتمالي جفاءً، وذهب في نفسي من ظلمك ما أنزف حلمي فجعله هباءً،  
 وتوالي عليّ من قُبْحِ فعلِكَ في هجر يستمر على نسق، وصدّ مطرِدٍ متسبِقِ،  
 ما لو فُضَّ على الوَريِّ، وأفيض على البشرِ لأمثلاثٍ منه صدورُهم، فهل أقدِرُ  
 على ألا أقول، وهل نكلُك إلى مراعاتك، وهل نشكوك إلى الدهرِ حليفك على  
 الإضرار، وعَقيدك على الإفساد، وأشكوه إليك؟ فإنكما وإن كنتما في قطعة  
 الصديقِ رضيعي لَبان، وفي استبطاءِ مركبِ العقوقِ شريكِ عنان، فإنه  
 قاصرٌ عنك في دقائقِ مخترعةٍ، أنت فيها نسيخٌ ووَحدِك، وقاعد عما تقوم به  
 من لطائفِ مبتدعةٍ، أنت فيها وحيدٌ عصرِك، أنتما متفقان في ظاهرِ يَسْرُ  
 الناظرِ، وباطنِ يسوءُ الخابرِ، وفي تبادلِ الأبدالِ، والتحوُّلِ من حالٍ إلى حالِ،  
 وفي بثِ حبائلِ الزورِ، وتَصَبِ أشراكِ الغرورِ، وفي خلفِ الموعودِ، والرجوعِ  
 في الموهوبِ، وفي قضاةِ اهتضامِ ما يعيرِ، وشناعةِ ارتجاعِ ما يمنحِ، وقَصْدِ  
 مُسْأَرَةِ الأحرارِ، والتحاملِ عند ذوي الأخطارِ، وفي تكذيبِ الظنونِ، والميلِ  
 عن النباهةِ للخمولِ، إلى كثيرِ من شيمكما التي أسندتما إليه، وسنتكما التي  
 تعاقدتما عليها، فأين هو ممن لا يجارى فيه نقضُ عُرَى العهودِ، ونكتُ قُوَى  
 العقودِ؟ وأتى هو عن النميمةِ والغيبةِ، ومشى الصَّراءِ في الغيلةِ، والتنفقِ  
 بالنفاقِ في الحيلةِ؟ وأين هو ممن ادَّعى ضروبَ الباطلِ، والتحلي بما هو منه  
 عاقل، وتنقَّص العلماءِ والأفاضلِ؟ هذا إلي كثيرِ من مَسَاوِ منشورةٍ أنت  
 ناظمها، ومَحَازٍ متفرقةٍ أنت جامعها. أنت أبْدِك الله إن سَوَّيْتَهُ بنفسك،  
 ووزنته بوزنك، أظلمُ منه لذويه، وأعقُ منه لبنيه، وهَبْكَ على الجملةِ قد  
 زعمت - مفترياً عليه - أنه أشدُّ منك قدرةً، وأعظمُ بسْطَةً، وأتمُّ نصرَةً،  
 وأطلق يدًا في الإساءةِ، وأمضى في كل نكايه شباةً، وأحد في كل عاملةِ  
 سَدَاةٍ، وأعظم في كل مكروهٍ مُتَغَلْغَلًا، وألف إلى كل محذورٍ متوصلًا، إن  
 الدهر الذي ليس بمعْتَبٍ من يجزَعُ، وإن العُتْبَى منك مأمولة، ومن جهتك  
 مرقوبة، وهيهات! فهل توهم أنه لو كان ذا روحٍ وجثمانِ، مصورًا في صورةِ  
 إنسانِ، ثم كاتبتُهُ أستعطفه على الصلةِ، وأستعفيه من الهجرِ، وأذكره من  
 المودَّةِ، وأستميل به إلى رعايةِ المِقةِ، وأستعدُّ على ما أشاعه الفراقُ في  
 نفسي من اللوعةِ، وأضرمه بالبعادِ في صدري من الحرقةِ، وكان يستحسِنُ  
 ما استحسنته من الاضطرابِ عند جوابي، ويستجيز ما استجرتَه من  
 الاستخفافِ بكتابي.

وله فصل في هذه الرسالة، وقد ذكر دعواه في العلم: وهبُك أفلاطون  
 نفسه، فأين ما سنته من السياسةِ، فقد قرأناه، أتجدُ فيه إرشادًا إلى  
 قطعةِ صديقِ، وأحسبك أرسطاطاليس بعينه، أين ما رَسَمْتَهُ من الأخلاقِ؟  
 فقد رأينا فلم نر فيه هدايةً إلى شيءٍ من العُفوقِ، وأما الهندسة فإنها باحثةٌ  
 عن المقاديرِ، ولن يعرفها إلا مَنْ جهل مقدارَ نفسه، وقَدَرَ الحقَّ عليه؛ بل  
 لك في رؤساءِ الآدابِ العربيةِ مِثًا ربيحٌ ومضطرب، ولسنا نُشَاخُك. لكن أحب

أن تتحقّق بالغريب من القول، دون الغريب من الفعل؟ وقد أغربت في الذهاب بنفسك إلى حيث لا تهتدي للرجوع عنه. وأما النحو فلن تُدفع عن حذق فيه، وبصر به، وقد اختصرته أوجز اختصار، وسهلت سبيل تعليمه على من يجعلك قُدوةً، ويرضى بك أسوةً، فقلت: الغدُرُ والباطلُ وما جرى مجراهما مرفوع، والصدق والحقُّ وما صَاحَبَهُما مخفوض، وقد نصب الصديقُ عندك، ولكن غرضاً يَرشِقُ بسهام الغيبة، وعَلماً يقصد بالوقية، ولست بالعروضي ذي اللهجة فأعرف قَدْرَ حذقك فيه، إلا أنني لا أراك تتعرّضُ لكاملٍ فيه، ولا وافرٍ، ولينك سبحت في بحر المجتث حتى تخرج منه إلى شَطِّ المتقارب.

وفي فصل منها أيضاً:

وهبني سكتٌ لدعواك سُكوت متعجّب، ورضيتُ رضا متسخّط، أيرضى  
الفضل اجتذابتك بأهدايه، من يدي أهليه وأصحابه، وأحسبك لم تراجم  
خطابه، حتى عرفت ذلة تَقْره وقلة بصره، فاصدقني هل أنشدك:  
المنسرح:

لو بأبائين جاء يخطبها صُرِّحَ ما أنفُ خاطبٍ يَدَم  
وليت شعري بأي حلي تصدّيت له؛ وأنت لو تتوجت بالثريا، وقلدت قِلادة  
الفلك، وتمنطقت بمنطقة الجوزاء، وتوشحت بالمجرة لم تكن إلا عُطلاً، ولو  
تويّخت بأنوار الربيع الزاهر وسرّجت جبينك غرّة البدر الباهر، ما كنت إلا  
عُطلاً، سيما مع قلة وفائك، وضعف إخائك، وظلمة ما تتصرّف فيه من  
خِصالك، وتراكم الدجى على ضلالك، وقد ندمت على ما أعرتك من ودّي،  
ولكن أي ساعة مندّم، بعد إفناء الزمان في ابتلاك، وتصفحي حالات الدهر  
في اختيارك، وبعد تضييع ما غرستته، ونقض ما أسسّته، فإن الوداد غرس إذا  
لم يوافق ثرى ثريا، وجوّاً عذيباً، وماء رويّاً، لم يُرَج زكاؤه، ولم يجر نماؤه،  
ولم تفتح أزهاره، ولم تجن ثماره، وليت شعري، كيف ملك الضلال قيادي  
حتى أشكل عليّ ما يحتاج إليه الهمزوجان، ولا يستغني عنه المتألفان، وهما  
ممازجة طبع، وموافقة شكلٍ وخلق، ومطابقة خيم وخلق، وما وصلتنا حال  
تجمعنا عنى ائتلاف، وحمئنا من اختلاف، ونحن في طرفي ضديين، وبين  
أمرين متباعدين؛ وإذا حصلت الأمر وجدت أقل ما بيننا من البعاد، أكثر ممّا  
بين الوهاد والنجاد، وأبعد ممّا بين البياض والسواد، وأيسر ما بيننا من النفار  
أقل ما بيننا من النصار، وأكثر ما بين الليل والنهار، والإعلان والإسرار.

قضاء الحاجة

قال أسد بن عبد الله لأبي جعفر المنصور: يا أمير المؤمنين، قرطُ الخيلاء، وهيبةُ  
العزة، وظلُ الخلافة، يكف عن الطلب من أمير المؤمنين إلا عن إذنه، فقال له: قل:  
فقد والله أصبت مسلك الطلب؛ فسأل حوائج كثيرة فصيئت له.

وقال عمرو بن نهيك لأبي جعفر المنصور: يا أمير المؤمنين، قد حضر خدّمك الإعظام  
والهيبة عن ابتدائك بطليّاتهم، وما عاقبه هذين لهم عندك؟ قال: عطاء يزيدهم حياةً،  
وإكرام يكسوهم هيبة الأبد.

قال عيسى بن علي: ما زال المنصور يشاورنا في أمره حتى قال إبراهيم بن هرمة  
فيه: الطويل:

إذا ما أراد الأمر ناجي	فناجى ضميراً غير مختلف
ضميره	العقل
ولم يُشرك الأدين في جُل	إذا اختلفت بالأضعفين قوَى
أمره	الحبل

فَقَرَّ فِي ذِكْرِ الْمَشُورَةِ  
الْمَشُورَةُ لِفَاحِ الْعَقْلِ، وَرَائِدُ الصَّوَابِ، وَحَزْمُ التَّدْبِيرِ. الْمَشَاوِرَةُ قَبْلَ الْمَسَاوِرَةِ.  
وَالْمَشُورَةُ عَيْنُ الْهَدَايَةِ.  
ابن المعتز: من رضي بحاله استراح، والمستشير على طرف النجاح.  
وله: مَنْ أَكْثَرَ الْمَشُورَةَ لَمْ يَعدِمِ فِي الصَّوَابِ مَادِحًا، وَفِي الْخَطِإِ عَادِرًا.  
بشار بن برد: المشاور بين إحدى الحسينين: صواب يفوز بثمرته أو خطأ يُشارك في  
مكروهه، وقال: الطويل:

بَعَزَمَ نَصِيحٍ أَوْ مَشُورَةٍ	إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ الْمَشُورَةَ
حَازِمٌ	فَاسْتَعِينُ
فَإِنَّ الْخَوَافِي قُوَّةٌ	وَلَا تَحْسَبِ الشُّورَى عَلَيْكَ
لِلْقَوَادِمِ	عَضَاظَةً
وَمَا خَيْرٌ سِيفٍ لَمْ يُؤَبِّدْ	وَمَا خَيْرٌ كَفٍّ أَمْسَكَ الْعُلَّ
بِقَائِمِ	أَحْتَهَا
نُؤُومًا فَإِنَّ الْحَرَّ لَيْسَ	وَحَلَّ الْهُوْبَى لِلضَّعِيفِ وَلَا
بِنَائِمِ	تَكُنُ
وَلَا تُشْهِدِ النَّجْوَى أَمْرًا غَيْرَ	وَأُذِنِ إِلَى الْقَرَبِ الْمُقَرَّبِ
كَاتِمِ	نَفْسَهُ
وَلَا تَبْلُغِ الْعُلْيَا بِغَيْرِ الْمَكَارِمِ	فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِرُّدُ الْعَمَّ
	بِالْمَنَى

دخل الهذيل بن زفر علي يزيد بن المهلب في حمالات لزمته فقال: أيها  
الأمير، قد عظم شأنك أن يُستعان بك أو يستعان عليك، ولست تفعل شيئاً  
من المعروف إلا وأنت أكبر منه، وليس العجب من أن تفعل، بل العجب من  
ألا تفعل، فقضاها.

في التاريخ والنسب  
استخلص القاضي أبو خليفة الفضل بن حباب الجمحي رجلاً للأئس به،  
فقال:

أَعْيَّرَ ثِيَابِي وَإِعْوَدِي، قَالَ: مَا أَفْعَلُ، إِبْنِاسُكَ وَعَدِي، وَإِحَاشُكَ نَقْدِي، وَكَانَ أَبُو  
خليفة من جلة المحدثين، وله خلاوة معني، وحسن عبارة، وبلاغة لفظ.  
قال الصولي: كاتبُ أبا خليفة في أمور أرادها فأغفلت التاريخ منها في  
كتابين، فكتب إلي بعد نفوذ الثاني: وصل كتابك - أعزك الله - مبهم  
الأوان، مُظْلَمُ الْمَكَانِ، فَأَدَّى خَيْرًا مَا الْقَرَبُ فِيهِ بِأَوْلَى مِنَ الْبُعْدِ؛ فَإِذَا  
كُتِبَتْ - أَكْرَمَكَ اللَّهُ تَعَالَى! - فَلتكن كتبك مرسومة بتاريخ؛ لأعرف أدنى  
أثارك، وأقرب أخبارك، إن شاء الله تعالى.

وقال بعض الكتاب: التاريخ عمود اليقين، وتافي الشك، به تُعْرَفُ  
الحقوق، وتُحَقَّقُ الْعُهُودُ.  
وقال رجل لأبي خليفة سلم عليه: ما أحسبك تعرف نسبي، فقال: وجهك  
يدل على نسبك، والإكرام يمنع من مسألتك، فأوجد لي السبيل إلى  
معرفتك.

وسأل أبو جعفر المنصور قبل أن تُفْضِيَ إِلَيْهِ الْخِلاَفَةَ شَيْبَةَ بِنِ شَيْبَةَ،  
فانتسب له، فعرفه أبو جعفر، فأتى عليه وعلى قومه، فقال له شبيب:  
بأبي أنت وأمي! أنا أحب المعرفة وأجلك عن المسألة، فتبسم أبو جعفر

وقال: لطف أهل العراق! أنا عبد الله بن محمد بن علي، بن عبد الله بن العباس، فقال: بأبي أنت وأمي! ما أشبهك بنسبك، وأدلك على منصبك. فقرر وأمثال يتداولها العمال  
الولاية حلة الرضاع مرّة الفطام. عُبارُ العمل خيرٌ من زعفران العطلة.  
ابن الزيات: الإرجاف مقدمة السكون.  
عبد الله بن يحيى: الإرجاف رائد الفتنة.  
حامد بن العباس: غرس البلوى، يثمر الشكوى.  
أبو محمد المهلبى: التصرّف أعلى وأثنى، والتعطلُّ أصفى وأعفى.  
إبو القاسم الصاحب: وعدُّ الكريم، الرّمُّ من دين الغريم.  
أبو المعتز: ذلُّ العزلِ يضحك من تيه الولاية. وقال: مجزوء الكامل:  
كم تائه بولاية  
سُكّر الولاية طيبٌ  
وَحُمَارِهَا صَعْبٌ شَدِيدٌ  
وقال: من ولي ولاية فتاه فيها فأخبره أن قدره دونها. العزل طلاق الرجال وحيض  
العمال. وأنشدوا: الوافر:

وقالوا العزل للعمال حَيْضٌ  
لحاهُ الله من حَيْضٍ بَغِيضٍ  
فإنَّ يَكُ هَكَذَا فَأَبُو عَلِيٍّ  
من اللّائِي يَنْسَنَ من  
المحيضِ

منصور الفقيه: المجتث:  
يا مَنْ تولى فآبدي  
أليس منك سميعنا  
وقال أيضاً: المتقارب:

إذا عَزَل المرءُ واصلته  
لأن المولى له نخوة  
وعند الولاية أستكبرُ  
ونفسي على الذلِّ لا تصيرُ  
أخبار منصور الفقيه

ومنصور هذا هو منصور بن إسماعيل بن عيسى بن عمر التيمي، وكان يتفقه على مذهب الإمام الشافعي، رضي الله عنه، وهو حلو المقطعات، لا تزالُ تندر له الأبيات مما يستظرف معناه، ويُستحلى مغزاه، ويبقى ثناه، وهو القائل لما كفَّ بصره: البسيط:

مَنْ قال مات ولم يستوفِ  
مُدَّتْهُ

وليس في الحكم أن يحيا  
فتىً بلغتْ  
فقلْ له غيرَ مرتابٍ  
بغفليته

وعتَبَ على بعض الأشراف، وكانت أمُّه أمةٌ قيمتها ثمانية عشر ديناراً، فقال:  
المجتث:

من فاتني بأبيه  
ورام شتمي ظلماً

وقال: المجتث:

لو قيل لي خذ أماناً  
لما أخذتُ أماناً

وقال: المتقارب:

رضيت بما قسم الله لي  
وفوضتُ أمري إلى خالقي

كما أحسن الله فيما مضى      كذلك يُحسن فيما بقي  
 وقال: مجزوء الكامل:  
 لو كنت منتفعاً بعل  
 ما ضرَّ شرب السمِّ واع  
 وقال: الهزج:  
 إذا القوْثُ تأتَّى ل  
 وأصبحتُ أخا حُرْنِ  
 ك والصَّحَّةُ والأمن  
 فلا فارقك الحُرْنُ

ورأيت له في أكثر النسخ - على أن أكثر الناس يرويه لإبراهيم بن المهدي، وهو الصحيح-: الكامل:

لولا الحياءُ وأنتي مشهورٌ      والعيْبُ يعلِّقُ بالكبيرِ كبيرٌ  
 لخللتُ منزلنا الذي نحتلُّه      وكان منزلنا هو المهجورُ  
 وهذا كقول صاحب أبي القاسم: المتقارب:  
 دعْنِي عيناك نحو الصبا      دعاء يكرر في كلِّ ساعه  
 فلولا وحقك عذْرُ المشيب      لقلْتُ لعينيك سمعاً وطاعه  
 وقال ابن دريد في معني البيت الأول فأحسن: البسيط:  
 إذا رأيت امرأ في حال      مُصَافِياً لك ما في وُدِّه خَلُّ  
 عُسْرَتِه      فلا تمن له أن يستفيدَ غِنِيَّ  
 فإنه بانتقال الحال ينتقلُ

تغيّر بعد عسرة

وكان لمحمد بن الحسن بن سهل صديقٌ قد نالته عُسْرَةٌ، ثم وُلِّي عملاً؟، فأتاه محمد قاضياً حقاً ومسلماً عليه، فرأى منه نبوةً وتغيّراً، فكتب إليه: الطويل:

لئن كانت الدنيا أنالُكَ      ثروةٌ  
 وأصبحت ذا يُسْرِ، وقد كُنْتَ ذا  
 عُسْرٍ

لقد كشف الإثراء منك      من اللؤم كانت تحت ثوبٍ من  
 خلائقاً      الفقر

وقال أبو العتاهية في عمرو بن مسعدة، وكان له خلاً قبل ارتفاع حاله، فلما علّت رتبته مع المأمون تغيّر عليه: الطويل:

غنيّت عن العهد القديم      وضيعت عهداً كان لي  
 غنيّتا      ونسيّتا

وقد كنت لي أيام صَعْفٍ من      أبرٍّ وأوقى منك حين قويتا  
 القوى

تجاهلت عما كنت تُحسِن      ومُت عن الإحسان حين  
 وصَفَه      حَيِّيتا

وكتب بديع الزمان إلى أبي نصر بن المرزبان فيما ينخرط في هذا السلك: كنتُ - أطال الله بقاءَ الشيخ سيدي وأدام عرّه - في قديم الزمان أتمّني الخير للإخوان، وأسألُ الله تعالى أن يُدِرَّ عليهم أخلافَ الرزق، ويمدِّ لهم

أكناف العيش، وبؤتيهم أصناف الفَصْلِ، وبوطئهم أكناف العزِّ، ونبيلهم أعرافَ المجدِّ، وقُصارايَ الآن أن أرغَبَ إلى الله تعالى ألا يُنبيلهم فوق الكفاية، فشد ما يَطْعَوْنَ عند النعمة ينالونها، والدرجة يعلونها، وسرَّع ما ينظرون من عالٍ، وجمعون من مالٍ، وينسون في ساعة اللدونة أوقات الخشونة، وفي أزمان العذوبة أيام الصعوبة، وللكتاب مَزِيَّة في هذا الباب؛ فبيننا هم في الغربة أعوان كما انفرج المشط، وفي العُطلة إخوان كما انتظم السَّمْط، حتى إذا لحظهم الجدُّ لحظةً حَمَقَاءَ بمنشور عمالة، أو صَكَ جعالية؛ عادَ عامر مودَّتهم خراباً، وانقلب شرابُ عهدهم سَرَاباً، فما اتسعت دورُّهم وإلا ضاقت صدورُّهم، ولا عَلت قدورُّهم إلا خَبَتْ بدورهم، ولا عَلت أمورُّهم إلا أُسِيَلت ستورُّهم، ولا أوقِدَتْ نارُّهم إلا انطفأ نورهم، ولا هَمَلَجَتْ عِتَاقهم إلا فطعت أخلاقهم، ولا صلحت أحوالهم، إلا فسدت أفعالهم، ولا كَثُرَ مالهم، إلا قل جمالهم، وعَزَّ معروفهم، وورمَتْ أنوفهم، حتى إنهم ليصيرون على الإخوان مع الخطوب حَطْباً، وعلى الأحرار مع الزمان ألباً. فُصَّاري أحدهم من المجد أن ينصبَ تحته تَحْتَهُ، وأن يوطئ استه دسَّته، وحَسْبُهُ من الشرف دائرٌ يصهرجُ أرضها، ويزخرف بعضها، ويزوِّق سقوفها، ويعلق سُقُوفها، وناهيه من الشرف أن تغدو الحاشية أمامه، وتحمل الغاشية قَدَّامه، وكفاه من الكرم أَلْفَاق فقاعية، وثياب قداعية، يلبسها ملوماً، وبحشوها لوماً، وهذه صفة أفاضلهم. ومنهم من يَمْتَحِكُ الودَّ أيام حُشكاره حتى إذا أخصب جعل ميزاتِه وكيَله، وأسنانه أكيله، وأنيسه كيسه، وأليفه رغيقه، وأميته يمينه، ودنانيره سَميره، وصندوقه صديقه، ومفتاحه ضجيغه، وخاتمه خادمه، وجمع الدرَّة إلى الدرَّة، ووضع البدرَّة على البدرَّة، فلم تقع القطرَّة من طرْفه، ولا الدرَّة من كَفِّه؛ ولا يخرج ماله عن عهدة خاتمه، إلى يوم ماتمه، وهو يجمع لِحَادِثِ حَيَاتِهِ، أو وارث وفاتِه، يسلكُ في العَدْرِ كُلِّ طَرِيقٍ، ويبعُ بالدرهم ألف صديق؛ وقد كان الظنُّ بصديقنا أبي سعيد - أيده الله تعالى - أنه إذا أخصب أوانا كنفاً من ظله، وحبَّاتاً من فضله، فَمَنْ لنا الآن بعدله؟ إنه - أطال الله بقاءه - حين طارت إلى أذنه عُقَابُ المخاطبة بالوزير، وجلس من الديوان في صَدْرِ الإيوان افتضَّ عُدْرَه السياسة لديِّ، يتعرض بعض المختلفة إليِّ، وجعل يعرضه للهلاك، ويتسبب إليه بمال الأتراك، وجعلت أكايتِه مرة وأقصيده أخرى، وأذكره أن الراكب ربما استنزل، والوالي ربما عُزِل، ثم يجفُّ ريق الخجل على لسان العذر، فيتبقى الحزازة في الصدر، وما يجمعني والشيخ إن كان زَادَهُ قولي إلا علُوًّا في تحكمه وعلُوًّا في تهكمه وجعل يمشي الجَمْرِي في ظلمه؛ وبيراً إليَّ من علمه، فأقول - إذا رأيت ذلَّة السؤال مني وعزَّة الردِّ منه لي - : مجزوء الكامل:

قل لي متى قَرَزَنْتِ سُرَّ عة ما أرى يا بَيِّدَقُ

وما أضيع وقتاً فيه أضَعْتُهُ، وزماناً بذكره قطعته، هلمَّ إلى الشيخ وشرعته، فقد نكا القلب بقَرْحه، وكيف أصفُ حالاً لا يقرع الدهرُ مَرَوَةَ حاله، ولا ينتقض عروة إجلاله؛ فما أولاني بأن أذكره مجملاً، وأتركه مفصلاً، والسلام. وكتب إلى بعض إخوانه في أمر رجل ولي الأشراف:

فهمت ما ذكرت - أطال الله بقاءك - من أمر فلان أنه ولي الأشراف، فإن يصدق الطير يكن إشرافاً على الهلاك، بأيدي الأتراك، فلا تحزُنْك ولايته فالحبل لا يبرم إلا للفتل، ولا تعجبك خلعتة فالثور لا يزين إلا للقتل، ولا

يرعك نفاقه فأرخص ما يكون النفط إذا غلا وأسفل ما يكون الأرنب إذا  
علا، وكأني به وقد شنَّ عليه جران العود، شنَّ المطر الجود، وقيد له  
مركبُ الفجار، من مربط النجار، وإنما جر له الحبل، ليصع كما صُفِع من  
قبل، وستعودُ تلك الحالة إحالة، وينقلبُ ذلك الحبلُ جباله، فلا يحسد الذئب  
على الإلية يُعطأها طعمة، ولا يحسب الحبُّ يُنثر للعصفور نعمة، وهبه وُلِي  
إمارة البحرين أليس مرجعه ذلك العقل، ومصيره ذلك الفضل، ومنصبه  
ذلك الأصل، وعصارته ذلك النسل، وقعيدته تلك الأهل، وقوله ذلك القول،  
وفعله ذلك الفعل، فكان ماذا؟ أليس ما قد سلب أكثر مما أوتي، وما عدم  
أوفر ممَّا غنم؟ ما لك تنظرُ إلى ظاهره، وتعمي عن باطنه؟ أكان يعجبك  
أن تكونَ قعيدته في بيتك، وبغلته من تحتك، أم كان يسرُّك أن تكونَ  
أخلاقه في إهابك، وبؤأبه على بابك؟ أم كنت تودُّ أن تكونَ وجعاًؤه في  
إزارك، وعلمانه في دارك؟ أم كنت ترضى أن تكونَ في مربطك أفراسه،  
وعليك لباسه، ورأسك رأسه؟ جعلت فداك! ما عندك خير ممَّا عنده،  
فاشكر الله وحده على ما آتاك، واحمده على ما أعطاك، ثم أنشد:

لا مَنْ يظُلُّ على الأقدارِ  
مكتئباً

إن الغنيَّ هو الراضي  
بعيشته

بين البخل والجود

ألف سهل بن هارون كتاباً يمدح فيه البخلَ ويذمُّ الجودَ؛ ليظهر قدرته على البلاغة،  
وأهداه للحسن بن سهل في وزارته للمأمون، فوقع عليه: لقد مدحت ما ذمَّه الله،  
وحسنت ما قبح الله، وما يقوم صلاح لفظك بفساد معناك، وقد جعلنا نوالك عليه قبول  
قولك فيه.

وكان الحسنُ من كرماء الناس وعقلائهم. سُئل أبو العيناء عنه، فقال: كأنما خلف آدمَ  
في ولده، فهو ينفع عيَّلتهم، ويسدُّ حلَّتهم، ولقد رفع الله للدنيا من شأنها، إذ جعله من  
سكَّانها.

أخذ هذا المعنى أبو العيناء من قول الشاعر: الكامل:

وكان آدمَ كان قبل وفاته  
بنيته أن ترعاهم قرعيتهم

أوصاك وهو يجود بالحوباء  
وكفيت آدمَ عيلة الأبناء

وأخذ أبو الطيب المتنبي آخر كلام أبي العيناء فقال: البسيط:

قد شرف الله دنيا أنت  
سأكنها

وشرف الناس إذ سواك  
إنساناً

وقيل للحسن بن سهل: لم قيل: قال الأول، وقال الحكيم؟ قال: لأنه كلام  
قد مرَّ على الأسماع قبلنا، فلو كان زللاً لما نُقل إلينا مستحسنًا.  
ومن أمثال البخلاء

واحتجاجهم، وحكمهم:

أبو الأسود الدؤلي: لا تُجاود الله، فإنه أجود وأمجد، ولو شاء أن يوسّع على خلقه حتى  
لا يكون فيهم محتاج فعل. وقال: لو أطعنا المساكين في إعطائنا إياهم كنا أسوأ حالاً  
منهم.

وقال الكندي: قول "لا" يدفع البلاء، وقول "نعم" يزيل النعم. وقال: سماع الغناء  
يرسام حاد؛ لأن المرءَ يسمع فيطرب، فيسمح فيفتقر، فيغتم فيمرض فيموت. وقال  
لأبنة: يا بني، كن مع النابس كاللاعب بالقمار، إنما عرَّضه أخذ متاعهم، وحفظ متاعه.  
وقال غيره: منع الجميع أَرْضَى للجميع. إذا قبح السؤال حسن المنع.

وقال علي بن الجهم: من وهب في عمله فهو مخدوع، ومن وهب بعد العزل فهو  
أحمق، ومن وهب من جوائز سلطانه أو ميراث لم يتعب فيه فهو مخدول، ومن وهب

مِنْ كَيْسِهِ وَمَا اسْتَفَادَ بِحِيلَتِهِ فَهُوَ الْمَطْبُوعُ عَلَى قَلْبِهِ، الْمَخْتُومُ عَلَى سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ.  
وَمِنْ إِنْشَادَاتِهِمْ: الْخَفِيفُ:

لَا تُجْدُ بِالْعَطَاءِ فِي غَيْرِ حَقِّ      لَيْسَ فِي مَنِّعٍ غَيْرِ ذِي الْحَقِّ  
بُخْلٌ

وقال كَنِّيْر: الطويل:

إِذَا الْمَالُ لَمْ يُوَجِّبْ عَلَيْكَ      حَقِيقَةً تَقْوَى أَوْ صَدِيقٌ  
عَطَاءَهُ      تُرَافِقُهُ  
مَتَّعْتَ، وَبَعْضُ الْمَنِّعِ حَرْمٌ      وَلَمْ يَفْتَلِتْكَ الْمَالُ إِلَّا  
وَقُوَّةٌ      حَقَائِقُهُ

ابن المعتز: السريع:

يَا رَبَّ جُودٍ جَرَّ فَقَرَ امْرِئٍ      فِقَامٌ لِلنَّاسِ مَقَامَ الذَّلِيلِ  
فَاشْدُدْ عُرَا مَالِكَ وَاسْتَبْقِهِ      فَالْبُخْلُ خَيْرٌ مِنْ سَوْأَلِ  
الْبَخِيلِ

وكتب بعضُ البخلاء يصفُ بخيلاً: حضرت - أعزك الله - مائدةً فلان للقدر  
المجلوب، والخبين المباح، والشقاء الغالب، فرأيت أواني تروق العيون  
محاسنها، ويونقُ النفوسَ ظاهرها وباطنها، وتزهى اللحظات ببدائع غرائبها،  
وتستوفي الشهوات بلطائف عجائبها، مكللةً بأحسن من حلي الحسان  
ووجوهها وزهر الرياض وتورها، كأن الشمسَ حلت بساحتها، والبدر يغرف  
من جوانبها، فمددت يداً عنتها الشراهة، وعلبها القدر الغالب، وجرها الطمع  
الكاذب، وإذا له مع كسر كل رغيغ لحظة نكر، ومع كل لقمعة نظرة شرر،  
وفيما بين ذلك حرق قائمة، يصلى بها من حضره من الغلمان والحشم، وقام  
بين يديه من الولدان، والخدم، ومع ذلك فترة المغيشي عليه من الموت؛  
فلما وضعت الحرب أوزارها برفع الخوان، وتخلت عنه سمادير العشيان،  
بسط لسان جهله، ونصر ما كان من بخله، ونظر إلى مؤاكلة، نظر المسترق  
له بأكلته، المالك لحيط رقبته! يظن أنه أولي من والديه بنسبته، وأحق  
بماله، من ولده وعياله، يرى ذلك فضلاً، وحقاً لازماً، وأمرًا واجبًا، نزل به  
الكتاب والسنة، وانفق عليه فضاء الأمة، فإن دفعه رد حكم القضاة عليه،  
وإن سمح به فغير محمود عليه.

فقر لابن المعتز وغيره

في الصديق والصدق

إنما سُمِّيَ الصديقُ صديقاً لصدقه فيما يدعيه لك، وسُمِّيَ العدوُّ عدواً لعدوه عليك إذا  
ظفر بك. علامةُ الصديق إذا أراد القطيعة أن يؤخر الجواب، ولا يبتدئ بالكتاب، لا  
يفسدنك الظنُّ على صديق قد أصلحك اليقين له. إذا كثرت ذنوب الصديق أتمحَقَ  
السروُرُ به، وتسلطت التهم عليه. من لم يقدم الامتِحَانِ قبل الثقة والثقة قبل الأَنَسِ  
أثمرت مودته ندماً. نُصِحَ الصديق تاديباً، ونصح العدو تائباً. طاهرُ العتاب خيرٌ من  
باطن الحقد، وما جُمش الود بمثل العتاب: الكامل:

تَرَكُ الْعِتَابَ إِذَا اسْتَحَقَّ أَحْمَنُكَ الْعِتَابَ ذَرِيعَةُ الْهَجْرِ

وكتب أبو إسحاق الصابي إلى صديق له من الخبَس: نحن في الصحبة  
كالتسربن، لكني واقع، وعلى الطائر أن يغشى أخاه ويراجع. من قل صدقه  
قل صديقه. من صدقت لهجته ظهرت حُجته. الصادق بين المهابة والمحبة.  
من عرف بالصدق جاز كذبه، ومن عرف بالكذب لم يجز صدقه، ومن تمام  
الصدق الإخبار بما تحتمل العقول.

من إنشاء الحسن بن وهب  
وكتب الحسن بن وهب إني أبي تمام أطائي: أنت، حفظك الله، تحنّذي من البيان في  
النظام، مثل ما نقصد نحن في النثر من الإفهام، والفضل لك - أعزك الله - إذ كنت  
تأتي به في غاية الاقتدار، على غاية الاقتصار، في منظوم الأشعار، فنحل متعقده،  
وتربط متشزّده، وتضم أقطاره، وتجلو أنواره، وتفصله في حدوده، وتخرجه في قيوده،  
ثم لا تأتي به مهملًا فيستبهم، ولا مشتركًا فيلتبس، ولا متعقدًا فيطول، ولا متكلفًا  
فيحول؛ فهو منك كالمعجزة تضرب فيه الأمثال، وتشرح فيه المقال؛ فلا أعدمنا الله  
هدايك واردة، وفوائدك وافدة، وهي طويلة.

وفي هذه الرسالة يقول أبو تمام، وقد أرى أنه قال ذلك في غيرها: الوافر:

لقد جلى كتابك كل بيت  
فصصت حتامه فتبلجت لي  
وكان أعص في عيني وأندى  
وأحسن موقعا مني وعندي  
كتبت به بلا لفظ كربه  
وضمن صدره ما لم تضمن  
فإن تك من هدايك الصفايا  
لئن غربتها في الأرض بكرا

وقال البحري في الحسن بن وهب: الكامل:

وإذا تالق في التدي كلامه  
ال  
وإذا دجت أقلامه ثم انتحت  
باللفظ يعرّب فهمه في  
بُعده

حكم فسائحها خلال بنائه  
كالروض مؤلق بحمرة ورده  
أو كالبرود تحيرت لمتوج  
وكانها والسمع معقود بها

أنشد بعض الكتاب هذه الأبيات أبا العباس ثعلبياً، فاستعادها حتى فهمها، ثم  
قال: لو سمع الأوائل هذا ما فضلوا عليه شعراً.  
وقال بعض الكتاب: مجزوء الكامل:

ورسالة أفاضها  
جاءت إليك كأنها ال  
بأرق من شكوى وأح  
لو واجهت أعمى لأص  
فكانها أمل سري  
أو كالفقيد إذا أتت  
أو كالمنام لساهر  
كتبت بحبر كالتوى  
فكانما هو باطل

وقال أحمد بن أبي العباس بن ثوبة البسيط:

في النظم كالدر التثير  
توفيق في كل الأمور  
سن من حياة في سرور  
بح وهو ذو طرف بصير  
من بعد يأس في السرور  
لقدومه بشري البشير  
أو كالأمان لمستجير  
أو كغر نعمى من كفور  
ما بين حق مستنير

من رأيه وندى كفيه عن  
مثل  
كلّ الخلائق بين البيض  
والأسل  
تَوْرُ يُضاحِكُ دَمَعَ الواكفِ  
الْحَصَلِ  
وربما كان فيه النفع للعلل  
والدهر يعطيك من عمّ ومن  
جَدَلِ

في كل يوم صدورُ الكُتُبِ  
صَادِرَةً  
عن حَطِّ أَقلامِهِ يجري  
القضاءُ على  
كأن أسطره في بطن  
مُهَرِّقِهِ  
لعبه علل والصدر ينفثها  
كالنار تعطيك من نُورِ ومن  
حُرِّقِ

وقال آخر: الوافر:

ورقٌ مثل رَفْرَاقِ السرابِ  
وألفاظ كأيام الشبابِ

مدادٌ مثل خافية الغرابِ  
وأقلام كأرواح الجوارِ

بلاغة عمرو بن مسعدة

قال أحمد بن يوسف: دخلت على المأمون، وفي يده كتاب، وهو يعاود قراءته مرة بعد مرة، ويصعد فيه يصره ويصوّبه؛ فالتفت إليّ وقد لحظني في أثناء قراءته الكتاب، فقال: أراك مُفَكِّراً فيما تراه مني! فقلت: نعم، وقي الله أمير المؤمنين المخاوف! قال: لا مكروه إن شاء الله، ولكنني قرأتُ كتاباً وجدُّته نظير ما سمعت الرشيد يقوله عن البلاغة، فإني سمعته يقول: البلاغة التباعد من الإطالة، والتقرب من البيغة، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى، وما كنتُ أتوهّم أن أحداً يقدر على هذه البلاغة حتى قرأت هذا الكتاب من عمرو بن مسعدة إلينا فإذا فيه: كتابي إلى أمير المؤمنين ومِن قِبَلِي من الأجناد والِقَوَادِ في الطاعة والانقياد على أحسن ما تكون عليه طاعةٌ جُنْدٍ تَأَخَّرَتْ أعطياتهم، واختلت أحوالهم! ألا ترى يا أحمد إليّ إدماجه المسألة في الإخبار، وإعفائه سلطانه من الإكثار؟ ثم أمر لهم برزق ثمانية أشهر.

وفي عمرو بن مسعدة يقول أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمي: المتقارب:

أعني على بارق ناصب  
كأن تألقه في السماء  
فروى منازل تذكأرها  
غريب يحن لأوطانِه  
كفأك أبو الفضل عمرو  
الندى

لعمرو بن مسعدة الكاتب  
ء في العز والشرف الثاقب  
وأهل الخلافة من غالب  
ومعتصم الراغب الراهب

وصدق الرجاء وحسن الوفاء  
عريض الفناء طويل البناء  
بنى الملك طود له بيته  
هو المرتجى لصروف  
الزمان

على الضيف والجار  
والصاحب  
ب والطرف والطفلة  
الكاعب

جوادٌ بما ملكك كفه  
بأدم الركاب ووشى الثيا

وندعوه للجَلَلِ الكاربِ  
بشيمته لئن الجانِبِ

نؤمله لجسام الأمور  
خصيب الجناب مطير

السحاب

يرؤي القنا من نحور العدا  
إليك تبدت بأكوارها  
كان نعاماً تمادى بنا  
يردن ندى كفك المرتجى  
ولله ما أنت من جابر  
يساقي العدا بكؤوس الردى  
وكم راغب نلته بالعطا  
وتلك الخلائق أعطيتها  
كسبت الثناء، وكسبُ الثنا  
يقينك يجلو ستور الدجى  
وهذا الشعر يتدفق طبعاً وسلاسة.

بين الطبع والتكلف

قلت: والكلامُ الجيد الطبع مقبول في السمع، قريبُ المِثَال، بعيد المِثَال، أنيق الديباجة، رقيق الزجاجة، يدنو من قَهْم سامعه، كدنوّه من وهم صانعه، والمصنوع مثقف الكعوب، معتدلُ الأنبوب، يطرد ماءُ البديع على جَنَبَاتِه، ويجول رَوْتَق الحسن في صفحاته، كما يجول السُّخْر في الطَّرْف الكحيل، والأثر في السيف الصقيل، وحمل الصانع شعره على الإكراه في العمل وتنقيح المباني دون إصلاح المعاني يُعْغِي آثار صنعته، ويطفىء أنوار صيغته، ويخرجه إلى فسادِ التعسّف، وقَبْح التكلف؛ وإلقاء المطبوع بيده إلى قبول ما يبعثه هاجسه، وتنفته وساوسه، من غير أعمال النظر، وتدقيق الفكر، يخرجه إلى حَدّ المشتهر الرث، وحيز الغتّ؛ وأحْسَنُ ما أجري إليه، وأعول عليه، التوسّط بين الحالين، والمنزلة بين المنزلتين، من الطبع والصنعة. وقد قال أعرابي للحسن البصري: علمني ديناً وسيطاً، لا ساقطاً سقوطاً، ولا ذاهباً فروطاً، قال الحسن: أحسنت، خيرُ الأمور أوساطها. والبحثري عن هذا القوس ينزع، وإلى هذا النحو يرجع.

مُلح في باب الشعر

ومن الشعر الذي يجري مع النفس قول ابن المعتز يمدح المكتفي؛ إذ قدم من الرقة بعد القبض على القرمطي فقال: مجزوء الكامل:

لا ورمان النهود  
وعناقيد من أصدا  
وبدور من وجوه  
ورسول جاء بالمي  
ونعيم من وصال  
ما رأيت عيني كظبي  
في قبّاء فاختي اللون من لبس  
الجديد

كلما قاتل جند  
قاتل الناس بعبي  
قد سقاني الخمر من في  
وتعانقنا كأننا  
ي بسيف وعمود  
ن وخدّين وجيد  
ه على رغم الحسود  
وهو في عَقْدٍ شديد

طيب عند الورود  
قطر مُزن بجمود  
جع أرواح الوفود  
ي كجبار عنيد  
دم بالجذ السعيد  
تل حَيَّات الحُقُودِ  
خالدٍ باقٍ جديدٍ  
وَك كَالزَّرْعِ الحَصِيدِ  
مثل عادٍ وثمرود  
تحت أجيال بُنُودِ  
فوقها أسدٌ جُنُودِ  
كل خَطِيٍّ مديدٍ  
دَّ إلى قَطْعِ الوَرِيدِ

نقرع الثغر بثغر  
مثل ما عاجل برد  
سحراً من قبل أن تر  
ومضى يخطر في المش  
مرحباً بالملك القا  
يا مذلَّ لبغي يا قا  
عش وُدْمٍ في طِلِّ عَيشِ  
فلقد أصبح أعدا  
ثم قد صاروا حديثاً  
جاءهم بحرٌ حديد  
فيه عقبان خيول  
وَرَدُّوا الحرب فمدَّوا  
وحسام شَرِه الح

ر إمام من نديد

حَمَدَ مفتاحَ المزيد

وقول علي بن الخليل، مولى يزيد بن مؤيد الشيباني، وكان يُرمى بالزندقة، قال الفضل بن الربيع: جلس الرشيد يوماً للمظالم، فجعلت أتصفح الناس، وأسمع كلامهم، فرميت بطرفي، فرأيت في آخرهم شيخاً حسن الهيئة والوجه ما رأيت أحسن منه؛ فوقف حتى تقوَّض المجلس، ثم قال: يا أمير المؤمنين، رقعتي؛ فأمر بأخذها، فقال: إن رأى أمير المؤمنين أن ياذن لي بقراءتها؛ فأنا أحسنُ تعبيراً لخطي من غيري - فقال له: اقرأ، فقال: شيخ ضعيف، ومقامٌ صعب، ولا آمنُ الاضطراب؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يصلَ عنايته بأمرِي في الإذن بالجلوس فعل، فقال: اجلس، فجلس وأنشأ يقول: الكامل:

نُجِبُ الركاب بمَهْمِهِ جَلَسِ  
طَيَّ التَّجَارِ عمائمِ اليزسِ  
سجدتُ لوجهك طلعة  
الشمسِ

في يومك الغادي وفي  
الأمسِ

تمسي وتصبح فوق ما  
تُمسي

عَفَّ السريرة طاهر النفسِ  
تزداد جدتها مع اللبسِ  
أهل العفاف ومنتهى القدسِ  
ولدى الهياج مصاعبُ شمسِ  
قد كان شرِّدني ومن لبسِ  
يَمُمْتُ نحوك رَحْلَةَ العنسِ  
حتى أغيبَ في تَرَى رَمْسِي

ما لهذا الفتح يا خي

فاحمد الله فإن ال

يا خير من وخذت بأرخله  
طوي السباسب في أزمته  
لما رأتك الشمس طالعة

خير البرية أنت كلهم

وكذاك لن تنفك خيرهم

لله ما هارون من ملك  
تمت عليه لربه نعم  
من عترة طابت أرومتها  
متهللين على أسرتهم  
إني لجأت إليك من قرع  
لما استخرت الله مجتهداً  
واخترت حلمك لا أجازه

كم قد سریت إليك مُدَّرَعاً  
 إن راعني من هاجس فرَعُ  
 ما ذاك إلا أنني رجَلُ  
 بيض أوانس لا قرون لها  
 وأجاذب الفتیان بينهمُ  
 للماء في حافاتِها حَبُّ  
 والله يعلمُ في بنيته  
 قال: ومن تكون؟ قال: علي بن الخليل، الذي يقال إنه زنديق، فقال له: أنت آمن، وأمر  
 له بخمسة آلاف درهم.

وأُنشد أبو العباس المبرد لرجل يصف دعوة دعا بها الله عز وجل، وقد رأيتها في شعر  
 محمد بن حازم الباهلي: الطويل:

وسارية لم تَسِرِ في الأرض  
 تَبْنَعِي  
 سَرَتْ حيث لم تُحَدَّ الرَّكَّابُ  
 ولم تُنْحُ  
 تمرُّ وراء الليل والليل  
 ضاربُ  
 إذا وردت لم يَزِدِّ الله  
 وفدها  
 تفتَحُ أبوابُ السمواتِ  
 دونها  
 وإنِّي لأرجو الله حتى  
 كأنني  
 محلاً، ولم يقطع بها اليدُ  
 قاطعُ  
 لوردٍ، ولم يقصر لها القيدُ  
 مانعُ  
 بجثمانه فيه سَمِيرٌ وهاجِعُ  
 على أهلها، والله راءِ  
 وسامعُ  
 إذا قرع الأبوابَ منهنَّ قارعُ  
 أرى بجميلِ الظنِّ ما الله  
 صانعُ

أخبار معن بن زائدة

ودخل رجل من شيبان، على معن بن زائدة، فقال: ما هذه الغيبة. فقال:  
 أيها الأمير، ما غاب عن العين مَنْ يذكُرهُ القلبُ، وما زال شوقي إلى الأمير  
 شديداً، وهو يودون ما يَجِبُ له، ويذكرني له كثيراً، وهو دُونَ قَدْرِهِ، ولكن جفوة  
 الحجاب، وقلة بشر الغلمان، منعاني من الإتيان! فأمر بتسهيل إذنه، وأجزل  
 صلته.

وقال أبو جعفر المنصور لمعن بن زائدة: كهرت يا معن! قال: في طاعتك يا  
 أمير المؤمنين، قال: إنك لجلد، قال: على أعدائك، قال: وإن فيك لبقية،  
 قال: هي لك يا أمير المؤمنين، قال: فأبي الدولتين أحب إليك؛ هذه أم دولة  
 بني أمية. قال: ذلك إليك يا أمير المؤمنين، إن زاد برك على برهم كانت  
 دولتك أحب إلي.

ومعن هذا هو: معن بن زائدة بن عبد الله بن زائدة بن مطر بن شريك بن  
 عمرو أخي الحوفزان بن شريك بن عمرو بن قيس بن شرحبيل بن منبه  
 بن مرة بن دهل بن شيبان، وبنو مطر بيت شيبان، وشيبان بيت ربيعة.  
 وكان معن أجود الناس، وفيه يقول مروان بن أبي حفصة ويعم بني مطر:  
 الطويل:

بنو مطرٍ يومَ اللقاء كأنهم  
 أسود لها في غيل حَفَّانِ  
 أشبُل

همُ يمنعون الجارَ حتى  
كانما  
ولا يستطيعُ الفاعلون  
فَعَالَهُمْ  
بِهَالِيلُ فِي الْإِسْلَامِ سَادُوا  
ولم يكنُ  
هم القومُ إن قالوا أصابوا  
وإن دُعُوا  
أخذ البيتَ الأولَ ابن الرومي، وزاد فقال: البسيط:  
تلقاهمُ ورماح الخطِ بينهمُ  
كالأسدِ ألبسها الآجامَ حَفَانُ

بين الجبن والحزم  
أتى قوم من العرب شيخاً لهم قد أربى على الثمانين، وأهدف على التسعين، فقالوا: إنَّ عدوَّنا استاق سَرَحَنَا، فأثِرَ علينا بما تُدْرِكُ به النَّارُ، وننفي به العارَ، فقال: الضعف فسخ هَمَّتِي، ونكت إبرام عزيمتي، ولكن شاوروا الشجعان من ذوي العزم، والجبناء من ذوي الحزم؛ فإنَّ الجبان لا يَألو برأيه ما بقي مهجكم، والشجاع لا يَألو برأيه ما يشيد ذكركم، ثم أخلصوا من الرأي بنتيجة تبعد عنكم معرَّة نقص الجبان، وتَهوُّر الشجعان، فإذا نجم الرأي على هذا كان أنفذ على عدوكم من السَّهْم الصائب، والحسام القاضب.

بين الجهل والعقل  
قال الأصمعي: سمعت أعرابية تقول لرجل تخاصمهُ: والله لو صُوِّرَ الجهل لأظلم معه النهار، ولو صُوِّرَ العَقْلُ لأضاء معه الليل، وإنك من أفضلهما لمعدم، فحَفَّ الله، واعلم أنَّ من ورائك حَكَمًا لا يحتاج المدَّعي عنده إلى إحضار البيِّنة.  
هجاء بني كليب  
قال الفرزدق يهجو كليباً: الوافر:

ولو يُرْمَى بلؤمِ بني كُليبٍ  
ولو لبس النهار بنو كليب  
نجومُ الليل ما وصَحَّتْ  
لساري  
لدنَّسَ لؤمُهُم وصَحَّ النهارُ

أقوال الأعراب في النثر والشعر  
وقاد سفيان بن عيينة: سمعت أعرابياً يقول عشية عَرَفة: اللهم، لا تجرِّمِني خيرَ ما عندك لِشَرِّ ما عندي، وإن لم تتقبَّلْ تَعْيِي وتَصْبِي فلا تَحْرِمِني أجْرَ المصاب على مصيبته.

وقال آخرُ منهم لصديق استبطأه فلامه: كانت لي إليك رَلة يمنعني من ذكرها ما أمَلْتُ من تجاوزك عنها، ولست أعَدِّدُ إليك منها إلا بالإقلاع عنها. وقال آخر لابن عم له: والله ما أعرف تقصيراً فأقلع، ولا ذنباً فأعتب، ولست أقول: إنك كذبت، ولا إنني أذنبت.  
وقال آخر لابن عم له: ساتخطى ذنبك إلى عُذْرِك، وإن كنت من أحدهما على يقين، ومن الآخر على شك، لتتمَّ النعمة مني إليك، وتقومَ الحجة لي عليك.

وأصيب أعرابيُّ بابن له فقال - وقد قيل له: اصبر - أَعَلَى الله أتجلد، أم في مصيبتني أتبلد؟ والله للجرع من أمره أحبُّ إليَّ الآن من الصبر؛ لأن الجزع

استكانة، والصبر قساوة، ولئن لم أجزع من النقص لا أفرح بالمزيد. ودعا أعرابي فقال: اللهم إني أعوذ بك أن أفترق في غيائك، أو أضل في هداك، أو أدل في عزك أو أضام في سلطانك، أو أضطهد والأمر إليك. قال الأصمعي: سمعت أعرابياً يعظ رجلاً وهو يقول: وبخك! إن فلاناً وإن ضحك إليك، فإنه يضحك منك، ولئن أظهر الشفقة عليك؟ إن عقاربه لتسري إليك؛ فإن لم تتخذ عدواً في علانيتك، فلا تجعله صديقاً في سريرتك. سمع أعرابي رجلاً يقع في السلطان، فقال: إنك عُقل لم تسمك التجارب، وفي النصح لسع العقارب، كاني بالضحك إليك، وهو باك عليك.

وحذر بعض الحكماء صديقاً له صحبه رجل، فقال: احذر فلاناً فإنه كثير المسألة، حسن البحث، لطيف الاستدراج، يحفظ أول كلامك علي آخره، ويعتبر ما أخرت بما قدّمت، فلا تظهرن له المخافة فيرى أن قد تحزرت؛ وأعلم أن من يقظة الفطنة إظهار الغفلة مع شدة الحذر، فبايئته مائة الأمن، وتحفظ منه تحفظ الخائف؛ فإن البحث يظهر الخفي الباطن، ويؤدي المستكن الكامن.

أتى أعرابي رجلاً لم يكن بينه وبينه حرمه في حاجة له، فقال: إني امتطيت إليك الرجاء، وسرّيت على الأمل، ورافقت الشكر، وتوسّلت بحسن الظن، فحقق الأمل، وأحسن المثوبة، وأكرم الصّد، وأقم الأود، وعجل السراج.

قال الأصمعي: وسمعت أعرابياً يقول: إذا ثبتت الأصول في القلوب، نطقت الألسنة الفروع! والله يعلم أن قلبي لك شاكر، ولساني ذاك، ومحال أن يظهر الودّ المستقيم، من الفؤاد السقيم. ومدح أعرابي رجلاً، فقال: إنه ليغسل من العار وجوهاً مسوّدة، ويفتح من الرأي أبواباً منسّدة. وقال أعرابي: الكامل:

دامي الأظافر في الخميس  
المُمطِرِ

وينشر فائدة وجذوة منبر

درعاً سوى سربال طيب  
العنصر

ويقيم هامته مقام  
المعْفَر

فَعقرت ركن المجد إن لم  
تُعْقِر

متسربل سربال محل  
أعبر

تَحَرَّتني الأعداء إن لم  
تنحري

فلم ير الناسُ وجداً كالذي  
وجداً

كم قد ولدتم من رئيس  
قَسُورِ

سدكت أنامله بقائم  
مرهف

ما إن يريد إذا الرماح  
تشاجرت

يلقي السيوف بوجهه  
وبنحره

ويقول للطرفِ اصطبر ليشبأ  
القنأ

وإذا تأمل شخص صيف  
مقبل

أؤمى إلى الكوماء هذا  
طارق

وقال: البسيط:

قامت تصدّي له عمداً  
لغفلته

جيداء رنداء لم تعقد  
قلائدها  
فراح كالحائم الصديان  
ليس له  
وقال آخر: الطويل:  
ومكئتماتٍ بعد وهن  
طرفني  
دَسَسَنَ رسولاً ناصحاً  
وتلونه  
فبتُّ أعاطيهنَّ صرفَ  
صبايةٍ  
فيا وَجَدَ قلبي يوم أتبعثُ  
ناظري

وقال الأحنف بن قيس: من لم يستوحش من ذل المسألة لم يأنف من الرد.  
وقال سفيان الثوري لأخ له: هل بلغك شيء مما تكرهه عمن لا تعرف. قال: لا،  
قال: فأقل ممن تعرف.  
أخذه ابن الرومي، فقال: الوافر:

عدوك من صديقك  
مُسْتَفاد  
فإنَّ الداءَ أكثر ما تراه  
فدَعْ عنك الكثيرَ فكم  
كثير  
وما اللُّججُ المِلاحُ مُرَوِّياتٍ  
العذابِ

فأقلُّ ما استطعت من  
الصحابِ  
يكونُ من الطعامِ أو  
الشرابِ  
يُعاف، وكم قليل  
مستطاب؟  
ويُلْفى الرِّيُّ في النَّطْفِ  
العذابِ

#### باب المديح

وقال رجل لخالد القسري: والله إنك لتبذل ما جل، وتجبر ما انفل، وتكثر ما قل؛ ففضلك بديع، ورأيك جميع، تحفظ ما سدد، وتؤلف ما تد.  
وسئل أعرابي عن قومه، فقال: يقتلون الفقير، عند شدة القر، وأرواح الشتاء، وهبوب الجزبياء، بأسنمة الجزور، ومترعات القدور، تهش وجوههم عند طلب المعروف، وتعبس عند لمعان السيوف.  
ووصف أعرابي قوماً فقال: لهم جوذ كرام اتسعت أحوالها، وبأس ليوث تتبعها أشبالها، وهم ملوك انفسحت أمالها، وقخر آباء شرفيت أحوالها.  
وقال خالد بن صفوان، وقد دخل على بعض الولاة: قدمت فأعطيت كلاً بقسطه من نظرك ومجلسك، وصوتك، وعدلك، حتى كأنك من كل أحد، وحتى كأنك لست من أحد.

وذكر خالد رجلاً فقال: كان والله بديع المنطق، دلق الجرأة، جزل الألفاظ، عربي اللسان، ثابت العقدة، رقيق الحواشي، خفيف الشفتين، بليغ الريق، رخب الشرف، قليل الحركات، خفي الإشارات، حلو الشمائل، حسن الطلاوة، حياً جرياً؛ قوولاً صموتاً، يفل الحز، ويصيب المفاصل، لم يكن

بالهذر في مَنطِقَه، ولا بالزمر في مروءته، ولا بالخرق في خليقته، متبوعاً غير تابع، كأنه علمٌ في رأسه نار.  
وقال بعض البلغاء لرئيسه: إنَّ من النعمة على المُثني عليك أنه لا يَأْمَنُ التقصير، ولا يخاف الإفراط، ولا يحذر أن تُلحقه نقيضةُ الكذب، ولا ينتهي به المَدْحُ إلى غاية إلا وَجَدَ في فضلك عَوْناً على تجاوزها. ومن سعادةِ جَدِّك أن الداعي لا يعدم كثرة المشايعين، ومساعدةُ النية على ظاهر القول.  
ألفاظ لأهل العصر  
في ضروب المَمَادِح

قد وضعت كثرةُ التجارب، في يدهِ مرآةَ العواقب. قد تَجَدَّتْه صروفُ الدهور، وحنكته مصابِرُ الأمور. قد أَرْضَعَتْهُ الحُنْكَه بلبانها، وأدَبَتْهُ الدَّرَبَةُ في إبانها. فلان نوازِلُ التجارب حنكته، وفوايِخُ الأيام عَرَكَتْهُ. هو عارف بتصاريف الأيام، أخذٌ برهان التجارب، نافذ في مجال التحصيل والتمييز. قد صحب الأيام، وتولَّى، النِقْض والإبرام. هو ابنُ الدهر حُنْكَه وتجريباً، وعُوداً على الدهر صليباً، قد أدَّبه الليل والنهار، ودَارَتْ على رأسه الأدوار، واختلقت به الأطوار. له هَمَّةٌ علا جناحها إلى عنان النجم. وامتدَّ صباحها من شرق إلى غرب، لا يتعاضمه إشراف الأمر إذا أخطره بفكره، وانتساف الصَّخْر إذا ألقاه في وَهْمه، هَمَّتْهُ أبعْدُ من مناطِ الفرقد، وأعلى من منكب الجوزاء. أوسع من الأرض ذات العرض. هو حيِّ القلب، منشرخُ الصِّدْر، ذكيُّ الذهن، شجاع الطبع، ليس بالنووم، ولا السؤوم، فدَّ قَرْد، وأسد وِرْد، وكان له في كل جراحة قلباً. كأن قلبه عين، وكان جسْمَه سمع. شهابٌ مقدَّم، وقِدْحٌ مقوِّم. وهو شهْمٌ مشدود النطاق، قائم على ساق، قد جدَّ واجتهد، وحشر وحشَّد، شمَّر عن ساق الجدِّ ما أطاق، قد ركب الصعب والذلول، وتجنَّس الحزن والشَّهول، وقطع ألب و البحر، وأعمل السيف والرمح، وأسرج الدَّهْم والشهب. هو مولود في طالع الكمال، وهو جملة الجمال. قد أصبح عين المكارم، وزَيْن المحافل. هو قَرْدُ دهره، وشمسُ عَصْره، وزَيْنُ مَضْره، وهو عَلم الفضل، وواسطة عَقْدِ الدهر، ونادِرة الفلك، ونكتة الدنيا، وعِرَّة العصر. قد بايعته يدُ المَجْد، ومالت به الشوري إلى النصر. فلان يزيدُ عليهم زيادة الشمس على البدر، والبحر على القطر. هو رائِثُ تَبْلهم، وتَبِعة فضلهم، وجمَّة وِرْدهم، وواسطة عَقْدهم. هو صَدْرُهم وبَدْرُهم، ومن عليه يدور أمرُهم، ينيف عليهم إنافة صفحة الشمس على كرة الأرض، كأنهم فلك هو قُطْبُه، وجَسْدُه هو قلبه، ومملوك هو ربُّه. هو مشهور بسيادتهم، وواسطة قِلاذتهم. موضعه من أهل الفضل موضع الواسطة من العقد، وليلة التَّم من الشهر، بل ليلة القَدْر إلى مطلع الفجر. أفضل وأنعم، وأسدي في الإحسان وألحم، وأسرج في الإكرام وألجم، قسم من إنعامه ما يسعُ أمماً، وتلقى السعادة أمماً، أعطاه عنانَ الاهتمام، حتى استولى على قَصَبِ المرام. رُدَّ عنه الدهرُ أَحْصَ الجناح، ومليكه مَقَادَةَ النجاح. أولاه من معهود البرِّ ومألوفه، وقصَّرت الأعداء عن مِثاتِه وألوفه. أولاه إسعافاً سَمْحاً، وعطاء سحاً، ومنناً صفواً وعفواً. أفاض عليه شِعَابُ البرِّ ومَسَائِلُه، وجمع له شعوبَ الجميل وقبائله، وهطلت عليه سحائبُ عنايته، ورفرفت حوله أجنحة رعايته. قد فكَّه بكرمه من قَيْد السؤال، ومعرَّة الاختلال. رَاشه بعدما حصَّه الفقر، وأرضاه وقد أسخطه الدهر. ملأ العيون، وسهر دوننا لتحقيق الظنون. قد شهِمَتْ من كرمه أكرم سحاب، وحصلت من إنعامه في أخصب جناب. قد سدَّ ثَلْمَة

حالي، وأدّر حُلوبة آمالي. ما أخلو من طَل إحسانه ووابله، وغابر إنعامه وقابله. قد استمطرثُ منه بَنُوِّ غزير، وسريثُ في ضوء قمر منير. قد كرعثُ من بَرِّه في مَشَارِع تغزير ولا تنزُر، ورقَلثُ من طَوِّله في ملابس تطول ولا تقصُر. إقامته في ظلِّ ظليل، وقَصْلُ جزيل، وريح ليل، ونسيم عليل، وماء رَوِيٍّ، ومعاد وطِيٍّ، وكنٌّ كنين، ومكان مكين. أنا أوي إلى ظله كما يأوي الطير المذعور إلى الحرم، وأواجهُ منه وَجَهَ المجد وصورة الكرم. أنا من إنعامه بين خير مستفيض، وجاهٍ عريض، ونعم بيض. قد استظهرت على جَوْرِ الأيام بَعْدَل، واستترتُ من دهري بظله. ما أرددُ فيه طَرَفِي وأعدّه من خالص ملكي مكتسب إلى عطائه، أو مكتسبٌ بجميل آرائه. مسافة بصري تبعد إن ساقَرْتُ في مواهبه، وركائب فكري تَطْلُحُ إن أنصيتُها في استقراء صنائعه. نعمته نعمة عمّت الأمم، وسبقت النعم، وكشفت الهموم ورفعت الهمم، نعمه قد سطع صباحها مستنيراً، وطنّب شعاعها مستطيراً، قد عرفتني نِعْمُهُ حتى استنفدت شُكْرَ لساني ويدي وأتعبت ظهري، وملأت صدري. نِعْمُهُ عندي مشرفةُ الجوّ، مغرقة النوء، مونقة الضوء. تتابعث نِعْمُهُ تتابع القطر على القفر، وترادفت مِنُّهُ ترادف الغني إلى ذوي الفقر. نِعْمُهُ أشرقَتْ بها أرضي، ومُطِرَ بها رَوْضِي، وورى لها رَنْدِي، وعلا معها جَدِّي، وأتاني الزمانُ يعتذرُ من إساءته، وجاءني الدهرُ ينتظرُ أمرِي. نِعْمُهُ أنعمت البالَ، وسرّت النفس والحال. نعم تعمّ عمومَ المطر، وتزيدُ عليه بإفراد النفع عن الضرر. نعمُ تَصْعَفُ الخواطر عن التماسها، وتَصْعُرُ القرائح عن اقتراحها. له أيادٍ قد عمّت الآفاق، ووسمت الأعناق، وأيادٍ قد حبست عليك الشكر، واستعبدت لك الحر. مِنُّ توالثُ توالي القطر، واتسعت سَعَةَ البَرِّ والبَحْرِ، وأثقلت كاهل الحرّ. عندي قلادة منتظمة من مِنِّه قد جعلتها وَقْفًا على نحر الأيام، وجلوتها على أبصار الأنام. أيادٍ يقصر عن حقوقها جهْدُ القول، وتزهر فيها سواطع الإنعام والطول. أياديه أطواق في أجياد الأحرار، وأفلاك تدورُ على ذوي الأخطار. له مِنٌّ تضعف عن تحملها عواتق الأطواد، ويتضاعفُ حملها على السَّبْعِ الشداد، لو تحمل الثقلان ثقلَ هذا الامتنان لأثقل كواهلهم وأضعف عواتقهم. أياد يفرض لها الشكر ويحتم، ومنن يبتدأ بها الذكر ويُخْتَم. أياد تثقل الكاهلَ، ومِنٌّ تُثْعَبُ الأنامل. مِنٌّ تضعف مِنٌّ الشكر، وينشر معها قوى النشر، منن هي أحسن أثراً من الغيث في أزاهير الربيع، وأحلى موقعاً من الأمن عند الخائف المروع. إن أتعبت نفسي في تعداد مننّه وحصرها فساطمع في إحصاء السحاب وقطرها. أياد لا تحصى أو تحصى محاسنُ النجوم، ومِنٌّ لا تحصر أو تحصر أقطارُ الغيوم. أيادٍ كعدد الرمل والنمل، أعيت على العدِّ، ولم تقف عند حد. زادَتْ أياديه حتى كادت تجهد الأعداد، وتسبق الإعداد. أياديه عندي أغزر من قطرِ المطر، وعوارفه لديّ أسرع من رَجْعِ البصر. رفعتني من قَعْرِ التراب، إلى سَمَكِ السحاب. استنبطه من الحضيض الأوهْد، إلى السناء الأمجد، وقد نبههُ عن خمول، وأجرى الماءَ في عوده بعد ذبول، ورقاه إلى ذرّوة من المجد بعد نزول. فضائل تزل أقدام النجوم لو وطئتها، وتقصر هممُ الأفلاك لو طلبتها، ثبت قدّمه في المحلّ المنيف، ومكّنه من جوامع التشريف. جذب بصْبِغِهِ منأشرقَتْ بها أرضي، ومُطِرَ بها رَوْضِي، وورى لها رَنْدِي، وعلا معها جَدِّي، وأتاني الزمانُ يعتذرُ من إساءته، وجاءني الدهرُ ينتظرُ أمرِي. نِعْمُهُ أنعمت البالَ، وسرّت النفس والحال. نعم تعمّ عمومَ المطر، وتزيدُ عليه بإفراد

النفع عن الضرر. نعم تَضَعُفُ الخواطر عن التماسها، وتَضَعُرُ القرائح عن اقتراحها. له أيادٍ قد عَمَّتِ الآفاق، ووسمت الأعناق، وأيادٍ قد حبست عليك الشكر، واستعبدت لك الحر. مَنُّ تَوَالَتْ تَوَالِي الْقَطْرِ، واتسعت سَعَةَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وأثقلت كاهل الحرِّ. عندي قلادة منتظمة من مَنِّه قد جعلتها وَقْفًا على نحور الأيام، وجلوتها على أبصار الأنام. أيادٍ يَقْصِرُ عن حقوقها جهْدُ القول، وتزهو فيها سواطع الإنعام والطول. أياديه أطواق في أجساد الأحرار، وأفلاك تدور على ذوي الأخطار. له مَنٌّ تضعف عن تحملها عواتق الأطواد، ويتضاعف حملها على السَّيِّعِ الشداد، لو تحمل الثقلان ثقل هذا الامتنان لأثقل كواهلهم وأضعف عواتقهم. أياد يفرض لها الشكر ويحتم، ومنن يبتدأ بها الذكر ويختم. أياد تثقل الكاهل، ومَنٌّ تُتَعَبُ الأنامِل. مَنٌّ تضعف مَنُّ الشكر، وينشر معها قوى النشر، منن هي أحسن أثراً من الغيث في أزاهير الربيع، وأحلى موقعا من الأمن عند الخائف المروع. إن أتعبت نفسي في تعداد مننه وخصرها فساطمع في إحصاء السحاب وقطرها. أياد لا تحصى أو تحصى مخاسنُ النجوم، ومَنٌّ لا تحصر أو تحصر أقطارُ الغيوم. أيادٍ كعدد الرمل والنمل، أعيت على العدِّ، ولم تقف عند حد. زادت أياديه حتى كادت تجهد الأعداد، وتسبق الإعداد. أياديه عندي أغزر من قطر المطر، وعوارفه لدي أسرع من رجع البصر. رفعتني من قعر التراب، إلى سمك السحاب. استنبطه من الحضيض الأوهْد، إلى السناء الأمجد، وقد نبهه عن خمول، وأجرى الماء في عوده بعد ذبول، ورقاه إلى ذروة من المجد بعد نزول. فضائل تزل أقدام النجوم لو وطئتها، وتقصر همم الأفلاك لو طلبتها، ثبت قدمه في المحل المنيف، ومكته من جوامع التشريف. جذب بصبعه من المسقط المنحط، إلى المرفع المشتط. ولهم في أدعية

من صدور الكتب تليق بهذه الأثنية والممدوح

أطال الله له البقاء، كطول يده بالعطاء، ومدَّ له في العمر، كامتداد ظلّه على الحرِّ، وأدام له المواهب، كما أفاض به الرغائب، وحرس لديه الفضائل؛ كما عوّذ به الشمال. تولى الله عني مكافأته، وأعان على الخير نيته وفعله، وأصبح بقاءه عزّاً يبسط يديه لأوليائه على أعدائه، وكلاءة تذبّ عن ودائع مَنِّه عنده، وزاد في نعمه وإن عظمت، وبلغه أماله وإن انفسخت، ولا زال الفضل يأوي منه إلى ركن منيع، وجناب مربع. لا زالت الألسن عليه بالثناء ناطقة، والقلوب على مودته متطابقة، والشهادات له بالفضل متناسقة. لا زال يعطى على الصادر والوارد، عطف الأم والوالد. أبقاه الله للجميل يُعلي معالمه، ويحمي مكارمه، ويعمر مدارجَه، ويثمر نتائجه. أدام الله أيامه التي هي أيام الفضائل ومواقبتها، وأزمان المآثر وتواريخها. أدامه الله للمواهب، سامية الذوائب، موفية على مُنية الراجي وبغية الطالب. أبقاه الله للعطاء يفرضه بين خدمه، والجمال يُفيضه على إنشاء نعمه، والله يتابع له أيام العلاء والغبطة، والنماء والبسطة، ليرتفع أنواع الخدم في رياض فواضله، ويكرع أصناف الحشم في حياض مواهبه، والله يبقيه طویل الذراع، مديد الباع، ملياً بالاتصال والاصطناع. جزاهُ الله عن نعمة هيأها بعد أن أسبغها، وعارفة مَلاها بعد أن سوَّغها، أفضل ما جازى به مبتدئ إحسان، ومُجبر إنسان، لا زال مكائنه مَصاناً للكرم، مَعاناً للنعم، لا تريمه المواهب، ولا ترومه النوائب، بُسِطَتْ بالعلايُدُه، وقُرن بالسعادة جَدُه، وجُعِلَ خير يوميه عَدُه، ولا زالت الأيام والليالي مطاياهُ؛ في أمانيه وأماله وأيامه، وصرفَ صروف الغير عن إصابة إقباله وكماله.

وقال ابن المعتز في القاسم بن عبید الله: الطويل:

أيا حاسداً يكوي التلهفُ  
إذا ما رآه غازياً وسطاً  
قلبهُ  
عسكرِ

تصفح بني الدنيا فهل فيهمُ  
نظيرُ ترى ثم اجتهدُ وتفكرِ

لَهُ  
فَإِنْ حَدَّثَكَ النَّفْسُ أَنَّكَ  
مِثْلُهُ  
فَجُدْ، وَأَجِدْ رَأْيًا، وَأَقْدِمْ عَلَى  
الْعِدَا  
وَعَاصِ شَيَاطِينَ الشَّبَابِ  
وَقَارِعِ النَّاسِ  
فَإِنْ لَمْ تَطِقْ ذَا فَاعْذِرِ الدَّهْرَ  
وَأَعْتَرِفْ

صناعة الكلام

قال الجاحظ: صناعةُ الكلامِ عُلُقُ نفيس، وجَوْهَرٌ ثمين، هو الكنز الذي لا يَفْتَنِي ولا يَبْتَلِي،  
والصاحبُ الذي لا يُبَلُّ ولا يُقْلَى، وهو العِبَارُ على كلِّ صناعة، والزمائمُ لكلِّ عبارة،  
والقِسْطَاسُ الذي به يَسْتَبِينُ تَقْصُ كُلِّ شَيْءٍ وَرُجْحَانِهِ، والراوُوقُ الذي يُعْرِفُ به صَفَاءُ  
كُلِّ شَيْءٍ وَكَدْرَهُ، والذي كلِّ عِلْمٍ عَلَيْهِ عِيَالٌ، وهو لكلِّ تحصيلِ أَلَةٍ وَمِثَالٍ.  
وقال ابن الرومي: البسيط:

مَا عُدُّرُ مَعْتَزَلِيٍّ مُوسِرٍ مَنَعَتْ  
أَبْرَعُ الْقَدَرِ الْمُحْتَمِ تَبَّطَهُ  
كَفَّاهُ مُعْتَزَلِيًّا مِثْلَهُ صَفْدَا  
إِنْ قَالَ ذَاكَ فَقَدْ حَلَّ الَّذِي  
عَقَّدَا

وقال ابن الرومي: الكامل:

لِذَوِي الْجِدَالِ إِذَا عَدَّوَا  
لِجِدَالِهِمْ  
وَهُنَّ كَأَنِّيَةِ الرَّجَاجِ تَصَادَمَتْ  
فَالْقَاتِلُ الْمُقْتُولُ تَمَّ لِصَعْفِهِ  
حُجَّجٌ تَضَلُّوا عَنِ الْهَدْيِ وَتَجَوَّرُوا  
فَهَوَّتْ، وَكُلُّ كَاسِرٍ مَهْكَسُورٌ  
وَلَوْهِيهِ، وَالْأَسْرُ الْمَاسُورُ

وقال أبو العباس الناشئ يفتخر بالكلام الطويل:

وَنَحْنُ أَنَاسٌ يَعْرِفُ النَّاسُ  
قَصَلْنَا  
ثَبِيرٌ وَجُوهُ الْحَقِّ عِنْدَ جَوَائِنَا  
صَمْتًا فَلَمْ نَتْرِكْ مَقَالًا  
لِصَامَتِ

وقال يصف أصحابه: البسيط:

فَلَوْ شَهِدْتُ مَقَامَاتِي  
وَأُنْدِيَّتِي  
فِي فِتْيَةٍ لَمْ يَلِاقِ النَّاسُ مَدًّا  
وُجِدُوا  
يَوْمَ الْخِصَامِ وَمَاءُ الْمَوْتِ  
يَطْرُدُ  
لَهُمْ شَبِيهًا وَلَا يُلْفَوْنَ إِنْ  
فَقَدُوا

مَجَاوِرُوا الْفَضْلَ أَفْلَاكُ الْعُلَا  
سَبِيلِ التَّوْبِ  
كَأَنَّهُمْ فِي صُدُورِ النَّاسِ  
أَفِيدَةٌ  
يُبْدُونَ لِلنَّاسِ مَا تَخْفِي  
ضَمَائِرَهُمْ  
قَوِيَّ مَحَلِّ الْهَدْيِ عُمْدُ التَّهْيِ  
الْوُطْدُ  
تَحْسِنُ مَا أَخْطَأُوا فِيهَا وَمَا  
عَمَدُوا  
كَأَنَّهُمْ وَجَدُوا مِنْهَا الَّذِي  
وَجَدُوا

دلوا على باطن الدنيا  
بظاها  
مطالع الحق ما من شبهة  
عسيقت  
وقال سعيد بن حميد: الخفيف:  
قالت: اكنتم هواي واكن عن  
اسمي  
قلت: لا أستطيع ذلك،  
قالت:  
وتخليت عن مقالة بشرب  
وقال أبو القاسم بن عباد صاحب: الخفيف:  
كنت دهرأ أقول  
بالاستطاعة  
ففقدت استطاعتي في هوى  
طب  
وقال أيضاً: الطويل:

وعلم ما غاب عنهم بالذي  
شهدوا  
إلا ومنهم لدينا كوكب يقد  
بالعزيز المهيم الجبار  
صرت بعدي تقول بالإجبار  
ن غياث لمذهب النجار  
وأرى الجبر ضلة وشناعة  
ي! فسمعا للمخيرين  
وطاعة  
وصرنا جميعاً من عيان إلى  
وهم  
كمعتزلي قد تمكن من  
حصم

ولما تناءت بالحبيب دياره  
تمكن مني الشوق غير  
مخالس

باب النسيب

وأشده محمد بن سلام بعض هذه الأبيات التي أشدها، وزعم أنها لأبي كبير الهذلي،  
ورويت ليزيد بن الطثيرة وغيره، والرواة يدخلون بعض الشعر في بعض، وهي:  
الطويل:

عقيلي، أمأ ملاء  
إزارها  
تقيط أكناف الحمى،  
ويطيلها  
فيا حلة النفس التي ليس  
دونها  
وبا من كتمنا حبه، لم يطع  
له  
أما من مقام أشتكى عربة  
النوى  
أليس قليلاً نظره إن  
نظرتها  
وإن عناء النفس ما دمت هكذا عتود  
النوى محجوبة لطويل

قوعت، وأمأ حصرها  
فبتيل  
بنعمان من وادي الأراك  
مقيل  
لنا من أخلاء الصفاء  
خليل  
عدو، ولم يؤمن عليه  
دخيل  
و خوف العدا فيه إليك  
سبيل؟  
إليك؟ وكلا ليس منك  
قليل

مع الركب لم يكتب عليك  
قتيل  
فحمل دمي يوم الحساب

أراجعة قلبي علي قرائح  
فلا تحملي وزري وأنت

ضعيفه  
 فيا جنة الدنيا، ويا منتهى  
 المنى  
 فديتك، أعدائي كثير،  
 وشققتي  
 وكنت إذا ما جئت جئت  
 بعلة  
 فما كل يوم لي بأرضك  
 حاجة  
 وأنشد ابن سلام لأبي كبير الهذلي: الطويل:  
 وإني لمستسقى لها الله  
 كلما  
 سحائب لا من صيب ذي  
 صواعق  
 ولا مخلفات حين هجن  
 بتسمية  
 إذا ما هبطن القاع قد مات  
 بئنه

تَقِيلُ  
 وبا تُور عيني، هل إليك  
 سبيلُ؟  
 بعيدُ، وأشياعي لديك  
 قليلُ  
 فأفريت علاتي، فكيف  
 أقول؟  
 ولا كل يوم لي إليك  
 رسولُ

لوى الدين مُعتل وسَحَّ  
 غريمُ  
 ولا مُحرقَاتٍ ماؤهنَّ حَمِيمُ  
 إليهنَّ هوجاء المهبَّ عَقيمُ  
 بكينَ به حتى يعيش هشيمُ

عمران بن حطان

ولما ظفر الحجاج بعمران بن حطان الشاري قال: اضربوا عُنُقَ ابن الفاجرة، فقال  
 عمران: لبئسما أدبك أهلك يا حجاج! كيف أمنت أن أجيبك بمثل ما لقبيني به؟ أبعَدَ  
 الموت منزلة أصابك عليها؟ فأطرق الحجاج استحياءً، وقال: خلوا عنه؛ فخرج إلي  
 أصحابه، فتقالوا: والله ما أطلقك إلا الله، فأرجع إلى خزبه معنا، فقال: هيهات! غل يدًا  
 مطلقها واسترق قبه مُعَيِّفها! وأنشد: الكامل:

أأقاتل الحجاج عن سلطانيه  
 إني إذا لأخو الدناءة، والذي

بيد تُقرُّ بأنها مولاته؟  
 عَقْتُ عَلَى عرفانِهِ جَهْلانُهُ

ماذا أقول إذا وقفت  
 مُوَارِيَا

في الصفِّ واحتجَّت له  
 فَعَلانُهُ؟

وتحدت الأكفاء أن صناعاً

عُرِسَتْ لَدَيَّ فحَنَطَلَتْ  
 نَحْلانُهُ

أأقول جار علي؟ إني فيكم  
 تالله ما كدت الأمير يالمة  
 أخذ أبو تمام هذا فقال معتذراً إلى أبي المغيث موسى بن إبراهيم  
 الرافعي: الطويل:

أليس هجر القول من لو  
 هجوته

إذا لهجاني عنه معروفه  
 عِنْدِي

كريم متى أمدحه أمدحه  
 والورى

معي، وإذا ما لمته لُمته  
 وَحَلِمِي

وعمران بن حطان هو الفائل: البسيط:  
 لم يعجز الموت شيء دون  
 خالقه

والموت قان إذا ما عاله  
 الأجل

وكلُّ كرب أمام الموتِ      بالموت، والموتُ فيما بعده  
 مُنْقَطِعٌ      جَلَلٌ  
 وكان الفرزدقُ عمل بيتاً، وحلف بالطلاق أنَّ جربراً لا ينقضه، وهو: الطويل:  
 فأبِّي أنا الموتُ الذي هو      بنفسك فانظر كيف أنتِ  
 نازلٌ      مُحَاوِلُهُ  
 فاتصل ذلك بجربير، فقال: أنا أبو خزرة، طلفت امرأة الخبيث، وقال: الطويل:  
 أنا الدهرُ يُفني الموتَ والدهرُ      فجئني بمثل الدهر شيئاً  
 خالدٌ      يُطاولُهُ

وإنما أشار جربير إلى قول عمران.

وهو عمران بن حطان بن ظبيان بن سهل بن معاوية بن الحارث بن سدوس بن سنان بن ذهل بن ثعلبة، ويكنى أبا شهاب، وكان من الشراة، وكان من أخطب الناس وأفصحهم، وكان إذا خطب ثارت الخواجر إلى سلاحها، وكان من أفصح الناس وجهاً، قالت له امرأته وكانت في الجمال مثله في القبح: إني لأرجو أن أكون وإياك في الجنة؛ لأن الله رزقك مثلي فشكرت، وابتلاني بمثلك فصبرت!.

بين أعرابي وبعض الولاة

ودخل أعرابي على بعض الولاة فقال: أصلح الله الأمير، اجعلني زمماً من أزمتك، فإني مسعر خزب، وركاب نجب، شديد على الأعداء، ليئن على الأصدقاء، منطوي الحصيلة، قليل التمييلة، قليل غرار النوم، قد غدثني الحروب أفاويقها، وخبث الدهر أشطره، فلا يمتنعك مني الدمامة، فإن تحتها لشهامة.

الدنيا وأهلها

قال المسيح عليه السلام: الدُّنيا لإبليس مزرعة، وأهلها له حُرَّاث. وقال إبليس لعنه الله: العجب لبني آدم يحبون الله ويغصونته، ويطيعونني.

أربع كلمات فيهن صلاح الملك

خرج الزهري يوماً من عند هشام بن عبد الملك فقال: ما رأيتُ كالْيَوْمِ، ولا سمعتُ كَارِبِ كَلِمَاتِ تَكَلَّمَ بِهِنَّ رَجُلٌ عِنْدَ هِشَامٍ؛ دَخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، احْفَظْ عَنِّي أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ، فِيهِنَّ صِلَاحُ مُلْكِكَ، وَاسْتِقَامَةُ رِعْيَتِكَ. قَالَ: هَاتِهِنَّ؟ قَالَ: لَا تَعِدَنَّ عِدَّةً لَا تَتَّقِي مِنْ نَفْسِكَ بِإِنجَازِهَا، وَلَا يَغْرَنَّكَ الْمَرْتَقَى وَإِنْ كَانَ سَهْلاً إِذَا كَانَ الْمُنْحَدِرُ وَعِزّاً، وَاعْلَمْ أَنَّ لِلْأَعْمَالِ جِزَاءً فَاتَّقِ الْعَوَاقِبَ، وَأَنَّ لِلْأُمُورِ بَعَثَاتٍ فَكُنْ عَلَى حَذَرٍ.

قال عيس بن داب: فحدثت بهذا الحديث الهادي وفي يده لُقمة قد رفعها إلى فيه فأمسكها، وقال: وبحك أعذ علي! فقلت: يا أمير المؤمنين، أسع لِقمتك، فقال: حديثك أحب إلي.

بيعة يزيد

ولما عقد معاوية البيعة ليزيد قام الناس يخطبون؛ فقال لعمر بن سعيد: قم يا أبا أمية، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أمّا بعد، فإن يزيد بن معاوية أجلّ تؤمونه، أملك تؤملونه، إن استصفتم إلى جلمه وسبعكم، وإن احتجتم إلى رآيه أرشدكم، وإن افتقرتم إلى ذات يده أعناكم، جدع قارح، سوبق فسبق، وموجد فمجد، وفورع فقرع، وهو خلف أمير المؤمنين، ولما خلف عنه، فقال له معاوية: اجلس، فقد أبلغت. وعمرو بن سعيد هذا هو الأشدق، وإنما سمي الأشدق لتشادقه في الكلام، وقيل: بل

كان أفقم مائل الشدق، وهذا قول عوانة بن الحكم الكلبى، وهو خلاف قول الشاعر:  
الطويل:

تشادق حتى مال في القول  
شدة  
وكل حصيب لا أباً لك أشدق

وكان أبوه سعيد بن العاص أحد خطباء بني أمية وبلغائهم.  
ولما مات سعيد دخل عمرو على معاوية فاستنطقه فقال: إن أول كل  
مركب صعب، وإن مع اليوم غداً، فقال معاوية: وفي هذه العلة إلى من  
أوصى بك أبوك. قال: أوصى إلي ولم يوص بي، فقال معاوية: إن ابن سعيد  
هذا لأشدق!.

تواضع الرشيد  
قال ابن السماك للرشيد: يا أمير المؤمنين، تواضعك في شرفك أفضل من  
شرفك؛ إن رجلاً آتاه الله مالاً وجمالاً وحسباً، فواسى في ماله، وعف في  
جماله، وتواضع في شربه، كتب في ديوان الله عز وجل.

المتنبي يصف علة أصابته بمصر  
نالت أبا الطيب المتنبي علة بمصر، فكان بعض إخوانه من المصريين يكثر الإلمام به؛  
فلما أبل قطعها، فكتب إليه: وصلني، أعزك الله، مُعتلاً، وقطعتني مُبلاً، فإن رأيت ألا  
تَكدر الصحة علي، وتحبب العلة إلي، فعلت.  
وفي هذه العلة يقول: الوافر:

أقمت بأرض مصر؛ فلا ورائي  
عليل الجسم مُمنع  
القيام  
وزائرتي كأن بها حياءً  
بدلت لها المطارف  
والحشايا  
يضيق الجلد عن نفسي  
وعنها  
إذا ما فارقتني غسلني  
كأن الصبح يطردُها فتجري  
أراقب وقتها من غير شوق  
ويصدق وعدّها والصدق سرُّ  
تحب بي الزكاب، ولا أمامي  
شديد السكر من غير  
المدام  
فليس تزور إلا في الظلام  
فعاقتها، وباتت في عظامي  
فوسعه بأنواع السقام  
كأنا عاكفان على حرام  
مدامعها بأربعة سجام  
مراقبة المشوق المُستهم  
إذا ألقاك في الكرب  
العظام

ألفاظ لأهل العصر في العيادة وما جانسها  
من ذكر التَّسكي والمرض وتلوّنه، وسوء أثره، والانزعاج لعوارضه:  
عرض لي مرض أساء بالنجاة ظني، وكاد يصرف وجه الإفاقة عني، هو  
شورى بين أمراض أربعة: صداع لا يخف، وحُمى لا تُغب، وركام لا يجف،  
وسعال لا يكف. علة هو في أسرها مُعتقل، وبقيدها مُكبّل. أمراض تلونت  
علي، وأساءت بي وإلي، فأنا أشكر الله تعالى إذ جعلها عظة وتذكيراً، ولم  
يُنق منها الآن إلا يسيراً، أحسب أن الأمراض قد أقسمت على أن تجعل  
أعضائي مرّاتعها، وألت على أن تُصير جوارحي مرايعها. عِلل لا يصدر منها  
آت إلا لتكدير وُرد ولا يعزل منها وال إلا بولي عهد. قد كُرت تلك العلة  
فعاذت عِلاً، وسقتني بعد نهل عِلاً. عِلل برّته برّي الأخلّة، ونقصته نقص  
الأهله، وتركته حرّضا، وأوسعته مرّضا، وغادرته والخيال أكثف من جنة،

والطيفُ أوفر منه قُوَّة. عرض له من المرض ما صار معه القنوطُ يُعَاديه  
ويُراوِحه، واليأسُ يُخاطبه ويُصافحه. قد وَرَدَ من سوء الظنِّ أَوْخَمَ المناهل،  
وبات من حسن الرجاء على مَرَّاحل. طالعتُ الكرمَ يترجَّحُ نجمه بين  
الإضاءة والأفول، وتمثلُ شمسُه بين الإشراق والغروب. أصبحَ فلانٌ لا يُقل  
رأسه، ولا يحور ظله، ويدُّ المنية تُفَرِّعُ بابه. ما هو لليلة إلا عَرَضٌ، ولسهام  
المنية إلا عَرَضٌ. شاهدتُ نفسي وهي تَخْرُجُ، ولقيتُ رُوحِي وهي تَعْرُجُ،  
وعرَفت كيف تكون السكره، وكيف تقع العَمْرَة، وكيف طَعَمُ البعد والفراق،  
وكيف تلتفُّ الساق بالساق. مرض لحقتني رُوْعَتُه، وملكتني لُوْعَتُه. وجدت  
في نفسي ألمًا أَوْحَشُهُ أَنْسُهُ، وَأَتَسُّهُ أَوْحَشُهُ. بلغني من شكايته ما أوحش  
جناب الأنس، وأزاني الظلمة في مَطْلَعِ الشمس. قد بلغني ما عَرَضَ لك من  
المرض، وألم بك من الألم، فَيَحَامِلُ عَلَى سِوَاءِ صَدْرِي، وَأَقْدِي سِوَاءَ  
طَرْفِي، وقد استنفدَ القَلْقُ لعلتك ما أعدَّه الصبرُ من ذخيرة، وأضعف ما قواه  
العزم من بصيرة. قَلْبِي يَتَقَلَّبُ عَلَى حَدِّ السِّيفِ إِلَى أَنْ أَعْرِفَ انْكَشَافَ  
العارض وزِيَالِهِ، وَأَتَحَقَّقُ انْحِسَارَهُ وَانْتِقَالَهِ. أنهى إِلَيَّ مِنَ الْخَبْرِ الْعَارِضِ،  
حَسَمَ اللَّهُ مَادَّتَهُ، وَقَصَّرَ مَدَّتَهُ، مَا أَرَانِي الْأَفْقَ مُظْلَمًا، وَالْعَيْشَ مُبْهَمًا.

فقر في تهوين العلة بحسن الرجاء

وذكر المشاركة والاهتمام بحلُولها والاستبشار بزوالها:

إِنَّ الَّذِي بَلَغَنِي مِنْ صَعْفِهِ قَدْ أضعفَ المنة، وَإِنْ لَمْ يُضعفِ الظنَّ بِاللَّهِ  
وَالنِّقَّة. قَدْ اسْتَشَفَّ الْعَافِيَةُ مِنْ ثُوبِ رَقِيقٍ. مَا أَكْثَرَ مَا رَأَيْنا هَذِهِ الْعِلْلَ خَلَّتْ  
ثُمَّ تَجَلَّتْ وَتَوَالَتْ ثُمَّ تَوَلَّتْ. خَبَّرَنِي فُلَانٌ بَعْلَتُكَ فَأَشْرَكَنِي فِيهَا أَلْمًا وَقَلْقًا، فَلَا  
أَعْلَ لِلَّهِ لَكَ جِسْمًا وَلَا حَالًا، فَلَيْسَتْ نِكَايَةُ الشَّغْلِ فِي قَلْبِي بِأَقْلٍ مِنْ نِكَايَةِ  
الشَّكَايَةِ فِي جِسْمِكَ، وَلَا اسْتِيْلَاءُ الْقَلْقِ عَلَى نَفْسِي بِأَيْسَرٍ مِنْ اعْتِرَاضِ  
السِّقْمِ لِبَدْنِكَ، وَمَنْ دَا الَّذِي يَصِحُّ جِسْمُهُ إِذَا تَأَلَّمَتْ إِحْدَى يَدَيْهِ، وَمَنْ يَحُلُّ  
مَحَلَّهَا فِي الْقَرَبِ إِلَيْهِ؟ أَنَا مَنْزَعٌ لِشِّكَايَتِكَ، مَبْتَهَجٌ بِمُعَافَاتِكَ، إِنْ كَانَتْ عِلَّتُكَ  
قَدْ قَرَحَتْ وَجَرَحَتْ، فَإِنَّ صَحَّتْ قَدْ أَسَتْ وَأَنْسَتْ. بَلَغَنِي شِّكَايَتُكَ فَارْتَعَتْ،  
ثُمَّ عَرَفْتُ خِفَّتَهَا فَارْتَحَتْ. الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى قُرْبِ الْمُدَّةِ بَيْنِ الْمِحْنَةِ وَالْمِنْحَةِ،  
وَالنِّقْمَةِ وَالنِّعْمَةِ، وَعَلَى أَنَّ لَمْ نَتَهَالِكْ بِأَيْدِي الْمَخَافَةِ حَتَّى تَدَارِكَ بِحُسْنِ  
الرَّأْفَةِ، وَلَمْ نَسْتَسَلِمْ لَخِطَّةِ الْحَذَرِ حَتَّى سَلِمَ مِنْ وَرْطَةِ الْقَدْرِ.

ولهم في شكاة أهل الفضل والسؤود

شكائه التي تتألم منها المروءة والفضل. ويسقم منها الكرم المحض. شكاته  
التي عصت بها حلوُقُ المَجْدِ، وَخَرَجَتْ لَهَا صَدُورُ أَهْلِ الْأَدَبِ وَالْعِلْمِ، وَبَدَا  
الشَّحُوبُ مَعَهَا عَلَى وَجْهِ الْحَرِيَّةِ، وَحَرَمَ مَعَهَا الْبِشْرُ عَلَى عُزَّةِ الْمَرْوَةِ. قَدْ  
اعْتَلَّ بَعْلَتُهُ الْكَرَمَ، وَشَكَا بِشكَايَتِهِ السِّيفُ وَالْقَلَمُ. شكاة عرضت منه  
لشخص الكرم الغضِّ، والشرف المحض. لو قبلت مهجتي فديَّةً، دون وَعَكَّة  
تجدها، لَجُدْتُ بِهَا، وَسَاعَةَ أَنْسَ تَفْقِدُهَا لِبَذْلَتِهَا، عَالِمًا بِأَنَّ أَقْدِي الْكَرَمَ لَا  
غَيْرَ، وَالْفَضْلَ وَلَا صَيْرَ.

ولهم في تنسُّم الإقبال وذكر الإبلال

قَدْ شَمَّتْ بَارِقَةُ الْعَافِيَةِ، وَشَمِمَتْ رَائِحَةُ الصِّحَّةِ. أَقْبَلَ صَنَعُ اللَّهِ مِنْ حَيْثُ لَمْ  
أَجْتَسِبْ، وَجَاءَنِي لَطْفُهُ مِنْ حَيْثُ لَا أُرْتَقِبُ؟ وَتَدَرَّجَتْ إِلَى الْإِبْلَالِ وَقَدْ حَسِبْتَهُ  
حِلْمًا، وَرَضِيَتْ بِهِ دُونَ الْاسْتِقْلَالِ عُنْمًا وَقَدْ تَخَلَّصْتَ إِلَى سَطِّ الْعَافِيَةِ لِمَا  
تَدَارَكُنِي اللَّهُ تَعَالَى بِلَطِيفَةٍ مِنْ لَطَائِفِهِ وَجَعَلَ هِبَةَ الرُّوحِ عَارِفَةً مِنْ عَوَارِفِهِ،  
وَتَنَسَّمَتْ رُوحَ الْحَيَاةِ؟ بَعْدَ أَنْ أَسْقَيْتَ عَلَى الْوَفَاةِ، وَتَنَبَّأْتَ وَجْهِي إِلَى الدُّنْيَا

بعد مواجهتي للدار الأخرى. قد صافح الإقبال والإبلال، وقارب النهوض والاستقلال. سيُريك الله من العافية التي أذاقك ويُسبغ. ثوبها، ولا يعيد عنيد مكر وهها. قد استقل استقلال السيف حودث عهده وأعيد فرئده، والقمر انكشف سبرائه، وذاعت أسراره. حين استقلت يدي بالقلم، بشرتك بانحسار الألم. قد أتاك الله بالسلامة الفائضة، وعافاك من الشكاة العارضة. أبل فانتسخت الصدور، وشمل السرور. الحمد لله الذي حرس جسمك وعافاه، ومحا عنه أثر السقم وعفاه. الحمد لله الذي جعل العافية عقي ما تشكيت، والسلامة عوضاً عما عانت. الحمد لله الذي أعفك من مُعاناة الألم. وعافاك للفضل والكرم، ونظمني معك في سبلك النعمة، وضممني إليك في مُبلج الصحة. الحمد لله الذي جعل السلامة ثوبك الذي لا تنضوه، وسيفك فيما تأمله وتزجوه. الله يجعل السلامة أطول بزديك، وأشدّهما سبوغاً عليك، ويدفع في صدوره المكارم دون ربك، وفي نحور المحاذير قبل الانتهاء إلى ظلك. لا زالت العافية شِعارك، ما واصل ليلك نهارك.

فقر في أدعية العيادة والاستشفاء بكتبها أغناك الله عن الطب والأطباء، بالسلامة والشفاء، وجعله عليك تمحيصاً لا تنغيصاً، وتذكيراً لا نكيراً، وأدباً لا غضباً. الله يدرك لك صوب العافية، ويضفي عليك ثوب الكفاية الوافية. أوصل الله تعالى إليك من يرد الشفاء ما يكفيك حرّ الأدوية. كتابك قد أدّى رَوْح السلامة في أعضائي، وأوصل برد العافية إلى أحشائي. تركني كتابك والنعم تيب إلى صحتي، والخطوب تتجافى عن مُهجتي، بعد أمراض اكتنفت، وأسقام اختلفت. قد استيق كتابك والعافية إلى جسمي كأنهما قرسا رهان تباريا، ورسلا مضمار تجاريا. أبدلني كتابك من حزون الشكايه شهول المعافاة، ومن شدة التألم، رخاء التمتع.

قطعة من كلام الأطباء والفلاسفة  
العاقل يترك ما يحب ليستغني عن العلاج بما يكره.  
جالينوس: المرض هزم عارض، والهزم مرض طبيعي.  
وله: مجالسة الثقيل حُمى الروح.  
بختيشوع: أكل القليل مما يضرُّ أصلح من أكل الكثير مما ينفع.  
يحوحا بن ماسويه: عليك من الطعام بما حدث، ومن الشراب بما قدم.  
وقال له المأمون: ما أحسن ما يتنقل به على النبيذ؟ قال: قول أبي نواس،  
يريد قوله: المنسرح:

الحمد لله ليس لي مئلُ  
خمري شرابي وتقلي القبلُ  
ثابت بن قرة: ليس شيء أضرّ بالشيخ من أن تكون له جارية حسناء، وطباخ حاذق؛ لأنه يُكثر من الطعام فيسقم، ومن الجماع فيهزم.  
غيره: ليس ثلاث حيلة: فقرٌ يخالطه كسل، وخصومة يخامرها حسد، ومرضٌ يمازجه هرم.

ثلاثة يجب مداراتهم: السلطان، والمريض، والمرأة.  
ثلاثة يُعذرون على سوء الخلق: المريض، والمسافر، والصائم.  
فقر في ذكر المرض والصحة والموت  
والحياة لغير واحد:

شيطان لا يُعرفان إلا بعد ذهابهما: الصحة والشباب. بمرارة السقم توجد حلاوة الصحة.  
هذا كقول أبي تمام: الطويل:

إساءة دهرٍ أذكرت حسنَ إليّ، ولولا الشري لم يُعرف

الشَّهْدُ

فِعْلِهِ

وقوله أيضاً: الكامل:

والحادثاتُ وإنْ أصابك بُؤْسها      فهو الذي أدراك كيفَ نعيمها  
ما سلامةُ بدنٍ معرّضٍ للآفاتِ، وبقاء عمرٍ معرضٍ للساعاتِ؟ قال أبو النجم: الرجز:  
إنَّ الفتى يصبحُ للسقام      كالغرض المنصوب للسَّهام

أخطأ رام وأصابَ رام

وقيل لبعض الأطباءِ وقد نهكته العلة: ألا تتعالج؟ فقال: إذا كان الداء من، السماء بطل  
الدواء، وإذا قدَّر الرب بطل حدِّد المربوب، ونعمَّ الدواء الأمل، وبئس الداء الأجل.  
بزرجمهر: إنْ كان شيء فوق الحياة فالصحة، وإن كان شيء فوق الموت فالمرض،  
وإن كان شيء مثل الحياة فالعنى، وإن كان شيء مثل الموت فالفقر.

غيره: خير من الحياة ما لا تطيبُ الحياةُ إلا به، وشرُّ من الموت ما يُتمنى الموت له.  
قال المتنبي في مرثية سيف الدولة: الوافر:

أطابَ النفسُ أنكَ مُتَّ مَوْتاً      تَمَنَّتْهُ البَوَاقِي وَالْحَوَالِي  
وَزَلَّتْ ولم تَرِي يوماً كَرِيهاً      تُسِرُّ التَّفَسُّ فِيهِ بِالزَّوَالِ  
رِوَاقِ العِرِّ قَوْكُ مُسَبِّطِراً      وَمُلْكُ عَلِيٍّ ابْنِكَ فِي كَمَالِ

الموت باب الآخرة.

الحسن: ما رأيتُ يقيناً لا شكَّ فيه أشبه بشكِّ لا يقين فيه من الموت.  
ابن المعتز: الموت سَهْمٌ مُرْسَلٌ إِلَيْكَ، وعمرُك بقدر سفره نحوك. أخذه بعض أهل  
العصر فقال: مجزوء الكامل:

لا تَأْمَنِ الدهرَ الخُوُو      ن وَحَفَ بوادرَ آفَتِهِ  
فالموت سَهْمٌ مُرْسَلٌ      والعمرُ قَدْرُ مساقَتِهِ

البيستي: الخفيف:

لا يغرِّكُ أنني لِيَنَّ المسَّ فعزمي إذا  
انتضيتُ حُسام  
أنا كالورد فيه راحةٌ قَوْمِ  
وقال آخر: الكامل:

ثم فيه لآخرين زُكَّام

ضرر السُّعال لمن به  
استسقاء

إن الجهولَ تضرُّني أخلاقُهُ

ولآخر، وهو البيستي: البسيط:

فليس يحمد قبل التَّضجِ  
بُحْرَانُ

فلا تكن عَجَلًا في الأمر  
تطلبُهُ

وقال آخر: الكامل:

إنَّ الكبارَ أطبُّ للأوجاعِ

لا تعتمدُ إلاَّ رئيساً فاضلاً

وقال آخر: المتقارب:

وإن كان قَدَمًا ثَقِيلاً عَبَما  
ثَقِيلٌ وخيمٌ يُشْهِي الطعاما

وإنِّي لأحْتَصُّ بعضَ الرجالِ  
فإنَّ الجُبْنَ على أنه

وقال المتنبي: البسيط:

وربَّما صَحَّتِ الأجسامُ بالعِلَلِ

لعلَّ عُنْبُكَ محمودٌ عواقبُهُ

وقال أيضاً: البسيط:

أَنْ تَحْسِبَ الشَّحْمَ فيمَنْ  
سَحْمُهُ وَرَمٌ

أعيذُها تطراتٍ مِنْكَ  
صارِقَةٌ

الجواب المفحم

قال أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي: كان بلالُ بن أبي بردة جلدًا حين ابتلي، أحضره يوسف بن عمر في قيوده لبعض الأمر، وهم بالحيرة؛ فقام خالدُ بن صفوان فقال ليوسف: أيها الأمير، إن عدو الله بلالاً ضربني وحبسني ولم أفارق جماعة؛ ولا خلعتُ يداً من طاعة، ثم التفت إلى بلال فقال: الحمد لله الذي أزال سلطانتك، وهذَّ أركانك، وأزال جمالك، وغير حالك، فوالله لقد كنت شديداً الحجاب، مستخفاً بالشريف، مظهراً للعصية! فقال بلال: يا خالد، إنما استطلت علي بثلاث معك هن علي: الأمير مُقبل عليك، وهو عني مُعرض. وأنت مُطلق، وأنا مأسور. وأنت في طينتك، وأنا غريب! فأفحمه، ويقال: إن آل الأهتم زعنفة دخنت في بني منقر فانتسبت إليهم.

وكان سبب ضرب بلال خالدًا في ولايته أن بلالاً مرَّ بخالد في موكب عظيم، فقال خالد: الطويل:

سحابة صيفٍ عن قليل تقشعُ.

فسمعه بلال، فقال: والله لا تقشع أو يصيبك منها شؤبوب برد، وأمر بصّره وحبسه.

ما قيل في القداح

وقال أبو الفتح كشاجم يرثي قَدْحاً له انكسر: المتقارب:

عَرَاني الزمانُ بأحدائه فبعضاً أطقُ، وبعضُ قَدَح

وعندي فجائع للحادثات وليس كفجعينا بالقَدَح

وعاءُ المُدَام، وتاجُ البنان ومُدني السرور، ومُقصي الترح

ومعرض راح متى تكسه ويُستودع السرر منها يبَح

وجسم هواءً وإن لم يكن يُرى للهواء بكفّ شَبَح

يردُّ على الشخصِ تمثاله وإن تتخذه مرآةً صلح

ويَعَيِّقُ من نكهاتِ المُدَام فتحسب منه غيراً تَفَح

ورق. فلو حلَّ في كِفَّةٍ ولا شيء في أختها ما رَجَح

يكادُ مع الماء إن مسّه لما فيه ممن شكله ينفسح

هوى من أنامل مجدولةً فيا عجباً من لطيفِ رَح

فأفقدنيهِ على ضيئةً به للزمان عَريم مَلَح

كان له ناظراً ينتقي فمتى يتعمدُ غير المُلح

أقلبُ ما أبقتِ الحادِثا ت منه وفي العين دَمْع

يسُح

وقد قدح الوجد مني به على القلب من ناره ما

قدح

وأعجب من زمن مانح وأخر يسلب تلك المِنَح

فلا تبعدنَّ فكم من حشاً عليك كَلِيمٍ وَقَلْبِ قَرِح

سيُقفرُ بعدك رَسم

الغُبوق

ومن أحسن ما قيل في وصف قدح، ابن الرومي يصف قدحاً أهداه إلى علي بن يحيى

المنجم: الخفيف:

وبديع من البدائع يسبي كلَّ عقل، ويطبِّي كلَّ طَرْفِ

ما يوقِّيه واصفٌ حقٌ وَصَفِ  
 هى وإن كان لا يناجي بحَرْفِ  
 أخطأته من رِقَّةِ المستَشْفِ  
 بضياءٍ، أَرْقِقْ بذاك وَأَصْفِ  
 لا علاجاً بكيمياءٍ مُصَفِّ  
 مُتوالٍ، ولم يصغَّرَ لَرَشْفِ  
 بل حلیم عنهنَّ في غير  
 ضعف  
 حكَمَاءُ القيون أحكم عَطْفِ  
 من حبيب يُرْهى بِحُسْنِ  
 وظَرْفِ  
 مثله فارساً على بطن كَفِّ

بَدَتْ لك في قَدَحٍ من نهارٍ  
 وماءٌ ولكنه غير جَارٍ

تأمَّلت نوراً محيطاً بِنَارِ  
 وهذا النهاية في الاحمرارِ  
 لِقَرْطِ النَّافِي وبعد النَّقَارِ  
 بسيطَانٍ فأتَّفقا في الجوازِ  
 إذا قام لِلِسْفِيِّ أو پاليسارِ  
 له قَرْدٌ كُمٌّ مِنَ الجَلنارِ

فإنما أَبْكي عَلَى دَسْتَجَةٍ  
 فجادتِ النفسُ بها محرَّجَةً  
 يفقد من يحسِنُ أنْ يَنْسَجَةَ  
 من رِقَّةِ العشاقِ مُسْتَحْرَجَةً  
 أيدي دَبى في نَسَقِ مُرْوجِهِ  
 طأؤوسة تَحْتال أو دَرَجَةً  
 لا رَثه السِّلْكِ ولا مُنْهَجِهِ  
 تُرْسَلُ في أثنائها مُدْرَجَهُ  
 بُرْدٌ حرَّ الكَيْدِ المُنْصَجِهِ  
 تُسْكِنُ مني مُهْجَةً مُرْعَجِهِ  
 منها لآثارِ القَدَى مخرجه

رَقِّ في الحسنِ والملاحَةِ  
 حتى  
 كُفم الحَبِّ في الملاحَةِ بل  
 أش  
 تنفذ العينُ فيه حتى تراها  
 كهواء بلا هباءٍ مَشُوبِ  
 صيغٍ من جوهرٍ مصفى  
 طباعاً  
 وسط القَدْرِ، لم يكبَّرِ  
 لِحَرْعِ  
 لا عجول على العقول جَهولُ  
 فيه نون معقرب عطَّقَنه  
 مثل عطف الأصداع في  
 وَجَتَاتِ  
 ما رأى الناظرون قَدّاً  
 وشكلاً

وقال أبو القاسم التنوخي: المتقارب:  
 وراح من الشمس مخلوقة  
 هواءٌ ولكنه جامدٌ

إذا ما تأمَّلتها وهي فيه  
 فهذا النهاية في الابيضاضِ  
 وما كان في الحقِّ أنْ يُقَرَّنَا  
 ولكن تجاوز شكلاهما ال  
 كأنَّ المديرَ لها باليمينِ  
 تدْرَعُ ثوباً من الياسمينِ

نماذج شعرية في وصف منديل وثلج  
 وقال أبو الفتح كشاجم يرثي منديل كُمٌّ: السريع:

من يَبْكُ من وَجْدٍ على هالكِ  
 جادَبِنِيها رَشاً أَعِيدُ  
 بديعةٌ في نَسِجِها، مثلها  
 كأنما رِقَّةٌ أشْكالِها  
 كأنما مفتولٌ أهدايها  
 كأنما تفريقٌ أعلامها  
 لبيسةٌ جَدَّدَها حُسْنُها  
 كم رِقعةٍ من عند مَعْشُوقَةٍ  
 أو مسحةٍ من شَفَقَةٍ عَدْبَةٍ  
 إلى تحياتٍ لِطافٍ بها  
 كانت لَمَسِجِ الكأسِ حتى

تري

وخاتمي يُعَقِّدُ فِيهَا إِذَا  
وَأَتَّقِي الْجَامَ بِهَا كَلِمَا  
فَاسْتَأْتَرَ الدَّهْرَ بِهَا؛ إِنَّهُ  
فَأَصْبَحَتْ فِي كَمِّ مُخْتَالَةٍ  
وقال أيضاً يصف سقوط الثلج: الكامل:  
الثلج يَسْقُطُ أَمْ لِحَيْنٍ  
يُسَبِّكُ

أَثَرْتُ مِنْ كَفَيَّ أَنْ أُخْرِجَهُ  
كَلَّلَهُ الْمَارِجُ أَوْ تَوَجَّهَ  
ذُو هَمَّةٍ مُجَلِّيةٍ مُرْهَجِهِ  
مُلْجَمَةً فِي هَجْرِنَا مُسْرَجِهِ  
أَمْ ذَا حَصَا الكَافُورِ ظَلِّ  
يَفْرَكُ؟

راحت به الأرضُ الفضاء  
كأنها

في كل ناحية بثغرِ تضحكُ

شابت مَفَارِقُهَا فَبَيِّنْ  
ضَحْكُهَا

طوراً، وعهدي بالمشيب  
يُتَسَكُّ

أرْبَى عَلَى حُضْرِ العَصُونِ  
فَأَصْبَحَتْ

كَالدَّرِّ فِي قُصْبِ الزَّبْرِجِدِ  
يُسَلِّكُ

وَتَرَدَّتِ الأشْجَارُ مِنْهُ مُلَاءَةً  
كَانَتْ كَعُودِ الهِنْدِ طُرِّي  
فَانكفَى

عَمَّا قَلِيلٍ بِالرِّيحِ تَهْتِكُ  
فِي لَوْنِ أبيضٍ وَهُوَ أَسْوَدُ  
أَحْلِكُ

وَالجُوُّ مِنْ أَرَجِ الهَوَاءِ كَأَنَّهُ  
فَخِذِي مِنَ الأوتارِ حِظْكَ  
إِنَّمَا

خَلَعُ تُعَنْبَرُ تَارَةً وَتُمْسِكُ  
يَتَحَرَّكُ الإِطْرَابُ حِينَ  
تَحَرَّكُ

فَاليَوْمِ يوزَرُنُ بِالمِلاحةِ، إِنَّهُ

سَيُطَلُّ فِيهِ دَمُ الدَّنَانِ  
وَيُسْفَكُ

وقال أيضاً: المنسرح:

بَاكِرٌ فَهذِي صَبِيحَةُ قَرَّةِ  
تَلْجٍ وَشَمْسٍ وَصَوْبُ عَادِيَةٍ  
بَاتَتْ وَقِياعانها رَبْرَجَدُهُ  
كَأَنَّهَا وَالثَّلُوجُ تَضْحِكُهَا  
كَأَنَّ فِي الجَوِّ أَيْدِيًا تَنْتَرْتُ  
شَابَتْ فَسُرَّتْ بِذَاكَ  
وَابْتَهَجَتْ

وَاليَوْمِ يَوْمٌ سَمَاؤُهُ تَرَّةُ  
وَالأَرْضُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ عُرَّةُ  
فَأَصْبَحَتْ قَدْ تَحَوَّلَتْ دُرَّةُ  
تُعَارُ مِنْ أَجِبِّهِ تَعْرَهُ  
دُرًّا عَلَيْنَا فَأَسْرَعَتْ نَثْرَهُ  
وَكَانَ عَهْدِي بِالشَّيْبِ يُسْتَكْرَهُ

قَدْ جَلِيَتْ بِالبِياضِ بِلَدْتِنَا

فاجل علينا الكؤوسَ بِالْحُمَرِهِ

وقال الصنوبري: مجزوء الكامل:

دَهَبٌ كَوُوسِكَ يَا غِلا  
الجُوُّ يُجْلِي فِي البِيا  
أَزْعَمْتَ ذَا تَلْجٍ وَذَا  
وَرْدُ الرِّبِيعِ مَوْرَدُ

مَ فَإِنَّ ذَا يَوْمٍ مَقْصَصُ  
ضَ وَفِي حُلَى الكَافُورِ يُعْرَضُ  
وَرْدٌ عَلَى الأَغْصَانِ يُنْقِضُ؟  
وَالوَرْدُ فِي تَشْرِينِ أبيضُ

وقال البستي: الخفيف:

كَمْ تَطَمَّنَّا عَقُودَ لَهْوٍ وَأُنْسِ  
وَفَتَقْنَا الدَّنَانَ فِي يَوْمِ ثَلْجٍ

وَجَعَلْنَا الزَّمَانَ لِلْهُوِّ سِلْكََا  
عُزْلَ الكَاسِ فِيهِ رُشْدَا

وُسْنُكَ

رَأَى عَلَيْنَا، وَنَحْنُ نَفْتِقُ مِسْكَ

وقال الأمير أبو الفضل الميكالي يصف الجَمَد: الرجز:

مَهْتِكِ الْأَسْتَارِ وَالضَّمِيرِ

كَأَنَّهَا صَحَائِفُ الْبَلُورِ

أَوْ قِطْعُ مَنْ خَالِصِ الْكَافُورِ

لَعَطَلْتُ قَلَائِدَ النَّحُورِ

وَسَمِيَتْ ضَرَائِرُ الثُّغُورِ

إِذَا قَيْطُهُ مِثْلَ حَشَا الْمَهْجُورِ

رَوْحًا يُجَلِّي نَفْنَةَ الْمَصْدُورِ

فَكَانَ السَّمَاءَ تَنَحَّلُ كَافُو

رَبِّ جَنِينٍ مِنْ حَيَا النَّمِيرِ

سَلَلَتْهُ مِنْ رَحْمِ الْغَدِيرِ

أَوْ أَكْثُرَ تَجَسُّمَتْ مِنْ نُورِ

لَوْ بَقِيَتْ سَيْلَكًا عَلَى الدَّهْورِ

وَأَخْجَلَتْ جَوَاهِرَ الْبَحُورِ

يَا حُسْنَهُ فِي زَمَنِ الْحُرُورِ

يُهْدِي إِلَى الْأَكْبَادِ وَالصَّدُورِ

وَيَخْلِبُ السَّرُورَ لِلْمَقْرُورِ

ألفاظ لأهل العصر

في وصف الثلج والبرد والأيام الشتوية

أَلْقَى الشِّتَاءَ كَلْكَلَهُ، وَأَحَلَّ بِنَا أَثْقَالَهُ. مَدَّ الشِّتَاءُ أُرُوقَهُ، وَأَلْقَى أُرُوقَهُ، وَحَلَّ

نِطَاقَهُ. ضَرَبَ الشِّتَاءُ بَجَرَانَهُ، وَاسْتَقَلَّ بِأَرْكَانِهِ، وَأَنَاخَ بِنَوَازِلِهِ، وَأَرْسَى

بِكَلَاكَلِهِ، وَكَلَحَ بِوَجْهِهِ، وَكَثَّرَ عَنْ أَنْبَاةِهِ. قَدِ عَادَتْ هَامَاتُ، الْجِبَالِ شَيْبًا،

وَلَيْسَتْ مِنَ الثَّلْجِ بُرْدًا قَشِييًّا. شَابَتْ مَفَارِقُ الْبُرُوجِ لِتَرَاقِمِ الثَّلُوجِ، أَلَمَّ

الشَّيْبُ بِهَا وَابْيَضَّتْ لِمَمَّهَا. قَدِ صَارَ الْبَرْدُ حِجَابًا، وَالثَّلْجُ حِجَازًا. بَرْدٌ يَغْيِرُ

الْأَلْوَانَ، وَيَنْشِفُ الْأَبْدَانَ. بَرْدٌ يُقْصِصُ الْأَعْضَاءَ، وَيَنْفِضُ الْأَحْشَاءَ. بَرْدٌ يُجْمَدُ

الرِّيقَ فِي الْأَشْدَاقِ، وَالدمْعَ فِي الْأَمَاقِ. بَرْدٌ حَالٌ بَيْنَ الْكَلْبِ وَهَرِيرِهِ، وَالْأَسَدِ

وَزَيْبِرِهِ، وَالطَّيْرِ وَصَفِيرِهِ، وَالْمَاءِ وَخَرِيرِهِ. نَحْنُ بَيْنَ لَثْقٍ، وَرَثْقٍ، وَزَلْقٍ، يَوْمَ

كَانَ الْأَرْضَ شَابَتْ لَهْوَلِهِ. يَوْمَ فَصَّى الْجَلْتَابِ، مِسْكِ النَّقَابِ، عَبُوسِ

قَمْطَرِيرِ، كَسَّرَ عَنْ نَابِ الزَّمْهَرِيرِ، وَفَرِشِ الْأَرْضِ بِالْقَوَارِيرِ. يَوْمَ أَخَذَتْ

الشِّمَالُ زِمَامَهُ، وَكَسَا الصُّرُّ ثِيَابَهُ. يَوْمَ كَانَ الدُّنْيَا فِيهِ كَأْفُورَةٌ، وَالسَّمَاءُ

بَلُورَةٌ. يَوْمَ أَرْضُهُ كَالْقَوَارِيرِ اللَّامِعَةِ، وَهَوَاؤُهُ كَالزَّنَانِيرِ اللَّاسِعَةِ. يَوْمَ أَرْضُهُ

كَالزَّجَاجِ، وَسَمَاؤُهُ كَأَطْرَافِ الزَّجَاجِ. يَوْمَ يَثْقُلُ فِيهِ الْخَفِيفُ إِذَا هَجَمَ، وَيَخْفُ

الثَّقِيلُ إِذَا هَجَرَ، نَحْنُ فِيهِ بَيْنَ أَطْبَاقِ الْبَرْدِ فَمَا نَسْتَعِيثُ إِلَّا بِحَرِّ الرَّاحِ، وَسَوْرَةِ

الْأَقْدَاحِ. لَيْسَ لِلْبَرْدِ كَالْبُرْدِ، وَالْحَمِيرِ، وَالْجَمْرِ. إِذَا كَلِبَ الشِّتَاءُ، فَتَرَبَّاقَ

سَمُومَهُ الصَّلَاءِ، وَدَرَّقَ سَيُوفَهُ الطَّلَاءِ.

نقيض ذلك من كلامهم

في وصف القيظ وشدة الحر

قَوِي سُلْطَانُ الْحَرِّ، وَبُسَيْطُ بَسَاطِ الْجَمْرِ. حَرُّ الصَّيْفِ، كَحَدِّ السَّيْفِ. أَوْقَدَتْ

الشَّمْسُ نَارَهَا، وَأَذَكَتْ أَوَارَهَا. حَرٌّ يَلْفَحُ حَرُّ الْوَجْهِ. حَرٌّ يَشْبَهُ قَلْبَ الصَّبِّ،

وَيُذِيبُ دِمَاقَ الصَّبِّ. هَاجِرَةٌ كَأَنَّهَا مِنْ قُلُوبِ الْعَشَاقِ، إِذَا اشْتَعَلَتْ فِيهَا نَارُ

الْفِرَاقِ. هَاجِرَةٌ تَحْكِي نَارَ الْهَجْرِ، وَتُذِيبُ قَلْبَ الصَّخْرِ. كَأَنَّ الْبَسِيطَةَ مِنْ

وَقْدَةِ الْحَرِّ، بَسَاطُ مِنَ الْجَمْرِ. حَرٌّ تَهْرَبُ لَهُ الْجِرْبَاءُ مِنَ الشَّمْسِ، قَدِ صَهَرَتْ

الْهَاجِرَةُ الْأَبْدَانَ، وَرَكِبَتْ الْجِنَادُ الْعِيدَانَ. حَرٌّ يُنْضِجُ الْجُلُودَ، وَيُذِيبُ الْجِلْمُودَ.

أَيَّامُ كَأَيَّامِ الْفُرْقَةِ امْتِدَادًا، وَحَرٌّ كَحَرِّ الْوَجْدِ اشْتِدَادًا. حَرٌّ لَا يَطِيبُ مَعَهُ عَيْشُ،

وَلَا يَنْفَعُ مَعَهُ ثَلْجٌ وَلَا خَيْشٌ. حِمَارَةُ الْقَيْظِ، تَغْلِي كَدَمَ ذِي الْغَيْظِ. أَبُّ أَبُّ

يَحِيشُ مِرْجَلَهُ، وَيَتُّورُ قَسْطَلَهُ. هَاجِرَةٌ كَقَلْبِ الْمَهْجُورِ، أَوْ التَّنُورِ الْمَسْجُورِ.

هَاجِرَةٌ كَالْحَجِيمِ الْجَاحِمِ، تَجَرُّ أذْيَالَ السَّمَائِمِ.

العجلة أم الندامة

قال بعض الحكماء: إياك والعجلة فإنَّ العرب كانت تَكْنِيها أمَّ الِندامة؛ لأنَّ صاحبها يقول قبل أن يعلم، وبجيب قبل أن يفهم، ويعزم قبل أن يفكر، ويقطع قبل أن يُقَدِّر، ويَحْمَدُ قبل أن يحزَّب، وبذمَّ قبل أن يحبُر، ولن يصحب هذه الصفة أحدٌ إلاَّ صحب الِندامة، واعتزل السلامة.

قضاء الحاجة

ولما ولى المهدي سليمان بن وهب وزارته قام إليه رجل من ذوي حُرْمَتِهِ، فقال: أعرَّ الله الوزير، أنا خادمك المؤمِّل لدولتك، السعيدُ بأيامك. المنطوي القلب على وُدِّك، المنشورُ اللسان بمدحك، المرتهن بشكر نعمتك، وقد قال الشاعر: البسيط:  
وفيتُ كلَّ صديقٍ وُدِّي ثمناً إلاَّ المؤمِّل دولاتي وأيامي

فإنني ضامنٌ ألاَّ أكافئَهُ إلاَّ بتسويغهِ فَضْلِي وإِنعامي  
وإنني لكما قال القيسي: ما زلت أَمْتِطِي النهارَ إليك، وأستدلُّ بفضلك  
عليك، حق إذا جنَّي الليلُ فغضَّ البصرَ، ومحا الأثر، أقام بدني، وسافر  
أملي، والاجتهاد عُذْر، فإذا بلغتكَ فَقَدِ. قال سليمان: لا عليك، فإنني عارفٌ  
بوسيلتك، محتاج إلى كفايتك واصطناعك، ولست أُوخِر عن يومي هذا  
توليتك ما يَحْسُنُ عليك أثره، وبطيِّب لك حَبْرُهُ، إن شاء الله.  
وكتب محمد بن عباد إلى أبي الفضل جعفر بن محمود الإسكافي وزير  
المعتز بالله، وكان المعتز يَحْتَصُّ به؛ ويتقرب إليه قبل الوزارة: ما زلت -  
أيديك الله تعالى - أذمُّ الدهر بدمك إياه؛ وأنتظر لنفسي ولك عُقْباه، وأتمنى  
زوال حال من لا دَنَبَ له إلاَّ عاقبة محمودة تكون لك بزوال حاله، وأترك  
الإعذار في الطلب على الاختلال الشديد؛ ضناً بالمعروف عندي إلاَّ عن  
أهله، وحبساً لشِعْرِي إلاَّ عن مستحقِّهِ.  
فوقع في كتابه: لم أُوخِر ذكرك ناسياً لحَقِّكَ، ولا مهملًا لواجبك، ولا مرجياً  
لمهمِّ أَمْرِكَ، ولكنني ترقبت اتساع الحال، وانفساخ الآمال، لأخصَّك بأَسْناها  
خطراً، وبأجلها قَدْرًا، وأعوذها بِنَفْعِ عليك، وأوفرها رِزْقاً لك، وأقربها  
مسافةً منك؛ فإذا كنت ممن يَحْفِرُهُ الإِجْمال، ولا يَنْتَسِعُ له الإِمْهال،  
فسأختار لك خيرَ ما يشير إليه الوقت، وأنعم النظر فيه، وأجعله أول ما  
أمضيه، إن شاء الله.

ولما ولي سليمان بن وهب الوزارة كتب إليه عبيد الله بن عبد الله بن  
طاهر: الطويل:

أبي دهرنا إسعافنا في  
نفوسنا

فقلت له: نُعماك فيهم أتمَّها ودَع أمرنا؛ إن المهمَّ المقدمُ

فوجب من لطيف شكواه في تهنئته، وقصبي حوائجَه.  
ووقع عبيد الله في كتاب رجل اعتدَّ عنده بأثر جميل: وقفت على ما ذكرته  
من شكابتك، فوقع ذلك عندنا الموقع الذي أرَدْتَهُ، وصدر جوابنا إليك بما  
شكرته، ولم تَعُدْ ظننا، وما قدرنا فيك، ثم اعتدت الاعتداد حتى كأنك لم  
تكتبنا؛ فلا تفسدَنَّ تالد إحسانك بطارف امتنانك، واقتصر من وصف سالفك  
على ذكر مستأنفك.

التقسيم

ووقع عبيد الله في أمر رجل خرج عن الطاعة: أنا قادرٌ على إخراج هذه التُّعْرَة من  
رأسه، والوَخْرَة من نفسه.  
ونحو هذا التقسيم قولُ قتيبة بن مسلم بخراسان: من كان في يده شيء من مال عبد

الله فلينبذه؛ أو في فمه قَلِيلُفُظُهُ، أو في صدره فلينبهته.  
وقال عبد الله بن علي، بعد قتلِه مَنْ قَتَلَ من بني أمية، لإسماعيل بن عمرو: أساءك ما فعلت بأصحابك؟ قال: كانوا يداً فقطعنها، وعضداً فقتنها، وعقدةً فنقضتها، وركناً فهدمتها، وجبلاً فهصمتها، وجناحاً فقصصتها، قال: إني لخليقٌ بأن الحقك بهم، قال: إني إذاً لسعيد.

وقال المنصورُ لجريز بن عبد الله: إني لأعذُّك لأمر كبير! قال: يا أمير المؤمنين، قد أعذَّ الله لك مني قلباً معقوداً بنصيحتك، ويداً مبسوطةً بطاعتك، وسيفاً مسلولاً على أعدائك.

وكتب الحسن بن وهب إلى القاسم بن الحسن بن سهل يعزِّيه: مدَّ الله في عمرك موفوراً غير منتقص، وممنوحاً غير ممتحن، ومُعطى غير مُستَلَب.  
ومن جيد التقسيم مع المطابقة قولُ بعض الكتاب: إنَّ أهل النصح والرأي لا يساوبهم أهل الأقرن والغش، وليس مَنْ جمع إلى الكفاية الأمانة كمن أضاف إلى العجز الخيانة. وقالت هند بنت النعمان بن المنذر لرجل دَعَتْ له وقد أولاها يداً: شكرتُك يدُ نالتها خصاصة بعد ثروة، وأغناك الله عن يد نالتها ثروة بعد فاقة.  
ومن بديع التقسيم في هذا النوع قولُ البحتري: البسيط:

كانك السيفُ حدَّاهُ ورؤفُهُ      والغيثُ وائلُهُ الدَّاني ورَبُّفُهُ  
هل المكارم إلا ما تُجمعه      أو المواهب إلا ما تفرِّفُهُ؟

وقال الحسن بن سهل يوماً للمأمون: الحمد لله يا أمير المؤمنين على جزيل ما أتاك؛ وسنيي ما أعطاك؛ إذ قسم لك الخلافة، ووهب لك معها الحجة، ومكنك بالسلطان، وحلاه لك بالعدل، وأيدك بالظفر، وشفَّعه لك بالعفو، وأوجب لك السعادة، وقرَّنها بالسياسة، فمن فُبيح له في مثل عطيةِ الله لك؟ أم مَنْ ألبسه الله تعالى من زينة المواهب ما ألبسك؟ أم من ترادقتُ نعمُ الله تعالى عليه ترادقها عليك؟ أم من حاولها وارتبطها بمثل محاولتك؟ أم أي حاجة بقيت لرعييتك لم يجدوها عندك؟ أم أي قيم للإسلام انتهت إلى غايتك ودَرَجَتِكَ؟ تعالى الله! ما أعظم ما حصَّ القرن الذي أنت ناصره! وسبحان الله! أبة نعمة طبقت الأرض بك إن أدِّي شكرها إلى بارئها، والمنعم على العباد بها؟ إن الله تعالى خلق الشمس في فلكها ضياءً يستنيرُ بها جميعُ الخلائق؛ فكلُّ جوهر زها حسنة ونوره فهي ألبسته زينته لما اتصل به من نورها. وكذلك كل ولى من أوليائك سَعِدَ بأفعاله في دولتك، وحسنتُ صنائعه عند رعييتك، فإنما نالها بما أيدته من رأيك وتديرك، وأسعدته من حسنك وتقويمك.

قينة تعشق أربعة رجال

قال بعضُ الظرفاء: اجتمع لقيتة أربعة من عشاقها، وكلهم يُورِّي عن صاحبه أمره، ويُخفي عنه خبره، ويومئ إليها بحاجبه، ويناجيها بلخظه، وكان أحدهم غائباً فقدم، والآخر مقيماً قد عَزَم على الشخصوص، والثالث قد سلَّقت أيامه، والرابع مستأنفةً مودته، فضحك إلى واحد، وبكَّت إلى آخر، وأقصت آخر، وأطمعت آخر؛ واقترح كل واحد منهم ما يشاكلُ بثه وشأنه؛ فاجابته، فقال القادم: جُعِلت فِدَاك، أتحسنين: الطويل:

ومن يئاً عن دار الهوى يُكثِر      وقَوْلَ لَعَلِّي أو عَسَى  
البُكا      سيكون

وما اخترت تَأَيِّ الدار عنك      ولكن مَقاديرُ لهنَّ شؤونُ  
لِسَلْوَةٍ

فقلت: أحسنه، ولا أقيمُ لَحْنه، ولكن مُطَارحه لتستغني به عنه، لُقْر به منه، وأنا به أهدق، ثم غنَّت: الطويل:

وما زلت مُذ سَطَلتُ بك الدارُ      أو مَلُّ منك العَطْفَ حين

باكياً  
 فأضعفت ما بي حين أبت  
 وزدّني  
 وقال الطاعن: جعلت فداك، أحسنين: الكامل:  
 أرف الفراق فأعني جزعاً  
 إن المحب يصد مقترباً  
 ودعي العتاب فإننا سبفر  
 فإذا تباعد شفه الذكر  
 قالت: نعم، وأحسن منه ومن إيقاعه، ثم غنت: الخفيف:  
 لأقمن مأتماً عن قريب  
 ربما أوجع التوى للقلوب  
 ليس بعد الفراق عير التحيب  
 ثم لا سيما فراق الحبيب  
 ثم قال السالف: جعلت فداك، أحسنين: الكامل:  
 كنا نعاتبكم ليالي، غودكم  
 حلو المداق وفيكم  
 مستعنت  
 فالآن حين بدّ التنكر منكم  
 ذهب العتاب فليس عنكم  
 مذهب  
 قالت: لا، ولكن أحسن منه في معناه، ثم غنت: الطويل:  
 وصلتك لما كان ودك  
 خالصاً  
 وأعرضت لما صار تهياً  
 مقسماً  
 ولن يلبث الحوض الجديد  
 بناؤه  
 فقال المستأنف: أحسنين، جعلت فداك: الكامل:  
 إني لأعظم أن أبوح بحاجتي  
 وعليك عهد الله إن أبثته  
 وإذا قرأت صحيفتي فتفهمني  
 أحداً ولا آذنته بتكلم  
 فقالت: نعم، ومن غناء صاحبه؛ ثم غنت: الطويل:  
 لعمرك ما استودعت سيري  
 وسرها  
 ولا خالطتها مقلتاي  
 بنظرة  
 ولكن جعلت الوهم بيني  
 وبينها  
 أكتم ما في النفس خوفاً  
 من الهوى  
 فتفرقوا وكلهم قد أوماً بحاجته، وأجابته بجوابه.  
 من أخبار ابن المعتز وشعره  
 قال أبو العباس بن المعتز: كان لنا مجلس حظ أرسلت بسببه خادمة إلى  
 قينة فأجابت، فلما مرت في الطريق وجدّت فيه حارساً فرجعت، فأرسلت  
 أعاتبها فكتبت إلي: لم أتخلف عن المسير إلى سيدي في عشيتي أمس  
 لأرى وجهه المبارك وأجيب دعاءه، إلا لعله قد عرقها فلانة، ثم خفت أن  
 يسبق إلى قلبه الطاهر أني قد تخلفت بغير عذر؛ فأحبت أن تقرأ عذري  
 بخطي، ووالله ما أقدر على الحركة، ولا شيء أسر إلي من رؤيتك،  
 والجلوس بين يدك، وأنت، يا مولاي، جاهي وسندي، لا فقدت قربك، ولك  
 رأيك في بسط العذر موقفاً.  
 وكتبت في أسفل الكتاب: الطويل:

أليس من الحرمان حظاً  
سُلبته وأخوَجني فيه البلاء إلى  
العُدْرِ؟

فصبراً فما هذا بأوّل حادثٍ  
أذري رَمَنني به الأقدار مِنْ حيثُ لا

فأجبتها: كيف أَرَدُّ عُذْرٍ مِنْ لا تتسلط التهمة عليه، ولا تهتدي المَوْجِدَة إليه! وكيف أعلمه قبول المعاذير، ولسْتُ أَمَنُ بعضَ خواطره أن تشير إلى انتهاز فرصة فيما دعا إلى الفرقة، وإن سَلِمْتُ من ذلك فمن يُجيرني من توكله على تقديم العُدْرِ، ووقوعه مواقع التصديق في كل وقت، فتتصل أيام الشغل والعلة، وتنقضي أيام الفراغ والصحة، فتطول مدة الغيبة، وتُدْرَس آثار المودّة، وكنبتُ في آخر الرقعة: الطويل:

إذا غَبْتُ لم تعرف مكاني  
ولم يلق نفسي لَهوها  
لذهُ وسُرورها

وحدثتُ سمعاً واهناً غير  
مُمسِكٍ لقولي، وعيناً لا يراني  
صَمِيرها

وكتب إلى بعض الوزراء: ما زال الحاسدُ لنا عليك أيها الوزير يَنْصِبُ الحبائل، وبطلب الغوائل، حتى انتهز فرصته، وأبلغك تشبيهاً رَحْرَفَه، وكذباً رَوَّرَه، وكيف الاحتراس ممن يحضر وأغيب، ويقول وأمسيك؟ مرتصداً لا يَغفل وماكراً لا يفتّر، وربما استنصح الغاش، وصدق الكاذب؛ والحظوة لا تُدْرِك بالحيلة، ولا يجري أكثرها على حسب السبب والوسيلة.

فأجابه: حصول الثقة بك - أعزك الله! - تُعني عن حضورك، وصدق حالتك يحتجُ عنك، وما تقرّر عندنا من نيتك وطويتك يُعني عن اعتذارك.  
وقد قال ابن المعتز: الكامل:

أَحْتَى عليك الدهر مقتدراً  
ما زلت تَلْقَى كلَّ حادثَةٍ  
فالآن هل لك في مُقارِبَةٍ؟  
لله إخوان فقدتهم  
أين السبيلُ إلى لقائهم؟  
كم مورق بالبشر مُبتسم  
ما زال يوليني خلائقهُ  
وعدو غيبٍ طالِب لدمي  
يُوري زنادي كي يُخادِعني

وقال أيضاً: الطويل:

وإني على إشفاق عيني من  
القذِي  
كما حُلْتُ من بَرْدِ ماءٍ  
طَرِيدُهُ

وقال: الطويل:

وما زلتُ مذ شَدتْ يدي عقد  
مُنْزِي  
ودلّ عليّ الحمدَ مَجدي  
وعِقَّتِي

وقال: البسيط:

سَعَى إلى الدَّنِّ بالمِبْرالِ  
ساق توشح بالمنديل حين  
يُنْفِرُهُ وَتَبُّ

لَمَّا وَجَاهَا بَدَتْ صَفْرَاءَ صَافِيَةً  
كَأَنَّمَا قَدَّ سَيْرًا مِنْ أَدِيمِ  
دَهَبٍ

وقال: الخفيف:

لَبَسَتْ صَفْرَةً فَكَمْ فَتَنْتُ  
مَنْ  
أَعْيُنٍ قَدْ رَأَيْتَهَا وَعُقُولِ  
مِثْلَ شَمْسِ الْغُرُوبِ تَسْحَبُ  
ذِيلاً  
صَبَعَتْهُ بَرَعَفَرَانِ الْأَصِيلِ

والشمس عند طلوعها، وعند غروبها، تمكّن الناظر إليها فيمكن التشبيه بها؛ قال قيس بن الخطيم: الكامل:

فَرَأَيْتَ مِثْلَ الشَّمْسِ عِنْدَ  
طُلُوعِهَا  
جَرِيرٍ وَأَهْلَ الْمَدِينَةِ  
فِي الْحَسَنِ أَوْ كَدْنُوها  
لِغُرُوبِ

ولما قدم جرير بن الخطّمي المدينة اجتمع إليه أهلها، وقالوا: يا أبا خزّرة، أنشدنا من شعرك، قال: ما تصنعون به؟ وفيكم من يقول: الكامل:

أَنْى سَرَبْتِ وَكُنْتِ غَيْرِ  
سُرُوبِ  
وَتَقَرَّبِ الْأَحْلَامُ غَيْرِ قَرِيبِ

مَا تُمْتَعِي يَفْظَى فَقَدْ نَوْلْتِهِ  
فِي النُّومِ غَيْرِ مَصْرِدِ  
مَحْسُوبِ

كَانَ الْمُتَى يُلْقِي بِهَا  
فَلَقِيئُهَا  
فَلَهَوْتُ عَنْ لَهْوِ امْرِئِ  
مَكْذُوبِ

فَرَأَيْتُ مِثْلَ الشَّمْسِ عِنْدَ  
طُلُوعِهَا  
فِي الْحَسَنِ أَوْ كَدْنُوها  
لِغُرُوبِ

تَخَطُّو عَلَى بَرْدِيَّتَيْنِ عَدَّاهُمَا  
عَدَّقُ بِسَاحَةِ حَائِرِ يَعْبُوبِ

يزيد بن خالد الكوفي

وقّع يزيد بن خالد الكوفي رقعة إلى يعقوب بن داود ضمّنها: البسيط:

قُلْ لَابِنِ دَاوِدَ وَالْأَنْبَاءِ  
سَائِرَةٌ:  
لَا يَحْرِزُ الْأَجْرَ إِلَّا مَنْ لَهُ عَمَلٌ

يَا ذَا الَّذِي لَمْ تَزَلْ يُمْتَاهُ مُدٌّ  
خُلِقْتُ  
فِيهَا لِباغِي تَدَاهِ الْعَلُّ  
وَالنَّهْلُ

إِنْ كُنْتَ مَسْدِي مَعْرُوفٍ إِلَى  
رَجُلِ  
فَأَمِّنْ عَلَيَّ بِيْرٍ مِنْكَ  
يَنْعَشُنِي

فَضْلُ شُكْرِ فَإِنِّي ذَلِكَ  
الرَّجُلُ  
فَأَمِّنْ عَلَيَّ بِيْرٍ مِنْكَ  
يَنْعَشُنِي

قال يعقوب: قد جرّينا شكرك فوجدناه قد سبق برّنا، وقد أمرت لك بعشرة آلاف درهم تصلح حالك، وليست آخر ما عندنا لك، فاستوقاها حتى مات.

ولما سخط المهديّ على يعقوب أحضره، فقال: يا يعقوب، قال: لبيك يا أمير المؤمنين تلبية مكروب لموجدتك، شروق بعصتك، قال: ألم أرفع قدرك وأنت حامل، وأسير ذكرك وأنت هامل، وأليسك من نعم الله تعالى ونعمي ما لم أجد عندك طاقةً لحمله، ولا قياماً بشكره؟ فكيف رأيت الله تعالى أظهر عليك، وردّ كيدك إليك؟

قال: يا أمير المؤمنين، إن كنت قلت هذا بتيقن وعلم فإنني معترف، وإن كان بسعاية الباغين، ونمائ المعاندين، فأنت أعلم بأكثرها؛ وأنا عائد بكرمك، وعميم شرفك. فقال: لولا الجنّ في دمك لألبستك قميصاً لا تشدّ عليه زراً؛ ثم أمر به إلى الحبس، فتولى وهو يقول: الوفاء يا أمير المؤمنين كرم، والمودة رجم، وما على العفو تدم.

وأنت بالعفو جدير، وبالمحاسن خَلِيق. فأقام في السجن إلى أن أخرجه الرشيد. أخذ معنى قول المهدي: "لألبسك قميصاً لا تشدُّ عليه زراً" أبو تمام فقال: المنسرح:

طَوَّقْتَهُ بِالْحَسَامِ طَوَّقَ رَدَى      أَغْنَاهُ عَنْ مَسِّ طَوَّقِهِ بِيَدِهِ

وقال ابن عمر في معنى قول الطائي: البسيط:

طَوَّقْتَهُ بِحَسَامِ طَوَّقَ دَاهِيَةَ      لَا يَسْتَطِيعُ عَلَيْهِ نَشْدَ أَرْزَارِ

ولما قبض المهدي على يعقوب ورأى أبو الحسن النميري مَيَّلَ الناس عليه، وكان مختلطاً به قال: الكامل:

يَعْقُوبُ لَا تَبْعَدُ وَجُنِبَتِ الرَدَى      فَلَأَبْكِيَنَّ كَمَا بَكَى الْعُصْنَ  
النَّدَى

لَوْ أَنَّ خَيْرَكَ كَانَ شَرًّا كَلَّهُ      عِنْدَ الَّذِينَ عَدَوْا عَلَيْكَ لَمَّا  
عَدَا

أخذ هذا المعنى بعض المحدثين في الغزل فقال: الكامل:

لَوْ أَنَّ هَجْرَكَ كَانَ وَصْلًا كَلَّهُ      مِمَّا أَقَاسِي مِنْكَ كَانَ قَلِيلاً

بين أحمد بن أبي دواد والواثق قال لي أحمد بن أبي دواد: دخلت على الواثق فقال لي: ما زال اليوم قوم في ثلبك وتقصك! فقال: يا أمير المؤمنين، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم، والذي تولى كثره منهم له عذاب عظيم، والله وليُّ جزائه، وعقابُ أمير المؤمنين من ورائه، وما دَلَّ - يا أمير المؤمنين - من كنت تأصره، وما ضاق من كنت جاراً له، فما قلت لهم يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت: يا أبا عبد الله: الكامل:

وَسَعَى إِلَيَّ بِصَرْمِ عَرَّةٍ      جَعَلَ الْإِلَهَ حُدُودَهُنَّ نِعَالَهَا  
مَعَشَرٌ

قال الفتح بن خاقان: ما رأيت أظرف من ابن أبي دواد؛ كنت يوماً ألاعب المتوكل بالنزد، فاستؤذن له عليه، فلما قَرُبَ منا هممت برفعها، فمنعني المتوكل وقال: أجاهرُ الله وأسئره من عباده؟ فقال له المتوكل: لما دخلت أريد الفتح أن يرفع الترد! قال: خاف يا أمير المؤمنين أن أعلم عليه! فاستحليناها، وقد كنا تجهمناه.

شبيب بن شيبه وخالد بن صفوان قيل لبعض الأمراء: إن شبيب بن شيبه يتعمَّل الكلام ويستدعيه، فلو أمرته أن يصعد المنبر فجأة لافتضح؛ فأمر رسولاً فأخذ بيده فصعد به المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي، صلى الله عليه وسلم، ثم قال: إن أمير المؤمنين أشباهاً أربعة: الأسد الخادر، والبحر الزاخر، والقمر الباهر، والربيع الناضر؛ فأما الأسد الخادر فأشبهه صولته ومصآءه، وأما البحر الزاخر فأشبهه جوده وعطاءه، وأما القمر الباهر فأشبهه نوره وضياءه، وأما الربيع الناضر فأشبهه حسنه وبهائه، ثم نزل. وهذا الكلام ينسب إلى ابن عباس يقوله في علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما.

وكان شبيب بن شيبه من أفصح الناس وأخطبهم، ويشبهه بخالد بن صفوان؛ غير أن خالداً كان أعلى منه قدراً في الخاصة والعامه. وذكر خالد شبيباً فقال: ليس له صديق في السر ولا عدو في العلانية. وكانت بينهما معارضة للنسب والجوار والصناعة، ولما قال الشاعر: الطويل:

فَتَحَّ شَبِيبًا عَنْ قِرَاعِ كَتِيبَةٍ      وَأَدْنِ شَبِيبًا مِنْ كَلَامِ مُلَقِّقِ

وكان لا ينظر إليه أحد وهو يخطب إلا تبين فيه الخجل.

وقال أبو تمام لعلي بن الجهم: الكامل:

لزعمت أُنْكَ نِلْتِ شَكْلَ  
عُطَارِدِ

من لَفْظِكَ اشْتَقْتُ بِلَاغَةَ  
خَالِدِ

لو كنت يوماً بالنجوم  
مُصَدِّقاً

أو قَدَمَتِكَ السُّنُّ خِلْتُ بِأَنَّهُ

وقالت له امرأة: إِنَّكَ الْجَمِيلُ يَا أَبَا صَفْوَانَ. قال: كيف تقولين هذا وما فيَّ عمودُ الجمال ولا رِداؤه، ولا بُرُئيسه؟ عمودُه الطول، ولست بطويل، وِرْدَاؤُه البياض، ولست بأبيض، وِبُرُئيسه سِوَادُ الشَّعْرِ، وأنا أشمط! ولكن قلبي: إنك لمليح. وكان خالد حافظاً لأخبار الإسلام، وأيام الفتن، وأحاديث الخلفاء، ونوادير الرواة، وكل ما تصرّف فيه أهل الأدب، وله يقول مكّي بن سِوَادَةَ: الطويل:

عليم بتنزيل الكتاب ملقنٌ

ولو كان سحباناً أولاً  
وَدَغْفَلًا

كأنهم الكروانُ صادف  
أَجْدَلًا

يُبْدُّ قَرِيعَ القوم في كل  
مَحْفَلٍ

تري حُطَبَاءَ الناس يوم  
ارتجاله

أما سَحْبَانُ الَّذِي ذَكَرَهُ فَهُوَ خَطِيبُ الْعَرَبِ بِأَسْرِهِا غَيْرِ مَنَازِعٍ وَلَا مَدَافِعِ، وَكَانَ إِذَا خَطَبَ لَمْ يُعِدْ حَرْفًا، وَلَمْ يَتَوَقَّفْ، وَلَمْ يَتَحَبَّسْ، وَلَمْ يَفَكِّرْ فِي اسْتِنْبَاطِ، وَكَانَ يَسِيلُ عَزْبًا، كَأَنَّهُ أَذِيٌّ بَحْرٌ.

ويقال: إِنَّ مَعَاوِيَةَ قَدِمَ عَلَيْهِ وَفَدَّ مِنْ خَرَّاسَانَ وَجَّهَهُمْ سَعِيدُ بْنُ عَثْمَانَ، وَطَلَبَ سَحْبَانَ فَلَمْ يَوْجَدْ عَامَّةَ النَّهَارِ، ثُمَّ اقْتَضَيْتِ مِنْ نَاحِيَةٍ كَانَ فِيهَا اقْتِضَابًا، فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: تَكَلِّمْ، فَقَالَ: انظروا لي عصاً تُقِيمُ مِنْ أَوْدِي، فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ: مَا تَصْنَعُ بِهَا؟ فَقَالَ: مَا كَانَ يَصْنَعُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُوَ يَخَاطِبُ رَبَّهُ وَعَصَاهُ بِيَدِهِ، فَجَاءَهُ بِعَصَا فَلَمْ يَزُصَّهَا. فَقَالَ: جِئْتُونِي بِعَصَايَ، فَأَخَذَهَا، ثُمَّ قَامَ فَتَكَلَّمَ مِنْذُ صَلَاةِ الظُّهْرِ إِلَى أَنْ فَاتَتْ، صَلَاةَ الْعَصْرِ، مَا تَتَخَجَّحُ، وَلَا سَعَلَ، وَلَا تَوَقَّفَ، وَلَا تَحَبَّسَ، وَلَا ابْتَدَأَ فِي مَعْنَى فَخَرَجَ مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ حَتَّى أَتَمَّهُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ شَيْءٌ، وَلَا سَأَلَ عَنْ أَيِّ جِنْسٍ مِنَ الْكَلَامِ يَخْطُبُ فِيهِ، فَمَا زَالَتْ تَلْكَ حَالَهُ وَكَلَّ عَيْنٌ فِي السَّمَاطِينَ شَاخِصَةً إِلَى أَنْ أَشَارَ لَهُ مَعَاوِيَةُ بِيَدِهِ أَنْ اسْكُتْ، فَأَشَارَ سَحْبَانُ بِيَدِهِ أَنْ دَعْنِي لَا تَقْطَعْ عَلَيَّ كَلَامِي، فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ: الصَّلَاةُ، فَقَالَ: هِيَ أَمَامَكَ وَنَحْنُ فِي صَلَاةٍ يَتَّبِعُهَا تَحْمِيدٌ وَتَمْجِيدٌ، وَعِظَةٌ وَتَنْبِيهُ وَتَذْكَيرٌ وَوَعْدٌ وَوَعِيدٌ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ: إِنَّكَ أَخْطَبُ الْعَرَبِ، فَقَالَ سَحْبَانُ: وَالْعَجْمُ، وَالْجَنُّ، وَالْإِنْسُ.

بعض ما قيل في عجلان بن سحبان وكان ابنه عجلان حُلُوَ اللسان، جَيِّدَ الكلام، مليح الإشارة، يجمع مع خطابته شعراً جيداً، ويضرب الأمثال إذا خطب، وينزع النادر من الشعر، والسائر من المثل، فَتَحَلُّوْ حُطْبَتِهِ، وَكَانَ يَزُنُّ كَلَامَهُ وَزُنَاً.

دغفل بن حنظلة النسابة وأما دغفل الذي ذكره مكّي بن سِوَادَةَ فَهُوَ دَعْفَلُ بْنُ حَنْظَلَةَ بْنِ يَزِيدِ بْنِ أَحَدِ بَنِي ذَهْلِ بْنِ ثَعْلَبَةَ النَّسَابَةِ، وَكَانَ أَعْلَمَ النَّاسِ بِأَنْسَابِ الْعَرَبِ، وَالْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، وَأَحْفَظَهُمْ لِمَثَالِبِهَا، وَأَشَدَّهُمْ تَنْقِيحاً وَبَحْثاً عَنِ مَعَايِبِ الْعَرَبِ، وَمَثَالِبِ النَّسَبِ.

قال له معاوية يوماً: والله لئن قلت في هذا البيت من قريش ما تجد في آل حَرْبٍ مَقَالاً، فَتَبْسِمُ دَغْفَلَ؛ فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ: وَاللَّهِ لَتُخْبِرُنِي بِتَبْسِمِكَ، وَمَا انْضَمَّتْ عَلَيْهِ جِوَانِحُكَ، أَوْ لِأَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ، وَمَا أَمِنُ أَنْ تَكْذِبَ أَوْ تَزِيدَ. فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْتُمْ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنْفَى كَسْتُمْ كَوْمَاءَ فَيْئَةٍ، ذَاتِ

مرغى خصيب، وماء عذب، وأكمة بارزة، فهل يوجد في سنام هذه مدب  
فرد من عاهة؟ فقال له معاوية: أولى لك! لو قلمت غير هذا؛ أما على ذلك  
لو رأيت هنداً وأباها، وزوجها، وأخاها، وعمها، وخالها، لرأيت رجلاً تحار  
أبصار من رآهم فيهم، فلا تجاوزهم إلى غيرهم، جلالاً وبهاءً.  
في ذكر العصا

وعلى ذكر العصا لقي الحجاج أعرابياً فقال: من أين أقبلت؟ قال: من  
البادية، قال: ما بيدك؟ قال: عصا أركزها لصلاتي، وأعدّها لعداتي، وأسوق  
بها دابتي، وأقوى بها على يتفري، وأعتمدُ بها في مشيتي، ليتسبّع بها خطوي،  
وأعبرُ بها النهر فتؤمنني، وألقي عليها كسائي فتسترنني من الحر، وتقيني  
من القُر، وتذني ما بعد مني، وهي محمل سفرتي، وعلاقة إداوتي، ومشجب  
ثيابي، أعتمدُ بها عند الصّراب، وأفرعُ بها الأبواب، وأتقي بها عقور الكلاب،  
تنوبُ عن الرّمح في الطعان، وعن الحِزْز عند منازلة الأقران، ورثتها عن  
أبي، وأورثها بعدي ابني، وأهشُّ بها على غمّي، ولي فيها مارب أخرى، كثيرة  
لا تُحصى.

الخليل بن أحمد

قال النضر بن شميل: كتب سليمان بن علي إلى الخليل بن أحمد يستدعيه الخروج  
إليه، وبعث إليه بمال كثير، فردّه وكتب إليه: البسيط:

أبلغ سليمان أني عنه في	وفي غنى غير أني لستُ ذا
سعة	مال
يسخو بنفسي أني لا أرى	يموت هزلاً ولا يتقى على
أحداً	حال
والفقير في النفس لا في	ومثلُ ذاك الغنى في النفس
المال تعرفه	لا المال
والمال يعشى أناساً لا حلاق	كالسبيل يعشى أصول الدّين
لهم	البالي
كل امرئ بسبيل الموت	فاعمل لنفسك؛ إنني شاغل
مرتهن	بالي

أخذ هذا الطائي فقال: الكامل:

لا تُنكري عطلَ الكريم من	فالسيلُ حربٌ للمكان
الغنى	العالي

وقال أيضاً يصف قوماً خصّوا بآبن أبي دؤاد الخفيف:

تزلوا مركز الندى ودراه	وعدّتنا من دون ذاك العوّادي
غير أن الرّبا إلى سبيل الآن	واء أدتي، والحظّ حظّ الوهاد

وهذا الشعر من أصلح شعر الخليل، وكان شعره قليلاً ضعيفاً، بالإضافة إليه وهو أستاذ  
النحو والغريب، وقد اخترع علم العروض من غير مثال تقدمه، وعنه أخذ سيبويه،  
وسعيد بن مسعدة، وأئمة البصريين، وكان أوسع الناس فطنةً، وأطفهم ذهنًا. قال  
الطائي: الوافر:

فلو نُشر الخليل إذا لعفت	رزاياه على فطن الخليل
--------------------------	-----------------------

في التعزية

وكتب أبو إسحاق الصابي إلى محمد بن عباس يعزبه عن طفل: الدنيا، أطال  
الله بقاء الرئيس، أقدارُ تردُّ في أوقاتها، وقضايا تجري إلى غاياتها، ولا يُردُّ  
منها شيءٌ عن مداه، ولا يصدُّ عن مطلبه ومنحاه؛ فهي كالسهام التي تثبت  
في الأغراض؛ ولا ترجعُ بالاعتراض، ومن عرف ذلك معرفة الرئيس لم يغض

من الزيادة، ولم يَفْتَط من النقيصة، وأَمِنَ أن يَسْتَخَفَّ أحدُ الطرفين حلمه، ويستنزل أحدُ الأمرين حَزْمَه، ولم يدَعُ أن يوطن نفسه على النازلة قبل نزولها، وبأخذ الأَهْبَةِ للحادثة قبل حلولها، وأن يجاور الخيرَ بالشكر، ويساورَ المِحْنَةَ بالصبر، فيتخيرَ فائدةَ الأولى عاجلاً، ويستمرئ عائدةَ الأخرى أجلاً. وقد نَقَدَ من قضاءِ الله تعالى في المولى الجليلِ قَدْرًا، الحديثَ سنًا، مَا أَرْمَضَ، وَأَوْمَضَ، وَأَقْلَقَ وَأَقْضَى؛ ومسني من التالم له ما يحق على مثلي ممن تَوَاقَفْتُ أياديَ الرئيسِ إليه، ووجبت مشاركتُه في الملمِّ عليه، ف "إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" وعند الله نحتسبه عُضُنًا دَوِي، وشهابًا حَبًا، وفرعًا دَلًّا على أصله، وَخَطِيئًا أُنْبَتَهُ وَشَيْجُهُ، وإياه أسألُ أن يجعلَه للرئيسِ قَرَطًا صالحًا، وَدُخْرًا عتيْدًا، وأن ينفعه يوم الدين، حيث لا ينفعُ إلا مثله بين البنين، بجوده وَمَجْدِهِ.

ولئن كان المصابُ عظيمًا، والحادثُ فيه جسيمًا، لقد أحسن الله إليه، وإلى الرئيس فيه؛ أما إليه فإن الله نَزَّهه بالاخترام، عن اقترافِ الآثام، وصانه بالاحتضار، عن ملابسة الأوزار، فورد دُنياه رشيدًا، وصدَرَ عنها سعيدًا، نقي الصحيفة من سوادِ الذنوب، بري الساحة من دَرَنِ العيوب، لم تدنسه الجرائرُ، ولم تعلقْ به الصغائر والكبائرُ، قد رفع الله عنه دقيق الحساب، وَأَسْتَهَمَ له الثواب مع أهل الصواب، وألحقه بالصدِّيقين الفاضلين في المَعَادِ، وَبَوَّأَهُ حيث أفضلهم من غير سَعْيٍ ولا اجتهاد.

وأما الرئيس، فإن الله، عَزَّ وَجَلَّ، لما اختار ذلك له قبضه قبل رؤيته إياه على الحالة التي تكون معها الرقة، ومعاينته التي تتضاعف معها الحُرْقَةُ، وَحَمَاهُ من فِتْنَةِ المرافقة، ليرفعه عن جزع المفارقة، وكان هو المبقِي في دنياه، وهو الواحدُ الماضي الذخيرة لأخراه، وقد قيل: إن تسلم الجِلَّةُ فَالَسَّحُلُ هدر؛ وعزيز عليّ أن أقول قولَ المهون للأمر من بعده، وألا أوفي التوجع عليه واجبَ قَفْدِهِ، فهو له سُلاكَ، ومنه بَضْعَةٌ، ولكن ذلك طريقُ التسلية، وسبيل التعزية، والمنهَجُ المسلوک في مخاطبة مثله، ممن يقبل منفعة الذكرى وإن أغناه الاستبصار، ولا يأبى وروَدَ الموعظة، وإن كَفَّاه الاعتبار، والله تعالى يقِي الرئيسَ المصاب، ويعيِّده من النوائب، ويرعاه بعينه التي لا تنام، ويجعله في حِمَاةِ الذي لا يُرام، وَيُبْقِيهِ موفوراً غير منتقص، ويقدمنا إلى السوء أمامه، وإلى المحذور قِدَامَهُ، ويبدأ بي من بينهم في هذه الدعوة، إذ كنت أراها من أسعد أحوالي، وأَعْدُّهَا من أبلغ أمانِي وأمالي.

وكتب إلى بعض الرؤساء: قد جَرَّتِ العادةُ - أطال الله بقاءَ الأمير! - بالتمهيد للحاجة قبل موردها، وإسلاف الظنون الداعية إلى نجاحها، وسالكُ هذه السبيل بسِيءِ الظن بالمسؤول؛ فهو لا يلتبسُ فضلَه إلا جزاء، ولا يستدعي طَوْلَه إلا قضاء؛ والأميرُ بكرمه الغريب، ومذهبه البديع، يؤثر أن يكون السلفُ له، والابتداءُ منه، ويوجب للمهاجم برغبته عليه حقَّ الثقة به منه، والحمدُ لله الذي أفردَه بالطرائق الشريفة، وتوَحَّدَه بالخلائق المنيفة، وجعله عين زمانه البصيرة، ولمعته الثاقبة المنيرة.

وكتب البديع في بابه إلى بعض أصحابه: لك، أعزَّك الله، عادةٌ فضل، في كل فصل، ولنا شِبْهُ مَقْت، في كل وقت؛ ولعمري إن ذا الحاجة مَقِيْتُ الطلعة، ثقيل الوطأة، ولكن ليسوا سواء؛ وأولو حاجة تحتاج إليهم الأموال، وأولو حاجة تحوجهم الآمال.

والأمير أبو تمام عبدُ السلام بن الفضل المطيعُ لله أمير المؤمنين - أيده الله

- إن أوجه الزمان فطالما خدّمه، وإن أهانه فكثيراً ما أكرمه ونعمه. وقد يماً أقله السرير، وعرفه الخورثق والسدير. وإن نقصه المال فالعرض وأفر، وإن جفاه الملك فالفضل ظاهر، وإن ابتلاه الله فليبتليكم به فينظر كيف تفعلون. وأنت تقابلُ مورده عليك من الإعظام، بما يستحق من الإكرام، فلا تنظرن إلى ثوب بال، فتحتة شرف عال، ولا تقس على البرد، ما وراءه من المجد، ولكن إن نظرت ففي شامخ أصله، وراسخ عقله، وشهادة الفراسة له. ثم ليات بعد هذه الآيات ما هو قضية المروعة معه، والأخوة معي، بالغاً في ذلك غاية جهده، والسيف لا يرى في غمده، والحمد لله حق حمده.

وله إلى أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد بن حمزة:

لو كانت الدنيا، أطال الله بقاء الشيخ! - على مرادى تجري، لاخترت أن أضرب بهذه الحضرة أطناب عمري، وأنفق على هذه الخدمة أيام دهري، ولكن في أولاد الزنا كثرة، ولعين الزمان نظرة، وقد كنت حظيت من خدمة الشيخ المحسن بشرعة أنس نغصها بعض الوشاة عليّ، وذكر أنني اقممت بطوس بعد استئذاني إلى مَرَوْ وفي هذا ما يعلمه الشيخ، فإن رأى أن يحسن خبري بكتاب يطرز به مقدمي فعل إن شاء الله تعالى. وله في هذا الباب إلى أبي نصر الميكالي: الشيخ - أعزه الله - ملك من قلبي مكاناً فارغاً، فنزله غير منزل قلعة، ومن مودتي ثوباً سابغاً، فلبسه غير لبسة خلعة، ومن نصب تلك الشمائل شبكاً، وأرسل تلك الأخلاق شركاً، قنص الأحرار فاستحتمهم، وصاد الإخوان واسترقهم. وتالله ما يُعبئ إلا من اشترى عبداً وهو يجد حراً بارخص من العبد ثمناً، وأقل في البيع غبناً، ثم لا يهتبل غرة وجوده، وينتهز فرصة امتلاكه بجموده، وأنا أنم للشيخ على مكرمة يتيمة، ونعمة وسيمة، فليعتزل من الرأي ما كان بهيماً، وليطلق من النشاط ما كان عقيماً وليحلل حبة التقصير، وليجنب جانب التأخير، وليفتص غدّرتها، وينقض حجتها وعمرتها، برأي يجذب المجد باعه، ويعمر النشاط رباغه؛ وتلك حاجة سيدي أبي فلان وقد ورد من الشيخ بحراً، وعقد به جسراً، وما عسر وعُد هو مستنجره، ولا بعد أمر هو منتهزه، ولا ضاعت نعمة أنا بريء شكرها، وعزيم نشرها، وولي أمرها؛ وهذا الفاضل قرارة مائها، وعماد بنائها؛ وقد شاهدت من ظرفه، ما أعجز عن وصفه، وعرفت من باطنه ما لم يُدر بظاهره، ورأيت من أوله ما تم على آخره، ثم له البيت المرموق، والنسب الموموق، والأولية القديمة، والشيمة الكريمة؛ وقد جمعتنا في الودّ حلقة، ونظمتنا في السفر رفقة، وعرفني بما أنهض له وفيه، فضمنت له عن الشيخ كراماً لا يغلق بابه، وعدياً لا يُخلف سحابه؛ فليخرجني الشيخ من عهدة هذه الثقة، زادها إليه تأكيداً، وإن رأى أن أسأل الشيخ في معناه عرفني كيف المأتي له، وإنما أطلت ليعلم صدق اهتمامي، وقزط تقليدي للمنة والتزامي.

وله جواب عن صنيعه بصاحب هذه العناية: ورد فلان، سيدي، وهو عين بلدتنا وإنسانها، ومقلتها ولسانها؛ فأظهر آيات فضله لا جرم أنه وصل إلى الصميم، من الإيجاب الكريم، وهو الآن مقيم بين رُوح وريحان وجنة نعيم، تحيته فيها سلام، وآخر دعواه ذكرك وحسن الثناء عليك بما أنت أهله، وأنا أصدق دعواه؛ وأفتخر به افتخار الخصي بمتاع مولاه؟ وقد عرفته ولسننه، وكيف يجز في البلاغة رسننه، فما ظنك به، وقد ملكتها المجالس ولحظتها

العيون، وسلّ صارماً من فيه، يعيدُ شكرك ويبيدِه، وينشر ذكرك ويطويه؛  
والجماعة تمدحُ لمدحه، وتجرح بجرحه، فأريك في تحفظ أخلاقك التي  
أثمرت هذا الشكر، وأنتجت هذه المآثر الغرّ، موفقاً إن شاء الله تعالى.  
ومن إنشائه في مقامات الإسكندري، قال: حدّثنا عيسى بن هشام، قال:  
لما تَطَلَّعني الغنى بفاضل دَيْلِه، أنْهَمْت بَمالِ سَلْبُتِه، أو كَنْزِ أَصْبَتِه، فَحَقَّرَني  
الليلُ، وَسَرَّتْ بي الخيلُ. وسَلَكْتُ في هَرَبِي مَسالِكَ لم يَرُضْها السَيْرُ، ولا  
اهْتَدَتْ إليها الطَيْرُ، حتى طَوَيْت أَرْضَ الرُّغْبِ وتجاوَزْتُ حدَّه، وَصِرْتُ إلى  
جَمَى الأَمْنِ ووَجَدْتُ بَرَدَه، وَبَلِغْتُ أَذْرِبِيجانَ وَقَدْ حَفَيْتِ الرّواحِلُ، وأكَلْتُها  
المراحلُ، ولما بَلَغْتُها: الطويلُ:

نزلنا على أن المقام ثلاثة فطابت لنا حتى أقمنا شهراً  
فبينا أنا يوماً في بعض أسواقها إذ طلع رجل بركوة قد اعتضدها، وعصا قد  
اعتمدها، ودينية قد تقلستها، وفوطة قد تطيلستها؛ فرفع عقيرته وقال: اللهم  
يا مبدئ الأشياء ومعيدها، ومحبي العظام ومبيدِها، وخالق المصباح  
ومديره، وفالق الإصباح ومنيره، وموصل الآلاء سابعة إلينا، وممسك  
السماء أن تقع علينا، وبارئ التيسم أزواجاً، وجاعل الشمس سراجاً؟  
والسماء سقفاً، والأرض فراشاً، وجاعل الليل سكناً والنهار معاشاً، ومنشئ  
السحاب ثقلاً، ومرسل الصواعق نكالاً، وعالم ما فوق النجوم، وما تحت  
التخوم. أسألك الصلاة على سيد المرسلين محمد وإليه الطاهرين، وأن  
تعينني على الغربة أثنى حبلها، وعلى العسيرة أعدو ظلها، وأن تسهل لي  
على يدي من قطرته الفطرة، وأطلعته الطهرة، وسعد بالدين المتين، ولم  
يغم عن الحق المبين، راحلة تطوي هذا الطريق، وزادا يسعني والرفيق.  
قال عيسى بن هشام: فناجيت نفسي بأن هذا الرجل أفصح من إسكندريتنا  
أبي الفتح، والتفت لفته، فإذا هو أبو الفتح، فقلت: يا أبا الفتح، بلغ هذه  
الأرض كيدك، وانتهى إلى هذا الشعب صيدك؟! فأنشأ يقول: مجزوء  
الخفيف:

دِ وَجَوَابُهُ الأُفُقِ  
نِ وَعَمَّارَةُ الطَّرِيقِ  
دُ عَلَى كُدَيْتِي وَدُقِ

من الدهر إذ أهل الصفاء  
جميع

سواكين في أوكارهن وقوع  
وأيامهن الصالحات رجوع  
ومثل فراق الطاعنين يروع

أنا جواله البلا

أنا خذروقه الزما

لا تلمني لك الرش

وقال الطرماح بن حكيم: الطويل:

وما أنس م الأشياء لا أنس

بيعة

وإذ دهرنا فيه اعتزاز،

وطيرنا

فهل لليالينا بنعف مليحة

كان لم يرعك الطاعنون إلى

بلى

شعر في وصف الشباب والمشيب

وقال علي بن محمد بن الحسن العلوي: مجزوء الكامل:

ب وما ليسن من الزخارف

ن من المناكر والمعارف

وبن الصبا صدر الصحائف

واها أيام الشباب

وذهابهن بما عرف

أيام ذكرك في دوا

واهاً لآيامي وأيام الشهيات  
المَرَّاشِفُ  
الغارسات البان قُضُ  
والجاءعات البَدْرَ ما  
أيام يُظْهَرْنَ الخِلا  
وقف النعيم على الصِّبَا  
وقال ابن المعتز: الطويل:

باناً على كُثْبِ الرِّوَادِفِ  
بين الحواجبِ والسوَالِفِ  
فَ بغير نِيَّاتِ المخالِفِ  
وزلت من تِلْكَ المواقِفِ

وأَلقت قناعَ الخِرِّ عن وَاضِحِ  
الثَّغْرِ  
بِصْفَرَةِ ماء الزعفران على  
التَّحْرِ  
عنانك عن ذات الوِشاحين  
والشُدْرِ؟  
كأن هلالَ الشهرِ ليس من  
الشهرِ

دَعْنِي إلى عهد الصِّبَا رَبَّةُ  
الخَدْرِ  
وقالت وماء العين يخلطُ  
كحلِّها  
لمن تطلُّ الدنيا إذا كنت  
قابضاً  
أراك جعلت الشيب  
للَهْجَرِ عِلَّةً  
وقال أحمد بن أبي طاهر: مجزوء الكامل:

كلّفي بكاساتِ العقازِ  
ك من الشقائق والبهارِ  
رج تَحْتِ حَصْرِكَ في الإزارِ  
هك في البريَّة من نِجارِ  
وجهي بما يحكي الخمارِ  
ك فقلت ذا غير الغبارِ  
ك إلى القبور من الديارِ  
عني بحسن الاعتذارِ  
لأ مذ خلقت بلا تَهَارِ؟

يا من كَلِفْتُ بحبِّه  
وحياة ما في وجنتي  
وولوع رَدْفِكَ بالترجِ  
ما إن رأيت لحسن وج  
لما رأيت الشيب من  
قالت غبار قد علا  
هذا الذي نقل الملو  
قالت ذهبت بحجَّتِي  
يا هذه أرايت لي  
وقال خالد الكاتب: الكامل:

لما تمكَّنَ طَرْفُهَا مِنْ مَقْتَلِي  
صَدَّتْ صدودَ مُقَارِقٍ متحمِّلِ

نظرتُ إليَّ بعينٍ مَنْ لَمْ  
يَعْدِلِ  
لما رأْتُ شيباً أَلَمَّ بمفرَّقِي

والشيبُ يغمزها بالأ تَفْعَلِي

وظللتُ أطلُّبُ وَصَلَّها بتملُّقِ  
وقال ابن الرومي: الطويل:

قَصِيرُ الليالي والمشيبُ  
مخلدُ  
فقالوا: تَهَارِ الشيبِ أهدَى  
وأرشدُ  
ولكنَّ ظلَّ الليلِ أُنْدَى وأبردُ  
ومرجوعُ وهَّاجِ المصابيحِ  
رَمْدُ

كفى حَرْنَا أن الشبابِ  
معجلُ  
وعَرَأك عن ليل الشبابِ  
مَعاشِرُ  
فقلت: نهائُ المرءِ أهدَى  
لسعيهِ  
مَحَارُ الفتى شيخوخة أو  
منية

وقال: البسيط:

كان الشبابُ وقلبي فيه  
منغمسٌ  
رَوْحَ على النفسِ منه كَادَ  
يُبْرِدُهَا  
كَأَنَّ نَفْسِي كَانَتْ مِنْهُ  
سَارِحَةً  
يمضي الشبابُ ويبقى من  
لبانته  
ما كان أعظمَ عندي قَدْرَ  
نعمته  
ما كان يُورَنَ إعجابَ النساءِ  
به  
وقال: الطويل:  
إذا ما رأتكِ البيضُ صَدَّتْ،  
وَرُبَّمَا  
وما ظلمتكِ الغانياثُ  
بصدِّها  
أَعِزُّ طَرَفَكَ الْمَرَاةَ وانظر؛ فَإِنْ  
نبا  
إذا سَنَيْتِ عَيْنَ الْفَتَى سَنَيْتِ  
نفسه  
وقال كشاجم: الخفيف:  
وَقَفَّيْنِي مَا بَيْنَ حُزْنٍ وَبُوسٍ  
إِذْ رَأَيْتِنِي مَسْطُتٌ عَاجًا بَعَاجٍ  
وقال أبو نواس: الكامل:  
بكرت تبصّرني الرّشاد  
كأنني  
وتقول: وَبَحَكَ قَدْ كَبِرْتَ عَنْ  
الصَّبَا  
فإلى متى تصبو وأنت  
ميتيمٌ  
فأَجَبْتُهَا إِنْ عَرَفْتُ  
مذاهبي  
وقال أحمد بن زياد الكاتب: الطويل:  
ولمّا رأيتُ الشيبَ حلَّ  
بياضه  
ولو خِلْتُ أَنِي إِنْ تَرَكْتُ  
تحيتي  
ولكن إذا ما حلَّ كرهه  
فسامحت  
كأنّ هذا البيت ينظر إلى قول الأول: الطويل:

في لذةٍ لستُ أدري ما  
دواعيها  
بَرَدَ النسيمِ ولا ينفكُ يحييها  
في جَنَّةٍ بات ساقِي المُرْنِ  
يسقيها  
تَنَجُّوْ عَلَى النَفْسِ لَا يَنْفَكُ  
يُسْجِيهَا  
لنفسه لا لحلم كان يُصبِها  
والنفسُ أوجبَ إعجاباً بما  
فيها  
غَدَوْتُ وَطَرَفُ الْبَيْضِ نَحْوِكَ  
أَصُوْرُ  
وإن كان في أحكامها ما  
يُجَوِّرُ  
بعينك عنك الشيبُ فالبيضُ  
أعدُّ  
فَعَيْنُ سِوَاءٍ بِالشَّنَاءِ أَجْدَرُ  
وَتَتَّ بَعْدَ ضَحْكَةٍ بَعْبُوسٍ  
وَهِيَ الْآبَنُوسُ بِالْآبَنُوسِ  
لا أهتدي لمذاهب الأبرارِ  
وَرَمَى الزمانُ إليك بالأعدارِ  
متقلّبٌ في راحةِ الإقتارِ  
فصَرَفْتُ معرفتي إلى  
الإنكارِ  
بمَفَرَّقِ رَأْسِي قَلْتُ: أَهْلًا  
ومرحبا  
تَنَكَّبَ عَنِّي رُمْتُ أَنْ يَتَنَكَّبَا  
به النفسُ يوماً كان للكُرْهِ  
أَذْهَبَا

وجاشت إليّ النفس أول

مرة

أبو الطيب: الكامل:

أنكرت طارقة الحوادث مرّة

ابن الرومي: الخفيف:

لاح شئبي فصرت أمرح فيه

وتولى الشباب فازددت  
غياً

إن من ساءه الزمان

بشيء

المتنبي: الخفيف:

أتراني أسوء نفسي لماً

المتنبي: الكامل:

تصفو الحياة لجاهل أو غافل

ولمن يغالط في الحقائق

نفسه

البحري: الكامل:

يكفيك من حق تحيل باطل

وقلما تصح مغالطات أهل العقول، عند أهل التحصيل، وما أحسن ما قال الطائي:  
الخفيف:

لعب الشيب بالمفارق، بل جد  
قأبكي ثم اضراً ولعوباً

يا نسيب التغام ذنبك أبقى

لو رأى الله أن في الشيب  
فضلاً

وقد جاء في التشاغل عن الدهر وأحداثه، ونكباته، ومصائبه، وفجعته،  
والتسلي عن الهموم، بماء الكروم، شعر كثير؛ فمما يتعلق منه بذكر  
الشيب قول ابن الرومي: الطويل:

سأعرض عمّن أغرض الدهر  
دونه

فإني رأيت الكأس أكرم  
حلة

وصلت فلم تبخل عليّ  
بوصلها

ومن صارم اللذات إن خان  
بعضها

أمن بعد متوى المرء في  
بطن أمه

ولم يبق بين الضيق والضيق

فردت إلى معروفها  
فاستقرت

ثم اعترفت بها فصارت ديدنا

مرح الطرف في  
العدار المحلى

في ميادين باطلي إذ تولى

لأحق الورى بأن يتسلى

سأني الدهر؟ لا، لعمري،  
كلاً

عما مصى فيهما وما يتوقع  
وينبوؤها طلب المحال  
فيطمع

تردى به نفس اللهيف فترجع

وما أحسن ما قال الطائي:

حسناتي عند الحسان  
ذوباً

جاورته الأبرار في الخلد  
شيباً

وأشربها صرفاً وإن لام  
لوم

وقت لي ورأسي بالمشيب  
معمم

وقد بخلت بالوصل عني  
تكنم

ليزعم دهرأ ساءه فهو  
أرغم

إلى ضيق متواه من القبر  
يسلم

أبى الله! إن الله بالعبد

أرحم!

رَفَحَاكُمُّهُ إِلَى الْأَقْدَاحِ؟  
رَأَى جِدَادًا يَشْرَبُ مَاءَ قِرَاحِ  
دُونَ إِخْوَانِي الثَّقَاتِ جِرَاحِي

وإرعاءها قلبي لأهتز معجبا  
تناسي ذكرها ليتعرب  
مغربا  
لأخذل مسرورا بها  
ولأطربنا  
فأصحت مفررا من همومي  
ومهربا

وهذا كما قال في قيته وإن لم يكن من هذا الباب: البسيط:  
كأثما يؤمها يومان في  
يوم  
بذاك، بل طلبا للسُّكْرِ  
والنوم

أُتِيحَ لَهُ مِنْ بَيْنَهُنَّ  
الْأَدَاهِمُ  
وَهَنَّ لَعَيْنِي طَالِعَاتُ  
نَوَاجِمُ

فإني منها في عذاب وفي  
حزب  
وقد أخذت من دونها جارة  
الجنب  
تعلق بالجيران من شدة  
الرغب

وقد وشحت هذا الكتاب بقطع مختارة في الشيب والشباب، وجئت ههنا  
بجملة، وهذا النوع أعظم من أن نحيط به اختيارا، أو نبلغه اختبارا.  
شذور لأهل العصر

في وصف الشيب ومدحه وذمه  
دَوَى عَصْنُ شِبَابِهِ. يَدَّتْ فِي رَأْسِهِ طَلَائِعُ الْمَشِيبِ، أَخَذَ الشَّيْبُ بَعْتَانَ شِبَابِهِ، غَزَاهُ  
الشَّيْبُ بِجِيوشِهِ، طَرَزَ الشَّيْبُ شِبَابَهُ، أَقَمَرَ لَيْلُ شِبَابِهِ، أَلْجَمَهُ بِلْجَامِهِ، وَقَادَهُ بِزِمَامِهِ،  
عَلَاهُ غَبَارُ وَقَائِعِ الدَّهْرِ. وَزَنَ هَذَا لِابْنِ الْمَعْتَزِ: الْكَامِلُ:  
هذا غبارُ وَقَائِعِ الدَّهْرِ

فرجة

وقال العَطَوِيُّ: الْخَفِيفُ:

أَعَجِبْتُ إِنْ أَنَاخَ بِي الدَّه  
لَا تَرَدُّ الهمُومُ يُنْشِبُنَ أَظْفَا  
أحمد الله، صارت الكأس  
تأسو

وقال ابن الرومي ونحله بشيرا: الطويل:

وقد كنت ذا حال أطيل  
ادكارها

فبدلت حالا غير هاتيك،  
غايبي

وكنت أدير الكأس ملاء  
روية

وكانت مزيدا في سروري  
ومنتعي

وهذا كما قال في قيته وإن لم يكن من هذا الباب: البسيط:  
شاهدت في بعض ما شاهدت  
مُسْمِعَةً  
ظللثُ أَشْرَبُ بِالْأَرْطَالِ، لَا  
طَرَبًا

ومن مליح شعره في الشيب: الطويل:  
وَمِنْ نَكَدِ الدِّنْيَا إِذَا مَا تَنَكَّرْنَا مُورًا وَإِنْ  
عَدَّتْ صِغَارًا عِظَائِمُ

إِذَا رُمْتُ بِالْمَنْقَاشِ تَنَفَّ أَشَاهِبِي

يَرْوُّعُ مَنْقَاشِي نَجُومِ  
مَسَائِحِي

وقال أبو الفتح كشاجم: الطويل:

أخي، فم فعاوتي على تنف  
شيبية

إذا ما مضى المنقلاش يأتي  
بها أتت

كجان على السلطان يجري  
بذئبه

بينما هو راقد في ليل الشباب، أيقظه صبحُ المشيب. طوى مراحلَ الشباب، وأنفق عمره بغير حساب. جاوز من الشباب مراحِل، ووردَ من الشَّيب مَناهل. قَلَّ الدهرُ شَبَابًا يشابهه، وَمَحَا محاسنَ رُؤائه. قضى باكورة الشباب، وَأُنْفَقَ تَصَارَةً الزمان. أَحْلَقَ بُرْدَةَ الصَّبَا، ونهاه النهي عن الهوى. طار غرابُ شبابه. انتهى شبابه، وشبابُ أترابه. استبدل بالأدهم الأبلق، وبالغراب العَفْعَق 0 انتهى إلى أَشَدِّ الكهل، واستعاض من حَلَك الغراب بقادمة النَّسر. افْتَرَّ عن تَابِ القارح، وقرع تاجِدَ الحلم، وارتاضَ بِلجامِ الدَّهرِ، وأدرك عصر الحُنْكَه وأوان المسكة. جمع قوَّة الشباب إلى وَقَار المشيب. أسفر صبح المشيب، وَعَلَّنَه أبهة الكِبَر. خرج عن حد الحداثة؛ وارتفع عن غِرَّة العَرَّارة. تَقَضَّ حَبْرَةَ الصبا، وولَّى داعية الحجا. لما قام له الشيب مقام النصح، عدل عن علائق الحداثة بتوبة نَصُوح. الشيب حلية العقل وشيمة الوقار. الشيب زبده مَحَصَّتْهَا الأيام، وِفِصَّة سبكتها التجارب. سرى في طريق الرشيد بمصباح الشيب. عصى شياطين الشباب، وأطاع ملائكة الشَّيب. الشيخ يقول عن عيان، والشباب عن سَماع. في الشيب استحكام الوَقَار وتناهي الجلال، وميسم التجربة، وشاهد الحنكة. في الشيب مقدمة الموت والهَرَم، والمؤذن بالحَرْف، والقائد للموت. الشيبُ رسول المنية. الشيب عنوان الفساد. والموتُ ساحل، والشيبُ سفينة تقرب من الساحل. صفا فلان على طول العمر، صفاء التُّبر على شغب الجمر. لقد تناهت به الأيام تهذيباً وتحليماً، وتناهت به السنُّ تجريباً وتحنيكاً. قد وعظه الشَّيبُ بوخْطه، وخبْطه السنُّ بابنه وبسبْطه، قد تضاعفت عقودُ عمره، وأخذت الأيام من جسمه. وَجَدَ مَسَّ الكبر، ولحقه صَعْفُ الشيخوخة، وأساء إليه أثر السنِّ، واعتراض الوهن. هو من ذوي الأسنان العالية، والصحة للأيام الخالية. هو هَمُّ هَرَم، قد أخذ الزمانُ من عَقْله، كما أخذ من عمره. تَلَمَّه الدهرُ تَلَمَّ الإناءِ، وتركه كذي الغارب المنكوب، والسَّنامِ المحبوب. رماه من قوسه الكِبَر. أريق ماءُ شبابه، واستنشَّ أديمه. كسر الزمانُ جناحه، ونقض مِرَّتَه. طوى الدهر منه ما نشر، وقَيَّده الكبر، يرسف رسفان المقيد، هو شيخ مجتتَّ الجَنَّة، واهي المُنَّة، مغلول القوة ومفلول الفتوة، ثَقُلَتْ عليه الحركة؟ واختلفت إليه رسل المنية. ما هو إلا شمسُ العصر، على القصر. أركانه قد وهت، ومدَّتْه قد تناهت. هل بعد الغاية منزلة، أو بَعَدَ الشيب سوى الموت مرحلة؟ ما الذي يُرْجَى ممن كان مثله في تعاجز الخطأ، وتخاذلِ القُوَى، وتَدَانِي المدي، والتوجه إلى الدار الأخرى، أبعَد دِقَّة العظم، ورقَّة الجلد، وصَعْف الحسن، وتخاذل الأعضاء، وتفاوت الاعتدال، والقُرْب من الزوال. والذي بقي منه دَمَاء يَرْقُبُه المُنُون بِمَرْصِد، وحُشاشة هي هَامَة اليوم أو غد. قد خَلَقَ عمره، وانطوى عيشه، وبلغ ساحل الحياة، ووقف على تَبِيَّة الوداع، وأشرف على دار المقام، فلم يبق إلا أنفاسٌ معدودة، وحركات محصورة. تَصَبَّ غديرُ شَبابه.

فقر لغير واحد في المشيب

قيس بن عاصم: الشيبُ خطام المنية. أكرم بن صيفي: المَشيب عنوان الموت. الحجاج بن يوسف: الشيب نذير الآخرة. غيره: الشيبُ نومُ الموت. العتبي: الشيبُ مجمع الأمراض. العتابي: الشيبُ نذير المنية. محمود الوراق: الشيبُ أحد الميتين. ابن المعتز: الشيبُ أولَ مواعد القناء. وقال: عظم الكبير فإنه عَرَفَ الله قَبْلَهُ، ورحم الصغير فإنه أَعْرَفَ بالدنيا منك. غيره: الشيب قِتَاعُ الموت. الشيب عَمَامٌ قطره الغموم. الشيبُ قَدَى عين الشباب.

نظر سليمان بن وهب في المرأة فرأى الشيب، فقال: عَيْبٌ لا عدمناه!  
وقيل لأبي العيناء: كيف أصبحت. فقال: في داء يتمناه الناس!  
ابن المعتز: المديد:

أُنكِرْتُ شَرَّ مَشِيبي وَوَلَّتُ  
اعذري يا شرَّ شيبتي بهم  
مسلم بن الوليد: البسيط:  
الشيْبُ كرهٌ، وَكُرهٌ أَنْ  
أفارقهُ  
يَمْضِي الشَّبَابُ فيأتي بعده  
بدل

وقال آخر: مخلص البسيط:  
لو أَنْ عُمَرَ الفتي حِسَابُ  
وقال بعضهم: الطويل:  
ولي صاحب ما كنتُ أهوى  
اقترابهُ

عزيرٌ علينا أَنْ يفارقَ بعدما  
يعني الشيب، يقول: لم أكن أشتهي اقترابه،  
مجانته، لأنه لا يجانبُ إلا بالموت.  
أبو إسحاق الصابي: مجزوء الكامل:  
والعمرُ مثلُ الكاسِ ير  
أبو الفضل الميكالي: البسيط:

سب في أواخرها القَدَى  
ولا تُصِحِّحْ لِمَلامٍ سَمَعِ  
مُكْتَرِثِ  
والعمرُ من فضة والشيبُ  
من خَبَثِ  
أُمْتَعِ شَبَابَكَ مِنْ لَهْوٍ وَمِنْ  
طَرَبِ  
فخبر عُمَرَ الفتي رِيْعَانُ  
جَدَّتِهِ

في ذكر الخضاب: الخضاب أخذ الشبايين.  
عبدان الأصبهاني: الخفيف:

وهو ناعٍ منعصٌ لي حياتي  
لي أنيسٌ إلي حضور وفاتي  
ما تطلبت حلة الغانيات  
ما تُرينيه كلَّ يومٍ مرَّاتي  
سرُّهُ أَنْ يري وجوه النعاة؟  
في مشيبي شماتة لعدَّاتي  
ويعيب الخضاب قَوْمٌ، وفيه  
لا ومن يعلم السرائر إني  
إنما رُمْتُ أَنْ يُعَيِّبَ عَنِّي  
وهو ناعٍ إلي نفسي، ومن ذا  
ابن المعتز: الطويل:

ولم تتعهدها أكف الخواضبِ  
فقلت: لقد شانتك عند  
الخبائب  
رأت شبيبةً قد كُنْتُ أغفلتُ  
قصَّها  
فقلت: أشيبُ ما أرى؟  
قلت: شامهُ

الأمير أبو الفضل الميكالي: الخفيف:

فيه وجدُّ بكم سِرِّي ولوعُ  
ونصول الخضاب شيءٌ بديعُ  
قد أبى لي خضاب شبيبي  
فؤاد  
خاف أن يحدث الخضابُ

نُصُولاً

وقالوا: الخضاب من شهود الزور، والخضاب حدادُ المشيب، إن خضب الشعر، فكيف يخضب الكِبَر. الخضاب كفن الشيب.

ابن الرومي: الخفيف:

ود شيئاً إذا استشرنَّ الأديمُ

ليس تُغني شهادةُ الشَّعرِ

الأس

شاهد الخضب؟ أين ضلَّ  
الحليمُ؟!

أفیرجو مُسَوِّدٌ أن يُزَكِّي

صار إلا التَكْذِيبُ والتأثيمُ

لا لعمری ما لِلخِضابِ لَدَى  
الأبِّ

قد تولَّى به الشبابُ  
القديمُ

يدَّعي للكبير شَرَحَ شبابٍ

بأ إذا كَذَّبَ السَّوادُ  
الصمِيمُ

والسَّوادُ الدَّعيُّ أَوْجَبَ  
تَكْذِيبِي

وله أيضاً في هذا المعنى: الطويل:

مَشِيباً ولم يَأْتِ المشيبُ  
تَعْدِراً

كما لو أردنا أن نُحِيلَ شبابنا

شباباً إذا ثوبُ الشباب  
تَحَسَّرَا

كذلك يُعْنِينَا إِحالُهُ شيبنا

وأنى يكون العبدُ إلا مُدَبَّرَا؟

أبى الله تدبير ابن آدم نفسه

وقال: الكامل:

غَشُّ العَوَانِي فِي الهَوَى إِيَّاكَ

قل للمسَوِّد حين شيب:

هكذا

فكذبه في ودهن كَذَاكَ

كَذَّبَ العَوَانِي فِي سِوَادِ

عذارِهِ

أَيِّ الدَوَاهِي غَيْرَهُنَّ دَهَاكَ؟  
بل أَنْتَ وَحِكْ خَادَعْتَكُ مَتَاكَ

هِيَهَاتَ عَرَّكَ أَنْ يُقَالَ غَرَائِرُ  
لا تحسبن خَدَعْتَهُنَّ بِحِيلَةٍ

وقال أبو الطيب المتنبي: البسيط:

تَرْكُ لَوْنٍ مَشِيبِي غَيْرِ  
مَخْضُوبِ

وَمِنْ هَوَى كُلِّ مَنْ لَيْسَتْ

مُؤَوَّهَةٌ

رَغِبْتُ عَنْ شَعْرِي فِي الوَجْهِ  
مَكْذُوبِ

وَمِنْ هَوَى الصِّدْقِ فِي قَوْلِي  
وَعَادَتِهِ

مِني بَحْلَمِي الَّذِي أَعْطَتْ  
وَتَجْرِبِي

لَيْتَ الحِوَادِثَ بَاعْتَبَيْتِي الَّذِي  
أَخَذَتْ

قد يوجِد الحِلْمُ فِي الشَّبَابِ  
وَالشَّيبِ

فَمَا الحِدَاثَةُ مِنْ جِلْمٍ  
بِمَانِعَةٍ

غيره: البسيط:

سَلِّ الإِلَهَ لَهُ سِئْرًا مِنَ النَّارِ

يَا خَاضَبَ الشَّيبِ بِالحَنَاءِ

يَسْتُرُهُ

وقد سلك أبو القاسم مسلماً طريقاً قوله: الكامل:

تَقَسَّأَ يَشِيعُ عَيْسَهَا إِذْ آبَا  
وَيَقُولُ بَعْضُ القَائِلِينَ تَصَابِي

أَفْدي المِغَاضِبَةَ الَّتِي أُتْبِعْتُهَا  
وَالله لَوْلَا إِنْ يُسَقِّهَنِي الصَّبَا

لكسرت دُمْلَجَهَا لَضِيقِ  
عِتَاقِهِ  
بِنْتُمْ فَلَوْلَا أَنْ أُغِيرَ لَمَّتِي  
لَخَصِيَتْ سَبِيًّا فِي عِدَّارِي  
كَامِنًا  
وخلعته خَلَعَ النِّجَادَ مَذْمَمًا  
ولبست مَبِيضَ الجِدَادِ عَلَيْكُمْ  
وَإِذَا أَرَدْتَ إِلَى المَشِيبِ  
وَفَادَةً  
فلتأخِذَنَّ مِنَ الزَّمَانِ حَمَامَةً  
مَاذَا أَقُولُ لِرَيْبِ دَهْرٍ خَائِنٍ  
ولتدفعَنَّ إِلَى الزَّمَانِ عُرَابًا  
جَمَعَ العِدَاةَ وَفَرَّقَ الأَحْبَابَا  
وَلتَمَثُّ مِنْ فِيهَا البرودَ رُضَابَا  
عَتَبًا وَأَلْقَاكُمْ عَلَيَّ غَضَابَا  
ومحوْتُ مَحْوَ النَّفْسِ مِنْهُ  
سَبَابَا  
وَاعتصمتُ مِنْ جِلْبَابِهِ جِلْبَابَا  
لو أَنَّنِي أَجِدُ البِياضَ خِصَابَا  
فأَجْعَلُ إِلَيْهِ مَطِيئَكَ الأَحْقَابَا

من أخبار الوليد بن يزيد

وقيل للوليد بن يزيد بن عبد الملك لَمَّا غلبت عليه لَدَّاتُه، ومملكته شهواته: يا أمير المؤمنين، إن الرعيَّة ضاعَت بتضييعك أمرها، وتركك ما يجب عليك من مصلحتها. فقال: ما الذي أغفلناه من واجب حقها، وأسقطناه من مفروض ذمامها؟ أمَّا كرمنا دائم، ومعروفنا شامل، وسلطاننا قائم؟ وإنما لنا ما نحن فيه، بُسِطَ لنا في النعمة، ومُكِّنَ لنا في المكرمة، وأذلت لنا الأمة، ومُدَّتْ لنا في الحرمة، فإن تركت ما به وسع، وامتنعت عما به أنعم، كنت أنا المزيل لنعمتي بما لا ينال الرعيَّة ضرره، ولا يؤوِّدهم ثقله. يا حاجب، لا تَأَدِّنْ لأحد في الكلام.

وقال عمرو بن عتبة للوليد بن يزيد، وكان خاصًّا به: يا أمير المؤمنين، أنطقتني بالأنس، وأنا أسكت بالهيبة، وأراك تأمرنا بأشياء أنا أخافها عليك، أفأسكت مطيعاً أم أقول مشفقاً؟ قال: كل مقبول منك، معلوم فيه ثقتك، ولله فينا علمٌ غيب نحن صائرون إليه! وتعود فتقول: فقتل الوليد بعد ذلك بشهر.

الحجاج وأهل العراق

وقال عبد الملك بن مروان للحجاج: إنني استعملتك على العراق، فأخرج إليها كوميث الإزار، شديد الغرار، قليل العثار، مُنْطَوِي الخصلة، قَلِيل الثميلة، غرار النوم، طويل اليوم، واضغط الكوفة صَغُطَةً تَحْقِيقُ مِنْهَا البصرة.

وشكا الحجاج يوماً سوء طاعة أهل العراق، وسقم مذهبهم، وسخط طريقتهم، فقال له جامع المحاربي: أما إنهم لو أحبوك لأطاعوك، على أنهم ما شئتوك لبلدك، ولا لذات يدك، إلا لَمَّا تَقَمُّوه من أفعالك؛ فدع ما يُبعدهم عنك إلى ما يدينهم منك، والتمس العافية ممن دونك تُعْطِهَا ممن فوقك، وليكن إيقاعك بعد وعيدك، ووعيدك بعد وعْدك ثلاثاً.

فقال له الحجاج: والله ما أرى أن أردد بني اللخاء إلى طاعتي إلا بالسيف. فقال جامع: أيها الأمير، إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيَّار. قال الحجاج: الخيَّار يومئذ لله. قال جامع: أجل، ولكن لا ندري لمن يجعله الله. فغضب الحجاج وقال: يا هَتَاه، إنك من محارب، فقال جامع: الطويل:

وللحرب سُمِينَا وَكُنَّا  
مَحَارِبًا  
إِذَا مَا القَنَا أَمْسَى مِنَ الطعن  
أَحْمَرًا

فقال له الحجاج: والله لقد هممت أن أخلع لسانك، فأضرب به وجهك. فقال جامع: إن صدقناك أغضبتنا، وإن كذبتناك أغضبتنا الله. فقال الحجاج:

أجل، وسكن سلطانه، وشغل ببعض الأمر، وخرج جامع وانسلَّ من صفوف الناس، وانجاز إلى جبل العراق. وكان جامع لَسِيناً مُقَوَّهاً، وهو الذي يقول للحجاج حين بنى واسطاً: بَنَيْتَهَا فِي غَيْرِ بَلَدِكَ، وَأَوْرَثْتَهَا غَيْرَ وَلَدِكَ. وكان الحجَّاجُ من الفصحاء البلغاء، ويقال: ما رُئي حَصْرِيَّ أَفْصَحَ مِنَ الْحِجَّاجِ وَمِنَ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ. وكان يحبُّ أهل الجهارة والبلاغة، ويؤثرهم ويقربهم.

ولما دخل أيوب بن القُرَيْبَةِ على الحجَّاج - وكان فيمن أُسِرَ من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث بن قيس الكندي - قال له: ما أعددتَ لهذا الموقف؟ قال: ثلاثة حروف، كأنها ركبٌ وُقُوف: دُنيا، وآخرة، ومعروف. فقال له الحجَّاج: بئسما مَنَيْتَ به نفسك يا ابْنَ الْقُرَيْبَةِ، أتراني ممن تخذعه بكلامك وخطبك؟ والله لأنت أقربُ إلى الآخرة من موضع تَعْلِي هذه. قال: أَقْلَنِي عَثْرَتِي، وَأَسِغْنِي رِيقِي، فَإِنَّهُ لَا بَدَ لِلْجَوَادِ مِنْ كَبُوءَةٍ، وَالسَّيْفِ مِنْ تَبُوءَةٍ، وَالْحَلِيمِ مِنْ صَبُوءَةٍ.

قال: أنت إلى القبر أقربُ منك إلي العفو، ألسنتُ القائل وأنت تحرض جُرْبَ الشيطان، وعدو الرحمن: تغدوا بالحجاج قبل أن يتعشى بكم؟ وقد رُويت هذه اللفظة للغضبان بن القبعثري. ثم قدمه فضرب عنقه. قال الحُرَيْمِيُّ لأبي دلف وأخذه من قول ابن القُرَيْبَةِ: المِتْقَارِبُ: له كَلِمٌ فِيكَ مَعْقُولَةٌ إِزَاءَ الْقُلُوبِ كَرَكَبٍ وَقُوفٌ وَبَعَثَ الْحِجَّاجُ إِلَى عَامِلِهِ بِالْبَصْرَةِ: اخْتَرْ لِي عَشْرَةَ مِنْ عِنْدِكَ، فَاخْتَارَ رَجَالاً فِيهِمْ كَثِيرٌ مِنْ أَبِي كَثِيرٍ، وَكَانَ عَرَبِيًّا فَصِيحًا، فَقَالَ كَثِيرٌ: مَا أَرَانِي أَقْلِيْتُ مِنْ يَدِ الْحِجَّاجِ إِلَّا بِاللَّحْنِ، فَلَمَّا دَخَلْنَا عَلَيْهِ دَعَانِي فَقَالَ: مَا اسْمُكَ؟ فَقُلْتُ: كَثِيرٌ، قَالَ: ابْنُ مَنْ؟ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: إِنْ قُلْتُ ابْنَ أَبِي كَثِيرٍ لَمْ أَمِنْ أَنْ يَتَجَاوَزَهَا، قُلْتُ: ابْنُ أَبِي كَثِيرٍ، فَقَالَ: أَعَزِبْ، لَعْنُكَ اللَّهُ وَلَعْنُ مَنْ بَعَثَ مَعَكَ!! ففقر في المديح

وقال النابغة الذبياني يمدح آل جَفَنَةَ: الطويل:

ولله عينا من رأى أهل فُبيَّةٍ أضرب من عادي وأكثر نافعاً  
وأعظم أحلاماً وأكثر سيِّداً وأفضل مشفوعاً إليه  
وشافِعاً  
متى تَلْفَهُمْ لَا تَلْقَ لِلْبَيْتِ  
عورة  
فلا الضيف ممنوعاً ولا الجارِ  
صائِعاً

وأشده محمد بن سلام الجمحي للنابغة الجعدي: الطويل:

فتى كَمَلَتْ أَخْلَافُهُ غَيْرَ أَنَّهُ  
فتى تَمَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ  
صديقُهُ  
أشَمَّ طَوِيلَ السَّاعِدِينَ  
شَمَزْدَل  
ومن حُرِّ المَدْحِ وَجِيْدَ الشَّعْرِ قَوْلِ  
الْحَطِيئَةِ: الطويل:

تَزُورُ أَمْرًا يُعْطِي عَلَى الْحَمْدِ مَالَهُ  
وَمَنْ يُعْطِ أَثْمَانَ الْمُحَامِدِ  
يُحْمَدِ

يَرَى الْبَخْلَ لَا يُبْقِي عَلَى الْمَرْءِ  
مَالَهُ  
كَسُوبٌ وَمِثْلَافٌ إِذَا مَا  
سَأَلَتْهُ  
مَتَى تَأْتِيهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ  
نَارِهِ  
وسمع عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، هذا البيت فقال: ذاك رسول الله، صلى  
الله عليه وسلم، وقوله: الطويل:

وإِنْ غَضِبُوا جَاءَ الْحَفِيفَةُ  
وَالْجِدُّ  
مَنْ اللُّومِ أَوْسُدُّوا الْمَكَانَ  
الَّذِي سَدُّوا  
وإِنْ عَاهَدُوا أَوْفُوا وَإِنْ عَقَدُوا  
سَدُّوا  
وإِنْ أَنْعَمُوا لَا كَدَّرُوهَا وَلَا  
كَدُّوا  
بَنَى لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَبَنَى الْجَدُّ  
وَمَا قَلْتُ إِلَّا بِالَّذِي عَلِمْتُ  
سَعْدُ

يسوسون أحلاماً بعيداً  
أناتها  
أَقْلُوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَاً لِأَبِيكُمْ  
أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَتُّوا أَحْسَنُوا  
الْبِنَا  
وإِنْ كَانَتْ النِّعْمَاءُ فِيهِمْ جَرَّوْا  
بِهَا  
مَطَاعِينَ فِي الْهَيْجَا مَكَاشِيفُ  
لِلدَّجَى  
وتعدلني أبناء سَعْدٍ عَلَيْهِمْ

وقال منصور النمرى: الطويل:

تَرَى الْخَيْلَ يَوْمَ الْحَرْبِ  
يَطْمَأَنُّ تَحْتَهُ  
حَلَالٌ لِأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ  
تَحْرُهُ

وقال آخر: الطويل:

قَفِي بَأْسِهِ شَطْرٌ وَفِي جُودِهِ  
شَطْرٌ  
وَلَا مِنْ زُبَيْرِ الْحَرْبِ فِي أُذُنِهِ  
وَقُرُ

فَتَى دَهْرِهِ شَطْرَانِ فِيمَا  
يُنُوبُهُ  
فَلَا مِنْ بُعَاةِ الْخَيْرِ فِي عَيْنِهِ  
قَذَى

?الشارب

وقال بعضُ الظرفاء: الشرابُ أولُ الخراب، ومِفْتَاحُ كلِّ بابٍ، يَمَحَقُ الْأَمْوَالَ، وَيُذْهِبُ  
الْجَمَالَ، وَيَهْدِمُ الْمَرْوَةَ، وَيُوهِنُ الْقُوَّةَ، وَيَضَعُ الشَّرِيفَ، وَيُهِينُ الطَّرِيفَ، وَيُبْذِلُ الْعَزِيزَ،  
وَيَفْلِسُ التَّجَارَ، وَيَهْتِكُ الْأَسْتَارَ، وَيُورِثُ الشُّتَارَ.  
وقال يزيد بن محمد المهلبى: الطويل:

لَعَمْرُكَ مَا يُحْصَى عَلَى الْكَأْسِ  
شَرُّهَا  
مَرَاراً تُرِيكَ الْعَيَّ رَشِداً،  
وَتَارَةً  
وَأَنْ الصِّدِيقَ الْمَاحِضَ الْوَدَّ  
مَبْغُضُ  
وَجَرَّبْتُ إِخْوَانَ النَّبِيدِ فَقَلَمَا  
يَدُومُ لِإِخْوَانَ النَّبِيدِ إِخَاءُ

التطفيل

عوتب طفيلي على التطفيل فقال: ولله ما بُنيت المنازلُ إلا لِئُدْحَلَ، ولا نصبت الموائد إلا لِئُؤْكَل، وإني لأجمع فيها خلافاً، أدخلُ مُجالِساً، وأقعد مؤانساً، وأنبسط وإن كان ربُّ الدار عابساً؛ ولا أتكلف مَعْرَماً، ولا أنفق درهماً، ولا أتعب خادماً.  
وقال ابن الدراج الطفيلي لأصحابه: لا يهولتكم إغلاقُ الباب، ولا شدَّةُ الجِباب، وسوءُ الجواب، وعبوسُ البواب، ولا تحذيرُ الغراب، ولا منابذةُ الألقاب؛ فإنَّ ذلك صائرٌ بكم إلى محمول النوال، ومُعِين لكم عن دُلِّ السُّؤال، واحتملوا اللكزَةَ المُوَهَّنة، واللطمَةَ المزمنة، في جنب الظفرِ بالثُعْبَةِ؟ والدركُ للأمنية، والرَّموا الطَّوْرَجَةَ للمعاشرين، والخِفَّةُ للواردين والصادرين، والتملقُ للمُلهين والمطربين، والبشاشةُ للخادمين والموكلين؛ فإذا وصلتكم إلى مُرادكم فكلوا محتكرين، وأدَّخروا لغوكم مجتهدين؛ فإنكم أحقُّ بالطعام ممن دعي إليه، وأولى به ممن وُضع له، فكونوا لوقته حافظين، وفي طلبه مُشتمِّرين، واذكروا قول أبي نواس: الطويل:

لِتَخْمَسَ مَالَ اللَّهِ مِنْ كُلِّ فَاجِرٍ  
وَفِي بَطْنَةِ اللَّطِيئَاتِ أَكُولِ

هذا يقوله أبو بواس في أبيات تُسْتَنْدَرُ كُلُّهَا، ويستظرف جُلُّهَا، وهي  
وَحَيْمَةٌ تَطُورُ بِرَأْسِ مُنِيفَةٍ تَهْمُ يَدَا مَنْ رَامَهَا بِرَلِيلِ  
إِذَا عَارَضَتْهَا الشَّمْسُ فَاءَتْ  
ظِلَالُهَا  
حَطَّطْنَا بِهَا الْأَثْقَالَ قَلَّ  
هَجِيرَةٌ  
تَأْتَتْ قَلِيلًا تَمَّ فَاءَتْ بِمَدَقَةٍ  
كَأَنَّ لَدَيْهَا بَيْنَ عِطْفِي  
تَعَامَةٍ  
حَلَبْتُ لِأَصْحَابِي بِهَا دِرَّةَ  
الصَّبَا  
إِذَا مَا أَتَتْ دُونَ اللَّهَاءِ مِنْ  
الْفَتَى  
فَلَمَّا تَوَاقَى اللَّيْلُ جُنْحًا مِنْ  
الدُّجَى  
وَأَعْطَيْتَ مَنْ أَهْوَى الْحَدِيثَ  
كَمَا بَدَا  
فَغَنَى وَقَدْ وَسَّدَتْ يُسْرَايَ  
حَدَّهُ  
فَأَنْزَلْتُ حَاجَاتِي بِحِقْوِي  
مُسَاعِدِي  
فَأَصْبَحْتَ أَلْحَى السُّكَّرِ  
وَالسُّكَّرِ مُحَسَّنُ  
كَفَى حَزَنًا أَنْ الْجَوَادَ مَقْتَرُ  
سَأْبَغِي الْغِنَى إِمَّا وَزِيرُ  
خَلِيفَةُ  
بِكُلِّ فَنَى لَا يُسْتَطَارُ فَوَادُهُ إِذَا نَوَّهَ الزُّحْفَانَ بِاسْمِ

قتيل

وذي بطنَةٍ للطيبات أكل  
وَأَيْسَ جَوَادُ مُعْدِمِ كَبْخِيلِ

لَتَحْمُسَ مَالِ اللَّهِ مِنْ كُلِّ  
فَاجِرٍ  
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَالَ عَوْنٌ عَلَى  
التُّقَى

ألفاظ لأهل العصر

في صفة الطفيليين والأكلة وغيرهم  
شيطان مَعْدَتِهِ رَجِيمٌ، وسلطانها ظلوم. هو آكُلُ مِنَ النَّارِ، وَأَشْرَبُ مِنَ  
الرَّمْلِ. لو أكل الفيل ما كَفَاهُ، ولو شرب النيل ما أَرْوَاهُ، يجوبُ البلادَ، حتى  
يقع على جَفَنَةِ جَوَادٍ. يرى ركوبَ البريدِ، في حضور التَّريْدِ أَصَابِعَهُ أَلْزَمَ  
لِلشَّوَاءِ، من سَفُودِ الشَّوَاءِ وَأَنَامِلِهِ كَالشَّبِكَةِ، في صيد السمكة. هو أَجْوَعُ مِنْ  
ذئبِ مُعْتَسِ بَيْنِ أَعَارِيْبِ. العيون قد تقلبت، والأكباد قد تلهبت، والأفواه قد  
تحلبت. امتدت إلى الخوان الأعناق، واحتدت نحوه الأحداق، وتحلبت له  
الأشداق.

وصف طائر؟

سأل المهدي صباح بن خاقان عن طائر له جاء من آفاق الغابة فقال: يا  
أمير المؤمنين، لو لم يَبْنُ بِحَسَنِ الصِّفَةِ لَيَانَ بِحَسَنِ الصُّورَةِ. قال: صِفْهُ  
لي. قال: نعم، يا أمير المؤمنين، قُدَّ قَدَّ الْجَلْمِ، وَقَوِّمَ تَقْوِيمَ الْقَلَمِ، يَنْظُرُ  
مِنْ جَمْرَتَيْنِ، وَيَلْفِظُ بَدْرَتَيْنِ، وَيَمْشِي عَلَى عَقِيقَتَيْنِ، تَكْفِيهِ الْحَبَّةُ، وَثُرُوبُهُ  
الْعُبَّةُ، إِنْ كَانَ فِي قَفْصِ قَلْقِهِ، أَوْ تَحْتَ ثَوْبِ خَرْقِهِ، إِذَا أَقْبَلَ قَدَيْتَاهُ، وَإِذَا  
أَدْبَرَ حَمِينَاهُ.

? من أخبار المهدي: ودخل عبد الله بن مصعب الزبيري على المهدي،  
فقال: وبحك ب زبيري؛ دَخَلْتُ عَلَى الْخِزْرَانَ، فَلَمَّا قَامَتْ لِتُصَلِّحَ مِنْ  
شَأْنِهَا نَظَرْتُ إِلَى حُسْنِهِ! فقلت: يا أمير المؤمنين؛ أدركك في ذلك ما  
أدرك المخزومي حيث قال: الخفيف: ?بينما نحنُ بالبلاكِثِ بالقاعِ سِرَاعاً  
والعيسُ تَهْوِي هُوِيّاً

حَظَرْتُ حَظْرَةً عَلَى الْقَلْبِ  
مِنْ ذَلِكَ

قُلْ وَلِلْحَادِيثَيْنِ: كُرًّا الْمُطِيبًا  
الشُّو

فأمر فرفعت الستور عن حُسْنِهِ.

ثم قال لي: يا زبيري، واسوأناه من الخيزران! ثم انثنى راجعاً إليها فقلت: يا أمير  
المؤمنين، أدركك في هذا ما أدرك جميلاً حيث يقول: الطويل:

وَأُنَيْتِ التِّي حَبَبَتِ شَعْباً إِلَى  
بَدَأَ

بِهَذَا فطاب الواديان كلاهما  
فدخل على الخيزران، فما لبث أن خرج، قال الزبيري: فدخلت، فقال: أنشدني  
فأنشدته لصخر بن الجعد: الطويل:

عقدنا لكأس موثقاً لا  
نخونها

هنئناً لكأس جدّها الحيل  
بعدها  
وإشماؤها الأعداء لما تآلبوا  
ضغونها

فإن تصبحي وكتت عيني  
بالبكا  
فإن حراماً أن أخونك ما  
دعا  
وما طرد الليلُ النهار، وما  
دَعَتْ

وأشمت أعدائي فقرت  
عيونها

بيليل فمرئي الحمامِ وجونها

على قنٍ وزقاءٍ شاكٍ رينها

فأمر لي على كل بيت بألف دينار، وكانت الخيزران وحسنة أحطى النساء  
عند المهدي.

وصف الغلام؟

ووصف اليوسفي غلاماً فقال: كان يعرفُ المراد باللحظ، كما يعرفه باللفظ، ويُعابنُ في  
الناظر، ما يجري في خاطر، أقرب إلى داعيه، من يد مُعاطيه؛ حديدُ الذهن، ثاقبُ  
الفهم، خفيفُ الجسم، يُغنيك عن الملامة، ولا يحوجك إلى الاستزادة.  
وقال أبو نواس: الطويل:

إذا ما انثنى من لينه فصَح  
العُصنا

جعلت له عيني لتفهمه أدتا

ومنتظر رجع الحديث  
يطرفه

إذا جعل اللحظ الخفي  
كلامه

وقال: الطويل:

فقد كدث لا يخفى عليَّ  
ضمير

قال: المتقارب:  
فأقلنت بالهجر منهم نصيبي  
صديق العيان عدو المغيب  
فإن العيون وجوه القلوب

عليه من اللحظ الخفي  
دليل

ففي اللّحظ والألفاظ منه  
رسول

وإني لطرّف العين بالعين  
راجر

وقد طرق هذا المعنى وإن لم يكن منه من  
بلوّه أخلاء هذا الزمان  
وكلهم إن تصفحته  
تفقد مساقط لحظ المريب  
وهو كقول المهدي: الطويل:

ومطلّع من نفسه ما يسرّه

إذا القلب لم يُبدِ الذي في  
ضميره

بين خالد بن صفوان وعلي بن الجهم؟

ودخل خالد بن صفوان على علي بن الجهم بن أبي حذيفة، فألفاه يريد  
الركوب، فقرب إليه حمار ليركبه، فقال خالد: أما علمت أن العير عار،  
والحمار سنار، منكر الصوت، قبيح القوت، مُتزلج في الصّحل، مرتطم في  
الوحد، ليس بركوبه فحل، ولا بمطيّة رَحْل، راكبه مقرّف، ومسايره  
مُشرف.

فاستوحش ابن أبي حذيفة من ركوب الحمار ونزل عنه، وركب فرساً ودُفع  
الحمار إلى خالد فركبه، فقال له: وبحك يا خالد! أتتني عن شيء وتأتي  
مثله؟ فقال: أصلحك الله! عير من بنات الكُرّيال، واضح السربال، مختلج  
القوائم، يحمل الرّجّلة، وبلغ العقبة، ويمعني أن أكون جباراً عنيداً، إن لم  
أعترف بمكاني فقد ضللت إذا وما أنا من المهتهدين.

تنقل الزمان؟

قال ابن داب: خرجت مع بعض الأمراء في سفر إلى الشام، فمرّ بي رجل كنت أعرفه  
حسن الحال من أصحاب الأموال الطاهرة في حال رثّة، فسلم عليّ فقلت: ما الذي

غَيَّرَ حَالِكَ. فَقَالَ: تَنْفُلُ الزَّمَانَ، وَكَثُرَ الْحَدَّثَانُ؛ فَآثَرْتُ الضَّرْبَ فِي الْبُلْدَانِ، وَالْبُعْدَ عَنِ  
المعارف والحُلاَّنِ، وَقَدْ كَانَ الْأَمِيرُ الَّذِي أَنْتَ مَعَهُ صَدِيقًا لِي فَاخْتَرْتُ الْبُعْدَ مِنَ  
الأشكالِ، حِينَ حَصَّنِي الْإِقْلَالَ، وَاسْتَعْمَلْتُ قَوْلَ الشَّاعِرِ: الطَّوِيلِ:

سَأَعْمِلُ نَصَّ الْعَيْسِ حَتَّى  
يَكْفِيَنِي

قَلِّمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ يُرَى  
لَهَا

مَتَى يَتَكَلَّمُ يَلْعَ خُكْمُ كَلَامِهِ  
وَإِنْ لَمْ يَقُلْ قَالُوا عَدِيمٌ  
بَيَانٍ

كَأَنَّ الْفَتَى فِي أَهْلِهِ بورك  
الفتى

قال ابن دَاب: فَلَمَّا اجْتَمَعَتْ مَعَ الْأَمِيرِ فِي الْمَنْزِلِ وَصَفْتُ لَهُ الرَّجُلَ، فَقَالَ  
لِي: وَبِحُكِّ! اطْلُبْهُ حَتَّى أَصْلِحَ مِنْ حَالِهِ، فَطَلَبْتَهُ فَأَعْوَزَنِي.  
باب الرثاء

وقال أبو الشيبان يرثي قتيلاً الخفيف:

حَتَلْتُهُ الْمَنُونُ بَعْدَ اخْتِيَالِ  
فِي رِذَاءٍ مِنَ الصَّفِيحِ صَقِيلِ

وقال حارثة بن بدر العُداني يرثي زياداً البسيط:

عِنْدَ الثَّوْبَةِ يُسْقَى فَوْقَهُ  
المُورُ

تَهْدِي إِلَيْهِ قَرِيشُ نَعَشَ  
سَيِّدِهَا

أَبَا الْمَغِيرَةَ، وَالدُّنْيَا  
مَفْجَعَةَ

قَدْ كَانَ عِنْدَكَ لِلْمَعْرُوفِ  
عَارِقَةً

وَكَنتَ تُعْطِي الْمَالَ  
مِنْ سَعَةٍ

وَلَا تَلِينُ إِذَا عَوِشِرْتَ  
مَعْتَسِرًا

لَمْ يَعْرفِ النَّاسُ مَذْعَبَتَ  
فَتِيَّتِهِمْ

فَالنَّاسُ بَعْدَكَ قَدْ خَفَّتْ  
حُلُومُهُمْ

أخذ هذا البيت من قول مهلهل بن ربيعة في أخيه كليب، وكان إذا انتدى لم تحلَّ حَبُوتُهُ،  
ولم ينطق أحد إلا مجيباً له، إجلالاً ومهابة: الكامل:

أَبْنَيْتُ أَنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أوقدت  
وَأَسْتَبَّ بَعْدَكَ يَا كَلِيبُ  
المَجْلِسُ

وَتَحَدَّثُوا فِي أَمْرِ كُلِّ  
عَظِيمَةٍ

وكان حارثة دَا بيان وجَهارة وأدب، وكان شاعراً عالماً بالأخبار والأنساب،  
وكان قد غلب على زياد، وكان حارثة منهوماً في الشراب، فَعُوتَبَ زيادُ في

الاستيثار به، فقال: كيف أطرح رجلاً يسايرني مذ دخلت العراق، ولم يصكك ركابهُ ركابي، ولا تقدمني فنظرت إلى قفاه، ولا تأخر عني فلويت عنقي إليه، ولا أخذ عليّ الشمس في شتاء قط، ولا الرّوح في صيف، ولا سألته عن باب في العلم إلا قدّرت أنه لا يحسن غيره.  
وقال له زياد: من أخطب؟ أنا أم أنت؟ فقال: الأمير أخطب إذا تَوَعَّد أو وعد، وبرق ورعد، وأنا أخطب في الوفادة، والثناء، والتحبير، وأنا أكذب إذا خطبت، وأحشو كلامي بزيادات مليحة، شهية، والأمير يقصد إلى الحق، وميزان العدل، ولا يزيد في كلامه، ولا ينقص منه.  
فقال له زياد: قاتلك الله، لقد أجدت تخلص صفتي وصفتك.  
ولما مات زياد جفاه عبيدُ الله ابنه، فقال له حارثة: أيها الأمير، ما هذا الجفاء مع معرفتك بالحال عند أبي المغيرة؟ فقال له عبيد الله: إن أبا المغيرة بلغ مبلغاً لا يلحقه فيه عيب، وأنا أنسب إلى من يغلب عليّ، وأنت تُديمُ الشراب، وأنا حديثُ السن؛ فمتى قرّبتك فظهرت منك رائحة الشراب لم آمن أن يُظنّ بي ذلك، فدع الشراب وكن أول داخل وآخر خارج.

فقال له حارثة: أنا لا أدعه لمن يملك ضرّي وتفعي، أَدَعُهُ للحال عندك؟ ولكن صرّفتني في بعض أعمالك. فولاه سُرق من بلاد الأهواز.  
وقال أبو الأسود الدؤلي، وكان صديقاً لحارثة: الطويل:

أحار بن بدرٍ، قد وليت ولايةً  
ولا تدعن للناس شيئاً  
تصيبه  
فما الناس إلا قائل  
فمكدبٌ

فكن جرداً فيها تخون  
وتسرق  
فحظك من ملك العراقين  
سرق  
يقول بما يهوى وإما مُصدّق  
فإن قيل هاتوا حققوا لم  
يحققوا

يقولون أقوالاً بظنّ وتهمة

فقال له حارثة: الطويل:

جزاك إله العرش خير جزائه  
أمرت بشيء لو أمرت  
بغيره  
?وصف امرأة

فقد قلت معروفاً وأوصيت  
كافياً  
لألفيتني فيه لأمرك عاصياً

قال الأصمعي: سمعت امرأة من العرب تصف امرأة وهي تقول: سَطَعَاءَ بَصَّةٌ، بِيضَاءَ غَصَّةٌ، عَزْمَاءَ رَحْصَةً، قَبَاءَ طَفْلَةً، تنظر بعيني شادن طمان، وتبسم عن مُتَوَّرِ الأُفْحْوَانِ، في غبّ الثّهان، وتشير بأساريع الكُتبان، خلقها عميم، وكلامها رخم، فهي كما قال الشاعر: الرجز:

كانها في القمص الرقاق  
أعجلها الشاوي عن الإحراق  
مُحَّة ساق بين كفي ساق

ووصف أعرابي امرأة يحبها فقال: هي زينة في الحضور، وباب من أبواب السرور، ولذكرها في المغيب، والبعد من الرقيب، أشهى إلينا من كل ولد ونسيب، وبها عرفت فضل الحور العين، واشتقت بها إليهن يوم الدين.  
عود إلى كلام الأعراب

وسئل أعرابي عن سفر أكدي فيه، فقال: ما غنمنا إلا ما قَصَرْنَا من صلاتنا، فأما ما أكلته منا الهواجر، ولقيته منا الأباغر، فأمر استخففناه، لما أَمَلْنَاهُ. وقال عبد قيس بن حُفَاف البرجمي لحاتم الطائي، وقد وَفَدَ عليه في دماء حملها، قام ببعضها وعجز عن بعض: إني حملت دماء عَوَّلْتُ فيها على مالي وأمالي، فأما مالي فقدَّمته، وكنت أكبر أمالي، فإن تحمّلها فكم من حق قضيت، وهمّ كفيت، وإن حال دون ذلك حائل لم أذمم يومك، ولم أيس من عَدَلِك.

وقيل لأعرابي: لم لا تَصْرِبُ في البلاد؟ فقال: يمنعني من ذلك طفل بارك، وِلصّ سافك، ثم إني لست مع ذلك واثقاً يُنْجِحُ طَلِبَتِي، ولا معتقداً بقضاء حاجتي، ولا راجياً عطف قرابتي؛ لأنني أقدم على قوم أطعاهم الشيطان، واستمالهم السلطان، وساعدهم الزمان، وأسكرتهم حدائة الأسنان. وخرج المهدي بعد هذاه من الليل يطوف بالبيت، فسمع أعرابية من جانب المسجد تقول: قوم متظلمون، تبت عنهم العيون، وفدحتهم الدُّيون؛ وعصّتهم السنون، باد رجالهم، وذهبت أموالهم، وكثر عيالهم، أبناء سبيل، وأنصاء طريق، وصية الله، ووصية رسول الله، فهل أمرٌ بخير، كلاه الله في سقره، وخلفه في أهله. فأمر نصرأ الخادم، فدفع إليها خمسمائة درهم. من إنشاء بديع الزمان

ومن إنشاء البديع في مقامات أبي الفتح الإسكندري: حدثني عيسى بن هشام قال: كنت ببغداد، في وقت الأزاذ؛ فخرجت إلى السوق أعتام من أنواعه، لابتياغه، فسرت غير بعيد إلى رجل قد أخذ أنواع الفواكه وصفّفاها، وجمع أنواع الرطب وصفّفاها؛ فقبضت من كل شيء أحسنه، وقرضت من كل نوع أجوده؛ وحين جمعت حواشي الإزار على تلك الأوزار، أخذت عيناى رجلاً قد لف رأسه ببرقع، حياء، ونصب جسده، وبسط يده؛ واحتصن عياله، وتابط أطفاله، وهو يقول بصوت يدق الضعف في صدره والحرص في ظهره: لرجز:

أَوْ شَحْمَةٌ تُصْرَبُ بِالذَّقِيقِ  
تَفْتَأُ عَنَّا سَطَوَاتِ الرِّيقِ

ويلى على كفين من سويق  
أو قصعة ثملاً من خرديق

يا رازق الثروة بعد الضيق  
ذي حسب في مجده عريق  
يُنْقِذُ عَيْشِي من يد الترنيق

ثقيمنا عن منهج الطريق  
سهل على كف فتى لبيق  
يُهدي إلينا قدم التوفيق

قال عيسى بن هشام: فأخذت من فاضل الكيس أخذةً وأتته إياها، فقال: الرجز:

أَفْضَى إلى الله يحسن سرّه  
إن كان لا طاقة لي بشكره

يا من حباني بجميل برّه  
وأستحفظ الله جميل ستره  
فأله ربّي من وراء أمره

قال عيسى بن هشام: فقلت: إنّ في الكيس فضلاً، فابرز لي عن باطنك أخرج لك عن آخره، فأماط لثامه، فإذا شيخنا أبو الفتح الإسكندري، فقلت: ويحك! أي داهية أنت. فقال: مجزوء الوافر:

على الناس وتموئها  
عنى حال فأحكيها  
ويوماً شررتي فيها

تُقَصِّى العمر تشبيهاً  
أرى الأيام لا تبقى  
فيوماً شرّها في

من رسائل بديع الزمان

وسأل البديع أبا نصر بن المرزبان - عارياً - بعض ما يتجمل به، فأمسك عن إجابته؛ فأعاد الكتاب إليه بما نسخته: لا أزال - أطال الله تعالى بقاء مولانا الشيخ! - لسوء الانتقاد، وحسن الاعتقاد، أمسح جبين الخجل، وأمد يمين العجل، ولضعف الحاسنة، في الفراسة، أحسب الورم شحماً، والسراب شراباً، حتى إذا تجشمت موارده، لأشرب بارده، لم أجد شيئاً.

وما حسبت الشيخ سيدي ممن لعنيه هذه الجملة حتى عرضت على النار عودَه، ونشرت بالسؤال جودَه، وكاتبته أستعيره جلية جمال، سحابة يوم أو شطرَه، بل مسافة ميل أو قدرَه، فعاص في الفطنة غوصاً عميقاً، ونظر في الكيس نظراً دقيقاً، وقال: هذا رجل مشحوذ المذبة، في أبواب الكذبة، قد جعل استعارة الأغلاق طريقاً افتراسها، وسبب احتباسها، وقد متى ضرسه، وحدت بالمحال نفسه، ولا لطيفة في هذا الباب، أحسن من التغافل عن الجواب، فضلاً عن الإيجاب، وكلاهما في أبواب الرد أقبح مما قرع، ولا في شرايع البخل أوحش مما شرع؛ ثم العذر له من جهتي مبسوط إن بسطه الفصل، ومقبوك إن قبله المجد، وإنما كاتبته لأعيد الحال القديمة، وأشترط له على نفسي أن أريحه من سؤم الحاجات من بعد، فمن لم يستحي من أعطيني، لم يستحي له من أعفني؛ وعلى حسب جوابه أجري الموودة فيما بعد، فإن رأى أن يجيب فعل إن شاء الله.

وله إلى سهل بن محمد بن سليمان: أنا إذا طوبت عن خدمة مولاي - أطال الله بقاءه - يوماً لم أرفع له بصري، ولم أعده من عمري، وكأني بالشيخ - أعزه الله - إذا أغفلت مفروض خدمته، من قصد حضرته، والمثول في حاشيته، وجملة غاشيته، يقول: إن هذا الجائع لماً شبع تضرع، واكتسى وتلفع، وتجلل وتبرقع، تربع وترقع، فما يطوف بهذا الجناب، ولا يطهر بهذا الباب؛ وأنا الرجل الذي أواه من قفر، وأغناه من قفر، وأمنه من خوف، إذ لا حرر بوالي خوف؛ حتى إذا وردت عليه رفعتي هذه، وأغارها طرف كرمه، وطرف شيمه، ونظر في عنوانها اسمي قال: بعداً وسحقاً، وسباً وتباً وحتاً ونحتاً، وطعناً ولعناً، فما أكذب سراب أخلاقه، وأكثر أسراب نفاقه، فالآن أنحل من عقدته، وانتبه من رقدته. وكاتبني يستعيدني، كلاً لا أروجه الرضا ولا قلامه، ولا أمنحه المني ولا كرامه، بل أدعه يركب رأسه، ويقاسي أنفاسه، فستأينني به الليالي، والكيس الخالي، ثم أريه ميزان قدره، وأذيقه وبال أمره، خي إذا بلغ موضع الحاجة من الرقعة قال: مأربه لا حقاوة، ووطر ساقه، لا نراع ساقه، فهذا بدأ، ولا أبعد من تلك الهمم العالية، والأخلاق السامية أن يقول: مرحباً بالرقعة وكاتبها، وأهلاً بالمخاطبة وصاحبها وقضاء الحاجة بإنحائها، وإبرازها، وهي الرقعة التي سألت إلى من التمسته، كما اقترحت بما طالبت، فرأيه فيه موفق إن شاء الله تعالى.

وله أيضاً إلى بعض الرؤساء يسأله إطلاق محبوس بسببه.

الشيخ - أطال الله بقاءه - إذا وصل يدي بيده لم أمس الجوزاء، إلا قاعداً، وقد تاطها منة في عُقُ الدهر، وصاعها إكليلاً لجبين الشكر. وما أقصر يدي عن الجزاء، ولساني عن الثناء. وهذا الجاهل قد عرف نفسه، وقلع ضرسه، وراي ميزان قدره، وذاق وبال أمره، وجهز إلي كتيبة عجائز عاجزات؛ فأطلق العويل والأليل، وبعثني شفيعاً إلي، واستعني بي علي، وتوسلني بكلمة الاستيسلام، ولحمة الإسلام، في فك هذا الغلام؛ فإن أحب الشيخ أن يجمع في الطول بين الحوض والكوتر، وينظم في الفصل ما بين الروض

والمطر، يثبغ في إطلاقه مَكَارِمَهُ، وشَرَّفَ بذلك خادمه، وأنجزنا بالإفراج عنه، مُوَفَّقاً إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

تسامح المأمون

وقال رجل لإبراهيم بن المهدي: اشفَعْ لي إلى أمير المؤمنين في قَلِّ أَخِي من حَبْسِهِ، وكان محبوساً في عِدَادِ الْعُصَاةِ، فقال للمأمون: ليس للعاصي بعد القُدْرَةَ عليه دَنَبٌ، وليس للمصاب بعد الملك عذر. فقال: صدقت، فما طَلَبْتِكَ؟ قال: فلان هَبْه لي. قال: هولك.

وسأل أبو عيادة أحمد بن أبي خالد أن يطلق له أسارى، ففعل، فقال له: قد فككنا أسْرَاكَ. فقال: لا فَكَّ اللهُ رِقَابَ الأحرار من أياديك!.

ألفاظ لأهل العصر

في التهنة بالإطلاق من الأسر

الحمْدُ لله حَمْدَ الإِخْلَاصِ، على حسن الخَلَاصِ، الذي أفضى بك من ذَلَّةِ رِقٍّ، إلى عَرَّةِ عِنَقٍ، ومن تَصْلِيَةِ جحيم، إلى جَنَّةِ نعيم. خَرَجَ من العِقَالِ، خروج السيفِ مِنَ الصِّقَالِ. خرج من إيساره، خروج البَدْرِ من سِرَارِهِ. الحمدُ لله الذي فَكَّ أسْرًا، وجعل من بعد العُسْرِ يُسْرًا. خرج من البلاء، خروج السيف من الجلاء. قد جعل الله لك من مَصَائِقِ الأمور مخرجاً تَجِيحاً، ومن مغالِقِ الأهوال مَسْرَحاً فسيحاً.

باب المديح

مدح أبو نواس الأمين محمداً في أول خلافته بقصيدته التي يقول فيها: البسيط:

أقول والعيسُ تَعْرُورِي القَلَاةِ      صُغِرَ الأَرْزَمَةُ من مَثْنِي  
بنا

يا ناقٍ، لا تسأمي أو تَبْلُغي      تقبيلُ راحته والرُّكْنِ سِيَّانِ  
مَلِكَا

مقابلاً بين أَمْلَاكِ تَفَضُّله      ولا دتان من المنصورِ ثِنْتَانِ  
متى تُحْطِي إليه الرَّحْلُ      تَسْتَجْمِعِي الخلقَ في تمثالِ  
سالمَةَ      إنسانِ

قال الحسن: هذا لأنَّ محمداً ولدهُ المنصور مرتين من قَبْلِ أن أباه هارون الرشيد بن المهدي بن أبي جعفر المنصور، ومن قَبْلِ أن أمه أمة العزيز بنت جعفر بن أبي جعفر، المنصور، وكان المنصور دخل عليها وهي طفلة تلعب، فقال: ما أنت إلا زُبَيْدَةٌ، فغلب عليها هذا اللقب، ولم يَلِ الخِلافةَ من أبواه هاشميان غير علي بن أبي طالب وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، وابنه الحسن، وأمه فاطمة بنت النبي، صلى الله عليه وسلم، والأمين محمد بن الرشيد.

رجع القول - فلماً أنشده القصيدة قال: ما ينبغي أن يُسْمَعَ مدْحُك بعد قولك في الخصب بن عبد الحميد: الطويل:

إذا لم تَرُزْ أرضَ الخصبِ      فأَيُّ فَنَى بَعَدَ الخصبِ  
رِكَابُنَا      تزورُ؟

فَنَى يَشْتَرِي حُسْنَ الثناء      وَيَعْلَمُ أن الدائِرَاتِ تدورُ  
بمالِهِ

فما فاته جوْدٌ، ولا حَلٌّ دونه      ولكنْ يسيِرُ الجودِ حيث  
يسيِرُ

فقال: يا أمير المؤمنين، كلُّ مدح في الخصب وغيره فَمَدْحٌ فيك؛ لأنِّي أقول، ثم أرتجل: الطويل:

ملكْتَ على طير السعادة      وجاءت لك العلياءُ مُقْتَبِلِ

والْيُمْنِ  
بمحميا وجود الدين تحيا مهناً  
السِّنِّ  
بحسن وإحسان مع اليُمن  
والأْمْنِ  
ولقد طابت الدنيا بطيبِ  
ثَنائه  
لقد فكَّ أرقاب العُفَاة  
محمداً  
إذا نحنُ أثنيْنَا عليكِ بصالحِ  
فَأنتِ كما تُثني وفوق الذي  
تُثني  
وإن جَرَّت الألفاظُ يوماً  
بِمِدْحَةٍ  
قال: صدقت، مَدِّحٌ عبيد مدحٌ لي؛ ووَصَلَهُ وَقَرَّبَهُ.  
وأما قول أبي نواس:  
إذا نحنُ أثنيْنَا عليكِ بصالحِ  
فمن قول الخنساء: الطويل:  
فما بلغ المُهْدُونَ للناسِ  
مِدْحَةً  
وما بلغتُ كَفُّ امرئ متناوِلاً  
وإن أطنبوا إلا الذي فيكِ  
أفصَلُ  
من المجد إلا والذي نِلتُ  
أطوَلُ

وفد الأخطل على معاوية، فقال: إني قد امتدحْتُك بأبيات فاسمَعْها، فقال:  
إن كنت سَبَّهْتَنِي بالحَيَّة، أو الأسد، أو الصقر، فلا حاجة لي بها، وإن كنت  
قلت كما قالت الخنساء، وأنشد البيتين، فقل. فقال الأخطل: والله لقد  
أحسنتُ، وقد قلت فيك بيتين ما هما بدونهما، ثم أنشد: الطويل:  
إذا مُتَّ مات العُزْفُ وانقطع  
فلم يبق إلا من قليل  
التَدَى  
مُصَرِّدٌ  
وَرُدَّتْ أَكْفُ السائلين  
عن الدين والدنيا بحزن  
وَأمسكوا  
مجدِّدٌ  
وقول أبي نواس:

وإن جَرَّت الألفاظُ يوماً بِمِدْحَةٍ  
من قول كثير في عبد العزيز بن مروان: الطويل:  
مَتى ما أَقْلُ في سالفِ الدهرِ  
فما هي إلا لابن ليلي  
مِدْحَةً  
المعْظَمِ  
وقال الفرزدق: الطويل:

وما أمرتني النفس في رِحْلَةٍ  
إلى أَحَدٍ إلا إليك صَمِيرُهَا  
لها  
ولما أنشد أبو تمام أحمد بن أبي دُواد قصيدته: الوافر:  
سقى عَهْدَ الحمى صوبَ العِهَادِ  
وانتهى إلى قوله:

وما سافرْتُ في الآفاقِ إلا  
ومِنْ جَدْوَاكِ راجِلَتِي وزادِي  
مُقيمُ الظنِّ عندكِ والأمانِي  
وإن قَلِقْتُ رِكابِي في البلادِ  
قال له ابن أبي دُواد: هذا المعنى لك أو أخذته؟ قال: هو لي، وقد ألممت فيه بقول أبي  
نواس:

وَإِنْ جَرَّتِ الْأَلْفَاظُ يَوْمًا  
بِمُدْحَةٍ  
وأخذه المتنبي فقال: الوافر:  
أَشْرَتْ أبا الْحُسَيْنِ بِمَدْحِ  
قَوْمِ  
وطلّوني مَدْحُهُمْ قَدِيمًا  
وأما قول أبي تمام: وما سافرتُ في الآفاق - البيت فمن قول المثقب العبدى، وذكر  
ناقته: الوافر:

إلى عَمْرٍو بن حمدانِ أبنيني  
وأما قولُ أبي نواس:  
فما فاتهُ جود ولا حَلَّ دونه  
البيت، فمن قول الشمردل بن شريك اليربوعي: البسيط:  
ما قَصَّرَ المجدُّ عنكم يا بني  
حكم  
يحل حيث حلّتم لا  
يريمكم  
إن يشهدوا يوجد المعروف  
عندهم  
وقد قال الكميت الأسلمي: المتقارب:

يسير أبان قريع السما  
وقول أبي نواس أيضاً:  
فَتَى يَشْتَرِي حُسْنَ الثناء بماله  
مأخوذ من قول الراعي: الطويل:  
فتى يشتري حُسْنَ الثناء  
بماليه  
بين السفاح وأبي نخيلة  
دخل أبو نُخَيْلَةَ على أبي العباس السفاح، فاستأذنه في الإنشاد، فقال: لعنك الله!  
ألسن القائل لمسلمة بن عبد الملك: الطويل:

أمسلمةُ يا تَجَلَّ خَيْرِ  
خليفةُ  
شكرتك إن الشكر حَبْلٌ من  
التقى  
وألقيت لما أن أتيتك زائراً  
ونبهت من ذكرى وما كان  
خاملاً  
ثم أمره بأن ينشد، فأنشده أرجوزة يقول فيها: الرجز:

كنا أناساً نرهبُ الهلاكاً  
وكلُّ ما قد مرَّ في سواكا  
واسم أبي نخيلة الجنيد بن الجون، وهو مولى لبني حماد، كان مقصداً راجزاً.  
قيل للخنساء: لئن مدحت أخاك لقد هجوت أباك! فقالت: الكامل:

لغيرك إنساناً فأنت الذي  
تغني  
نزلتُ بهم فرحت بغير رادٍ  
وأنت بما مدحْتُهُمْ مُرَادِي  
أخي النَّجْدَاتِ والمجد  
الرصين

ولاتجاوزكم يا آل مسعود  
ما عاقب الدهر بين البيض  
والسُّودِ  
خِذْناً وليس إذا غابوا  
بمَوْجُودِ

ح والمكرمات معاً حيث  
ساراً

جَارِي أَبَاهُ فَأَقْبَلَا وَهُمَا  
حَتَّى إِذَا جَدَّ الْجِرَاءُ وَقَدَّ  
وَعَلَا صِيَاحَ النَّاسِ: أَيُّهُمَا؟

يَتَعَاوَرَانِ مُلَاءَةَ الْخُضْرِ  
سَاوَى هُنَاكَ الْقَدْرَ بِالْقَدْرِ  
قَالَ الْمَجِيبُ هُنَاكَ: لَا أُدْرِي

بَرَقَتْ صَحِيفَةٌ وَجْهَهُ وَالِدِهِ  
أَوْلَى فَأَوْلَى أَنْ يُسَاوِيَهُ  
وَهُمَا كَأَنَّهُمَا وَقَدْ بَرَزَا

ومضى على غلوائه يجري  
لولا جلال السنن والكبير  
صقران قد خلطا على وكر  
وقيل لأبي عبيدة: ليس هذا في شعر الخنساء. فقال: العامة أسقط من  
أن يجاد عليها بمثل هذا.

وقد أحسن البحثري في نحو هذا؛ إذ يقول في يوسف بن أبي سعيد،  
ومحمد بن يوسف الطائي: الكامل:

تَرَكَ السَّمَكَ كَأَنَّهُ لَمْ  
يَشْرَفِ  
لِلْمُعْتَدِي وَهِيَ التَّدَى  
لِلْمُعْتَفِي  
أُخْرَى التَّقَى شَأْوَكَمَا فِي  
الْمَنْصَفِ

جِدُّ كَجِدِّ أَبِي سَعِيدٍ إِنَّهُ  
قَاسَمَتُهُ أَخْلَاقَهُ وَهِيَ  
الرَّزَى  
وَإِذَا جَرَى فِي غَايَةِ وَجَرَيْتَ  
فِي

قول الخنساء:

يَتَعَاوَرَانِ مُلَاءَةَ الْخُضْرِ

أبرع استعارة، وأنصع عبارة؛ وقد قال عدي بن الرقاع: الكامل:

عَبْرَاءُ مُحْكَمَةٌ هُمَا تَسَجَّاهَا  
فَإِذَا السَّنَابُكُ إِسْهَلَتْ تَشْرَاهَا

تَطْوَى إِذَا وَرَدَا مَكَانًا جَاسِيًا  
وَإِلَى هَذَا أَشَارَ الطَّائِي فِي قَوْلِهِ: الْوَافِرُ:

يَهِيمُ بِهَا عَدِيُّ بْنُ الرَّقَاعِ  
مَنْ بَنَى عَقِيلٌ فَقَالَ: الطَّوِيلُ:  
عَقَّتْ حِجْبًا بَعْدِي وَهَنَّ  
ثَمَانَ

ثُبَيْرٌ عَجَاجَةٌ فِي كُلِّ تَغْرِ  
وَأَوَّلُ مَنْ نَظَرَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ

أَلَا يَا دِيَارَ الْحَيِّ بِالسَّبْعَانِ

وغير أئاف كالركبي رعان

فلم يبق منها غير نُؤِي

مُهَدَّم

وآيات هاب أورق اللون

ساقرت

به الريح والأمطار كل مكان

وتمسي بها الجبان تقتربان

قفا مَرَوْرَاهُ تَحَاؤُ بِهَا الْقَطَا

يثيران من نسج العبار

عليهما

قميصين أسمالاً ويرتديان

ومن مستحسن رثاء الخنساء وليلى

وغيرهما من النساء:

قال أبو العباس أحمد بن يحيى النحوي: أنشد أبو السائب المخزومي قول الخنساء:  
البيسط:

وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا تَشْتُو لِنَحَاؤِ  
كَأَنَّهُ عَلَّمُ فِي رَأْسِهِ تَارُ

وَإِنَّ صَخْرًا لَمَهُولَانَا وَسَيِّدُنَا  
وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُّ الْهَدَاةُ بِهِ

فقال: الطلاق لي لازم إن لم تكن قالت هذا وهي تتبختر في مشيها، وتنظر في عطفها.

ومن مستحسن رثاء الخنساء قولها ترثي أباها صخراً: البسيط:

أذهبُ فلا يبعدُكَ اللهُ من  
رجل  
قد كنتَ فينا صريحاً غير  
مؤتشب  
فسوف أبكيك ما تآحت  
مطوّقة  
أبكي فتى الحيّ نالته منيته  
بمقدار

وقولها تعنيه: البسيط:

شهاد أنجية شدّاد أوهية  
سُم العداة وفكاك العُناة  
إذا  
يهدى الرّعيّ إذا جار السبيلُ  
بهم

والخنساء اسمها تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد بن رباح بن يقظة بن عُصيّة بن حُفّاف بن امرئ القيس، وتكنى أم عمرو، ومهدّاق ذلك قول أخيها صخر: الطويل:

أرى أم عمرو لا تملُّ عيادتي  
وملثُ سليمان مَصْجَعِي  
ومكاني

سليمة: امرأته، وإنما لقبت الخنساء كناية عن الظبية، وكذلك تسميتهم الذلفاء. والذلف: قصر في الأنف؛ وإنما يريدون به أيضاً أن ذلك من صفات الطباء، وهي أشعر نساء العرب عند كثير من الرواة؛ وكان الأصمعي يقدم ليلي الأخيلية، وهي ليلي بنت عبد الله بن كعب بن ذي الرخالة بن معاوية بن عباد بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، وقيل لها الأخيلية لقول جدّها كعب: الكامل:

نحن الأخيل ما يرّالُ غلامنا  
حتى يدبّ على العصا مذكورا  
قال أبو زيد: هذا البيت لها فسُمّيت به، وليلى أغزر بحراً، وأكثر تصرّفاً، وأقوى لفظاً؛ والخنساء أذهب في عمود الرثاء.

قال المبرد: كانت الخنساء وليلى الأخيلية في أشعارهما متقدمتين لأكثر الفحول، وقلما رأيت امرأةً تتقدّم في صناعة، وإن قلّ ذلك، فالجملة ما قال الله تعالى: "أَوْ مَنْ يُنْشَأُ فِي الْجَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ". ومن أحسن المرثي ما خلط فيه مدحٌ بتفجّع على المرثي، فإذا وقع ذلك بكلام صحيح، ولهجة معربة، ونظام غير متفأوت، فهو الغاية من كلام المخلوقين.

واعلم أنّ من أجلّ الكلام قولُ الخنساء: البسيط:

يا صخرُ وِرّاد ماءٍ قد تنادَرَه  
أهلُ المياهِ فما في وِرّده  
مَنشَى السَّبَبَتَى إلى هَيْجَاءِ  
لها سِلاخان: أنيابٌ وأظفارُ  
وما عجولٌ على بؤ تُطيفُ به  
لها حنينان: إعلانٌ وإسراؤُ  
ترتع في غفلة حتى إذا  
فإنما هي إقبالٌ وإدبارُ

أَذْكَرْتُ  
يوماً بأوجع مني حين  
فارقني  
لم تره جاره يمشي  
بساحتها  
قال: ومن كامل قولها: الوافر:  
فلولا كثرة الباكين حولي  
وما يبكون مثل أخي، ولكن  
يذكرني طلوع الشمس  
صحراً

صَحْرٌ، وللعيش إخلاء، وإمراً  
لريبة حين يُحلي بيته الجار  
علي إخوانهم لقتلت نفسي  
أسلي النفس عنه بالتأسي  
وأذكره لكل غروب شمس

يعني أنها تذكره أول النهار للغارة، ووقت المغيب للأضياف.  
وقد قال ابن الرومي فيما يتعلق بهطرف من هذا المعنى: الوافر:  
رأيت الدهر يجرح ثم يأسو  
أبت نفسي الهلاع لرزء شيء  
أتجزع وحيثة لفراق إلف  
وقد أنكر على من تعلل بالتأسي بما قال غيره، فقال في ذلك: الطويل:

خليلي قد عللتما ني  
بالأسي  
ألناس أناري، وإلا فما  
الأسى  
وما راحة المرزوء في رزء  
غيره  
كلا حاملي عبء الرزية  
مُنْقَلٌ  
وضرب من الظلم الخفي  
مكانه  
لأنك يأسوك الذي هو  
كلمة

فأنعمت ما لو أنني أتعلل  
وعيشكما إلا ضلال مصلل  
أيحمل عنه بعض ما يتحمل  
وليس معيناً مُنْقَلِ الظهر  
مُنْقَلٌ  
تعزبك بالمرزوء حين تأمل  
بلا بصر لو أن جورك يعدل  
كلمة

وقالت الخنساء: الطويل:

وقائلة والنعش قد فات  
خطوها  
ألا تكلت أم الذين عدوا به  
وماذا يُؤاري القبر تحت  
تراه  
فشان المنايا إذا أصابك  
رئبها

لتدركه: يا لهف نفسي على  
صخر  
إلى القبر! ماذا يحملون إلى  
القبر؟!  
من الجود يا بؤس الحوادث  
والدهر  
لتغدو على الفتيان بعدك أو  
تسري

وهذا المعنى كثير قد مرّت منه قطعة جيدة، ولم تزل الخنساء تبكي على  
أخويها صخر ومعاوية، حتى أدركت الإسلام؛ فأقبل بها بنو عمّها وهي عجوز  
كبيرة إلى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فقالوا: يا أمير  
المؤمنين، هذه الخنساء، وقد قرّحت أمّاها من البكاء في الجاهلية

والإسلام، فلو تَهَيَّئَهَا لرجونا أن تنتهي، فقال لها عمر رضي الله عنه: اتقي الله وأيقني بالموت، قالت: أبكي أبي وخَيْرَ بني مضر صخرًا ومعاوية، وإني لموقية بالموت، قال: أتبكين عليهم وقد صاروا حَمْرَةَ فِي النار؟ قالت: ذلك أشدُّ لبكائي عليهم! فرق لها عمر وقال: خلوا عن عجوزكم لا أبا لكم! فكل امرئ يبكي سَجْوَهُ، ونام الخَلِيُّ عن بكاء الشجي.  
وكان عمرو بن الشريد يَأْخُذُ بيد ابنه معاوية وصخر في الموسم، ويقول: أنا أبو خَيْرِي مضر، فمن أنكر فليغير، فلا يغير ذلك عليه أحد، وكان يقول: من أتى بمثلهما أخوين من قبل فله حكمه، فَنُقِرَّ له العرب بذلك.  
وكان النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: "أنا ابن الفواطم من قريش، والعواتك من سُليم، وفي سُليم شرف كثير".

وكان يقال لمعاوية: فارس الجَوْن، والجَوْن من الأضداد، يقال للأسود والأبيض، وقتلته بنو مِرَّة، قتله هاشم بن حَرْمَلَة، فطلبه دُرَيْد بن الصَّمَّة حتى قتله، وأما صخر فغزا أسد بن خزيمة فأصاب فيهم، وطعنه ثور بن ربيعة الأسدي، فأدخل في جوفه حلقاً من الدرع فاندمل عليه، فنتتت قطعة من جنبه مثل اليد، فمرض لها حَوْلًا، ثم أشير عليه بقطعها، فأحموا له شفرة ثم قطعوها، فما عاش إلا قليلاً.  
ومن جيد شعر ليلى الأخيلية ترثي تَوْبَةَ بن الحُمَيْر الخفاجي، وكان لها محبًّا، وله فيها شعرٌ كثير، وقتله بنو عوف بن عُقيل، قتله عبد الله بن سالم: الطويل:

نظرتُ ورُكُنُ من عَمَايَة	وأركان جسمي أي نظرة
دوننا	ناظر
فأنست خيلاً بالرُّقِيّ	سوابقها مثل القَطَا
مُغِيرَة	المتواتر
فإن تَكُن القَتْلَى بَوَاءً	فتى ما قتلتم آل عَوْفِ بن
فإنكم	عامر
فلا يُبْعِدُنكَ الله يا تَوْبَ إِنما	لقاء المنايا دَارِعاً مثل
أنته المنايا بين دِرْعِ حَصِينَة	حاسر
كأن فتى الفتيان تَوْبَة لم	وأسمرَ حَظِيٍّ وجرداء
يُنْحَ	صامِر
ولم يُدْعَ يوماً لِلْحِفَاظِ	فلائص يَفْحَضَنَّ الحصى
وللنهي	بالكراكر
وللبازل الكوماء يَرْعُو	وللحرب تَرْمِي تَارُها
حَوَارُها	بالشَّرَائِرِ
فتى لا تَخْطَاه الرَّقَاق، ولا	وللخيل تَعْدُو بالكُمَاة
بَرِي	المَسَاعِرِ
فتى كان أَحْيَا من فتاة	لِقَدْرِ عِيَالاً دون جارٍ مُجَاوِرِ
حَيِيَة	وأشجع من لَيْثٍ بخفان
فتى لا تراه النَّابُ إِلَّافَاً	خادر
	إذا اَحْتَلَجَتْ بالناس إِحْدَى

لِسَقِيهَا  
وَكُنْتَ إِذَا مَوْلَاهُ خَافَ  
ظِلَامَةَ  
وَقَدْ كُنْتَ مَرْهُوبَ السِّنَانِ  
وَبَيْنَ الْإِلِ  
وَلَا تَأْخُذُ الْكُومُ الْجِلَادُ  
سِلَاحَهَا

وقال بعض الرواة: بينا معاوية يسير إذ رأى ركباً، فقال لبعض شُرطته: ائتني به وإياك أن تزوجه. فأثاه فقال: أحب أمير المؤمنين، فقال: إياه أردت، فلما دنا الراكب حذر لثامه فإذا ليلي الأخيلية، فأنشأت تقول: الوافر:

معاوي لم أكد أتيك تهوي  
تجوب الأرض نحوك ما تأتي  
وكنت المرتجى وبك  
استغاثت

قال: فقال: ما حاجتك؟ قالت: ليس مثلي يطلب إلى مثلك حاجة، فتخير أنت! فأعطاهما خمسين من الإبل؛ ثم قال: أخبريني عن مضر، قالت: فاجز بمضر، وحارب بقيس، وكأثر بتميم، وناظر بأسد، فقال: وبحك يا ليلي! أكما يقول الناس كان توبة؟ قالت: يا أمير المؤمنين، ليس كل الناس يقول حقاً، الناس شجره بغي، يحسدون النعم حيث كاتت، وعلى من كاتت! كان يا أمير المؤمنين سبط البنان، حديد اللسان، شجى الأقران، كريم المخبر، عفيف المنزر، جميل النظر، وكان كما قلت، ولم أتعد الحق فيه: الطويل:

بعيد الثرى لا يبلغ القوم  
قعره

فقال معاوية: وبحك يا ليلي! يزعم الناس أنه كان عاهراً خارباً، فقالت من ساعتها مرتجلة: الطويل:

مَعَادَ إِلَهِي كَانَ وَاللَّهِ تَوْبَةً  
أَغْرَّ حَفَاجِيًّا يَرَى الْبَخْلَ سُبَّةً  
عَفِيفاً بَعِيدَ الْهَمِّ ضَلْباً  
قَنَائُهُ  
وَكَانَ إِذَا مَا الضَّيْفُ أَرْغَى  
بَعِيرُهُ

وَقَدْ عَلِمَ الْجَوْعُ الَّذِي كَانَ  
سَارِيًّا  
وَأَنْكَ رَحْبُ الْبَاعِ يَا تَوْبُ  
بِالْقَرَى  
يَبِيتُ قَرِيرَ الْعَيْنِ مَنْ كَانَ  
جَارُهُ

فقال لها معاوية: وبحك يا ليلي! لقد جرت بتوبة قدره، فقالت: يا أمير المؤمنين، والله لو رأيته وخبرته لعلمت أنني مقصرة في نعيه، لا أبلغ كنه ما هو له أهل. فقال لها معاوية: في أي سن كان؟ فقالت: يا أمير المؤمنين: الطويل:

وأقصر عنه كلُّ قِرْنٍ يُتَاضِلُهُ  
فترضى به أشباله وحلائله

وسُمَّ دُعَافٌ لا تصابُ  
مقاتله

فأمر لها بجائزة، وقال: أي ما قلت فيه أشعر؟ قالت: يا أمير المؤمنين، ما قلت شيئاً إلا والذي فيه من خصال الخير أكثر، ولقد أجدتُ حيث أقول: الطويل:

فتي من عُقيلٍ سادَ غيرِ  
مُكَلِّفٍ

عليه فلم ينفكَّ جَمَّ  
التَّصَرُّفِ

إذا هي أَعْيَتْ كلَّ خِرْقِ  
مُسَوِّفِ

يدِرِّياقَةٍ من خَمَرِ بَيْسَانَ  
قَرَفِ

أنته المنايا حين تمَّ تَمَامُهُ  
وصار كليث الغابِ يَحْمِي  
عَرِيته

عطوفٌ حليمٌ حين يُطَلَّبُ  
جَلْمُهُ

فتى كانت الدنيا تَهُونُ  
بأسرها

ينالُ عَليَّاتِ الأمورِ بِهَوْتِهِ

هو المِسْكُ بالأزْي الضحاكيِّ  
شَبْتُهُ

ويقال: إنها دخلت على مروان بن الحكم فقال: وبحك يا ليلي! أكما نعتت توبة كان؟ قالت: أصلح الله الأمير! والله ما قلتُ إلا حقاً، ولقد قصرت، وما رأيت رجلاً قط كان أُرَبِّطُ على الموت جأشاً، ولا أقل انحياشاً حين تحتم بَرَكاءُ الحرب، ويَحْمَى الوطيس بالطنع والضرب، كان والله كما قلت: الطويل:

إلى أن عَلَاهُ السَّيْبُ فوقِ  
المسايحِ

صَرُوباً على أَقْرَانِهِ  
بالصفائحِ

إذا انْحَارَ عن أَقْرَانِهِ كلُّ  
سَابِحِ

وَصُولاً لِقُرْبَاهِ يَرى غيرَ كالجِ

فتى لم يَزَلْ يزدادُ حَيْراً لَدُنْ  
تَشَا

تراه إذا ما الموتُ حَلَّ  
بورده

شجاعٌ لدى الهيجاءِ تَبَّتْ  
مَشَايِحُ

فعاشٌ حميداً لا ذميماً  
فعاله

فقال لها مروان: كيف يكون توبة على ما تقولين وكان خارباً؟ والخارب سارق الإبل خاصة، فقالت: وإلله ما كان خارباً، ولا للموت هائباً، ولكنه كان فتى له جاهلية، ولو طال عمره وأنساه الموت لارْعَوَى قلبه، ولفضى في حبِّ الله تحبه، وأقصر عن لهوه، ولكنه كما قال ابن عمه مسلمة بن زيد: الطويل:

قتيلاً صريعاً للسيوفِ  
البواتيرِ

وصَبْرًا على اليومِ العبوسِ  
القُمَاطِرِ

عظيمِ الحوايا لُبُّهُ غيرِ  
حاضرِ

وجادِ بسَيْبٍ في السنينِ  
القواشرِ

فله قوم غادروا ابن  
حُمَيْرِ

لقد غَادَرُوا حَزْماً وعزماً  
ونائلاً

إذا هابَ وِرْدَ الموتِ كلُّ  
عَصْفَرِ

مضى قدماً حتى يلاقِي  
وِرْدَهُ

فقال لها مروان: يا ليلي، أعوذ بالله من درك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء، فوالله لقد مات توبة، وإن كان من فتيان العرب وأشدائهم، ولكنه أدركه الشقاء؛ فهلك على أحوال الجاهلية، وترك لقومه عداوة.

ثم بعث إلى ناس من عقيل فقال: والله لئن بلغني عنكم أمرٌ أكرهه من جهة توبة

لأصلينكم على جذوع النخل، إياكم ودَعَوَى الجاهلية، فإن الله قد جاء بالإسلام، وهَدَم ذلك كله.

وروى أبو عبيدة عن محمد بن عمران المرزباني قال: قال أبو عمرو بن العلاء الشيباني: قدِمْتُ ليلي الأخيلية على الحجاج بن يوسف وعنده وجوه أصحابه وأشرفهم، فبينما هو جالسٌ معهم إذ أقبلت جارية فأشارَ إليها وأشارت إليه؛ فلم تلبث أن جاءت جارية من أجمل النساء وأكملهن، وأتمهنَّ حَلْقًا، وأحسنهنَّ محاورَةً؛ فلَمَّا دنت منه سلَّمْتُ؛ قالت: أتأذنُ أيها الأمير. قال: نعم، فأنشدت: الطويل:

أحجَّج إن الله أعطاك غايَةً يُقَصِّرُ عنها من أراد مداها

أحجَّج لا يُفَلِّلُ سِلاحُك إنما  
ال

إذا ورد الحجاج أرضاً مريضَةً  
شفاها من الداء العيَاء الذي  
شفاها من الداء العيَاء الذي  
بها

إذا سَمِعَ الحجاج صَوْت كتيبةٍ  
أعدَّ لها مَصْفُولةً قَارِسيَّةً  
أعدَّ لها مَصْفُولةً قَارِسيَّةً  
بأيدي رجال يَحْلُبون صَراها

حتى أتت على آخرها. فقال الحجاج لمن عنده: أتعرفون من هذه؟ قالوا: ما نعرفها، ولكن ما رأينا امرأةً أطلَقَ لساناً منها، ولا أجملَ وَجْهاً، ولا أحسنَ لُفْظاً، فَمَنْ هِيَ أصلح الله الأمير؟ قال: هي ليلي الأخيلية صاحبة توبة بن الحمير التي يقول فيها: الطويل:

ولو أن ليلي الأخيلية  
سَلِمْتُ

لسَلِمْتُ تسليماً البشاشة أو  
رَقَا

ثم قال لها: يا ليلي، أنشدنا بعض ما قاله فيك توبيخاً، فأنشدته: الطويل:

تَأْتِكِ بِليلي دَائِرُها لا تَرُورُها  
وكنت إذا ما زُرْتُ ليلي

تَبْرَقَعْتُ  
عليّ دِماءُ البُدنِ إن كان  
رَوْجُها

وأنبي إذا ما زُرْتُها قلت: يا  
اسلّمي

فهل كان في قول اسلّمي ما  
يَصِيرُها؟

حمامة بَطْنِ الوادِيَيْنِ  
تَرْتَمي

سَقَاك من العُرِّ الغوادي  
مَطِيرُها

ولا زِلت في حَصْرَاءِ دانٍ  
بَرِيرُها

وقد تذهب الحاجات يطلبها  
الفتى

أَيذهب رِيْعانُ الشباب ولم  
أزُرْ

ولو أن ليلي في دُرَى مُتَمَنِّعٍ  
بَنَجْرانٍ لالتَقْتُ عليّ

يقرّ بعيني أن أرى العيسَ  
تَرْتَمِي  
وأشرفُ بالعُورِ اليفاع لعلّني  
أرتنا حَمَامِ المَوْتِ ليلي،  
وراقنا  
قصورها  
بنا نحو ليلي وهي تجري  
صقورها  
أرى تار ليلي أو يراني  
بصيرها  
عيونُ تقيّات الحواشي  
تُدِيرُهَا

حتى أتت على آخرها. فقال: يا ليلي، ما رايه من سفورك؟ فقالت: أيها الأمير، ما رأي قط إلا متبرقة، فأرسل إليّ رسولا إنه ملّم بنا، فنظر أهل الحيّ رسوله فأعدّوا له وكمنوا؛ فقطبْتُ لذلك من أمرهم، فلمّا جاء ألقبت برُفعي وسَقَرْتُ فأنكر ذلك، فما زاد على التسليم وانصرف راجعا. فقال لها الحجاج: لله دَرَك! فهل كانت بينكما ريبة قط؟ قالت: لا والذي أسأله صلاحك، إلا أني رأيت أنه قال قولا فظننتُ أنه خضع لبعض الأمر، فقلت: الطويل:

وذي حاجة قلنا له: لا تبخ بها  
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن تحوّه  
فليس إليها ما حَييت سبيلُ  
وأنت لأخرى صاحبٌ وخليلُ

فما كلّمني بشيء بعد ذلك حتى فرّق الموت بيني وبينه. فقال لها: حاجتك؟ قالت: أن تحملني إلى قتيبة بن مسلم على البريد إلى خراسان، فحملها فاستظرفها قتيبة ووصلها، ثم رجعت فماتت بساوة، وقبرها هناك. وروى المبرّد أنها لما أنشدته الأبيات "أحجاج إن الله أعطاك..." إلى قولها: "غلام إذا هزّ القناة ثناها" قال لها: لا تقولي غلام، ولكن قولي: همام، ثم قال لها: أي نسائي أحبّ إليك أن أنزلك عندها؟ قالت: ومن نساؤك أيها الأمير؟ قال: أم الجلاس بنت سعيد بن العاص الأموية، وهند بنت أسماء بن خارجة الفزارية، وهند بنت المهلب بن أبي صفرة العتكية. قالت: هذه أحبّ إليّ. فلمّا كان الغد دخلت إليه فقال: يا غلام، أعطها خمسمائة. قالت: أيها الأمير، اجعلها أدما. قيل لها: إنما أمر لك بشيء، فقالت: الأمير أكرم من ذلك، فجعلها إبلا أدما استحياء؛ وإنما كان أمر لها بشيء أولا، والأدم أكرمها.

وأول هذا الحديث عن رجل من بني عامر بن صعصعة يقال له ورّقاء قال: كنت عند الحجاج فدخل الآذن فقال: أصلح الله الأمير! بالباب امرأة تهدير كما يهدير البعير الناد، قال: أدخلها، فلمّا دخلت تسبها فانتسبت له. فقاد: ما أتى بك يا ليلي؟ قالت: إخلافُ النجوم، وقلّة الغيوم، وكلّبُ البرد، وشدّة الجهد، وكنت لنا بعد الله الرّفد.

قال لها: أخبريني عن الأرض. قالت: الأرض مُعبّرة، والفجاج مقشعرة، وأصابنا سنون مُججفة مُظلمة، لم تدع لنا هُبعاً ولا رُبعا، ولا عافطة ولا نافطة أهلكت الرجال، ومزقت العيال، وأفسدت الأموال، وأنشدت الأبيات التي مضت آنفاً، فالتفت الحجاج إلى أصحابه. وقال: هل تعرفون هذه؟ قالوا: لا. قال: هذه ليلي الأخيلية التي تقول: الكامل:

نحن الأخيلُ لا يزالُ غلامنا  
تبيكي الرماحُ إذا فقدنَ أكفنا  
حتى يدبّ على العَصَا مذكورا  
حزنا وتلقانا الرّفاقُ بحورا

وفي آخر حديثها قال لها: أنشدنا بعض شعرك، فأنشدته: الطويل:

لعمرك ما بالموتِ عارٌ على  
المعاري  
إذا لم تُصبه في الحياة  
الفتى

ومن كان مما يحدث الدهر  
جازعاً  
فلا يُبَعِدُكَ اللهُ يا تَوْبُ  
هالِكاً  
فكل جديد أو شباب إلى  
بلى  
وكل قَرِيْبِي أَلْقَةٍ لِتَقَرُّقِي  
فأقسمت أبكي بعد توبة  
هالِكاً

فقال الحجاج لصاحب له: اذهب بها فاقطع عني لسانها، فدعا لها بالحجّام ليقطع لسانها. فقالت له: ويحك! إنما قال لك الأمير: أقطع لساني بالعتاء، فارجع إليه فأسأله، فسأله فاستشاط غيظاً، وهم بقطع لسانه، ثم أمر بها فأدخلت فقالت: أيها الأمير، كاد يقطع مقولي، وأنشدته: البسيط:

حجاج أنت الذي ما فوقه  
أحد  
إلا الخليفة والمُسْتَعْفِرُ  
الصَّمَدُ  
حجاج أنت شهاب الحَرْبِ إن  
لَقَحْتُ  
وأنت للناس نور في الدُّجَا  
يَقْدُ

احتذى الحجاج في قوله: "اقطع لسانها" قول النبي، صلى الله عليه وسلم، لما أعطى المؤلفة قلوبهم يوم حُتَيْن مائة من الإبل، وأعطى العباس بن مرداس أربعين فسخطها وقال: المتقارب:

أتجعل تهبي وتهب العبي  
وما كان حصن ولا حابس  
وما كنت إلا امراً منهم  
د بين عُيَيْنَةَ والأقرع  
يفوقان مرداس في مَجْمَعِ  
ومن تصع اليوم لا يرفع  
العبيد: اسم فرسه، وحصن الذي ذكره، هو أبو عُيَيْنَةَ بن جِصْن بن حذيفة بن بدر سيد فزارة، وحابس: أبو الأقرع بن حابس، وقد تقدّم نسبه - فأمر النبي، صلى الله عليه وسلم، بإحضاره، فقال: أنت القائل: المتقارب:

أتجعل نهبي ونهب العبي  
د بين الأقرع وعيينة.....  
وكان النبي، عليه الصلاة والسلام، كما قال الله، عز وجل: "وما علمناه الشعر وما ينبغي له". فقال: قم يا علي فاقطع لسانه. قال العباس: فقلت: يا علي، وإنك لقاطع لساني؟ قال: إني مُقْضِيْ فِيك ما أمرت، فمضى بي حتى أدخلني الحظائر، فقال: اعتد ما بين الأربعين إلى مائة، قلت: بأبي أنت وأمي! ما أحلمكم وأعلمكم وأعدلكم وأكرمكم! فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أعطاك أربعين، وجعلك من المهاجرين فإن شئت فخذها، وإن شئت فخذ مائة، وكن من المؤلفة قلوبهم. فقلت: أشير عليّ؟ فقال: إني أمرك أن تأخذ ما أعطاك. فأخذتها. وكانت ليلي الأخيلية قد حاجت النابغة الجعدي فأفحمتها. ودخلت على عبد الملك ابن مروان وقد أسنت فقال: ما رأى توبة فيك حتى أحبك؟ قالت: رأى في ما رأى الناس فيك حين ولوك! فضحك عبد الملك حتى بدت له سن سوداء كان يخفيها.

وقالت هند بنت أسد الضبابية: الطويل:

لقد مات بالبيضاء من جانب  
الجمي  
فتي كان زيناً للمواكب  
والشرب

يلوذ به الجاني مخافة ما  
كما لاذت العصماء بالشاهق

جَنَّبِي تطلُّ بناثُ العمِّ والخالِ  
الصعب صَوَادِي لَا يَرْوِين بِالْبَارِدِ  
حَوْلِهِ  
وقالت أم خالد النميرية تشبب بأثال الكلابي: الطويل:  
إِذَا مَا أَتْنَا الرِّيحَ مِنْ نَحْوِ  
أَرْضِهِ  
أَتْنَا بِمِسْكَ خَالِطِ المِسْكِ  
وَرِيحِ خِزَامِي بَاكَرْتَهَا جَنُوبَهَا  
عَنْبَرٌ  
أَجْنٌ لِدِكْرَاهِ إِذَا مَا دَكَرْتَهُ  
وَتَنَهَلُّ عِبْرَاتُ تَفِيضُ غُرُوبَهَا  
وَإِعْوَالَ تَفْسٍ غَابَ عَنْهَا  
حَبِيبُهَا  
وَأَنشَدْنَا أَبُو العباسِ أحمد بن يحيى ثعلب، لأُمِّ الضحَّاكِ المحاربية وكانت تحبُّ رجلاً من  
الصُّبَابِ حَبًّا شَدِيدًا: البسيط:  
يَا أَيُّهَا الرَّاكِبُ العَادِي لِطَيْتِهِ  
عَرَّجَ أَبْنُكَ عَنْ بَعْضِ الَّذِي  
أَجْدُ  
مَا عَالَجَ النَّاسُ مِنْ وَجْدٍ  
إِلَّا وَجَدْتُ بِهِ فَوْقَ الَّذِي  
تَصَمَّمْتَهُمْ  
وَجَدُوا  
حَسْبِي رِضَاهُ وَأَتِي فِي  
مَسَرَّتِهِ  
وقالت: الطويل:  
هَلِ القَلْبُ إِذَا لَاقَى الصَّبَابِيَّ  
لَدَى الرُّكْنِ أَوْ عِنْدَ الصَّفَا  
خَالِيًا  
يَتَخَرَّجُ  
وَأَزْعَجْنَا قُرْبُ الفِرَاقِ،  
حَدِيثُ لَوْ أَنَّ اللَّحْمَ يُشَوَّى  
وَبَيْنَا  
بِحَرِّهِ  
وَأَنشَدَ الزبير بن بكار لحليمة الخُضْرِيَّةَ، وقد أَنشدها المبرد لنبهان العَبْسَمِيَّةِ وهو أشبهه:  
الطويل:  
يَقْرُّ بَعِينِي أَنْ أَرَى مَنْ  
دُرَى عَقَدَاتِ الأَبْرَعِ  
مَكَائِهِ  
وَأَنْ أَرِدَ المَاءَ الَّذِي شَرِبْتِ  
السُّلَيْمَى وَإِنْ مَلَّ السُّرَى كُلَّ  
بِهِ  
وَأَلِصِقَ أَحْشَائِي بِبَرْدِ نُرَائِهِ  
وَإِنْ كَانَ مَخْلُوطًا بِسَمِّ  
الْأَسَاوِدِ  
وقالت الفارعة بنت شداد ترثي أباها مسعوداً: البسيط:  
يَا عَيْنُ بَكِي لِمَسْعُودِ بْنِ  
بِكَاءِ ذِي عَبْرَاتِ شَجْوِهِ  
شَدَّادٍ  
مَنْ لَا يَذَابُ لَهُ شَحْمٌ  
يَجْفُو العِيَالَ إِذَا مَا صُنَّ  
بِالزَّادِ  
وَلَا يَحِلُّ إِذَا مَا حَلَّ مُنْتِيذًا  
يَخْشَى الرِّزِيَّةَ بَيْنَ المَالِ  
وَالنَّادِي

قوال مُحْكَمَة، تَقَاضُ  
مُبْرَمَةً  
قَتَّالُ مَسْعَبَةٍ، وَتَّابُ مَرْقَبَةٍ  
حَلَالُ مُمْرِعَةٍ، قَرَّاجُ مُفْطِعة  
حَمَّالُ أَلْوِيَةٍ، شَهَّادُ أُنْدِيَةِ  
جَمَّاعِ كُلِّ خِصالِ الخَيْرِ قَدْ  
عَلِمُوا  
أَبَا زُرَّارَةَ لَا تَبْعُدُ فَكُلُّ فِتْنَى  
هَلَا سَقِيئُكُمْ، بَنِي جَزْمٍ،  
أَسِيرَكُمْ  
نَعَمُ الْفِتْنَى، وَبِمِينِ اللَّهِ، قَدْ  
عَلِمُوا  
هُوَ الْفِتْنَى يَحْمَدُ الْجِيرَانُ  
مَشْهَدَهُ  
الطَّاعِنِ الطَّعْنَةَ النَّجْلَاءَ  
يَتَّبَعُهَا  
وَالسَّابِئِ الرُّقَّ لِلأَضْيَافِ إِنْ  
نَزَلُوا  
وَالْمَحْسَنَاتِ مِنَ النِّسَاءِ كَثِيرٍ، وَقَدْ تَفَرَّقَ لِهِنَّ فِي أضعافِ هَذَا الْكِتابِ ما  
اخْتِيرَ.  
دَموعُ العاشِقِينَ  
وَأَنشَدَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى ثَعْلَبٌ: الطَّويلُ:  
وَمَسْتَنجِدُ بِالْحُرْنِ دَمْعاً  
كَأَنَّهُ  
إِذَا دِيمَةٌ مِنْهُ اسْتَقَلَّتْ  
تَهَلَّلَتْ  
مَلَأَ مَقْلَتِيهِ الدَّمْعُ حَتَّى  
كَأَنَّهُ  
وَيَنْظُرُ مِنْ بَيْنِ الدَّمْعِ  
بِمُقْلَةٍ  
وَقَالَ آخَرٌ - وَرُوِيَ لِقَيْسِ بْنِ الْمَلُوحِ: الطَّويلُ:  
نَظَرْتُ كَأَنِّي مِنْ وَرَاءِ  
زُجَاجَةٍ  
فَعَيْنَايَ طُوراً يَغْرِقَانِ مِنْ  
البُّكَا  
وَقَالَ غِيلَانُ: الطَّويلُ:  
وَمَا سَنَّتْنَا حَرْقَاءَ وَاهِيَةِ الْكَلَى  
بَأَضْيَعٍ مِنْ عَيْنِكَ لِلدَّمْعِ كَلِّمَا  
فَتَّاحُ مُبْهَمَةٍ، حَبَّاسُ أَوْرَادِ  
مَتَّاعُ مَعْلَبَةٍ، فَكَائُ أَقْيَادِ  
حَمَّالُ مُضْلِعةٍ، طَلَّاعُ أَنْجَادِ  
شَدَّادُ أَوْهِيَةِ، فَرَّاجُ أَسَدَادِ  
رَبُّنُ الْقَرِينِ وَنِكُلُ الظَّالِمِ  
العَايِ  
يَوْمًا رَهِينُ صَفِيحَاتِ  
وَأَعْوَادِ  
تَفْسِي فِدَاؤُكَ مِنْ ذِي كَرْبَةٍ  
صَادِي  
يَخْلُو بِهِ الْحَيُّ أَوْ يَغْدُو بِهِ  
العَايِ  
عِنْدَ الشِّتَاءِ وَقَدْ هَمُّوا  
بِإِخْمَادِ  
مُتَعَنِّجِراً بَعْدَ مَا تَعْلَى بِإِزْبَادِ  
إِلَى دَرَاهُ وَغَيْثُ الْمُخَوِّجِ  
العَايِ  
وَالْمَحْسَنَاتِ مِنَ النِّسَاءِ كَثِيرٍ، وَقَدْ تَفَرَّقَ لِهِنَّ فِي أضعافِ هَذَا الْكِتابِ ما  
اخْتِيرَ.  
دَموعُ العاشِقِينَ  
وَأَنشَدَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى ثَعْلَبٌ: الطَّويلُ:  
وَمَسْتَنجِدُ بِالْحُرْنِ دَمْعاً  
كَأَنَّهُ  
إِذَا دِيمَةٌ مِنْهُ اسْتَقَلَّتْ  
تَهَلَّلَتْ  
مَلَأَ مَقْلَتِيهِ الدَّمْعُ حَتَّى  
كَأَنَّهُ  
وَيَنْظُرُ مِنْ بَيْنِ الدَّمْعِ  
بِمُقْلَةٍ  
وَقَالَ آخَرٌ - وَرُوِيَ لِقَيْسِ بْنِ الْمَلُوحِ: الطَّويلُ:  
نَظَرْتُ كَأَنِّي مِنْ وَرَاءِ  
زُجَاجَةٍ  
فَعَيْنَايَ طُوراً يَغْرِقَانِ مِنْ  
البُّكَا  
وَقَالَ غِيلَانُ: الطَّويلُ:  
وَمَا سَنَّتْنَا حَرْقَاءَ وَاهِيَةِ الْكَلَى  
بَأَضْيَعٍ مِنْ عَيْنِكَ لِلدَّمْعِ كَلِّمَا

وقال آخر: الطويل:

ومما شجاني أنها يوم  
ودّعت  
فلما أعادت من بعيد  
بنظرة

تولت وماء الجفن في العين  
حائز  
إلي التفاتاً أسلمته  
المحاجر

أبو عبادة البحرى: الوافر:

وقفنا والعيون مُشغلات  
تهته رقبه الواثنين حتى  
وأشده أبو الحسن لحظة: الطويل:

يُغالبُ طرفها نظراً كليل  
تعلق لا يغيض ولا يسيل

ومن طاعتي إياه أمطر  
ناظري

إذا هو أبدى من ثنياه لي  
بزقا

كان دموعي تبصر الوصل  
هارباً

فمن أجله تجري لتدركه  
سبفا

أخذ البيت الأول المتنبي فقال: المنسرح:

يبتل خدائي كلما ابتسمت

من مطر بزقه ثنياه

وقال أبو الشيب، واسمه محمد بن عبيد الله، وهو ابن عمّ دعلج: الوافر:

وقائلة وقد بصرت بدمع  
أتكذب في البكاء وأنت  
جلد؟

على الخدين منحدر سكو  
قديماً ما جسرت على  
الذنوب

قميصك والدموع تجول فيه  
كمثل قميص يوسف حين  
جاءوا

وقلبك ليس بالقلب الكئيب  
عليه عشية بدم كذوب

فقلت لها: فداك أبي وأمي

رجمت بسوء ظنك في  
الغيوب

أما والله لو فتشت قلبي  
دموع العاشقين إذا تلاقوا

لسرك بالعويل وبالنحيب  
بظهر الغيب السنة القلوب

من أخبار العباس بن الأحنف

وقال بشار بن برد: ما زال فتى من بني حنيفة يدخل نفسه فينا ويخرجها منا حتى قال:  
الكامل:

نزف البكاء دموع عينك  
فاستعز

عيناً لغيرك دمعها مدرا

من دأ يعيرك عينه تكي بها  
أرأيت عيناً للبكاء تُعار؟!

قال: وهذا الذي عناه بشار هو أبو الفضل العباس بن الأحنف بن طلحة بن هارون بن  
كلدة بن خزيم بن شهاب بن سالم بن حبة بن كليب بن عدي بن عبد الله بن حنيفة،  
وكان كما قال بعض من وصفه: كان أحسن خلق الله إذا حدث حديثاً، وأحسنهم إذا  
حدث استماعاً، وأمسكهم عن ملاحاة إذا حولف، وكان ملوكي المذهب، ظاهر التعمه،  
حسن الهيئة، وكانت فيه الأث الظرف، كان جميل الوجه، قاره المركب، نظيف الثوب،  
حسن الألفاظ، كثير النوادر، رطيب الحديث، باقياً على الشراب، كثير المساعدة، شديد  
الاحتمال، ولم يكن هجاءً، ولا مداحاً، كان يتنزه عن ذلك، وبشبهه من المتقدمين بعمر  
بن أبي ربيعة.

وسئل أبو نواس عن العباس وقد ضمهما مجلس فقال: هو أرق من الوهم، وأحسن  
من الفهم.

وكان أبو الهذيل العلاف المعتزلي إذا ذكره لعنه وزناه لأجل قوله: البسيط

وضعتُ خدِّي لأدنى من  
يُطِيفُ بكم  
إذا أرَدْتُ انتصاراً كان  
ناصركم  
فأكثرُوا أو أقلُّوا من  
ملامكم

حتى اُخْتُقِرْتُ وما مثلي  
بمُحْتَقِرٍ  
قلبي، وما أنا من قلبي  
بمُنْتَصِرٍ  
فكل ذلك محمول على  
القَدْرِ

وقوله في البيت الأوسط كقوله: السريع:

قلبي إلى ما ضرني داعي  
لقلما أبقي على ما أرى

يُكثِرُ أسقامي وأوجاعي  
يوشك أن ينعاني الناعي  
كان عدوي بين أضلاعي؟

وقيل لعنان جارية الناطفي: من أشعرُ الناس؟ قالت: الذي يقول: الطويل:

وأهجركم حتى يقولوا: لقد  
سلاً  
ولكن إذا كان المحب على  
الذي

ولستُ بسالٍ عن هواك إلى  
الحشرِ  
يحبُّ شقيقاً نازع الناس  
بالهجرِ

وقال العباس: الطويل:

جری السيلُ فاستبكاني السيلُ  
إدْ جرى  
وما ذاك إلا أن تيقنْتُ أنه  
يكون أجاباً دونكم فإذا  
انتهى  
فيا ساكني شَرَقِي دجلة  
كلكم

وفاصتْ له من مقلتي  
غروبُ  
يمرُّ بوادٍ أنت منه قريب  
إليكم تلقى طيبكم  
فيطيب  
إلى القلب من أجل الحبيب  
حبيبُ

وقال الصولي: ناظر أبو أحمد علي بن يحيى المنجم رجلاً يُعَرَفُ بالمتفقه الموصلي في العباس بن الأحنف والعتابي، فعمل علي في ذلك رسالة أيفذها لعلي بن عيسى؛ لأن الكلام في مجلسه جرى. وكان ممّا خاطبه به أن قال: ما أهل نفسه قط العتابي لتقديمها على العباس في الشعر، ولو خاطبه مخاطبٌ لدفعه وأنكره؛ لأنه كان عالماً لا يُوتى من قلة معرفة بالشعر، ولم أر أحداً من العلماء بالشعر مهمل العتابي والعباس، فضلاً عن تقديم العتابي عليه لتباينهما في ذلك وإن العتابي متكلف، والعباس يتدفق طبعاً؛ وكلام هذا سهل عذب، وكلام ذلك متعقد كثر، وفي شعر هذا رقة وحلاوة، وفي شعر ذلك غلظ وجساسة، وشعر هذا في فن واحد وهو الغزل؛ وأكثر فيه وأحسن، وقد افتتن العتابي فلم يخرج في شيء منه عمّا وصفناه.

وإن من أحسن شعر العتابي قصيدته التي مدح بها الرشيد وأولها: البسيط:

يا ليلة لي في حورانٍ  
ساهرة

حتى تكلم في الصبح  
العصافيرُ

وقال فيها:

أفي الأماقي انقباض عن  
جفونهما

أم في الجفون عن الآماق  
تقصيرُ؟

وهذا البيت أخذه من قول بشار الذي أحسن فيه كل الإحسان، وهو قوله: الوافر:

جفت عيني عن التغميض  
حتى

كأن جفوتها عنها قصارُ

فمسخه العتابي، على أن بشاراً أخذه من قول جميل: المتقارب:

كَأَنَّ الْمَحَبَّ لِيَطُولَ السَّهَادِ قَصِيرُ الْجَفُونَ وَلَمْ تَقْصُرِ  
إِلَّا أَنْ بَشَارًا أَحْسَنَ فِيهِ؛ فَنَارِعُهُمَا إِيَّاهُ فَأَسَاءُ، وَإِنَّ حَقَّ مِنْ أَخَذَ مَعْنَى قَدْ سَبِقَ إِلَيْهِ أَنْ  
يَصْنَعَهُ أَجُودَ مِنْ صَنْعَةِ السَّابِقِ إِلَيْهِ، أَوْ يَزِيدَ عَلَيْهِ، حَتَّى يَسْتَحِقَّهُ، وَأَمَّا إِذَا قَصُرَ عَنْهُ فَهُوَ  
مَسِيءٌ مَعِيْبٌ بِالسَّرْقَةِ، مَذْمُومٌ عَلَى التَّقْصِيرِ.  
وَلَقَدْ هَاجَى أَبُو قَابُوسٍ النَّصْرَانِيَّ فَعُلِبَ عَلَيْهِ فِي كَثِيرٍ مِمَّا جَرَى بَيْنَهُمَا عَلَى صَعْفِ مُتَّةِ  
أَبِي قَابُوسٍ فِي الشَّعْرِ، ثُمَّ قَالَ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ: الْبَسِيطُ:

مَاذَا عَسَى مَا دَخَّ يُتْنِي عَلَيْكَ نَادَاكَ بِالْوَحْيِ تَقْدِيسُ  
وَقَدْ وَتَطْهِيرُ

فُتَّ الْمَمَادِحَ إِلَّا أَنَّ أَلْسِنَنَا مَسْتَعْلَنَاتٍ بِمَا تُخْفِي  
الضَّمَائِيرَ

فختم البيت فيها بأثقل لفظة لو وقعت في البحر لكدرته، وهي صحيحة، وما شيء  
أملك بالشعر بعد صحة المعنى من حُسنِ صِحَّةِ اللفظ، وهذا عمل التكلف، وسوء  
الطبع.

وللعباس بن الأحنف إحسان كثير، ولو لم يكن إلا قوله: الخفيف:

أَنْكَرَ النَّاسُ سَاطِعَ الْمِسْكِ لَةَ قَدْ أَوْسَعَ الْمَشَارِعَ طِيبًا  
مَنْ دَجَّ

فَهُمْ يَحْجَبُونَ مِنْهُ وَمَا يَدُ رُونَ أَنْ قَدْ حَلَلَتْ مِنْهُ قَرِيبًا  
فَاجْعَلِي لِي مِنَ التَّعْزِي نَصِيبًا  
قَاسِمِي هَذَا الْبَلَاءِ، وَإِلَّا

إِنَّ بَعْضَ الْعِتَابِ يَدْعُو إِلَى الْعَتِّ

وَإِذَا هِيَ الْقَلُوبُ لَمْ تُضْمَرْ وَالْعَطَا

وقوله: الكامل:

قَالَتْ مَرَضْتُ فَعُدُّهَا وَهِيَ الصَّحِيحَةُ وَالْمَرِيضُ  
فَتَبَرَّمْتُ الْعَائِدُ

تَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْقُلُوبَ كَقَلْبِهَا مَا رَقَّ لِلْوَلَدِ الصَّغِيرِ الْوَالِدُ  
إِنْ كَانَ ذَنْبِي فِي الزِّيَارَةِ إِنْ كَانَ ذَنْبِي فِي الزِّيَارَةِ  
فَاعْلَمِي لَجَاهِدُ

أَلْقَيْتَ بَيْنَ جَفُونِ عَيْنِي أَلْقَيْتَ بَيْنَ جَفُونِ عَيْنِي  
فُرْقَةً فُرْقَةً

يَقَعُ الْبَلَاءُ وَيَنْقُضِي عَنْ أَهْلِهِ يَقَعُ الْبَلَاءُ وَيَنْقُضِي عَنْ أَهْلِهِ

سَمَّاكَ لِي نَاسٌ وَقَالُوا: إِنَّهَا لَهِيَ الَّتِي تَشْتَقِي بِهَا وَتُكَابِدُ  
فَجَدْتَهُمْ لِيَكُونَ غَيْرَكَ طَنَّهُمْ إِنْ لِيَعْجِبُنِي الْمَحَبُّ الْجَاحِدُ

وقوله: المنسرح:

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَسَأْتُ بِي يَوْمَ لِرَاجٍ لِلْعَطْفِ مِنْكَ غَدَا  
أَلِ

أَسْتَمْتَعُ اللَّهُ بِالرَّجَاءِ وَإِنْ لَمْ أَرِ مِنْكُمْ مَا أَرْتَجِي أَبَدًا

وله: الكامل:

أَهْدَى لَهُ أَحِبَّابَهُ أُتْرَجَّةً فَبَكَى وَأَشْفَقَ مِنْ عِيَاةِ  
زَاجِرِ

متطيراً منها أتنه وجسْمُها  
ولئن وقى أبو أحمد العباسَ حَقَّهُ، لقد ظلم العتَّابي ما كان مستحقَّه، من سرِّ الكلام،  
وجوْدَة رصف النظام. قال الصولي في نسب العباس - وكان من خوْلته -: هو العباس  
بن الأحنف بن الأسود بن قُدامة بن هيمان من بني هَقان بن الحارث بن ذهل بن الديلم  
بن حنيفة. وله يقول الصريع يهجوا: البسيط:

بنو حنيفة لا يرصى الدَّعيُّ  
بهمم  
أذهب إلى عَرَبٍ تَرصى  
بنسبتهم

وقال أبو أحمد: قال، العباس: البسيط:

حُرُّ دِعاهُ الهوى سِرّاً قَلباًهُ  
طَوْعاً فَأصْحَكَ مَوْلَاهُ  
وأبكاها

فشا هَدَتْ بالذي يُخفي  
لَوَاحِظُهُ

جَارَيْتَنِي إِذَا رَعِيْتُ الوَدَّ بعدك  
أَنْ

اللَّهُ يشهدُ أَنِي لم أُحْنِك  
هوى

وقال: الكامل:

يا من يُكاتبني تَغْيُرُ قَلْبِي  
وأصْدُ عنك وفي يدي بقيَّة

يا للرجال لعاشقين تَوَاقِفا  
حتى إِذا خافا العيونَ وأشفقا

وقال: الكامل:

إلا مساترة العدو الكاشح  
أَبْقَى لَوْصِلِكَ من دُنُوِّ قَاصِحِ

وقال: الطويل:

يَهيمُ بحرّان الجزيرة قَلْبُهُ  
فيها عَزالُ فاترُ الطَرْفِ

يُؤازِرُهُ قَلْبِي عليّ وليس  
لي

فقر في الغزل

وقد قال سهل بن هارون: البسيط:

أعان طَرْفِي على قَلْبِي  
وأعضائي

وكنْتُ غِرّاً بما يجني على  
بَدَنِي

وقال النظام: الكامل:

إِنَّ العيونَ على القلوبِ إِذا  
جَتَّتْ

كانت بَلِيَّتِها على الأَجسادِ  
البحثري: البسيط:

ولستُ أَعْجَبُ من عِصْيَانِ      حَقًّا إذا كان قَلِيَّ فيكَ  
قَلْبِكَ لي      يَعْصِينِي

وقال الأصمعي: سمعتُ الرشيد يقول: قَلْبُ العاشق عليه مع مَعْشُوقِهِ. فقلت: هذا والله يا أمير المؤمنين أَحْسَنُ من قول عُروة بن حزام لِعَفْرَاءٍ في أبياته التي أنشدها: الطويل:

وإني لَتَعْرُونِي لِدِكْرَاكِ      لها بين جِلْدِي والعظام  
روعة      ديبُ  
وما هو إلا أن أراها فيه      فأبْهَتَ حتى لا أكاد أُجِيبُ  
فُجَاءَةً      وأضْرَفُ عن دائي الذي كُنْتُ  
أرتني      ويقرب مِنِّي ذِكْرُهُ وَيَعِيبُ

ويضمّر قَلْبِي غدرها وَيُعِينُهَا      عليّ، وما لي في الفؤاد  
تَصِيبُ

فقال الرشيد: من قال ذلك وَهَمًّا، فقد قلته علماً.  
باب الحكمة

قال علي بن عبيدة الريحاني: إِحْمٌ وَدَكَ فَإِنَّهُ عِرْضُكَ، وَضِنُّ الأَنْسِ بَكَ فَإِنَّهُ يُغْزِرُ حَظَّكَ، وَلَا تَسْتَكْثِرُ مِنَ الطَّمَانِينَةِ إِلَّا بَعْدَ اسْتِحْكَامِ التُّقَةِ؛ فَإِنَّ الأَنْسَ سِرِيرَةُ العَقْلِ، وَالطَّمَانِينَةُ بِذَلِكَ المَتَحَابِّينَ، وَلِيَمَسَّ لَكَ بَعْدَهُمَا تَحَقَّةٌ تَمُنَّحُهَا صَاحِبُكَ، وَلَا جِبَاءٌ تُوجِبُ بِهِ الشُّكْرَ عَلَى من اصْطَفَيْتَ.

وقال: ما أنصف مَنْ عاتبَ أخاه بالإِعْرَاضِ عَلَى دَنْبٍ كان منه، أو هجره لخلافٍ بما يكره عنده، إذا كان لا يعتدُّ في سالفِ أيامِ العشرةِ إلا بالرضا عنه، ومشاكلته فيما يُؤنسه منه، فإن كان العاتبُ شاكاً جميع ما ستره من أخيه أو لا، فلقد تُتَمَّمُ الموافقةُ حظَّ الإِغْتِفَارِ، وإن لم يكن وقى له بكلِّ ما استحقَّ منه فليقتصِّ ممَّا وجبَ منه عليه لأخيه بقدر ذنبه، ثم العودة إلى الألفةِ أولى من تشتتِ الشُّمْلِ، وأشبهُ بأهلِ التَّصَافِي، وأكْرَمُ في الأُحْدُوثَةِ عِنْدَ النَّاسِ. وقال: الحياءُ لِبَاسٌ سَابِعٌ، وَجِجَابٌ وَاقٍ، وَسِتْرٌ مِنَ المِساوِي، وَأخُو العِفافِ، وَخَلِيفَ الدِّينِ، وَمُصَاحِبُ بالصَّنْعِ، وَرَقِيبٌ مِنَ العِصْمَةِ، وَعَيْنُ كَالِئْتُهُ تَدُوذُ عَنِ الفِسادِ، وَتَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والأَدْناسِ.

وقال: لا يخلو أحد من صَبُوءٍ إِلَّا أن يكونَ جَاسِيَةَ الخَلْقَةِ، منقوصِ النِّبْيَةِ، أو على خلاف تركيب الاعتدال.

وصف الهوى

ورأى سعيد بن سلم بن قتيبة ابناً له قد شرع في رقيق الشعر وروايته، فأنكر عليه، فقيل له: إنه قد عشق، فقال: دَعُوهُ فإنه يَلطَفُ، وَيَنْظِفُ، وَيَطْرُقُ.

وقال الفضل بن أحمد بن أبي طاهر واسم أبي طاهر طيفور: وَصَفَ الهوى قوم وقالوا: إنه فضيلة، وإنه ينتج الحيلة، وبشجع قلبَ الجبان، ويسخِّي قلبَ البخيل، ويصفي ذهن الغبي، ويطلق بالشعر لسات المَفْحَمِ، ويبعث حَرَمَ العاجز الضعيف، وإنه عزيز تذلُّ له عِرَّةُ الملوِكِ، وتَضْرَعُ فيه صَوْلَةُ الشجاع، وتَنقَادُ له طاعةُ كلِّ ممتنع، ويدلُّ كلَّ مستصعب، ويبرز كل محتجب، وهو داعية الأدب، وأولُ باب به تُفْتَقُّ به الأذهان والفطن، وتستخرج به دقائق المكاييد والحيل، وإليه تستريح الهَمَمُ، وتسكن نوافِرُ الأخلاقِ والسِّيمِ، يُمتع جليسه، ويؤنس أليقه، وله سرورٌ يجول في النفس، وفرحٌ مستكن في

القلب، وبه يتعاطف أهل المودّة، ويوصل أهل الألفة، وعليه تتألف الأشكال، وله صولات على القدر، ومكايد تُبطل لطائف الحيل، وظرف يظهر في الأخلاق والخلق، وأرواح تسطع من أهلها، وتغيب من ذوبها.

وقال اليماني بن عمرو مولى ذي الرياستين. كان ذو الرياستين يتبعني بي وبأحداث من أهله إلى شيخ بخراسان ويقول: تعلّموا منه الحكمة؛ فكنا تأتيه، وإذا انصرفنا من عنده اعترضنا ذو الرياستين يسألنا عمّا أفادنا فنخبره؛ فسرنا إلى الشيخ يوماً فقال لنا: أنتم أدباء، وقد سمعتم الحكمة، وفيكم أحداث، ولكم نغم، فهل فيكم عاشق؟ قلنا: لا، قال: اعشقوا؛ فإن العشق يُطلق الغبي، ويفتح حيلة البليد، ويسخي كف البخيل، ويتبعث على النظافة وحسن الهيئة، ويدعو إلى الحركة والذكاء، وشرف الإهمة وإياكم والحرام. قال: فانصرفنا، فسألنا عمّا أفادنا في يومنا؛ فهبنا أن نخبره، فعزم علينا. قلنا له: أمرنا بكذا وكذا، قال: صدق، أتعلمون من أين أخذ هذا الأدب؟ قلنا: لا. قال: إن بهرام جور كان له ابن رشحه للملك من بعده، فنشأ ساقطاً الهمة، حامل المروءة، دنيء النفس، سيئ الأدب، كليل القريحة، كهام الفكر؛ فغمه ذلك، ووكل به من المؤدبين والمنجمين والحكماء من يلازمه ويُعلمه، وكان يسألهم فيحكون له ما يسوءه، إلى أن قال له بعض مؤدبيه: قد كنا نخاف سوء أدبه فحدث من أمره ما صرنا إلى اليأس منه، قال: وما ذلك؟ قال: رأينا ابنة فلان المرزبان فعشقتها فغلبت عليه، فهو لا يهذي إلا بأمرها، ولا يتشاعل إلا بذكرها، فقال بهرام جور: الآن رجوت صلاحه. ثم دعا بابي الجارية فقال: إني مسير لك سراً فلا يعدوك. فصمنا له بسرّه فأعلمه أن ابنته قد عشق ابنته وأنه يريد أن ينكحها إياه، وأمره أن يأخذها بإطماعه بنفسها، ومراسلته من غير أن يراها، أو تقع عينه عليها؛ فإذا استحكم طمعه فيهما تجنّب عليه، وهجرته، فإذا استعنتها أعلمته أنها لا تصلح إلا للملك، أو من همته همّة ملك، وأن ذلك يمنعها من مؤاصلته، ثم ليعلمه خبرها وخبره، ولا يطلعها على ما أسر إليه، فقبل ذلك أبوها منه.

ثم قال للمؤدّب: خوّفه بي، وشجّع على مراسلة الجارية، ففعل ذلك، وفعلت الجارية ما أمرها به أبوها؛ فلما انتهت إلى التجني عليه، وعلم الفتى السبب الذي كرهته من أجله أخذ في الأدب، وطلب الحكمة، والعلم والفروسية، ولعب الصّوالجة، والرماية، حتى مَهَر في ذلك، وُرِفِع إلى أبيه أنه يحتاج من المطاعم والآلات والدواب والملابس والوزراء فوق الذي كان له؛ فسرّ الملك بذلك، وأمر له بما أراد، ودعا بمؤدّبه، فقال: إن الموضوع الذي وضع ابني نفسه فيه بحب هذه المرأة لا يُزري به، فتقدم إليه أن يرفع أمرها إليّ ويسألني أن أزوجه إياها، ففعل، فزوجهّا منه، وأمر بتعجيل نقلها إليه، وقال له: إذا اجتمعت أنت وهي فلا تُحدث شيئاً حتى أصير إليك. فلما اجتمعا صار إليه فقال: يا بني، لا يضعنّ منها عندك مراسلتها إياك، وليست في جبالك، فانا أمرتها بذلك، وهي من أعظم الناس منةً عليك، بما دعتك إليه من طلب الحكمة، والتخلق بأخلاق الملوك، حتى بلغت الحد الذي تصلح منه للملك بعدي؛ فزدها في التشريف والإكرام بقدر ما تستحق منك. ففعل الفتى ذلك، وعاش مسروراً بالجارية، وأبوه مسروراً به، وزاد في إكرام المرزبان، ورفّع مرتبته وشرفه بصيانتته لسره وطاعته، وأحسن جائزته وجائزة المؤدّب بامتناله أمره،

وَعَقَدَ لابنه الملك من بعده. قال اليماني: وكان الشيخ الحسن بن مصعب.  
ثم قال ذو الرياستين، قال علي بن بلال: الطويل:

سيهلك في الدنيا شَفِيقٌ      إذا غَالَهُ مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ  
عَلَيْكُمْ      غَائِلُهُ  
وَيُخْفِي لَكُمْ حُبًّا شَدِيدًا      وللناس أَشْغَالٌ، وَحُبُّكَ  
وَرَهْبَةٌ      شَاغِلُهُ  
كريمٌ يُمِيتُ السَّرَّ حَتَّى      إذا اسْتَخْبَرُوهُ عَن حَدِيثِكَ،  
كَانَهُ،      جَاهِلُهُ

يَوَدُّ بَأْنَ يُمَسِّي عَلِيًّا لَعَلَّهَا      إذا سَمِعْتَ عَنْهُ بِشَكْوَى  
وَيَزَّاحُ لِلْمَعْرُوفِ فِي طَلَبِ      تُرَايِلُهُ  
الْعُلَا      لِتُحْمَدٍ يَوْمًا عِنْدَ لَيْلَى  
شَمَائِلُهُ

وذكر أعرابي الهوى فقال: هو أعظم مسلكاً في القلب من الروح في الجسم، وأملك بالنفس من النفس، يطهر ويبطن، ويكنف ويلطف، فامتنع عن وصفه اللسان، وعيى عنه البيان! فهو بين السخر والجفون، لطيف المسلك والكمون. وأنشد: الطويل:

يقولون لو دبرت بالعقل حبها      ولا حير في حُبِّ يدبر بالعقل

من إنشاء الميكالي وشعره

فصل للأمير أبي الفضل الميكالي: لا زالت الأيام تزيد رُبَّتَهُ ارتفاعاً، وباعه اتساعاً، وعزته غلبةً وامتناعاً، فلا يبقى مجدٌ إلا شيدته معاليه ومكارمه، ولا ملك إلا افترعته صرائمه وصوارمه.

وله فصل: لا زالت حياة الأحرار بفضله متسمة، ووجوه المكارم بغير أيامه مبتسمة، وأهواء الصدور بخدمة وده مرتسمة، وغنائم الشكر بين محاسن قوله وفعله مقتسمة.

وله: الله يُدِيمُ رايةَ الأميرِ الجليلِ محفوفةً بالقَلَجِ والنصرِ، مكنوفةً بالغلبة والقهر، حتى لا يزاوِلَ حَطْبًا إلا تَذَلَّتْ بِهِ صِعَابُهُ، ولا يُمارِسَ أمراً إلا تيسرتُ أسيابُهُ، ولا يَزُومَ حالاً إلا أذعن لهيبته وسلطانه، وخضع لسيفه وسنانه، وذل لمعقِدِ لوائه، ومنثنى عنانه، إلى أن ينال من آماليه أقاصيها، وبملك من مَبَاغِيهِ أزمَّتْهَا ونواصيها ويُسَامِي الثريا بعلو هقته وبناصيها.

وله فصل: إنما أشكو إليك زماناً سلب ضعف ما وهب، وقجع بأكثر مما أمتع، وأوحش فوق ما أنس، وعنف في نزع ما ألبس؛ فإنه لم يُذِقْنَا حلاوة الاجتماع، حتى جررنا مرارة الفراق، ولم يمتعنا بأنس الالتقاء، حتى غادرنا رهن التلهف والاشتياق، والحمد لله تعالى على كل حال يُسيء ويسر، ويخلو ويؤمر، ولا أياس من رُوحِ إله في إباحة صنع يجعل رُبْعَهُ مُتَاخِي، ويُقَصِّرُ مَدَّةَ البعاد والتراخي، فالاحظ الزمان بعين راض، ويُقبِلُ إليّ حظي بعد إعراض، وأستأنف بعزته عيشاً سايع الذبول والأعطاف، رقيق المعاني والأوصاف، عذب الموارد والمناهل، مأمون الآفات والغوائل.

وله فصل: انا أسأل الله تعالى أن يرد علي برز العيش الذي فقدته، وفسحة السرور الذي عهدته؛ فيقصر من الفراق أمده، ويعلو للالتقاء حكمه ويده، ويرجع ذلك العهد الذي رقت غلائله، وصفت من الأقداء مَنَاهِلَهُ، فلم أتهدأ بعده بأنس مقيم، ولا تعلقت يوماً إلا بعيش بهيم:  
الطويل:

فلو تَرَجَعَ الأيامُ بيني وبينه      بذى الأئيل صيفاً مثل صيفي

ومَرَبَعِي

أَشُدُّ بِأَعْنَاقِ النُّوَى بَعْدَ هَذِهِ مَرَاتِرٍ إِنْ جَادَبْتُهَا لَمْ تَقَطِّعْ  
وما على الله يعزير أن يقرب بعيداً، ويهب طالعاً سعيداً، ويُسهّل عسيراً، ويفك من رقّ  
الاشتياق أسيراً.

وله فصل من كتاب إلى أبي منصور عبد الملك الثعالبي: قرأتُ خبر سلامته، فسرى  
السروُرُ في الجوانح، واهتَرَتِ النفسُ له اهتزازَ العُصنِ تحت البارج: الطويل:

أليس لأخبار الأحبة فرحةٌ  
ولا فرحة العطشان فاجأهُ  
القطرُ

يقولون: قد أوقى لوقتِ  
كتابه  
فتنتشر البشري وبنشرِ  
الصدُرِ

ثم سألت الله تعالى أن يحرسَ علينا سلامته سابعةَ الملابس والمطارف،  
موصولة التاليد بالطارف.

وله فصل من كتاب تعزية عن أبي العباس بن الإمام أبي الطيب: لئن كانت  
الرزية مُمصّنة مؤلمة؛ وطُرُقُ العزاء والسُلوة مُبهمّة، لقد حلت بساحة من لا  
تنتفيض بأمثالها مرائرُه، ولا تصعّف عن احتمالها بصائرُه، قد يتلقاها بصدُرٍ  
فسيح، يحمي أن يبيح الحُرْن جنابه، وصبرٍ ميثيح، يحمي أن يُحيط الجزعُ  
أجره وثوابه؛ كيف لا وأدبُ الدين من عنده ثلّمس؛ وأحكامُ الشرع من  
لسانه وبده تُستفاد وتُقَبَس، والعيون ترمقه في هذه الحال لتجري على  
سننه، وتأخذ بأدابه وسننه، فإن تعرت القلوب فبحسب تماسكه عزأؤها، وإن  
حسنت الأفعال فإلى حميد أفعاله ومذاهبه اعتزأؤها.

من شعر الميكالي

جملة من شعره في تحسين القوافي والغزل: قال: الوافر:

عذيري من جفونٍ رامياتٍ  
بسنهم السحر من عيني  
غزال

لأنتصرن منه بمنّ عزالِي

وله أيضاً: المتقارب:

أما حان أن يشتفي  
المُسْتَهَامُ

برؤورة وصلٍ وتأوي له؟

وبعلم علمك تأويله

وقال أيضاً: الطويل:

شكوتُ إليه ما ألقى فقال  
لي:

روبدًا ففي حكم الهوى أنت  
مؤتلي

فلو كان حقاً ما ادّعت من  
الجوى

لقلّ بما ألقى إذاً أن تموت  
لي

وقال أيضاً: الطويل:

تفرق قلبي في هواه،

فعنده

فريقٌ وعندي شعبةٌ وقريقٌ

إذا ظمّنت نفسي أقول لها:

اسقني

فإن لم يكن راخٌ لديك  
قريقٌ

وقال أيضاً: مجزوء الرجز:

شافة كفي رشاً

فقلت إذ قبلها

بقبلّة ما شفّت

يا ليت كفي شفّتي

وقال: البسيط:

يا شادناً غاب نجم الحسن  
لولا  
قد كان يوسف لماً مات ولأه  
فاشتط في الحكم لولا أن  
تولاه  
ولاه رقي طرف في شمائله  
ارجم فتى مُدنفاً ما إن  
يخلصه  
من عمرة الوجد إلا أنت  
والله

قضاء الحاجة

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: حدثني أبو الهيثم بن السنيدي بن شاهك قال: قلت في أيام ولآيتي الكوفة لرجل من أهلها لا يجف قلمه ولا تستريح يده، ولا تسكن حركته في طلب حوائج الناس، وإدخال المنافع على الضعفاء، وكان رجلاً مفاوهاً: أخبرني عن الشيء الذي هوّن عليك النصب، وقوّاك على التعب، ما هو؟ قال: قد، والله، سمعت تغريد الأطيّار بالأشجار على أفنان الأشجار، وسمعت حفق أوتار العيدان، وترجيح أصوات القيّان، فما طربت من صوت قط طربي من ثناء حسن، على رجل قد أحسن، ومن شاكر منعم، ومن شفاعة شفيح محتسب لطالب ذاكر.  
فقال أبو الهيثم: فقلت له: لله أبوك! لقد خشيت كرمياً! فبأي شيء سهلت عليك المعاودة والطلب؟ قال: لا أبلغ المجهود، ولا أسأل إلا ما يجوز، وليس صدق العذر بأكره إليّ من إنجاز الوعد، ولست لإكراه السائل بأكرة مني لإجحاف المسؤول، ولا أرى الراغب أوجب حقاً عليّ للذي قدم من حُسن ظنه من المرغوب إليه للذي احتمل من كله. قال إبراهيم: ما سمعتُ كلاماً قط أشدّ مؤالفة لموضعه، ولا أليق بمكانه، من هذا الكلام.

بين أسيد بن عنقاء الفزاري وعميله الفزاري

وروي أبو بكر بن شقير النحوي عن أحمد بن عبيد قال: كان أسيد بن عنقاء الفزاري من أكبر أهل زمانه، وأشدّهم عارضةً ولساناً، وطال عمره، ونكبه دهره؛ فاختلفت حاله، فخرج يتنقل لأهله؛ فمّر عليه عميلة الفزاري، فسلم عليه، وقال: يا عمّ؛ ما أشارك إلى ما أرى؟ قال: بخلٌ مثلك بماله، وصونٌ وجهي عن مسألة الناس. قال: أما والله لئن بقيت إلى غدٍ لأعيرن من حالك ما أرى، فرجع ابن عنقاء إلى أهله فأخبرهم بما قال عميلة، فقالوا له: عزّك كلامٌ غلام جُنح ظلام فكانما أقموا فاهُ حجراً؛ فبات متملماً بين رجاء وبأس، فلما كان السحر سمع زُغاء الإبل، وتُغاء الشاء، وصهيل الخيل، ولجّج الأموال، فقال: ما هذا؟ قالوا: عميلة قد ساق إليك ماله، فخرج ابن عنقاء له، فقسم ماله سطرين، وساهم عليه، فأنشأ ابن عنقاء يقول: الكامل:

راني على ما بي عميلة  
فاشتكى  
إلى ماله حالي، أسرّ كما  
جهر  
دعاني فواساني، ولو صنّ لم  
يلم  
فقلت له خيراً، وأثنت  
فعلّه  
وأوفاك ما أوليت من دمّ أو  
شكر  
تردى بثوبٍ سايب الذيل  
واترر  
له سيمياء لا تشقّ على  
البصر  
وفي أنفه الشّعري وفي خده  
كان الثريا عُلق في

جبينه  
إذا قيلت العوراء أَعْضَى  
كأنه  
كلابي يمدح غنوباً  
وأُنشد أبو حاتم عن أبي عبيدة لِلْعَرْنَدَسِ أحد بني بكر بن كلاب يمدح بني عمرو  
الْعَتَوِيِّينَ، وكان الأصمعي يقول: هذا من المحال، كلابي يمدح غنوباً: البسيط:  
هَيُّونَ لَيُّونَ أَيَسَارُ ذُوو  
كِرْمِ  
أيسار  
إِن يُسألُوا العُرْفَ يُعْطُوهُ، وَإِن  
فِي الجَّهْدِ أُدْرِكَ مِنْهُم طَيْبُ  
أخبار  
حُبِرُوا  
لا يُنْطَقُونَ عَنِ الأَهْوَاءِ إِنْ  
تَطْفُو  
ولا يُمارُونَ إِنْ مارَوْا بِإِكْثَارِ  
مَنْ تَلَقَّ مِنْهُم تَقْلُ لاقِيَتْ  
مثلَ النجومِ التي يسري بها  
الساري  
سَيِّدَهُم  
منهم وفيهم يُعَدُّ الخَيْرُ  
متليداً

الدهر لا ينصف

فصل لبعض الكتاب - ما تعجبك مما لقيت من الحيف! هل ضمن الدهر أن  
يُنْصِفَ ولا يَحِيفَ، أو يُبْرِمَ فلا يَنْقُضَ، أو يُعَافِي فلا يُمْرِضَ، أو يصفو فلا يكدر،  
أو يفي فلا تغدر. قدر أن تغذب لي ميساربه، وتلين لي جوانبه، فحكم الدنيا لا  
تترك حامداً لها إلا أسكتته، ولا ضاحكاً إلا أبكته، أقوى ما كان بها ثقة، وأشد  
ما كان لها مقة، وأوكد ما كان ركوناً إليها، وأعظم ما كان حرصاً عليها.  
الاستخفاف بحق النعم

وقال بعض الكتاب يصف رجلاً بالذم: ما ظنك بمن يعنف بالنعم عنف من  
سأته مجاورتها، ويستخف بحققها استخفاف من تقل عليه حملها، ويطرخ  
الشكر عليها أطراح من لا يعلم أن الشكر يرتبطها.  
فقر في المدح

وقال أبو الشيبان: البسيط:

يا من تمنى على الدنيا  
مبالغها  
ها سألَت أبا بشر فتعطاه؟  
ولا ارتقى غاية إلا تخطأها  
ما هبت الريح إلا هب تائله  
غيره: الطويل:

طلابُ العَلَا إلا عليك يسيرُ  
وباعُ الأَعادي عن مَدَاكَ  
قَصِيرُ

إذا عُدَّ أهلُ الفضلِ كنت  
الذي له

وقال أبو الحناء الأصغر نُصِيبُ يصف  
كان ابن صباح، وكندة حوله  
على أن في البدر المحاق،  
وإن ذا

تمامُ فما يزداد إلا تتما  
إذا ما علا أَعوادُه وتكلَّمَا

ترى المنبر الغربي يهترُّ

تحتة

فأنت ابن خير الناس إلّا

ومن قبلها كنت السنم  
المقدّما

نبوة

وُصِبَ هو القائل في البرامكة، وكان منقطعاً إليهم: الكامل:

عند الملوك مَضْرَّةٌ ومنافعُ

وأرى البرامك لا تَصُرُّ وتنفَعُ  
أثّ النبات بها وطاب المَرْع

إن العروق إذا استسرَّ بها  
الثرى

فإذا جهلت من امرئ

وقدِمةً فانظر إلى ما يصنع

أعراقه

أخذ هذا من قول سلم الخاسر: المنسرح:

لا تسأل المرء عن خلائقه

في وجهه شاهدٌ من الخبر

وقال نُصِيب في بني سليمان بن علي: البسيط:

بني سليمان حَزْمٌ كلٌّ

وليس فوقكم فخْرٌ لمفتخر

مَكْرمة

لا تسأل المرء يوماً عن

في وجهه شاهدٌ ينبئك عن

خلائقه

حَسْبُ امرئ شرفاً أن ساد

وأنت سُدتَّ جميعَ الجنِّ

أَسْرته

والبشر

سأل سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت رجلاً حاجة، فلم يقضها، وسأل آخر، فقضاها، فقال للأول: الطويل:

دُمت ولم تُحمد، وأبئتُ

تَوَلّى سواكم شكرها

بحاجة

أبى لك فعلَ الخيرِ رأيٌ

وَفَسُّ أضاق الله بالبخل

مَقْصُرٌ

بأعها

إذا ما أرادته على الخيرِ

عصاها، وإن هَمَّتْ بشرٌ

مَرَّةً

أطاعها

الجود والعطاء

قال رجلٌ لهشام بن عبد الملك: قد افتقرتُ يا أمير المؤمنين إلى ظهور حسن رأيك، فإن رأيت إظهاره بسرور الصديق، ورغم العدو، فعلت، قال هشام: أوجزت وملحت فيما سألت، فلا تردّ لك طليبة، فما سأله شيئاً إلا أعطاه أكثر منه.

قال حميد بن بلال: ولي عمرو بن مسعدة فارس وكرمان، فقال له بعض أصحابه: أيها الأمير، لو كان الحياء يظهر سؤالاً لدعاك حيائي من كرمك في جميع أهليك إلى الإقبال عليّ بما يكثر به حسد عدوي، دون أن أسألك، فقال عمرو: لا تبغ ذلك بابتذالك ماءً وجهك، ونحن نُغنيك عن إراقته في خوض السؤال، فأرفع ما تريده في رُقعة يصل إليك سرّاً ففعل.

وقال رجل من أهل فارس: قدم على محمد بن طيفور، وهو عامل على بلاد أصبهان لبعض أهلها: كم تقدرون صلوات محمد في كل سنة للشعراء والمتوسّلين؟ قالوا: مائة ألف دينار، سوى الخلع والخمّلان.

وورد عليه يوماً كتابٌ من بعض إخوانه في شأن رجل استماحه له في درجه: أنت أعزك الله تعالى أجل من أن يتوسّل بغيرك إليك، وأن يُستماح جودك إلا بك، غير أنني أذكرك بكتابي في أمر حامله، ما شرع كرمك من الشكر وررع

إحسانك من الأجر، قَبِلَ الصادرين والواردين؛ فهَنَّكَ اللهُ تعالى ذلك، ولازالت يدُ الله بجميل إحسانه ونعمته متواترةً عليك.  
فقال محمد للرجل: احتكم لك وله؛ فأخذ منه ألفَ دينار، ولمن كتب له مثلي.

وقال رجلي لإبراهيم بن المهدي: قد أوحشني منك ترُدُّ غليل في صدري أهأبُك عن إظهاره، وأجلك عن كَشْفِهِ، فقال له إبراهيم: لكني أكشف لك معروفِي، وأظهر إحسانِي؛ فإن يكن غير هذين في حَلَدِكَ، فاكْتُبْ رقعة يخرج توقيعي سرًّا لتَقِفَ على ما تحب، فبلغ كلامه المهدي فقال: هذا والله غاية الكرم.

وكتب محمد بن طيفور لبعض خاصته بمال وصَّاه به، فكتب الرجل إليه: قد استغوقتُ نِعْمَتَكَ وجوهَ الشكر لك، وعُرِّرَ أَلْحَمِدِ فيما سلف منك، ولولا قَرُطُ عجزِي عن تلقِّي ما يجب لك من الحمد لقبلتُ ما أنفذته.

فكتب إليه محمد: قد صَغَّرَ شُكْرُكَ لِنَا ما أسلفناه إليك؛ فحُدِّ ما أنفذناه نوابًا عن معرفتك بِشُكْرِ التافه عندي، وإلاَّ سمح شُكْرُكَ بما رأيناك له أهلاً إلى أن يتَّسع قبول مثلك، ما يستحق به جميل الدعاء، وجزيل الشاء، إن شاء الله تعالى.

رثاء قرد وثور  
ولما مات قِرْدٌ زُبَيْدة بنت جعفر ساءها ذلك، ونالها من الغم ما عَرَفَهُ الصغير والكبير من خاصَّتها، فكتب إليها أبو هارون العبدي: أيتها السيدة الخطيرة؛ إنَّ مَوْعَ الحَظْبِ بذهاب الصغير المعجب كموقع السرور بنيل الكثير المفرح، ومَن جهل قَدْرَ التعزية عن التافه الخفي، عَمِيَ عن التهنئة بالجليل السني، فلا تَقْصُكِ اللهُ الزائد في سرورك، ولا حَرَمَكَ أَجْرَ الذاهب من صغيرك. فأمَرَتْ له بجائزة.

وكتب أبو إسحاق الصابي عن ابن بقية في أيام وزارته إلى أبي بكر بن قريظة بعزبه عن ثور أبيض بقوله، وجلس للعزاء عنِّي تَرَأْفًا وتحامقًا: التعزية على المفقود أطال الله بقاء القاضي إنما تكون بحسب محله من فاقده من غير أن تُرَاعَى قيمته ولا، قَدْرُهُ، ولا ذاته ولا عينه؛ إذ كان الغرض فيها تبريد العلة، وإخماد اللوعة، وتسكين الرِّفْرِ، وتنفيس الكربة، فربَّ وَلِدٍ عاق، وشقيق مُسَاقٍ، وذو رحم أصبح لها قاطعاً، ولأهله فاجعاً، وقريب قوم قد قلدهم عارا، وناط بهم شتارا، فلا لوم على ترك التعزية عنه، وأجر بها أن تستحيل تهنة بالراحة منه؛ وربَّ مالٍ صامتٍ غير ناطق، قد كان صاحبه به مستظهاً، وله مستثمر، فالجميعه به إذا فقد موضوعه موضعها، والتعزية عنه واقعة منه موقعها. وقد بلغني أن القاضي أصيب بثور كان له، فجلس للعزاء عنه شاكياً، وأجهش عليه باكياً، والتدم عليه وآله، وحكيت عنه حكايات، في التأين له، وإقامة التدبة عليه، وتعدد ما كان فيه من فضائل البقر التي تفرقت في غيره، واجتمعت فيه وحده. فصار كما قال أبو نواس، في مثله من الناس: السريع:

ليس على الله بمستنكر  
أن يجمع العالم في واحد  
لأنه يَكْرُبُ الأرض مغمورة ط ويثيرها مزروعة، ويرقص في الدواليب ساقياً وفي الأرجاء طاحناً، ويحمل الغلات مستقلاً، والأثقال مستحقاً؛ فلا يؤوده عظيم، ولا يعجزه جسيم، ولا يجري في الحائط مع شقيقه، ولا في الصلح مع رفيقه، إلا كان جلدًا لا يسبق، ومبرزاً لا يلحق، وفائتاً لا ينال شأوه وغايته، ولا يبلغ مداه ونهايته. وبشهد الله أن ما ساءه ساءني، وما ألمه ألمني، ولم يَجُزْ عندي في حق وده استصغارُ حَظْبِ جَلِّ عنده، فأرقه وأمَّصه وأقلقه، ولا تهوين صعب بلغ منه وأرضه، وشقَّه وأمراضه؛ فكتبت هذه الرقعة، قاضياً بها من الحق في مصابه هذا بقدر ما أظهر من إكباره

إِيَّاهُ، وَأَبَانَ مِنْ إعْظَامِهِ لَهُ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَخْصَّهَ مِنَ الْمَعْوِضَةِ بِأَفْضَلِ مَا خَصَّ بِهِ الْبَشَرَ، عَنِ الْبَقْرِ، وَأَنْ يُفَرِّدَ هَذِهِ الْبَهِيمَةَ الْعَجْمَاءَ بِأَثَرَةٍ مِنَ الثَّوَابِ، يَضِيفُهَا إِلَى الْمَكْلُفِينَ مِنْ أَهْلِ الْأَلْبَابِ؛ فَإِنَّهَا وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ، فَقَدْ اسْتَحَقَّتْ إِلَّا تُفَرِّدَ عَنْهُمْ، بَانَ مَسَّ الْقَاضِي سَبْبُهَا، وَصَارَ إِلَيْهِ مَنْتَسِبُهَا، حَتَّى إِذَا أَنْجَزَ اللَّهُ مَا وَعَدَ بِهِ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، مِنْ تَمْحِصِ سَيِّئَاتِهِمْ، وَتَضْعِيفِ حَسَنَاتِهِمْ، وَالْإِفْضَاءِ بِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ الَّتِي رَضِيَهَا لَهُمْ دَارًا، وَجَعَلَهَا لِحِمَايَتِهِمْ قَرَارًا؛ وَأُورِدَ الْقَاضِي - أَيَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى - مَوَارِدَ أَهْلِ النَّعِيمِ؛ مَعَ أَهْلِ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، جَاءَ وَتَوَزَّهَ هَذَا مَجْنُوبٌ مَعَهُ، مَسْمُوحٌ لَهُ بِهِ؛ وَكَمَا أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا الْخَبِيثُ، وَلَا يَكُونُ مِنْ أَهْلِهَا الْحَدِيثُ، وَلَكِنَّهُ عَرَقٌ يَجْرِي مِنْ أَعْوَابِهِمْ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ تَوْرَ الْقَاضِي مَرْكَبًا مِنَ الْعَنْبَرِ الشَّحْرِيِّ، وَمَاءِ الْوَزْدِ الْجُورِيِّ؛ فَيَصِيرُ تَوْرًا لَهُ طَوْرًا؛ وَجُوتَةً عَطَّرَ لَهُ طَوْرًا وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمُسْتَبْعَدٍ وَلَا مُسْتَنْكَرٍ، وَلَا مُسْتَصْعَبٍ وَلَا مُتَعَدِّرٍ؛ إِذْ كَانَتْ قُدْرَةُ اللَّهِ بِذَلِكَ مُحِيطَةً، وَمَوَاعِيدِهِ لِأَمْثَالِهِ ضَامِنَةً؛ بِمَا أَعَدَّهُ اللَّهُ فِي الْجَنَّةِ لِعِبَادِهِ الصَّادِقِينَ، وَأَوْلِيَائِهِ الصَّالِحِينَ؛ مِنْ شَهْوَاتِ أَنْفُسِهِمْ وَمَلَادِّ أَعْيُنِهِمْ، وَمَا هُوَ سَبْحَانَهُ مَعَ غَامِرِ فَضْلِهِ وَفَائِضِ كَرَمِهِ، بِمَانَعِهِ ذَلِكَ مَعَ صَالِحِ مَسَاعِيهِ، وَمَحْمُودِ شَيْمِهِ؛ وَقَلْبِي مُتَعَلِّقٌ بِمَعْرِفَةِ خَبْرِهِ، أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ فِيمَا أَدْرَعَهُ مِنْ شِعَارِ الصَّبْرِ، وَاحْتَفَظَ بِهِ مِنْ إِثَارِ الْآخِرِ، وَرَفَعَ إِلَيْهِ مِنَ السُّكُونِ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الَّذِي طَرَقَهُ، وَالشُّكْرَ لَهُ فِيمَا أَرْعَجَهُ وَأَقْلَقَهُ، فَلْيَعْرِفْنِي الْقَاضِي مِنْ ذَلِكَ مَا أَكُونُ ضَارِبًا مَعَهُ بِسْتَهْمِ الْمُسَاعَدَةِ عَلَيْهِ، وَأَخَذًا بِقَسْطِ الْمَشَارَكَةِ فِيهِ.

فَصَلَ مِنْ جَوَابِ أَبِي بَكْرٍ: وَصَلَ تَوْقِيعُ سَيِّدِنَا الْوَزِيرِ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاةً، وَأَدَامَ تَأْيِيدَهُ وَنِعْمَاهُ، وَأَكْمَلَ رَفْعَتَهُ وَعُجْلَاهُ، وَحَرَسَ مَهْجَتَهُ وَوَقَاةً، بِالتَّعْزِيزَةِ عَنِ الثَّوْرِ الْأَبْيَضِ، الَّذِي كَانَ لِلْحَرِثِ مَثِيرًا، وَلِلدَّوَالِبِ مُدِيرًا، وَبِالسَّبْقِ إِلَى سَائِرِ الْمَنَافِعِ شَهِيرًا، وَعَلَى شِدَائِدِ الزَّمَانِ مُسَاعِدًا وَظَهِيرًا. لَعَمْرُكَ لَقَدْ كَانَ يَعْمَلُهُ نَاهِضًا، وَلِحِمَاقَاتِ الْبَقْرِ رَافِضًا، وَأَتَى لَنَا بِمَثَلِهِ وَشَرَّوَاهُ، وَلَا شَرُورِي لَهُ؛ فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ أَعْيَانِ الْبَقْرِ، وَأَنْفَعِ أَجْنَاسِهِ لِلْبَشَرِ، مُضَافٌ ذَلِكَ إِلَى خَلَاتٍ لَوْلَا خَوْفِي مِنْ تَجَدُّدِ الْحَزَنِ عَلَيْهِ، وَتَهْيِيجِ الْجِرْعِ وَأَنْصِرَافِهِ إِلَيْهِ لَعَدَدْتُهَا؛ لِيَعْلَمَ - أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ - أَنَّ الْحَزِينَ عَلَيْهِ غَيْرَ مَلُومٍ، وَكَيْفَ يُلَامُ أَمْرًا فَقَدَ مِنْ مَالِهِ قِطْعَةً يَجِبُ فِي مِثْلِهَا الزَّكَاةُ، وَمَنْ حَدَمَ مَعِيشَتَهُ بِهَيْمَةِ تُعِينُ عَلَى الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ، وَقَدْ احْتَدَيْتُ مَا مِثَّلَهُ الْوَزِيرُ مِنْ جَمِيلِ الْإِحْتِسَابِ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْمُصَابِ؛ فَقُلْتُ: "إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، قَوْلٌ مِنْ عِلْمٍ أَنَّهُ أَمْلِكُ لِنَفْسِهِ وَمَالِهِ وَأَهْلِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا دُونَهُ؛ إِذْ كَانَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، هُوَ الْمَلِكُ الْوَهَّابُ، الْمُرْتَجِعُ مَا ارْتَجَعَ مِمَّا يَعْوِضُ عَلَيْهِ نَفِيسَ الثَّوَابِ. وَقَدْ وَجَدْتُ - أَيَّدَ اللَّهُ الْوَزِيرَ - لِلْبَقْرِ خَاصَةً فَضِيلَةً عَلَى سَائِرِ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ، تَشْهَدُ بِهَا الْعُقُولُ وَالْأَفْهَامُ، وَذَكَرَ جَمَلَةً مِنْ فَضَائِلِهَا. وَكَأَنَّ أَبَا نَوَاسٍ فِي قَوْلِهِ: السَّرِيعُ:

أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ

لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ

تَطَّرَ فِي هَذَا الْمَعْنَى إِلَى قَوْلِ جَرِيرٍ: الْوَافِرُ:

حَسِبْتُ النَّاسَ كُلَّهُمْ غِضَابًا

إِذَا غَضِبْتُ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ

رِثَاءَ الْأَشْخَاصِ

وَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْعَرَبِ، يُقَالُ: إِنَّهَا امْرَأَةُ الْعَبَّاسِ عَمِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَرْتِي بِنَيْهَا: الْبَسِيطُ:

رَعَوْا مِنَ الْمَجْدِ أَكْنَافاً إِلَى  
أَجَلٍ  
مَيّت بمصر، وميّت بالعراق،  
ومَيّ

كَانَتْ لَهُمْ هِمَمٌ فَرَقْنَ  
بَيْنَهُمْ  
بَثَّ الْجَمِيلِ، وَتَفْرِغِ الْجَلِيلِ،  
وَإِعْ  
وقال عبدة بن الطبيب في قيس بن  
عصم: الطويل:  
وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا  
إِذْ لَزَارَ عَنْ شَحْطِ بِلَادِكَ  
سَلْمَا  
وَلَكِنَّ بَنِيَّانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا  
فَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ  
وَاحِدٍ  
وقيس بن عاصم هو القائل: الكامل:  
إِنِّي أَمْرٌ لَا يَعْتَرِي حَسْبِي  
مَنْ مَنَعَرٍ فِي بَيْتِ مَكْرَمَةٍ  
خُطْبَاءَ حِينَ يَقُولُ قَائِلَهُمْ  
لَا يَفْطِنُونَ لِعَيْبِ جَارِهِمْ  
وقالت أخت الوليد بن طريف الشيباني ترثيه: الطويل:  
أَبَا شَجَرِ الْخَابُورِ مَا لَكَ  
مُورِقاً  
فَتَى لَا يَعُدُّ الزَادَ إِلَّا مَنْ  
التَّقَى  
عَلَيْكَ سَلَامٌ اللَّهُ وَقَفَاً؛  
لَأَنْنِي  
فَقَدْنَاكَ فِقْدَانَ الرَّبِيعِ،  
وَلَيْتَنَا  
وخرج الوليد في أيام الرشيد، فقتله يزيد بن مَرِّد، وفي ذلك يقول بكر بن النطاح  
الحنفي: الخفيف:  
يَا بَنِي تَغْلِبِ، لَقَدْ فَجَعْنَاكُمْ  
لَوْ سَيُوفُ سَوَى سَيُوفِ يَزِيدٍ  
وَأَتَرُ بَعْضُهَا يُقْتَلُ بَعْضاً  
عُودَ إِلَى الْمَدِيحِ  
وكان بكر كثير التعصب لربيعة والمدح فيهم، وهو القائل: الطويل:  
وَمَنْ يَفْتَقِرُ مِمَّا يَعْشُ  
بِحُسَامِهِ  
وَنَحْنُ وَصِفْنَا دُونَ كُلِّ  
قَبِيلَةٍ  
حَتَّى إِذَا كَمَلْتَ أَظْمَأْهُمْ  
وَرَدُّوا  
ثَّ بِالْحِجَازِ، مَنَايَا بَيْنَهُمْ بَدَدُ  
إِذَا الْقَعَادِيدُ عَنْ أَمْثَالِهِمْ  
قَعَدُوا  
طَاءَ الْجَزِيلِ الَّذِي لَمْ يَعْطِهِ  
أَحَدٌ  
عَاصِمُ: الطويل:  
وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا  
إِذْ لَزَارَ عَنْ شَحْطِ بِلَادِكَ  
سَلْمَا  
وَلَكِنَّ بَنِيَّانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا  
دَتَسُ يُغَيِّرُهُ وَلَا أَفْنُ  
وَالْأَصْلُ يَنْبُتُ حَوْلَهُ الْعَصْنُ  
بِيضُ الْوَجُوهِ أَعْقَهُ لُسْبُنُ  
وَهُمْ لِحُسْنِ جَوَارِهِ قُطُنُ  
كَأَنَّكَ لَمْ تَجَزَعْ عَلَى ابْنِ  
طَرِيفِ  
وَلَا الْمَالَ إِلَّا مَنْ قَنَّا وَسَيُوفِ  
أَرَى الْمَوْتَ وَقَاعاً بِكُلِّ  
شَرِيفِ  
قَدَيْتَاكَ مِنْ فِتْيَانِنَا بِالْوُفِ  
مَنْ يَزِيدِ سَيُوفُهُ بِالْوَلِيدِ  
قَارَعَتْهُ لَأَقْتُ خِلَافَ السَّعُودِ  
لَا يَفْلُ الْحَدِيدَ غَيْرُ الْحَدِيدِ

وَإِنَّا لَنَلْهُو بِالسِّيُوفِ كَمَا  
لَهَيْتُ  
فِتَاهُهُ بِعِقْدٍ أَوْ سِيْحَابٍ  
قَرْنُفِلٍ  
يُرِيدُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: "سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ". جَاءَ فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ  
أَنَّهُمْ بَنُو حَنِيفَةَ قَوْمٍ مُسَيْلِمَةَ الْكُذَّابِ.  
وَبَكَرِ الْقَائِلِ أَيْضًا فِي أَبِي دُلْفَ: الْكَامِلُ:  
يَا عَصْمَةَ الْعَرَبِ الَّذِي لَوْ لَمْ  
يَكُنْ  
إِنَّ الْعَيُونَ إِذَا رَأَتْكَ جِدَادُهَا  
وَإِذَا رَمِيَتْ الثَّغْرَ مِنْكَ  
بِعَزْمَةٍ  
فَكَأَنَّ رِمَحَكَ مُنْقَعٌ فِي  
عَصْفُرٍ  
لَوْ صَالَ مِنْ عَصَبٍ أَبُو دَلْفٍ  
عَلَى  
أَذْكَى وَأَوْقَدَ لِلْعِدَاوَةِ  
وَالْقَرَى  
وَأَبُو دَلْفٍ هُوَ الْقَاسِمُ بْنُ عَيْسَى بْنِ إِدْرِيسَ بْنِ مَعْقَلِ بْنِ عَمِيرِ بْنِ شَنْجِ بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ  
خُرَّاعِي بْنِ عَبْدِ الْعَزَّى بْنِ دَلْفِ بْنِ جَشْمِ بْنِ قَيْسِ بْنِ سَعْدِ بْنِ عَجَلِ بْنِ لَجِيمِ.  
وَقَدْ رُوِيَتِ الْآيَاتُ الَّتِي مَرَّتْ لِأَخْتِ الْوَلِيدِ بْنِ طَرِيفِ لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ بَجْرَةَ النَّمِيرِيِّ.  
وَقَالَ أَبُو هَفَّانٍ وَاسْمُهُ مَنْصُورُ بْنُ بَجْرَةَ، قَالَ: أَنْشَدَنِي دَعْبَلُ لِنَفْسِهِ: الْمَتَقَارِبُ:  
وَدَاعُكَ مِثْلُ وَدَاعِ الرَّبِيعِ  
عَلَيْكَ السَّلَامُ فَكَمْ مِنْ وَفَاءٍ  
فَقُلْتُ: أَحْسَنْتَ، وَلَكِنْ سَرَقْتَ الْبَيْتَيْنِ مِنْ رِبْعِيِّينَ: الْأَوَّلُ مِنْ قَوْلِ الْقَطَّامِيِّ: الْبَسِيطُ:  
مَا لِلْكَوَاعِبِ وَدَّعْنَ الْحَيَاةَ  
كَمَا  
وَالثَّانِي مِنْ قَوْلِ ابْنِ بَجْرَةَ:  
فَقَدْنَاكَ فَقْدَانَ الرَّبِيعِ وَلَيْتَنَا  
وَأَنْشَدَ الْبَيْتَ. فَقَالَ: بَلَى، وَاللَّهِ يَسْرِقُ الطَّائِي مِنْ ابْنِ بَجْرَةَ بَيْتًا كَامِلًا فَقَالَ: الطَّوِيلُ:  
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَقَفَا  
فَإِنِّي  
كَذَا وَرَدَّتِ الْحِكَايَةُ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ، وَكَانَ يَجِبُ إِذَا كَانَ مِنْ رِبْعِيِّينَ أَنْ يَكُونَ  
فَقْدْنَاكَ فَقْدَانَ الرَّبِيعِ لِأَخْتِ الْوَلِيدِ.  
وَقَدْ قَارَ السَّمَوَالُ فِي قَصْرِ الْعَمْرِ: الطَّوِيلُ:  
يَقْرُبُ حُبُّ الْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا وَتَكْرَهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطْوُلُ  
وَقَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ: أَخَذَ النَّمِيرِيُّ قَوْلَهُ: أَيَا أَيَا شَجَرِ الْخَابُورِ مِنْ قَوْلِ الْجَنِّ فِي عَمْرِ بْنِ  
الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الطَّوِيلُ:  
أَبْعَدَ قَتِيلٍ بِالْمَدِينَةِ  
أُظْلِمَتْ  
لَهُ الْأَرْضُ تَهْتَرُّ الْعِصَاهُ  
بِأَسْوَاقٍ  
وَقَدْ أَنْشَدَهُ أَبُو تَمَامِ الطَّائِي لِلشَّمَاخِ فِي آيَاتِ أُولَاهَا: الطَّوِيلُ:  
يُدُّ اللَّهُ فِي ذَاكَ الْأَدِيمِ  
الْمَمْرُقِ  
وَبَارَكَتْ  
وَمَنْ يَسْعَ أَوْ يَرْكَبُ جَنَاحِي  
نِعَامَةٍ

قضيت أموراً ثم غادرت  
بعدها  
وما كنت أخشى أن تكون  
وفائه  
تظلّ الحَصان اليكّر تلقى  
جنينها  
وقد قال بشار قريباً من قوله: ولا المال إلاّ من قنا وسيوف: الطويل:  
على جنّيات الملك منه  
مَهَابَةٌ  
إذا اختزنَ المال البخيلُ  
فإنما  
وهذا كقول أبي الطيب المتنبي في فاتك الإخشيدي: الكامل:  
دَهَاباً فماتَ وكلُّ دَارٍ بَلَقُعُ  
وإذا المكارمُ والصّوارمُ  
والقنا  
ومن بارع هذا النحو قول عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي: الطويل:  
وإني لأرباب القبور لغابطُ  
لِسُكْنَى سَعِيدٍ بَيْنَ أَهْلِ  
المقابر  
وإني لمفجوعٌ به إذ تكاثرت  
عداتي ولم أهتف سِوَاهِ  
بِتَاصِرِ  
وكنت كلمغلوبٍ على تصل  
سَيْفِهِ  
وقد حرّ فيه نصل حَرَّانِ باترِ  
من البَثِّ والداء الدخيلِ  
المخامِرِ  
وأبنا بزرعٍ قد نما في  
من الوجد يُسقى بالدموعِ  
صدورنا  
أصبنا عظيماً اللّهُي  
والمآثرِ  
ولمّا حصرتنا لاقتسامِ ثرائِهِ  
أي لم نصب مالاً، ولكننا أصبنا فعلاً.

من نوادر الأعراب  
دخلت أعرابية على عبد الله بن أبي بكرة بالبصرة، فوقفت بين السماطين،  
فقالت: أصلح الله الأمير، وأمّيع به؛ حدّرتنا إليك سنّة اشتدّ بلاؤها، وانكشف  
غطاؤها، أقودُ صبية صغاراً، وآخرين كباراً، في بلد شاسعة، تخفصنا خافضة،  
وترفعنا رافعة، لملماتٍ من الدهر برّين عظمي، وأذهبنّ لحمي، وتركتني  
والهة أدورُ بالحضيض، وقد ضاق بي البلدُ العريض، فسألت في أحياء العرب:  
من الكاملة فضائله، المّعطى سائله، المكفّي تائله، قدّلت عليك - أصلحك  
الله تعالى - وأنا امرأة من هوازن؛ وقد مات الوالد، وغاب الرّافد، وأنت بعد  
الله غياثي، ومنتهى أملي، فافعل بي إحدى ثلاث، أما أن تردّني إلى بلدي، أو  
تحسن صدقي، أو تقيم أودي فقال: بل أجمعها لك، فلم يزلّ يُجري عليها كما  
يُجري على عياله، حتى ماتت.

قال العتبي: وقف أعرابيّ بباب عبيد الله بن زياد، فقال: يا أهل العَصّارة،  
حقّب السحابُ، وانفثع الرّبابُ، واستأسدت الدّبابُ، وردم التّمّد، وقل

الْحَقْد، ومات الولد، وكنت كثيرَ العقاة، صخب السقاة، عقيم الدلاة، لا أتضاءك للزمان، ولا أحفل بالجدتان، حيُّ جلال وعدد ومال، قنفرنا أيدي سبنا. بعد فقد الأبناء والآباء، وكنت حسن الشارة، خصيب الدارة، سليم الجارة وكان محلي حمى، وقومي أسي، وعزمي جدا؛ قضى الله ولا رجعان لما قضى، يستوف المال، وشتات الرجال، وتغير الحال، فأغيثوا من شخصه شاهده، ولسائه وأفده، وفقره سائقه وقائده.

ومن مقامات الإسكندري، من إنشاء بديع الزمان، قال:

حدثنا عيسى بن هشام قال: دخلت البصرة وأنا من سنِّي في قناء، ومن الرِّيِّ في جبر ووشاء، ومن الغنى في بقر وشاء؛ فأتيت المربد مع رفقة تأخذهم العيون، ودخلنا غير بعيد في بعض تلك المتنزهات، ومشيئنا في تلك المَتَوَجَّهات، وملكتنا أرض فحللناها، وعمدنا لِقْداح اللهو فأجلناها، مُطْرَجِينَ لِلحِشْمَةِ، إذ لم يكن فينا إلا مَنَّا، فما كان إلا بأسرَع من ارتداد الطرْف حتى عن لنا سَوَادٌ، تخفصه وهاد، وترفعه نجاد، وعلمنا أنه يهَمُّ بنا، فأتلعنا له، حتى انتهى إلينا سيره، ولقينا بتحية الإسلام، ورددنا عليه مقتضى السلام؛ ثم أجال فينا طرْفه وقال: يا قوم، ما منكم إلا من يلحطني سَرَرًا، ويوسعني رَجْرًا، ولا ينبئكم عني، بأصدق مني؛ أنا رجل من أهل الإسكندرية، من الثغور الأموية، وقد وطأ لي الفضل كتفه، ورحبت بي عبس، وتماني بيت، ثم جَعَجَع بي الدهر عن ثَمِّه ورمِّه، وأتلايني زغاليل حُمُر الحواصل: الرجز:

كَأَنَّهُمْ حُبَاتُ أَرْضِ مَحَلَّةٍ      فلو يَعَصُونَ لَدَكِي سِيمَهُمْ  
إِذَا نَزَلْنَا أَرْسَلُونِي كَاسِبًا      وَإِنْ رَحَلْنَا رَكِبُونِي كَلِّهُم

ونشرت علينا البيض، وشمست منا الصُّفْر، وأكلنا الشُّود، وحطمتنا الحمر، وانتابنا أبو مالك، فما تلقانا أبو جابر إلا عن عُفْر، وهذه البصرة مأوها هَضوم، وفقيرها مهضوم، والمرء من ضريبه في شُغل، ومن نفسه في كل، فكيف بمن: الوافر:

يَطْوَفُ مَا يَطْوُوفُ ثُمَّ يَأْوِي      إِلَى رُغْبٍ مَحَدَّةِ الْعَيْونِ  
كَسَاهُنَّ الْبِلَى شُعْنًا فتمسِّي      جِيَاعِ النَّاسِ ضَامِرَةَ الْعَيْونِ

ولقد أَصْبَحَنَ الْيَوْمَ وقد سَرَّحَنَ الطَّرْفَ فِي حَيِّ كَمَيْتٍ، وفي بيت كلا بيت، وقلبن الأكف على لبت، فقَصَصَنَ عقد الضلوع، وأقصر ماء الدموع، وتَدَاعَيْنَ بِاسْمِ الْجوع: مجزوء الكامل:

وَالْقَفْرُ فِي رَمَنِ اللَّثَا      مِ لِكَلِّ فِي كَرَمِ عِلَامَةٍ

وقد اخترتكم يا سادة، ودلتني عليكم السعادة، وقلت: قسما، إن فيهم نبيما، فهل من فتى يعشيهن، أو يعشيهن؟ وهل من جرَّ يعديهن، أو يرديهن؟

قال عيسى بن هشام: فوالله ما استأذن على سمعي كلام رائع ابرع مما سمعت، لا جرم أنا استمخنا الأوساط، ونفضنا الأكمام، وبختنا الجيوب؛ وأنلته مطرفي، وأخذت الجماعة أخذتي، وقلنا له: الحق بأطفالك، فأعرض عتًا بعد شكر وقاه، ونشر ملاً به قاه. ومن رسائله إلى بعض الرؤساء: خلقت - أطال الله بقاء السيد وأدام تأييده - مشروح جتان الصدر، جموح عتان الحلم، فسيح رقة الصدر: الطويل:

حَمُولًا صَبورًا لو تَعَمَّدَنِي      لَسِرْتُ إِلَيْهِ مَشْرِقَ الْوَجْهِ  
الردي      راضيا

ألوفاً وقياً لو رُدِدتْ إِلَى      لفارقت سَيِّبِي فوجَّعَ الْقَلْبِ  
الصَّبَا      باكيا

والله لأحيلن السيد على الأيام، ولأكلن استحالة رأيه في علي الليالي؛ ولا أزال أصفيه الولاء، وأسنيه التناء، وأفرش له من صدري الدهتاء، وأغيره أذناً صماء، حتى يعلم أي علق باع، وأي فتى أضع، وليققن موقف اعتذار، وليعلمن يُصَحُّ أتى الواشون أم

يحبول، ولا أقول: يا حالف اذكر حلاً ولكن يا عاقد اذكر حلاً ولست كمن يشكو إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أذى رهطه، ويستأق إلى رمي يزيد لسيبطه، ولكني أقول: الطويل:

هنيئاً مريئاً غير داءٍ محاميرٍ  
لعزّةٍ بين أعراضنا ما  
استحلت

وأنا أعلم أنّ السيّد لا يخرج عن تلك الحلية، بهذه الرُقِيّة، وأنّ جوائه أحسن من لقائه، فإن نشط للإجابة فلتكن المخاطبة قرأت رفعتك، فهو أخفّ مؤنة، وأقلّ تبعّة.  
وله إلى الشيخ العميد:

أنا - أطال الله بقاء الشيخ العميد - مع إخوان نيسابور، في ضيعة لا فيها أعان، ولا عنها أصان، وشيمة ليست بي تناط، ولا عني تمّاط، وحرقة لا عني ترّال، ولا فيها أدال، وهي الكدية التي عليّ تبعثها وليس لي منفعتها، فهل للشيخ العميد أن يلف بصنيعته لطفاً يحط عنه دَرَن العار، وشيمة التكسب بالأشعار، ليخفّ على القلوب طله ويرتفع عن الأحرار كله ولا يثقل على الأجفان شخّصه، بإتمام ما كان عرّصه عليه من أشغاله، ليعلق بأذياله، ويستفيد من خلاله؛ فيكون قد صان العلم عن ابتذاله، والفضل عن إذلاله، واشترى حُسن الثناء بجاهه، كما يشتريه بماله، والشيخ العميد فيما يوجهه من وعدٍ يعتمده، ووفاء يتلو ما يعده، عالٍ رأيه إن شاء الله.

رجع إلى المديح

وقال بعض أهل العصر؟ وهو أبو العباس الناشئ، يمدح سعد الدولة أبا المعالي شريف بن سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان: البسيط:

كأنّ مرآة فهم الدهر في  
يدِهِ  
ما يرفع القلّك العالي سماء  
عُلا  
يا من بعين الرضا يلقي  
مؤمّله  
لو يكتب المَلِك أسماء  
الملوك إذا  
غرّبت في كل يوم منك  
مكرمة

بيته الأول كقول القائل: الطويل:

أطل على الأشياء حتى  
كأنما

وكما قال أبو تمام الطائي: الوافر:

أطل على كلاً الأفقين حتى

وأفرط ابن الرومي فقال: المنسرح:

كأنما الأرض في يديه كره

أحاط علماً بكلّ خافية

وقال محمد بن وهيب: الطويل:

يخاطبه من كلّ أمر عواقبه

عليّ بأعقاب الأمور، كأنما

وقال بعض شعراء بني عبد الله بن طاهر: المتقارب:

وقوفك تحت ظلال السيوف  
أقرّ الخلافة في دارها

إذا ما تناجَتْ بأسرارها

كأنك مطلع في القلوب

وقال البحتري للفتح بن خاقان: الطويل:

تَرَى ما عليه مستقيمٌ ومائل

كأنك عينٌ في القلوب بصيرةٌ

وقال في سليمان بن عبد الله بن طاهر: البسيط:

إذا تَلَبَّسَ دون الظَّنِّ إيقانٌ

ينال بالظن ما فات اليقين

به

تريه كل حفي وهو إعلان

كأن آراءه والظن يجمعها

ما غاب عن عينه فالقلبُ

يذكره

وإن تَمَّ عينه فالقلب يقْظانُ

وقال أبو الحسن أحمد بن محمد الكاتب يمدح عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزير: البسيط:

لم يَحْمَدِ الأجوْدانِ البحرُ  
والمطرُ

إذا أبو قاسمٍ جادَتْ لنا  
يدُهُ

تضاءل الأنورانِ الشمسُ  
والقمرُ

وإن أضاءت لنا أنوارُ عُزَّتِه

تأخَّر الماضيانِ السيفُ  
والقَدْرُ

وإن مضى رأيه أو خدَّ عزمته

لم يدِرِ ما المُزِعْجانِ الخوفُ  
والحذرُ

من لم بيت حذرًا من خوف  
سَطَوْتِه

والشاهدانِ عليه العَيْنُ  
والأثرُ

ينال بالظنِّ ما يَغَيِّبُ العِيانُ  
به

إذا تعاقب منه النفع والضرر

كأنه الدهر في تُعمى وفي  
نعمٍ

يرى عواقبَ ما يأتي وما  
يَدْرُ

كأنه وزمامُ الدهر في يده

وأصل هذا قولُ أوس بن حَجْر: المنسرح:

كأن قد رأى وقد سمعا

الألمعيُّ الذي يظنُّ بك الظنِّ

وهذا المعنى قد مرَّ في أثناء الكتاب.

قال أبو الحسن جحظة ألبرمكي:

قلت لخالد الكاتب: كيف أصبحت؟

قال: أصبحت أرقُّ الناس شعراً،

قلت: أتعرف قولَ الأعرابي:

الطويل:

صُروف الليلي

حيث لم تكُ

ظنَّتِ

بنَّجِدٍ، فلم يُقدِّرْ

لهاماً

تمنَّتِ

وربح الصبام من

نحو نَجِدٍ

أرْتَتِ

فما وجد أعرابية قدَّفت بها

تمنَّت أحاليت

الرعاء، وخَيِّمَةً

إذا ذكرت ماءً

العصاه

وطيَّبتُهُ

بأعظم من وجدٍ بليلى  
وَجَدْتَهُ  
غداة غدوًا غدوة واطمأنت

وكانت رياح تحمل الحاج بيننا فَقَدْ بَخِلْتُ تلك الرياح وَصَنَّتِ  
فصاح خالد وقال: ويحك! وبيك يا حطة! هذا والله أرق من شعري.

فصل لأبي العباس بن المعتز  
لن تكسب - أعزك الله - المحامد، وتستوجب الشرف، إلا بالحمل على النفس والجال،  
والنهوض بحمل الأثقال، وبذل الجاه والمال، ولو كانت المكارم تُنال بغير مؤونة  
لاشترك فيها السقل والأحرار، وتساهاها الأوضعا مع ذوي الأخطار؛ ولكن الله تعالى  
خصَّ الكرماء الذين جعلهم أهلها، فخفف عليهم حملها، وسوغهم فضلها، وحظرها على  
السفلة لصغر أقدارهم عنها، وبعد طباعهم منها، ونفورها عنهم، واقشعرارها منهم.  
وقال أبو الطيب المتنبي: البسيط:

لولا المشقة ساد الناس  
كلهم  
الجود يُفقر والإقدام قتال

وقال الطائي: الكامل:

والحمد شهْد لا يرى مشتاره  
شُر لحامله، ويسحبه الذي  
يجنيه إلا من نقيع الحنظل  
لم يؤذ عاتقه خفيف المحمل  
أخذه الطائي من قول مسلم بن الوليد، وقيل غيره: البسيط:

الجود أحسن مسًا يا بني  
مطر  
من أن تبركمو كفَّ مُستلب

ما أعلم الناس أن الجود  
مدفعة  
للدَّم لكنه يأتي على التَّشب

وقال بعض الأجواد: إنا لنجد كما يجد البخلاء، ولكننا نصبر ولا يصبرون.  
وقال الجاحظ: قيل لأبي عبَّاد وزير المأمون، وكان أسرع الناس غضبًا: إن  
لقمان الحكيم قال لابنه: ما الحمل الثقيل؟ قال: الغضب. قال أبو عبَّاد:  
لكنه والله أخف علي من الريش! قيل له: إنما عنى لقمان أن احتمال  
الغضب ثقيل، فقال: لا، والله لا يقوى على احتمال الغضب من الناس إلا  
الجمال!

وغضب يوماً على بعض كتابه، فرماه بدواة كانت بين يديه فشجه فقال أبو  
عبَّاد: صدق الله تعالى في قوله: "والذين إذا ما غضبوا هم يعقرون". فبلغ  
ذلك المأمون فأحضره وقال له: ويحك! ما تحسن تقرأ آية من كتاب الله  
تعالى؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين، إنني لأحفظ من سورة واحدة ألف آية؛  
فضحك المأمون وأمر بإخراجه.

نبذة من لطائف ابن المعتز

وقضل تحققه بالبديع والاستعارات مما تتعين العناية بمطالعتها:  
قال أبو بكر الصولي: اجتمعت مع جماعة من الشعراء عند أبي العباس عبد الله بن  
المعتز، وكان يتحقق بعلم البديع تحقُّقاً ينضره دعواه فيه لسان مذكراته، فلم يبق  
مسلك من مسالك الشعراء إلا سلك بنا شيعياً من شيعابه، وأوردنا أحسن ما قيل في  
بابه، إلى أن قال أبو العباس ما أحسن استعارة أشتمل عليها بيت واحد من الشعر؟  
قال الأسدي: قول لبيد: الكامل:

وغداة ريح قد كشفت وقرّة  
زمامها  
إذ أصبحت بيد الشمال

قال أبو العباس: هذا حسن، وغيره أحمد منه، وقد أخذ من قول ثعلبة بن صغيرة  
المازني: الكامل:

فتدَاكِرًا ثَقَلًا رَثِيدًا بعدما  
وقول ذي الرمة أعجب إليّ منه: الطويل:

ألا طرقت مئى هَيُومًا بذكرها  
وأيدي الثريّا جُتَّحَ في  
المغاربِ

وقال بعضنا: بل قول لبيد أيضًا: الكامل:

ولقد حَمَيْتُ الخيلَ تحملَ شِكْتَيْفُرُطَ، وشاحي إن غدوت  
لجامُها

قال أبو العباس: هذا حسن، ولكن تعدل عن لبيد.

وقال آخر: قول الهذلي: الطويل:

ولو أنني استودعته لاهتدت  
إليه المنايا عَيْثُها ورَسُولُها  
وقال أبو العباس: هذا حسن، وأحسن منه - في استعارة لفظ الاستيداع - قول  
الحصين بن الحمام؛ لأنه جمع الاستعارة والمقابلة في قوله: الطويل:

نطأردهُم نستودعُ البيضَ  
وإستودعونا السّمهريّ  
هامهُم  
المُقوما

وقال آخر: بل قول ذي الرّمة: الطويل:

أقامتْ به حتى دَوَى العودُ  
في الثّرى  
وساق الثّرىّا في ملاءتِه  
الفجرُ

قال أبو العباس: هذا لعمرى نهاية الخبرة، وذو الرمة أبدع الناس  
استعارة، وأبرعهم عبارة، إلا أنّ الصواب حتى ذوى العود والثرى؛ لأن  
العود لا يذوي ما دام في الثرى، وقد أنكره على ذي الرمة غير ابن المعتز.  
قال أبو عمرو بن العلاء: كانت يدي في يد الفرزدق فأنشدته هذا البيت،  
فقال: أرشدك أم أدعك. قال: فقلت: بل أرشدني، فقال: إن العود لا يذوي  
في الثرى، والصواب: حتى ذوى العود والثرى.

قال الصولي: وكأنه نبه على ذي الرمة؛ فقلت: بك قوله: الطويل:

ولمّا رأيت الليل والشمس  
حيّة  
حياة الذي يقضي حشاشنة  
تازع

وقال أبو العباس: اقتدخت رندك يا أبا بكر فأورى، هذا بارع جداً، وقد سبقه إلى هذه  
الاستعارة جرير حيث يقول: الكامل:

تحيي الروامس ربعها وتجدّه  
وهذا بيت جمع الاستعارة والمطابقة، لأنه جاء بالإحياء والإماتة، والبلى والجدّة، ولكن  
ذو الرمة قد إستوفى ذكر الإحياء والإماتة في موضع آخر فأحسن، وهو قوله: الطويل:

وتبشّوان من طولِ النعاسِ  
كأنه  
بجبلين في مشطونة  
يترجح

إذا مات فوق الرّجلِ أحييت  
روحه  
بذكرك والعيسُ المراسيلُ  
جُتَّحُ

فما أحد من الجماعة انصرف من ذلك المجلس إلا وقد غمره من بحر أبي العباس ما  
غاض معه مَعِينة، ولم ينهض حتى زودناه من برّه ولطفه نهاية ما اتسعت له حاله.  
وقال ابن المعتز: الكامل:

لما رأيت الحبّ يفضحني  
ألقيتْ غيرك في ظنونهم  
وتمتّ عليّ شواهدُ الصّبِّ  
وسّرتْ وَجّةَ الحبِّ بالحبِّ

وقال العباس بن الأحنف في هذا المعنى: البسيط:

قد جرّ الناسُ أذيالَ الظنون  
بنا  
وفرّق الناسُ فينا قولهم  
فرقا

فكاذبٌ قد رمى بالظنِّ  
غيركم  
وقريب من هذا المعنى قول الفارضي رضي  
الله عنه، وإن لم يكن منه: الطويل:  
تخالفت الأقوال فينا تبايناً  
فشنع قومٌ بالوصالِ، ولم  
أصل  
وما صدق التشنيعُ عنها  
لشقوقتي  
وقال ابن المعتز: الطويل:  
لنا عزيمة صماء لا تسمعُ  
الترقى  
وإنا لنعطي الحقَّ من غير  
حاكم  
وقد أخذه أبو العباس من قول أعرابي الطويل:  
ألا يا شفاء النفسِ ليس  
بعالم  
سوى رجمهم بالظنِّ والظنُّ  
كاذبٌ  
وقال الحسين بن مطير: الطويل:  
لقد كنتُ جليداً قبل أن تُوقد  
النوى  
ولو تُركتُ نارُ الهوى  
لتضرمتُ  
وقد كنتُ أرجو أن تموتَ  
صبايتي  
فقد جعلتُ في حبة القلبِ  
والحشأ  
بمرتجة الأرداف هيفُ  
خُصورها  
وصُفر تراقبها، وحمُر أكفها  
مُحصرة الأوساطِ، زانتُ  
عقودها  
يمييننا حتى ترفَّ قلوبنا  
وفيهنَّ مغلاق الوشاح كأنها  
وقال: الطويل:  
قضي الله يا أسماءُ أن لستُ  
بارحاً  
فحبك بلوى غير أن لا يسرني وإن كان بلوى أنني لك  
وصادقٌ ليس يدري أنه صدقاً  
برجم أصول بيننا ما لها أصلُ  
وأزجف بالسلوان قومٌ ولم  
أسلُ  
وقد كذبتُ عني الأراجيفُ  
والنقل  
تُببتُ أنوفَ الحاسدين على  
رغم  
علينا، ولو شئتُ لملنا مع  
الظلم  
بك الناسُ حتى يعلموا ليلة  
القدر  
مراراً وفيهم من يُصيب ولا  
يدري  
على كيدي ناراً بطيئاً  
خمودها  
ولكن شوقاً كل يوم  
يزيدها  
إذا قدمتُ أيامها وعهودها  
عهاذُ الهوى تُولى بشوقٍ  
يُعيدها  
عذابُ ثناياها عجافُ نهودها  
وسودُ نواصيها، وبيض  
خدودها  
بأحسن، ما زينتها عقودها  
رفيفَ الخزامى بات طللُ  
يجودها  
مهابة بتربانٍ طويلُ عمودها  
أحبك حتى يُغمض العينَ  
مُغمضُ

مُبْغِضٌ  
 ذَكَرْتُ وَمَنْ رَفِضَ الْهُوَى حِينَ  
 يَرْفِضُ  
 تَقْضِضُ أَطْرَافَ الْحَشَا ثُمَّ  
 تَنْهَضُ  
 وَأَقْرَضَنِي صَبْرًا عَلَى الشُّوقِ  
 مُقْرِضٌ  
 بَدَا حُبُّهَا مِنْ دُونِهِ يَتَعَرَّضُ  
 غَيْرُهُ  
 وَكَانَ الْحَسِينِ قَوِيَّ أَسْرِ الْكَلَامِ، جَزَلَ الْأَلْفَاظَ، شَدِيدَ الْعَارِضَةِ، وَهُوَ الْقَائِلُ  
 فِي الْمَهْدِيِّ: الطويل:  
 لَهُ يَوْمٌ بُؤْسٌ فِيهِ لِلنَّاسِ أَبُؤْسٌ      وَبِوَمٍ نَعِيمٌ فِيهِ لِلنَّاسِ أَنْعُمٌ  
 فَيُمَطِّرُ يَوْمَ الْجُودِ مِنْ كَفِّهِ      وَيَقْطُرُ يَوْمَ الْبُؤْسِ مِنْ كَفِّهِ  
 النَّدَى      الدَّمُ  
 فَلَوْ أَنَّ يَوْمَ الْبُؤْسِ خَلَّى عِقَابَهُ      عَلَى النَّاسِ لَمْ يَصْبِحْ عَلَى الْأَرْضِ  
 وَلَوْ أَنَّ يَوْمَ الْجُودِ خَلَّى تَوَالَهُ      مُجْرِمٌ  
 وَأَنْشَدَ أَبُو هَفَانَ لَهُ: الْخَفِيفُ:  
 أَيْنَ أَهْلُ الْعَتَابِ بِالْدَهْنَاءِ؟      أَيْنَ جِيرَانُنَا عَلَى الْأَحْسَاءِ؟  
 جَاوَرُونَا وَالْأَرْضَ مَلْبَسَةَ تَوُ      رَ الْأَقَاحِي تُجَادُ بِالْأَنْوَاءِ  
 كُلُّ يَوْمٍ بِأَقْحَوَانِ جَدِيدٍ      تَصْحَكُ الْأَرْضُ مِنْ بَكَاءِ  
 أَخَذَ هَذَا الْمَعْنَى دَعْبِلَ، وَنَقَلَهُ إِلَى مَعْنَى آخَرَ، فَقَالَ: الْكَامِلُ:  
 أَيْنَ الشَّبَابُ؟ وَأَيَّةَ سَلَكَا؟      أَيْنَ جِيرَانُنَا عَلَى الْأَحْسَاءِ؟  
 لَا تَعْجَبِي يَا سَلَمَ مِنْ رَجُلٍ      رَ الْأَقَاحِي تُجَادُ بِالْأَنْوَاءِ  
 وَقَالَ مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي هَذَا الْمَعْنَى: السَّرِيعُ:  
 مُسْتَعْبِرٌ بِبِكِي عَلَى دَمْنَةٍ      تَصْحَكُ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبِكِّي  
 وَأَنْشَدَ الزَّبِيرُ بْنُ بَكَارٍ: الْوَافِرُ:  
 أَحَبُّ مَعَالِي الْأَخْلَاقِ جَهْدِي      وَرَأْسُهُ يَصْحَكُ فِيهِ الْمَشِيبُ  
 وَأَصْفَحَ عَنِ سَبَابِ النَّاسِ      وَأَكْرَهُ أَنْ أَعِيبَ وَأَنْ أَعَابَا  
 جَلْمًا      وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ حَبَّ السَّبَابَا  
 وَأَتْرَكَ قَائِلَ الْعُورَاءِ عَمْدًا      لِأَهْلِكَ وَمَا أَعْيَا الْجَوَابَا  
 وَمَنْ هَابَ الرِّجَالَ تَهَيَّبُوهُ      وَمَنْ حَقَرَ الرِّجَالَ فَلَنْ يُهَابَا  
 رِيَاضَةُ النَّفْسِ عَلَى الْفِرَاقِ  
 وَعَلَى ذِكْرِ قَوْلِهِ: الطَّوِيلُ:  
 إِذَا أَنَا رُضْتُ الْقَلْبَ فِي حُبِّ غَيْرِهَا      أَنْشَدَ الْأَصْمَعِيُّ لِفَلَامٍ مِنْ بَنِي فِزَارَةَ: الطَّوِيلُ:  
 وَأَعْرَضُ حَتَّى يَحْسَبَ النَّاسُ      بِي الْهَجْرُ، لَا وَاللَّهِ مَا بِي لَهَا  
 أَنَّمَا      هَجْرٌ  
 وَلَكِنْ أَرَوْضُ النَّفْسِ أَنْظُرُ      إِذَا فَارَقْتُ يَوْمًا أَحَبَّتْهَا صَبْرُ

هل لها

قال إسحاق الموصلي: قال لي الرشيد: ما أحسن ما قيل في رياضة النفس على  
الفراق؟ قلت: قول أعرابي: الطويل:

وإني لأستحي عيوناً،  
وأنتقي  
فأنذر بالهجران نفسي  
أروضها  
كثيراً، وأستبقي المودّة  
بالهجر  
لأعلم عند الهجر هل لي من  
صبر

فقال الرشيد: هذا مليح، ولكنني أستملح قول أعرابي آخر: الطويل:

خشيت عليها العين من طول  
وصلها  
وما كان هجراني لها عن  
ملاة  
فهاجزتها يومين خوفاً من  
الهجر  
ولكنني جزيت نفسي  
بالصبر

قال الصولي: قال لي المبرد: عمك إبراهيم بن العباس أحزم رأياً من خاله العباس بن  
الأحنف في قوله: المنسرح:

كان خروجي من عندكم  
قدراً  
من قبل أن أعرض الفراق  
على  
وحدثاً من حوادث الزمن  
قلبي، وأن أستعد للحرن

وقال عمك إبراهيم: الطويل:

وناجيت نفسي بالفراق  
أروضها  
فقلت لها: فالهجر والبين  
واحد  
فقلت له: إنه نقل كلام خاله: الطويل:

عرضت على قلبي الفراق  
فقال لي  
إذا صد من أهوى رجوت  
وصاله  
من الآن فإياس لا أعرك من  
صبري  
وفرقة من أهوى أحتر من  
الجمر

وقال العباس بن الأحنف: الطويل:

أروض على الهجران نفسي  
لعلها  
وأعلم أن النفس تكذب  
وعدها  
وما عرضت لي نظرة مُد  
عرفتها  
تماسك لي أسبابها حين  
أهجر  
إذا صدق الهجران يوماً  
وتغدر  
فأنظر إلا مُتلت حين أنظر

وقال المتنبي من المعنى: الطويل:

جبتك قلبي قبل حبي من  
نأي  
وأعلم أن البين يشكيك  
بعدها  
وقد كان غداراً فكن أنت  
وافيا  
فلمست فؤادي إن وجدتك  
شاكيا

قال الحاتمي: والذي أراه وأذهب إليه أن أحسن من هذا المعنى قول أبي صخر  
الهذلي: الطويل:

وَيَمْنَعُنِي مِنْ بَعْضِ إِنْكَارِ  
ظَلَمِهَا  
مَخَافَةُ أُنِّي قَدْ عَلِمْتُ لَنْ  
بَدَا  
وَإِنِّي لَا أُدْرِي إِذَا النِّفْسُ  
أَشْرَفَتْ  
فِيَا حَبِّهَا زِدْنِي جَوَى كُلِّ لَيْلَةٍ  
إِذَا ظَلَمْتُ يَوْمًا وَإِنْ كَانَ لِي  
عُدْرُ  
لِي الْهَجْرُ مِنْهَا مَا عَلَى هَجْرِهَا  
صَبْرُ  
عَلَى هَجْرِهَا مَا يَبْلُغَنَّ بِي  
الْهَجْرُ  
وَيَا سَلْوَةَ الْأَحْزَانِ مَوْعِدُكَ  
الْحَسْرُ

شذور من كلام أهل العصر

في مكارم الأخلاق

ابن المعتز - العقلُ غريزة تزيئها التجارب. وله: العاقلُ من عَقَل لسانه، والجاهلُ من جهل قَدْره.

غيره: إذا تمَّ العقلُ نقص الكلام، حُسِنُ الصُّورَةِ الجمالُ الظاهر، وحُسْنُ الخلقِ الجمالُ الباطن. ما أبيضُ وجوه الخيرِ والشيرِ في مِرَاةِ العقلِ إذا لم يُصِدِّئِهَا الهوى. العاقلُ لا يَدَعُهُ ما ستر الله من عيوبه أن يَفْرَحَ بما أظهر من محاسنه. بأيدي العقولِ تُمَسِّكُ أَعْتَةَ النفوسِ عن الهوى. آخرُ بمن كان عاقلًا أن يكونَ عَمَّا لَا يَغْنِيهِ غَافِلًا. التواضعُ من مصايد الشرف. من لم يَتَّضِعْ عند نفسه لم يرتفع عند غيره.

يحيى بن معاذ - التَّكْبَرُ على المتكبر تواضع. الحلمُ حجابُ الآفات. أحيوا الحياةَ بمجاورة من يُسْتَحْيَا منه. مَنْ كَسَاهُ الحياءُ ثوبَهُ، ستر عن الناس عَيْبَهُ. الصبرُ تجرُّعُ العُصْبِ، وانتظارُ الفُرْصِ. قلوبُ العقلاءِ حصون الأسرار. انقِرُدْ بسِرِّكَ ولا تودَعُهُ حازمًا فيزل، ولا جاهلًا فيخون. الأناةُ حُسْنُ السلامة، والعجلةُ مفتاحُ ألدنامة. من حَسِنَ خُلُقُهُ وَجَبَ حَقُّهُ. إِمَّا يَسْتَحِقُّ اسْمَ الْإِنْسَانِيَةِ مَنْ حَسِنَ خُلُقُهُ. يكاد سيئ الخلقِ يُعَدُّ من البهائم والسباع. أرسطاطاليس - المروءةُ استحياءُ المرءِ نفسه. المعروفُ حصنُ النعم من صروف الزمن. للحازم كنز في الآخرة من علمه، وفي الدنيا من معرفته. لا تستحي من القليل فإن الحرمان أقل منه.

أبو بكر الخوارزمي - الطَّرْفُ يجري وبه هُرَّال والسيفُ يمضي وبه انفلال، والحُرُّ يُعْطِي وبه إقلال. بَدَلُ الجاهِ أَحَدُ المَالِينِ. شفاعَةُ اللسانِ أفضلُ زكاةِ الإنسان. بَدَلُ الجاهِ رِفْدٌ للمستعين. الشفيعُ جناحُ الطالب. التقوى هي العُدَّةُ الباقية، والجُنَّةُ الواقية. ظاهرُ التقوى شرفُ الدنيا، وباطنها شرفُ الآخرة. من عفت أطرافه، حسنت أوصافه. قال أبو الطيب المتنبي الطويل:

ولا عَقَّةُ في سيفِهِ وسِنانِهِ  
ولكنها في الكَفِّ والقَرَجِ  
والفمِ

لقمان - الصَّمْتُ حُكْمٌ وقليل فاعِلُهُ. أَرْبَعُ كلمات صدرت عن أربعة ملوك كأنما رُميت عن قَوْسٍ واحدة؛ قال كسرى: لم أندم على ما لم أقل، وندمتُ على ما قلتُ مراراً. قيصر: أنا على رَدِّ ما لم أقلُّ أقدرُ مني على رَدِّ ما قلت. ملك الصين: إذا تكلمتُ بالكلمة ملكتني، وإذا لم أتكلم بها ملكتها. ملك الهند: عَجِبْتُ ممن يتكلمُ بالكلمة إن رُفِعَتْ صَوْتُهُ، وإن لم تُرْفَعْ لم تنفعه. ما الدَّخانُ على النارِ، ولا العَجَّاجُ على الريحِ، بأدَلِّ من ظاهر الرجل على باطنه، وأنشد: الكامل:

قد يُسْتَدَلُّ بظَاهِرٍ عن باطنٍ  
حيث الدخانُ فتمَّ مَوْقِدُ نارٍ  
مَنْ أَصْلَحَ ماله فقد صان الأكرمِينَ المَالَ والعِرْضَ. من لم يجمد في التقدير  
ولم يذب في التدبير فهو شديد التدبير. عليك بالقصدِ بين الطرفين، لا مَنَعَ  
ولا إسراف، ولا بخل ولا إتراف. لا تكن رطباً فتُعَصَّرَ، ولا يابساً فتكسر، ولا  
حلواً فتسُتَرَطَ، ولا مرّاً فتُلْقَطَ.

المأمون بن الرشيد - الثناء أكثر من الاستحقاق مَلَقٌ وهَدْرٌ، والتقصير عِيٌّ  
وحَصْرٌ.

إكرام الأضياف، من عادة الأشراف. وفي الخبر: لا تتكلفوا للضيف فتبغضوه؛ فمن أبغض الضيف أبغضه الله. ينبغي لصاحب الكريمة أن يصبر عليه إذا جمعتها ثبوة الزمان، فليس ينتفع بالجوهرة الكريمة من لم ينتظر تفاقها.

مواظع عقلها بعض أهل العصر

يتعلق بهذا الفصل

أغض على القدي، وإلا لم ترض أبداً. أجمل الطلب فسيأتيك ما قدر لك، صن عرضك، وإلا أخلفت وجهك. جاور الناس - بالكف عن مساوئهم. انس رقدك، ولا تنس وعدك، كذب أسواء الظنون بأحسنها. أغن من وليته عن السرقة، فليس يكفيك من لم تكفه. لا تتكلف ما كفيته فيضيع ما أوليت. ابن المعتز - لا تسرع إلى أرفع موضع في المجلس، فالموضع الذي تُرَقِع إليه خير من الموضع الذي تُحَط منه. لا تذكر الميت بسوء فتكون الأرض أكرم عليه منك. ينبغي للعاقل أن يُداري زمانه مداراة السابح للماء الجاري. العتابي - المداراة سياسة رفيعة تجلب المنفعة، وتدفع المضرة، ولا يستغني عنها ملك ولا سوقة، ولا يدع أحد منها حظه إلا غمرته صروف المكاره.

أخبار العتابي

وكتب العتابي إلى بعض إخوانه: لو اعتصم شوقي إليك بمثل سلوك عني لم أبدل وجه الرغبة إليك، ولم أتجشم مرارة تماديك، ولكن استخفنا صابتنا، فاحتملنا قسوتك، لعظيم قدر مودتك، وأنت أحق من اقتصص لصلتنا من جفائه، ولشوقنا من إبطائه. وله: كتبت إليك ونفسي رهينة بشكرك، ولساني علق بالثناء عليك، والغالب على ضميري لائمة لنفسي، واستقلال جهدي في مكافأتك، وأنت - أصلحك الله! - في عز الغنى عني، وأنا تحت ذل الفاقة إلى عطفك، وليس من أخلاقك أن تولي جانب الثبوة منك من هو عان في الصراعة إليك. ودخل العتابي على الرشيد فقال: تكلم يا عتابي؛ فقال: الإبناس قبل الإساس، لا يُحمد المرء بأول صوابه، ولا يُدّم بأول خطئه؛ لأنه بين كلام زوره، أو عي حصره. ومّر العتابي بابي نواس وهو ينشد الناس: الخفيف:

ذكر الكرخ نازح الأوطان فبكي صبوة ولات أوان

فلما رآه قام إليه، وسأله الجلوس، فأتى وقال: أين أنا منك وأنت القائل، وقد أنصفك الزمان: الخفيف:

قد علقنا من الخصب جبالاً أمنتنا طوارق الحدثان

وأنا القائل وقد جار علي، وأساء إلي: الخفيف:

لفظتني البلاد، وانطوت الأك فاء دوني، وملني حيراني

والتقت حلقة علي من الدهر فما جئت بكل كل وجران

نازعني أحداثها منية النفس س وهدت خطوبها أركانني

خاشع للهموم معترف القل ب كئيب لنائب الزمان

من كلام الأعراب

قال عبد الرحمن بن أخي الأصمعي: سمعت عمي يحدث قال: أرقفت ليلة من الليالي بالبادية، وكنت نازلاً عند رجل من بني الصيداء، وكان واسع الرخل، كريم المخل! فأصحت وقد عرمت علي الرجوع إلى العراق، فأتيت أبا مثنوي، فقلت: إني قد هلعت من العربة، واشتفت إلى أهلي، ولم أفد في قدمتي هذه كبير علم. وإنما كنت أعتفر وحشة الغربية وجفاء البادية للفائدة، فأظهر الجفاوة حتى أبرز غداء له فتغديت، وأمر بناقة مهربية كأنها سبيكة لجين فارتحلها واكتفلها، ثم ركب وأردفني، وأقبلها مطلع الشمس؛ فما سيرتاً كبير مسير حتى لقيتاً شيخ علي حمار، له جمة قد صبغها بالورس، كأنها قنبيطة، وهو يترثم، فسلم عليه صاحبي، وسأله عن نسبه فأعترى أسدياً من بني تغلبة. قال: أتروي أم تقول؟ قال: كلا قال: أين تؤم؟ فأشار إلى موضع قريب من

الموضع الذي نحن فيه فأناخ الشيخ، وقال لي: خُذْ بيد عمك فأنزله عن حماره، ففعلت، وألقى له كساءً قد اكتفل به، ثم قال: أنشدنا، يرحمك الله، وتصدق على هذا الغريب بأبيات يثهنّ عنك، وبذكرك بهن، فأنشدني له: الطويل:

لقد طال يا سؤداء منك  
المواعدُ  
ودون الجدّ المأمول منك  
الفرّاقُ

ثُمَّيِّنَا بِالْوَصْلِ وَعَدًّا،  
وَعَيْمِكُمْ  
إِذَا أَنْتَ أُعْطِيتَ الْغِنَى ثُمَّ لَمْ  
تُجِدْ  
وَقُلْ غِنَاءَ عِنكَ مَا لَمْ يَجْمَعْتَهُ  
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْرُكْ بِجَنبِكَ  
بَعْضَ مَا  
إِذَا الْجِلْمُ لَمْ يَغْلِبْ لَكَ الْجَهْلَ  
لَمْ تَزَلْ  
إِذَا الْعِزْمُ لَمْ يَفْرُجْ لَكَ الشُّكَّ  
لَمْ تَزَلْ  
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَتْرِكْ طَعَامًا  
تُحِبُّهُ

تجللت عاراً لا يزال يشبهه  
عليك الرجال نثرهم  
والقصائدُ

وأنشدني لنفسه: الطويل:

تَعَرَّ فَإِنَّ الصَّبْرَ بِالْحُرِّ أَجْمَلُ  
فَلَوْ كَانَ يُعْنِي أَنْ يُرَى الْمَرْءُ  
جَازِعًا  
لَكَانَ التَّعَرِّيُّ عِنْدَ كُلِّ  
مُصِيبَةٍ  
فَكَيْفَ وَكُلُّهُ لَيْسَ يَعْدُو  
جِمَامَهُ  
فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ فِينَا تَبَدَّلَتْ  
فَمَا لَيْتَ مَنْهَا قَنَاءَ صَلِيبَةٍ  
وَلَكِنْ رَحَلْنَاهَا نَفُوسًا  
كَرِيمَةً  
وَقَيْنَا بَحْدَ الْعِزْمِ مَنْهَا  
نَفُوسَنَا

قال: فقامت إليه، وقد نسيت أهلي، وهان علي طول الغربة، وصنك العيش، سروراً بما سمعت، ثم قال: يا بني؛ من لم يكن الأدب والعلم أحب إليه من الأهل والولد لم ينجب.

بين قرشي وعمر بن عثمان  
 خاصم بعضُ القرشيين عُمر بن عثمان بن موسى بن عبيد الله بن معمر،  
 فأسرع إليه القرشي فقال: على رِسْلِكَ، فإنك لسريعُ الإيقاد، وَشِيكَ  
 الصريمة، وإنني والله ما أنا مكافئك دون أن تبلغَ غايةَ التعدي، فأبلغَ غايةَ  
 الإعذار.  
 ادِّعاء

قال عبد الله بن عبد العزيز، وكان من أفاضل أهل زمانه: قال لي موسى بن  
 عيسى: أنهى إلى أمير المؤمنين، يعني الرشيد، أنك تشتمه، وتَدْعُو عليه،  
 فبأي شيء استجرت ذلك. قال: إمَّا سَنَّمَهُ فهو والله إذاً أكرمُ عليٍّ من  
 نفسي، وأمَّا الدعاء عليه فوالله ما قلتُ: "اللهم إنه أصبح عبثاً ثقيلاً على  
 أكتافنا، لا تطيقه أبداننا، وقذِي في عيوننا، لا تنطبق عليه أجفاننا، وشجى في  
 حلوقنا، لا تسيغه أفواهنا؛ فاكفينا مؤنته، وفرق بيننا وبينه!" ولكني قلتُ:  
 "اللهم إن كان تسمي الرشيد ليرشد فأرشدْه، أو أتى غير ذلك، فراجع به،  
 اللهم إن له في الإسلام بالعباس حقاً على كل مسيلم، وله بنبيك قرابة  
 ورحماً، فقرِّبه من كل خير، وبعده من كل شرٍّ، وأسعدنا به، وأصلح له نفسه  
 ولنا". فقال له: يغفر الله لك يا عبد العزيز، كذلك بلغنا.  
 من أخبار الخليفة الرشيد

ولما حج الرشيد سنة ست وثمانين ومائة دخل مكة وعديله يحيى بن خالد؛  
 فأنبرى إليه العُمري فقال: يا أمير المؤمنين، قف حتى أكلمك! فقال:  
 أرسلوا زمام الناقة، فأرسلوه، فوقفت فكانما أوتدت، فقال: أقول؟ قال:  
 قل، فقال: اعزل عتاً إسماعيل بن القاسم قال: ولم؟ قال: لأنه يقبل  
 الرشوة، وبُطيل النَّشوة، وبضرب بالعشوة، قال: قد عزلناه عنك، ثم التفت  
 إلى يحيى فقال: أعندك مثل هذه البديهة؟ فقال: إنه ليجب أن يحسن إليه،  
 قال: إذا عزلنا عنه من يريد عزله فقد كافأناه.  
 حُرْمَةُ الكعبة

ولما وجَّه عبدُ الملك بن مروان الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن الزبير  
 وأوصاه بما أراد أن يُوصيه، قال الأسود بن الهيثم النخعي: يا أمير المؤمنين،  
 أوص هذا الغلام الثقفي، بالكعبة ألا يهدم أحجارها، ولا يهتك أستارها، ولا يُنقر  
 أطيارها، وليأخذ على ابن الزبير شِعابها، وعقابها، وأنقابها، حتى يموت فيها  
 جوعاً، ويخرج مخلوعاً.

من أخبار عبد الله بن طاهر  
 وكتب عبدُ الله بن طاهر إلى تَصْر بن شبيب وقد نزل به ليحاربه في جُنْدِه،  
 فوجده متحصناً منه، فكتب إليه: اعتصامك بالقلال قيّد عزمك عن القتال،  
 والتجاؤك إلى الحصون ليس ينجيك من المَنُونِ، ولست بمُفْلِتٍ من أمير  
 المؤمنين، فإمّا فارس مُطَاعِن، أو راجلٍ مستأمن. فلما قرأه حصره الرعب  
 عن الجواب، فلم يلبث أن خرج مستأماً.

من حكم الفرس  
 قال بزرجمهر بن البختكان لبعض الملوك: أنعم تُشكر، وأرهَبُ تُحَدِّر، ولا تهازل فتحقر  
 فجعلهنَّ الملك تَفْشَ خاتمه بدلاً من اسمه واسم أبيه.  
 ولما قتل أنوشروان بزرجمهر وجد في منطقته رقعةً فيها مكتوبٌ: إذا كانت الحظوظ  
 بالجدود فما الجِرْصُ؟ وإذا كانت الأمور ليست بدائمة فما السرور؟ وإذا كانت الدنيا  
 غرارةً فما الطمانينة؟  
 قال سقراط: من كثر احتمالُه وظهر جِلْمُه قلَّ ظِلْمُه وكثر أعوانه، ومن قلَّ هُمُّه على

ما فاته استراحت نفسه وصفا ذهنه وطال عمره. وقال: من تعاهد نفسه بالمحاسبة أمن عليها المداهنة. وقال: الأمانى جبال الجهل، والعشرة حسنة وقاية من الأسواء. وسنمه بعض الملوك - وكان على فرس وعليه حُلل وبرة - فقال له سقراط: إنما تفخر على غير جنسك، ولكن رد كل جنس إلى جنسه وتعال الآن فلنتكلم.

وقال سقراط: من أعطي الحكمة فلا يجزع لفقْد الذهب والفضة؛ لأن من أعطى السلامة والدعة لا يجزع لفقْد الألم والتعب؛ لأن ثمار الحكمة السلامة والدعة، وثمار الذهب والفضة الألم والتعب، وقال: الثنية ينوع الأحزان، فأقلوا القنية تقل همومكم.

وقال: الثنية مخدومة، ومن خدم غير نفسه فليس بحر.

وقال أبو الطيب: الخفيف:

أبدأ تسترُّ ما تهبُّ الدن يا فيا ليت جودها كان بخلاً  
وكفت كؤن قرحة ثورت لهم وخلاً  
يغادر الوجد خلاً

من حكم الهند

وفي كتاب الهند: العاقل حقيق أن تسخو نفسه عن الدنيا، علماً بأنه لا ينال أحد منها شيئاً إلا قل إمتاعه به وكثر عناؤه فيه، ووباله عليه، واشتدت مؤنته عند فراقه، وعلى العاقل أن يدوم ذكره لما بعد هذه الدار، ويتنزه عمّا تسيره إليه نفسه من هذه العاجلة، ويتنحى عن مشاركة الكفرة والجهال في حب هذه الفانية التي لا يالفها ولا ينخدع بها إلا المغترون.

وفيه: لا يجدن العاقل في صحبة الأحاب والأخلاء، ولا يحرصن على ذلك كل الجرص. فإن صحتهم على ما فيها من السرور كثيرة الأذى، والمؤنات، والأحزان، ثم لا يفي ذلك بعاقبة الفراق.

وفيه: ليس من شهوات الدنيا ولذاتها شيء إلا وهو مولد أذى وحزننا، كالماء المالح الذي كلما ازداد له صاحبه شرباً ازداد عطشاً، وكالقطعة من العسل في أسفلها سم للذائق؛ فيه حلاوة عاجله، وله في أسفلها سم دُعاف، وكأحلام النائم التي تسره في منامه، فإذا استيقظ انقطع السرور، وكالبرق الذي يضيء قليلاً، ويذهب وشيكاً، ويبقى صاحبه في الظلام مُقيماً، وكدودة الإبريسم ما ازدادت عليه لفاً إلا ازدادت من الخروج بعداً.

وفيه: صاحب الدين قد فكر؛ فعلته السكينة، وسكن فتواضع، وقنع فاستغنى، ورَضِي فلم يهتم، وخلع الدنيا فتجا من السرور، ورفض الشهوات فصار حراً، وطرح الحسد فظهرت له المحبة، وسخت نفسه عن كل قان، فاستكمل العقل، وأبصر العاقبة، فأمن الندامة، ولم يؤذ الناس فيخافهم، ولم يُذنب إليهم فيسألهم العفو.

وصية عتبة بن أبي سفيان

لمولاه سعد القصر:

وقال سعد القصر مولى عتبة بن أبي سفيان: ولأنني عُتبة أمواله بالحجاز، فلما ودعته قال: يا سعد، تعاهد صغير مالي فيكبر، ولا تجف كبيره فيصغر؛ فإنه ليس يمتعني كثير ما عندي، من إصلاح قليل ما في يدي، ولا يمتعني قليل ما عندي من كثير ما ينويني. قال: فقدمت الحجاز، فحدثت به رجالاً من قريش، ففرقوا به الكتب إلى الوكلاء.

من حكم يزيد بن معاوية

وقال يزيد بن معاوية لعبيد الله بن زياد: إن أباك كفى أخاه عظيماً، وقد استكفيتك صغيراً، فلا تتكلم مني على عُذر، فقد اتكلت منك على كفاية، ولأن أقول لك: إياك، أحب إلي من أن أقول: إياي؛ فإن الظن إذا أخلف فيك

أخلف منك، فلا تُرْحُ نفسك وأنت في أدنى حطك، حتى تَبْلُغَ أقصاه؛ واذكر  
في يومك أخبارَ عَدِّكَ، واستزِدِّي بإحسانك إلى أهل الطاعة، وإساءتك إلى  
أهل المعصية، أزدك إن شاء الله تعالى.

أبو الأسود الدؤلي والعمامة

ذكرت العمامة عند أبي الأسود الدؤلي فقال: جُنَّةٌ في الحرب، ودِتَارٌ في  
البرد، وكِنَّةٌ في الحرِّ، وَوَقَارٌ في التَّديِّ، وشرف في الأحداث، وزيادة في  
القامة، وهي بعد عادةً من عادات العرب.

من إنشاء ابن العميد

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى أبي عبد الله الطبري: وقفت على ما وصفت من برِّ  
مولانا الأمير لك، وتوفّره بالقُصْلِ عليك، وإظهار جميل رآيه فيك، وما أنزله من عارفةٍ  
لديك؛ وليس العجب أن يتناهى مِنْهُ في الكرم إلى أبعد غاية، وإنما العجب أن يَقْضِرَ  
شيء من مساعيه عن تَبِيلِ المجد كله، وحياسة الفضلِ بآجمعه؛ وقد رجوت أن يكون ما  
يغرسه من صنيعَةٍ عندك أجدر غرس بالزكاء، وأصمّنه للربيع والتّماء، فأزع ذلك، واركب  
في الخِدْمَةِ طريقة تُبْعِدُكَ من الملأل، وتوسطك في الحضور بين الإكثار والإقلال، ولا  
تَسْتَرْسِلُ إلى حسن القبول كل الاسترسال؛ فلأن تُدْعَى من بعيد خيرٌ من أن تُقْصَى  
من قريب، وليكن كلامك جواباً تتحرّز فيه من الخطل ومن الإسهاب، ولا يعجبك تأتي  
كلمة محمودة فيلج بك الإطنابُ تَوْفَعاً لمثلها؛ فربما هدمت ما بنّته الأولى، وبضاعتك  
في الشرف مُرْجاة، وبالعقل يزّم اللسان، ويرام السداد، فلا يستفّرّ نك طرّب الكلام  
على ما يفسد تمييزك؛ والشفاعة لا تعرض لها فإنها مُخْلِقةٌ للجاه؛ فإن اضطرت إليها  
فلا تهجم عليها حتى تعرف موقعها، وتحصّل وزنها، وتطالع موضعها؛ فإن وجدت النفس  
بالإجابة سَمْحَةً، وإلى الإسعاف هَشَّةً، فأظهر ما في نفسك غير محقق، ولا توهم أن  
عليك في الرد ما يُوحشك، ولا في المنع ما يغيظك، وليكن انطلاق وجهك إذا دُفِعْتَ عن  
حاجتك أكثر منه عند نجاحها على يدك، ليخفّ كلامك، ولا يثقل على سامعه منك. أقول  
ما أقولُ عَيْرٍ واعظ ولا مُرشد، فقد جَمَلُ اللهُ خصالك، وحسّن خلالك، وفصّل في ذلك  
كله؛ لكنني أنبهه تنبيه المشارك له، وأعلم أن للذكرى موضعاً منك لطيفاً.  
وله أيضاً: سألتني عن شقني وجدي به، وشغفني حُبّي له، ورعمت أني لو شئت  
لذهلت عنه، ولو أردت لاعتضت منه: الكامل:

زعماء، لعمز أهلك، ليس بمزعم

كيف أسلو عنه وأنا أراه، وأنساه وهو لي تُجاه؛ هو أغلب عليّ وأقرب إليّ،  
من أن يُرخي لي عناني، أو يخيلني واختياري، بعد إختلاطي بملكه، ونجراطي  
في سلكه، وبعد أن ناط حُبّه بقلبي تأيط وساطه بدمي سائط. وهو جار  
مَجْرَى الرُّوح في الأعضاء، متنسم تنسّم روح الهواء؛ إن ذهب عنه رجعت  
إليه، وإن هرب عنه وقع عليه وما أحبّ السلو عنه مع هتاته، وما أوتر  
الخلو منه مع ملاته؛ هذا على أنه إن أقبل عليّ بهتني إقباله، وإن أعرض عني  
لم يطرّقني خياله، يبعد عني مثاله، ويقرب من غيري تواله، ويردّ عيني  
خاسته، ويثني يدي خالية، وقد بسط أفات العيون المقاربة، وصدق مرامي  
الظنون الكاذبة، وصله يُنذِرُ بصدّه، وقُزِيه يُؤذِن ببعده، يُدني عندما ينزح،  
ويأسو مثل ما يجرح، محالته أحوال، وخلته خلال، وحكمه سجال، الحُسْنُ  
في عوارفه، والجَمالُ من منائحه، والبهاءُ من أصوله وصِفاته، والسَّناءُ من  
نعوته وسِماته، اسمه مطابق لمعناه، وقحواه موافق لتجوّاه، يتشابه حاله،  
ويتضارع فطراره، من حيث تلقاه يستنير، ومن حيث تنساه يستدير.

وباء الكوفة

وقع بالكوفة وباء، فخرج الناس وتفرّقوا بالنجف، فكتب شريح إلى صديق له خرج  
بخروج الناس: أما بعد، فإنك بالمكان الذي أنت فيه بعين من لا يُعجزه هرب، ولا يقوُّه  
طلب؛ وإن المكان الذي خلقت لا يعجل لأحد جمامه، ولا يظلمه أيامه، وإنا وإياك لعلی

بساطٍ واحد، وإنَّ النجف من ذي قدرة لقریب.  
وهرب أعرابي ليلاً على حمارٍ جداراً من الطاعون، فبينما هو سائر إذ سمع قائلاً يقول:  
الرجز:

لن يُسبق الله على حمارٍ      ولا على ذي مَنَعَةٍ طيارٍ  
أو يأتني الحَتَفُ على مقدارٍ      قد يصيح الله أمام الساري  
فكرّ راجعاً، وقال: إذا كان الله أمام الساري فلات حين مهرب.

جوى الشوق  
قال الأصمعي: أخبرني يونس بن حبيب قال: أتى قومٌ إلى ابن عباس بفنّى محمول  
صَعْفًا، فقالوا: استشف لهذا الغلام، فنظر إلى فنّى حُلُو الوجه، عاري العظام، فقال له:  
ما بك؟ فقال: الطويل:

بنا من جوى الشوق المبرِّح      تكادُ لها نفسُ الشفيق  
لَوْعَةٌ      تَدُوبُ

ولكنما أبقى حُشاشة ما      على ما به عُوْدُ هناك صليْبُ  
تَرَى

فقال ابنُ عباس: رأيتم وجهاً أعتق، ولساناً أدلق، وعُوداً أصلب، وهوى أغلب، ممّا  
رأيتم اليوم. هذا قتيل الحبِّ، لا قود ولا دية!.  
وكان ابنُ عباس، رضي الله عنهما، حَبْرٌ قريش وبخْرها، وله يقول رسول الله، صلى  
الله عليه وسلم: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل". وفيه يقول حسان بن ثابت:  
الطويل:

إذا قال لم يترك مقالاً      بملتقطات لا تَرَى بينها  
لقائل      فصلاً  
شقى وكفى ما في النفوس؛      لذي لَسَنِ في القول جدّاً ولا  
فلم يدعُ      هزلاً  
سموت إلى العُليا بغير      فَنِلتُ دُراها لا دَنِيّاً ولا وَعَلاً  
مَشَقَّةً

من أخبار مسلم بن الوليد وشعره  
وقال مسلم بن الوليد: الطويل:

أَعَاوِدُ ما قَدَّمْتُهُ مِنْ رَجَائِها      إذا عاودت باليأس فيها  
رَأَيْتني عَنِّي الطَّرْفِ عنها      المطامِعُ  
فَأَعْرَضْتُ      وهل خِفْتُ إلا أن تثير  
وما زَيْتُها النفسُ لي عن      الأصابع؟  
لِجاجةٍ      ولكن جَرى فيها الهوى وهو  
فأقسمت أنسى الداعياتِ      طائع  
إلى الصِّبا      وقد فاجأها العينُ والسُّنُرُ  
فغطتُ بأيديها ثَمَارَ      واقع  
نُحُورِها      كأيدي الأسارى أثقلتَها  
وكان مسلم أنصارياً صريحاً، وشاعراً فصيحاً، ولقّب صريعاً أيضاً لقوله: الطويل:  
لأَمْضِي هَمًّا أو أصيب فنّى      مثلي  
سأنقاد للذات مُتَّبِعِ الهوى

هل العيش إلا أن تروح مع      صريع حُمَيّا الكأس والأعين  
الصبا      النجل؟

واجتلب له هذا الاسم لأجل هذا البيت؛ وقد قال القطامي: الطويل:

صريع غوانٍ راقهنَّ ورُقنَّه  
 لَدُنْ شَبَّ حَتَّى شَابَ سَوْدُ  
 الدَّوَابِّ

ومسلم أول من لطف البديع، وكسا المعاني حُلل اللفظ الربيع، وعليه  
 يعوّل الطائي، وعلى أبي نواس، ومن بديع شعره الذي امتثله الطائي  
 قوله: الطويل:

تُسَاقِطُ يُمَنَاهُ النَّدَى وَشِمَالُهُ الرَّدَى  
 وَعَيُونَ القَوْلِ مَنُطِقُهُ القِصْلُ

كَأَنَّ تَعَمَّ فِي فِيهِ تَجْرِي مَكَاتِهَا  
 لَهُ هَضْبَةٌ تَأْوِي إِلَى ظِلِّ  
 بَرَمَكٍ

عَجُولٌ إِلَى أَنْ يُودِعَ الحَمْدُ  
 مَالَهُ

وقد حَرَّمَ الأَعْرَاضَ بالبَيْضِ  
 والنَّدَى

حَبَابًا لَا يَطِيرُ الجَهْلُ فِي  
 عَرَصَاتِهَا

بَكْفٍ أَبِي العَبَاسِ يُسْتَمَطَّرُ  
 الغِنَى

مَتَى شِئْتَ رَفَعْتَ السُّتُورَ عَن  
 الغِنَى

وقوله أيضاً: الطويل:

إِذَا كُنْتَ ذَا تَفْسٍ جَوَادُ  
 ضَمِيرُهَا

رَأَيْتَ بَعِينَ الجُودِ فَانْتَهَزَ  
 الذِّي

ظَلَمْتِكَ إِنْ لَمْ أَجْزَلِ الشُّكْرَ  
 بَعْدَمَا

فَإِنَّكَ لَمْ يَتْرَكَ نَدَاكَ  
 ذَخِيرَةً

وقال ليزيد بن مَزَيْدَ: البسيط:

مُوفٍ عَلَى مُهَجِّ فِي يَوْمِ ذِي  
 رَهَجٍ

يُنَالُ بِالرَّفْقِ مَا يَغِيَا الرِّجَالُ  
 بِهِ

لَا يَرَحَلُ النَّاسُ إِلَّا نَحْوَ  
 حَجْرَتِهِ

يَقْرِي المَنِيَّةَ أرواحَ الكُماةِ  
 كَمَا

يَكسُو السُّيُوفَ رُؤُوسَ  
 النَّاكِثِينَ بِهِ

سَلَاةٌ مَا مَجَّتْ لِأفْرَاحِهَا  
 النَّحْلُ

مَنْوُوطٌ بِهَا الأَمَالُ، أَطْنَابُهَا  
 السُّبُلُ

يَعُدُّ النَّدَى عُنْمًا إِذَا اغْتُنِمَ  
 البُّحْلُ

فَأموالُهُمْ تَهَبُّ وَأَعْرَاضُهُمْ  
 بَسَلُ

إِذَا هِيَ حُلَّتْ لَمْ يَفُتْ حَلَّهَا  
 دَحْلُ

وُسْتَنْزَلُ النُّعْمَى وَبُسْتَرَعْفُ  
 النَّصْلُ

إِذَا أَنْتِ زُرْتِ القِصْلَ أَوْ أَدْنَ  
 القِصْلَ

فَلَيْسَ يَضُرُّ الجُودَ أَنْ كُنْتَ  
 مُعْدِمًا

أَرَدْتَ فَلَمْ أَفْعَرْ إِلَيْهِ بِهِ قَمًا  
 جَعَلْتَ إِلَى شُكْرِي نَوَالَكَ  
 سُلْمًا

لِغَيْرِكَ مِنْ شُكْرِي وَلَا  
 مَتَلُومًا

كَأَنَّهُ أَجَلٌ يَسْعَى إِلَى أَمَلٍ  
 كَالْمَوْتِ مُسْتَعَجِلًا يَأْتِي عَلَى  
 مَهْلٍ

كَالْبَيْتِ يُصْحِي إِلَيْهِ مُلْتَقِي  
 السُّبُلِ

يَقْرِي الضُّيُوفَ شُحُومَ الكُومِ  
 وَالبُرْلِ

وَيَجْعَلُ الهَامَ تِيْجَانَ القَنَا  
 الدُّبْلِ

قد عَوَّدَ الطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثُقِنَ  
بِهَا  
فَهِنَّ يَتَّبِعْنَ فِي كُلِّ مُرْتَحِلٍ

وهذا المعنى كثير.

أبيات في وصف الجيش

قال عمرو الوراق: سمعت أبا نُؤاس ينشد قصيدته المديد:

أَبْهَى الْمُتَابُ عُقْرَهُ  
لَسَتْ مِنْ لَيْلِي وَلَا سَمَرِهِ  
لا أذودُ الطَّيْرَ عَنْ شَجَرِهِ  
قد بَلَوْتَ المَرَّ مِنْ تَمَرِهِ  
فحسدته عليها، فلما بلغ إلى قوله:

وَإِذَا مَجَّ القَنَا عِلْقًا  
وَتَرَأَى المَوْتُ فِي صُورِهِ  
رَاحَ فِي ثِيبي مُفَاصَّتِهِ  
أَسَدٌ يَدْمَى سَبَا ظُفْرِهِ  
تَتَابَى الطَّيْرُ عَزْوَتِهِ  
ثِقَّةً بِالسَّبْعِ مِنْ جَزْرِهِ  
تحت ظلِّ الرِّيحِ تَتَبَعُهُ  
فهي تتلوه على أثره

فقلت: ما تركت للنابعة شيئاً حيث يقول: الطويل:

إِذَا مَا عَزَّوْا بِالجَيْشِ حَلَقَ  
عَصَابِ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَابِ  
فَوْقَهُمْ

جَوَانِحٌ قَدْ أَيَقِنُّ أَنْ قَبِيلَهُ  
إِذَا مَا التَّقَى الجَمْعَانِ أَوَّلُ  
غَالِبِ

فقال: اسكت، فلئن أحسن الاختراع، لما أسأت الاتباع.

أخذه الطائي فقال: الطويل:

وَقَدْ ظَلَلْتُ عِقْبَانُ رَايَاتِهِ  
بِعِقْبَانِ طَيْرٍ فِي الدَّمَاءِ  
صُحِّي  
نَوَاهِلِ

أَقَامْتُ عَلَى الرَايَاتِ حَتَّى  
كَانَهَا  
من الجَيْشِ إِلَّا أَنهَا لَمْ تَقَاتِلِ

وقال المتنبي يصف جيشاً: الطويل:

وَذِي لَجَبٍ لَا ذُو الجَنَاحِ  
يَتَّاجِ، وَلَا الوَحْشِ المُتَّارِ  
أَمَامَهُ  
تَمَرُّ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهِيَ  
تُطَالِعُهُ مِنْ بَيْنِ رِيَشِ  
ضَعِيفُهُ  
تَدَوَّرَ فَوْقَ البَيْضِ مِثْلَ  
الدرَاهِمِ  
فَرَجَّةُ

وصف شِعْبِ بَوَّانٍ

ونظير قول أبي الطيب في هذا البيت وإن لم يكن في معناه قوله يصف  
شِعْبِ بَوَّانٍ، وسيأتي، وفي هذا الشَّعْبِ يقول أبو العباس المبرد: كنت مع  
الحسن بن رجاء بفارس؛ فخرجتُ إلى شِعْبِ بَوَّانٍ، فنظرتُ إلى تُرْبَةٍ كَانَهَا  
الكافور، ورياضُ كَانَهَا الثوب الموشى وماء ينحدر كانه سَلَسِلُ الفضة،  
على حصباء كَانَهَا حَصَى الدَّرِّ؛ فجعلت أطوف في جَنَابَتِهَا، وأدور في  
عَرَصَاتِهَا، فإذا في بعض جدرانها مكتوب: الطويل:

إِذَا أَشْرَفَ المَكْرُوبِ مِنْ  
عَلَى شِعْبِ بَوَّانٍ أَفَاقِ مِنْ  
رَأْسِ تَلْعَةٍ  
الكَرْبِ

وَأَلْهَاهُ بَطْنُ كَالْحَرِيرِ  
مِطْرِدٍ يَجْرِي مِنَ البَارِدِ  
لِطَاقَةٍ  
العَدْبِ

وَطِيبُ رِيَاضِ فِي بِلَادِ  
وَأَغْصَانُ أَشْجَارِ جَنَابَتِهَا عَلَى

قُرْبِ  
بعينك ما لُمت المحبين في  
الحبِّ  
إلى شِعب بؤان سلامَ فتى  
صَبِّ

قال أبو العباس: فأخبرت سليمان بن وهب بما رأيت، فقال: وقد رأيت تحت هذه الأبيات: الخفيف:

خَلَقْنَا بالعراق هل دَكَّرُونَا؟  
قَدُمَ العَهْدُ بيننا فَنسُوتَا؟  
لَهُمْ في الهوى كما عهدونا

بمنزلة الربيع من الزمانِ  
غريبُ الوجه واليدِ واللسانِ  
سليمانُ لسارٍ يَنْزُجُمانِ  
خشيتُ وإن كَرُمَنَ من  
الجرانِ  
على أَعْرَافِهَا مِثْلَ الجُمانِ  
وجئنُ من الضياء بما كفاني

دنانيراً تَفَرُّ مِنَ البَنانِ

أَعِنِّي هذا يُسَارُ إلى الطَّعانِ؟  
وعَلَمَكُم مَّفارقةَ الجِنانِ  
بأشربةٍ وَقِفَنَ بلا أواني  
صَلِيلَ الحَلِي في أيدي  
الغواني

رأيتُ عَيْنَ ثِقَةٍ أنْ سُمَامُ  
من الطيرِ يَنْظُرَنَ الذي هو  
صانعُ  
وإن ضاقَ أمرٌ مرَّةً فهو  
وَاسِعُ

فسيحَ وَأَقْلَى الشَّحِّ إلا على  
عِرْضِي  
ولكن أساءت نعمة من فتى

مَرِيعَةٍ  
يدير علينا الكاسَ من لَوِ  
لَحَظَّتْهُ  
فبالله يا ريحَ الشمالِ  
تَحَمَّلِي

ليت شعري عن الذين تَرَكْنَا  
أم يكون المدي تطاولَ حتى  
إن جفوا حرمة الصفاء فإننا

وشعر المتنبى: الوافر:

مَغَانِي الشَّعب طيباً في  
المَغَانِي  
ولكنَّ الفتى العَرَبِيَّ فيها  
مَلَاعِبُ جِنَّةٍ لو سار فيها  
طَبَّتْ فُرُساتنا والخيلَ حتى

عَدَّوْنَا تَنْفُضُ الأَغصانُ فيه  
فَجِئْتُ وقد حَجَبَنَ الشمسَ  
عني  
وَأَلْقَى الشَّرْقُ منها في  
بَنانِي

ومنها:

يقول يَشِيعِبُ بؤانِ حِصانِي:  
أبوكم أدمُ سَنَّ المعاصي  
إنما أردت هذا البيت. ومنها:  
لها تَمَرٌ تُشِيرُ إِلَيْكَ منه  
وَأَمَواهُ يَصِلُ بها حِصاها

رَجَعُ إلى وصف الجيشِ  
وأول من ابتكر هذا المعنى الأول الأفوه الأودي في قوله: الرميل:  
وأرى الطير على آثارنا  
وقال حميد بن ثور وذكر ذئباً: الطويل:

إذا ما غدا يوماً رأيتُ غيابة  
فهمٌ بأمرٍ ثم أزمع غيره

وقال مسلم بن الوليد: الطويل:

وإنِّي لأستحيي القُنع  
ومذهبي  
وما كان مثلي يعتريك

رَجَاؤُهُ  
 وَإِنِّي وَإِشْرَافِي عَلَيْكَ  
 بِهِمَّتِي  
 أَخَذَهُ أَبُو عَثْمَانَ النَّاجِمُ فَقَالَ: الْخَفِيفُ:  
 لَمْ تُحْضَلْ بِمُحْضِكِ الْمَاءِ إِلَّا  
 فِي وَصْفِ سَفِينَةٍ  
 وَقَالَ مُسْلِمٌ أَيْضًا يَصِفُ السَّفِينَةَ: الطَّوِيلُ:  
 كَشَّفْتُ أَهْوِيلَ الدُّجَى عَنْ  
 مَهْوَلِهِ  
 إِذَا أَقْبَلْتُ رَاعَتْ بِقُنَّةٍ قَرْهَبٍ  
 أَطَلَّتْ بِمَجْدَافِينَ يَعْتَوِرَانِهَا  
 كَأَنَّ الصَّبَا تَحْكِي بِهَا حِينَ  
 وَاجَهَتْ  
 فِي وَصْفِ الْأَسَاطِيلِ  
 وَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ هَانِيٍّ يَصِفُ أَسْطُولَ الْمَعَزِ بِاللَّهِ: الطَّوِيلُ:  
 أَمَّا وَالْجَوَارِي الْمُنْشَاتِ الَّتِي  
 سَرَتْ  
 قِبَابٌ كَمَا تُرْحَى الْقِبَابُ عَلَى  
 الْمَهَا  
 وَمَا رَاعَ مَلِكَ الرُّومِ إِلَّا  
 أَطْلَاعُهَا  
 وَلِلَّهِ مِمَّا لَا يَرُونَ كِتَائِبُ  
 أَطَالَ لَهَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ حَلَقَهَا  
 وَأَنَّ الرِّيحَ الذَّارِيَاتِ كِتَائِبُ  
 عَلَيْهَا عَمَامٌ مُكْفَهَرٌ صَبِيرُهُ  
 مُوَاجِرٌ فِي طَامِي الْعُبَابِ  
 كَانَهَا  
 أَنْأَقَتْ بِهَا آطَامُهَا وَسَمَا  
 بِهَا  
 مِنَ الطَّيْرِ إِلَّا أَنْهَنَ جَوَارِحُ  
 وَليْسُو بِأَعْلَى كَبْكَبٍ وَهُوَ  
 شَاهِقٌ  
 مِنَ الرَّاسِيَاتِ الشُّمِّ لَوْلَا  
 انْتِقَالُهَا  
 مِنَ الْقَادِحَاتِ النَّارِ تُصْرَمُ  
 لِلصَّلَى

مَحْضٌ  
 لِكَا الْمَبْتَغِي زُبْدًا مِنَ الْمَاءِ  
 بِالْمَحْضِ  
 زَبْدًا حِينَ رَمَتْ بِالْجَهْلِ زُبْدًا  
 بِجَارِيَةٍ مَحْمُولَةٍ حَامِلٍ بِكُرٍ  
 وَإِنْ أَدْبَرْتُ رَاقَتُ بِقَادِمَتِي  
 تَسْرٍ  
 وَقَوْمَهَا كَبْحُ اللَّجَامِ مِنَ  
 الدُّبْرِ  
 نَسِيمَ الصَّبَا مَشْيِي الْعُرُوسِ  
 إِلَى الْخَذْرِ  
 لَقَدْ ظَاهَرَتْهَا عُذَّةٌ وَعَدِيدُ  
 وَلَكِنَّ مِنْ صُمَّتِ عَلَيْهِ  
 أَسْوَدُ  
 تُنَشِّرُ أَعْلَامَ لَهَا وَبُنُودُ  
 مُسْتَوِّمَةٌ يَجْرِي بِهَا وَجَنُودُ  
 فَمَنْ وَقَفَتْ خَلْفَ الصَّفُوفِ  
 زُدُودُ  
 وَأَنَّ النُّجُومَ الطَّالِعَاتِ  
 سَعُودُ  
 لَهُ بَارِقَاتُ جَمَّةٌ وَرُعُودُ  
 لِعِزْمِكَ بَأْسٌ أَوْ لِكَفِّكَ جُودُ  
 بِنَاءٌ عَلَى غَيْرِ الْعَرَاءِ مَشِيدُ  
 وَليْسَ لَهَا إِلَّا النُّفُوسَ  
 مَصِيدُ  
 وَليْسَ مِنَ الصُّفَّاحِ وَهُوَ  
 صَلُودُ  
 فَمِنْهَا قِتَانٌ شُمَّخٌ وَرُبُودُ  
 فليْسَ لَهَا يَوْمَ اللِّقَاءِ  
 حُمُودُ

إِذَا زَفَرْتُ عَيْطًا تَرَامَتْ  
 بِمَارِجٍ  
 تُعَانِقُ مَوْجَ الْبَحْرِ حَتَّى كَأَنَّهُ  
 تَرَى الْمَاءَ فِيهَا وَهُوَ قَانٍ  
 خِصَابُهُ  
 فَأَنْفَاسُهُنَّ الْحَامِيَاثُ  
 صَوَاعِقُ  
 يُشَبُّ لَالِ الْجَائِلِيْقِ  
 سَعِيْرَهَا  
 لَهَا شَعْلٌ فَوْقَ الْغَمَارِ كَأَنَّهُا  
 وَغَيْرُ الْمَذَاكِ تَجْرُهَا غَيْرَ  
 فَلَيْسَ لَهَا إِلَّا الرِّبَاحَ أَعِنَّةُ  
 تَرَى كُلَّ قُودَاءِ التَّلِيلِ كَمَا  
 انْتَنَتْ  
 رَحِيْبَةٌ مَدَّ الْبَاعِ وَهِيَ نَضِيْجَةٌ  
 تَكْبُرَنَّ عَنِ تَفْعٍ يُنَارُ كَأَنَّهُا  
 لَهَا مِنْ شُفُوفِ الْعَبْقَرِيِّ  
 مَلَابِسُ  
 كَمَا اشْتَمَلْتُ فَوْقَ الْأَرَائِكِ  
 خُرْدُ  
 لِبُوسٍ تَكْفُ الْمَوْجَ وَهُوَ  
 عَطَائِمُطُ  
 فَمِنْهُ دُرُوعٌ فَوْقَهَا وَجَوَاشِنُ  
 وَقَالَ عَلِيٌّ بِنُ مُحَمَّدِ الْإِيَادِي يَصِفُ أَسْطُولَ الْقَائِمِ فَأَجَادَ مَا أَرَادَ: الْكَامِلُ:  
 إِعْجَبْتُ لِأَسْطُولِ الْإِمَامِ  
 مُحَمَّدِ  
 لَيْسَتْ بِهِ الْأَمْوَاجُ أَحْسَنَ  
 مَنْظَرِ  
 مِنْ كُلِّ مُشْرِقَةٍ عَلَى مَا  
 قَابَلَتْ  
 دَهْمَاءٌ قَدْ لَيْسَتْ ثِيَابَ تَصْنَعُ  
 مِنْ كُلِّ أَيْبُضٍ فِي الْهَوَاءِ  
 مَنْشَرِ  
 كَمَلَاءَةٍ فِي الْبَرِّ يَقْطَعُ شَدَّهَا  
 مَحْفُوفَةٌ بِمَجَازِفِ  
 مَصْفُوفَةٌ  
 كَمَا شُبَّ مِنْ نَارِ الْجَحِيمِ  
 وَقُودُ  
 سَلِيْطٌ لَهُ فِيهِ الدُّبَالُ عَتِيْدُ  
 كَمَا بَاشَّرْتُ رَدْعَ الْخَلُوقِ  
 جُلُودُ  
 وَأَفْوَاهُهُنَّ الزَّافِرَاثُ حَدِيْدُ  
 وَمَا هِيَ مِنْ آلِ الطَّرِيْدِ بَعِيْدُ  
 دِمَاءٌ تَلْقِيْهَا مَلَاْحِفُ سُودُ  
 أَنَّهُا مُسَوِّمَةٌ تَحْتَ الْفَوَارِسِ  
 قُودُ  
 وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا الْعُجَبَابَ كَدِيْدُ  
 سَوَالِفُ غِيْدٍ أَعْرَضَتْ  
 وَخُدُودُ  
 بَغِيْرَ سَوَى عِذْرَاءٍ وَهِيَ وَوَلُودُ  
 مَوَالٍ وَجُرْدُ الصَّافِنَاتِ  
 عَتِيْدُ  
 مُفَوِّقَةٌ فِيهَا النَّصَارُ جَسِيْدُ  
 أَوْ التَّقَعْتُ فَوْقَ الْمَنَابِرِ صِيْدُ  
 وَتَدْرَأُ بِأَسَنِ الْيَمِّ وَهُوَ  
 شَدِيْدُ  
 وَمِنْهَا حَقَاتِيْنُ لَهَا وَبُرُودُ  
 وَلِحْسَنِهِ وَزَمَانِهِ الْمُسْتَعْرَبِ  
 يَبْدُو لَعِيْنَ النَّاطِرِ الْمُتَعَجِّبِ  
 إِشْرَافِ صَدْرِ الْأَجْدَلِ  
 الْمَتَنَصِّبِ  
 تَشْبِيْهِ الْعُقُولِ عَلَى ثِيَابِ  
 تَرَهِّبِ  
 مِنْهَا وَأَسْحَمَ فِي الْخَلِيْجِ  
 مُعَيَّبِ  
 فِي الْبَحْرِ أَنْفَاسُ الرِّيحِ  
 الشَّدْبِ  
 فِي جَانِبِيْنِ دُوَيْنِ صُلْبِ  
 صُلْبِ

كَقَوَادِمِ النَّسْرِ الْمَرْفَرِ  
عُرِّيَتْ  
تَحْتَهَا أَيْدِي الرِّجَالِ إِذَا وَتَتْ  
من كاسيات ريشه  
المتهدِّبِ  
بمصعدِّ منه بُعِيدُ مُصَوِّبِ

خرقاء تذهبُ إن يدُ لم  
تهدها  
جوفاء تحمل موكباً في  
جوفها  
ولها جناحٌ يستعار يُطيرُها  
يعلو بها حدبُ العباب  
مُطارَةٌ  
تسمو بأجردَ في الهواء  
متوجِّجِ  
يتنزل الملاحُ منه ذؤابةً  
فكأنما رام استراقَةَ  
مَفْعَدِ  
وكأنما جنُّ ابنِ داودِ هُمُ  
سجروا جواجمَ نارها  
فتقاذفوا  
من كلِّ مسجورِ الحريقِ إذا  
انبرى  
عُربان يقدمه الدخانُ كأنه  
ولواحق مثل الأهلَّةِ جُنْحُ  
يَذْهَبُنَ فيما بينهن لَطَافَةٌ  
كنضائضِ الحياتِ رُحَنَ  
لواعباً  
شرعوا جوانبها مجادفَ  
أُتْعِبَتْ  
تنصاع من كَنَبٍ كما نفر  
القَطَا  
والبحرُ يجمع بينها فكأنه  
وعلى كواكبها أسود خِلافةً  
فكأنما البحرُ استعار

في كل لُجٍّ زاخرٍ مُغْلَوْلِبِ  
عربان منسوج الذؤابة  
شُدُوبِ  
لورام يركبها القَطَا لم  
يَرْكَبِ  
للسمع إلا أنه لم يُشْهَبِ  
ركبوا جوانبها بأعْتَفِ  
مَرْكَبِ  
منها بالسُّنِ مارج متلهَّبِ  
من سجنه انصَلَّتْ انصلات  
الكوكبِ  
صبحُ يَكْرُ على الظلام  
العَيْهَبِ  
لحق المطالب فائتات  
المَهْرَبِ  
ويجننُ فُعل الطائر  
المتغلبِ  
حتى يَقَعَنَّ ببرك ماء  
الميرَبِ  
شَاوُ الرِّياحِ لها ولما تَنَعَبِ  
طوراً، وتجتمع اجتماع  
الرَّئِبِ  
ليلٌ يقربُ عقرباً من  
عَقْرَبِ  
تختالُ في عُددِ السلاح  
المُدْهَبِ  
ثوبَ الجمال من الربيع

بزيهم

المعجب

في المودة

كتب العباس بن جرير إلى الفضل بن يحيى: لا أعلم منزلةً توحشني من الأمير ولا توحشه مني، لأنني في المودة له كنفسه، وفي الطاعة كيدي، وإنما الطقه من فضله، وقد بعثت بعض ما ظننت أنه يحتاج إليه في سفره. وذكر ما بعث.

وكتب غيره في هذا المعنى: إذا كان اللطف دليل محبة، وميسم قربة، كفى قليله عن كثيره، وناب يسيره عن خطيره، لا سيما إذا كان المقصود به ذا همة لا يستعظم نفيساً، ولا يستصغر خسيساً؛ وقد حُزت من هذه الصفة أجل فضائلها، وأرفع منازلها.

وفي هذا المعنى: إن يد الأنس طويلة بكل ما بلغت، منبسطة بكل ما أدركت، من حيث يد الحشمة قصيرة عن كل ما حوت، مقبوضة دون ما أملت؛ لأن باب القول مطلق لذوي الخصوص، محذور عند ذوي الهوم، ولتتمكن ما بيننا عاطيتك من لطفي ما لا دونه قلة، ثقة منك بأنه يرد على ما لا فوقه كثرة.

ومن ألفاظ أهل العصر

في إقامة رسم الهدية

في المهرجان والنيروز:

لمثل هذا اليوم الجديد والأوان السعيد سنة، وعلى مثلي فيها أن يتحف ويُلطف، وعلى مثل سيدنا، ولا مثل له، أن يقبل ويشرف. لليوم رسم إن أخل به الأولياء عُد هفوة، وإن منع منه الرؤساء حُسب جفوة، ومولاي يسوغني الدالة فيما اقترن بالرقعة، ويكسبني بذلك الشرف والرفعة. الهدايا تكون من الرؤساء مكاترة بالفضل، ومن النظراء مقارضة بالمثل، ومن الأولياء ملاطفة بالقل، وقد سلكت في هذا اليوم مع مولاي سبيل أهل طبقته من الأرباب، وقد حملت إلى مولاي هدية الملاطف، لا هدية المحتفل، والنفس له، والمال منه.

ولهم في التهنة بالنيروز والمهرجان

وفصل الربيع:

هذا اليوم عزة في أيام الدهر، وتاج على مفرق العصير. أسعد الله مولانا بتوروزه الوارد عليه، وأعاده ما شاء وكيف شاء إليه. أسعد الله تعالى سيدنا بالنوروز الطالع عليه ببركاته، وأيمن طائرته في جميع أيامه ومنتصراته، ولا يزال يلبس الأيام ويُلبيها وهو جديد، ويقطع مسافة تحسها وسعدها وهو سعيد. أقبل النيروز إلى سيدنا ناشراً حله التي استعارها من شيمته، ومُبدياً حالته التي اتخذها من سجيته، ومستصحباً من أنواره ما اكتساه من محاسن فضله وإكرامه، ومن أنظاره ما اقتبسه من جوده وإنعامه. وبوكد الوعد بطول بقائه حتى يمل العمر، ويستغرق الدهر. سيدنا هو الربيع الذي لا يدب شجره، ولا يزول سحره، ولا ينقطع ثمره، ولا يُفلع عمّامه، ولا تتبدل أيامه؛ فأسعده الله تعالى بهذا الربيع المتشبه بأخلاقه، وإن لم يتل قدرها، ولم يحمل فضلها، ولم يجد بُداً من الإقرار بها.

سيدنا هو الربيع الذي يتصل مطره، من حيث يؤمن ضرره، ويدوم زهره، من حيث يتعجل ثمره؛ فلا زال أمراً ناهياً، قاهراً عالياً، تتهيأ الأعياد بمصادفة سلطانه، وتستفيد المحاسن من رياض إحسانه. أسعد الله سيدنا بهذا

التَّوَرُّوزُ الحاضر، الجديد الناضر، سعادَةٌ تستمرُّ له في جميع أيامه على العموم دون الخصوص، لتكونَ متشابهاً في اكتناف المواهب لها، واتصال المسار فيها، لا يفرق إلا بمقدار يزيد التالي على الخالي، ويدرج الآني على الماضي. عرّف الله سيدنا بركة هذا المهرجان، وأسعده فيه، وفي كل زمان وأوان، وأبقاه ما شاء في ظلال الأمان والأمان. هذا اليوم من محاسن الدهر المشهورة، وفضائل الأزمنة المذكورة، فلقى الله تعالى سيدنا بركة وُروده، وأجزل حظه من أقسام سعوده، هذا اليوم من عُرر الدهور، ومواسم السرور، معظم في الملك الفارسي، مستظرف في الملك العربي؛ فوفر الله تعالى فيه على مولاي السعادات، وعرفه في أيامه البركات، على الساعات واللحظات.

صاحب الشرطة

وقال الحجاج بن يوسف: دلوني على رجل للشرطة، فقيل: أي رجل تريد؟ فقال: أريد رجلاً دائم العبوس، طويل الجلوس، سمين الأمانة، أعجف الخيانة، يهون عليه سب آل الشريف في الشفاعة! فقالوا: عليك بعبد الرحمن بن عبد الله التميمي، فأرسل إليه يستعمله، فقال: لست أعمل لك عملاً إلا أن تكفيني ولدك، وأهل بيتك، وعيالك وحاشيتك، فقال: يا غلام، ناد: مَنْ طلب إليه حاجة منهم فقد برئت منه الذمّة. وقال أشجع بن عمرو السلمي يمدح في هذا المعنى إبراهيم بن عثمان بن تهبك صاحب شرطة الرشيد، وكان جباراً عنيداً: الكامل:

في سيف إبراهيم خوفٌ	بذوي النفاق، وفيه أمْنٌ
واقِعٌ	المسلم
وبيت يكلأ والعيون هواجعٌ	مال المضيع ومُهَجّة
شَدَّ الخِطَامَ بَأَنفٍ كل	المُستسلم
مُخالفٍ	حتى استقام له الذي لم
لا يُصلِحُ السلطانَ إلا شِدَّةُ	يُخْطَمُ
ومِنَ الولاةِ مُفَحَّمٌ لا يَنْقِي	تَعْشى البريِّ بقَصْلِ دَنْبِ
مَتَعَتْ مهابتُكَ النفوسَ	المُجْرِمِ
حديثها	والسيفُ تَقْطُرُ شَفَرَتَاهُ من
?? من كلام الأعراب	الدم
عذلتُ أعرابية أباهَا في الجود وإتلاف ماله، فقالت: حَبَسَ المالُ، أنْفَعُ	بالأمر تكرههُ وإن لم تَعْلَمِ

للعيال، مِنْ بَدَلِ الوَجْهِ في السؤال؛ فقد قلَّ النوالُ، وكثر البُحَالُ، وقد أتلفت الطارفَ والتلاد، وبقيت تطلبُ ما في أيدي العباد، ومن لم يحفظ ما ينفعه، أو شك أن يسعى فيما يضره.

قال الأصمعي: سمعت أعرابية تقول: اللهم ازرُقني عمل الخائفين، وخوف العاملين، حتى أنتعم بترك التعم، رجاءً لما وعدت، وخوفاً مما أوعدت. وقال آخر: اللهم من أراد بنا سوءاً فأحطه به كإحاطة القلائد، بأعناق الولايد، وأرسخه على هامته، كرسوخ السجيل، على هام أصحاب الفيل. وقال بعض الأعراب: نالنا وسمي، وخلقه ولي؛ فالأرضُ كأنها وشي عبقري؛ ثم أتنا عيوم جراد، بمناجل جدادة فخرت البلاد، وأهلكت العباد؛ فسبحان من يهلك القوي الأكل، بالضعيف المكول.

من أخبار أبي العباس السفاح

وخالد بن صفوان:

وقال عمار بن حمزة لأبي العباس السفاح - وقد أمر له بجوائز نفيسة، وكسوة وصلية، وأدنى مجلسه -: وصلك الله يا أمير المؤمنين وبرك، فوالله لئن أردنا شكرك على كنه صلتك، فإن الشكر ليقصُر عن نعمتك، كما قصرتنا عن منزلتك، غير أن الله تعالى جعل لك فضلاً علينا بالتقصير منا، ولم تحرمنا الزيادة منك لتقص شكرنا.

وقال أبو العباس السفاح لخالد بن صفوان: كيف علمك بأحوالي بني الحارث بن كعب؟ قال: يا أمير المؤمنين، هم هامة الشرف، وعزني الكرم، وفيهم خصال ليست في غيرهم من قومهم، هم أحسنهم أمماً، وأكرمهم شيماً، وأهناهم طعماً، وأوفاهم ذمماً، وأبعدهم همماً، هم الجمرة في الحرب، والرأس في كل خطب، وغيرهم بمنزلة العجب.

وعزى خالد بن صفوان عمر بن عبد العزيز وهنأه بالخلافة، فقال: الحمد لله الذي من على الخلق بك، والحمد لله الذي جعل نيوتكم رحمة، وخلافتكم عصمة، ومصائبكم أسوة، وجعلكم قذوة.

وقال خالد بن صفوان لبعض الولاة: قدمت وأعطيت كلاً بقسطه من نظرك ومجلسك، في صوتك وعدلك، حتى كأنك من كل أحد، وحتى كأنك لست من أحد.

وقال رجل لخالد: إن أباك كان دميماً، ولكنه كان حليماً، وإن أمك كانت حسناء، ولكنها كانت رعناء، فيا جامع شر أبويه!

شذور في المقابح ومساوي الأخلاق

علي بن عبيدة الريحاني - أدنس شعار المرء جهله.

ابن المعتز: نعم الجاهل، كالرياض في المزابل. كلما حسنت نعمه الجاهل ازداد فيها قبحاً. لسان الجاهل مفتاح حنقه. لا ترى الجاهل إلا مفراطاً أو مفراطاً.

الجاحظ - البخل والجبن غريزة واحدة، يجمعهما سوء الظن بالله. البخل يهدم مباني الشرف.

وقال ابن المعتز: لما عرف أهل التقص حالهم عند ذوي الكمال، استعانوا بالكبر ليعظم صغيراً، ويرقع حقيراً، وليس ينفع الطمع في وثاق الذل.

الغضب يصدئ العقل حتى لا يرى صاحبه صورة حسنة فيرتكبه، ولا صورة قبيح فيجتنبه. الغضب ينبئ عن كامن الحقد. من أطاع غضبه أضاع أده.

حدة الغضب تعثر المنطق، وتقطع مادة الحجة، وتفرق الفهم. غضب الجاهل في قول، وغضب العاقل في فعله. عقوبة الغضب تبدأ بالغضب:

تقبح صورته، وتثلم دينه، وتعجل تدمه. ما أقيح الاستطالة عند الغنى، والخضوع عند الفقر. من يهتك ستر غيره تكشفت عورات بيته. نفاق المرء

من ذلته.

الشريبر لا يظن بالناس خيراً لأنه يراهم بعين طبعه. من عدد نعمه محق كرمه. حلف الوعد خلق الوعد، من أسرع كثر عثاره.

في المفاحرات

فاخر كاتب نديماً، فقال الكاتب: أنا معونة، وأنت مؤونة، وأنا للجد، وأنت للهزل؛ وأنا للشدة وأنت للذة؛ وأنا للحرب، وأنت للسلم. فقال النديم: أنا للنعمة، وأنت للخدمة؛ وأنا للحضرة، وأنت للمهنة؛ تقوم وأنا جالس، وتحتم وأنا مؤانس؛ تدأب لراحتي، وتشفق لسعادتي؛ فأنا شريك، وأنت معين، كما أنك تابع، وأنا قرين.

وفاخر صاحب سيف صاحب قلم، فقال صاحب القلم: أنا أقتل بلا غرر، وأنت تقتل

على حَظْر. فقال صاحب السيف: القلمُ خادمُ السيف إن تم مراده، وإلا فإلى السيفِ مَعَادَه.

قال أبو تمام: البسيط:

السيفُ أَصْدَقُ إِنْباءٍ من الكُتُبِ	فِي حَدِّهِ الحَدُّ بينَ الحَدِّ واللَّعِبِ
إبراهيم بن المهدي: البسيط:	والوصل في جَبَلٍ صَعْبٍ مَرَّاقِيهِ
فقد تَلِينُ ببعضِ القولِ تَبْدُلُ	وقد يُرى لِينًا في كَفِّ لَآوِيهِ
كالخيزران مَنِيْعٌ حين تَكْسِرُهُ	أبو الهيثم عامر بن عمارة المَرِّي يرثي: الطويل:
سأبكيك بالبيض الرَّقاقِ وبالقنَا	فإنَّ بها ما أدرك الوائِرُ الوِثْرَا
ولسنا كمن يَبْكِي أخاه بَعْبَرَةَ	يُعَصِّرُها من ماءٍ مُقْلِيته عَصْرَا
ولكنني أَشْفِي فؤادي بَعْمَرَةَ	وألهب في فُطْرِي جِوانبه جَمْرَا
وإنا أناس ما تَفِيضُ دموعنا	على هالكٍ مِثْلًا وإن قَصَمَ الظَهْرَا

من وصايا الحكماء

لقي رجل حكيمًا فقال: كيف تَرَى الدهر؟ قال: يُخْلِقُ الأبدان، وبيدُ الآمال،  
ويقرَّبُ المنيَّة، ويباعدُ الأُمِّيَّة. قال: فما حالُ أهله؟ قال: من ظفر به منهم  
تعب، ومن فاته نصيب. قال: فما الغنى عنه؟ قال: قَطْعُ الرجاء منه، قال:  
فأيُّ الأصحاب أبرُّ وأوفى؟ قال: العملُ الصالح والتقوى. قال: أيهم أضرُّ  
وأرْدَى؟ قال: النفس والهوى، قال فأين المخرج؟ قال: سلوكُ المَنَهَج. قال:  
وما هو؟ قال: بَدَلُ المجهود، وترك الراحة، ومداومة الفكرة. قال: أوْصني.  
قال: قد فعلت.

وقال بعض الملوك لحكيم من حكمائه: عِظْني بِعِظَةِ تنفي عني الخِيَلَاء،  
وتزهدني في الدنيا. قال: فكَر في خَلْقِكَ، وادْكُر مبدأك ومصيرك، فإذا  
فعلت ذلك صَغُرَتْ عندك نَفْسُكَ، وَعَظُمَ بصغرها عندك عَقْلُكَ؛ فإن العَقْلَ  
أنفعُهُما لك عِظْمًا، والنفسُ أَرِينُهُما لك صِعْرًا؛ قال الملك: فإن كان شيء  
يُعِينُ على الأخلاق المحمودة فصفتك هذه. قال: صفتي دليل، وقَهْمُكَ  
مَحْجَةٌ، والعلمُ عَليَّة، والعملُ مَطِيَّة، والإخلاصُ زمامها، فحُدِّ لعقلك بما يزيِّنه  
من العلم، وللعلم بما يَصُوِّثُه من العمل، وللعمل بما يحقِّقه من الإخلاص،  
وأنت أنت! قال: صدقت.

باب المديح

وقال ابن الرومي: البسيط:

تَعْتَوْنَ عن كل تقريب بمجدكم	عَنِي الطباء عن التَّكْهِيلِ بِالكَحْلِ
تلوح في دُولِ الأيامِ دولتكم	كأنها مِلَّةُ الإسلامِ في المِلَلِ

وقال أيضًا: البسيط:

كُلُّ الْخِصَالِ الَّتِي فِيكُمْ  
مَحَاسِنُكُمْ  
كَأَنْكُمْ شَجْرُ الْأَثْرَجِ طَابَ  
مَعاً

وقال البستي في نحو هذا: الطويل:

فَتَى جَمَعَ الْعُلِيَاءَ عِلْمًا وَعِفَّةً  
كَمَا جَمَعَ التَّفَاحُ حَسَنًا  
وَتَصْرَةً

قال أبو العباس المبرد: حدّثني عجل بن أبي  
بخمسمائة دينار ولم يره، وهي: البسيط:

مَالِي وَمَالِكَ قَدْ كَلَفْتَنِي  
شَطَطًا

أَمِنْ رِجَالِ الْمَنَايَا خَلْتَنِي  
رَجُلًا

أَرَى الْمَنَايَا عَلَى غَيْرِي  
فَأَكْرَهَهَا

أَخَلَّتْ أَنْ سَوَادَ اللَّيْلِ  
غَيْرَنِي

قلت: هذا كحديث الذي دخل في قوم على  
فقال: المتقارب:

نَبِيدَانِ فِي مَجْلَسٍ وَاحِدٍ  
فَلَوْ كُنْتَ تَفْعَلُ فَعَلَ الْكِرَامِ

تَتَبَّعَ إِخْوَانَهُ فِي الْبِلَادِ  
فَاتَّصَلَ شَعْرَهُ بِأَبِي الْبَخْتَرِيِّ فَأَعْطَاهُ أَلْفَ دِينَارٍ وَلَمْ يَرَهُ.

والأبيات التي مُدِحَ بها أبو دلف هي لأحمد بن أبي فنن، وكان شاعراً مجيداً، وهو  
القائل: الطويل:

وَلَمَّا أَبَتْ عَيْنَايَ أَنْ تَمْلِكَ  
الْبُكْيَ

تَتَاءَبْتُ كَيْ لَا يُنْكِرَ الدَّمْعَ  
مَنْكُرًا

أَعَزَّضْتُمَانِي لِلْهَوَى وَنَمُّمَا

وقال: الكامل:

وَحَيَاةٌ هَجْرَكَ غَيْرَ مَعْتَمِدٍ  
مَا أَنْتَ أَمْلَحُ مَنْ رَأَيْتَ وَلَا

وقال الصولي: كنا بحضرة أبي العباس المبرد فأنشد هذين البيتين فاستظرفهما  
وأنشدنا في ذلك: الكامل:

وَحَيَاةٌ غَيْرَكَ غَيْرَ مَعْتَمِدٍ بِهِ  
مَا يَنْقُضِي طَمَعِي وَإِنْ

أَطْمَعْتَنِي

وقال الخثعمي: الطويل:

تَشَابَهَتْ مِنْكُمْ الْأَخْلَاقُ  
وَالْخَلْقُ  
حَمَلًا وَتَوْرًا، وَطَابَ الْعَوْدُ  
وَالْوَرَقُ

وَبِأَسَاءٍ وَجُودًا لَا يَفِيقُ فُوقَا

وَرَائِحَةً مَحْبُوبَةً وَمَذَاقًا

دلف قال: امتدح رجلٌ أبي بكلمة، فوصله

حَمَلَ السِّلَاحَ وَقَوْلِ الدَّارِعِينَ  
قَفِي

أَمْسِي وَأَصْبِحُ مُشْتَقًا إِلَى  
التَّلْفِ

فَكَيْفَ أَمْشِي إِلَيْهَا بَارِرًا  
الْكَتْفِ؟

وَأَنْ قَلْبِي فِي جَنْبِي أَبِي  
دُلْفِ؟

على شراب فسقوه غير الشراب الذي يشربون،

لِإِثَارِ مُثْرٍ عَلَى مُقْتَرٍ  
فَعَلْتُ كَفَعَلِ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ

فَأَغْنَى الْمُقْلَّ عَنِ الْمَكْتَرِ

فانصل شعره بأبي البختري فأعطاه ألف دينار ولم يره.

وَأَنْ تَحْبَسَا سَخَّ الدَّمُوعِ  
السُّوَاكِبِ

وَلَكِنْ قَلِيلًا مَا بَقَاءُ التَّثَاؤُبِ

عَلَيَّ؟ لِبئْسِ الصَّاحِبِ  
لِصَاحِبِ

إِلَّا لَقَصِدِ الْجَنِّثِ فِي الْحَلْفِ  
كَلْفِي بِحَبِّكَ مُنْتَهَى كَلْفِي

جئتاً ولكن مُعْظِماً لِحياتكا  
في الوعد منك إلى اقتضاء  
عِدَاتكا

ولم أر مثلاً الصّدَّ أدعى إلى الهوى  
وألثَّ يميناً كالزجاج رقيقةً

قال أحمد بن أبي فتن أسود، ولذلك قال: البسيط:

أخِلت أن سواد الليل غيرني

إذا كان ممن لا يخافُ عليّ وَضِلُّ  
وما خلقتُ إلا لتحتت من أجلي

أدخل على المعنرّ وامتدحه قال: هذا الشاعرُ الآدم، قال بعض من حضر: لا يَصِرُه سواده مع بياض أياديك عنده، قال: أجل،

قوله: البسيط:

أرى المنايا على غيري فأكرهها

قول أعرابي قيل له: ألا تَغزو؟ قال: أنا والله أكره الموت على فراشي، فكيف أمشي إليه ركضاً؟.

البديع والاستطراد

المذهب الذي سلكه أحمد ضربٌ من البديع يسمّى الاستطراد، وذلك أنّ الفارس يظهر أنه يستطرد لشيء ويبتطِن غيره، فيك  
، وكذلك هذا الشاعر يظهر أنه يذهبُ لمعنى فيعن له آخر فيأتي به، كأنه على غير قصد، وعليه بناه، وإليه كان مَعْرَاه، وقد أك  
دَتون منه فأحسنوا في ذلك.

الأصمعي: كنت عند الرشيد فدخل عليه إسحاق بن إبراهيم الموصلي فقال: أنشدني من شعرك، فأنشده: الطويل:

فليس إلى ما تأمرين سبيلُ

بخيلاً له في العالمين خليلُ

إذا نال شيئاً أن يكون منيلُ

ومالي كما قد تعلمين قليلُ

ورأي أمير المؤمنين جميلُ؟

وأمره بالبحل قلت لها أقصري

أرى الناس خُلانَ الجوادِ، ولا أرى

ومن خير حالات الفتى لو علمته

فَعالي فعَالُ المُكثِرِين، تَجْمُلاً

وكيف أخافُ الفقْرَ أو أحرِم الغنى

الرشيد: يا فضل! أعطه عشرين ألف درهم. ثم قال: لله أبيات تأتيها بها يا إسحاق ما أتقن أصولها، وأبين فصولها، وأقل  
ولها! فقال: والله يا أمير المؤمنين، لا قبلتُ منها درهماً واحداً. قال: ولم؟ قال: لأنّ كلامك، والله، خيرٌ من شعري. فقال: يا  
؛ ادفع إليه أربعين ألفاً. قال الأصمعي: فعلمت أنه أصيد لدراهم الملوك مني.

ذلك قول أبي تمام يصف فرساً: البسيط:

وسباح هطل التغدء هبّان

أظمى الفُصوص ولم تظماً قوائمه

فلو تراه مُشيجاً والحصى زيمُ

أيقنت إن لم تثبت أن حافرهم صخر تدمر أو من

وجّه عثمان

احتذى البحيري هذا الحدوّ في حمدوّه الأحول، وكان حمدويه هذا عدواً للممدوح، فقال: الكامل:

قد رُحْتُ منه على أغرّ مُحجّل

في الحُسنِ جاء كصورةٍ في هَيْكَلِ

تَظَرَّ المُجِبِ إلى الحبيب المُقبِلِ

يوماً خلّاقَ حَمْدَوِيهِ الأُحُولِ

وأغرّ في الزمنِ البهيم مُحجّل

كالهيكَلِ المَبْنِيِّ إلا أنه

مَلَكُ العيونِ؛ فإنّ بَدَا أُعْطِيَتْهُ

ما إنْ يَعافُ قَدَى ولو أوردتُهُ

قصيدته هذه يحكى أن البحيري قال له أصحابه: إنك سئاب بهذا البيت؛ لأنك سرقتَه من أبي تمام ط قال: أعاب من أخذني  
تمام؟! والله ما قلتُ شعراً قط إلا بعد أن أحضرت شعره في فكري، قال: وأسقط البيت بعد، فلا يوجد في أكثر النسخ.  
أ معنى قد أعجب المُحدّثين، وتخلّوا أنهم لم يُسبِقُوا إليه، وقد تقدّم لمن قبلهم، قال الفرزدق: الطويل:

إذا جلسوا أقواهُ بكر بن وائلِ

كأن فِقَاح الأزد حول ابن مِسْمَعِ

الحاتمي: وأتى جرير بهذا النوع فحثا في وجّه السابق إلى هذا المعنى فضلا عن تلاه؛ فإنه استطرد في بيت واحد، فهجا فيه  
، فقال: الكامل:

وعلى البعيت جَدَعْتُ أنفَ الأُخْطَلِ

فسقيت آخرهم بكأس الأولِ

لما وضعتُ على الفرزدق ميسمي

هذا البيت مما يَرُدُّ على الحاتمي، وهو قوله: الكامل:

أعددت للشعراء كأساً مُرة

أبو إسحاق: وأول من ابتكره السموأل بن عادبَاء اليهودي، وكل أحد تابع له فقال: الطويل:

أُنَاسٌ لَا نَرَى الْقَتْلَ  
بِحُبِّ الْمَوْتِ  
تَنَا لَنَا  
إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ  
وَتَكَرَّهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ

وقد قال طرفة في هذا المعنى: الطويل:

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد  
ولو شاء ربي كنت عمرو بن مَرْتَدٍ  
فأصبحتُ ذا مالٍ كثير،  
وعادني بئُونٌ كِرَامٌ سَادَةٌ لِمَسْوَدٍ

قيس بن خالد: ذو الجَدَيْنِ الشيباني. وعمرو بن مَرْتَدٍ: سيد بني قيس بن ثعلبة، فدعا عمرو طرفة لما بلغه ذلك، فقال: أما البنون فإن الله يعطيك، ولكن لا تريم حتى تكون من أوسطنا حالاً؛ وأمر بنيه وكانوا عشرة، فدفع إليه كل واحد منهم عشرةً من الإبل؟ فانصرف بمائة ناقة.  
وكان ابن عَدَدِلٍ منقطعاً إلى عبد الله بن بشر بن مروان، فتأخر عنه بئرُه، وغاب أياماً، ثم أتاه فسأله عن عَيْتِهِ، فقال: خطبتُ ابنةً عم لي بالسواد، فَرَعَمْتُ أَنْ لَهَا ديوناً وأسلافاً هناك، وأني إذا جمعتها لها صارت إلى محبتي، ففعلت ذلك، فلما استنجزتها كتبت إلي: الوافر:

سَيُحْطِئُكَ الَّذِي أَمَلْتَ مِنِّي  
كَمَا أَخْطَاكَ مَعْرُوفُ ابْنِ بَشْرٍ  
إِذَا انْتَقَصَتْ عَلَيْكَ قُوَى جِبَالِي  
وَكُنْتَ تَعُدُّ ذَلِكَ رَأْسَ مَالٍ

فقال: ما أحسن ما ألفت بالسؤال! وأجزل صلته.  
ومن بديع هذا الباب قول بشر بن برد: الطويل:

خليلي من كعبٍ، أعييتنا أخاكما  
ولا تبخلاً بخل ابن قرعة؛ إنه  
إذا جئته في حاجة سدَّ بابهُ  
فقل لأبي يحيى متى تبلغ  
الغلا  
على دهره؛ إن الكريم مَعِينُ  
مخافة أن يرجي تداه حزينُ  
فلم تلقه إلا وأنت كمينُ  
وفي كل معروفٍ عليك يمينُ

وقال بكر بن النطاح يمدح مالك بن طوق: الطويل:

عَرَضْتُ عَلَيْهَا مَا أَرَادَتْ مِنْ  
الْمَتَى  
لترضى فقالت: قم فجنني  
بكوكب  
فقلت لها: هذا التعنتُ كلُّهُ  
سَلِي كُلِّ أَمْرٍ يَسْتَقِيمُ  
طَلَابُهُ  
وَأَقْسَمُ لَوْ أَصْبَحْتَ فِي عَزِّ  
مَالِكٍ  
فَتَى شَقِيَّتْ أَمْوَالُهُ  
بِسَمَاحِهِ

واعتذر رجلٌ إلى رجلٍ بحضرة عبد الأعلى بن عبد الله فلم يُقبلْ عذره، فقال عبد الأعلى: أما والله لئن كان احتمل إثم الكذب ودناءته، وخضوع الاعتذار وذلته، فعاقبته على الذنب الذاهب، ولم تشكر له إنابة التائب، إنك لمنم يُسيء ولا يُحسن. وقال الحطيئة: الطويل:

يَسُوسُونَ أَحْلَامًا بَعِيدًا  
أَنَاءَهَا  
أَقْلُوا عَلَيْهِمَ لَا أَبَا لِأَبِيكُمْ  
أُولئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَتَّوْا أَحْسَنُوا  
الْبَنَاءَ  
وَإِنْ كَانَتْ النِّعْمَاءُ فِيهِمْ جَزَّوْا  
بِهَا  
وَإِنْ قَالَ مَوْلَاهُمْ عَلَى جُلِّ  
حَادِثٍ  
وَبَعْدَلْنِي أَبْنَاءُ سَعْدٍ عَلَيْهِمْ  
سَعْدٌ

وَإِنْ غَضِبُوا جَاءَ الْحَفِيظَةُ  
وَالْحَدُّ  
مِنَ اللُّومِ أَوْ سُدُّوا الْمَكَانَ  
الَّذِي سَدُّوا  
وَإِنْ وَعَدُوا أَوْفُوا وَإِنْ عَقَدُوا  
شَدُّوا  
وَإِنْ أَنْعَمُوا لَا كَدَّرُواهَا وَلَا  
كَدُّوا  
مِنَ الدَّهْرِ رُدُّوا فَضْلَ أَحْلَامِكُمْ  
رُدُّوا  
وَمَا قُلْتُ إِلَّا بِالذِّي عِلِمَتْ  
سَعْدٌ

من أخبار الرشيد  
وَوَصَلَ سَعِيدُ بْنُ سَلْمٍ إِلَى الرَّشِيدِ شَاعِرًا بَاهِلِيًّا، فَأَنْشَدَهُ قَصِيدَةً حَسَنَةً، فَاسْتَرَابَهُ الرَّشِيدُ، قَالَ: أَسْمِعْكَ مُسْتَحْسِنًا، وَأَنْكَرَكَ مِنْهُمَا؛ فَإِنْ كُنْتَ صَاحِبَ هَذَا الشَّعْرِ فَقُلْ فِي هَذَيْنِ، وَأَشَارَ إِلَى الْأَمِينِ وَالْمَأْمُونِ وَكَانَا جَالِسَيْنِ.  
فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، حَمَلْتَنِي عَلَى غَيْرِ الْجَدِّ "هَيْبَةُ الْخَلِيفَةِ، وَوَحْشَةُ الْعُرْبَةِ، وَرَوْعَةُ الْمَفَاجِئِ، وَجَلَالَةُ الْمَقَامِ، وَصُعُوبَةُ الْبَدِيهَةِ، وَشُرُودُ الْقَوَافِي، عَلَى غَيْرِ الرُّوبَةِ، فَلِيْمْهَلْنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَتَأَلَّفَ نَافِرُ الْقَوْلِ.  
فَقَالَ الرَّشِيدُ: لَا عَلَيْكَ أَلَا تَقُولُ! قَدْ جَعَلْتَ اعْتِذَارَكَ عِوَضَ امْتِحَانِكَ. فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، نَفَّسْتَ الْخَنَاقَ، وَسَهَّلْتَ مِيدَانَ السِّبَاقِ، ثُمَّ قَالَ: الطَّوِيلُ:

بَنِيَتْ بَعْدَ اللَّهِ بَعْدَ  
مُحَمَّدٍ  
هُمَا طُنْبَاهَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهِمَا وَأَنْتَ أَمِيرُ  
الْمُؤْمِنِينَ عَمُودُهَا

فقال الرشيد: وأنت بارك الله فيك، سل ولا تكن مسألتك دون إحسانك، فقال: الهنيدة يا أمير المؤمنين! فأمر له بها، وبخلع نفيسة، وصلة جزيلة.

من أخبار سليمان بن عبد الملك دخل يزيد بن أبي مُسلم، كاتبُ الحجاج، على سليمانَ بن عبد الملك، فازدراه وتبت عينه عنه، فقال: ما رأت عيني كالיום قط، لعن الله امرأً أجرك رَسَبته، وحكمك في أمره. فقال: يا أمير المؤمنين، لا تَقُلْ ذلك؛ فإنك رأيتني والأمر عني مُدبر، وعليك مُقيل، فلو رأيتني والأمر عليّ مقبل، وعنك مُدبر، لاستعظمت مني ما استصغرت، واستكبرت ما استقللت. قال: عزمت عليك يا ابنَ أبي مُسلم لتخبرني عن الحجاج، أتراه يهوي في جهنم أم قد قَرَّبها؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لا تَقُلْ هذا في الحجاج، وقد بذل لكم النصيحة، وأمن دولتكم، وأخاف عدوكم، وكأني به يوم القيامة وهو عن يمين أبيك، وبسار أخيك، فاجعله حيثُ شئت. فقال له سليمان: أَعزُّبُ إلى لعنة الله! فخرج، فالتفت سليمانُ إلى جلسائه فقال: قاتله الله! ما أَحَبَّينَ بديهته، وترفيعه لنفسه ولصاحبه! وقد أحسن المكافأة في الصنعة، خلوا عنه.

من أخبار إبراهيم بن العباس الموصلي

وشعره قال إبراهيم بن العباس الموصلي: والله ما انكثتُ في مكاتبه قط إلا على ما يجلبه خاطري، وبجيشُ به صدري، إلا قولي في فصل وصار ما كان يخررهم يُبرزهم، وما كان يعقلهم يعتقلهم. وقولي في رسالة أخرى: "فأنزلوه من معقل إلى عُقال، وبدلوه أجلاً بأمال"، فإني ألممت في هذا بقول الصريح: البسيط:

مُوفٍ على مُهَجٍ في يومٍ ذي رَهَجٍ  
كأنه أجلُّ يسَعَى إلى أملٍ

وفي المعنى الأول يقول أبو تمام: الطويل:

فإن يئن حيطاناً عليه فإنما أولئك عُقالته لا معاقله

وكان يقول: ما تميت كلام أحد أن يكون لي إلا قولٌ عبر الحميد بن يحيى: الناس أصنافٌ متباينون، وأطوار متفاوتون، منهم علق مضنة لا يتاع، وغل مطنة لا يتاع. ورد كتاب بعض الكتاب إلى إبراهيم بن العباس بدم رجل ومدح آخر؛ فوقع في كتابه: إذا كان للمحسن عن الجزاء ما يُقِنُّه، وللمسيء من النكال ما يَفْقَعُه، بَدَل المحسن الواجب عليه رغبة، وانقاد المسيء للحق رهبة؛ فوثب الناس يقبلون يده. ووقع لرجل مَتَّ إليه بخزمة: تقدمت بحرمة مألوفة، ووسيلة معروفة، أقوم بواجبها، وأزعاها من جميع جوانبها.

وإبراهيم بن العباس هو القائل: الطويل:

لنا إيل كَوْمٌ يَضِيقُ بها القضا  
فمن دونها أن تُستباح  
دماؤنا  
دمائنا  
حمى وقرى فالموثُ دون  
مرامها

وتعبَّر منها أرضها وسماؤها  
ومن دوننا أن يُستدَمَّ  
دماؤها  
وأيسرُ خطبٍ يوم حُقَّ  
فتاؤها

وقاد الصولي: وجدت بخط عبد الله بن أبي سعيد إبراهيم بن العباس أنشده لنفسه: الطويل:

وعلمتني كيف الهوى  
وجهلته  
وأعلمُ مالي عندكم  
فيردني  
وعلمكم صبري على ظلمكم  
ظلمي  
هَوَايَ إلى جهلي فأرجع من  
علمي

فقلت: أسبقك إلى هذا أحد؟ فقال: العباس بن الأحنف بقوله: الطويل:

تجنبَ يَزْتادُ السلو فلم له عنك في الأرض العريضة



قال العقيلي يَرثي صديقاً له أخذ في خِرْبَةِ فقتل واصل: الطويل:  
 لعمرى لئن أصبحت فوق مشدب  
 طويل تُعَقِّبُ الرياح مع القطر  
 لقد عشت مبسوطاً اليدين  
 وعُوفيت عند الموت من  
 صَعَطَةِ القبر  
 وأفلت من ضيق التراب  
 ولم تفقد الدنيا؛ فهل لك من  
 شكر؟  
 فما تشتفي عياني من دائم  
 الحشركى  
 عليك، ولو أنى بكيث إلى  
 ولكننى أبكى لفقدك في  
 ستر  
 فطوبى لمن يبكي أخاه  
 مجاهراً

عود إلى أخبار الرشيد

وكتب محمد بن كثير إلى هارون الرشيد: يا أمير المؤمنين، لولا حظ كرم  
 الفعل في مطالع السؤال؛ لألهى المصلُّ قلوب الشاكرين ولصرف عيون  
 الناظرين إلى حسن المحبة، فاي الحالين يُبعدُ قولك عن مجاز فعلك؟  
 فقال هارون الرشيد: هذا الكلام لا يحتمل الجواب؛ إذ كان الإقرار به يمنع  
 من الاحتجاج عليه.

قضاء الحاجة

وقال يحيى بن أكرم للمأمون يذكر حاجة له قد وعده بقضائها وأغفل ذلك:  
 أنت، يا أمير المؤمنين، أكرم من أن نعرض لك بالاستنجاز، ونقابلك بالادِّكار،  
 وأنت شاهدي على وعدك، وأن تأمر بشيء لم تتقدّم أيامه، ولا يقدر زمانه،  
 ونحن أضعف من أن يستولي علينا صبر انتظار نعمتك، وأنت الذي لا يؤوده  
 إحسان، ولا يُعجزه كرم، فعجل لنا يا أمير المؤمنين ما يزيدك كرماً، وتزدادُ  
 به نعماً، وتلقاه بالشكر الدائم.

فاستحسن المأمون هذا الكلام، وأمر بقضاء حاجته.

قدم على المأمون رجل من أبناء الدهاقين وعظمائهم، من أهل الشام، على  
 عِدّة سلف له من المأمون، من تُوليته بلده، وأن يضم إليه مملكته، فطال  
 على الرجل انتظار خروج أمير المؤمنين بذلك، فقصده عمرو بن مسعدة  
 وسأله إيصال رقعة إلى المأمون من ناحيته، فقال: أكتب بما شئت فإني  
 مُوصّله، قال: فتول ذلك عني، حتى تكون لك نعمتان. فكتب عمرو: إن رأى  
 أمير المؤمنين أن يفك أسر عِدته من ربيعة المصل، بقضاء حاجة عبده،  
 والإذن له بالانصراف إلى بلده، فعل مُوفقاً.

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمرواً، وجعل يعجب من حُسن لفظها، وإيجاز  
 المراد فيها، فقال له عمرو: فما نتيجتها يا أمير المؤمنين؟ قال: الكتابة له  
 في هذا الوقت بما سأل، لئلا يتأخر فضل استحساننا كلامه، وبجائزة تنفي  
 دناءة المصل.

ومن كلام عمرو بن مسعدة: أعظمُ الناس أجراً، وأنبههم ذكراً، من لم يرض  
 بحياة العَدل في دولته، وظهور الحجّة في سلطانه، وإيصال المنافع إلى  
 رعيته في حياته، حتى احتال في تخليد ذلك في الغابرين بعده، عنايةً بالدين،  
 ورحمةً بالرعية، وكفايةً لهم من ذلك ما لو عنوا باستنباطه لكان يعرض أحد  
 الأمرين، إمّا الإكداء عن إصابة الحق فيه لكثرة ما يعرض من الالتباس، وإمّا  
 إصابة الرأي بعد طول الفكر، ومقاساة التجارب، واستغلاق كثير من الطرق

إلى دَرَكه؛ وأسعد الرُّعاة من دامت سعادةُ الحق في أيامه، وبَعَدَ وفاته وانقراضه.

في إطالة الخطبة

وقال رجل لسويد بن مَنجُوف، وقد أطال الخطبة بكلامٍ إفتتحه لصلح بين قوم من العرب: يا هذا، أتيت مرعىً عَيْرَ مَرَعَاك، أفلا أدلك عليه. قال: نعم. قال: قُلْ: أما بعد فإنَّ في الصلح بقاءَ الأجال، وحفظ الأموال، والسلام. فلمَّا سمع القوم هذا الكلام تعانقوا وتواهبوا الثَّرات.

من أخبار الأمير أبي مسلم

قال عبد الله بن مسعود: لما أمر أبو مسلم بمحاربة عبد الله بن علي، دخلت عليه فقلت: أيها الأمير، تريد عظيمًا من الأمر؟ قال: وما هو؟ قلت: عمُّ أمير المؤمنين وهو شيخُ قومه، مع نَجْدَةٍ، وبأس، وحَزْم، وحسن سياسة. فقال لي: يا ابن شبرمة، أنت بحديثٍ تعلم معانيه، وشِعْرٍ توضح قوافيه، أعلمُ منك بالحرب؛ إن هذه دولة قد أطرَدتْ أعلامها، وامتدَّتْ أيامها، فليس لناؤها والطامع فيها يدُّ تنيله شيئًا من الوثوب عليها، فإذا ولت أيامها فدَعِ الورع بدَّته فيها.

قال بعض حكماء خراسان: لما بلغني خروج أبي مسلم أتيتُ عَسْكَره لأنظر إلى تدبيره وهيبته، فأقمت فيه أيامًا، فبلغني عنه شدة عَجَب، وكبرُ ظاهر، فظننت أنه تحلى بذلك لعيٍّ فيه أراد أن يسْتُرَه بالصَمْتِ، فتوصلت إليه بحديث أسمع كلامه، وأغيب عن بصره، فسلمت فردًّا ردًّا جميلًا، وأمر بإدخال قوم يريد تنفيذهم في وجه من الوجوه، وقد عقدوا لرجل منهم لواءً، فنظر إليهم ساعة متأملًا لهم، وقال: افهموا عني وصيتي إياكم؟ فإنها أجدى عليكم من أكثر تدبيركم، وباللَّه توفيقكم. قالوا: نعم أيها السالار، ومعناه السيد بالفارسية، فسمعته يقول، ومترجم يحكي كلامه بالفارسية لمن عبَّر له منهم بالعربية: أشعروا قلوبكم الجراة فإنها سببُ الطَّفر، وأكثروا ذكْر الضغائن فإنها تبعث على الإقدام، والزموا الطاعة فإنها حُصْنُ المحارب، وعلَيْكم بعصبية الأشراف، ودَعُوا عصبية الدناءة؛ فإن الأشراف تظهر بأفعالها، والدناءة بأقوالها.

وذكر إدريس بن معقل أبا مسلم فقال: بمثل أبي مسلم يُدْرِك ثار، ويُنفى عار، ويُؤكِّد عَهْد، ويُبرم عقد، ويسهّل وعر، ويُحَاض عَمْر، ويُقلع ناب، ويُفتح باب.

من أخبار أبي جعفر المنصور

وقال رجل لأبي جعفر المنصور: أيّن ما تُحدِّث به في أيام بني أمية؟ إن الخلافة إذا لم تقابل بإنصاف المظلومين، ولم تعامل بالعدل في الرعية، وقسمة الفيء بالسوية، صار عاقبة أمرها بوارًا، وحق بولاتها سوء العذاب. قال: فتنفس ثم قال: قد كان ما تقول، ولكننا يا أخي استعجلنا الفانية على الباقية، وكان قد انقَصَتْ هذه الدار. فقال له الرجل: فانظر على أي حالة تنقضي.

وقال أبو الدوانيق وكان فصيحًا بليغًا: عجبًا لمن أصار علمه عَرَضًا لِسِيَّهَامِ الخطايا، وهو عارفٌ بِشُرْعَةِ المنايا، اللهم إن تقض للمسيئين صَفْحًا فاجعلي منهم، وإن تَهَبْ للظالمين فسحًا فلا تحرمني ما يتطول به المولى على أخس عبيده.

من أخبار الأحنف بن قيس

سُئِلَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ عَنِ الْعَقْلِ؟ فَقَالَ: رَأْسُ الْأَشْيَاءِ فِيهِ قَوَائِمُهَا، وَبِهِ تَمَامُهَا؛ لِأَنَّهُ سِرَاجٌ مَا بَطَّنَ، وَمَلَاكٌ مَا عَلَنَ، وَسَائِسُ الْجَسَدِ، وَزِينَةُ كُلِّ أَحَدٍ، لَا تَسْتَقِيمُ الْحَيَاةُ إِلَّا بِهِ، وَلَا تَدُورُ الْأُمُورُ إِلَّا عَلَيْهِ.

وَلَمَّا خَطَبَ زِيَادُ خُطْبَتَهُ الْمَشْهُورَةَ قَامَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ، فَقَالَ: الْفَرَسُ بَشَدَّهِ، وَالسَّيْفُ بِحَدِّهِ، وَالْمَرْءُ بِجَدِّهِ، وَقَدْ بَلَغَ بِكَ جِدِّكَ مَا أَرَى، وَإِنَّمَا الثَّنَاءُ بَعْدَ الْبِلَاءِ، فَإِنَا لَا تُثْنِي حَتَّى تَبْلُو.

عهد الوثائق بقلم ابن الزيات

وَكَتَبَ ابْنُ الزِّيَاتِ عَهْدَ الْوَثَائِقِ عَلَى مَكَّةَ بِحَضْرَةِ الْمَعْتَصِمِ: إِذَا بَعْدَ، فَإِنِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ قَلَدَكَ مَكَّةَ وَزَمَزَمَ، تُرَاثَ أَبِيكَ الْأَقْدَمِ، وَجِدِّكَ الْأَكْرَمِ، وَرَكِصَةَ جَبْرِيلَ، وَسُقْيَا إِسْمَاعِيلَ، وَحَفْرَ عَبْدِ الْمَطْلُبِ، وَسِقَايَةَ الْعَبَّاسِ، فَعَلَيْكَ بِنَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّوَسُّعَةِ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ.

وَكَتَبَ: لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ فَضْلِ الشُّكْرِ إِلَّا أَنْكَ لَا تَرَاهُ إِلَّا بَيْنَ نِعْمَةٍ مَقْصُورَةٍ عَلَيْهِ، وَزِيَادَةٍ مُنْتَظَرَةٍ لَهُ، ثُمَّ قَالَ لِمُحَمَّدِ بْنِ رَبَاحٍ: كَيْفَ تَرَى؟ قَالَ: كَأَنَّهُمَا قُرْطَانٌ بَيْنَهُمَا وَجْهٌ حَسَنٌ، وَمَعَ ذَلِكَ ذَكَرَ ابْنُ الزِّيَاتِ أَمْرَ الْحَرَمِ بِتَعْظِيمٍ وَتَفْخِيمٍ.

ألفاظ لأهل العصر في التهنية بالحج

وتفخيم أمر، الحرم وتعظيم، أمر المناسك والمشاعر، وما يتصل بها من الأدعية:

قَصَدَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ، وَالْمَطَافَ الْكَرِيمَ، وَالْمَلْتَزِمَ النَّبِيَّ، وَالْمَسْتَلِمَ النَّزِيهَ. وَقَفَ بِالْمُعَرَّفِ الْعَظِيمِ، وَوَرَدَ زَمَزَمَ وَالْحَطِيمَ. حَرَّمَ اللَّهُ الَّذِي أَوْسَعَهُ لِلنَّاسِ كِرَامَةً، وَجَعَلَهُ لَهُمْ مَثَابَةً، وَلِلخَلِيلِ خُطَّةً، وَلِلذَّبِيحِ خُلَّةً، وَلِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قِبْلَةً، وَلِأُمَّتِهِ كَعْبَةً، وَدَعَا إِلَيْهِ حَتَّى لَبَّيْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ سَحِيقٍ، وَأَسْرَعَ نَحْوَهُ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، يَعُودُ عَنْهُ مَنْ وُفِّقَ وَقَدْ قُبِلَتْ تَوْبَتُهُ، وَغُفِرَتْ حَوْبَتُهُ، وَسَعِدَتْ سَفَرَتُهُ، وَأَنْجَحَتْ أَوْبَتُهُ، وَحُمِدَ سَعْيُهُ، وَزَكَ حَجُّهُ، وَتَقَبَّلَ عَجْجُهُ وَتَجَّهُ. انصرف مولاي عن الحجِّ الذي انتضى له عَرَائِمَهُ، وَأَنْضَى فِيهِ رَوَاحِلَهُ، وَأَتَعَبَ نَفْسَهُ بِطَلَبِ رَاحَتِهَا، وَأَنْفَقَ ذَخَائِرَهُ بِشِرَاءِ سَعَةِ الْجَنَّةِ وَسَاحَتِهَا؛ فَقَدْ رَكَتُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، أَفْعَالَهُ وَتُقَبَّلَتْ أَعْمَالَهُ، وَشَكَرَ سَعْيَهُ، وَبَلَغَ هُدْيَهُ.

قَدْ أَسْقَطْتَ عَنْ ظَهْرِكَ الثَّقَلَ الْعَظِيمَ، وَشَهِدْتَ الْمَوْقِفَ الْكَرِيمَ، وَمَحْضَتْ عَنْ نَفْسِكَ بِالسَّعْيِ مِنَ الْفَجِّ الْعَمِيقِ، إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ. حَمْدًا لِمَنْ سَهَّلَ عَلَيْكَ قِضَاءَ فَرِيضَةِ الْحَجِّ، وَرُؤْيَةَ الْمَشْجَرِ وَالْمَقَامِ، وَبِرْكَتِ الْأَدْعِيَةِ وَالْمَوْسَمِ، وَسَعَادَةِ أَفْنِيَةِ الْحَطِيمِ وَزَمَزَمِ، قَصَدَ أَكْرَمَ الْمَقَاصِدِ، وَشَهِدَ أَشْرَفَ

الْمَشَاهِدَةَ فَوَرَدَ مَشَارِعَ الْجَنَّةِ، وَخَيَّمَ بِمَنَازِلِ الرَّحْمَةِ. وَقَدْ جُمِعَتْ مَوَاهِبُ اللَّهِ لَدَيْكَ: فَالْحَجُّ أَدْبَتَ فَرِيضَتَهُ، وَحَرَّمَ اللَّهُ وَطِئَتْ أَرْضَهُ، وَالْمَقَامُ الْكَرِيمُ قُؤْمَتَهُ، وَالْحَجَرُ الْأَسْوَدُ اسْتَلَمَتَهُ، وَرُزَّتْ قَبْرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَشَافَهُا لِمَشْهَدِهِ، وَمِشَاهِدًا لِمَسْجِدِهِ، وَمَبَاشِرًا بِأَيْدِيهِ وَمَحْضَرَهُ، وَمَاشِيًا بَيْنَ قَبْرِهِ وَمَنْبَرِهِ، وَمَصْلِيًا عَلَيْهِ حَيْثُ صَلَّى، وَمَتَقْرِبًا إِلَيْهِ بِالْقِرَابَةِ الْعَظْمَى، وَعَدْتَ وَسَعَيْكَ مَشْكُورًا، وَدَثْبُكَ مَغْفُورًا، وَتِجَارَتَكَ رَابِحَةً، وَالْبَرَكَاتِ عَلَيْكَ عَادِيَةً وَرَائِحَةً. تَلَقَّى اللَّهُ دَعَاكَ بِالْإِجَابَةِ، وَاسْتَغْفَارَكَ بِالرِّضَا، وَأَمْلَكَ بِالنُّجْحِ، وَجَعَلَ سَعْيَكَ مَشْكُورًا، وَحَجَّكَ مَبْرُورًا. عَرَفَ اللَّهُ تَعَالَى مَوْلَايَ مَنَاهَجَ مَا نَوَاهُ، وَقَصَدَهُ وَتَوَخَاهُ، مَا يَسْعُدُهُ فِي دُنْيَاهُ، وَيَحْمَدُ عُقْبَاهُ.

قَطْرِي بْنِ الْفُجَاءَةِ

قال أبو حاتم: أتيت أبا عبيدة ومعني شعر عُرْوَة بن الورد، فقال لي: ما معك؟ قلت: شعر عروة، قال: شعر فقير، يحمله فقير، ليقراه على فقير! قلت: ما معي شعر غيره؛ فأنشدني أنت ما شئت، فأنشدني: البسيط:

يا رَبِّ ظِلِّ عُقَابٍ قَدْ وَقَيْتُ  
بِهِ  
وَرَبِّ يَوْمِ حَمَى أُرْعَيْتُ  
عَفْوَتَهُ  
ويوم لهُو لأهل الحَفْضِ ظِلٌّ  
بِهِ  
مُسْتَهْرَأً مَوْقِفِي والحَرْبُ  
كَاشِقَهُ  
وَرَبِّ هَاجِرَةٍ تَعْلِي مَرَاجِلُهَا  
تَجْتَابُ أودية الأَفْزَاعِ أَمِنَةً  
فإن أُمْتُ حَتَفَ أنفِي لا أُمْتُ  
كَمَدًا  
ولم أقل لم أساقِ الموتِ  
شَارِبَهُ

ثم قال: هذا والله هو الشعر، لا ما يتعللون به من أشعار المخانيث.

والشعرُ لِقَطْرِي بن الفجاءة المازني، وكان يُكْنَى في السلم أبا محمد، وفي الحرب أبا تَعَامَةَ، وكان أطولَ الخوارج أياما، وأحدّهم شوكة، وكان شاعرا جوادا، وهو القائل أيضا: الكامل:

لا يركنُ أحدٌ إلى الإحجامِ  
فلقد أراني للرماحِ دريئةً  
حتى خصبتُ بما تحدرّ من  
دمي  
ثم انصرفْتُ وقد أصبت ولم  
أصَبْ

باب المديح

وقال المُسَيَّب بن عَلس: المتقارب:

تبيتُ الملوكُ على عَنَبِهَا  
وكالشهد بالراح أَلْفَاظُهُمْ  
وكالمِسْكُ تُرْبُ مَقَامَتِهِمْ

وقال آخر: الكامل:

بَعُدُوا فحَنِّ إِلَيْهِمُ القَلْبُ  
عَزْبُ، وأين الشرقُ والغربُ؟  
مسكُ أَحْمُ وصارمُ عَصْبُ  
وعقيرة بفنائهِ تَخْبُو

آخر: الوافر:

رَأَيْتُكُمْ بِقِيَّةِ آلِ حَرْبٍ  
وَهَضْبَتِهَا التي فَوْقَ الهِصَابِ

تبارون الرياح ندى وجوداً  
يذكرني مقامي اليوم فيكم  
وتمثلون أفعال السحاب  
مقامي أمس في ظل  
الشباب

مكاتبات

بين سعيد بن عبد الملك وسعيد بن حميد  
كتب سعيد بن عبد الملك إلى سعيد بن حميد: أكره - أطال الله بقاءك! أن  
أضعك ونفسي موضع العذر والقبول، فيكون أحدنا معذراً مقصراً، والآخر  
قائلاً متفضلاً، ولكن أذكر ما في التلاقي من الحديد البر، وفي التخلف من  
قلة الصبر، وأسأل الله تعالى أن يوفقك وإيانا لما يكون منه عقبى الشكر.  
فأجابه: وصل كتابك - أكرمك الله تعالى! - الحاضر سروره، للطيف موقعه،  
الجميل صدوره ومورده، الشاهد ظاهره على صدق باطنه، ونحن - أعزك  
الله - نجعل جزاءك حسن الاعتراف بفضلك، ومجاراتك التقصير دونك؛  
ونرى أن لا عذر في التخلف عنك، وإن حالت الأشغال بيننا وبينك. وإن كنت  
سامحت في العذر قبل الاعتذار، سبقت إلى فضيلة الاعتذار، فلا زلت على  
كل خير دليلاً، وإليه داعياً، وبه أمراً؛ ولقد التقينا قبل وصول كتابك لقاءً  
أحدث وطراً، وهاج شوقاً، وأرجو أن تتسع لنا الجمعة ما ضاقت به الأيام؛  
فتنال حظاً من محادثتك والأنس بك.

مكانة سعيد بن حميد

ولسعيد بن حميد حلاوة في منظومه ومثوره، لكنه قليل الاختراع، كثير الإغارة على  
من سبقه. وكان يقال: لو رجع كلام كل أحد إلى صاحبه لبقى سعيد بن حميد ساكناً.  
وفيه يقول أبو علي البصير: الخفيف:

رأس من يدعي البلاغة مني  
ومن الناس، كلهم في حير  
أمة

وأخونا ولست أكنى سعيد  
ن حميد تُورخ الكتب باسمه

ب

هذا المعنى ينظر إلى قول منصور الفقيه وإن لم يكن منه: الطويل:

تضييق به الدنيا فينهض  
إذا نحن قلنا: خيرنا البازل  
هارباً  
السَّمْح

فإن قيل: من هذا الشقي؟  
أقل لهم  
على سَرَطِ كتمان الحديث:  
هو القَتْحُ

وكان سعيد يهوى فضل الشاعرة؛ فعزم مرة على سفر، فقالت له: البسيط:

كدبني الوُدَّ أن صاقت  
مرتجلاً  
كف الفراق بكف الصبر  
والجلد

لا تذكرن الهوى والشوق لو  
فجعت  
بالشوق نفسك لم تصبر على  
البُعد

وكان سعيد عند بعض إخوانه، فنهض منصرفاً وأخذ بعضادتي الباب، وأنشأ يقول:  
الطويل:

سلام عليكم، حالت الكأس  
وولت بنا عن كل مرأى  
بيننا  
ومسمع

فلم يبق إلا أن يصابحني  
فيجمع سكرًا بين جسمي  
الكرى  
ومصجعي

وقال سعيد: الطويل:

أرى السُّنَّ الشكوى إليك  
كليلةً

وفيهن عن غير الثناء فتورٌ

تقيمُ على العُتبِ الذي ليس  
نافعاً

وليس لها إلا إليك مَصِيرُ

وما أنتَ إلا كالزمانِ تلوَّتتْ  
فإن قلَّ إنصافُ الزمانِ  
وَجُودُهُ

نوائبُ من أحداثه وأموُرُ  
فمن ذا على جَوْرِ الزمانِ  
يُجِيرُ؟

نبذ في السرقات الشعرية  
أما قوله:

تقيمُ على العُتبِ الذي ليس نافعاً  
فمن قول المؤمِّل: البسيط:

لا تغضبَنَّ على قومٍ تحبُّهمُ

فليس منك عليهم ينفعُ  
العَصَبُ

يا جائرينَ علينا في  
حُكومتهمُ

والجَوْرُ أقبُحُ ما يُؤْتَى وُبُرْتَكَبُ  
جُرْتُمْ، ولكنَّ إليكم منكمُ  
الهِرَبُ

لسنا إلى غيركم منكم نفرُّ  
إذا

وأول من تبه على هذا المعنى النابغة الذبيانيُّ في قوله للنعمان بن المنذر: الطويل:  
فإنك كالليل الذي هو  
مُدْرِكِي

حَطَّاطيفُ حُجْنٍ في حبالِ  
متينة

تَمُدُّ بها أيدٍ إليك تَوَازِعُ

سرقه أشجع السُّلمي فقال لإدريس بن عبد الله بن الحسين بن علي، وقد بعث إليه  
الرشيد من أعتاله في المغرب: الكامل:

أتظنُّ، يا إدريسُ، أنك مُفْلِتُ  
إنَّ السيفَ إذا انتضاها  
عَزَمُهُ

كَيْدَ الخلافة أو يقيقك حِذَارُ؟  
طالتُ، وتقصِر دونها الأعمارُ

هيهات إلا أن تَحُلَّ ببلدةٍ

لا يهتدي فيها إليك نَهَارُ

وقال سلم الخاسر يعتذر إلى المهدي البسيط:

إني أعز بخير الناس كلهمُ  
وأنت كالدهرِ ميثوثاً حبالُهُ  
ولو ملكتُ عِنَانَ الرِّيحِ  
أصرفهُ

وأنت ذاك لِمَا يَأْتِي ويجتنبُ  
والدهرُ لا مَلَجاً منه ولا هَرَبُ  
في كل ناحيةٍ ما فاتك الطَّلَبُ

فليس إلا انتظاري منك  
عارِفَةٌ

فيها من الخوفِ مَنجَاةُ  
ومُنْقَلَبُ

وقول سلم:

ولو ملكت عِنَانَ الرِّيحِ أصرفهُ

كأنه من قول الفرزدق للحجاج: الطويل:

ولو حملتني الرِّيحُ ثم طَلَبْتَنِي

لكنك كمودٍ أدركتُهُ مقادِرُهُ

وقول علي بن جبلة لَحْمِيهِ الطوسي: الطويل:

وما لامرئٍ حاولته منك

ولو رَفَعْتُهُ في السماء

المَطَالَعُ

مَهْرَبُ

أخذه البحترى فقال: الكامل:

سُلِّبُوا وَأَشْرَقَتِ الدَّمَاءُ

عَلَيْهِمْ

قَلَوْا أَنَّهُمْ رَكَبُوا الكَوَاكِبَ لَمْ

يَكُنْ

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر في نحو قول النابغة: الطويل:

وَإِنِّي وَإِنْ حَدَّثْتُ نَفْسِي

بِأَنِّي

لَأَنَّكَ لِي مِثْلُ المَكَانِ المَحِيطِ

بِي

وَأَمَّا قَوْلُ سَعِيدٍ:

وَمَا أَنْتَ إِلَّا كَالزَّمَانِ

والبیت الذي يليه، فكأنه ألم فيه بقول شمعل الثعلبي وإن لم يكن المعنى بنفسه: الطويل:

عُدَاتِي، وَلَا عَتَبَ عَلَيَّ وَلَا

هَجَرْتُ

أَمِنْ جَدِّيَّةٍ بِالرَّجْلِ مَنِّي

تَبَاشَرْتُ

لِكَالدَّهْرِ، لَا عَارُ بِمَا صَنَعَ

الدَّهْرُ

فَإِنْ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ وَفِعْلُهُ

وقال رجل من طيئ وكان رجل منهم يقال له زيد من ولد عروة بن زيد الخيل قتل رجلاً اسمه زيد فأقاد منه السلطان، فقال الطائي يفتخر على الأسديين: الطويل:

بِأَبْيَضَ مَشْحُودِ الغِرَارِ

يَمَانِي

عَلَا رَيْدُنَا يَوْمَ الحِمَى رَاسَ

زَيْدِكُمْ

أَقَادَكُمُ السُّلْطَانَ بَعْدَ

رَمَانِ

فَإِنْ تَقْتُلُوا زَيْدًا بَزِيدًا فَإِنَّمَا

وقول الثعلبي مأخوذ من قول النابغة، وهو أول من ابتكره: اليسيط:

وَمَا عَلَيَّ بَأَنْ أَخْشَاكَ مِنْ عَارِ

وَعَيَّرْتَنِي بَنُو ذُبْيَانَ خَشِيَّتُهُ

ومن جيد شعر سعيد بن حميد: الطويل:

فَلَا هُوَ يَبْدَانِي وَلَا أَنَا أَسْأَلُ

أَهَابُ وَأَسْتَحْيِي وَارْقُبْ

وَعَدَهُ

قَرِيبٌ، وَقَلْبِي بِالبَعِيدِ

مَوْكَلٌ

هُوَ الشَّمْسُ مَجْرَاهَا بَعِيدٌ

وَضَوْءُهَا

وهذا المعنى وإن كان كثيراً مشهوراً فما يكادُ يدانى في الإحسان فيه. وقد قال أبو عيينة: الطويل:

إِذَا حَانَ مِنْ جُنْدٍ قَفُولٌ عَرَا

جُنْدٌ

عَرَّيْنِي جِيوشُ الحَبِّ مِنْ كُلِّ

جَانِبٍ

قَرِيبٌ، وَلَكِنْ فِي تَنَاوُلِهَا

بُعْدٌ

أَقُولُ لِأَصْحَابِي: هِيَ الشَّمْسُ،

ضَوْءُهَا

وقال العباس بن الأحنف: المتقارب:

فَعَرَّ الفَوَادِ عَرَاءً جَمِيلًا

هِيَ الشَّمْسُ مَسْكَنُهَا فِي

السَّمَاءِ

وَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْكَ النُّزُولَ

فَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْهَا الصُّعُودَ

وقال البحرني: الوافر:

دَتَوَتْ تَوَاضِعاً وَعَلَوَتْ قَدْرًا  
كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْعُدُ أَنْ تَدَانِي

وقال ابن الرومي: الكامل:

وَدَحَزْتُهُ لِلدَّهْرِ أَعْلَمُ أَنَّهُ  
وَرَأَيْتُهُ كَالشَّمْسِ إِنْ هِيَ لَمْ  
تُتَلَّ

وقال المتنبي: البسيط:

بِيضَاءُ تُطْمِعُ فِيمَا تَحْتَ حُلَّتِيهَا  
كَأَنَّهَا الشَّمْسُ يُعْيِي كَفَّ  
قَابِضِيهَا

وقال سعيد بن حميد، ويروي لفضل الشاعرة: المنسرح:

مَا كُنْتُ أَيَّامَ كُنْتُ رَاضِيَةً  
عَلِمًا بِأَنَّ الرِّضَا سَيَّبَعُهُ  
فَكُلُّ مَا سَاءَ نِي فَعَنْ حُلُقٍ

وفي هذا المعنى يقول أبو العباس الهاشمي من ولد عبد الصمد بن علي، ويُعرف بأبي العبر: البسيط:

أَبُوكِي إِذَا عَصَبْتِ، حَتَّى إِذَا  
رَضَيْتِ

فَالْمَوْتُ إِذَا عَصَبْتِ، وَالْمَوْتُ إِذَا  
رَضَيْتِ

وقال العباس بن الأحنف: الطويل:

إِذَا رَضَيْتِ لَمْ يَهْنِي ذَلِكَ  
الرِّضَا

وَأَبُوكِي إِذَا مَا أَدْتَبْتِ خَوْفَ  
عَثْبِيهَا

وَصَالِكُمْ هَجْرٌ، وَقُرْبُكُمْ قَلِيٌّ

وَأَنْتُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ فِيكُمْ  
فِظَاظَةٌ

وقال: المنسرح:

قَدْ كُنْتُ أَبُوكِي وَأَنْتِ رَاضِيَةٌ

إِنْ تَمَّ ذَا الْهَجْرِ يَا ظَلُومٌ وَلَا

وما أحسن قول القائل: الوافر:

وَمَا فِي الْأَرْضِ أَشْقَى مِنْ  
مَحَبِّ

تَرَاهُ بَاكِيًا فِي كُلِّ حِينٍ

فِيكَ بِكَ إِنْ تَأَوَّأَ حَذْرًا عَلَيْهِمْ

وَتَسَخَّنَ عَيْنَهُ عِنْدَ التَّنَائِي

من كتاب الله تعالى

فَشَأْنَاكَ انْحِدَاؤٌ وَارْتِفَاعٌ  
وَيَدُّو الضَّوءَ مِنْهَا وَالشَّعَاعُ

كَالدَّهْرِ فِيهِ لِمَنْ يُوُولُ مَالٌ

فَالنُّورُ مِنْهَا وَالضِّيَاءُ يُنَالُ

وَعَزَّ ذَلِكَ مَطْلُوبًا لِمَنْ طَلَبَا

شُعَاعَهَا وَتَرَاهُ الْعَيْنُ مَقْتَرِبَا

وقال سعيد بن حميد، ويروي لفضل الشاعرة: المنسرح:

عَنِّي بِذَاكَ الرِّضَا بِمَغْتَبِطٍ  
مِنْكَ التَّجْنِي وَكَثْرَةُ السَّحَطِ  
مِنْكَ وَمَا سَرَّ نِي فَعَنْ عَلَطِ

من ولد عبد الصمد بن علي، ويُعرف بأبي العبر: البسيط:

بَكَيْتُ عِنْدَ الرِّضَا خَوْفًا مِنْ  
الْغَضَبِ

إِنْ لَمْ يُرْحِنِي سَلُوْ عَشْتُ فِي  
تَعَبِ

لِصْحَةِ عِلْمِي أَنْ سَيِّبَعَهُ  
عَثْبُ

فَأَسْأَلُهَا مَرَضَاتِهَا وَلِهَا الدَّئِبُ

وَعَطْفُكُمْ صَدٌّ وَسَلْمُكُمْ  
حَرْبُ

وَكُلُّ دَلُولٍ مِنْ أُمُورِكُمْ صَعْبُ

حِدَارَ هَذَا الصَّدُودِ وَالْعَصَبِ

تَمَّ فَمَا لِي فِي الْعَيْشِ مِنْ  
أَرْبِ

وإن وجد الهوى حُلُو المذاقِ

مَخَافَةٌ فُرْقَةٌ أَوْ لِإِشْتِيَاقِ

وَبَيْكِي إِنْ دَتَوَّا خَوْفَ الْفِرَاقِ

وَتَسَخَّنَ عَيْنَهُ عِنْدَ التَّلَاقِ

وقال سعيد بن حميد: إذا نزعْتُ في كتابي بآية من كتاب الله تعالى أنرت  
 إظلامه، ورَبَّنتُ أحكامه، وأعدبتُ كلامه.  
 أمثال للعرب والعجم والعامه  
 وما يماثلها من كتاب الله تعالى:  
 ممَّا هو أجلُّ منها وأعلى، أخرجها أبو منصور عبد الملك الثعالبي.  
 قال عليُّ رضي الله تعالى عنه: القتلُ أنفى للقتل، وفي القرآن: "ولكم في القصاص  
 حياة يا أولي الألباب".  
 والعربُ تقول لمن يعيِّر غيره بما هو فيه: "عَيَّرَ بُجَيْرٌ بُجْرَهُ وَنَسِيَ بُجَيْرٌ حَبْرَهُ"، وفي  
 القرآن "وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ".  
 وفي معاودة العقوبة عند معاودة الذنب: إن عَادَتِ الْعُقُوبُ عُذْنَا لَهَا، وفي القرآن:  
 "وَإِنْ عُذْتُمْ عُذْنَا". "وَإِنْ تَعُودُوا تَعُدُّ".  
 وفي دَوُق الجاني وبال أمره: "يَدَاكَ أَوْكَا، وَفُوكَ نَفَخ". وفي القرآن: "ذلك بما قدَّمْت  
 يَدَاكَ".  
 وفي قُرْبِ الغد من اليوم قول الشاعر: الوافر:  
 وَإِنْ غَدًا لِنَاطِرِهِ قَرِيبٌ  
 وفي القرآن: "أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ".  
 وفي ظهور الأمر: قد وضح الأمر لذي عَيْنَيْنِ، وفي القرآن: "الآنَ حَصْحَصَ  
 الْحَقُّ".  
 وفي الإساءة إلى من لا يقبل الإحسان: "أَعْطِ أَخَاكَ تَمْرَةً، فَإِنْ أَبَى  
 فَجَمْرَةً".  
 وفي القرآن: "وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ  
 قَرِينٌ".  
 وفي قُوْت الأمر: "سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلَ"، وفي القرآن العظيم: "فُضِيَ  
 الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ".  
 وفي الوصول إلى المراد بِبَدَلِ الرغائب: "مَنْ يَكْحِجِ الْحَسَنَاءَ يُعْطِ مَهْرَهَا"،  
 وفي القرآن: "لَنْ تَتَالَوْا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ".  
 وفي منع الرجل مُرَادَه: الطويل: وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الْعَيْرِ وَالنَّزْوَانِ وَفِي  
 الْقُرْآنِ: "وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ".  
 وفي تَلَاْفِي الإساءة: "عَادَ عَيْتٌ عَلَى مَا أَفْسَدَ"، وفي القرآن: "ثُمَّ بَدَّلْنَا  
 مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا".  
 وفي الاختصاص: "كُلُّ مَقَامٍ بِمَقَالٍ"، وفي القرآن: "لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ".  
 العجم: "من احترق كَدَسَه تمَّيَّ إحراق أكداس الناس"، وفي القرآن:  
 "وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً".  
 العامة: "مَنْ حَفَرَ لِأَخِيهِ بئْرًا وَقَعَ فِيهَا"، وفي القرآن: "وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ  
 السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ".  
 ومن الشعر: السريع:

ما يفعل المرء فهو أهله

كل امرئ يشبهه فعله

وفي القرآن: "قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى سَاكِلَتِهِ".  
 العامة: "كل البقل ولا تسأل عن المبقلة".  
 وفي القرآن: "لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ".  
 شعر: الرجز:

كم مرةً حَفَّتْ بِكَ الْمَكَارَةُ حَارَ لَكَ اللَّهُ وَأَنْتَ كَارُهُ؟

وفي القرآن: "فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا" العامة: "المأمول  
 خيرٌ من المأكول"، وفي القرآن: "وللآخرة خيرٌ لك من الأولى" العامة: "لو كان في

اليوم خيرٌ ما سلّم علي الصياد، وفي القرآن: "ولو عَلِمَ الله فيهم خيراً لأَسْمَعَهُمْ".  
المتنبى: الطويل:

مصائبُ قوم عند قوم قَوَائِدُ

وفي القرآن: "وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا" عند الخنازير تنفق العذرة،  
وفي القرآن: "الْحَيِّثَاتُ لِلْحَيْثِينَ وَالْحَيْثُونَ لِلْحَيِّثَاتِ" العجم: "لم يرد الله  
بالنملة صلاحاً إذا أنبت لها جناحاً"، وفي القرآن: "حتى إذا فرحوا بما أوتوا  
أخذتاهم بغتةً".

العامّة: الكلب لا يصيد كارهاً، وفي القرآن: "لا إكراه في الدين". العجم:  
"كل شاة تُناط برجلها" وفي القرآن: "كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ".

جملة من مكاتبات بعض أهل العصر

أبو القاسم محمد بن علي الإسكافي عن الأمير نوح بن نصر وعن ابنه عبد  
الملك لأبي طاهر وشمكير بن زياد يشكره علي حميد سيرته:  
مَنْ حمدناه - أعزك الله تعالى - من أعيان الملة الذين بهم افتخارها،  
وأعوان الدولة الذين بهم استظهاؤها، بخلة ينزع فيها من خلال القصل،  
وخصلة يكمل بها من خصال العدل. وإثك - أعزك الله! - من نحمده  
بالارتقاء في درج الفضائل، والاستواء في كل الشواكل؛ فإنه ليس من  
محمدة إلا وسهمك فيها فائز، ولا من شدة إلا ومهلك فيها بارز، وذلك -  
أعزك الله تعالى! - أمرٌ قد أغنى صدقُ خبره عن العيان، وكفى بيان أثره  
تكلف الامتحان، ولو أعطينا النفوس مئاثا، وسوغلناها هواها، لأوردنا عليك  
في ذرور كل شارقي جديد شُكر، وجددنا لك مع اعتراض كل خاطر جميل  
ذكر، لكننا للعادة في تزك الهوى، والثقة بأنك مع صالح أدايك تحل الأذى من  
الإحماد محل الأوفى، فيقضى لك بأنه - وإن عظم قدره - يسير العدد، وعلى  
ما هو - وإن تنهى لفظه - باقي القخر مدى الأبد، وكان ممّا اقتضانا الآن  
تناولك به أخبار تواترت، وأقوال تظاهرت، بإطباق سكان الحصرة ونيسابور  
من أهل عملك على شُكر ما يتزيد لهم وفيهم من مواد عدلك، وحسن  
فضلك، حتى لقد ظلوا ولهم في شكر ذلك محافل تُعقد، ومشاهد تُشهد،  
يعجب بها السامع والرائي، ويقترن بها المؤمن والداعي؛ فإن هذا - أعزك  
الله - حال يطيب مسمعه، ويلذ موقعه، حتى لقد ملأ القلوب بهجاً، والصدور  
ثلجاً، حتى استفزها قزط الارتياح، وصدق الانشراح، إلى هذا الكتاب أن  
أعجلناه، وهذا الشكر أن أجزلناه. بعد ذكر لك اتصل كل الاتصال، وأجمل كل  
الإجمال، وتضاعف به حظك من الرأي أصعافاً، وأشرف محللك على كل  
المحال إشرافاً، ونحن نهنيك - أعزك الله - على التوفيق الذي قسمه الله  
لك، والتيسير الذي وكله بك، ونبعثك على استدامتها بصالح النيّة، وبصادق  
البيعة، لتدنو من العدل على ما ترعى، وتحسن الهدى فيما تتولى. فأريك  
أبقاك الله تعالى في إحلال ذلك محله من استبشار به تستكمله، واستثمار  
له تعجّله إن شاء الله تعالى.

وكتب إليه يعزبه: إن أحق من سلّم لأمر الله تعالى ورضي بقدره، حتى  
يُمحص مصطنعاً، ويخلص مُصطبراً، وحتى يكون بحيث أمر الله من الشكر  
إذا وهب، والرضا إذا سلب، أنت أعزك الله تعالى؛ لمحللك من الشكر  
والحجج، وحظك من الصبر والنهي، ثم لما ترجع إليه من ثبات الجنان عند  
التأزلة، وقوة الأركان لعز الدولة الفاضلة، فإن لك فيها وفي سهمك الفائز،  
ومهلك البارز، عوصاً عن كل مزروع، ودركاً لكل مرجو، ونسأل الله أن  
يجعلك من الشاكرين لفضله إذا أبلى، والصابرين لحكمه إذا ابتلى، وأن

يجعل لك لا يك التعزية، ويقيك في نفسك وفي دويك الرزية، بمنه وقدرته. وله إليه: ترامي إلينا خبر مصابك بفلان؛ فخلص إلينا من الاغتمام به ما يحصل في مثله ممن أطاع ووفى، وخدم ووالى، وعلمنا أن لفقدك مثله لوعة، وللمصاب به لذعة؛ فآثرنا كتابنا هذا إليك في تعزيتك، على يقيننا بأن عقلك يُعني عن عظمتك، ويهدي إلى الأولى بشيمنتك، والأزيد في رُبتك؟ فليحسُنْ - أعزك الله - صبرك على ما أخذه منك، وشكرك على ما أبقى لك، وليتمكّن في نفسك ما وقر لك من ثواب الصابرين، وأجزل من ذخر المحسنين، وليرد كتابك بما ألهمك الله تعالى من عزاء، وأبلاكه من جميل بلاء، إن شاء الله تعالى.

وله إليه جواب: وصل كتابك - أعزك الله تعالى - مفتتحاً بالتعزية عن فلان، وبوصف توجعك للمصيبة، ونحن نحمدُ الله تعالى الذي يُنعم فضلاً، ويحكم عدلاً، ويهب إحساناً، ويسلب امتحاناً، على مجاري قضيته كيف حرت أخذة ومعطية، ومواقع مشيئته كيف مضت سارة ومسيئة، حمد عالمين أن لا حكم إلا له، ولا حول إلا به، ومستمسكين بما أمر به عند المساءة من الصبر، والمسرة من الشكر، راجين ما أعده الله من الثواب للصابرين، والمزيد للشاكرين. وما توفيقنا إلا بالله عليه نتوكل وإليه نيب، وأما وحسبك - أعزك الله - للحادث على الماضي، عفا الله عنه، فمثلك من ذوي الصفاء والوفاء اختصّ بذلك واهتم له، وعرف مثله فاغتنم به؛ فإن الطاعة نسب بين أوليائها، والنعمة سبب بين أبنائها، فلا عجب أن يمسك في هذا العارض ما يمس أولى المشاركة، ويخصك من الاهتمام ما خص ذوي المشابكة. وله إليه أيضاً في أمر عزة: ورد خبرك، أكرمك الله تعالى، بنفوذك لوجهك فيمن جمعهم الله تعالى للسعي في سبيله إلى جملتك؛ فأملنا أن يكون ذلك موصولاً بأعظم الخيرة، مؤدياً إلى أحسن المغبة، إلا أننا أحسنا من العزة الذين بهم تعتد، وإياهم تستنجد، فتور نيات، وفساد طويات، وهذا كما علمت باب عظيم يجب الاطلاع بالفكر والرأي عليه، والاحتراس بالجدّ والجهد من الخطل فيه. فسبيك أن تتأمل أمرك بعين استقصاء العورة، واستدراك الآخرة، فإن أنت وجدت في عدتك تمام القدرة، وفي عدتك مقدار الكفاية، ولم تجد نيات أولئك العزة مدخولة، ولا عراهم محلولة، استخرت الله تعالى في المسير بكل ما تقدّر عليه من الحزم في أمرك، ثم إن تكن الأخرى، وكان القوم على ما ذكرت من كلال البصائر، وضعف المرائر، عملت على التلوم لحديث يحدثك به كتابنا هذا إن اجتليت ما ذكرته، وإن لم تبلغ بلاغة ما اخترته، فاعتلق بديله.

من إنشاء بديع الزمان

وهذه المقامة من إنشاء البديع، قال عيسى بن هشام: غرّوت الثغر بقزوين سنة خمس وسبعين، فما اجتزنا حزناً، إلا هبطنا بطناً، حتى وقف بنا المسير على بعض قراها، فقالت الهاجرة بنا إلى ظل ثلاث في جحرها عين كلسان الشمعة، أصفى من الدمعة، تسبح في الرضراض، سيح التصّاض؛ فقلنا من المأكّل ما نلنا، ثم ملنا إلى الظل فقلنا؛ فما ملكنا النوم حتى سمعنا صوتاً أنكر من صوت الجهار، ورجعاً أضعف من رجع الحوار، يسفّعهما صوت طبل كانه خارج من ماضعي أسد؛ فدأد عن القوم رائد النوم، وفتحت العيون إليه وقد حالت الأشجار دونه، وأصغيث فإذا هو يقول على إيقاع صوت الطبل: السريع:

إلى دَرَى رَحْبٍ وَعَيْشٍ  
خَصِيْبٍ

أدعو إلى الله فهل من  
مُجِيبٍ

وجنة عالية ما تني  
يا قوم، إني رجلٌ ثائبٌ  
إن أكرمتكم ليلةً  
يا ربّ خنزير تمسّئته

قطوفها دانية ما تغيب؟  
من بلد الكفر وأمرى عجيبٌ  
جحدت فيه وعبدت الصليب  
ومسكر أحرزت منه  
النصيب  
من زلة الكفر اجتهادٌ  
المصيب

ثم هداني الله، وانتاشني

فطلت أخفي الدين في  
أسرتي

أسجد ليلات جدار العدى  
وأسال الله إذا جنني  
رب كما أنك أنقذتني

وأعبد الله بقلب منيب

ولا أجي الكعبة خوف الرقيب  
ليلي وأصناني يوم عصيب  
فنجني؛ إني فيهم غريب  
وما سوى العزم أمامي  
تجيب

ثم اتخذت الليل لي مركباً

وقدك من سيري في ليلة

يكاد رأس الطفل فيها  
يشيب

إلى حمى الدين نفضت  
الوجيب

حتى إذا جرت بحر العمى

وقلت إذ لاح شعاع الهدى

ولما بلغ هذا البيت قال: يا قوم، وطئت والله بلادكم بقلب لا العشق  
شاقه، ولا القفر ساقه، وقد تركت وراء ظهري حدائق وأغاباً، وكواعب  
أتراباً، وخيلاً مستومة، وقناطير مقلّطة، وعُدّة وعديداً، ومراكب وعبيداً،  
وخرجت خروج الحثة من جحره، وبرزت بروز الطائر من وكره، مؤثراً  
ديني على دنيائي، وجامعاً يمّائي إلى يسراي، وأصلاً سيري يسراي، فلو  
رفعتم النار بشريها، ورميتم الروم بحجرها، وأعتمونني على عزوها  
مساعدة وإسعاداً، ومرافدة وإرفاداً، ولا شطط، فكل قادر على قدرته،  
وحسب تروته، ولا أستكثر البدرّة، ولا أردد التمرة، وأقبل الدرّة، ولكل مني  
سهمان، سهم أدلّقه للقاء، وسهم أوفقه بالدعاء، وأرشق به أبواب  
السما، عن قوس الظلّماء.

قال عيسى بن هشام: فاستفزني رائع أفاضه، وسرّوت جلاباب النوم،  
وعدوت إلى القوم، وإذا والله شيخناً أبو الفتح الإسكندري، بسيف قد  
شهره، وزى قد نكره؛ فلما رأني عمزني بعينه وقال: رحم الله امرأ أحسن  
حدسه؛ وملك نفسه، وأغنانا بفاضل قوله، وقسم لنا من بيله! ثم أخذ ما  
أخذ، فقمّت إليه فقلت: أنت من أولاد بنات الروم؟ فقال: مجزوء الخفيف:

ن كحالي مع النسب

ن إذا سامه انقلب

ط وأضحى من العرب

أنا خالي مع الزما

نسبي في يد الزما

أنا أمسي من النبي

من أخبار سليمان بن عبد الملك

قال سليمان بن عبد الملك: ما سألتني أحد قط مسألة يثقل علي قضاؤها،  
ولا يخف عليّ أداؤها، بلفظ حسن يجمع له القلب فهمه إلا قضيتها، وإن

كانت العزيمة نفذت في منعه، وكان الصواب مستقراً في دفعه، ضناً بالصواب أن يردّ سائله، أو يحرم نائله.

من أخبار النعمان بن المنذر

والحارث الغساني

وقال أبو عبيدة: كان أبو قيس بن رفاعة يَفِدُ سنةً إلى النعمان بن المنذر اللخمي وسنة إلى الحارث بن أبي شَمِرِ العَسَانِي، فقال له الحارث يوماً وهو عنده: يا ابن رفاعة، بلغني أنك تفضل النعمان عليّ! قال: كيف أفضله عليك، أبيت اللعن؟ فوالله لَقَقَاكَ أَحْسَنُ من وَجْهه، ولَأَمَكُ أَشْرَفُ من أبيه، ولَأَبَاؤُكَ أَشْرَفُ من جميع قومه، ولَأَمْسُكَ أَفْضَلُ من يومه، ولشمالك أجود من يمينه، ولجرمانك أنفع من بَدَلِهِ، ولَقَلِيلُكَ أَكْثَرُ من كثيره، ولثِمَادُكَ أَغْزَرُ من غديره، ولكرسيك أرفع من سريره، ولجَدْوَلُكَ أَغْمَرُ من بحوره، وليومُكَ أَفْضَلُ من شَهْرِهِ، ولشَهْرُكَ أَشْرَفُ من حَوْلِهِ، ولحولُكَ خَيْرُ من حَقْبِهِ، ولزندك أوري من رَنَدِهِ، ولجندك أعز من جنده، ولهزلك أصوب من جده، وإنك لَمِنْ غَسَّانِ أرباب الملوك، وإنه لمن لَحْمِ كَثِيرِ النوكِ! فَعَلَامَ أَفْضَلُهُ عليك؟ وقد روى مثل هذا الكلام للنابغة الذبياني مع النعمان بن المنذر.

من أخبار المهدي

وقال المفضل الضبي: دخلت على المهدي فقال قيل أن أجلس: أنشدني أربعة أبيات لا ترد عليهنّ، وعنده عبد الله بن مالك الخزاعي، فأنشدته: الطويل:

وأشعت قد قَدَّ السَّقَاؤُ

يجرّ شواءً بالعصا غير مُنْصَجِ

قميصه

دعوت إلى ما نابني

كريمٌ من الفتيان غير مَرَلَجِ

وأجابني

ويضرب في رأس الكميّ

فتى يملأ الشَّيرَى ويُرْوِي

المدجج

سنائه

ولا في بيوت الحيّ

فتى ليس بالراضي بأدنى

بالمتولج

معيشة

فقال المهدي: هذا هو، وأشار إلي عبد الله بن مالك، فلما انصرفت بعثت إليّ بألف دينار، وبعثت إلي عبد الله بأربعة آلاف.

من أخبار أبو الأسود الدؤلي

تنازع أبو الأسود الدؤلي وامرأته إلى زياد في ابنيهما؟ وأراد أبو الأسود أخذَهُ منها فأبت وقالت المرأة: أصلح الله الأمير، هذا ابني، كان بطني وعأؤه، وحجري فناؤه، وثديي سقاؤه، أكلؤه إذا نام، وأحفظه إذا قام؛ فلم أزل بذلك سبعة أعوام، فلما استوفيت فصاله، وكملت خصاله، واستوكعت أوصاله، وأمّلتُ نفعه، ورجوت عطفه، أريد أن يأخذه مني كرهاً، فأدني أيها الأمير، فقد أريد قهري، وحاول قسري.

فقال أبو الأسود: هذا ابني حملته قبل أن تحمله، ووضعت قبل أن تضعه، وأنا أقوم عليه في أدبه، وأنظر في تقويم أوده، وأمنحه علمي، وألهمه حلمي، حتى يكمل عقله، ويستكمل فتله.

فقالت المرأة: صدق أصلحك الله؛ حملة خِفًّا، وحملته ثِقَلًا، ووضعه شهوة، ووضعتُه كرهاً.

فقال زياد: اردد على المرأة ولدها؛ فهي أحق به منك، ودعني من سجعك.

في باب الوعظ

قال الأصمعي: بلغني أنّ بعض الحكماء كان يقول: إني لأعظكم، وإني لكثيرُ الذنوب، مسرفٌ على نفسي، غير حامدٍ لها، ولا حاملها على المكروه في طاعة الله. وقد بلوتها فلم أجد لها شكرياً في الرضاء، ولا صبراً على البلوى. ولو أن أحداً لا يعظ أخاه حتى يحكم أمره لترك الأمر؟... ولكن محادثة الإخوان حياة القلوب وجلاء النفوس، وتذكيرٌ من النسيان، واعلموا أنّ الدنيا سرورٌها أحران، وإقبالها إديار، وآخر حياتها الموت، فكم من مستقيل يوماً لا يستكملها، ومنتظر غداً لا يبلغه؟ ولو تنظرون الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغرورَه.

جمع عبد الملك أهله وولده فقال: يا بني أمية، ابدلوا تداكم، وكفوا أذاكم، وأجملوا إذا طلبتم، واغفروا إذا قدرتم، ولا تُلجفوا إذا سألتكم، ولا تخلصوا إذا سُئلتكم؛ فإن العفو بعد القدرة، والثناء بعد الخبرة، وخير المال ما أفاد حمداً وتَقَى دماً.

من أخبار هشام بن عبد الملك

ودخل سعيد الجعفري على هشام بن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين، إني أريد أن أصفك بصفتك، فإن انحرف كلامي فلهيبة الإمام، واجتماع الأقسام، وتصرف الأعوام، ولربّ جوادٍ عثر في أرسانه، وكبا في ميدانه، ورحم الله امرأً قصّر من لفظه، وألصق الأرض بلفظه، ووعى قولي بحفظه، فخاف هشام أن يتكلم فيقصّر عن جائزة مثله، فعزم عليه فسكت.

بين حاتم الطائي وعبد قيس البرجمي

قال عبد قيس بن حُفّاف البرجمي لحاتم الطائي وقد وقّد عليه في دماء تحمّلها وعجز عن البعض: إنه وقعت بيني وبين قومي دماء فتواكلوها، وإني حملتها في مالي وأملي، فقدّمت مالي، وكنت أملي، فإن تحملها فزبّ حق قضيتّه، وهمّ قد كفيته، وإن حال دون ذلك حائل لم أذمّ يومك، ولم أياس من غدك.

بين الحمدوني وابن حرب

قال أبو علي العتابي: حدّثني الحمدوني قال: بعث إليّ أحمد بن حرب المهلب في غداة، السماء فيها مُغيمة، فأتيته والمائدة موضوعة مُعطاة؟ وقد واقت عُجاب المغنية، فأكلنا جميعاً، وجلسنا على شرابنا، فما راعنا إلا داق يدق الباب، فاتاه الغلام فقال: بالباب فلان؛ فقال لي: هو فتى من آل المهلب، ظريف، نظيف، فقلت: ما نريد غير ما نحن فيه، فأذن له، فجاء يتبختر وقُدامي قدح شراب فكسره، فإذا رجل آدم صخّم، قال: وتكلم فإذا هو أعيان الناس، فجلس بيني وبين عُجاب، قال: فدعوت بدواة وكتبت إلى أحمد بن حرب: الخفيف:

كدرّ الله عيش من كدر  
ش! فقد كان صافياً  
العَي

جاءنا والسماء تهطل  
ث وقد طابَقَ السماعُ  
بالعَي

كسر الكاس وهي كالكوكب  
ريّ ضمّت من المدام رُصّابا  
الدرّ

قلت لما رُميت منه بما أك  
ره والدهر ما أفاد أصابا  
عجلّ الله نعمة لابن حرب

ودفع الرقعة إلى أحمد، فقال: وبك إلا نفست فقلت بعد حول؟ فقلت: أردت أقول بعد يوم، فخفت أن تصيبني مضرة ذلك، ووطن الثقل فنهض، فقال: أديته! فقلت: هو

آذاني.

وقال الحمدوني في طيلسان ابن حرب: الطويل:

ولي طيلسان إن تأملت  
شخصه  
تصدّع حتى قد أمنت  
انصداعه  
كأنني لإشفاقي عليه  
ممرّض  
فلو أن أصحاب الكلام  
يرونه  
عروض

تيقنت أن الدهر يفتي  
وينقرض  
وأظهرت الأيام من عمره  
العرض  
أخا سقم مما تمادى به  
المرض  
لماروك فيه وادّعوا أنه  
عرض

وقال فيه: البسيط:

لطيلسان ابن حرب نعمة  
سبقت  
قد كنت دهرًا جهولًا ثم  
حتّني

بها تبين فضلي فهو متصل  
عليه خوفي من الأقوام إن  
جهلوا

أظل أجنب الإخوان من حذر  
يا طيلساناً إذا الألاحظ جُلن  
به

كأنما بي جرح ليس يندمل  
فعلن فعل سهام فيه تنتصل

لئن بليت فكم أليت من  
أمم

تترى أبادتهم أيامك الأول

?وكم رآك أخ لي ثم أنشدني: =ودّع هريرة إن الركب مرتحل وقال فيه:  
الخفيف:

يا ابن حرب كسوتني  
طيلساناً

أمرضه الأوجاع فهو سقيم

فإذا ما لبسته قلت: سبحا  
طيلسان له إذا هبت الري  
أذكرني بيتاً لحسان فيه  
لو يدب الحولي من ولد الدر

تك محيي العظام وهي رميم  
ح عليك بمنكبي هميم  
حرق للفؤاد حين أقوم  
ر عليها لأندبتها الكلوم

وقال أيضاً: السريع:

يا قاتل الله ابن حرب لقد  
بطيلسان خلث أن البلى  
أجد في رفوي له، واليلى  
ذكرني الجنة لما عدا  
إن أتهم الرقاء في رفوه  
غنيته لما مضى راحلاً:

أطال إتعابي على عمدي  
يطلبه بالوتر والحقد  
يلهو به في الهزل والجدي  
أصحابها منها على حرد  
مضى به التمزيق في تجد  
يا واحدي تتركني وحدي!

وقال أيضاً فيه: المجتث:

إن ابن حرب كساني  
أظل أدفع عنه  
فقد تعلمت من حش

ثوباً يطيل انحرافه  
وأثقي كل آفه  
يتي عليه الثقافه

وقال أيضاً: الخفيف:

طيلسانُ ما زال أقدم في  
الدّه  
وترى صَعْفَه كضعف عجوز  
غمرتهُ الرفاع فهو كِمِضِرٍ  
إنْ أزيتهُ يا ابن حرب بذي  
جرير: ابن عبد الله البجلي، وله صحبة رضي  
جريراً: الطويل:

لعمري لئن كانت بجيلة زاتها  
وقال الحمدوني في معناه الأول: الخفيف:  
يا ابن حرب إني أرى في  
زوايا  
طيلسانُ رَفَوْتُهُ ورفوت الرَفْو منه  
حتى رَفَوْتُ رِقَاعَهُ

فأطاع اليلى وصار خليعاً  
فإذا سائلُ رَأني فيه  
ليس يعطي الرِّفَاء في الرفو  
طاعَهُ  
ظنُّ أني فتى من أهل  
الضِياعَهُ

وقال فيه: مجزوء الكامل:

طَيْلَسَانُ، لابن حرب  
قد طَوَى قَرْنًا فقرناً  
ليس الأيام حَتَّى  
غاب تحت الحسن حتى

من رسائل ابن العميد

كتب أبو الفضل بن العميد إلى أبي عبد الله الطبري: كتابي وأنا بحالٍ لو لم  
ينعص منها الشوقُ إليك، ولم يرتق صفوها النزاعُ نحوك، فعددتُها من  
الأحوال الجميلة، واعتدت حظي منها في النعم الجليلة؛ فقد جمعتُ إليها  
بين سلامة عامة، ونعمة تامة، وخطيتُ منها في جسمي بصلاح، وفي سعْيي  
بنجاح، لكن ما بقي أن يصفو لي عيش مع بُعدي عنك، ويخلو ذرعِي مع  
خلوِي منك، وينسوغ لي مطعم ومشرب مع انفرادي دونك، وكيف أطعمُ في  
ذلك وأنت جزءٌ من نفسي، وناظمٌ لشمل أنسي، وقد حُرمت رؤيتك،  
وعدمت مشاهدتك، وهل تسكنُ نفس متشعبة ذات انقسام، وينفع أنس  
متشعبة بلا نظام، وقد قرأت كتابك جعلني الله تعالى فداك؛ فامتلاهُ  
سروراً بملاحظة خطك، وتأمل تصرفك في لفظك، وما أقرظهما فكل  
خصالك مقرّطٌ عندي، وما أمدحهما فكل أمرك ممدوح في ضميري وعقدي،  
وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقةً لتقديرِي فيك، فإن كان كذلك وإلا فقد  
غطى هواك وما ألقى على بصري.

وله إلى عضد الدولة يهنئه بولدين: أطال الله بقاء الأمير الأجل عضد  
الدولة، دام عزه وتأييده، وعلوه وتمهيدته، وبسطته وتوطيده، وظاهر له من  
كل خير مزيده، وهنأه ما اختصه به على قُرب الميلاد، من توافر الأعداد،  
وتكثر الأمداد، وتثمر الأولاد، وأرام من النجاة في البنين والأسباط، ما أراه  
من الكرم في الآباء والأجداد، ولا أخلى عينه من قرّة، ونفسه من مسرة،  
ومتجدد نعمة، ومستأنف مكرمة، وزيادة في عدده، وقسح في أمده، حتى

يبلغ غاية مهله، ويستغرق نهاية أمه، ويستوفي ما بعد حُسن ظنه؛ وعرفه  
الله السعادة فيما بشر عبده من طلوع بدرين هما أتبعنا من نوره، واستنارا  
من دوره، وحقاً بسريره، وجعل وفودهما متلائمين، وورودهما تؤامين،  
بشيرين بتظاهر النعم، وتواتر القيسم، ومؤذنين بترادف بين يغص، بجمعهم  
مُحرق القصاء، وبسرق بنورهم أفق العلاء، وينتهي بهم أمد النماء، إلى غاية  
تفوت غاية الإحصاء، ولا زالت السبل عامرة، والمناهل عامرة، يصافح  
صادرهم بالبشر الوارد، وأملهم بالنيل القاصد.

من شعر المتنبي

وقال أبو الطيب وذكر أبا دلف وأبا الفوارس ابني عضد الدولة: الوافر:  
فلم أرَ قبله شِئلي هزبر  
كشِئليه، ولا قرسي رهان  
فعاش عيشة القميرين يحيا  
بضوئهما ولا يتحاسدان  
ولا ملكا لسوى ملك الأعادي  
ولا ورثا سوى من يقفلان  
وكان ابنا عدو كائراه  
له ياء حروف أنيسيان  
دعاء كالثناء بلا رياء  
يؤديه الجنان إلى الجنان

وكتب أبو القاسم الإسكافي عن نوح بن نصر إلى وشمكير بن زياد في  
استبطاء وتهنئة: وصل كتابك ناطقا مفتتحه بجميل العذر، فيما نقل من  
المكاتبة، وبعث من المطالعة، ومُعرباً مختتمه عن جملة خبر السلامة التي  
طبقت أعمالك، والاستقامة التي عمت أحوالك، وفهمناه، ولولا أن مواناتك -  
أيديك الله تعالى - فيما تأتي وتذر، وترتي وتدبر، عادة لنا أورثتناها قرابة ما  
بين وفاقنا ووفاقك، وملاءمة حال أجاتنا لحال استحفاك، لكننا ربما  
ضايقتك في العذر الذي اعتذرت به، وإن كان واضحاً طريفاً، وناقشتك  
فيه، وإن كان واجباً تصديقه، لقرط الأوس يخلص إلينا بكتابك، والارتياح  
بخطابك، اللذين لا يؤديان إلا خبر سلامة توجب الإحما، فنحن نأبى إلا إجراء  
تلك العادة، كما عودتنا، وإلا التجافي عما تريد فيه من الزيادة التي أردتها،  
ولا ندع مع ذلك أن يصل تسويقك إلى الإقلال الذي اخترته بإحمادك على  
الكتاب إذا كتبه، توخياً لأن تكون مؤهلاً في الحالين لخالصة التنويل، مقدماً  
في درج التفضيل، موفى حقائق الإينار، موفى لواحق الاستقصار، ونستعين  
بالله على قضاء حقوقك، وعلى جميل النية في أمورك، فإن ذلك لا يبلغ إلا  
بقوته، ولا يدرك إلا بحوله، وأما بعد فقد عفى - أعزك الله تعالى - ما أفاد  
كتابك بخبر السلامة من أنسه، على آثار من سبقه بخبر العلة من وحشة،  
فأوجبتنا مقابلة موهبة الله تعالى في المحبوب صنع، والمكروه دفع، نستقبل  
به إخلاص المواهب لنا، ونستديم به أخص المراتب بنا، فرأيك - أعزك الله  
تعالى - في المطالعة بذكر تستمده في القوة والصحة من مزيد، والطاعة  
والكفاية من توفيق وتسديد، موفياً إن شاء الله تعالى.

ألفاظ أهل العصر في ضروب التهاني

وما ينخرط في سلكها من ذلك في التهنة بالمولود وما يجري مجراها من  
الأدعية، وما يختص منها بالملوك أو الرؤساء:  
مرحبا بالفارس المصدق للطنون، المقر للعيون، المقبل بالطالع السعيد،  
والخير العتيد، أنجب الأبناء لأكرم الآباء. أنا مستبشر بطلوع النجم الذي كنا  
منه على أمل، ومن تناول استساراه الذي كنا منه على وجل، إن يشأ  
الله يجعله مقدمة إخوة في نسق كالفريد المنسق. قد طلع في أفق  
الحرية أسعد نجم، ونجم، في حدائق المروعة أذكي نبت. يا بشراي بطلوع

الفارس الميمون جَدُّه، المضمون سَعْدَه، عليه خاتَمُ الفضل وطاقِبُه، وله سَهْمُ الخير وطاقِبُه. الحمد لله على طلوع هذا الهلال الذي تراه إن شاء الله بَدْرًا لا يُضْمَرُ السَّرَاؤُ بِهَا، ولا يبلغ المَحَاقُ سَنَاءَه وسنَاه، وقد بَشَّرَتْ قوابله بالإقبال وعلو الجَدِّ، واقترن قدومُه بالطلوع السَّعْد. هُنَاكَ اللهُ تعالى بَقْوَةُ الظُّهْر، واشتدَّ الأزر. الفارس الكثير لسواد الفضل، الموقر لحال الأهل، المستوفي شرف الأرومة، بكرم الأبوة والأمومة، وأبقاه حتى نراه كما رأينا جَدُّه وأباه. عرفت أنفًا ما كثر الله به عدده، وشدَّ عَصْدَه: من طلوع الفارس الذي أضاء له الأفق، وطال به باع السعادة، فعظمت النُّعْمَى لدي، وأوردت البُشْرَى غاية المُنَى علي. مرحباً بالفارس القادم، بأعظم المغانم، سَوِيَّ الخلق سامي العرق يلوح عليه سيماء المجد، وتتجاذبه أطراف الملك والحمد. وردت البُشْرَى بالفارس الذي أُوْسِعَ رِباع المجد تأهلاً، ومَتَاكِبَ الشرفِ ارتفاعاً، وأَعْصَادَ العزِّ اشتداداً. وأتتني بُشْرَى البشائر، والنعم المحروسة على النظائر، في سَلَاةِ العز وسليته، وابن منبر الملك وسريته، والأمير القادم بَعْرَةَ المكارم، الناهض إلى دَرْوَةِ العلياء، بأباء أمراء، وملوك عظماء. مرحباً بالفارس المأمول لشد الظهور، المرجو لسد الثغور. الحمد لله الذي شد أزر الدولة، ونظم قِلَادَةَ الإمره، ودعم سَرِيرِ العزّة، ووطد منابر المملكة، بالقمر السعد، وشبل الأسد الوزد. فد تنسمت المكارم والمعالي، وتباشرت الخُطْبُ والقوافي، بالفارس المأمول لشد أزر الملك، وسد ثَغْرِ المجد، وتطاول السريُّ شَوْقاً إليه، واهتزت المنايرُ حرصاً عليه. قد افترَّ جَفْنُ العالَمِ عن العين البصيرة، واستُغْرِبَ مضحكه عن اللّمة المُنيرة؛ أما الأمير فالتاج لجبينه يَبْهَى، والركاب بقدمه تزهي، اللهم أرني هذا الهلال بَدْرًا قد عَلَا الأقدار قدراً، وبلغه الله فيه مناه، حتى نراه وأخاه، منيفين على ذرْوَةِ المجد، آخِذِينَ من أوفر الحظوة بأعلى الجد.

ولهم: والله يمتع به، وبرزقُ الخير منه، ويحققُ الأملَ فيه. عرف الله تعالى آثار بركة المولود المسعود، وعَصَّدَ الفضل بالزيادة في عدده، وأقرَّ عَيْنَ المجد بالسيادة من ولده. عرفه الله تعالى من سيادة مقدمه، ما يجمع الأعداء تحت قَدَمِهِ. عمرك الله تعالى حتى ترى هذا الهلال قمراً باهراً، وبَدْرًا زاهراً، يَكْتُرُ به عدد حَقَدَتِكَ، ويعظم معه عَصَّةُ حَسَدَتِكَ، من حيث لا تَهْتَدِي النوائبُ إلى أغراضكم، ولا تطمع الحوادثُ إلى انتفاصكم، متعك الله بالولد، وجعله من أقوى العُدَد، ووصله بإخوة متوافري العَدَد، شادِّي الأزر والعَصْد. هناك الله تعالى مولده، وقرن باليُمن مَوْرَدَه، وأراك من بنيه أولاداً بَرَّةً وأسياباً وحفدة، وعرفك بركة قُدُومِهِ، ونجح مقدمه، وسعد طالعه، ويمن طائرته، وعمرك الله حتى ترى زيادة الله منه كما رأيتها، والله يبلغك أفضل ما تقسمه السعود، وتعلو به الجدود، حتى يستغرق مع إخوته مساعي الفضل، ويشيدوا قواعِدَ الفخر، ويزحموا صُدُورَ الدَّهر، ويضبطوا أطراف الأرض؛ والله يحرسه من نواظر الأيام أن تَرُتُّوْا إليه، وأطماع الليالي أن تتوجه عليه، حتى يستقلُّ بأعباء الخدمة، وينهض بأثقال الدعوة، ويخف في الدفع عن البيضة، ويسرع في حماية الحوزة، واللّه يديم لمولانا من العُمُرِ أكلاه، ومن العز أهناه، ليُطبِقَ العالَمِ بفضله وعَدْلَه، ويدبِّرَ الأرض بالنجباء من تسله.

ولهم في ذكر المولود العلوي: عُضُنْ رسول الله، صلى الله عليه وسلم،

شجره أهل أن يخلو ثمرة، وفرغ بين الرسالة والإمامة مُنتمَاه، خَلِيق أن يُخَمَد بَدُوهُ وَعُقْبَاه. مرحباً بالطالع بأيمن طالع، وَمَنْ هُوَ مِنْ أَشْرَفِ المناصب والمناصب، حيث الرسالة والخلافة، والإمامة والرَّعامة، أبغاه الله تعالى حتى يتهنأ فيه صوانع المنن، وبعد حُسْنُهُ من بني الحسن. ولهم في التهنئة بالإملاك والنفاس، وما يقتنر به من الأدعية: من اتصل بمولاي سببهُ، وشرف به مَنْصِبُهُ، كان حقيقاً بالرغبة إلى الله تعالى في توفيره وتكثيره، وزيادته وتتميره، لتزكو منابث الفضل، وتتممي مغارس النبل والفخر، وتطيب معادنُ المجد. بارك الله لمولاي في الأمر الذي عقده، وأحمده إِيَّاهُ وأسعده، وجعله موصولاً بِنَمَاءِ العدد، وزكاه الولد، واتصال الحبل، وتكثير النسل، واللهُ تعالى يَخِيْرُ له في الوصلة الكريمة، ويقرنها بالمحبة الجسيمة. قد عظم الله بهجتِي، وضاعف غبْطَتِي، بما أتاه من سرور ممهّد، يجمع شمل مجدد، فلا زالت النعم به محفوفة، والمَسَارُّ إليه مصروفة، جعل الله هذه الوصلة أكيدة العقدة، طويلة المدّة، سابعة البركة والفصل، طيبة الذريرة والنَّسْلِ. وصل الله هذا الاتصال السعيد، والعقد الحميد، بأكمل المواهب، وأحمد العواقب، وجعل شمل مَسَرَّتِكَ ملتئماً، وسبب أنسك منتظماً. عرّفك الله تعجيل البركات، وتوالي الخيرات، ولا أخلاك الله من هذه الوصلة من التهاني بنجباء الأولاد، وكبت بكثرة عددك الحساد. هناك الله مولاي الوصلة بكثرة العدد، ووفور الولد، وانبساط الباع واليد، عَالِيِ القدر والجد.

ولهم في التهنئة بالولاية والأعمال، وما يتصل بها من الأدعية للوزراء والقضاة والعمال: عرفت أخبار البلد الذي أحسن الله إلى أهله، وعطف عليهم بفضله، إذ أضيف إلى ما يلاحظه مولاي بعين إيالته، ويشفي خَلِّه بقصَلِ أصالته. أنا من سُرِّ بالولاية يلبس مولاي طلالها، ويسحب أذيالها، بنعم مستفادة، ورُتَب مستزادة، سروري بما أعلمه بكسبه الثناء في كل عمل يدبره، من أحدوته جميلة، ومثوبة جزيلة، ويؤثره من إحياء عدل، وإماتة جور، وعمارة لسبل الخيرات، وإيضاح لطرق المكرمات، سيدي يوفي على الرتب التي يدعى لها بحلوله؛ فهنيئها لها بتجمليها بولايتها، وتحليها بكفايته. الأعمال إن بلغت أقصى الآمال؟ فكفاية مولاي تتجاوزها وتتخطاها، والرتب وإن جلت قدراً، وكبرت ذكراً، فصناعته تسبقها وتسبقها، غير أن للتهاني رسماً لا بد من إقامته، وشرطاً لا سبيل إلى نقض عاداته. الأعمال وإن بلغت أقصى الآمال فكفاية سيدي توفي عليها إيفاء الشمس على النجوم، وترتفع عنها ارتفاع السماء على التخوم. سيدي أرفع قدراً وأتبه ذكراً من أن تُهتَب بولاية وإن جلي أمرها وعظم قدرها. قد أعطيت قوس الوزارة باربها، وأضيفت إلى كفيها وكافيها، وقسح فيها شرط الدنيا الفاسد في إهداء حظوظها إلى أوعادها، ونقض بها حكمها الجائر في العدول بها عن نجبائ أولادها. الدنيا أعز الله الوزير مهتأة بانحيازها إلى رأيه وتنفيذه، والممالك مغبوظة باتصالها إلى أمره وتديبره. قد كانت الدنيا مستشرفة لوزارته، إلى أن سعدت بما كانت الأيام عنه مُحيرة، وحطيت بما كانت الظنون به مبشرة. أنا أهتئ الوزارة بالقائها إلى فضله مقادتها، وبلوغها في ظله إرادتها، وانحيازها من إيالته إلى واضحة الفخر، وتوشحها من كفايته بعزة سائدة على وجه الدهر. الحمد لله الذي أقر عين الفضل، ووطأ مهاد المجد، وترك الحساد يتعثرون في ذبول

الْحَيِّية، ويتساقطون في فضول الحَسْرَةِ؛ وأراني الوزارة وقد استكمل  
 الشيخُ إجلالها، ووقى لها جمالها: المتقارب:  
 فلم تُكْ تَصْلُحْ إِلَّا لَهُ      ولم يَكْ يَصْلُحْ إِلَّا لَهَا  
 والقاضي عَلمُ العلمِ شرقاً وغرباً؛ وتَجَمُّ الفضلُ عَوْرًا وتَجَدَّأً، وشَمْسُ الأديبِ  
 بَرًّا وبحراً، فسبيلُ الأعمالِ أن تهنا إذا رُذِّتْ إلى نظره الميمون، وعُصبت  
 برأيه المأمون. أسعد الله القاضي بما جَدَّ، له من رأي مولانا وارتضاه،  
 واعتمده لأجل أمر الشريعة وأمَّصاه، وأسعد المسلمين والدين بما أصاره  
 إليه، وجمع زمامه في يديه. عرَّف الله سيدي من سعادة عمله، أفضل ما  
 ترقياه بأمله، ولقاه من مناجح أمره، أفضل ما انتحاه بفكره. خار الله له فيما  
 تولاه، وتطوَّقه، وبلغه في كلِّ حالٍ أمله وحققه، وعرفه من يُمن ما باشر  
 تدبيره الخير والخيرة والبركات الحاضرة والمنتظرة، وجعل المناجح إليه  
 أرسالاً، لا تملُّ تَوَالِيًا وإِتِّصَالًا. أسعده الله أفضل سعادة قُسيَمَتْ لوالي عمل،  
 وأسهم له أخص بركة أسهمت لمُسَامِي أمل، أحضر الله السداد عَزَمَهُ،  
 والرشاد هَمَّةً، وكنفه العَصَمَةَ وأيده، وقرَّبه بالتوفيق ولا أفردَه. هنا الله  
 تعالى الموهبة التي ساقها إليه، ومدَّ رِوَاقَهَا عليه؛ إذ كانت من عقائل  
 المواهب، مُسْفِرَةٌ عن خصائص المراتب، وحلَّت فيه محل الاستحباب لا  
 الإيجاب، والاستحقاق دون الاتفاق. هنا الله نعمته الفضل الذي الولاية أصغر  
 آلتها، والرياسة بعض صفاتها.

ولهم في التهنية بذكر الخَلْع والأجبية: أهنئ سيدي مزيد الرِّفْعَةِ، و جديد  
 الخَلْعِ، التي تَخْلُعُ قلوبَ المنازعين، واللواء الذي يلوي أيدي المنابذين،  
 والخط الذي لو امتطاه إلى الأفلاك لحارَّها، أو ساقى به الجوزاء لجارَّها.  
 بلغني خبر ما تطوعت به سماءُ المجد، وجادت به أنواءُ الملك، قَصُصٌ من  
 الخلع أسناها، ومن المراكب أبهاها، ومن السيوف أمضاها، ومن الأفراس  
 أجرَّها، ومن الإقطاعات أنماها. لبس خلعيته متجللاً منها ملابس العز،  
 وامتطى فرسه فارعاً به زُرُوءَ المجد، وتقلد سيفه حاصداً بحدِّ طلى أعدائه  
 وعامطي نعمائه، واعتنق طوقه متطوِّقاً عَزَّ الأبد، واعتضد بالسواربن  
 الموديين بقوة الساعد والعَضُد، وسأس أوليائه ولواء العزِّ عليه خافق، وهو  
 بلسان الظفر والنَّصْر ناطق. قد لبس خلعيته التي تعمد بها رفعته، وامتطى  
 حُمَّلاته الذي واصل به إحسانه، تمنطق بحُسامه الذي ظاهر أبواب إنعامه،  
 وتختم بخاتميه، اللذين بسطاً مِنْ يديه، ووقع من دَوَاتِهِ، التي أَعَلَّتْ من  
 درجاته قد زَرَّرت عليه سماءُ الشرف عَرَى الخلعة، التي تتراءى صفحات  
 العزِّ على أعطافها، وتمتري مزايا المجد من أطرافها، وركب الحُمَّلان الذي  
 نتناول قاصيتي المنى من ناصيته، والمركب الذي تُسْتَحْدَى حُلَى الثريا  
 لجليته، والسيف والمنطقة الناطقان عن نهاية الإكرام، الناظران قلائد  
 الإعظام. خلع تخلق قلوب الأعداء من مَقَارُّها، وتعمر نفوس الأولياء  
 بمسارِّها، وسيف كالقضاء مضاءً وحدَّأً، ولواء يَخْفِقُ قلوب المنازعين إذا  
 خفق، وحمالات تصدع منكب الدَّهْرِ إِذَا انطلق.

ولهم في التهنية بالقدوم من سفر: أهنئ سيدي وتَفْسيبي بما يَسَّرَه الله من  
 قدومه سالماً، وأشكره على ذلك شكراً قائماً؛ عَيْبَةُ المكارم مقرونه بغيبتك،  
 وأوْبَةُ النعم موصولة بأوْبَتِكَ، فوصل الله تعالى قدومك من الكرامة،  
 بأضعاف ما قَرَّنَ به مسيرك من السلامة. وهناك أيامك، وبلغك محابك، ما  
 زلت بالنية مسافراً، وباتصال الذكر والفكر لك ملاقياً، إلى أن جمع الله

سَمَلِ سروري بأوبتك، وسكن نافر قلبي بعودتك، فأسال الله أن يسعدك  
بمقدمك سعادةً تكون فيها بالإقبال، مُقابلاً، وبالأماني ظافراً، ولا أوحش منه  
أوطانَ الفضل، ورباع المجد، بمتّه وكرمه.

من شعر الشعبي  
قال الهيثم بن عدي: أنشدني مجالد بن سعيد شعراً أعجيني، فقلت: من أنشدك؟ قال:  
كنا يوماً عند الشعبي فتناشدنا الشعر، فلما فرغنا قال: أيكم يحسن أن يقول مثل هذا،  
وأنشدنا: الطويل:

خليلي، مهلاً طالماً لم أقلْ	وما سرفاً مِ الآن قلت ولا
مهلاً	جهلاً
وإن صبا ابن الأربعين	فكيف مع اللاتي مثلتُ بها
سفاههُ	مثلاً؟
يقول لي المُفتي وهنَّ	بمكة يسحبن المهدبة
عشيهُ	الشحلا

تق الله لا تنظر إيهنَّ يا	وما خلّني بالحجّ ملتمساً
فتي	وصلاً
فوالله لا أنسى وإن شطتِ	عرانيتهنَّ الشّم والأعين
النوى	التجلاً
ولا المسك في أعرافهن ولا	جواعل في أوساطها قصباً
البرى	خدلاً
خليلي لا والله ما قلت	لأول سبيات طلعن ولا أهلاً
مرحباً	
خليلي إن الشيب داء	فما أحسن المرعى وما أقبح
كرهته	المحلاً!

قال مجالد: فكتبت الشعر، ثم قلنا للشعبي: من يقوله؟ فسكت، فحسبنا أنه  
قائله.

باب الرثاء

قال الشترقي بن القطامي: لما مات عمرو بن حُمّة الدؤسي - وكان أحد من تتحاكم  
العرب إليه - مرّ بقبره ثلاثة نفر من أهل المدينة قادمين من الشام؛ الهدم بن امرئ  
القيس بن الحارث بن زيد، وهو أبو كلثوم بن الهدم الذي نزل عليه النبي، صلى الله  
عليه وسلم، وعتيق بن قيس بن هيشة بن أمية بن معاوية. وحاطب بن قيس بن هيشة  
ابن معاوية. وحاطب بن هيشة الذي كانت بسببه حرب حاطب، فعقروا رواحلهم على  
قبره، وقام الهدم فقال: الطويل:

لقد صمت الأثرء منك مُرراً	عظيم رماد النار مُشترَك
	القدر
إذا قلت لم تترك مقالاً لقائل	وإن صلت كنت الليث تحمي
	جمي الأجر
حليماً إذا ما الجلم كان حزامه	وقوفاً إذا كان الوقوف على
	الجمر
ليبيك من كانت حياثك عره	وأصبح لماً مُت يُغضي على
	الصغر
سقى الأرض ذات الطول والعرض	أحم الذرى واهي العرى دائم

مُتَّحِمٌ

وما بي سقيا الأرض لكن ثربة

وقام عتيك بن قيس فقال: الطويل:

برعم العلاء والجود والمجد  
والندى

لقد غال صرف الدهر منك  
مرراً

يصم العقاة الطارقين  
فناؤه

ويسرو دجا الهيجا مضاء  
عزيمة

ويستهزم الجيش العرمم  
باسمه

فإما نصبنا الحادثا بنكبة

فلا تبعدن إن الحنوف  
موارد

وقام حاطب بن قيس فقال: الطويل:

سلام على القبر الذي ضم  
أعظما

سلام عليه كلما در شارق

فيا قبر عمرو جاد أرضاً  
تعطفت

تضمنت جسماً طاب حياً  
وميتاً

فلو تطقت أرض لقال تراؤها

إلى مرمس قد حل بين  
ترابه

فلا يبعدنك الله حياً وميتاً

لعمري الذي حطت إليه على  
الوتا

لقد هدم العلياء موثك جانباً

من كلام الأعراب

القطر

أصلك في أحشائها ملحد  
القبر

طواك الردى يا خير حاف  
وناعل

تهوضاً بأعباء الأمور الأثقل

كما صم أم الرأس شغب  
القبايل

كما كشف الصبح أطراق  
الغياطل

وإن كان جزاراً كثير  
الصواهل

رمثك بها إحدى الدواهي  
الضابل

وكل فتى من صرفها غير  
وائل

تخوم المعالي نحوه  
فئسلم

وما امتد قطع من دجى الليل  
مظلم

عليك ملث دائم القطر  
مزرم

فأنت بما ضمنت في الأرض  
معلم

إلى قبر عمرو الأرد حل  
التكرم

وأجاره بدر وأصبط ضيغم

فقد كنت نور الخطب  
والخطب مظلم

حدابير عوج نيتها متهمم

وكان قديماً ركنها لا يهدم

قال الأصمعي: سمعت أعرابياً يذكر قومه فقال: كانوا إذا اصطفوا تحت القَتَام، مطرت بينهم السَّهَام، بشؤبوب الحِمَام، وإذا تصافحوا بالسيوف، فغرت أفواهاها الحُتوف، فربَّ قِرْن عارم قد أحسنوا أدبه، وخرَّب عبوس قد أضحكيتها أسنتهم، وخطب مُشَمِّز دَللوا مناكبه، ويوم عَمَّاس قد كشفوا ظلَّمته بالصبر حتى تتجلى. كانوا البحر لا يُنكش غماره، ولا يُتَهَّته تياره.

قال العتبي: سئل أعرابي عن حاله عند موته فقال: أجدني مأخوذاً بالثقل، محجوجاً بالمهلة، أفارق ما جمعت، وأقدم على ما ضيَّعت، فيا حياتي من كريم قدَّم المعذرة، وأطال النظرة، إن لم يتداركني بالمغفرة، ثم قضى.

وقال بعض الرواة: كان يقال: الإخوان ثلاثة؛ أخ يخلص لك وُدّه، ويبلغ لك في مهمك جُهدَه، وأخ دُو نية يقتصر بك على حسن نيته، دون رِفده ومعونته، وأخ يجاملك بلسانه، ويشغل عنك بشأنه، ويوسعك من كذبه بإيمانه.

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: وقفت علينا أعرابية فقالت: يا قوم، تعثر بنا الدهر، إذ قل منا الشكر، وفارقنا الغنى، وحالفنا الفقر، فرحم الله امرأ فهم بعقل، وأعطى من قَصْل، وواسى من كَفَاف، وأعان على عَقَاف.

سائل في مسجد الكوفة

قال أبو بكر الحنفي: حضرتُ مسجد الجماعة بالكوفة، وقام سائلٌ يتكلم عند صلاة الظهر ثم عند العصر والمغرب، فلم يُعط شيئاً، فقال: اللهم إنك بحاجتي عالم غير معلم، واسع غير مكلف، وأنت الذي لا يرزؤك نائل، ولا يُخفيك سائل، ولا يبلغ مدْحَتِكَ قائل، أنت كما قال المُتُّون، وفوق ما يقولون، أسبأ لك صبراً جميلاً، وفرجاً قريباً، وتصرأ بالهدى، وقرة عين فيما تحب وترضى، ثم ولى لينصرف، فابتدره الناسُ يعطونه، فلم يأخذ شيئاً، ثم مضى وهو يقول: الكامل:

ما اعتاض باذل وجهه	عوضاً، ولو نال الغنى
بسؤاله	بسؤال
وإذا السؤال مع النوال	رجح السؤال وخف كلُّ
ورنته	توال

من إنشاء بديع الزمان

ومن مقامات الإسكندري إنشاء البديع: حدثنا عيسى بن هشام قال: كنت في بلاد الأهواز، وفُصاراي لفظة شرود أصيدها، أو كلمة بليغة أستفيدها؛ فأداني السير إلى رُفعة من البلاد، فسيحة، وإذا هناك قوم مجتمعون على رجل يستمعون إليه وهو يخبط الأرض بعضاً على إيقاع لا يختلف، وعلمت أن مع الإيقاع لحناً، ولم أبعد لأنال من السماع حظاً، أو أسمع من البليغ لفظاً، فما زلت بالنظارة، أزحم هذا وأدفع ذلك، حتى وصلت إلى الرجل، وصرفت الطرف منه إلى حُرقة كالقرب، مكفوف في شملة من صوف، يدور كالخُروف، مُتبرئساً بأطول منه، معتيداً على عصا فيها جلاجل، يصرب الأرض بها على إيقاع غنج، ولفظ هزج، من صدرٍ حرج، وهو يقول:

يا قوم قد أثقل ديني	وطالبتني طلتي بالمهر
ظَهري	ساكن فقر وحليف فقر
أصحت من بعد غنى ووفر	يعينني على صروف الدهر
يا قوم هل بينكم من حُر	وانكشفت عني ذيول
يا قوم قد عيل بقفري	

صَبْرِي  
وَقَصَّ ذَا الدَّهْرُ بِأَيْدِي البَثْرِ  
أَوْيَ إِلَى بَيْتِ كَفِيدِ الشُّبْرِ  
لَوْ خَتَمَ اللهُ بِخَيْرِ أَمْرِي  
هَلْ مِنْ فَتَى فَيْكُمْ كَرِيمِ  
التَّجْرِ  
السَّيْرِ  
مَا كَانَ لِي مِنْ فَصَّةٍ وَتَبْرِ  
خَامِلَ قَدَرٍ وَصَغِيرَ قَدْرِ  
أَعْقَبَنِي مِنْ عُسْرَةِ بَيْسْرِ  
مَحْتَسِبُ فِي عَظِيمِ الأَجْرِ؟

قال عيسى بن هشام: فرق له والله قلبي، واغرورقت عيني، وما لبثت أن أعطيته ديناراً كان معي، فأنشأ يقول: الرجز:

يَا حُسْبَتَهَا فاقِعَةٌ صَفْرَاءُ  
يَكَادُ أَنْ يَقْطُرَ مِنْهَا المَاءُ  
تَفْسُ فَتَى يَمْلِكُهُ السَّخَاءُ  
يَا ذَا الَّذِي يَعْنِيهِ ذَا التَّنَاءُ  
فَامُضْ عَلَى اللهِ لَكَ الجَزَاءُ  
مَعشوقة منقوشة قَوْرَاءُ  
قَدْ أَثْمَرَتْهَا هِمَّةُ عَلِيَاءُ  
يَصْرِفُهُ فِيهِ كَمَا يَشَاءُ  
مَا يَتَقَصَّى قَدْرَكَ الإِطْرَاءُ

ورحم الله من شدّها في قَرَنٍ بِمَثَلِهَا، وَأَنَسَهَا بِأَخْتِهَا، فَنَالَهُ النَّاسُ مَا نَالُوهُ، ثُمَّ فَارَقَهُمْ وَتَبِعْتُهُ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ مَتَعَامٌ لِسُرْعَةِ مَا عَرَفَ الدِّينَارَ، فَلَمَّا نَظَمْتَنَا حَلَوَةَ مَدَدْتُ يَمْنَايَ إِلَى يَسْرِي عَصْدِيهِ، وَقَلْتُ: وَاللَّهِ لَتَرِيَنِي سِرِّكَ، أَوْ لَأَكْشِفَنَّ سِرِّكَ؛ فَكَشَفَ عَن تَوَاطُئِي لَوْزًا، وَحَدَّرَتْ لثَامَهُ؛ فَإِذَا هُوَ وَاللَّهِ شَيْخَنَا أَبُو الفَتْحِ الإسْكَندَرِي، فَقَلْتُ: أَنْتَ أَبُو الفَتْحِ؟ فَقَالَ: لَا: المَجْتَنِّثُ

أَنَا أَبُو قَلَمُونٍ  
أَحْتَرُّ مِنَ الكَسْبِ دُونًا  
رَجَّ الزَّمَانَ بِحُمُقٍ  
لَا تُخَدَعَنَّ بِعَقْلٍ  
فِي كُلِّ لَوْنٍ أَكُونُ  
فَإِنَّ دَهْرَكَ دُونُ  
إِنَّ الزَّمَانَ رَبُّونُ  
مَا العَقْلُ إِلاَّ الجَنُونُ

من شعر كشاجم  
وقال أبو الفتح كشاجم: الكامل:

مَا زَالَ حُرُّ الشُّوقِ يَغْلِبُ  
صَبْرَهَا  
وَجَرَى مِنَ الكَحْلِ السَّحِيقِ  
بِخَدِّهَا  
فَكَأَنَّ مَجْرَى الدَّمْعِ جَلِيَّةُ  
فَصَّةُ  
حَتَّى تَحَدَّرَ دَمْعُهَا المَتَعَلِّقُ  
حَاطٌ تُؤَثِّرُهُ الدَّمُوعُ  
السُّبُقُ  
فِي بَعْضِهِ دَهَبٌ وَبَعْضُ  
مُحَرَّقُ

وقال: السريع:

مَا لِدَّةُ أَكْمَلُ فِي طَيِّبِهَا  
كَأَنَّمَا تَأْتِيرُهَا لَمْعَةُ  
خَلَسْتُهَا بِالكَرِّهِ مِنْ شَادِنٍ  
وَمُسْتَهَجِنٍ مَدْحِي لَهُ إِنْ

وقال: الطويل:

لَهُ عُقْدُ الإِخْلَاصِ، وَالحُرُّ

تَأَكَّدْتُ  
وَبَابِي الَّذِي فِي الْقَلْبِ إِلَّا  
تَبَيَّنَا  
وقال: الكامل:

وإذا افتخرت بأعظم  
مقبورة  
فأقِمَّ لِنَفْسِكَ فِي انْتِسَابِكَ  
شَاهِدًا  
وقال: البسيط:

يا مُسَيِّدِي العُزْفِ إِسْرَارًا  
وإعلانًا  
أَقْلَعِ سِحَابَكَ قَدْ عَرَّفْتَنِي  
نَعْمًا  
هذا مولد من قول أبي نواس: الكامل:  
لا تُسَيِّدِنِ إِلَيَّ عَارِقَةً  
البحثري: البسيط:

أَلَحَّ جُودًا وَلَمْ تَصْرُرْ  
سِحَابِيَهُ  
مواهبٌ ما تَجَسَّمْنَا السُّؤَالَ  
لَهَا  
وقد أُخِذَ عَلَيَّ ذِي الرِّمَّةِ قَوْلُهُ: الطويل:  
أَلَا يَا اسْلَمِي يَا دَارَ مَيِّ عَلَيَّ  
البلبي  
قالوا: وأحسن منه قول طرفة: الكامل:  
فَسَتَقَى دِيَارَكَ، عَيْرَ  
مُفْسِدِيهَا،  
وقد تحرز ذو الرمة مما تؤول عليه بالسلامة في أول البيت.

أَيَا تَشْوَانٍ مِنْ خَمْرٍ بِفِيهِ  
أرى بك ما أراه بذي  
انتشاء  
تَوُرَّدُ وَجَنَّةٍ وَفَتَوُرُّ لَحْظِي  
وقال: الطويل:

وما زال يبري جملة الجسم  
حُبَّهَا  
وقد دُبْتُ حتى صِرْتُ إِنْ أَنَا  
زُرْتُهَا  
الرجوع إلى الرئيس بعد تجربة غيره  
كتب ابن مكرم إلى بعض الرؤساء: تَبَّتْ بِي غَرَّةُ الجِدَاثَةِ، فَرَدَّتْنِي إِلَيْكَ  
التجربة، وقادتنني الضرورة، ثِقَّةً بِإِسْرَاعِكَ إِلَيَّ وَإِنْ أَبْطَأْتُ عَنْكَ، وَقَبُولِكَ  
العذر، وَإِنْ قَصُرْتُ عَنْ وَاجِبِكَ، وَإِنْ كَانَتْ ذُنُوبِي سَدَّتْ عَلَيَّ مَسَالِكَ

يُمَدِّحُ  
وَكُلُّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ  
يَرَشِّحُ  
فالناس بين مكذب  
ومُصَدِّقٍ  
بحدِيثِ مَجْدٍ للقديم  
محققٍ

وَمُنْبَعِ البِرِّ وَالإِحْسَانِ  
إِحْسَانًا  
مَا أَدْمَنَ العَيْثُ إِلَّا كَانَ  
طَوْقَانًا  
حتى أقومَ بِشُكْرٍ ما سَلَفَا  
وربما صرَّ في إلحاحه  
المطرُ  
إن العمامَ قليبٌ ليس  
يُخْتَفَرُ  
ولا زال مُنْهَلًا بَجَرَعَائِكَ  
القَطْرُ  
صوبُ الربيعِ وديمَةُ تَهْمِي

مَتَى تَصْخُو وَرَيْقُكَ  
حَنْدَرِيْسُ؟  
أَلَحَّ عَلَيْهِ بِالْكَاسِ الْجَلِيْسُ  
ثُمَّرْضُهُ وَأَعْطَافُ تَمِيْسُ  
وينقصه حتى تقصت عن  
النقص  
أَمِنْتُ عَلَيْهَا أَنْ يَرَى أَهْلُهَا  
شَخْصِي

الصفح عني، فراجع فيَّ مجدك وسؤددك، وإنِّي لا أعرف موقفاً أدل من موقفي، لولا أنَّ المخاطبة فيه لك، ولا خطة أدنى من خُطتي، لولا أنها في طلب رضاك.  
وهذا المعنى الذي ذهب إليه من الرجوع إلى الرئيس بعد تجربة غيره قد أكثر الناس منه قديماً وحديثاً وسأفيض في طرفٍ من ذلك:

وأنشد أبو عبيدة لزياد بن منقذ الحنظلي، وهو أخو المرار العدوي، نسب إلى أمة العدوية، وهي فُكَيْهَة بنت تميم بن الدَّوْل بن جَبَلَة بن عدي بن عبد مناة بن أد بن طابخة؛ فولدت لمالك بن حنظلة عدياً وبربوعاً؛ فهؤلاء من ولده يقال لهم بنو، العدوية، وكان زيادُ نزل بصنعاء فاجتواها ومنزله بنجد، فقال في ذلك قصيدة يقول فيها وذكر قومه: البسيط:

مُحَدَّمُونَ ثِقَالٌ فِي      وفي الرحال إذا صاحبْتَهُمْ  
مجالسهم      حَدَمٌ

لم ألقَ بعدهم حياً فأخبرهم      إلا يزيدهم حباً إليَّ هم

وأراه أول من استثار هذا المعنى.  
وكان ابنُ أبي عَرادة السعدي مع سلم بن زياد بخراسان وكان له مكرماً فتركه وصحب غيره فلم يحمده أمره، فرجع إليه، فقال: الطويل:

عتبتُ على سلمٍ فلما      وجرَّبتُ أقواماً بكيثٍ على  
فقدته      سلمٍ

رجعتُ إليه بعد تجريبٍ غيره      فكان كَبْرَاءً بعد طولٍ من  
السقمِ

وقال مسلم بن الوليد: الوافر:  
حياتك يا ابنَ سعدان بن  
يحيى

جلبت لك الثناء فجاء      وتفسُ الشكرِ مطلقه  
عَفُوا      العَقَالِ

وترجعني إليك وإن تأت بيداري عنك  
تجربة الرجال

وأنشد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد للبحثري: الطويل:

أخ لك عاداه الزمان      مذممةً فيما لديه المطالبُ  
فأصبحت

متى ما تذوقه التجاربُ      من الناس تردُّدهُ إليك  
صاحباً      التجاربُ

وأنشد: الطويل:  
حياةُ أبي العباس رين،      لكل امرئ قاسى الأمور

لقومه  
ونعتبُ أحياناً عليه ولو  
مَصَى

وَجَرَّبَا  
لَكُنَّا عَلَى الْبَاقِي مِنَ النَّاسِ  
أَعْتَبَا

قال الصولي: جرى ذكُرُ المكتفي بحضرة الراضي فأطربته وأكثرُ الثناء عليه، فقال لي: يا صولي، كنت أنشدتني لجرير: الطويل:

أَسْتَلِيكَ عَنْ زَيْدٍ لَتَسْلَى، وَقَدْ  
بَعَيْنِكَ مِنْ زَيْدٍ قَدَّى لَيْسَ  
أَرَى  
فقلت: يا أمير المؤمنين، مَنْ شَكَرَ الْقَلِيلَ كَانَ لِلْكَثِيرِ أَشَدَّ شُكْرًا، وَأَعْظَمَ ذِكْرًا، فَأَيْنَ أَنَا  
لَكَ مِنَ الْمَكْتَفِيِّ؟ فَأَنْشَدْتَهُ لِلطَّائِي: الْكَامِلُ:

كَمْ مِنْ وَسَاعٍ الْجُودِ عِنْدِي  
لَمَّا جَرَى وَجَرِيَتْ كَانَ  
وَالْتَدَى  
قَطُوفَا

أَحْسَنْتُمَا صَفْدِي، وَلَكِنْ كُنْتُ  
مِثْلَ الرَّبِيعِ حَيًّا وَكَانَ  
لِي  
خَرِيفَا

وِكَلَاكُمَا اقْتَعَدَ الْعَلَا  
فِرْكُبَّتَهَا  
إِنْ غَاضَ مَاءُ الزَّنِ فِضْتِ، وَإِنْ  
كَبِدُ الزَّمَانِ عَلَيَّ كُنْتُ  
قَسَتْ  
رَوْوُفَا

وكان المكتفي أول من نادمه الصولي، واختلط به. ولم يَلِ الخلافة أحد اسمه عليّ إلا عليّ بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنه، وعليّ بن المعتضد المكتفي بالله، وكان سبب اتصاله به وانقطاعه إليه أن رجلاً يعرف بمحمد بن أحمد الماوردي نزع إلى المكتفي بالرّفة، وكان لعبّ الناس بالشطرنج، فلما تدم عليه بغداد وهو خليفة قال: يا أمير المؤمنين، أنا أعلم الناس بهذه الصناعة، فأقطعني ما كان للرازي الشطرنجي؛ فغاض ذلك المكتفي، وندب له الصولي فلم يرّ معه الماوردي شيئاً. فقال له المكتفي: صار ماء وردك بؤلاً، قال الصولي: فأقبل المكتفي عليّ ورثني في الجلساء، فحجبت يوماً عنه، واتصل بي أن خصمي شمّت بي، فكتبت قصيدة للمكتفي أقول فيها: الكامل:

قد ساء ظنُّ الناس بي  
وتنكروا

إن كان غلبه يُقَرَّبُ أمره  
دونني فإني عن قريب أُعَلَبُ

فضحك، وأمر لي بمائتي دينار، واندرجْتُ في خدمته.

ما قيل في بيعة يزيد بن معاوية

اجتمعت وفودُ العرب عند معاوية رحمه الله تعالى، وكان إذا أراد أن يفعل شيئاً ألقى منه دَرءاً إلى الناس، فإذا امتنعوا كفّ، وإن رَضُوا أمضى، فعرض ببيعة يزيد، فقامت خطباء معدّ فشقّقوا الكلام، وأطنبوا في الخطاب، فوثب شاب من عَسَّان قابضاً على قائم سيفه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ الْحَيْفَ فِي حَكْمِ السَّيْفِ، وَبَعْدَ النَّسِيمِ الْهَيْفُ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ عَجَزُوا عَنِ الصِّيَالِ، فَعَوَّلُوا عَلَى الْمَقَالِ، وَنَحْنُ الْقَاتِلُونَ إِذَا ضَلُّنَا، وَالْمَعْجِبُونَ إِذَا قَلْنَا، فَمَنْ مَالٌ عَنِ الْقَصْدِ أَقْمَنَاهُ، وَمَنْ قَالَ بَغَيْرِ الْحَقِّ وَقَمَّتَاهُ، فَلْيَنْظُرْ نَاطِرٌ إِلَى مَوْطِئِ قَدَمِهِ، قَبْلَ أَنْ تَدْحَضَ فِيهِ هَوِيَّ الْحَجَرِ مِنْ رَأْسِ التِّيْقِ؛ فَتَفْرُقَ النَّاسَ عَنْ قَوْلِهِ، وَتَسُؤُوا مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْخُطْبِ.

الإقدام

وقال المهلب يوماً لجلسائه: أراكم تعفونني في الإقدام، قالوا له: إي والله، إنك لتسقوط بنفسك في المهالك، قال: إليكم عني! فوالله لولا أن أتى الموت مسترسلاً،

لأتأني مستعجلاً؛ إني لستُ آتي الموتَ من حُبِّه، إنما آتِيه من بُغْضِهِ، ثم تمثّل بقول  
الْحُصَيْنِ بْنِ الْحَمَامِ الْمُزِّي: الطويل:

لنفسِي حياةً مثلَ أن أتقدِّمًا

تأخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الحَيَاةَ فلم  
أجدُ

ومن هذا أخذ أبو الطيب المتنبّي قوله: الطويل:

حريصاً عليها مُسْتَهَاماً بها  
صَبّاً

أرى كلنا يَهْوِي الحَيَاةَ  
لنفسِهِ

وَحُبُّ الشَّجَاعِ النَّفْسَ أوردَهُ  
الْحَرَبَا

فَحُبُّ الجَبَانِ النَّفْسَ أوردَهُ  
النُّفَى

وقال أبو دُلف: البسيط:

والخيلُ تعرفُ آثارِي وأَيَّامِي

الْحَرْبُ تَصْحَكُ عن كَرِّي  
وإقْدَامِي

وهِمَّتِي مِقَّةُ التَّفْضِيلِ  
لِلْهَامِ

سَتَيْفِي مُدَامِي، وَرَبِّحَانِي  
مَثَقَفْتِي،

أَمْصَى وَأَشْجَعُ مَنِي يَوْمِ  
إقْدَامِي

وقد تجرَّد لي بالحسن  
مِنْفِرْدَا

جَسْمِي فأصبح جَسْمِي رَبْعَ  
أَسْقَامِ

سَلْتُ لَوَاحِظَهُ سَيْفَ السَّقَامِ  
عَلَى

من أخبار أبي دلف وشعره  
وكان أبو دلف شاعراً مجيداً، وجواداً كريماً جامعاً لآلات الأدب والظرف، وله شعرٌ يد  
في كل فن، وهو القائل: الوافر:

محل الروح من جَسَدِ الجَبَانِ  
لَخِفْتُ عَلَيْكَ بِإِدْرَةِ الزَّمَانِ  
وهَاب كُماثُهَا حَرَّ الطَّعَانِ

أحبُّكَ يا جَتَّان! فأنتِ مَنِي  
ولو أني أقول: مكان رُوحِي  
لإقْدَامِي إذ ما الخيلُ جَالَتْ

وكان يتعشق جارية ببغداد فإذا شخَصَ إلى الحضرة زارها، فركب في بعض قَدَمَاتِهِ  
إليها، فلما صار بالجسر مَشَى على طرف طيلسان بعض المارين، فخرقه، فأخذ بعنانه،  
وقال: يا أبا دلف، ليست هذه كرخك، هذه مدينة السلام، الذئب والشاة بها في مَرَبَعٍ  
واحد! فثنى عنانه متوجهاً إلى الكرخ، وكتب إلى الجارية: الخفيف:

وهومٌ أَتَتْ عَلَيَّ ثِقَالُ  
قوم حتى تنالهُ الأَنْدَالُ

قَطَعَتْ عن لِقائِكَ الأشْغَالُ  
في بلاد يُهَان فيها عَزِيرُ ال

م ولا للكُماةِ فيها مجالُ

حيث لا مدْفَعُ بسيفِ عن  
الصَّيِّ

ن إذا أمكن الرحيلُ محالُ  
خ أقمتُم وحا ن مِثْا ارتحالُ

ومقام العزير في بلد الهو  
فعليك السلام يا طَبَّيَّةَ الكَرِّ

ودخل أبو دلف على المأمون بعد الرضا عنه، فسأله عن عبد الله بن طاهر، فقال:  
خَلْفَتُهُ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمِينِ عَيْبِ، نَصِيحِ جَيْبِ، أَسَدِ عَانِيَا، قائماً على بَرائتِهِ، يسعد به  
ولبُّكَ، وَيَسْقَى به عِدوك، رَحَبَ الفِئَاءِ لِأهل طاعتك، ذا بأسٍ شديدٍ لمن زاغَ عن قَصْدِ  
مَحَبَّتِكَ، قد فَهَمَهُ الحَرَمُ، وأيقظَهُ العَرَمُ، فقام في نحر الأمور على ساق التشمير،  
يُبرمها بأيدِهِ وكَيْدِهِ، ويفلها بحدِّهِ وجَدِّهِ؛ وما أشبهه في الحرب إلا بقول العباس بن  
مرداس: الوافر:

أَحْتَفِي كان فيها أُم سِوَاهَا

أَكْرُّ على الكَتِيبَةِ لا أبالي

فقال قائل: ما أفصحه على جَبَلَيْتِهِ! فقال المأمون: وإنَّ بالجبل قوماً  
أمجاداً، كراماً أنجاداً، وإنهم ليوفونَّ السيفَ حظه يوم النَّزال، والكلام حقه  
يوم المقال، وإن أبا دلف منهم.

من إنشاء الميكالي

فصل لأبي الفضل الميكالي من كتاب تعزية عن أبي العباس بن الإمام أبي  
الطيب:

لئن كانت الرزية بمصيبة مؤلمة، وطُرقُ العزاء والسَّلوة مبهمة، لقد حلت  
بساحة من لا تُنتقضُ بأمثالها مرَّائره، ولا تُضعفُ عن احتمالها بصائره، بل  
يتلقاها بصدورٍ فسيح يحمي أن يفتح الحزنُ بابه، وصبرٍ مشيح يحمي أن يُخبطَ  
الجزعُ أجره وثوابه، ولم لا وأدبُ الدين من عنده تُلمس، وأحكامُ الشرع  
من بتائه ولسانه تستفاد وتُفتبس؟ والعيونُ ترمقه في هذه الحال لتجري  
على سننه، وتأخذ بأدابه وسننه، فإن تعرت القلوب فيحسُن تماسكه عزاؤها،  
وإن حسنت الأفعال فإلى حميد أفعاله ومذاهبه اعتزاؤها.

وله من تعزية إلى أبي عمرو البحتري: قدس الله رُوحه، وسقى ضريحه؛  
فلقد عاش نبيه الذكر، جليل القدر، عبق الثناء والتشعر، يتجمل به أهل بلده،  
ويتباهي بمكانه ذوو مودته، ويفتخر الأثر وحاملوه بتراخي بقائه ومُدته، حتى  
إذا تسنم ذرّوة الفضائل والمناقب، وظهرت محاسنه كالنجوم الثواقب،  
اختطفته يا المقدر، ومجى أثره بين الآثار، فالفضل خاشع الطرف لفقده،  
والكرم خالي الربيع من بعده، والحديث يندبُ حافظه ودارسه، وحسن العهد  
بيكي كافله وحارسه.

وله: فأما الشكرُ الذي أعارني رداءه، وقلدني طوقه وسناؤه؛ فهيات أن  
ينتسب إلا إلى عادات فضله وإفضاله، ولا يسير إلا تحت رايات عرفه وتوّاله،  
وهو ثوب لا يحلّ إلا بذكره طرازه، واسم له حقيقته ولسواء مجازه، ولو أنه  
حين ملك رقي بأيديه، وأعجز وسعي عن حقوق مكارمه ومساغبه، خلى لي  
مذهب الشكر وميدانه، ولم يجاذبني زمامه وعنانه، لتعلقت عن بلوغ بعض  
الواجب بعروة طمع، ونهضت فيه ولو على وهن وظلّع، ولكنه يابئ إلا أن  
يستولي على أمد الفضائل، ويتيسم ذرّاً الغوارب منها والكواهل، فلا يدع في  
المجد غاية إلا يسبق إليها فارطاً، وبخلف من سواه عنها حسيراً ساقطاً،  
لتكون المعالي بأسرها مجموعة في ملكه، منظومة في سبلكه، خالصة له  
من دعوى القسيم وبشركه.

وله فصل من كتاب إلى أبي سعيد بن خلف الهمداني: فأما التَّحَقُّ التي  
شَفَعها بكتابه فقد وصلت، فكانت صرّة لزهرة الربيع، موفية بحسن الخط  
على الوشّي الصنيع، وليس يهتدي لمثل هذه اللطائف في مبرة الإخوان، إلا  
من يُعدُّ من أفراد الأقران، ولا يرصّي من نفسه في إقامة شعائر البرّ دون  
القران، والله يمتعه بما منحه من خصائص هي في أدان الزمان شنوف،  
وفي حيدِه عقد مرصوف.

الخريمي يعاتب الوليد بن أبان

وقاد أبو يعقوب الخريمي يعاتب الوليد بن أبان: الطويل:

أتعجبُ مني إن صبرت على  
الأذى

وكنت امرأً ذا إزبة متجملاً؟

فإني بحمدِ الله لا رأيَ عاجزٍ  
مفصلاً

ولكن تدبّرتُ الأمور؛ فلم  
أجد  
وأقسم لولا سالفُ الودِّ  
بيننا  
وأيامك الغرُّ اللواتي تقدّمت  
رحلتُ قلوبَ الهجرِ ثم  
اقتعدتها  
وأكثمتُ نفسي والكرامة  
حظها  
وعارضت أطراف الصِّبَا أبتغي  
أخاً  
أخاً كأبي عمرو وأتس بمثله  
جزى الله عثمانَ الحُرَيْمِيَّ خيرَ  
ما  
أخاً كان إن أقبلتُ بالودِّ  
زادني  
أخاً لم يخني في الحياة ولم  
أبت  
إذا حاولوه بالسعاية حاولوا  
يحكمني في ماله ولسانه

سوى الحلم والإغضاء خيراً  
وأفضلاً  
وعهدُ أبت أركانه أن تزبلاً  
وأوليتها مُنعماً مُتطوّلاً  
إلى البعد ما ألفت في الأرض  
معملاً  
ولم ترني لولا الهوى متذلاً  
يُعين إذا ما الهَمُّ بالمرء  
أغصلاً  
إذا الحرُّ بالمجد ارتدى  
وتسزبلاً  
جزى صاحباً جزل المواهب  
مفضلاً  
صفاً وإن أدبرتُ حنّ وأقبلا  
يخوفني الأعداء منه التنقلاً  
به هصبة تأبى بأن تتخلّلاً  
ويركبُ دوني الزاعبي  
المؤللاً

كفى جفوة الإخوانِ طولَ  
حياته  
وبات حميداً لم يكدر  
صنيعه  
وكنت أخاً لو دام عهدك  
وأصلاً  
فغيرك الواشون حتى  
كانما

وأورثت ممّا كان أعطى  
وأجزلاً  
ولم أقله طولَ الحياة وما  
قللاً  
تصوراً إذا ما الشُّرُّ حَبَّ  
وهزولاً  
تراني شجاعاً بين عينيك  
مقبلاً

أبو يعقوب الحُرَيْمِي

وأبو يعقوب هذا إسحاق بن حسان، قال المبرد: كان أبو يعقوب جميل الشعر، مقبولاً عند الكتاب، وله كلام قوي، ومذهب متوسّط، وكان يرجع إلى نسب كريم في الصُّعد، وكان له ولا في غطفان، وكان اتصاله بمولاه أبي عثمان بن حُرَيْم المري الذي يقال له حُرَيْم الناعم، وكان أبو عثمان هذا قائداً جليلاً، وسيداً كريماً. وسئل حُرَيْم عن لذة الدنيا، فقال: الأمنُ فإنه لا عيشَ لخائف، والعافيةُ فإنه لا عيشَ لسقيم، والغنى فإنه لا عيشَ لفقير. وقيل له: ما بلغ من نعمتك؟ قال: لم ألبس جديداً في صيف، ولا خلفاً في شتاء. وفي نسبه في الصُّعد يقول: الطويل:

أبا الصُّعدِ باس أن تعيرني  
جُملاً  
وما ضرني أن لم تِلدني  
سفاها ومن أخلاق جارتنا  
البخلُ  
ولم تستمِلْ جرمَ عليّ ولا

يُخَابِرُ

يقول فيها:

وَدُونَ النَّدَى فِي كُلِّ قَلْبٍ  
تَنْيَّةٌ

وَوَدَّ القَتَى فِي كُلِّ نَيْلٍ  
يُنَيْلُهُ

وَأَعْلَمُ عِلْمًا لَيْسَ بِالظَّنِّ  
أَنَّهُ

وَأَنَّ أَخْلَاءَ الزَّمَانِ عَنَاؤُهُمْ

تَرَوُّدٌ مِنَ الدُّنْيَا مَتَاعًا لغيرها

وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا هَامَةٌ الْيَوْمِ أَوْ  
عَدِ

وقال يتشوق الحسن بن التختاخ: الطويل:

أَلَا مُبْلَغٌ عَنِي خَلِيلِي وَدُونَهُ

رِسَالَةٌ ثَاوٍ بِالْعِرَاقِ وَرُوحُهُ

لَهُ كُلُّ يَوْمٍ حَنَّةٌ بَعْدَ رَتَّةٍ

إِلَى صَاحِبٍ لَا يُخَلِّقُ النَّأْيُ  
عَهْدَهُ

تَحَيَّرَهُ حَرًّا نَقِيًّا ضَمِيرُهُ  
هُوَ الشَّهْدُ سَيْلَمًا، وَالذَّعَافُ

عَدَاوَةٌ  
فِيَا حَسَنَ الحُسَيْنِ الَّذِي عَمَّ  
فَضْلُهُ

إِلَيْكَ عَلَى بُعْدِ المَزَارِ  
تَطَلَعَتْ

أَرِي بَعْدَكَ الإِخْوَانَ أَبْنَاءَ  
عَلَّةٍ

فَهَلْ يَزِجَعُنْ عَيْشِي وَعَيْشَكَ  
مَرَّةً

لِيَالِي أَرْعَى فِي جَنَابِكَ  
رَوْضَةً

وَإِذْ أَنْتَ لِي كَالشَّهْدِ بِالرَّاحِ  
صُفْقًا

عَسَى وَلَعَلَّ اللهُ يَجْمَعُ  
بَيْنَنَا

فقر وفصول في معان شتى

عُكِّلُ

لَهَا مَصْعَدٌ حَزْنٌ وَمُنْحَدَرٌ  
سَهْلٌ

إِذَا مَا انْقَضَى لَوْ أَنَّ نَائِلَهُ  
جَزَلٌ

لِكُلِّ أَنَاسٍ مِنْ ضَرَائِبِهِمْ  
شَكْلٌ

قَلِيلٌ إِذَا مَا المَرءُ رَلَّتْ بِهِ  
التَّعَلُّ

فَقَدْ بَشَّمَرَتْ حَدَاءً وَانصَرَمَ  
الْحَبْلُ

لَأَمِّكَ مِنْ إِحْدَى طَوَارِقِهَا  
التَّكْلُ

مَطَا سَفَرٍ لَا يَطْعَمُ النُّومَ  
طَالِبُهُ

بُقُسطَاطٍ مِصرٍ حَيْثُ جَمَّتْ  
عَجَائِبُهُ

يَجِيشُ بِهَا فِي الصَّدْرِ شَوْقٌ  
يَغَالِبُهُ

لِنَاءٍ وَلَا يَشْقَى بِهِ مِنْ  
يُصَاقِبُهُ

جَمِيلًا مَحْيَاهُ كَرِيمًا ضَرَائِبُهُ  
وَيَحْزُ عَلَى الوَرَادِ تَجْرِي

عَوَارِبُهُ  
وَتَمَّتْ أَيَادِيهِ وَجَمَّتْ  
مِنَاقِبُهُ

نَوَازِعُ شَوْقٍ مَا تُرَدُّ عَوَارِبُهُ

لَهُمْ تَسْبُ فِي وَدَّهِمْ لَا  
أَنَاسِبُهُ

بِغَدَادٍ عَصْرٌ مُنْصِيفُ لَا  
تُعَاتِبُهُ؟

وَأَوِي إِلَى حِصْنٍ مَنِيعٍ  
مَرَاتِبُهُ

بِمَاءٍ رِصَافٍ صَفْقَتُهُ جَنَائِبُهُ

كَمَا لَأَمَّتْ صَدْعُ الإِنَاءِ  
مَنشَاءِبُهُ

قال العتابي: حظ الطالبين من الدَرْك، بحسب ما استصبحوا من الصَّبْر. بعض الحكماء: الحلم عُدَّةٌ للسفيه، وُجُنَّةٌ من كَيْدِ العدو، وإنك لن تقابل سفيهاً بالإعراض عن قوله إلا أدلَّتْ نفسه، وقلَّتْ حدَّه، وسلَّتْ عليه سيوفاً من شواهد جَلِمِكَ عنه، فتولوا لك الانتقام منه. وقال آخر: العجلة مكسبة للمذمة، مجلبة للندامة، منفرة لأهل الثقة، مانعة ممن سدَّادِ الرغبة.

وأتى العتابي وهو بالريّ رجلٌ يودِّعه فقال: أين تريد؟ قال: بغداد، قال: إنك تريد بلداً اصطلح أهله على صحَّةِ العلانية، وسَقَمِ السريرة، كلهم يعطيك كله، ويمنعك قُله.

وقال يحيى بن خالد لرجل دخل عليه: ما كان حَبْرُك مع فلان؟ قال: قد افتديت مكاشفته واشتريت مكاشرتة بألف درهم، فقال يحيى: لا تبرح حتى يكتبَ الفضلُ وجعفرُ عنك هذا القول. قال الأصمعي: سمعتُ أعرابياً يدعو، ويقول: اللهم ارزقني عملَ الخائفين، وِخَوْفِ العاملين، حتى أتعمَّ بتزكِّ التنعم، رجاءً لما وعدت، وخوفاً مما أوعدت.

وللعتابي: أما بعد، فإنه ليس بمستخلصَ عَصَارَةُ عيش إلا من خلال مكروهه، ومن انتظر بمعالجة الدرك مُوَاجلة الاستقصاء سلبته الأيام فرصته.

كتب بعض الكتاب إلى أخ له: إن رأيت أن تحدِّد لي ميعاداً لزيارتك، أتقوته إلى وقت رؤيتك، ويؤبِسُنِي إلى حين لقائك، فعلت، إن شاء الله. فأجابه: أخاف أن أعدك وعداً يعترضُ دون الوفاء به ما لا أقدر على دفعه، فتكون الحسرةُ أعظمَ من الفرقة.

فأجاب المبتدئ: أنا أسرُّ بموعدك، وأكون جَدِلاً بانتظارك، فإن عاق عن الإنجاز عائق، كنتُ قد ربحْتُ السرورَ بالتوقع لما أحبه، وأصبْتُ أجري على الحسرة بما حرمته.

وكتب أخ إلى أخ له يستدعيه: أما بعد، فإنه من عانى الظماً بفُرْقَتِكَ استوجب الريّ من رؤيتك، والسلام.

وكتب آخر في باب: يوماً يوماً طاب أوْلُه، وحَسُنَ مستقبله، وأنت السماء بقطارها، فحلت الأرضَ بأنوارها، وبك تطيب السَّمول، ويُسْقَى الغليل، فإن تأخرت عنا فرقت سَمَلنا، وإن تعجلت إلينا نظمت أمرنا.

قال إسحاق الموصلي: قال لي ثمامة بن أشرس؟ وقد أصبْتُ بمصيبة: لمصيبة في غيرك لك ثوابها، خير من مصيبة فيك لغيرك أجرها.

ومرَّ عمر بن ذر بابن عياش المنتوف، وكان سَفِهَ عليه فأعرض عنه، وتعلق بثوبه، وقال: يا هناه، إنا لم نجد لك جزاءً إذ عَصَيْتَ الله فينا، خيراً من أن تُطيعه فيك. أخذه من قول عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه: ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تُطيع الله فيه.

وكتب بعض الكتاب إلى رئيسه: ما رجائي عدلك يزائد على تأميلي فضلك، كما أنه ليس خوفي صيالك بأكثر من حَشِيَّتِي نكالك؛ لأنك لا ترصّي للمحسن بصغير المَنَوِيَّة، كما لا تقنع للمسيء إلا بموجع العقوبة.

وقال آخر: ما عسيت أن أشكرك عليه من مَوَاعِد لم تُسَبِّ بمطلِّ، ومرافدٍ لم تشين بمنٍّ، وعهد لم يمازجه مَلَق، ووُدٌّ لم يَسْبُه مَدَّق.

وقال آخر: علقت به أسباب الجلالة غير مستشعر فيها بنحوه، وترامت له

أحوال الصرامة غير مستعمل معها السطوة، هذا مع دَمَانة في غير حَصْر،  
ولين جانب من غير حَوْر.  
فصل لابن الرومي: إني لَوَلِيُّكَ الذي لم تزل تنقادُ لك مَوَدُّتُه من غير طمع  
ولا جَزَع، وإن كنت لذي رغبة مَطْمَعاً، ولذي رَهْبَة مهرباً.  
أبو فراس الحمداني: الطويل:

كذاك الوداد المَحْضُ لا  
يرتجى له

ثوابٌ، ولا يُخشى عليه  
عقابٌ

حنيفة تغزو نميراً  
عزّت حنيفة نميراً فانتصفوا منهم، فقبل لرجل منهم: كيف صنع قومك؟  
قال: اتبعوني وقد أحقبوا كلَّ جُماليّة خيفانة، فما زالوا يَخْصِفُون أخفاف،  
المطبيّ بحوافر الخيل، حتى لحقوهم؛ فجعلوا المُرَّان أُرْشِيّة الموت،  
فاشْتَفُوا بها أرواحهم.

دعاء أعرابي  
ودعا أعرابي فقال: اللهم إن كان رزقي نائياً فقرّبه، أو قريباً فيسرّه، أو  
ميسراً فعجّله، أو قليلاً فكثّره، أو كثيراً فتمّره.

باب المراسلات  
وكتب عَنبَسَة بن إسحاق إلى المأمون وهو عامله على الرّقّة، يصف خروج  
الأعراب بناحية سنّجار وعَيْتَهُمْ بها: يا أمير المؤمنين، قد قطع سُبُل  
المجتازين، من المسلمين والمعاهدين، تَقَر من شُدَاد الأعراب الذين لا  
يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمّة، ولا يخافون من الله حدّاً ولا عقوبة، ولولا  
ثقتي بسيف أمير المؤمنين وحصده هذه الطائفة، وبلوغه في أعداء الله ما  
يَزِد قاصيتهم ودائيتهم، لأدنت بالاستنجد عليهم، ولابتعت الخيل إليهم، وأمير  
المؤمنين معانٍ في أموره بالتأييد والنصر إن شاء الله.  
فكتب إليه المأمون: البسيط:

أَسْمَعَتْ عَيْرَ كَهَامِ السَّمْعِ  
والبصر  
لا يَقْطَعُ السَّيْفُ إِلَّا فِي يَدِ  
الحذر  
سَيَصِيحُ الْقَوْمُ مِنْ سَيْفِي  
سَيَصِيحُ الْقَوْمُ مِنْ سَيْفِي  
وَضَارِبِهِ

فوجّه عنبسة بالبيتين إلى الأعراب، فما بقي منهم اثنان.  
وكتب المطلب بن عبد الله بن مالك إلى الحسن بن سهل في رجل توسل  
به: طَلَبُ العافين الوسائلَ إلى الأمير - أعزه الله - يُنبئ عن شروع موارد  
إحسانه، ويدعو إلى معرفة فضله، وما أنصفه - أعزه الله تعالى - من  
توسّل إلى معروفه بغيره؛ قرأني الأمير - أعزه الله - في التطوّل على من  
قَصُرَتْ معرفته عن ذلك بما يريد الله تعالى فيه موقفاً إن شاء الله تعالى.  
فكتب إليه الحسن: وصلك الله بما وصلتني في صاحبك من الأجر والشكر،  
وأراك الإحسان في قصيدك إليّ بأمثاله فرضاً يفيدك شكره، ويعقبك أجره،  
فرايك في إتمام ما ابتدأت به وإعلامي ذلك مشكوراً.  
وكان المطلب ممدّحاً كريماً، وقد حسد دعبل شرقه وإنعامه، وغبط  
إحسانه وإكرامه، إذ يقول: البسيط:

إِصْرِبْ ندى طلحة الطلحات  
معترفاً  
بُلُومٍ مُطَلَّبِ فِينَا وَكُنْ  
حكماً  
تَخْلُصْ خزاعةً من لُومٍ ومن  
فلا تعدّ لها لُوماً ولا كرماً

كرم  
وأمر طلحة أَعْرَفُ من أن يُوصف،  
وما أبعد قول دَعِيلٍ من قول البحتري لصاعد بن مخلد وأهل بيته: الطويل:  
بني مَخْلِدٍ كَفُّوا تَدَقُّقَ  
جُودِكُمْ  
ولا تَنْصُرُوا مَجْدِي قِنَانٍ  
ومخلد  
وكان لنا اسْمُ الجُودِ حتى  
جَعَلْنُمُ

في الرثاء  
قال الزبير بن بكار: لَمَّا مات يزيدُ بن مَزيدٍ بأرمينية قام حبيب بن البراء خطيباً، فقال:  
أيها الناس، لا تَقْتَطُوا من مثله وإن كان قليلَ النطير، وَهَبُوهُ من صالح دعائكم مثل  
الذي أخلص فيكم من نواله، والله ما تفعل الديمة الهطلة في البقعة الجذبة ما عملت  
فينا يداه من عدله ونداه.  
فسرق هذا أبو لبابة الشاعر فقال: البسيط:

ما بقعة جادها عَيْتٌ وَقَرَّبَها  
أبهى وأحسنُ مِمَّا أَتَرْتُ  
فأزهرتُ بأقاحي النَّبْتِ  
ألوانا  
في الشرق والغربِ معروفاً  
وإحسانا

في المدح  
وقال ابن المبارك يمدح يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة: الكامل:  
وإذا تُباع كريمةٌ أو تُشْتَرَى  
وإذا توعَّرتِ المسالكُ لم  
فسواك بائعها وأنت  
المشتري  
فيها السبيلُ إلى نَدَاكَ  
بأوَعَر  
بيدَيْنِ ليس نَدَاهُمَا  
بمكْدَر  
وإذا صنَّعتِ صنيعَةً  
أتممتها  
وإذا همَّمتِ لِمُعْتَفِيكَ بنائلقال الندى  
فاطعته لك: أَكْثَرِ

يا واحدَ العربِ الذي ما إن لهم  
من معدلٍ عنه ولا من  
مَقْصَرِ

من إنشاء بديع الزمان  
كتب البديع أبو عبد الله أحمد بن الحسين بن يحيى: أما أبو فلان، فلا شك  
أن كتابي يرد منه على صَدْرٍ مَحَا اسْمِي من صحيفته، وقطع خطي من  
وظيفته، وتبسي اجتماعنا على الحديث والغزل، وتصرفنا في الجد والهزل،  
وتقلبنا في أعطاف العيش، بين الوقار والطيش، وارتضاعنا تَدِي العشرة؛  
إذ الزمان رقيقُ القشرة، وتواعُدنا أن يلحق أحدنا بصاحبه، وتصافحنا من  
قبل ألا نصرم الحبل، وتعاهدنا من بعد ألا ننقض العهد، وكأنني به وقد اتَّخذ  
إخواناً فلا بأس، فإن كان للجديد لذة فللقدم حُرْمَةٌ، والأخوة بُرْدَةٌ لا تضيق  
بين اثنين، ولو شاء لعاشرنا في البين، وكان سألني أن أرتاد له منزلاً ماؤه  
رَوِيٍّ، ومرعاه عَزِيٍّ، وأكاتبه لِيُنْهَضَ إليه راحلته؛ فهالك نيسابور صالته التي  
نشدتها وقد وجدُّتها، وخراسان أمنيته التي طلبتها وقد أصبَّتها، وهذه الدولة

بغيته التي أرادها وقد وردتها، فإن صدّقتني رائداً، فليأتني قاصداً.  
وله إلى بعض إخوانه يعزّيه عن أبيه: وصلّت رقعتيك يا سيدي والمصاب  
لعمر الله كبير، وأنت بالجرع جدير، ولكنك بالعزاء أجدر، والصبر عن الأحبة  
رشد كأنه العي، وقد مات الميت فليحَي الحي، والآن فاشدّد على مالك  
بالخمس، فانت اليوم غيرك بالأمس، وكان الشيخ رحمه الله وكيلك،  
تضحك ويكي لك، وقد مؤلك ما ألف في سراه وسيره، وخلفك فقيراً إلى  
الله غنياً عن غيره، وسيعجمُ الشيطان عودك، فإن استلانتك رماك بقوم  
يقولون: خير المال ما أتلف بين الشراب والشباب، وأنفق بين الحباب  
والأحباب، والعيش بين القداح والأقداح، ولولا الاستعمال، ما أريد المال!  
فإن أطعتهم فاليوم في الشراب، وغداً في الخراب، واليوم واطرباً  
للكأس، وغداً واخرتاً من الإفلاس، يا مولاي ذلك الخارج من العود يسميه  
الجاهل تقرأ، ويُسميه العاقل فقراً.

وكذلك المسموع في الناي، هو في الآذان رَمْر، وفي الأبواب سَمْر، فإن  
لم يجد الشيطان مغمراً في عودك من هذا الوجه، رماك بقوم يمتنون  
الفقر جِداً عينيك، فتجاهد قلبك، وتحاسب بطنك، وتناقش عرسك، وتمنع  
نفسك، وتتوقى دنياك بوزرك، وتراه في الآخرة في ميزان غيرك، لا ولكن  
قصداً بين الطريقين، وميلاً عن الفريقين، لا منع ولا إسراف، والبخل قفر  
حاضر، وضّر عاجل، وإنما يبخل المرء خيفة ما هو فيه: الطويل:

ومن ينفق الساعات في  
مخافة فقرٍ فالذي صنع  
جمع ماله  
الفقر

وليكن لله في مالك قسم، وللمروءة قسم؛ فصل الرّحم ما استطعت، وقدّر إذا  
قطعت، فلأن تكون في جانب التقدير، خير من أن تكون في جانب التذير.  
وله إلى رئيس عناية برجل: كتابي أطال الله بقاء الرئيس، والكاتب مجهول، والكتاب  
فضول، وبحسب الرأي مَوْقع، فإن كان جميلاً فهو تطوّل، وإن كان شيناً فهو تقوّل،  
وأبى سلك الظنّ له - أيده الله تعالى - المن، من نيسابور عن سلامة شاملة نسال  
الله تعالى ألا يلهينا بسكرها، عن شكرها، والحمد لله رب العالمين. يقول الشيخ - أيده  
الله تعالى -: مَنْ هذا الرجل؟ وما هذا الكتاب؟ فأما الرجل فخاطبٌ وُدّ أولاً، وموصل  
شكر ثانياً؛ وأما الكتاب فليحام أرحام الكرام؛ فإن يعن الله الكرام؛ تتصل الأرحام. هذا  
الشريف قد حاربه زمانُ السوء؛ فأخرجه من البيت الذي بلغ السماء مَفحراً، ثم طلب  
فوقه مَظْهراً؛ وله بعدُ جلاله النسب، وطهاره الأخلاق، وكرمه العهد، وحضرني فسألته  
عما وراءه، فأشار إلى صالة الأحرار، وهو الكرم مع اليسار، ونبه على قيد الكرام، وهو  
البشر مع الإنعام، وحدّث عن بَرْد الأكباد، وهو مساعدة الزمان للجواد، ودلّ على نزهة  
الأبصار، وهو الثراء، ومُنعة الأسماع، وهو الثناء، وقلما اجتمعوا، وعزّ ما وُجِدَ معاً. وذكر  
أن الشيخ الرئيس - أيده الله - جماع هذه الخيرات، وسألني الشهادة له، وبدل الخط  
بها، ففعلت، وسألته الله إعانتة على همته؛ فرأى الشيخ - أيده الله تعالى - في  
الوقوف على ما كتبت، وفي الإجابة - إن تَنبِط - الموفق إن شاء الله.

وله إلى ابن أخته: وصلّ كتابك بما ضمّنته من تظاهر نعم الله عليك، وعلى أبوك،  
فسكنت إلى ذلك من حالك، وسألته الله بقاءك، وأن يرزقني لقاءك، وذكرت مصابك  
بأخيك، رحمه الله تعالى، فكانما فتت عَصْدي، وطعنت في كبدي، فقد كنت معترضاً  
بمكانه، والقدّر جارٍ لسانه، وكذلك المرء يدبر، والقضاء يدمر، والآمال تنقسم، والآجال  
تبتسم، فالله يجعله لك قرطاً، ولا يُريني فيك سوءاً أبداً، وأنت إن شاء الله تعالى وارث  
عمره، وسداد نغره، ونعم العوض بقاؤك: الكامل:

إن الأشياء إذا أصاب مُسْتدباً منه ائمهَلُّ ذُراً وأتَّ أسافلاً

وأبوك سيدي أيده الله تعالى وألهمه الجميل، وهو الصبر، وأناله الجزيل،  
وهو الأجر، وأمتعه بك طويلاً، فما سُوتَ بديلاً، وأنت ولدي ما دمت والعلم

شانك، والمدرسة مكانك، والدفتر تديمك، وإن قصرت، ولا إخالك، فغيري خالك.

وله من كتاب إلى أبي القاسم الداودي بسجستان:  
 كتابي - أطال الله بقاء الفقيه - كتابٌ مَنْ ينسي الأيام وتذكره، ويطوبها وتنشره، ويبيد أبناء دهره، وراء ظهره، ويخرج أهل زمانه، من ضمانه، فإذا تناولهم بيمناه، وتسلمهم بيسراه، أقسم أن صَفَقْتَهُ هي الراححة، وكفته هي الراححة، وأنا - أيد الله الفقيه - على قُرْب العهد، بالمهد، قد قطعت عَرْض الأرض، وعاشرت أجناس الناس، فما أهد إلا بالجهل أتبعته، وبالخبرة بعته، وبالظن أخذته، وباليقين تبدته، وما حمد وضعت في أحد إلا ضيعته، ولا مدح صرقت في أحد إلا غربته، ومن احتاج إلى الناس، ورثهم بالقسطاس، ومن طاف نصف الشرق، فقد لقي ربع الخلق، ومن لم يجد في النصف لَمَحَةً دالة، لم يجد في الكل غرة لائحة، وكان لنا صديق يقول: إن عشت تسعين عاماً مت ولم أملك ديناراً؛ لأنني قد عشت ثلاثين ولم أملك ثلثها، وهذا لعمر يياس، يوجب قياس، وقنوط، بالحجة منوط، ودُعابة ستكون جِداً، ووراء هذه الجملة موجدة على قوم، وعريضة إلى يوم، والأمير السيد واسع مجال الهمم، ثابت مكان القدم، وأنا في كنفه صائب سهم الأمل، وإفتر الجذل، والحمد لله على ما يؤليه، ويولينا معشر مواليه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وذريته.

وله إلى إبراهيم بن حمزة خادم الأستاذ الجليل: قد أتبع قدمه، إلى الخدمة قلّمه، وأتلى لسائه، في الحاجة بتائه، وقد كان استأذنه في توفير هذا اليوم في مجلس السيد الجليل فإذن له على عادته السليمة، وشيمته القويمية، ومَنْ وَجد كلاً رجع، ومَنْ صادف غيباً انتجع، ومن احتاج للحاجات سأل، وبقي أن يشفع الأستاذ الجليل بإزاء الحوض عقره، وينظم إلى روض الإحسان مطره، ويطرز أنيساً بأبي فلان؛ فقد وُصف لي حتى حننت شوقاً إليه، ووَجِدْأ به، وشغفاً له، وعلواً فيه، ورأيه في الإصغاء إلى الكرم عالٍ، إن شاء الله تعالى.

ومن إنشائه في مقامات أبي الفتح السكندري:  
 حدثنا عيسى بن هشام قال: حداني إلى سجستان أرب، فاقتعدت طيئته، وامطيط مَطِيئته، واستخرتُ الله تعالى في العزمِ حَدْوُته أمامي، والحزم جعلته قدامي، حتى هداني إليها، ووافيت دروبها، وقد وافت الشمس عُروبها، واتفق المبيت حيث انتهيت؛ ولما انضى تَصلُ الصباح، وبرز جبينُ المصباح، مضيتُ إلى السوق أتخذ منزلاً، فحيث انتهيتُ من دائرة البلد إلى نُقْطتها، ومن قلادة السوق إلى واسطتها، حرق سمعي صوتٌ له من كل عرق معنى، فانتحيث وفده، حتى وقفتُ عنده؛ فإذا رجلٌ على فرسه، مختنق بنفسيه، قد ولاني قذاله وهو يقول: من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا باكورهُ اليمن، أنا أحدىة الزمن، أنا أدعية الرجال، وأحجية ربّات الجبال، سلوا عني الجبال وخزوتها، والبحار وعبوتها، والخيل ومتونها، من الذي ملك أسوارها، وعرف أسرارها، ونهج سمتها، وولج حرتها؟ وسلوا الملوك وخزائنها، والأغلاق ومعادنها، والعلوم وبواطنها، والخطوب ومعالقها، والحروب ومضايقها، من الذي أخذ مخترتها، ولم يؤدّ ثمتها؟ ومن الذي ملك مفاتيحها، وعرف مصالحتها؟ أنا والله فعلت ذلك، وسفرتُ بين الملوك الصّيد، وكشفت أستار الخطوب

السُّود. أنا والله شهدت حتى مصارعَ العُشَّاق، ومرِضْتُ حتى لِمَرَضِ  
الأحداق، وهَصْرْتُ الغصونَ الناعمات، وجنَّيتُ جنى الخدود المورِّدات،  
وتَفَرَّضْتُ عن الدنيات نفورَ طبعِ الكريم عن وجوه اللئام، وتَبَوَّضْتُ عن  
المحرمات نبوَّ سمعِ الشريفِ عن قبيحِ الكلام، ولأن لما أسْفَرَ صُحُوحُ  
المشيب، وعَلَّنني أبهة الكِبَر، عَمَدْتُ لإصلاح أمرِ المعادِ، بإعداد الزَّاد، فلم  
أر طريقاً أهدى إلى الرشاد ممَّا أنا سالكه، يراني أحدُّكم راكب فرس  
وهوَس، فيقول: هذا أبو العَجَب، لا، ولكني أبو العجائب، عاينتها وعائيتها،  
وأمُّ الكبائر قايستها وقايسيتها، وأخو الأغلاق، صَعْباً أخذتها، وهوناً أضعتها،  
وغالياً اشتريتها، ورخيصاً بعثها؛ فقد والله صحبْتُ لها المواكب، وزاحمْتُ  
المناكب، ورَعَيْت الكواكب، وأنصَبْتُ الركائب، ولا من عليكم، فما حصلتُها  
إلا لأمرِي، ولا أعددتُها إلا لنفسِي، لكنني دُفَعْتُ إلى مكاره تَدْرُتُ معها إلا  
أدخِرَ عن المسلمين نَفْعها، ولا بدَّ لي أن أخلع رِبْقَةَ هذه الأمانة من عُنقي  
إلى أعناقكم، وأعرضَ دوائِي هذا في أسواقكم، فليشترِه مني من لا يتقرُّرُ  
من موقف العبيد، ولا يأنفُ من كلمة التوحيد، ليصُنَّه من أنجبتُ جدوَّه،  
وسُقِّي بالماء الطاهر عودُه.

قال عيسى بن هشام: فدُرتُ إلى وجهه لأعلم عِلْمه، فإذا شيخنا أبو الفتح  
الإسكندري، وانتظرتُ إجمالَ النعمة بين يديه، ثم تعرَّضت فقلت: كم يُجِلُّ  
دواءك هذا؟ قال: يُجِلُّ الكيسُ ما مست الحاجة، فانصرفت وتركته.  
ومن إنشائه في هذا الباب: حدَّثنا عيسى بن هشام قال: بينا أنا بمدينة  
السلام، قافلاً من البيت الحرام، أميس ميس الرِّجْلَة، على شاطئ الدَّجْلَة،  
أتأمَّل تلك الطرائف، وأتقصِّي تلك الزخارف، إذ انتهيت إلى حلقة رجال  
مزدحمين، يَلوِي الطَّرْبُ أعناقهم، ويشق الضحك أشداقهم، فساقني  
الجِرْصُ إلى ما ساقهم، حتى وقفتُ بمسمع صوت رجل دون مرأى وجهه،  
لشدة الهجْمَة، وقُرْطِ الزحمة، وإذا هو قرَّاد يُرْقِص قرده، ويضحك من  
عنده، فرقصت رقص المخرج، وسرت سير الأترج، فوق أعناق الناس،  
يلفظني عاتق هذا لِسْرَة ذاك، حتى إفترشت لِحْيَة رجلين، وقعدت بين  
أثنين، وقد أشرقني الخجل بريقه، وأرهقني المكان لضيقه، فلما فرغ  
الهُرَّادُ من شُغْلِه، وانتفض المجلس عن أهله، قمت وقد كساني الرِّيب  
حُلته، ووقفت لأرى صورته، فإذا أبو الفتح الإسكندري، فقلت: ما هذه  
الدناءة؟ وبحك! فقال: مجزوء الكامل:

الذنبُ لأيام لا لي

بالحمق أدركتُ الممتي

فاغتب على صرْف الليالي

ورقلتُ في ثوب الجمال

ومن إنشائه في هذا الباب أيضاً: حدَّثنا عيسى بن هشام قال: كنت  
بأصفهان أعيَّزُ الميسرَ إلى الرِّي، فحللتها حلولَ القِي، أتوقَّع الثقلية كل  
لَمحة، وأترقب الرِّجْلَة كلَّ صَبْحَة؛ فلما حُمَّ ما توقعته، وأزِف ما ترقبته،  
تُودي للصلاة نداءً سمعته، وتعين قرضُ الإجابة؛ فانسَلتُ من بين الصحابة،  
أغتنم الجماعة أدركها، وأخشى فوات القافلة أتركها، لكنني استعنتُ ببركة  
الصلاة، على وَعْتَاء القلاة؛ فصِرْتُ إلى أول الصفوف، ومثلت للوقوف،  
وتقدم الإمام للمِحْرَاب، وقرأ فاتحة الكتاب، ووشى بالأحزاب، بقراءة حمزة،  
مدَّة وهمزة، وأتبع الفاتحة بالواقعة، وأنا أتصلى بنار الصبر وأتصلب،  
وأثقل على جمر الغيظ وأثقلب، وليس إلا السكوت والصبر، أو الكلام  
والقبر، لِمَا عرفت من خشونة القوم في ذلك المقام، أن لو قطعُ

الصلاة دون السلام، فوقفْتُ بَقَدَمِ الضَّرورِ على تلك الصورة، إلى انتهاء السورة، وقد قَنِطتُ من القافلة، وَبَيَّسْتُ من الراحلة، ثم حتى قَوَّسَهُ للركوع، بنوع من الخشوع، وضرب من الخضوع، لم أَعْهَدَهُ قبل ذلك، ثم رفع رأسه وَبَدَهُ، وقال: سَمِعَ اللهُ لَمَنَ حمدَه، وقام، حتى ما شككتُ أنه نام، ثم أَكَبَّ لوجهه، فرفعت رأسي أنتهز فُرْصَةً، فلم أر بين الصفوف - فُرْجَةً، فَعُدْتُ للسجود، حتى كَبَّرَ للقعود، وقام للركعة الثانية، وقرأ الفاتحة والقارعة، قراءةً اسْتَوَفَى فيها عُمُرَ الساعة، واسترق أرواح الجماعة، فلَمَّا فَرَعَ من ركعتيه، مال للتحية بأخْدَعِيهِ، فقلت: قد قَرَّبَ الفرج، وأن المخرج، فقام رجل فقال: مَنْ كان منكم يحبُّ الصحابة والجماعة، فليُعْزِني سَمْعُه ساعة.

قال عيسى بن هشام: فلزِمْتُ أَرْضِي، صيانةً لعرضي، فقال: حقيق عليّ ألا أقول على الله إلا الحق، قد جئتكم ببشارة من نبيكم، لكنني لا أودّيها حتى يطهّر الله هذا المسجد من تدلّ جحد نيّوته، وعادى أمته. قال عيسى بن هشام: فربطني بالقيود، وشدّني بالحبال السود، ثم قال: رأيته، صلى الله عليه وسلم، في المنام كالشمس تحت الغمام، والبدن ليلة التمام، يسيّر والنجم يتبعه، ويسحب الذيل والملائكة ترّقعُه، ثم علمني دعاءً، وأوصاني أن أعلم ذلك أمته، وقد كتبتُه في هذه الأوراق بخلق ومسك، وزعفران وسك؛ فمن استوهبه مني وهبته، ومن أعطى ثمن القِرْطاس أخذته.

قال عيسى بن هشام: فاثالت عليه الدراهم، حتى حيرته؛ ونظرت فإذا شيخنا أبو الفتح الإسكندري، فقلت: كيف اهتديت إلى هذه الحيلة؟ ومتى اندرجت في هذه القبيلة؟ فأنشأ يقول: المجتث:

الناسُ حُمُرٌ فَجَوْرٌ  
وابرُّرٌ عليهم وبرزُّرٌ  
حتى إذا نلت منهم  
ما تشتهيهِ ففزورٌ

جارية تبدّ كبار الشعراء

وصفت لعبد الملك بن مروان جارية لرجل من الأنصار ذات أدب وجمال، فساومه في ابتاعها، فامتنع وامتنعت، وقالت: لا أحتاج للخلافة ولا أرغب في الخليفة، والذي أنا في ملكه أحب إلي من الأرض ومن فيها. فبلغ ذلك عبد الملك فأغراه بها؛ فأضعف الثمن لصاحبها وأخذها قسرًا، فما أعجب بشيء إعجابه بها، فلما وصلت إليه، وصارت في يديه، أمرها بلزوم مجلسه، والقيام على رأسه؛ فبينما هي عنده، ومعه ابنته الوليد وسليمان، قد أخلاهما للمذاكرة، فأقبل عليهما فقال: أي بيت قالته العرب أمدح؟ فقال الوليد: قول جرير فيك: الوافر:

ألسنُ حَيْرٍ مَنْ رَكِبَ المَطَايا  
وقال سليمان: بل قول الأخطل: البسيط:

شُمسُ العداوةِ حتى يُستقادَ  
وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا  
لهم  
قدروا

فقال الجارية: بل أمدح بيت قالته العرب قول حسان بن ثابت: الكامل:

يُعشّون حتى ما تهرّ كلابهم  
لا يسألون عن السوادِ  
المُقبِل

فأطرق، ثم قال: أي بيت قالته العرب أرق؟ فقال الوليد: قول جرير: البسيط:

إنّ العيون التي في طرفها  
قتلتنا ثم يُخين قنلانا  
حورٌ

فقال سليمان: بل قول عمر بن أبي ربيعة: الخفيف:

حَبَدًا رَجَعُهَا يَدَيْهَا إِلَيْهَا      من يَدَيَّ دِرْعَهَا تَحُلُّ الإِرَارَا

فقالَت الجارية: بل بيت يقوله حسان: الخفيف:  
لو يَدِب الحولي من ولد الذرِّ عليها لأتدبَّتها الكُلوْمُ  
فأطرق، ثم قال: أي بيت قالته العرب أشجع؟ فقال الوليد: قول عنترة: الكامل:  
إِذْ يَتَّقُونَ بِيَّ الأَسِنَّةَ لَمْ      عنها، ولو أتتني تَصَاقِقَ  
أَخِمُّ      مَفْدَمِي

فقال سليمان: بل قوله الكامل:

وَأَنَا المنيَّةُ في المواطنِ      فالموتُ مني سابق الآجالِ  
كلها

فقالَت الجارية: بل بيت يقوله كعب بن مالك: الكامل:  
تَصِلُ السيفِ إِذَا قَصُرْنَ      فُذْمًا ونلحقها إِذَا لَمْ  
يَحْطُونَا      تلحق

فقال عبد الملك: أحسنت، وما نرى شيئاً في الإحسان إليك أبلغ من ردك إلى  
أهلك. فأجمل كسوتها، وأحسن صلتها، وردها إلى أهلها.  
ومثل قول كعب بن مالك قول تهشل بن حرَّي: البسيط:

إِنَّا بني تَهْشَل لا نَدْعِي      عنه، ولا هو بالأبناء  
لأب      يَشْرِينَا

إِن تُبَدِّرْ غَايَةَ يَوْمًا      تَلِقَ السوابِقَ مَنَّا  
لِمَكْرَمَةٍ      والمُصَلِّينَا  
إِنَّا لَمِنْ مَعْشَرٍ أَفْتَى      قولُ الكِمامةِ: أَلَا أَيْنَ  
أَوَائِلَهُمْ      المحامونَا؟

لو كان في الألف منا واحدٌ      مَن فَارِسٌ؟ خَالَهُمْ إِيَاهُ  
فَدَعَوْا:      يَعْئُونَا  
إِذَا الكِمامةُ تَأَبَّوْا أَنْ      حُدَّ السيفِ وصلَّناها  
يَنالَهُمْ      بأيدِينَا

إنما أردت هذا البيت.  
وقوله:

لو كان في الألف منا واحد  
أخذه من قول طرفة بن العبد: الطويل:  
إِذَا القومُ قالوا مَن قَتَى؟      عُنيْتُ فلم أكَسَلْ ولم  
خِلْتُ أَنِّي      أتبلدِ

ترجمة تهشل بن حرَّي  
وكان نهشل شاعم طريفاً، وهو تهشل بن حرَّي بن صَمْرَةَ بن جابر بن قَطَن بن  
نهشل بن دارم، وكان اسم جده صمرة هذا: شِغَّة، ورد على النعمان بن المنذر  
فقال: من أنت؟ فقال: أنا شِغَّة، وكان قضيماً نحيفاً دميماً، فقال له النعمان: تَسْمَعُ  
بالمعديني لا أن تراه، والمُعديني: تصغير المعدِّي، فذهبت مثلاً، فقال: أبيت اللعن! إن  
الرجال لا تُكَال بالقفزان، وليست بمُسوكٍ يستقى بها من الغُدْران، وإنما المرءُ  
بأصغرِّه قلبه ولسانه إذا نطق بنطق ببيان، وإذا قاتل قاتل بجنان، فقال: أنت  
صَمْرَةَ! ونهشل هو الفائل: الطويل:

ويومُ كَأَنَّ المُصْطَلِينَ      وإن لم يكن جَمْرٌ قيامٌ على  
يَحْرَهُ      الجَمْرِ  
أَقْمَنَا به حتى تجلَّى، وإنما تُفَرِّجُ أَيامُ الكَرِيهَةِ بالصَّبْرِ

أمدح بيت  
 وكان عبدُ الملك يقول: يا بني أمية، أحسائكم أعراضكم، لا تعرضوها علي الجهال،  
 فإنَّ الذمَّ باقٍ ما بقِيَ الدهر؛ والله ما سرَّني أني هُجيت بيت الأعرشى، وأن لي  
 طلاعَ الأرضِ دَهَبًا، وهو قوله في علقمة بن عُلانة: الطويل:  
 يبيتون في المَسْتَى مِلاءً      وجاراتُهُم عَزَى يَبِينِ  
 بطونهم      خمائصا  
 والله ما يُبالي مَنْ مُدِّحٌ بهِذين البيتين ألا يُمدِّحَ بغيرهما، وهما قول زهير: الطويل:  
 هنالكُ إن يُسْتَحَبَلوا المَالَ      وإن يُسألوا يُعْطوا وإن  
 يُخَبَلوا      يَسِرُوا يُعَلِّوا  
 على مُكثِرِيهِم حَقُّ مَنْ      وعند المُقْلِينِ السَماحَةُ  
 يَغْتَرِبُهُم      والبَدَلُ  
 وقال ابنُ الأعرابي: أمدحُ بيتِ قاله المحدثون قولُ أبي نواس: الطويل:  
 أخذتُ بحَبَلٍ من حبال      أمِنْتُ به من طارقِ  
 محمِدٍ      الحَدَثانِ  
 تَعطِيتُ من دَهرِي بظِلِّ      فعيني ترى دَهرِي وليس  
 جناحِه      يراني  
 فلو تُسألَ الأيامُ عني ما      وأين مكاني ما عَرَفَنَ  
 دَرَّتْ      مكاني

وهذا كقول - أعرابي، ذكر بعضُ الرواة أنَّ مالك بن طَوق كان جالساً في  
 بَهِوٍ مطلقاً على رحبته ومعه جلساؤه، إذ أقبل أعرابي تحبب به ناقته، فقال:  
 إياي أراد، ونحوي قصد، ولعل عنده أدباً يُنتفع به. فأمر حاجبه بإدخاله، فلما  
 مثل بين يديه قال: ما أقدمك يا أعرابي؟ قال: الأمل في سَيِّب الأمير  
 والوجاء لنائله. قال: فهل قدِّمت أمام رَغبَتِكَ وَسيلة؟ قال: نعم، أربعة  
 أبيات قلتها بظهر البرية، فلما رأيت ما بباب الأمير من الأبهة والجلالة  
 استصغرتها، قال: فهل لك أن تنشدنا أبياتك؟ ولك أربعة آلاف درهم، فإن  
 كانت أبياتك أحسن فقد ربحنا عليك، وإلا قد نلت مرادك وربحت علينا،  
 قال: قد رضيت، فأنشده: الطويل:

ومازلتُ أخشى الدهر حتى      يداي بمن لا يَبْقِي الدهرُ  
 تعلقت      صاحِبُهُ  
 فلما رأني الدهر تحت      رأى مُرْتَفَى صعباً منيعاً  
 جناحِه      مطالبُهُ  
 وأني بحيث النجم في رأس      تُظِلُّ الوري أكنافُه وجوانبُه  
 بادخ      إذا أجذبوا جادثُ عليهم  
 فتى كسماء الغيث والناسُ      سحائبُهُ  
 حولُه

قال: قد ظفرتنا بك يا أعرابي، والله ما قيمتها إلا عشرة آلاف درهم. قال:  
 فإن لي صاحباً شاركته فيها ما أراه يرضى بيبي، قال: أتراك حدثت نفسك  
 بالنكت؟ قال: نعم، وجدتُ النكت في البيع أيسر من خيانة الشريك، فأمر له  
 بها.

أنصف بيت وأصدق بيت

وأُصِفَ بَيْتَ قَالَتِهِ الْعَرَبُ قَوْلُ حَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ لِأَبِي سَفِيَّانِ بْنِ الْحَارِثِ فِي جَوَابِهِ عَمَّا هَجَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ عِمَارٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَنْشَدَ النَّبِيُّ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ قَوْلَهُ: الْوَافِرُ:

هَجَوْتُ مُحَمَّدًا، فَأَجِبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ  
فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: جَزَاؤُكَ الْجَنَّةُ يَا حَسَّانَ.  
فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ:

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعَرْضِي لِعَرَضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ  
قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَقَاكَ اللَّهُ حَرَّ النَّارِ.  
فَلَمَّا قَالَ:

أَنْهَجُوهُ وَلَيْسَتْ لَهُ يَكْفُفٌ فَشَرُّ كَمَا لِخَيْرِكَمَا الْفِدَاءُ  
قَالَ مَنْ حَضَرَ: هَذَا أَنْصَفُ بَيْتٍ قَالَتْهُ الْعَرَبُ.  
وَأُصَدِّقُ بَيْتَ قَالَتْهُ الْعَرَبُ وَأَمْدَحُهُ قَوْلُ كَعْبِ بْنِ زَهِيرٍ فِي رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْبَسِيطُ:

تَحْمَلُهُ النَّاقَةُ الْأَدْمَاءُ مُعْتَجِرًا بِالْبُرْدِ كَالْبَدْرِ جَلَّى لَيْلَةَ  
الظلم  
وَفِي عِطَاقِيهِ أَوْ أَثْنَاءَ بَرْدَتِهِ مَا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْ دِينٍ وَمِنْ كَرَمِ

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: وَالْجَهَالُ يَرَوْنَ هَذَا الْبَيْتَ لِأَبِي دَهْبَلٍ، وَاسْمُهُ وَهَبٌ بِنِ رُبَيْعَةَ، فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَزْرَقِ وَالْيَإِمَامَةِ، وَالصَّوَابُ مَا ذَكَرْنَاهُ، وَهُوَ بِصِفَاتِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَعْلَقَ، وَبِمَدْحِهِ أَلِيقَ. أَلْفَاظُ لِأَهْلِ الْعَصْرِ فِي ذِكْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

سَلِيلٌ أَكْرَمُ تَبَعَةٌ، وَقَرِيعٌ أَشْرَفُ بَقْعَةٌ. جَابَ بِأُمَّتِهِ الظُّلْمَاتُ إِلَى النُّورِ، وَأَفَاءَ عَلَيْهِمُ بِالظِّلِّ بَعْدَ الْحَرُورِ. وَهُوَ خَيْرُهُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَحُجَّتُهُ فِي أَرْضِهِ. الْهَادِي إِلَى حَقِّهِ، وَالْمُنْبِئُ عَلَى حِكْمِهِ. وَالِدَاعِي إِلَى رُشْدِهِ، وَالْآخِذُ بِفَرْضِهِ. مَبَارَكٌ مَوْلَدُهُ، سَعِيدُهُ غَرَّتُهُ، قَاطِعُهُ حَجَّتُهُ، سَامِيَةُ دَرَجَتُهُ، سَاطِعُ صَبَاحُهُ، مَتَوَفَّدٌ مَصْبَاحُهُ، مُطْفِرُهُ حَرُوبُهُ، مُبَسِّرُهُ خَطُوبُهُ، قَدْ أَفْرَدَ بِالزَّرْعَامَةِ وَحْدَهُ، وَحُتِّمَ بَأَنَّ لَانَبِيَّ بَعْدَهُ. يُفْصِحُ بِشِعَارِهِ عَلَى الْمَنَابِرِ، وَبِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ فِي الْمَحَاضِرِ، وَتَعْمُرُ بِذِكْرِهِ صُدُورَ الْمَسَاجِدِ، وَتَسْتَوِي فِي الْإِنْقِيَادِ لَهُ حَالَةُ الْمُقَرِّ وَالْجَاحِدِ. آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ فِي الدُّنْيَا عَمْرًا، وَأَوَّلُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ذِكْرًا، وَأَرْجَحُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ مِيزَانًا، وَأَوْضَحُهُمْ حُجَّةً وَبِرْهَانًا. صَدَعَ بِالرِّسَالَةِ، وَبَلَغَ بِالذَّلَالَةِ، وَنَقَلَ النَّاسَ عَنِ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. أَرْسَلَهُ اللَّهُ قَمْرًا لِلْإِسْلَامِ مَنِيرًا، وَقَدَّرَا عَلَى أَهْلِ الضَّلَالِ مَبِيرًا. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. خَيْرٌ مِنْ افْتَتَحَتْ بِذِكْرِهِ الدَّعَوَاتُ، وَاسْتَنْجَحَتْ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ الطَّلِبَاتُ. خَيْرٌ مَبْعُوثٌ، وَأَفْضَلُ وَارِثٌ وَمُورِثٌ. وَخَيْرٌ مَوْلُودٌ، دَعَا إِلَى خَيْرٍ مَعْبُودٍ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ كَاشِفُ الْغَمَّةِ عَنِ الْأُمَّةِ. النَّاطِقُ فِيهِمْ بِالْحِكْمَةِ، الصَّادِعُ بِالْحَقِّ، الدَّاعِي إِلَى الصَّدَقِ، الَّذِي مَلَكَ هَوَادِي الْهَدْيِ، وَدَلَّ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ وَأَبْقَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِشِيرِ الرَّحْمَةِ وَالثَّوَابِ، وَبِذِيرِ السُّطُورَةِ وَالْعِقَابِ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَلَى أُمَّتِهِ بِرَبِّتِهِ خَيْرًا وَفَضْلًا، وَأَطْيَبَهُمْ فِرْعَاً وَأَصْلًا، وَأَكْرَمَهُمْ عَوْدًا وَنَجَارًا، وَأَعْلَاهُمْ مَنْصَبًا وَفَخَارًا، وَعَلَى أَهْلِهِ الَّذِينَ عَظَمَهُمْ تَوْقِيرًا، وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيرًا هُمْ مَقَالِيدُ السَّعَادَةِ وَمِفَاتِيحُهَا، وَمَعَارِجُ الْبُرْكَاتِ وَمَصَابِيحُهَا. أَعْلَامُ الْإِسْلَامِ وَأَيْمَانُ الْإِيمَانِ. الطَّيِّبُونَ الْأَخْيَارُ، الطَّاهِرُونَ الْأَبْرَارُ. الَّذِينَ أَذْهَبَ عَنْهُمْ الْأَرْجَاسَ، وَجَعَلَ مَوَدَّتَهُمْ وَاجِبَةً عَلَى النَّاسِ. هُمْ حَبْلُ الْهَدْيِ وَشَجَرَةُ

الإيمان، أصلها نبوة، وفرعها مروءة، وأغصانها تنزيل، ورقائها تأويل، وخدمتها ميكال وجبريل.

وليدع الزمان إلى بعض الأشراف في درج كلام تقدّم: إن جعلنا نعدُّ فخاركم، ونحُدُّ أثاركم، نغد الحصى قبل نفودها، وفنيت الخواطر، قبل أن تفنى المآثر، ولم لا؟ وإن دُكر الشرف فأنتم بنو بحدته، أو العلم فأنتم عاقدو إزرتة. أو الدين فأنتم ساكنو بلدته، أو الجود فأنتم لابسو جلده، أو التواضع صبرتم لشدته، أو الرأي صلُّتم بحدته، وإن بيتاً تولى الله عز وجل بناءه، ومهدّ الرسول عليه السلام فناءه، وأقام الوصي رضوان الله عليه عماده، وخدم جبريل عليه السلام أهله، لحقيق أن يُصانَ عن مدح لسانٍ قصير.

وذكر النبي، صلى الله عليه وسلم، أعرابيُّ فقال: بأبي وأمي رسول ربِّ العالمين، ختمت به الدنيا، وفتحت به الآخرة، صلى الله عليه وسلم، به يبدأ الذكُّر الجميلُ ويختم.

إلى هذا المكان أمسكت العنان. والإطنابُ في هذا الكتاب يعظم ويتسع، بل يتصل ولا ينقطع؛ إذ كان غرضي فيه أن ألمح المعنى من معانيه، ثم أنجرّ معه حيث أنجرّ، وأمرّ فيه كيف مرّ، وأخذ في معنى آخر غير موصول بشكله، ولا مقرون بمثله، وقد أخلّ نظاماً، وأفرد توأماً، تشرّاً لبساط الانبساط، ورغبة في استدعاء النشاط. وهذا التصنيف لا تُدرِك غايته، ولا تبلغ نهايته، إذ المعاني غير محصورة بعدد، ولا مقصورة إلى أمد. وقد أبرزت في الصدر، صفحة العُدْر، يجلو فرندها، وبتقبُّ زندها، وذلك أني ما ادّعيْتُ فيما أتيتُ إلا ما لا يكون ما تركته أفضل ممّا أدركته، وأنّي لم أسلك مذهباً مخترعاً لم أسبق إليه، ولا قصدت غرضاً مبتدعاً لم أغلب عليه، ومن ركب مطية الاعتذار، واجتنب خطية الإصرار، فقد خرج من تبعّة التقصير، وبرى من عهدة المعاذير.

وأما بعد، فإن أحق من احتكم إليه واقتصر عليه الاعترافُ بفضل الإنصاف، وليعلم من يُنصف أنّ الاختيار ليس يعلم ضرورة، ولا يوقّف له على صورة، فيكثر الإغماض، ويقلّ الاعتراض، ويعلم أنّ ما لا يقع بهواه، قد يختاره سواه، وكلّ يعمل اقتداره، ويحسن اختياره، فلو وقع الاجتماع على ما يُرضي ويُسخط، ويثبت ويسقط، لارتفع حجاج المختلفين، في أمر الدنيا والدين.

وقال المتنبي: البسيط:

تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لَا اتَّفَاقَ	إِلَّا عَلَى شَجَبٍ وَالْخُلْفُ فِي
لَهُمْ	الشَّجَبِ
فَقِيلَ: تَخَلَّصُ نَفْسِ الْمَرْءِ	وَقِيلَ: تَشْرِكُ جِسْمِ الْمَرْءِ فِي
سَالِمَةٍ	الْعَطَبِ

الشجب: الموت، وهي لفظة معروفة، وإن كانت غير مألوفة عند أهل النقد. وقد أنكرها البحري على عبيد الله بن عبد الله بن طاهر في مجاذبته إياه حيث يقول: الخفيف:

وَلَوْ أَنَّ الْحَكِيمَ وَازَرَ فِي آلِ

لَفَظٍ وَاخْتَارَ لَمْ يُقَلِّ شَجَبِيهِ

وكان أبو الطيب نظر إلى ما رواه أبو ظبيان، قال: اجتمع نفرٌ من أهل الكلام على رجل من الملحدين، فجعلوا لا يأتون بمسألة إلا سألهم الدليل عليهم، وناقضهم فيها، فأعياهم كثرة ما يقول ويقولون، فقال بعضهم: أمّا بعد، فإن الموت لا شك فيه، فقال الملحدي: ما رأيتُ خاطباً وواعظاً وشاهداً لا يُردُّ أوجز منه، وقلما ترى معني إلا وهو

يدافع أو يناقض، ويُجَارُ به عن سواء المحجة. وقيل: من طلب عيباً وجدته. قال أبو عمرو بن سعيد القطريلي: ليس من بيتٍ إلا وفيه لطاعنٍ مَطْعَنٌ، إلا قول الحطيئة: البسيط:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ  
جَوَازِيَهُ

وقول طرقة بن العبد: الطويل:

سَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ  
جَاهِلًا

وقول علي بن زيد: الطويل:

عَنْ الْمَرْءِ لَا تَسَلُ وَسَلْ عَنْ  
قَرِينِهِ

فكل قرينٍ بالمقارنِ مُقْتَدٍ

وللعلم بذلك قال قتيبة بن مسلم لأبي عيَّاش المنتوف، وقد دخل عليه وبين يديه سلة زعفران: أنشدني بيتاً لا يصارف ولا يكذب وهي لك، فأنشده ما ليس لطاعن فيه مطعن: الطويل:

فَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ كُورِهَا